
رواية
شظايا
قبل الانفجار
الروائي
أحمد إبراهيم محمد
EBDA

إسم الرواية : شظايا قبل الأنفجار

الروائى : أحمد إبراهيم محمد

إصدارات إبداع للتنمية الثقافية

مدير عام / عادل أمين

رقم الإيداع : 9690 / 2016

الترقيم الدولى 2-32-6491-977-978

الطبعة الأولى مايو 2016

العنوان / 16 شارع محطة مترو منشية الصدر القاهرة

برج زمزم حدائق القبة

بسم اللــه الرحمن الرحيـــم

الفصل الأول

شتاء الأسكندرية 2011

وظل الجو السيىء مقيما فى الأسكندرية لا يبارحها وأيام الصحو تبدو ذكرى .

وعلى الرغم من ذلك تأتى أيام قليلة كان الريح يهدأ ، وكان الهواء يسكن شيئا بعد شيىء . الجميع واثق من أن كل مايحدث فى هذا البلد ، عارض زائف . لكن ، هناك ، ومضات ضوء خافت ، تجتذب أناسا آخرين ، معظمهم من الشباب . فى تلك الأيام .. لم يتمالك المصريون الذين أتسع لهم الزمن مجالا ليشاهدوا اللحظة التاريخية بأنفسهم ، وداسوا نظاما شاخ فى كراسيه .

ضرب زلزال التغيير مصر كلها ، وركب البلد عفريت المظاهــرات تجتاح كل شبر فيها . وبعد كر وفر وصد ورد جاء الختام مقتضبا وبمنطق " سلم وأستلم " تخلى الرئيس وتولى الجيش .

وحين أفاق الجميع أكتشف أبناء الوطن أن خيرات الوطن أبتلعها الأب الحكيم وأسرته وحاشيته ، ولم يبق سوى ذكريات عن ثروات وطن .

كانت ثورة أو ربما هوجة .. أشتعلت العقول والقلوب بالحماسة .. حماسة التغيير والاشتياق لاثبات الذات .. الكل تسابق لاسقاط قاعدة ان المصريين شعب لا يهش ولا ينش ، فغاب العقل فى غفلة من الزمن .. خرج المارد المصرى من قمقمه .. خرج وخرجت معه كل الشوائب والعيوب .. فى حالة من اللاوعى الجماعى تسرب من بين المصريين أشكال وسحنات تنازعت عقول المصريين وكسب وعيهم .. خرجت مجموعات قناعها الدين تصول وتجول بلحية وجلبابا قصيرا يفتى ويكفرمهـللا بفتح أسلامى جديــد .. والثانى علمانى ليبرالى ديمقراطى يسارى أشتراكــى سميه ماشئت وهم كغثاء السيل ، الواحد منهم له لسانين فوق لسانه ، فمنهم من يطلق ثلاثين أو أربعين كلمة فى الدقيقة وبعضهم يقل أو يزيد ، يعشقون النجومية ويحبون الكاميرا وهى تحبهم .

وكأن هذا الشعب يولد من زمن عاقر؟ .

كشفت لنا ثورة يناير أن الشهوة لها وجوه كثيرة . الثورة فجرت شهوة الكلام ، وهرع محترفوه الى الفضائيات ،يشبعون نهمهم . أنهم يتصارعون على أمتلاك أذنك ، فان لم يستطيعوا فانهم يحتالون لأستئجارها ، فى لحظة تكون فيها مسروقا أو مغيبا .

الأسكندرية بعد ثورة يناير جرحت جرحا عميقا فى خصائصها وثوابتها ، ولم يخلو المشهد فيها من تبعات الثورة . صالت وجالت الفوضى فى كل شبر فيها ، البلطجة هى القانون السائد ، فجأة ضاقت الشوارع بالسيارات وعاش أهالى الأسكندرية محبوسين فى المواصلات ، فوضى البناء بلا ضابط ولارابط وأصبحت المدينة مهددة بأنهيار نصف عقاراتها ، ناهيك عن القمامة التى نستأنس بها وتستأنس بنا خلاف السرقات والسطو ، حتى أصبحت الحياة فى الأسكندرية زوبعة تجرفنا وندور معها فشاخت "عروس البحر" لتتحول لـ " عجوز البحر الأبيض المتوسط ".

فقط وحصريا .. فلت هذا المبنى المهيب الكئيب بأسواره العالية الغاضبة من سيناريو الفوضى . هنا فقط نقطة نظام أستثنائية . كلما أقتربت خطواتك بأتجاه موقعه تحيطك الكآبة وينتابك الحذر . أنه سجن النساء . يبدو مشهده من الأعلى معقدا ، قابع فى رقعته ساكنا كالصخرة تصعب على العين هضم تفاصيله ، الأسوار تتخلل كل فراغاته . أشباح كالظلال تتحرك مكفنة بالبياض.. حركة حائرة.. يحتويك أحساس مفاجىء يخبط نقطة ما فى رأسك تنبىء عن حقيقة واضحة مفادها : مهما بلغت ألاعيب الحياة معك وسحبتك الى ما بين ساقيها وهضمتك بعصارتها وطحنتك ثم لفظتك فضلات تحمل رائحتها ، أهون ألف مرة من ساعة تقضيها محصورا مكدسا فيما لا يتجاوز المترين .

عنبر "ج" .. عتيق بلالون .. بهتت كل ألوانه ، جدران وأرضيات وأسرة ترجع إلى عصور الجريمــة البدائية مرورا بكل مراحل التطور الأجرامى نهاية بسرقة "التكاتك " .

الحياة كلها هنا مسجونة بين تلك الجدران . عند آخر ضوء للنهار كما أعلنت تلك النافذة العالية الوحيدة والمحبوسة أيضا داخل أطارها التى تقاطعت داخله أسياخ حديدية طولا وعرضا ، يتخلل منها الضوء الأخير للنهار يفضح مقتنيات العنبر .. سراير حديدية عتيقة من طابقين تملأ نصفه ، كل زوج منهما موصول بسلم معدنى صغير ، منضدة خشبية متوسطةمتأكلة تبعثرت فوقها زجاجات المياة ، أطباق يستحيل التوصل الى لونها الاصلى ، أكواب ، أعقاب سجائر .. فى الصدارة أنتصب دولاب حديدى قديم مطعون فى كرامته الحديدية حيث أعتلاه الصدأ حتى بلغ قامته ، يضم داخل جثته ألبسة وغيارات داخلية دارت على معظم أجساد من فى العنبر ، تحته أحتجبت مجموعة شباشب متوارثة من السابقون

السابقون ، دائما ما يجمع كل ما على الأرض ويرمى به فوقه أو يسحلوه تحته درءا لأحتجاجات الصول " عفاف " مسئولة الأمن والحراسة فى العنبر ، نفس النمط الحجرى التقليدى لمنصب السجانة ، تبدومكونات شخصيتها كما جسدتها الدراما المصرية ، أضافت عينيها الضيقتان فى وجهها الخمرى المسحوب المسنود على جسد خشبى خالى من المرونة رسالة تصيب ما تصيب قدرا من الرعب فى القلوب ، الوعيد والتهديد هما لغتها المفضلة ، ثلاثون عاما من الخدمة فى سجن النساء أنتجت أنطباعا ثابتا لايتغير بأنها امرأة بلا هوية .

لم ينس ضوء الزوال المتخلل من النافذة أن يودع وجه " هدى " التى تقوست فى مكانها مولية ظهرها لباب العنبر تكافح فى سد ثقوب جوربها الصوفى الذى أعلن التمرد أكثر من مرة معترضا على فعل الرطوبة . بالرغم من سنوات السجن والأكتئاب وتخطيها سن الأربعين بعامين إلا أن جسدها مازال رشيقا كالرمح مشدودا ووجها له خصوصية ، فيه نعومة ورقة سوليفان ... توشك ان تبلغ أقصى ما يمكن أن تبلغه النعومة والرقة فى وجه من الوجوه ، وجها له أستدارة خفيفة ، جبهة عالية بمقدار يحرسها أنف بأرتفاع طفيف، تسكنها عينان سوداوين ، تحملها ساقين مشدودتين ومسحوبه بأنسياب يحاكى بقية أجزائها ذات التعاريج والأنحناءات والأستدارات ، فبدت مستديرة فى كل شيىء ، وجهها وشعرها وعيناها و نهداها .. وحتى حوضها وهى تجلس . بينما فى تلك اللحظة قطعت " فايزة " طريقها داخل العنبر باتجاه رفيقة الأسر"هدى"بعد نهاية يوم عصيب فى غرفة الغسيل الملحقة بالعنبر ، تقترب بخطى مختالة باليونيفورم التقليدى للسجن ، جلباب أبيض يكسوها من العنق إلى الذيل يرتج داخله جسدها المدكوك .. تستأنف بخترتها بعد أن لطشت بيمناها مؤخرة " صباح " التى أنحنت مدلية راسها تعاين ما بين فخذيها عن ما تبقى من النقاط الأخيرة لدورة شهرية على وشك الرحيل قبل أن تبدى فايزة ملاحظة واجبة : كفاية أرف ياختى ده مكان بنتخمد فيه .. مصمصت شفتيها قبل ان ترفع رأسها : أنا الحمد للـه لسه صغيرة ومواسيرى شغالة وسالكة و الدور والباقى على اللى مواسيره مصدية .. ختمت جملتها بصهللة لها رنة كعادتها ، من الثابت هنا أن اللون الأحمر هو اللون الرسمى الذى يصبغ الملابس و الحمامات مع بدايات كل شهر حسب ما تجود به دورتهن الشهرية ، غير أن هناك ملاحظة رائعة دائماما تطلقها الصول "عفاف " : تلاقيكم بتعوروا نفسكم يانسوان بالأسم!!.

دارت " فايزة " بعينيها الواسعتين على السجينات فى محيط العنبر وهى تجر خلفها ردفاها السمينتين قبل أن يسبقها كفها بلمسة خفيفة على ظهر هدى حين أقتحمت محيطها .. التفتت اليها بعد أن سحبت

نفسا عنيفا : بقالى ساعة بأرمم فى المنيل ده .. أنحنت إليها هامسة كأنما تفضى بسر قبل أن تخطف من يدها الجورب المريض وأطاحت به بين السريرين : سيبك من المنيل ده وأسمعى حاقولك أيه ..ثم خلعت شبشبها وأراحت مؤخرتها على حافة السرير . فأردفت هدى : خير يافايزة قولى عندك أيه ؟ .. بلهجة بين المرح والجد بعد أن طافت بنظرتها بين وجوه زميلاتها اللاتى أنشغلن فى أحاديث مكررة ومعادة : عندى لكى خبرين زى النارالأولانى نص نص أما الثانى فبعد أذن المولى حيكسر الدنيا .. أغمضت هدى عينيها نصف أغماضة وأهتزت كفقى فى مأتم : قولى.. دست يدها داخل طوق الجلباب الميرى ونبشت بأصابعها داخــل حنايا الصدر الكبير الباهظ ، سحبت من بين الشوالين " صبع روج " رمقته هدى بدهشة بعد أن زال ترقبها : أيه ده يافايزة ؟ .. أهتز رأسها الملفوف بالحجاب على أثر ضحكة سأخرة : اللــه يخيبك يافايزة .. عاجلتها وحشرته بين يديها مصحوبا بضحكتها المجلجلة التى تقاوم بها دائما أيام سجنها عكس هدى التى لاتستطيع أن تضحك مثلها وان أرادت ، تخرج ضحكتها مبتورة ، مكتومة ، تسبقها يدها الى فمها ، تكاد تخفيه ، تحول دائما بينه وبين الضحك ، ليس هذا هو الفارق الوحيد بينهما بل النشأة والتعليم والطباع ، فبالرغم من الحالة المزاجية العنيفة والمندفعة لفايزة والعدوانية فى كثير من الاحيان وحصولها بجدارة على لقب " فايزة عكننة " المتداول على ألسنة ساكنى العنبر،إلا أن هدى أحبتها فألتصقت بها بعد أن عرفتها وفهمت طبيعتها وأن طباعها ماهى إلا قشرة تغطى شخصيتها وأن داخلها ضعفا وانكسارا ، فأزدادت أقترابا منها حتى لقد أصبح عليها نوع من التأثير يشبه السحر وغيرت فيها شيئا متوحشا لم يروض ولم يستأنس من قبل ، فى حين أشتهرت هدى داخل السجن بأنها مطفأة للحرائق التى تندلع كل ساعة داخل العنبر بسبب أو بدون بما تملكه من هدوء وحكمة .

أخترقت نظرات " توحة مساج " المنبطحة على بطنها من مكمنها بالسرير العلوى فى الصف المواجه بعد أن مطت رقبتها ورفعت رأسها وهى تداعب شعرها تسحبه بأصبعيها فى عصبية تغذيها بعض السخونة بعد أن لمحت "صبع الروج" يتلاعب أمام عينيها على هات وخد المتداولة بين هدى وفايزة وما أدراك بما تمثله أدوات المكياج فى تكوين شخصية " توحة " فهى جزءا من حاضرها قبل أن يكون ضروريا فى ماضيها خاصة بعدما ألتحقت بالعمل فى أحد مراكز ما يسمى بالعلاج الطبيعى والمساج بمدينة الغردقة وبعد أن أجتازت دورة تدريبية وتم صقلها تحت أشراف ورقابة المركز حسب المنهج العلمى الحديث للمساج ، فكان لها بصمة وأضافات خرجت به من التقليدية إلى الأبتكار ويحسب لها تخصصها فــى فرع واحد ونوعية واحدة " رجالى فقط " برعت فى فنون التدليك وخاصة التصاعدى

منه " من تحت لفوق " متحاشية منطقة الظهر والبطن والفخذين بأستثناء ما بينهما فأتقنت التعامل مع هذا الجزء مستفيدة من خبرتها الطويلة فى ذلك المجال منذ أن كان لها تواجد دائم ومكثف فى معظم الشقق المفروشة بمنطقة المعمورة ، فقدمت خدماتها لكل فئات الوطن وتحمل جسدها كل المقاسات والاوزان . غير أن عملها قد توقف فجأة منذ عام تقريبا حين تم ضبطها داخل المركز عارية تماما فى واحدة من غارات مكتب الأداب فى غفلة من مجموعة المراقبة والتأمين المنوط بها حماية المركز ، فخرجت فى زفة ميرى كالملائكة ملفوفة فى ملاية سرير بيضاء يشاركها الغطاء أخ شقيق من الخليج ! .. عاجلتها المحكمة بثلاث سنوات مع الشغل والنفاذ لممارسة الدعارة .

أستشاطت " توحة " غضبا ، خرج صوتها عدائيا محتجا بأتجاه فايزة بعد أن سبقتها أقدامها نزولا على السلم المعدنى صارخة : يعنى أنتى اللى سرقتى صبع الروج يافايزة .. أنتبهت الأخيرة لكلماتها فرمتها بنظرة نارية ممتدة تنذر بشر مستحكم ونبرة متوعدة : يعنى أنا حرامية يابت .. قبل أن تؤكد لها توحة نفس الصفة وتلصقها بها ، بادرت هدى هامسة لها : كبرى دماغك يافايزة وبلاش مشاكل. إلا أن نداء توحه لها كان كافيا لأستدعاء غضبها : أيوه أنتى اللى حرامية يافايزة . نهضت فى قوة من مكانها بعد أن أطاحت بهدى على جنبها الأيمن وركضت مندفعة بأتجاه توحة كالثور فى حلبة مصارعة وهى خافضة الرأس ، تدوس الأرض بقدميها حتى بلغتها فتحولت كل العيون نحوهما حين أمسكت بطرفى جلباب توحة وهزتها هزأ عنيفا وأشهرت أصبعها وغرزته فى صدرها : فايزة مش حرامية ياتوحة مساج .. بنبرة ضعفت حدتها : لأ حرامية يافايزة ياعكننة .

ـ طب ورحمة أبويا لأعرفك مين هى فايزة عكننة .. أنقضت عليها فضربتها شلوتا على قفا ساقيها فأنثنت ركبتها ونزلت توحة على الأرض بتلقائية لتحمى رأسها، لم يعد المشهد حركيا فقط بل كان مصاحبا لصخب هادر من حناجر مختلفة النبرات والنغمات تهز أرجاء العنبر وإن أشتركن جميعا فى مقاس اللسان الطويل .. اندلعت الصيحات والشتائم وأختلط الحابل بالنابل بينما لازالت توحه جاثمة على ركبتيها وفايزة فوقها تدق رأسها وكتفيها وعمودها الفقربوهى تصرخ بعد أن تشبثت أصابعها فى شعر توحة التى ترنحت رأسها ذهابا وعودة : أنا فايزة عكننة يابت أنا الشرف والعفة مش زيك يامرى ياللى موزعة جسمك صدقة جارية : أندفعت إليها هدى حين شعرت أن الأمور تجرى على غير ما يرام وقبل أن تتسع ساحة المعركة للجميع بعدما لمحت " حكمت وعواطف " ومن خلفهما " صباح " وقد شمرن عن سيقاهن اللاتى بدت مشعرة كسيقان الرجال ، صرخات متنوعة الرنات يتبعها لطم ونواح عندما

وطأت أقدام هدى جبهة القتال فى حين ظلت فتحية تطل برأسها من سريرها العلوى وقد فاجأتها الحالة المرضية المعتادة التى تنتابها عند رؤية مشاهد الضرب والهياج فتصاب برعشة تطال جسدها كله مصحوبة بصراخ لا يهدأ إلا بعد أن تسلخ فروة شعرها هرشا فتبدو كالمصابة بالجرب ، تصدت لها هدى بعـد أن أفلتت يدها من شعر توحة تحاول لجمها ، رفعت أصبعها على فمها وهى تتجول بعينيها فى وجوههن : بس اتكتمو بقى اللــه يخربيتكم .. ثم واجهت فايزة بدفعة بكفها فى صدرها قبل أن ترميها بنظرة أقنعتها بالكف والتراجع ، فخضعت وانزاحت تاركة توحة جاثمة على ركبتيها وقد أنتفض شعرها من جذوره قبل أن تنهار أرضا ليتراكم حولها ساكنى العنبر حيث تم سحبها من أرض المعركة فى حين بدا الأمر مرهقا لهدى وهى تحاول جذب فايزة من كتفها وأن أحالت استدارته السمينة على أن تقبض عليه بأصابعها ، فشبكت كفيها حوله وسحبتها كخروف العيد باتجاه السرير تصرخ فيها : أمشى معايا ولمى نفسك .. أشاحت بنظرها ناحية توحة المهزومة قبل أن ترخى جفنيها متقبلة دفع هدى لها وقد أتخذت طريقها راجعة لسريرها بعد أن أحكمت طرفى طرحتها حول رقبتها ، بينما أصبحت توحة كبقايا أمرآة مفككة العظام فأستعانت بكتفى "عزيزة ونادية " كعكازين حين حاولت القيام من مكانها .. تحركتا بها ببطء قبل أن تميل هامسة فى أذن عزيزة كأنها تتلو وصيتها الأخيرة : طلعينى ياختى على السرير وغطينى .. تقاسمتا فردتى مؤخرتها لتدفع كل منهن فردة فوق درجات السلم صعودا حتى بلغت حدوده ثم زحفت عليه منبطحة وهى تتوجع: ربنا يشل أيدك يافايزة ويهد حيلك ياقادر ياكريم .. أنهت الدعاء ثم طلبت سيجارة من نادية .

هدأت الأمور دفعة واحدة وكأن شيىء لم يكن ، تابع الجميع سيرهن نحوأسرتهن بوجوه موصدة لاسبيل إلى النفاذ اليها وكانهن يستنكرن فى قرارة نفوسهم هذا الأضطراب كله . أنقضت دقائق خفتت فيها الأصوات قبل أن تمد فايزه يدها داخل حفرة فى المرتبة التى أصبح القطن فى أحشاءها ذكرى فى حين تابعتها هدى بضيق وهى تسحب من الفتحة علبة سجاير كليوباترا بدت محنطة وكانها أخرجتها من تابوت .. جلست أمامها صامتة حين رمقتها بنظرة تحمل آثار فعلة لاترضى عنها صديقتها فخرج صوتها مكتوما : واللــه ماكنش قصدى فى كل اللى حصل ده .. بأحباط نهضت هدى فواجهتها فايزة : أقعدى بقى وأهدى وماتكبريش الحكاية.. تنفخ فى ملل : أنتى مافيش منك فايدة كل مره تعملى مصيبة وتقولى ماكنش قصدى .. هكذا هى دائما فايزة تنقاد سريعا لانفعالها ثم تتراجع نادمة ، فقد سجل لها التاريخ موقفا عظيما داخل السجن فى أعقاب ثورة يناير حين تواترت الأخبار محمومة عن أقتحام معظم سجون الرجال وأطلاق سراحهم على يد مجموعات مسلحة ومنظمة لايعرف حتى الأن من أى جهة

قدموا ومن الذى دعم وخطط ولا حتى من قام بتوجيه ضربة أستباقية لمعظم اقسام الشرطه واطاحت بالجهاز الأمنى كله خارج المشهد ، حينها أبت فايزة على نفسها أن تقف مكتوفة الأيدى فقادت بنفسها مظاهرة حاشدة تصدرتها معظم السجينات اللاتى يمتلكن رصيدا لابأس به من السوابق امثال (ناديه الحربايه وصباح أحتقار وسلمى مافيش مانع) بينما فى الخلفية لفيف لا يستهان به ، وعند اكتمال الحشد رددن الجميع خلف فايزة شعار الحرية "الشعب يريد فتح السجون" ، لم تهدأ حناجرهم لساعة كاملة بلا انقطاع حتى وافق مأمور السجن على مقابلة وفد منهن تزعمته فايزة وبعض من السابق ذكرهن ، دام الأجتماع ثلاثة ساعات فى مكتب المأمور حضره مجموعة من السجينات وضابطات السجن وبعض السجانات المكلفين بالحراسة وضبط الأمن داخل العنابر ، انفض الأجتماع ولم يعد الوفد إلى الزنازين بل تم أستضافته بالكامل فى مستشفى السجن حيث كانت آثار الأجتماع واضحة وضوح الشمس فكانت فايزة تعانى كسورا مختلفة ومتنوعة وسحجات بالجبهة وتورم بالعينين والصدغين وأصبح اللون الأزرق هو صاحب المساحة الأكبر فى جسمها خلاف الدوائر الرمادية التى طبعت على جلدها نتيجة شحنها هى ورفيقات الكفاح بجرعة مكثفة من الكهرباء تكفى كما اشيع يومها لأضاءة شقة مكونة من غرفتين وصالة .. عشرة أيام بالتمام والكمال داخل المستشفى ثم خرجن بعدها محملين بكمية وافرة من التهديدات والتحذيرات وبعض الأصابات التى رافقت بعضهن حتى اليوم ، حيث لازالت تعانى صباح بطنين مستمر بالاذن اليسرى مع عرج خفيف أصاب الساق اليمنى لشاديه فى حين خرست تماما "سعدية "وفاءالنصيحة من الصول " عفاف " عقب " العلقة " : أياك أسمع صوتك تانى وبقك ماينفتحش غير للأكل و بس .

حالة من الأنتباه المفاجىء سرت فى الأجساد المنهكة والمسترخية فى العنبر حين أقتربت أقدام الصول "عفاف" بأتجاه باب العنبر لتمد وجهها الشمعى المتصلب تتلصص بين قواطعه الحديدية ، تفتش بنظراتها بين المنزوين داخله ، تتشمم بفتحتى أنفها عن أى رائحة غريبة حيث أن المخدرات داخل السجن تتداول بوفرة تكفى وتفيض وأحيانا تصدر خارجه !! .. تململت فى وقفتها قبل أن تصفق بكفيها كمسحراتى رمضان بعد أن زجرتهم بنظرة : أطفى النور يابت أنتى وهى وياله أتخمدوا .. قالتها وأنصرفت ، أشارت هدى بيدها : أطفى النور ياحكمت ، التى قامت ببطء بعد أن أنهت أقتسام قطعة حشيش مع عزيزة ، أنطفأت لمبات النيون الأبيض لتحل محلها أضاءة صفراء بلون الكركم كان مصدرها لمبتان " سهارى" بحجم البيضة البلدى احالت شكل العنبر إلى سجن من عصر المماليك وجعل لون الوجوه وكأنها قد اصيبت بمرض الصفرا ..

بعد أن خطفت بعينيها خطفة من وجه هدى الواجم شدت فايزة جسمها واقفة وبنبرة تهديد : ورحمة أبويا ياهدى لوما فردتيش وشك وتعدلتى حاروح أجيب البت توحة من شعرها حأكمل عليها وأخليها ليلة سودة .. كان صوتها مجلجلا ، فضحكت المنبطحات والجالسات والمثرثرات ، كانت ضحكتهن جميعا ضحكة رضا وتواطؤ . أبتسمت هدى . خرج صوتها متعبا : طب تعالى أقعدى جنبى .. ألتصقت بها مستسلمة : أنتى قلتى عندك خبرين .. خبر قلتيه وكان حيعمل لنا كارثة فى العنبر ياترى الخبر التانى زيه .. سألت هدى ، أقتربت منها فى حماسة ماتنفك تزداد : حتة خبر لو طلع صح السجن كله حيتقلب .. لم تتمالك ملامحها تصريحات فايزة ، فتناثرت الدهشة والترقب فيها : خبر أيه ده اللى حيقلب السجن .. تمتمت بصوت خفيض : النهاردة قبل ما أدخل وردية الغسيل شميت ريحة قلق ولما نكشت وسألت من تحت لتحت .. أردفت قبل أن تتوقف عينيها ناحية سرير " أم السيد" ورفيقتها " بحرية " وهما سجينتان تخطاهن الزمن وأصبحتا نسيا منسيا فى السجن ، كل من فى العنبر بدأ محكوميته فى ظل وجودهما ، لا تفترقان أبدا وبالكاد تتذكر " أم السيد" فعلتها التى جاءت بها إلى هنا فى حين نسيت " بحرية " تماما مدة عقوبتها . صرخت فيهما فايزة : نامى يانانا أنتى وهيه بدل ما أنتو قاعدين مبحلقين كده .. تابعت هدى ما ستفسر عنه كلمات فايزة القادمة التى واصلت همسها : عرفت أن مأمور السجن بيجهز كشف بأسماء المساجين وحيبعتهم لمصلحة السجون . ضاقت عينيها : يعنى أيه مش فاهمة ؟ .

ـ الكلام اللى وصلنى أن فى أوامر جت لمصلحة السجون من فوق أوى عن عفو كبير عن المساجين وهمه دلوقتى بيحضروا أسامى اللى حيفرجوا عنهم .. تسمرت حدقتيها على وجه فايزة بنظرة ذاهلة دون أن تهتدى لجملة معبرة من بين جمل كثيرة متضاربة ، حبست أنفاسها وسكنت كما لايسكن المرء إلا حين ينام ومرت بها لحظة رهيبة رثت فيها نفسها . أحست بالدموع تتجمع فى عينيها ، فأحكمت حجابها حول رأسها وأنسحبت للوراء مستندة إلىظهر السرير . لم تنجح محاولاتها فى أغماض جفنيها لحبس دموعها التى أنهمرت منها حين أشاحت بنظرها فى بطء ناحية نافذة العنبر بوابة العيون التى تربطهم بالخارج ، وضعت كفيها على فخذيها بطريقة عابرة . لم تشأ أن تغرق فى تفسير أو تحليل كلمات فايزة بل بدأ صوتها كأنه يشق الأرض ويخرج من أعماق مجهولة : ياه .. ياه يافايزة بتقولى عفو عن المساجين .. بأصرار : أيوه ياهدى البلد فيها ثورة دلوقتى وبينى وبينك المشرحة مش ناقصة رمم .. تابعت فى ثقة : يعنى لازم حيخرجونا وأنا كلمتى ماتنزلش الأرض أبدا .. واجهت كلمات زميلتها وعيناها لا تزالان مصوبتان ناحية النافذة ، من يراها فى تلك الحالة يحسبها تتأمل الجزء الضيق من

السماء بحجم النافذة ، بينما هى فى الحقيقة تتأمل جزءا مضيئا من أيام كاملة عاشتها فى فترة شبابها ، بينما "توحة مساج" من سريرها العلوى تتابع همسهما وقد أختبأ نصفها داخله ، فى حين أنشغلت فايزة بأخراج سيجارة من علبتها وراحت بعفوية تعد السجاير القليلة الباقية قبل أن تشعل واحدة منها ، نظراتها النارية ظلت مصوبه نحو" توحة " كما ظل عود الثقاب مضغوطا بين أصبعيها ، ترقبها الأخيرة بقلق لأن ما تبقى لها من سجائر ، قد لا يكفى لأمتصاص كل غضبها ، تنفث دخانها ببطء وتلذذ قبل أن تطرده من أمامها فى تبرم وألقت ببصرها ناحية هدى التى كانت تتنهد فى أسى ، تزفر جراحها المكتومة فى الأحشاء ، تمتمت : تسع سنين هنا يافايزة وكأنهم تسعين سنة .. تنصت لها بتأثر وقد غضت عينيها وما بين حاجبيها .

تحاول هدى أن تستعيد الأحداث بتراتبها ، كما تواردت إلى ذهنها وكما تتراءى لها عن بعد ممتد إلى اللحظة الراهنة . عادت بها الذاكرة إلى تلك الأعوام البعيدة ، يالذاكرتها ، فقد كادت تغيب عنها تلك الأيام ، لم تتذكرها أبدا إلا فى هذه اللحظة ، تذكرت وقائع بأكملها من حياتها ، كانت صور الوقائع تتلاحق كالشرائح . آجل ، فى ذلك المساء البعيد حين أضطربت وتحرك شيىء ما بداخلها بعد أن أبصرت وجه " نديم " لأول مرة ، كان ذلك فى مكتب " الحاج قبارى " للأستيراد والتصدير فى منطقة المنشية والتى تعمل فيه منذ عام تقريبا بعد تخرجها مباشرة من المعهد الفنى التجارى وبعد وساطة " عم مرتجى " الذى يعمل بالمكتب منذ سنوات طويلة وجارعمتها التى تقيم عندها بمنطقة محرم بك بعد وفاة والدها حين كان عمرها لا يتجاوز الثامنة بينما والدتها فقد حجبها عنها جدار أعتلى وأتسع مع مرور الأيام بعد زواجها من آخر فى أقل من عام قبل أن تتعفن جثة المرحوم وترحل معه إلى طنطا حيث موطن الزوج وعمله بمديرية الزراعة ، حينها فضلت هدى الأقامة مع عمتها التى تعيش وحيدة بعد وفاة الزوج وعدم الانجاب . فى فترة قصيرة أنصرفت هدى بكل كيانها إلى العمل الذى أتاحه لها " الحاج قبارى " ، وجدت فيه أشباعا وأكتمالا لم تعرفهما من قبل ، فتولت معظم أعمال المكتب بعد أن آلت لها ملكية مراجعة دفاتر الحسابات والضرائب والتنسيق مع مستخلصى الجمارك بعد رحيل الأستاذ " عبد الفتاح " مسئول الحسابات إلى العراق التى فتحت أبوابها وشبابيكها لكافة المصريين فى تلك الفترة حتى أكتظت بغداد وما حولها بملايين المصريين و كان يقال وقتها أذا غاب المصرى عن منزله فى مصر لأكثر من ثمانية وأربعين ساعة تجده فى العراق .

ـ مساء الخير .. الحاج قبارى موجود ؟ كانت تلك أول جملة نطق بها " نديم " فى أول زيارة له لمكتب الحاج قبارى .. رفعت عينيها اليه وهى تجلس خلف مكتبها ، لم تستطع الرد ولا حتى أن ترخى جفنيها أمام نظراته ، حيث أن له نظرة قوية نافذة يحدق إلى الناس وإلى الأشياء بعينين صارمتان بلونهما العسلى لتضفى عليه شيىء من المهابة ، فكانت لنظرته وقع السحر عليها كما كانت نظرة " عمر الشريف " لـ " فاتن حمامة " فى فيلم " نهر الحب" ناهيك عن ملامحه الدقيقة وشعره الناعم المسحوب إلى الوراء مضيفا له قدرا من الوسامة . لملمت شتات نظراتها وتماسكت فى ردها : الحاج قبارى فى مشوار وأدامه ساعة .. أنحنى بجزعه ودنا بوجهه..ماقالش حيرجع أمتى ؟ أبدت أستغرابا وهى تسند ذقنها بكفها : قلت لحضرتك كمان ساعة .. يبحث عن امتداد للحديث : متأكده ساعة ولا أكتر ! .. أبتلعت جملته بضحكة : بصراحة مش عارفة .. سكت ولم يعقب ، زالت عنه القدرة على الأقتحام كما كان يفعل كثيرا فى كل مغامراته النسائية .

" نديم " هو سليل عائلة " السبروتى " نجل خليل بك السبروتى واحد من أعيان مدينة دمنهور وكان من القلائل من بنى جيله الذى تزوج بعد تخطيه سن الأربعين وذلك لأنشغاله الشديد بتجارته وزيادة مساحة أطيانه كما أنه كان " خلبوصا " كبيرا وهو ما توارثه عنه أبنه ، كان زواجه سريعا من أبنة عمه " نادرة " التى سبق لها الزواج من " الأستاذ فاضل " المحامى الذى أشتهر فى زمام البحيرة كلها بمرافعاته القوية النارية داخل المحاكم بينما كان فاشلا فى مرافعته أمام زوجته محاولا أقناعها دون جدوى بأنه لم يطرق بابا إلاوطرقه ، توجه إلى الأطباء والعطارين والدجالين ، ألتهم أجولة من الأدوية والأعشاب بخلاف الوصفات البلدى وركام من المراهم والدهانات لعلى وعسى يفيق الغافل ويطوله شيىء من القوة والشدة .. لكن هيهات . طفح بها الكيل بعد أنتظار دام أحد عشر عاما أن يخرج الحاوى شيئا من جرابه ، حينها قالت مقولتها الشهيرة فى حضورعمتها و"الأستاذ أحسان "زوج خالتها: أنا خلاص تعبت ومش قادرة أصبر أكثر من كده .. أنا نفسى فى حتة عيل . تم طلاقها فى هدوء ، رشحت لها العائلة أبن عمها " خليل السبروتى " الذى تزوجها فى حفلة عائلية محدودة ، وحين أنطلق " نديم " من رحم أمه كان يوما أستثنائيا فى حياة والده ، فاضت منه الفرحة وربطته بالدنيا بعد أنفصال قصرى عنها على يد ثورة يوليو قبل أن تسبقه شقيقته أيات للحياة قبل مولده بخمس سنوات .

وحين تنامى إلى سمعه أن أسمه يتردد بقوة داخل لجان التأميم والحراسة المنوط بها حصر أسماء الأعيان والأقطاعيين والرأسماليين فى مدينة دمنهور وأنه أصبح تحت العين ، فأخذته الحماسة والعزة

فهتف : الأرض زى العرض واللى حيقرب من أرضى حاقتله..قالها فى حضور بعض العمد والأعيان بالبحيرة أعداء ثورة ناصر، وكان عرضه فى ذلك الزمن ثلاثمائة فدان بخلاف قصر فخم عند مدخل مدينة دمنهور أضافة لشقة فاخرة بالحى الراقى بمنطقة محطة الرمل بالاسكندرية وقطعة أرض تتجاوز الستمائة متر بوسط المدينة بمنطقة الشاطبى وعقار قديم فى حى سيدى جابر . بعد أستدعاء خاطف من اللجنة المشكلة للحصر والتأميم بالبحيرة أدرك بعدها أن الحياة لها أولويات قبل الأرض والعرض . ضاق به الحال بعد أن قص رقيب الثورة معظم أطيانه ولم يتبق له سوى أربعون فدانا بعد أستيلاء اللجنة على كل ممتلكاته بدمنهور ، فنزح بأسرته إلى الأسكندرية حيث باقى ممتلكاته التى لم تصلها يد اللجنة ، ظل " عم متولى " ناظر زراعته هو همزة الوصل بينه وبين ما تبقى من أرضه ، يديرها ويشرف عليها بأقتدار ، فكان خراب محصول الخضار هو حصاد كل عام .

حين أنتقل الجيش المصرى بمعداته الى دولة اليمن الشقيق فى أوائل الستينيات لدعم ثوارها ضد حكم الأمام ، فى نفس العام أنتقلت " نادرة " على يد عزرائيل إلى جوار ربها تاركة خلفها أيات ونديم وزوج محطم بفعل ثورة أطاحت بأحلامه وممتلكاته وحشرته مستجديا الأمل فى أبنه الوحيد بعد أن باع كل أرضه على يد " عم متولى " ناظر الزراعة .

كبر " نديم " وتخرج من كلية التجارة جامعة الأسكندرية بعد معاناة ، توفى بعدها والده بثلاث سنوات ، فألت المسئولية كاملة له ، فأصبح مسئولا عن نفسه وعن شقيقته أيات التى كان أحتكاكها محدودا بالمجتمع السكندرى فكانت تراقب التطور السريع لما يحدث حولها بنظرية من يأكل طعامه بالشوكة والسكين ، أدائها فى الحركة والكلام كان مختوما بختم التحفظ والحذر، لم تكن أيات سوى مقطوعة موسيقية حالمة ، حصرها الزمن بين مسيو " لاجارد " مدرس البيانو الذى كان حضوره منتظما لمنزلهم ثلاث مرات أسبوعيا وبين معهد " الكونسرفتوار " التى أدمنت الذهاب اليه يوميا تحلق بين أقسامه كالفراشة بين بيانو وآلات وترية والمستحدث منها كالجيتار ، فصنعت حولها جوا رومانسيا داخل حدود جغرافية ضيقة .

غـادر " نديم " كرسيه المحاذى لمكتب هدى وغاص فى مقعد جلدى مقابل لها : أنا حاقعد هنا أستنى الحاج قبارى .. أسترخى فى جلسته يتأملها دون أن ترمش له عين ، كان لها حضور مختلف عن كل ما عرف من نساء ..وبالرغم من أفتعالها الأنشغال ببعض الأوراق التى تفردها وتثنيها فى أرتباك إلا أن عيناه كانت مبهورتان مما يطل من حدقتيها .

ـ أنا شايفك مشغولة يا أنسة .. رمته بنظرة ثم أجابت بهزة من رأسها .. قال جملته وأخذ يتلصص بنظراته فى ساقيها الرخاميتين من تجويف مكتبها ، لمحته ، فأضطربت وقامت من مكانها .. صاح فيها : على فين يا أنسة ؟ .. فلتت منها تنهيدة بعد أن دارت وأستقرت واقفة أمام مكتبها وقد شبكت يديها على خصرها : ما ينفعش أقعد على مكتبى وأنت قاعد أدامى كده .. حك جبهته بأصبعه مواربا خجله ، ضرب كفيه على فخذيه أستعدادا للنهوض : مافيش مشكلة .. أنا حأمشى وحأبقى أعدى عليه فى وقت تانى .. صوبت نظراتها فى أتجاهه وهو يخطو ببطء أمامها بينما هى فى مكانها تحاول أن تفلته من ذهنها ، شردت بعدها لثلاث دقائق ثم تحركت راجعة لمكتبها تسأل نفسها : الراجل ده حكايته أيه بالظبط ؟ نزعت ملامحه ونبرة صوته من رأسها حين رن جرس التليفون اللحوح : أيوه يافندم هنا مكتب الحاج قبارى .. فى تلك اللحظة قفزت أبتسامة على وجهها تقاسمتها عينيها وشفتيها : أنت مش لسه نازل من عندى دلوقتى مابقالكش تلات دقايق .. لأ لسه ماجاش .. أغلقت السماعة بعد أن أنقطع صوته ، لكن لازالت نبراته الرتيبة تتسلل اليها يدفعها إلى شرود مفاجىء ، تعبث بأصابعها فى بطء بمحتويات مكتبها وهى فى حالة هيام قبل أن تنفض رأسها من غيبوبة اللحظة الرومانسية فى شهقة عارضة حين لمحت كارت وكالة الأهرام للأعلان ممددا على سطح مكتبها مدون عند أعلاه ملاحظة كانت قد كتبتها بالأمس بضرورة الأتصال بمكتب العلاقات العامة للوكالة للتأكيد على نشر برقية التهنئة المقدمة بأسم مكتب الحاج قبارى إلى صاحب الضربة الجوية الأولى بمناسبة مرور عشر سنوات على أنتصار حرب أكتوبر .

لم تدم تكهناتها طويلا عن شخصية " نديم " ، تتسلل اليها معلومات عنه من بين شفتى الحاج قبارى حين تفحص بنظارته وهو يجلس على مكتبه كشف طلبيات أعدته له هدى عن أحتياجات بعض التجار من الاجهزة الكهربائية التى أستقدمها من إيطاليا فى آخر سفرية . تنتزع من لسانه كلمات متناثرة عن نديم وسط جمل طويلة عن الحاج يحيى والحاج سيد تاجرى النجف : واللـه لما شفته فى المينا كان واقف مع الأستاذ فتحى المستخلص وبعدين لقيته جاى نحيتى بيعرفنى بنفسه وفهمت منه أنه بقاله سنتين شغال أستيراد على خط إيطاليا ولقيت الأستاذ فتحى بيشكرلى فيه وبيقولى أنه راجل كويس وعايز يخليه يدخل معايا فى الشغل الجديد اللى حنتفق عليه فى ميلانو .. رفع عينيه اليها بعد أن خلع نظارته مكملا : قلت له مايضرش .. رمقته بنظرة تملأها الرضى : مايضرش .. قالتها ساهمة .

تقاطيع وجهها ما زالت منقوشة فى ذهن نديم ، أخذت تكبر تدريجيا فتلاشى ما عداها وظلت وحدها تملىء شاشة ذهنه .. تردد كثيرا على مكتبها وتقرب اليها ، كان يناور بالكلمات ويختار أحسنها ، لمح صدرها يعلو ويهبط مع ضحكات طليقة تعقيبا على تشبيه أطلقه على " الست أحلام " صاحبة كشك جرايد أسفل المكتب بأن " وشها شبه الشبشب البلاستيك " ، كانت ضحكتها تنطلق من أعماق وردية مرحة ، شيئا فشيئا أستحوذ على أهتمامها ، راح يقتفى خطاها من بعيد .

فى ذلك المساء الشاتى وقد غادرت مكتبها كان ينتظرها ، أقترب منها بجرأة شاركها مظلتها ، تسمرت فى مكانها مثل تمثال قبل أن تتراجع للوراء : ماينفعش كده ياأستاذ نديم .. لم يعقب كانت عيناه تتولى الرد ، كثيرا ماكانت تحدث نفسها وفى قليل من الأحوال كانت تحدث عمتها التى تصل اليها الكلمات بصعوبة حيث أن " الطرش " لازمها منذ خمس سنوات : مأأقدرش أغمض أو أرمش بعينيه أدام نظراته يا عمتى .. تناول من يدها مظلتها وأختبأإلى جانبها من زخات المطر ، أطل من مخبئه باحثا عن الأمان . شيىء ما لا يعيه أرتفع من بقعة مظلمة خفية فى روحه أرتعشت لها موجات فى دمه كأنها تشق طريقها وتتراقص فى شرايينه بقعا من الضوء، شيىء ما دفعه دون أن يدرى الى أن يمد أصبعه ويمر به بين أصابعها .. أرسلت نعومة الأصابع وطراوتها فى بدنه رعشة لذة . رائحتها تسربت الى شرايينه وهو فى قمة الأنبهار بسواد عينيها وأكتناز شفتيها قبل أن ينزلق ببصره فى منحدر العنق الناعم مطل على واد بين هرمين صغيرين ينتفضان فى قفصهما الشفاف .

كان الحب قد أخذ يدق أوتاد مظلتها ، كانت سعادتها قد فاضت دون أرادتها فما كانت تعلم أن الحب سيثير كل تلك السعادة . تزحزح من جوارها فى خطوة مفاجئة ليطالعها بجسده ، أصبح مواجها لها متتبعا عينيها يرشقها بنظراته القوية العميقة الطويلة بعد أن تراخت قبضته الممسكة على المظلة لترقد مقلوبة بجوار قدمه ، عاد الى طريقته القديمة فى جرأة الأقتحام ، حاولت أن تتحاشاه وكأنه سلك كهربائى عارى . فباغتها بسؤال مباشر : تتجوزينى ياهدى ؟ .. مبدية أقصى درجات الدهشة فى أتساع عينيها : أنا .. ! لم يتمهل طويلا : أيوه أنتى يا هدى .. أنتابها شعور من ربح مليون جنيه .. أنتظر لحظات وهو يحاصرها بنظراته قبل أن تجيب : أنت ما تعرفش أى حاجه عنى ؟ .. أنفرج وجهه عن أبتسامة من حصل على نتيجته عن طريق الكنترول : أنا عارف عنك كل حاجة من يوم ما أتوفى الأستاذ عبد الفتاح والدك وجواز والدتك اللى عايشة دلوقتى فى طنطا .. لغاية عمتك اللى أنتى عايشه معاها فى محرم بك .. أستقبلت تحرياته بفم مفتوح وعين ذاهلة ، داهمتها دهشة وأستغراب كان يقطعهما رذاذ

المطر المتساقط على رأسيهما الذى ألصق بخديها خصلا من شعرها فبدا وجهها مثيرا . أقترب أكثر : قلتى أيه ؟ .. نظر فى وجهها فطمأنته بهزة من رأسها قبل أن تنوه : أرفع بقى الشمسية غرقنا .. حينها تفككت ملامحه الى ابتسامات متناثرة تقاوم رشح الماء من رأسه الى صدغيه بينما اصاب الخجل هدى فسبقته بخطوة واحدة حين لمحته يفتش فى جسمها الذى ألتصق بملابسها بفعل المطر .. أيقن أنه أختار مقاييس منضبطة للجمال .

00000000000

رفعت " أيات " أصابعها ببطء عن أصابع البيانو الأسود العتيق حين دخل " نديم " مبتسما واضعا يديه فى جيب بنطلونه لتقف مقطوعة " عمر خيرت " التى تلعبها بأتقان عند منتصفها ، دارت بكرسيها لفة كاملة مولية البيانو ظهرها ، تبادل معها النظرات ، كان جادا على غير العادة قبل أن ينفرج وجهها عن أبتسامة مندهشة : مش عوايدك يعنى يبقى شكلك جد كده ! .. سار بخطوات متمهلة متحاشيا سريرها الضخم الممدد فى منتصف غرفتها الواسعة والذى يعلوه كشواهد القبور تلك العيون التى ترصدها دائما وهى نائمة من داخل إطارها المعلق حيث صورة لأمها بجوار والدها بطربوشه الأحمر المائل مسنودا على أذنه اليسرى بينما مالت أمها الراحلة برأسها على صدغ المرحوم الذى كان فى حالة تخشب وكأنها صورة فى كتاب الموتى والتى تم ألتقاطها داخل أستديو " ريو" بشارع فؤاد وصورة أخرى لأيات مرفوعة الرأس نافرة الصدر تقف داخل فستان " كاروهات " موضة " راقية أبراهيم " والى جوارها مسيو " لاجارد " بوجهه النحيف تتلبسه بدلة ظهرت فيها رأسه طافية خارج الياقة ورقبته مربوطة بـ " ببيون " كالشراع يضبط حركتها بينما باقى جسده غارقا فيها ، يظهر بيانو فى خلفيتها والى يساره بعض الوجوه الصغيرة بالكاد تظهر ملامحها يظللها صورة للعلم الفرنسى حيث أن الحفل مقام فى المركز الثقافى الفرنسى تخليدا لذكرى ثورتهم ، أجادت يومها أيات فى العزف تحت أشراف " لاجارد" ، فحازت أعجاب رئيس المعهد الذى أشاد : يامدموازيل عزفك كتير هايل ولو كان البيانو فى مصر منتشر زى العود كنتى حتبقى بيانيست هايل .

قامت " أيات " تتحرك نحو" نديم " بعد أن أستشفت من نظراته أن هناك أمر يود البوح به : فى أيه يا نديم ؟ .. سحب كرسى قرب النافذة وأتجهت هى الى كرسيها الهزاز ، كانت خطوتها تنم عن أنها تسكن فى جسد متعادل مفصل ووجه مستدير يحيطه شعر قصير فى قوسين ، تكسو ملامحها لمعان الغنى ومهابة الهوانم وكأنها أميرة من زمن الأمراء .. لحظة أرتباك مرت بينهما فى صمت حتى قطعها

قائلا : أنا قررت أتجوز يا أيات .. بعد أن أحتوت دهشتها . سألت : واحدة نعرفها ؟ .. سرد قصته مع هدى مختصرا التفاصيل وأنتظر بدوره سماع تعليقا أو تعقيبا ، لم تملك القدرة على التعليق والمجادلة ، لم تستطع أن تقدم ملاحظة أو أن تبدى رأيا ، كانت كالموصوم بفعلة .

ـ لو أنت شايف يا نديم أنها تليق بيك يبقى خلاص . قالتها من باب الحرص على المشاركة ودون أن تنظر فى عينيه ، لم يفصح لها عن تفاصيل ماينوى فعله مكتفيا بنظرة حزينة شملت خريطة وجهها قبل أن تسحب نظراتها فى هدوء بأتجاه نافذة الغرفة ، كان عليه أن يقدم بعض النصائح قبل خروجه : أنسى بقى يا أيات وأرجعى زى زمان أنتى مش أول ولا أخر واحدة تتطلق .. تهز رأسها فى بطء دون رد ، لم يخرج من الغرفة حتى أنحسرت ملامحها عن أبتسامة واهنة مصحوبة بما ينتظره : مبروك يا نديم .

بقيت فى مكانها شاردة كالذى أسلم الروح ، أنتزعت نفسها من كرسيها الهزاز التى ألتصقت به منذ ثلاث ساعات من لحظة خروج أخيها من غرفتها ، أجهزت فيها على فنجانين قهوة وقرص مهدىء تحت رعاية " نجاة الصغيرة " وهى تشدو بصوتها أغنية " نسى " ثم أربع مقطوعات موسيقية لـ " عمر خيرت " على شريط كاسيت مدته ساعة ، قامت الى النافذة المسدودة بستارة قطيفة رمادية حولت نهار الغرفة إلى ليل ، سحبت نفسا طويلا بعد أن ازاحت جزءا منها ، طالعت بعينيها صورة البحر الذى بدا من بعيد وكأنه أعلى من البناية ، منظر البحر دائما يخفف عنها أنقاض الكآبة المكدسة فوق رأسها ، تتبعت بنظراتها بقية اللوحة الربانية حيث السماء تمر أمام عينيها منقوش فيها دوائر بيضاء متداخلة تبدو مجسمة منفوشة كالقطن تتخللها خطوط باهتة البياض تسقط عند تلاقى البحر بالسماء .

نشط هذا التابلوه ذاكرتها ، فأستعادت مامرعليها من تابلوهات قاتمة الألوان . تنقاد خلف سنين لم تستطع حتى اللحظة ابتلاع تفاصيلها ، تعبر فوق جلدها قشعريرة حين أستعادت مشهد دخولها فى ذلك اليوم إلى معهد الموسيقى " الكونسرفتوار " بخطواتها المعتادةالواثقة فى الممر المؤدى إلى قسم البيانوعشقها الأول . أضطرت أيات فى تلك الفترة أن تحافظ على أفكارها المناوئة للأنقلاب المجتمعى الحاصل وأنهيارمكانة العائلات العريقة فى القطر المصرى ، إلا أنه كان محافظا على تواجده داخل المعهد حيث شكل أبناء وأحفاد تلك العائلات الأغلبية الساحقة، لازمها أنتماء شديد للطبقة الارستقراطية المحافظة ، كانت لها نصيحة مكررة دائما ماتقولها بحماسة منقطعة النظير تلقيها فى الأذان المنصتة

من أفراد طبقتها ، أن يحفظوا وحدتهم وتماسكهم مذكرة بأنهم الأصل وأصحاب البلاد ، غير أنها رفضت الأقتران من أبناء طبقتها رافضة التنازل عن رومانسيتها الحالمة .

فى لحظة مفاجئة ومذهلة فى تاريخ ايات أندلعت شرارة الثورة الأولى فى قلبها وكيانها كله فى الثامن من مايو لعام 1974 فى تمام الرابعة عصرا وذلك فى داخل قاعة البيانو بالمعهد حين مالت على أذنى صديقتها وزميلتها الأنتيم " فوقية " نجلة سفير مصر السابق فى روما . مستفسرة : مين الشاب ده يافوقية اللى بيلعب على البيانو .. دون أكتراث : ده الأستاذ شاكر مدرس البيانو الجديد اللى أتعاقد معه المعهد والنهاردة أول يوم له .. معزوفة " إلا أنت " لـ " نجاة الصغيرة " هى أول ما وصل لمسامعها من عزف الأستاذ شاكر ، فكانت كافية للفت أنتباهها قبل أن يستحوذ على نظراتها .

الأستاذ " شاكر " كان وسيم يدير الحديث بلباقة وأنسياب يعجز معه أى نوع من المقاومة .. كان بالغ الرقة . وكعادة النازحين من الطبقات الفقيرة والتى ينتمى اليها بجدارة الأستاذ شاكر ، حين تتيح لهم الظروف التواجد بين طبقة الأرستقراطية المصرية يكون الطموح هو جوهر العلاقة يحرسه شعار " من جاور السعيد يسعد " ، سأل وأستفسر وفهم الكثير عن شخصيتها القوية بدءا من أنحيازها التام إلى طبقة باتت على شفا الأنقراض نهاية برومانسية تفيض منها كمد البحر . تربص بها ، أقتحم حياتها بلا دعوة ، لا تفارق عينيه .. يتابع حركاتها داخل المعهد .. كان شيىء فى عينيه أضاف عليها أرتباك لم تفهمه ، يقتنص جائزته حين يفوز بنظرة أو أبتسامة منها ، غير أنه يعرف جيدا ما يمتلكه هو نفسه كرجل من أمكانيات يجذب بها النساء وقد أختبر هذا كثيرا ، هى أيضا أمتلكته بقوة الأنثى وبجمالها.. بالرغم من كثرة التناقضات بينهما إلا أنه ذاب وتلاشى بعد أن أذهلها وشدها اليها . باتت قنبلة الحب الموقوتة على وشك الأنفجار داخلها تحت وطأة كلماته ونظراته التى أستهدفت كل جزء فيها .. ثلاث شهور كاملة كانت كافية كى يفك حصاره من حولها بعد أن أيقن بوادر الأستسلام .. حين أعلن بيانه الأول ليعلنها بنبرة تطفح منها مذلة الفقر والمسكنة : ممكن أيات تتنازل وتقبل أنها تتجوز من واحد فقير ماحلتهوش أى حاجة يملكها فى الدنيا غير قلب بيحبك .. قالها وتراجع خطوتين للخلف حين أدرك سريعا أن هناك مسافة لابد من حسابها .. سكتت تنصت لصوت أنفجار قوى يأتى من أعماقها ينسف كل ماتجذر فى كيانها ، أحست بأن جلدها يسقط منها وعقلها يعاد تدويره من جديد وأن تاريخا خلفها ينخلع من مكانه كضرس العقل . بيانه الموجز عاد بها إلى لحظة صراع داخلى شهدت معركة قاسية بين الثابت والمتغير ، كان ذلك حين خاطبها الزعيم الراحل " جمال عبد الناصر " وخاطب معها المصريين

والعالم كله بعبارات التنحى بعد هزيمة 67 ، فالرجل هو عدوها الأول وعدو طبقتها ، هو سارق الأطيان والأملاك تحت مسمى " التأميم " ، هو المسئول الأول فى نظرها عن تسليم أمها جثة محسورة لعزرائيل وقبل أن يدفع بوالدها الى أحضان " قهوة التجاريين " بمنطقة المنشية قعيدا ذليلا بين نخبة من أصحاب المعاشات المرضى ومجموعة الموظفين من دفعة " نكمل عشانا نوم " كانت فرحتها طاغية فى مواجهة حزن ودموع ملايين المصريين ، وقبل أن ينهى "جمال" خطابه كانت قد أنضمت دون أن تدرى الى حشود المصريين تبكى وتهتف ببقاء الزعيم ؟ ! أنتهت اللحظة وكان السؤال : على ماذا فرحت وعلى من بكت؟..انتهى صراعها الداخلى امام بيان "شاكر" بالضربة القاضية بعد أن سقط عنها زمن الأسماء والألقاب.. انتظر اجابتها على عرضه ، فما كان منها إلا أن غرزت نظرتها القوية فى عينيه قبل أن يسترخى على حدقتيها.. نطقت فى تحد ضد كل مادافعت عنه :موافقة ياشاكر.قالتها وهى تتلفت ، ثم مالت نحوه حين أنحنى يختطف يدها يغمرها بقبلات مبتلة محمومة ، فكان الحب هو الناطق الرسمى عن كيانه كله .

صالت وجالت وطافت معه فى شـوارع الأسكنـــدرية ، ذاقت معه طعم " الصعلكة " تاهت فى أفكـــاره وأعجبها طموحه حين حدثها عن أفكار تراوده عن التوزيع الموسيقى كما أخبرها بانه فى أنتظار القدر أن يتيح له الفرصة لتحقيق ذلك. أرادت يومها أن تتخذ خطوة مهمة .

دعكت أيات عينيها بتوتر وهى منزوية فى ركن الصالة فى انتظار عودة شقيقها من الخارج بعد أن قررت مفاتحته فى حكايتها مع "شاكر". تنازعتها التخمينات حول ردوده المتوقعة قبل ان تداهمها حوارات سابقة دارت بينهما ، دائما ماكان يحاول استدراجها الى واقع الحياة ، لم تنس نبرته المستجدية حين حدثها : يا أيات يا حبيبتى لازم تفهمى أن الدنيا دلوقتى أتغيرت وماعدش ينفع تقضى كل أيامك بين البيانو والمعهد .. الدنيا فيها حاجات أهم .. إلا أن ما يحصل عليه دائما كانت أجابات غير مقنعة : أنا أختك الكبيرة يا نديم وعارفة مصلحتى كويس .. ياريت تفهم أن المشكلة فيك أنت وفى تصرفاتك اللى خلتك تنسى أصلك وتنسى أنت مين وأبن مين وكفايه عليك سرمحتك ليل ونهار ..أرتفع صوتها قبل أن تسحبه من معصمه باتجاه المرآة : قوم شوف شكلك بقى عامل أزاى شعرك مغطى ودانك وقميص مشجر مفتوح منه زرارين وبنطلون شارلستون .. فى ملل سحب نفسا طويلا ، بدا الأمر مرهقا له بعد أن مل نمطها : ياأيات أنا بحب حياتى كده وعايش جوه الزمن بأخد وأدى مع الدنيا .. قالها بعد أن أفلت معصمه من يدها ثم أستدار ليواجهها : مش لازم أتجمد فى الماضى وأبقى عبد لذكرياته وأفضل عايش

فيها ليل ونهار واللى أصلا مافيش حد فاكر منها حاجة .. علا صوتها صوته : ما فيش حاجة بتتنسى ده ماضينا وتاريخنا هو ده أصلنا والناس كلها عارفة يعنى أيه عائلات كبيرة ومحترمة .. سبقته ضحكة ساخرة كانت المرارة عنوانها : يا أيات مافيش حد فاكر حاجة من العائلات دى ويادوب اللى فاضل مننا أسامى وشوية صور مركونة على الحيطان ملاها التراب .. ياريت تفوقى وتشوفى أحنا عايشين فين .. أحنا ياحبيبتى دلوقتى فى زمن تانى والناس بقت غير الناس والشعار اللى مرفوع اليومين دول فتح عينك تأكل ملبن .. السادات عمل أنفتاح والمليونيرات اللى موجودين دلوقتى كانوا سباكين وحدادين وسوابق همه دول اللى بقوا أسياد البلد .. مسح بيده كتفها ثم أردف : بابا اللــه يرحمه هو اللى علمنا وفهمنا أزاى نحافظ على عاداتنا وعلى أسم عيلتنا و فى آخر سنتين قبل مايموت سلم أمره للزمن وغير حياته عشان يقدر يعيش .. فيه حد يصدق أن بابا اللـه يرحمه " خليل بك السبروتى " يقعد فى قهوة درجة تانية وكمان يبقى له فيها صحاب .. فتحت شفتيها عن تنهيدة أسى : عشان كده ما أتحملش ومات من القهرة .. لوت رقبتها بأتجاه صورته وقد سقط على رأسها آخر مشهد له فى الحياة حين عاد من سهرته المعتادة فى قهوة التجاريين بعد أن أرهقه حديث طويل جادل فيه بقوة الأستاذ " فتحى" والأسطى " عثمان " وعم " فرحات " عن فائدة شرب الينسون صباحا فى حين أعترض أصدقاءه بقوة وأكدوا أن فائدته تكون مساءا ، جلس وحيدا فى غرفته بعد أن أستخرج ألبوم صوره العتيق من مقبرته فى درج خزانته ، قلب فيه ببطء يقرأ وجوها أختفت عن الوجود وكانت طعاما لدود الأرض ، توالت منه ضحكات متدرجة حتى دمعت عيناه حين ثبت حدقتيه فى وجه " متولى " ناظر زراعته الذى أنحنى على يده يقبلها وهو واقف كالأسد وسط أرضه الممتدة أمام عينيه يتابع حصاد محصول " البسلة " داهمته كل الذكريات ، وفى لحظة مباغتة تلاشت كل الصور تباعا لتحل مكانها صورة واحدة كبيرة تجسدت فى فراغ الغرفة لم يستطع جمع تفاصيلها قبل أن يدوى فى أذنه ذلك النداء الأخير .. أستدعاء فورى على يد عزرائيل ، فأسلم الروح فى هدوء تاركا وجه " متولى " مكفيا على يده . بعد وفاة الأب سقطت المسئولية كاملة على رأس " نديم " ، وأصبح مسئولا عن نفسه وعن شقيقته ، كانت مسئولية ثقيلة لم يعتادها بعد أن أنطوى لفترة على نفسه قبل أن يستمتع بغرائزه وفتوته وشبابه مكتفيا بما يتحصل عليه من ايجار شهرى عن عمارة سيدى جابر قبل أن يتم بيعها لمواجهة النفقات .

تتداعى فى رأسه التصورات حول قطعة الأرض الفضاء ، كان ألحاح " عم سيد" سمسار منطقة الشاطبى مربكا حين قدم له عروضا مغرية من شركات مقاولات وأفراد لشراء الأرض أو حتى بالحد الأدنى فى شراكة لبناءها والتى تنبأ مساحتها عن أنها كافية لانجاب برجين كاملين ، الا أنه كان دائم

التراجع ويعاود التفكير مرات ومرات خصوصا وأن أخته دائما ما تكون على الحياد لا تبدى رأيا ولا حكما إلا ما تنطق به من عبارات تحذيرية : خلى بالك يا نديم وراجع نفسك قبل ما تأخد قرار فى أرض الشاطبى عشان دى الحاجة الوحيدة اللى بقت فاضلة لينا .. قالتها وربتت على كتفه قبل أن تنثر عليه بعض الكلمات المشجعة : وأنا متأكدة أنك حتفكر صح وحتأخذ القرار السليم .. كان يدرك مخاوفها من المجهول أو من أى " لطشة " تؤدى الى اتخاذ قرار قد يهدر ما تبقى من ثروة فتهوى بهما الى هاوية فقر سحيقة .

يتجه " نديم " الى بنايته عقب لقاء طويل جمعه بثلاثة أداريين موفدين من أدارة السيرك القومى فى القاهرة لاستطلاع رأيه حول موافقته على تأجير الأرض لمدة ثلاث سنوات لاقامة عروض صيفية للسيرك ، كان لابد له من قرار حاسم أما البيع أو المشاركة أو التأجير . تاه فى الوصول الى أختيار محدد ، فما كان منه كالعادة إلا أن يلجأ للمشورة ، فأنتفض يجهز لأجتماع طارىء لأهل مشورته الذى يثق فى صحبتهم وهما " نوح" البواب والخواجة " كرم سباستيان " جاره الذى يسكن الطابق الرابع .

أخترق نديم شارعا صغيرا عند ناصية القنصلية الايطالية لتطالع عينيه ظل بنايته ذات الطراز الأيطالى القديم بنوافذها الطويلة وشرفاتها المستطيلة التى ترتكز أسوارها على أعمدة حجرية دائرية ، تسارعت خطواته بأتجاه المدخل الذى يجمله بوابة على شكل قبة هائلة تنام على أعمدة تشبه أعمدة المعابد يتوسطها باب حديدى ضخم مزخرفا عليه أشكال زهرة اللوتس وأرضية من رخام الكرارة الأبيض عند نهايتها ستة درجات رخامية لامعة وقف عند أخرها عم " نوح " منتصبا بقامته الطويلة بالرغم من كبر سنه الا أنه كان مستقيم الظهر من غير أنحناء بينما تداخل الألوان فى ملامحه يميزه ، بشرة سوداء حيث أنه من أنتاج الجنوب وشعر أبيض كثيف يتوج رأسه وعينان ضيقتان يميل بياضهما إلى الحمرة داخل خضم السواد وتحمل شفته الزرقاء شارب أبيض ، للوهلة الأولى تدرك من هيئته وكأنه من زعماء أفريقيا أبان فترة التحرر .

أصطحب " نديم " عم " نوح " فاردا ذراعه حول كتفه ناحية المصعد ، حاول نوح الشهير بحكيم العمارة كما لقبه الخواجة كرم أستدراجه كى يفهم سببا للاجتماع الطارىء : وقعت نفسك فى مشكلة ولا حاجة . تساءل نوح .. أبتسامة خفيفة قبل أن تصعد عينيه إلى سقف المصعد : أبدا ياعم نوح ده أجتماع للمشورة بس .

ـ اللــه المستعان يابنى .. كانا قد وصلا الى الطابق الرابع والأخير ، أبطأ أمام شقة الخواجة قبل أن يغرز نوح أصبعه فى جرس الباب ، ثم نظر فى ساعته أعقبها بألتفاتة إلى نديم : تلاقى الخواجة دلوقتى مشغل مزيكة وتايه فى ملكوته .. بينما كانت خطوته من الداخل تقترب من باب الشقة حتى بلغه ، ليطالعهما الخواجة متصدرا الباب وقد أختلج وراء النظارة جفناه ووجهه المنتفخ وقد زينته لحية كالقطن بياضا وقامة متوسطة تحمل جسد ممتلىء خاصة عند البطن ، الشقة سابحة فى نهار نفذ إليها من كل ركن . تجاوز " نوح " الباب ومن خلفه نديم الذى لم يسلم من نظرات الخواجة فى محاولة منه لقراءة سببا للزيارة المفاجئة : زيارتك فى الوقت ده بتقول أن فى حاجه مهمه .. لم يتلق ردا وواصل نديم تقدمه منفردا إلى غرفة الأستقبــال بعد أن أنحرف نوح بأتجاه المطبخ بموجب أشارة من الخواجة : أعملنا قهوة يانوح .. غرفة أستقبال هادئة شحيحة الأثاث إلا من صالون جلدى تناثر فى أركانها وأن كانت الشقة فى معظمها على نفس الحال فهو عاشق للبراح ، تطل كل نوافذها على كورنيش الأسكندرية ، أنكمش نديم داخل الكرسى الجلدى فى مواجهة لوحة تتصدر الحائط رسمت بألوان زاهية لساحة عتيقة فى أثينا تشبه ساحات القصور الملكية المزروعة بالخضرة وبالتماثيل بينما تدور فى أذنيه موسيقى يونانية ذات نمط واحد أولها كأخرها تخرج من كاسيت أعياه الزمن وبجواره تكدست مجموعة من الكتب بعناوين أنجليزية وآخرى يونانية ينحشر بينهما ثلاثية نجيب محفوظ .

الدكتور " كرم أندرياس سباستيان " هو نفسه الخواجة " كرم " مصرى بالفطرة حتى النخاع برغم أنتمائه لأبوين من أصل يونانى ، تربى مع شقيقته " لأفى " التى تسبقه بعامين ، فهو من مواليد حقبة الأربعينيات بحى العطارين حين كان الأجانب لهم بصمات محفورة فى كل مدن مصر وخاصة فى الاسكندرية ، كان من المستحيل هناأن تعبر طريقا أو ميدان دون أن تنظر فى ملامح أجنبى أو دون أن تسمع لغة أجنبية . كانت الأسكندرية تبدو وكأنها تنتمى الى ما وراء البحر أكثر مما تنتمى الى ماوراء النهر . قبل أن يترك والده " أندرياس " محل بقالته الصغير بحى العطاريين وينتقل الى منطقة المنشية حيث أنشأ مصنعا للبسطرمة ذاع صيته فى غضون سنوات قليلة وتربع على عرش " البسطرمة " منفردا ، كان ساعده الأيمن فى كل نجاحاته من بداياته المتواضعة إلى أن أصبح رجل صناعة ملء السمع والبصر وهو العامل السكندرى " كرم حجازى " كان يحترم فيه أمانته وأخلاصه ، فكان الخواجة جريئا ولم يتردد حين أطلق أسم " كرم " على مولوده الثانى مما سبب له حرج وأستهجان معظم الجالية اليونانية بالاسكندرية ، أنتقل الخواجة وأسرته إلى تلك البناية بمحطة الرمل فى أواخر الأربعينيات .. مع أنتهاء تلك الحقبه حتى شاعت سنوات الهياج والأنفعال مصاحبة لثورة يوليو 52 التى

راحت تضرب بكل أدواتها ممتلكات الأجانب ، فكان الخواجة " أندرياس " هدفا ثابتا لا ينقلب ولا يتبدل بعد أن فطنوا لمصنع البسطرمة والمخازن التابعة له فتم تأميمها ، حينها أدرك " كرم " أن للحياة وجوها آخرى . لم يتساءل وقتها لكنه تساءل فيما بعد ، أدرك " أندرياس" بأن أى تردد فى العودة إلى اليونان سيكونون عرضة لما هو أسوأ .. سافروا ، مضوا دون أمتعتهم فقط ما خف حمله مما تتسع له حقيبة اليد . تركوا كل شيىء بأستثناء هذه الشقة فى تلك البناية . كان الرحيل القصرى يضفى على " كرم " مرارة مشوبة بأفتقاد شيىء جميل عاشه والفه وشيىء غامض مرتقب يحاول عبثا أن يصنع به رسما لما ستكون عليه حياته . غاب " كرم " سنوات أختفى فيها فى اليونان ، لكنه لم ينقطع عن زيارة الأسكندرية ، بعد وفاة والديه تخرج طبيبا فاشلا من جامعة أثينا فعوض فشله فى مجال الطب بفشل جديد فى مجال الأدوية أخذت من عمره عدد من السنين بينما كان " نوح " فى فترة غيابه سفيرا مفوضا لدى " كرم " على الأرض السكندرية ، كان يباشر رعاية الشقة من تنظيف وتهوية وسداد أيجار ، فكان بحق مخلصا وأمينا فأستحق عن جدارة لقب الصديق الحميم للخواجة وأصبح الأنسجام والتناغم هو شعار تلك الصداقة بالرغم من تلك الأختلافات الجوهرية الصارخة ، لكن تميز شخصية نوح وتفرده بخصوصية دون سواه من مجتمع البوابين السابقين واللاحقين فيما يملكه من حكمة وخبرة طويلة فى كافة الأمور الحياتية بجانب تبحره فى الأمور السياسية ، ودائما ما يذهب بتحليلات موفقة فى أى دائرة حوار مهما كان شأن المتحاورين فيها فضلا عن ذاكرة فولاذية لا تصدأ تسعفه فى حالات المقارنة بين حكام مصر وحتى اللحظة ، و كما ورث الخواجة عن أبوه الكثير من الملامح غير أنه ورث أيضا "جين" خفى عن أبوه لم يتم تحديد مكان وجوده فى جسديهما ، فالخواجة الكبير أحترم وأحب عاملا فى حين وثق أبنه وصادق بوابا ! صيد السمك كانت ولازالت هوايتهما المفضلة ، يمارسانها أسبوعيا على شاطىء جليم .

بعد أن أتم مهمته فى أعداد ثلاث فناجين قهوة خرج نوح من المطبخ بأتجاه غرفة الأستقبال محتضنا الصينية بعدما أزاح الستارة الفاصلة بين الممر والصالة برأسه قبل أن يتخلص منها على المنضدة ثم أراح مؤخرته الى جوار الخواجة ثم أصدر تنبيها : المظبوطة دى بتاعة الخواجة والسكر زيادة بتاعة نديم بيه .. سحب فنجانه معرفا بنفسه : ودى بتاعة الراجل الأسود الغلبان .. أعاد نديم على أذان الخواجة نفس السؤال الذى قطع اجابته دخول نوح : أنا دلوقتى حيبقى اختيارى أيه أبيع ولا أجر ولا أشارك ؟ ! .. ربت على كرشه كعادته يستدعى حكمة وخبرة حان وقتها : طب أنت ميال لأيه يانديم:

ـ هو أنا لو قادر أحدد كنت طلبت رأيكم .. رشفة طويلة من فنجاله وكعادته عندما يبدى رأيا يطرح سلبياته وايجابياته فى بانوراما متكاملة أفضى بعدها نوح : أنا شايف أن الأصلح والأضمن هو تأجير الأرض لبتوع السيرك وأنت بتقول أنهم حيدوك أيجار سنة مقدم ومتهيالى ده حيساعدك فى موضوع تجارتك . رفع نديم حاجبيه متقبلا رأى الأخير متعجلا فى سماع تعقيب الخواجة الذى رجع بظهره الى الوراء تاركا " كرشه " يرتج أمامه : أنا متفق مع نوح عشان الأستفادة حتكون من كل النواحى حتضمن أيجار محترم للأرض وكمان سعر الأرض حيزيد كل يوم .. تبخرت الحيرة عن رأس نديم بعد ان كان لرأيهما صدى كبير داخله فى حين ضاقت عينى نوح فى أنتظار سماع قرار نديم الذى خرجت نبرته كمن وجد الماء فى الصحراء : كلام معقول وتمام . قالها وقد أنفرجت شفتيه عن أبتسامة عثر عليها أخيرا قابلها الخواجة بملامح الرضا ، ثم نهض بعدها من مكانه حيث ألحت على رأسه موسيقى المكان بأن يخطف الأقتراح ويرحل تاركا الخواجة ونوح يحللان خطاب السيد الرئيس المؤمن محمد أنورالسادات فى أصراره على الذهاب لأى مكان فى العالم لتحقيق السلام حتى ولو جلس مع الشيطان نفسه فى عقر داره .

أصبح " نديم " بارعا فى أستثمار قطعة الأرض بعد نصيحة الحكيم " نوح " ورأى الخواجة ، أتم التعاقد مع أدارة السيرك ولكنه فسخه بعد عام بعد أن دفع الشرط الجزائى فى سبيل أنجاز تعاقد جديد مع مجموعة من الشركات الصناعية والزراعية والغذائية لعرض منتجاتها فى مساحة الأرض كلها بعدما تم تقسيمها لمربعات يتم تأجيرها حسب ما تطلبه كل شركة من مساحة ، جنى أرباحا كبيرة كما عزز علاقاته بشخصيات مهمة سكندرية مما أغراه بالزحف مع الزاحفين بأتجاه الأنفتاح الأقتصادى ، بدأ صغيرا وسافر كثيرا يستجلب بضائع من هنا وهناك . شهور قليلة كانت كافية ليزيد من حجم ونوعية بضاعته المستوردة ، أزكاه أسم عائلته ووسامته ولباقته فكسب المزيد والمزيد .

على غير العادة جلست أيات ككومة داخل كرسيها جامدة فى مكانها لايتحرك منها إلا رأسها كبندول ساعة نافية كل أجتهاد خرج على لسان نديم الذى راح يتلوعليها أسماء من يعرفهم . أردف يخمن : شوكت أبن الأستاذ وهبى .. طب صبرى ابن جليله هانم .. يبقى الأستاذ سيف اللى شغال فى الخارجية . رمته بنظرة أقنعته بأن الزوج المنتظر ليس من بين تلك الأسماء ، نطقت بكلمات مقتضبة توضيحية: هو أنسان فقير مايملكش أى حاجة ولا من عيله معروفة ولا فى منصب مهم .. قالت ذلك دون أن ترفع عينيها . ألتحقت به صدمة تمددت على أثرها كل ملامحه فى ذهول قبل أن يتماسك ويطرق أسماعها

بكلماته محاولا أسترجـاع ما تبقى لـها من ذاكرة : أيه اللى بتقوليه ده يا أيات أنا مش مصدق نفسى ، فين كلامك عن النسب والعائلات الكبيرة وأننا لازم نحافظ على أسم عيلتنا .. مش قادر أفهمك .. تحرك يدور حولها وكأنه يكتشفها من جديد . بنبرة أزدادت حدتها : مش أنتى اللى قلتى أن لازم العائلات الكبيرة تحط أيدها فى أيد بعض عشان يحافظوا على اللى باقى منهم ومش أنتى دايما اللى كنتى بتأنبينى وتتريقى على لما كنت أصاحب ولا أتعرف على حد مش من طبقتنا أو أقل مننا مش ده كلامك يا أيات .. قالها كمن يتخلص من أرث غير محتمل . أردف : أنا عمرى ما حأغير رأى ولا حأتراجع عن أى مبدأ أتربيت عليه .. مش ده كان كلامك ياأيات . بحثت عن حبل من أحبالها الصوتيةيصلح للدفاع عن موقفها : مين قالك أنى حأتنازل عن مبادئى .. الحكاية كلها أنى حأتنازل عن مسألة هو أبن مين وعنده أيه قصاد أنه بيحبنى ورومنسى ده غير أنه كمان بيعشق البيانو والموسيقى أكتر منى .. يعنى حاجة قصاد حاجة . قامت حين دبت فيها حماسة مفاجئة وتوارت داخلها حالة الضعف لتحل مكانها نظرية جديدة لازالت فى بداية التكوين تعلن عنها : هو فعلا شاكر من طبقة غير طبقتنا ومن بيئة مختلفة عننا لكن تكوينه وتفكيره زينا بالظبط . شردت للحظات ثم عادت : هو جنتلمان جدا وفاهم كويس فى الأصول وراقى أوى فى تعاملاته .. أستشعر " نديم " الهيام فى كلامها فسحب نفسا عميقا : ع العموم أنا مش جاقولك رأيى دلوقتى لازم أسأل عليه الأول .. أستدار خارجا من الغرفة بعد أن ربت على كتفها محذرا : راجعى نفسك تانى يا أيات .. نكست رأسها ثم رفعتها فى قناعة : راجعت وفكرت .. حين بلغ باب الغرفة ألتفت إليها بأبتسامة عارضة : أنا حطيت لك النهاردة ألفين جنيه فى حسابك نصيبك عن التلات شهور اللى فاتوا .

أنطلقت " أيات " دون خبرة أو تجربة يجرفها شلال هادر من الحب يجمعها بـ "شاكر" وحدثته بلهفة عن ترتيبات وخطوات مالية ستقدمها لأتمام الزواج فى فترة وجيزة . حاولت أن تقيم له معبرا للمستقبل ، وكان لها ما أرادت ، تزوجت سريعا بالرغم من قلق نديم وأعتراضه ، أنفقت كل ماتملكه مما تحصلت عليه من نصيبها فى تجارة أخيها ، وفرت سكن لائق فى منطقة " أستانلى " مع أثاث فاخر يليق .. أرتاح فى حضنها وأستبدلت به كل شيىء كانت حورية غضة لها خبرة المتمرسات رغم أنه كان أول من يطأها ، تركت كل شيىء خلفها حتى الخروج على هيبتها وطبقتها ، لم يعد يشغلها ذلك ، ما يشغلها هو أن تحافظ على معشوقها .

" شاكر" لم يقنع بما آل إليه حاله من راحة فى العيش ، بل راح طموحه ينمو ويكبر فتفرغ لموسيقاه وأجتهد وطور من أداءه فأنجز خطوات مهمة فى التأليف الموسيقى جعلته واحدا من أشهر ملحنى الأسكندرية غير أن أيات سبقته بخطوة متقدمة كعادتها معه حين فاتحت صديقتها الحميمة " سناء الدمرانى " حفيدة الدمرانى باشا وزوجة الدبلوماسى " عبد الجليل نور الدين" والتى تعمل حاليا بمبنى الأذاعة والتليفزيون عندما ألحت عليها فى مساعدة زوجها بما تملكه من علاقات فى الوسط الفنى بحكم الوظيفة لعلى الفرصة تساعده فى الخروج من المحلية السكندريـة إلى القاهـرية الأوسع والأرحب ، لم تبخل " سناء " فى دعم شاكر ودفعت به الى الوسط الغنائى يعرض ألحانه التى نالت أعجاب شريحة كبيرة منهم ، لم تفارقه " أيات " فى رحلته القاهرية الصعبة كانت كظله تسنده وتدفعه إلى الأمام وراحت تحصى نجاحاته المتوالية السريعة قبل أن يطلب منها العودة إلى الأسكندرية كى يتمكن من تجهيز شقة مناسبة بالقاهرة بدلا من المفروش المؤقت بمنطقة الدقى ، أخبرها بذلك فى أطار كلمات مؤثرة :أنا مش عايز أتعبك أكتر من كده أرجعى لبيتنا فى أسكندرية لغاية ما ربنا يفرجها وأجهز شقة تليق بينا .

مر صيف وخريف وشتاء ولم يأت الفرج مكتفيا بزيارات خاطفة متقطعة من باب الواجب يتخللها بعض الأتصالات التليفونية كدواء مسكن . طال الأنتظار وطالت الأيام قبل أن يطالعها وجه كئيب الملامح برتبة " صول " تابع لقسم شرطة سيدى جابر يسلمها ورقة طلاق رسمية ثم أتبعها برسالة دامعة بعد يومين تحمل كلمات شكر وتقدير عن المرحلة الماضية مع بعض الجمل " الفيشنك " من طراز الظروف أتغيرت وفى أمور كتيرة أستجدت ، كان بالـغ الرقة والأنسانية كعشماوى حين يخاطب ضحيته بهدوء قبل لحظة التنفيذ " نفسك فى حاجة قبل ما تموت " حين تمنى لها التوفيق وحياة أفضل وأوقات سعيدة .. تركها وحدها تتجرع مرارة الفشل كما لم يتجرعه أحد من قبل .. شعرت بشيىء بـداخلها بدأ يهوى إلى القاع . أيقنت بعد فترة من الذهول أن رحلة زواجها القصيرة كانت مرتجلة لا أفق لها ، عادت كما كانت الى بيت محطة الرمل تحمل لقب مطلقة بعد أن باعت شقة الزوجية بما فيها الأثاث وكل كبيرة وصغيرة ، أرادت أن تقتل تلك المرحلة من دون ذكرى ، سكنت غرفتها بعد طلاقها أختيارا وكرها لعلها تصلح لتسوية العلاقة النفسية داخلها بعد أن ملأها خوف وظلامية مرعبة ، سترت عرى جسدها فى غرفتها لم يعد لها أحد تستطيع أن تعرى أمامه فشلها أو حاجاتها وكأن الجنس فى حياتها والرجال ذكرى قديمة ، أغلقت كل الأبواب والنوافذ . عادت عذراء .

000000000000000

كانا نديم وهدى وسط دائرة من المحتفلين أمام مدخل كازينو " الشاطبى" يتلقيان التهانى والتبريكات بزواج سعيد بعد أنتهاء مراسم ليلة العمر التى أحيتها بأقتدار مطربة أسكندرية الأولى " بدرية السيد" بصحبة الفنانة " سماح " ومطربها الأول " عزت عوض اللـه " ، تحرك الموكب يغص بالأهل والأصدقاء بأتجاه سيارة "نديم" البيجو 504 لتقلهما الى عش الزوجية ، بينما الحاج قبارى ولفيف من تجارالأنفتاح فى وداع العروسين عند باب السيارة .. أرسلت هدى أبتسامة تشمل جميع المودعين قبل أن تعانق أمها بفتور والتى جاءت خصيصا من طنطا لحضور المناسبة ، عند باب السيارة وقبل دخولها أدلت بتوصية أخيرة همست بها لـ " عم مرتجى" : خد عمتى فى أيدك وما تسيبهاش الا وهيه فى شقتها .

خطوة مرتبكة داست بها هدى مدخل البناية الضخم حين أجتازته بصحبة زوجها قبل أن تتماسك على أثر زغرودة مجلجلة جرحت وقار البناية وهيبتها كان مصدرها حنجرة " أم نور" زوجة " نوح" البواب ، أمراة قصيرة سمارها داكن خربة الفم إلا من نابين فى الفك العلوى ظهرا حين أبتسمت وهى تفتح لهما باب المصعد . حاولت " أيات" مع قدوم هدى أن تكون مجاملة ومرنة ورغم ودها الظاهر إلا أن شيئا مخيفا كان يتسرب منها إلى من تحادثه ، ربما تجربتها الفاشلة أوحت لها بذلك التوجس وربما كلماتها الرتيبة وصوتها الحزين أخرجاها من دائرة الأعتيادية إلى دائرة الأرتياب ، حقيقتها تبدو دائما لهدى غامضة ومستحيلة ورغم ادراكها بأنها فارغة لا رأى عندها ولا حكمة وتعلم تماما كم هى مسكينة وتشعر بها حاضرة غائبة مسجونة فى غرفتها التى أبتلعتها مكتفية بما حولها من ممتلكاتها الأنسانية .. بيانو وكتب وأسطوانات قديمة وشرائط كاسيت بالأضافة إلى ظلها الذى يرافقها فى كل مكان .. خادمتها نعمة التى لا تفارقها إلا عند النوم .

مرت الحياة بهدى خفيفة طرية ، رقة نديم المفرطة كبلتها تماما وباتت تتمنى رضاه عنها ، كانت تعرف كيف تتقدم وكيف تتأخر ، كيف تظهر فى يومه وكيف تختفى ، يحسدها على وجودها المكتمل الذى رضى بها ورضيت به ، تعامل معها بحس الزوج الناضج وصاحب التجارب يحترم شطحاتها فى بعض الأحيان ولا يكاد يعاندها إلا على سبيل الممازحة والتغيير ، غير أن ألتصاقه الوطيد بالعائلات العريقة حسب نشأته ومراعاته المجاملات العائلية جعلاه يضعها فى قرارة نفسه فى رتبة ناقصة لم يكشف لها عنها أبدا . تبلورت شخصية هدى القوية فى أمساكها بكل خيوط تجارته وأعماله .. وثق فى أفكارها

فخططت له سيناريو معظم صفقاته الناجحة مدعومة بخبرتها السابقة بمكتب " الحاج قبارى " ، كان يحس فيها بالذكاء وحسن التوقع ، فأمن بها وأقتنع بألا يأخذ قرارا منفردا دون الرجوع إليها .

مرت الشهور فى سرعة فاذا معهما مخلوق ثالث صغير يحبو ويلهو ويضحك فتتسع دائرة السعادة ، ثم ثان وثالث وجماعة أنسانية حقيقية فى المنزل ، أنها أسرة نديم وهدى وأبناءهما الثلاث نورا ويوسف وبسمة .

فى معظم أوقات النهار يتحول المنزل إلى فوضى وهياج بفعل يوسف وبسمة فى حين تحولت نورا إلى مشاكسة أبيها بطريقتها المفضلة عندما تلف جسمها فى حركة دائرية سريعة قاصدة صفعه بضفيرتيها الطويلتين التى أشرفت عليهما " نعمة " فما كان منه إلا أن يضمها إلى صدره بقوة حتى تضحك وتبكى بينما " يوسف " يسير متخبطا ومترنحا كسكير السيما فمازال يستكشف خطواته الأولى يتلمس الجدران حتى يصل بعد عناء إلى باب غرفة عمته التى تنهض من جمودها بعدما تستقبل أذنيها خربشة أصابعه ، تفتح فرجة صغيرة .. تأملته بعد أن تفككت ملامحها لتسفر عن أبتسامة واهنة حين جثمت على ركبتيها لتحازيه ، تتسع عينيها لتحتوى ملامحه : أنت شبه نديم الخالق الناطق بس الفرق الوحيد أنك من غير شنب .. كان مزاجها يسمح بذلك التعليق ، جذبته وأحتوته فى حضنها فبدا له بطنها الساخن وصدرها النافر كأنهما وسادة حشيت قطنا ، دائما ما يشعر بالراحة نحوها . كانت أيات بالنسبة لأبناء أخيها صاحبة عينين يختلط فيهما الهدوء بالصرامة بخشونها ولا يجرؤن على أساءة معاملتها بل يخفضون أصواتهم إذا أقتربوا من غرفتها يتحفظون فى البكاء أو التعلق بها حين تستعد خارجة للقيام برحلتها المعتادة والمحدد لها يوم الخميس من كل أسبوع حيث تنطلق من كورنيش محطة الرمل سيرا حتى تستقر بوجهها الحزين أمام شاطىء سان أستفانو تنفث خلالها ما فى داخلها من دخان الذكريات تناجى البحر وتشكو له ظلم البشر لعلها تجد بين أمواجه أجابة شافية تقطع بها الأسئلة التى تنمو داخلها كنبات اللبلاب يرسم بأوراقه المتداخلة سؤالا كبيرا : هل تستحق من هذه الحياة تلك النهاية ؟ ..

شاركت " هدى " زوجها فى كل تفصيلة تخص حياتهما حتى أنها تدخلت فى أفكاره .. ناقشت وأقتنعت وعارضت . إلا إنها لم تأت مطلقا على ذكر قطعة الأرض منتظرة حضورها على لسانه ، كانت على يقين بأن هناك فكرة تشع فى ذهنه لا تفارق تفكيره مع كل كلمة يقولها عن المستقبل حين أردف بنبرات متقطعة لاهثة بعد انجازه بحرفية تمرين الضغط الليلى التى أستقبلت فيه زوجته كل ضغطة بتأوه ولحمها الأسفنجى تحته يمتص كل ثقله فى لياقة وليونة : " فللينى " صاحب مصنع النجف

والأستراس اللى فى نابولى عرض على أشترى كل أنتاجه لمدة تلات سنين وحيدينى خصم حوالى عشرين فى الميه .. تباطأت أصابعها التى تعبث فى شعر صدره قبل أن تزحف بجسدها مستندة الى ظهر السرير : هو عرض ممتاز والسوق محتاجه ومكسبه تقريبا مضمون وماحدش حيقدر ينافسك .. قالت جملتها وأعتدلت جالسة بعد أن أرتدت الروب طوت فيه نهديها بينما حاجبيها على حالهما مرفوعين تترقب الجملة المنتظرة منه التى باتت على حافة لسانه وستنزلق لامحالة ليفرد لها حيزا فضفاضا من الوقت والحديث ، فأحست فى داخلها بقوة وجرأة تدفعها لفك عقدة لسانه ، حثته على أستجلاء فكرة تجاهل الحديث عنها ، وبدون مقدمات وجدت نفسها تصارحه : الخطوة دى يا نديم حتحتاج لراس مال كبير قوى وكل ما تكون السيولة تحت أيدك حتعرف تاخد اللى أنت عايزه ولوفتشت فى أيطاليا كويس حتلاقى عروض أحسن من عرض فللينى بس المهم أن فلوسك تكون حاضرة .. الفرصة لما بتيجى ما بتستناش كتير .. أهتزت سيجارته المعلقة بين شفتيه قبل أن تشعلها له : والحل أيه ؟ بعد أن تحاشت خيط الدخان المنبعث من فمه . أقتربت منه : نبيع حتة الأرض وساعتها حيكون رأس مالك كبير ومحترم .. تأمل وجهها كأنه يحاول قراءة ما يموج فى خاطرها وبينما لاح فى وجهه تجهم جعلها على وشك الأقتناع بأنها فاهت بشيىء محرم . تنهد كثيرا ، طال صمته ممزوجا بحيرة حين جلس عند حافة السرير منحنى الرأس مشتت الذهن ، حاول أن يوفر لنفسه فسحة من الوقت لترتيب أفكاره ، لكنه لم يحظ بفرصة التفكير حين شدت هدى جسمها فى حماسة وبحركة أكروباتية كانت على الأرض جاثمة على ركبتيها بين ساقيه تتحدث بلهفة عن فكرتها التى أستفاضت فيها فى محاولة لأقناعه وهو منصت كالمذهول يتابع تحليلها المنطقى عن جدوى بيع الأرض والنقلة النوعية التى تنتظره .. رحل ببصره نحو نافذة غرفة النوم شاردا يتخيل أنطلاقته الكبرى وموقعه المتقدم وسط رجال الأعمال بالأسكندرية وخيال يداعب رأسه فى أستحياء أن يعيد لعائلة " السبروتى " عزها ومجدها القديم .. لم ينطق بعدها سوى بكلمة واحدة ممتدة تحمل شجن وتأثر : موافق . بعد موافقة " أيات " الشكلية وبموجب توكيل رسمى عام منها باع الأرض ، فأمتلك وفرة من المال ساعدته على أتساع تجارته .. زادت صفقاته التى أدارها منفردا وفى بعض الأحيان بمشاركة الحاج قبارى بتوصيه من هدى والذى أصبح مكتبه محطة يومية لنديم .. وفى أحدى تلك الزيارات وحين دخوله حجرة المكتب كان " نسيم الشرقاوى " جالسا يملء الكرسى الجلدى يتداول ببطء حديثـا مريـرا عن الوضع الأقتصـادى المتأزم : وده ياسيـدى " نديم السبروتى " صاحبى وحبيبى وكمان مراته زى بنتى بالظبط .. قالها " قبارى " مقاطعا فور دخول نديم من الباب الذى أسرع بأتجاه الضيف . صافحه : هو فى حد فى أسكندرية ما يعرفش نسيم

بيه الشرقاوى ملك العربيات . بعد عناء فى النهوض وأرتجاج فى الأرداف لملم نسيم لحمه الذى تجاوز حد السمنة بمراحل وأظهر أبتسامة سمجة فرد لها مساحة فى وجهه قبل أن يستقر فى وقفته مرحبا بتواضع لايتناسب مع سحنته غير المريحة حيث الرأس مسطحة يعلوها فروة مصبوغة بالسواد أفرط فى دكها فأضفت على ملامحه قدرا من البرود المستفز تزيد من فجاجته جبهته الضيقة التى تتكاثف خطوطها كلما رفع حاجبيه بينما يختزن فى عقله دهاء ومكر كما يختزن سمنة مبالغا فيها تحيط بكرشه وبمؤخرته التى دائما ما تمثل له عقبة حين يدخل أو يخرج من سيارته فيضطر أن يخرجها أولا ثم يتبعها .

دقائق مرت لم يحاول فيها " نديم " أن يرمش بعينه منصتا فى أهتمام مستقبلا تحليلات " نسيم الشرقاوى " حول المتغيرات فى الأقتصاد وبرنامج الحكومة الفاشل فبدى كمحاضر متمكن وهو يبدى ملاحظاته : شغل السبعينات والتمانينات خلاص أنتهى ماعدش فيه تجار شنطة الزمن ده ولى وكسب من كسب واللى خسر خسر واللى فاضل من التجار دلوقتى يا أما مسنود من فوق أو فاهم المرحلة صح وبيلعب على أساسها ويادوب بيعرف يطلع مكسبه بالعافية بعد التضييق على المستوردين بين ضرايب وجمارك دوبل .. كانت كلماته الأخيرة كافية بأن تخرج أنفعالة عفوية تشكلت سريعا فى نبرة الحاج قبارى : واللـه عندك حق يانسيم بيه الشغلانة دى بقت كلها وجع قلب تدخل المينا عشان تسلك كونتينر واحد تلاقى مية سكينة أترفعت فى وشك اللى يدبحك فى الرسوم واللى يدفعك أرضية وفوقها غرامة ده غير الرش طول ماأنتى ماشى على المقاطيع . أغمض " نديم " عينيه قبل أن يمربكفه ماسحا وجهه لعله يخفف من حدة المخاوف التى تجتاحه : والحل أيه يانسيم بيه فى الحال المنيل ده ؟ .. أستند بظهره للوراء فاردا ذراعه على مسند كرسيه يطرح أحد حلوله المجربة : واللـه ياجماعة التاجر الشاطر لما يلاقى باب رزق أتسد يدق بباب تانيه ..

ـ نورنا ؟ .. تساءل الحاج قبارى.

ـ في سوق جديد أتفتح مليان من خيرات ربنا من أكل وشرب وأجهزة وعربيات وأكسسوارات وكل اللى يخطر على بالكم وكمان أرخص بكتير من أسواق أوروبا كلها . ترقب قبارى وضاقت عينى نديم . بينما أستأنف بصوت مسرحى : الصين وتايوان همه المستقبل .. سوق كبير وجديد ورخيص ولسه مأأنتشرش واللى يعرف سكته مش كتير واللى عايز يعمل شغل صح ويكسب صح هو اللى يلحق

أول قطفة .. ببلاهة كرر نديم : الصين وتايوان !! بعد أن هرش جبهته قال قبارى : أنا سمعت أن البلدين دول بالذات أتقدموا أوى وبقوا بيصنعوا كل حاجة .

مرت ساعة وبضع دقائق ظهرت خلالها نتائج مبشرة جاءت على رأسها تعلق نديم وأعجابه الشديد بأفكار " نسيم الشرقاوى " وفى قدرته على أستيعاب مرحلة الأزمات وهضمها ، فكانت سببا مباشرا فى أنتاج صداقة أستفاد منها نديم كتيرا حين دعمه بعلاقاته الواسعة فى حل مشكلاته المعقدة مع الجمارك والبنوك والضرائب ، كما أشار له فى أحيان أخرى إلى حلول مستقبلية تنفعه فى اللحظات الحرجة .. تقارب أثمر فى نهاية المطاف عن شراكة قوية جمعتهما فى صفقات عديدة بعد أنسحاب نديم التدريجى من معظم أعماله مع الحاج قبارى وتحوله إلى مكتب نسيم الذى شاركه فى كل غزواته إلى السوق الصينى .

تراقب " هدى" بتململ هذا التقارب الشديد والأندماج غير المحسوب وتتعجب من القوة التى طرأت على زوجها فى أتخاذ القرارات منفردا دون الرجوع إليها ، لم تملك سوى نصائح مكررة ومملة ، دائما ما كان يواجهها فى أغلب الأحيان بأستهتار : أنتى ليه واخدة فكرة وحشة عن الراجل ده .. حرام عليكى الظلم ياهدى .. الراجل كويس ومحترم وأهو على يدك تلات سفريات طلعتها معاه شفتى كان مكسبنا فيها كام ده غير الأتنين كونتينر بتوع قطع الغيار اللى جبناهم من تايوان واللى بعناهم بأربع أضعاف تمنهم . أبتلعت كلماته على مضض : أنت مش قادر تفهم أنا قصدى أيه يانديم .. قاطعها محاولا لجم عصبيته : اللى أنا فاهمه حاجة واحدة أن مكسبى مضمون مع الراجل ده ولازم تفهمى ياهانم أن البلد دلوقتى مش زى زمان الدنيا بقت مقفولة .. أحمدى ربنا وبلاش بطر . كتمت غيظها تلملم عراها منسحبة من جواره على السرير قبل أن تنتصب واقفة أمامه وهو ممدد بعدما رمقته بنظرة مستنكرة بينما هرب من عينيها يراقب دخان سيجارته : بصراحة أنا مش مرتاحة للراجل ده ولا طيقاه وحاسه أن الخراب المستعجل حيكون من تحت راسه . سرح الغضب فى ملامحها وملأ أنفعالها الغرفة : ومش ده السبب الوحيد .. تقدر تقولى فى حد عاقل فى الدنيا يحط كل راس ماله فى مكان واحد .. طب أزاى..هو نسيم ده أحسن منك فى أيه .. أشمعنى هو ياخد كل فلوسك ويشغلهالك هو أنت لسه جديد فى الشغلانه دى ولا صغير ماتقدرش تعتمد على نفسك .. مش ممكن اللى أنت بتعمله ده يانديم فلوسك كلها بقت فى بطن الراجل ده .. أدينى عقلك بقى وفهمنى . بنفاذ صبر قبل أن يسحب النفس الأخير من سيجارته : أنا عارف بأعمل أيه كويس وزى ما أنتى قلتى لا أنا صغير ولا جديد فى السوق وأنتى عارفة كده

كويس ، وكفايه رغى كتير وأهدى وتعالى نامى عشان بكرة نسيم عازمنا عنده فى البيت على العشا .. رعشة غيظ أنتابتها لخصتها فى نظرة نارية قبل أن تستدير تدب الأرض بقدميها خارجة من الغرفة تردد بـ " نرفزة " : أنت أكيد عايز تجننى .. أنهت جملتها ثم سحبت الباب خلفها الذى أخذ نصيبه من غضبها سمع أنينه كل من فى المنزل .

00000000000

كانت ردودها مبتورة وأبتسامتها مصنوعة وعينيها ثابتتان تتحاشيان النظر فى وجه " نسيم " وفى ملامح زوجته المتراجعة الهزيلة صاحبة مرض " اللى مايتسماش " والتى فاضت أثاره على جسدها النحيل ورعشة أصابعها التى أرهقت أبنها " شهاب " صاحب العشر سنوات وهى تحاول أن تجعل فمه هدفا لقطعة لحم " نيفا " فى طرف شوكة مرتعشة يلهث وراءها بفمه لعله يقتنصها . هكذا كان حال " هدى " فى عزومة العشاء ، بدت كالتمثال الخشبيى تراقب بحدقيتها ثلاثتهم " نسيم" بسحنته العجيبة والمريضة المرتعشة والأبن اللاهث بفمه المفتوح .

أخيرا رفع " نسيم " رأسه ثم يديه فى أستراحة محارب قصيرة بعد معركة دامية مع سرفيس " لحمة وكفتة " كان متصدرا المائدة قبل أن يجهز عليه وعلى طبق مكرونة بالبشاميل كان على يمينه . أبتسم رافعا يده الممدودة بـ " صبع كفتة " متجاوزا وجه نديم الجالس إلى جواره ملوحا به بأتجاه هدى : هى المدام مش عاجبها أكلنا ولا أيه.. سارع نديم يتولى الرد : هى أكلتها خفيفة . قالها ثم رماها بنظرة لعلها تكون كافية لفك طلاسم وجهها بينما شاركت زوجة نسيم ببعض الكلمات التى تخرج منها بصعوبة كالروح الخبيث من الجسد الخبيث ثم تعقبها بنظرة ميتة أوأبتسامة بائسة تاركة التعليق والتعقيب لزوجها الذى سبقته ضحكة تمهد لجملة قادمة خرجت منه مع بقايا كفتة من بين زاويتى شفتيه حرص نديم على تفاديها قبل أن تصدم وجهه : حكاية أكلتك الخفيفة دى يا مدام بتفكرنى بأول سفرية أنا وجوزك كنا بنتغدى فى مطعم فى بكين والجرسونة جابت لنا طبقين خضار ما يشبعوش شهاب ومعاهم عصايتين خشب رفيعين شبه السلاية قعدنا أنا وجوزك ساعة نصطاد بيهم الخضار اللى فى الطبق . قالها وأنتابته دفعة متواصلة من السعال يتخللها ضحكات متقطعة .. ملامحه كانت تستفزحاسة بصرها ، كل ملمح فيه أحست به هدى أفعى تلسعها ، دبت فى بدنها رعشة مصحوبة بخوف غريب ، كانت تخاف عينيه لا من أتساعهما وأنما من شكل النظرة وتكوينها وما تنطوى عليه

من قلق والتواء وحدة وضعف وخبث ومكر ، فاكتشفت فيه شيىء يمس كيانها ، أرتبك ذهنها ، كان عليها أن تراجع وتراقب وتتخذ موقفا .

حاول " نديم " مرارا وتكرارا أن يهدأها ويقنعها باللين مرة وبالحزم مرة لعله يتمكن من وأد شكوكها المتنامية ومن كبح جماح قلقها ، لكن دون جدوى فثار ثورته الكبرى معلنا غضبته فى بيانه الأول الذى أكد فيه بأنه لم يصل بعد إلى حد السفه حتى تنصب نفسها قيمة عليه تتصرف فى أموره وتحدد علاقاته . هدأت مرغمة فى حين تمادى هو فى شراكته الصورية مع نسيم ، كان قانعا بكل ربح يأتيه من وراء كل صفقة مكتفيا بالمتابعة وحصر عدد الصفقات والسفريات التى ينجزها شريكه . رجته وتوسلت إليه وقلبت الأمور على كل وجه ، فلم تجد لها صلاحا إلا بأبتعاد زوجها عن هذا الرجل ، وأمام أصرارها يحتد نديم كالعادة ، صمدت فى وجهه كالصخرة ، حينها تراجع خطوة وأبدى موافقة مبدئية مع منحه مهلة يتدبر فيها الأمر من كافة الوجوه .

لم تكن " زيزيت " سوى جارة بالطابق الأول فى بناية محطة الرمل .. عندما بدأت هدى رحلة زواجها كانت زيزيت على أول طريق المجهول بعد أن هجرها زوجها بسبب تمسكها الشديد بالبقاء بجانب أمها المريضة والتى تحمل الجنسية المجرية وزوجة البحار الراحل " عاصم الدرينى " والد زيزيت والذى يقال أنه كان من ضمن طاقم " لنش المحروسة " الذى غادر به الملك " فاروق " الأسكندرية بلا عودة ، لم ترضخ أبدا لضغوط زوجها للأقامة معه بجوارمطعمه الذى يمتلكه فى أحد ضواحى باريس ، وبالرغم من عرضه الأخير أن يسهل لأمها أقامة فى دور رعاية بفرنسا إلا أنها رفضت عرضه ووهبت نفسها خادمة وممرضة لأمها حتى لحظة وفاتها وقبل أن تستوعب حياة الوحدة بدون أمها كان قد أنقضى على طلاقها ساعات . أستغاثات مكتومة ووحدة قاتلة هو ما تبقى لها من حطام الدنيا بعد فقدان الأم والزوج كما تبقى لها تقاطيع متناسقة وجسد رشيق مفصل باحكام ، هى أمرأة جميلة مثيرة للأنتباه بفضل عملية تهجين ناجحة بين أم أوربية وأب مصرى .. أيامها الأولى كانت شديدة القسوة .. تأملت وحدتها ووضعها الملتبس ، فأيقنت أنها فى مأزق والحياة أمامها أضيق من " خرم أبرة " فركبها خوف وقلق شديدين ولم تجد أجابة شافية على سؤال كبير : كيف ستواجه الحياه بمفردها ؟! ..

أجتازت " هدى " المدخل بأتجاه المصعد بعد عودتها من زيارة سريعة لعمتها التى تحاول الأفلات من قبضة عزرائل .. تراوغه داخل غرفة الأنعاش بمستشفى المواساة منذ ثلاثة أيام ، قبل أن تبطء خطوتها

خلف زيزيت التى يأست من نزول المصعد المعلق بالطابق الرابع ، مشيا سويا حتى أول درجة للسلم بعد أن تلقيا عبارة توضيحية من أم نور : الأسانسير عطلان والمهندس جاى بكره يشوفه .

ـ على العموم طلوع السلم رياضة .. هذا ما أعلنته هدى قبل أن تنال زيزيت معلومتها الأولى : أنتى مرات نديم ؟ .. وبعد سين وجيم تم التعارف سريعا فى رحلة صعود قصيرة تعمدتا فيها البطء والتمهل وعند حدود باب شقتها بالطابق الأول لم تجد هدى صعوبة فى أن تميز النبرة الحزينة فى أجابة زيزيت على سؤالها : أنا عايشة لوحدى بعد وفاة بابا وماما وأنفصالى عن جوزى . قالتها ومدت خطوتها بأتجاه شقتها متجنبة لقاء الأعين بعد أن أنفلتت منها دمعة لم تستطع مسكها ونظرة من عينيها كانت كافية لتدرك هدى فداحة ما تعانيه جارتها من هم وحزن ، تعمدت ملاحقة عينيها بعد أن تخطفتها ملامح الأسى : لازم تكونى جامدة يازيزت وعندك أرادة وإياك تستسلمى للوحدة أو تضعفى . تلقت النصيحة دون تعليق وأن زادت كمية الدموع التى تحبسها فى عينيها فأضافت هدى ما يخفف عنها ..عايزة أقولك انى أنا كمان ظروفى شبه ظروفك والدى مات وأنا صغيرة وماما أتجوزت بسرعة وكملت حياتى مع عمتى العجوزة يعنى تقريبا كنت عايشة لوحدى ، لكن لما أشتغلت وأعتمدت على نفسى الدنيا كلها أتغيرت من حواليه .. صوتها الهادىء وتعاطفها الشديد كان سببا قويا لتعلق زيزيت بها ، حاولت بحماس أستضافتها .. أعتذرت هدى قبل أن تقطع لها وعدا بزيارتها فى الغد .

أعتادت " زيزيت " على حياة الوحدة لايزورها أحد ، تقوقعت داخل شقتها شاغلة نفسها بالتنظيف والترتيب وفى بعض الأحيان تمارس هوايتها المفضلة فى أقتباس موديل فستان أو جيب من مجلة " بوردا " للأزياء تقوم بتفصيله بنفسها ليخرج من بين يديها مطابقا تماما لصورة " الكتالوج " . أستمرت معها تلك الهواية من بين مجموعة هوايات أنقرضت كلها .. وحين فتحت فرجة صغيرة من باب شقتها وطالعها وجه " هدى " المبتسم أضاعت حشرجة صوتها التى صدأت أحباله من قلة الكلام فرحتها الطاغية ، فأختطفتها إلى الداخل بعد أن تلقت منها هدى قبلتين ودفعة مركزة من عبارات الترحيب أعادت الحيوية الى بشرتها.. تنقلت هدى داخل الشقة بداية من الهول الكبير ومن غرفة إلى غرفة بعد أن تخلت عن خجل أول زيارة تحت ضغط وألحاح من زيزيت التى تسبقها بخطوة وكأنها مرشدة سياحية تستفيض فى التعريف بتاريخ كل قطعة أثاث ولوحة وتحفة مع توضيح ذكرى شراءها .. تزداد حماستها وهى تقرأ فى عينى هدى نظرات الأعجاب . إلا أنها توقفت عن الشرح حين وقفت عند مدخل غرفة نوم أمها بينما جذب الفضول ضيفتها فمطت رقبتها ومسحت المكان بنظرة سريعة تتفحص

محتويات غرفة الراحلة قبل أن تتعلق عينيها بتمثال صغير معلق على الحائط للسيدة العذراء "مريم "، ضاق حاجبيها فى دهشة حينما لمحت برواز مستطيل بأطار مذهب وبطانة سوداء كتب عليها بحروف نحاسية اللون " سورة الفلق " حركت رأسها ببطء فى اتجاه زيزيت التى قابلت أستغرابها بتوضيح : ما تنسيش أن ماما اللـه يرحمها كانت كاثوليكية وبابا مسلم .. علقت بتنهيدة : سبحان اللـه .. أخيرا سحبتها إلى غرفة نومها الغارقة فى هدوء قاتل وترتيب مبالغ فيه وكأنها غرفة محنطة ، عاينتها دون تعليق كى لا تجرح السكون ، أرادت زيزيت أن تكون ملابسها هى آخر مشهد تراه هدى فى جولتها داخل الغرفة حين فتحت دولابها وزحزحت مجموعة الفساتين المعلقة فأشارت لها بالأقتراب فمدت نظرتها قبل أن تمد خطوتها رافعة شعار الأعجاب والأنبهار وهى تتجول بعينيها تتفحص كل فستان على حدا : ذوقك هايل يازيزيت أكيد فساتينك كلها مستوردة . سبقت ضحكتها أجابتها : أنا بقالى سنين ما أشتريتش هدوم أصلا كل اللى شايفاه ده تفصيلى أنا .. حركت عينيها يمينا ويسارا ثم كررت معاينتها وهى تتلمس بأصابعها الفساتين والبلوزات تفركها وتفتش فيها عن لافتة أوشعار يشير إلى أسم مصنع أو موطن أنتاجها ، إلا أن الدهشة كانت حاضرة فى قسماتها تبحث عن كلمات جديدة فى قاموس الأشادة والأعجاب : أنت ماحصلتيش يازيزيت .

ـ أنا أشتغلت ست سنين فى أتيليه مدام " مارى " اللى فى الأبراهيمية قبل ما أتجوز . كان ذلك تنويها لازما حين قادتها ناحية الأنتريه القابع فى ركن الهول منهية أخر بند فى برنامج الزيارة بجلسة حزينة مؤثرة عندما أصاب أعترافها عن الوحدة القاتلة وشح الفلوس على نفسية هدى التى تنصت لها بتأثر لفداحة شكواها بعد أن تخلى عنها القريب قبل الغريب .. أجتاحها الهم والغم مما أستلزم الأمر منها أن تطلب كوب شاى كعادتها حين تواجه مشكلة وتبحث لها عن حل .. أعدت كوبين شاى ثم قدمت واحـدا لهدى التى بـدت شاردة تتعقب فكرة دارت فى رأسها حتى أعتقلتها مع وصول أخر رشفة لجوفها : أنتى لسه صغيرة وأدامك فرص كتيرة ليه ماتحاوليش تدورى على شغل وتبدأى من جديد لغاية ما تقفى على رجليكى .

ـ هو ده اللى أنا بأعمله دلوقتى و الحمد للـه بأتكلم أنجليزى كويس وشكلى مقبول ورحت قدمت فى كام شركة سياحة وأدينى قاعدة مستنية الرد .. لم تكن تسمع بقدر ماكانت تبحث عن شيىء ما يتحرك فى مؤخرة رأسها حتى تكونت جملة مفيدة خرجت منها بعفوية : وتدورى على شغل ليه وأنتى عندك صنعة تكسبك دهب ده أنتى خياطة ماحصلتيش .. ذوقك عالى وأفكارك حلوة .. ليه مافكرتيش فى

الموضوع ده ؟ .. ترددت فى الأجابة : كلامك صح بس الموضوع مش بالبساطة دى .. محتاج راس مال كبير .

ـ راس مال لأيه يازيزيت ؟ ..

ـ محتاجة مكان وماكينات وقرشين أصرف منهم لغاية ما الناس يعرفونى . أتجهت إليها بضحكة ساخرة : كل اللى بتقوليه ده كلام فارغ المهم صنعتك .

ساعة من التداول وتبادل الأفكار والأقتراحات قبل أن تنتفض هدى واقفة معلنة الرحيل بعد نظرة سريعة فــى ساعتها قبل أن تترك فى حوزة زيزيت حلولا عملية تتضمن حلا لمشكلة المكان بتخلى الأخيرة عن الريسبشن كنواة تؤسس عليه " الأتيليه " بينما تتكفل هدى بالماديات اللازمة لشراء ماكينات الخياطة ومايلزم من أدوات مع توفير دعاية مكثفة بين المعارف والأصدقاء . قابلت زيزيت عرضها بعناق حار مصحوبا بنوبة بكاء ساخنة أنكمشت لها أبتسامة هدى لتبدو فرجة ضيقة حزينة : أنا طول عمرى وحيدة ماليش أخوات ولا عندى حد وربنا يعلم أنا أرتحتلك أد أيه ومن النهاردة حنكون أنا وأنتى أكتر من الأخوات وحأبقى جنبك لغاية ما تقفى على رجليكى وما تشغليش بالك بأى مصاريف .. قبل أن توليها ظهرها منصرفة أردفت : وكله سلف ودين .. النهاردة أنتى محتاجانى ياعالم بكره ايه اللى حيحصل ؟! .

000000000

كان قميص النوم الأسود هو أختيار هدى المفضل ليكون شاهدا على ليلة ساخنة ، رجعت برأسها للخلف متجاوزة ضلفة الدولاب المفتوح تتمايل بشعرها الأسود تشد به نظرات نديم المتحفزة يقتنص منها ما يظهر من خلف الضلفة قبل أن تعلن عن نفسها وتواجهه بصدرها بينما الفرحة تضيىء وجهها : عشان خاطر الكلام الحلو اللى سمعته ده حأخليك النهاردة عريس .. قالتها بحيوية ردا على خبر سار فاجأها به عقب عودته قبل ساعة من الخارج : بكرة نسيم الشرقاوى راجع من الصين وأنا قررت أسحب نص فلوسى من عنده .. أنا ما قدرش على زعلك .سحبت العروس نفسها من بين الضلفتين مستعرضه أمامه جسدها الأبيض اللميع داخل القميص الأسود الذى لا يزيد طوله عن" نص متر " يتعارك فيه أعلاها مع أسفلها عن جزء يستره قبل أن يحسم نديم الصراع بينهما بأشارة من أصبعه

وهو مسترخى على سريره وهى تعنى أن تستدير فهو يعشق معاينة مؤخرتها ، فكانت لها وقفة تتقن فيها تكويرهما .

غير أن القدر المنحاز للنوائب كان يقف بالمرصاد فكان قاسيا حين قام نديم من فراشه ليشحن بطاريته بلمسة من بين الكورتين ، وما ان لمسهما حتى ألتفتت فى فزع على صوت أرتطام جسده على أرضية الغرفة .. أنفاسه كانت لاهثة وقطرات عرق مفاجئة نبتت فوق جبهته وأصطبغت بشرته بالصفرة ، بعد صدمة وذهول تلاه صراخ أستفاق نديم من غيبوبته العارضة بينما لم تهدأ هدى أو تستكين إلا بعد أقراره بالموافقة والأستجابة على أن يكون الغد هو يوم الكشف والفحص فى عيادة الدكتور " عبد العزيز التونى " بعد أن أخبرها نديم بأن حالة عدم الأتزان تصاحبه منذ أسبوع .

لم تمهله "هدى " فرصة للتراجع أو العدول فكانت تدفعه لعيادة الدكتور الذى مشى بسماعته فوق صدر نديم العارى حتى منتصف بطنه ثم ضغط بأصبعيه على الجانب الأيسر مرة ثم الأيمن متساءلا : فى هنا وجع يا أستاذ نديم ؟ .. بنبرة ألم : حاسس بشكة .. رفع عينيه متجاوزا نظارته المنفلتة حتى أرنبة أنفه موجها كلماته الصارمة بأتجاه هدى المترقبة يطلب منها بعض التحاليل الضرورية وبأقصى سرعة ، فكان له ما أراد وأنهت أجراءات التحاليل المطلوبة بحماسة وهى تجر زوجها جرا ينهى تحليل دم فتقحمه فى تحليل بول وبراز ثم عمل مزرعة لعينة من الكبد حتى نجح الدكتور " عبد العزيز " من الامساك بتلابيب المرض العربيد حين بدأ يسرد نتائج التحاليل التى أستقبلها نديم بملامح لا تختلف كثيرا عن ملامح زوجته، فالخوف والذعر عدوى تنتشر بينهما : حالة الكبد عندك متأخرة أوى.. واضح أن عندك التهاب كبدى حاد .. قالها بصيغة أتهام ، وكلما زاد سرده زاد فم هدى أنبعاجا ودهشة فخرج صوتها قبل أن تصيبها الصدمة بالخرس : والعلاج أيه يادكتور . رفع نظارته بسبابته فى تأفف لتستقر أمام عينيه : الأول فى شوية أحتياطات لابد منها أهمها أن حاجته الشخصية ما حدش يستعملها لا فوط ولا غيارات ولا ماكينات حلاقة بخلاف العلاج اللى أنا حأكتبه دلوقتى وتكون المتابعة كل أسبوعين .

خرج من العيادة زائغ النظرات : يعنى أيه التهاب كبدى . سأل نديم ولم تجد هدى أجابة شافية غير كلمات مهدئة حاولت أن تخفف بها عنه .

قلب المرض حياته .. كان ايذانا للأحداث أن تنشط فى سرعة محمومة أفقدت كل من فى البيت بما فيهم شقيقته " أيات " وصغاره الثلاث ومن قبلهم زوجته المصدومة والساخطة على مشاركة زوجها بكل ثروته مع " نسيم الشرقاوى" بعد تراجعه عن سحب نصف ماله كما أخبرها سابقا .. رأى تأجيل

الخطوة لما بعد الشفاء ، فقد الجميع القدرة على التفكير والتدبر ، لتجد هدى نفسها أخر الأمر صاغرة فى طابور القدر .

0000000000

ربما يكون القدر الذى لا يفهم أحد بعد كل حكمته يدخر لزيزيت ما لم يخطر ببالها يوما ، فبعد دعم هدى المادى والمعنوى لها ، أجتهدت وأجادت واذا بها يأتيها اليوم الذى تنسى فيه كل ايقاع ، و يصبح ايقاع الحياة هو نفسه إيقاع ماكينات الخياطة التى لا تبارحها ليل نهار . أصبح " أتيليه زيزيت " بعد مرور ستة أشهر يمتلك سمعة متميزة فى الأسكندرية ويحظى بأهتمام سيدات الطبقة الراقية ، وبالرغم من تكالب وتزاحم الزبابين على الأتيليه إلا أنها كانت تختفى وتتركه فى ذمة " أنصاف " مساعدتها ، كانت إلى جوار هدى ونديم فى زياراتها المتكررة لمعظم عيادات أمراض الكبد ، كانت لها زيارة ثابتة فى الصباح قبل بداية يومها ومثلها أخر الليل تطمأن على أحوال المريض وتدعم هدى المهزومة معنويا وهى تراقب الزوج والحبيب وقد أحكم المرض قبضته على جسده فبدا هزيلا نحيفا ، سكن فراشه لا يبارحه ، أحس أن مرضه أسقطه فى قاع الكون وأن جسمه كله مهدد بالتفكك والتحلل ، فقد شهوة المقاومة ولم تعد به رغبة أن يطفو على السطح من جديد بينما زيارات الخواجة كرم ونوح البواب لم تنقطع ، الحوارات المطولة وسرد الحكايات كانت تسرى عنه وتخفف ثقل رقدته ، قفشات الخواجة وتعمد نوح أستدعاء أغانى النوبة القديمة التى يؤديها بحركات راقصة برأسه وكتفيه كانت سببا فى تهافت نورا ويوسف وبسمة والتفافهما حول الضيفين تسبقهم ضحكاتهم وخاصة نورا التى ترى فى الخواجة قاموسا للمعرفة ، فى حين كانت تنسى أيات الحزن الكامن فيها وتتسرب من غرفتها . سجنها الأختيارى . فى محاولة يائسة لأستعادة دور الشقيقة الكبرى ، راحت تستحث فى أخيها ما تبقى له من أرادة وتذكره قبل أن تذكر نفسها بأنه أخر الأحياء فى قائمة أسرتها ، كانت تستجديه أن يفيق من غفوة المرض .. أستدعت له أحداثا قديمة وتواريخ سابقة : فاكر يا نديم لما رجعت من رحلة رشيد وأنت فى الثانوى وجالك تسمم وحالتك كانت بؤس خالص والدكتور يومها قال لازم تفضل فى السرير أسبوع وبابا اللـه يرحمه قالك عيب مافيش راجل ينام فى السرير أسبوع هو أنت قايم من ولادة ولا أيه .. هز رأسه وأشاح بعينيه هربا من نظراتها إلا أنها توالت فى حثه : طول عمرك عندك أرادة وما بتحبش الضعف ، أيه اللى جرى لكل ده . كان الطبع غلاب ، فأسترجعت بعض العبارات من تراثها القديم التى تخلت عنها بعد نكبتها ترددها يوميا على أسماعه فى نمطية مكررة : ولاد الأصول يانديم لازم يبقوا زى

الفرسان لما يقعوا يقوموا بسرعة ويبقوا أقوى من الأول .تعلقت عيناه بملامحها خرجت منه نظرة ذات مغزى فأستوقفتها دهشته ، أدلت رأسها إلى الأرض . زفرت " أيات " : عارفة أيه اللى بيدور فى رأسك .. عايز تقوللى من باب أولى أنصح نفسى .. مش كده . هزت رأسها قبل أن ينتشر الضعف يكسو ملامحها . أردفت .. أنت عندك حق .. بس أنا مش مهمة .. أنا ولا حاجة المهم عندى هو أنت .. أنت أخويا وأبنى وكل اللى فاضلى فى الدنيا وعندك تلات ولاد زى القمر محتاجينلك وكمان وراك هدى ، لكن أنا ماليش لزمة لا أدامى حد ولا ورايا حد . ثم أنحنت عند مستوى رأسه تقبله فى جبينه فربت على كتفها : ما تقلقيش ياأيات عمر الشقى بقى وكل حاجة حترجع زى زمان .

أستمر المشهد فى بيت " نديم " لفترة مكررا ومعادا بكل تفاصيله كمسلسل تركى لا يقطع روتينه سوى زيارة " سميحة هانم الغريانى " التى تجاورهم فى نفس الطابق وهى من بقايا نفس الطبقة. زيارتها كانت بمثابة أنتعاش لحظى بالنسبة لأيات وهى تنقاد معها خلف تاريخ من الأحداث والذكريات عن طبقة ولت وأن أحتفظت فى قرارة نفسها بغيرةشخصية من تجربتها الناجحة فى زواج مشابه لزيجتها الفاشلة ، فزوجها " خيرى علم الدين " صاحب نفس الخلفية والتفاصيل التى جاء منها طليقها " شاكر " كان دائما بصحبة زوجته فى كل زيارة حريص على واجب الجيرة ، له نظرة حادة حاسمة ملامحه تكتسى رجولة وخشونة .. فى منتصف الحلقة الثالثة من العمر بينما تكبره " سميحة هانم " كما يطلق عليها ساكنى البناية بعشر سنوات ، وبالرغم من هيئته العاديةإلا أنه يحدق إلى الناس وإلى الأشياء بنظرة شهباء صارمة يتمتع بقدر كبير من الوسامة لم تعد موجودة فى زوجته التى غزاها مرض السكر والضغط فنحل جسمها وترك لها ملامح وقسمات مهدمة فقدت معها كل مااللصبا من نضارة الصحة ، قبل ان يغلبها فمها ويلتوى رغما عنها وأصبح الكلام يأخذ حركة بطيئة على لسانها .

يعمل " خيرى " بهيئة الأثار أطلق عليه زملاؤه الفرس الرهوان فهو يجتاز جميع السدود بتفوق وأصرار أهلته لأن يتولى رئاسة لجنة حصر البنايات ذات الطابع الأثرى والتاريخى بمدينة الأسكندرية وكان لها أثر مباشر فى زواجة من " سميحة هانم " حين كانت تلك البناية التى يسكنها حاليا فى مقدمة عمل اللجنة وكأنما يدبر له القدر الفرصة ، ها هى الرياح تقذف فى طريقه بأمرأة جاهزة بطوق النجاة ، كان ذلك حين أستأذنها لدخول شقتها لمعاينة شرخا على يسار سور شرفتها ليرفع به تقريرا الى الهيئة ، لازمه " نوح البواب " حتى مكان المعاينة فلا يصح دخول غريب منفردا عليها فهى أرملة منذ عامين وحيدة بلا أولاد ، كانت هى من ذلك النوع الرقيق الهادىء . أنبهرت به وأنبهر بها . كان حالما

رقيقا أكثر مما تتطلبه ظروف المعيشة .. هى احلامها لم تذهب بعيدا عن حدود هذا الأنسان الذى أرهق " نوح " وأجهده فى زيارات ملحة ومتكررة بسبب وبدون وبأى حجة ، لذلك عندما عرض نفسه وحبه عليها ، لم ترفض ، وشرح لها فى أسهاب عيوب أن تتزوج ما هو أقل منها فى معظم الأشياء . نسيت أو تناست واقعا يحيط بها فطوقت عنقه بذراعيها حين أبلغته بموافقتها . لم يعترض أحدا من أسرتها بل تركوا الأمور تمضى لعل ذلك تسرية عنها وعونا فى وحدتها . أخيرا حققت له أيامه حلم يقظة على هذا النحو الرائع العجيب ؟ كان حبه لـ " سميحة " له خصوصية متصلة بعشقه للتاريخ والتراث فهو غارق لأذنيه لكل ما هو قديم ، أنجذابه الشديد لطراز البناية وهيئتها سهل له الطريق لأنجذابه لـ " سميحة " إلا أنه بعد زواجه وجدفيها لذة المرأة المكتملة جسديا وروحيا ، فأشبعته منهما ، ولم تكن شهوته الصريحة التى عاش عليها بنهم قد أتت بعد على ملاحة وجهه ومتانة بنيانه وفتنة شبابه ، لم تمهله ألتقاط أنفاسه كانت تسابق الزمن قبل أن تجف دورتها الشهرية ويغادرها الأمل ، فصادفها النجاح مرتين فأنجبت له " نادر" تلاه " شريف " بعامين .. " خيرى " لا يخفى تأثره الشديد وحزنه العميق على جارته هدى فى مرض زوجها كان يحس بمأساتها فهى أبنة طبقته وخريجة نفس البيئة كما أنها وافدة مثله على السكان الأصليين للبناية .

زادت وتيرة زيارات " نسيم " لنديم فى بدايات مرضه قبل أن تقل جرعتها مع مرور الأيام حتى تقلصت إلى مكالمات تليفونية متقطعة ، إلا أن ألحاح هدى الشديد كان ضاغطا على زوجها لأجباره على أستدعاء شريكه لزيارة عاجلة كى يستجلى منه مصير أخر ثلاثة عمليات أستيراد تمت خلال الشهرين السابقين لعله يفهم ما له وما عليه .

ماطله " نسيم " كثيرا وعدل موعد الزيارة أكثر من مرة .. توجس نديم وزادت ريبته وحاول أسكات جرس الأنذار الذى يرن فى أصرار ومثابرة فى مؤخرة رأسه ، بعد حصار وألحاح أستسلم " نسيم " لزيارة خاطفة سريعة .. حضر ليلا مرتجا فى بدلة رمادية ، أستقبلته هدى ورافقته من باب الشقة حتى غرفة زوجها سجين الفراش . أشاع متعمدا حالة أستعراضية بجسده المترهل يملأ المكان بجمل كثيرة كضربة أستباقية لتحاشى أى لوم أو عتاب عن تهربه فى الفترة الماضية : بسم اللـه ماشاء اللـه ده أنت بقيت زى الفل ياعم نديم ، ده أحنا اللى عيانين مش أنت . قالها وألتفت لهدى يرميها بضحكته السمجة بينما لم يجد " نديم " سوى أبتسامة محتضرة قابل بها " همبكة " شريكه . فبادره بعتاب قبل أن يجلس على الكرسى المقابل للسرير : شهر بحاله يا نسيم عشان تتعطف وتيجى تزورنى . تصنع الحماسة :

أوعى تقول الكلام ده عيب عليك ده أنت أخويا وحبيبى ويعلم ربنا أن اللى منعنى عنك الشديد القوى ، من يوم ما رجعت من الصين أم شهاب حالتها ما تسرش حد حجزت لها فى المستشفى الألمانى وفضلت جنبها يوماتى سايب الدنيا تضرب تقلب وبقيت أخطف نفسى أطل على الشغل اللى راقد فى المينا .. أنت عارف يانديم أنا ماقدرش أتأخر عنك .. قالها بأداء تعلب وبحركات وأشارات غير مريحة كما لو كان يقدم برنامجا أستعراضيا مزيفا . فأعتدل " نديم " بصعوبة تحضيرا لسؤاله القادم قبل أن تتراجع " هدى " للوراء تاركة نظرتها تأخذ طريقها إلى عيبنى زوجها الذى فهم ما تقصده فأنهى فى عجالة حديثه المفرط عن مرضه وتبعاته و مايعانيه من ضعف و أنتقل سريعا على رأس سؤال مباشر : أنا بقالى دلوقتى شهرين يانسيم مش فاهم أى حاجة عن الشغل و لاعارف الدنيا رايحة فين .. ياريت تفهمنى . أستند بظهره الى كرسيه قبل أن يرمقه بنظرة مبديا ملاحظة خبيثة : مش ممكن نتعب المدام شوية فى واحد قهوة مظبوط . أغلق جملته بلفتة تجاهها فهمت منها رغبته فى عدم وجودها ، حررت يديها المشبوكتين قبل أن تتجه عابسة إلى خارج الغرفة : حاضر .

أنتشل " نسيم " جسمه من كرسيه فور خروجها وجرجره خلفه مقتربا من حافة السرير : أحنا مش أتفقنا يانديم أن الكلام فى الشغل ما يتقالش أدام الحريم .سكت ولم يعلق و أستأنف بنبرة خافتة ضمانا لحبس كلماته عند محيط رأسيهما : الشغل ماشى زى الفل و مافيش أى مشاكل المهم أنت ما تشغلش بالك بأى حاجة غير صحتك .

ـ أنا عايز أعرف يانسيم أولى من أخرى . لم تفارق عيناه عينى نديم : حتعرف كل حاجة ياسيدى بس المهم دلوقتى صحتك والزيارة الجاية إن شاء اللـه حأقولك رصيدك بقى كام بالمليم بس بعدما أراجع الحسابات مع الأستاذ " منصور" . لم يقتنع بردوده ولم تكن لديه القدرة على المجادلة والمحاورة مكتفيا بنظرة غابت فيها القوة بينما حضرت النبرة المتشككة : ماشى يا نسيم ..

ـ دلوقتى حأسيبك ترتاح ولنا قعدة تانية إن شاء اللــه . قالها واقفا حين دخلت هدى مع نهاية جملته تحتضن صينية بها فنجان قهوة : معقول يا نسيم بيه والقهوة .

ـ معلش سامحينى لازم أروح البيت أطمن على أم شهاب . لم ينتظر منها ردا وفر خارجا من الغرفة ومن خلفه تتبعه وهى تشيعه إلى باب الشقة تتعقبه بعينيها مبدية أقصى درجات الأرف وهى تعاين مشيته التى أقتبسها عن الفنان الراحل " عبد الفتاح القصرى " أنفلت من باب الشقة دون أن يلتفت إليها ، فودعته فى سرها : غور كتك داهية فيك وفى اليوم اللى شفنا فيه خلقتك .

" وكما جاء رحل " جملة تصلح عنوانا لزيارة نسيم ، لم تهدأ مخاوف نديم بل زادت حدة .. أنتهت الزيارة ولم يحصل على أى معلومة ولم يصل إلى أى نتيجة .. توقف عن التفكير حين راى أنه سيدخل فى سلسلة أحتمالات " لو " التى ستزيده أرتباكا . أيقن أنه تصرف بحمق من البداية فى لحظات تكون فيها الأمور أوضح ما تكون .

عادت " هدى " بطوفان من الغضب إلى زوجها المتجمد على سريره كانت حاضرة بكل ما تحمله من شكوك بدت تتجلى الى حقائق غير أن ملامحه الباهتة وأحمرار عينيه كانتا كافيتين لأسكات كل أسئلتها حول ما دار بينه وبين نسيم ، أدركت من نظرته أنه يحتاج لدعمها ، لم تتأخر عنه فأحتوته بين ذراعيها حين نامت على صدره .. همست تردد حيثيات منطقها : ما تقلقش يا حبيبى كل حاجة حتتصلح ومش حأتقل عليك ولا حأسألك الراجل ده قالك أيه وخلى شكلك بالمنظر ده بس اللى أنا عارفاه و متأكدة منه أن الغمة دى حتنزاح عن قريب وأيدى فى أيدك لغاية ما نخلص نفسنا من الراجل الزفت ده ونعرف أولنا من أخرنا ونرجع فلوسنا تانى . رفعت رأسها وتداولت معه نظرات طويلة . ثم أردفت : المهم أنك تشد حيلك وكل حاجة حتبقى تمام . هز رأسه متصنعا ملامح متفاءلة ، إلا أن ذهنه ظل مشتتا وأنتابته سوداوية زادت من أوجاع رأسه فطلب منها فنجان قهوة يطفىء به صداعه من عيار سكر قليل بن زيادة .. بدا فى قمة انهياره العالى وهو يحاكم نفسه بقسوة . لحقها بصوت متحشرج قبل أن تخرج من الغرفة : تعالى جنبى ياهدى ماتسيبنيش .تحركت إليه فى فزع ، تأملته ثم جثمت على ركبتيها ومالت نحوه ، تسللت أصابعها إلى شعره ، تركها توغل فيه حتى غرقت أطرافها فى تموجاته ، حاول أن يرفع يده إلى شفتيها لكن يده سقطت منه فجأة بجانبه . أفزعتها اليد التى هوت : حاسس بأيه يانديم .. أطلب الدكتور . وبرغم أنه أشار لها برأسه علامة النفى فقد ملأت فمه جرعة من اللعاب المالح بدت له كأنها جرعة من الدم بينما تراقبه فى ذهول وضعف وهى على حالها راقدة بجواره وكأنها تحرسه وتحرس كيانها كله ، أستنفرت كل قوتها لتمنعه من الأنهيار حين لمحت نظرته تدور فى الغرفة قبل أن تستقر فى السقف وكأنه يتلقى أمرا من قوى عليا فصرخت فيه : قوم يا نديم أقعد .. قوم ياحبيبى أنا عارفة أنك بطل ومافيش حاجة بتهزك . ضغطت بكفها على خده تحثه : مش أنت اللى فهمتنى كده . غلبتها دموعها : مش أنت اللى قلتلى أنا بأكره الأستسلام والضعف ، كلماتها المرتعشة لم تمنع علامات الموت التى تنمو داخله وتقبض أحشاءه وتخنق قلبه ، فقد القدرة على مقاومة النهاية .. أرتعش صوته بأمنية أخيرة : بصى فى عينيه ياهدى . ألتقت أعينهما فى لحظة خاطفة قبل الموت ، تذكر فيها كالغرقى الذين يهوون إلى الأعماق .. كل بهجة حياته ، البهجة الوحيدة التى جاءت كلها من حبها ، من نظرتها

الأولى ، ومن قبلتها الأولى . ثم صدرت منه آهة تشبه آهات الوداع . مات نديم فى مفاجأة مذهلة . فتحت عينيها عن آخرهما وأطلقت صرخة ذعر عالية كان لها صدى مرعبا فى أرجاء الشقة معلنة عن بداية سباق محموم بأتجاه الغرفة تتصدره أيات بخطوات واسعة يزاحمها الأطفال الثلاثة وبخطوات أبطأ تأتى نعمة فى المؤخرة ، أصابتهم المفاجأة بالشلل قبل أن يسود الصراخ بكل أنواعه المعروفة .. الطويل والقصير والمتوسط ، شارك الجميع فى عزفه هدى وأيات ونعمة بينما تعلق الأطفال بجثة أبيهم يفعلون كما تفعل أمهم وعمتهم يهزون جسده ويشدونه لعله يصحو . أنتشر الصراخ والنحيب كالعدوى ، النظرات الذاهلة وأثار الصدمة فى الوجوه كأنها وشم .. يلفون حول بعضهم وكأنهم فى دوامة تدور فى الغرفة .. حدقت هدى فى وجه نديم الذى جف وعتم بياض عينيه فتأكد ت أنه رحل دون أن يستأذنها فأجتاحتها رغبة فى شد شعرها من جذوره .

ركعت هدى عند قبره وتأملته فى أستيعاب وهم يحفرون فى الأرض فجوة يضعون نديم داخلها ثم يهيلون عليه التراب ببساطة مذهلة .. أشفقت عليه وكانت كعادتها على أستعداد لأنتشاله من شعوره الكامن بالعجز . خيل إليها أن التراب يبكى والأرض تهتز من تحتها .. بينما أذان العصر يتردد صداه فى سماء مقابر المنارة .. (أى سر إلهى أو دنيوى ربط العصر بالموت) كانت لحظة خواء رهيبة أمتزجت فيها سمات العصر الجنائزية بسمات الموت المنبعثة من الأرض والحيطان والأحجار فتبشر بقرب النهاية وتوحى بتشابه المصير.

جلست "أيات" مطرقة فى ركن الصالة خدها على كفها وعينيها ساهمتان .. لم تعد تسمع بكاء من حولها ، لم تعد ترى السواد الذى يملأ الصالة الواسعة .. بدت ساكنة فى مكانها متصلبة الملامح إلا من رمشات بطيئة تتحرك بأنتظام على أيقاع الشيخ "عبد الباسط " الذى يجلجل من خلال أذاعة القرأن الكريم ، وكلما سكت تحولت بنظرها فيمن حولها ، تتأمل وجوه المعزيات ممن تبقى من أقارب وجيران قبل أن تعود الى جمودها حين يعود الشيخ عبد الباسط زاعقا بأعلى صوته دون أن يسمعه أحد ، لغط النسوان وهمسهن يعلو عليه ويطمسه ، وبقيت أيات مكلومة فى الصالة دون حراك بعد أن غيب وجه أخيها التراب ، مضى على رحيله أسبوع . كانت "هدى" لا تملك إلا عينان تبكيان ، وكل ما حولها أصبح خواء كأنه خلا حتى من الهواء و ما بين ضلوعها فراغ تصفر فيه ريح حزينة .وعندما أستوحدت فى غرفتها بعد أن أنحسرت عنها موجات المعزين الثقيلة الوطأة على من لا يحسن الخوض فى طقوسها ، أستولى عليها فى سكون الليل حالة من الرعب لا معنى لها ، اذ تصورت " نديم " وهو

يصحو فى قبره من غيبوبة طويلة خدعتهم بقناع الموت المهول ، فيجد نفسه فى ظلمة المحبس العجيب ، تخيلت حالته وعاشت معه تسمع زئيره المسترحم وهو ينبش سر القبر المفزع الرهيب بأظافره وينادى الناس " أنا حى طلعونى من هنا " . ينتفض كل ما فيها فزعا وترتجف شفتاها وهى تقرأ قصار السور لتبعد بها وساوس الشيطان الرجيم ، لكنها دائما فى النهاية تجد نفسها داخل قبر " نديم " تراقبه وهو ينبش سقفه .

آلت المسئولية إلى الأرملة الشابة ، سقطت عليها جميع أنواع الشقاء ، تنظر لأبناءها المتحلقين حولها يتشبثون بها كطوق نجاة أحاطتهم بين ذراعيها وهى تنهج حين رددت داخلها قسما أهتز له بدنها كله عندما قطعت على نفسها عهدا أن تحقق لهم ما لم يحققه زوجها الراحل .

كانت قطرات المطر الثقيلة تدق نافذة العنبر . أدركت فايزة أن هدى منصرفة الى مطاردة ذكريات " نديم " بين تلافيف الظلام المنتشر فى العنبر ، فلم تقطعها بالحركة أو الكلام ، وأنما قدرت حرمة الكأبة التى شردت فيها رفيقتها فكتمت أنفاسها وتركتها تنعم بشجى الأسترجاع .. إلا أن حركة "سامية " الكثيفة فى السرير المواجه تسرق نظرات فايزة التى تتابع ما أرتسم الى جانبى كتفيها فى الضوء الخافت ظل وجهها الذى بدا كشبح يتحرك على الحائط لا يكاد يبدو من تفصيلاته شيىء ، فأن لوجهها سواد عينيها و مايبدو من تلك الكتلة الضخمة المظلمة سوى بعض الثنايا وبريق شعلة السيجارة فى يدها .

يمر شريط الذكريات سريعا فى رأس هدى ، ليصل بها إلى المشهد الأخير بعدما حشرها القدر بين عوامل تتسابق كلها إلى شقائها وكان أشدها وطأة على نفسها ما تركه " نديم " من أمور لم تحسم ، كل ما تدركه من حقائق أن ثروة زوجها كلها بين يدى "نسيم " والتى تقدر قيمتها بأكثر من ثلاثة ملايين جنيه حسب أخر أحصاء ورد على لسان " نسيم " للمرحوم نديم قبل أن يقعده المرض .. حكمها المسبق على أخلاقيات " نسيم الشرقاوى " وقلقها الشديد منه وأحساسها الكامن بأنه رجل تغلب مساونه على حسناته سبب لها ضغطا عصبيا بالغ القسوة عليها .

لم يتصل بها سوى ثلاث مرات متقطعة منذ وفاة زوجها وأن كان أتصاله الأخير يحمل وعدا بتحديد موعد للقاءها غايته يومين أو تلاتة على الأكثر.. مر شهر كامل ولم يأتيها صوته . أتصلت به عدة مرات متتالية ، راوغها وتهرب منها وضاق بها ، كما حذر سكرتيرته الخاصة بعصبية : لما مرات نديم تتصل أبقى وزعيها قولى لها أى حاجة .. سافر عيان مش موجود .

أصبحت فريسة لشك يتنامى كل ثانية وكل لحظة وهى تلعن الظروف وتعتب على حبيبها الراحل ، أندفاعه بكل ما يملك لمشاركة رجل بمواصفات " نسيم " دون أن يحفظ حقوقه بعقد أو أثبات . تملكتها حيرة وتوقعات متشائمة لمصير غامض يخبأه القدر ونسيم ؟! لكنها طردت هذه الخيالات المريضة فى أصرار وصبرت أسبوعا بعد آخر ولا نتيجة . وبعد تيقنها من أصراره على التهرب أمتلأ قلبها حسره وأثرت أن تجد سبيلا أخر بعرض قضيتها على من بيده التأثير والحل كما تعتقد ، فطلبت وساطة " الحاج قبارى" للتدخل ، إلا أنه كان واضحا معها وهو يصارحها بأن علاقته سيئة للغاية فى الوقت الحالى مع هذا الرجل وتكاد تكون مقطوعة . صرح لها بتلك المعلومة من خلال مكالمة تليفونية مبديا أسفه الشديد عن عدم المساعدة محذرا فى نهايتها من أساليب نسيم وألاعيبه مع وعد منه بمتابعة تحركاته وأمدادها بأى جديد حين يتمكن من ذلك .

يومان وتلات ساعات كانت هى المدة الفاصلة بين تلك المكالمة وقرار هدى الحاسم بمباغتة نسيم فى عقرمكتبه بعد أخبارية سريعة جاءتها على لسان قبارى : ألحقى بسرعة نسيم وصل أمبارح من الغردقة وهو دلوقتى موجود فى مكتبه . أستقبلت الخبر بحماسة و " لهوجة " فسبقت حركتها صوتها ، أغلقت السماعة ثم شكرته !.

أندفعت متحفزة تتخطف ملابسها ترتديها وهى تدور حول نفسها فى غرفتها قبل أن تنطلق خارجة من الشقة وكأنها فى مهمة لضبطه متلبسا .

نصف ساعة كانت كافية لتصل وتستقر قدميها عند أعتاب مكتبه لتواجهها سكرتيرته المحشورة داخل بلوزة وبنطلون جينز تحبس فيهما شياطين دائما ما تكون على أهبة الأستعداد للخروج بأشارة من صاحب المكتب ، سارعتها بسؤال مباشر عن وجود نسيم ، لم تنتظر منها أجابة أو تتيح لها فرصة ترتيب أى رد بعد أن ضرب الأرتباك ملامحها اللعوب . حاصرتها : أنا أتأكدت قبل ما أجى أن نسيم بيه موجود جوه فى مكتبه وياريت تبلغيه أنى عايزة أقابله . قالتها ثم تحسست بكفها كتف السكرتيرة ثم أردفت : ولا تحبى أدخله على طول . تحركت الأخيرة فى بطء ورددت كالمغلوب على أمره : لأ أستريحى حضرتك وأنا حأدخل أبلغه . غابت لدقيقتين ثم خرجت بعدها رافعة حاجبيها متصدرة جزءا من الباب واضعة يدها فى خصرها تهز ساقها على واحدة ونص : أتفضلى يامدام .. مرت أمامها تتأملها دون رد .

دخلت مرهقة .. هب واقفا يرحب بها . تهالكت عند أول مقعد ، أشار لها بيده أن تجلس على مقعد مقابل ليتدبر أمره معها ، أو لتتدبر أمرها معه ، تناول فنجان القهوة من على مكتبه ، رشف منه رشفة وهو ما يزال واقفا ، ثم أستوى على كرسيه الجلدى خلف مكتبه وبدأ يداعب شاربه الأشيب بينما بقيت صامتة إلى أن بدأ هوالحديث وقد بدت على شفتيه أبتسامة القط يداعب فأرا : معلش يا مدام هدى سامحينى أتأخرت عليكى شوية .. بس حنعمل أيه الأيام بقت صعبة ومايعلم بيها إلا ربنا . أبتلعت ريقها بصعوبة تصحبها تنهيدة : كان اللــه فى العون يا نسيم بيه . رمش بعينيه فى مسكنة : نديم اللــه يرحمه أرتاح من الدنيا وأرفها . رمقته بنظرة قلقة وقد توجست شرا من حديثه : أنا عايزة أعرف حقوق نديم اللى عندك لأنى بصراحة مش فاهمة حاجة و ياريت تنورنى وتفهمنى عشان دى فلوس يتامى .كان يمر على كلماتها يعى معناها على الفور ، فالأمور واضحة . هى تريد حق نديم كاملا . فتح ملفا كان بين يديه يحاور الأوراق ويداورها ومرت فترة صمت ، تعمدت فيها هدى إلا تعيد نفس السؤال بالرغم من الحيرة والرغبة اللتين كانتا مطوقة بهما لتعرف رده ، و ما أن رفع عينيه إلى وجهها أرتد للوراء متحاشيا نظراتها المتساءلة وقد أنفرجت شفتاه عن أسنان مضمومة فى عنف : الملف اللى فى أيدى ده يا مدام فيه كل كبيرة وصغيرة تخص شغلى مع المرحوم والنهاردة حيبدأ الأستاذ منصور المحاسب مراجعة الملف كله وبكتيره يومين وحتعرفى كل حاجة بالمليم .. ما تقلقيش يا مدام .

كانت نظرتها الممتدة تتحدى حركة عينيه المرتبكة ثم تنهدت وهى تنهض فى بطء قبل أن تعثر على نبرة لم تتداولها من قبل : ماشى يا نسيم بيه ماجتش من يومين . قالتها بلهجة تهديدية .

ـ ما يصحش تقومى من غير ما تشربى حاجة . لم تتبدل نبرتها : معلش نأجلها كمان يومين . عقب عودتها من مكتب " نسيم الشرقاوى" تغيرت طبيعة الأمور فوضحت بعض النقاط ، وعلى النقيض أصبح بعضها مدعاة لبلبلة الأفكار أكثر من ذى قبل . كان فكرها يتنقل على رؤوس الأسئلة التى تدور فى رأسها فى سرعة فائقة ولا تقف على أى منها وقفة تمكنها من أستيعابها وتخزينها ، أنتابها ذلك الأنحراف المزاجى الذى يشعر به الأنسان عندما تضطره الظروف إلى الغوص فى حالة الحزن والأسى .

دخلت غرفتها صامتة . ظل الصمت قائما ، فأكرهت نفسها على الجلوس على طرف السرير وأستمر صوت طحن أضراسها غير المجدى .. وجدت نفسها مطوقة بشخوصها وأحداثها ، أمتلأ خيالها بالمشاهد والصور وأيام هاربة جمعتها ، وأخرى كانت غائبة أمسكت بها فى زحمة تلك الوقائع وكل حدث زاحم فى ذهنها حدثا أخر فى نفس الدهشة حين سألت نفسها بقسوة : كيف تساهلت وسمحت

لزوجها فى بداية الأمر أن يبتلعه نسيم بتلك السهولة ؟ خرجت من السؤال إلى همومها الأنية .الضغوط تتزايد حدتها كل يوم ، المراسلات تكاد تكون اسبوعيا من إدارة مدرسة نورا ويوسف تستنكر فيه التأخير فى دفع الأقساط بخلاف طلبات يومية متجددة تزيد الوضع سوءا وتعقيدا تدفعها إلى الكأبه كلما وجدت نفسها وحيدة بلا سند .

تمددت فى تعب تشبك يديها خلف رأسها ، وعيناها تحدقان الى السقف ، ترمش فى بطء ، تحتمى من ذكرياتها بأنتكاس الرأس ، قبل أن تديرها للحائط تحدق فيه بعينين محترقتين بعد أن لفت نفسها جيدا بالبطانية وجمعت تحتها نهديها فى أصغر مساحة ممكنة .

ظلت أيات على حالها فى غرفتها أسيرة أوجاعها وأزماتها ، تتابع مايجرى فى حياد، ليس فى حياد فقط ، بل فى أهتمام قارىء يتابع حبكة رواية يريد أن يعرف إلى أين تنتهى ، لم تعد تحس بالمصيبة . أغمضت عينيها فى قساوة تحاول فصل نفسها عن الخارج ، كى تستسلم لجوانية داخلية تعيشها بعد هذا الوقت العصيب الذى أصطدمت فيه براءة قلبها بنذالة البشر وأحتك أرهاف حسها بسوقية العالم ، فعرفت كيف تنكمش إلى نفسها وأصبحت لا ترجو من العالم شيئا بعد أن كونت لنفسها عالما من صنعها ، فكانت نبرتها محايدة وباردة ولا تعلن عن أى حس يقتضيه الموقف ، حتى أبدت هدى أستياءا وتذمرا أنعكس فى لهجتها التى أنفجرت منها كاللغم : حرام عليكى ياآيات سيبانى أتلطم فى الدنيا لوحدى عشان أجيب حق أخوكى اللى مات وأنتى مكبرة دماغك وكأن المال اللى عند نسيم مالكيش فيه نصيب ، ساعدينى وأعملى أى حاجة .. كلمينى شورى على ما تسبينيش كده لوحدى غرقانة .. جاء ردها كمجرم يقر بجريمته : أنا مافيش منى فايدة ياهدى أنا أنسانة ميتة منتهية ، لا بأيدى أساعدك ولا حتى أساعد نفسى .. أعذرينى وسامحينى . قالتها قبل أن تنسحب الى غرفتها .. المراقب يدرك أنها سلبية أكثر من اللازم . غير أن داخلها حزنا عنيفا عندما تلوذ بغرفتها . كان هياجها على فراق شقيقها من الهوس . حيث أن كلمات كثيرة كانت تمثل أحيانا على شفتيها فى نفس اللحظة التى تخلط فيها بين الألفاظ كالمجذوبة وفى سكون الليل كان يحلولها أن تخرج الصور القديمة من مخبئها فتتفرس فى ملامح أخوها وتقبلها ثم تتجه ناحية النافذة وترفع رأسها إلى السماء وتحدق فى عباءة الليل مطلقة العنان لذكرياتها قبل أن تنهى جولتها إلى ظهر مقعدها أمام البيانو ، لتحتضن أصابعها أصابع البيانو الملتصق ببرودة الحائط ، سرت النغمات الملائكية أشبه بالموسيقى الكنسية ، تنفض بها حزنها وتسرح معها .

رنين جرس الباب يشرخ جدار الصمت والحزن فى شقة هدى قبل أن ينفتح فى فرجة صغيرة كانت كافية لتستطلع " نعمة " وجوه قافلة من الجيران تتقدمهم " زيزيت " وبجوارها " سميحه هانم " فى حيازة زوجها "خيرى" وفى الخلفية منهم دكتور " كرم اسباستيان " ومن وراءه " نوح البواب " كأنه ظلا معتما .انزاحت نعمة للوراء ومعها باب الشقة فى أشارة منها ليتقدم الضيوف تزامنا مع خروج نورا من غرفتها متزعمة أخوتها لتستكشف الداخلين بينما أنفجرت فرحة مبالغا فيها أصابت بسمة عند رؤيتها للضيوف ، فهى نادرا ما ترى بشرا غير الساكنين معها ، أما يوسف فأنفرجت أساريره برؤية الخواجة كرم فى حين أبتسمت نورا أبتسامة مبتورة منكمشة بعدما أنتهت من فحص الوجوه كعادتها ، فبالرغم من كونها مازالت بالصف الثانى الأعدادى بمدرسة " ماريا أوزيليا " إلا أنها تملك حضورا قويا ولها " كاريزما " من نوع غريب ، لها طريقة كلام مميزة سريعة ومنتظمة أضافت عليها حكمة لا تتناسب مع سنها ، وكثيرا من الأحيان أستسلمت أمها لأرائها التى تخص نظام البيت وشئونه .

قالت " نعمة " بعد أن أغلقت الباب وهى تقودهم إلى الصالة : أهــلا وسهلا أتفضلوا فى الصالــون .. بادرها نوح : كتر خيرك يانعمة .. فى حين أنحرفت " زيزيت " بأتجاه نورا تضع قبلة على خدهــــا : ماعدتيش عليه ليه النهاردة فى الأتيليه . نكست عينيها دون رأسها : عشان أنا زعلانة منك ياطنط حضرتك وعدتينى أنك حتعلمينى أزاى أفصل شورت للألعاب .أنحنت تستقبلها بين ذراعيها : أوعى ياحبيبتى تزعلى منى أنا أتفقت مع ماما لما تخلصى الأمتحانات حتبقى معايا فى الأتيليه ليل ونهار و حأعلمك تفصيل كل حاجة ، مش أحنا أتفقنا يانورا نبقى أصحاب . تهز رأسها مع أبتسامة : صح يا طنط .

و ما أن أطمأن بهم المقام فى الصالون المطل على الصالة ببهائها وضوئها الصافى القليل يتدفق من الأركان . جلسوا ثلاثتهم على كنبة الصالون الذهبية ، خيرى فى الوسط بجسده الفارع يحاصره من الطرفين كرم ونوح بينما فى مواجهتهم سميحة هانم بجوار زيزيت فى حين ظل خيرى محبوسا فى مقعده يتأمل شاردا كعادته كل ما هو عتيق .. مشى ببصره بأتجاه النافذة قوسية السقف المحفورة عميقا فى الجدار ثم إلى الستائر البيض المطرزة حفرا التى تعود لزمن القصور . ورث متداول عن الأجداد . تعبره قشعريرة دائما ما تصيبه عند رؤيته لتلك النماذج القديمة ..أحتوته تلك العصور وصار شغوفا بها وحلم كثيرا وتمنى لو عاش فى رحابها يوما .

دقائق وكانت "هدى " ماثلة أمام أعينهم بوجهها الرقيق وثيابها السوداء وشعرها الملموم والخصلة المتمردة على جبينها تطل على عينان غائرتان تلمعان كبقية ماء فى قاع بئر ، بعد أن فرغت "سميحة" من عناقها تسلمتها زيزيت ومن قبلهما كلمات مواساة وتشجيع تناثرت على ألسنة خيرى وكرم ونوح .

وما أن أنتهت المقدمة الواجبة حتى أحتلت حكاية " نسيم الشرقاوى" صدر الحديث وتمطت هدى فى تفصيلاتها وأحتمالاتها . كانت عصبية وحركاتها مضطربة . شعر الموجودين بأن الأحداث تفوقها وأنها الأن تتوقع المصائب كلها و لاتستشعر قوة للمقاومة ولا حتى محاولة للفهم .

لم تكن هناك حاجة لتوجيه أسئلة كثيرة لها ، كان يكفى تأملها وهو ما طبقه خيرى الذى تفصله عنها منضدة منخفضة ، كان شغوفا لردها وهو يراقب كلماتها المحملة بالمخاوف والشكوك وتجعل جسدها يرتجف غير قادر أن يثبت فى مكانه ، حاول أن يستند بظهره للوراء كى يتمعن فى ملامحها ، إلا أن حصار كرم ونوح لم يمكنه ، فتابعها وهى تنتقل فى حديثها إلى ذكرى " نديم " و ماتركه لها من مصير أصبح بين يدى اللـه ثم يدى " نسيم الشرقاوى " أحس بها تنأى بنفسها بعيدا عن عيونهم وقد سرحت بذراعيها على فخذيها فى حين ألتزم الجميع الصمت أحتراما لأساها بينما توجه خيرى . بجوارحه كلها . منصتا حتى شارفت على الأنتهاء ، فأعتصرت كل حكايتها فى جلستها ، سمعت فيها قلوبهم تضج بالحزن حتى كبر الأسى فى وجوههم .. بدا واضحا أن هدى لا تحكى وانما تخاطب ذاتها أو تلقى من فوق كتفيها أحمالا . المفاجأة على وجوه الموجودين كانت أكبر من أستياءها ، مخاوفها من " نسيم " أثارت ذعر كل من تطاول برأسه ليفهم .

أراد " الخواجة كرم " أن يكون أول المعقبين وكأنه يريد الأفصاح عن شيىء مختلف : من رأيى يامدام هدى أنك تاخدى معاكى محامى شاطر لما تقابليه فى الزيارة الجاية وما دام هو راجل ألعبان يبقى لازم يلاقى اللى يلاعبه ! .. تطلعت اليه بنظرة تراوح ما بين الدهشة والأستنكار : محامى أيه يا دكتور كرم ده ما فيش مستندات ولا أوراق رسمية بين المرحوم وبينه.

بعد أن تمكن من لملمة تفاصيل لقاءها الأخير مع نسيم ، عقب خيرى فى صيغة تساؤل : متهيألى لازم يكون عندك حلول جاهزة .. الراجل ده ممكن يفاجئك بأى حاجة !!.. قالها وهو يقرب وجهه من وجهها الذى تصرخ فيه تعاسات وعذابات ، عدلت من وضع جسمها قبل أضطرارها للأنحناء فبرزت مفاتن وجهها رغم قنوطها وأفصاح عينيها الشاردتين عن حزن وقهر لا قرار لهما، وبعد سكتة قصيرة : ما ينفعش يا أستاذ خيرى أفكر فى حلول و لا أستنى مفاجأت الحل الوحيد أنى أجيب حق ولادى بالكامل ما

ينقصش مليم واحد ونديم مش حيرتاح فى قبره إلا لما أجيبله حقه من الراجل ده . كما شارك " نوح " قبل أن ينحنى محتضنا قاع مقعده بنبرة قدرية : معلش ياست هدى دى أرادة ربنا وحكمته وده أختبار وإن شاء اللـه كل حق لازم يرجع لصحابه . قالها بصيغة تسليم وأذعان بينما راحت هدى تتعقب أرائهم وأقتراحاتهم فى صمت وبدا وجهها كما لو لم تعبره طوال عمرها أبتسامة واحدة .. بدا قاحلا لدرجة الفزع . أدركت زيزيت مدى العذاب الساكن فى كيان صديقتها برغم تظاهرها بالهدوء .. أثار المشهد فى نفسها صورة قديمة عصرت قلبها ، لعلها تذكرت لحظة وفاة والدتها وربما معاناة الوحدة بعد طلاقها ، فبدت متوترة حتى أن عظام كتفيها لم تكن لتلمس مسند مقعدها وتأهبت لأنفعال داخلى وهى تسترق النظر إلى عينى هدى ، تقرأ فيهما ذلك النداء الأسترحامى الذى يأتى من بعيد ، قد تكون فى حاجة إلى معونة أو لمعجزة و ربما ترجو أن تترك وشأنها فى خضم مشاكلها ، فعقبت بنبرة حزينة و تقطيبة على وجهها تحسها ولا تراها : ما تقلقيش يا هدى ولا تخافى وخلى أرادتك قوية و أوعى تستسلمى ده حقك وحق ولادك وخليكى فاكرة أنك أنتى اللى علمتينى أزاى أبقى قوية وأتحمل و ماأتكسرش . تنهيدة مرتعشة : ربنا يستر يا زيزيت .. أنا كل قلقى وخوفى أنه دايما بيتهرب منى ومش قادرة أفهم ليه ؟ قاطع نوح قبل أن يهرش فى ركن شاربه : ياست هدى ما دام بيتهرب منك تبقى نيته مش كويسة وأكيد بيدبر لحاجة . كلماته أتاحت لخيرى أن يستخلص أستنتاجا :لو فرضنا أن نسيم بيتهرب منك فعلا يبقى أكيد وراه سبب و أحتمال يكون ماعندهوش سيولة وبيحاول يجمعلك المبلغ .. أو صمت ثم عاد : أو بيخطط لملعوب . أومأت هدى أهدابها بالأيجاب : هو فعلا يا أستاذ خيرى الراجل ده مش سهل ومش مريح وأكيد بيخطط لحاجة وبيدبر لشر . تنحنح كرم وكأنه يكرر سؤال يجول فى خاطرها : راجل زى نسيم الشرقاوى ممكن تفكيره يوصله لحد فين ؟ .

- ده راجل زى التعبان وضميره ميت ويسمحله بأى حاجة . راقب خيرى حركات يديها الناطقة بأقصى درجات الأنفعال الذى أنتقل إليه كالعدوى : أنا مش قادر أصدق أزاى نديم اللـه يرحمه حط نفسه فى مصيدة راجل بالطباع دى !! .. هزت " سميحة هانم " رأسها حاملة ما يشبه الخوف بالرغم من أنها كانت أكثر منهم حيرة وأعتصاما بالصمت إلا أنها تصنعت التفاؤل : إن شاء اللـه ربنا حيقف معاكى والملعون ده حيرجعلك حقك وحق ولادك .. قبل أن تنهى جملتها كانت بسمة قد أنفلتت من قبضة " نعمة " فى لحظة مرورها من الصالة الى الصالون ناحية أمها ، تشبثت بها وحشرت رأسها فى صدرها فمالت تطبع قبلة على خدها قبل ان تباغتها بملاحظة : أنا مبسوطة منك يا ماما عشان أنتى مش بتعيطى زى كل يوم !.. ربتت على ظهرها وهى تجاهد الا تستسلم لدموعها التى غصت بها .

أختنقت وأنتزعت نفسها لتنهض بينما لم تستطع " سميحة هانم " مقاومة البكاء ، فخرجت دمعتين وحيدتين غلبتاها وأفلتتا ، فدفعت زوجها إلى تعليق أخير وهوينهض من مكانه يتبعه الأخرون وقوفا : ماتخافيش يا مدام هدى أحنا كلنا معاكى ولو الراجل ده مارجعلكيش حق ولادك أنا حأقلب عليه الدنيا مهما كانت قوته ونفوذه بس المهم أجمدى وأصبرى ولو فيه أى حاجة محتاجاها أحنا كلنا أخواتك . كانت لحظتها بحاجة فقط الى شيىء من التعاطف والأحساس بمأزقها وقد فعلوا ذلك كله وفاض عنها بأريحية .

لم تصب الصور بالوهن بل راحت تجرى ببطء فى ذهن هدى فى حلكة الليل وهى على حالها ممددة على سريرها الحديدى فى العنبر .

مرت مهلة اليومين التى قطعها نسيم على نفسه لمراجعة الأستاذ منصور المحاسب ، فأستطالت وتمددت الأيام أسابيع ومن ثم شهور ، لم تهدأ هدى خلالها ، لم تنتظر ردا أو تبريرا من سكرتيرته حين كانت تداهم المكتب بزيارات مفاجئة ومتكررة وان كانت على يقين بأنه خارج البلاد بصحبة زوجته فى رحلة علاجها بسويسرا ، رغم ذلك أعتادت أقتحام حجرة مكتبه وتفتيشها ومسح المكان كله بحثا عنه ، حتى بات الأمر أعتياديا بالنسبة لـ" زيزى " السكرتيرة وعامل البوفيه .

أصبح الأمساك بنسيم بالنسبة لها كالزئبق ، ما أن يأتيها خبر وصوله ليلا حتى يتسرب فى بواكير الصباح مرتحلا إلى الغردقة يتابع مشاريعه الفندقية التى بدأها منذ شهور .

أمعن الزمن فى أهانتها ومحاصرتها ، مصاريف نورا ويوسف المتزايدة وما تتطلبه المرحلة الأعدادية من تكاليف تزاحمهما مرحلة الأبتدائي وبطلتها "بسمة " التى لا تمل ولا تكل عن طلبات الطفولة بخلاف بنود رئيسية للحياة اليومية وكثيرا من المستجدات التى تظهر فجأة دون مقدمات .

حين تلقفت آذانها خبروصوله من الغردقة فى أجازة خاطفة ، لم يستغرق الأمر منها وقتا لتباغته فى مكتبه قبل أن تقطع المسافة إليه رافعة شعار الفرصة الأخيرة مصحوبا بجراح وديون وقنابل موقوتة من الكبت والغضب .. تدق الأرض بقدميها فى عنف يهتز لها شعرها الملموم خلف رأسها فى عصبية وملامح منقبضة ونظرات حادة تخرج من عينين أحاط بهما السواد .. تحتلها قوة خفية تستبد دوما بتفكيرها المنظم وتخطيطها المتقن ، تنذرها فى تحد مستفز بأن هناك شيئا غامضا مجهولا لم تضعه فى حسبانها سوف يقلب كل مخططاتها رأسا على عقب ليجعلها تعيش زمنا طويلا كعشوائية .

أقتحمت المكان كالعادة قبل أن تلحظ عدم وجود سكرتيرته على مكتبها .. فاجأته على طريقة الكوماندوز ، كان نسيم مطروحا إلى الوراء فى وضع مبتذل ، يدخن " البيب" فى أنفاس قصيرة شرهة . لحظة دخولها راح يفرغ بعض من غضبه فى الضغط على الزر الذى يستدعى به سكرتيرته ببأس شديد . تماسك . ذاب غضبه .. تبعثر وتراجع حتى تبدد وتلاشى حين أطل بعينيه على وجه هدى . قبل أن يعاوده الغضب عندما دخلت سكرتيرته بأبتسامة أرتخى فيها كل غضبه قبل أن يطالها الأرتباك عند رؤية هدى . محاولا التخلص منها : تقدرى تمشى دلوقتى يازيزى . تتمايل كراقصة : مش حأستنى حضرتك ؟ ..

ـ لأ أنا لسة قدامى شوية . فى طاعة تهز رأسها وتنصرف ..يشير " نسيم " لهدى بالجلوس ، مال نحو درج مكتبه وأخرج ذات الملف الخاص بأعماله مع " نديم " كما أدعى . قبض على الملف بكفيه كمن يهم بأخذه لصدره . طرحه أمامه . بينما كان السكون يلف المكتب فى كفن من التلهف والترقب . يمر بأصابعه على صفحات الملف ، ثم يرفع عينيه نحوها وقد خصها بأبتسامته كأنه سلطان أصابه السأم . فى قرارة نفسه لم يكن يريد أن يعطيها ما ترجوه و لكنه كان يريد أن يزرع فيها ما أستقر فيه ، أراد أن يجعلها تقبل ما سيمنحه لها فقط . يلعب معها لعبة يتقنها دائما . يدفعها الى الأقتناع والقبول ، لتظل تقبل جزءا من بعد جزء ، حتى يصبح قبولها تسليماطوعيا ، ولا مفر منه .

قرأ الملف بسرعة تحت أنظارها المترقبة ، وكان كلما تقدم فى قراءته زادت دهشتها . أستمعت بدقة ، كى تفهم ، أستنفرت كل حواسها كى لا تقع فى فخ أو مصيدة . لم يبق الأن فى المكتب سوى مشهد متوتر حقيقى . كان يدرك من طريقة هدى فى طرح أسئلتها أثناء تلاوته لسطور هذا الملف ، أنها لا تشجعه أبدا على الأجابة والجدال معها أو أقناعها بما يريد ليس بالأمر السهل . أنه وحده يملك الجواب . جاءت نهاية قراءته للملف المشئوم مصحوبة بأداء حركى حين أنتفض واقفا وقد قرر جلاء هذا الغموض دفعة واحدة : يبقى أنتى لكى فى ذمتى تلتماية وسبعين ألف جنيه . قالها بتعالى وقد أكتفى بمظهر يليق بسيد كريم أعتاد السخاء و كأنه ينزه نفسه عن أى مساومة . ما أنتهى من جملته حتى أهتز ما فى وجهها من لحم وهى تطلق هذه العبارة كأنها صرخة أحتجاج يمازجه فزع عظيم : تلتماية وسبعين ألف جنيه .. حرام عليك أتقى اللـه ده أصل المبلغ لوحده تلاتة مليون جنيه وأكتر . فى جلسته وهو ينقل نظره بين أرجاء مكتبه متجهما : ياهانم أنا مش حرامى والمبلغ ده هو حقك بالتمام والكمال . ثم أستند بكفيه على مكتبه . يكمل : عاجبك تأخديه أهلا وسهلا مش عاجبك اللى تقدرى عليه أعمليه .. لكن أنا ماعنديش كلام تانى أقوله وكلمتى واحدة ياهانم . شعرت بنفسها تتكسر تحت وقع

كلامه المستفز ، يحاول تمرير كلماته إلى عقلها ، فيحدثها عن أشياء مكررة كثيرة ومختلطة ، نظرت إليه بعينين مملوئتين دموعا سخينة وبكلمات متقطعة بهاجس الأمنية المستحيلة : حرام عليك يانسيم بيه ، أنا عايزة فلوس جوزى كلها .. نديم الله يرحمه ما كانش بيخبى عنى حاجة وكان مفهمنى كل سفرية بتكسب كام والكونتينر الواحد بعد مصاريفه بيكسب قد أيه ، أعمل معروف دى فلوس يتامى . كانت تتحدث بلا توقف . الكلمات التى تنطق بها تبدو وكأنها أتية من مكان بعيد جدا ، من زمان أخر ، فما هى إلا ذلك النوع على شاكلة : ربنا بيحرم أكل مال اليتامى وضميرك حيأنبك طول العمر وعمر ربنا ماحيباركلك فى أبنك ولا فى مراتك .. الخ الخ . كلمات يمكن أن يحسبها المرء دعاء يتلى ، تجلى الأنفعال فى نبرتها ، تحاصره بمجموعة مصطلحات تلسعه ولاتكف عن ملاحقته وتعذيبه . تعب الأنفعال فـــــى حنجرتها ، هدأت و تريثت أملا بسماع تعليق يصدر عنه ، ظل ملازما أصغاءه بكياسة مدروسة . تجلد وتجاهل .. فى حين خيم صمت مشحون بالتوتر ، وخلال فترة الصمت تعمد أن يشغل نفسه ، أزال بظفر أبهامه قشرة جلد فى أحد أصابعه ، رسالة منه باللآمبالاة بينما عادت " هدى" إلى نفس كلماتها تستحثه فى الحاح . ضاق بها فغلب عليه الكدر حتى غص بالغضب ، فأختار عبارته بعناية شديدة ، كانت بلهجة تهديدية وملامح صارمة : أنا مش عايز أسمع كلام تانى ومش عايز مسكنة هو ده حقك وما فيش مليم واحد زيادة عن المبلغ اللى قلته. قابلت تهديده ببكاء أشبه بالنحيب ، حينما أيقن أن رسالته قد وصلت وأن المتلقى فهم تماما وأستسلم ، أنتقل بعدها إلى لهجة أخرى تقضى على أخر قلاع الأحتجاج أو حتى المجادلة : أنا قلت لك يامدام أن كلمتى واحدة ودلوقتى حأكتبلك شيك بالمبلغ وأنتى حرةولو لكى جنيه زيادة عندى أبقى روحى أثبتيه . فلما سمعت جملته الأخيرة رجعت إليها قواها وتجلدت ، وكانت الزاوية القاسية من فكها المثنى على مرارة تضفى على وجهها كله دربا من العنف والقسوة مهددة : أسمعنى كويس يا نسيم ياشرقاوى .. حقى كله حأخده منك على دايرمليم ولو فاكر أنى لقمة طرية وممكن يضحك عليها .. لأ .. أوعى عقلك يقولك دى ست وحدانية وضعيفة تبقى غلطان يا نسيم بيه والأيام بينا . كان يمكن لها أن تنتظر أو أن تتفاوض لو لم يستدعها بكلماته الوقحة وعينيه الأشد وقاحة ذات النظرة العدائية التى تسوط كل قطعة تبرز من ثنايا الثوب .. حين رفع فى وجهها سبابته : أتفضلى أطلعى بره وماتجيش هنا تانى . وقفت فى جمود يمتلىء بكل مكونات الأنفجار : يعنى أنت حرامى وكمان بجح وبتطردنى .. أيه الجبروت ده . قالتها وأندفعت نحوه بقوة ، فلما بلغت مكتبه لم تسمح للعقل أن يبدأ سيطرة حازمة على النفس ، لم يكن فى وسعها إلا أن تشبعه بسيل من الشتائم واللعنات ، تصدى لها بصفعة قوية على خدها ذات صدى أطاحت برأسها ونظراتها بعيدا عنه حين

أفترش وجهها سطح المنضدة الصغيرة الملاصقة لمكتبه . كان قهرها هو الذى يحرك المشهد كى يوغل فى فجيعة تجمعت عناصرها ، لتنسج خيوط مأساة قادمة لا محالة عندما رفعت رأسها التى عانقت " فازة الورد الكريستال " الموضوعة على المنضدة ، قبضت عليها بأصابع متشنجة ، فاذا به فى هذه اللحظة التاريخية يهتز أهتزازا عنيفا على أثر ضربة هائلة بالفازة هوت على رأسه ، تليها ضربة ثانية أنقطعت من هولها أنفاسه . فأنكسر طوله وسقط على الأرض وتكوم أمامها فأنقضت عليه تشبعه صفعا بهيستيرية كالغريق الذى يجدف بيديه . برزت قطرات ضخمة من الدم خرجت ببطء من رأسه . لم يتحرك ، أصبح لا يحاول أن يتقى الضربات ، بات مقتنعا بأن كل أحتجاج لا يجدى وان كل حركة يحاول أن يقوم بها دفاعا عن نفسه لن تنفعه . ثم نزلت النهاية نزول الصاعقة ، فأستسلم ميتا .

دوت أنتحابات هدى وتحولت إلى نداء حار تجاوزت حجرة المكتب وهى جاثمة على ركبتيها أمام كتلة اللحم الممددة وقد غابت ملامحه تحت بركان الدم النافر من كل زوايا رأسه المهشمة .

ـ عايزة حق نديم .. عايزة حق ولادى .. قوم رد علي !.. صرخاتها المجنونة أنفجرت أقوى من الضجة والجلبة التى جاء بهما رجال الشرطة ، قبل أن تمتلأ حجرة المكتب بجيران " نسيم الشرقاوى " فــى نفس الطابق مــن أصحاب المكاتب وموظفيها وعمالها الذين تزاحموا وتجمعوا فى دائرة مضطربة مهتاجة عقب سماعهم تلك الصرخات التى أعقبت سقوط نسيم صريعا .. صدمة .. همهمات .. الجميع يتكلم فى آن واحد .

بدت لينة تائهة مذهولة تتقاذفها أيدى رجال الأمن الخشنة وهم يقتادونها فى موكب تخبطت داخله قدميها وهى تجر من كتفيها .. كانت فى حالة بين اليقظة والحلم وخيل لها أنها أصبحت فى هوة عميقة ولم يعد لها مناص من الفرار منها .

بدأت رحلتها السيئة الكئيبة وهى لاتزال تعيش مرحلة الأفاقة من وضع لم تفهم بعد كيف دخلت إليه ومتى ستخرج منه . كان أول بند فى برنامج رحلتها الكابوسية هى غرف الحجز ثم التحقيقات المتواصلة ومنها إلى بدرومات الأقسام المظلمة التى تفوح فيها رائحة البول اللاذعة ورائحة العرق العطن المنبعثة من أجساد نساء لم يعرفن الأغتسال شهورا . عرفت أنماطا من البشر لا تخطر لها على بال ، بل تشككت أصلا من أن تلك الكائنات كانت تعيش بيننا ؟ .

أفاقت أيات على واقع لم تتخيل أن تعيشه يوما ، كان هو نفس الأحساس الذى سيطر على عقل وقلب أبناءها ، وأحتلهم اليأس وتحقق لديهم نفاذ الحيلة ، ولم تعد لديهم باب يتوقعون منه فرجا . وزادت مصيبتهم كبرا أنهم لم يكونوا يستطيعون البكاء ولا الندب ، من هول مصيبتهم !! .

جولات تلتها جولات فى المحاكم ، تأجيلات ثم أستئناف مع بعض الوعود والحركات والفزلكات التى أداها " أحمد السباعى " محامى هدى الذى أشرف على أنتدابه وسداد أتعابه كاملا " زيزيت " والذى جاهد فى مرافعاته أن يأخذ القضية إلى سكة الدفاع عن النفس ، حيث برر مقتل " نسيم " بأنه محاولة من المتهمة للدفاع عن نفسها من موت محقق على يد المجنى عليه .. شاركه فى أثبات تلك النظرية شريكه فى الدفاع الأستاذ " برهامى " محامى أسرة " سميحه هانم " والتى تحملت أيضا كل أتعابه .

جاء يوم النطق بالحكم .. كانت هدى تنظر إلى القاضى من خلف القضبان داخل قاعة محكمة جنايات الأسكندرية حيث أنتبهت إلى عينيه ، كان أضطرابها يشتتها ويسحبها إلى أستعطافه . جاءت كلماته حين ذكر الواقعة وتاريخها وأسم المتهمة والمجنى عليه قبل أن يرتفع صوته فجأة كى تصل لأذانها أهم جملة فى حياتها : حكمت المحكمة حضوريا على المتهمة " هدى عبد الفتاح أسماعيل " بالسجن خمسة عشر عاما .. رفعت الجلسة .

كان المشهد بالنسبة لها لا يعنى شيئا إلا أنفجار رئسها بالأسئلة وأن تبتلع روحها كل بحار الدهشة قبل أن ترسل نظراتها المفزوعة فى كل الأتجاهات ودون تركيز .. أحست بالفجيعة لأن المصير قد تقرر وما عاد هناك مجالا للشك .

حان وقت الرحيل ، أصطفت السجينات ومن حولهن ضباط وعساكر، ظهرت سيارة " البوكس " الزرقاء التى أستدارت ثم أعتدلت حتى أصبح بابها الخلفى أمام باب الحجز بينما وقف الحراس فى صفين ليمر بينهما المطلوب ترحيلهم ، صعدن السجينات وصعدت هدى مع الصاعدين . كانت مقيدة اليدين منحنية وملمومة على نفسها . ألتفتت برأسها تمسح المكان وعيناها تطرفان من نور الشمس حين توقفت عند الدرجة الأخيرة قبل أن تدلف إلى داخل البوكس تودع أولادها وحريتها .

فى اللحظة الأولى لدخولها السجن وحين مرت داخل أسواره ، راحت هدى تتحسس حجارة السجن وكأنها تبحث بينها عن حجر يستجيب لدفعتها ، ويترك لها ثغرة تنفذ منها ، ولكن كان كل شيىء متينا وصلبا ومغلقا ، وبدا الباب الكبير وباب العنبر والشبابيك ذات القضبان الحديدية وكأنها فتحات حصن

مسدود . باتت يومها الأول مسكون بالهلوسات ورؤى قاتمة ، تنهض كلما أشتدت المحنة ، الأحساس بالغربة يزحف على جسدها كالهواء البارد . يمزقها الحنين إلى أولادها .. إلى حياتها .. إلى غرفة نومها . تطبق جدران العنبر الكالحة على روحها .. خارت قواها وألقت بنفسها على السرير وأستغرقت فى البكاء ، والسرير الحديدى الصدأ يئن تحت جسدها .. أغمضت عينيها كأنما هى تريد أن تحذف العالم من حولها .. ضغطت جفنيها تعتصر دموعها حتى جفت ثم طافت بعيناها تكنسان العنبر ، كانت تتفحص الموجودين واحدة تلو الأخرى وكأنها تبحث فيهم عن سر الحياة . هن يعشن داخل جدران : هل هم أحياء أم أموات ؟! .. تساءلت ثم تنبهت .. فهذه اللحظات هى قول الفصل ، فأما تنهار وتستسلم أو تتجاوز . لا حل وسط . فكانت البداية ، تصحو وتتذكر ، وأحيانا تغيب عن الواقع بدنيا الأحلام بعد أن تحققت من الأحباط وأنقطاع الأمل .

بعد فترة لم تطل حزمت أمرها وقررت إلا تستسلم . وبدأت معركتها المريرة ضد طعام السجن والنظافة ومقاومتها المستميتة فى الهروب من غيبوبة الروائح الكريهة التى تضرب مركز الوعى فى المخ والتى تتسرب الى خياشيمها خلال زيارتها المنتظمة للحمامات ، وما أدراك .. رحلة تعذيب مؤكدة ، فأن دخلت موت يكاد يتحقق ، وأن لم تدخل عذاب ومغص وتوتر .

تمر الأيام بطيئة متشابهة . كل يوم يشبه الذى سبقه والذى يليه . ذبلت جفونها وتكسرت أهدابها غير أنها أرادت أن تتمسك بالحزم وتتعلق بأذيال الصبر كما هو دأبها . أنها تعيش داخل السجن تجربة مريرة وعميقة ، تتأمل زميلات العنبر وتقرأ ما فى دواخلهم ، أنماط من البشر وألوان وأعمار وأحجام وثقافات متباينة .. عادت " هدى " من غيبتها مع ذكرياتها الطويلة بملامح ناءت بعبء ثقيل . مضت فترة . دون أن يصدر عنها حركة وفى عينيها مكان نضارتها القديمة بدا بريقا يداعبها فى استحياء ، يكاد يلمس عتبة الحرية وأمل العودة .

ها هى " فايزة " فى تلك اللحظة عند قدميها مغلفة فى جلبابها الأبيض كأنما هى أيضا تتحضر لمرحلة جديدة . نظراتها فى وجه هدى بدت صورة ثابتة لاتتغير فى حين خرج صوت الأخيرة بطيئا متأثرا : ياه يافايزة أنا رجعت كتير أوى لسنين فاتت و كأنى بأتفرج على فيلم طويل . تنهيدة ممتدة مسحت خلالها وجهها بكفيها . قالت فايزة التى أنتقل اليها تأثير اللحظة : حاسة بيكى يا حبيبتى .. شفت عينيكى وهى بتضحك وشفتها كمان وهى بتبكى .. أنهت جملتها ودامت نظرتها الطويلة . ثم عادت حين أقتربت : تعالى فى حضنى ياهدى . رفعت ذراعيها ودارت بهما حول كتفيها . قبلتها فى جبينها . غابت هدى

لحظة فى ذاتها قبل أن تعود إلى الحاضر فى وثبة : ميعاد الزيارة قرب يافايزة ما فيش أخبار جديدة عن عبده ومنصور ؟ .. نفخت فى مرارة لا تتفق ولهجة المرح التى كانت تشيع فى كلماتها : عبده .. أخباره سودة ومنيلة بعيد عنك .. على يدك أخباره بتوصلنى لغاية عندى . قبل أن ينتفض لحمها على السرير عاودت : الراجل الناقص أبن الناقصة داير على حل شعره وكل يوم والتانى داخل فى جوازة عرفى مش قادر يصبر أبن المفضوحة لغاية مأأطلع من هنا . تخبط بكفيها فخذيها : آه يانارى اللى يطولنى رقبته ودين النبى لما أطلعله لأخليه هو والنسوان صنف واحد .. الصايع الضايع اللى عايش على أفايا وبيبعزق من فلوسى . ضحكة مكتومة تخرج من بين ثنايا وجه هدى : مش يمكن الأخبار اللى بتوصلك دى هجص وأشتغالات .

ـ أبدا " جمال النونو " الصبى بتاعى ودراعى اليمين عمره مايغشنى ولا يكدب على ده عينى اللى بشوف بيها الدنيا بره السجن .

ـ سيبك من عبده وسيرته وقوليلى منصور أبنك أخباره أيه ؟ .. تعبر وجهها غيمة حزن تشى بأن صاحبته تخفى كمدا على شيىء جميل أفتقدته : منصور ده اللى طلعت بيه من الدنيا ده الحيلة ياهدى .. منه للــه عبده أبن جليلة الطرشة من ساعة ما دخلت السجن ياختى والوله ضاع ، خاب فى الدراسة أبن الموكوسة قعد يعيد فى الثانوية العامة تلات سنين وآخرتها كمل فى القهوة مع أبوه .

ـ معلش يافايزة مش كل حاجة التعليم المهم أنه كبر وبقى راجل .

ـ كانت جوازة سودة ونسلها هباب .. اللــه يسامحه اللى كان السبب . هزت رأسها ندما وحسرة حين أردفت : آه لو الزمن يرجع تانى ؟!. مضت لحظات قبل أن تسترجع زمنها غارقة فى تواتر أفكار تروح وتجىء ، تعيد صور أيام تباعدت ، كأنما أنفتح صندوق الدنيا تتلصص من فتحته الخشبية فى غفلة من اللحظة ، على تصاوير تعيدها إلى سنوات قديمة تمنت لو لم تكن تعيشها .

حين زارها " خراط البنات " كما يردد أولاد البلد تجاوز عن جسدها وتركه يرعى بلا ضابط ولا رابط فتكور وانتفخ كـ " البارشوت " بلا تضاريس ، إلا أن خراطها اجتهد ونجح فى تشويه طباعها و تصرفاتها قبل الأوان ، فبدت عدوانية جريئة يقودها لسانا من المقاس الطويل لايرحم صغير ولا يوقر كبير ، حتى أن أبوها المعلم " عبد المقصود " صاحب مقهى البهوات فى حارة " أبن شكر " وهى تعد واحدة من حوارى كرموز العتيقة والتى لم تطأها يوم قدم أى من البهوات منذ نشأتها ، فاض به الكيل

حين فاجأه أستدعاء عاجل بخطاب " مسوجر " على يد عم " جاد اللـه " البوسطجى سلمه يد بيد للمعلم قبل أن يتناول أكراميته كوب شاى حبر وحجرين معسل بينما تلاعبت العمة فوق رأسه وهو يقلب بين يديه الخطاب : أيه ده يا جاد اللـه ؟.. رشف دفعة كاملة من الرشفات اللاهثة ثم مد بعدها بوزه وألتقط بشفتيه المبتلتين المبسم يسحب نفسا طويلا : الأستاذ عبد المجيد ناظـر المدرسـة عايزك بكرة ضرورى تعدى عليه .

ـ ليه ياجاد اللـه ؟. رفع عينيه الحولاء بأتجاه عبد المقصود وأن طاش منها الأتجاه : بنتك فايزة المرة دى زودتها على الأخر وجابت النهاية ، ضربت مدرس العربى وعضته فى ودنه وحضرة الناظر حالف ميت يمين ما تدخل المدرسة .

ـ يابت الكلب .. قالها وحزم جلبابه حول وسطه .. وله يامسعد خد بالك من القهوة أنا رايح لغاية البيت وراجع بسرعة .. خرج من العتبة يتوعد : على الحرام يابت الحرام ما تعتبى المدرسة دى تانى .

أقتحم شقته ، أنطلق من الصالة إلى غرفة نومه كالسهم ، أطاح بجلبابه العسلى المسترخى على شماعة خلف باب الغرفة قبل أن يسحب من تحته حزامه الجلدى المتدلى كالأفعى ، لحظات وكان فى غرفة فايزة رافعا ذراعه كتمثال الحرية يحرسه ضوء أصفر مصدره لمبة " تلاتين واط " تتراقص فوق عمامته.. مرت دقيقة واحدة أو مايزيد كان قد أودع خلالها عبد المقصود عشر جلدات متتالية على ظهر فايزة المتكورة عند قدميه ، جلدات لها رنين تسحبك على الفور لمشهد جلد المسلمين على يد الكفار فى فيلم " فجر الأسلام " ، إلا أنها أبت أن تتحمل لسعات الحزام ، فجلجل صوتها يشدوصراخا فى الشقة منسابا إلى الجيران موصولا بالحارة التى عانت كثيرا من لسانها وأفعالها ، فتحركت مجموعة قليلة من أهل الحارة تدفعهم شهامة بطيئة مترددة أستجابة لنداءها : ألحقونى ياناس .. غيتونى يا أهل الحارة أبويا حيموتنى . مرت عشر دقائق قبل أن يتمكن مجموعة من الجيران بالفصل بينهما وفض الأشتباك ، تم تجريده من الحزام وهو يردد بصوت متقطع كمن يلفظ أنفاسه الأخيرة : بنت الكلب دى حتموتنى حتجيبلى المرض .. كل يوم والتانى عاملالى مشكلة .. فى المدرسة بتضرب البنات زمايلها وبتشتمهم وأخرتها عضت المدرس بتاعها وعلى يدكم هنا فى الحارة الأسبوع اللى فات ضربت " وصفى" اللبان وقبلها بهدلت شلبى بتاع الخضار .. قولولى أعمل فيها أيه .. أنا زهقت . ثم أندفع نحوها فى محاولة أخرى للتخلص من الأيدى التى تمنعه من الوصول اليها قبل ان يستعيد عافيته ثانية ، صرخ فى مرارة : أمها ماتت واخواتها كلهم أتجوزوا وسابولى النصيبة دى فى أرابيزى !.. غير أن " زوبة "

زوجة " حامد " الحلاق أحتوته فى صدرها قبل أن تلقنه فى اذنه : بنتك كبرت يامعلم وآهى دلوقتى بتاعة ستاشر سبعتاشر سنة جوزها وأخلص منها وتبقى فى أفا راجل يشيل همها . الا أن " حامد " أشار إلى ملاحظة : وأهم حاجة فى العريس أنه يبقى راجل أبن أبوه عشان يقدر عليها ويعرف يشكمها

وزن " عبد المقصود " كلام " زوبة " بميزان راحة البال والخلاص من وجع الدماغ ، فأقتنع بالفكرة وتحمس لها ،بينما لم تجد قبولا عند كل من لمح له ورأه مناسبا ، لم يجد تجاوبا سوى من "عبده" الشهير بـ " الجن " فهو عربيدا فى حوارى كرموز يخطف من الخلق ما وسعه ذلك ، نصاب بالفطرة بلطجى بحكم النشأة يجيد اللعب بالكلمات ، سجين سابق بسجن الحضرة بتهمة النصب والبلطجة .

أعتقد " عبد المقصود " فى شخصيته القوة الكافية للجمها بضخامة بنيانه وأقتنائه لملامح رادعة حيث يملك شعرا أكرت يغطى رأسه الكبير وشارب كثيف يعتز به يلمسه ويداعبه على الدوام كدلوعة فى وجهه .

دخل "عبد المقصود " شقته ساحبا " عبده الجن" فى يده الذى بدا فى هيئة " فريد شوقى " فى فيلم " بداية ونهاية " حيث السوالف تغطى نصف صدغيه .. عند عتبة الصالة . أشار إليه : أقعد ياعبده حأدخل أجيب العروسة عشان تعاينها .. لم يسمع ردا بل رأى أبتسامة لم تكتمل خرجت من بين شفتيه وتوقفت عند زاويتهما .

أدار " عبده " رأسه فى كل الأتجاهات يتفحص كل شبر تطاله عينيه كاللص الذى يدرس المكان قبل مرحلة التنفيذ ، بينما يفرك كفيه محدثا نفسه بهمس : دى باين عليها حتحلو وحتلعب بالجامد ياجن . صوت" عبد المقصود " يأتيه متسللا : يابت أمشى أسمعى الكلام ، ياساتر عليكى . تقدم بها الى الصالة يجرها من يدها .. يسحبها سحبا وهى من خلفه تسير كالمخبولة .

تتطوح للوراء يسبقها صدرها وبطنها . قام " عبده " من كرسيه فى بطء ماسحا صدره بكفه كما أعتاد " محمود المليجى " فى أفلامه.. تتفحصه فايزة فى معاناة كمن يجلس فى حمام بلدى يشكو أمساكا ، تعتصر ملامحها عصرا .. أنتقلت نظرات والدها من وجه العريس إلى وجه أبنته التى تعانى الأرف وعدم الرضا ، فخرج صوته يملأ المسافة بينهما : أدى ياستى العريس نقاوة أبوكى .. ده عبده الجن ودى بنتى فايزة .. عارف يعنى أيه بنتى فايزة . أجاب عبده مرتديا قناع الخجل : يعنى بنت المعلم اللى بيعلم الأصول وكبير معلمين كرموز . قاطعه مضيفا : مش كده وبس ياجن ، فايزة دى هى الأدب كله

والأخلاق يعنى الطاعة والحنية . أنهى جملته فى أرتباك يضغط على أضراسه وهو يلكزها فى جنبها كى يستقيم وجهها باتجاه سحنة العريس . أردف : وده عبده يابت عارفاه طبعا .. هو شقى حبتين ومزودها تلات حبات لكن إن شاء اللـه ربنا حيهديه لما يحصل النصيب وتتم الجوازة . قالها وسكت ثم قرب وجهه من عبده : عشان أنا ناوى والنية للـه حأخليه يشتغل معايا فى القهوة ويبقى دراعى اليمين أنا محتاج راجل يبقى جنبى فى شغل القهوة .. ثم تحسس خد أبنته : أيه رأيك بقى يافايزة ؟. أنكمش خدها قبل أن يضيق صوتها : فى أيه ؟!.. أحتدت نبرته : فى عبده يابت ! الذى عدل من وقفته وشد صدره ونفخ رقبته كالطاووس مستعرضا طوله وعرضه .

ـ ده بلطجى يابا .. زالت نفخته وأنكمشت رقبته وبدأ كالطاووس المحتضر ثم مط شفتيه : برضه ده كلام يامعلم .أدرك أبوها بوجوب أنهاء الموقف سريعا : قوم يا عبده أتكل على اللـه دلوقتى و عايزك تجهز نفسكو تحضر حالك و الشهر اللى جاى كتب الكتاب والدخلة وأنا حأجهزلكم أوضه هنا فى البيت و حأفرشها أحسن فرش وأبقى عدى على الليلة فى القهوة .

ـ علم يامعلم وسينفذ .

لم تكن تستطيع أن تقف فى وجه حماس والدها الذى انتقل اليها وقادها إلى هذا المصير ، فسقطت خاضعة لأوامره بالزواج من " عبده " قبل أن تفقد القدرة حتى على القلق أو التفكير أو التردد بعد أن ربط أبوها زواجها من عبده بتنازله لها عن المقهى وبيتين ، الأول تسكنه فى حارة " المناجيلى" والثانى فى أخر حارة " أبن شكر " القريب من المقهى .

أنتهت مراسم الفرح فى سلام وسط حضور جماهيرى واسع ضاقت بهم " أرض الوسعاية " المواجهة للمقهى ، فى حين تصدر الصفوف الأولى لفيف من أصحاب المقاهى بمنطقة كرموز ومجموعة لا بأس بها من أصحاب السوابق المقربين من " عبده " . أكمل " عبد المقصود " ليلته فى المقهى ، ليفسح المجال للعروسين لأنجاز المهمة ، فى حين دخل العريس غرفة النوم تسبقه فايزة بخطوات مرتبكة يتحسس بكفه ظهرها . الليلة بالنسبة له ليلةحاسمة ، أو هى ليلة تاريخية كما يقول الرفاق أو ليلة مصيرية ، كما يقولون الأكثر تشددا . أما هى فكانت تنتفض وترتجف ، كان خيالا دمويا رهيبا ذلك الذى يسيطر على تفكيرها كلما تجسدت أقاويل النساء أطياف تتحرك عما يحدث للعروس فى ليلة دخلتها

أراد أن يحقق المستهدف فى ليلته و بالرغم من قوته وتحفزه عجز عن التمكن منها ، فلم تمكنه ، كانت كالعجل الذى أبصر قاتله شاهرا نصله ، فأجتاحتها نوبة صراخ وتمرد لا ينفع معها عشرين "عبده" مجتمعين .

فى اليوم التالى خرج العريس من خلوة الدخلة ، أنتحى بالأب جانبا الذى أسرع بدعوة نسوان العيلة .. عمتها نبوية وبنتها سهير ومعهما " زوبة " زوجة حامد الحلاق فى حين أنزوى العريس الذى لم يعرف كيف يحزم أمره ، وأستمر الجدل حتى ظهيرة هذا اليوم ، والعروس فى الداخل تتكور على نفسها كالفأر المذعور . أنفض الأجتماع على قرار واحد صدر بأجماع الأراء تصدر لتنفيذه نبوية وزوبة بمساعدة عبده . أخيرا دوت صرخة العروس كأنما أنغرز خنجر مثلوم فى أحشائها ، أصبع نبوية المسنون يفض الغشاء الذى راوغ قدرة عبده وأرهق كرامته وذل حيث لامذلة ، خرجن بعدها من الحجرة ، تشرعن المنديل الملطخ بدم الذبيحة . عاش شبح تلك الليلة لفترة حائلا بين الزوجين . وبعدها عرفت على يديه ، و منذ البداية لعنة الجنس الردىء ، الجنس الذى يتحول الى حلبة مصارعة وينتهى بأرهاق الجسد وفراغ فى الروح .

دخل " عبده " هذه الزيجة طامعا فيما تمتلكه فايزة عن أبيها مقهى وبيتين ، كان يأمل أن يغرف بجماع كفيه دون وهن ، لكن الأمور فى حقيقتها كانت تسير بمهارة وأساليب فايزة الخفية .. ثلاثة شهور بالتمام والكمال ودب الحمل للمرة الأولى يتحرك فى أحشاءها ، راحت تشعر بذلك الكمال والقوة التى يبعثها جنين يتحرك ، شعرت بأنها أمتلكته تماما ، وحين سحبت رأس منصور من بين فخذيها لتعلن عن وصول طفلها الأول هدأت طباعها المتمردة وسكنت وأنشغلت به لفترة ، غير أن توترها قد زاد وأشتدت عصبيتها حين تأخر الحمل الثانى ، وفى ليلة باردة . لم تجد سوى بطن قدمها رفست بها عبده فى جنبه كادت أن تطيح به من على السرير مكفيا على وجهه ، قام من جوارها فزعا تائها من سباته العميق على صرخاتها المتألمة : قوم ودينى لدكتور أنا عندى نزيف . أحتوى دهشته وهو يتمتم يلعن الساعة واليوم التى جمعته بها ، لم تنجح محاولاته فى تهدأتها وتبديد مخاوفها ، اقتادها من يدها كالشاة الذاهبة الى المذبح وسلمها لذلك الطبيب الشاب الذى لم يحصل على فرصته بعد وتولى الكشف عليها . بفرح طفولى قال : هى محتاجة جراحة بسيطة وممكن نعملها هنا فى العيادة لو حبيتوا . فكان له ما أراد .

نصف ساعة أنهى خلالها الطبيب الشاب عمله داخل فايزة قبل أن يخوض بيده المرتعشة فى تجويف الرحم بمشرط مرتبك ، لم ينطق بكلمة بعدها مكتفيا بأبتسامة وهو يلملم أدواته .. ثلاثة أيام والنزيف

يتواصل ، حينها فقط تولى أمرها الدكتور " عياد " فى قسم النساء والتوليد بمستشفى الشاطبى الذى ترك فى أذانها معلومتين ، الأولى قالها بدهشة : الدكتور اللى أنتى رحتيله ده أكيد سمكرى عملك جرح فى عنق الرحم . ثم أضاف لها معلومته الثانية قبل أنصرافها من المستشفى : وفى الغالب يامدام فرصة أن يحصل حمل تانى حتكون صعبة خالص .. الرحم بقى عامل زى الشراب المقطع ؟!.

أصبحت " فايزة " هى المستغلة لزوجها لا هو المستغل لها ، فدفعت به إلى صدارة المقهى بعد أن مرض والدها ثم مات ، بادرت هى بأعطاء أختيها عايدة وفتحية المتزوجتان بالصعيد حقهما من ميراث والدهما عدا ونقدا ، سارت خطتها للحياة كما رسمتها حين أعدت زوجها لمستقبل تستفضل أفاقه الضيقة الحدود لمهنة والدها " صاحب قهوة " مستثمرة طباعها الى أقصى درجة ، الشكيمة والقوة الصارمة القادرة على فرض أرادتها على ذلك الطامع ذى العينين القاسيتين والكفين يفركهما فى طلب للرضا مثل جرو صغير يتقافز من حولها .. فرضت عليه أنماطا جديدة من السلوك والأفكار ووجهته وجهة مغايرة عما كان يحلم به من أطماع ، لذلك عند ثورتها و هياجها ، لا يفعل شيىء سوى أنه يتكور على نفسه مستجديا الأستعطاف حتى اذا مارقت ، يطوى صدره على الألم وينكمش الى جوارها مروض النفس على القناعة بها ويركع تحت قدميها طالبا مزيدا من الرضا والغفران . حقيقة الأمر أن " عبده الجن " لم يحب هذه المرأة أبدا ، ففيها شيىء منفر دائما ، شيىء متحفظ طارد ، غير أنها بالنسبة له ضمانة حقيقية لمستقبله ، بفضلها أستهواه دور " المعلم " وأصبح له شأن وكيان ، يشعر بالذعر والخوف بمجرد التفكير فى خسارتها وأن يعود الى سيرته الأولى مما جعله مرمى لكل هدف من أقدامها.. هى مزقته فى خواطرها المكبوتة كما حاول هو دائما أن يمزقها بلسانه فى مجالسه ، حتى أحلامها طردته منها ، ودائما ما تحرجه بأستعلائها المتعجرف فى المناسبات القليلة التى جمعتهما مرغمين لتهنئة أو عزاء ، المهم أن يكون لها ظل ، ينفصل عنها بمشيئتها ، ويتبعها بمشيئتها .. لم تكن أبدا فى حاجة إليه . حاولت جاهدة بعد خذلانه لها حين طغت أنانيته وسلبيته على كل شيىء ، حتى على أبنهما الوحيد " منصور " أن تبحث عن فكرة من بين مجموعة أفكار تستثمر فيها ما تبقى لها من ميراث بعد أن ملت من أيقاع حياتها الرتيب الذى يبدأ من المغربية إلى منتصف الليل راقدة فى مكانها بجوار عبده فى المقهى ترصد كل مليم وسحتوت ، كانت كالسيف فوق رقبته ، فهى تدرك حيله وألاعيبه ، قبل أن يشير عليها جارها فى الحارة " جمال النونو " الشاب الثلاثينى صاحب عينان حالكتان كأنهما من فحم ، له جسد هزيل ووجه شاحب قلق ، كما يحتفظ لنفسه ببعض السوابق من قبيل فرض سيطرة وبلطجة ، أشار لها بأن مشروع " التاكسى" أستثمار ناجح ومضمون ، ألتزمت بنصيحته

وأقتنت تاكسى لادا فئة " 2105" أدارته بحرفية وحزم تحت قيادة " النونو " الذى أظهر أنضباطا والتزاما بحضوره اليومى للمقهى فى العاشرة مساءا لتسليمها ايراد اليوم تحت سمع وبصر " عبدة " ونظراته المترصدة لعلى وعسى يناله من الخير صدقة ، إلا أنها كانت تتعمد أن تبقيه فى الظل ولا تسمح له بالتدخل .

أفسحت " فايزة " لعقلها مجالا لأستخراج فكرة جديدة تبنتها بحماسة عقب عملية جرد مفاجئة لبعض الكراكيب المكدسة فى المخزن التابع للمقهى والذى لا يفصله عنها سوى حائط مشترك ، بعد معاينه سريعة تم اجلاء الكراسى والطاولات المهدمة واخلائه من اجولة الفحم ظهرت مساحة المخزن الحقيقية ، فأضيىءذهنها بحتمية استغلاله .. أستهوتها تجارة الملابس الجاهزة وأستقرت عليها كبداية لمشروع أستثمارى بعد استشارة النونو وبعض المقربين .. بدأت بزيارات متقطعة للمنطقة الحرة ببورسعيد ثم تحولت لزيارات ثابتة كل أسبوع بصحبةصبيها وتابعه " خضر" ، صالت وجالت بمشروعها الجديد فما كاد يمتلأ المخزن بكل أنواع الملابس حتى يفرغ سريعا ، سياسة التقسيط بل التنقيط التى اتبعتها مع اهالى كرموز كانت سببا رئيسيا فى قفزتها السريعة وتحولها من تاجرة شنطة إلى معلمة صاحبة كيان له كلمة وهيبة .. ثلاث سنوات حتى أصبحت فايزة تفهم من أسرار التجارة مالا يفهمه تاجر عتيق ، فسيطرت على دنياها الجديدة بأقتدار وقوة . خيال النصب أو " الطناش" لم يزر أبدا عقل أيا من المتعاملين معها ، الكل يدرك جبروت " فايزة عبد المقصود " جبروت أتاح للأستاذ " محمود المحامى" المكلف منها بأدارة تعاملاتها مع التجار والزبائن وكذا حسابات المقهى .. سهولة فى الأداء بدون تعقيدات لدرجة أنه لم يقدم بلاغا ولم يزر قسم شرطة ولا محكمة بل أنه لم يواجه أى مشكلة من أى نوع .

منح القدر " عبده الجن " أستراحة مؤقتة ، يستجمع فيها قواه ويلتقط أنفاسه ، كان ذلك حين قامت فايزة بغزوة من غزواتها لبورسعيد ، وكما جرت العادة وبأتفاق مسبق مع من بيده الأمر من مفتشى الجمارك ، ضاعفت فايزة حجم بضاعتها المهربة داخل سيارة نصف نقل من ممتلكاتها تحت قيادة " خضر" تحسبا لزيادة الطلب المتنامى مع قرب عيد الأضحى .. كانت دائما تدير مجريات الأمور من داخل التاكسى بصحبة النونو كغرفة عمليات متقدمة ، على نحو مفاجىء ومدبر تم تغيير طاقم مفتشى الجمارك بأخرين والذين لم يجدوا صعوبة فى ضبط البضاعة المهربة داخل السيارة بينما لم تتمالك فايزة أعصابها وهى تراقب المشهد من مخبئها وهى ترى بأم عينيها بضاعتها وهى تصادر، كان

أكثرعيوبها وضوحا هى هذه الأندفاعة العصبية التى تباغت بها الناس أحيانا على غير توقع منهم ، فأندفعت كالمجنونة صوب مفتش الجمارك تدفعه بكلتا يديها لمنعه من تكملة ما بدأه ، فواجهها هو الأخر بدفعة قوية لعلها تكون رادعة ، إلا أنها عاجلته بلكمة قاسية بيمناها كان لها أثر فورى حين تصدر أبهامها المحاط بفص ذهبى متوجا بحبة زرقاء عين المفتش ففقأتها فى الحال .

لم تستمر محاكمتها طويلا ، أنه أعتداء مباشر على موظف عام فى الدولة أثناء تأدية مهامه الوظيفية وأصابته بعاهة مستديمة ، هذا ما قالته النيابة فى مرافعتها .. تسلمت فايزة مكافأتها على أنجازها المريع من قاضى المحكمة .. سبع سنوات مع الشغل والنفاذ تقضيها فى الأسر .

ما أن غابت سيارة الترحيلات بفايزة فى جوف الطريق ، أحس" عبده " براحة وأنتابته نشوة الظافر ، فغمره شعور القائد المغوار وقد أمتطى صهوة جواده وأستل سيفه ، ودخل المقهى منتصرا فاتحا . رمى أيامه الماضية وتخلص منها وراح يقرع صدره بكفيه ويزعق صارخا : خلاص يابشر .. من هنا ورايح زمن عبده الجن حيرجع تانى ؟!. فأصبحت المقهى بحساباتها وأيراداتها مباحة له وإن كان يتوخى الحذر حتى لا ينكشف أمره .

رمشات سريعة ثم أغماضة طويلة قبل أن تنشق جفنى " فايزة " عن دموع محبوسة .. تنهيدة ساخنة تستعيد بها اللحظة وهى على حالها ثابتة فى مكانها تحتضن ركبتيها الى صدرها فى حين لاتزال "هدى" واجمة تستقبل ملامحها الضوء الخافت الذى يأتيها من خارج العنبر مرتجفا بفعل الهواء فترعش الظلال والوجوه والأجسام الممددة .

همست فايزة بنبرة غلب عليها سلطان النوم : حتقوللى لولادك على الأخبار الجديدة فى الزيارة الجاية ؟

(الزيارة اللى جاية) كررتها هدى ، بدت لهذه الجملة مذاق مر فى فمها وهى تنطقها ؟!.. تبدل حالها وخرج صوتها مهموما : يبقى يحلها الحلال ساعتها .

ـ عندك حق .. تصبحى على خير يا هدى . قالتها ثم أفرجت عن ساقيها فى وجع بعد أن قبضت عليهما خلال جلستها .. قامت من مكانها تحجل على قدم واحدة بأتجاه سريرها وهى تتثائب .

أرتفع صوت الصراصير تطلق أنغامها فى سكون الليل ، فى حين مددت هدى جسدها ثم أنكمشت بعدما أيقنت بأنها سيلازمها الأرق حتى الصباح .. نسيت الأنهاك وجرى الليل قبل أن تسلم نفسها لوابل من

الوخزات . شردت مرغمة وراء دفء الماضى الهارب فى شكل صور صامتة وكئيبة وألحت فى أقناع النفس بوجود العزاء المؤمل فى الحرية ، فى المقابل أنضم شخير فايزة الى مجموعة العازفين " المشخراتية " كسيمفونية تتردد فى كل ركن من العنبر .

الفصل الثانى

روتين يومى معتاد لم يتبدل أو يتغير وسط كل المتغيرات والمؤثرات التى أستجدت على حياة أبناء هدى ، دائما هى جلسة العشاء التى لا تتم طقوسها إلا وقد تحلق الجميع حول مائدة الطعام القابعة فى ركنها المنزوى فى آخر الصالة ، حكايات وملاحظات وعبارات أشبه بخواطر تم رصدها تخص كل منهم فى محيط حياته اليومية المحدودة .. ثبت " يوسف " عينيه العميقتان اللتان يظللهما حاجبان كثيفين وشعر مسترسل للخلف على بشرة بيضاء وعود مستقيم طويل .. ركز نظراته فى وجه أخته نورا التى لم تبدل ملابسها عقب عودتها للتومن عملها ، بدت على غير عادتها وهو ما لفت أنتباهه حين لمح شعرها الجاف وقد جمعته إلى مؤخرة رأسها وعيناها شبه مغمضتين بثقل جفنيها على عكس هيئتها المعتادة ، دائما ما تطلق شعرها الناعم الأسود الغزير منسدلا حتى كتفيها يحوط وجهها البدرى التى تسكنه عينان لوزيتان تنسجم بتناغم مع باقى تفاصيل وجهها بينما صدرها المنتفض الذى يحرس جسد محدد بدون ترهلات به كثير من مفاتن الأنوثة .

ـ مالك يانورا شكلك تعبان قوى ؟ تساءل يوسف . ببطء قبل أن تدعك عينيها : والله يايوسف من الصبح لغاية ماجيت دلوقتى وأنا واقفة على رجليه ، الوقت بقى ضيق وبنحاول بأيدنا وسنانه نشطب الشغل ونجهزه قبل عرض الأزياء الشهر اللى جاى . ألتقطت " بسمة " كلمات أختها وهى تستند بكلتا يديها على المائدة تتحاشى أصابعها لمس طبقين فارغين إلا من ورك فرخة أصبح هيكلا بلا لحم بعد أن أجهزت عليه وبجانبه طبق سلطة تلوثت أطرافه ببقايا جزرة وقصاقيص جرجير ، كالمعتاد علقت فى حدود شخصيتها المنطلقة فى أحاديثها العابرة و ماتحمله من متناقضات متباينة ،؟ حيث يمتزج الحزن و الحياء فى صوتها والمرح والبهجة فى عينيها فى آن واحد .. هى دائما ثورة المرح فى البيت وبركان الجسد الذى أستوى فى تناغم ملفت للنظر ، الرأس بالشعر بتقاسيم الوجه تتناسب مع الكتفين العريضين فوق صدر على شكل مثلث نافرا على خصر مكتنز . بنبرة مازحة : أيوه ياعم المهم ، البلد كلها حالها واقف والشغل فى الأتيليه عند مدام زيزيت مولع نار !. جاهدت كى تخرج منها أبتسامة واهنة : والنبى

الحكاية مش ناقصة أر يا بسمة وأتيليه زيزيت مش مستنى حال البلد يوقف ولا يمشى ده له زبونه وناسه. تؤيد أيات على كلامها : عندك حق يا نورا سمعة الأتيليه مسمعة فى كل مكان فى أسكندرية .

منذ أربع سنوات وقبل تخرجها من كلية الأداب بعامين تبنتها " زيزيت " وحققت لها أمنيتها القديمة أن تتعلم حرفة التفصيل ، فعلمتها الصنعة على أصولها وعرفتها خبايا أسرارها وأعطتها من خبرتها ما لم تعطى أحدا من قبل لما رأت منها أصرارا وأجتهادا ، وان كان الأصل وراء تلك الحماسة هو حبها الشديد لنورا التى رأت فيها الأبنة والصديقة وشريكتها فى حياة الوحدة ، كما وجدت فيها فرصه سانحة لرد جميل أمها صاحبة الفضل عليها ، فأصبحت زيزيت بلا منازع هى السند والأمان لها ولأخوتها منذ لحظه دخول هدى السجن .

تضاعف راتب نورا عدة مرات وزاد كثيرا فى أخر عامين حتى تحول الى رقم محترم بفضل موهبتها الفزة وخصوصية صنعتها التى جعلتها رقما صعبا لا يمكن تجاوزه داخل الأتيليه بعد أن أجادت وتخصصت وأبتكرت فى تصميم ملابس المحجبات ، كما أنها أنفردت بتصميمات فساتين الزفاف الخاصة بتلك الطائفة حتى أصبح أنتاج الأتيليه يخرج معظمة من تحت يدها .

ألتصقا يوسف وبسمة بنورا . هى بالنسبة لهما الحياة بكل معانيها ، كانت من نوع يحتاجانه بشدة ، فهى صلبة حنونة جريئة قبل أن يضاف إليها صفة السخاء فى الفترة الأخيرة ، لم تكن تلك الصفات وليدة الحاضر بل من رحم الماضى منذ بداية اليوم الأول ، حين أختفى وجه أمهم فى السجن وعندما أطفئت جميع الأنوار وهدأت الحركة ، ولم يبقى مايملأ السمع إلا صوت السكون حينما أستولى خوف على قلب نورا ، وأرتعش البدن مع نشيجها المؤود فى الظلمة والذى يحدث فحيحه صوتا أيقظ بسمة ويوسف المنكمشان فى ركن الفراش ، فأنشدا معها على نفس الوتر المتصاعد بكاء حادا جاءت على أثره عمتهم " أيات " لتضىء النور وتهدأ حزنهم وأحساسهم بالخوف والوحدة بكلمات لم تكن لها أثر كبير فى نفوسهم : ما تخافوش ياولاد وخليكم شطار .. أنا عارفة أنكم محتاجين مامتكم .. بس أنا مش بأيدى حاجة .. تنهدت للحظات فى قلة حيلةثم أستدارت خارجة من الغرفة بينما تولت نورا الأمر حين تمددت فى الفراش تتوسطهما ، تحتضن يوسف وبسمة التى دفنت رأسها بين تجويف الصدر الصغير ، بديلا عن الأم ، وراحت تغط غطيطا خفيفا تقطعه من وقت لآخر زفرة عميقة كأنما تزيح عن صدرها أكواما من الهم ، بينما ألصق يوسف ظهره فى الحائط وأخفى وجهه تحت الغطاء وأحاط ذراعه بأخته وغاب فى سبات . بينما لم يغمض لنورا جفن حتى تسلل ضوء النهار من النافذة ، لم تدر متى غفلت

عيناها ، إلا أنها أستيقظت على صوت عمتها تدعوها للأفطار .. الجفون مثقلة ، وحريق يلهب العينين ، لكن النهار بدا لنورا التى بات عليها أن تحمل الهم مبكرا .. بدا بعيدا فهى لم تتعد الخامسة عشرة بعد ، يليها يوسف بعامين وبسمه التى تصغره بثلاث أعوام . فكان لزاما عليها أن تشارك " نعمة " فى كل كبيرة وصغيرة بداية من نظافة الغرف مرورا بالغسيل والمسح والكنس نهاية بطريق عودتها من المدرسة حين تنعطف بأتجاه سوق الأبراهيمية لشراء أحتياجات اليوم التالى كما لقنتها عمتها وعند أخر النهار تحاول أن يدخل رأسها المتعب بعض مما هو مكتوب فى الكتب المدرسية التى ستؤدى أمتحانا فيها أخر العام . حاولت بسمة الصغيرة أن تساعدها وأن يشارك معهما يوسف ، لكن الأخت الكبرى ملأها أحساس غامر بالفداء ماركة " أمينة رزق " رفضت أن تهين أخوتها فى أعمال البيت وأقتصر دوريهما على أسناد " نعمة " فى الجلوس والوقوف أو تدليك ركبتيها بدهان الروماتيزم . أستكانت الأم الصغيرة للحياة التى فرضت عليهم ، التقشف وضيق اليد لعجز العمة عن توفير حياة أكثر راحة بعد ان رأت نفسها قد أستدرجت الى بؤرة الأحداث ولم تعد على هامشها دون قصد منها ، والتى ركنت على ما تسحبه شهريا من البنك مما تبقى لها من بيع شقة الزوجية بعد طلاقها ، فكانت مسئولية طارئة أعطت لحياتها مذاقا كانت لمرارته حرقة فى القلب ، ذاقت نورا وأخواتها تلك المرارة أيضا ، وبدت ملامح الألم تزحف على وجوههم لتكشف عن ضائقة العيش وزوال النعمة ، فى حين أستطاعت نورا أو أرادت أن تعطى أنطباعا بأنها تسد الفراغ وتكمل دور الأم ، على صغرها . كانت كلمة ثناء من عمتها أيات أو من الجيران ، أجرا مجزيا لها . التجربة قفزت بعمرها و ماعادت بطفلة .

وظلت نورا تعايش حياتها فترة ، فتاة هادئة ، تفكر ، تجيد أتخاذ القرار وتعرف السبيل لتنفيذه قبل أن يتلاشى دور عمتها أيات التى أختارت أن تكون حياتها دائما فى الظل ، حياة رتيبة قضتها نورا هى وأخوتها ، أقصى ما يقع فيها من متع ، هى رحلة صيد صباح كل يوم جمعة على شاطىء جليم تحت قيادة الدكتور " كرم سباستيان" وصديقه نوح البواب ، نادر وشريف ولدى خيرى علم الدين كانا دائما من ضمن أفراد الرحلة ، وبالتوازى وفى نفس الوقت يزداد أصرارها يوما بعد يوم على متابعة دروس يوسف وبسمة ، مما دفعها لتلبية دعوة الأستاذ خيرى والأعتماد عليه فى مراجعة دروسها هى وأخوتها ، فبادر بتحديد ثلاثة أيام أسبوعيا لهم تعاطفا منه لما لحق بهم و ماتطويه نفسه من شعور حاد بالفجيعة والخسارة يصحبه أخر بالرثاء حد مغالبة البكاء لما آل له حال أمهم وإن كان حال أبنيه لا يختلف كثيرا عن حال أبناء هدى بعد وفاة زوجته " سميحة الغريانى " وأقامته منفردا معهما ، فكان البيت كبير أكبر سعة من حاجتهم ، إلا إنه كان مملكته التى ورثها عن زوجته .. هذا السكون لم يشعره

بالملل ، والوحدة لم تضايقه ، يخدم نفسه وأولاده ، خفيف الحركة كعازب يلعب جميع الأدوار ، الأب والأم والخادم المطيع .

كانت نورا بقدها الدقيق المتناسق وحركتها الدءوب المشتعلة وخفة دمها الطبيعية ، تحرك لدى شريف ـ على غير قصد منها ـ خيال المغامرة فى كل حصة تحضرها ، فكان لا يكف عن مزاولتها مستغلا غياب والده لدقائق فى المطبخ لعمل فنجان قهوة أو زيارة للحمام .. فى مداعبة ثقيلة أختلس شريف كراستها الخاصة بواجباتها فى غفلة من والده الذى كان بصحبة " نوح " يباشر ماسورة مياة فى المنور أصابها الرشح . فطاردته فى الصالة لتستردها ، حاورها فى أرجاء المكان ، دخل حجرته ، أقتحمت الباب وراءه ، رفع يديه بالكراسة ، شبت على أطراف أصابعها لتطولها ، طوح يديه الى الخلف ، أختل توازنها ، أرتمت على صدره .. طوق ذراعاه كتفيها ، دفعته ، فك حصاره ثم راحت تقابله بأنفاس لاهثة .. لم تقرأ ملامحه من مثل هذا القرب من قبل ، به وسامة ملحوظة يكبرها بثلاثة أعوام ، يميل لونه إلى البياض يرتدى الملابس الكاجوال والجينز ويبدو متحررا متمردا ، له شعر متبعثر وقسمات متحددة بصلابة ، تبدو كمالوأن تم نحتها بصرامة تخفف من حدتها عينان صافيتان بلون بنى: لكن ما الذى يشدها إليه بهذا العنف ؟ تقدم منها أكثر من اللازم فشعرت كما يشعر النائم إنه يفتح ذراعيه ليحتويها، وعندما ضمها إليه غمرها فيض من السخونة الذى تعبر عنه تلك الضمة والدفء الذى يحتوى ذلك الصدر . دفنت رأسها فى اعطافه وتملكها خدر ظل يدعوها إلى أن تبقى . كانت تستطيع ان تلتقط نظراته اليها وتترجمها فتشعر إنها تقول لها أشياء لا يقولها غيره ، ترتاح لمعانيها، وتشعر أنها قريبة منه ، وأنه أقرب الناس إليها. نشر ذراعه حول جيدها وأحتضن كفها بذراعه الملتصق حول العنق ، فوطأت قبضته صدرها النافر ثم رفع ذقنها بسبابته وقبل ما بين العينين ثم أرنبة الأنف .. نمنمات خافتة كانت تصيب القلب الصغير بالتوتر ، لا قدرة لها على النظر إلى عينيه الواسعتين اللتان ضاقتا فجأة على صوت جرس الباب .. رنتان هما طريقة الأداء المعتادة لخيرى فى أستعمال الجرس . أنتفاضة تلتها أبتسامة . شريف بالنسبة لها كان يضيىء خيالها ، كانت تتقدم صورته على كل الصور ، فتشغل مساحة من نفسها ؟!. عندما يحتضن خيالها صورته فى الليل تتقلب على جانبها الأيسر وتدير ظهرها لبسمة .. لأول مرة تنام وصدرها ليس فى أحضان أختها . ألتقت الليلة بأحضان شريف . فى الأحلام ! هكذا صارت علاقتهما منذ البداية ، حب متنكر فى ثياب الجيرة . فكانا يتلاقيان بلا أضطراب وبلا خوف . غاصت نورا الى أذنيها فى دوامة البيت الخالى من روح ربة البيت وسلطتها ، فلم تلبث أن صارت مديرة البيت والروح الأمين الذى يحرس سير الزمن فيه ، بعد أن أبت عمتهم أيات وأصرت أن

تدفن نفسها فى داخل غرفتها وأحتميت بالصمت والموسيقى ، وقبل أن يتوارى دور نعمة خلف التعب والمرض . لم تبخل نورا من اللحظة الأولى لسجن أمها أن تمنح أخوتها نفس الحب الكبير الذى أفتقدوه حتى بدت كأم خبيرة تلحظ وتحس وتراقب كل متغير يطرأ عليهما ، فكان واضحا جليا يوم نجاح بسمة فى الصف الثانى الأعدادى حين داهمها فى منتصف المسافة من غرفتها الى الحمام ، مغص شديد ، تقلصت ، صرخت متألمة ، هرعت اليها نورا كالمجنونة تسندها ، لم تعد قادرة على الأحتمال ، تعثرت بسمة ، ترنحت نورا ، أنساب بين فخذيها سائل لزج دافىء ، أصابت الدوخة بسمة ، تمايلت ، مالت معها نورا : مالك ياحبيبتى حاسة بأيه ؟ سقطت على الأرض تتكور كالشرنقة حول نفسها تغالب الصراخ : ألحقينى يا نورا . ملأ قلبها رعبا منظر الدماء التى لطخت الأرض ولوثت فستانها الرمادى .. بسمة كانت تغادر طفولتها دون وعى . يومها عرفت أنها لم تعد طفلة ، فهذه هى البينة بأنها دخلت مرحلة جديدة كما لقنتها نورا بعد أن مرت بذات التجربة قبل أن تسميها لها نعمة : دى أسمها الدورة يانورا ولازم تيجى كل شهر . ثم لحقتها بـ " خرقة " لولا تدخل أيات السريع فعلمتها بروتوكول التعامل مع " البريوت " . أحست بسمة بذلك الشعور المتناقض ، لكن أنزعاجها ولى وباتت تنتظر الموعد كل شهر وتستعد له . ألتحم وجودها بوجود نورا التحاما كاملا ولم يعد من الغريب أن تصبح هى أمها بجدارة وتكون هى أبنتها بالمعنى الوجدانى الأصيل . فى حين لم يعد يوسف بالنسبة لنورا مجرد أخ يصغرها بل الرفيق والصديق وكم سجلت أبتسامته الحلوة فى نفسها السعادة ، ولا عاد من الغريب فى ساعات الضعف أن يبكى على صدرها الرحيم دون أن يساوره حياء الرجل من الضعف والدموع ، كان يحتمل تعاسة واقعه بلا مرارة . هو شاب برىء النفس لم يمسه دنس ، وقد مر به عامه العشرون من سنتين ، وكانت أحلامه وتطلعاته فى السنوات الأخيرة تفضى به دائما إلى حالة نفسية يملؤها ظمأ صادق الى حب عظيم . هذه المعجزة التى يريد أن تسقط عليه بلا صراع ولا وجع قلب . وجد حلمه فى " هدير" زميلته بالسنة النهائية فى كلية الهندسة ، من عائلة غنية فهى أبنة المقاول السكندرى الشهير " أحمد الشهاوى" له شركة عريقة التاريخ فى الأنشاءات والمقاولات و له بصمة واضحة فى منطقة " سموحة " ينتشر شعار شركته على عدد لا بأس به من الأبراج الفخمة فى الشوارع الرئيسية والراقية بالمنطقة . بداية رومانسية كلاسيكية جمعته بزميلته منذ ثلاث أعوام ، كان ذلك كلما غرست نظراتها فى عينيه ، تأهبت أبتسامته المترددة لتناجيها .. كانت نظراتها الحالمة الوديعة تضىء الكأبة التى تحيط بحياته ، كان يكتفى بأن ينظر لها خلسة ، يرى فى عينيها لهفة لأن يحادثها عندما تجمعهما

قاعة المحاضرات .. لما لا وقد أشتهر بين الطالبات بوسيم الهندسة . كل ما فيها يرشحها لأن تكون أميرة أحلامه ، وها هى وقد أصبحت يقظته وأحلامه .

نغمات متقطعة كاللحن المرتعش أصابت آذانهم فى جلستهم حول المائدة ، كان مصدره صينية بها أربع أكواب شاى تتراقص فى يد نعمة و تحتك ببعضها ، أنتفضت بسمة تنقذ ما يمكن أنقاذه ، تسندها كأنما تسند عودا خاويا آيل للسقوط . تناول يوسف الصينية من أخته رافعا عينيه تجاه نورا . بنبرة خجولة : ما تنسيش بكره تشترى لنا شوية حاجات عشان زيارة ماما يوم الخميس . أزاحت وجهها بعيدا قبل أن تنكمش ملامحها . فى أقتضاب : حاضر .

ـ ياريت يوم الخميس نخرج بدرى من البيت عشان نوصل فى ميعاد الزيارة . كانت ملحوظة أضافتها بسمة .

ـ أنا مش رايحة معاكم عندى شغل متأخر ولازم يتسلم .. قالتها بأداء من فاض به.. نازعتها دهشة يخالطها قلق : ليه يانورا .. دى رابع زيارة ما تجيش معانا فيها تشوفى ماما ؟!. كان أشد ما يزعج نورا تلك الأعراض التى تداهم يوسف وبسمة قبل كل زيارة ، تشوق وحنين وتحضيرات تشتد وتيرتها كلما أقترب الموعد ، كل من حولها فى البيت رصد تلك التغيرات التى لازمت نورا كقرين لايفارقها . لم يستطع أى منهم فهم أو تحليل تلك الحالة .

تمر بكفها على جبينها المتكبر وشعرها الملموم : يابسمة ياحبيبتى أحنا بنجهز لعرض الأزياء الشهر اللى جاى فى شيراتون المنتزة ، يعنى كل دقيقة لها تمن ومحسوبة علينا . تلفت نحوها والتكشيرة تغرس وجهه وحاجبيه وعينيه : الزيارة دى مرة كل شهر ومابتزيدش عن ساعتين تلاتة مش حيحصل حاجة يعنى ولا الدنيا حتتهد وعرض الأزياء مش حيتأخر عن ميعاده ؟!.

ـ الزيارة اللى فاتت ماما بكت كتير وكانت حتجنن ومش لاقية سبب واحد مقنع يخليكى ما تجيش تشوفيها . قالتها بسمة باستنكار بينما نكست نورا وجهها قبل أن تمسك رأسها بكفيها : حرام عليكوأنا تعبانة ومش فايقة للكلام الفارغ ده ، أبتلع ريقه ، بدا عليه وكأن جملة أسئلة تدور فى رأسه . أختزلها كلها : بصراحة يانورا أنا مش فاهمك ومش لاقى أى مبرر يمنعك من زيارة ماما . ثم تأملها فى حيرة بينما سحبت نفسا عميقا وتهيأت لأظهار الحدة وبملامح لعبت بها الشياطين ، فأقتحمته فى عنف : أنتو مش قادرين تحسوا باللى أنا فيه .. أنا من جوايه تعبانة وهلكانة و طول النهار زى النحلة عشان أقدر

أوفر لحضرتك مصاريفك وطلباتك عشان ما تبقاش أقل من أى حد وقبل ما تحقق معايا يا أستاذ وتعمل فيها وكيل نيابة أبقى شوف مصروفك كل يوم وصل لكام والهدوم اللى مالية دولابك تمنها أيه وأحسب الكورسات بتاعتك وبتاعة الست أختك بتتكلف كام .. شوفوا مصاريف أكلكم وشربكم . زادت عصبيتها وهى تصرخ فيهم قبل أن تخبط المائدة براحتيها فأنتفض الجميع : أيه الأنانية اللى بقت فيكو دى ؟ لا بترحموا ولا بتعذروا .. مش كفاية قلقى عليكو طول النهاروأنا شايفة البلد كلها على كف عفريت وسيادتك عاملى فيها ثورى والهانم أختك رايحة جاية فى المظاهرات .. كل ده مش شايفينه ولا حاسينه .. كعادتها ختمت كلماتها برأى حاد متصلب : وخلاص أنتهينا قلت مش رايحة يعنى مش رايحة .

أختصرت أيات مداخلتها : أهدى شوية يانورا ، الحكاية مش مستاهلة كل العصبية دى ، رأيك وأنتى حرة فيه وكل واحد أدرى بظروفه . لم تجد نورا ردا على تلك الكلمات ، هزت رأسها متجنبة الخوض فى العيون ، فى حين أصبحت أيات تدرك أن شيىء غامض أصبح مسيطرا على نفسية نورا كما أستقر داخلها شعورا لازمها منذ فترة ليست بالقصيرة بأن أختها تحاول كبت و طمس مشاعر أخوتها تجاه أمهما .

ــ ليه كمية الغضب والعصبية اللى نورا بتبقى فيها قبل كل زيارة ؟ ليه دايما بتحاول تفكرنا بكل حاجة بتعملها لنا أول ما نقولها تعالى معانا الزيارة ؟!.. لم يستطع يوسف أن يمتنع عن ترديد تلك التساؤلات على نفسه فى لحظة أصبحت حدود المائدة تتراجع أمام عينيه ، بينما أشتات أسئلة وأفكار أخرى تطير من رأسه لتحط فوق رأس أخته التى تهدل فكها أستغرابا أو جزعا .. غمغمت مغلوبة على أمرها آسفة حزينة فى حين أفلتت عن نورا دهشة أستنكار حين شعرت بأنها خرجت عن المألوف فى حوارها مع أخوتها .. نظرة خاطفة فى وجوههم قبل أن تستقر عينيها فى أتجاه كوب الشاى : أنا ما كانش قصدى ، أعذرونى ضغط الشغل بقى كله على دماغى . أردفت بكلمات متقطعة : وبصراحة أنا نفسيا مش مهيأه لزيارة ماما دلوقتى خالص .. معلش غصب عنى ! . لم تفلح كلماتها فى تبرير حرج أدركهم جميعا . لكن يوسف كعادته سارع إلى التقليل من التوتر وحدة الحوار بأبتسامة وبلهجة طبيعية وخيبة ظنه تغالب عتبه : أحنا مقدرين تعبك واللــه يانورا ، أنتى مش أختنا الكبيرة وبس ده أنتى كمان أمنا وصاحبتنا وكل حاجة لنا .. معلش سامحينا . تراجعت نبرة صوتها فتحولت الرءوس نحوها : كل اللى أنا وصلتله

و اللى ربنا أكرمنى بيه مش عايزة منه أى حاجة كل اللى يهمنى أنتو بس ومستقبلكم وأزاى أعوضكم عن سنين البؤس اللى فاتت .

ـ وليه ما تفكريش فى نفسك يانورا أنتى عملتى كتير عشانا وكملتى رسالتك بشكل ممتاز وكلها كام شهر ويوسف يتخرج ويبقى مهندس أد الدنيا ويعتمد على نفسه وبسمة كمان قدامها سنتين وتتخرج من كلية التجارة . تلك الكلمات مصدرها أيات التى أبدت حيرة ودهشة .

ـ يعنى أنتى مش شايفة ياعمتى حال البلد اللى مايسرش ولا تكونى فاكرة أن يوسف أول ما حيتخرج حيلاقى الشغل مستنيه .. أنتى بتحلمى ياعمتى ؟!.

ـ لما نشوف حكم الأخوان حيودينا لفين ؟!. قال يوسف كلماته وهو يتكىء بيديه على المائدة وينهض نصف نهوض وكان وجهه قد أطمأن نسبيا بعد ان زال التوتر رغم أنه لايزال مطبوعا بطابع الألم .. أتجه الى غرفته مارا بنعمة التى تهالكت فوق مقعد تراقب تطور الأحداث . بينما غادرت بسمة مقعدها بملامح تسليم أو أحتجاج ..

حيرة وأرتباك وعدم فهم هو ما أجتمع عليه الجميع ، لا يكفون عن أطلاق التخمينات حول حالة نورا المحيرة المربكة . بقيت الأخيرة فى مكانها ترشف من فنجان الشاى وملامحها التى غصت فى أعماق المحنة التى صدمت كيانها الطفولى منذ سنوات وقتلت فيها الطفلة التى كانت قبلها تتوثب فى أرجاء البيت فرحا ومرحا قبل أن تكتمل داخلها تركيبة جديدة خرجت من رحم مرارة السنين .. خلطة سرية ، لم يستطع كل من حولها فهم كل مكوناتها .

0000000000

بقايا جدران تشكل بيوت ، متلاصقة أو متقابلة ، تشكل فى مجموعها حارة ، هذا هو الشكل الهندسى المعتاد للحوارى فى منطقة كرموز .. لا تكاد تمتد بضعة أمتار طولا حتى تنعطف يمينا أو يسارا ، وفى أى موضع منها يطالعك منحنى يطوى وراءه مجهولا ؟!. بركة مياه طافحة حول بالوعة صرف ، بيت قديم متهدم أو حتى كلب يجلس مستأسدا ينتظر مرور أى غريب أو يصدمك شمام أو حشاش أو قاطع طريق يفعل بك كل الأفاعيل .

الناس فى حارة " المناجيلى " بسطاء بلا تحذلق و لا أسرار . رائحة البشر المختلطة برائحة الطبيخ ، وأصواتهم العالية المتداخلة مع صراخ باعة الروبابيكيا والخضار وسباب المتعاركين الذى لا ينقطع . يجعل المشهد مكتملا .

الحارة تعج بساكنيها بالرغم من مساحتها الضيقة .. نساءها ، كمعظم نساء المحروسة ، لا ينشغلن إلا بالطبخ والحبل والولادة كالقطط والأرانب ، ففى كل سنة ولد فى البطن وولد فى الحضن وولد يلتصق بركبتها حتى طفحت أركان الحارة و ماعادت تتسع لفقس جديد ، وحين تتفحص السحنات والوجوه المارة فى الحارة أبتداءا من الجدات اللاتى ضمرت أنوثتهن وأصبحت صدورهن مفرطحة إلى اللواتى برزت بطونهن مرورا بأشكال المتسولون والمجذبون بأجسادهم النحيفة وهم يترنحون أو يعرجون يزاحمهم عدد لا بأس به من الشمامين والمبرشمين ، فيجتاحك شعور كاسح بأنك ترى فيلما وثائقيا عن حارة " المناجيلى " .

حول واحدة من الطاولات فى مقهى " عبد المقصود " يدور الحوار هادئا أو مستفزا عن أحوال البلد وثورة يناير ، مالها وماعليها ؟!. ودور القنوات الفضائية الخاصة ومسئوليتها المباشرة عن تدهور كل شيىء فى البلد (رأى واحد بلحية) !! فى حين أحتدم النقاش على طاولة أخرى حول أهداف جماعة الأخوان المسلمين ومواقف السلفيين وسياسات الرئيس مرسى المربكة والمحيرة بينما طاولة أخرى أرتفع فيها صوت القفشات والنكات والضحكات .

هنا كل شيىء لافت ومغر ، ليس الدخان المتصاعد من الأفواه والأنوف أو الصياح وحدهما ؟ أو الكلمات البذيئة ولا صوت التليفزيون المتواصل بلا أنقطاع ، بل أنه الجدل الملتهب الذى يحتد بينهم فجأة دون مقدمات ، يعلو ويعلو حتى تتيقن بأنه سينتهى لا محالة الى صراع بالأيدى والرؤوس ، فتهتزله أعضاءك ولكنه يتراجع رويدا رويدا ثم يتلاشى .. دائما ما تكون قصص المطرودين من أشغالهم والعاطلين والمدمنين والنساء ، لا تمثل تلك الحوارات فى ذاتها أى دهشة أو أستغراب ، فى حين تتصدر مجموعة من شباب الحارة الأشاوس الترابيزات الأمامية منطلقين على سجيتهم يحيون لحظتهم الأنية ولايبغون عنها بديلا ، حيث أمعنوا فى سب بعضهم بألفاظ ومصطلحات يحتفظون لأنفسهم بحقوق الملكية فى أبتكارها . وعلى يسار المدخل يقع الجزء الهادى من المقهى الذى يقطنه مجموعة متخشبة هامدة من أصحاب الأمراض المزمنة والمعاشات يلتصقون ببعضهم فى دائرة صغيرة كأنهم يحيطون بميت ، لهم وجوه غائرة وعيون ذاوية ، تدرك فى ملامحهم أنهم لا ينتظرون شيئا ولا يتوقعون جديدا

يتفحصون كل من يمر أمامهم بنظرات عميقة ساكنة،لاعلاقة لهم بالحوارات الصاخبة ولا اللغط المثبعثر فى كل الأمكنة .

لم يكن الأمر يخلو من عيون تراقب وأذان تنصت .. أنه " عبده الجن " ، كان على غير عادته ، يجلس وحيدا فى موقعه بصدارة المقهى يجول بعينيه بين هؤلاء وهؤلاء مختبئا داخل كوفيته محنطا فى جلباب أبيض وعباءة عسلية ، وظل لوحة تحتل مكانا بارزا فوق رأسه و تفترش جزءا من مساحة مكتبه الصغير تظهر فيها رأس أنسانى لها صدغ مستطيل تعلوه عين ثعبانية ضيقة وقفا طويل غريب التكوين ، صورة غلب فيها اللون الأسود على الأبيض .. أنه الراحل " المعلم عبد المقصود" والد فايزة .. مط عبده شفتيه مناديا : ولـه ياجمعة .. هات لى شيشة . بدا منفصلا بفكره عما يحيط به ، غارقا فى ذاته عازفا عن الكلام . ربما كان يفكر فى موعده مع الأستاذ " محمود المحامى " الذى يتفاوض نيابة عنه منذ أسبوع مع " كريمة " عاملة تغليف بمصنع حلاوة والتى تزوجها عرفيا من ثلاثة شهور ، كعادته كل فترة غير أنها كانت مختلفة عن سابقتها ، رأسها وألف برطوشة أن يدفع لها عبده ألفين جنيه كما جاء فى نص العقد الذى حرره وأشرف عليه " محمود المحامى " .

أتاه " جمعة " من خلف " النصبة " حاملا الشيشة ولوازمها ، أرتكز على قدميه منحنيا بجزعه يتعامل فى خفة مع الشيشة ، وما أن تم طقوس أشعال الجمرات وتكريس المعسل فى الحجر ورص الجمرات الصغيرة بالماشة وهو يطرقها بهوادة فترسل شررا أزرق ليبدأ معها رحلة شد الأنفاس حتى تنشط ثم يناولها لعبده ليغرد بها مكركرا شاردا بذهنه مع كركرة الماء فى أذنيه وصورة اللهب الأزرق المندلع فى الحجر كلما شد نفسا عنيفا بعدها ينفث الدخان قبل أن يخرج المبسم من بين شفتيه ليفسح مجالا لخروج سؤاله : منصور أيه اللى أخره لغاية دلوقتى ؟ .

ـ مش عارف يامعلمى .. طب ما تكلمه على الموبايل . يلوى فمه ضيقا : كتر خيرك ياأفا المحمول بتاعه مقفول .. روح أتكل على اللـه شوف شغلك . بينما يدخل فى تلك اللحظة الأستاذ " سعيد " عتبة المقهى والملقب على ألسنة روادها بـ " سعيد تشكك" . تحس فيه أنه كائن قادم من زمن لا يفرز ولا ينتج سوى الكلام والسفسطة والتشكك ، أصلع وعلى عينيه نظارة سميكة بأطار أسود موديل الستينات ، له ملامح غير مرتبة فالعينين متباعدين والأنف يكاد يلتصق بفمه ، يرتدى جاكيت قديم يخفى تحته قميص لا يفسخ طرفى يأقته لا صيفا ولا شتاءا .

بعد ثورة يناير تيقن بعلو مكانته الكلامية ، إلا أنه كان من سجيته أن يقفل كل النوافذ فى وجه الحياة مهما تغيرت الأحداث وتبدلت الأحوال . تشعر به كائنا خفيا يعمل فى همة لأغتيال كل الأحلام .. غير أن معظم المحيطين به قد أستشعروا تحولاته المزاجية فى هذه الأيام الحرجة ، فبدت أفعاله وحركاته سوى تشنجات عصبية وزفرات أشبه بغباءات كبيرة ، كان التحليل المنطقى لحالته كما أشار بعض خبراء المقهى وحكمائها هو أنفصاله عن زوجته وأقترانها بأخر ، فأنفرد بنفسه مع الوحدة الكئيبة التى جعلته مصابا بحالة من العصيان لا يعرف معها بأى اتجاه يسير ، أختار المسيرات والمظاهرات داوم على الخروج فيها حتى وإن كانت مظاهرة تنادى بتحريم المظاهرات ، أعتبرها شريان يضخ فيها غضبه ، ولما تهدأ المسيرات والتجمعات والمظاهرات تكون ضالة الكلام هدفه وغايته . سحب كرسيا ثم صفع قعدته بكف يده كأنه يهش من عليه الغبار ، أنضم لمجموعة من المشجعين يراقبون فى حماسة غير ضرورية دور طاولة ملتهب كان طرفية " عم نوفل " والأستاذ " أمام" تابع " العشرة " بذهن خالى من أى مادة تصلح لحديث .. أستعد يراقب كى يلتقط مدخلا أفضل لما يأتى من كلام ، أو ليتبين وقع الحديث القادم ، غير أنه بالتأكيد كان قد أعد بعناية كيف يبدأ : أيه اللى الأخوان بيعملوه فى البلد ده ؟!. بنبرة غير مبالية على لسان عم نوفل : هو أنت مش كنت متحمس لهم وبتقول عليهم حيعدلوا البلد !!.

ـ أنا ماقلتش كده أنا قلت الناس دى مليانة فلوس والبلد حينولها من الحب جانب .

أستقبل الحاج " تاج " تبرير " تشكك" بأبتسامة خفيفة برزت فيها أسنان صفراء تتوارى خلف شفتين رفيعتين تحددان الملامح الهادئة للوجه الأبيض والأوداج المتهدلة والعيون الضيقة . مال بفمه على مبسم الشيشة قبل أن ينزعه : بلد أيه اللى حينولها من الحب جانب .. أسألنى أنا عن الأخوان ياسعيد الناس دى كل اللى يهمهم أزاى يتمكنوا من البلد ... يتكامل المشهد كما أراد . أرتفع صوته كالنذير . قال تشكك : مستحيل يتمكنوا من البلد وأحنا موجودين الشعب مش حيسكت ياحاج ولوجت على أرواحنا تبقى سهلة . أضاف وكأنه يفشى سرا : لو الأخوان عايزنها دم وحيسلطوا ميلشياتهم على الناس ساعتها حتلاقى فى كل حارة وفى كل حى ميلشيا تصدهم وتوقفهم عند حدهم مش حيسيبوهم .

جاء صوت من ركن المقهى معقبا ، تحس انه ينفجر فيه ذلك الأنفجار اليائس ، كان عجوزا متعبا ولم يكن فيه جزء سليم إلا لسانه : لو سكة الدم دى أتفتحت فى مصر مش حتتلم تانى أبدا ولا تقولى ساعتها أحنا حنبقى زى لبنان ولا الصومال .. كلنا حناكل بعض و مافيش حاجة فى البلد حتفضل واقفة على حيلها كله حيتهد على دماغنا . خرجت همهمات متفاوتة بين الأعتراض والقبول على هذا الرأى ،

كل له فهمه ، غير أن الوجوم قد أستشرى فى الوجوه كالعدوى . قام " عبده " من مكانه بعد أن أحس بشيىء من القتامة يلقى بظلاله عليه ، أراد أن يفتت الغمامة الثقيلة التى كبست على ملامحه : يعنى هو الريس مرسى مش شايف بعينه كل اللى بيحصل ده ولا دى سياسة مرسومة وهمه ماشيين عليها . لم يكمل ملاحظته بعد أن بطش به السعال ، فأغتنم " تشكك " فرصة أنشغاله : الجماعة دول مايعرفوش يعنى أيه وطن ، دى ناس بتفكر فى خلافة ومش فارق معاهم البلد تقع ولا تتقسم دول عالم معقدين .

خرجت نبرة قبل أن ينقيها من أثر السعال . قاطع عبده : همه أحرار فى تفكيرهم المهم أحنا عايزين أيه وحنحافظ على البلد ولا لأ والعبد للــه اللى قدامكم أبو الوطنية !!.. دائما ما يتفاخر عبده بنضاله الوطنى إبان الأيام الأولى لثورة يناير المجيدة وأستشهد بدوره البطولى المقاوم حين كان يركض بلا هوادة خلف سيارات الأمن المركزى مطاردا لها فى شارع كرموز الرئيسى قبل أن يتمكن هو ومجموعة من أحرار حارة " عويضة " بالقيام بعملية فدائية ناجحة داخل قسم شرطة " مينا البصل " أسفرت عن تحرير كل الحرامية والمجرمين من داخل حجرة الحجز والأستيلاء على كل الأسلحة الموجودة . فرغ عبده من قصة الوطنية ثم تقاسم مع الموجودين سرد الحكايات تباعا ، كلها حكايات مليئة بالصراعات والهزائم والخيانة فيها لها دور كبير، الراوى هنا سعيد تشكك .

تحول " عبده " الى ترابيزة الحاج " تاج " ثم أنضم إليهما " تشكك " قبل أن يباغتهم " جنش " الجزمجى بصندوقه المتدلى من كتفه وبطنه المتقدم ورجلين يسحبهما معه سحبا تحت جلباب غامق لا يبلى أبدا ولا يخلعه قط ، فقد بات من طول عشرته له يحمل شكل جسمه ، أنقض بلا مقدمات على حذاء الحاج " تاج " يدلكه بالفرشاة بينما " قناة الجزيرة " مباشر تذيع لقاء مع أحد الناشطين السياسيين أصحاب الوجوه المعروفة فى الفترة الأخيرة ، تصلبت أذنى " تشكك " تلتقط كلمات الناشط قبل أن يسحب من بنطلونه جزءا من قميصه ، أخذ يمسح به نظارته ، فأختصر كل ما يموج فى ذهنه كعادته عند بداية أحاديثه بالسب واللعنات على معظم الموجودين فى الساحة السياسية ، عباراته كأنها أشياء مقلوبة لا توحى بأى أنتماء أو أحترام لأى حزب أو حركة أو جهة . يشير بأصبعه بأتجاه الناشط المتفزلك على الشاشة : آهو ده بالذات عميل أبن عميل .. كلهم خونة وبيدوروا على سبوبة يطلعوا منها بأى مصلحة . طأطأ " عبده " قبل أن يمد يده لكوب الشاى .. بدا مذهولا حين سأل وهو مازال ملخوما مما سمع : مش الراجل ده كان قاعد ليل ونهار فى ميدان التحرير .. أزاى بقى عميل وخاين ؟!.. يدير " تشكك " وجهه عن المتسائل المتطفل بازدراء . يمضى مبررا : يا معلم عبده مش

كل اللى فى التحرير بيخافوا على البلد ونيتهم سليمة أكترهم قابض يابا ؟!.. لم يصل فيه السؤال إلى ذلك المنحنى الفاجر الذى يربكه . فأضاف : اللى بيسموا نفسهم ناشطين وأنهم صحاب الثورة واللى أتلمو دلوقتى على شلة الدقون اللى طلعوا لنا فجأه زى العفاريت كانوا كلهم قبل الثورة مش لأقيين ياكلوا ولا كان حتى يعرفوا شكل الفلوس و دلوقتى كلهم راكبين أحسن عربيات وساكنيين فى أحلى شقق .. أصحى يامعلم أحنا كلنا أتباعنا وأتقبض تمنا كاش .. كان أداءا حماسيا سرعان ما أنتشر فى المقهى متواثبا فوق كل الطاولات ، فأرهف الجميع أذانهم ، معظمهم كانوا من المفلسين يستمعون إلى أرائه المفككة المفاصل ، يرسمون بنفاق على وجوههم معالم الأنصات إليه بجدية ، بينما أبدع " تشكك " وأضاف منشدا : الناس دى حرامية وعايزين ياكلو البلد فى بطونهم .. عمركم سمعتم عن وظيفة أسمها " ناشط سياسى " طب حد عاقل يجاوبنى ويقولى الناس دول بيصرفوا منين وبيعيشوا أزاى . أسكته " تاج " مقاطعا : أهدى ياسعيد وسيب الأيام تبين مين مع البلد ومين اللى ضدها . أرتفعت خيوط الدخان فى صمت . " جنش الجزمجى" ميال إلى الفكاهة ، يأخذ الدنيا من جانبها الهزلى .. رفع عينيه ويديه من على حذاء الحاج تاج . يسأل : من حقهم ياخدوا فلوس ؟!.. ويسترزقوا كمان . قطب " تشكك" حاجبيه : ليه إن شاء اللـه ياجنش ؟!..

ـ عشان همه ناشطين مش كسلانين . دوت ضحكات متقطعة قبل أن يقاطع أحدهم : بيقولك مرات واحد ناشط بتقول لصاحبتها جوزى راح يشترى لنا بطاطس ، عربية صدمته ومات .. صاحبتها أتخضت وقالتلها وأنتى عملتى أيه ؟..أبدا عملت كوسة . أرتفع زئير ضحكاتهم . أصابت تشكك بالكأبة والوحدة ، تململ فى جلسته وهو ينظر إليهم واحدا واحدا ، شعر أنه لن يستطيع أن يكمل جلسته بينهم وفى هذا الجو الباسم بينما دخل عبده فى وصلة ضحك قبل أن يضع كوب الشاى جانبا وضرب فخذيه حين لمح الأخير ينتفض غيظا وقد أرتعش حاجبيه كأنهما تتراقصان ، فأستجمع بقايا كرامته وربت على ركبتيه بكلتا يديه ثم نهض مرة واحدة : سلامو عليكم يامعلم عبده .. سلامو عليكو يارجالة .

ـ مالسه بدرى يا استاذ سعيد . قالها عبده بينما قام الرجل العجوز ثانية : تلاقيه رايح يشترى بطاطس !.. مضى " تشكك " ينقل خطواته بعصبية ظاهرة خارجا من المقهى تزامنا مع أنتهاء " عبده " من وصلة الضحك والسعال .. ثم سأل : ما تفهمنى يا حاج تاج مرسى والأخوان حيودونا لفين ؟!.. حاول أن ينهى النقاش المبتور ، الذى يبدو بلا بداية ولا نهاية : أسمع ياعبده كلمتين حاقولهم

لك وحطهم فى ودانك .. مصر دى كبيرة أوى ومن الأخر عمر الأخوان ما حيحكموا مصر وأنتخاب مرسى ده قول عليه كده خبطة على الدماغ والناس أختارته وهيه مدروخة .

ـ كلامك صح ياحاج كنا كلنا مدروخين والشعب كله كان عامل دماغ . سكت فجأة وتوتر حين لمح أبنه منصور يدخل المقهى . نهض : عن أذنك يا حاج .. أتجه نحوه بخطى هادئة حتى سد عليه الممر بين الطاولات : كنت فين لغاية دلوقتى ياوله ؟.. بنبرة مشروخة وجفنان متورمان : كنت نايم يابا . بلكنة أبوية تحمل معانى لا يجيدها : لك حق تنام لغاية دلوقتى ماهى دى آخرة الصياعة والسهر طول الليل . أشاح بعينيه بعيدا وقد بدا وجهه كئيبا كالعادة فى ساعات النهار بينما يكتسب رونقا خاصا فى آخر الليل بعد أن أصبح رجل وله خباياه التى لا يريد الكشف عنها لأيا كان . توزعت ملامحه وتركيبته وحالته المزاجية بالتساوى بين أمه ووالده .. طويل قوى البنية كأبوه ، وجهه لحيم وعيناه واسعتين كأمه . لا تنقصه الوسامة ، بشرة خمرية وشعر طويل يغطى جزءا كبيرا من أذنيه وقفاه ، معلوم للجميع بأنه يكسب الكثير من المقهى ، تتمناه كل أم لبنتها فى الحارة ، والكثيرات ينصبن حوله الشباك .

ـ أتفضل يافالح أترزع مكانى لغاية ما أروح لمكتب محمود المحامى .

ـ حتتأخر يابا ؟.

ـ ليه إن شاء اللـه وراسيادتك حاجة .

ـ مش القصد .. النهاردة حنشطب بدرى عشان بكرة ميعاد الزيارة بتاعة أمى .

أزاحه عن طريقه قبل أن يرد بملل : روح أقعد مكانى وبكره ربنا يسهل ويعديها معانا على خير . قالها وأنطلق متعجلا فى حين أنكمش منصور محتلا مكان أبوه ، يرمى بنظراته الحادة لكل ما تصل إليه عينيه ، إلا أنه رفع يده فى تحية بأتجاه صاحبه الحميم " سليم " فور دخوله عتبة المقهى ، علاقة قديمة مستمرة منذ أن زامله فى مدرسة " النهضة الأبتدائية " وهى المرحلة الأخيرة فى علاقة سليم بوزارة التربية والتعليم ، أتجه بعدها بكل حماسة إلى المشاغبات والرذالة ثم أحترف بعض المهن كانت أحداها النقاشة والتى أظهر فيها نجاحا فى دهان الجير ، له سحنة تتغير حسب ما يتعاطاه ، فتجده مرة شابا ومرة كهلا وأخرى شيخا هرما . له خطوة مميزة تحس فيها بالترنح ؟، يقترب من منصور وهو يتفقد شعره بأنامله الذى وضع عليه مايكفى من " الجيل " بينما نفرت منه خصلة على جبينه مثل ذيل الفار .

أفسح " منصور" مكانا لكرسى " سليم " الذى سأل قبل أن تلمس مؤخرته مقعدته :أبوك فين ؟..

ـ عند محمود المحامى . قالها وأشعل سيجارته التى كان قابضا عليها بشفتيه .

ـ خير فى حاجة ؟ .

ـ يعنى أنت مش عارف أبويا ومشاكله اللى حاطط نفسه فيها !!.

ـ قصدك نظام العرفى اللى داير بيه مع النسوان الساكة .. طب أطلب لنا شاى وشيشة .

ـ أتنين شاى وشيشة هنا ياجمعة . بينما كان يراقبة سليم من خلال حاجبيه : اللـه يسهلك ياعم ..عرفت أنك كنت مع البلطية النهاردة ؟!.. أنتبه ولم يجب ، وإنما ألتقى حاجباه عند منبت الأنف فى ثنيتين : تقصد نوسة .. واللـه ماشفتها النهاردة . حضر " جمعة " بصينية بها كوبين شاى وشيشة وضعها بين ساقى سليم . فما أن ادار ظهره حتى تابع منصور : بتسأل ليه ياسليم ؟.. لم يأته الرد سريعا ، مازال الأخير يسحب أنفاسا طويلة من الشيشة ثم يحاصرها داخل صدره لا ينفث الدخان إلا بعد مدة . قال حين أغمض عينه نصف أغماضة : أنا لسه شايفها من ساعة داخلة حارتهم وكانت متظبطة ع المسطرة محزأ ومحبك ع الأخر قلت أكيد الحلوة كانت مع منصور . توتر الأخير فظهر الشريان الذى يشق جبهته حين يغضب ، يدخن سيجارته ويطقطق بأظافره على بطن كوب الشاى .. لحظة عصبية تنتابه فى حين سعل سليم سعالا خفيفا كى يتيح الفرصة لصوته أن يخرج : هى أيه العبارة يامنصور.. ساهما : خرجت راحت فين ورجعت ؟ قالها ثم تأتأ ونطق بعبارات مفككة وألفاظ من الشتائم الضخمة بينما يضغط سليم بالماشة على الجمرات يتناول أنفاسا قصيرة : ليه تعكر مزاجك وتشغل بالك وتخلى الصراصير تلعب بدماغك ما تتصل عليها وتسألها ؟. دار بعينيه للحظات ثم قام من مكانه قلقا غاضبا : لأ مش حأتصل أنا حأروح لها البيت ! قرر ذلك وهو يضع علبة سجائره فى جيب قميصه ثم صرخ : جمعة .. ربع ساعة وجاى . قالها وألتفت لصاحبه : أستنانى حأروح أشوف الحكاية دى وحأرجع على طول ، هز " سليم " رأسه قبل أن يقبل على الحجر ملهوفا متأملا صاحبه الذى أختفى فى ثوانى من المقهى .

غار منصور فى الحوارى المضاءة نصف أضاءة وسط صمت وهدوء مباغت فى هذه الأزقة الضيقة المتعرجة التى أفضمت به إلى بيت عتيق محشور بين أشباهه ، واجهته ليس فيها شيىء من تناسق ،

كانت من تصميم وأبتكار جده الراحل " عبد المقصود " بصفته مالك البيت ومن بعده لأبنته فايزة ، وبالرغم من مساحته الكبيرة إلا إنه موقوف على سكان همهم الأكبر أختصار النفقات والعيش يوم بيوم

أجتاز منصور المدخل الصغير ، ثم دفع بابا صغيرا معلقا فى زاوية ، صعد السلم الحلزونى الضيق المظلم الذى قاده إلى شقة نوسة ، فلما صار عند العتبة ، رن الجرس .. لحظات وكان الباب مفتوحا قبل أن تطالعه نوسة بأبتسامة مصحوبة بنصف وقفة وقد أنحشر جسدها فى فستان ضيق قصير ، فتفسر تفاصيله بتحديد واضح ، الوسط الضيق والصدر المدبب ، فالسوتيان أصغر من مقاس صدرها بـ " نمرتين " من الدانتيل الذى يكشف ولا يخفى ، بدت ملامحها جامحة ، عينان سوداتان فوقهما حاجبان مرسومان بدقة على بشرة بيضاء لامعة .. جمال وحشى يضرب الفقر فى نخاعه بكل ما أوتى من عزم دون أن ينجح فى تشويهه . صراخ جسدها بالأغراء كان تلقائيا ، أصبح عليها أن تشق طريقها بسلاحها الوحيد . أنوثتها المتفجرة .

صوت أمها الست " بدرية " يأتيها من الداخل مجلجلا : مين يا نوسة اللى على الباب ؟. تقرب عينيها بشقاوة تلاعبهما فى عينيه خرجت كلماتها مع دوران اللبانة فى فمها التى تبرزها فى بطء عند طرف لسانها : ده منصور ياما ..

ـ تعالى يا منصور أدخل . صحبته إلى الداخل وهو من خلفها يتبع خطواتها بينما بصره منحصر فى أردافها المرتجة المدربة .

بدت الشقة صغيرة ضيقة وتجهيزها من موبيليا وطلاء وأضاءة دون المستوى فى حين كانت " بدرية " ملء كنبة أسيوطى فى ركن الصالة ، أوشكت أن تتحول إلى كائن كروى طوله مثل عرضه ، لها وجه أبيض منتفخ يوشك على الأنفجار ، غالبا ما تفقد لونه تحت وطأة مساحيق من شتى الألوان ، خطوط بالقلم الأسود تحت العينين ، ظلال خضراء على الجفون يظللهما حاجبان رفيعان مقوسان .. الست بدرية صاحبة تاريخ طويل من الكفاح المشرف سطرته منذ ثلاثين عاما حين شقت طريقها مغنية مغمورة فى الأفراح الشعبية وفى سبوع المولود وحفلات الطهور إلى أن توالت نجاحاتها حتى أصبحت مطربة كرموز الأولى قبل أن تطور أدائها وأرتفعت بسقف الطموحات حين أكتشف فيها " عم داود " متعهد كومبارس نواة جيدة لممثلة سيصبح لها شأن فى سماء الفن ، دائما ما كان لها دور فى معظم المسرحيات التى تعرض بالأسكندرية فى الصيف .

خمسة وعشرون عاما هى المدة الزمنية التى قدمت فيها رسالتها الفنية بنجاح ، وإن كان يعاب عليها أن كل أدوارها كانت صامتة إلا ما ندر منها عندما تنطق بكلمة أو كلمتين ، غير أنها ألقت بمسئولية الخرس فى كل أدوارها على عاتق المخرجين والمنتجين الذين حاصروها دائما فى أدوار تعتمد على الحركة وسط المجاميع، ولكن سبحان مغير الأحوال جاءت ثورة يناير المجيدة فاتحة خير عليها حين توقف النشاط المسرحى تماما فى الأسكندرية ، فلم تجد أمامها سوى الأختيار الصعب وأعلنت قرارها بالأعتزال !..

أقتنص منصور مساحة صغيرة إلى جوارها وجلس محصورا قبل أن تنضم إليه نوسة وتلتصق به . أستدارت برأسها فى صعوبة مستفسرة : خير يامنصور يابنى جاى تاخد الأيجار؟ سدد نظرة وعيد باتجاه نوسة : لأ ياست بدرية أنا جاى أفهم الأمورة بتاعتنا كانت فين النهاردة على سنجة عشرة . بأستهانة ردت بدرية بعد تفكير لم يطل وهى تلعب له حاجبيها وتتنهد من أعماق بطنها : حتروح فين ياحسرة كانت عند " منعم " الكوافير . تفحصها بركن عينه : وهيه برضه محتاجة كوافير ياست بدرية !.

ـ أسمع يا بنى .. تخاف عليها على عينى وراسى ؟، تطمن عليها كتر خيرك ياحبيبى لكن راحت فين وجيت منين .. لأ " صورى" ماتأخذنيش أنا بس يا نور عينى اللى أسألها . زادت جلسته أنكماشا وضيق فتحتى عينيه وصدرت عنه صيحة غضب ذاهلة : أزاى بس الكلام ده ياست بدرية ما أنتى راسية على اللى فيها وفاهمة كويس أن نوسة بتاعتى . حشدت أذانها . تسمعه . وقد أرتفع حاجب وأنخفض الأخر بينما تمر بأصبعها على أحداهما : بتاعتك أزاى ياروح الست بدرية ؟ .

ـ يعنى حتبقى مراتى على سنة اللـه ورسوله . لانت نبرتها : أحنا سمعنا الكلام ده كتير يا منصور وبصراحة بقى أنا عايزة أشوف بعينى .

ـ إن شاء اللـه بكره حتسمعى كل خير .

ـ أشمعنى بكرة ياعنيه .

ـ بكرة الزيارة بتاعة أمى وأنا نويت أفتح معاها الموضوع وإن شاء اللـه الخير كله حيبقى بكرة .. مصمصت شفتيها : ع العموم بكرة مش بعيد .. تشرب قهوة ؟ يفرك يديه مبتسما : لأ أشرب شاى .

محاولات متكررة منها للملمة لحمها قبل أن تنجح فى النهوض ، تجر قدميها جرا ، بينما كان ظهرها يختفى من الصالة بأتجاه المطبخ أرخت نوسة جسدها بنعومة حتى ملأ منصور عينيه من ساقيها المنحدرتين بأستقامة وجلدها اللامع المشدود يغريه ، بينما لم تغب عنها نظرته التى سقطت عند فتحة العنق ، كذلك لم يغب عنه ذراعها البض المستدير بلا ترهل . ولما أنفرجت فتحة الثوب ، لتحيط بإطار داكن الحمرة ، فخذان بضان خلبا عقله .. ألتصق بها ثم مديدا جريئة تقفل فتحة الثوب ، لامست أصابعه الخشنة نعومة اللحم الأبيض ، ففتحت فى لحظة شوق للأصابع الداخلة ، فبرقت عيناها وسرت سخونة فى بدنها كله .. أمتدت يده تداعب شعرها وعنقها ، فأحس بها تلتصق به وكأنها أرادت أن تطمئنه على وجود غنيمته بجانبه . مالت على العنق العصبى فلاعبت شعره ليكرر صوته المتهدج بالشهوة والرغبة : بحبك أوى يا نوسة . قال جملته ثم مط شفتيه لعله يقبض بهما على شفتيها قبل أن تبعدهما : أنا كمان بحبك يامنصور بس مش بأيدى حاجة .. أنت اللى مالكش غرض .

ـ أنا يانوسة ؟!.

تضغط بضروسها على لبانتها : أيوه أنت يامنصور .. بقالك سنة بتقوللى حأكلم أمى فى موضوعنا لما أروح أزورها ، وزيارة ورا زيارة ولا منك كلمتها ولا حتى بينت كرمات . هدأت الرغبة المحمومة حين أدلى رأسه : ما أنتى عارفة أن أمى فى أيدها كل حاجة وهى صاحبة الحل والربط وعشان كده لازم أتكتك براحة وأخد رضاها فى حجرى .. أمى لو باركت المشوار بتاعنا ده الدنيا كلها حتضحك لنا . أجتذبت كلماته رضاها وأصبح الجو دافئا وقبل أن تزيد سخونته سمعت نوسة الصوت المألوف لزحف شبشب أمها على البلاط ، وهو أعلان منها عن قرب ظهورها قبل أن تبلغ ركنهم فى الصالة كى لا تفاجئهما ملتحمين فى عناق .. أقبلت بدرية بصينية الشاى تستكشف بنظراتها ما أسفرت عنه الجلسة الخلوية قبل أن تلقى بنظرة فى عينى أبنتها التى فهمت القصد منها ، فتحولت بأتجاه الولهان : بكرة ياما منصور حيروح يزور أمه الشر برة وبعيد فى السجن ووعدنى أنه حيفاتحها فى موضوعنا . وضعت الصينية على المنضدة الصغيرة كى تتمكن من وضع يديها حول وسطها بتأنيب : ده أخر كلام يا منصور ولازى كل مرة ! .

ـ وعزة جلال اللـه بكرة حأكون مخلص الشغلانة دى كلها ومش حأرجع من عندها إلا ومعايا موافقتها

ـ لما نشوف أخرتها . قالتها بتسليم وأرادت أن تكافأه . أردفت : طب بالأذن يابنى ورايا حاجات فى المطبخ حأعملها .. شعر منصور بأن طريقه أخضر فأراد أن يحتويها بين يديه ، بينما كانت نوسة يطيب

لها أن ترى شهوته تتدفق منه ، كانت تجعله يرتوى من مجرد الملامسة وكانت ترى رغبته فى النظر إلى نهديها البيضاوان المكوران ، يرى أستدارتهما وهى تنحنى لتقديم الشاى قبل أن تضع يدها عليهما وعاتبته بعينيها وأبتسمت .. بدت شفتاها ترتجفان بأبتسامة تتدبر فيها أقتراحا ما : أنا جتلى فكرة يامنصور . سحب يدها من على صدرها : هو ده وقت أفكار يابت .

ـ أهمد وأسمعنى ، أيه رأيك لو تكلم أبوك المعلم عبده وتتفق معاه ييجى عندنا هنا يفاتح أمى ونقرأ الفاتحة وأنت براحتك بقى خد وقتك مع أمك وأبقى مهد لها فى أى زيارة وساعتها لاحتمانع ولاحترفض.

وقع كلامها كان باديا على ملامحه حين أرتبكت نظراته وأنكمشت جبهته . لم تسمع منه تعقيبا فعاجلته : أيه رأيك فى الفكرة دى ؟!.. خبط جبينه بكف يده : يانهارك أسود يانوسة ، بقى أنتى عايزة أبويا ييجى عندكو البيت ويتفق مع أمك وكمان يقرأ معاها الفاتحة من غير موافقة أمى فى الأول . صدى كفيه على فخديه كان معبرا : تصدقى وتؤمنى باللـه .

ـ لا إله إلا اللـه يامنصور .

ـ ده أبويا من كتر خوفه من أمى لما بيعدى من أدام صورتها اللى متعلقة فى البيت بيمشى على طراطيف صوابعه . عند ذاك تطلق ضحكة مجلجلة أفقدتها توازنها فمالت على كتفه بطراوة ثديها فيتوتر جسده للحظة ويكف عن الحديث ، فيجرع كوب الشاى دفعة واحدة قبل أن يشعل سيجارة يدخنها لعلى أنفاسها تخفف توتره ، بينما ترمقه بنظرة ماكرة من طرف عينها وهو يمسح قطرات الشاى من حول فمه بظهر يده وهى تتدلل وتراوغ . كانت كالقطة التى تلعب بالفأر قبل أن تجهز عليه ، وتأكله . أزاحت يده بحركة حاولت أن تجعلها لا تشى بأمتعاضها .. أبعدت شفتيه عندما أقتربت من خدها أنفاسه الساخنة ، ظلت فى كل لحظة تتصدى لمحاولاته وتحبطها قبل أن تهمس وهى تدفعه فى صدره بميوعة : كفاية كده يامنصور وقوم روح شغلك قبل أمى ماتاخد بالها . لمست منه أستجابة قبل أن يقبض بكفيه على خديها تاركا قبلة على شفتيها كان لها تأثير مؤلم على فكيها ، نهض بعدها واقفا : أدينى ماشى ياقشطة . تقدمت أمامه ، فتحت باب الشقة ، أراد النزول سريعا قبل أن تظهر أمها وتلقته كلمة أو جملة حول زيارة الغد لأمه .. بينما أدركته نوسة وهو يهبط الدرجات على عجل : أسمع يامنصور . توقف وهو يرنو الى أعلى : حترجع بكره أمتى من الزيارة ؟

ـ يعنى بعد العصر كده . همست : أول ما ترجع أبقى كلمنى على طول ، عايــزة أسمع أخبار حلوة ..

صعد درجة وهو يفتح فمه : دى أول حاجة حأعملها بس أدعيلى يانوسة .. ضحكت : حأدعيلك .. هبط يكمل الدرجات .

0000000000000

مازال عبده ماثلا أمام الأستاذ " محمود المحامى " الذى تصدر مكتبه بملامح صارمة واثقة زادت من فجاجتها بدلة فيرانى وكرافتة سوداء مع نبرة صوت لها رنة وكأنه مقدم برامج فى حين أسترخى عبده بجلبابه الفضفاض وقد بدرت منه صيحة دهشة عفوية لا تخلو من هامش كوميدى : خير ياأستاذ محمود جايبنى على ملا وشى كده ع الحامى عامل زى الدكر اللى مزنوق فى نتاية !!.. رجع بجسده مستندا إلى ظهر كرسيه : يعنى هو أنت ياسى عبده لما الواوا تنأح عليك ويكون لك مزاج فى جوازة تيجى وتبقى عامل زى فرقع لوز لغاية العقد مايتكتب وبعد الواوا ماتخف تخلع وتسيب لنا وجع الدماغ !.. تداخلت رأسه بين كتفيه : يعنى أيه يامتر الكلام ده ؟ .

ـ يعنى لم الدور ياعبده .. أحتد فجأة . لعله لم يفهم مقصده من تعبيره : يعنى أيه الم الدور ؟ .

ـ يعنى خلص البت كريمة وأديها القرشين بتوعها وخليها تروح لحال سبيلها . قالها بصيغة قرار..أراد أن يقاطعه : مأهو أنا عايز أقولك .. لكنه صفع سطح المكتب بيديه مقاطعا : لا تقولى ولا تعيدلى أنت تخلص الحكاية دى وبس وأبعتلى فلوس كريمة اللى مكتوبة فى العقد .

ـ طب ماتأخد وتدى فى حكاية المبلغ ده .

بنبرة من فاض به : خلص نفسك ياعبده أحسن لك .. الوله " جمال النونو " صبى فايزة لو شم خبر عن الحكاية دى حيبلغ المعلمة وساعتها أنت حر منك لها بقى ! أرتبكت الكلمات على لسانه : لأ لحد كده ويبقى لازم ألم الدور وأخلص نفسى .

غير أن عبده فوجىء به يقهقه بوتيرة عالية متواصلة ويكاد ينقلب على ضهره ويضرب كفيه ، سرعان ما شاركه عبده الضحكات فلم يكن يتصور أن الأستاذ محمود أنسان قابل للضحك مثله . لم يمهله

الأستغراق فى دهشته بل قذف عليه بسؤاله كمن يقذف بحجر : أخبار دفاتر الحسابات بتاعة القهوة أيه ؟ بدا كمن سحب لصدره نفسا : أن شاء اللـه حأجهزهم وأبعتهملك متستفين .

أختصر الموقف : أدامك أسبوع ياعبده وتكون الدفاتر هنا على مكتبى . شابت صوته نغمة خيبة :ماينفعش أسبوع .. فى أمور لازم تتظبط وفى حاجات لسه حتتشال وحاجات حتتحط .

ـ ماشى حأسيبلك فرصة أسبوعين تظبط فيهم نفسك وأنت سيد العارفين أنا لازم كل شهر أقفل حسابات فايزة من شيكات وأيصالات أمانة.. ده حتى الوله النونو سلمنى أيراد التاكسى بتاع الشهر اللى فات وبيجهزلى أيراد الشهر ده ومش فاضل غيرك ياعبده . مسح شاربه قبل أن يحفزه الفضول : طب لو فرضنا أنى ماقدرتش أجهز الدفاتر فى الأسبوعين دول ، أيه اللى حيحصل يعنى ؟ بتكشيرة صرخ فيه : ساعتها ياحلو حأخلص ذمتى وحأقدم طلب زيارة لفايزة وحأقولها جوزك عبده الجن اللى بيدير القهوة مش عايزنى أراجع الحسابات ولا عايز يسلمنى الأيراد ، أراد عبده أن يعترض ، ولكنه تفكر فى الأمر ، فأحجم ، هو لا يريد أن يقحم نفسه فى أية مشكلة مع فايزة ، كما أنه يعرف عقم مثل هذه المناقشات مع الأستاذ محمود .. أومأ برأسه مسلما . أمتثل صاغرا . ثم قال مخاطبا : ماشى كلامك يامتر .. أمرى للـه أسبوعين وحتكون الدفاتر بين أيديك .. أرتخت ملامحه : يعجبنى فيك عقلك الكبير .. الدفاتر تكون عندى هنا كمان أسبوعين وبكرة بالكتير تكون فلوس كريمة جاهزة .. ماشى ياعبده . شعر الأخير بصدره ممتلىء بشيىء ثقيل كالأسمنت سريع الجفاف ، بينما أنشغل فى حوار داخلى سريع بينه وبين نفسه ، راح يفاضل بين أحتمالات الأسوأ والأكثر سوءا . غير أنه أعد نفسه على كره منه لتنفيذ تعليمات المتر .. هز رأسه مهموما قبل أن يلملم جلبابه وقام من جلسته أسود الوجه كالغراب .

000000000000

جموع من البشر تمضى وأخرى تأتى ، تتحرك بمسارات متعرجة ومرتجلة وايقاع يصعد بالحركة إلى غاية لا تخطئها الأفواج الماضية والآتية . مكان الحدث عند البوابة العمومية لمبنى السجن . تلك هى مشاهد الحركة التى تدور أحداثها فى بلاتوه الساحة الخارجية الممتدة أمام البوابة .

يوم حافل بالأرتباك ، محفوف بالعشوائية . المشاعر الأنسانية بشتى درجاتها هى القاسم المشترك لكل الموجودين . أنه يوم الزيارة ..

المشهد من الداخل مختلف بأختلاف الشخوص . بعضهم تنفس الصعداء فور مروره إلى الداخل مثقل بحمله من حقائب وأكياس وأطفال قبل أن يعبث أمن السجن بأصابعه فى كل شيىء ، فهم يدققون ويفحصون ويفتشون أحمالك وجيوبك وبين ثنايا ملابسك وداخل تفاصيل جسدك . وأخرون عقب خروجهم من البوابة رأوا فى تلك الخاتمة خلاصا ! .

يوسف وبسمة كأنا من ضمن فوج تقرر دخوله حين سمعا مناديا فى هيئة " صول" يتلو أسماء السجينات المتاحة لهن الزيارة وجرى على لسانه أسم أمهما ، شعر يوسف حينها ببلوغ غاية أستحالت إلى أمنية طارئة أو مصيرية .

تحرك الفوج فى بطء بارد وكان فى القلب منه بسمة وأخيها ، يرتطم جسديهما بجموع المتلكئين الذين يتركون أجسادهم يدفعها لهم الآخرين . توقف الزحف عند ساحة أستقبال واسعة مستطيلة تشرف على مبنى العنابر وقد تناثرت طاولات بطول المكان وعرضه ، المشهد بدا فوضويا ، تصل إلى الأسماع من كل ركن ثرثرة الواقفين والجالسين . كل تطحنه همومه . الحوارات تدور أشبه بالصراخ ، كلها جمل مشتقة من قاموس الفقر والمرارة مصحوبة بشرح واف عن أزمات عاتية تتردد على ألسنة الزوار يزيد من مأساتها عيونهم الباكية ، بدءا من أزمة الغلاء والعيشة واللى عايشنها وحالة السواد والكآبة التى تمكنت من البلاد والعباد ، نهاية بتفاصيل التعب والأرهاق والتكلفة عند كل زيارة ، غير أن الأمر لا يخلو من أنحرافة سريعة على حال البلد تحت حكم الأخوان ، فدفعت البعض إلى القول بأن حال الموجودين داخل السجن أفضل كتيرا ممن هم خارجه ، بينما تحفظ البعض وأوضح أن الحال قريب الشبه وليس بأفضل .

رغم سنوات السجن الطويلة مازالت " هدى" تحمل فرحا وخوفا غامضا عند لقائها بأولادها فى كل زيارة . هلع يظهر ويسيطر ويختفى . تسمرت فى مكانها عند عتبة المبنى المشرف على مكان الأستقبال وسط صف طويل من السجينات .. مشهد يترك لديك أنطباعا ، بأن عددا لا يستهان به من المصريين يتابع حياته من داخل السجون . تهلل وجهها حين لمحت يوسف وبسمة . طوقت جبهتها بكفها فوق عينيها وكأنها تحجب عنهما لفح رؤية مفزعة حين لم تجد بينهما نورا . لم تجد جوابا سوى دهشتها التى أعتادت أن تعلنها داخلها فى كل زيارة أختفى فيها وجه أبنتها . ولما أستجمعت شتاتها ، تحركت نحوهما مسرعة تنادى بلهفة : يوسف .. بسمة .. كانا وحيدان ، منزويان فى ركن قصى داكن ، كأنهما تعمدا أن يتواريا عن الأنظار .

سمعا النداء . قطبت بسمة جبينها لتتبين . أتخذ الأمر منهما ثوان ليتأكدا قبل أن يرفع يوسف يده ملوحا ، تقدما فى هرولة يدفعهما الحماس ، ليمرا بين أنواع البشر المختلفة ما بين قائم وقاعد ونائم وثائر . كانت بسمة هى الأسرع بأتجاه أمها ومن خلفها أخوها يحاور بجسده رجلين وسيدة مروا فجأة من أمامه بخطوات باردة ثقيلة حتى أفلت منهم ، وعند نقطة التلاقى ، كانت هدى الأكثر أندفاعا كقطار خرج عن قضبانه ، بينما تحول صدر بسمة لصدادة أحتوت كل الأرتطام العاطفى المجنون التى بدت قوته متعادلة بينهما ، بين لهفة جامحة وشوق تزيد حدته عند كل لقاء ، عناق ساخن مبلل بالدموع . فى حين أستقر يوسف فى مكانه قبل أن تصيبه رعشة سرت فى بدنه كله ، أصابت عينيه وشفتيه . لم يتحرك من مكانه ، فجرته أمه وعانقته وشرعت تدور به وتضمه إليها وهو أطول منها ولكنه خاضع مطيع .. لحظة درامية يذوب فيها الفرح فى الحزن .. كان هناك عتاب صامت بدا واضحا فى عينيها وهى تسير بينهما تتأبط ذراعيهما حتى أجلستهما على يسارها ويمينها حول منضدة دائرية خصصتها إدارة السجن لأستضافة أسر السجينات التى لاتتجاوز عدد أفرادها ثلاث . تتناقل بنظراتها تتأمل ملامحهما تبحث عن فارق أستجد فيهما عن الزيارة السابقة . لم تمهلها بسمة متابعة الفحص حين نهضت نصف نهوض ومالت نحوها تقبلها : وحشتينى أوى أوى ياماما .. تدور عينيها فى خريطة وجهها : أنت أكتر ياحبيبتى ، كلكم وحشتونى .

بينما مازال يوسف معلقا ذراعه بذراعها وأدلى برأسه نحو ظهر يدها المدلى على مرفقه ، قبله فى خشوع : ربنا يخليكى لنا يا أمى وما يحرمناش منك أبدا .

ــ ولا يحرمنى أبدا منكم ياحبايبى ربنا وحده اللى أعلم زيارتكم بتعمل جوايه أيه دى هيه اللى بتصبرنى وبتخلينى أتحمل عيشة السجن . لم تجد بسمة سوى كلمات عفوية منفعلة وغير مرتبة : واللـه ياماما أحنا بعد كل زيارة بنفضل نعيد ونزيد فى كلامك اللى بنسمعه ومافيش ساعة بتعدى علينا إلا وبتكونى حاضرة معانا .. أنتى غالية أوى عندنا يا ماما .

ـ ربنا يهونها يابنتى ونرجع نتجمع تانى زى زمان . تنهيدة طويلة يشوبها اليأس . أردفت : هو ده الأمل اللى أنا عايشة عليه وبيصبرنى ع الأيام السودة الطويلة . لم تعرقل كلماتها سوى حشرجة ألمت بصوتها قبل أن تباغتها نوبة بكاء سريعة تعمدت بعدها أن تكون متماسكة . لملمت شهقاتها : لما بأفتكر أول يوم لى فى السجن ولما الزنزانة أتقفلت على كنت متأكده أنى مش حكمل يوم واحد وحموت لكن

الحمد للـه ربنا وقف معايا وقوانى وخلانى أتحمل أسوة الزنزانة والأيام البطيئة اللى ما بتعديش .. بارقة أمل عثرت عليها بسمة وصدرتها فى جملة مفيدة : هانت ياماما فات الكتير .

ـ أحنا كلنا حاسين بيكى وعارفين أد أيه أنتى متحملة وصابرة بس على رأى بسمة خلاص هانت . كان ذلك رأى يوسف بينما أدلت بسمة برأسها داخل الحقيبة يسبقها شعرها مغطيا وجهها قبل أن تردعه إلى الخلف رافعة عينيها : شوفى ياست ماما أحنا جبنالك أيه ؟ فأطلت الأخيرة برأسها معها على محتويات الحقيبة التى تصدرها كيس دجاج كنتاكى من الحجم العائلى وتوارى تحته علب تونة وعصائر ومعجون أسنان وفرشاة وفى القاع فوط صحية يجاورها كيس كبير . لم يجد يوسف فى عينى أمه فضولا ولا أستفسارا عن الكيس الذى يحوى غيارات داخلية وشرابات صوف وشبشب ماركة " Nik" بقدر مالمح حيرة مبهمة تغزو عينيها لا تبارحها رغم ما تقوم به من جهد لطرد تلك الصورة المطبوعة فى ملامحها ، ثم تنظر إليهما نظرة غريبة فيها أستفهام وقلة حيلة : هى نورا برضه مش عايزة تيجى تزورنى ؟! كان أول سؤال تبادرهما به . تلفت حوله وطاله الأرتباك بينما يبحث عن كلمات مقنعة : بصراحة ياماما نورا ما قدرتش تيجى معانا .. اليومين دول بالذات عندها شغل كتير أوى لدرجة أننا مابنشفهاش غير بالليل ع النوم . تدعمه بأجابات سريعة كما تم الأتفاق مسبقا . قالت بسمة : مدام زيزيت بتحضر لعرض أزياء كبير والوقت ضيق أوى عشان العرض أدامه شهر وبصراحة ياماما كان اللـه فى عونهم .

ـ ده الأكتر من كده نورا بتتغدى وتتعشى فى الأتيليه . رمى يوسف إليها بهذا الخبر المحير الباهت وعاد إلى صمته قبل أن يرجع بظهره إلى مسند كرسيه يتأمل زوارا بدأوا يتخذون أماكنهم أستعدادا للقاء .

لم تتفوه هدى بكلمة ولكن دموعها تولت الأجابة .. هذه المرة بتدقيق وحس أكبر قرأت بسمة فى داخل أمها حزنا وأحباطا وتسليما . لم تلمح أملا . أوجعها المنظر : واضح أنك مش مصدقانا . رسمت هدى بتقاطيع وجهها علامة أستغراب ممزوجة بقلق : يعنى زيزيت بتحضر لعرض أزياء وأختكم قاعدة ليل ونهار فى الأتيليه.. هى دى أخرتها يايوسف . تلفتت بأتجاه بسمة : مش قادرة تفهميها أن أمها أغلى من مليون أتيليه ومليون عرض أزياء . كست عينيها الدموع : مش قادر يايوسف تقول لها أن أمك بقالها ست شهور ماشافتكيش ولا سمعت صوتك . ثم لاتلبث أن تدعك أنفها وعينيها بمنديلها وتستأنف حديثها ، كأنما تحدث نفسها : أنا مش مصدقة نفسى نورا اللى كنت بأعتبرها صاحبتى وأختى وكل

حاجة لى فى الدنيا معقولة تنسانى كده بالبساطة دى ؟ تتصارع أسئلة مخيفة ضربت رأسها كشظايا منفجرة جعلت أفكارها غير خاضعة لأى منطق .. تنمو الكآبة فى داخلها قبل أن تتطوع دماغها لمساعدتها ، سرحت تستحضر لها أوقاتا سعيدة قضتها مع نورا ، هكذا هى ، يسعفها ذهنها مما يقيها من أزمات نفسية .. غابت تستعرض أيام ولت حين كانت أبنتها فى مدرسة " ماريا أوزيليا " وكانت ترافقها دائما فى حفلات المدرسة الموسيقية بمناسبة عيد الأم وعند أنتهاء العام الدراسى .. هى نفسها التى رافقت الكون عند ولادتها . كن يتلاشين كل منهما فى الآخر إلى أن صارتا كتلة واحدة .. أستحضرت رائحة عطرها التى كانت تحبه ممزوجا بروائح تلك اللحظة وهما محاصرتان بزخة مطر لم تفو فروع وأغصان أشجار شارع " شامبليون " على حمايتهما منها ، وأرتمت نورا فى حضنها هاربة من البرق والرعد معلنة : لما بأكون فى حضنك ياماما مش بخاف من أى حاجة فى الدنيا ولا حتى من الحاجات اللى بتنور فى السما .. بدأت هدى تضيق بذاكرتها ، فكم تمنت لو أصابتها غيبوبة حتى ترحل عن الواقع ولا تتذكر شيئا .. حاولا تبادل الكلمات معها لتهدأة قلقها ومخاوفها ، غير أنها عادت إليهما بفضول برىء : قوليلى يابسمة وأنتى ياباشمهندس أنا فى حاجة قولتها غلط زعلت نورا ولا يمكن قلت كلمة ضايقتها و جرحتها وأنا مش واخدة بالى ، يمكن أكون طلبت منها حاجة وكانت فوق طاقتها ومكسوفة منى . تدعك بأصابعها جبهتها . تعتصر ذاكرتها : مع أنى عمرى ماطلبت منها حاجة ولا حتى من أى حد وكمان مستحيل أكون زعلتها .. أزعلها أزاى وأنا بأعد الساعات والدقايق عشان أشوفكم .. تخطى منسوب الشك أفق العقل إلى الحد الذى يفضى بأنفجار فى أى لحظة : يمكن يكون حد طلب منها ماتجيش تزورنى ؟!.. ينصت يوسف لها بألم إلا أنه لا يريد أن يتدخل أو أن يقطع عليها تسلسل سرد لا يزال فى بداياته . لكنه أمام تعبيرها الفاجع الذى خلف على وجهها حسرة . أضطر إلى التدخل : أيه الكلام اللى بتقوليه ده ياماما .. واللــه ما فى حاجة خالص من اللى بيدور فى دماغك ده . سألها قبل أن تبادره بملاحظة أو سؤال : وأنتى ممكن تصدقى أن نورا تقدر تتأخر عن زيارتك إلا إذا كان فى سبب جامد أوى وغصب عنها وأنا فهمتك ياأمى أن شغلها فى الأتيليه بقى ليل ونهاروالدقيقة عندهم بقت بتفرق .

بدت تفاصيل المشهد تتجمع وتكتمل ، تسحبها الدقائق والثوانى إلى تشكيل درامى يصعد بها شيئا فشيئا حتى الذروة . قالت وقد ظهرت عليها عصبية خفيفة : أكيد مش ده السبب ياباشمهندس ولا السبب زيزيت ولا أتيليه ولا عرض أزياء ولا غيره .. الحكاية ببساطة أن أختكم الفلوس جرت فى أيديها وغيرتها وحست أن بقى لها وضع وبرستيج وبقت معروفة ومهمة .. سكتت للحظات حين سحبت نفسا

طويلا حاولت أن تحبسه قبل أن ينفلت منها خارجا مع أستنتاج توصلت إليه : نورا بقت بتستعر منى وشايفة أن وضعها الجديد مايسمحش لها بزيارة أمها المسجونة .. أعلنت الأتهام و تفحصتهما ثم أستأنفت : حد فيكم شايف أن كلامى غلط ؟ كما كانت طريقتها فى نطق السؤال صاعقة وموحية وتحمل فى طياتها العديد من الأسئلة التى تبحث عن أجوبة . هوت كلماتها كالمطرقة على رأسيهما وعصفت بهما دوامات وتعطل عقلهما عن التفكير وأصابهما وجوم لايعرفا معه ماذا يقولان .. أهتزت بسمة ثانية ، أو ماتبقى منها ، فألتفتت نحو أمها ثم إلى الجالسين متناثرين حولها ، فأحست بدفء فى قلبها ، لأن العيون ، كل العيون فيها دموع مثل دموعها . أرخت جفنيها أمام نظرات أمها المشحونة . لم يستأنفا كلامهما ، لم يكن أحدهما قادرا على المواجهة ، حتى كلمات العزاء ، أحسا أنها فقدت المعنى .. بقيا صامتين يرقبانها وهى تجتهد للتماسك ، ربما ليس طلبا لسماع مبررات وحجج واهية بقدر سعيها لأرضائهما وتلبية رغبتهما الملحة فى أن تعود لطبيعتها .

جلست مطرقة حتى ناوشتها بسمة باليد والكلمة لتخرجها عن صمتها : يعنى أحنا بقالنا شهرين من أخر زيارة محرومين من كلامك الحلو ومن ضحكتك العسل اللى لازم ليلاتى أفتكرها قبل ما أنام .. يرضيك يعنى ياجميل تبقى الزيارة كلها حزن ودموع !! تتظاهر بأستقرار خارجي زائف ، تخفى ما تشعر به من ظنون وهواجس وعدم قدرة على ربط المبررات فى سياق واحد . أيقنت تغير العالم حولها ، كما تغير أدراكها له ، لم تشأ أن تغرق فى تفسير أو توصيف الحالة وقررت الخروج من كآبتها المركبة وأنخفضت بنبرات صوتها الى ايقاع منحدر هادىء وكمن يدلو بشيىء محظور : خلاص ياولاد مافيش دموع ولاحزن وربنا وحده اللى يعلم أد أيه بأستنى زيارتكم بفارغ الصبر والدنيا بحلها مش بتكفى فرحتى لما بأشوفكم قدام عينى وألاقيكم كبرتو .. ساعات كتيرة بأبقى مش مصدقة نفسى أن ربنا عوضنى وبقى عندى راجل زى يوسف و عروستين زى القمر .. ألف شكر ليك يارب . أخيرا سقط ذلك السور الزمنى وأختفى ، ضحكوا مثلما كانوا يضحكون فى سهراتهم الصيفية على كورنيش الأسكندرية ، لكن هذه المرة تنقصهم نورا . أجاب يوسف عن سؤال حسبته قد ضاع فى زحمة أحاديتهم : بصراحة ياماما هدير بالنسبة لى مثالية فى كل حاجة و بتحبنى وفهمانى ومؤدبة ومن عيلة كبيرة والأهم من كده أنها دايما بتفكرنى بيكى .. نفس شخصيتك القوية مع أنها بنت وحيدة بس مش دلوعة وتفكيرها أكبر من سنها . سندت مرفقيها على المنضدة : نطمن الأول على تخرجك يايوسف وتبقى مهندس أد الدنيا وبعدها يبقى كل شيىء سهل . قابلها بأبتسامة عريضة صامتة دون تعقيب .

فى نفس اللحظة وفى ذات المكان أستعد فوج أخر من السجينات لأستقبال ذويهن ، بينما وقف " عبده الجن" ملتصقا بكتف أبنه " منصور" يحملق بعينيه ويتطاول بعنقه ، لعله يلمح فايزة ـ بدا وجهه عبوسا كئيبا ، بعينيه أحمرار وأنتفاخ مكشوفان ، وبسحنته ذبول وشحوب كأنه لم يذق طعم النوم من عدة ليال ـ فى حين تصلبت فايزة فى مكانها مكتوفة الأيدى تراقب الوجوه كأنها مخبر فى كمين ـ لمحتهما ـ أشارت إليهما بثبات .. تسمرت قدماه فى الأرض حين لمحها ثم أذا به يتقدم نحوها يجر رجليه بعدما أيقن أن مثل هذه اللحظة لا بد قادمة ولا مفر من المواجهة .. شبح أبتسامة يراود شفتيه ، تدريبا أعتاد عليه لتهيأة ملامحه لأستقبال زوجته بينما ضبطت الأخيرة جلبابها الأبيض حول جسدها وعصبت رأسها بالطرحة البيضاء ومضت إليهما .. كلما أقتربت منهما خرج صوت عبده بدعائه المعتاد فى كل زيارة : ياخفى الألطاف نجنا مما نخاف !! ذلك الكائن المغرور المتجبر تجعله تلك الزيارات دائما فأرا مذعورا ـ ثوان قليلة وكانا ماثلين أمامها ـ أختطفت فايزة أبنها تضمه إلى صدرها بقوة ، فينقض عليها يحتضنها ويخفى وجهه فى ثوبها بينما مدت يدها بأتجاه زوجها وسحبته من ياقة جلبابه فى جذبة مفاجئة وغيبته فى دسامة صدرها تضغط على ظهره فى قوة وصرامة قبل أن تباغته بنبرة غامضة مريبة : واللـه زمان ياعبده ياجن !! طالعها بأبتسامة ذليلة وكلمات ترحاب مبالغا فيها أن تسترمذلة الشعور بالخوف مما تنطوى عليه الجلسة من تساؤلات وأستفسارات قد تفاجئه بها : بسم اللـه ماشاء اللـه ولا حول ولا قوة إلا باللـه ، تصدقى وتؤمنى باللـه يافايزة .. بترقب قبل أن تشبك يديها على بطنها : لا إله إلا اللـه .

ـ لو أنا مش شايف بعينى أنك هنا قدامى فى السجن أنا كنت قلت أنك لسه طالعة من حمام بخار بلدى من بتوع زمان اللى بيخلى النسوان تلعلط وتنور..الصراحه أنتى كل مابتقعدى فى السجن بتزيدى حلاوة وجمال .. لأ وكمان بتصغرى .. أيو واللـه !! ملتفتا لأبنه يطلب تأييده : صح يامنصور ؟!.. أبتسامة مرتبكة : صح يابا ـ سحبتهما خلفها إلى مكانها المخصص ـ جلست معتدلة ووضعت ساق فوق ساق بعظمة تنظر بثبات تجاهه فى حين دعك عبده كفيه ولم يعد فى وجهه من الملامح غير أبتسامة مفتعلة ثم أخذ نفسا عميقا بعد أن تأكد أنها تحدق فيه ـ أستسلم ساكنا لنظراتها بينما بطرف عينه يراقب تفحصها له بقلق .. تصعد بعينيها نحو رأسه تدقق فى أركانها الكروية فى حين رف طرف شاربه الأيمن بحركة عصبية ، مبعث توتره وحرجه كان سؤالها المباشر : أنت صابغ شعرك ياعبده ياجن ؟!.. جف ريقه وبدا لسانه ممددا فى فمه كعود الحطب ، ظل يختار ما يمكن أن يقوله ، ثم وجد نفسه يتمتم ببلاهة : منه للـه حامد الحلاق عملها معايا .. تضغط بفكيها : عملها معاك أزاى ياجن ؟!.

ـ قالى مادمت رايح تزور المعلمة يبقى لازم أظبطك عشان مايصحش تشوفك كده .. رفعت له حاجبا: صح حامد عنده حق !! حاول الهائها حين حاصرها بثرثرة حول سكان الحارة وزباين المقهى وحال الدنيا منهيا تقريره هامسا فى أذنيها بعاطفة مصطنعة عن ليال جنسية محروما منها ، يستفيض فى تلك العبارات التى تستغرق منه وقتا طويلا وتقتضى تحايلا بارعا لعله يقتل زمن الزيارة ، بينما منصور يعقد حاجبيه فى جمود ولا يبسطهما أبدا حتى أقتربت منه وداعبته ولعنته ولعنت أبوه وأضحكته ثم قبلته فى خده وناوشته ، دائما ما تجد مختارات عجيبة من الألفاظ ترسلها على الفطرة فى وقاحة عذبة وهى تتحسس كتفيه : مالك ياوله كده عمال تطول وتعرض ، كلها كام شهر وتبقى زى البغل اللى جنبى اللى عايم فى مية البطيخ . عبده تلدغه كلماتها وتحت شاربه الكثيف تنام بسمة ساخرة على شفته : ماتفك سحنتك وأفرد وشك يا أبن البغل !.. فأنشق جفناها عن النظرة القوية التى تجيد رشقها فجأة فى عينى من تكلمه : ماتقولى يابنى مالك وش اللى جابك مقلوب ليه .. أبوك مضايقك ومزهقك فى عشتك ، ماهو أنا عارفاه وحفظاه ده راجل أنانى مايحبش غير نفسه ماعندهوش ريحة الدم راجل ناقص تلاقيه راميك فى القهوة ليل ونهار وهو داير يتسرمح . أنكمش عبده ولم يعلق ، تركها تشتمه بمحصولها الوافر العجيب من أقبح النعوت . غير أنه قال بعد أن هرش بسبابته رأسه وهو يضغط على الحروف : عاجبك كده ياأبن الكلب آهى جابتها فى ، ماتقولها فى أيه وخلصنا ؟.. أستعد منصور وتماسك ، إلا أنه سرعان ماأرتبك وتحدث حديثا غير متصل راح يقفز بعباراته من معنى لمعنى دون ترتيب .. أستشفت فايزة بيقظتها أتجاه فكره ومداه فعالجته وهو يتململ فى جلسته الصعبة بأنذار حاسم : فى أيه ياوله مالك عمال تلف وتدور زى الحية ماتقول عايز أيه . زاد أضطرا به وهمس مناجيا نفسه : أنا مش عارف حأفاتحها أزاى فى حكايتى ؟! بدت منفعلة . أنه يثيرها ويفسد خطتها للتحمل والصبر ، لكنها ومأأقدرها.. كانت قد أستردت سكينة نفسها وأسدلت على وجهها قناعا من هذه الأقنعة التى تجدها عند الحاجة لتغطية أسوأ المواقف ودفع أكبر النكبات : هو أنا يامنصور بتأخر عنك فى أى حاجة بتطلبها ، ده أنت ياحبيبى أبن عمرى ونور عينى .. ده أنت الحيلة والحسنة الوحيدة اللى طلعت بيها من الجوازة السودة دى .. يقدم كلمة ويؤخر مثلها حتى تشكلت على لسانه جملة مفيدة : بصراحة ياما أنا لى طلب عندك وعايز موافقتك . أدركت بفراستها من النظرة والصوت أن أبنها يريد أن يقول شيئا ، فحاولت معه أن يفك عقدة لسانه : طلب .. قول يامنصور عايز أيه ؟ .

ـ عايز ياما أتلم وأشوف بنت الحلال اللى تخدمنى أنا وأبويا . عينيها توقفت ولمعتا لهفة وفضول عند ذكر " بنت الحلال " مقاطعة بنبرة متسلية : آه هى الحكاية فيها بنت الحلال . ثم عاودت

الأستماع إليه . يواصل كلامه : وقلت لنفسى آهى تبقى فرصة لما أمى تطلع تلاقى واحدة مستنياها تكون خدامتك وطوع أيدك . تعلقت به عينيها التى أتسعت دهشة وذهول من أن يأتى هذا الكلام من أبنها " العيل بتاع أول أمبارح " : عايز تتجوز يامنصور ؟!. هز رأسه دون أن ينطق أو يرفع عينه . أردفت : وبنت الحلال دى اللى عجبتك وكلت دماغك مافهمتكش ولا نورتك ولاقالتلك عيب ياأبن الحلال تفاتح أمك فى موضوع زى ده وهى فى الأسر مسجونة .. مش قادر تستنى لما أخرج ياأبن المفضوحة .. أنت فاكرنى ياوله واخدة تأبيدة .

ـ أبدا ياما أحنا قلنا نقرأ الفاتحة بس يعنى ربط كلام لغاية ماتخرجى بالسلامة .

ـ أخس عليك ياقليل الأصل ياناقص ياأبن الناقص .. هو أنت حتجيبه من بره طالع زى اللى جابك أعمى البصر والبصيرة . غير أن عبده وقف حاجزا فى طريق عباراتها وتابع محاولا أمتصاص غضبها ومحاصرة أى أنفعال قد تلقيه فى وجهه أو فى وجه أبنه . ردت بتوتر خف كثيرا بعدما نجح فى سحبها الى الهدوء : ومين بنت الحلال دى اللى شقلبت كيانك وخلتك عديم الأصول زى أبوك . قبل أن ينطق لسانه لكزه أبوه فى ساقه وتولى الرد : مافيش حد فى دماغه .. كبرى دماغك يافايزة وما تشغليش بالك مأنتى فاهمة ياست الكل السن ده . أبدى عبقرية فى الأصلاح لم تعرفها عنه إلا فى حالات نادرة . أشعل لها سيجارة ثم دفعها بين شفتيها . سحبت نفسا طويلا وهى تنصت وقد أرهفت سمعها لكلام زوجها حول بعض القضايا والأمور التى تخص المقهى وبيت أبن شكر وقد ركزت عينيها الواسعتين على وجهه وغرزت أصبعيها فى خدها ودخان السيجارة يتصاعد من بينهما .

بينما لاتزال هدى تحكى حكايات لا تنفذ عن نورا ثم تمد يدها بين لحظة وأخرى لتلملم أطراف طرحتها البيضاء .. كانت هناك منطقة جافة خاوية فى كيانها رغم ما تبديه من فرح وجرأة وتحد .. حال أيات أثلج صدرها وهى تتابع كلمات بسمة : حالها أتغير كتير عن الأول ، دلوقتى بتقعد معانا وبتسمع مناقشتنا وحكاياتنا وكمان بيبقى لها رأى .

ـ كل حاجة أتغيرت فى الدنيا حتيجى على عمتى يعنى .

ـ الحمد للـه يابنى أنها خرجت من أزمتها .. هى أتأخرت أوى بس آهو كل شيىء بأوان .

فى تحفظ قال يوسف : هيه ماخرجتش أوى يعنى لكن أحنا كنا فين وبقينا فين .

ـ لسه بتخرج كل يوم خميس ؟ تولت بسمة الأجابة : هيه دى الحاجة الوحيدة اللى فى جدول عمتى ماتغيرتش ، يوم الخميس بعد المغرب تظبط نفسها وتخرج تتمشى على الكورنيش ، صيف شتا ده ميعاد مقدس .

ـ واللـه عمتكم دى زى النسمة دايما بتفكرنى بهوانم زمان فى كلامهم وحركاتهم بشوف فيها ليلى مراد وراقية ابراهيم وليلى فوزى بس للأسف ياعينى ماقدرتش تتحمل أسوة الزمن وغش الناس .. ربنا يكون فى عونها . تقاطيع من اليأس ظهرت سريعا على ملامح يوسف : ربنا يكون فى عونا كلنا ، البلد كل يوم بتسوء عن اللى قبله ومرسى وجماعته عايشين فى ملكوت تانى والناس كلها فى سكة تانية وماحدش عارف بكرة شايل أيه .

ـ كلام يوسف صح ياماما والمصيبة الكبيرة دلوقتى أن الناس كلها بتتكلم وتفتى فى السياسة اللى فاهم على اللى مش فاهم كله بيرغى والوحيدة فى مصر اللى مالهاش دعوة باللى بيحصل هى نعمة . فاجأها الأسم : بالحق نعمة عاملة أيه دلوقتى ؟ .

ـ الروماتيزم مخليها يادوب بتمشى .

ـ ماحدش وداها لدكتور ؟ .

ـ أزاى بس ياماما ، ده أنا وعمتى كل شهر لازم نروح بيها للدكتور يتابعها .

برقت عينيها بالدموع : خلو بالكم عليها ياولاد ، نعمة دى بتاعة الزمن الجميل والأيام الحلوة .. ست أصيلة . ختمت جملتها بنبرة متحسرة : ياخسارة يازمن !!.

كانت ساعتين من أصل ثلاث ساعات قد أنقضت من وقت الزيارة . بقى الحال على حاله ، عبده محشور فى كرسيه ، محاصر ومحصور من كل الجهات . تفهم فايزة نفسيته عن ظهر قلب فيطيب لها أن تكايده ، وهى لا تعدم دائما كلمة مسمومة تتوج بها تلذذها بتنغيص كيانه : أنا لما دخلت السجن ياراجل يامعفن وسيبتلك الواد ده أمانة فى رقبتك كان زى قضيب القطر لا كان متنى ولا ملوى ولا معوج وحاله دلوقتى لا يسر عدو ولا حبيب .. خيبته فى التعليم وبوظته وخيبت أملى فيه وكمان الوكسة زادت وبسلامته عايز يتجوز . لم تمهلة حق الرد بل أضافت فى لهجة من تذكرفجأة شيئا كان قد نسيه : ماهو عنده حق شايف بعينيه أبوه راجل ناقص وعايب عمال يتسرمح ليل ونهار على أفايا وبفلوسى واللى

زاد وغطى صابغ شعره كمان ، كلماتها وصلت إليهما كأنها مخالب نمر مفترس ينهش لحمهما . لم ينطق عبده بل بدا كثعبان مزنوق تلوى على نفسه محتدما بالغل حتى كاد غليان الخوف تحت عظام جمجمته أن ينفجر . فناولته وخزة أخرى : ودين النبى ياعبده ياجن إن ماتعدلت أنت وأبن الكلب ده لأكون مخليه الكبير والصغير فى كرموز كلها يتفرج عليكوا !!. قام منصور من مقعده كالمصعوق يستجمع خوفه : ماحصلش حاجة يعنى لكل الكلام ده ، أنا ماغلطش ياما ولا طلبت المستحيل كل اللى قلته نقرأ فاتحة وبس . أنتفضت فجأة من مكانها وهى تدمدم وتتوعد وتسب : لأ ياروح أمك انت غلط وأتعديت الأصول واللى لازم تفهمه ياحيلة وتحطه فى دماغك الوسخة دى أنى أنا بس اللى أختاروأنقى واللى على مزاجى أنا مش مزاجك أنت . رمش اليها عبده مرتعدا : صح يافايزة كلامك كله صح ياختى . أراد منصور أن ينسحب . تحرك خطوة . فمدت يدها وشدت بذراعه وأعترضته ووقفت أمامه تحدق فيه وهو ينظر فوق كتفها لأبعد منها وسألت بألحاح : مين ياوله اللى لحست عقلك .. أسمها أيه ؟ ألتفت بعيدا ولزم الصمت بينما هى لا تفلت ذراعه من يدها ، أحست أرتباكه وأرادت أن تريحه منه ، لكنه كان كالأبكم : أنا أعرفها .. هى من الحارة عندنا ؟ سحبته نحو كرسيه : أقعد .. فظل واقفا ينظر حوله كالمذهول . شدته ونزل بأرتطام وجمود وبقى صامتا لا يتحرك . حذرته وهى تقف عند نهايات الكلمات : ع العموم ياروح أبوك لو أنا عايزة أعرفها .. حأعرفها وأحسنلك تفوق وتصحصح لحسن تشوف منى أيام أسود من شعر أبوك المصبوغ . أستدار برأسه يتهرب منها . أمسكت به من يده وأرغمته على النظر إليها وجها لوجه ، ثم تركته وجلست ويدها مشبوكتان فى حجرها وأبهاماها تضغط أحداهما على الأخرى ألتماسا للقوة ثم نظرت لزوجها فوجدته يبتسم ولكن أبتسامة غامضة وغير مبررة ولا مجال لها فكانت نظرتها إليه نظرة فهمها قبل أن تلوى شفتيها وسكتت كما سكت الناس جميعهم فجأة وفى وقت واحد ، حتى الوشوشات لم يعد يسمع هسيسها . كل هؤلاء البشر ، سجينات وزائرين أرتدوا جميعا إلى دواخلهم بظلال حزن ألزمهم الصمت عندما أقتحم المشهد فرد من حراسات السجن ، طويل القامة متوترالقسمات بشاربه الذى يشبه بصمتين من بصمات الأصابع وعلى وجهه حدة معلنا أنتهاء الزيارة . أصاب الجميع غضب وثاروا ثورة لا يهتم بها أحد .. باقى نصف ساعة على أنتهاء الموعد الرسمى . فى مثل تلك الأحوال من خيانة المواعيد يعم الغضب وتفلت الألسنة وتنهمر الشتائم مطرا . يبدأ الناس ثورة وهياجا ، يفتأن يتكسران شيئا فشيئا حتى يستحيلا إلى تذمر واهن . قد لا يكون الأمر مفهوما لهم ولا يملكون تفسيرا ولا تبريرا والأسئلة تدور فى الرووس ، إلا أنها لا تقدم ولا تؤخر ولا تفسر .

نهض الثلاثة وقوفا ، هدى وبسمة ويوسف فى زوايا مثلث ونظراتهم مشتبكة كأنهم يبحثون أزمة وخطوات الناس حولهم مرتبكة وعيونهم زائغة حتى أصواتهم وأنفعالاتهم لا يتحكمون فيها بينما خرج صوت هدى بكلمات سريعة وموجزة : خلوا بالكم من بعض ياولاد و خد بالك يايوسف من أخواتك وقولوا لنورا ماما حتستناكى الزيارة الجاية عشان هى وحشتنى أوى . يضمها إليها : حاضر ياماما وبأوعدك من دلوقتى أنها حتكون معانا الزيارة الجاية . بينما بسمة غلبتها دموع الفراق : خلى بالك على نفسك ياماما وكلى كويس . تحتضنها وقد أصابتها رعشة لم يستطع معها يوسف أن يحبس دموعه.

عند أعلان أنتهاء الزيارة نزل الفرج من السماء على عبده ، شعر كمن يخرج من حال لحال يغادر قلقه وخوفه فى حين تابعت فايزة بقوة وصرامة ما بدأته مذكرة عبده بكل المنسيات ، القهوة وحساباتها ، ايجار البيتين وضرورة أشراف محمود المحامى على كل كبيرة وصغيرة مع تحذير صريح سمعه كل من مر بجوارها : أحترم نفسك وألزم حدودك أحسنلك والقهوة تترزع فيها ما تفارقهاش لا ليل ولا نهار . ثم باغتته بأصابعها تفرق شمل شعر رأسه : وأول ماتوصل البيت تغسل رأسك بالجاز ياراجل ياناقص .. عايزة الزيارة اللى جاية ألاقيها بفتة بيضا . أنهت التحذيرات وأحالته لوصايا سريعة : فتح عينك لأبنك وأعدله دماغه وخلى بالك من الوله النونو ومش عايزة أسمع منه شكوى ياجن .. ظلا منصور ووالده ، الخيبة والخوف تتقاذفهما تصعدبهما وتهبط دون أن تترك لهما فرصة لألتقاط الأنفاس ، تعبا وأصابهما ملل مشحون بأحباط ظل ينمو ، حتى دخلا منطقة حزن عميق بينما وقف منصور وكان حجر بنطلونه الجينز ملتصقا بما بين فخذيه نتيجة أنتفاخ طارىء ضرب الخصيتين فسحبه بتأفف يبعده فى حين تحرك عبده بخطوات أزدادت أتساعا حتى أصبحت هرولة مذعورة .. ماهى إلا لحظات وكأنا عبده ومنصور يخطفان الطريق خطفا بأتجاه البوابة وقد أنتفخ جلبابه الأبيض ورفرف فى الهواء .. كان يشعر بنظراتها تخرق ظهره .

عندما غادرت بسمة بصحبة يوسف كان الزحام شديدا وحركة الأجساد تضاعف لحظة الفراق ، بينما لاتزال هدى على وقفتها الملهوفة كأنها تبدى أسفها على هذا الفراق . كانت تلوح لهما وكأنها تتشبث بجدار ينهار .. راحت تتلكأ لتكون آخر المودعين ، ثم مالبثت لا تخطو ولا تلوح حين صارت قامات المودعين تبعد وتقصر فركزت نظرتها على ظل يوسف وبسمة وهو يتلاشى رويدا رويدا وعيناها ترحلان وراءهما .. منظرها التعس ووقع خطواتها ، وحتى ظلها وهو يسير إلى الأمام والى الخلف

أصابها بشعور جارف باليأس دفعها أن تطأ ظلها بقدميها ، أن تقهر ذاتها .. أحتلتها أفكار وظنون وتهيؤات مجنونة وأيقنت أنها ستجنى أحباطا مديدا ينحفر فى الذاكرة ، وقد ينفجر فيها !.

الفصل الثالث

عند تباشير الشتاء وقدوم أسراب النورس على شواطىء الأسكندرية ، وزحف الموجات الرغوية المتلاحقة . كعادتها كل يوم خميس خرجت " أيات " من باب الشقة تدق الأرض بكعب حذائها دون أن تستدير وهى تحث خطاها حاملة على ظهرها تاريخا من العزلة .

شوارع الأسكندرية بعماراتها القديمة وطريق الكورنيش العتيق ونادى سبورتنج الذى كان ملاذا للباشوات وعائلاتهم ، فكل هذه الأماكن تسكن طفولتها مثلما يسكن وجهها الألم والوحدة .. كان الليل قد هبط على الكورنيش مسلما البحر الى تدرجات اللون الغامق ، المرتحل رويدا رويدا نحو عتمته الكثيفة . بينما الموج يضرب صفحة الماء ، كمن يلطمها ، والهواء فى هياج كالماء ينشط محدثا ضجيجا وسط السكون .. لا أحد فى الشوارع سوى الشتاء ، فما من بشر يستطيع أن يشاركها موقفها فى هذه البرودة الشديدة .. كانت تتلقى البرد كله وحدها والهواء يصفر فى أذنيها ويلفح وجهها .

بداية غير مشجعة لها ، فقاومت وسارت منكمشة داخل معطفها الصوفى الثقيل ، تضم طرفيه المبطنة بالفرو كلما صدمها الهواء . خطواتها بطيئة متمهلة ، تلتفت بنظراتها تجاه البحر ، تغرق فى تداعياته ، لم تسحب تأملها إلى ضفاف تستكين إليها . وقفت .. أرادت أن تستنشق هواء مشبعا بالملح واليود . الهواء هنا عند الكورنيش يتسرب فيها ويحملها فتعلو روحها بينما اليود ينعش الدورة الدموية وينشط ذاكرة صرفها الزمن عن البوح بأسراره .. مرت فى لحظات حكايتها مع شاكر أمام عينيها .. أصبحت الريح أكثر نشاطا ، لم تعد تعبث معها برفق إلا أنها بقيت ثابتة فى مكانها تتأمل قبل أن تنكمش رأسها تدريجيا داخل معطفها منتبهة لتأملاتها نحو بحر لا يجيب وهى تستحضر سؤالها المتكرر ، وسمعت نفسها تهمس : وبعدين ياأيات .. الزمن واخدك على فين ؟!. الريح تضرب فيها بقوة وشراسة : الشهور جابت سنين وأنا على نفس الحال واقفة عند عتبة الماضى لا قادرة أشوف النهاردة ولا بأفكر فى بكرة . تتنفس هموم تضرب فى داخلها فتزلزلها : ياخسارة ياأيات .. كل حاجة راحت منك ، السعادة والمال والعمر و ماعدش فاضلك حاجة فى الدنيا . راحت تدقق فيما حولها بهدوء . بدت كأنها تصطدم بواقع تنهار دوائره واحدة بعد أخرى .. تبتلع ما تبقى فى حلقها بصعوبة : أنتى أنسانة فاشلة.. مافيش

حاجة نجحتى فيها حتى الحب الوحيد اللى قابلتيه فى حياتك فشلتى وماعرفتيش تحافظى عليه .. كل حاجة ضاعت من أيديكى وماعدش عندك حاجة تتسندى عليها لا راجل ولا ولاد ولا فلوس خلى بقى كرامتك وكبريائك ينفعوكى .. والنتيجة عزلة ووحدة جوه أوضه ضلمة مع بيانو وشوية ذكريات وهروب من كل حاجة حتى من المسئولية . أسئلة راحت تتمادى داخلها يتخللها مزيج بين الهدوء والهياج .. إلا أنها ثبتت فى مكانها وتماسكت تدافع : أنا مهربتش من المسئولية ، أنا وقفت جنب ولاد المرحوم نديم وصرفت عليهم كل اللى كان حيلتى وماتأخرتش عنهم . يأتيها ساخرا من عمق بحر يترصدها : يعنى كان كل دورك أنك صرفتى عليهم كل اللى حيلتك وكأنك جمعية خيرية ولا فاعل خير ؟! ولاد نديم كانوا محتاجين منك أكتر من كده .. كانوا محتاجين الأمان والصدر الحنين اللى يلمهم والنصيحة اللى تنفعهم ويلاقوا حد يعوضهم عن أبوهم اللى مات وأمهم المسجونة ، عمرك ماشاركتيهم فى لحظات ضعفهم ولا فى لحظات يأسهم وخوفهم .. كل حاجة فرطى فيها من غيرتمن ؟!.. يشتدالهواء يضرب بجبروت ووحشية . شعرت بطرفى معطفها الأسود يرفرف على كتفيها كالجناح فظلت للحظات على وضعيتها كأنها نسرا محلقا بينما مازال صوتها من داخلها يرتفع كى يتغلب على عواء الريح : أيه يأأيات ..كلها كام سنة ومش حتلاقى حد جنبك ، الكل حيدور على مصلحته وعلى طريق يمشيه وأنتى بس اللى حتفضلى لوحدك واقفة فى مكانك تتفرجى عليهم زى العاجزة .. خليكى كده زى ماأنتى متحنطة فى أوضتك مستنية الموت لما ييجى وأنتى محبوسة جوه زنزانتك اللى اخترتيها بنفسك .. تبدلت السماء فجأة ، فأنشقت عن خيوط أمطار متصلة ، بينما هى لا تبالى تنصت بأنتباه لما يخرج من داخلها ساخنا : أختارتى أسهل طريق تمشيه طريق الهروب من كل حاجة وكبرتى دماغك وصغرتى نفسك وخليتى نورا البنت الصغيرة اللى كانت محتاجة سند ودعم هى اللى تشيل المسئولية كلها على دماغها .. أتحملت وصبرت ووقفت مع أخوتها لغاية ماوقفوا على رجليهم ووقفت معاكى كمان وماتخلتش عنك وأختارت أنها تبقى الكبيرة وأنتى الصغيرة . أجابت بلا تفكير وكأنها تريد أن تضع حدا لهذا الصوت المتمادى الكاشف : واللـه أنا ماكنتش عايزة الأمور تمشى كده أبدا لكن نورا هى اللى كانت بتسعى للدور ده وكانت رافضة أى حد يشاركها فى المسئولية هى اللى قررت تخلينى زيادة عدد وماليش لزمة .. ماكانش بأيدى حاجة أعملها . أدلت رأسها للأرض ولم تفارق عينيها خطواتها الثقيلة التى تتقافز حولها قطرات المطر ، بينما تراخت عضلاتها وهى تسير تراقب الأمواج الكبيرة المندفعة قبل أن يظهر لها فجأة خلفها وحولها أناسا هوايتهم المفضلة المشاغبة و " الغتاتة " كأن رمادا كالحا قد نثر على هذه المخلوقات التى لا هوية لها ، دائما ما يخرجون من قبورهم ليلا من جوف مناطقهم العشوائية بأطراف

المدينة ، يتسكعون هنا وهناك . أنهم بشر وصلوا الى حد أصبحوا فيه لا قيمة لهم ، وصاروا أصفارا ، لايمكن أن يفعلوا إلا شيئا واحدا .. هو أن يطالبوا بكل شيىء . هؤلاء هم تركة خلفتها سنوات الماضى .. أستدارت أيات بعينيها ثانية تجاه البحر تتأمل مساحته الشاسعة متجاهلة تلك الكائنات الضئيلة التى تسعى أمامها وتثير ضجيجا تافها حولها ، وإن أستوقفتها بعض عباراتهم من عينة : أيه يامرى اللى موقفك فى السقعة دى ؟!.

ـ دى تلاقيها صيادة أراميط ! .

ـ أراميط أيه يابرشمجى ، دى مرى خلصانة وأخرها سردينة .

أستدارت هاربة مع صوت قطرات المطر الذى أشتد فوق رأسها ورشح إلى وجهها فألصق بالخدود خصلا من الشعر بينما أنتفخ فراء معطفها بالماء وتصلب ، فأتجهت الى حافة الرصيف تأهبا لعبور طريق الكورنيش الذى أجتازته ركضا هربا من شلال المطر ومن ذلك الحوار البائس الذى كان يتسلل داخلها على أستحياء قبل أن يتطور فيخرج عن أستحيائه حتى أصبح نافذا لا تستطيع معه المناورة .

أختبأت بجوار " بنزينة " تراقب طابورا من سيارات التاكسى والميكروباص تتسول لترات قليلة من " بنزين 80 " الذى تحول الى حلم يداعب كل صاحب سيارة فى الأسكندرية . هدأ المطر وأختفى البرق وسكت الرعد . رفعت أيات رأسها للسماء تتحسس بوجهها أنقطاع الماء ثم تحركت من مخبئها ، بدت أقل مما كانت وكأن الأمطار أكلت من هامتها .

000000000000

كان المشهد عارضا ومختلفا داخل العنبر عقب انتهاء الزيارة .. السجينات تصلن تباعا وكل منهن تأتى بحملها بين ذراعيها ، لفائف وأكياس وسجائر ومبالغ مالية . أنه يوم النصر . يوم جمع الغنائم بعد معركة الزيارة .

حالة أستثنائية من الأنشغال الطارىء ، همهمات ، كلمات متناثرة هنا وهناك ، لاصوت يعلو فوق صوت الأكياس ، الكل منشغل بالتنقيب داخلها

ثلاثة أيام مرت كاملة ولم تنقطع فيها الأجتماعات والحوارات ، تحليلات مستفيضة وقراءات مختلفة عما دار فى لقاءاتهن . أخبار سارة ومفرحة تحصلت عليها مجموعة قليلة منهن ، بينما نالت المجموعة الأكبر حظها الوافر من الأخبار السيئة الصادمة مثل"عواطف وحكمت " اللتين سمعتا خبر طلاقهما غيابيا ، فى حين تلقت " فتحيه " خبر زواج زوجها على لسانه شخصيا مبررا فعلته بعبارة مازالت ترددها بأداء غلب عليه البلاهة والأستغراب وبحالة نفسية سيئة : الراجل قالىما أقدرش أغضب ربنا يا فتحية وأرافق نسوان فى الحرام ، قلت أتجوز وآهو أصون نفسى وبالمرة تربى العيلين . أرادت " سامية " أن تخفف عنها فمرت بكفها على ظهرها : معلش يافتحية هو برضه معذور ، الراجل بيدور على الحلال ومش عايز يغضب ربنا . واجهتها بعينين زاد أحمرارهما : ربنا مين اللى يغضبه ياسامية ده راجل أبن وسخه عشته كلها حرام فى حرام ده هلاس وحرامى وأيده طويلة .. قبل أن تنهى وصلتها ألمت بها رعشة وحالة من البكاء الهيستيرى : منك للـه ياسعيد.. حسبى اللـه ونعم الوكيل .

فى حين ألتصقت هدى بسريرها و تمددت متصلبة كأن لها جسد من حديد ، لا تحرك ساكنا بدت تائهة مغيبة . كان وجهها محتقنا كمؤخرة " قرد " أسلمت نفسها للكأبة وتحولت إلى كتلة من حطام المشاعر .. بدت كحياة بلا أحلام ، حاولت معها فايزة فور أنتهاء الزيارة أن تكشف ما سترته عن فحوى لقاءها بأبناءها ، إلا ان ماحصلت عليه كانت أسئلة وليست أجابات .

شريحة لحم مع قطعة مكرونة بالباشميل فى طبق صاج هو ماتبقى لدى فايزة من بقايا الزيارة . تمد يدها فى محايلة مستمرة ومتكررة : تعدمينى ياهدى وتكون طلعتى من العنبر ده على ضهرى لو مأكلتيش كل اللى فى الطبق ده . ردود متعبة بطيئة : حرام عليكى يافايزة أنا مش قادرة أبلع حاجة .

ـ أنتى من ساعة الزيارة ومافيش لقمة دخلت معدتك أنا قلتلك تعدمينى .. يعنى عايزة تعدمينى ياهدى . قالت جملتها بأنفعال وبصوت عالى ، فتحولت الرؤوس نحوهما . أستجابت فى تباطؤ . فتحت شفتيها كأنها تحاول فك لحامهما بينما فايزة قرفصاء تراقبها تحثها وتشجعها وكأنها أمام طفلة . خرج تساؤل غامض على لسان هدى بنبرة من فقد طاقته وأحتله اليأس : قوليلى يافايزة هو أيه اللى حصل بره السجن وأحنا مش فاهمينه ؟ . بتلقائية أفصحت عن معلوماتها حسب فهمها للسؤال : اللى حصل كتير أوى ياهدى .. الوله النونو بيقولى أن الدنيا برة بقت سايبة ع الآخر واللى فى شوقه حاجة بيعملها ، ده بيقولى المخدرات والبرشام بتتباع فى الشوارع زى الخضار ، والوله خضر كان قالى لوفيه أتنين تلاتة أتلموا على بعض بيعملوا عصابة ويثبتوا الناس ويقلبوهم . أضطرت لأظهار أبتسامة واهنة رغماعنها :

مش ده اللى أقصده يافايزة أنا بسأل عن نفسية الناس يعنى طباعهم وأحوالهم لسه زى الأول ولا أتغيرت .. يعنى لسه فى صلة رحم وناس بتخاف على بعضها ولا المواضيع دى أنتهت وأحنا هنا عايشين فى وهم ومش فاهمين حاجة ؟!.. أيقنت أنها كانت تجيب فى أتجاه آخر : آه .. أنتى بتسألى عن نفسية البشر .. فردت رجليها ثم مدت يدها فى مغارة صدرها ، قبل أن تخرجها متوجة بعلبة سجائر " L.M " أحمر وهى واحدة من " خرطوشة " كاملة تسلمتها من عبده : أستنينى لما أولع سيجارة . زحفت بعينيها تجاه الشعلة : شوفى ياستى الدنيا علمتنى أن البعيد عن العين بعيد عن القلب وفى الزمن الأغبر اللى أحنا فيه ده القريب من العين والقلب برضه بعيد وخسران .. يبقى بذمتك أحنا حالنا حيبقى أيه وعينة النسوان اللى حوالين منك شاهدة على الزمن واللى بيحصل فيه .. عندك اللى تعبت واللى ضحت واللى أتبهدلت عشان خاطر بيتها وعيالها وآخرتها مافيش حد بيجى يزورهم ولاحتى يتف فى وشهم . كلمات أخافتها : قصدك أيه ؟ . مدت يدها "بحتة " لحمة تفض بها شفتى هدى المطبقتين قبل أن تجيب : الحسبة دلوقتى أتغيرت ياحبيبتى مش زى زمان وخدينى أنا مثال وعبرة .. يعنى أنا لو ماحلتيش مال ساترنى وعندى بيتين ملك وقهوة كان زمان عبده الجن ومنصور أبنى ماعتبوش السجن ده أبدا وكنت أتنسيت . لمعت عينيها بالدموع وزادت حالتها سوءا بينما " حتة " اللحمة فى فمها تدور تبحث عن مخرج أما للداخل أو للخارج .

فرمان عاجل من " الريسة عفاف " حارسة العنبر : تعالى معايا ياهدى أنت مطلوبة فى الأدارة . قالتها بصيغة بيان مقتضب وكان له أثرا مرعبا داخلها ، فهو ينبأ عن أمر جلل فى أنتظارها . خرجت من محبسها بملامح مهمومة ونحيلة . لم يطل أنتظارها وبالتالى لم تسحبها هواجسها إلى منطقة عذاب وأضطراب حين أصطحبتها " عفاف " فى عجالة بوجهها الناشف .. سارتا عبر الممر الموصول والمؤدى إلى خارج مبنى العنابر ومنه إلى ممر آخر كأنه نفق فى جبل ، بينما شعرت هدى بالتوتر وبدا لها طريقا بلا عودة .. سمعت وقع خطواتها على بلاط الممر . قالت بفزع : هو أنا حصل منى حاجة ياست الريسة ؟. كان سؤالا قد أختارته من بين مجموعة أسئلة راحت تضرب دماغها فى تلك اللحظة بينما تعتصر ذاكرتها تبحث فيها عن جرم أو مخالفة أرتكبتها .

وقفت أمام باب حجرة تطل على الممر ، تقدمت منها الحارسة ثم طرقت الباب ودخلت ، عادت لها بعد لحظات ، سحبتها من يدها وقادتها إلى الداخل .. حجرة متوسطة وأثاث متواضع فاتح اللون وسجادة عادية ومكتب خشبى كبير تجلس خلفه فى كرسى ذى مسندين أمراة فى الأربعين تضع نظارة بيضاء

على عينيها وأمامها جهاز كمبيوتر تتقدمه لافتة نحاسية مكتوب عليها " الأستاذة هناء خليل ـ أخصائية أجتماعية " . عينيها فوق الأوراق المتناثرة أمامها تنشغل بها وصوت الأوراق أثناء تقلبها يمزق السكون بينما علم مصريغطى جزءا من مساحة الحائط الخلفى بألوانه المتعددة ورمزه المحفوظ .. تفحصتها هدى خائفة مرتبكة ، كانت مذعورة ، تنظر حواليها فى فزع . خلعت نظارتها وأصطنعت أبتسامة واجهتها بها وهى تشير لها بالجلوس ثم أقتربت بعينيها من شاشة الكمبيوتر .. تدقق .. ثم بدأت تتلو كرنفال من تواريخ الزيارات الخاصة بهدى وأستدعاء لعلاقاتها مع زميلاتها فى العنبر ، معلنة لذلك التتبع الذى لا ينتهى لتواريخ كل حدث ، تفصيلاته وتبعاته فى حين توجهت هدى بكامل أهتمامها إليها وهى تتلو تلك التفاصيل المكدسة على الشاشة . أنكمشت فى جلستها ، أختلطت فى رأسها المتعب الأوهام بالحقائق وتداخلت الأشياء بالطول والعرض .. هذه لحظة الشكوك والهواجس . أسبلت عينيها بينما حاولت الأخصائية خلق جو من المرح حين نظرت إليها : أخبارك أيه ياهدى . ضاقت عينيها وغضت جبينها . بصوت ممتد واهن : الحمدللـه . صاغت فى ذهنها جملة مهذبة تستفسر عن وجودها فى مكتب الأخصائية ، لكنها بادرتها بسؤال : وأخبار بنتك نورا أيه ؟!. أنفجرت الدهشة فى ملامحها فور سماعها أسم أبنتها يتردد على لسان الأخصائية : مش فاهمة حضرتك تقصدى أيه ؟ أعادت صياغة تساؤلها: مالك أترعبتى كده ليه أنا بطمن بس .. ده شغلى !! .

ـ مش فاهمة ؟ .

ـ شغلى هنا أنى أرصد الحالة النفسية للسجينات وأى تغيير فى سلوكهم . تنقر سطح المكتب بقلم فى يدها ، تابعت : بنتك نورا زى ما هو واضح قدامى فى بيانات الزيارات السابقة كانت دايما موجودة فى كل زيارة بأنتظام ماعدا آخر أربع زيارات . قامت فى بطء من كرسيها . أردفت : فى الفترة الأخيرة وبعد كل زيارة غابت فيها نورا لاحظـنا أن حالتك النفسية بتبقى تعبانة شوية وتقريبا مابتاكليش وأغلب الوقت بتكونى منطوية على نفسك ومش عايزة تكلمى حد .. تطلعت اليها . أدلت بأجابة كتحصيل حاصل : لا أبدا ياأستاذة أنا حالتى تمام ومافيش عندى أى مشكلة وبخصوص نورا بنتى الحكاية كلها أن ظروفها فى الشغل بقت صعبة أوى وده السبب اللى بيمنعها عن زيارتى !. أدركت الأخصائية معاناتها من خلال صوتها ، أقتربت منها قبل أن تجلس أمامها على كرسى مقابل .. تأملتها للحظات ثم مالت نحوها : أسمعينى ياهدى ، أنا أستدعيتك هنا عشان أساعدك وأكون جنبك وأقف معاكى لو عندك مشكلة .. ده دورى هنا . لم توفق لاجابة محددة : يعنى أنا مطلوب منى أيه ؟ مبتسمة : مش

مطلوب منك حاجة ياهدى لكن لو عايزة تعتبرينى أخت أو صديقة وتسمحيلى أتدخل فأنا ما عنديش مانع . أصابها هلع : تتدخلى أزاى يعنى ؟ قاطعتها كى تطمأنها : ماتخافيش ياهدى لو حأتدخل فده حيكون بصفة شخصية مش بصفتى الرسمية ولازم تعرفى أن أى مشكلة بتقابل أى سجينة أول حاجة بأعملها أنى بأرجع للملف بتاعها وبأفحصه كويس جدا ومن قرايتى لملفك فهمت قضيتك كويس وعرفت وضعك الأجتماعى اللى أنتى جاية منه والظروف اللى محيطة بولادك .. عشان كده أرجوكى ماتقلقيش خالص . أستعادت هدى أطمئنانها وراحت تقترب بلا شعور من الحديث المعد من الأخصائية ، فتحت لها قلبها عن أوجاعها ومشاعرها ، فطفحت كلمات الحسرة على شفتيها : كل لحظة بتمر على هنا وأنا بأراجع نفسى وبسأل هو أيه اللى حصل منى وخلى نورا تبعد عنى وتبطل تزورنى . شردت ثم أضافت : فى البداية كان عندى شك أن ممكن لا قدر اللـه يكون حصلها حاجة ، لكن الحمد للـه زيزيت صاحبة الأتيليه اللى بتشتغل فيه نورا جت هنا وزارتنى وطمنتنى عليها . تحاصرها بأستفسار : طب ماقالتلكيش أيه السبب اللى خلاها تبطل تيجى تزورك ؟!. تنتزع من حلقها كلمات يائسة : ماقدرتش أفهم منها أى حاجة غير شوية تبريرات زى أنها شايلة كل المسئوليات على دماغها من أول شغلها و أخواتها والبيت ، تنهيدة وصلت سخونتها إلى وجه الأخصائية . أردفت : أنا عارفة إن نورا شالت حمل كبير أوى فوق طاقتها وأكبر من سنها لكن حأعمل أيه ماكانش بأيدى .. ده نصيبى ونصيبها ! .

تساءلت هدى كثيرا لتفهم مدى المتغيرات التى أستجدت خارج السجن وأثرت سلبا على كل شيىء ، حتى على المشاعر الأنسانية .. دفعت جسدها إلى ظهر الكرسى وتبادلت مع الأستاذة " هناء " حديث مطول طال أمورا كثيرة ، غير أنها لم تصل معها إلى أجابة قاطعة وسبب واحد منطقى يمنع نورا من زيارتها ، كان كل ما تم طرحه بينهما لم يتعد سوى الأحتمالات والوسوسات .. أجابات عائمة كأنها رثاء قبل أن تعقب بكلمات معبرة ومشجعة ، كانت هى مسك الختام من جانب الأخصائية : خلاص أتفقنا ياهدى حتبقى جامدة وقوية زى ماكنتى دايما ومهما كان السبب اللى منع نورا من زيارتك لازم تعذريها وأنا متأكدة أن كل حاجة حتبقى أحسن من الأول . أستقبلت كلماتها بملامح هادئة ومنفرجة ، بصوت عاد تدريجيا إلى طبيعته : أتفقنا ياأستاذة .

ـ وكمان فى حاجة مهمة لازم تحطيها فى دماغك اللى فاضلك هنا أقل بكتير من اللى عدى . أنهت جملتها بأبتسامة عريضة بينما واجهتها هدى ببريق لمع فجأة فى عينيها .

000000000000000

بعد أن صب " خيرى علم الدين " فنجانا جديدا من القهوة ، عاد إلى مسقط رأسه حيث جلسته المفضلة أمام المدفأة المحفورة فى أحد جدران الصالة .. يبدو فى جلسته هادئا قليل الكلام . يوغل فى رجولته ، والزمن منحه الهيبة بعد سنوات طويلة من الوحدة والشعور بالفقد كلماتذكر زوجته الراحلة " سميحة الغريانى " تجذر داخله شعورا متناميا منذ رحلت أن شيئا ما ذهب وليس من السهل أستعادته ، لم يعوضه الأصدقاء ولا حتى القراءة التى أدمنها . دائما ما يتذكر أيامها الأخيرة قبل رحيلها حين كان يراقب الجسد الذى ضاجعه عمرا وأنجب منه أبنيه نادر وشريف ، ممددا على الفراش ، عاجزا ، عليلا ، يتألم فى صمت موجع قبل أن يرحل فى هدوء دون أن يسبب أى متاعب لمن حوله . كثيرا ما يشعرك لوهلات بأنه أنسان غير أجتماعى ، وحيد ، تضافرت عليه ظروف المعيشة بحيث حولته الى ترس فى عجلة ، يدور معها بشكل رتيب ، ليست ثمة قدرة داخلية أو خارجية يعول عليها أن تحدث له تغييرا . أحيانا كثيرة كان يريد بعض الرفقة أو بعض الدفء .. العيش بعيدا عن عاطفة الحب جعلته يجف . خلع نضارة القراءة ونزع فنجان القهوة من بين شفتيه ، مدد ساقيه على كرسى صغير أمامه وأشعل سيجارة جديدة لزوم القهوة قبل أن يطوى كتابا عن أسرار جماعة الأخوان المسلمين من تأليف المنشق عنها " ثروت الخرباوى " بعد أن غاب بين صفحاته لساعتين وكأن لاشيىء يعنيه سوى ماسيدخره من مضمون تحملة تلك الأوراق . أتخذ فى جلستة وضع المتأمل قبل أن يتحول إلى مواجهة مع النفس ، كانت واحدة من أزماته التى يعرفها ميله إلى نمذجة الناس ،فكان يصنف من حوله ذهنيا حسب رؤيته . مرت حياته بالكثير من المنحنيات والأمور الطارئة قبل أن تنحسر فى نهاية الأمر ما بين عمله فى مصلحة الآثار ورفقة أبنه شريف فى المنزل بعد أن تخطا سويا العلاقة المعتادة بين الأب وأبنه إلى صداقة قوية متينة بحكم الحالة الأجتماعية ، فهما تقريبا مقطوعان من شجرة بعدما رحل " نادر" الأبن الأكبر الى امريكا منذ ستة أعوام حين كان السفر بالنسبة له آخر أحلامه وأكبر من واقعه ، بل كان أمرا حتميا ، ليس رغبة بقدر ما كان قرارا مصيريا ، كان له طموحات غير عادية ، لم يعرف لها طريق أو أمكانية تحقيق داخل الأسكندرية أو حتى فى مصر كلها . رحل " نادر " مخلفا وراءه أبوه وأخيه قبل أن يودعانه فى المطار بالدموع والتمنيات بينما هو كان طائرا قبل أن يصل الى طائرته !. ترك لهما حيزا من القلق زمنا ثم أستدعاهما أو أستعادهما وطمأنهما بمكالمة تليفونية عن أحواله ونجاح محاولته فى تثبيت قدميه فى بلاد الأمريكان . حدثهما عن أمنياته ومحاولته للم الشمل كى يرتاح باله ويطمئن قلبه قبل أن تختفى عنهما أخباره مجددا . منذ عام ونصف سطر القدر لمصر والمصريين ومن قبلهما

" خيرى علم الدين " وأبنه " شريف " أنفراجة أمل وسعادة بالغة حين فاجأ " نادر" الجميع بزيارة قصيرة تاريخية لأرض الوطن .. بدا كمن خلعوا له لسانه وزرعوا بدلا منه لسانا أخر أمتزجت كلمات العربى بالأنجليزي وبصحبته أمرأة غريبة لها طباع غريبة وملامح أغرب ، هى زوجته " بادين " التى تكبره بسبع سنوات . قال الراجع من بلاد الأمريكان لأخيه فى جلسة جمعتهما فى حضور والده ، كما كان يحدث فى الماضى : جهز نفسك يابطل ، المطعم بتاعى أنا وبادين محتاجك معانا . كان فى واقع الأمر يحاول مساعدته على الفرار بنفسه من واقع صعب مرتبك .. أعترض شريف مبديا بعض الملاحظات شارحا وجهة نظره ، غير أن الأخ الأكبر وضعها داخل قاموس " الهجص " المصرى وصفها بأنها حالة من حالات التمسح فى أكاذيب تتسمى بأسماء ضخمة مثل الوفاء والبر بوالده وأستحالة أن يتركه بمفرده كما يستحيل أيضا أن يترك حبه الأسطورى لنورا ويرحل ، وإن كان لم يصرح بذلك مباشرة ، بينما يرى نادر أن تلك المسميات دائما ماترد على ألسنة أمثال أخيه من القاعدين المقعدين أو العجزة والفشلة وأصحاب مبدأ " الأنتخة " . مع ألحاح نادر وشرح أيجابيات السفر أبدى خيرى موافقة مبدئية كى يضمن لأبنه مستقبلا كأخيه ، فى حين سايرهما شريف وتظاهر بالموافقة ووعد بتنفيذها على مراحل فى قادم الأيام .

رحل " نادر" كما جاء . زيارة لم تسفر عن شيىء يذكر سوى مبلغ نقدى فى يد أخيه ومجموعة نصائح مملة تسير كلها بأتجاه الطموح والنجاح وقدرة المرء على أقتناص الفرص التى لا تنتظر كثيرا مختتما كلماته بأراء هجومية على مصطلحات العاطفة والعشرة ومصر أم الدنيا والتى أستوقفته الجملة الأخيرة . فقاطع بحدة : أم أى دنيا .. دنيا المجارى الطافحة ولا الشوارع المكسرة ولا الزبالة اللى فى كل حته ولا الفقر والمرض اللى طايل كل الناس .. فوق بقى يا أخى وسيبك من الهبل ده .. أنت عايش جوه بلد متخلفة ؟!. أراد خيرى حبس جملة أعتراضية فلتت منه : لما بلدنا فيها كل العيوب والمأسى دى جيت ليه يانادر ؟!. أبتلع دهشته .. لم يتخيل أبدا أن يأتى السؤال عنيفا على لسان أبيه : أنا جاى أشوفك وأطمن على حضرتك أنت وشريف . بأبتسامة هادئة سبقت تعليقه : يانادر ياحبيبى لازم تفهم أنى أنا وأخوك راضيين بالعيشة المتخلفة دى وأنا شخصيا بأعشقها وده مش أحساسى لوحدى .. كل اللى عايشين على أرضها بيعشقوها لدرجة الجنون حتى لو كان كلامهم وتصرفاتهم مابتدلش على كده والدليل على كلامى البنى أدم المصرى هو الوحيد فى الدنيا لما بيهاجر وبيعيش فى أغنى بلاد العالم اللى فيها العيشة مستريحة ومافيش فيها كل البلاوى اللى عندنا أول ما يحس بالتعب و العجز أو المرض أول حاجة بيعملها بيرجع بلده تانى عشان يقضى أيامه الأخيرة ويدفن فيها .. بلدنا يانادر مش فيها

مرض وجهل وفقر وبس ، لأ فيها حاجات تانية .. جايز تكون مش معروفة .. فيها أعظم سر موجود فى الدنيا .. الكائن المصرى !! قال كلامه وطالت نظرته فى عينى أبنه الذى هز رأسه دون تعقيب إلا ماتيسر : أوكيه يابابا .. قالها بنبرة أستهانة .

خشخشة مفاتيح تدور فى كالون باب الشقة أنتشلته من جلسة التأملات . وقع خطوات مرهقة بأيقاع منتظم تتسلل إلى أذنيه ، هى دائما خطوات شريف الذى أطل برأسه ليتأكد من وجود أبوه فى مكانه المفضل قبل أن يطيح بالجاكيت المعلق على كتفه عند أول كرسى وفى اليد الأخرى كيس يتطوح بين يده . أقترب من أبوه وبادره كالعادة بتقديم تحية عسكرية : تمام يأفندم .. أبنك شريف وصل مدغدغ يافندم . أداء ساخر أعتاده شريف مع والده من أيام الأنفلات الأمنى المصاحب لبدايات ثورة يناير حين تصدر " خيرى" مشهد اللجان الشعبية بالحى وكان المسئول الأمنى عن توزيع مجموعات الحماية من شباب الحى أمام مداخل العمارات وعند النواصى ، منذذ ذلك اليوم وتعامل شريف معه وكأنه جنرال عسكرى وتحولت الدعابة إلى عادة . أبتسامة أستقبل بها أبنه قبل أن يتفحصه سريعا : حمد اللـه على السلامة ياسيدى .. أيه اللى أنت جايبه فى الكيس ده . تقدم بخطوة عسكرية وبنبرة ميرى : الكيس ده سيادتك فيه ربع لانشون حلوانى وكيس مخلل وست رغفة فينو ومعاهم كمان كيس بن سفيانوبولو وصاية لزوم سعادتك .

ـ طب تعالى أقعد جنبى .

ـ ماشى يأبو نادر . أستجمع مفاصله المفككة ونزل بجسده مرتطما على كرسى مواجها لوالده كأنه يهوى من قمة جبل فاردا ساقيه ، يدعك ركبتيه قبل أن تئن ملامحه : آه يارجليه . قالها وأنحنى على حذائه .. فك رباطه. نصف أبتسامة . مندهشا : مالك يابنى أنت لسه صغير ع الخيبة دى .

ـ خيبة أيه بس يابابا أتناشر ساعة واقف على رجلى لما أتكسحت .

ـ وماله ياشريف أى بداية بتبقى متعبة وبعد كده الأمور بتتحسن وتبقى تمام .. نفخ ومسح جبهته : تتحسن فين بس والدنيا عمالة تزيد كعبلة وأندلة وكل يوم فى النازل . عشر دقائق كانت كافية ليسرد شريف تفاصيل يومه مكررا ملاحظة سبق وأن ذكرها بأنتظام فى الشهرين السابقين : كل أقسام المول فيها ركود لا بيع ولا شرا مع أن العروض حقيقية وبجد والتخفيضات كبيرة . رماه بنظرة خاطفة : هى دى نتيجة السياسة الفاشلة للأخوان أنهيار فى كل حاجة وفوضى فى كل مكان البلد بقت عاملة زى

العيان اللى بيصارع الموت والدكاترة اللى مسئوليتهم يعالجوه واقفين بيتفرجوا عليه وهو بيطلع فى الروح وياريت سايبينه يموت فى هدوء .. لأ دول كمان بيتخانقوا مين اللى حيغسله الأول ! تجمدت ملامحه . دارت الأفكار سريعة مرعبة فى رأسه كدوامة فى بحر : واللـه يابابا أنا خايف لحسن ادارة المول تستغنى عن عدد مننا . أغمض عينيه قبل أن يرجع برأسه للوراء : مش عارف أقولك أيه يابنى ، خليها على ربنا .

ـ ربنا يستر ده أنا ماصدقت أتعلقت فى شغلانة .

قبل ثلاثة شهور أنشغل شريف كثيرا بالحصول على فرصة عمل ، كان قد وقع فى سلسلة رفض جهنمية ، يبدأ يومه بعد أن يستيقظ متأخرا ، يتحرك إلى الأماكن التى تعلن عن وظائف شاغرة عن طريق النت أو جريدة الوسيط . كان يدرك فى أعماقه شيئا ما ، ناقصا ، غير مكتمل . شعر بأن هناك حدود بين طيبته وشره . بين جنونه وتعقله ، بين جيبه ويده . كانت متناقضات نائمة بداخله ، لم تصحو من سباتها إلا بعد أخر مشادة دارت بينه وبين نورا ، حين أصبح طباعها وأنشغالها ، يزرع المسافة بينهما . لم يعد يراها . تقلصت لقاءتهما لتكون مرة أو مرتين شهريا بعد أن كانت مرتان يوميا ، الأولى فى منتصف اليوم أثناء فترة الراحة من شغل الأتيليه والثانية بعد التاسعة مساءا عقب أنتهاء عملها . غير أن الحال تبدل حتى أصبحت بالنسبة له مثل خيال مسافر وعد بالرجوع لكنه لم يرجع . ولأن أمرها كان عسيرا على التفسير بالنسبة له وكانت دائما خارج دوائر التوقعات وحين عاتبها وأعلن لها عن رفضه لسلوكها الفاتر نحوه ، كانت حادة حين دافعت عن نفسها بشدة حتى أوصلت إليه أحساسها بالتميز . لم تترك لديه أنطباعات سلبية إلا عندما سألته : أنا بأشتغل وبأتعب وعارفة ألتزاماتى كويس .. تقدر تقولى أنت بتعمل أيه ولا بتفكر فى أيه ولا عايز أيه أصلا من حياتك ؟ لم تنتظر منه أجابة . نظرت إليه فقط . كانت كلماتها له شديدة القسوة ، وشت بالكثير من الحدة التى كانت مكبوتة بداخلها . بدا ساهما . حزينا ، تنم تجاعيد جبهته المتقلصة عن قلق عميق ينمو فى أعماقه . حاول أن يدافع عن نفسه : مين قالك أنى مستسلم للوضع ده أنا كل يوم من أول النهار لآخره بأدور على شغل ومش ساكت ودى مشكلتى وأنا حأحلها بطريقتى ، لكن المشكلة الكبيرة فيكى أنت . تابع منفعلا : من ساعة مابقى لكى وضع وكلمة مسموعة فى الأتيليه ومرتبك بقى بالالاف أتغيرتى وأتحولتى ومش شايفة قدامك غير الفلوس وبس . لم تكن أعصابها تهتز أبدأ لكلامه ، بل تتحداه فى ثقة وهو مواصلا هجماته فى أصرار على أن ينال الغلبة فى النهاية : بقت كل حياتك بتاخديها بعناد وتحدى وكأن الدنيا عندك حرب ياغالب

يامغلوب .متشبثة بعنادها : حتى لو كان كلامك صحيح مش عيب أبدا أنى أنجح وأثبت وجودى ويبقى عندى ارادة لأن اللى زيى ممنوع عليه الفشل .. عارف ليه ؟ عشان لو أنا فشلت حأضيع و أخواتى حيضيعوا معايا .. أنا مسئوليتى كبيرة وتقيلة وفى عيلة متعلقة فى رقبتى يعنى لازم أحارب فى كل خطوة ومش زى ماأنت قلت ياغالب يامغلوب لأ ياشريف ده ياقاتل يامقتول .. فهمت ولا لسه . كلماتها حملت إليه شعورا لم يستطع استجلاء ماوراءه مرة واحدة . تراجعت عباراته وبدت متكسرة : أنا ماقلتش عيب أنك تنجحى أو تثبتى وجودك ، لكن مش لازم يكون نجاحك ده على حساب اللى بينا !!. المسألة بالنسبة لها ليست بالماضى حين أحبته وهى صغيرة ولا بالحاضر وهى تحبه بكل أحباطاته وفشله ، لكن المستقبل هو الذى يهمها . كيف ترتبط من رجل مفرغ من الأحلام والأهتمامات . أتخذت وضع من لا تعنيه الكلمات وهى تتصنع الدهشة : عمر الشغل والمسئولية ما يكونوا على حساب اللى بينى وبينك .. الظروف هى اللى بتحكم وساعات بتبقى أكبر من حاجات كتيرة وأى علاقة ناجحة لازم الطرفان فيها يكملوا بعض يعنى ماينفعش طرف يكون عملى أوى وعايز ينجح والتانى واقف فى مكانه مافيش حاجة بيعملها غيرأنه يفضل يتهمه ويكسر فيه . نظرات شريف الذى نفذ صبره مسلطة عليها ، ناطقة بالريبة وتوشك أن تلفظ الأتهام : سيبك من الجمل الكبيرة دى والكلام بتاع مسلسلات رمضان .. الحكاية كلها أنك بقيتى مش شايفة غير نفسك وبس وبتوزنى كل حاجة بميزان الفلوس بس وسيادتك بتحاولى تجمليه وتسميه نجاح .. بطلى الكلام التخين ده لأن ماعدش له معنى .كشرت وتجهمت وتغير لونها وبدت كقطة شرسة ، فقدت الكثير من رقتها : مش أنا ياشريف بتاعة الكلام التخين ، أنت اللى بتحب نظريات الفاشلين وبتعجبك أوى الكلمات الخايبة اللى لا بتودولا بتجيب وبدل ما حضرتك تشوف عيوبك وتحاول تغير من نفسك عايز ترمى كل مشاكلك على غيرك عشان أنت عديم الطموح متجمد فى مكانك .. شعر بأن صورتها فى رأسه غير واضحة المعالم . لم يقل لها شيئا ، كما لم يلحظ أثرا للماضى فى حديثها . لم تظهر أمامه أى تراجع بل أستدارت فى غضب بأتجاه درجات السلم متجهة إلى الأتيليه تردد بعد أن زادت رقعة التوجس بينهما : عن أذنك ورايا حاجات أهم من الكلام الفاضى بتاعك ؟!. كلماتها القاسية لم تجعله يفقد الأمل ، بل حاول بشتى الطرق أخراجها من تلك الدائرة المستحكمة مابين أخوتها وشغل الأتيليه ، إلا أنه كان محاصرا مثلها ، لكن بنوع أخر من سياج كان من صنعها هى ، يدور فى فراغ الدائرة باحثا عن ذاته الذى تأكل بفعل نجاحاتها ـ هى ـ فى قيادتها لأسرتها وسد فراغ الأم المنكوبة فى السجن وقفزاتها الناجحة فى الأتيليه مقابل فشله ـ هو ـ فى العثور على كيان يليق ، اللهم إلا هذا العمل الباهت الذى أقتنصه من بين عشرات الطامعين بتوصية من الأستاذ " برسوم "

صديق والده ، فيدفن أحلامه فى جدول وهمى من ساعات عمل مزدحمة على ماكينة " كاشير " بنظام الوردية فى أحد المولات الضخمة بشرق الأسكندرية . تتنازعه أحلام مستقبلية غاصت منه أسفل قدميه وجار البحث عنها ، فقنع ب 800 جنيه شهريا يزيد عليها مايقارب نصف الراتب " تبس " .

لمحه خيرى من تحت نظارته قبل أن يطوى كتابه ويحشر داخله كومة أوراق : مالك شكلك مش عاجبنى ؟.. أجابة مقتضبة غير كاشفة : أبدا يابابا مافيش حاجة . أدرك أن شيئا يشغله . قام من كرسيه أمام المدفأة وجلس فى مواجهته : أنت لسه زعلان مع نورا ؟ مسح شعره بكفه وظهر السؤال الحائر فى عينيه ، وينطق به لسانه : بصراحة مش عارف أقولك أيه .. نورا أتغيرت أوى وبقت واحدة تانية مش هيه دى اللى أنا عرفتها ولاهيه اللى كنت بأحلم معاها وبنخطط سوا لمستقبلنا . أنكمشت ملامحه أستغرابا : يعنى أيه بقت واحدة تانية ؟!.

ـ أنا نفسى مش عارف .. بقت عاملة زى ماكينة الفلوس اللى أنا شغال عليها كل همها شغلها ومرتبها الكبير ده غير أنشغالها المجنون واللى زايد عن الحد بأخواتها وأصرارها الغريب على أنهم لسه أطفال وهى أمهم ، عايشة فى كدبة وصدقتها وفاكرة أن بسمة ويوسف دول ولادها يعنى لازم تأكلهم وتشربهم وتطمن عليهم لماينامو والعصبية والقلق والتوتر يركبوها لو أتأخروا شوية برة البيت .. هدأت حدته . ثم تابع : بصراحة أنا بقيت مش فاهم حاجة .. يا أما أنا مش طبيعى ياأما هى مجنونة ؟!. أنفرجت شفتيه عن أبتسامة خفيفة وهو ينظر فى عينى أبنه قبل أن يسطر كلماته وحيثيات حكمه على طباع نورا عبر قائمة مليئة ببنود ونقاط لا يوازى منطقها منطق . وبدأ دفاعه : أولا ياشريف لازم نكون متفقين على أن نورا هى الوحيدة تقريبا اللى أتحملت وشالت المسئولية كلها على كتافها من بعد أمها ما دخلت السجن ، وفى سن كان اللى زيها ما يعرفش أصلا يعنى أيه معنى كلمة مسئولية . يحدق فيه عن قرب . مكملا : متفقين على كده ؟ هز رأسة : ما أحنا كنا معاهم لحظة بلحظة وعارفين أد أيه هى أتحملت لكن أنا بأتكلم عن دلوقتى .

ـ مافيش زمان ودلوقتى وهيه دى تركيبة نورا وهو ده طبعها خلاص بقت مدمنة للمسئولية وخوفها الزايد على شغلها وأخوتها ده طبيعى جدا لأنه بالنسبة لها عمرها كله وتعب السنين ومتنساش أنها هيه اللى كبرت وأكلت وعلمت وأشتغلت وصرفت ..همه بالنسبة لها شهادة نجاح وملكية خاصة .. أنا متفق معاك أنها ساعات بتبقى متسلطة عليهم وشديدة معاهم لكن ده بدافع الحب والخوف . قاطعه كالتائه: طب أنا فين من كل ده يابابا ؟ .. أبتسامة أقرب إلى ضحكة مكتومة : أنت برضه موجود جواها ومن

ضمن مسئولياتها لأن اللى بينكو مش من سنة ولا أتنين ده موجود فيها من ضمن تركيبتها اللى أتشكلت فى السنين اللى فاتت كلها والتوتر اللى بيحصل ده سببه بسيط أوى وهو أنك بكل بساطة ماحققتش لنفسك أى حاجة وده اللى بيخليك دايما خسران فى أى مقارنه معاها وده مش معناه أنك فاشل .. لأ أبدا ، لكن نورا وظروفها اللى عاشتها هى اللى خلت نجاحها واضح وماحدش يقدر يعرف لو أنت كنت فى نفس ظروفها كان حيبقى حالك أيه ؟!. قال جملته الأخيرة على سبيل الترضية .

ـ بصراحة أنا تعبت وحاسس أن الدنيا صعبة والأيام تقيلة . سحب نفسا يائسا قبل أن يكمل فى مرارة : كنت فاكر أننا لما نقوم بثورة كل حاجة حتتعدل وحيبقى شكلنا أحسن .. ياخسارة ؟!.

شريف كان ثائرا . لم ينس أبدا تلك الأيام ، كان فى طريقه إلى ممارسة حياة يومية رتيبة وسط الكآبة واليأس حين واجهته جموع الغاضبين تتقدم فى أعصار مدمر ، تهدر حناجرها " الشعب يريد أسقاط النظام " أندفع . صرخ مع الصارخين حتى كادت تتمزق أحباله الصوتية . كان وسط حشود بشرية لا يحصيها العد . كان يشعر بنهرمن الدفء .. هل بسبب هذه الشوارع التى كان يقطعها جريا ؟!. أم بسبب الهتافات التى كان يرددها بأقصى مايستطيع خلف الشباب المحمولين على الأكتاف ؟!. أم بسبب أنفلاتا داخليا لم يعهده ؟!. مفاجأة تحبل بالكارثة . رد فعل الجماهير التلقائى كان يعصف بكل العقول وبكل الأنظمة وبكل التدابير . المصريون كلهم أندفعوا ، البلد كلها ركبها عفريت المظاهرات .

بعد مرور أسبوعين على تلك المشادة العنيفة بين نورا وشريف ، خفت وتيرة الخصام وأنكسرت حدته حين تصدت له عند خروجه من باب المصعد قبل أن تفتعل حديث لا معنى له : مالك شكلك متبهدل كده ليه ؟ حاول سحبها من معصمها فى المساحة الخالية بين الشقتين ثم ثبتها على الجدار الفاصل : أفندم يا ماما نورا ، واحد لسه راجع من الشغل عايزة يبقى شكله أيه . قالها وفرد ذراعيه وثبت كفيه على الحائط وهى معتقلة بينهما ، تخترق نظراته من أعلى فرجة ضيقة فى البلوزة البيضاء . أستشفت ماتنطوى عليه نظرته فأبتسمت نصف أبتسامة وهمت بالخلاص : أوعى أيديك ياشريف حد يفتح الباب . لمس خديها حتى شفتيها ثم أغمض عينيه وأقترب بشفتيه اللتان أنفرجتا كالكماشة ، وقبل أن يلتهم شفتيها أصابهما أرتباكا مفاجىء حين دوى صوت نوح البواب : أقفل باب الأسانسير يا اللى فى التالت . فلتت بوجهها من بين يديه وسحبت جسمها باتجاه المصعد : سلام بقى وحأكلمك بالليل لما أرجع من الأتيليه ، بينما لملم أعصابه المشدودة وتوجه بها الى داخل شقته .

كانت ثورة يناير بالنسبة لشريف ثورة فاشلة بحكم النتيجة وما آل إليه الحال بعد أنقضاض الأخوان المسلمين على السلطة وبعدما أيقن الكثير أن حكمهم لا يختلف عن سابقه ، اللهم إلا فرق واحد فى منظومة الفساد ، فالسابق فساده ماليا وأقتصاديا وسياسيا ، أما الحالى ففساده فى منهجه الفكرى وتكوينه حيث يعتمد على نظرية عفى عليها الزمن ، نظرية المحتل والمستعمر الذى دائما ما كان يبدأ خطواته الأولى بالتحكم فى مفاصل الدولة ومؤسساتها ، ليمرر من خلالها خططه وأستمرار وجوده . بينما " خيرى " وبطريقته المعتادة المتأنية فى رصد وتحليل الأحداث بعد تلك المتغيرات الجذرية عقب ثورة يناير ، كان يرى أن أزمتنا أزمة وعى ؟، فلا أحد يدرى ولا أحد يعرف ، الكل مشوش ، حتى النخبة طال وعيها التشويه بفعل الشيخوخة أو التوجه . أظهرت " ثورة يناير " قسوة النظام السابق وتغوله وفساده والذى أنهك المصريين ، فبات الشعب كله مضروب فى بنيته ونخبته وثقافته ولقمة عيشه .. فقر وجهل وتمزق . والأن وبعد الثورة خرج علينا من هربوا من دنيانا وجاءونا بمنطق وتفاسير جديدة تودى بالعقل وتسحق مابقى من المنطق وتزيد الهوة وتسحبنا لعصور الخيمة والصحراء . ردة للخلف مئات السنين .

الوعى دائرة واسعة أبتلعت داخلها كل شيىء . كان خيرى قد نجح فعلا فى تدريب روحه على قبول كل ما حوله والتعامل معه وفق معايير جديدة ، وأصبحت الأشياء المحيطة به جزء من مكونات الصورة بعد أن طبعت نفسها فوق عديد من الصور القديمة ، لم تكن باهتة أو منضبطة عليها بقدر ما كانت تشف عما وراءها .. كانت البداية بتطور ثورى مفاجىء فى مسلكه حين باغته صديق عمره وكاتم أسراره " برسوم " زميل عمل بمصلحة الآثار منذ خمسة وعشرون عاما . وعقب أنتهاء ندوة مملة حضراها بأحدى القاعات فى مكتبة الأسكندرية بحضور لفيف من محترفى الكلام وحين دار النقاش حول مجموعة دراسات وتحليلات تؤكد أن مدينة الأسكندرية فى طريقها للغرق تحت مياه البحر خلال العشرين سنه القادمة ، بدت كلمات المشاركين فى الندوة مطاطة وطويلة ، فزلكة من الدكتور فلان وسفسطة على لسان الدكتور علان وكلمة من هنا ومثلها من هناك وأنتهت الندوة على توصية هامة فارقة سيذكرها التاريخ . مفادها : أن تكون هناك ندوة أخرى لتكملة النقاش ! .

ـ يوم الخميس الجاى حتيجى معايا ياخيرى فى المقر بتاع جريدة أسكندرية اليوم . قال برسوم .

رفع كفه مسلما فى ضيق : لأ سامحنى مش عايز أحضر ندوات تانى أنا توبت ! .

ـ دى مش ندوة ياخيرى دى حاجة جديدة لسة مولودة فى أسكندرية وأنا عندى أحساس جوايه بيقولى أنها حتجيب الفرج ، وبعدين خلاص أنا رشحتك تبقى معايا من ضمن مجموعة المؤسسين ؟!. بحث فى رأسه عن أجابة وهو يتطوح فى مشيته ، كانت المفاجأة أكبر من أى رد ، غير أنه أختصرها برسم ملامح على وجهه لم يستعملها من قبل فى حين أكمل برسوم ما بداه قبل أن تحتوى صديقه المفاجأة : أنا عارف رأيك كويس فى حكاية الأحزاب و الأئتلافات وتريقتك عليهم وحافظ كمان جملتك المشهورة لا على المجنون حرج ولا المريض حرج ولا " على الأحزاب حرج " أشعل سيجارة قبل أن يطلق أول نفس منها فى وجه صديقه الذى مازال يعانى تنميلا فى مقعدته جراء جلسته الصعبة فى الندوة : لما أنت ياأخى كل يوم معايا فى الشغل ومش بنبطل كلام وعارف رأيى كويس بتقولى علي الخيبة دى ليه ؟!.

ـ عشان ده مش حزب زى اللى بالك فيه .. لا نفس الشكل ولا التركيبة دى حاجة جديدة خالص ! .

ـ مش فاهم ؟!. رشحت أبتسامة على ملامحه النحيلة وأزدادت صلعته لمعانا : تقدر تسميها كده حركة توعية أو مجموعة وطنية بجد مش زى اللى موجودين دلوقتى وكل همهم منصب ولاشويعملوه ، دول ناس بيحاولوا يعملوا حائط صد قبل البلد ما تقع وتتخطف كلها ومانعرفش نرجعها تانى !! . كانت كلمات غامضة ومربكة ، تباطأت خطوات خيرى على أرضية البورسلين داخل المكتبة . ثبت فى مكانه واضعا يديه داخل جيبى بنطلونه بعدما تمكنت منه الحيره قبل أن يرمى بالسيجارة من بين أصبعيه بطريقة لم يفعلها سابقا . أستدار وأصبح فى مواجهة برسوم بحاجبين مرفوعين يتفحصه وكأنه يراه لأول مرة قبل أن ترتخى ملامحه فجأة وأنفرجت شفتيه عن أبتسامة سرعان ماتحولت إلى ضحكة ذات مغزى : طريقة كلامك الغامضة دى يابرسوم بتفكرنى بأفلام الجاسوسية لما كان بيظهر فى المشهد راجل الموساد وهو لابس بالطو أسود وحاطط على عينيه نضارة سودة وهو بيحاول يجند البطل عشان يخليه يتجسس لحسابه . أبتلع ضحكته . ثم تابع : نفس الكلام اللى مالهوش أول من آخر . قابله بضحكة ساخرة : لو حتدقق فى المشهد اللى انت بتقوله حتلاقى الفرق مش كبير .. أسرائيل كانت بتجند الخونة وضعاف النفوس أما الزمن الأغبر اللى أحنا فيه ده بقى عندنا عشرات الالاف من الجواسيس والخونة عاملين زى الطابور الخامس ، تلاقيهم فى كل مكان جنبك فى الشارع وفى المؤسسات وساكنين معاك و لازقين فى جسمك زى الميكروب وللآسف الصنف ده مش أسرائيل اللى مجنداه.. دول بشر أتربوا بطريقة شاذة وأتغسلت دماغتهم وأتسيطر على عقولهم بشعارات وأفكار سودة وبقوا

بيتحركوا فى وسطينا زى الأفاعى وكل يوم والتانى بيغيروا جلدهم ويتلونوا حسب الظروف .. زالت دهشته بعد أن سحب نفسا طويلا قبل أن يخرجه ببطء : فهمت قصدك يابرسوم بس النوعية دى مش شريحة صغيرة دول نسبتهم كبيرة فى البلد وطول مافى فقر وجهل حيفضل عددهم يزيد وشرهم حيكبر .

ـ كلامك صح وعشان كده أنا بأعرض عليك الأمر ده وتبقى معانا و تشاركنا وأنا متأكد أنك لما حتقابلهم وتقعد معاهم حترتاح أوى لأفكارهم وكفاية أنهم ناس مخلصين وبيخافوا على البلد وهمه تشكيلة من كل النوعيات فيهم رجال أعمال وصحفيين وأدباء وموظفين وعمال .

قبل أن يصفعهما هواء البحر عقب خروجهما من بوابة المكتبة وبعد أن أمتصت برودة الهواء دهشة خيرى وأستغرابه : بس أنضم لكم فى أيه يابرسوم وأنا مش فاهم أنتو عايزين تعملوا أيه بالظبط ؟!.

ـ حأقولك ياسيدى .. المجموعة اللى أتكونت لحد دلوقتى تقريبا تلاتين واحد وكلهم متفقين على أن حكم الأخوان فى مصر لازم ينتهى وبسرعة قبل البلد كلها ماتروح فى سكة اللى يروح مايرجعش أو فوضى من كل نوع حتخلى بلدنا شبه الصومال وكل سنة وأنت طيب .. عشان كده كل واحد فى مجموعتنا بيقدم أفكاره وتصوراته وبناء عليه حيتم دراستها وتحديد الخطوات .

مازال مرتبكا : طب وأنا مطلوب منى أيه ؟ .

ـ تشاركنا وتحضر معانا الأجتماعات وتقدم أفكارك . سايره وهو يخفى أستغرابه : حأفترض أنى عملت اللى أنت بتقوله ده وكتبت التصور اللى أنا شايفه أو حتى غيرى كتب أيه اللى حيحصل يعنى ولا أنت فاكر أن التلاتين واحد بتوعك همه دول اللى حيخلصوا البلد وينقذوها ؟!. ثقة ضاعفت من نبرة صوته وجعلت خطوته أكثر أسترخاءا : اللى مش عاجبينك دول يقدروا يعملوا كتير أوى ياخيرى .. قاسم أمين لما رفع شعار تحرير المرأة كان لوحده من غير سند وغاندى لما قاوم الأنجليز ماكانش يملك إلا فكرة حاربهم بيها وبرضه كان لوحده . حتى الضباط الأحرار لما خططوا لثورة يوليو كان عددهم كام واحد.. كل حاجة بتبدأ بعدد صغير هو اللى بيبقى الشرارة وبعد كده الناس بتتلم حواليهم وبتتحول لثورة .

بالرغم من أن خيرى علم الدين كان أكثر أمتاعا ، حيث أنه يشعرك انك تجلس فى وكالة أنباء . تسمع النبأ وتحليلاته وتعرف وجهة نظره التى تقودك إلى أشياء غائبة عنك . ورغم الفضول الذى أثاره فيه هذا الألحاح من صديقه برسوم ، فأنه تمنى من صميم قلبه ، أن يبقى بعيدا عن مجريات الأمور ، يكفيه أن يحلل . أن يجمع المعطيات كعادته ، وأن يقيم الأشكاليات جميعها ويتنبأ لينتشى فيما بعد وهو يرى

نبوءاته تتحقق واحدة بعد الأخرى . لم تكن عضويته فى المجموعة تهمه ولا يريدها ، ولكنه وجد نفسه منساقا تحت ضغط الألحاح ، كما أن التحول الغريب والجوهرى فى المناخ السياسى المصرى بعد ثورة يناير أغراه كثيرا حيث لم تعد هناك نخبة أو غيرها بالمعنى المتعارف عليه ، الكل ينتفض فى حالة من الهيجان والمراهقة السياسية ، الشباب بثوريته المندفعة وغير المحسوبة وبمبدأ " كن فيكون " والأخوان كعادتهم مصلحة الجماعة فوق الجميع وبحكمة " خد وأجرى " أما الكبار المتمرسون فحدث ولا حرج بداية من كلام منمق فاقد للجوهر والمعنى غير قابل للتطبيق ، وان كان يحسب لهم تحولهم المفاجىء إلى نجوم فى البرامج الحوارية مدعومة بلياقة بدنية تحسب لهم فى خفة الحركة من قناة لأخرى فى وقت وجيز .

حاصره برسوم يوميا بإلحاحه مذكرا أياه بموعد يوم الخميس : الساعة سبعة بمقر جريدة أسكندرية اليوم .

ـ وده مكانه فين أن شاء اللـــه ؟ .

ـ أدام محطة ترام الأزاريطة الدور الخامس . ضاقت عينى خيرى قبل أن يفرد أبتسامته : مافيش كلمة سر ولا أسم حركى ولا أى حاجة من الكلام ده ! .

ـ أبقى خبط على الباب تلات خبطات وقول جزر . قالها وأنفجرت ضحكاتهما حتى دمعت عيناهما .

أنصاع يكتب . أرتعشت يده وكانت أصابعه تتململ أثناء قبضها على القلم ، بدأت تصوراته وأفكاره تتوالد قبل أن يحصل برسوم على أجابة شافية : أنا بدأت أكتب شوية تصورات حسب اللى أنا شايفه وطريقة تنفيذها .. لما نشوف مجموعة الهجص بتاعتك دى حتعمل أيه ؟ غير أنه باغته بقبلة مباركة وهو يهتف : مادمت كتبت تبقى أقتنعت وربنا يسهل بالباقى .

000000000000000

مناقشات دائرية فى حلقات تكونت بتلقائية من الطلبة المتجمهرين داخل حرم جامعة الأسكندرية ، ناقشوا أحلامهم عن الديمقراطية ومستقبل البلد ، كما أستعرض الكثير منهم برامج الأسر الطلابية المرشحة لأنتخابات الجامعة بعد أقرار اللائحة الجديدة للنظام الأنتخابى للجامعة . كادت تتحول المناقشات إلى مشادات حامية بين التيارالمدنى المستقل وبين طلبة الأخوان مما زاد من سخونة

المشهد .. تطوع طالب من التيار الشعبى عريض الصوت : أحنا عايزين نشارك فى الحكم ولازم يكون لنا كلمة ونفهم بلدنا رايحة على فين . أنتفض أخر ، العصبية أضاعت من كلماته تأثيرها : همه فاكرين المصريين دول أيه .. بيستخفوا بعقولنا ليه .. البلد بتتأخون قدام عنينا وأحنا واقفين بنتفرج . كلمات حماسية تحولت الى حركة أحتجاج جماعى ، تقدم طالب من حزب الدستور حمله زميله على كتفيه وسط حشد طلابى يحيط به كالسياج ، ليهتف هتاف البداية : يسقط يسقط حكم المرشد . بينما تقف بسمة متحمسة فى قلب أحدى الدوائر تحاور وتناقش بوعى أو بدون وعى .. فى أيامها الأولى بالجامعة منذ عامين أستعادت بسمة علاقتها ب " نورهان " التى زاملتها فى مرحلة الأعدادية وعرفت " نور " صاحب الوجه الطفولى و " باسم " صاحب الملامح المتجهمة كما عرفت أحمد وساندى وعاشت معهما قصة حبهما المستحيلة ، لأن ساندى مسيحية . هؤلاء هم الصحبة القريبة لها التى لا تفارقهم ، يتجمعون فى " كافيه " الكلية قبل المحاضرات وبعدها ثم طوروا من أداءهم حتى أصبح وجودهم فى الكافيه طوال اليوم مختتمين يومهم بسندوتشات " فول وفلافل " من مطعم (محمد أحمد) بمحطة الرمل .

أنفلتت " بسمة " عن صحبتها النمطية من خلال مصادفة معتادة ومتكررة فى الوسط الطلابى ، كان ذلك يوم أن أصيبت بحالة من الدهشة وهى ترقب جمعا غفيرا من الطلبة مدعومين ببعض الموظفين وقد أحتشدوا أمام مبنى الأدارة مطالبين باقالة العميد فأستندت الى سيارة تتابع الوجوه الغاضبة المهتاجة ، وجدته إلى جوارها مستندا إلى نفس السيارة يدخن سيجارته بنهم وبينما كانت هى فى حالة من السرحان أقترب منها " أمجد" بالسنة النهائية بالكلية والتى منحته الأيام طوله الفارع وعينان لها بريق كحدة السيف ، أنتشلها مما هى فيه من أستغراب وحيرة وبطريقته الساخرة التى يعرفها كل من حوله : أيه رأيك فى اللى بيحصل ده ؟ لم تجيبه بل سألته : أنت أيه رأيك . لم يخدعها برأيه : العميد ده من فلول مبارك وأحنا عملنا ثورة عشان القديم كله لازم يتنسف . تململت فى وقفتها : بصراحة أنا أول مرة أشوف مظاهرة من القرب ده .

ـ هو أنتى لسة جديد هنا ؟ .

ـ أنا فى سنة أولى . يجوب بعينيه فى أنحاء جسمها: ده أنتى لسه حتشوفى العجب . حاولت أمتصاص كل نظرات الطلبة الداخلين للجامعة ، لكنها لم تستطع أن تصرف نظراته عنها ، لم يترك فيها جزء إلا وتفحصه وكأنه فنان يتأمل لوحة كثيرة التفاصيل ، ماجت بذهنه ، كما لم يكبح عنان خياله وهى

تنتصب أمامه نخلة باسقة مثمرة ، جردها فى ذهنه من التيشرت " النبيتى " والبنطلون الجينز الضيق ثم نقلها إلى فراشه وعبثت فيها أصابعه وتخلل لحمها وفعل معها ما يعشقه من مشاهد تسكن ذاكرته . وبعد أن غادر أرتباكه الغريزى بدأ بينهما حديثا مازال ممتدا . كان دائم التهكم على شعارات تيار الأسلامى السياسى موضحا لها : أوعى تاكلى من شغل الدقون ولا الزبيبة ولا البنطلونات القصيرة .. كل ده هجص ونصب دول ناس فاضية من جوه وعقولها مهوية وعايشين فى زمن عكرمة وأبو لهب وبعد الثورة جتلهم الفرصة لغاية عندهم وبدل مايجددوا أفكارهم ويعيشوا معانا فى العصر اللى أحنا فيه عايزين يرجعونا كلنا لزمن الكفار والمسلمين . بدت مذهولة إزاء برمجة أفكاره وكلامه المرصوص الذى يغلفه حماس البداية والتعارف فطوح بها إلى لحظات مشابهة وإلى كلام مطابق سمعته كثيرا فى أفلام الأبيض والأسود : مش المهم أننا نقول شعارات ولا نرص كلام كبير أهم حاجة أن الشباب كله لازم يتفق على مطلب واحد ويحارب بكل قوته عشان يحققه .. العدالة .. العدالة فى كل حاجة .. فى الأكل فى الشرب فى الوظيفة وكمان فى الأنسانية .. عشان كده ضرورى لازم تفضل الحالة الثورية حية ومستمرة و لازم المظاهرات والأعتصامات والوقفات تبقى كل يوم لغاية ماأهداف الثورة تتحقق كلها . غير أنها فى أول الأمر كانت تغيظه : ما هو أنت أشتراكى ناصرى وشعاراتك دى مكانها المتاحف ..إلا إنها عندما سقطت فى بئر أرائه وأفكاره وجرفها تيار التذمر لم تكن تدرك أنه يحصد من وراء تلك الشعارات ثمار مازرع فيه بالفطرة .. عن سوء التوزيع ونصيب الفرد والعدالة الغائبة . كلام كثير لم تكن تفهمه .

عرضت عليه " بسمة " أن يشاركها وصحبتها برنامجهم اليومى ، فشاركهم فى وليمة فول وطعمية على سور الكورنيش ، هناك بدا صامتا كان يشعر أن هذا العالم ليس عالمه على الأطلاق وبدا طافيا بفكره خارج الجلسة بنكاتها وحكاياتها وعند الرحيل كان هناك قرارا مفاجئا أجتمعوا عليه بزيارة خاطفة إلى "مكرم " محل جيلاتى شهير برأس التين لم يوافق أمجد لأسباب عديدة ، غير أن " أحمد " أنقذه وأعلن على الملأ بأنه معزوم بمناسبة خروجه معهم لأول مرة .

مشوا بمحاذاة سور الكورنيش ، تسكعوا وضحكوا ولوثوا زوايا أفواههم بالجيلاتى وبدأت الثنائيات تتضح ، وأنفصلا عن الجميع وتوجها إلى فتحة فى سور الكورنيش ، جلسا على الشاطىء يكتشفان صورة البحر من جديد وكأنه أنشأ حديثا ، رسم بأصبعه دوائر وخطوطا على الرمال بينما هى تراقبه وتتبع نظراته ، إلا أن وجهه المتطلع أدهشها بملامحه الغاضبة وجبهته العريضة ونظرته الحادة من

عيونه العسلية وذلك الشيىء الغامض فيها ، شدها إليه بصمته ، فمنذ دخولها الجامعة تعودت مع الذين تجلس معهم أن يستعرض الواحد منهم أهميته وذكائه ويحاصرها بأسئلة عن حياتها الخاصة ، لكن أمجد تعمد الأستخفاف بكل الأسئلة وبالحياة بل وبنفسه بينما هى جسدها ينتفض غيظا من لا مبالاته وبدا وكأنه لا يريد أن يعرف شيئا عنها ، أنشغل بالها بطريقته وزاد أهتمامها به وحاولت أن تقرأ داخله المغلق وكانت إذا لم تحدثه يركن إلى الصمت . أستمرا فى الجلسة ثلاث ساعات بكت فيها بسمة وهى تحكى له عن أمها المغتربة فى الخليج ، غير أنها فى حقيقة الأمر كان بكاؤها لعدم قدرتها على البوح له عن مكان أمها فهذا ماحفظته منذ سنوات وأقسمت عليه مع يوسف أمام نورا أن تكون تلك الكدبة هى الرواية الرسمية عندما تذكر أمهما في أى حديث ، حكت له عن أحترامها وحبها لنورا الأخت والأم وعن يوسف الأخ والصديق والعمة أيات سجينة غرفتها ، كما أخبرته عن حبها للون الأسود وكرهها الشديد للسبانخ والقلقاس وعشقها المجنون للممثلة " منى زكى " ولم تخف عنه أعجابها بـ " أبراهيم عيسى " لم تجد منه تعقيبا فقطعت سكوته وأنتزعته من جموده بسؤال حشرته داخل حديث عشوائى تبحث من خلاله عن مفتاح يمكنها من الدخول لشخصيته : ماكلمتنيش عن نفسك عايش فين وأزاى وبتفكر فى أيه .. حاجات زى كـده يعنى ؟! . فتح " أمجد " مجالا لحنجرته بأفتعال كحه وهى تنتظر : أنا ياستى من عيلة متواضعة جدا على أد الحال والعبد للـه هو الكبير وأخويا سامح الصغير وريم أختى الوسطانية ومعانا هنا فى الجامعة بس كلية أداب سنة تانية وأمى ست بيت غلبانة مكافحة شبه ستات كتيرة بتقابليهم كل يوم وأنت ماشية فى الشارع ، أمى من الصنف اللى دايما تلاقيه واقف فى طابور العيش أو تشوفيها أخر النهار وهى راجعة من السوق بعد ما أشترت بواقى الخضار والفاكهة .. على أد فلوسها ، أمى طول الشهر بتحاور الأيام وبتحايلها عشان المليمين اللى بتأخدهم من أبويا يقدروا يكفونا أكل وشرب . لم تفارق عيناه وجه بسمة قبل أن يعيد رسم ملامحه بضحكة عارضة . تابع : نسيت أقولك أن أبويا كان بيشتغل فى شركة النحاس وخدم فيها ثلاثة وعشرين سنة ومن تلات سنين بس ربنا كرمنا بثروة ماكانتش على البال . رمقته فى أستغراب : طلع لكم ورث ! هرش رأسه ليصيغ لها واقعا : الحقيقة هو مش ورث ، الشركة عطته مكافأة سبعة ألاف جنيه وطلعته معاش مبكر .. جحظت عينيها حين سمعت الكلمة الأخيرة : يعنى خصخصة .

ـ تمام هى خصخصة . أردف دون أن يلتقى بعينيها : ونص المكافأة طارت فى أول شهرين لما أبويا قرر يعمل تستيكه للسطح عشان أحنا ساكنين فى أخر دور والشتا لما بييجى علينا بنبقى تقريبا عايشين تحت مصفة .

أصغت إلى أحلامه عن السفر إذ تعذر دخوله مجال التمثيل ، كما اخبرها عن تفكيره فى الأنضمام لحركة الأشتراكيين الثوريين ثم أفشى لها عن " مسج " على موبايله من شركة موبينيل تقدم عرضا " أشحن بعشرة جنيه وأتكلم مجانا من منتصف الليل إلى ظهيرة اليوم التالى " فهمت مقصده وعرفت أن للحديث بقية بـ " أبو بلاش " .. تكلما فى أناء الليل وحتى أطراف النهار وقابلته طيلة الأسبوع ، كان يفكر فيها كثيرا ويقترب منها وتطورت العلاقة ونمت بسرعة كنبات اللبلاب .. أسابيع قليلة كانت كافية ليفرج أمجد عن شخصيته الحقيقية بعد أن جاهد فى أن يقمعها داخله ، فهو معروف فى الوسط الجامعى بكفاءته المشهودة فى المدح والقدح والكر والفر طبقا للظروف ومقتضيات الحال وتطويع قدراته على الأستفادة من الأحداث والأشخاص ، ولأسبابه الخاصة من ميراث الفقر والعدم وجد أن بسمة فرصة لا يجب أهدارها خاصة وأن الـ " سى فى " التى تملكه ملىء بالكنوز .. أمها فى الخليج من سنوات ومن عائلة عريقة ومن وسط راقى ، فكان يقتحمها بشكل سافر وكان بطبعه وأفكاره يدرك أنها ليست تحفة وليست فلتة ، فهى لا أكثر من رعناء مخترقة أو أية صيغة من الصيغ ذات الأبعاد الملغومة ، هذا هو أعتقاده .. عقدة الفقر والعوز جعلته كالحصان الملجم تركبه المصلحة الشخصية ، فهو قادر وبأمتياز على أخفاء نواياه الحقيقية فى قالب من السخرية اللاذعة والنكتة المحبوكة بحيث لا يعرف أحد مقصده ، فكان مصدر حيرة بالنسبة لها ، غير أنها لم تستسلم بدافع الحب وتقمصت دور طبيبة فى معمل تحاليل فأخذت عينات متعددة من شخصيته المركبة ووضعتها تحت الفحص الدقيق لتستخرج النتائج تباعا وعلى ضوئها تحدد الدواء ، فحين تراه غاضبا على كل شيىء متمردا وفى كلامه دخان يتصاعد مثل قدر يغلى وعندما تشعر به مأزوما حادا ولا يجد مكانا يتنفس فيه ، كانت تفسح له مخرجا أو طريقا قبل أن توقفه فى مواجهة مع أوجاعه النفسية وحرمانه المزمن من الشعور بالسعادة فكانت مقنعة وبارعة فى حديثها : نفسى أعرف سبب واحد لكمية الغضب اللى جواك .. أنت ليه مش عايز تفهم أن الدنيا اللى حواليك كلها أتغيرت وماعدش فيه دلوقتى أنا أبن مين ولا ده وضعه أيه .. خلاص الليلة دى عدت وخلصت وكله بقى شبه كله ـ غير أنه كثيرا ما يشعر أن الأمور لا تجرى على النحو الذى يرضيه ، دائما تلبسه غريزة حاقدة عنيدة كانت تدفعه إلى التمرد على كل الأوضاع ـ فتراجع لحم خديه إلى الداخل وتقلصت ملامحه وبدا كالشيخ المريض : عندك حق فى اللى قلتيه أنا فعلا أرفان وغضبان من كل حاجة .. من الفقر والعيشة الجبس والمستقبل اللى مالوش ملامح وحال البلد اللى لا يسر عدو ولا حبيب ـ قاطعت بكلمة " بس " إلا أنه أوقفها بنبرة محتدة : مافيش بس .. أنا لو فى مكانك ووضعى زى وضعك وساكن فى حتة راقية وأمى بقالها سنين فى الخليج وعيشتى مرتاحة كنت

برضه حأتكلم زيك كده وحأعيش دور الواعظ اللى عمال ينصح ويدى تعليمات .. هزت رأسها وثبتت نظرتها فى وجهه : أنت محسسنى بأنى جاية من كوكب تانى .. والله يابنى الكلام ده خلص من زمان وأنتهى من أيام فيلم رد قلبى والدليل على كده أنى لما عرفتك ما كانش فارق معايا أنت غنى ولا فقير كل اللى يهمنى أنى بأرتاح معاك وشايفة أن جواك حاجات كتيرة كويسة مع أنى عارفة عيوبك وحافظاها كويس لكن فى حاجة بتشدنى ليك . بعد ما راثون طويل من المكالمات واللقاءات جاءت اللحظة الحاسمة وفى نفس موقع لقاءهما الأول على سور الكورنيش حين حدق فى عينيها وأدلى بأعترافه التاريخى : أنا بحبك يابسمة . وضعت كفيها على خديها وأغمضت عينيها : ياربى أخيرا قلتها . قطعا معا كل أشواط الرومانسية ، كان يمثل أمامها كل شيىء كما كانت تمثل له ، عرفت من خلاله أشياء وأشياء وكانت تنقل له كل ما يدور حولها ومع زملائها ، بينما يلقى لها برؤيته عن الدنيا والأحداث فتشابكت الأراء وتفاعلت فى نوع من الفوضى الجميلة والحب المتمرد من خلال لقاءات شبه يومية داخل الجامعة بينما تكفلت بسمة بدفع فاتورة لقاءاتهما الخارجية التى جمعتهما فى " ماكدونالدز" ومطعم العربى أخصائى الكبدة الأسكندرانى أوفى كافيهات الداون تاون دون أن تجرحه بينما كان هو ينتقى أيام معينة يختارها بعناية ليرد لها فيض العزايم فكانت المرة الأولى فى شهر أبريل من العام الماضى ويومها لم ينفق من جيبه بل من حنجرته حين سارا سويا فى مظاهرة ضخمة الى المنطقة الشمالية العسكرية بـ " سيدى جابر " وهى تردد معه : يسقط يسقط حكم العسكر . والثانية كانت فى ديسمبر الماضى أمام مسجد القائد أبراهيم حين تشابكت أيديهما وسط جموع تنادى : أرحل يامرسى . شعرت معه أنها مسلوبة الأرادة فأستكانت لهذا الشعور على الرغم من أدراكها الكامل لطبيعته ، بينما كل من حولها أكد لها أنه متغير المزاج أنانى الطبع ، أنصتت لنصيحة صحبتها ولم تقتنع بل دافعت عنه بأستماتة أمام أحمد وساندى وجادلت نور بعصبية ووافقت مكرهة كى تهدأ ثورة "باسم " بهزة من رأسها قبل أن تؤكد لهم بملل أنها تقيم الموقف ، كانت أجاباتها نابعة بأنها أصبحت مسئولة عن نفسها وعن تصرفاتها وليست فى حاجة إلى نصيحة ، لقد تسلمت نفسها منهم ، لم تكن تعلم أنه تغلغل فى كيانها الى هذه الدرجة وأنه أستولى على وعيها كاملا .

00000000000000

فى غرفته البيضاء ذات السرير الوحيد المجاور لـ " كومودينو" تزينه أباجورة نحاس بدون لمبة ومكتب صغير بجوار النافذة يلهث فوقه جهاز كمبيوتر لم يرحمه "يوسف " منذ عامين وأمامه كرسى

جلدى ، معلق على ظهره فردتين شراب " بيج " بينما أرضية الغرفة زرعت بالكتب وأدوات الهندسة ومذكرات الكورسات ، نغمة غربى صاخبة أندفعت فجأة فى حالة هيجان تصاعدى من موبايل يوسف الذى سلم نفسه للنوم متأخرا فبدت ملامحه وكأنه فى حالة موت سريرى بينما تسربت النغمات الملحة إلى مركز الأحساس فى مخه الذى أستقبل الرنات بكرمشة وجهه قبل أن يجاهد فى فرده كمريض فى غرفة أفاقة بعد أجراء عملية وهو يتحسس بأصابعه مكان الموبايل حتى سحبه من على الوسادة ، شق جفنيه بصعوبة محاولا طرد غشاوة علقت بعينيه وقرب شاشته لحدقتيه كأنه يعانى قصر نظر . أستعاد وعيه : أيوه ياهدير . قالها بنبرة من يحتضر بينما أتاه صوتها مغلفا بنشاط وحيوية مبالغا فيها : أنت لسه نايم لغاية دلوقتى يايوسف .

ـ صباح الخير ياهدير .. أنتى فين . كشفت عن موقعها بضحكة : أنا هنا عندك ياأستاذ واقفة قدام مدخل العمارة . أستقبل جملتها بتعبيرات غامضة ، غير أنه قام من سباته كمن تلقى نفيرا فى أذنيه .. هبط من سريره يترنح كتائه فى الصحراء متجها للنافذة ، دفع الشيش بكف يده متقمصا دور ضابط صاعقة فى مهمة أقتحام ، وارب جفنيه لصد هجمات ضوء النهار ثم دار بنظراته يبحث حتى ألتقط مكانها كجهاز أستشعار ، كانت تقف أمام سيارتها " اللانسر" رافعة رأسها نحوه بينما الشمس تضىء وجهها فتبادل معها الأشارات وهو يحدثها : خمس دقايق وأكون عندك .. سلام .

رمى الموبايل على السرير وتعرى من " الترنج " ثم بلغ باب غرفته بالبوكسر ومنها الى الحمام وكأنه فى سباق للتتابع ، أختزل طقوس برنامجه الصباحى فى الحمام وخرج منه سريعا متجها الى غرفته ليضع رجليه فى بنطلون جينز أسود ويستر لحمه بقميص أبيض مطلقا سراحه حتى " الهنش" . غادر غرفته مسرعا قاطعا الصالة بأتجاه باب الشقة قبل أن يتفادى فى طريقه " نعمة " القادمة من رحلة عودة من المطبخ إلى غرفة أيات : مالك يابنى متسربع ليه كده ع الصبح .

ـ معلش يانعمة كملى أنتى مشوارك .. طريقك أخضر . خرجت نورا من غرفتها تستطلع وهى تسد أخر زرار فى بلوزتها أستعدادا للخروج : صباح الخير يايوسف .. مالك مستعجل ليه ؟ أستدار ناحيتها قبل أن يبلغ الباب متجنبا الخوص فى التفاصيل : هدير مستنيانى تحت العمارة .

ـ هو أنت مش النهاردة عندك تدريب فى المكتب اللى بتروحه مع هدير .

ـ أيوه يانورا .. خرجت عمته أيات هى الآخرى من غرفتها تزامنا مع جملته الأخيرة تقف عند عتبتها ككائن محنط داخل روب زهرى : ماتنساش تسألى يايوسف عن سيديهات مزيكا جديدة تكون نزلت السوق . بنبرة ضيق : حاضر ياعمتى ولو مالقيتش حأبقى أجيبلك حاجة للشيخ محمد حسان . فتحت شفتيها ثم أطبقتهما بسرعة وكأنها تبتسم فى حين أقتربت منه نورا تلقى عليه نظرة فاحصة قبل أن تمد يدها فى حقيبتها : خد يايوسف الخمسين جنيه دى .

ـ مصروفى لسه ماخلصش يانورا .

ـ ماشى ياعم المهندس يمكن تعزم هدير على حاجة يكون نفسها فيها .. طوفى ولا أرواح . قابلها بأبتسامة مع نظرة أخيرة قبل أن يدسها فى جيبه ثم رحل بعدما رفع يده بالسلام متلقيا منها نصيحة كل يوم : خلى بالك على نفسك يا يوسف .

أحتار لثوان قبل أن يحدد بوصلته بالأتجاه للمصعد أو قفز السلالم .. أختار الأخيرة وأندفع فى السباق .

فى تلك اللحظة أنتفض " أنور" متجها إلى سيارة هدير تحمله ساقين قصيرتين مرتديا قميصا أكبر من مقاسه تحته بنطلون لا يبلغ نصف ساقيه ، هو شاب ريفى وارد " أبو حمص" أستعان به نوح ليقوم بحراسة العمارة ليلا ، دار حول سيارتها يطوقها مسحا وفى نهاية كل مسحة يرسل نظرة إلى وجهها ليتأكد من رضاها عن عمله . لمحت يوسف يقترب من مدخل العمارة فأخرجت نصف رأسها من شباك السيارة وأبتسمت له وهى تشده نحوها بنظراتها .

أجتاز المدخل . الهدف باب السيارة قبل أن يلوى رقبته ناحية أنور : الحساب ده عندى . أقتحم السيارة منحنيا ثم أخذ يزحف بجسده على الكرسى مسندا رأسه على حافته بينما لايزال يقاوم خدر المفاجأة . سألها وهو مغمض العين : أيه المفأجاة الجامدة دى . بنظرة ركنية : بجد يايوسف .

ـ طبعا . رائحة عطرها تملأ فراغ السيارة فى حين خطفت لقطة سريعة من وجهه عندما أحست بحشرجة صوته : أنت لسة نايم ولا أيه ؟ قالتها وأستقامت بوجهها لتدفع بعصا الفيتيس ثم اندفعت محاذرة وسط صفى سيارات على الجانبين ، أدارت الكاسيت على مقطوعة موسيقية هادئة وسارت السيارة مثل نصل يخترق جسد ميت . ترد خصلة شعر حركها الهواء أمام عينيها : أنا قلت أعدى عليك نروح المكتب سوا .

ـ والـلـه رحمتينى من الزحمة والمواصلات .

ـ معلش يابنى أتحمل شوية هو فى حد اليومين دول يلاقى مكتب زى بتاع المهندس ناجى يتدرب فيه .. متتبطرش ياباشمهندس .

عدل من وضع جسمه : أتبطر .. يتقطع لسانى لو ده قصدى ولولاكى ماكانتش جتلى الفرصة دى أبدا .

ـ أنت تأمر ياباشا وأحنا خدامينك بس ماتنساش تدعى للحاج أحمد أبويا وبالمرة لماما . كرر كلمتها الأخيرة بلكنة محبطة : ماما !!. لم ينس أبدا ذلك اليوم عندما تلقى مكالمة موجزة وبصوت متعب قالت فيها هدير . مش حاقدر أجى المكتب النهاردة يايوسف .

ـ خير ياهدير فى أيه .

ـ تعبانة شوية ، ياريت تجيبلى نماذج التدريبات ورسومات الموقع .

بنبرة منزعجة : أجيبهم فين ؟! .

ـ عندنا هنا فى البيت . تقمص هيئة الشاب المندهش الخجول : أزاى بس أجى عندكوالبيت .. باباكى ومامتك حيقولوا أيه !. فاجأته : أيه يابنى الكلام الخايب ده هو أنت فاكرنا عايشين فى زمن الطرابيش ولا أيه ، طبعا مش حيقولوا حاجة وكمان لازم تفهم ياأستاذ أن اللى بينى وبينك من بدايته لغاية دلوقتى بابا عارف كل تفاصيله .

ـ عارف كل تفاصيله . قالها ببلاهة .

ـ يابنى الحاج أحمد أبويا ده صاحبى وحبيبى وما أقدرش أخبى عنه حاجة . فى حين أنها دائمة التحفظ فى سرد تفاصيل علاقتها بيوسف لأمها . ولما أستشعر جديتها لم يقدر على كبح جماح دهشته فتخلى عن أداء دور الشاب الرصين وخاطبها : أنا جاى على طول مسافة السكة .

حمل الرسومات ونماذج التدريبات وأتجه بها إلى منطقة سموحة حيث المقر الرسمى لأقامة أسرتها ، وجدها فيلا بالغة الفخامة ، لها جدران خارجية مغطاة بالطوب الفرعونى ، بينما كانت هدير منتظرة فى شرفتها المطلة على ممر طويل مزروع بالخضرة ، ولما رأته مالت بخدودها المشتعلة نحو السور تشد خصرها ليهب صدرها عليه .. أستقبلته أمها فى وجوم عند باب الفيلا بوجهها الدسم الأبيض وبعينين

واسعتين ثابتتين فى مكانهما كأنهما عيون ميتة وحجابا يدور حول رأسها دون رقبتها وهو أمامها واقف كالصنم فاردا ذراعيه فى استقامة وقد رص فوقهما الرسومات والنماذج كقاتل سلم نفسه لمطارديه حاملا كفنه . قالت دون أن تبتسم : أهلا .. أتفضل . وضعته كلماتها ذات النبرة الناشفة فى صميم الخوف المربك . تعثر : شكرا مش حأقدر عشان مستعجل . قالها وهو يبحث بعينيه خلفها عن هدير التى سمع وقع أقدامها تندفع من الطرقة نحوهما . لحظات وكانت محشورة بينهما كأنها تزود عنه وأصرت على أصطحابه للداخل بينما كان أصراره على الرفض أشد مبديا أسباب واهية لم تقنعها ، غير أن سبب رفضه الحقيقى هو شعوره المتنامى بأن أمها ترفضه تماما ولا تستسيغه فأثر السلامة وعدم الخوض فى حالة حرج قد تخدش كرامته ، فهى نوع من النساء مغرور متكبر وحدود شخصيتها ومنطق تفكيرها ينحسر فى تزويج أبنتها من مهندس قدير غنى وليس طالبا على وشك التخرج مستندة فى ذلك على المعلومات الشحيحة التى انتزعتها من على لسان أبنتها فزادت تصلبا وتمسكت بالرفض الشديد خاصة أنها تجد غرابة وعدم راحة فى كون أمه فى حالة سفر دائم ومتصل منذ سنوات فى الخليج بينما أولادهافى رعاية وكفالة عمتهم كما أنها لم تبتلع مهنة نورا أخته ودائما ماتكرر على أسماع أبنتها بصيغة المعايرة : يعنى بتشتغل خياطة . كانت تلك مجموعة أسباب أستندت إليها أمها ولم يشفع عندها سلالة الباشوات والبهوات التى ينحدر منها .

ولما دخل ، برقت فى وجهه المرايا التى تكتسى بها الطرقة المؤدية إلى الريسبشن الضخم .. يمرعلى سجاد تغوص فيه الأقدام قبل أن يلفح وجهه هواء بارد لعله التكييف . كان يتبع خطوات هدير وكأنه يسير فى حراستها بعد أن أختفت أمها من خلفها ، أختار أول مقعد صادفه فى حجرة الأستقبال ، بدا داخله ضئيلا حين جلس .. دارت عيناه تمسح المكان وتشاغل بالنظر فى اللوحات المعلقة التى وضعت جميعها فى أطر مذهبة لتنسجم مع أثاث الصالون الكلاسيكى فدعته هدير لمشاهدتها عن قرب ، اللوحات معظمها زيتية مرسومة بحرفية عالية .. خطوطها صريحة .. أشجار خضراء يجرى وسطها شلال مياه يتدفق فوقه سرب طيور لم يعرف هويته ، لم يكن فيها أية تعقيدات وكأنها تنتمى الى زمن لم يضطرب بعد ! ثم نقل نظراته المرتبكة بين اللوحات دون فحص حقيقى بينما شعرت هدير تجاهه بنوع من الأشفاق على أرتباكه قبل أن يعود إلى مقعده صامتا بعد جولته السريعة فى حين أختارت هى مقعدا فى مواجهته تبادله الصمت ، حاول فى كل مرة أن ينطق فيها وأن يعتذر عن صمته الذى طال حتى أسكته دخول " نجاة " وهى خادمة من بين ثلاث خادمات يخدمن فى الفيلللا تحمل صينية يشع منها بريق مفضض ويتوسط فراغها كأس عصير بلون أحمر . مدت له الكأس : شكرا . تذوق ما فيه برشفة

صغيرة ، قلبها فى حلقه .. أستحسنها فأفرج عنها لتمضى فى جوفه . راقبته والأبتسامة تداعب عينيها : أشرب يايوسف ده عصير كراز ! رفع حاجب واحد : طعمه جميل جدا . أنتبهت لقدوم والدها الذى دخل بهدوء وقد أحاطت وجهه أبتسامة زادت من حمرته ، رجل ستينى بدا أنيقا فى بدلة فاتحة اللون من دون كرافت ، له ملامح متفائلة وشعر فضى ناعم صففه على طريقة الممثل الراحل " سليمان نجيب " . لم يمهله يوسف فرصة الوصول إليه فسبقه وتحرك نحوه يمد كفه مصافحا : أزى حضرتك يافندم .

ـ أهلا ياباشمهندس .. أيه النور ده .

فرغا من المصافحة وبادره يوسف بتصريح دفاعى : الحقيقة هدير طلبت منى أجيب لها رسومات من مكتب المهندس ناجى عشان هى تعبانه شويه . ربت على كتفه : أقعد ياباشمهندس .. ده بيتك ياأبنى وفى أى وقت أهلا بيك . تحركت بأتجاه والدها ومالت برأسها على كتفه قبل أن تفلت منها ضحكة لاتزال فى مرحلة التكوين ، إلا أنها حبستها بأشارة من عينى يوسف : من أول مادخل يابابا وهو ساكت ومتلخبط وملخبطنى معاه !. التقت على هذه الجملة عيونهما وقد أحمرت بشرته بينما ظهرت أبتسامة طيبةغطت ملامح الحاج : ليه كده يايوسف .. دى هدير دايما بتكلمنى عنك وعن ثقتك فى نفسك .

ـ ربنا يخلى حضرتك .. هدير هى اللى مزوداها حبتين . جلس بجوارأبنته وأستهل حديثه وعيناه مركزتان على الرسومات : هانت ياولاد كلها شهرين تلاته وتتخرجوا .

ـ ربنا يسهل حضرتك .

ـ تقريبا هدير قالتلى أن مالكش أخوات صبيان . ضاقت عيناه : أيوه ياعمو .

ـ يبقى مالكش جيش .. يعنى أن شاء اللـه تبدأ شغل على طول . فتح عينيه يرسل نظرة طموحة : ربنا يبعت ياعمو . توقفت الكلمات حين ظهرت أمها فجأة بعد أختفاءها ، تتهادى إلى داخل حجرة الصالون ورأسها المرفوع ناطقا بالكبرياء والتحفز ، صافحته باشارة من رأسها وتقبلت تحيته بتكلف فى حين أدار الحاج أحمد حديثا محببا إلى قلبه ، راح يشرح بداياته الأولى وخطوات نجاحه المتتالية كمن يقدم " سى فى " للحصول على وظيفة : أنا يابنى من أول الناس اللى حطيت أيدى فى شغل هنا فى منطقة سموحة . رفع عينيه للسقف مستدعيا جغرافية المنطقة . أردف : ماكانش فيها غير شارعين أسفلت واحد يودى لجنينة الحيوانات والتانى لعزبة سعد والباقى كله عبارة عن أرض مافيهاش غير برك ميه

وزرع شيطانى وبوص . ينصت يوسف كطالب فى محاضرة دون أن ترمش عينه بينما الحاج يشير بأصبعه بأتجاه الشرق : التلات عمارات اللى عند المدينة الجامعية كانوا أول شغلى فى المنطقة الكلام ده كان فى نص السبعينات واللى كان بيشرف على الشغل بتاعى المهندس ناجى اللى أنتو بتدربوا عنده دلوقتى .. والحمد للـه بعدها العجلة مشت وبقى عندى فى سموحة برج فى كل شارع . أختلفت ملامحه وظهرت ثلاث خطوط طولية على جبهته علامة تجهم وضيق حين عاود كلامه : أيامها عمرنا ماسمعنا عن بيت بيقع ولا عمارة بتميل كان فى ضمير وأخلاق ومهنة المقاول كانت لها شنة ورنة الواحد منهم يبقى واقف فى مكانه زى الأسد يخاف على شغله وسمعته ، حتى المهندسين زمان كان فيهم الهيبة والأخلاص ناس بتعمل شغلها صح وع المسطرة والمهندس اللى كان أسمه يتحط على يافطة أدام عمارة بتتبنى كان أحسن من مليون رخصة . أنهى حديث الذكريات بخبطة من كفه على فخذه : آه زمن !.. بينما زوجته تتلوى وتزوم فى حين تفاعل يوسف وزالت رهبته : كلام حضرتك مظبوط بس ماتنساش أنه زمانكم ماكانش فيه فهلوة ولا بلطجة كان كل واحد عارف اللى له واللى عليه .

ـ أبدا يابنى كان برضه فى زمنا فيه الحلو والوحش بس ماكانتش منتشرة بالطريقة بتاعة دلوقتى دى .. تبحث لها عن دور فى الحوار. قالت هدير : أنت راجل أصلى ياحاج أحمد يابتاع زمان وبتاع دلوقتى .

ـ أنتى شايفه كده ياهدور . زادت نبرة الجد فى صوتها : طبعا ده أنت مافيش زيك فى الدنيا كلها . قالتها و تعلقت عيناها بوجه أمها عند نهاية جملتها : وطبعا ماما كمان . همسات خفيفة مدروسة خرجت منها بتململ : مرسيى ياحبيبتى . بينما يوسف يراقبها وقد أقتحمته حالات الجفاف ، لم يرفى وجودها سبيلا إلا ترديد لكلمات المجاملة : طبعا دى الأم عماد البيت .

ـ عماد البيت ولا عماد حمدى . " أفييه " همست به هدير فى أذنه قبل أن تلحقه بأشارة من أصبعها كى يفتح مجالا للحوار مع أمها ، أضطربت فصاحته المعهودة وهو يحاول التودد اليها : هدير دايما بتكلمنى عن حضرتك وأد أيه بتحبى النظام والترتيب . لم ير تعبيرا واضحا على ملامحها فزادها بيتا : ياريت الناس دلوقتى يبقى عندهم الصفات دى . أبتسامة غير كاملة لم تكشف إلا عن أسنانها فى الجانب الأيسر ثم زمت شفتيها وأرخت جفنيها وعقدت حاجبيها وكأن جبهتها عليها حجر ثقيل فى حين دار حديث جانبى بين هدير ووالدها حول وعد كان قد قطعه على نفسه بتغيير سيارتها بينما أراد يوسف معاودة محاولته فى أستمالة أمها ، وما أن تقع عينه على سحنتها إلا ومر بأصبعه على رقبته حول

العنق ، زاد شعورة بالأختناق وهو محاصر بلا حيلة أمام نظراتها الثابتة فى وجهه وكأنها تعرف كيف ومتى ستنتهى تلك العلاقة التى تمسك بأطراف خيوطها جيدا .. هرب بنظراته إلى ملجأ الأمان حيث وجه هدير ، باشرت عينيه عملها فى تقاطيعها قبل أن تنزلق منه إلى النهدين الحبيسين المرفوعين ، لذة حسية تنسيه إلى حين الحصار المضروب حوله بنظرات أمها القاسية .. أنتبهت هدير إلى مدى نظراته فأستقبلتها بغمزة : منور واللـه ياباشمهندس !!.

نصف ساعة مرت ، وماكان بالجديد إلا أسم "مدام هدى" والذى تردد فجأة وعن قصد على لسان أمها ، فكهربته وهى تستفسر : من يوم ما هدير دخلت الكلية من خمس سنين وهى بتقولى أن مامتك فى الأمارات .. أزاى مافكرتش ولو مرة واحدة أنها تنزل أجازة تطمن عليكم وتشوفكم .. متهيألى دى حاجة غريبة أوى ؟!. أستجمع كلماته فى تبرير تدرب عليه سابقا : بصراحة ياطنط ماما كل سنة بتبقى عندها النية تنهى العقد بتاعها وترجع .. لكن زى ماحضرتك شايفة ظروف البلد بقت عاملة أزاى .. بس إن شاء اللـه بعد مأتخرج هى حترجع وحتبقى فى وسطتنا . أرتفع الجفنان الثقيلان عن عينيها الواسعتين تبحثان عن عينيه ودون أن تدرى كانت نظرتها فاضحة لسريرتها وهى تضغط على الكلمات فى تأفف : واللـه ده زمن العجايب !. لمحت هدير فى وجهه ومضة ذعر شعر بها أيضا والدها الذى أستعان بعبارات ملطفة : هانت يايوسف إن شاء اللـه لما تتخرج الأمور كلها حتتغير وحتبقى أحسن وأنا متأكد أنك حتبقى مهندس جامد أوى .

أنهى يوسف جلسته مكتفيا بتلك العبارة ومشى مع والدها حتى منتصف الريسبشن ثم تابع منفردا بعد مصافحة وداع حارة قبل أن تتسلمه هدير عند باب الفيلا بنظرة طويلة مصحوبة بكلمتين : بحبك يايوسف . بادلها نفس التعبير من خلال عينيه العميقتين بينما أمها تراقب مغادرته من مكانها وتتابعه خطوة بخطوة .

الشمس تزاوله من خلال زجاج السيارة فيغير وضعية وجهه تفاديا لتسلطها السافر بينما أنتاب هدير ضيق أعلنت عنه بأنفعال : واللـه العظيم ده أطول وقت قضيته فى أشارة مرور من يوم مأتعلمت السواقة على أيد عم " سلامة " سواق العائلة. لم يتبق فيه إلا صوت متذمر حين عقب يوسف بنفاذ صبر : أنا قلتلك أمشى من شارع بورسعيد أسهل . تكورت خديها على أثر نفخة قوية : وأنا كنت أعرف منين أن بتوع الميكروباص حيقطعوا طريق الكورنيش . أتخذ العقاب الجماعى ساعة كاملة أنهارت خلالها حيويتها وتلاشى نشاطها وبدت مستسلمة لقدرها كما تراجعت رأس يوسف الى مابين كتفيه

أنتظارا للفرج قبل أن يتم فك الحصار فجأة ودون ترتيب بعد ورود أخبارية عن توافر " البنزين " فى ثلاث محطات بنزين بشارع أبو قير .

أغلقت كاسيت السيارة وسارت ببطء بمحاذاة الرصيف تبحث عن مكان لتركن فيه ، خرجـا من السيارة مصابان بانحناءة فى الظهر و أجتازا مدخل العمارة بعدما رمى يوسف بنظـرة مستفسرة لعم " جودة " البواب : صباح الخير ياعم جودة .. المهندس ناجى وصل .

ـ ده جه من بـدرى وخـرج من شوية مع الباشمهندسين سحب نفسا محبطا وأتجه للأسانسير وهى تتبعه : عاجبك كـده آهو الراجل جه ومشى .. مين بقى حيراجع معانا الرسومات . جذبتـه لجوارهـا : ياسيدى كبر دماغك دخلا الأسانسير وقبل أن يصل بهما للطابق الثانى كانت هدير قد تلقت مجموعة لا بأس بها من القبلات فى أنحاء متفرقة بالوجه والرقبة متحاشيا الشفتين المصبوغتين بالروج .

مكتب أنيق تطل جميع نوافذه على شارع أبى قير ، كان خاليا إلا من المهندسة " إيمان " مديرة مكتب المهندس ناجى . أتجها الى حجرة مكتب صغيرة ملحقة بالمكتب الكبير ، كانا وحيدان جلس كل منهما على مكتبة أمام الآخر .. أنشغلا فى فحص بعض الرسومات بينما هى كل دقيقة تنهض من كرسيهاتتواثب فـى خفة تجيد أصطناعها وهى تتحرك أمامه لعرض ماتوصلت اليه من رأى .

0000000000

فى تلك الأثناء وبينما أصابعها تداعب فنجان القهوة خرج صوت أيات مستنكرا وهى تجلس فـى ركن الصالة تراقب نعمة التى جلست أمامها منكمشة منحنية الرأس وهى تعتصر عينيها داخل صينية بها أرز تتحسس حباته فى عملية فرز شكلى : هـو أنا مش قلت لك مـية مـرة يانعمة لازم تلبسى بنطلـون تحت الجلابية . بنبرة تسليم : أنا بأتخنـق لما بألبس بنطلـون بحس أن نفسى بيروح منى . توجهـت اليها بنظرة ملل قبل أن ترشف آخر رشفة : أنتى حرة عمر ركبك ماحتخف وأبقى دورى على اللى يجرى معاكى عند الدكاترة . وضعت الفنجان بجانبها وأنكمشت ملامحها عندما أنساب صوت جرس التليفون المتقطع فـى حياء ممزقا حالة الصمت فى الصالة الكبيرة . رنينه فى المنزل يكاد يكون نادرا ، شعرت بصوته كأنـه أجابة عن المجهول أفزعتها : سامعة يانعمة جرس التليفون الأرضى .. ده أنا بقالى شهور ماسمعتهوش بيرن . تتبعت صوت الجرس بخطوات متلهفة فى حين علقت نعمة : الموبابن خلى التليفونات دى مالهاش أى لزمة . بينما ترفع سماعة التليفون ، ردت بهمس حذر: أيوه .. مين حضرتك

؟ أتاها الصوت متجها إلى طبلة ودنها مباشرة : هنا منزل هدى عبد الفتاح أسماعيل ؟ أهتزت ملامحها بشدة وأرتعشت شفتيها . لم تجيبه بل سألته بصوت ممتد : أنت مين ؟ كانت أجابته بصيغة بيان : معاكى النقيب عادل عبد الرحمن من مصلحة السجون . راجعت أفكارها بسرعة وكأنها تسترد ذاكرتها : أيوه هنا منزل هدى . رد بكلمات متلاحقة لكن رنة الفرح فيها : نحب نبلغك أنه صدر قرار عفو من وزارة الداخلية بحق السجينة هدى عبد الفتاح أسماعيل ويوم الخميس الجاى هو ميعاد الأفراج .. مبروك !! كادت السماعة تسقط من يدها . دهشت وتجمدت مكانها أمام هذه المكالمة الفاصلة المشحونة بالمفاجأة المذهلة ، أنتابتها حالة طارئة مابين الحقيقة والسراب وهى تتجه متشنجة كالأنسان الآلى صوب نعمة التى تنتظر وصولها بوجوم وترقب : أنتى سمعتى اللى أنا سمعته يانعمة . كمن يبعد عنه تهمة : وأنا أعرف منين ياست أيات هو مش أنتى اللى رديتى . تستوضح مشاعر لم تعتادها منذ فترة طويلة ، راحت تتحدث بصوت كمن خرج لتوه من غرزة بلدى بعدما تعاطى كوكتيلا من شتى الأنواع والأصناف : الراجل قاللى فى التليفون أن هدى حيفرجوا عنها يوم الخميس . أستقبلت نعمة الخبر بأنتفاضة تستخدمها دائما وتصيب من حولها بالفزع حين تسمع خبرا مفاجئا : هدى مين .. الست هدى بتاعتنا .. سبحان اللــه .. ألف نهار مبروك ، شوفى السنين جرت أزاى بسرعة .. ياسلام ع الزمن دى ياعينى سابت عيالها وهمه .. صرخت فيها أعتراضا : بس خلاص أسكتى شوية سيبينى أركز عشان أشوف حأعمل أيه ؟ .

لازال المكتب الهندسى فى تلك اللحظات يحتضن داخله يوسف وهدير وعصافير الرومانسية تحوم فوق رأسيهما يتداولان الهمس عن أحلام مستقبلية ورسم خطط البدايات .. غرقا فى وهم هدوء صنعاه . رنين موبايله أستدعاه من رحلة الأحلام إلى واقعه وقطع اللحظة كما قطع جملة هدير التى بدأتها : بابا كل أمنيته وأمله فى الدنيا أنى أتجوز وأعيش معاه فى الفيلا عشان .. رأى يوسف رقم عمته يظهر على شاشة الموبايل حتى داهمه قلق وتوتر محدثا نفسه بعفوية : خير ياعمتى عايزة منى أيه ؟ رفعه لأذنه ثم تلقى منها بدون مقدمات : أيوه يايوسف .. فى واحد ظابط أتصل على تليفون البيت وبيقول أن مامتك حيطلعوها أفراج يوم الخميس . عقد الذهول لسانه ، لم ينبس بكلمة . سكت يتلقى الخبر حتى النهاية ، أخترقت كلماتها مركز الأتزان فى مخه فأدلى رأسه للأرض وهو يلف حول نفسه بينما هدير تدقق فى وجهه كمن يقرأ الطالع فى حين تحرك للخلف خطوات وأعطى لها ظهره وأتجه ناحية الشباك كى يتمكن من طرح أسئلته على عمته بعيدا من أذانها : أنتى متأكدة من اللى أنت بتقوليه ده ياعمتى ؟ تمكنت منه نوازع الخوف والأرتباك حين علا صوتها وأنفجر خارج الموبايل : عمتك لسه عقلها فى دماغها

وماخرفتش . لم تستطع هدير كبح نظراتها المتلصصة لمعرفة مايدور غير أنها لمحته وهو يبتسم وعيناه تلتمعان . أنهى المكالمة وأبعد الموبايل عن أذنه ببطء ثم شرد بنظره فى فراغ المكتب يراوده سؤال ملح : هى ممكن عمتى تكون جت لها حالة وأتخيلت أن التليفون رن وأن حد بيكلمها . أقترب من هدير التى جلست فى وضع المنتظر وهى تسند ذقنها على قبضة يدها ، وقف أمامها ليبدأ بأداء دورفى مشهد مرتبك ، بدا مضطربا رغم محاولته رسم أبتسامة ، فأنكشفت حيرته وتردد من أين سيبدأ وهو يحرص على الا يزيد من حالة الأرتباك فى حين كانت هى توظف صمتها دون أن تدرى وهو يفتش عن سبب يصلح تفسيرا لتلك المكالمة : دى عمتى اللى كانت بتكلمنى وقالتلى على مفاجأة كبيرة أوى .

ـ خير يايوسف . حملت كلماته عفوية حاول بها طرد أى حرج يمكن أن يتسلل اليها : بتقوللى أن ماما أتصلت على تليفون البيت من شوية وبلغتها أنها حتوصل من الأمارات يوم الخميس . قالها وصمت وكأنه يعيد تقييم الموقف من بدايته ، فهو كثيرا ماحدثته نفسه فى مواقف عديدة أن يفضى لها بحقيقة ما يخبأه الا انه خاف سوء العاقبة وكان دائما يغمره شعور جارف بالندم يظل يعذبه حتى أنفلت قيده بالمزيد من الأنغماس فيه والأستسلام له غير أنه كان فى سره يعزى نفسه بأنه مضطر للكذب ويمنى نفسه بأنه سيتغير وسيتدبر أمره فى الوقت المناسب وسيعلنها عما يخفيه .

ظلت الأستفسارات تعبث بألحاح فى رأس هدير : أخيرا يايوسف مامتك راجعة .. ياه .. ده أنا نفسى دلوقتى أدخل جواك وأعرف أحساسك أيه .. أكيد النهاردة يوم مش عادى عندك . حاولت أن تفهم بينما قرأ يوسف أسئلتها ثم تداولا بعدها لدقائق حديثا باهتا تعمد فيه أن يكون حذرا ثم أستأذنها فليس لديه من الوقت الكثير كى لا يطيل الحوار . قاطعها وقد بدا أقل قدرة على التماسك : مش حأقدر أقعد أكتر من كده لازم أرجع البيت . سحبت حقيبتها من على مكتبها وتناولت موبايلها وأنتصبت أمامه : أنا حأجى معاك أوصلك يايوسف .

000000000000000

كمسحراتى رمضان دارت أيات بالخبر من خلال أتصالات سريعة ومقتضبة بدت فيها نبرة الذهول هى الطاغية فى صوتها ، بينما تلقت نورا مكالمة عمتها كمن تلقى طعنة سكين أصابت شريان رئيسى فنزف بغزارة حتى جف الجسد من الدماء ، بهتت وتسمرت أمام مانيكان خشبى تعالج على هيكله عباية فى مرحلتها الأخيرة من التشطيب .. علامة أستفهام تكبر وتكبر حتى تتضخم وتسد عليها مسارب

التفكير ، تحاول أن تستوعب جملة عمتها التى طرحتها بطريقة صادمة : مامتك حتخرج من السجن يوم الخميس . بدت كالمصعوقة ومنافذ الرؤية غمامة سوداء قاتمة تعصب عينيها . لم تشعر فى تلك اللحظة بالواقفة فوق رأسها تمطرها بكلمات الأستفهام : فى أيه يانورا مالك مسهمة كده ليه ولونك مخطوف . ملاحظـة ألقت بها زيزيت فى وجه نورا التى حاولت أحتواء ماتشتت داخلها ، الا انه كان فوق أحتمالها : الحقيقة مش فاهمة .. عمتى بتقولى حاجات غريبة مش قادرة أستوعبها . سحبت من يدها المقص بتمهل ، كانت تشهره كسلاح هجومى فى وجه المانيكان : حاجات غريبة زى أيه يعنى . مرت بكفها على جبهتها : بتقولى أن فى واحد أتصل وقالها أن ماما حتخرج أفراج يوم الخميس . تطوى طرفى المقص بضغطة سببت صوت متوتر كأنه موسيقى تصويرية فى مشهد درامى : هدى حتخرج يوم الخميس .. ياه على السنين . تداخلت ملامحها ونشطت دموعها كزخات مطر مفاجىء . أردفت : مبروك يانورا .. مبروك ياحبيبتى . قامت الأخيرة من جلستها كعجوز متهالكة وخلعت مريلة الشغل ذات اللون السماوى : عن أذنك يامدام أنا حأطلع أشوف أيه الحكاية . أنسحبت متوترة من حجرة التفصيل فى حين تولد شعور غريب لدى زيزيت رصدته فى ملامح نورا .. لا هو فرحة بسماع الخبر ولا تشوق لرؤية أمها ولا أمل يداعب ملامحها ولا قنوط يهوى بها ولا حتى أحساس بالترقب . رددت دون وعى : أنا مش فاهمة نورا حصلها أيــــه ؟ .

كانت نورا أول الواصلين الى الشقة لتجد نعمة وعمتها تجلسان فى مكانهما كحراس معبد بينما راقبت أيات أرتباكها غير المبرر من لحظة دخولها وهى تستفسر بصيغة أتهام : أنا مش حأسألك تانى ياعمتى بس أنا عايزة أفهم اللى كلمك فى التليفون قالك سبب الأفراج أيه ؟ قبل أن يبلغ السؤال مداه : مالحقتش أعرف منه حاجة هو قالى كلمتين ورد غطاهم . وكأنها تنتظر نزول الوحى أو خروج الألهام .. راحت تقطع الصالة ذهابا وأيابا عدة مرات وتتوالى عنها الأسئلة مقابل أجابات مقتضبة من جانب عمتها بدعم من نعمة كشاهد ما شافش حاجة قبل أن تلقى بنفسها على فوتيه الصالة ..أغمضت عينيها لدقيقة ثم فتحتهما وقد تفككت مشاعرها المركبة لتلد أحاسيس مختلفة ظهر فيها الذهول والقلق والخوف والفرح لدرجة أنها لم تخرج مندفعة بكل أحاسيسها فى لحظة فرح عارم أو غضب فادح أو حزن داهم ، بينما أيات تتأملها وتنتظر منها ماستقرره من خطوات قادمة ، فهى تعلم أنها توازى الجميع ، كلهم فى كفة ونورا فى كفة راجحة .

طرقات منغمة على باب الشقة بأيقاع " وحياة قبلى وأفراحه " مصدرها أصابع بسمة التى أستقبلتها أختها كلوح تلج متصلب بينما بسمة يشع غليان الفرح فى وجهها التى بادرت أختها بحركة خاطفة ودارت بها كراقصة باليه ثم هرولت وهى ثائرة الشعر فى أيقاع رشيق على أطراف أصابعها متجهة إلى عمتها قبل أن تطيح بمذكرة محاسبة على كرسى فى أول الصالة .. فتحت ذراعيها كجناحين : تعالى فى حضنى ياعمتى ياحبيتى يابتاعة الأخبار الحلوة . أنحنت فوقها تلف رقبتها ورأسها فى عناق خانق حتى خرج تيشرتها الـ " الروز" عن حياءه منفلتا خارج حرم البنطلون الجينز فبدت فى هيئة فتاة خارجة من حفلة تحرش بأحد شوارع الأسكندرية بينما نجحت عمتها فى تخليص رقبتها ورأسها من حماسة يديها لحظة دخول يوسف من باب الشقة بوجه طافح بالذهول .. أقتحم الصالة وألقى بسلامه ثم أتجه ناحية عمته قبل أن يزيح بسمة من أمامها مرتمياإلى جوارها على الكنبة محشورا بينها وبين نعمة التى سقطت رأسها على أثر غفلة نوم سريعة . أتجه بكلامه مستفسرا من صاحبة الحق الحصرى عن الخبر : فهمينى براحة كده ياعمتى الحكاية أيه من الأول ؟ تحركت اليه نورا بخطوات عصبية ولم تمهله سماع أجابات مكررة ، بدت فى حالة عدائية وكأنها ترفض تصديق الخبر فصاغت فى رأسها قرارا أفرجت عنه بنرفذة : مش حنفضل نعيد ونزيد فى اللى عمتك قالته ..أنت دلوقتى تاخد بعضك و تروح لمديرية الأمن وتتأكد بنفسك من الخبر ده . قطب حاجبيه فى بلاهة : أروح أقولهم أيه ؟

ـ ياأخى فى أستعلامات هناك أسأل وأستفسر عن المكالمة دى . كمن يرفع ثقلا ضعف حجمه : حاضر يانورا مع أنى متأكد أن الخبر ده صحيح .

ـ واللـه وأنا كمان يايوسف أحساسى بيقولى أن ماما حتكون معانا يوم الخميس . قالتها بسمة بفرحة طفولية بينما لازالت نورا تحاول سد ثغرة من الفرح يزداد أتساعها كل لحظة على ملامح يوسف وبسمة : أصبروا شوية لغاية مانتأكد من الموضوع كله . بدت كلماتها كردة فعل أخيرة فى حين أدار يوسف ظهره دون أن يلتفت اليهم وهو يمضى إلى الباب بينما شيعته نورا بنظرتها : خلى بالك على نفسك يايوسف . قالتها وأنكمشت على نفسها داخل كرسى منزوى فى ركن الصالة والصداع يضغط على رأسها فأزاحت خصلات شعرها من فوق حاجبها وضغطت بأصبعيها على جبهتها . ألتفتت أختهاإليها ملوحة لها بيدها تختبر درجة تركيزها : أيه ياجميل أنت مش معانا ولا أيه . جاهدت لأخفاء قلق غير مفهوم وأبتسمت أبتسامة ضبابية : بأفكر أيه اللى ممكن نعمله . دون مقدمات عادت نعمة فجأة للحياة من غيبوبة نوم عارضة : هو أحنا لسه حنفكر نعمل أيه ده يادوب نلحق نوضب البيت ونحضر كام أكلة

من اللى أمك كانت بتحبهم .. ده غير أوضتها اللى عايزة تتهوى وتتنفض عشان لما تيجى بالسلامة يوم الجمعة تلاقى كل حاجة تمام . صححت لها بسمة المعلومة : الخميس يانعمة .

ـ كمان !! بدت أيات كمن لم تقع عيناها على مشهد من قبل يسابق فيه الكل الزمن للوصول إلى غايات متباينة .. كل غاية منهم تقع فى خانة الحالات الطارئة .

0000000000

الفصل الرابـع

أسند عبده رأسه على صدره كأنه فى جلسة عزاء محاصرا بين الحاج تاج وسعيد تشكك بينما هسيس تلاوة قرآن بأداء متسارع مصدرها قناة " أقرأ" يتلوها شيخ سعودى بنبرة أضفت جو من الحزن على المقهى والموجودين .. حالة من الأسى تجتاحه منذ أن هجم عليه خبر الأفراج عن فايزة ، دوما شاردا ويثأثىء وله نظرات موروبة تشى بالحذر والترقب .. غرز ابهاميه فى صدغه وهو يمسح المقهى بنظرة الملكية لكل مافيها وقد أوشكت على العودة الى صاحبتها .. غابت أصوات الجالسين عن أذانه ، لم يعد يسمع شيئا .. زاغ بصره فى الدخان والبخار المتصاعدين .. مد ساقيه أمامه بعد أن أفرج عنهما " جنش الجزمجى " قبل أن يعتقل مركبتين خاصة " سعيد تشكك " بينما رشف عبده رشفة طويلة من كوب الشاى ويدس بوزالشيشة التى ترقد بجوار قدميه فى فتحة فمه .. كركر فى رتابة ثم يخرج الدخان بتكاسل من فتحتى أنفه كعاصفة خماسينية أخفت وجهه ، بينما الحاج تاج يرصد حالته المزاجية فتطوع مهدئا ماسحا على ركبته : وحد اللـه ياعبده وأهدى كده وصلى ع النبى . أشاح بنظره يستدعى ثباتا : لا اله الا اللـه ياحاج . قالها ومال بجسده للأمام ورشحت الكلمات منه كندابة فى مأتم : ياخسارة يابلد .. ثم خبط على فخذيه : ياخسارة ياحكومة ياداخلية .. خلاص يارجاله ماعدش فى عدل فى البلد دى . طالته نظرات الترقب . موضحا : عدل أيه ده اللى يخلى واحدة تطير عين موظف حكومة وتخليه أعور بقية عمره وأخرتها يكافؤها و يطلعوها عفو .. يرضى مين الكلام ده ، يرضيك أنت ياحاج تاج ياللى زرت بيت ربنا ولا أنت ياسى سعيد يابتاع المظاهرات والثورة .. ماحد يفهمنى ويقولى ؟! لا ردود ولا تعليقات سوى أجابة بلا منطق تسللت إليه أتية من الأسفل : يعنى هو كان فيه حد فاهم حاجة فى البلد دى لما أنت عايز تفهم يامعلم عبده . قال جنش بينما أدلى عبده برأسه : أنا عارف نفسى كويس

طول عمرى فقرى وقليل البخت . صارع الحاج تاج ضحكة كادت أن تغلبه إلا أنها بدت فى عينيه : أنا مش عارف أنت مكبر الأمور ليه هيه فايزة دى مش مراتك برضه وأم أبنك وصاحبة النعمة اللى أنت فيها دى .. أهدى باللـه وكفاية عليك لحد كده ياعبده أديك عشتلك كام سنة فى الهلس والمزاج وهى فى السجن .. خلاص بقى ولم الدور وأبدأ معاها صح عشان هيه كمان تبدأ معاك صح وماتنساش أن السجن أصلاح وتأديب ياعبده .. تجول الأخير بنظره فى وجوه الزباين يبحث عن إجابة مناسبة تصلح للرد قبل أن يلتقط واحدة زادته أحباطا : الطبع غلاب وعمره ماحيتغير أبدا تقولى بقى السجن أدب السجن أخلاق الكلام ده مايأكلش معايا.. طب تصدق وتؤمن باللـه ياراجل ياطيب ده أنا لما بأروح أزورها وعزة جلال اللـه بأحس أنها صاحبة السجن والضباط والعساكر معزومين عندها . خفت صوته وضعف كمن يوشك على البكاء : دى جبارة وقادره يامولانا . قالها وبدا خائفا ، فمنذ لحظة تأكده من الخبر وعصف بفكره الوسواس الخناس الذى يوسوس فى صدور الناس .. الكوابيس والأحلام الغامضة تلاحقه فى نومه ثم هاربة تداهمه فى يقظته كأنها كائنات تتشكل أمام عينيه كالأشباح فى مدينة مهجورة ، يظهر له دائما وجه فايزة بملامح مصاصى الدماء أو فى صورة ريا وسكينة حين تعتليه فى نومه تخنقه بينما أنفاسه تتقطع وتجحظ عيناه وينساب العرق من جبهته بغزارة مرتعدا مفزوعا منفلتا من بين يديها إلا أنها ما تلبث تباغته فى مشهد أخر أشد أثارة وعدوانية حين تتقدم نحوه تدق الأرض بقدميها محدثة صوت يصم أذنيه وهو ممددا على سريره تقترب نحوه شاهرة مقص ضخم كالذى يستخدم فى تقليم الأشجار،فتصفعه على فخذه صارخة : أفتح رجليك ياسيد الرجالة يادكر ! يفتح حين تفتح طرفي المقص عن أخرهما وتمر به بين فخذيه حتى بلغت قضيبه الذى بدى ذليلا مرتعشا بين فكى المقص بينما عبده لم يحتج مكتفيا باشارات من كفيه كأنه يدفعها عنه على طريقة " البانتوميم " .. ضغطة واحدة منها وبعدها للـه الأمر من قبل ومن بعد ثم صرخة مدوية صدرت عنه مؤكدا نجاح عملية " الطهور " ليدفن بعدهـا عبده وجهه فى كفيه : حرام عليكى يافايزة .. خلاص مابقاش لى لزمة .. أنتصبت واقفة بنظرات شامخة تعاين المكلوم قبل أن ترمى إلى جوار قدميها رجولته المبتورة وهى تنادى فيه ضاحكة : قومى ياختى حمداللـه ع السلامة . عاد من سرحته المؤلمة على وقع استفسار تشكك : هيه مراتك حتطلع يوم الخميس الساعة كام !. تفاصيل مستفزة تزيد حنقه : حتطلع فى ساعة سودة ياأخى .. أنت مالك ياجدع أنت !. أجابة محتجة أعادته للوراء ملتصقا بظهر كرسيه فى حين تدخل الحاج تاج : العصبية بتاعتك دى مش حتنفع ياعبده .

ـ يعنى أنت عاجبك أسئلته الخايبة دى .. أكيد سهرة أمبارح اللى قضاها فى قسم الرمل مخلية دماغه منملة.

فبالأمس وكالعادة شارك تشكك فى بعض الفعاليات المتواصلة فى الأسكندرية من أحتجاجات وأعتصامات حتى وأن كان سببها غير مفهوم بالنسبة له ، فالمشاركة عنده كالأدمان .. ساهم بالأمس وبحماسة الثورى فى وقفة سلمية أمام مبنى المحافظة متضامنا مع بعض قيادات وعمال النظافة الذين يسعون لزيادة الراتب والحوافز إلا أنها سرعان ماتزحزحت وقفتهم من أمام المبنى إلى عرض الطريق وقطعه ، كانت وقفة مهيبة ، الكل حمل المكانس مرددين : عايزين حقنا يانموت كلنا . لحظات قليلة وقامت قوة من قسم الرمل بفض الوقفة قبل أن تقوم بأسر مجموعة منهم وعلى رأسهم سعيد تشكك وأقتادتهم إلى داخل القسم وتم عمل اللازم معهم بكل أخلاص وتفانى خاصة مع تشكك الذى أقسم أمام الضباط بأنها ستكون المرة الأخيرة وأعلن توبته أمام مجموعة من المخبرين وأعتزاله رسميا وتم الأفراج عنه بعد ثمانى ساعات من الحجز قبل أن يلطعه مخبر بكف غليظة على " أفاه" وسحبه من " الفانيلا " حتى أنسلتت خارج الكلسون وتسلمه أخر ليرميه خارج القسم مودعا : أوعى أشوف وش أمك تانى فى أى حتة . نهاية جملته كانت مشمولة بركلة فى مؤخرته ودفعة قوية إلى الشارع الذى يتثائب فى تلك الساعة من الفجر .

وصل " منصور " المقهى بملامح متفائلة ولمح أبوه محاطا بصحبته قبل أن يلتقطه الحاج تاج الذى أشار لتشكك : قوم معايا ياسعيد نلعب عشرتين طاولة ونسيب عبده مع أبنه شوية يدبروا أمورهم . قام تاج وتبعه تشكك تشيعه بصقة غليظة من فم عبده الذى لم يعرف هل هى تحية وداع أم خلاصة مرارة يمضغها من لحظة سماع خبر الأفراج . سحب منصور كرسيا وقبل أن يجلس الى جوار أبوه تلفت يستكشف الأجواء : أيه يابا جو الحداد ده . تنهيدة مستسلمة : حنعمل أيه بقى أدى حال الدنيا .

ـ مالها الدنيا ماهى ماشية حلوة معانا وزى الفل .

ـ حلوة وزى الفل .. أبقى قابلنى وتف على خلقتى لو شفت بعد كده فل ولا غيره . هرش رأسه : دى برضه أمى يابا مش عزرائيل ولا أنت فاكر يعنى أنها حتخرج من السجن حتاخد رقبتك .

ـ وله ياجمعه هات واحد بن تقيل . قالها عبده وأعتدل على كرسيه فى مواجهة أبنه : الدنيا يابنى كانت ماشية معايا ومعاك بالرضا والأنسانية وعلى يدك أنا مدور القهوة ومظبطها ع الشعرة وبرضه مسلك

أمورى وشايف مزاجى برضه وكله بالأصول وكمان أنا ماقصرتش معاك يامنصور ومصروفك بتاخده بالزيادة وفوقيه بوسة ولا بأدقق معاك ولا بقولك رحت فين ولا جيت منين ولما فاتحتنى فى موضوع نوسه بنت بدرية مافتحتش بؤى بكلمة وكل اللى طلع من ذمتى أنى نصحتك وقلتلك واحدة واحدة وبالهداوة يامنصور عشان أمك ماتجيبش عاليها واطيها .. مش ده اللى حصل منى .

ـ صح يابا .

ـ مكبر دماغى معاك عشان عارفك راجل وفاهم بتعمل أيه . ثم أرتد للوراء وعلامات الأسف تسكن ملامحه . تابع : لكن دلوقتى بقى ياروح أمك أنسى الكلام ده كله ، أمك حتطلع من السجن زى الكلب المسعور حتنهشك بسنانها لوخرجت عن طوعها وأنسى بقى حكاية نوسة وشغل روميو اللى أنت عايشه ده وسلم لها نفسك والجزمة فى حنكك عشان هيه بالصلى ع النبى اللى حتفكرلك وحتنقيلك وتجوزك والمطلوب منك بس أنك تخضع وتبقى زى الشبشب اللى فى رجل جنش .. خد منى وأسمع كلام مجرب .

شعر منصور بروحه تنسحب إلى قدميه : يعنى أيه الكلام ده يابا ؟ .

ـ يعنى زى ماسمعت وأنت فاهم وأنا فاهم وماتعمليش فيها مصدوم ، أنصت إليه كمن يعانى خللا فى الأعصاب حين ألمت به رعشة.. تخيل كل كلمة تخرج على لسان أبوه بأنها عين الحقيقة وما ستؤول إليه الأمور . لم يستطع أن يحول نظره عن والده الذى يداعب شاربه ولا أن يقف الأنفعال الذى أستبد به فمط شفتيه وأتسع منخاره قبل أن ينفجر صوته مضطربا : أنت قلقتنى أوى يابا ، الذى سارعه بأجابة شافية : بص أدامك ياحمار وأنت تشوف القلق بعينك . تتبعت عيناه نظرات والده المتجهة لمدخل المقهى وهو يراقب تاكسى فايزة " اللادا " الذى يتهادى إمام المدخل تحت قيادة " جمال النونو " الذى أخرج رأسه من شباك السيارة يلقى نظرة فاحصة متشفية مشيرا بيده : منور يامعلم عبده .. شايف الفرحة حتنط من عينيك .. معلش أستحمل شوية كلها يومين والمعلمة تطلعلك !قذف بجملته كالجمرات وكأنه يرجم شيطان رجيم ثم أندفع مخلفا شروخا فى رأس عبده وشفة مرتعشة ونبرة متذمرة : رابع مرة النهاردة يعدى على أبن المفضوحة ويقولى البؤين دول . بدا منصور وقد أخرسته مشاعر لم يفطن لنوعيتها .. هل هو توتر مشوب بالخوف أو القلق من عاصفة لا أمل فى تحاشيها .

مرت نصف ساعة كاملة أفرغ فيها عبده مأساته ومخاوفه أمام حيرة أبنه الذى بدا مشوشا . أنهى عبده كلامه ثم قام من كرسيه مهموما رافعا عينيه فى مذلة مستجديا : أسترها معانا ياللى بتستر الغلابة . جملة لم تعد تفارقه كمجذوب أمام جامع ، قالها وأتخذ طريقه للخارج بينما لحقه صوت الحاج تاج : على فين ياعبده . يمسح صدره بيده : مخنوق شوية حأشوفلى أى داهية تلمنى . خبط جنش كف على كف : الراجل حيجنن ياولداه .

ـ بصراحة الراجل معذور .. الوليه مراته دى الشر نفسه يهرب منها . عبارة اضافها تشكك وهو يتابع عبده الذى يمر بين الزبائن .. يجر قدميه وسط تلميحات مكشوفة وعبارات ساخرة ترددها ألسنتهم ، ما من تحية تلقى عليه إلا وتتبعها عبارة " شد حيلك " منغمة بنبرة شماتة وتشفى بينما قام منصور واضعا يديه فى جيب بنطلونه يحاول أستيعاب صدمة الحدث الذى لم يعطه قدره المطلوب .

0000000000000

أنتفاضة حياة تدك قلاع الرتابة والكآبة داخل العنبر .. حركة دؤوبة ونشطة ، الأستعدادات على قدم وساق وحالة من الفرح العارم والأستنفار تسيطر على الملامح والكلمات .. بدا العنبر فى تلك الأثناء مقسوما لنصفين كما هو الحال فى مصر كلها .. مجموعة تهلل وتغنى وأخرى تراقب وتتحسر كعوانس تخطاهم قطار الرجال فى حين تشابكت أيادى من شملهن العفو فى دائرة بوسط العنبر يحجلن على أقدامهن وهم يرجعن للوراء فتتسع الدائرة ثم أرتدادة للأمام فتضيق بهن وكأنها رقصة أفريقية لطرد الأرواح بينما تحولت فايزة على غير المعتاد إلى كائن وديع مسالم تتحرك بطول العنبر وعرضه الذى أزداد أتساعا وبراحا أمام مشيتها المنفوخة بصدر متقدما أياها بينما التضاريس الوعرة والهضاب خلفها تهتز فى رشاقة نادرة حين أقتربت من دائرة الفرح مخترقة أحكامها والأيقاع يسرى من يديها على طبق صاج تنقر عليه بحماسة مستدعية نغمة الأنشودة الخالدة " آه ياواد ياولعة خدها ونزل الترعة " والحناجر حولها تردد بلا هوادة كلمات الأغنية مع طلقات زغاريد مدوية كالصراخ فى حين ظلت هدى خارج الدائرة تراقب المشهد لعلها تتخلص من حالة الأرباك التى لازمتها من لحظة سماعها خبر الأفراج التى تلقته مثل عطشان يطارد الماء ، تستشعر داخلها بفيضان من الفرح يندفع ويفيض ، فأستسلمت على نحو مفاجىء لتلك الرغبة الحثيثة فى عدم مقاومة الفرحة أو مجرد التفكير فيما ستحمله لها الأيام وأستكانت للأحساس المباغت بالرضا والخلاص من كل شيىء .. من القضبان والحراس والمراقبة والحشرات .

وكما هو متعارف عليه داخل السجون تبادر السجينات المفرج عنهن بتقديم العطايا والهبات ، فكانت هدى هى النموذج والمثل حين فتحت ضلفة الدولاب الحديدى العتيق ومالت داخله ناحية رف خاص بها وسحبت منه بطانية صوف كانت هدية من أولادها منذ ثلاث سنوات بمناسبة عيد الأم وأحتوتها بين ذراعيها قبل أن تسحب كل غياراتها الداخلية وعدد أتنين شبشب وثلاث فوط ثم سارت بهم بطول العنبر بحذا السراير وهى تفرغ حمولتها على زميلاتها : خدى يافتحية سونتيانه وكيلوت وأنتى يانعمة شرحه . ثم ناولت بأبتسامة : وأنتى ياتوحة الفرشة والمشط ودبابيس الشعر وصبع الروج بتاعك . قالت جملتها ثم طوحت يدها برمية قوية موفقة بأتجاه " أم السيد وبحرية " : وأنتو خدوا البطانية دى تدفيكم لغاية ما حد من الداخلية يفتكركم . تبعتها فايزة على نفس الدرب وتقدمت فى شهامة الى وسط العنبر تنادى فيهم حتى أنتبهوا ثم أصدرت قراراتها تباعا وكأنها تتلو وصية : براد الشاى والأتنين مج من نصيب عواطف والأطباق والمعالق والفوط للحاجة زينب وبكره قبل مانتكل على اللـه من هنا بقية السجاير اللى فى الخرطوشة خدوها ووزعوها على بعض . إنتهت وصيتها قبل أن تسحبها هدى من يدها فى الحاح : كفاية بقى تنطيط وتعالى نقعد شوية . خطوتان وسلتت فايزة يدها من يد هدى وألتفتت ناحية توحة مساج .. أشارت لها بيدها ملوحة ثم مرت إليها حيث تقف أمام سريرها حتى ضاقت المسافة بينهما الى نصف متر ثم نظرت فى عينيها وأبتسمت : مش عايزة أمشى من هنا وأنتى زعلانة منى ياتوحة . قابلتها بأبتسامة بريئة وأرتمت على صدرها : واللـه أنا فرحنالك أوى يافايزة .

ـ عقبالك ياتوحة . تنهدت : عقبالى فين بقى شكلى كده حأكمل مدتى وأمرى للـــه . وضعت يدها برفق على كتفها : اللى فاضلك مش كتير ياتوحة بس المهم لما تطلعى أبقى غيرى الشغلانة . شبكت يديها على خصرها : مش بأيدى يافايزة ياختى . ثم ذيلت جملتها بصهللة أرتدت على أثرها فايزة خطوة للوراء : روحى ياوسخة ربنا يبتليكى بمسمار حدادى يتحشر فيه ولا ينفع معاه دخول ولا طلوع.

ـ مش حيلحق ينحشر ياحبيبتى .. الشواكيش اللى بتدق كتير . قالتها ضاحكة وأتجهت صاعدة إلى سريرها . بينما أسرعت هدى ناحية فايزة تشدها : يعنى أنتى لازم تطولى معاها فى الكلام .

ـ هو أنتى مش سامعه الفاجرة بتقولى أيه .

أتجهتا سويا ناحية ركن مجاور لسرير فايزة وجلستا على الأرض تستندان الى الحائط فى صمت بينما تحولت هدى بعينيها بين الوجوه الفرحة والأخرى الحزينة حتى توقفت عند " الحاجة زينب " التى أنكمشت قرفصاء فى سريرها وكعادتها لا تفارق عينيها صفحات المصحف المفتوح تتلو فيه بنبرة

خشوع وندم ، فهى تعتبر من السجينات القدامى التى تم أرسالها للسجن على يد قاضى جنايات طنطا بحكم مؤبد فى قضية جلب مخدرات من لبنان وأشتهرت فى السجن بـ " هند رستم " عنبر ج فكانت تملك فتنة التقاطيع والتفاصيل التى أصبحت ذكرى بعد ما نجحت سنوات السجن فى محو الملامح والمفاتن وغابت العيون المثيرة خلف نظارة سمك زجاجها أربعة مللى بالكاد تعثر بها على كلمات القرآن فى مصحفها قرينها الدائم فى ساعات الليل والنهار فحصلت بجداره على لقب " الحاجة زينب " عادت هدى من رحلة معاينة الوجوه بشعور حزين : الحاجة زينب صعبانة على أوى يافايزة .. ناس تيجى وتروح وهى ياعينى قاعدة فى ملكوت تانى . وضعت يدها على ركبة هدى : الحاجة زينب دى خلاص سلمت أمرها للـه وماعدش يفرق معاها أى حاجة .. خلينا والنبى فى نفسينا أحنا اللى ورانا كتير ياهدى .

ـ عندك حق . بينما تسلل الخوف الى ملامحها وقد أنتابتها حالة من السلمية وهى تتابع بنظراتها جدران العنبر وشروخه وكأنها تقرأ عليها شريط حياتها . أردفت : أول يوم جيت هنا فيه كنت متأكدة أنى مش حأستحمل حبسة وبكتيره شهر ولا أتنين وحأموت . بنبرة ساخرة أكملت : أتحملت وأتحملت وشهر ورا شهر وسنة ورا سنة لغاية مابقوا تسع سنين وتلات شهور ولا مت ولا جرا لى حاجة وأدينى كمان خارجة بكره .. سبحان اللـه . عاجلتها فايزة بتحذير واجب : ونبى ماتفكرينا باللى فات وخلينا فى اللى جاى .

ـ ياخوفى من اللى جاى .. حاسة بحاجة كده جواية مش قادرة أفهمها وحاسة أنى قلب مقبوض وخايفة . أشعلت فايزة سيجارة وأغمضت عينيها ثم فتحتهما قبل أن تنفخ دخانها : ومين سمعك .. أنا كمان دماغى عمالة تجيب وتودى .. الكام سنة اللى أتنيلت فيهم هنا مخليانى كأنى مش أنا حاسة أنى بقيت واحدة تانية . مسحت هدى رأسها بيديها ورجعت بظهرها للحائط : خايفة أوى من الناس يافايزة .. السجن والزنزانة كانوا منسينى حاجات كتيرة أوى .. ولادى دلوقتى كبروا .. نورا وبسمة بقوا عرايس ويوسف ربنا يحميه خلاص حيبقى مهندس أد الدنيا .. لم تخف قلقا بدأ ينتشر كالسرطان فى ملامحها . أستأنفت : مش عارفة وجودى معاهم حيسببلهم أيه فى حياتهم .

ـ من الناحية دى أطمنى ع الآخر ولا حيحصل حاجة وحياتهم حتبقى زى العسل .. أنتى ياحبيتى ماتشغليش بالك بالوساوس اللى فى دماغك دى .. أنتى مادخلتيش السجن عشان حاجة بطالة لا سمح اللـه أنتى جيتى هنا عشان حق عيالك. أضافت قبل أن تتحول نبرتها إلى ثقة : الناس دلوقتى وبعد

الثورة بقوا حاجة تانية أتغيروا وماعدش فيه حد بيدقق ولا حد بيسأل الكل هايص وملهى فى حاله وماتنسيش أنك طالعة من هنا برخصة ! .

ـ رخصة . قالتها بفزع .

ـ أيوه ياهدى برخصة حسن سير وسلوك الدور والباقى على اللى طلعوا من السجن هربانين وبقوا دلوقتى بيحكمواالبلد ! تحولت إليها بنظرة ركنية مشمولة بأبتسامة : يعنى أنت شايفة كده ! بسطت فايزة كفيها على الأرض ورفعت مؤخرتها تستعد للوقوف : قومى بينا عشان ننام خلى خلقتنا وأحنا ماشيين من هنا بكرة تبقى صابحة ورايقة. أتجهتاإلى سريرهما ، فردت هدى جسمها ووضعت مرفقها على جبهتها وعينيها شاخصة إلى السقف وكأنها تناجيه . لم تكن تنام فى اليومين الأخيرين ، وقعت فريسة لأوهام وهواجس تهدد راحتها النفسية بدت قلقة متوترة .. كان خوفها من مواجهة الحياة هو صراعها الأول .. دائما تمنى نفسهابأنها أصبحت أكثر نضجا فكانت تتعجل الفرار من سنوات سجنها التى تحمل جروحا فاض صديدها قبل أن يداهمها فى نفس اللحظة أحساسا متصاعدا يغطى المسافة المتبقية لنيل حريتها فبدت أمامها بلا أفق ولا نهاية والوقت صار بطيئاوثقيلا . أغمضت عينيها قبل أن تسحب مرفقها من على جبينها ليستسلم إلى جوارها بينما الليل راح يوغل فى رحلته الكئيبة فى حين استلقت فايزة على سريرها . بدأت فى شحن بطاريتها من جديد كى تستعيد حالتها القديمة فراحت ترتب أفكارها وخططها ، تهدم وتبنى ، فرأسها لا يحوى سوى صور وخواطر مشتتة ضيقة الأفاق ضيق حوارى كرموز .. تجولت بخيالها فى أزقة حارتها تستعرض وجوه المعارف والجيران ثم سرعان ما سلمت نفسها لغيبوبة النوم .

00000000000000000

الخميس 12 ظهرا

كان السجن مختلفا وبدا فيما يشبه أن يكون ضاحية منفصلة فى أطراف مدينة ، كانت كوكبة من جنود الأمن المركزى ببدلاتهم العسكرية المائلة نحو السواد القاتم بأزرارها النحاسية اللامعة وخوذاتهم المكورة ومعاطفهم الغليظة المربوطة بأحزمة جلدية سميكة وأحذيتهم الثقيلة شديدة السواد ، يقفون فى أنتباه يتقدمهم واقفا ضابط ذو وجه معبر وهيئة صارمة ، وقف مباعدا قدميه ويديه وراء ظهره بينما عدد من رجال الأمن بزى مدنى يطوفون باحة الأنتظار من أولها الى أخرها وكل شبر فيها مرصود ، فلا

يفلت من مشهده التفصيلى شيىء ، الكل مشدود وفى كامل توتره ، بينما غصت باحة سجن النساء بالمنتظرين ، خليط من البشر ومزيج من السحنات .. أكتظاظ وحركة دائمة .. سيارات صغيرة وكبيرة تنتظر المفرج عنهم ، بالرغم من المشهد المزدحم العشوائى إلا أن كل شيىء يبدو محسوبا ومظبوطا ولا يخرج عن سياقه ، فالخروج خطيئة تجد على الفور من يتدخل بفظاظة لقمعها .

وصلت " أيات" بسيارتها الى باحة السجن تحمل فى جوفها يوسف فى المقعد الأمامى ونورا وبسمة فى المقعد الخلفى ، هبطوا جميعا من السيارة وساروا فرادى بخطوات مرتبكة وعيونهم شاخصة نحو بوابة السجن ، يرصدون كل من يمر خلالها وتعكس وجوههم قلقا ولهفة . أتخذوا مكانهم محشورين وسط الناس ثابتين فى مواقعهم وكأنها معركة وجود .. ساعة من الأنتظار تحت لهيب الشمس كانت كافية لسلخ وجوههم بينما أحكمت أيات أيشاربها لتغطى صدغيها لعله يكون ساترا لبشرة أكلتها الشمس .

أنفتحت البوابة وخرجن السجينات تباعا فى طابور فأصبحن فى متناول البصر ، فماتنفك تظهر وجوه شهباء كأنها وجوه شاحبة بينما الأهالى متأهبين وفى أقصى درجات الترقب ، فجأة ودون مقدمات أطلقت سيدة خمسينية العمر صاحبة وجه ملسوع من الشمس زغرودة البداية ، فكان لها صدى وسحر فى آذان المنتظرين فتبعتها أخريات حتى أجتازت أول سجينة فى الطابور بوابة الأنتظار فبدأ الأرتباك والعناق وتحول المشهد كله الى حالة درامية دامعة .. ظهرت هدى تطل برأسها من البوابة وقد أختفت جهامة السنين الماضية وبش وجهها تلازمها فايزة ملتصقة بكتفها بعد أن أنجزتا أتفاقا يشتمل على أدق التفاصيل كى تلتقيا فى توقيت لا يدركه خلل مهما تغيرت الظروف .

غشت عينى هدى أشعة الشمس المنعكسة من المقدمات المعدنية للسيارات القابعة فى أماكن الأنتظار ، بسطت ظل كفها وقاء لعينيها من الشمس وهى تستطلع وجوه المنتظرين حتى ألتقطت رأس أبنها من بين الرؤوس المرفوعة فأنتفضت ووضعت كفيها فى قوسين حول فمها لتحتضن صوتها وتدفعه طوليا ليبلغ آذانه : يوسف .. يوسف . ظلل عينيه بكفيه وأرسل بصره ليجوب المكان باحثا عن صوتها .. لمحها .. فتفجرت حماسته وأنسلخ من بين الأجساد ووسع أبتسامته حتى شملت عينيه .. لهفته سبقت صوته . هتف : ماما .. ماما هناك أهيه . شبت بسمة على أطراف أصابعها وأخرجت رأسها المحشورة من بين أكتاف المتزاحمين بينما أيات تعقبت بنظراتها أشارة أصبع يوسف لعلها تصل للهدف ، لكن نورا الذى طال الترقب وجهها لزمت الصمت ولم يمنحها ظل أبتسامة فى حين أندفع أخوها ومن خلفه

أخته ثم أيات ونورا بخطا أقل حتى نالت عينى هدى وجوههم قبل أن تهرول إليهما تحمل نظرة تشتمل على أبتسامة عريضة .

وصل الجميع عند نقطة التلاقى .. فتحت هدى ذراعيها لآخر مدى تتلقف فى محيطهما بسمة ويوسف ، قبلات عشوائية توزعها وتطبعها على وجهيهما فأختلطت الدموع وأرتبكت النبرات وهى تلفهما بنظرة دامعة : وحشتونى ياحبايبى وحشتونى أوى . مط يوسف شفتيه وعنقه ناحية جبينها مقبلا : حمد اللـه على السلامة ياماما . صعدت بذراعها إلى كتفه وراحة يدها تنفرد بكل اتساعها وتضمه اليها ثم قبلت جانب جبهته بينما بسمة تعلقت برقبتها وأفرغت فرحتها العنيفة دفعة واحدة بكلمات كانت كالهذيان : أنا فرحانة .. فرحانة فرحانة واللـه العظيم أنا مامصدقه نفسى أنا كأنى بأحلم .. لازالت نورا منكمشة خلف ظهرى يوسف وبسمة ونظرت لأمها نظرة خجل فبادرت إليها هدى وأتجهت ناحيتها تسحبها لصدرها وأحتوتها فى ضمة طويلة أستسلمت فيها نورا ولم تتماسك فغلبتها الدموع وقهرتها دون توقف وجعلتها تغمض عينيها وهى تسمع نشيج أمها على كتفها يتقطع معاتبة : كده برضه يانورا أربع شهور ما أشوفكيش . بلا جدوى حاولت أن ترد إلا أنها فضلت أن تدفن رأسها فى صدر أمها وتفرج عن مشاعر حبستها شهورا : أعذرينى ياماما وسامحينى واللـه ظروفى كانت صعبة . أنهت أيات مشهد الدموع وفضت العناق المحتدم بينهما وقد أستنفرت بقايا أحاسيس كانت خاملة والتى نشطت فجأة بحكم الضرورة فرفعت ذراعيها تتجه بهما لهدى التى أستلمتها : حمد اللـه على السلامة ياهدى .

ـ اللـه يسلمك ياأيات . بينما تعانى أيات من ضعف المخزون من كلمات المجاملة فبدت مرتجلة : شكلك زى ما هو ياهدى ما أتغيرتيش . دققت فيها : أنتى كمان ما تغيرتيش ياأيات وكأنى سايباكى أمبارح . تقبلت كلماتها بضحكة أعادت لوجهها نضارة قد فقدتها منذ تسع سنوات ثم بادرت بسحبها من يدها : كفاية كده ويااللا بينا نمشى من هنا . تحرك الجميع ودب فيهم نشاط عفوى بأتجاه السيارة يتقدمهم يوسف كى يفسح لهم ممرا بين الأجساد .

وبينما يمر موكب هدى فى حراسة أولادها كان هناك موكب أخر على مقربة منهم بقيادة "عبده الجن" وقد تهيأ لأستقبال حرمه وقد تلفف بالبياض كما لو أنه مكفن بالجلباب والطاقية الشبيكة وعلى يساره وقف منصور وجمال النونو فى حالة ترقب التى زالتا عنهما حين فغر عبده فمه الواسع وأنطلق فى ضحكـــة صفراء عندما وقعت عيناه على فايزة قبل أن يسبقه أبنه مندفعا بحماسة الشباب صوب أمه ، فأرتمـــى فى أحضانها لتبتلعه فى صدرها قبل أن تخرج منه كلمات لاهثة : وحشتينى أوى ياما .

ـ أنت أكتر يامنصور . يلحقهما عبده ملفوفا بعاطفة مفتعلة : كفارة يافايزة .. ألف مبروك ياختى واللـه تستاهليها . ألقت بنفسها بين ذراعيــه بحكم المشهد ومن خلف كتفية .. كتر خيرك ياعبده ياجن .. أنتظر النونو دوره وهو فى أشد درجات الفرح قبل أن ينحنى برأسه يقبل يدها : كفارة يامعلمة . ثم ألتفت إلى عبده ومنصور: أتبهدلنا من غيرك يامعلمة . رسمت إبتسامة متكلفة : خلاص يانونو من هنا ورايح مافيش بهدلة .

ـ ربنا مايحرمنا منك يافايزة . قال عبده ثم أصطحبها النونو وسارت إلى جواره بخطوات متمهلة بأتجاه سيارة التاكسى بينما عبده ومنصور يلهثان خلفهما حتى أستقر الجميع داخل التاكسى لتبدأ رحلة العودة إلى حارة المنجى .

فى نفس توقيت مغادرة فايزة وصحبتها كانت هدى قد أنحشرت فى سيارة أيات فى المقعد الخلفى بجوار الشباك وإلى جانبها بسمة ونورا التى غابت عينيها وراء نظارتها السوداء وقد تقلصت ملامحها بفعل ألم طارىء مصدره جلد المقعد الذى حولته الشمس إلى فرن حامى فتقلبن عليه كلما لمس جلده الملتهب مؤخراتهم. كانوا داخل السيارة فى عسـر وضيـق لا تكاد أحداهن أن تحرك كوعها من مكانه بينما أراحــت نورا رأسها فوق المسند العلوى للمقعد وبدا جانب وجهها غائما .. جربت أيات محرك السرعة وحررت مكابحها وبدأت تتحرك رويدا رويدا ثم أنطلقت إلى البوابة الرئيسية لتصلها فى لحظات .. وكان هناك جندى فى الأنتظار يغالب النعاس واقفا عند بابها وعلم مصر فى أعلى البوابة هابطا على صاريه ، إذ لم يكن هناك هواء يرفعه ويجعله يرفرف أو ربما لأسباب أخرى لا يعلمها إلا العلم!.. فتح البوابة وأنطلقت أيات كمن يهرب من عدو يلاحقه ، بينما لمحت عبر المرأة العاكسة مبنى السجن وباحته وهما يتضاءلان ويصغران فى مكانهما منارين بأشعة الشمس .. يضؤلان ويضؤلان حتى صارا نقطتين ثم نقطة مالبث الطريق والغبار أن أبتلعهما .

" هدى" عيناها شاخصتان إلى الطريق فيما يشبه الشرود . السجن والحراس ، كلاهما أنزاح للوراء . دخلا الماضى . رفعت وجهها وقربته من الشباك بأتجاه الشمس وعيناها مغمضتين ، تركت الأشعة الدافئة تمشى فوق جفونها ، أتخذ هذا الوضع لحظات قبل أن تفتحهما على مشهد أثار فيها خوفا وشجونا حين رأت سيارة ترحيلات السجن الزرقاء تسير عكس الأتجاه ناحية البوابة وقد أمتلأت عن آخرها بسكان جدد ستكون العنابر والزنازين مأوى لهم ، فقفز على الفور من ذاكرتها نفس المشهد وذات اللحظة وربما نفس السيارة وهى تقرأ فى نظراتهم من وراء شباك السيارة أستسلام قدرى كمن

يودع الحياة .. المشهد العابر جعلها تدرك سريعا أن للحياة فلسفة خاصة ليست خطا مستقيما لها بداية ونهاية كما تعلمنا من كتب الأولين ، بل هى دائرة لا أول لها ولآ آخر .. نرحل ونعود فى نفس الدائرة ليضيع أولها فى آخرها ، فأناس يبكيهم اللقاء وأخرين يبكيهم الفراق .. سحبت نفسا طويلا بطول السنين الماضية وهى تتأمل الشوارع تنفلت من بصرها مسرعة هاربة إلى الخلف . ذهنها بدا مثل الشوارع مشتتا باهتا تتزاحم به الهواجس والأفكار تفر دون قدرتها على الأمساك بخيط منها . قطعت أيات نصف المسافة فى طريق العودة بقيادة هادئة وأتزان نفسى مع صمت تام أصاب الجميع كالعدوى وكأنهم لازالوا فى مرحلة الأستيعاب قبل أن تقتحم أيات قلب دوامة الفوضى إلى وسط الأسكندرية ، فلم يخلو المشهد بعد من تبعات الثورة ، تحول قلب المدينة الى حالة مرضية ميئوس منها فأصاب الأنسداد شراايينه ولم يعد هناك مجال أو مكان لأى حركة ، صفوف من السيارات بالكاد تتحرك كسلحفاة عجوز وأصبحت الفوضى هى عين الحقيقة فى الأسكندرية .. نفخت أيات زفرة ساخنة وهى تردد : عمرى مافكرت أنى ممكن أسوق فى الوقت ده أبدا . لم يعلق أحد فأدارت الكاسيت تبحث عن مسكن لأعصابها ونظرت لهدى فى المرآة بحماسة قبل أن يركبها عفريت الأنسجام : حأسمعك شوية مزيكا حينسوكى السنين اللى فاتت كلها . أرسلت لها نبرة متعبة من خلال المرآة : لسة زى مأأنتى يا أيات المزيكا بتجرى فى دمك .

ـ المزيكا هى اللى مصبرانى على الأيام السودة دى . ألتفت اليها : الأيام جميلة ياعمتى أنتى بس اللى شايفاها سودة .

ـ طب أسمع وأنت ساكت يامتفاءل . علقت من محبسها بين أمها وأختها : على طول كده ياماما ناكر ونكير . تناهت إلى أذانهم موسيقى رتيبة ذات أيقاع واحد مطرد فى حين أنشغلت هدى عن الموسيقى بمتابعة الطريق والأنصات لبسمة التى لاتكف عن الوشوشة فى أذنها بلغة الهمس .. خرجت السيارة من دوامة الزحام بمعجزة وقدرة قادر والطريق أمامها يتثنى ويتلوى وهدى تتأمل بعين فاحصة شوارع مرت بها من قبل وقد كساها التراب وزينتها أكوام القمامة تحرسها أرصفة من دون بلاط وأشجار بلا أوراق ، فهزت رأسها كمدا : ياه دى أسكندرية عجزت أوى . خفضت أيات من صوت الموسيقى : هيه أسكندرية بس اللى عجزت .. مصر كلها شاخت وإنحنت .. البلد أتخطفت ياهدى ووقعت فى إيد ناس سايقين بينا بسرعة الصاروخ .. بس مش لقدام .. لورا ! . أستطاعت نورا أن تحرك يدها لتكتم

ضحكة : أصل عمتى بتكره الأخوان . قربت هدى رأسها فى أفا أيات : الناس بتقول أن مرسى وجماعته دول بتوع ربنا .

ـ ليه بس كده ياماما عمتى لما بتسمع الكلام ده الدنيا كلها بتتشقلب أدام عينيها . كانت جملة تحذيرية من بسمة قالتها حين أطلت أيات بسيارتها على شارع الكورنيش بعد أن أجتازت شارع بورسعيد بعد عناء وكأنها ولادة متعسرة قبل أن يلوى يوسف عنقه للخلف فى لهفة مخاطبا أمه : بصى شوفى الناس اللى على شمالك دول . تلفتت بنظراتها لتقع عينها على جمهور محتشد أمام مبنى أدارة شركة مياة الأسكندرية ومن خلفهم أنتشر عشرات من رجال الأمن المركزى وقد لاح فى عيونهم هلع مكشوف من الهتاف الحماسى للمحتشدين ، لم تدرك هدى حقيقة البلاء الذى نحياه لكنها من خلال اللافتات المرفوعة أدركت أن الغليان يتعلق بتظاهرة أحتجاج ضد رئيس الشركة لأجباره على تثبيت العمالة المؤقتة .. تشممت هدى الهواء الذى يحمل رائحة البحر فهاج شعورها برؤية القوارب والصيادين والناس والحبيبة فأحست بحاجة إلى أن يحيط بها وأن يحملها تيار هؤلاء الناس الذين لا تعرفهم وأن كان وجودهم ينعشها .. خرجت " آه " دون وعى منها وهى تحمل أحاسيس من الصعب أن يدركها من حولها ؟ .. أحساس يعبر عن هذا البلد ، دائما ما كان الكورنيش يغمر مشاعرها بالأطمئنان ويشعرها برحابة العالم وأتساعه وقدرة الأنسان على تغيير مكانه وبقائه حيا .. أرسلت نظرتها إلى أمتداد البحر حتى خط الأفق ، فوجدته محايدا ليس غاضبا ولامطيعا . فأبتسمت .. أحتواهم الصمت فى السيارة لدقائق وهى تتجه على مهل ناحية المنزل قبل أن تبادر أيات بسؤالها وهى تتفادى سربا من تلاميذ المدارس : تحبى ألف بيكى شوية ياهدى أفرجك على البلد . تعليق بسمة كان شافيا على هذا العرض السخيف : هيه أسكندرية بقت فيها شوارع عشان تلفى فيها . نظرة قاسية من عمتها : البركة فى مرسى . أحست هدى بنبضات قلبها تتسارع وشعرت بجسدها يرتفع فوق المقعد ومعه روحها كلما أقتربت السيارة من ميدان محطة الرمل ، حشدت ذهنها وتأهبت قبل أن تنتحر فى عقلها عشرات الأفكار والأسئلة حين وطأت السيارة شارع شامبليون الذى ينحشر كالعروس الخجول بين الكورنيش وشارع ترام بورسعيد وزاد تركيزها حين ظهر لها عن بعد الطوابق العليا من البناية فبدت وكأنها تروض نفسها لرؤيته فراحت تستعيد ملامحه وذكرياتها وتملكتها خواطر قلقة بين الماضى والحاضر تعبث برأسها ، إلا أنها نفضت عنها صراع اللحظة وهى تتابع السيارة تتهادى فى ظل صف من السيارات الخامدة على جانب الرصيف حتى أستقرت بهم أمام مدخل البيت .. لم يسحبها تأملها للبناية كثيرا ونزلت من بطن السيارة كالتائه بدون دليل يتبعها الباقيين ، بينما وقف نوح البواب فى محيط المدخل كالذى يحرس

منطقة نفوذه وهو يضيق فى عينيه محدقا فى الداخلين يزر رمشه يبحث فى ذاكرته عن أسم لهذا الوجه .. تسمرت حدقتيه وتوقفت رعشة جفنيه ثم أبتسم .. أبتسم طويلا ليخرج بعدها صوته ممتدا ساهما يخاطب زوجته المحنية على نفسها وقد أرتكزت على قدميها تكنس المدخل : شوفى يا أم نور مين اللى جاى علينا . لم ينتظر منها أجابة سعفته الذاكرة ثم هرول نحوهم وصوته يتهدج : الست هدى .. يأهلا يأهلا .. واللـه زمان ألف حمد اللـه على السلامة ، ظل يهز يدها بكلتا يديه الواهنتين وعظام وجنتيه أنفرجت عن أبتسامة : نورتى بيتك ياست هدى . وقف الجميع خلفها فى أنتظار نهاية سريعة لفرحة نوح وترحيبه بينما تطيل هدى التحديق فيه وتدنى وجهها منه : ربنا يخليك ياعم نوح .. المكان منور بيك ياراجل ياطيب . ضغطت على يديه فى عطف حين لمحت فيه الكهولة فأصابع كفه أصبحت عظاما وعيناه ضاقتا كثيرا ، بينما هبت أم نور تقبل كتفيها : واللـه أنا مامصدقة نفسى .. نورتى الدنيا ياست الكل .

ـ كتر خيرك يا أم نور . قالتها ثم تجاوز الجميع المدخل الواسع المعمول من الرخام الأبيض وصعدوا ست درجات تفضى إلى مكان المصعد ، بدت البناية شديدة النظافة ولا يخدش نظامها شيىء .

أحتواهم المصعد كفئران فى مصيدة ينتظرون الفرج بينما هدى فى مواجهة الباب كالأمام ومن خلفها المصلين ، بدت نظراتها مرتبكة وهى تتفحص سقف المصعد قبل أن تنقلها الى الطوابق التى تهبط أمام عينيها من شراعته المستطيلة ، توقف بهم فى الطابق الثالث محدثا " تكة " خفق لها قلبها قبل أن يشير لها يوسف : أفتحى الباب ياماما . دفعته على مرتين وكأنها لم يعد فيها جهد .. سارت ببطء بأتجاه الشقة ، خطوتين وألتفتت نحوهم وكأنها تطلب دعما فأرسلوا لها نظرات مشجعة قبل أن يتقدمها يوسف ويفتح باب الشقة بينما هى تراقب وتردد : سبحان اللـه .. سبحان اللـه حتى أدمعت عينيها .. فتح الباب وأنزاح للداخل وبقيت أمه متصدرة مدخله ، مدت رقبتها فأطلت برأسها ودارت بعينيها وكأنها تتأكد أن كان كل شيىء فى مكانه بينما تتطاير خيالات غير محددة تقطع أسترسالها وتبذل جهدا كى لا تحيد ببصرها حتى تنتهى من المعاينة التى لم تكتمل حين خرجت لها نعمة متلهفة صارخة : ألف حمد اللـه على السلامة .. ألف مبروك . أرتدت ملامح هدى وتراجعت شفتاها عن الأبتسام فقد أدهشتها حالة الضعف والعجز وايقاع خطوتها المترنح . سارعت إليها وضمتها فى رفق : أزيك يانعمة وحشتينى أوى واللـه . أنفتحت حنفية الدموع : البيت كان وحش من غيرك ياست هدى وربنا يعوضك خير عن السنين اللى فاتت .. تسندها : تعالى أقعدى يانعمة .

ـ معلش ياست هدى كتر خير الدنيا . تدخل يوسف : نعمة دى بتتدلع ولما تخف أن شاء اللـه حنشوفلها عريس . أنشغلت هدى تحاول أن تحدد مواضع الأشياء .. تسير ببطء وهى تلامس كل ما تمر به ثم دارت بجسدها دورة كاملة فى وسط الصالة وقد أستعادت بعض الثقة لتبدأ رحلة الطواف داخل المنزل ، تحركت بهرولة فى أرجائه وهى تطل من كل جانب فيه حتى سحبتها قدميها الـى باب

غرفتها تضغط على مقبضه بيد مرتعشة ، فتحته وأستقبلها ظلام الغرفة حيث شيش النافذة مغلقة فتحسست الجدار حتى عثرت على زر النور فأشرقت الأضاءة فيها وأثار جو الغرفة فى نفسها أشيـــاء قديمة كانت باهتة ، فلمعت وأتضحت وطفت بكل تفاصيلها من جديد فتقدمت إلى رأسها ذكرى تلك الليلة البعيدة وأول يوم لها فى الغرفـــة التى دخلتها كملكة متوجة يتقدمها زوجها الراحـــل مقدما لها فروض الطاعة والولاء . شبكت يديها خلف ظهرها وهى تتجول فى الغرفة تقرأ من كتاب الذكريات كل حدث فى كل ركن فيها ، بدا أن شعورا بالأمن والطمأنينة قـد أستولى عليها وبينما عينيها تجوب المكـــان تنشط الذاكرة فتتضح تفاصيل فى الغرفة لم تكن موجودة من قبل .. أختفت الستائر القطيفة التى كـان يعشقها نديم ويسميها " ستائر الرومانسية " كما أختفت النجفة الكريستال ذات الدلايات وصحونها الدائرية وأستبدلت بأخرى مودرن بلون النيكل .. مرآة الدولاب البلجيكى بها جرح قطعى بطول تلاتين سم خصم كثيرا من وقارها ، إلا أنها لم تقف عند تلك الأمور وبدأت تدير شريطا من الذكريات وهى تلمس صورة زوجها قبل أن تباغتها أيات من خلفها تنزعها من حديث هامس كانت على وشك أن تبدأه مع الراحل : كفاية عليكى سرحان ياهدى الأيام جاية كتير . قالتها وألتفتت خارج الغرفة تكمل باقى جملتها : هاتى يانورا لمامتك أى حاجة من عندك تلبسها .

ـ قبل أى حاجة لازم أخد دش الأول . قالتها كأمنية وتشكلت علـــى شفتيها أبتسامة سريعة ثم أردفت : أنتو مش عارفين قيمة النعمة اللى عندكم فى البيت .

ـ تقصدى الدش ياماما . قالت بسمة بسذاجة .

ـ أيوه ياحبيبتى اللى يعرف يستحمه فى السجن يبقى ربنا راضى عنه .

ـ أنسى بقى ياماما الأيام السوده اللى فاتت . كان تعليقا من يوسف فى حين أرادت أيات أن تختصر المشهد : ياريت تسيبوها ياولاد تأخذ الشاور بتاعها وتظبط نفسها .

دخلت هدى الحمام فى حراسة بسمة ونورا التى سلمتها غيارا وبرنس وفوطـة ، حاولت أن تستعيـد طقوسها القديمة فى الأستحمام .. خلعت ملابسها بتردد وهى تستعيد جو المكان .. وقفت داخل البانيو وفتحت الدش فوق رأسهـا لتحقق لنفسها ماكان يراودها وهى أسيرة . أرخت رأسها للخلف متلقفة دفعات الماء على وجههـا مغمضة العينين مفتوحة الفم بينما تسرى فيها رعشة حين ينسال الماء ساخنا يدغدغ أعصابها وعضلاتها بينما رغوة الصابون تتجمع بين ساقيها المضمومتين .. نصف ساعة تحت الماء أعادت لوجهها الحياة وأستعادت دورتها الدموية نشاطها قبل أن تخرج منكمشة داخل برنس نورا الأبيض التى بدت فيه أصغر سنا وشعرها المبتل يلتصق بجانب وجهها وهى تقرع أسنانها، فأقتادتها بسمة حتى باب الغرفة مشددة : عايزاكى تدخلى تنامى ياماما وتريحى جسمك على الأخر ولما تصحى حنرغى أنا وأنتى للصبح . ثم ودعتها بقبلة .. دارت حول نفسها فى الغرفة وأقتربت من المرآة تنظر لوجهها وهى العادة التى توقفت عن ممارستها منذ دخولها السجن .. أتجهت ببصرها إلى أعماق العينين المرسومتين أمامها فى المرأة وبدا طيف أبتسامة فاترة يتموج على شفتيها المتقلصتين .. أستطاعت أخيرا من أن تكتشف فى عينيها المعانى القديمة المألوفة لديها .. ها قد عرفت نفسها ووفقت بين الصورة وبين الأصل .. تحركت بأتجاه السرير . وقفت تتأمله كثيرا قبل أن تتحسسه بيدها .. ثم أستلقت عليه وهى تخشى إلا تستطيع نوما لفرط ما بها من قلق وفرح وما يتقاذفها من متناقضات .. أستطلعت كل جزء فى الغرفة من مكانها ، مازالت لا تصدق أنها قبل ساعة من الآن كانت السجينة هدى عبد الفتاح .. سبحان مغير الأحوال .. لم يكن لديها وقت لتصاب بالدهشة المفرطة لأنها بالفعل أنزلقت سريعا وبنعومة مبهرة فى نوم هادىء دون أن تصطدم بحواجز الأرق والفرحة .

0000000000000000

قبل أربعين دقيقة غادر تاكسى " اللادا " موقع السجن وفى جوفه فايزة يجاورها أبنها فى الخلف بينما عبده فى الصدارة بجانب النونو . أستكانت فايزة لفترة كانت توزع فيها نظراتها بين الطريق وبينهم وحواسها كانت تستجيب لأدنى أشارة تصدرعنهم .. أبتسم النونو نصف أبتسامة وخاطبها من خلال المرآة : البشر فى كرموز متلهفين يشوفوكى ياست الكل . رفعت ذقنها فى شموخ : طبعا ياوله مش ناسى وأهل حتتى . يقابلها بأسنان صفراء تظهر عبر المرآة على أثر ضحكة واسعة : واللـه عندك حق .. المعلم كمال الأخرس وشلته وكل تجار القماش مسيحين ومسلمين الكل مستنى عند القهوة ده غير الحبايب والجيران الكل جاى يجامل وكمان .. أنقطع حبل كلماته فجأة وألتهبت ملامحه حين خرجت

عليه سيارة " هيونداى" من شارع جانبى ومرت أمامه بسرعة فتحول برأسه ناحيتها معاتبا بلطف : هو أنت فاكر نفسك سايق فى الصحراوى ده أنت حمار أبن وسخة ، وضعت يدها على كتفه مثنية على أدائه وهى ترمى بالمعنى تجاه عبده : جدع يانونو ، هو ده الصح واللى مايعرفش فى الأصول ويغلط ياخد على دماغه . قالتها وظلت ترمقه بنظرة تحمل أشارة الوعيد بينما شعر عبده بوخز نظراتها يخترق جانب وجهه فتمتم : أسترها يارب !. عادت تستفسر : كملى ياوله مين تانى مستنى . يتابعها فى المرآة : بقولك البشر كلهم نسوان ورجالة كبار وصغار كله فى الأنتظار . ثم وارب جفنيه وخفت صوته وخرجت منه عبارة خجولة : والعبد للـه أتفقلك مع فرقة من عندنا عشان تقدم التحيه وكله فضلة خيرك . عقدت أصبعيها تحت ذقنها مستغربة : يعنى أنت يانونو اللى بلغت الناس بميعاد خروجى وأنت اللى جهزت المسائل وكمان أتفقت مع فرقة .. يكونش أنا أرملة ومش واخدة بالى .. ده زى مايكون الجحش اللى قاعد جنبك متوفى . ثأثىء الأخير مضطربا وضم رجليه المفتوحتين : أزاى بس الكلام ده يافايزة . ثم لكزه فى فخذه يذكره : ماتقولها مين اللى علق النور داير مايدور فى القهوة ومين اللى من أمبارح بيجهز المكان وعينيه ماشافتش النوم .. ماتقولها يانونو . فى حين برأ منصور نفسه : عارفة ياما أول ما أبويا بلغنى بالخبر من فرحتى بقيت زى المجنون و مشاريب الزباين كلها خلتها على حسابى . أبتلعت كلماته بتأفف : شاطر زى اللى جابك .

ضاقت وأنكمشت المسافة المتبقية للوصول إلى كرموز بينما لم يتوقف النونو عن الرغى طول الطريق وكأنه أكتشف فجأة أن لديه حاسة الكلام ، سمعت منه فايزة ملخصا مؤجزا عن التاكسى وأيراداته وصيانته وعن محمود المحامى وتفاصيل التعامل معه ثم معرجا على أحوال الحارة وسكانها وعن العيشة واللى عايشنها .. ظل النونو على هذا الحال يتلو الأخبار على شكل عناوين فى حين لم يسمع صوت لعبده ولاحركة سوى أبتسامة يتيمة يظهرها كلما لوى رقبته ليناولها سيجارة ثم سرعان ماتموت على شفتيه قبل أن يلازمه الصداع كصديق وفى . أكتفت فايزة بما سمعته من صبيها وتحولت بنظراتها ناحية منصور : وأنت ياحيلة مافيش حاجة عايز تقولهالى . زحف بظهره معتدلا : ما أستغناش ياما . بينما توارت رقبة عبده إلى داخل كتفيه كأنما يتفادى لكمة حين شعر أن دوره هو التالى إلا أنها تخطته عندما لاحت أمام عينيها منطقة سوق الجمعة وهى أول حدود كرموز الجغرافية التى بدأت تتضح معالمها على مدى الشوف فأعتدلت وأستقامت بظهرها وأصلحت أيشاربها ولم تخف أحساسها بالعظمة فى حين يردد النونو : حمد اللـه على السلامة يامعلمة نورتى المنطقة . ويؤمن عليه عبده : أى واللـه ياوله يانونو . توغل التاكسى إلى قلب كرموز النابض وغاص فى حواريها قبل أن يتسلل إلى أذنيها

صوت رجالى منغم من خلال ميكرفون لايزال أرساله بعيدا : عيلة حودة القط والحاج سلمان وأبو نادية بيقولوا حمد اللـه ع السلامةوكفارة يامعلمة . سحبت نفسا متكبرا وأنتفخت رقبتها : دى الحبايب كلهم متجمعين . قبل حارتين من حارة المناجيلى أستقبل الناس بالضجيج والفرح مرور التاكسى على أراضيهم فأختلطت كلمات الترحاب بهمسات النميمة وأستحوذت كلمة " كفارة" على نصيب الأسد ترددها الألسنة عشرات المرات فى حين تطوع أشبال الحوارى بالجرى والدفع والطراخ وراء التاكسى بينما واجهتهم فايزة بهزات من رأسها وتحية صامتة مع كف تلوح بها .

دخل النونو بالتاكسى حارة المناجيلى دخول الفاتحين ويده على النفير لم تفارقه ، فتحرك حشد المنتظرين وأحاط بالسيارة وبدت فرحة بلا منطق .. صخب وزغاريد وأيقاعات موسيقية مدوية تنخر فى الأدمغة مصدرها " فرقة اللول الشعبية " وهى واحدة من الفرق العريقة فى كرموز والمدربة على مواجهة الجماهير والألتحام معها ، فتقدم رجال الفرقة الأشداء وقد أنتفخت وجوههم بفعل مزمارا يصرخون فيه وقد شقوا الصفوف وصولا للتاكسى قبل أن تخرج منه فايزة بعد أن فشل النونو فى الوصول الى مدخل المقهى .. أرتفعت النغمات فى حماس على لحن " سالمة ياسلامة رحنا وجينا بالسلامة " بينما تدافع نحوها نسوان الحارة كأجراء ضرورى لأثبات الحضور وليتحول صدغيها الى مرمى يستقبل قبلات محمومة ومباركات قبل أن يتصدى لهن منصور منحشرا كعازل فى حين أفسح النونو وعبده مجالا لها للمرور وهى تدلى رأسها فى تحية ثم ترفع كفيها على رأسها ثم صدرها كما تلقت مجموعة من التهانى خلال مسيرتها بأتجاه المدخل من كبار تجار كرموز التى كان لها باع فى التعامل معهم ..أتخذ هذا الوضع منها عشر دقائق قبل أن تطأ قدميها أعتاب المقهى والتى زينت واجهتها بلمبات من فئة الـ 100 واط بشتى الألوان بينما طاف جمعه فى نشاط وهمة على الجميع بأكواب الشربات بلونها الأحمر الصارخ فى حين تشكلت دائرة حول فايزة من المهنئين قبل أن تنتبه فجأة على أنحسار الصخب وخفوت صوت مقدم التحيات فى الميكرفون حتى خرس تماما وتحول الرغى إلى كلمات متقطعة حتى تلاشت إلى همس ، فأرسلت نظراتها من بين أجساد الدائرة تستطلع حتى ألتقطت عينيها مشهدا غريبا ومفاجئا حين رأت مجموعة من الشباب لا يتجاوز عددهم الخمسين فردا ولاتزيد أعمارهم عن بدايات العشرينات يتقدمون بخطوات منتظمة كفرقة كشافة رافعين لافتة كبيرة مكتوب عليها " ائتلاف حارة عسليةيبارك عودة المعلمة فايزة الى حارة المناجيلى " حضورهم المفاجىء أصاب الجميع بالدهشة والأستغراب وعلى رأسهم فايزة وقيادات الحارة ، الجميع يعلم حجم الخصومة الشديدة بين الحارتين وأن كان سببها الرئيسى مازال تحت البحث والدراسة وإن كانت هناك

أقاويل تتناسل كالعادة تتردد من هنا وهناك عن أن أفرادا من حارة عسلية منشقين عن الأئتلاف قد هجموا فى ليلة مظلمة على مقر جبهة حارة المناجيلى فى " زقاق نمنم " والذى أسفرعن ثلاث أصابات فى صفوف المدافعين من الجبهة وأستيلاء المجموعة المهاجمة على فردين خرطوش وكمية من السيوف والسنج أضافة إلى مائة زجاجة مولوتوف ، ومنذ ذلك اليوم لا تنقطع التحرشات والمناوشات بين الحارتين من حين لاخر وأن كانت هناك محاولات من بعض السلفيين من رواد مسجد " العزة للأسلام" لعقد حوارات مصالحة بين الطرفين بصفتهم وسيط محايد إلا إنها باءت بالفشل ، لذلك رأى أصحاب العقل والرأى النافذ فى الأئتلاف أغتنام فرصة خروج فايزة من السجن لتكون بادرة خير فى أتجاه مصالحة شاملة .. تقدم " نعناعة " وهو قيادى بارز بخطوات منحرفة يجر قدمه العرجاء نتيجة عن أصابة مباشرة تعرض لها أبان ثورة العطارين التى أندلعت العام الماضى بسبب قرارأصدره مجموعة من العواطلية بتحويل شارع الأمير " أحمد رفعت " وهو أحد الطرق الرئيسية التى يربط نهاية شارع العطارين بشارع عمود السوارى إلى سوق شعبى وأفترشوا فيه بضاعتهم بطول الشارع وعرضه إلا أن أمن الأسكندرية أنتفض ورفض هذا السلوك وباغتهم بحملة مكبرة أزالت البشر والحجر فأنفجرت الثورة وتصدر الباعة المشهد وأنضم اليهم مجموعات من المسجلين ودارت معركة شرسة لفرض الأرادة والسيطرة أستمرت تلات أيام متتالية أستطاع خلالها أبطال العطارين أن يقهروا قوات الأمن وكان لهم ماأرادوا حتى بات الشارع ذكرى . أقترب " نعناعة " من موقع فايزة التى شدت صدرها ورفعته فى شموخ وهى تنصت لكلمات الترحيب التى يلقيها فى هيئة بيان مقتضب أنهاه بعبارة " اللـه الموفق والمستعان " ثم تقدم إليها وأنحنى برأسه وهو يمد لها علم مصر مطويا فتسلمته ثم قلبته بين يديها تبحث داخله عن هدية أو تذكار ، لكنها لم تجد شيئا فتجهم وجهها وأنحنت برأسها تقبل العلم فى مشهد مفعم بالوطنية وبنبض الثورة !.. وما أن تسلمته حتى شاع الفرح والزغاريد وهتفت الحناجر " حارة عسلية وحارة المناجيلى أيد واحدة " فأهتزت بيوت الحارة الواهنة وتعلقت الأبصار بفايزة حين أستندت بيدها على منصور وعبده كعكازين لرفعها على الكرسى الذى أمتطته واقفة ثم دارت بعينيها فى الوجوه تستمتع بالمجد ثم سحبت أطول نفس يمكنها أن تسحبه من حنايا صدرها وأنطلقت تتكلم بعفوية : كتر خيركم ياحبايبى ياأهلى وناسى .. تصفيق يعقبه زغاريد فتشير لهم بيدها لتهدأتهم : أنا اللى عايزة أقوله أن ربنا كرمنى ومدتى فى السجن عدت على خير وسلام وإن شاء اللـه اللى جاى معاكم هنا فى حارتنا حيكون أحسن .. بس الصبر شوية لغاية مأخد نفسى وأشوف الدنيا بقت رايحة لفين وعن قريب إن شاء اللـه حارجع أشتغل تانى وحتشوفو بعينيكو أحلى بضاعة وأحسن

ماركات وكل اللى نفسكم فيه أنا حأجيبه وبرضه على قديمه بالتنقيط مش بالتقسيط واللى عايزة تجهز وتشور بنتها ماتشغلش بالها طول ما أنا موجودة واللى عايزة تأسس بيتها وتكمل الناقص بعون اللـه كله سهل وعندى . قوبلت كلماتها بهيجان وفوران من الحماس قبل أن تهبط من كرسيها مستندة على كتفى النونو التى همست فى أذنه : كفاية لحد كده ولم الدور أنا تعبانة وعايزة أروح بيتى . تدخل عبده بعد أن ألتقطها : حاضر يافايزة حاضر ياختى .

أنفض المولد أمام المقهى وتم سحب فايزة إلى بيتها سيرا على الأقدام فى رحلة لم تستغرق سوى عشر دقائق .. وقفت عند عتبة شقتها بعد أن شكرت وودعت المهنئين ومن خلفها كالعادة فى تلك المناسبات بعض الصحبة من الجيران والمقربين بينما وقفت هى تستطلع الشقة وتتقصى مافيها ، ودون أرادة منها تعلقت عينيها بصورة زفافها المتصدرة حائط الصالة المواجه لباب الشقة وقد بدا فيها " عبده " نحيفا طويلا وياقة قميصه الأبيض أكبر من مقاسه بنمرتين بينما هى تتعلق بذراعه وأسندت رأسهاعلى كتفه وهو يلف ذراعه بأحكام حول خصرها وكان يضحك غير أنه بدا وكأنه يريد ـ أحتراما للصورة ــ أن يقيد فرحته ويبدو عريسا رصينا ، فغلبته الضحكة وظهر معلقا بين الحالتين .. بعد عملية جرد سريعة لمحتويات الشقة تربعت فايزة على رأس جلسة جمعت فيها صديقاتها وجيرانها من حارة المناجيلى وبعض الحوارى المجاورة ، أحاطت بها نسوة لهن مثل مالها من وقاحة خبيثة وبذاءة فى الأشارة والقول وأمامهن صينية عليها براد شاى بناء على طلب من فايزة لعله يعدل ما أصاب رأسهـــا من صداع فتطوع النونو فى تجهيزه ، أسهبت فايزة فى السرد وحكت الكثير والكثير عن بطولات ومغامرات لها فى السجن فأستولت على عقل من كانت على يمينها وهى أمرأة بيضاء الجلد ممتلئة أكثر مما يلزم لأمرأة واحدة ويناديها أهل الحارة بـ " نجية جيلى " وأخرى على يسارها بلا معالم معدومة التضاريس وبدون فواصل ينقصها القعر والسقف وأمامها جلست سمراء مهزولة تحفظ قاموسا من النكات المكشوفة أثارت بها موجات من الصهللة ، كانت معانيها فاجرة تلقيها دون حياء وبطابع سوقى مبتذل تجعل منها نموذجا فاضحا لحرائر " زقاق النص " محل أقامتها وهو متفرع من حارة المناجيلى الذى لايدخله من حلاوة العيش نور . مرت ساعة وصار البيت شبه خالى بعد أن أنسحبت النسوة واحدة فى أثر واحدة وما تبقى غير " أم الشحات " أما الرجال فلم يكن هناك سوى عبده ومنصور وجمال النونو قبل أن تنصرف أم الشحات وفى ذيلها منصور بصحبة النونو وخلت الساحة تماما إلا من عبده فى مواجهة فايزة التى تفحصته وهو خاضع أمامها فمسحته بنظرة من أعلى إلى أسفل وكأنها تعيد تقييمه إلى أن قالت : أنا داخله أستحمه أغسل جسمى من أرف السجن وبلاويه.

فتح فمه عن أخره مبتسما : لازم يافوز وأنا مستنى فى الأوضة . عشر دقائق أنهت فيها مراسم الأستحمام ، غسلت كعبيها بالحجر وسلخت لحمها بالماء الساخن حتى عاد لونه الأصلى ثم تكحلت وخرجت منه غير مادخلت وبدت وكأنها تستعيد أمرأة كاملة ولت عنها منذ أعوام .

أستلقت على السرير بقميص نوم أسود خفيف ، فردت ساقيها أمام عبده ينتظران بلهفة لحظة الألتحام فبدأ معها نوعا من المداعبة بينما هى لاتتمنع بل تركته يتلمس أجزاءها ويتحسس خريطتها بينما عينيه تدور فى جسدها بنظرة متأففة .. كم كان يتمنى أن يكون لها خصر يفصل الذى فوق عن الذى تحت كخصر " كريمة " أخر زواج عرفى أو يكون لها صدر بنهدين كعصفورتين طليقين بدلا من هاتين الكومتين من اللحم المتدليتين إلى بطنها فى حين كان جسمها ينتظر طائعا بعد سنوات الحرمان بينما أصابع عبده تتحرق نحو الرقبة وهى ساهمة فى رضا فزادت الحماسة وتسارعت الأصابع كى تغزو مناطق جديدة ، وفى مشهد مباغت قبل أن ينهى حديث الأصابع فك عبده أزرار جلبابه وراح يخلعه ثم سحب سرواله فى حركة خاطفة وقذف به إلى وسط الغرفة ليخرج السروال خارج المشهد قبل أن يضيق بوجود " الفانيلا " على لحمه ويطيح بها بجوار السرير ولم يبق سوى لباسه الأخير فأندفع إلى جوارها حتى أندفست هى معه تحت البطانية وبدأ الألتحام وراحا يستخدمان الآذرع والأرجل بشكل عشوائى وعاشا فى لحظات فيما يشبه الأغماءة وهما يخوضان فى حلكة عمياء تحت البطانية معركة البحث عن اللذه بلا بصر ولا بصيرة متعمدا أن يكون شرسا وعنيفا مما أثار حنقها وجزعها حتى أنتهى فدفعته عنها فى غيظ : قوم كتك الأرف ده أنت حمار . أخلى سبيلها محتلا مكانا إلى جوارها بينما تحولت هى إلى كيان منكوش الشعر مجهدة الملامح بعد ممارسة لا تشبع ولا تروى فبدت منتهكة وغاضبة بينما هو يلهث للحظات ثم هزته دفعة من السعال فشلت فى خنقه مرات عديدة وأستدار على جنبه لاصقا صدره بظهرها المتقوس كأنما عادت إلى رحم أمها وشكل أنحناءة جسمه على رسمها وفحيح أنفاسه التى تلهب ظهرها جعلتها تتململ وقالت والوخم يغلف كلماتها وقد تعمدت أن ترفع صوتها بعد تثائب أخفته وراء كفها : أبعد شويه الدنيا حر .. أدار ظهره لها يستدعى النوم .

الفصل الخامس

فى يومها التالى فى عالم الحرية أرادت هدى أن تحقق لنفسها أمنية طالما راودتها طيلة فترة سجنها وهى زيارة قبر نديم .

هنا فى المقابر .. الزمن واحد والليل والنهار واحد .. والصمت واحد . الموتى كل منهم لايملك أكثر من مساحة حجمه . أقتربت هدى من مدفن أسرة نديم الذى يقع على يسار البوابة الرئيسية لجبانة المنارة تتبعها أيات وبجانبها بسمة ، أجتازت باب المدفن المنخفض بأنحناءة حيث أن أرتفاعه عن الأرض لا يتجاوز المتر وكأن الذين بنوه قد قصدوا أن ينحنى له داخلوه .

أستقبلت هدى قبره برعشة وكأنه زلزال ضرب كيانها . كانت مأخوذة بقبره بأنخطافة تدعوها للتكوم ، فجثت على كعبيها صامتة تتأمل القبر وكأنها ترى شيئا لا تراه الواقفتان خلفها . فأيات تراقبها وقد شبكت يديها على بطنها وقد جف وجهها وجفت عيناها بينما بسمة ترصد المشهد من وراء أمها تراقب المكان الملفوف برهبة الموت وجو الغموض القاتم بفعل أضاءة قليلة متسربة خلفهم على أستحياء من باب المدفن . فى حين شعرت هدى بالثورة فى نفسها وهاج شعورها وأحست بفداحة الفراق ، فبالرغم من مرور تلك السنوات لم تبهت ذكراه أبدا ودائما ماكانت تتحدث عنه وإليه بنفس الصوت الخاص القديم الذى أعتاده منها نديم ، إلا إنها لم تعد تستطيعه الأن .. صوت لم تعد تجده .. تتحدث بلا كلمات وكأنه يفهم عنها كل شيىء .

قرآن الفاتحة كان بداية المراسم الذى ألهب الحماس وجدد الأحزان بينما هدى أنحصر فكرها وهى فى هذه الصحبة إلى تحليلات وتأملات وهى تغوص بكيانها فى أعماق قبر نزلت اليه ذات يوم جثة رجل كان أليف ماندتها وشريك فراشها ثم خبأتها الأرض التى أكلتها وهضمتها وتطوى صفحة قصيرة من كتاب حياتها .

أخبارية سريعة من عم " بكر " حارس الجبانة جاء على أثرها عم " السيد " التربى يسحب فى يده مقرىء .. خلعا نعليهما وجلسا أمام القبر فى خشوع .. شرع المقرىء يرتل القرآن فى عجالة دون أجادة ، لم يبلغ فى نفوسهم جلال الأيات ولم يومض فى صدورهم المعانى الغالية ثم قفز بينهم فيتلو دعواته .. يجف ريقهم من سرعة وكثرة التـأمين على دعائه الذى أنهمر كالسيل .. أمين الأخيرة يقولها معهم ويمطها .. أميــن .. قالتها هدى ونفحتهما أيات ببعض الجنيهات قبل أن يختفيا عن العيون فى سرعة البرق بينما جلست هدى فى مكانها تتلو أيات من القرآن مما حفظته تحت أشراف " الحاجة زينب " فى مسجد السجن وبدأت متحمسة تقرأ القرآن .. كان واضحا الفارق بين القراءتين فتجلت المعانى القرآنية فى تلاوتها وتدريجيا شرع صوتها يتوتر ويختلج وبدأ يتعثر إلى أن سيطر النشيج المرتعش وأنهمرت الدموع وأهتز جسدها فى عنف بينما دعتها أيات للصمود بعد أن أخذت نفسا

عميقا وبحثت داخلها عن شيىء من التماسك والقوة : كفاية كده ياهدى وأدعيله بالرحمة . ترددت فى أخراج صوتها قبل أن تعثر على نبرة خالية من الحشرجة : نديم وحشنى أوى يأأيات كان نفسى يبقى جنبى .. كان حبيبى وأخويا وصاحبى . قالت عبارتها ثم أكملت " سورة الرحمن " ودعت له بالرحمة وبجنات النعيم ثم غلبها البكاء مرة أخرى . فاضت دموعها وتابعتاها بينما نزلت بسمة على ركبتيها وأصبحت فى محاذاة وجه أمها : ياله بينا ياماما قومى معايا . غادرن باب المدفن كما دخلن بأنحناءة .. خرجن كأحصنة متعبة تنهى السباق .. واجهن جنازة تتقدم وحملة النعش يركضون وكأنما يسحبهم النعش نحو المقابر .

00000000000

سحب " خيرى علم الدين " نفسا عميقا بعد مكالمة قصيرة من صديقه " برسوم " أبلغه فيها بتأجيل الأجتماع المقرر يوم الخميس فى السابعة مساء بمقر جريدة " أسكندرية اليوم " إلى صباح اليوم التالى فى التاسعة والنصف لأنشغال بعض الأعضاء فى التحضير لحملة " تمرد " التى تجوب الأسكندرية طولا وعرضا لسحب الثقة من الرئيس مرسى ، وجد خيرى فى ترحيل الموعد لعدة ساعات فرصة لأنهاء ما بدأه حيث قضى ساعات طويلة خلال الأيام الماضية عاكفا على مكتبه الصغير فى غرفة نومه يضع تصورات تفصيلية عن تلك المرحلة .. شرح فيها كل شيىء من وجهة نظره حاضرها ومستقبلها حتى تفككت أعضائه .

أراد خيرى من وراء كتاباته رصد تفصيلات المشهد السياسى من كل جوانبه والوصول إلى منطق جديد يستطيع طرحه غدا على مجموعة الأعضاء من واقع أيمانه الشديد بأنه لابد من أفكار وخطوات واضحة ومبتكرة تميز عمل تلك المجموعة عن باقى المجموعات والحركات والأحزاب الموجودة حاليا على الساحة ، فأعد مجموعة من الأفكار والبرامج رأى فيها تطورا وشكلا جديدا من أشكال المقاومة للنظام الأخوانى الحاكم ، ساعده فى ذلك تميزه الفطرى ، فهو يتأمل " الفكرة " قبل أن يقدم على تنفيذها .. أنه يتعذب كثيرا وهو يكتشف فى لحظة عيبا مؤلما فى أداء القوى السياسية كافة ، فمعظمهم ببغاوات مهرجة بينها وبين دهاء السياسة مابين قرد الغابة وحكمة الفلاسفة ، أما أداء مايسمى " القوى الليبرالية أو المدنية " فوجد فيه هزال سقيم ، فعندما يصغى اليهم مستمعا لحواراتهم فى برامج

التليفزيون فى بعض الليالى ، فالشيىء الوحيد الذى يعود به الى سريره وجعا شديدا فى عضلات معدته وأنتفاخ فى الخصيتين !.

أخيرا أنهى خيرى مابدأه فى الرابعة فجرا حتى ثقل جفناه وداهمه النوم ، لكنه قاوم ، وان لم يفعل فالصباح سيفر منه .. صلى الفجر فى غرفته أمام مكتبه ثم تمدد على السرير يصارع النوم حتى هزمه بصعوبة وطلع النهار وقبل أن يبيض تماما قام مترنحا من فراشه حتى بلغ الحمام ووقف أمام الحوض حتى تجرأ وأنحنى برأسه يستقبل الماء البارد من الصنبور حتى غمر رأسه وقفاه وتدحرج إلى سلسلة الظهر .. أفاق ثم أرتدى بدلته " الفيرانى " وقميص سماوى وكرافت كحلى ثم نظر إلى وجهه فى المرآة.. وعدل وضعه ومر بيده على شعر رأسه .. أمعن النظر فى تلك الهالة الرمادية التى أحاطت بالعينين ، ومضةأسى . كان يقينه يتحقق وسحبت الأربعين الخمسين من العمر . كان قانعا بما سينتهى به المطاف ، مرتديا أخر عمره طاقية بيضاء على جلباب أبيض تاركا لحيته ليبدو مثل أولياء اللـه .. ولكنه لم يلبث أن أتهم نفسه بالنرجسية وأشاح بوجهه وهو يدرك أن حساب العمر اليوم يتم بالخصم لا بالأضافة .. تماسك حتى لاتنسيه اللحظة العبثية ما هو مهيأ لتنفيذه ومستعد للقيام به . جمع أوراقه المتناثرة وحبس أنفاسه وخيل إليه أنه يملك قوة شمشون فأحكم أصابعه كلها حول كومة الأوراق ودسها داخل حقيبته " السمسونيت " ثم جذبها بعد أن أغلقها بأحكام وهو يقول محركا رأسه وكتفيه : على اللـه يقدروا يفهموا اللى أنا كتبته فى الورق ده . كان يشعر أن الأوراق دونه بلا معنى وبلا شخصية . مجرد أوراق . مضى يحس بنشوة لم يمارسها و أخذ يستعد للمهمة الجليلة .

تمام التاسعة صباحا .. يتدفق خيرى إلى الشارع بقدميه سيرا إلى مقر جريدة " إسكندرية اليوم " بمنطقة الأزاريطة التى لا تبعد عن منزله سوى عشرون دقيقة مشيا .. تململ فى مشيته ، فالشمس بدأت تغضب وتصب لعناتها وتستعرض قدرتها على حرق الوجوه .. يسير ولا يعبأ بالسيارات التى بدأت تصرخ وتذكره أن اليوم بدأ بالفعل . زادت حيويته ودب فيه الحماس حين عبر الشارع بأتجاه المبنى ، أستقبل المدخل بنشاط وأندفاعة قبل أن تستوقفه مجموعة لافتات تزاحمت على جدران المدخل تشيرإلى أسماء أطباء ومعمل تحاليل ومكاتب محاماة بحث فيهم بعينيه حتى عثر على لافتة صغيرة محشورة فى زاوية خافتة تحمل أسم جريدة إسكندرية اليوم فمنحها نظرة عطف قبل أن يصعد السلم المرمرى ليواجه بتنويه صادم كتب بخط أسود كئيب " المصعد معطل" .. من بئرالسلم تطلع إلى أعلى بعينين تدور مع السلالم صاعدا دورا فدورا .. فقد كثيرا من همته ونشاطه حين بلغ طابق الجريدة.. وقف للحظات يحاول

تنظيم أنفاسه ثم دخل على أستحياء قبل أن تلتقط أذنيه أصوات صادرة من مكان ما بالداخل ، كانت متفاوتة الطبقات بين المنخفضة والمحتدة والعاقلة ؟، فأبطأ خطوته وبدا كمستكشف وهو يتخبط بنظراته فى طرقة نحيفة طويلة حينها أدرك أنه بحاجة لأستعمال موبايله.. رنة واحدة منه كانت كافية لخروج " برسوم " مهرولا من تلك الزاوية المخفية التى لا ترى عبر الطرقة .. رمقه خيرى فى صمت قبل أن يصل إليه برسوم بوجه محتقن : أيه اللى أخرك كده ياخيرى . جال برأسه متفقدا : همه الأحرار وصلوا . قالها بأبتسامة وسارا حتى نهاية الطرقة ثم أنحرفا بأتجاه الزاوية ومنها إلى قاعة كبيرة تضم مجموعة رجال بكامل عددهم كمانوه سابقا الأستاذ برسوم وقد ألتفوا كسوار من لحم بشرى يحتضنون مائدة مستديرة لاتبعد سوى مترين عن منصة صغيرة بها ميكروفون وفى خلفيتها شعار الجريدة . سحب "برسوم " صديقه من يده الذى تأخر بخطوة قبل أن يعد له كرسيا إلى جواره مخاطبا الجمع المترقب : أحب أعرفكم بالأستاذ خيرى علم الدين زميلى وصديق عمرى وزماقلتلكم قبل كده أنه صاحب رؤية وله وجهة نظر ووجوده معانا حيساعدنا كتير خصوصا فى المرحلة دى .. تعليقات تحمل ترحيبا وقبولا قابلها خيرى بأبتسامة وتحية صامتة .. فى حين أستهل بدايات الحديث رجل بدين وقور الملامح فى منتصف الخمسينات له نظرة مباشرة ونبرة هادئة ينادونه بالأستاذ " دراز " وهو مالك الجريدة . أعتدل ناطقا : فى البداية بأرحب بيكم كلكم وبأكرر أسفى على تغيير الميعاد وأن كان السبب مقبول لأن أى تحرك بأتجاه أسقاط الأخوان ورئيسهم أحنا معاه وبندعمه . عشر دقائق كاملة أستغرقتها كلمة الأستاذ " دراز" أنهى فيها المقدمة الترحيبية قبل أن ينتقل إلى سرد الأحداث التى وقعت فى الأسبوع الماضى حسب ترتيبها الزمنى دون تعقيب أو تعليق حتى أنتهى عند أخر حدث : وتقريبا كده معظم أحياء أسكندرية وقعت على أستمارة تمرد وده يعتبر تحول كبير فى خريطة مواجهة الأخوان وده اللى حناقشه النهاردة . ختم نشرة الأخبار ثم أرسل أبتسامة مفاجئة بأتجاه خيرى : وأحب أقدم تحياتى وترحيب المجموعة كلها بالأستاذ خيرى على تفضله وحضوره معانا النهاردة . أستقبل الأخير الكلمات بكحة مصطنعة : الحقيقة أنا اللى زادنى شرف بحضورى هنا وسط المجموعة المحترمة دى اللى بتحب بلدها وخايفة عليها من مصير مجهول وأتمنى أن المناقشات وعرض وجهات النظر تقدرتساعدنا على وضع خطة واقعية ممكن ترجمتها على الأرض . قاطع برسوم : أن شاء اللـه المناقشات حتتم ياأستاذ خيرى بس ياريت تتفضل الأول على المنصة تسمعنا رؤيتك وتعرفنا وجهة نظرك . قالها ثم نهض واقفا وأزاح كرسيه ليمر خيرى بأتجاه المنصه بعد أن فتح حقيبته وأخرج منها كومة أوراقه .. بلغها ببطء ثم بسط أوراقه على المنصه قبل أن يسحب واحدة منها ويقربها أمام عينيه ثم شرع يقرأ

ما كتبه : بسم اللـه الرحمن الرحيم .. أحب أوجه التحيه .. ثم سكت فجأة ولم يكمل بدا كالأخرس .. رفع عينيه وتأمل الوجوه المنتبهة ثم أزاح الورقة من أمام عينيه وكأنه يبعد حاجزا ظهر فجأة : المفروض أنى أقرأ اللى مكتوب فى الورق وأشرح وجهة نظرى ورؤيتى زى ماأتفقت مع الأستاذ برسوم ..ياريت تسمحولى أتكلم معاكو ببساطة ووضوح .. وأول حاجة لازم نكون متفقين عليها أن الأحداث على الأرض أسرع بكتير من أى كتابة ومن أى أوراق وحتى من المناقشات نفسها والحاجة التانية ودى مهمة جدا بالنسبة لى أنى مش عارف هى أيه الخطوات اللى حيتم تنفيذها على الأرض .. ده لوفرضنا يعنى أننا أتفقنا على رؤية واحدة .. عشان كده لازم يكون فيه تحديد للأولويات وتدبيرالأمكانيات اللى حتربطنا بالشارع وتخلينا فاعلين فى الأحداث أو حتى على الأقل جزء من التفاعل . ألتقط أنفاسه وتمهل قليلا وأمسك الميكرفون بأصابعه وتابع مبتسما : بصراحة أنا أول مرة فى حياتى أتكلم فى ميكرفون فياريت تسامحونى لو فى أرتباك . ثم عاد إلى ملاحظته : أعذرونى على اللى أنا قلته ، لكن أعتقد أن حضراتكم متفقين معايا فى وجهه النظر دى ، وعلى العموم أنا برضه حأقولكم على وجهه نظرى المتواضعة من اللى أنا شايفه على الساحة قدامى . طوى أوراقه ثم وزع نظراته على الموجودين وقال شارحا : حضراتكم تفتكروا أن فى أيام مبارك كان فى تضخيم لقوة الدولة ومؤسساتها وخصوصا المؤسسة الأمنية وتقريبا كلنا كنا مقتنعين أن أحنا عايشين فى دولة قوية على الأقل أمنيا وأن كل شيىء مرصود وتحت السيطرة لغاية ماجه يوم 25 يناير وأكتشفنا كلنا مفاجأة كبيرة ومدوية وبالبلدى كده عرفنا أن شوية عيال مايجيش عددهم تلات أربع تلاف دوخوا الأمن وخلوهم ياولداه مكسحين وأتكشفوا بسرعة واللى كان نتيجته نزول الملايين للشوارع وبقت كل ساعة تعدى نتأكد أكتر أن البعبع الأمنى ماعدش له وجود أنسحب وأتبخر من كل مصر .. اللى عايز أقوله من ورا كلامى ده أننا لازم نطبق نفس القياس على الأخوان وعلى السلفيين بمعنى أننا أتضحك علينا للمرة التانية وأتصدرت لنا صورة مبالغ فيها عن قوتهم وعددهم وتنظيمهم وأنا على قناعة تامة أننا قريب أوى حنكتشف قلة عددهم وضعفهم الشديد وأن الشعب المصرى ممكن بكل سهولة فى الفترة الحالية أنه ينهى ظاهرة التيارات الدينية وبالضربة القاضية كمان والأيام حتثبت صحة الكلام ده .. سحب نفسا بطيئا كى يصبغ جملة جديدة تدور فى ذهنه : آخر نقطة أحب أطرحها عليكم أننا لازم نأخد خطوات سريعة وعمليه عشان الطرف التانى بيتحرك بخطوات أسرع بهدف التمكين والأستيلاء على كل حاجة والأوراق اللى معايا دى كتبت فيها تصور يمكن تنفيذه على الأرض وحأوزعه على حضراتكم عشان تطلعوا عليه وبعد كده نحدد ميعاد سريع نتناقش فيه ونشوف ممكن نعمل أيه . وقبل أن ينهى كلامه سحب الورقة الأخيرة من كومة

أوراقه ونظر اليها بعينيه الموغلتين فى العمق توحيان بأنفعالات المحظور وقرأ أخر كلماته فى الورقة الأخيرة : هناك صراعات ستفضى حتما الى هزيمة للبلد من نوع أخر وساعتها سيكون الكلام بحديث الراحلين حتما !!..قالها ثم هدأت نبرته وخرجت منه جملة لم يعرف من أين عثر عليها : " وكأن هذا الشعب يولد من زمن عاقر " .

وضع ورقته أمامه ونظر إلى الجالسين بينما صمت الجميع لحظة وكأنهم راحو فى غفوة قبل أن تعبر كلماته من أوراقه إلى عقولهم بعدما نهض واحد من الجالسين يعبر عن أعجابه : كلامك ممتاز ياأستاذ خيرى أنا بأحييك .. وكأنها أشارة متفق عليها فبادر الجميع بالتصفيق وتحرك الأستاذ " برسوم" بأتجاه المنصة فكان أول من لاقاه خيرى وصافحه وضغط على يده : أحسنت ياخيرى .. كلامك مهم وموجز ومتهيألى لما نقرأ توصياتك اللى فى الورق أكيد الأمور حتوضح أكتر . هز الأخير رأسه مبتسما دون تعليق .

0000000000000

" هدى " رغم تحررها من السجن تقبع فى أعماقها أمرأة حبيسة .. أنطلق عقلها وجسدها خارج القضبان ، لكن بقى جزء من كيانها أسيرا .. حاضر جديد يحيط بها من أول ساعات النهار حتى هبوط الليل .. تحايلت على نهارها وقسمته لتقصف عمر ذلك السكون الممطوط ، فقضت أيامها الأولى على وتيرة مسالمة لا تكاد تتغير : من الغرفة هذه الى تلك ومن المطبخ الى الصالة ، تجوب الشقة وتطوف فى غرفها تستكشف وتنقب فى كل ركن ، غريزة الأم داخلها تدفعها للبحث عن وجود فعال وقوى ليعوضها سنوات أختفاءها القصرى ، أما فى المساء فتفتح رأسها على مصراعيها لتملأها بأخبار وبرامج التليفزيون محاولة منها للالمام بموضوعات مستحدثة تستخرجها وتستلهمها مدفوعة بأعجاب منقطع النظير بالأعلامية " لميس الحديدى "

اليوم أستهلت " هدى " صباحها بالتوجه الى غرفة أبنتيها بعد أن خرجتا مبكرا الأولى للجامعة والثانية للأتيليه ، بدأت بتنفيذ ماأتخذته بالأمس من قرارات بينها وبين نفسها وفى مقدمتها القيام بعملية تنظيف شاملة لكل غرف الشقة بأستثناء غرفتها التى أنتهت منها بالأمس ولم تتركها إلا وقد أعادتها لسابق عهدها بعد أن وضعت خطة سريعة كان أول بند فيها صندوق ذكرياتها .. سريرها الذى حمل خريطة جسمها وأحتوى فحولة الزوج الراحل الذى عبر بها حقبة الفتاة الحالمة إلى امرأة أشبعته حتى التخمة

وملأ أناءها من فيضانه الهادر الذى جرف فى طريقه كل الحواجز والفوارق وأودع فى قاعها ثلاث بذرات صارت بعدها ثمرات هى كل ماتحصلت عليه من أيام الرضا .

دعكت أخشابه بلمعة موبليا قبل أن ترفع مراتبه للتهوية كما أعادت نجفتها القديمة من منفاها ببلكونة المطبخ ، وجاهدت معها لتحيا بدعم من الماء الساخن الذى أزال عنها تراب السنين وكأن الحياة تعود لها تدريجيا قبل أن يقول الليمون والكربونات كلمتهما الحاسمة فبزغ بريقها الذهبى القديم وباتت جاهزة للتعليق ، إلا أنها لم تستطع أكمال المهمة بمفردها فأستعانت بـ " نوح " البواب للمساعدة والذى أبدى حماسة ولبى النداء .. نزع النجفة الفضية وعلق الذهبية وقام بتوصيل أسلاكها كما أشرف بنفسه على فك مرآة الدولاب المشروخة وحملها طواعية الى ورشة زجاج بشارع " صلاح الدين " وقام بنفسه بعملية التركيب وبمجهود فردى نال به أستحسان هدى بعد أن قاوم فى عناد رعشة أصابعه حتى أنهى المهمة المستحيلة التى أستهلكت منه وقتا كبيرا كان يكفى لتركيب عشر مرايات ، وبالرغم من ذلك لم يتسرب الملل أو الضيق إلى نفس هدى بعدما عوضها نوح بتقديم تقرير وافى عن العمارة وسكانها فى التسع سنوات الماضية .. سرد لها وقائع وأحداث بأداء سهل وموجز راعى فيه عدم الخوض فى الأعراض أو المسائل الشخصية كعادته دائما .

يوم كامل قضته فى غرفتها قبل أن تتمكن من ترتيب تفاصيلها السابقة وكأنها ترمم أثرا نجحت فى أعادته إلى زمن لازال مقيما داخلها ، فكان من حقها فى نهاية اليوم أن تلصق ظهرها بالحائط وتحبس أنفاسها وهى تلف غرفتها بنظرة أيقنت منها عودة الروح إلى كل ركن فيها فتحررت أنفاسها الحبيسة وهى تردد : الحمد للـه هى دى أوضتى اللى سيبتها من تسع سنين .. فى مساء نفس اليوم أستقبلت آذانها عبارات الدهشة والأعجاب على لسان كل من عاين غرفتها واضعين ذلك المجهود فى خانة الأنجازات المدهشة ، غير أنها قاطعتهم متوعدة : أنتوا لسه شفتوا حاجة .. من بكرة حاأفرم باقى أوض الشقة وبعد كده الصالة وحيكون الحمام والمطبخ همه مسك الختام . كلماتها كانت رسالة واضحة وقوية بأنها نجحت فى الأنغماس فيما يحيط بها من مكونات مختلفة حيث تلاشت صور السجن وأبتلعت الصور الجديدة وأستسلمت لتفاصيل حياتها وراحت تغيب فى عالمها الصغير بعد أن وجدت الساحة خالية أمامها لوضع بصماتها على كل شبر فى المنزل ، فنورا نهارها وليلها تقريبا فى الأتيليه بعدما أطمأنت لوجود البديل الذى يسد أختفاءها بينما نعمة لاحول لها ولا قوة وأنحسر دورها فقط فى ملازمة أيات .. تجالسها طول اليوم وتتركها فى أوقات الرقاد لتعاود الكرة فى الصباح توقظها أن كانت نائمة لتحكى لها

عن المنام الذى رأته فى ليلها وهى تقدم لها فنجان القهوة بالحليب بينما تستسلم أيات لها وتبدأ فى سرد تفاصيل المنام الجديد فى أنتباه وشغف لعلها تفتش فيه عن شيىء .. عن حلم قديم يراودها أو مفاجأة تحملها لها الأقدار ، فلا تملك من أمرها سوى الأنصات أو ربما حركة جسد نعمة المتهالك أضفى عليها نوعا من الأستسلام ويبعث صوتها المنكسر فى نفس أيات الشعور بالأطمئنان . فى حين بدا أن يوسف وبسمة يعيشان حالة من الأنسجام والرضا عن سير الحالة العائلية فأنتابهما أحساسا مشتركا بأنهما الآن أصبحا لديهما راعيان .. فزادت ثقتهما فى الأيام وأستبشرا خيرا فيما هو قادم ، وبدا أن الكل يعيش ويندمج ويتشكل تشكيلا خاص به .

بدأت هدى حملتها المكبرة تتوعد كل شبر فى الشقة بأنزال عقاب النظافة بعد أعلان حالة طوارىء أستثنائيه لأنهاء فوضى ضربت الشقة منذ زمن ، تحركت بنشاط وخفة مرتدية ترنج أسود أستعارته من بسمة وكان أصغر من مقاسها فبدا مشدودا ملتصقا بجسمها يفضح تضاريسها فى أثارة لأقصى درجة منسجما مع إيشارب ذهبى طوقت به رأسها على شكل حلقة تنفلت من جانبيه خصلات من شعرها الأسود على لوحة بشرتها البيضاء فبدت رائعة .

الحماسة والأصرار كاناأهما شعارها ، خطوات متسارعة ومتلاحقة فى كل مكان بالشقة وكأنها من ساكنى الغابات من المفترسات تضع لمستها فى كل ركن مطبوعة برائحة عرقها وكأنه أعلان منها عن فرض السيادة والنفوذ على كل سنتيمتر تصل إليه .. داخل غرفة أبنتيها شدت ملاءة السرير ورفعت السجادة وجمعت كومة من الملابس ستكون الغسالة مأوى لها ثم شرعت بعدها بعملية بحث وتمشيط داخل الغرفة لعلها تتمكن من ضبط أى ركن أو زاوية لم تصل إليه يد النظافة .. فتحث الدولاب على مصراعيه وأرسلت نظراتها داخله تتعقب سكانه قبل أن تصاب بقدر كبير من الأنبهار حول كم الملابس المعلقة ، فلم تجد على لسانها سوى كلمات ربانية تكسر بها دهشتها : بسم اللـه ماشاء اللـه عليكى يانورا أيديكى تتلف فى حرير .. ربنا يحميكى يابنتى . دقائق قليلة وبات كل شيىء فى الغرفة تحت سيطرة عينيها فأرسلت نظرة أخيرة كمراجعة نهائية قبل المغادرة .. غير أنها لم تجد شيىء يستحق أن تعيد عليه سوى ستارة النافذة التى أختفى نصفها خارج الشيش بفعل نشاط هوائى لطيف فتصدت لها تشدها للداخل ، إلا أن شيىء غريبا أثار الملاحظة عندها وهى تطل من الشباك ، لاحظت أن كل شيىء فى الشارع فى مكانه كما هو مثلما رأته قبل دخولها السجن .. لا تغيير ولا تجديد ، ودون مقدمات تذكرت فجأة تاريخ زواجها كما تذكرت تاريخ ولادة أبنائها .. أرتدت مبتعدة عن سور الشباك مستغربة

وهى تبحث فى رأسها عن سبب مقنع لتلك الظاهرة ، من أين جاءت تلك التواريخ لتحشر نفسها فى رأسها فى هذه اللحظة .. لم تقف طويلا وخرجت من الغرفة بملامح بلهاء بأتجاه حجرة يوسف . فى طريقها مرت بجوار غرفة أيات الموصودة وتجاوزتها قبل أن تصل إلى مقبض باب غرفة يوسف وفتحته فى فرجة صغيرة وحشرت رأسها وألقت نظرة فوجدت أبنها حافى القدمين والصدر : أنت صاحى يايوسف . قام يتخبط بالبوكسر : أيوه ياماما . أجتازت العتبة بينما أرتبك يوسف . جلس على حافة السرير يضع قدميه داخل حذائه مبتسما أبتسامة خجولة .. دنت منه وتحسست خديه وشعر ذقنه : كبرت ياحبيبى وبقت راجل . رفع عينيه : حأعمل أيه ياماما أدى حال الدنيا . فما كان منها إلا وأحتضنت رأسه ودفستها فى بطنها : عندك حق يابنى هو ده حال الدنيا . باغتتها ذاكرتها وهى تمسح شعر رأسه وتذكرت وجهه وهو صغير حين كان يرتكز بذقنه على كتفها وهو يبتسم أبتسامة مشاغبة قبل أن ينفلت من بين يديها ويحلو له أن يخلع ملابسه قطعة قطعة وهو يعدو فى البيت سعيدا بعريه وهى تلاحقه وحين تمسك به يصرخ ويبكى ويركل ويرفض أن يرتدى حتى سرواله الداخلى . قام يوسف من مكانه وأنتصب أمامها واضعا قبلة على خدها : خلاص بقى ياماما الدنيا حالها أتعدل وبقيتى فى وسطينا دلوقتى .

ـ ربنا مايحرمنى منكم . قالتها ومرت بعينيها لتكتشف فوضى الغرفة : أوضتك دى عايزة تتنسف .. هز رأسه مكتفيا بمراقبتها وهى تنزع الستارة وتحاصر ملابسه المعلقة على رشاقة خلف الباب قبل أن تسحبها وترمى بها على أرضية الغرفة حتى كونت هرما صغيرا تسربت منه رائحة عرق نفاذة ممزوجة بعطر الـ " وان مان شو " فأنتج رائحة كالخميرة إلاأنه أبدى ملاحظة حين أعتلى بنطلونه الرمادى قمة الهرم : البنطلون ده لسه مغسول ومكوى .

ـ من النهاردة ياحبيبى فيه نظام تانى . الحاجة اللى تتلبس ويبقى ريحتها عرق لازم تتغسل . لم يعقب. أشاح بنظره ناحية المكتب وكأنما يرشدها عن وجود زوج شرابات أسفله .. تتبعت نظراته وقالت وهى تنهج : ماتشغلش بالك ياحبيبى ولما ترجع أن شاء اللـه حتلاقى الدنيا كلها متظبطة .

ـ أنا مش عايز أتعبك معايا . توجهت له بعتاب : كده برضه يايوسف .. اللى بأعمله ده حقكم عندى وده أحلى تعب فى الدنيا .. أنت كل اللى مطلوب منك مذاكرتك وبس . قالتها وهى تلملم أوراقه المتناثرة بجوار مكتبه بينما ألتفت إليها : خلى بالك ونبى ياماما ده ورق المراجعات .

ـ ماتخافش ياحبيبى أمك مش جاهلة . كل ورقك حألمه على المكتب عشان تبقى أوضتك فاضية قدام عينى ولما ترجع حتلاقيها بتبرق .

ـ ربنا يخليكى ياماما . قالها قبل أن يصدر تليفونه رنات متتالية فرفعه لأذنه : صباح الخير ياهدير . أنصت ثم أجاب : نص ساعة وحأكون عندك . أختصر ردوده ما بين " آه " و " لأ" ثم أنهى المكالمة وأستدار فوجد أمه ترمقه فى أبتسامة فبادر : دى هدير مستنيانى فى الكلية .

ـ ربنا ينجحكم أنتم الأتنين وتحققو اللى نفسكم فيه مع أن سيادتك بطلت تكلمنى عنها . أنهى أرتداء ملابسه ورافقته حتى باب الغرفة : واللـه أبدا الحكاية كلها أنى مستنى تأخدى نفسك شوية وبعد كده حأقولك على كل حاجة بالتفصيل . أشرقت ملامحها عن أبتسامة عريضة حين سمعت تلك الجملة : عشان خاطر الكلام الحلو ده قولى بقى نفسك أعملك أيه على الغدا .

ـ اللـه على السؤال الجميل ده .. ملوخية طبعا . قالها بأداء الملهوف .

ـ من العين دى قبل العين دى . سارع بطبع قبلته الأخيرة على جبينها : عن أذنك دلوقتى ياماما يادوب ألحقلى مكان فى المراجعة . ثم خرج مسرعا بينما وقفت تدور بعينيها فى غرفته التى بدت شحيحة التفاصيل سهلة دون تعقيدات كصاحبها .. نجفة بسيطة بثلاث لمبات تطل على دولاب أتنين ضلفة يجاوره سرير وأمامه مكتب صغير .. أستهلت البداية بفتح الشباك للتهوية وتغيير الهواء الراكد والمقيم داخل الغرفة منذ أيام قبل أن تتجه للمطبخ وهى تدرك أن كابوسا ينتظرها غير أنها أنحرفت بأتجاه غرفة أيات .. نقرتين على بابها الموصود ثم فتحته مستطلعة قبل أن تستقبلها نظرات أيات من موقعها على كرسيها الهزاز التى لم تفارقه منذ ساعتين وهو الشيىء الوحيد الذى يتحرك داخل الغرفة بينما نعمة منزوية وملتفة حول نفسها بجوار قدمى أيات وكأنهما تمثالان فى متحف . أوقفت حركة الكرسى : صباح الخير ياهدى .

ـ صباح الخير ياأيات .. عاملة أيه النهاردة يانعمة .

ـ نحمده ونشكر فضله ياست هدى .

ـ محتاجة نوح يجيبلى شوية حاجات . لاحت بوادر حركة فى ملامح نعمة الميتة وأستعاد لسانها نشاطا مفاجئا : نوح بطل يقضى طلبات للسكان .. الراجل عجز ياست هدى وماعدش زى الأول . أصابت

كلماتها دهشة هدى : ده لسه أمبارح كان بيساعدنى وجابلى مراية جديدة للدولاب وركبها بنفسه . نصف أبتسامة على شفتى أيات : عشان هو بيعزك بس عمل كده وع العموم أى طلبات أنتى عايزاها حأخلى أنور يقضيها لك . كانت ملاحظة توضيحية قابلتها هدى بأستفسار : أنور ده اللى كان بيمسح السلم أمبارح . هزت أيات رأسها وهى تنهض من مكانها تتلفت يمينا ويسارا تبحث عن موبايلها حتى لمحته على طرف السرير: محتاجة أيه ياهدى .

ـ عايزة ملوخية وفراخ ورز .

ـ الرز موجود فى دولاب الخزين اللى فى بلكونة المطبخ . تلك كانت فتوى من نعمة بينما قربت أيات شاشة الموبايل الى عينيها تبحث عن رقم نوح ، لم يستغرق البحث أقل من عشر ثوان حيث رقمه هو الرابع من بين خمسة أرقام هى كل مالديها .

ـ أيوه يانوح أبعتلى أنور عشان يجيب لنا شوية حاجات . أنصتت ثم نظرت لهدى وأردفت : عايزين فراخ وملوخية . أبتسمت : كتر خيرك ياراجل ياعجوز . وضعت موبايلها جانبا : تمام كده ياهدى .

ـ مؤقتا بس لغاية مأعرف البيت ناقصه أيه وحأبقى أشترى بنفسى خزين البيت .. المهم بس أن أنور ده مايتأخرش على فى الطلبات . قالت عباراتها ثم أعطت لهما ظهرها لتخرج فى عجالة فى حين تابعتها أيات بنظرة متفحصة عميقة وسيطر عليها شعور بأن دور البطولة القادم فى المنزل ستلعبه هدى بلا منازع ثم همست بنبرة رضا : سبحان اللـه العظيم . لمحت نعمة نظرتها : فى أيه ياست أيات .

ـ هدى زى ماهيه .. صحيح الطبع غلاب . زحزحت نعمة جسمها وكأنها تمشى بمؤخرتها : عايزة الحق ياست أيات اللى الست هدى عملته فى يومين تلاتة مايعملهوش تلات رجالة مع بعض .. أسم اللـه عليها غيرت شكل البيت كله بقى زى اللبن الحليب . عادت أيات الى كرسيها الهزاز وبدت ملامحها بلا تعبير وصدرت عنها نبرة باردة : حأقولك أيه يانعمة أنا عن نفسى ماليش فى شغل البيت وأنتى بقيتى خلاص موتورك مفوت لا بتهشى ولابتنشى يادوب فنجان القهوة اللى بتعمليه ونورا هانم الأتيليه واخد كل وقتها وبسمة أيدك منها والأرض . أنصتت نعمة وقد زادت أنكماشا : عندك حق ياست أيات .

00000000000

فى نفس الوقت وفى أجواء مختلفة بدت فايزة متأهبة لتناول وجبة أفطار خفيف حيث أن الصباح فى توقيتها يبدأ ظهرا فأستعدت له جلوسا على كنبة فى الصالة وأمامها مائدة صغيرة وقد حبست نفسها فى جلباب أبيض بخطوط زرقاء و توجت رأسها بعصابة رمادية مشدودة بعنف حولت جمجمتها إلى شكل الشمامة فى حين أستنفرت حواسها فى شغف على طبق الفول الذى زين المائدة وإلى جواره ثلاث بيضات مسلوقة وبصلتين وكومة جرجير وأربع أرغفة ، بدت فى جلستها كالجبل المستقر فى مكانه بعد أن بسطت هيمنتها تماما فى اليومين الماضيين وراحت تمارس وظيفتها القديمة فى التسلط والأستبداد ، فكان أول حصادها أن أستقامت أفعال عبده الذى أبتلع وجودها مستسلما دون مراوغة بالرغم من المرارة التى تفيض منه مكتفيا بأصدار عبارات ولاء وكلمات غزل كى يتمكن من أستمالتها لعله ينجح فى أستعادة حياته الماضية ، إلا أنه وحتى اللحظة لم يرصد أى مؤشرات ايجابية تدل على نجاح خطته .. فى نفس الوقت وداخل غرفة النوم وقف عبده أمام المرآة وهو يعاين ملامحه ويرصد فى حسرة وقار السن الذى ظهر عليه فجأة حين شاب شعره دفعة واحدة بعد أن زال عنه سواده المستعار.. بدا منكمشا داخل جلبابه البلدى الواسع له فتحة مستديرة عند الرقبة و أكمام واسعة ، أشاح بوجهه فزعا حين سمع صوت فايزة يأتيه كالنذير : بتهبب أيه كل ده عندك . توترت حركته وزاد أرتباكه ومسح شعره بكفيه فى سرعة وفر مهرولا خارج الغرفة قبل أن يتمكن من أنزال الجلباب الذى توقف فوق ركبتيه وأجابها : أنا جاى يافايزة .. ثوانى وظهر فى الصالة يرسم أبتسامة مشفوعة بملامح نشطة طارئة . بادرها ليسيطر على شرها : المعلم عبده الجن بيرسل ماسش بيقول فيه صباح الفل على ست الكل .. إلتفتت إليه بملامح متصلبة ، لم تضحك ولم تنفرج سحنتها وكوفىء على فشله بالصمت وسرت الدهشة فى بدنه بينما أحتدت نبرتها : تعالى أقعد هنا أدامى وسيبك من الخبلان اللى أنت بتقوله ده . نفذ الأمر وجلس أمامها على المائدة يفصل بينهما طبق الفول وحلفائه بينما تابع بتأفف البيضة المسلوقة وهى تختفى كاملة داخل فمها تتبعها بلقمة فول قبل أن تحشر معها باقة من أوراق الجرجير لتسهل عملية البلع ، توقفت فجأة أضراسها عن الطحن حين رمقته بنظرة متوحشة وكأنها تذكرت وجوده : مد أيدك وأطفح بدل ماأنت بتبحلقلى فى اللقمة .

ـ مأنتى فاهمة يافايزة أنا ماليش فى موال الفطار ده لازم أعمل أصتباحة الأول أشق ريقى بحجرين معسل وكباية شاى .. قذفت أمامه برغيف : أطفح . رفع يديه بكمهما الواسعين على طريقة من يهم باقامة الصلاة : بسم اللـه الرحمن الرحيم . تفحصته : كل يا مولانا . كسر لقمة ووضعها فى فمه ثم

مضغها طويلا وحاول بلعها فى حين سددت له نبرة تحذيرية : وأنت راجع من القهوة ماتنساش تجيب معاك دفاتر الحسابات عشان أبعتهم للأستاذ محمود المحامى يراجعهم ويرسينى ويفهمنى أولى من أخرى . أجاب واللقمة تنحشر فى حلقه فتخنق العبارة : وماله يافايزة حقك ياختى . تزر عينه قبل أن تنخفض نبرته وتركبه المسكنة : بس مش حينفع النهاردة يافايزة أدينى يومين كمان . واجهته بأصبع مقوس فوق حاجبها وبعين مفتوحة وأخرى منكمشة : ليه أن شاء اللـه !! .

ـ عشان بقالى شهرين مانزلتش المصاريف فى الدفاتر ماهو أنا مش ملاحق على شغل القهوة لوحدى.. الليلة كلها على دماغى .

ـ والمحروس أبنك بيعمل أيه .

ـ المحروس أبنى مكبر دماغه وسايقها سرمحة طول الليل والنهار . تدرك أرتباكه : ماشى ياعبده مش مشكلة ولا يهمك يومين كمان مش حيفرقوا ، لكن ورحمة أبويا لو لقيت أى لعب فى الدفاتر وعزة جلال اللـه ياعبده لأوريك اللى عمرك ماشفته . أستوعب وعيدها وأزدحمت فى رأسه أفكار كثيرة أستعصى عليه ترتيبها قبل أن يتأهب للرد إلا أنه قال بلهجة مترددة فى البداية مالبثت أن أستقامت وهو يعلن براءته : عيب يافايزة مش عبده الجن اللى تظنى فيه كده .. أنا برضه جوزك وأبو أبنك وأكتر واحد فى الدنيا يخاف على مصلحتك .

ـ مافيش عيب ياجن واللى بينى وبينك الدفاتر . تخبط على صدره بكفها ثم أردفت : خلى بالك مش فايزة اللى تأكل من الكلام ده . ضاقت عينيه وأنكمشت ملامحه وتهدل شاربه الذى كان منتفضا من لحظات ثم ألقى باللقمة التى فى يده على المائدة وتناول كوب ماء شربه حتى أخر قطرة فى قاعه وكأنه يبتلع به خوفه ثم مسح شاربه بكم جلبابه بينما لم تنصرف نظراتها عنه إلا عند سماعها صوت خطوات منصور قادما من غرفته إلى الصالة .. ظهر مرتديا قميص زهرى وبنطلون جينز أسود وعلى وجهه ملامح متهالكة موزعا نظراته بين أبوه وأمه قبل أن يعثر على نبرة تصلح لتكون بداية : صباح الخير ياما . مسحته بنظرة : صباح الخير ياحيلة . ثم تراجعت بجسدها للوراء لتتسع المسافة بينها وبين المائدة : أنا نمت أمبارح بعد الفجر وبسلامتك ماكنتش شرفت .

ـ على ماشطبت شغل القهوة أنا والوله جمعة كان الفجر شقشق . رماه أبوه بنظرة ركنية وهو يرى فى وجوده تخفيفا عنه فى حين أدلى منصور برأسه للأرض يستجمع ثقته بعدما حسم أمره وأتخذ قرارا

بمفاتحة أمه فى موضوع " نوسة " بعد أن أنهى بروفات أستمرت ليومين كاملين على كيفية مفاتحتها دون خسائر تلحق به .. هدأ أنفعاله وأستجمع شتات شجاعة هاربة : عايز أتكلم معاكى ياما فى موضوع كده . قال جملته بنبرة مرتعشة قبل أن تلتفت اليه : أقعد أفطر الأول وبعد كده صدعنى بمواضيعك . برأس منحنية جلس الى جوارها : أيه ده ياما فول وبيض على الريق كده . دحرجت إليه بيضة وناولته رغيف : هيه الناس بتفطر أيه على الصبح . قام عبده مضطربا : الحمد للـه شبعت .

ـ مش تستنى لما تشوف الحيلة عايز يقولى أيه . تململ فى وقفته وأرتبكت كلماته . لا ياستى أنا حأتكل على اللـه أشوف أكل عيشى وأنتى مع أبنك تتصرفوا سوا . إلا أن منصور قام مذعورا وكأنه يحاصره : أيه يابا حتبعنى ولا أيه . أزاحه بظهر يده هامسا فى أذنه : أن جالك الطوفان !!.. قالها ورمى نظرة خاطفة بأتجاه فايزة : عن أذنك يافوز .. ردد عبارته وخرج من الصالة تشيعه بمصمصة من شفتيها : بالسلامة ياسيد المعلمين . رفعت عينيها لأبنها وجذبت يده بشدة : أقعد ياوله مالك واقف كده ليه زى اللى محصور ميه . نزل بجسده متخشبا كالصنم ، إلا إنها وبنظرة خبيرة تشككت فى أمره : مالك يامنصور فى أيه .. عايز فلوس ياوله ومكسوف . هز رأسه نافيا .

ـ شفت حاجة على أبوك وعايز تقولها لى . قال دون أن ينظر اليها : الحكاية مش كده ياما .

ـ أمال الحكاية أيه ياقلب أمك ؟ تلكأت الكلمات على لسانه : فاكرة الموضوع اللى فاتحتك فيه فى أخر زيارة فى السجن . ضيقت حاجبيها ومرت بأصبعها على عصابة رأسها تسترجع مايقصده حتى أرتخت ملامحها ثم أطلقت صهلولة كان لها أثر طيب فى نفسه :لا هو أنت لسه ياوله بتفكر فى حكاية الجواز دى : كست وجهه علامات العبط : أيوه ياما وعايز رضاكى . تستدرجه فى أندهاش وحذر : وماله ياحبيبى .. بس مش تقولى هى مين الأول .. أنا أعرفها ؟ هز رأسه بالأيجاب . عقدت حاجبيها فى لهفة : مين ياوله ؟ .

ـ نوسة ياما . أنكمشت جبهتها ولوت رقبتها تبحث فى ذاكرتها : نوسه مين يامنصور .

ـ نوسة بنت الست بدرية اللى ساكنين فى بيتنا فى حارة أبن شكر . تاهت نظرتها فى وجهه لثوان قبل أن تخبط بكفها صدرها : نوسة بنت بدرية كومبارس . تزحزح من جوارها مرتعدا وبدا صوته كالمكهرب : هيه ياما . قذفته بنظرة أرف ثم لطمت فخذيها : عايز تتجوز بنت بدرية أم حرأوس ولبانة .. يافضحتك يافايزة .. تندب وتنوح وظل جسدها المدكوك ينتفض : ضحكت عليك ياأبن

الموكوسة يادلدول ياوسخ . ثم راحت كعادتها تلعن وتسب أبوه وتنسب له كل نقيصة تخطر لها على بال : هو أنت حتجيبه من بره طالع دنى زى اللى جابك .. بتقلده يامنصور بتجرى ورا بنت بدرية زى ماهو بيجرى ورا النسوان الساكة .. اللــه يخربيتك أنت وهوه فى يوم واحد . أرتج لحمها وهى تنهض من مكانها فجأة بعد أن تلون وجهها وبدا كمؤخرة قرد : على جثتى ياأبن الكلب ياأهبل ده أنا أفرتكك بأيديه دول وأفشخك .. بدرية وبنتها ضحكو عليك ولفوا دماغك ياأبو رياله . تراجع منصور بظهره للوراء رافعا يديه كملاكم يحمى وجهه من ضربة مفاجئة : واللـه أنتى ظالمهم ياما .. بدرية وبنتها مش زى ماأنتى فاهمة . أزدادت ثورتها وتضاعف حجم صوتها بشكل عجيب فأنخلعت قلوب سكان البيت على صراخها وهى تتوعد : ورحمة أبويا لأخليك تندم ياأبن النجس أنت والمقاطيع اللى ملموم عليهم . أنهت وصلتها قبل أن تتأهب لبصقة : أتفوه عليك وعلى أبوك . بينما وثب منصور من مكانه حين شعر بالبصقة تملأ صفحة وجهه المحلوق فتزيده لمعانا فهز رأسه كرجل سد الماء أذنيه فأطبق فمه وهو يكشر عن أنياب الغضب العاجز قبل أن يلعن نفسه بلا رحمة وهو فى وضع المتأهب للقرار : أنا أستاهل ضرب الجزمة أنى باخد رأيك .. أنا مش صغير ولا بأمص فى صوابعى .. أنا راجل . قالها وأندفع أندفاعة المخبول يفر من أمامها فتعدو فى أثره وهى تلقى عليه جرعات متتالية من اللعنات : أمشى ياأبن الكلب ياأهطل .. راجل أيه ياأبو لباس ملون ياوسخ . بينما خرج من باب الشقة يركض وخطف ثلاث درجات من سلم البيت فى وثبة . كان يهرب من أمامها كالكلب المضروب النابح فى حين عادت فايزة أدراجها بأنفاس لاهثة بعد فشل محاولتها فى اللحاق به .. جلست على الكنبة ثم مسحت وجهها كى تبحث عن هدوء مؤقت وهى تحدث نفسها : بقى الحكاية كده يامنصور .. طب أنا حأعرف أوريك ياأبن بطنى .

00000000000

فى نفس اللحظة التى فر فيها منصور من قبضة أمه كان عبده قد وصل المقهى ليتسلمه جمعه عند المدخل يحاصره بتقرير موجز عن طلبات عاجلة : بعد صباح الخير يامعلمى .. البن والينسون يادوب يكفونا ساعة وكلمت الحاج منعم حيبعتلنا عشر كياس سكر وعندنا كمان دستة كبايات هالك ده غير .. نفخ عبده كاظما غيظه : أصتبح يافقربوأصبر عليه شوية وغور جهزلى أصتباحتى . ثم مر من أمامه متجهما وجمعه فى مكانه متسمرا وعيناه عالقتان فى أفا معلمه : ماشى يامعلمى .

سار عبده بجلبابه الواسع وسط طاولات خالية حتى أقترب من كرسيه وجلس نصف جلسة ثم غلبته تنهيدة تشى عن هم أستوطن داخله وظل على وضعيته حتى لحق به جمعه بالمطلوب الذى راح يتعامل مع الشيشة بأقتدار يرفع جمرات النار من هامتها بينما عبده يراقبه قبل أن يدس يده فى جيبه الفضفاض وأخرج ورقة " السوليفان " ومد جمعه يده دون أن ينظر إليه فأسقط عبده فى اليد الممدودة القطعة البنية الصغيرة فعالجها على الفور بين أصابعه وهيألها مكانا ورد الجمرات حواليها فى ضربات خفيفة بطرف الماشة ثم أهاب بالمعلم المتسلطن فوق عرشه الخشبى قبل أن يعتدل فى جلسته : شد يامعلمى . شحن طاقته وفتح رئتيه يدس بوز الشيشة فى بوزه ثم سحب أنفاسا قصيرة متقطعة أعقبها بنفس طويل ممتد ثم نفث الدخان من بين شفتيه وطاقتى أنفه فى خيوط كثيفة بينما يتابع جمعه بفخر انجازه : تمام يامعلمى .

ـ اللـه ينور ياوله . سمعها ورحل متجها خلف النصبة فى حين راح عبده يمشى بنظراته متعقبا دخانه قبل أن ترتخى شفتيه ويسحب" اللاى" من بينهما حين علقت عيناه بوجه أبنه منصور الذى دخل المقهى بملامح مهزومة وسار بخطوات متلكئة وهو مطقطق الرأس ناحية والده مالبث أن سحب كرسيا إلى جواره وجلس منكمشا فى قاع كرسيه بينما دقق أبوه فى ملامحه ثم تجاهله وسحب أنفاسا متلاحقة ثم قال وقد خرجت العبارة المعدة مع الدخان فى وقت واحد : شكلك كده واخد الطريحة التمام . ندت عن صدره تنهيدة طويلة ثم هز رأسه دون أن يفسر فأحتدت نبرة أبوه : ماتنطق ياوله عملت معاك أيه الولية ربة السجون دى .

ـ كانت حتاكلنى يابا . أتجه الأخير بجسده كله نحوه : ليه ياوله عملتلها أيه ؟ .

ـ فاتحتها فى موضوع نوسة وعليها أتقلب حالها وأتحولت وكانت حتفترسنى . ضحك عبده ضحكة محتشمة لكنها شامتة : تستاهل عشان أنت عبيط أبن كلب قلتلك أتقل مش وقته دى لسه طالعة من السجن وهايجة علينا ماسمعتش الكلام وأدى النتيجة . مال برأسه للأرض وهو يهمس همسا يتكسر على شفتيه : أهو اللى حصل بقى.

ـ وطبعا أنا أتاخدت فى الرجلين وشدت السلخ على أنا كمان . روى منصور تفاصيل مادار بأنفعال مكتوم بينما ينصت عبده إليه بعين مغمضة وأخرى مفتوحة متحاشيا الدخان المتسرب إليه ثم أزاح الشيشة من أمامه فاردا ساقيه وبدا مسترخيا يليق بجلبابه البلدى الواسع ثم أردف : ياريت بقى تقفل على حوارات البت نوسة دى وتكن شوية . قاطعه فى أستنكار : أزاى بس يابا وأنا أديت الناس كلمة

وقلتلهم حأفاتح أمى وهمه مستنيين منى أحدد لهم ميعاد عشان نخلص الحكاية . يكبح جماح سخريته : يابنى ناس مين وكلمة أيه أنت محسسنى أنك حتتقدم لبنت المحافظ الليله كلها نوسة وأمها بدرية كومبارس .. أسمع كلامى ولم الدور أحسنلك بدل مأمك تخلص عليك وعليهم أنا أدرى منك بفايزة . صفعته الحقيقة : طب وبعدين يابا العمل أيه ؟ ! قام الأخير يلقى عليه نظرة محذرا : ماتعملش حاجة وقفل على الموضوع ده لغاية مانشوف الدنيا رايحة فين و أتفضل قوم دلوقتى وشوف الوله جمعه حيقولك على التموين الناقص . أستند على كرسيه وقام كعجوز وشعر بنفسه محاصرا بين سندال أمه ومطرقة نوسة بأنوثتها المبالغ فيها ومن خلفها أمها التى تلح عليه ليل نهار متذكرا أخر عباراتها التى تلقاها فى أخر زيارة لهم بالأمس لاتزال معانيها تدق مؤخرة رأسه : لحد كده وكفاية لف ودوران يامنصور.. عشمتنا أنك حتفاتح أمك وهيه فى السجن وزيارة ورا زيارة لا شفنا حاجة ولا حصل حاجة وآهو ربنا كرمها وخرجت وماعدش لك حجة يبقى الأصول يانور عينى أنك تيجى المرة الجاية وأمك فى أيدك واللى أوله شرط أخره نور . تاه فى كلماتها ونكس رأسه خارجا من باب الشقة قبل أن تندفع خلفه نوسة تستوقفه وتحجزه بصدرها النافر وخصرها الطرى يلامس بطنه : ماتزعلش من أمى يامنصور هى خايفة على وكلام الناس بقى كتير وأنت كل يوم والتانى داخل طالع عندنا . أراد أن يظهر غضبا إلى أنها ناولته جرعة أضافية بعد أن رفعت أصابعها تتحسس شفتيه لتحبس فيهما الأنفعال : وبصراحة بقى أنا محتاجالك أوى ياريت تستعجل وتخلصنى يامنصور . أرتعشت شفتيه خلف أصابعها قبل أن يزيحهم فبادرت هى بمعالجة رعشتهما بقبلة أتخذت منها نصف دقيقة حتى تلاشت الرعشة وأنفجرت فيه نبرة الحماسة وهو يدلى بتصريحا ناريا : حأفاتح أمى وحأخلص الموضوع كله والمرة الجاية مش حاجى لوحدى .

000000000000

دخل الليل منذ ساعة وأستقبلته هدى وحيدة فى الصالة بعد أن أتمت بنجاح عملية تطهير شاملة للشقة قبل أن تعيد للبيت أحشائه التى أخرجتها وأصبح كل ركن فيه شاهدا على مجهود جبار يستحق التقدير ونالت نصيبها العادل من آلام مبرحة فى الظهر والكتفين وأرتخاء فى الأطراف فأستسلمت هامدة وغاصت فى مقعدها ممددة الرجلين تنتظر وصول أولادها بين لحظة وأخرى ، مازالت هدى فى البدايات تتحسس نمط حياتهم تجهل مواعيدهم المعتادة فى الخروج والعودة ، فكان لزاما عليها أن تستقى معلوماتها عن الوقت والساعة بسؤال متكرر تطرحه على أيات كل فترة حتى أشفقت عليها ولم

تجد أمامها فى أخر الأمر سوى الأدلاء ببيان توضيحى : أرتاحى شويه ياهدى لسه بدرى على وصول ولادك .. نورا عندها شغل كتير وبترجع فى حدود الساعة تمانية ويوسف وبسمة تقريبا فى نفس الميعاد .

ـ هيه فى كليات بتتأخر للوقت ده .

ـ همه بيخرجوا من الكلية وبيروحوا يحضروا كورسات مراجعة . كان البيان كافيا ليختفى السؤال الملح عن الوقت من قاموس أسئلتها . شعرت فى جلستها بأن هناك شيىء يعتصرها ويحدث فى فضاء الصالة يظهر ويختفى .. ربما قلق أو خوف أو أضطراب ، لم تعرف من أى مكان داخلها يأتى ذلك الهاجس ، إلا أنه رحل سريعا حين تسللت إلى مسامعها همسات موسيقية بدت وكأنها تعيدها إلى حلمها القديم عند دخولها البيت لأول مرة ، النغمات تأتيها عبر ضربات البيانو الصاعدة بعزف أيات من وراء باب غرفتها بينما سطوة النغم يجلل المشهد حولها يستدعى عالمها الأخر المنفلت منها فى صورة الزوج الراحل وهى تحيطه بذراعيها أيام سهراتهما فى كازينو" مكسيم " بالمعمورة . بدت ساكنة كالملاك تسترجع كل لحظة بشرود ثم تنهيها بأبتسامة أو دمعة تترجرج داخل عينيها ، غير أنها قاومت أستغراقها فى المواقف والذكريات .. أنزلت ساقيها الممددة فى أنتفاضة حين أنصتت لدوران مفتاح فى كالون باب الشقة ، فتأهبت فى جلستها ترقب ظهور الداخل .. أنتصبت واقفة حين ظهر وجه نورا فتحركت إليها : حمد اللـه على السلامة ياحبيبتى .. أتأخرتى أوى يانورا .

ـ لأ أبدا ياماما هو ده الطبيعى . قالتها بأبتسامة منهكة قبل أن يستوقفها حال البيت فوزعت دهشتها وهى تحاصرالصالة بنظرات سريعة ثم قطبت وجهها ونمت علامة أستفهام كبيرة وهى تتجول بين الغرف تقف عند أعتابها : عملتى كل ده أمتى ياماما ؟ فرت منها أبتسامة ثقة : ياحبيبتى ده أنا هدى عبد الفتاح والأجر على اللـه . رن جرس الباب مع نهاية الجملة فتقدمت إليه هدى بخطوات واسعة .. فتحته لتواجهها بسمة بذراعين مفتوحين وعينان ضاحكتين ثم عناق ملهوف : وحشتينى أوى أوى ياهدهد . لم تكمل ديباجة المقدمة عندها أقتربت منها نورا : كل ده تأخير يابسمة معقولة فى مراجعات لغاية دلوقتى . لم تستسيغ الجملة ومرت بجوارها دون رد قبل أن تتسمر عند حدود الصالة : أوه .. واو .. أيه الأنقلاب الفظيع ده .. ده أنتى عاملة شغل جامد أوى ياماما .

ـ ولسه أنا نويت كل يوم أعمل حاجة لغاية مأرجع البيت ده زى ماكان .

ـ ياهدهد ياعظيم ده أحنا ربنا حيكرمنا آخر كرم . بأداء عصبى قاطعت نورا : سيبك من الرغى الكتير ده وأدخلى غيرى هدومك عشان نأكل .

ـ مش حتستنى يوسف . كان ذلك أستفسارا من هدى .

ـ يوسف جاى حالا ياماما . لم تبرد جملتها إلا وفتح يوسف باب الشقة على ضحكة ساخرة منها : ياريتنا أفتكرنا خمسة جنيه . لم يخف دهشته مثل سابقيه : أيه جو النضافة ده . قالها وأغمض عينيه قبل أن تتسع فتحتى أنفه يتشمم ثم نظر فى وجه أمه التى طمأنته بأبتسامة : أيوه ياحبيبى دى ريحة الملوخية اللى أنت طلبتها .

ـ ياسلام على قلب الأم وتقليتها قصدى وحنيتها . رمى بمذكرتين كان يحملهما على منضدة الأنتريه وأقترب منها ساحبا يدها ليطبع قبلة : ربنا مايحرمنى منك ولامن أكلك . أبتسمت ثم أتجهت للمطبخ تحمل معها كلمات الأعجاب والأشادة قبل أن تردد على مسامعهم : ياريت تغيروا هدومكم بسرعة وأستنونى على السفرة والأكل حيكون جاهز حالا . راقبتها نورا حتى أختفى ظهرها من الصالة : ماما شكلها كده عايزة تعوض التسع سنين فى تسع تيام . ثم أنسحبت إلى غرفتها تتبعها بسمة : واللـه ماما دى ماحصلتش نضفت البيت ده كله لوحدها وكمان جهزتلنا الأكل .. سبحان اللـه . وقبل أن يبلغ يوسف باب غرفته أصدر نداءا : أنا حأغير هدومى بسرعة .. أنا ميت من الجوع .

فى المطبخ خاضت هدى سباقا محموما مع الحلل والأطباق قبل أن تبدأ رحلة مكوكية من المطبخ إلى المائدة تضع أصنافها بعناية تزامنا مع خروج أهل البيت تباعا من مكمنهم رافعين راية الزحف بأتجاه المائدة حتى أكتمل النصاب القانونى عدا نعمة التى لاتزال فى منتصف المسافة الفاصلة عن موقع الوليمة تجاهد للوصول وهى تراقب هدى التى تخطتها حاملة سلطانية ملوخية فاحت رائحتها كقنبلة غاز مثير للأعصاب كان مكانها محجوزا بين أطباق الأرز ثم أدارت ظهرها للمرة الأخيرة بأتجاه المطبخ لأحضار الديك من موقعه فى نار جهنم داخل الفرن قبل أن تتحاشى فى طريقها الأصطدام بنعمة : ماتشدى حيلك شوية يانعمة الأكل بقى جاهز . تحمست وزادت سرعتها فى المتر الأخير حتى وصلت بسلامة اللـه وجرت كرسيا مجاورا لأيات التى ساعدتها فى الجلوس لحظة وصول هدى بجثة الديك التى زينت به وسط المائدة فأشرأبت أعناقهم وتزاحمت عليه الأبصار ليكتمل أنسجام المشهد مع الملوخية والأرز والشوربة فى حين أتخذ الأمر من المتحلقين حول المائدة لحظات قبل أن تصلهم أشارة البدء على لسان هدى : ياله ياحبايبى بالهنا والشفا وعايزة أسمع رأيكم . أنهت جملتها ثم أنقضت بيدها على

جثة الراحل الممددة فى السرفيس فشدت وركه فأنخلع من مكانه وقدمته ليوسف قبل أن تجهز على بقيته حتى فككت أجزاءه ووزعتها بينما مالت بسمة تهمس فى أذن أخوها : من حقك الورك ماهو أنت دكر البيت .

ـ عندك شك فى الموضوع ده . عشر دقائق تجمد فيها الزمن وأصبح لاشيىء مهم ، فالأهم هى ماتطاله الأيدى من داخل الأطباق . لم تصل لهدى حتى تلك اللحظة أى عبارة تقدير أو كلمة شكر فحالة التركيز تمنع مثل تلك الأمور بينما عملية الطحن والبلع تسير بنجاح داخل الأفواه وأن هدأت حدتها نسبيا حين قارب السباق على الأنتهاء ، حتى نعمة أثبتت جدارة على " التراك " وان كانت لا تملك من الأدوات غير سنتين فى الأمام وأربع ضروس خلفية فى حين بدت هدى فى جلستها كملكة على عرشها يكفيها القليل وهى تنقل نظراتها بينهم كرادار مراقبة .. أخيرا شعرت بنفسها تجتاز أختبارا صعبا عندما لاحت بشاير النجاح حين جفت سلطانية الملوخية وبان قاعها الأبيض وتناثرت عظام الديك حول أطراف المائدة .. هدأت الأنفاس وتباطأت حركة الأيادى حتى تراجعت الرؤوس وتقدمت البطون .. الآن فقط حان وقت المديح فأستهل يوسف : بصراحة الواحد مش عارف يقولك أيه غير ربنا يخليكى لنا ياست الكل . توالت بعدها عبارات التأييد والاشادة وكأنه أستفتاء يعيدها بقوة لأعتلاء العرش من جديد بينما رفعت بسمة عينيها عن المائدة صوب أمها وهى تتحسس بطنها : الحمد لله أول مرة أحس أنى أكلت بجد . لم تمر تلك الجملة دون تعقيب من نورا : والسنين اللى فاتت دى كلها ماكنتيش بتاكلى ولا أيه .. أمال بقيتى كده بغلة أزاى . لم تعلق سوى بابتسامة حذرة قبل أن تدلى بخبر : عم نوح قابلنى وأنا جاية وبلغنى أن الخواجة كرم وعمو خيرى وشريف جايين يوم الخميس عندنا عشان يسلموا على ماما . أضافت نورا فى أفتضاب : ومدام زيزيت كمان جاية معاهم . أبتسامة عريضة وهى تلملم أطباقها : أهلا وسهلا بيهم فى أى وقت ومن غير أستئذان ده أنا حتى من يوم مارجعت ماشفتش حد فيهم .

ـ همه مقدرين ظروفك وسابوكى ترتاحى يومين . قال يوسف فى حين عقبت أيات : وع العموم البيت دلوقتى بقى زى الفل ويشرف .

ـ المهم أن ماما محتاجة شوية هدوم أو على الأقل طقم تلبسه تستقبل بيه الناس . كانت تلك ملاحظة مهمة من بسمة . أستفزت نعمة : نورا تجهزلها بدل الطقم عشرة . عقبت بنبرة جافة : أغسل أيديه من الأكل وأبقى أخد مقاساتك وبكرة أشوفلك حتة قماش فى الأتيليه أعملهالك فستان . مالت بسمة بصدرها عند حافة المائدة : وأنا عن نفسى حأخد ماما بكرة أنقيلها شوز وأجيبلها شوية حاجات داخلية .

ـ كل القلق ده عشان زيارة الجيران .. فركت أيات يديها : دول مش أى جيران يايوسف دول ولاد الأصول اللى بقو زى حتة الدهب وسط كوم صفيح !.. ساخرة كعادتها بسمة : دهب أيه وصفيح أيه ياعمتى دول يادوب يتعدوا على الصوابع وقريب أوى حينقرضوا . تنويه ساخر قابلته نورا بأسترخاء : ليه بس يافقرية .

ـ مش هيه دى الحقيقة .. عندك مدام زيزيت عايشة لوحدها ومقطوعة من شجرة والخواجة كرم شبها وعندك عمو خيرى يادوب ماحيلتهوش غير شريف والتانى مهاجر .. أدى ياستى سكان العمارة الطويلة العريضة حتى عم نوح حاله من حال السكان عايش بطوله مع مراته العيانة . مدت هدى رأسها : البركة بقى فى الجيل بتاعكم هو اللى حيعمر المكان وحيحييه من جديد لما تتجوزوا وتملوه عيال .. هى دى سنة الحياة . لم تستطع بسمة حبس ضحكة منفلتة : جيل أيه بس ياماما .. العمارة كلها مافيهاش غير جوزين بس من الجيل اللى بتقولى عليه ده منهم جوز على شمالك أنا ويوسف وعلى يمينك فى فردة من الجوز التانى الأنسة نورا والفردة التانية شريف وده بقى تسألى عنه الأنسة وهى تفيدك . بينما أفصح يوسف عن معلومة : شريف قابلنى أمبارح وأشتكالى منك يانورا وبيقولى أنك بقيتى أخر طناش معاه ومكبرة دماغك . أحتدت نبرتها : خليك فى حالك يايوسف . هز رأسه وأبتلعها دون تعليق .. فى محاولة للفهم أرادت هدى أن تستفسر ، إلا أنها قررت أن تنهى اليوم على هذا الحال دون توترات : قومى معايا يابسمة نشيل الأطباق .

ـ حاضر ياماما . ظلت نورا فى مكانها تتأمل أمها وكأنها تستوعب شيئا تحاول فهمه أو وضع جديد تحاول هضمه .

فى مساء اليوم التالى تأهبت بسمة للخروج مع أمها وكعادتها لم تستهلك وقتا طويلا فى تبديل ملابسها، دائما ما تضع نفسها فى قالب سهل من الملابس البسيطة لايخرج عادة عن بنطلون جينز وتيشرت مع ماكياج خفيف بينما لم يكن الحال سهلا بالنسبة لهدى التى تربعت فوق سريرها بقميصها الداخلى تقيس ماتبقى من ملابسها القديمة التى أستدعتها من جوف خزانتها وكومتها أمامها وصارت لاحول لها ولاقوة ، البلوزات والفساتين ضاقت عليها وضاقت بها وحتما ستحال لصندوق الذكريات . شعرت أن شيئا قد أمتلكته قد ضاع منها، تمنت لوأن تخرج مع بسمة بشيىء جديد ، فتدخلت الأخيرة وعثرت لها على حل سريع يفى بالغرض مؤقتا حين أستعارت لها بلوزة وبنطلون واسع من الفخدين حتى الساقين

من دولاب نورا لكنه كان ضيقا عليها عند الخصر.. عاونتها بسمة فى تبديل ملابسها وحبست لها أزرار البلوزة فى عروته وشدت لها الكم وهى ترسل لها أبتسامة : أيه القمر ده اللى واقف قدامى .

ـ يابنت يابكاشة أنا خلاص راحت على .

ـ راحت على مين ياقمر طب والله أنت أخرك بالكتير تلاتين سنة . ضحكة مصحوبة بحالة معنوية مرتفعة وهى ترد شعرها للوراء بفعل فرشاة تحت أشراف أبنتها : سيبك منى المهم أنتى ياحبيبتى أنا نفسى ومنى عينى ييجى اليوم اللى ألبسك وأهندمك بأيديه وأسلمك لصاحب النصيب . أبتسمت وهى تفتح حقيبة يديها تسحب منها زجاجة برفان مكورة باغتت بها أمها برشة حول العنق وتحت الأبطين : صاحب النصيب ياماما حيتخرج كمان شهرين بس مشكلته عويصة أوى .. ماعندهوش كاش . أدارت لها هدى ظهرها لتواجهها من خلال المرآة : تقصدى أمجد .

ـ هو فى غيره ياماما.. مش أنا كل زيارة كنت بأحكيلك كل حاجة .

ـ متأكدة كنتى بتحكيلى كل حاجة .

ـ طبعا .. بس يمكن فيه شوية تفاصيل كنت بأعديها عشان يوسف كان دايما قاعد وسطينا . واصلت هدى تعقيبها وهى تخرج من الغرفة تتبعها أبنتها : ع العموم مادام هو كويس وأبن حلال أنا ماعنديش مانع ياحبيبتى . توقفت قبل أن تصل إلى باب الشقة : المشكلة مش فيكى ياماما .

ـ تقصدى يوسف يعنى .

ـ ياريت .. المشكلة فى نورا .. كل ماأتكلم معاها عن أمجد وأجيب سيرته تكشر فى وشى وتقولى أنا مش مرتاحة له ده مالهوش مستقبل والحكاية مش ناقصة فقر ، صمتت هدى ولم تعلق وهى تكتشف يوما بعد يوم حجم نورا الحقيقى داخل كيان البيت .

رفضت هدى ركوب المصعد وأستعملت السلم ، أرادت إلا تلفت أنتباه أيا من سكان العمارة وفضلت الخروج المتخفى السريع .. شعور يتنامى داخلها بالحرج ، ربما من هيئتها أو من لقاء مباشر مع أحد من الجيران دون تمهيد مسبق قبل أن تستعيد توازنها . خرجت من مدخل العمارة بخطوات مرتبكة خجولة تكاد تدفس نفسها فى جسد أبنتها التى بادرت بتهدأتها : خليكى طبيعية ياماما .. مالك ماشية

خايفة ليه ؟ . أدلت برأسها للأرض : أعذرينى يابسمة دى أول مرة من تسع سنين أمشى على أسفلت غير أسفلت السجن .. حاسة كده زى ما تكون الشوارع بقت واسعة أوى .

ـ أنسى بقى قصة السجن دى وخليكى بنت النهاردة وأمشى كده فاردة طولك ، ده أنا ناويه النهاردة ألففك لف وحأجيبلك شوية حاجات حتخليكى ترجعى زى زمان فاتنة العمارة .. أبتسامة خجولة قبل أن يتردد على شفتيها تساؤل : هو أنتى معاكى فلوس يابسمة .

ـ ماتقلقيش نورا أديتنى بالزيادة . هزت رأسها ولم تتمكن من التعقيب حين فاجأها مشهد ميدان محطة الرمل بحركته المرورية المضطربة وأختلاط اللحم البشرى بصاج السيارات يزاحمهما عربات اليد المتجولة وسط رائحة العوادم والعرق بينما الليل يتخلل كل تفاصيل المشهد فى حين هدى وبسمة تشقان طريقهما وسط الخلق تهربان من الزحام ونظرات العيون الجوفاء والوجوه المجهدة والخطى المتسكعة المتعبة .

أستقبلت هدى تلك الصورة بملامح شرهة تنم عن رغبة عارمة فى ملء عينيها بتفاصيل الدنيا . جعلها تتلكأ فى مشيتها وتتوقف بنظرات مشدوهة ناحية العمارات الضخمة التى ظهرت فجأة ، كما أستوقفها كم البشر المتكتل فى الشوارع فطرحت سؤالا ساذجا : هو النهاردة فى مناسبة ولا أيه . بدون أكتراث : الزحمة دى بقت كل يوم .. الشوارع ضاقت على الناس . لم تقتنع ومدت يدها تشد على ذراع أبنتها خوفا من الضياع فى المتاهة والفوضى بينما عينيها تتطلع فى ملامح الخلق المهمومة تتفرس فى الوجوه بدهشة طفل ثم تنقل نظراتها لواجهات المحلات ونوافذ العرض المزدحمة ببضائع تشى بتدنى الذوق بينما لايخلو المشهد كله داخل المحلات من ضجيج تعلوه كلمات المساومة ويشوبه أحيانا تعليق ماجن .. وقفتا أمام محل ضيق لبيع الأحذية وأوليتا الناس ظهريهما حين لمحت بسمة حذاء أسود بكعب عالى داخل محبسه فى الفاترينة ، عاينته وفحصته جيدا بعينيها ثم قالت : أيه رأيك فى الشوز الأسود ده . لم تجيبها بدت شاردة تندس بنظراتها فى كل زحام ، غير أنها أستعادت وعيها على صوت أبنتها : ركزى معايا شوية ياماما وبصى على الشوز الأسود ده . منحته نظرة طويلة ثم أبتسامة : جميل أوى . بينما صاحب المحل فى تلك اللحظة يرصدهما بنظراته المترقبة حتى دخلتا وأنحشرتا فى أحد أركانه قبل أن تشير له وتوجهه لموقع الحذاء فتناولته من يده وقلبته بسمة بين أصابعها بالتبادل مع أمها . دقائق وخرجتا من المحل بصحبة الحذاء بعد سداد مائة وخمسة وخمسون جنيها بينما أنتاب هدى فرح طفولى أستوطن ملامحها ، أصبحت الدنيا الأن فى نظرها غير الدنيا وكل شيىء فيها أخذ لونا جديدا

يبتسم فى عينيها ولولا خوفها من أن يظن بها المارة الجنون لغنت متجاوبة مع أحاسيس الحرية غيرأنها ترجمت حالتها بعبارة عفوية : أنا فرحانة أوى يابسمة حاسة كده كأنى رجعت عشرين سنة لورا . تمضيان فى شارع صفية زغلول بأتجاه منطقة المنشية : الفرحة دى كلها عشان حتة جزمة .

ـ لا ياحبيبتى مش حكاية جزمة ، الحرية حلوة يابنتى وكفاية أنى ماشية جنبك وفى وسط الناس وده بالنسبة لواحدة زيى كأنها معجزة كنت من كام يوم ست مسجونة ولسه قدامها كام سنة على الخروج .. حكمة ربنا فوق كل شيىء .

ـ يأمى ياحبيبتى أنا قلتلك أنسى بقى اللى فات .

ـ ماشى يابسمة حأنسى بس فهمينى أحنا رايحين على فين .

ـ حأعزمك على سندوتشات كفتة تحلفى بيها . أبطأت خطوتها : بس أحنا كده حنتأخر .

ـ عندك حق ياهدى . قالتها ووقفت ثم مالبثت أن فتحت شنطتها وسحبت من داخلها الموبايل: وأدى ياستى الموبايل كمان حنقفله قبل نورا ما تتصل وتعملنا حكاية وتستعجلنا . ظهر عليها القلق : نورا كده حتزعل وحتعمل مشكلة .

ـ كبرى دماغك ياماما نورا من غير حاجة زعلانة على طول ومتنشنة وعصبيتها اليومين دول زادت أوى . سارتا بتمهل .. تعيد هدى صياغة سؤالها : أنا حاسة كده أن نورا أتغيرت وماعدتش زى الأول .

ـ أزاى يعنى .

ـ من يوم مارجعت البيت لغاية دلوقتى ماحاولتش تقعد معايا تحكيلى ولاتفضفضلى وبصراحة أنا مش فاهمة أيه السبب . قالت جملتها وشمل الحزن وجهها بينما شدت بسمة عنقها لترتفع بنظراتها فوق الرؤوس الممتدة بطول الرصيف حين بات مطعم الجمهورية فى مرمى البصر : نورا طيبة وبتخاف علينا وكل طلباتنا بتحاول توفرها لنا بس الضغوط والظروف بتخليها جافة شوية فى التعامل .

ـ ضغوط أيه يابسمة . قالت عبارتها بصوت عالى حين زاد الضجيج حولها ونفير السيارات يصم الأذان ورائحة الكفتة تقتحم الانوف مصدرها مطعم الجمهورية التى أحاطت بمدخله جمهرة من الزبائن : ماتنسيش أنها مسئولة عن البيت كله من أوله لآخره وبعدين مصاريفنا بقت كتير أوى ياماما .

ـ عندك حق كتر خيرها فعلا واحدة غيرها كانت فكرت فى نفسها وفى مصلحتها . ثم أطرقت رأسها قبل أن تعاود : لكن فهمينى هو أيه اللى حصل بينها وبين شريف شايفاها كده متغيرة من ناحيته . بأداء سريع حين أقتربت من الجمهرة : خلينا دلوقتى فى سندوتشات الكفته وبعد كده حأقولك كل حاجة . ثم سحبتها من يدها ونحتها جانبا : أستنينى هنا على جنب وأنا حأعيش مع الزحمة دى . أطاعت الأمر وبدت كصندوق الأمانات بعد ما تسلمت منها شنطتها وكيس الحذاء .. أقتحمت بسمة دائرة الزحام مستفيدة من لياقتها وليونة جسدها وهى تتلوى بين الأجساد كالدودة حتى تصدرت المشهد وصارت وجها لوجه أمام البائع بينما أمها لازالت تبحث عنها من خلال زاويتها . عشر دقائق وخرجت كما دخلت بنفس الأداء محملة بكيس عليه شعار مطعم " الجمهورية " وعيناها مركزتان تجاه أمها التى أستقبلتها بضحكة وتعليق : يابنت العفاريت ده أنت خلصتى نفسك بسرعة . فتحت الكيس ومدت يدها تسحب سندوتشا : عيب ياماما ده أنا متدربة على الأفلام دى .. أمسكى وكلى وقوليلى رأيك . قضمة صغيرة أستساغت طعمها فتبعتها بأخرى كبيرة وهى تردد بحشرجة: طعمها حلو باين عليها لحمة بلدى.خطوات متسكعة وكأنهما صعلوكتان بلا هدف ، ثم أعادت تكرار نفس السؤال : أحكيلى بقى حكاية نورا مع شريف . قالت بصوت غير مؤهل لخروج نبرة نقية حيث لاتزال الكفتة فى مرحلة الطحن بين الفكين : الحكاية ببساطة ياستى أن نورا عمرها ماحتتغير من ناحية شريف أبدا مش عشان هيه بتحبه من صغرها .. لأ ياماما الحكاية أكبر من كده بكتير ، شريف بالنسبة لها حتة منها يعنى زى ماتقولى كده مزروع جواها وقريب منها لدرجة ماحدش يتصورها .. شريف هو الفرحة الوحيدة والحاجة الحلوة اللى فى حياتها من يوم مأنتى مشيتى من البيت ورحتى اللى مايتسمى ، كان هو النور الوحيد فى الأيام السودة اللى شفناها فى الأول ، كانت تصرفاته معانا كلها رجولة وأكبر من سنه وكفايه أنه هو اللى شجع باباه يقف معانا ويساعدنا فى الدروس وهو اللى خلى الخواجة كرم ياخدنا معاه كل جمعه نصطاد وعمرى ماحأنسى ياماما لما كان يحوش من مصروفه وهو فى الكلية عشان يجيب لنورا شوز ولا تيشرت حتى أدوات المدرسة بتاعة كل سنة كان لازم يجبهالى أنا ويوسف ولما كان أخوه نادر يبعتله فلوس من أمريكا عارفة كان بيعمل معانا أيه . كانت ساهمة تستغرب تلك المثالية : عمل أيه ؟!.

ـ أشترى ليوسف تلات أطقم أخر شياكة عشان دخول الجامعة . حكت بأصبعها مؤخرة رأسها : أنتى كده قلقتينى يابسمة .. بقى الرجولة والشهامة يبقى جزاءها المعاملة الجافة دى ونكران الجميل . طب أزاى . كانت قد أنتهت من أكل السندوتشات وحوطت فمها بمنديل تمسح ركنيه : عايزة الصراحة ياماما

الأمور كلها أتغيرت وأتشقلبت لما نورا أشتغلت عند زيزيت فى الأتيليه و بقى وقتها مشغول وضيق لدرجة أنها بطلت حتى تتصل بيه غير فين وفين .

ـ كلام مايدخلش الدماغ يعنى أى حد يشتغل ينسى الناس اللى بيحبهم ويتخلى عنهم .

ـ واللـه هو ده اللى حصل ياماما وأحتمال تكون نورا أتغيرت لمابقت الكل فى الكل فى الأتيليه ومرتبها بقى بسم اللـه ماشاء اللـه كبير والدنيا زهزهت معاها وبقى شريف مش مهم فى حياتها وهيه ماعدتش زى الأول وماتسألنيش ليه ؟ .. سكتت لحظة ثم أردفت : ساعات كتيرة بأبقى مش فاهمة نورا بتفكر أزاى أو عايزة أيه بالظبط . سحبت نفسا ثم قالت فى تعجب : المفروض أنك عايشة معاها ليل ونهار وأنا عارفة أنها مابتخبيش عنك أى حاجة .

ـ صدقينى ياماما فى تصرفات كتيرة بأبقى مش قادرة أفهمها زى تصرفاتها مع شريف فجأة تقلب عليه وتهرب منه من غير سبب وفجأة برضه تلاقيها بتحبه أوى وتكلمه فى اليوم عشرين مرة . أطلقت هدى ضحكة ساخرة : يعنى أنا كمان شربت من نفس الكاس اللى شرب منه شريف قاطعتنى وبطلت تزورنى فجأة ومن غير سبب . لم تعثر على أجابة شافية : كبرى دماغك ياماما هى دى نورا .. ظهر التعب على خطوات هدى وتخلفت عن بسمة مسافة متر قبل أن تلتفت اليها الأخيرة : شدى حيلك شويه ياماما أحنا قربنا على منعم . أنكمشت ملامحها : منعم مين ؟ .

ـ ده الكوافير بتاعى أنا ونورا . تجر قدميها : هو أنتى محتاجة كوافير ده أنتى زى القمر .

ـ مش عشانى المرة دى .. ده عشانك أنت ياجميل . مرت بيدها على شعرها وبشرتها : أنا يابسمة.

ـ أيوه أنتى ياماما ده أنا ناوية أخليكى قنبلة العمارة . لمعت تلك الجملة فى رأسها وتوجهت تتبعها دون تعليق وبدت مستسلمة وظلت صامتةإلى أن وصلتا عند تقاطع شارع الفلكى مع شارع السلطان حسين حين أشارت لها بسمة : هو ده منعم الكوافير . أجتازت عتبة المحل .

ـ أيه النور ده كله . كانت تلك أول كلمات منعم حين دخلت بسمة ومن خلفها هدى ، فصافحته بحرارة قبل أن تبادره بجملة أستباقية : الزيارة دى مش عشانى .. دى للمزة اللى ورايا . أنحرف برأسه يمينا : أهلا وسهلا شرفتينا يامدام . تنويه لابد منه وهى تقربها لجوارها : أولا دى ماما وعندنا بكرة مناسبة .. يعنى تستلمها منى بوضعها ده وتسلمهالى بالكتير أوى بنت عشرين سنة . رماها بنظرة لطيفة مثل

صوته : ماتشغليش بالك مامتك جمالها ربانى وشوية الشغل اللى حأعملهم حيخلوها ماحصلتش . تسلمها برقة وأجلسها على الكرسى الضخم حتى أرتخى جسدها المنهك وتركت له شعرها ووجهها وديعة بين أصابعه . صال وجال حولها كراقص باليه يصفف ويرسم وينحت بينما فى الخلفية جلست بسمة كمراقب جودة لا تتأخر عن تقديم نفحة مديح كلما أنهى جزءا بنجاح : اللـه على أيدك يامنعم يافنان .

ـ مرسى . أتخذ العمل منه مايقرب من ساعة وربع حتى أنحسرت عن وجهها تفاصيل السنوات الكبيسة ورحلت غير مأسوفه عليها ، وعندما قرر منعم الأفراج عنها بكفالة مائتين جنيها شملت تصفيف الشعر وصبغه وتنظيف الوجه ورسم الحواجب خرجت هدى لجماهير شارع الفلكى أمرأة مثيرة تلتهمها العيون المتفحصة التى أثارت فرحة بسمة: شايفة ياماما الناس حتاكلك بعينيها واللـه أنا مامصدقة نفسى أنتى بقيتى واحدة تانية خالص بالظبط شبه ممثلات المسلسل التركى .

ـ طب خلصينا يابسمة أحنا أتأخرنا أوى .أتجهتا بخطى سريعة للمنزل وقد دب فيهما نشاط غلب عليه طابع المرح وخاصة هدى التى شعرت بأنه قد عادلها نوع فريد من الأرتباط ببسمة .. أرتباط غير مشروط .. محبة تتجاهل كل ماحدث فى حياتهما معا من فراق ألما بها .. شجعتها بسمة بماتملكه من براءتها القديمة وأندفاعها السهل للحياة .

مع دقة الثانية عشر منتصف الليل فتحت بسمة باب الشقة .. التلفزيون فقط كان يضيىء الصالة ويعكس نوره .. ملامح منفعلة تسكن وجه نورا المتصلبة فى جلستها قبل أن تنتفض من مكانها متجهة ناحيتهما فأستعدت لها بسمة بأبتسامة مرتعشة بينما توارت هدى خلف ظهرها بحجة غلق الباب . أقتربت منها بعصبية بعد أن ضغطت على زر النور فأضاءت النجفة كشافاتها ففضحت ملامحها التى كساها الغضب قبل أن تنفث جزء منه فى شكل سؤال أجبارى منفعل : كنتو فين لغاية دلوقتى وسيادتك قافلة الموبايل ليه ؟ . قبل أن تسترجع أنفاسها من صعود السلم : لفيت شوية أنا وماما أشتريت لها جزمة وأكلنا سندوتشات وبعد كده عدينا على منعم الكوافير . تحولت بعينيها تعاين رأس أمها فى غضب : ماينفعش الكلام ده ياماما أحنا هنا لنا نظام ماشيين عليه من سنين وماينفعش نغيره . ثم نقلت بصرها لأختها متوعدة : من أمتى بتقضى الوقت ده كله بره البيت .. هو أيه اللى جد علينا أنا عايزة أفهم : كانت طريقتها فى نطق السؤال صاعقة وموحية بينما ظلت هدى صامتة تقف بلا حيلة وأدلت رأسها للأرض بعدما ولت عنها علامات الفرح وأحتلها نوع ثقيل من أحاسيس غريبة لم تعرفها من قبل

إلا أنها حاولت تلطيف الأجواء : خلاص يانورا حصل خير . لم تتخلص بعد من عصبيتها : لأ مش خير ياماما .. يعنى أنا أفضل قاعدة مستنية ودماغى عمالة تجيب وتودى والقلق حياكلنى وتقولى خير .. ثم وجهت غضبها فى وجه أختها : الموضوع ده مايتكررش تانى يابسمة وياريت ياماما لوسمحتى تمشى على نظامنا . حاولت هدى تجاهل كلماتها فأخذت تدعك ذراعيها لتمنح نفسها بعض الهدوء .

خرج يوسف مذعورا من غرفته بشورت يحاذى ركبته وفانلة زرقاء سواريه على صوت أخته المنفعل وكعادته بسط الأمور وهونها قدر أستطاعته بعد أن سمع من نورا وجهة نظرها فحاول أن يبدو منطقيا ومقنعا وغير منحاز بالرغم من جو الأرهاب التى تمارسه نورا : طب أهدى شوية يانورا وأسمعينى .. ماما الغلط مش عليها بسمة كان لازم على الأقل تتصل تطمنك . لازالت فى نبرتها سلطة حائرة أتقنت أدائها : أنا لغاية دلوقتى مش قادرة أفهم أزاى قدرتى تسيبينى الوقت ده كله قلقانة ومتوترة ثم ختمت جملتها بملامح مستائة وأندفعت إلى غرفتها وأوصدت بابها فى وجه الجميع بينما نظرت بسمة لأمها ولامت نفسها بشدة ومطت شفتيها أسفا : معلش ياماما ماتزعليش منها هيه دايما بتبقى عصبية لما بتقلق علينا . أما هدى فى تلك اللحظة كان فى وسعها أن تحتوى المشهد كله فى ذاتها وهى تستشعر مذاق المغلوب على أمره غير أنها لم تترجم شعورها إلى أحتجاج : ماحصلش حاجة ياولاد ونورا عندها حق . أقترب يوسف منها محاولا تغيير الموضوع ، لكن بسمة أرادت منه أجابة على سؤال خرج منها بنبرة غاضبة : يعنى أنت يرضيك اللى نورا عملته ده وبعدين هو أنا أتأخرت مع مين .. مش مع ماما ؟. لم يرد بأجابة قاطعة لكن شيئا فشيئا أخذت أرادته تتوارى ومنطقه يتخلخل وأصبح رأيه حبيس صدره : خلاص بقى يابسمة ماتعيديش وتزيدى شوية نرفذة وراحوا لحالهم . تركتهما هدى يتجادلان وأتجهت إلى غرفتها تحمل كيس الحذاء . أحست بأنها تخسر هيبتها .. هذه المرة كان لوجومها سبب آخر تتحاشى أن تظهره حتى لنفسها . يتسرب إليها ويأخذها الى خوف مستتر ، لم تلتبس الأمور عندها مثلما هى الأن .

<u>الفصل السادس</u>

مساء الخميس ..

البيت المشهود له بالهدوء والسكون أصبح أكثر صخبا وتحول ليل الصالة والصالون إلى بقعة من النور الفاضح لكل شبر فيهما بفعل كشافات تسكن فوانيس ذهبية داخل نجفتين عتيقتين مدعومتان بأضاءة

منبعثة من أسبوتات مدفونة فى أطراف السقف بينما صوت الموسيقى الهادر يخرج متبجحا من جهاز كمبيوتر فى غرفة يوسف موصول بسماعتين قاما بعملهما على أحسن مايكون ونجحتا فى خدش حياء المنزل التى أستنكرتها أيات بتأفف صامت وقلقلة فى جلستها وكأنها أكلان ينهش مؤخرتها الملتصقة بكرسى الصالون وهى تتابع صوت " ناسى عجرم " المايع بأنتفاضة تصدرعنها كل دقيقة : وطى الزفت ده شوية يابسمة . خرجت الأخيرة من غرفتها كى تضمن وصول صوتها من خلال الصخب : ياعمتى ياحبيتى فى ضيوف جايين دلوقتى عشان يباركوا لماما .. يعنى ماينفعش يسمعوا المزيكا بتاعتك . تلقت أذنيها التوضيح فأشاحت بوجهها فى أرف وهى تحدث نفسها : بقالى ساعة لابسة وقاعدة فى مكانى لا فيه حد جه ولا حد عبرنا لغاية دلوقتى . أنتاب الساكنين فى المنزل أحاسيس متفاوتة حيال تلك اللحظات وإن كانت حالة الرضا هى المسيطرة بعدما تملكهم شعورا حماسيا بعودتهم إلى بؤرة الأهتمام من جديد وبدى لهم أن الحدث له أهمية خاصة ، لذا كان الأستعداد جادا فى غرفة نورا التى أظهرت جدية وأهتماما بدت واضحة فى تسريحة شعرها الجديدة وحرصها على أن تبدو بمكياج مناسب .. وقفت متأنية أمام المرآه تستهل البداية برفع الرموش المرتخية لتقلبها لأعلى فى أنحناءة بفعل " ماسكرة " كان لها فعل السحر فى ظهور شكل العين براقا ومثيرا ثم مرت على الخدين قبل أن تتوقف يدها حين تبادلت النظرات مع أختها من خلال المرآة التى كانت فى كامل الجاهزية للخروج إلى الصالون : صبع الروج الفاتح اللى كان هنا راح فين يابسمة . أقتربت من خلفها وهى تتمايل كبندول الساعة : مش عارفة يانورا . واجهتها بنفخة ولم تعقب بينما أنفرج وجه بسمة عن أبتسامة مكر : ماسكرة فى العين وكريم أساس وشعرنا نازل على الكتفين وكمان بندور على صبع روج .. كل ده عشان خاطر زيزيت جاية ولا عشان الخواجة كرم وعمو خيرى . أزاحتها من طريقها قبل أن تجلس على طرف السرير تنتعل حذاءها : لأ وأنتى الصادقة ده عِشان عم نوح . لم تجد بسمة أداءا يصلح سوى " الغتاتة " : الشياكة دى بتقول أن شريف أكيد جاى مع عمو خيرى .. صح ولا أنا غلطانة ؟! وقفت وعدلت من وضع جيبتها السوداء لتحاذى مستوى ركبتيها قبل أن تضع ذراعيها داخل بلوزة " روز" رقيقة أضفت عليها جمالا كلاسيكيا من طراز " سعاد حسنى " : ماعنديش فكرة أن كان جاى ولا لأ . لم تستطع اختها مقاومة جملة أعتراضية: واللـه شريف ده ماحصلش وماعدش موجود منه دلوقتى كفاية رجولته وأخلاقه وكتر خيره أنه متحمل نرفذتك وعصبيتك و ياريت النهاردة تبقى لطيفة معاه وماتحاوليش تضايقيه .. شريف بيحبك أوى يانورا . لم تتلق ردا سوى نظرة مترددة ، فأنهت كلامها و خرجت من الغرفة وأغلقت الباب خلفها . بينما دارت نورا بعينيها كأنما تبحث عن رد إلا إنها لم تجد سوى نفس

الكلمات التى دائما ماترددها بينها وبين نفسها : واللـه أنا كمان بحبه .. أكتر من نفسى وأكتر من حياتى . شاع الآسى فى وجهها حين أردفت تدافع عن نفسها : ياخسارة ماحدش قادر يفهمنى حتى شريف بقى زيهم لا قادر يفهم الظروف ولا عايز يستوعب أن الزمن أتغير وكل حاجة أتغيرت . رنين جرس الباب كان كفيلا لأنهاء حوارها الداخلى فزاد أرتباكها قبل أن تودع المرآة بنظرة أخيرة عاينت فيها وجهها ثم أتجهت خارجة الى الصالة .

دخلت " زيزيت " فكانت أول الواصلين وقد مالت قسمات وجهها للفرح الشديد حين أستقبلتها بسمة : أهلا ياطنط .. أتفضلى .

ـ أزيك يابسمة .. هدى حبيبتى فين ؟ .

ـ حالا حتكون موجودة . تسلمتها نورا لحظة خروجها من غرفتها من منتصف الصالة حتى الصالون قبل أن تنحرف فى رشاقة ناحية أيات : أزيك يامدام أيات مختفية ليه اليومين دول . أستعادت الأخيرة نبرة الهوانم وقالت بأداء راقى : أهلا يازيزيت أتفضلى ياحبيبتى . توجهت عند أول كرسى على يمين الصالون جلست مشدودة منتصبة كما لو لم ينتقص الزمن من تفاصيلها شيئا وبدت متحررة لينة داخل ملابس عصرية يصعب تصنيفها على مقياس الموضة .. هل هى أخر صيحه من تصميمها أم أنها ملابس مجنونة أستجلبتها من بلاد ماوراء البحار .. ارتدت بنطلون كاكى ضيق حول المؤخرة واسع من الفخدين ومنكمشا حول الساقين بينما غطت جزءها العلوى ببلوزة بيضاء بياقة صغيرة وقصيرة الطول تحازى حافة البنطلون .. لحظات وتسلل لأسماعهم صوت يشبه بزقزقة فأر " سيسى " كان مصدره حذاء هدى الجديد حيث لازال فى مرحلة " التزييق " ظهرت من ناحية غرفتها متجهة إلى الصالة ومنها للصالون بخطوات متمهلة داخل ثوبها الأنيق الذى أشرفت على أنتاجه وأخراجه نورا وبمشاركة من زيزيت على أستحياء بينما شعرها الأسود الكثيف تهتز خصلاته مع حركة الحذاء أبو كعب ، فبدت فى مشيتها كفتاة أعلانات.. وقبل أن تجتاز أعتاب الصالون لمحتها زيزيت فقامت من مكانها ببطء فاغرة فاها وأتسعت عيناها وقد أعلنت ملامحها عن دهشة مضاعفة بانت فى عفويتها : واو .. مش ممكن . ثم تماسكت حين أبتعدت خطوتين عن كرسيها تأهبا لأندفاعة لم تتأخر .. أقتحمتها فى عناق حار تحول إلى بكاء وتدافعت على لسانها عبارات التهنئة منفعلة باهتياج الفرحة : وحشتينى وحشتينى ياهدى .. حمد اللـه على سلامتك ياحبيبتى . قالتها بنبرة مرتعشة . لم تستطع هدى منع دموعها : ربنا يخليكى يازيزيت واللـه أنت كمان

وحشتينى أوى وكنتى على طول فى بالى ودايما بأوصى نورا عليكى وكتر ألف خيرك ياحبيبة قلبى على كل اللى عملتيه معايا ومع ولادى .

ـ عيب ياهدى ماتقوليش كده أنا ماعملتش حاجة خالص أنتى ياحبيبتى اللى عملتى كل خير معايا والفضل يرجعلك فى اللى أنا فيه . حضر يوسف من غرفته عند نهاية الجملة فاردا أبتسامة : أزيك ياطنط .. أيه الشياكه دى .

ـ أهلا ياهراب يا أونطجى أبنك خلاص كبر ياهدى على وعايش دور المهندس وبطل يعدى علينا فى الأتيليه.

ـ الدور ده أنا أعيشه مع أى حد لكن لغاية طنط زيزيت جميلة الجميلات ماأقدرش أبدا . بينما تراقب نورا حديث الوفاء المتبادل بين أمها وزيزيت بنظرة ثابتة غريبة قبل أن تصدرفرمانا أقعدوا واقفين ليه . تجاورتا على كنبة الصالون ودار بينهما همسا فشلت نورا فى ألتقاط أى همسة منه بفضل صخب الأغانى وصوت بسمة العالى وهى تبدى رأيا واجبا ليوسف : كنت لبست التيشرت الأسود أحسن من القميص الضيق ده .

ـ أنتى مابتفهميش فى الذوق . أثارت تلك الضحكات الممتدة حفيظة نورا حين أنتهى الحديث مع نهاية حديث الهمسات الذى كان له آثرا جميلا لازال عالقا فى عيني هدى : واللـه أنا أول مرة أضحك من ساعة مارجعت البيت . نوهت عن ذلك وأسترخت فى جلستها فأنكشفت ساقيها الرخاميتين ببياض وردى ، فكان لزيزيت تعليق : أيه الجمال والحلاوة اللى بقيتى فيها دى .. ثم مالت عليها وأردفت : أنتى كنتى فين بالظبط التسع سنين اللى فاتوا ؟! ثم أغمضت عينيها تمنع ضحكة بريئة : كنت فى دنيا غير الدنيا .. دنيا ربنا مايكتبها على حد . ربع ساعة من الرغى المتبادل قبل أن يتحول لحديث جماعى شاركت فيه نورا وبسمة كما ساهمت أيات ببعض الأراء عن أحوال الدنيا ثم أحوال الأتيليه على لسان زيزيت . كان الحوار كافيا لأستعادة هدى بعض الثقة فى أول لقاء مباشر مع صديقتها الحميمة فى حين لم تكن تلك المدة كافية لأنهاء عملية الفحص والمعاينة التى بدأتها زيزيت فى وجه هدى وتفاصيل جسدها وكأنها تحاول أسكات أسئلة الدهشة والأستغراب وهى تردد داخلها : أكيد السجون فى مصر أتطورت أوى !.. لم تمض لحظات وكانت هدى فى صدارة باب الشقة تستقبل الدكتور كرم سباستيان وتابعه نوح ، قابلتهما بأبتسامة صغيره سرعان ماكبرت حتى شملت وجهها : أهلا ياخواجة كرم .

ـ أهلا يامدام هدى حمد اللـه على السلامة . صافحها وأفسحت له ممرا للدخول ثم ناولها هدية مكفنة فى كيس أبيض عليه حروف ذهبية تشى عن وجود برفان من النوع الغالى .. تسلمته منه بحرج بالغ : ليه كده ياخواجة كرم ده المفروض أنا اللى أقدملك هدية على تعبك مع ولادى وعلى رحلات كل جمعه . لم يمهلها وعاجلها ضاحكا : أنا صحيح مش مصرى لكن أفهم كويس فى الأصول . أنهت مراسم الترحيب بضحكة تابعها نوح الواقف عند حدود باب الشقة : أدخل ياعم نوح واقف ليه . نفذ الأمر وأصطحبتهما إلى الصالون وأجلستهما على الكنبة بأشارة من يدها بعدما رحلت عنها زيزيت إلى كرسى مجاور لأيات حرصا منها كى تأخذ سمنة الخواجة المساحة المناسبة التى تليق بكرشه المترهل بينما لايزال وجهه يحمل قسماته القديمة وإن أصابها الكثير من التغيير ، فالذقن زادت كثافة وتراجع شعر رأسه خاصة عند المقدمة وتضاعف مقاس نظارته على الأقل درجتين .. بادر نوح المنزوى بجواره : واللـه فرحتنا كبيرة أوى ياست هدى والحمد للـه على رجوعك سالمة من المحنة الكبيرة .

ـ كتر خيرك ياعم نوح والحمد للـه على كل حال . قاطعت بسمة : ياسلام على كلامك الحلو ياعم نوح كأنك واللـــه بتقول شعر .

ـ أنت فين ياخواجة مختفى ليه عن الصورة .. أنا بقالى مدة ماشفتكش . سؤالا طرحته أيات وكانت أجابته حاضرة : ياأيات هانم أديكى شايفة أحوال البلد ماعدش فى أمان زى الأول وبقى الخروج دلوقتى صعب حتى الصيد بتاع كل جمعة بقى ماينفعش اليومين دول ..

ـ اللـه يرحم أيام زمان كان يوم الجمعة عندنا زى يوم العيد بحر وصيد وسمك ولعب . كان ذلك الترحم من نصيب يوسف . فى حين ظلت نورا صامتة يغلب عليها التوتر والقلق ولم تنطق بكلمةإلا بجملة مقتضبة حين لاطفها الخواجة : خلاص يانورا نسيتى أنكل كرم وبطلتى تسألى عنى .. طب مكالمة حتى بربع جنيه مش حتكلفك حاجة .

ـ معلش يا أنكل أعذرنى وقتى بقى ضيق جدا ويادوب باجى البيت على العشا والنوم بس وعد منى الأسبوع اللى جاى حنخرج نتمشى سوا زى زمان وأحكيلك وتحكيلى . أبتسامة ماكرة أضاءت وجهه: أنا وأنتى بس ولا فى حد تانى حيبقى معانا . جاملته بنصف أبتسامة ثم قامت من مكانها : عن أذنكم دقيقة واحدة . ربت الخواجة على كرشه حين طرحت عليه زيزيت عرضا : حأستناك بكره تشرب معايا القهوة فى الأتيليه عندى شوية كتالوجات لسه جايالى من قبرص ومتهيألى الكتابة اللى عليها باليونانى ياريت تترجمها لى .

ـ أوامرك يازيزيت . بينما كانت نورا تتحرك فى الزاوية المخفية بين الصالة والصالون بخطوات قلقة وعصبية ، لمحها يوسف من ركنه وراقب توترها فقام متجها ناحيتها وبداية أبتسامة خبيثة تتلاعب فى عينيه حين أقترب من خلفها : ماتقلقيش زمانه جاى دلوقتى . أرتبكت وهى تستدير نحوه : هو مين ده ياسى يوسف ؟. خفض من صوته : هو فى غيره .. شريف اللى بقالك شهرين مقاطعاه من غير سبب .

ـ آه .. هو بقى اللى أشتكالك .

ـ هو بطل يشتكى يانورا باين عليه فقد الأمل . شعرت بفجاجة موقفها وبدت وكأنها فى أزمة طارئة وقبل أن تجيب أقتحمت عليها بسمة الكدر : عمتى بتقولك تعالى أقعدى مع الضيوف . تنهدت ووجهت كلامها لأخيها : حاضر جاية .. روح أنت يايوسف أقعد مع الضيوف . أنسحب وتركها مع زفرة ساخنة تعيد تقييم حساباتها .

فى تلك الأثناء خرج خيرى من شقته تقوده خطاه إلى أن وقف أمام شقة هدى يتبعه شريف كـ "بودى جارد " . أصلح خيرى الكرافت والقى نظرة متأنية على حذاءه بينما أبنه يراقبه مستغربا : أيه الحكاية يابابا حضرتك فاكر أنك جاى معايا تخطبلى ولا أيه .

ـ التفاصيل الصغيرة دى ضرورية يابنى أدم .. مش كفاية اللى أنت عاملة فى منظرك ده .

ـ ماله منظرى ما هو زى الفل .

ـ فى حد يروح يزور ناس فى مناسبة ببنطلون جينز وتيشرت هو أنت رايح رحلة .

ـ موضة يابابا . تلقى المعلومة وضغط على جرس الباب الذى دوى رنينه داخل الشقة فأستقبلت نورا صداه برعشة وارتباك طفولى وكأن شيئا ما تحرك داخلها ودب فيها نشاط مفاجىء وأتجهت بحماس إلى باب الشقة إلا أنها توقفت فجأة . تسمرت مكانها ثم تراجعت ، لم تستسغ حالة الهرولة فعدلت أتجاهها وأشارت لأمها من خارج حدود الصالون : لو سمحتى أفتحى الباب ياماما . ألقت جملتها ورحلت فى عجالة تخفى نفسها خلف الستارة القطيفة المعلقة عند أول الممر المؤدى لغرفتها وأتجهت بعينيها ترقب الداخل حين تهيأت أمها لفتحه .. أنزاح الباب ليظهر وجه خيرى الذى أعد أبتسامة سابقة التجهيز قبل أن تتقلص على شفتيه وتختفى حين طالعته هدى .. وقف خامدا كالمصعوق ، لاشيىء فيه يتحرك .. أتسعت عينيه عن نظرة ثابتة كمن به مس ، تخلى عن حياءه وهو يتفحصها منبهرا .. داهمه بريق عينيها . ظل ساهما ينظر

اليها فبادلته نفس النظرات يسحبها بهيبته الخفية .. هيبة المثقف المتمكن، فهو رجل له جاذبية النضج الرصينة .. حدث نفسه وهو فى متاهة التأمل : معقول الجمال ده .. مستحيل تكون الست دى كانت فى السجن .. سبحان اللـه !! هيئتها وشكلها كانت شاهدا على المودة التى عاملها بها الزمن . مد يده وصافحها ، فأحس ببرودة فى أناملها وأرتعاشها قبل أن يأتيه صوت أبنه من خلف كتفه مربكا : هو أحنا مش حندخل ولا أيه ؟! نظر إلى وجهها فرأى الحياء يعلوه وقد أطرقت لا تستطيع النظر إليه ولكنها ظلت ممسكة يده بيدها . وبقيا لحظة صامتين ، كان هو كالتائه أو المسحور وكانت هى تستغربه ولم تعلق .. ثوان مرت بدت وكأنها تدور فى توقيت خارج حدود الزمن وكأنها لحظات مستوحاة من كتاب ألف ليلة وليلة صفحة لقاء الفارس بالأميرة وتحديدا سطر الهيام والأنبهار . ثم بدأ هو : حمد اللـه على السلامة يامدام هدى . نظرت إليه والخجل يملأها ، فجذبت يدها من يده : اللـه يسلمك ياأستاذ خيرى . تقدم خطوة وتبعه أبنه بعد أن فرغ من عناق هدى التى قالت ملاحظة وهى تحيط وجهه بكفيها : بسم اللـه ماشاء اللـه كبرت أوى ياشريف . ضحكة شبابية سبقت رده : أنا بقالى مدة على الحال ده ياطنط . قابلت تعليقه بضحكة أضافت إلى جمالها جمالا مثيرا ثم سارت تتقدمهما بينما ثوبها الأسود اللامع لا يتيح الفرصة للنظرات كى تثقبه ، لكنه يستطيع تحريض الخيال كى يحلق كيف يشاء ويتصور. أنضم خيرى الى بقية الضيوف بعد أن تلقى منهم ترحيبا حافلا ومميزا يليق بكيانه داخل العمارة . جلس فى ركن الكنبة بجوار نوح بتوجيه من الخواجة كرم وهو يتلفت باحثا عن مصدر صوت " عمرو دياب " بينما توجه شريف فى حراسة هدى ناحية الأنتريه المجاور للصالون كما أرشدته بخطواتها وكأنها تعد له جلسة خاصة بعيدا عن الضيوف ، إلا أنه لمح نورا تتحرك فى خلفية الصالةبالقرب من الأنتريه وهى تتابعه بنظراتها ، فما كان منه إلا أن رسم على وجهه نوعا من اللامبالاة ــ التى تعرفها وتعرف أنها غير طبيعية ــ لكنه ماكان يقدر على أن يبدوطبيعيا ، كما كان لا يستطيع أن يظهر اللهفة التى كان يخفيها داخله ، كما لم يستطع أن يتحرك أمامها بطريقة طبيعية فأغتنمت أرتباكه وسبقته للأنتريه وجلست على كرسيها المفضل فأستوت عليه وعلقت رجلا فوق آخرى بينما جلس هو قبالتها بأشارة من هدى : أتفضل ياحبيبى أقعد وخد راحتك ده بيتك ياشريف وكفاية اللى سمعته عنك وعن رجولتك وشهامتك .

ــ ماتقوليش كده ياطنط أحنا كلنا بنكمل بعض واللى بينا وبينكم يادوب حيطه . هزت رأسها مبتسمة وأنصرفت من أمامه . ثم أنحط أمام نورا صامتا وشد جسده على الكرسى ورسم تعبيرا متجاهلا وجودها ، غير أنه لم يستمر طويلا فتاملها دون أن يطرف له جفن .. أخر مشادة بينهما لازالت أثارها عالقة فى ملامحه .. بادلته نظرة طويلة ثم أنفرجت شفتيها عن أبتسامة ضيقة سرعان ماسحبتها لتعيد تشكيل

ملامحها بصورة جديدة حين أنقبض فمها وأنعقد جبينها وأرتخت عينيها .. كانت تشعر به متوترا أمامها ، أدلى برأسه للأرض ولم يستطع أن يرفع وجهه إليها . لحظة التوتر باعدت بينه وبين الرغبة فى تفحص ملامحها ومظهرها بينما هى تجيد قراءة وجهه جيدا وشعرت به يعيد ترتيب نفس الشعارات القديمة ويردد نفس العبارات والتبريرات بينما هى تزداد قناعتها كل يوم بأن لاشيىء حقيقى يتكون من ذلك " التفنيط " المتخلف و المستمر القابع فى عقله والذى تحول مع مرور الأيام إلى قناعة يؤمن بها بأن عملها لدى زيزيت يمتص قواها ووقتها وأحلامها أكثر مما ينبغى حتى كاد ينفجر بسؤاله الملتهب كلما رأها : نفسى أعرف السبب الحقيقى اللى خلاكى تتغيرى من ناحيتى .. ليه أنشغلتى عنى ومابقتش نمرة واحد فى حياتك زى زمان .. أنا خلاص زهقت ومابقتش قادر أتحمل طريقتك دى والحل الوحيد اللى قدامى أنى أخيرها بينى وبين شغلها .. لكنه أجل السؤال عدة مرات ، فهو يعرف أن كيانها كله مرتبط بعملها ، فأيقن أن هذا السؤال لا ضرورة له وحاول فى الشهور الماضية أن يستشف ماوراء عينيها عن معنى يصلح أو يساوى مقدار التغيير المتنامى الذى ضرب علاقتهما وأصابها بالفتور ، فكان كلما عاود طلبه فى الفترات السابقة للقائها كانت تطلب منه أن ينتظر لوقت أخر وتتعلل بجملة أسباب .. وتكرر الطلب والتأجيل والأنتظار ! كان يشك فى عواطفها نحوه . تلك الحالة لم يستطع فك طلاسمها وظن بوجود شيىء مستتر لم يستطع فهمه . لم يتصور فتاته تعيش يوما واحدا دون أن تراه أو تحدثه كما كانت دوما . هو يعلم انه قابع داخلها وسط منطقة معينة .. لا يمكن أن ينزعه من مكانه شيىء أخر . نظر إليها نظرته العميقة التى تعرفها جيدا فخضعت لها وفهمت ماتعنيه .. هو يبحث عن نورا القديمة . أغمض عينيه شاردا ورأى نورا الصغيرة وصورة وجهها فى كل رحلة صيد جمعتهما مع الخواجة كرم .. كيف كانت رقيقة وتثير الأحساس بالرأفة لبراءتها .. كل مافيها ينادى العين ويثير الشهية والرغبة فى لمس خدها الأبيض ، عندما كانت ترمى الصنارة ثم ماتلبث أن تشد وتشد حتى يحمر وجهها ويتورد ثم تعض شفتها بأسنانها وهى تحاول وشعرها يموج ومنابته فوق الغرة صارت حمراء ، فكان يتعقبها بنظراته وهى منحنية ورأسها فى مستوى ركبتيها فتحس بالخجل وتعدل من وضعيتها .. عاد الى اللحظة الأنية بأرتباكة حين أنتصبت أمامه بسمة تحجب عنه وجه نورا وهى تمد له صينيه بها كأسين من عصير البرتقال وهى فى حالة صمت تراقب سرحانه بينما سمع قهقهة الخواجة وهو يصيح : أيه ياشريف السرحان ده كله .. مد أيدك لبسمة وخد منها العصير .

جلست هدى منفردة على كرسى فى مواجهة خيرى لا تفصلها عنه سوى منضدة وعلى يمينها جلست أيات عاقدة ذراعيها تراقب حوارا ثنائيا بين يوسف وزيزيت بينما لاتزال هدى تعيش مرحلتها الأنتقالية بهدوء وثقة تحاول التعافى السريع والتخلص من الماضى .. تأملت وجوه جيرانها ، لم تعد الوجوه التى عرفتها

قبل دخولها السجن غير أطياف باهتة فى ضبابة الماضى .. تفحصت ملامحهم بعناية وهى ترصد فيهم حصاد السنين قبل أن تسحبها عينيها إلى وجه خيرى الذى ما زال على عادته معها من لحظة مجيئه يغرق نظرته فى نظرتها وهى ترصد تطلعه ونظراته الغارقة بأبتسامة خجولة تخصه بها بينما هو يمر بعيونه على جسدها كأنه يلمسها وحين أنزلقت عيناه إلى ساقيها .. هاهى تتيح له الفرصة ليتأمل ـ من غير قصد ـ سمانة الساق مكتنزة ومشدودة تقود إلى فخذين أملسين ـ بالتأكيد ـ وشديدى الأستدارة ـ حتما ـ يتدثران بدفء الثوب الأسود الذى يحتضن كل الكنوز المستورة .. ألتهب خياله قبل أن تعدل من وضع ساقيها الرخاميتين ثم سكنت ناعسة وأرخت أهدابها على عينيها وعلت وجهها حمرة ثم أنسحب حضورها وأختبأت فى شرنقة الحياء بينما رفع خيرى كأسه من العصير وكمن يتخلص من ضغط عصبى هائل جرع كأسه دفعة واحدة ولم ينتبه إلى بقية الحاضرين . أستغرقته اللحظة كما أستغرقتها فكان لابد من الخروج من الدائرة التى وقعا داخلها قبلما يشعر الموجودين بذلك خاصة وقد أنتابه شعور مفاجىء أنه يتصرف كمراهق ويخسر رصانته فأشاح بنظرته قبل أن يرتد بذاكرته إلى لحظات أخر لقاء مباشر جمعهما قبل دخولها السجن فى وقت اشتداد أزمتها مع القتيل " نسيم الشرقاوى " . لم يجد مهربا من عقد مقارنة سريعة بين ماكانت عليه ومآلت إليه إلا إنه خرج سريعا من المقارنات تأدبا منه أو خوفا على فساد الجلسة وتظاهر بالآصغاء لكلمة مديح تجرى على لسان الخواجة كرم : ياسلام عليك ياخيرى وعلى تحليلاتك اللى قلتهالى آخر مرة كلها طلعت مظبوطة وتمام وكأنك بتقرأها من كتاب . خرج من حالة المراقب ليتحول إلى حالة المخاطب : مش شطارة منى ولاحاجة ياخواجة المثل بيقولك الجواب بيبان من عنوانه والأخوان طلعوا أكبر مقلب شربه المصريين فى تاريخهم ، دول مجموعة من الناس تركيبتهم غير تركيبتنا وفهمهم للبلد غير فهمنا عشان كده أنكشفوا بسرعة والناس مابقتش طايقاهم وخد منى الكلمتين دول على مسئوليتى مرسى أخره معانا سنة بالكتير . أطل نوح برأسه من بين العملاقين : سنة أزاى بس ياأستاذ خيرى ده جلدهم تخين ولزقتهم مغرية . آثار هذا التوصيف ضحكات كرم التى أطلقها ببراءة وقد أختفت التجاعيد من عنقه حين مالت إلى الوراء قبل ان تستدعيه زيزيت بجملة تحذيرية : خد بالك من نفسك اليومين دول يادكتور كرم .. خطف الأجانب شغال على ودنه فى سينا وربنا يستر وماتوصلش الحكاية لغاية اسكندرية .

ـ واللـه يازيزيت بعد ثورة يناير دى لا حصلت أجنبى ولا حصلت مصرى الناس بتعاملنى فى الشارع على إنى سلفى ملتزم بلحية وناس تانية لما يدققوا فى شكلى يقولوا على راجل كبير وشايف نفسه وماشى ع الموضة . قالها ومازالت آثار الضحك عالقة بملامحه .

أراد يوسف الواقف مستندا بمرفقه على كرسى عمته أن يكون له حضورا : أنا لو منك ياخواجه أرجع اليونان أستخبى فيها كام شهر لغاية ما الدنيا تهدى شوية . داهمه صمت مباغت وسرت فى ملامحه تعبيرات حزينة وتلون بياض عينيه بخطوط حمراء خفيفة ثم قال بصوت متكسر : ماعدش ينفع يايوسف أتينا بقت غريبة على وماليش فيها حد .. أسكندرية دى بلدى اللى أتولدت فيها وشفت فيها أحلى أيام عمرى واللى إن شاء اللـه ناوى أموت فيها ومافيش حد يابنى بيهرب من بلده لما تتعب ولاتمرض وأوعى تصدق أن مصر حتفضل كتير على الحال ده ولا حد يقدر يتمكن منها لاتقولى أخوان ولا غيره وأسألنى أنا عن البلد دى . لم يتوقف بعدها عن الكلام لنصف ساعة كاملة راح ينبش فى صندوق ذكرياته وتوقف عند تواريخ عديدة كلها تؤكد أن مصر حاليا فى كبوة عارضة لكنها من نوع جديد ولاحقا ستمر منها . كانت محاضرة مؤثرة ختمها نوح نيابة عنه : الخواجة نسى يقول حاجة مهمة أنه لو فكر يرجع اليونان مش حيلاقى هناك بواب أسمه نوح . قابل القفشة بضحكة عفوية خرجت مع دفعة سعال أدمعت لها عينيه .

ـ ونسيت كمان حاجة مهمة ياعم نوح مين أصلا حيسمحله يرجع اليونان تانى ده أنت روح عمارتنا وأتعودنا على وجودك ومانقدرش ننسى القعدة معاك فى الفرندة فى الصيف وإحنا بنسمع منك قصة إسكندرية أيام الخواجات ومانقدرش نستغنى عن السمك الطازة بتاعك اللى بتوزعه على سكان العمارة وأنت راجع من صيد كل جمعه أنت تقريبا ياخواجه الأنسان الوحيد اللى فى الدنيا مايعرفش يزعل ولا يكره . كانت تلك كلمات يوسف قالها كى يتيح لنفسه فرصة تخفيف مأأقترفه من ذنب قبل أن ينحنى برأسه بعد لكزة فى فخذه من كوع عمته فناولها أذنه ليتلقى تعليمات فورية : روح لنعمة فى المطبخ قولها تجهز أطباق الجاتوه والحاجة الساقعة . أطاع الأمر وأنسحب من الصالون ومر فى طريقه على شريف ونورا فرماهما بنظرة : وحدوا .. هو أنتو قاعدين فى عزى ولا أيه . قذف بجملته وأتجه للمطبخ .

شعر شريف بالحرج من صمته وأستسلامه لأنطوائه بينما نورا تخالسه بين اللحظة والأخرى النظرات الحائرة آملة أن يقلع عن صمته ويكلمها إلا أنها كانت البادئة وكأنها عثرت على بداية ملاءمة : مافيش حد قالك أن دمك تقيل . نظر إليها ليتأكد عما إذا كانت كلماتها تعبر عن غيظ أم مداعبة ، فوجدها تنظرإليه بوجه مغتاظ وباسم . فأكملت : ع العموم أنا بحب اللى دمهم تقيل . تفككت الكثير من المعانى التى كانت جامدة وسالت خلف بعضها .. ها هو أمامها وهى تطالبه بالأعتراف الصريح : أنت لسه زعلان منى ولا مقاطعنى ؟ هى تعرف أنه لا يستطيع أن يكذب ، وربما هى تحتاج لسماع شعوره ناحيتها بعد تلك القطيعة بينما شعر أن الحصار أكبر من قدرته على الأنفلات من طغيانها وجبروت لحظة المباغتة غير أنه سدد

نظراته فى عينيها وكانت فى حلقه صرخة ألم مكتومة ، جاهد أن يمنعها من الآنطلاق . لكنه أجاب : متهيألى مش حيفرق معاكى .

ـ من ناحية يفرق فهو يفرق .. لو زعلان قولى السبب ولو مقاطعنى برضه لازم تفهمنى ليه . قالت جملتها بأداء مايع .

ـ الحكاية مش محتاجة لف و دوران أنت فاهمة كل حاجة كويس .

ـ لأ مش فاهمة ياريت سيادتك تفهمنى . أستعادت جديتها .

ـ لازم تعرفى حضرتك أنى مش مرسى .. بأستغراب : مرسى مين ؟! .

ـ الريس مرسى يعنى أنا مش أستبن ولا حأقبل أنى أبقى تحت الطلب والأمر وفى آخر جدولك بعد أخواتك وشغلك .. مش أنا يانورا اللى يبقى تحصيل حاصل فى حياتك . قال جملته الأخيرة بمرارة وكبرياء ، وما أن قالها حتى غمس نظرته فى عينيها يلتمس تأثير كلماته .. كبت لسانها دعابة نطقت بشائرها فى عينيها وجاهدت رغم الأبتسامة أن تكون جادة فى كلامها : يعنى أفهم من كلامك أنى أنا عاملاك أستبن وتحت الطلب وكمان موجود عندى فى آخر الجدول ده أيه الهنا والأملة اللى أنا فيها دى . يأخذ نفسا يعبر به عن ضيقه وكان أكثر مباشرة : بطلى الأسلوب ده وماتحاوليش تقللى من اللى أنا فاهمه ومتأكد منه وبطلى طريقتك دى وخليكى صريحة مع نفسك .. ثم مال بجسده وقرب عينيه من وجهها : تقدرى تقوليلى سبب واحد مقنع يخليكى تشتغلى كل يوم أكتر من أتناشر ساعة فى الأتيليه من غير يوم أجازة واحد كنت فى الأول بأعذرك وأقول لنفسى هى بتحاول تثبت وجودها وتكسب ثقة زيزيت لكن دلوقتى وبعد مابقيتى كل حاجة فى الأتيليه وبقالك زباين ومحلات كبيرة بتطلب شغلك بالأسم يعنى بقيتى ناجحة بكل المقاييس .. فاضلك أيه تانى عايزة توصليله .. أهدى بقى شوية وخدى نفسك !! هدأت نبرته وسكنت حدته وحل مكانهما دهشة وأستغراب بينما هى تنصت له فى وجوم وتهز ساقها المعلقة على الأخرى بحركة لا أرادية. فأستطرد : واللى محيرنى أكتر ومش لا قيى له تفسير علاقتك الغريبة بأخواتك واللى مصرة تعامليهم على أنهم لسه أطفال وقصر ولازم يفضلوا تحت وصايتك وسيطرتك وشاغلة بالك بيهم زيادة عن اللزوم وقاعدة لهم على الواحدة وعلى طول قلقانة ومتوترة بسبب ومن غير سبب . رجع بظهره للوراء : تقدرى تقوليلى أنا فين بقى من كل ده . أجاوبك أنا يانورا ؟ سكت للحظات ثم عاد : البرنامج اليومى بتاعك كومبليت ياأنسة واللى زيى مش حيلاقيله مكان فيه . توقع منها غضبا منكرا ، لكنها تنهدت وهى تطرق . ثم قالت فى

هدوء : مع أنى معترضة على كل اللى قلته .. بجد أنا مصدومة من تفكيرك ده . أنزلت رجلها المعلقة وتزحزحت للأمام : تفتكر ياشريف كل الساعات اللى بقضيها فى الأتيليه بأبقى عاملة أزاى ؟ يعنى مثلا حاطة رجل على رجل وعاملة فيها مديرة وتحت أيدى تلات أربعة .. أنت بالذات أكتر واحد جه زارنى فى الأتيليه عمرك شفتنى قاعدة فاضية ولا بشرب شاى ولا حتى بأستريح .. أنا بأتعب وبأشقى فى كل دقيقة عشان الشغل بالنسبة لى شيىء مصيرى يعنى حياة أو موت .. أنا ياأستاذ جربت كل الأيام السودة اللى ممكن تتخيلها أنا وأخواتى وماكانش معانا حد غير ربنا لا عندنا بابا ولا كان فى ماما . تحجرت عينيها وأحتدمت ملامحها : وكمان معنديش أخ فى أمريكا حيبعتلى كل شهر مساعدة تكفينى أنا وأخواتى وتريحنى من التعب ده وتشيل عنى مصاريف أخواتى وعمتى وطلبات البيت . نظر اليها طويلا .. أدرك ماكانت ترمى إليه. تابعت : ومين اللى قالك أنى وصية على عمتى وأخواتى .. لأ ياأستاذ أنا أكتر من كده بكتير أنا هنا مسئولة عنهم .. أنا أمهم وأختهم وصاحبتهم وكل حاجة لهم فى الدنيا .. أنا اللى ربيت وعلمت وكبرت دول مسئوليتى أنا لوحدى . قالت جملتها الأخيرة بأداء عصبى وبدت كالنمرة المفترسة . بينما تريث شريف لحظة لأختيار ألفاظه ويجعل النية الحسنة فيها واضحة : اللى قلتيه يانورا أنافاهمه كويس ومقدره وكمان عشته معاكى لحظة بلحظة بس أنا كمان محتاجلك عايز نورا بتاعة زمان .. وياريت توزعى مسئولياتك بالعدل بين شغلك وأخواتك وخليى جزء صغير عشانى . ثم أردف مبتسما : وآهو الحمد للـه مامتك خرجت بالسلامة وحتشيل عنك شوية . رفعت ذقنها لأعلى وكأنما تذكره بما غاب عنه : ماما تشيل عنى .. ده أنت طيب أوى .. رجوع ماما البيت مالوش غير معنى واحد عندى أن المسئولية اللى فى رقبتى حتزيد واحدة .. واضح أنك ناسى أن ماما لا بتشتغل ولاحيلتها حاجة . تنهد بينما السؤال يولد على لسانه وسرعان ماتحولت المطاردة التى قامت بها أسئلته المتكررة التى يوجهها إلى رغبة فى محاصرتها : يعنى أفهم من كده أنك حتفضلى على نفس الحال ده تخرجى الصبح وترجعى أخر النهار هلكانة وتعبانة ع النوم على طول . أبتسامة مرهقة : ماتقلقش ياشريف أوعدك أنى حأحاول أظبط الأمور وكمان ياسيدى حأحطك فى مكان كويس فى الجدول عشان ماتزعلشى . أخيرا وجدت الأبتسامة طريقها إلى وجهه بينما ظل والده يرمقه من حين لأخر بنظرة خاطفة من زاويته يطمأن من ملامحه عن سير الأمور قبل أن يتوجه مباشرة بكلامه لهدى مستغلا جو الجلسة التى تحولت الى ثنائيات هامسة بينما الحالة الغنائية للمشهد أصبحت أكثر ألهاما عندماأطلت " أليسا" بصوتها المتسلل من غرفة يوسف بأغنيتها الملتهبة " أجمل أحساس فى الكون أنك تعشق بجنون وأدى حالى معاك " : الحقيقة يامدام هدى أحنا كلنا فرحانين برجوعك وأن شاء اللـه الأيام اللى جاية تعوضك عن كل اللى فات . أرتبكت وقد لعثمها وده وطريقته فى الحديث :

شكرا يأستاذ خيرى والحمد للـه على كل شيىء وبصراحة أنا مش لاقيه كلام أشكرك بيه على تعبك ووقوفك جنب ولادى .

ـ ماتقوليش الكلام ده ولادك همه ولادى وأنا متأكد أنى لو كنت مكانك أكيد حتعملى اللى أنا عملته . أبتسمت لكلامه وظهرت لأول مرة غمازتان فى سفوح خديها : بعد الشر عليك . تطلع اليها مبهورا وكلما نظر إليها خلسة شعر بشيىء ينمو داخله لصالحها وخاف أن تفلت منه كلمة تكشف عن حالته . غير أنه قال : سبحان اللـه الدنيا دى عجيبة أوى .

ـ أزاى يعنى . كلل العرق جبينه لشدة أرتباكه : مش عارف .. لكن هيه كده دايما فى كل الأحوال بتبقى عجيبة. أبتسامة رقيقة ونظرة عميقة : من ناحية عجيبة فهى عجيبة وغريبة وماتقدرش تعرف أيه المفاجأت اللى ناوية عليها .

ـ مظبوط ومتهيألى أنك خلاص أخدتى دورك فى مفاجأتها الحزينة مش فاضل غير أنك تأخدى حقك منها فى أيام جايه حلوة مع أنى مقدر التجربة الصعبة اللى عشتيها و السنين اللى راحت من عمرك . لم تعقب مطلقا على تلك الجملة . كانت عاقدة العزم إلا تقول شيئا عن فترة سجنها .. سرها معها هى فقط ملكا خالصا لها ، لن يشاركها أحد ولن تشارك أحد حتى أنها دارت عن نفسها ماتعمدت أخفاءه من تلك " التجربة " ظلالها وأبعادها وشخوصها وبترت منها أجزاء كما يفعل الجراح مع مريضه . هربت من عينيه تتابع حديث نوح المتكىء إلى ظهر المنضدة فى تبلد وأسترخاء وهو يجيب عن سؤال للخواجة الذى تلاشى شعوره بما حوله وتركز وعيه فى طرح السؤال : مش وضع البلد دلوقتى يانوح بيفكرك بالأيام اللى بعد نكسة 67 ؟ سحب نفسا بعمق حكمته وأعتدل فى جلسته قبل أن ينحنى بجبهته للأمام كمن يحاول تلخيص بعض الأمور : هيه مش بالظبط ياخواجة أياميها الصدمة والهيجان بعد النكسة كان لهم سبب مفهوم والشعب كله كان عايز حاجة واحدة .. ياخد التار ، أما دلوقتى فالليلة ماشية شيش بيش واللى صوته عالى أكتر بيتسمعله وماحدش بقى عارف مين الثورجى من البلطجى مين اللى عايز يخدم البلد ومين اللى بيدور على خرابها . أضاف موجها كلامه لهدى المنتبهة : واللـه ياست هدى بعد حكاية الثورة دى أحنا شفنا فوضى ماكانتش على البال ولا النية . حرك رأسه ببطء وبدا مأزوما وكأنه يروى كابوسا ، فلن تغيب عن ذاكرته ما مرت به العمارة وسكانها فى بدايات ثورة يناير حين كان الأنفلات الأمنى والكر والفر فى ذروته خاصة وأن موقعها قريب جدا من جبهة الحرب لقربها من مسجد القائد أبراهيم قلب الثورة السكندرية فى حينها .. بدت العمارة الضخمة خرساء لا تنطق ، السكان جميعهم يعتصمون فى أعماق

غرفهم خشية من هجوم مباغت من مجموعات البلطجية القادمة من أطراف المدينة تغزو الأحياء الراقية . كان سرده موحيا ومنظما ولا يزال قوى الذاكرة جيد البدن لاينم عن شيخوخته سوى تجاعيد الوجه والبقع البنية الداكنة على ظاهر اليدين . أرادت هدى التعقيب : سمعنا كتير ياعم نوح عن حكاية الأنفلات دى وأحنا فى" السج.. ن " قطعت الكلمة قبل أن تخرج منها كاملة . راجعت نفسها وعدلت " الصياغة " : فعلا البلد شافت أيام صعبة أوى . أستثمر خيرى الحديث عن العمارة وتطرق كعادته فى الأسترسال عن أعطال المصعد المتكررة وحتمية تغيير بعض مواسير الصرف . قال بنبرة يحث فيها المستمعين عن قيمة العمارة وطرازها وكيفية الحفاظ عليها مع نبذة تاريخية عن الطراز المعمارى الأيطالى ، كما طالت عدوى الأسترجاع ذاكرة زيزيت وتوقفت عند أقوال لأمها الراحلة عن مدى تعلقها الشديد بالبناية ثم أسهبت فى ذكر محاسنها وتضحياتها حتى كلل الحزن عموم وجهها فبادرت هدى بألهاء صديقتها بعيدا عن سيرة الموتى خوفا من أن تجرها الى كآبة الماضى وتسترجع مأساة أنفصالها عن زوجها : واللـه ياجماعة أنا متفاءلة أوى والأيام اللى جاية البلد حتقف على رجليها .. ده أنا حتى لسه سامعة مرسى أمبارح بيقول أن فى مشاريع كتيرة حتتعمل فى البلد . عند نهاية جملتها دبت الحياة فجأة فى التمثال عندما أعتدلت أيات بعد أن ظلت طوال الجلسة فى وضع الأستماع فتحفزت وتزعمت موقفا يشاركها فيه كل من زيزيت والخواجة كرم تقودهم الرغبة فى تحقير الحاضر . فقالت فى تأفف : فى حد يصدق أن مصر اللى حكمها محمد على ومن بعده أمراء وسلاطين وملوك .. مصر اللى علمت الدنيا يعنى أيه دولة .. يعنى أيه حضارة ييجى عليها اليوم اللى يحكمها شوية أرهابيين عاشوا حياتهم كلها تحت الأرض .. معقول حد يصدق اللى بيحصل ده .. بالبساطة دى مصر الكبيرة تتخطف كده قدام عنينه وأحنا قاعدين نتفرج لاحول لنا ولا قوة !! . هنا تخلى خيرى عن هدوءه فكان حاسما : مستحيل ده يحصل ياأيات هانم وماتقلقيش .. الناس فى بلدنا قولى عنهم زى ماأنت عايزة .. قولى جهلة مش فاهمين أو مضحوك عليهم ولا حتى مكبرين دماغهم كل ده مقبول .. لكن مستحيل حد يقدر يخليهم يغيروا طبعهم ولا شكلهم ولا بساطتهم ولا أى حاجة فى حياتهم وخدى الكلام ده على مسئوليتى . أستحسنت كلماته وعجلت بواجب الضيافة .. لعبت هدى وبسمة دور الجرسون .. قطعتان من الجاتوه مشفوعتان بعلبة " كنز " كانت من نصيب كل ضيف بينما ظل الحديث بين نورا وشريف يتدرج ببطء إلى أن عادت المياه لمجاريها وتجسدت الحميمية بينهما حين ألتهم شريف قطعتى الجاتوه من خلال " شوكة " فى يد نورا . دقائق ونهض الجميع دفعة واحدة وكأنه أتفاق مسبق يتقدمهم الخواجة كرم متكئا على ذراع نوح : أحنا أزعجناكم النهاردة يامدام هدى .

ـ ماتقولش كده ياخواجة ده أنتم نورتونى وجميلك مش حأقدر أنساه أبدا . أنحشر يوسف مقاطعا : الخواجة دلوقتى نسانا ياماما و مافكرش حتى ياخدنى معاه الجمعة اللى فاتت وأنا شايفه بعينى دول من الشباك شايل عدته ومعاه عم نوح رايحين يصطادوا .

ـ خلص أمتحاناتك ياباشمهندس ولك عندى رحلة صيد محترمة وحأجهزلك ماكينة صيد حديثة هدية منى لك . ضحك نوح حتى ظهرت بقايا أسنانه : أنت بتصدق الكلام ده ياخواجة .. يوسف بيقول كلمتين فض مجالس

ـ المية تكدب الغطاس . قالها يوسف وهو يكمل معهما المسيرة حتى باب الشقة بينما تقابلت زيزيت مع هدى فى منتصف الصالة وسارت معها خطوتين ثم أنتحت بها جانبا كمن عثرت على فكرة كانت فى طى النسيان طفت فجأة إلى سطح ذهنها : الحمد للـه ياهدى دلوقتى ولادك كبروا وكل واحد فيهم بقى عارف مستقبله كويس مش فاضل غيرك أنتى .

ـ تقصدى أيه يازيزيت .

ـ يعنى أنتى كمان لازم تفكرى وتحددى مستقبلك .. مش معقول ياهدى تطلعى من حبسة تدخلى فى حبسة وتبقى زى أيات . لمحت نورا أثناء وقوفها مع شريف بجوار كنبة الأنترية الحوار الجانبى . فقالت دون أن تنظر له : أستنانى دقيقة واحدة . وصلت إليهما مع بداية جملة على لسان زيزيت : وبصراحة كده أنا محتاجاكى معايا فى الأتيليه .. الشغل كتير والحمد للـه . كلماتها زرعت المفاجأة والدهشة فى ملامحها : محتاجانى أنا يازيزيت .

ـ أيوه ياهدى أنتى لسه صغيرة ولازم تشتغلى وتعيشى حياتك ولا أيه يانورا ؟ . أحتدمت ملامح نورا بشكل مفاجىء . أربكها العرض فأضطربت وقلقت ثم صمتت لحظة قبل أن تجيب : سابق لأوانه الكلام ده يامدام. أرادت أن تتماشى مع رأى أبنتها خشية الصدام : نورا عندها حق .. سابق لأوانه الكلام ده يازيزيت .. أنهت جملتها مع وصولها عند باب الشقة : ع العموم فكرى وأنا لى قعدة تانية معاكى . ثم طبعت قبلة على خدها وفعلت الشيىء نفسه مع نورا وأنصرفت ثم عادت هدى بخطى مسرعة بأتجاه خيرى الواقف عند عتبة الصالون يتبادل الأراء مع يوسف وبسمة حول جدوى جبهة الأنقاذ فى معارضة حكم الأخوان ، توجهت إليه دون أن تفارقها أبتسامتها وكأن الأبتسامة جزء من لغتها ، تقدمها خيرى تتبعه هدى بأتجاه باب الشقة قبل أن يتوقف ويلتفت اليها : حمد للـه على السلامة أنتى نورتى الدنيا كلها . أرتخت جفونها :

كتر خيرك . مشى تلات خطوات حتى وصل عند عتبة الباب فصافحت يده يدها .. هربت منه الكلمات حين نظر إليها فلمحت فى عينيه نظرة من يود الأنفراد بها ثم ضغط على يدها وتجاوزها بعد أن شعر بشيىء مأستقر داخله ، فى حين لازال شريف حبيسا فى مكانه ينظر لنورا : ومن هنا ورايح مش حأضغط عليكى تانى بس حأستنى منك تليفون الصبح قبل ماأروح الشغل . هزت رأسها وودعته بأبتسامة مع كلمة أشتاق إليها : بحبك . قالها ثم تسلمته هدى وشيعته حتى الباب و صافحته وهمست له : نورا بتحبك ياشريف خلى بالك عليها وحاول تعذرها وتقدر ظروفها . أبتسم : حاضر ياطنط . أوصدت الباب خلفه ببطء وهى تكتم فى نفسها أحساسا لم تفهم مكوناته بعد ، ولم تجد لأرتباكها خلاصا غير أن تتجه ناحية الصالون لتنضم إلى جلسة تزعمتها بسمة ترصد وتقيم مادار فى الحفلة . خلعت هدى حذائها : ياه ده أنا رجليه أتكسرت من كعب الجزمة . لوحت لها بسمة : تعالى جنبى هنا يانجمة .. ده أنتى كسرتى الدنيا النهاردة .

ـ ماتبطلى بقى نفخ فى لحسن واللـه حأخد قلم فى نفسى . قالتها حين جلست بجوارها .

ـ الصراحة ياماما أنتى كنت فورة النهاردة . قال يوسف .

ـ ماشى يايوسف مقبولة منك . ثم مرت بعينيها ناحية نورا المحنطة فى مكانها . أردفت : مالك يانورا اليوم ماكانش عاجبك ولا أيه . سحبت نفسا هادئا وأظهرت أبتسامة فاترة : بالعكس ده كان يوم جميل جدا وآهو على الأقل حسينا بتغيير . رمتها بسمة بنظرة ركنية ماكرة : تغيير بس .. ده كان يوم زى العسل وأحلى ما فيه قعدة الأنسجام مع شريف فى الركن البعيد الهادى .. كنتو شبه جوز العصافير . قاطعتها هدى بضحكة : عصافير أيه يابنت ! واصلت بسمة تقييمها الساخر يقابله حرج بالغ فى ملامح نورا : مش قصدى عصافير أوى .. حاجة كده بتفكرنى بالأستاذ كمال الشناوى مع الست نور الهدى لما كانوا فى أخر الفيلم وهى بتأكله حتة الجاتوه .. ياسلام على الرومانسية .

ـ واللـه أنتى رايقة وفايقة . رددت جملتها وقامت ببطء قبل أن تصدر تنويها : أنا داخله أنام عشان عندى شغل كتير بكره وأنت يايوسف كفاية عليك كده وقوم شوف وراك أيه . وقبل أن يأتى دورها بادرت بسمة : عارفة وأنا كمان شرحه أدينى قايمة . بينما أشاحت هدى بنظراتها تتفحص الصالون والصالة : وأنا كمان حأقوم أظبط البيت شوية بس أغير هدومى الأول . توجه يوسف إلى غرفته مرورا بالصالة التى خفتت أضاءتها على يد نعمة وأكتفت بالكشافات المخفية المنبعثة من الأركان : اللـه ينور يانعمة . فى حين أقتربت بسمة من عمتها التى لم تفارق كرسيها منذ ساعتين : وأنت أيه حكايتك ياأيات .. بنات الأصول

مايسهروش برة أوضهم لغاية دلوقتى .. ياله قومى معايا . أتكأت بيدها على مسند الكرسى ولم تخف ضحكتها : ماشى يامجرمة .

حين عادا العازبان إلى الشقة تبادل خيرى وأبنه حديثا هادئا تحت أضاءة شمعدان فى الصالة دام عشر دقائق تجادلا فى بعض الأراء حول الزيارة إلا أنهما أتفقا وبشدة على رأى واحد أو جزه شريف بأستغراب : مستحيل حد يصدق أن طنط هدى كانت فى السجن وكمان أم لتلاتة. حاول خيرى أن يتجاهل الحديث عنها كى لا تفضحه كلمة أو عبارة إلا أن شريف أختارت عينيه أيقاعا ساهما حين توجه له والده مستفسرا : كنت شايفك أنت ونورا قاعدين فى ملكوت تانى ومابطلتوش كلام .

ـ كنا بنتكلم فى كل حاجة يابابا . قالها بلا تعبير .

ـ يعنى أفهم من كده أن الأمور بقت تمام

ـ بصراحة أنا لما بأتكلم معاها وبأسمعها بعقلى بأعذرها وبأراجع نفسى وبيجينى أحساس أنى أنانى وصغير أوى . لكن .. أعتدل ولم يمهله : من غير لكن .. نورا بتحبك وعايزاك وأنا فهمتك قبل كده وقلتلك حاول تقدر ظروفها وخليك جنبها وماتحاولش تستفزها وبطل تحطها تحت ضغط الأختبارات الصعبة . ثم علت نبرته نسبيا وهو ينظر فى عينيه محذرا : وخلى بالك كل ماحتخنقها وحتضغط عليها حتكون أنت اللى خسران . مال بجبهته وبدا صوته مهموما : عندك حق يابابا حأحاول ماأضغطش عليها تانى ومش حأفاتحها بعد كده فى حكاية شغلها وأخواتها .

ـ المفروض أصلا ماكنتش فاتحتها فى حاجة زى كده أنت بتخلق مشكلة من غير مشكلة مع أن الحكاية بسيطة ومش مستاهلة .. يابنى أخواتها مش حيفضلو جنبها طول العمر وبالنسبة لشغلها لازم تكون صريح مع نفسك وتعرف أن نورا دلوقتى بقى لها وضع وكيان وبتكسب كويس جدا أحسن من مدير بنك فى وقت ماعدش فيه حد بيكسب حاجة فى البلد وأكيد دى حاجة فى مصلحتك مش ضدك . لم يتبق إلاشيىء فى عينيه كان أيجابيا : صح ياعم خيرى كلامك حكم ياخسارتك فى البلد دى .

ـ واللـه يابنى دى بقت الخسارة فى كل حاجة . قالها بأبتسامة واهنة .

ـ خسارة أيه بس يابابا ده أنت زى الفل .

ـ متهيألك ياشريف واضح كده إنى قصرت أوى فى حق نفسى . بدا وكأنه يحاكم نفسه على نمطية أستسلم لها منذ سنوات قانعا بتفاصيلها اليومية .

ـ مش فاهمك يابابا .

ـ ولا أنا كمان فاهم !! .

ـ مادام أنا مش فاهم ولا أنت فاهم يبقى أدخل أنام أحسن وياريت تصحينى بدرى .. تصبح على خير يابابا . سحب نفسا أخيرا قبل أن يتجه مخدرا لباب غرفته : وأنت من أهله ياحبيبى .

دخل خيرى غرفته بخطوات مسترخية كالمترنح ثم أضاء عتمتها قبل أن يسحب نفسه من داخل جاكيت البدلة ورماه على كرسى بجوار الباب .. جلس على حافة السرير يخلع حذاءه ، رفع قدما وشرع بفك رباطه.. شرد فى فراغ أرضية الغرفة ثم أستلقى على السرير بثيابه . غابت هدى عن مجال الرؤية ، لكنها ظلت فى المخيلة تطرق بعنف ذلك الدماغ الذى تصدع . نبرات صوتها التائهة بين الحلق والأنف ، بين الأنوثة البالغة وتثنى الجسد داخل الثوب الأسود .. الساق والشفتان والضحكات مازالت جميعها محفورة فى ذاكرته ، لا يمكن له أن ينسى حركة عينيها ولابريقها ، ولن يغادره صفاء وجهها ونبرة صوتها الحزين فأستقر يقينه على أنها أمرأة مشتهاة وبدت له كأعجوبة هذا الزمن .. لما لا وقد تجاوزت الأربعين بثلاث أو أربع سنوات ولكن جمالها لا يعترف بالزمن وكأن وجهها يتحدى السنين وشبابها الخالد الشاذ يثير دهشته.

يغمض عينيه ثم ينحدر ببطء وينحدر كما يحلو له . كان يتوق إلى المرأة التى تحدث فحيحا مربكا يكثف من اللحظة . فمنذ وفاة زوجته وهو يختلى بنفسه فى تلك الغرفة التى كانت تشاركه فيها " سميحة هانم " وبحكم الضرورة والحاجة دائما ما يستحضرها حين كانت تحته تتكسر وتتأوه وتلهث ... الأن وفى تلك اللحظة تلاشت صورتها فى ذهنه ولحقت بصاحبتها إلى بطن الأرض بينما دخلت صورة الجارة الحسناء تسكن فى الذاكرة بشعرها الكثيف المنسدل والوجه المرتوى والرقبة المرمرية والصدر الأعظم فأمتزجت فى أعماقه دغدغة اللحظة المحبطة برعشة الحرمان المكبوتة .. أحس بنشوة لم يبلغها فى السنين الأخيرة . نظر للسقف يبحث عن أجابة لسؤال برىء تردد داخله : هو أيه اللى حصلك ياخيرى وشقلب حالك من ساعة ماشفت هدى ؟! .. لم يجد لديه جوابا مقنعا . لكنه غامر بالقول : أكيد لحظة ضعف وحتعدى !.. وبدأت الأسئلة تتداعى فى رأسه : يمكن حياة الوحدة اللى أنا عايشها هى السبب ؟. كان دائما أحساسه الغالب أنه من الصعب أن تعود الحياة لضريح مثله . شعر أنه رجل مع أيقاف التنفيذ .. غير أنه

أفاق على أسف بداخله عميقا وموجعا : كيف شغلته الأحداث وشاغلته الى حد أنه نسى أن الحياة تنطوى علي مشاعر حب أستثنائية لا تخطر له .. رفع رأسه واضعا ذراعه تحتها وهو يردد فى نفسه : هو أنت حتحاسب نفسك على أيه ولا أيه .. جايز تكون خسرت حاجات كتيرة لكن أكيد كسبت حاجات تانية . سحب نفسا حائرا : وبعدين ياخيرى .. خنق حواره الداخلى وصمت حين لم يجد رأى يضيفه أمام وضع تتساوى فيه الحجج والحيثيات ، فأمسك عن كل قول . حدق بنظرة بانورامية فى كل أرجاء الغرفة ثم قال فى محاولة هروب مستعجلة قبل أن يتحامل على نفسه ويعتدل جالسا : أقوم أحسن أعملى فنجان قهوة لما أشوف أخرتها . أتخذ قراره كى لا تدهمه الأسئلة بعد أن هبت فيه الأفكار والأراء والصور بدون ترتيب ولامنطق .

فى تلك الأثناء .. لم تستطع هدى أبدا وعبر سنوات سجنها أن تدفع عن نفسها أحساسها الدائم بأنها وحيدة .. أختلت بنفسها فى الصالة ، رفعت رأسها وألقت بها على حاجز كنبة الأنتريه تتأمل آخر ليلها بعد نهاية يوم أعتبرته تاريخيا .. أسترجعت الشخوص والكلمات والنظرات وجدتها كلها أيجابية وفى صالحها . أتخذ منها الأسترجاع والتقييم ساعة من بعد منتصف الليل .. حاصرها النوم فأمسكت " ريموت " التليفزيون تقلب القنوات وتشقلبها فى ملل بعدما أربكها كم القنوات ولم تعد تعرف أولها من أخرها غير أنها لمحت على أحد الرفوف أسفل ترابيزة التليفزيون ألبوم الصور القديم . قامت فى تلكأ وسحبته من مرقده ثم أنزوت به فى ركن الكنبة ، نفضت عن غلافه الغبار فأمتلآت خياشيمها بروائح غريبة تشبه روائح كورنيش الأسكندرية . توقفت عينيها فى أستغراب وهى تردد : أزاى نضفت الصالة كلها ونسيت أنضف ترابيزة التليفزيون . فتحت غلافه قبل أن تضغط على الريموت فتحول التليفزيون لصورة بلا صوت ، لعلى مخيلتها تسعفها على أستحضار أشياء كثيرة غابت مع تراكم السنين والأحداث فقفزت من طياتها صور شاحبة بألوان باهتة .. صور لم تمسها أصابعها من عصر ماقبل السجن ، بعضها كان قد ألتصق ببعضها ، لكنها أستطاعت أن تفصلها واحدة عن واحدة بعناية وتركيز كأنها تتولى عملية جراحية لشخص عزيز . وجوه كثيرة تداخلت وأزدحمت شاشة العرض بتلك الوجوه التى مرت ومر زمانها .. وجوه لم تعد كما هى الأن حتى الأماكن تغيرت أو أستبدلت . كم مرة تتقطع مشاهدتها .. كم مرة تتزاحم الصور والذكريات . توقفت عيناها وظهرت أبتسامة حين رأت صورة لبسمة وهى ترتدى فستانا ورديا منبسط الصدر بلا فواصل ونهدين صغيرين كحجم زيتونتين تثيران العاطفة والأشفاق .. الصور تتكرر برتابة مملة قبل أن تستقر نظرتها على صورة " نديم " وهو يطوق خصرها بذراعه ثم تلتها صورة أخرى تجمعها معه ولم يتقاعس فيها عن ضمها إليه ابان الذكرى السابعة لميلاد نورا .. كان دائما فى جميع صورهما يمسك

بها وكأنه يخشى أن تضيع منه . أقتحمتها تفاصيل الغرام الذى كان . تنبش فى ألبوم الصور تبحث عن سنواتها الضائعة وهى معلقة على أعتاب حياة بين بريق الماضى وخذلان الواقع .

قامت من جلستها بصحبة السكون المنتشر فى كل ركن ثم أنحرفت ناحية غرفة نورا وبسمة قبل أن تتجه لغرفتها كما كان دأبها فى الماضى . دخلت بهدوء ووقفت أمامهما تتأملهما وهما نائمتين فى حراسة " أباجورة " أضاءتها أقل من شعلة شمعة ثم جلست برفق على حافة السرير من ناحية بسمة ووضعت يدها على جبين أبنتها تسوى شعرها الذى تعود أن يقف فوق عينيها بينما شعرت بها بسمة وفتحت عينيها وأمسكت بيد أمها وتسربت أبتسامة من بين شفتيها وهى تغالب النعاس حتى أستسلمت له والأبتسامة عالقة بشفتيها . بقيت إللى جوارها حتى ثقلت جفونها ثم نهضت برفق قبل أن تلتفت إلى نورا تطمئن على نومها .. فكانت ممددة وتحت رأسها وسادة يتمرغ فوقها شعرها الفاحم المتموج وفى حالة نوم سريرى كامل .. أقتربت منها على أطراف أصابعها كراقصة باليه .. وقفت لحظة تتأمل تحفتها .. أطالت فيها النظر ثم همست بشفتيها : نايمة زى الملاك ياحبيبتى . عبارة لم ينقطع لسانها عن ترد يدها سنوات عديدة . إلا أنها شعرت بحاجة لأن تلتصق بها ، فتمددت بجوارها على هامش السرير ووضعت رأسها على نفس الوسادة ، ربما تستطيع أن تسافر معها إلى عالم أحلامها . زحزحت نفسها بهدوء وأصبحت أكثر ألتصاقا بها .. طفا على ذاكرتها فجأة وهى فى أقصى حالات التركيز فى وجه نورا ، عندما كانت الى جوار نديم وقد تمددا فى السرير وبعدما تسلل إلى حواسه ريح أنوثتها المنتفض من فتحات قميص نومها الأسمر فأعتدل بجذعه وأنحنى عليها .. فأبعدته برقة وحدثته بدلال وهى تتحسس بطنها : اللى جاى حتسميه أيه ؟. ردته بسؤالها عما كان ينوى فعله وشرعا يتبادلان أقتراح الأسماء وكانت أرائهما على الأسماء مابين " بلدى أوى .. قديم .. مش أستيل " وأخيرا لم يجدا مانعا من قبول " نورا " إن كانت بنت أو " يوسف " إن كان ولدا . أغمضت عينيها : اللـه يرحمك يانديم .. بنتك كبرت وبقت عروسة زى القمر وبقت هى اللى فاتحة البيت وشايلة همنا . وسعت نظرتها لتشمل كل ملامح أبنتها : سامحنى يانديم .. عارفة أن ده ماكانش المستقبل اللى كنا بنحلم بيه لنورا .. فاكرة كلامك لما كنت تتحدانى وتقولى شخصية نورا وطبعها حيخلوها فى يوم من الأيام حاجة كبيرة فى البلد وحتفكر الناس بأسم عيلة السبروتى . بلعت ريقها بصعوبة : سامحنى ياحبيبى ماكانش بأيدى . ثم رفعت رأسها ببطء وزحزحت جسدها بحرص قبل أن تطبع قبلة على جبينها وقامت دون أدنى صوت وخرجت كما دخلت كالطيف .

00000000000

أنزوى منصور فى ركن قصى من القهوة تصله الأضاءة على أستحياء بجوار نافذة تطل على حارة المنجى وأمامه جلس صديقه الصعلوك " سليم " الذى صب الشاى فى كوبين قبل أن يضع بين شفتيه سيجارتين من طراز كامل الدسم أشعلهما معا وناوله واحدة : خد يامنصور رطب جوفك .. شد وأسحب ده صنف أستثنائى وارد مطروح . أندمجا صامتين وراحا يرشفان ويدخنان حتى قال منصور بلكنة بلطجة وهو يتأمل سيجارته بين أصبعيه: جبت الحشو ده منين ياسليم ؟ .

ـ دول أربع سجاير هدية من الوله حوده اللى شغال فى الصحة . ضاقت عيناه يحاول التذكر : حوده مين مش واخد بالى .

ـ الوله حوده أضرابات .. حودة ياأخى اللى ساكن فى حارة عويضة . خبط بكف يده جبهته وقد علقت به ابتسامة : أيوه أيوه .. مش ده اللى فى هوجة الثورة لطش عربية الأسعاف اللى كان شغال عليها وخباها ورا مخزن عبد المولى . يتتبع دخانه مع نظرة أعجاب . مكملا : عيل أبن حرام بصحيح ولما الليله أسودت عليه رجعها بعد فيلم خربان وقالهم أنا أتثبت بعد ماشفاها وخلاها على الأربع عجلات . زفر دخانه ببطء وتساءل : وده دخله أيه فى موال الحشيش . أستدعى سليم حكمة على مقاس تفكيره : بلدنا دلوقتى بقت على المشاع ياصاحبى ولا أنت مش واخد بالك . أرتد للوراء يشغل ظهر الكرسى وعلق ساقا فوق الأخرى متقمصا دور خبير مستأنفا ما بدأه : الكل دلوقتى يابنى دخل اللعبة والسبأ أبتدى يعنى اللى كان قبل الثورة مالوش فى أى حكاية دلوقتى بقى له لعبة وحكاية . يسمعه منصور بملل دون تركيز بينما لازال صديقه مندمجا : يعنى فى صنف دخل وفتح صدره فى لعبة المخدرات توزيع وتجارة وفى اللى شق طريقه فى حتتين سلاح سلكهم من ليبيا بياكل من وراهم الشهد ده غير اللى داس فى حكاية المقاولات هد وأبنى وأقلب فى تلات أربع شهور ولا فى حد بيسأل أزاى هد ولا أمتى بنى أهتز عمود الدخان المنبعث من أنفه مع هزة رأسه : كلامك صح ياسليم وآهو كله بيرزق . قالها وسحب أخر نفس من سيجارة المزاج قبل أن يهمس متمنيا : ماتناولنى واحدة تانية ألحم بيها لحسن الدماغ لسة محتاجة . أخرج علبته من جيب قميصه المفتوح حتى حدود القفص الصدرى ونفض منها واحدة : وماله ياخويا مش بأقولك ده صنف أستثنائى . أشعل منصور السيجارة وأغمض عينيه يسحب منها نفسا طويلا بينما أستفسر منه سليم وهو يختبر بأصابعه جفاف " الجيل " فى فروة رأسه : مالها الدماغ بقى يامنصور . فتح عينيه وأرسل نظرة بائسة شملت معظم مساحة المقهى كما شملت مراقبة للطاولات والزبائن وجمعه : نفسى ياأخى الدنيا ترضى عنى والأمور تسلك تبقى معايا وماحدش يبقى كابس على نفسى .

ـ ما أنا بأقولك يامنصور البلد دلوقتى مليانة لعب والحدق اللى يمسك فى لعبة يسترزق منها .

ـ طب ماتقول لنفسك بدل ماأنت داير تتسكع كده عامل زى بتاع العيال . بنبرة بجاحة : أقله أنا بأعرف أرمى جتتى على البشر وبأطلع من ده بجوز جنيهات ومن التانى حتة حشيش ومن واحد زى حالاتك كده فنجان قهوة ولا واحد شاى وآهى بتقضى برضه . بنظرة ركنية شامتة أكمل كلامه : مش زى ناس قاعدين زى خيبتها لاعارفين يروحوا ولا ييجوا بس يافرحتى مش شايل غير أسم وزاعق بيه .. منصورأبن المعلمة فايزة اللى عندها وعندها واللى يقلبك ويفتشك يلاقى أخرك بريزتين قاعد بيهم زى الذليل ياولداه مستنى رضى الست الوالدة . بدت فوضى غضب فى ملامحه : وأنت عايزنى أعمل أيه يعنى . قالها بإيقاع مرتفع أستوقفت جمعة لحظة مروره بصينية عليها أتنين شوب زبادى : فى حاجة يامنصور . لم يرد وتجاهله بينما قرب سليم رأسه المشتعلة بالجيل وتفحص هيئة صديقه : عايز الصراحة أنت راجل نص كم ..أنا لو مكانك ودى أمى وعزة جلال اللـه كان زمانى مصمصتها . لم يعقب وشرد بعينيه بعيدا فأعاده سليم : ده أنت الحيلة ياجدع يعنى أنت عندها أول الزمن وآخره والصح بيقول أن طلباتك تبقى أوامر. نكس رأسه على صدره وزاره طيف الضعف : حيلة أيه دى أمى مش طايقانى ولا بتقبل منى كلمة من يوم مافتحت معاها موضوع البت نوسة وكأنى مش أبنها ياجدع ومش شايفة قدامها غير الوله النونو اللى سرها كله معاه وبقى عينيها وأيديها ورجليها . أعترضته زفرة حزينة كمن يبحث عن هوية . أردف : لكن أنا وأبويا بالنسبة لها أيدك منها والأرض مابنشوفش منها غير البهدلة والأهانة فى الداخلة والطالعة وبتحاسبنا بالمليم وكأننا شغالين عندها باليومية . لم تفلح كلماته فى تغيير وجهة نظر سليم : كل اللى قلته ده مايدخلش ذمتى بربع جنيه مخروم . فى ملل : ليه يادكتور ! .

ـ كلامك كده محسسنى أنى بأسمع موظف فى أرشيف لاحول له ولا أوة مش ده منصور أبدا اللى أعرفه ده أنت من خلاصة شباب حارة المنجى ومش كده وبس ده أنت أبن عبده الجن يعنى زمن الأجرام والصياعة الصح .. أدينى أنت بقى عقلك وفهمنى أزاى أنتو الجوز مش عارفين تلفوا دماغها وتاكلوا عقلها .. زادت حماسته وعصبيته : يعنى أبوك ده بجلالة قدره واللى فرحان بطوله وعرضه وشنبه اللى مفرود على الجنبين مش قادر يكسر رقبتها ويخليها زى أى مرى فى الحارة آخرها طبخة وكنسة وبالليل تبقى زى الجزمجة تستنى نصيبها . نظر له منصور بهدوء مفجع يتأمل ملامح وجهه الثائرة : تصدق وتؤمن باللـه ياسليم .

ـ لا اله إلا اللـه ياسيدى .

ـ واللـه أنت عيل أهبل ولو أنا ماأعرفكش كويس كنت قلت أنـه يلزمك دهان من ورا بقى عايزنى أنا وأبويا نأكل عقل أمى ياأفـا .. بتتكلم وكأنك مش عايش معانا فى كرموز وماسمعتش عن فايزة عبد المقصود ولا تكونش فاكر أمى دى خريجة معهد لاسلكى وأتجوزت وقعدت فى البيت ومالهاش شغلانة غير تأطف ملوخية وتستنانى بالليل لما أرجع عشان تحمينى وتفلينى وتقولى دعوة وتنيمنى . أتسع صوته وكأنه يصرخ . أستطرد : دى المعلمة فايزة ياقفل يعنى التجارة والبيع والشرا يعنى الأوة والأستقدار وراس براس مع أجدعها شنب دى ملكة التقسيط فى كل عموم كرموز .. يعنى سيادتك ممكن تبدد على بنك وتسوق فيها .. لكن على فايزة لأ .... هدأت نبرته وأنتشر فيه الأحباط : أمى بلا فخر خريجة سجون يعنى واخدة الخبرة من المنبع . ختم كلامه بنظرة يائسة أطل بها من نافذة المقهى بينما أكتفى سليم بالصمت .. تأمل منصور الحارة من خلال النافذة وكان الليل فى الخارج لازال فى بداياته ويغفو فوق الحارة ويخنق جنبات الأزقة الضيقة والتى حطم أشقياء الحارة من الأشبال مصابيحها الحكومية بينما اللمبات الموفرة بنورها الأبيض تضيىء مدخل المقهى وتكشف رؤوس الزبائن المتدلية على صدورهم والذين التصقوا بمقاعدهم وألتمعت وجوههم وتركوا أقدامهم أمامهم مدلاة وكأنهم ذباب أليف قد أطمأن إلى قضاء ليلته فى هذا المكان . لم يلفت نظره شيىء فأغمض عينيه وأسند مؤخرة رأسه على سور الكرسى مستسلما فى حين أنهمك سليم يعبث بموبايله يراجع قائمة الأسماء لعله يجد من بينها أسما يسطو عليه ويعينه على علبة سجائر أو شريط " ترامادول " .. سكتا خمس دقائق قبل أن يفتح منصور عينيه متوترا على صوت مرتعش مصدره حنجرة سليم : ألحق يامنصور شوف مين اللى داخل ع القهوة . رفع رأسه المسنودة ومط رقبته وأرسل نظرة أستطلاع لتصطدم بمشهد أرتعشت له ذقنه ثم قام ببطء كعجوز تخطى السبعين : ياليله سودة .. هى حصلت لحد كده ! .. بينما رواد المقهى فى تلك اللحظة المتحلقين فى مجموعات صغيرة حول الطاولات ، كلهم من مواقعهم أداروا الرؤوس كمن ينظرون لكتلة نار ملتهبة .. كانت " نوسة " ومن البديهى عندما تمشى نوسة وتمر ، تدير أعتى الرؤوس . خطواتها الأولى داخل المقهى تثير عاصفة تجعلك فى مركز اليقظة والأنتباه.. أجتازت أول مجموعة تحت حراسة نظرات مشددة وأفواه مفتوحة ، غيرأنها كانت تتقن تجاهلهم بثبات مدهش بالرغم من أنها تبدو وكأنها تفتشهم واحدا واحدا !!.. تتواتر تعليقات تلاحقها فتزداد تقصعا وأثارة بعدما تعمدت وضع يدها فى جيب بنطلونها الجينز فتبرزتكويرة ردفيها ، ومضت متريثة تقرأ الوجوه تشق طريقها ناحية منصور ولم تتوقف إلا عند ماعلقت عيناها بوجهه وهو مازال يحاول فرد طوله بعد تأثيرالصدمة ثم أنزاح مبتعدا عن كرسيه عشر خطوات حتى ألتقيا

بجوار طاولة عم" يونس " وأبن خالته " شفيق " في ضيافة الأسطى " خميس" الأستورجي الذى نال شرف أقتراب كرسيه من مؤخرة نوسة .

ـ أنت أتجننتى يانوسة ولاجرى فى دماغك حاجة ؟!. قالها بنبرة الملهوف لسماع أجابة جاءته لا ينقصها الجرأة والميوعة : أيوه جرى يامنصور . ألقى نظره من فوق كتفها يتفحص الهمس والعيون : فى حد عاقل يابت يدخل برجليه قهوة بلدى باللبس ده . مالت بوسطها قبل رأسها : ومين قالك أنى عاقلة . جذبها من رسغها : تعالى معايا نطلع من هنا . سحبها أمامه وخرجا من عتبة المقهى ودفعها من الخلف بكفه فى رقة حتى أبتعدا عن حرم المقهى عدة أمتار فى ضيافة نظرات جائعة بينما كفه المبسوطة على ظهرها يوشك أن تنزلق إلى موقع " الهنش " كان يتحسس اللحم الطرى تحت التيشرت الخفيف . فتقدمت عنه خطوة فسقطت اليد المتحسسة لكن بقيت العين المتفحصة فى خلفيتها الطاغية ، فكانت قادرة بجسدها الصاعق على جذبه والأحتفاظ به حتى وهى تدير له ظهرها قبل أن تتسع خطواته ويلحق بها حتى لمحت ظله يقترب منها حتى حاذاها وزحمت كتفه كتفها فوقفت أمامه عند رأس الحارة وواجهته وكأنها تريد أن تقيس نفسها به . فعاجلها بعصبية : هو مافيش أختراع أسمه المحمول مافيش ربع جنيه فى رصيدك يكفى رنة . حدقت فيه من خلال الليل وضوء لمبة الشارع وبصوت لا قوة فيه : صوابعى دابت من الأتصالات والرنات وسيادتك مكبر دماغك وأخر طناش .. قلت مابدهاش بقى آجى بنفسى المشرحة وأشوف القتيل حكايته أيه!.. لانت نبرته وبدا ظريفا وحريفا : واللى جاى يشوف القتيل مش يلبس أسود ويجيب معاه أزازة جلوكوس ولامضاد ولا أى حاجة يمكن القتيل لسه فيه الروح ويبجى منه . لم تبخل عليه بنظرة من أعلى لأسفل مع أبتسامة ضيقة : مش باين .. أنا شايفة قدامى جثة متلجة .

ـ كده برضه يانوسة دى أخرتها .

ـ أنت ماخلتش فيها أول ولا أخر يامنصور .. كم مرة وعدتنى حتخلص كل حاجة أول ماأمك تخرج من السجن وآخر مرة عندنا فى البيت قلتلى بعضمة لسانك اللى عايز قطعه الزيارة اللى جاية حتكون أمى فى أيدى وآهو لغاية دلوقتى لاشفت أمك فى أيدك ولا فى .. مالوش لازمة . قالت جملتها بمرارة .. أشعل سيجارة ثم نوه عن سخطه : أمى صعبة أوى يانوسة ودماغها زى فردة الجزمة ومش عارف أوصل معاها لحل . فكان أول خاطر أحتل ذهنها : معناه أيه الكلام ده يامنصور ؟ .

ـ من غير رغى ولاكلام كتيرأنا شاريكى يابت وعايزك النهاردة قبل بكرة بس الحكاية كلها مربوطة فى أيد أمى ومافيش حل قدامى غير أنى أفضل وراها واحدة واحدة وباللين وبراحة حتيجى معايا سكة . قال

منصور كلماته بغير أقتناع ، كان مدركا فى قرارة نفسه أن الوصول لحل يرضيه مع أمه أمرا مستحيلا ، لأنه أعتداء على مناطق نفوذها ، والتى تحتفظ لنفسها بحق أتخاذ القرار منفردة بناء على أعتبارات تفهمها هى ولا يهم فيها رأى آخر ، هى التى تقرر وتختار وهى التى تدفع وهى التى تضع يدها فى يد الرجال . وأنكمش السؤال فى أعماقها مهزوما ثم ضاع فى دوامة قلقها ومخاوفها ، إلا انها تماسكت وأطلقت تهديدا : يبقى خلاص يامنصور وكفاية لحد كده . نظر إليها بلا كلمة . فتابعت : أدور أنا على حالى وأنت تروح لحالك وخليك بقى جنب أمك وسيبنى أنا أشوف نصيبى . أنحشر الكلام فى حلقه وخرج منه بصعوبة : أيه الهبل اللى بتقوليه ده يانوسة .. فيه حد عاقل يسيب النعمة اللى ربنا بعتها له.. ده أنا من غيرك يابت يبقى ماليش لزمة فى الحياة .. أقفى جنبى يانوسة وساعدينى .

ـ طب وأنا بأيدى أيه أعمله .. أمى مسودة عشتى يامنصور بسببك كل يوم نأورة ورمى كلام فى الرايحة والجاية ده أبن أمه وبيخاف منها وأبقى قابلينى لوخد خطوة لقدام .. بأسمع وأسكت ومش راضية أتكلم وأقول فى نفسى لا يابت منصور ده راجل ومش حيتخلى عنى .. لكن اللى أنا شايفاه أن أمى عندها حق فى كل كلمة .

ـ أنتى فاهمة غلط يانوسة .. لمحت فيه الأنكسار فأختصرت الموقف : لاغلط ولاصح يامنصور أنت تيجى دلوقتى معايا ع البيت وتقعد مع أمى وتفهمها الدنيا ماشية أزاى يمكن تلاقيلنا حل . تنهد مضطرا . سحب نفس أخير من سيجارته ثم ضربها بطرف سبابته : اللى تشوفيه .

مشت بجواره تصحبه للبيت وبدت بجانبه كولية أمره .. خمس دقائق من السير المتعرج داخل حارتين قبل أن تطأ أقدامهما حارة أبن شكر ثم أجتازا مدخل البيت صعودا إلى الشقة حتى تصدرت الباب وهو من خلفها كظلها قبل أن تلصق به مؤخرتها فى منطقة ماتحت الحزام كى تفسح ليدها ممرا داخل جيب البنطلون لأنتشال المفتاح من حشرته ثم أولجته فى الباب وصحبته إلى الداخل وهى تحيط خصره بذراعها قبل أن ترفس الباب بكعب قدمها فأحدث أرتجاجا سمعت على أثره صوت أمها : أنت جيتى يانوسة .

ـ أيوه ياما ومعايا منصور . دلف إلى الصالة بينما صوت أقدام بدرية الثقيلة تسمع بوضوح قادمة من غرفتها ودخلت عليه بفم ملوى وأنف مرفوع مرتدية ملابس الخروج وسحنة شوهها الماكياج الردىء ، فالحاجبان تجاوز تخطيطهما طولهما الطبيعى وبقعتين بلون الدم المتجلط على الوجنتين بلا أنسجام . نظرت إليه بعين خبيرة فأدركت أنه مسطول ، فتكلفت وهى تصفعه بكلماتها حين أقتربت منه كوحش كاسر

حتى حشرته فى ركن الكنبة وأجلسته عليها كما يجلس السلطان ضحيته على الخازوق : أنت أيه حكايتك بقى ياسى منصور .. بصراحة كده أنا مش فهمالك راس من رجلين .

أبتل جبينه عرقا : ليه بس ياست بدرية ؟ .

ـ أمك خرجت من السجن وقلنا الحمد للـه الأمور حتتصلح والحال حيمشى وآهو فات كام أسبوع وأنت يانور عينى أختفيت لا حس ولا خبر . خلع على وجهه معالم الجدية . هو دائما يفعل ذلك كلما أكتشف أن هناك من يحاصره ويسد عليه منافذ الهروب : ولا أختفيت ولا حاجة ياست بدرية واللـه العظيم أنا ماساكت وكل يوم والتانى عامل حكاية كبيرة مع أمى ومسود أيامها . تشبك أصابعها فوق بطنها الدائرى : وأخرتها أيه يامنصور .

راح يسترسل فى أحاديث عائمة مفككة ويتكلم بألفاظ موجزة غير مفهومة ، فأستدعت من بدرية أنقباضة: أنا مش فاهمة حاجة من اللى أنت بتقوله ده . بينما جلست نوسة إلى جواره تلتصق به كقطة تريد أن تندس فى حضن صاحبها وهى تتبع تكتيك المياعة والدلع : سيبك من الرغى الكتير يامنصور أمى عايزة تشوف حل . ردد مقولة الضعف : دبرينى ياست بدرية أعمل أيه وأنا من أيدك دى لأيدك دى . أخذت نفسا عميقا متصنعة الحنكة وبدت له وكأنها تبحث عن حل ، لكنها فى حقيقة الأمر كانت قد وضعت ترتيبا خاصا وخطة بديلة فى حالة أمتناع فايزة عن الموافقة .. اذن حانت الآن لحظة الحقيقة .. سددت له نظرة ماكرة لحقتها بجملة مثلها : اللى أنا شايفاه يامنصور يابنى أن المعلمة فايزة مش سكتها الكلام ولا ينفع معاها أخد ولا رد . بهتت ملامحه : يعنى أيه مش فاهم . وضعت كفها " المتختخ " على كتفه : أمك من الصنف اللى لازم تحطه أدام الأمر الواقع . تهدجت أنفاسه : قصدك يعنى أخطب نوسة وأعلى مافى خيلها تركبه . قالها ثم ترنح فى جلسته حين ترجرجت به الكنبة بفعل جلوس أضطرارى منفعل من بدرية : بقولك تحط أمك أدام الأمر الواقع عشان تلين وتقبل تقوم تقولى خطوبة .. هو أنت يابنى منصور ولا مرسى ! نظر إليها بغباء ولم يعلق . فأكملت : والأمر الواقع يانور عينى .. تكتب على نوسة .. رفع عينيه إليها ساهما يتبين جدية الطرح فى وجهها . فأردفت : هو ده الحل اللى عندى وأنت حر . لم يحتج أنما أنتابته ربكة : يعنى عايزانى أكتب على نوسة من غير موافقة أمى . مسح عرقه وألتفت ينظر فى عينى نوسة : يعنى أنتى شايفة كده يابت . هزت رأسها فى صمت مع أبتسامة . بينما ردد منصور كالمجذوب عدة كلمات قبل أن تضعها بدرية فى جملة مفيدة : كتب كتاب .. مأذون ..

ـ أيوه ياروح قلبى حتبقى مراتك على سنة اللـه ورسولـه وتبقى حلالك وتحت أمرك وكل وأشبع منـها زى ما أنت عايز .. لاح فى ذهنه تفاصيل مباغتة غير مرتبة : أبقى عريس ونوسة ع السرير بقميص النوم العنابى .. أرسلت بدرية نظرة أستقرت فى عينى أبنتها التى فهمت معناها وترجمتها فى الحال فأقتربت منه وألتصقت به قبل أن ترفع رأسها فى وجهه وأنفها القصير يلامس ذقنه ، فدبت فى أوصاله شهوة . وهمست : هو أنت نونو ولسه خايف من ماما . ينتابه أحساس الخائف المذعور: مش القصد يانوسة .. بس لازم أفكر صح عشان النتيجة تطلع صح . قامت أمها تحمل أثقالها وهى تتنهد ساخرة : على ماتفكر صح ياروح قلبى أجيب طرحة من جوه أحطها على راسى .

ـ هو أنتى أتحجبتى ياست بدرية . مصمصت شفتيها : حنعمل أيه بقى أحنا دلوقتى فى زمن الحلال بين والحرام بينى وأدينى بقالى كام ليلة شغالة مع فرقة تواشيح فى ساحة المرسى أبو العباس .. عن أذنك .. ضاق صوتها : سيبك من أمى يامنصور ومن حجابها .. قلت أيه فى اللى أمى قالته ؟!. تأمل وجهها الذى لايبعد عن عينيه سوى سنتيمترات فى مواجهة غير متكافئة حيث المؤشرات قضت على تردده دون مقاومة حين نزل بعينيه يتفحص مابين النهدين من خلال فرجة التيشرت بعد ماتحرر الأزرار من عروته .. رمقها للحظة قبل أن تعلو شفتيه أبتسامة : كل اللى أنتى عايزاه يانوسة حأعمله .. أدينى أسبوع واحد حأرتب نفسى وحأقولك نعمل أيه . تعبث بأصابعها حول شفتيه : بجد يامنصور . فأحتوى شفتيها بين شفتيه يمتص منهما عسلا مسكرا . برغم دلالها وأستسلامها تملك قدرة مريعة على أن تصنع منه كائنا بلا أرادة . خلصت شفتيها وباعدت يديه برفق عن صدرها بينما عيناه السوداوان تمتلئان رغبة ولهفة فرأت فيهما عينى ذئب يحاصر نعجة فقررت أن تعمل على تهدئته بعد ماتناولت يده ووضعتها بين كفيها : أهدى يامنصور شوية أمى جاية علينا . أنهت جملتها تزامنا مع وصول بدرية وقد غطت رأسها بطرحة بلون العسل وفاجأته بسؤال مباغت حين رصدت بعينيها بصمات فعلته حول شفتى بنتها : لو عايز نوسة فى الحلال يبقى المرة الجاية تيجى وتحدد معايا ميعاد كتب الكتاب . شعر بالحرج : أنا حاقوم أمشى ياست بدرية .

ـ لأ أستنى خد واجب الضيافة الأول وبعد كده مع السلامة . لم تطل الزيارة .. جلس منصور رهن الأعتقال فى حراسة بدرية ، تجرع فى أخرها كوب شاى ماعت لها نفسه ثم نظر فى ساعته وأصر على الأنصراف بينما نوسة فى لحظة خروجه " تقرص " أمها فى وسطها وهى تردد بعصبية مكتومة : براحة ياما عليه . قالتها ثم صحبته إلى خارج الشقة وهى تهمس : على أتفاقنا يامنصور .. كمان أسبوع .. والمرة الجاية

حأدوقك حاجة حلوة !. قال وهو يعطى الباب ظهره : دوقينى حاجة تانية غير بتاعة النهاردة . طرقعت ضحكة وظلت واقفة على رأس السلم وهى تشيعه بأحلى ماتعثر عليه من كلمات حتى أختفى فى ظلام السلم . لم تمض سوى دقيقة واحدة على دخولها الشقة إلا وكان أهل حارة " أبن شكر " كلهم يستمعون إلى صراخ بدرية وأبنتها وهما يتشاجران بأعلى صوت بعدما فاض بأمها ألاعيب منصور ومماطلته بينما فاض بالبنت الخوف الذى جلجل فى كيانها من ضياع الحبيب .

000000000000000

وصل " جمال النونو " لشقة فايزة فى موعده اليومى الثابت مابين التاسعة والعاشرة مساء ، أستقبلته فى الصالة المقر الرئيسى لعقد لقاءاتها اليومية مابين حوارية فى الصباح مع سيدات حارة " المنجى " على شاكلة " حمدية " زوجة حامد الحلاق ونبوية سيدة أعمال تدير طشت جبنة قريش وكروانة مش أضافة إلى أم الشحات وهى من القيادات التاريخية للحارة حيث ولد جميع من فى الحارة فى وجودها ، وبعد المغرب تستقبل وفودا من تجار كرموز ورموزها المعروفين أمثال الحاج بلال تاجر أجهزة كهربائية وعم سالم وميلاد والحاج سيد البرقوقى من موردى الأقمشة والستائر والمفروشات ، كانت لقاءات ناجحة تمت فى أطار تحركات متبادلة الهدف منها جس نبض السوق من ناحيتها وكيفية العودة لممارسة نشاطها التجارى فى حين يبحث التجار عن أستعادة وكيل مهم بحجم فايزة ينعش تجارة باتت تلفظ أنفاسها الأخيرة فى كل عموم كرموز وسط حالة من الفقر المتصاعد بين أناس صدرت لهم شهادة وفاة أقتصادية منذ أندلاع ثورة يناير .. دلف " النونو" الصالة يتبع خطاها ، ثوان وكانت فى مكانها أمام مائدتها الصغيرة فى مواجهة ذلك الكائن صاحب الوجه الأرنبى ، وكعادته فور دخوله يقف أمامها منتبها يخلى مافى جيوبه ويضعها على المائدة وكأنه " ممسوك تحرى " أمام ضابط بقسم شرطة . نثر حاجياته تحت مراقبة عينيها "علبة سجاير L.M وموبايل " نوكيا" من أصل صينى وثمانين جنيه تسلمتها منه حصيلة الوردية الأولى قبل أن يسلم مفاتيح التاكسى لـ " خضر" قائد الوردية الثانية ، كانت تلك أول فقرة فى برنامجه اليومى قبل أن ينتقل الى فقرة التقارير . سحب سيجارة من علبته أشعلها ونظر لها قبل أن ينكمش أمامها فى موقعه بحسب تكوينه الجسمانى لما يمتاز به من كتفين ساقطين وقفص صدرى ضئيل للغاية لايكفى لحبس عصفورة بينما هى راسخة فى مكانها ككيان يتفاعل بشكل أيجابى مع واقع تسيطر عليه من كافة جوانبه ، فكان واضحا فى جلال جلستها الرأس يتحرك بزهو تحت حجاب أحكمت طرفيه مع حاجبين مرفوعين وسحنة متجهمة أضفت عليها هيبة " أبعد عن الشر وغنيله " .. وكأن شيىء لم يكن ، وكأن السجن فى

ذاكرتها مجرد رحلة لطيفة لم يترك فيها مايعكر صفوها اللهم إلا تذكار تحتفظ به على ظهر يدها على شكل بقعة رمادية ناتجة عن صعقة كهربائية نالتها كمكافأة حين قادت تظاهرة للتحرر داخل العنبر خلال ثورة يناير . سرد لها النونو" مشاهداته عقب دورية أستطلاع قام بها داخل المقهى .. يضعها داخل الحدث بكل تفاصيله .أستهل روايته منكس الرأس يدعك كفيه ولم يعد فى وجهه من الملامح سوى القلق : مشيت من القهوة على الساعة سبعة وكان منصور تحت عينى قاعد مع الوله سليم بيضربوا سيجارتين فى الركن جنب الشباك بعدها أستلم خضر مكانى على مارحت عند محمود المحامى أجيب منه وصل الأمانة بتاع أم عبير زى ماقلتيلى .. خلصت الأمر سريع سريع ويادوب فى نزلتى من عنده لقيت خضر بيتصل على وبيبلغنى أن البت نوسة جت القهوة أتكلمت مع أبنك منصور وبعد كده خدته فى أيدها ومشت . تبدل لونها وكررت خلفه مفردات الجملة بوجه ينفجر دهشة : بتقول دخلت القهوة .. نهار أبوها أسود بنت الوسخة هى حصلت لحد كده بنت بدرية تدخل قهوتى وكمان تاخد الوله فى أيدها . أضافت بعد سكتة قصيرة : وبعدين يامنيل .

ـ الوله خضر أتسحب وراهم لغاية مادخلوا حارة أبن شكر وبعد كده طلع معاها البيت . جحظت عيناها فى شرود .. لحظات صمت أتاحت له فرصة للسؤال : ماتفهمينى يامعلمة بتفكرى فى أيه ؟. أشعلت سيجارة وظلت تنفث غيظها وهى تنظر لصبيها الذى ينتظر ثم قامت تلملم لحمها المكدس داخل العباية السوداء . لفت لفة فى الصالة بخطوات مضطربة ثم أكتفت بعدها بالوقوف متحفزة تداهمها أفكار وأستنتاجات حتى قفز الكلام على شفتيها مجددا : موضوع البت دى كبير أوى ياوله .. حكاية أنها تروح برجليها لغاية القهوة وتدخل كده بعين قادرة وتسحب الوله من أيده وتطلع بيه ده مالوش عندى غير معنى واحد مافيش غيره .. يتتبع النونو بعينيه دخانها وهو يصعد ويهبط أمام وجهها . مستفهما : وده معناه أيه يامعلمة . رجعت لكرسيها وجلست بوجه يمتلأ بكمية لا بأس بها من الغضب : ده معناه أن الوله منصور بيتهرب منها وعايز يخلع وهيه مش عايزة تهمد وبتلف وراه . رفع النونو عينيه للسقف يقلب كلامها فى رأسه : كلامك معقول برضه عشان لو فى ود وأنسجام كان يبقى فى أتصال يعنى كان يبقى فى ميعاد فى أى حته تلمهم غير القهوة . بينما لاذت نظرتها بصورة فى أطار عتيق معلقة قرب مدخل الصالة لوالدها الراحل وقالت فى غضب للوجه الظاهر فى البرواز : ورحمة أبويا فى نومته لأكون قاطعه خبر بدرية وبنتها من حارة أبن شكر كلها والموكوس أبن الموكوس أنا وهو والزمن طويل وحأفضل وراه لغاية مايسترجل ويقول حقى برقبتى . ثم نقرت بأصابعها سطح المائدة تستدعى هدوءا يخفف عنها الضغط العصبى مع كلمات مواساة على لسان النونو : أهدى يامعلمة دى أمور رفيعة وبسيطة وحلها بعون اللـه فى أيدينا بس

صلى على النبى كده وخلينا فى المهم وقوليلى بقى حنبدأ شغل أمتى . نظرلها بحيرة حين لم ترد إلا أنه لمح أتساع حدقتيها وكأنها تقرأ فكرة لازال خطها باهتا . فأضاف مستدركا : أيه يامعلمة أنتى رحتى لحد فين . قالت بعد أن هدأت وظل أبتسامة تزحف على زاوية فمها فى لهفة قبل أن تسحب تليفونها المحمول وناولته لصبيها واذا بها تقول له فجأة: طلع نمرة محمود المحامى وأتصل عليه . وزن كلمتها وهو ينظر فى قائمة الأسماء : خير يامعلمة ماهو أنا لسه جاى من عنده . لم تجيبه . أجرى الأتصال وناولها المحمول قبل أن يتخلى عن معرفة التفاصيل . أتاها صوت محمود المحامى مرحبا ، فعاجلته بالرد بعد وصلة ترحيب قصيرة : أيصالات الأيجار بتاعة بيت حارة أبن شكر خليها عندك وماتبعتهاش الشهر ده . كان صوته مندهشا : مش فاهم تقصدى أيه ؟ طفحت منها ضحكة ذات مغزى : لما أجيلك المكتب وأقعد معاك حأبقى أفهمك الحكاية . أنهت المكالمة حين تلاعبت أبتسامة خفيفة على شفتى النونو : ده باين عليه حوار كبير أوى !.

ـ أتقل ياوله لغاية ما الزبادى يخمر . لم يفلح وده فى كشف سرها فزاد ألحاحه : ماتخلينى معاكى من أول الخط يامعلمة ونورينى . توجهت له بنظرتها بينما ينتظر منها كلمة أو جملة توضيحية فأهدته أشارة من يدها تعنى " حان الرحيل " : ياله قوم أتكل على اللـه وكفايه رغى وتطلع من هنا على القهوة عدل تلزق فيها ماتقومش عايزة أخبار الوله منصور وأبوه بالتفصيل والأهم من كده لازم تعرفلى منصور راح مع البت نوسة ليه عندهم فى البيت وخلى عينك فى وسط راسك وماتغفلش عن الأفعى الكبير ، هو ده أس الفساد لحسن اليومين دول الفار بيلعب فى عبى من ناحيته ومش مطمنة له . سبب قلقها المشروع من عبده حين كانت تشعر به فى أحيان كثيرة ينسحب من جوارها قرب الفجر إلى ركن الكنبة فى الطرقة المضاءة بذلك النور النحيل ، فكانت تتلصص عليه وتراه يلطم فخذيه وتسمعه يحادث نفسه عن أمور لم تعد محتملة وعن عيشة سودة يحياها وبات يخفى أكثر مما يفصح رافعا شعار : الصبر يارب . يكرره مرارا فى جلسته منفردا حتى يجف ريقه ويتخدر لسانه ثم ينام جالسا . أشعلت سيجارة أخرى وألتفت اليها النونو قبل أن يتخذ طريقه للخارج : لو فيه أى جديد حأتصل عليكى ولاحتنامى بدرى يامعلمة . قالها بأبتسامة باردة . نفثت دخان سيجارتها : مش بأتخمد قبل ما أراجع يومية القهوة مع جوز الندامة . ثم أشاحت بوجهها تحاصرها أفكار وخطط لم تحدد بعد موعد التنفيذها .

بينما فى تلك اللحظة كانت بؤرة المقهى مزدحمة حول مائدة التف حولها مجموعة زباين فى دائرة التصقت فيها الأكتاف وتداعت عليها الرؤوس ، يشاهدون حدثا نادرا أشرابت له أعناقهم .. " عشرة طاولة " مثيرة

للجدل أحد طرفيها عم سلامة المستأسد على مقعده بجسمه النحيل ووجهه الضيق والتى أكلته التجاعيد وحفرت خطوطا على جانبى عينيه الضيقة تتحول شقوقا فى حالة الضحك ، حافى الرأس إلا ماتيسر عند الجانبين خريج معاش منذ ربع قرن من الهيئة السلكية واللاسلكية وهو التعريف القديم للشركة المصرية للاتصالات ويمثل عنصر الخبرة فى أحداث " العشرة " أمام منافس شاب من مواليد دفعة التسعينات ، هو أشرف خريج دبلوم صنايع بتقدير سمح له بالترقى طالبا بالمعهد الفنى الصناعى لمدة عامين تخرج بعدها عاطلا قبل أن يلتحق بعدة وظائف قصيرة الأجل . أستهلها كفرد أمن بقميص سماوى وكاب كحلى وحبل ذهبى مشدود من الكتف الأيمن حتى أخر جنبه الأيسر فى مدخل عمارة بمنطقة سيدى جابر قبل أن يتقدم بأستقالة مسببة عقب مشادة خفيفة مع البواب كسرت فيها سنته وأحتفظ لنفسه بخط لايزال مقيما تحت أنفه طوله ست غرز ثم تقلد بعدها مجموعة وظائف على نفس الشاكلة حتى أنتهى به المطاف عامل نظافة بفندق " البارون " فى شرم الشيخ قبل أن تنقطع عنها أقدام الزبائن بعد ثورة يناير المجيدة فرحل مع الراحلين حتى أستقر أخيرا فى مقهى " عبده الجن " زبون دائم كامل التفرغ فأحترف الطاولة وأثبت جدارة وتألقا وكسب أحترام المترددين ولقب بالحصان الأسود وهو ما أضفى أهمية على تلك المباراة .

بينما " عبده " فى تلك الأثناء كامن فى موقعه متجاهلا قيمة الحدث إلا من نظرة واهنة يرسلها كل حين عند أرتفاع أيقاع " الهيجان" مع لقطة يخطفها بفتور من مشهد فى مسلسل تركى تذيعه قناة " دريم " تظهر فيه حزمة من النساء يحضرن حفلة فى حديقة قصر بفساتين سواريه بدت فيها مساحة اللحم أكثر من مساحة القماش . بدا مكتئبا واجما . لم يكن تعيسا وحسب ، تعبير التعاسة لايوفر أطمئنانا فى مثل حالته ولا يشفى عليلا ولا محبطا ولا مقهورا ، قهر يجرحه يقطعه ويبعثره بل كان ذلك كله معا ، ومجتمعا . وصل قهره حالة الأنفجار وأحس بعجز فاجع أمام أستقواء فايزة وجبروتها وشعر بنفسه ضعيفا ومهانا ومنتهكا . لم يشأ تعايره بالضعف وراح يقنع نفسه بمسكنات الألفاظ : أكيد دى غمة وبكره ربنا يعدلها من عنده . بينما حالته النفسية كانت تمثل مادة خصبة على ألسنة المترددين على القهوة من المقعدين بأمراض الشيخوخة ومصابى المعاش المبكر وعواطلية حارة المنجى . طال به الصمت قبل أن يغمض عينيه هربا من صور بدت له رتيبة ومملة يتابع عبر الظلام ملحمة صوتية غير منسجمة ، فرقعة " أوشاط " الطاولة ينزل مدويا فى حيز خانته مع حماس جماهيرى متصاعد يتخللها نداءات مجتهدة على لسان جمعة لعامل " النصبة " البليد : فنجان قهوة بن تقيل زى دمك سكر خفيف زى عقلك معاهم واحد شاى أحمر زى ...! نبرته فى النداء كانت أشبه بأستغاثات وسط أدعية مشايخ ومقاطع من سور قرأنية ونغمات شعبية مع موسيقى غربى كلها كانت خليط من رنات موبايلات تدافعت إلى رأسه دفعة واحدة مع صراخ أشرف

وضحكات النسوان التركى بدبلجة لبنانى " مايصة " فتوقف بذهنه عند " المياصة " اللبنانى يستدعى ليالى طرية باتت فى ذمة التاريخ . فتمتم: اللـه يرحم أيام المزاج ويمسيكى بالخير ياجودت . قالها وتنهد قبل أن يستقل آلة الزمن راجعا لمشهد نوفمبر 2011 حين تعرف على" جودت" لاجئة سورية عن طريق " نعمة بهنس" التى رفعت شعارها فى وجه " عبده " حين هم بها " أسترنى بورقه ياعبده " فكانت أول " عرفية " فى حياته النسائية كما سهلت له قضاء أسبوعا مع " جودت " بشقة قانون جديد بالعصافرة قبلى أدرك بعدها ولأول مرة فائدة أن ينتمى المصرى لمحيطة العربى . فتح " عبده" عينيه والحال كماهو الحال لم يلحظ تغييرا فأرسل نظرة بلا تعبير قبل أن يبدأ أشتباكا مع ذاته فى حوار أستهله بسؤال : وأخرتها أيه ياعبده حتفضل قاعد متحنط كده ولا حتسترجل وتخلى عندك دم وتشوف صرفة مع الولية دى . لم يجب وأستدرك وهو لازال فى وضعية الأشتباك مع حوار فات أوانه : أزاى الوليه دى أتمكنت منى وخلتنى فى أيدها زى الأرنب وملبشة جتتى وكاتمة على نفسى .. صحيح مرى زى القدر مافيش منها مهرب بتحاسبنى بالمليم والقرش وتراجع ورايا الكلمة واللفتة . زفرة متعبة بطعم الأستسلام : ولية جتتها منحسة لا زمن هدها ولا سجن أدبها . ثم بدت فى لكنته رنة ساخرة : أخس عليك ياعبده راجل من دون الرجالة . ختم جملته وأدلى برأسه على صدره فلمحه الحاج تاج حين أجتاز عتبة المقهى فأطال النظر فى وجهه فقرأ فى ملامحه وجوما وبؤسا فتحرك إليه متحاشيا دائرة الصخب وألتقط كرسى خالى وسحبه خلفه .

ـ ماتوحد اللـه ياعبده . رفع عينه فى ملل ليجد أمامه الحاج بجلبابه الأبيض الفضفاض وجلس على الكرسى إلى جواره وكأن عبده لم يشعر بوجوده إلا مع كلماته : لا إله إلا اللـه ..أهلا ياحاج تاج .

ـ مالك فى أيه شايل الدنيا كلها على دماغك ليه .

ـ مخنوق وأرفان مش واخد على عيشة الحصار دى لا عارف أروح ولا أجى ولا فى قعدة مزاج ولاحتى عارف أصرف قرش ولا أى حاجة . ظهرت أبتسامته الطيبة : هيه لسه مزنقة عليك . قبل أن يفجر قنبلة الهم أشار بيديه مناديا : هات أتنين شاى هنا ياجمعة فيهم واحد للحاج تاج .. كلمة مزنقة ماعدتش تكفى اللى زى حالاتى.. أنا مش لاقى نفسى ياحاج .. أنا بأموت بالبطيىء . أنتشله من كآبته حين خرج عليه بلسان ناصح : ياعبده أنت أبن بلد وراجل مفتح وحكايتك مع فايزة مش حتستعصى عليك .. أبدأ معاها ياأخى من جديد وأديها الأمان وأطوى الصفحة القديمة وبأذن اللـه مع المعاملة المظبوطة كل حاجة حتتغير وأكيد هيه كمان حتتغير . هز رأسه كمن يتلقى عزاء : فايزة تتغير .. واللـه أنت راجل طيب . قالها بوجه طافح ثم شرد تائها ولم يرد قبل نداءين ولكزة : الشاى ياعبده . أستلمه وبدا حالما كمشتهى الماء فى

الصحراء : ياسلام لو فى أنون فى البلد دى يدى الراجل الحق أنه يبدل الحرمة اللى معاه .. حتى ولو بأى حاجة . بنبرة لطيفة مع رشفة شاى : ببنوتة صغيرة يعنى .

ـ لا ياعم بناقصها حريم خالص يبدلوها حتى بلبيسة جزم . أحمرخديه بضحكة بريئة بينما أضاف عبده ناقما : أخوان أيه وزفت أيه مش الناس دول ياحاج كانوا مصدعين دماغتنا فى المظاهرات وعايزين يروحوا القدس ميتين بالملايين . أرتد للوراء يطرح فكرة . أردف : أنا لو منهم يلموا النسوان اللى من عينة فايزة ويبعتوهم على فلسطين أقله يرازوا بيهم اليهود . قابل فكرته بضحكة كالشهقة : فكرة تحترم ياعبده .

ـ تصدق وتؤمن باللـه ياحاج أنا لما بأقلق من نومى قرب الفجر وبأشوف خلقتها المكعبلة جنبى على المخدة .. بعيد عنك كده بأقوم ولامؤاخذة زى اللى شاخخ على روحه وبأسيب الأوضة كلها وبأختلى مع نفسى على الكنبة اللى فى الطرقة . يلتقط أنفاسه رافعا كفيه ضارعا ذليلا : وأقول يارب أرزقنى بعفريت يركع قدامى ويقولى شبيك لبيك .. عايز فلوس .. عايز جاه .. عايز صحة . يهتز وهو يخبط على فخذيه : على الحرام من دينى مش حاطلب منه حاجة غير أنه يخلصنى من الولية اللى جوه !!. دخل" جمال النونو" المقهى مع نهاية قهقهة الحاج تاج النادرة الحدوث وعيناه مركزتان ناحية عبده بينما قدميه تقوده الى طاولة منزوية فى الركن فبادر بصفع مقعد الكرسى الخالى بكف يده متظاهرا بأن عليه غبار فى حين توقف عبده عن الكلام وشعر بأن هناك عيون لئيمة تراقبه وتنظر إليه من ركن واحد تتفحصه خلسة ،لم يجد أمامه سوى تكتيك " عبده الأهبل " ، فشغل نفسه بـ " سعيد تشكك " الذى ظهر فجأة وأندفع ناحيتهما بخطواته القصيرة وحركته النشطة السريعة ، شد كرسيا وجلس ثم طلب ينسون وأستدعى " جنش الجزمجى " وخلع نضارته وأزاح عرقا نبت فى جبهته فى مدة لا تتجاوز النصف دقيقة قبل أن يعد لسانه لبداية كلام آملا أن يكون مثار جدل أو أحباط ، فذكر خبرين لهما علاقة مباشرة بالبلطجة من بينهما سطو مسلح على فرع بنك بمنطقة القبارى والتانى أقتحام مستشفى الأميرى وسرقة جهاز أشعة مع اعتداء مبرح على الأطقم الطبية ، فأستوقفه الحاج تاج مشمئزا : كفاية يا أخى أخبارك السودة دى حرام عليك هو أحنا ناقصين .

ـ هو أنا يعنى بأجيب حاجة من عندى مش هو ده حال البلد وهى دى الأيام السودة اللى أحنا عايشنها . قام من مكانه يلتحف بالهم : أقوم أمشى أحسن .. السلام عليكم .

ـ عليكم السلام ياحاج تاج . قالها تشكك بفرحة وكأنه حقق نجاحا ثم سلم قدميه مسترخيا لـ " جنش الجزمجى " الذى أحتضنها بين ساقيه رافعا عينيه الكبيرتان : جزمتك ياأستاذ تشكك مش حينفع معاها لمعة على طول لازم الأول تتاخد سكينة معجون ده وشها كله مشقق . أفتعل أبتسامة خجولة : الجزم عندى ماليه البيت بس الجزمة دى بالذات بأحس فيها براحة نفسية . شعر عبده بالضيق : ماتخلص ياجنش وطوقها بأى هباب وخلصنا . ثم تابع وجه النونو الذى يشير لجمعه بأصبعيه مصرحا : فنجان قهوة بن تقيل سكر تقيل .

ـ مش عوايدك يعنى ياأسطى تطلب قهوة بالليل . قالها جمعه بملل بينما نظر اليه فى كراهية : وأنت لك فيه يابارد !.. مر الوقت بطيئا دون أحداث مهمة . حتى أنحسرت الأقدام وتسربت الوجوه لحال سبيلها ولم يتبق إلا مطاريد الحارة من المفلسين والشمامين والفارين من واجبات شرعية المنضمين لعداد من يعتبروا أن الزواج صداقة وأخوة لا أكثر !.. كانت الساعة تجاوزت الواحدة صباحا . أمعن النونو التصنت .. ساعده صمت الليل وقلة الزبائن على جلاء سمعه فتحولت كل شعرة فى جسمه وكل عصب يشاركه الأستماع . مرت ساعة والنونو يلاحق عبده دون جدوى بينما الأخير يلاحظه من محبسه الأنفرادى داخل كرسيه بعد أن فارقه " تشكك" من نصف ساعة ، يدرك أنه تحت المراقبة المشددة من صبيها فيخرج عن صمته من حين لأخر فيلوح لجمعه الذى يفهم طلبه فيأتيه بالشيشة وحجر المعسل قبل أن يتمتم بالسباب يلعن فيها فايزة وصبيها دون أن تتحرك شفتيه ولا عينيه من وجه النونو ، إلا أنه أصابته لوثة غضب مفاجئة دون وعى منه رافضا كل أشكال المراقبة والملاحقة وقام من كرسيه متجها إليه بخطى منفعلة حتى بلغه فى حين لم يرفع النونو رأسه إليه مستعملا " الطناش" لكن عندما طال وقوفه أمامه أضطر لرفع رأسه ولمعت عيناه وأنفرجت شفتيه الأرنبية عن تلك الأبتسامة الساخرة التى يفهمها عبده فأنحنى نحوه مستندا بكفيه على الطاولة : ماتفهمنى العبارة أيه يانونو بدل حركات أسماعيل ياسين اللى أنت عاملها دى !. لم ينطق وأشار له بالجلوس وأن أتسعت أبتسامته : أقعد يامعلم عبده وبلاش الكلام الكبير ده . هم بالجلوس : ماتجيب من الأخر وقولى عايز تعرف أيه وأنا أريحك ؟. مال برأسه وكأنه يطقطق فقرات عنقه : براحة على يامعلم عبده لو مش عايزنى أقعد فى القهوة صارحنى وأنا أتكل على اللـه .

ـ مش ده الغرض ياأسطى .

ـ نورنى يامعلمى .

ـ وماله حأنورك .. آخر الكلام يا أبن الناس أنا متلقح هنا بأشوف أكل عيشى يعنى لاباروح شمال ولايمين ومن ساعة مابأوصل المحروقة دى وأستلم من منصور وأنا لازق فى الكرسى لغاية آخر الليل يبقى لزمته أيه شغل المرشدين ده ولزقتك هنا ليل ونهار مش التاكسى كان أولى بالوقت ده بدل ركنته بالساعات قدام القهوة .

ـ ماتشغلش بالك أنت بالحكاية دى التاكسى له صحاب يسألوا عنه . صفع عبده الطاولة بكفه وبعدها سمع النونو رنة غضب .

ـ صحاب التاكسى تبقى مراتى يعنى اللى يخصها يخصنى . غير أن جمال النونو نصيبه من الأدب والذوق محدود يفهم نفسية عبده ويطيب له أن يكايده : ماشى يامعلم عبده حأبقى أبلغ المعلمة فايزة بالمعلومة دى . صدته العبارة وقام صامتا وسار ببطء الى كرسيه ثم ألقى نظرة على ساعته فوجدها الثانية صباحا فنادى على جمعه الذى يغالب النعاس والنعاس يغالبه ونظر الى الخارج وحك مقدمة رأسه : أنا ماشى ياجمعه فتح عينيك كده وصحصح . قالها وأتجه بحذا طاولة النونو ورماه بنظرة وأخذ يهذى فى غضب وتحامل على نفسه وأنصرف متعثرا فى ساقيه الطويلتين .

خرج بكتفين ساقطين محتضنا الأرف مصابا بالاكتئاب واذا نطق تنهد وسأل اللـه اللطف بعباده . مضى فى سيره إلى الحوارى الضيقة المتشابهة فى الصمت والظلام خلف الأبواب ، لم يصادف سوى كلاب تهز ذيولها وتتجه إلى كومة عند المنعطف فسار بجوارها يحمل على كتفيه هموم الدنيا وفى رأسه ألف منشار يمزقه . وسأل نفسه وهو ينقل خطواته : يارب لما أرجع البيت ألاقيها مخمودة ولا مقتولة وأترحم من سين وجيم بتاع كل يوم . تعجب من السؤال وهمس لنفسه بصوت مسموع : تعمل اللى تعمله بقى تفتحلى محضر تفتحلى رجليها أنا زهقت بقى وطهقت وقسما باللـه لو فتحت بؤها بكلمة حأخلى ليلتها سودة .

ظل يمشى وأفكاره تمشى معه حتى فاجأه البيت فأستعاذ باللـه وقبض على طرف جلبابه وصعد السلم يردد: أسترها ياللى بتستر . دخل الشقة برأس منحنية كمن يتفادى حاجزا .. مر إلى الصالة ببطء يحدق فى الظلام وكأنه يأمره بالأنقشاع وفى رحلته إلى الداخل مر بغرفة منصور ولمح تحت بابها خط من النور وهى إشارة لوجوده بالداخل .. تسلل عبده إلى غرفته تردد فى فتح الباب حين شعر بخطر يترصده فألصق أذنه ينصت، ثم فتحه بهدوء وحذر ودخل بكتفه ثم أبتسم حين وجدها نائمة : الحمد للـه مخمودة .. أضاء لمبة سهارى كى تمكنه من تبديل جلبابه فظهر له وجه فايزة فى النور الخافت مخيفا بجبين ضيق وأسنان بارزة ، شعر بها تتحرك فوق السرير الذى أحدثت حشيته خشخشة . أحست بوجوده فأنقلبت على ظهرها تثنى أحدى

ركبتيها وأنحسر قميص نومها عن ساق بيضاء غليظة . خلع عبده جلبابه وبقى بسرواله الداخلى وفانلة نصف كم ووقف أمام المرآة يمسح شعره ويعاين خلقته .. عبر المرآة كانت فايزة خلفه فوق السرير . رمشت بعينيها ثم شقت جفنيها ببطء ، وفى خفوت مؤتلف مع ضوء الغرفة الرقيق صدر عنها نداء خفيف كما لو أنه جاء من العالم الأخر : شرفت ياسبع !. دون أهتمام : الشغل خدنى فى القهوة وماحستش بالوقت . ترتكز بكوعها على الوسادة وتحدق فيه بأهتمام . أبتسم فى المرأة وهو ينظر إليها . رفعت حاجبيها : بسم اللـه ماشاء اللـه الراجل مشغول أوى وشايف شغله ع الأخر . أستدار ناحيتها ، لكن نظرتها وهى تتثائب مع كلماتها الممضوغة كانت تمتحن وجهه بفراسة وقوة وبنبرة مهينة : مش عيب عليك ياراجل ياناقص ياعايب يااللى شنبك فى وشك أتنين كيلو ترضى بالمسخرة فى قهوة المعلم عبد المقصود . تضيق عينيه ويصفر وجهه ويتمهل فى حطواته حتى بلغ حافة السرير : مسخرة أيه ياوليه ؟!.

ـ بنت بدرية كومبارس كانت بتعمل أيه فى قهوتى وأزاى تدخل بعين قادرة وتسحب الوله من أيده وتأخده معاها ع البيت . بان فى مظهره جد طارىء : وأيه يعنى ماتاخده البيت ولا تأخده فى أى حته هو أبنك صغير ماتسيبيه يشوفله يومين حد واخد منها حاجة . فتبدلت سحنته وأنتفخ وجهه مع وصول أول كلماتها : ما هو طالع نجس زى اللى جابه لو شاف ديل كلبة يريل عليها لا يعرف العيب ولا الأصول . قذفها برده وهو يلوح فى وجهها بيديه : العيب يافايزة لما تخلى الصبى العرة بتاعك يلزقلى ليل ونهار فى القهوة وعاملى فيها مخبر .

ـ الصبى بتاعى مش عرة ياعبده ياجن ولوحطيتك فى دماغى وعايزة أراقبك بجد حأعد عليك أنفاسك وحأعرف أولك من أخرك وحأطلعلك القديم قبل الجديد .. لم نفسك أحسلك . قالتها ثم هبطت من سريرها واقفة بينما أنقلب عبده فى جحره أسدا ، فتجتاحه موجة الغضب المفاجىء وأطلق زئيرا وحشيا : حرام عليكى يامفترية عايزة أيه منى ماتسبينى فى حالى . ثم دار حولها يجرب قدرتها على مقاومة الغضب وبدا كمن أصابته لوثة إلا أنه لم يستطع أن يكمل هياجه حين تصدت له بثورة شتائم : عايزنى أسيبك فى حالك ياعرة الرجالة يااللى عايش على أفايا وعامل فيها معلم بعد ماكنت بلطجى عايش على أفا الناس .. أنا اللى لبستك ونضفتك وخليتك محسوب على صنف الرجالة . أعطاها ظهره يهرب من شرر نظراتها فسحبته من كتفه فأعتدل أمامها : أنا سيباك بمزاجى .. عارف ليه ؟. عشان أنت عاجبنى كده وبمزاجى برضه بطلت أسأل عن دفاتر الحسابات القديمة وبأقول ماشى كبرى دماغك وفى الأخر الحساب يجمع .. لكن ودين النبى أن ماأتعدلتش وأتفردت حأخلى كرموز كلها تضحك عليك وأنت عارف فايزة عبد المقصود تقدر تعمل أيه

معاك ومع ألف من عينتك .. وضعت كفها على صدغه : وساعتها ياسبع الليل ماتلومش إلا نفسك . قالت جملتها الأخيرة بعين مفتوحة بثبات وعين مواربة بينما ظل عبده مرتجفا فى مكانه يرقبها لعلها تتخلى عن سخطها الزائد الذى شوه ملامحها فتراجع خطوتين وعيناه فى الأرض ثم تمتم مستسلما : يافايزة أنا جوزك وأبو أبنك وحاجتك هى حاجتى واللى يخصك يخصنى .. بس أنتى كبرى دماغك منى وماتقفليش ع الواحدة وساعتها حتلاقى الدنيا كلها ماشية وحتبقى أنتى مرضية وأنا مرضى . صدرت عنها ـ رغم جدية الموقف ـ ضحكة مجلجلة : من أمتى الكلام ده ياسيد المعلمين .. أفتكرت دلوقتى أنك جوزى وأبو أبنى .. أنت طول عمرك أنانى وطماع ومش بتحب إلا نفسك ياراجل ياناقص ياعديم الضمير .

ـ ماشى ياأم منصور مقبولة منك . نظرت له بتأفف وأرادت أن تختصر المشهد بعد أن ملت من طريقته : روح أتكل على اللـه نام برة على الكنبة .

ـ ليه يافوز ماتخلينى جنبك الليلة . أشاحت بوجهها وكأنها لم تسمع ، فأستدار وأنصرف بهدوء وصفع الباب خلفه بينما هى تتعقبه بالنظرات وجسدها كله ينتفض من الغضب .

الفصل السابع

لازالت تلك الزيارة تحبسه دائما فى دائرة من الترقب لخطوة قادمة .

بدأ خيرى يتابع هدى من اليوم التالى ، ظهر لها فى أوقات صعودها ونزولها ، حريصا على الصمت والأبتسام .. بعد مرور يومين حين بلغت هدى طابقها عقب عودتها من رحلة تسوق ناجحة تحمل أربع أكياس بيضاء من الحجم الكبير وكيس أسود يتيم أمتلأوا عن أخرهم بخزين يكفى أسبوعا من خضار ولحوم ودجاج وتوابل وبعض المخبوزات حسب جدول أقرته مع نورا يتماشى مع ميزانية رصدتها الأخيرة بعد أجتماع مشترك بأحد زوايا المنزل فى حضور أيات ونعمة قبل أن تعرب فيه عن رفضها المطلق فى أن يمدهم " أنور " بأى طلبات تشككا منها فى ذمته وفساد بضاعته وأيضا لتجد لها دورا حركيا خارج حدود المنزل ، فوافق الحاضرون مع تعليق باهت على لسان بسمة لحظة مرورها فى وقت تلاوة القرار : أنتى غاوية تتعبى نفسك ياماما .

لمحت خيرى أمامها عند باب المصعد فأنزاحت لتفسح له مكانا فبادرها بأبتسامة ونظرة طويلة مالبث أن أعترضها بوسامته بالرغم من تورد جفنيه نتيجة سهر يطارده من يوم الزيارة .أستوقفها بهيئته الفخمة .

فقال مرحبا : أهلا يامدام هدى .. أخبارك أيه ؟. ألتقت عيناها بنظراته تكاد تلتهمها وهو مازال بوضعية الأبتسام فغضت بصرها وأطرقت نحو الأرض خجلى وعلى شفتيها تتردد أبتسامة متلكئة : الحمد للـه ياأستاذ خيرى .. أخبار شريف أيه ؟ .

ـ آهو الحمد اللـه كويس .. بيكافح ! .

ـ ربنا معاه وقوله مافيش حاجة سهلة وسلملى عليه كتير . تتخطفه جمل وكلمات يحاول الأمساك بواحدة منها كى تتيح له فرصة فتح حوار . لم يعثر إلا على واحدة بحكم الشهامة حين نظر للأكياس التى أنهكت معصميها : طب أى مساعدة .

ـ شكرا .. كتر خيرك . تراجع خطوتين يفسح لها طريقا لتمر بحملها ثم أنصرفت أمام عينيه إلى شقتها بينما لم يتحرك من مكانه وتابعها بنظراته حتى لمح نعمة توصد الباب خلفها ثم مشى إلى شقته متثاقلا ويتردد داخله شعور متمرد " أى قيد لعين ذلك الذى قيدنى أمامها غير الخوف والحرص وخشية الصد " أخرج سلسلة مفاتيحه من جيبه وأنتابه أحساس بطعم الفشل ، تحسس مفتاح الشقة حتى قبض عليه من بين حزمة مفاتيح وأولجه بعنف فى كالون الباب . أستقبله السكون . خلع سترته وألقاها على الكرسى وأرسل الباب لأطاره بدفعة من نفذ صبره . دخل غرفته وأعتكف فيها تنهشه الوحدة .. هاهو كل يوم يفترض أنه موجود ، ويتأمل جثته المحنطة وينتظر زمن عودة الوعى بينما سؤال ملح يطرق رأسه فى عنف : هل سيظل فى الماضى أسيرا ؟ هل يطول الأضطراب الذى يعتريه ؟ كان عليه ركوب السؤال : هو أيه اللى حصلى بالظبط ؟ أحس أن رأسه لا يتحمل مثل هذه الأوهام ، وإن كانت هناك حقيقة مؤكدة الآن : أنها تلك المرأة التى أعادت إليه شيئا مفقودا . أشعل السيجارة ـ سميرة الوحدة ـ عبست ملامح الوجه وهو يبتلع الدخان ويطرده فى عصبية قبل أن يرن هاتفه فرفعه لأذنه فى ملل : أيوه يابرسوم .. الحمد للـه كويس . أنصت لسؤال صديقه المتحمس : ميعادنا النهاردة تمانية ونص فى الجريدة . دلك فرورة رأسه بعنف : مش حأقدر النهاردة يابرسوم . بلهفة : ليه خير فى حاجة عندك ولا أيه ؟ .

ـ لما أشوفك بكره حأقولك . أنهى المكالمة سريعا قبل أن يلح صديقه فى طرح الأسئلة فأثر الصمت والسكينة وشعر بها تملأ فراغ الحجرة وأصبح وجهها البدرى المنير مازال يملأ عينيه ويسد عليه كل طريق . خرج للصالة يتفقدها لعله يجد فيها مايشغله إلا أنه فشل فى المهمة وأتجه للمطبخ وفتح الثلاجة وقرب رأسه بأنحناءة ثم مد يده وسحب طبق به جبن براميلى وحولها زيتون أسود دون رغبة حقيقية للأكل وقبل أن يوصد بابها عدل عن رأيه وأعاده مكانه وكأنه أكتفى بالمشاهدة وأستبدله بجرعة ماء ثم

عاد للصالة وأنحرف ناحية المرآة ووقف يواجهها يتأمل صورته يتبين بعض التفاصيل ، فرأى وجها مرهقا وجسدا عاطلا فمط شفتيه ساخرا من نفسه : خليك كده زى ماأنت العجز حياكلك وحتبقى زى خيال المآته . أستمر على هذا الحال يدور فى الشقة حتى أنتصف الليل قبل أن يقبع فى غرفته وكأنه يبحث عن فرج قريب ، فأتجه ناحية النافذة .. حاول فتح الشيش بهدوء حتى لا يشرخ صمت الليل . دخل هواء جديد إلى محيط الغرفة الراكد . تأمل الكون النائم . هذه المدينة التى تغرق فى الفوضى أمست لاحس ولا حركة .. هدوء مثل صمت الموتى . دق قلبه دقات سريعة مباغتة وهو ينقل بصره الزائغ بين الغرفة والمدينة النائمة .. بدا وكأنه ثملاً تدور رأسه بغير شراب .

مساء اليوم التالى .. بداية الشهر

فور دخول نورا من باب الشقة هرولت إليها " بسمة " مندفعة وفى ذيلها يوسف اللذان كانا فى أنتظارها منذ العصر ، حاصراها كأسيرة حرب وأقتاداها إلى الصالة وسط تهليل وهتاف ومديح كأمر معتاد مع بداية كل شهر حين تعود من الأتيليه غانمة مرتبها ، إلا أنها قاومت وأنسلتت منهما مع ضحكات متقطعة : أصبروا شوية يامفلسين حتاخدوا مصروفكم بس أدونى فرصة أغير هدومى . أرتفع أيقاع الرفض وتحت ضغط المحايلة المنغمة تخلت عن فكرتها وعدلت عن قرارها وأكتفت بخلع حذائها بجوار باب الشقة ومشت بينهما تتعثر كعروس فى زفة بينما تبادلا دغدغة مشاعرها بحلو الكلام دون أنقطاع حتى المائدة التى أستقرت على رأسها كزعيمة فى حين توافد عليها باقى المفلسين من نزلاء الشقة تباعا ، فخرجت أيات من غرفتها ملفوفة بروبها الزهرى وأختارت مكانها على يمين نورا بينما جاءت هدى من المطبخ داخل " مريلة " معلقة فى رقبتها ومنسدلة حتى الفخذين وقاية من ماء الحوض الذى أعتاد أن يعبث بنهديها وبطنها ، خلصت رقبتها وخلعتها ثم أنزوت بجوار الطرقة تستطلع بدهشة حدثا تاريخيا لا يتكرر إلا مع بداية كل شهر .. أقتربت ببطء تبحث فى الوجوه الفرحة عن فهم ، فتحركت إليهم وجلست على كرسى بين يوسف وبسمة وأحاطتهم بنظرة : خير ياولاد ملمومين ليه كده حوالين نورا. لم يتصدى أحد للرد سوى بسمة بعد مرور لحظات ودون أن تنظر اليها : كل سنة وأنتى طيبة ياماما النهاردة أول الشهر وما أدراك مأول الشهر .. يوضح يوسف : يعنى الفرج ياحاجة . بينما ترفع نورا ورقة أمام عينيها تستعرض فيها بنودا تتعلق بالمصروفات الشهرية وداخل عقلها تدور عملية حسابية بين الجمع والطرح وهى تغمغم بصوت لايفهمه أحد .. فى تلك اللحظة وصلت نعمة بسلامة اللـه إلى الصالة قادمة من

غرفة أيات تحبو داخل " جلابية " سوداء واسعة حتى أستكانت عند أول كرسى قابلها فى طريقها . جلسة مكررة ومعتادة مع كل أول شهر .. نفس التفاصيل بنفس الأبطال ولم يتغير فى المشهد سوى وجود الأم المحررة .. لحظات من اللهفة والترقب خيمت على الوجوه حين دست نورا يمناها داخل حقيبة يدها وأخرجت المحفظة المعتادة التى بدت منتفخة وكأن داخلها جنين فى مرحلة التكوين . رفعت عينيها بعد أن أنتهت من عد بضع ورقات من فئة المائة جنيه ثم سحبتهم كالساحر و قربتهم إلى وجه يوسف الذى بدا متأهبا : أتفضل ياسى يوسف .. فلوس الكورسات ومصروفك . ثم ذيلت جملتها : شد حيلك ياباشمهندس عايزين نخلص بقى . قالتها وأستعملت اليد اليسرى فى ألتقاط ثلاث ورقات أضافية من نفس الفئة : ودول كمان لزوم القعدات الرومانسية بتاعة كل يوم مع البرنسيسة بتاعتك . سكنته أبتسامة عريضة : واللـه أنتى مافى زيك فى الدنيا . فى حين كانت بسمة على وشك أن تسقط عينيها من محجريها داخل المحفظة تتلصص على يد نورا التى تقطتع المزيد من راتبها . تفرك كفيها أستعدادا لتلقى المعلوم مع تنويه رددته : خلى بالك معايا يانورا الشهر ده فى مذكرات محتاجاها ضرورى ده غير كورس محاسبة وكمان فيه شنطة شفتها فى كارفور حأتجنن عليها . ترفع حاجبها بأبتسامة مدهوشة : هو أنا مش لسه جايبالك الشهر اللى فات طقم كامل شوز وبنطلون وبلوزة .

ـ ماهى الشنطة اللى أنا شفتها هى اللى حتكمل الطقم .. مدت يدها بالمعلوم : فلوسك آهيه وفوقها مية جنيه صرفى نفسك بيهم زى مأأنتى عايزة وحسك عينك تطلبى منى حاجة لغاية آخر الشهر . خطفت الفلوس من اليد الممدودة : أمرى للـه حآجى على نفسى . بينما صدر صوت خافت دون أن يفقد كبرياءه قالت آيات كلام مباشرلم تتوقعه نورا : أنا محتاجة فلوس عشان حفلة عمر خيرت يوم الخميس فى مسرح سيد درويش . ضحكة مكتومة أصدرها يوسف دون تعليق ، لكن نورا كانت أجابتها سريعة : حاضر ياعمتى .. أدى متين جنيه وأبقى سلميلى على عمر . أستلمت المبلغ بشياكة مع نبرة متحفظة : كويسين . كانت هدى طوال جلستها تراقب مايدور من خلال لهفة السؤال الصامت : كده برضه يانورا بتوزعى عليهم المصروف وماكلفتيش خاطرك تشركينى معاكى حتى ولو من باب المجاملة . تنهدت من أعماق أعماقها وأقشعر جسمها وهبت رياح حزينة فى نفسها وخنقتها العبرات : ياه ده أنا بقيت كمالة عدد وماليش لزمة خالص . أحست أن الأيام نالت منها إلى حد التعجيز وسرحت بفكرها بعيدا حين أيقنت بأن لادور لها ولا وزن لوجودها .. نورا لن تفهم نفسيتها ، ولاتريد أن تدرك حجم التمزق الذى يجتاحها أو مرارة الحرمان من دور أم بدأ يرحل عنها . لوت نورا رقبتها بأتجاه نعمة مشيرة لها بأبتسامة : تعالى يانعوم خد نصيبك . نهضت بقوامها الدقيق الطويل الذى لا يخفى الكثير من بنيانها العظمى بينما قصدها يوسف ومشت معه إلى

المائدة مترنحة تكاد تنهار على الأرض فى كل خطوة إلى أن أصطدمت بكرسى خالى مجاور لأيات حتى تشبثت به وأستندت بكفها على مسنده وهمت بالجلوس ثم شغلته قبل أن تطلق أهةمديدة كعمرها : معلش ياولاد أنا بقيت كهنة .. بادرتها نورا : ده أنتى بركة البيت يانعوم وآدى فلوس الدوا بتاعك . أرتسمت على شفتيها اليابستين بسمة أستسلام وأقبلت نورا وناولتها نصيبها التى تسلمته وطوته كمن يخفى شيئا محظورا . أخيرا أدركت نورا ماغاب عنها طوال الجلسة ودست أناملها داخل المحفظة وسحبت ورقة واحدة بمائة جنيه وأشارت بها لأمها : خدى ياماما ده مصروف أيدك .. مدى أيدك ياماما ؟ فأمسكت يدها . لم تبسطها . دمعت عيناها . كادت تذوب تأثرا .. وكادت ترفض .. لكنها أكتشفت أنها أضعف من أى رفض وتوقفت كلمة " لا " عند منتصفها أوأنها تمددت حتى لا نهاية لها . وقبل أن تستغرق هدى فى شرودها ويستولى عليها شعورا بالضعف كان جرس الباب يرسل رنينه على أستحياء فقامت من مكانها ، وجدتها فرصة لتنفض عن نفسها أحساسا مترايدا بأن وجودها تحصيل حاصل . فتحت الباب . توقفت تتطلع إلى فتاة واقفة مثل التمثال ، لكنها مبتسمة ، ترتدى بنطلون أسود ضيق وتيشرت أحمر قانى وحول عنقها عقد ذهبى رقيق وعيناها تكسوهما بريق الأبهة وتقبض بيدها على كيس فضى بحروف ذهبية يبدو على مظهره الفخامة . بينما وقفت هدى صامتة ترمقها بعينين نفاذتين ثم هزت رأسها وقد صنعت على وجهها أبتسامة سريعة قبل أن يأتيها صوت يوسف : مين ياماما ؟.. رددت الفتاة بصوت هامس خجول : حمد اللـه على السلامة ياطنط . تقلصت الأبتسامة وضاقت على شفتى هدى فخرجت نبرتها ممتدة : اللـه يسلمك . تقدم يوسف نحو باب الشقة تتبعه بسمة يستطلعان . فتح عينيه على أتساعها واقفا فى مواجهتها ملتجئا الى الدهشة وقد أرتعشت الركبتان وبدت قدماه عاجزتان عن الحركة وكأن يد قوية سمرتهما إلى أرضية الصالة .. بصوت يكاد ينقطع : هدير ؟!. بدت أن الرجفة القاسية التى زلزلت كيانه عند المفاجأة ستبعثه فى أنتفاضة متوترة . لكزته هدى فى كتفه ونظراتها فى وجه هدير لا تنقطع : مش تقول لضيفتك تتفضل . وقف قبالتها بقامته المديدة وكأنه لا يستقبلها وإنما يعترض طريقها بينما قابلت هدير وقفته المرتبكة وأحتجازه لها على ذلك النحو الذى يكاد يوصد الباب فى وجهها . بأبتسامة هادئة . فى حين أنحشرت بسمة بين يوسف وأمها وهى تعانى نفس الحالة من الأرتباك : أهلا ياهدير .. وحشتينى ياحبيبتى .. أتفضلى . وكان عناقا متوترا ثم سارت هدير بعد أن أنهت أجراءات الدخول متجنبة الخوض فى الوجوه المرتبكة محشورة بين بسمة وأمها يتقدمهم يوسف بخطوات حذرة كمن يمشى على الحبل . أندهشت نورا لثوان حين سمعت أسم " هدير " يتردد على لسان أخيها فأبتلعت المفاجأة وأنضمت لعمتها فى صف المنتظرين

عند عتبة الصالون ، فتقدمت نورا خطوتين حين أقتربت هدير ثم سحبتها لصدرها تطبع على وجنتيها قبلتين مصحوبة بعبارة ترحيب : أيه المفاجأة الجميلة دى ياهدير .

ـ أنا أسفة أنى جيت من غير ميعاد . تلقفتها أيات بقبلتين وعبارة مماثلة من الترحيب لكن بصيغة قديمة : أهلا وسهلا ياهدير .. دى فرصة عظيمة أوى !.. لم تنس أيات لقاءها الوحيد بهدير عند بوابة كلية الهندسة حين تطوعت لتوصيل يوسف بسيارتها العتيقة فى ذلك اليوم الماطر وكانت هدير داخل سيارتها تنتظره ، ولم تتوان فى الخروج إليها لتتعرف على العمة سليلة الباشوات ، وقابلتها أيات بكلمة تفيض أحتراما وتقديرا كان لها وقع فى نفس هدير أكثر بكثير من وقع قطرات المطر التى تسقط على رأسها . جلست هدير على كنبة الصالون وقد أصابها ماأصاب الجميع من أرتباك فيما عدا هدى التى لم تستوعب بعد حقيقة هذا التوتر فبدت على طبيعتها حين أستهلت كلماتها بالهمس فى أذن هدير بعد أن أختارت الأقامة إلى جوارها : أنت أجمل بكتير من اللى يوسف وصفهولى .

ـ مرسى ياطنط . ثم نكست رأسها وأضافت تبرر وجودها بعد أن أدركت من خلال نظرة خاطفة فى وجوه الموجودين أنها جاءت فى غير وقتها : أنا أسفه جدا ياجماعة أنى جيت من غير ميعاد بس حبيت أعملها مفاجأة ليوسف وبصراحة كان نفسى أتعرف عليكى ياطنط . أستقبل كلماتها وقد تسمرت على ملامحه ضحكة بلا معنى : هى مفاجأة فعلا ياهدير . قاطعت أمه : لا ياحبيبتى ده بيتك وفى أى وقت أهلا بيكى وبالنسبة لى أنا دى أحلى مفاجأة . قالتها هدى وهى تطيل النظر فى وجهها بينما أكدت نورا : أنا وبسمة أخواتك ياهدير وبعدين أحنا أصحاب أوى بس عن طريق التليفون وأنا فرحانة جدا أنى شفتك وأتأكدت كمان أنك حلوة زى صوتك وأحلى من الصور اللى على موبايل يوسف .

ـ شكرا على المجاملة دى يانورا . ثم أتجهت بجسدها كله ناحية هدى ومدت هديتها الملفوفة فى أستحياء : ياريت ياطنط تقبلى منى الهدية البسيطة دى بمناسبة رجوعك بالسلامة . أزدان وجهها بأبتسامة صافية وهى تتسلم هديتها وتطبع بعدها قبلة رقيقة على خد الضيفة التى خف أرتباكها كثيرا وأضافت فى نفس السياق : يوسف كلمنى كتير عن حضرتك وده السبب اللى خلانى أتجرأ وأجى أتعرف عليكى .

ـ ربنا يخليكى ياحبيبتى ده أنا اللى كان نفسى أشوفك من زمان وأقعد معاكى ودايما يوسف لما كان بيجى يزورنى كل شهر كان لازم يحكيلى عنك طول الزيارة .. وبالمناسبة هو مش بيخبى عنى حاجة خالص . قالتها ضاحكة بينما أرتدت هدير برأسها للخلف وقد ضاقت عينيها وأنكمشت جبهتها وهى تسترجع كلمات هدى الأخيرة وتردد فى داخلها همسا محتدما : أيه اللى الست دى بتقوله .. زيارة أيه اللى كل شهر

بيزورها فيها يوسف .. معقولة !.. يوسف حيروح الخليج كل شهر يشوف أمه ويرجع من غير ما أنا أعرف ؟ طب أمتى وأزاى .. ده تقريبا كل يوم معايا ؟ ! شاع فى وجهها الأضطراب وهى تنقل نظراتها بين وجوههم : بيزورك فين ياطنط أرتجفت شفتى يوسف وتلعثمت كلماته وهو يتصدى لعلامات الأستفهام التى ملأت وجهها : ماما قصدها يعنى مكالمات التليفون !! .. قصة الحب التى جمعتها بيوسف منذ أربع سنوات مكنتها من فهم نفسيته وهضم طباعه وصار بالنسبة لها كتابا مفتوحا تعرف كيف تكون ملامحه عندما يكذب ، وكيف يكون أرتباكه وهو يخفى شيئا وتعلم كيف يكون فى مثل تلك اللحظة وهو يهرب بنظراته بعيدا عن عينيها حين ينكشف أمرا مالا يحب أن تعرفه هى . أحست هدير فى نظراتهم بشيىء غريب ومريب فى حين أصبحت هى موضع النظر والأهتمام والمحرض على الصمت والتأمل بينما لمحت هدى حالة الهلع والخوف فى تقاطيع أبناءها وبدأت تفهم أنها قالت شيئا صادما ، فأرادت فى محاولة يائسة كسر تلك الحالة المفاجئة : مش تشوف يايوسف هدير تحب تشرب أيه ؟. لم يسألها بل أرتفع ضغطه حين ظفر بنظرة غامضة وغريبة من عينها فى حين أختفت نعمة من المشهد حين وجهت لها أيات نداءا : حاجة ساقعة بسرعة يانعمة . لاحظت هدير حال يوسف فأصابها حرج جر وراءه صمتا مربكا ثم أستجمعت كل ماتملك من قدرة كى تلملم نفسها وكى تبدو على أقل قدر من التبعثر والأضطراب ثم تماسكت فى وقفتها : معلش أعذرونى ياجماعة مش حأقدر أتأخر أكتر من كده . قامت هدى من مكانها تحتويها فى صدرها وتقبلها فى كتفها وكأنها تستجديها بأن تمر تلك الزيارة فى ذهنها دون طرح أسئلة . صافحت الجميع بأبتسامة جاهدت من أجل أن تكون طبيعية ومضت إلى الباب على وعد بزيارة ثانية ولهثت خلفها نورا وبسمة بعبارات وداعية قصيرة بينما صاحبها يوسف الى باب الشقة حتى وقفا فى لحظة مرتجلة مد كل منهما يده للأخر مودعا ثم مضتت بعدها وفى أثرها عيونه ترسل النظرات الشاردة . توقفت هدى فى وسط الصالة وباب الشقة مازال مفتوحا ويوسف لايزال على عتبته ، وما أن غابت هدير داخل المصعد حتى أستبد به الخوف وظل ساكنا لا يتحرك وأستند إلى الباب . كان يشعر بضعف وكانت خطواته ثقيلة وهو يتحرك راجعا إلى الصالون حيث جلس الجميع .

تكدس فى الصالون صمت لا تصدع فيه وظلوا جامدين فى أماكنهم كأنهم كتل خرسانية ، بينما هو خر جالسا إلى جوار نورا قبل أن يغمض عينيه يعيد سيناريو الزيارة المباغتة وحوارها الصعب فى ذهنه ، وما أن أنطفأت فى رأسه الأسئلة والنتائج المتوقعة أحس أنه مهجور شعر برعشة تسرى فى جسمه كله وأن صوتا يقول له " أنه سيهوى أو يزول " فتح عينيه قليلا كانت أمه تتأمله وهى فى مكانها متجمدة وقد أستولى صمت كئيب فى المكان ، فتكلمت وهى توزع نظراتها فى وجوههم : ماحدش فيكم فهمنى أى

حاجة .. ماحدش قالى أنتو مفهمين الناس أيه عنى ؟! أصغى يوسف دون أن يطرف له جفن بينما أمعنت نورا فى تعذيبها بالتحديق فيها وهى تدارى حيرتها بالألتفات وتحريك الرموش وطاوعهايوسف فى خطتها التعذيبية دون أن يبدى أى مقاومة . ثم أضافت ذاهلة : بتبصولى كده ليه .. أنا ماغلطش أنا كنت فرحانة بوجودها وبأحاول أجاملها وماكانش قصدى يابنى أجرحك بأى كلمة ولا أسببلك مشكلة . تجمعت خيوط الأنفعال فى وجهه ثم أخذت حدته تتصاعد : أنتى جرحتينى أوى ياماما وطلعتينى أدامها كداب وغشاش . تضع كف يدها على صدرها : أنا يايوسف . أزداد أنفعاله : أيوه أنتى ياماما .. لما تقولى لها يوسف بيزورنى كل شهر .. ده معناه أيه ؟.. هدير عارفه أنك بتشتغلى فى الخليج من سنين يبقى كلامك ده يتفهم أزاى . أختنق صوتها بالدموع وهى تردف كأنما توجه بكلماتها عتابا للدنيا بأسرها : أنا ذنبى أيه .. ماحدش فيكم قالى على حكاية الخليج دى أبدا .. هو ذنبى أنى مش عارفة أتلم عليكم ولوساعة واحدة من يوم مارجعت ولا ذنبى أنى مش لاقيه حد يقعد معايا ولا حد بيكلمنى ولا بيفهمنى أى حاجة .. ده أنا تقريبا مش عارفة عنكم حاجة خالص وكأنى واحدة غريبة أو ضيفة قاعدة معاكم يومين تلاتة وحتمشى .. سكتت برهة قبل أن تتجمع موجة غضب فاضت على لسانها : ولا أنتو بتستعروا منى عشان دخلت السجن .. لأ لغاية هنا ولازم كلكم تعرفوا أنى دخلت السجن لما لقيت حقكم بيضيع وفلوسكم بتروح وده مش معناه أنى مجرمة ولا قتالة قتلة كل اللى حصل كان من غير قصد وغصب عنى وفى لحظة أنفعال دفعت تمنها تسع سنين من عمرى كنت بأموت فى اليوم الواحد ألف مرة وأنتو بعاد عنى .. عيشت فى زنزانة متر فى متر وصبرت وأتحملت ورضيت بحكم ربنا . هدأ الصوت الغاضب وأكملت فى وهن : مافيش حد منكم حاسس باللى جوايا ولاحد بيشاركنى فى يومى ولا بيسألنى مالك لدرجة أنى بقيت مش فاهمة أنتو فرحانين لخروجى ولا زعلانين . أنهت حكايتها الموجعة ولم تستطع أن تدارى مرارتها ، كان أنينها خافت غير مسموع ثم قامت تمسح دموعها وهى تحدث نفسها : بيحاسبونى على ذلة لسان ؟! ثم مشت تشد عضلات جسمها ورأسها مرفوع تهزه بقوة كأنما تنفض عن نفسها لحظة ضعف وغادرت متجهةإلى غرفتها مخلفة مساحة من الصمت لم يستطع أى منهم قطعها .. عندما أقتربت من باب الغرفة شعرت بدوار حين كسر حاجز الصمت فى الصالون ووصلتها همهمة أصواتهم وتسمع لغطهم وسمعت حديث نورا المنفعل : أهدوا شوية وخلونا نفكر فى المصيبة اللى حصلت .

ـ أنا رأيى أن يوسف يتصل بيها كمان نص ساعة بحجة أنه بيطمن أنها وصلت البيت ولا لسه وبالمرة يجس نبضها ويشوف أنطباعها أيه . وجهة نظر أبدتها أيات . أيدتها نورا وأضافت عليها كلاما حازما : وماتحاولش تفتح معاها أى كلام عن ماما . هز رأسه : ربنا يستر .

بينما هدى كانت على وشك أن تعود إليهم وتصرخ فيهم : حرام عليكم أنا ماغلطش . إلا أنها تراجعت وأكتفت بدخول غرفتها وأتجهت الى النافذة المفتوحة حين شعرت بالاختناق وأسندت رأسها اليها تنظر الى السماء وكأنها تتشاغل عن هواجسها لعلها تنسى أوتتناسى ماهى فيه من صدمة ومأساة لدرجة أنها لم تشعر بدخول بسمة التى بادرتها من خلفها : ماتزعليش ياماما .. يوسف مايقصدش . أنصتت وهى فى مكانها لاتتحرك والدموع ملء عينيها تحاول أخفاءها عنها ، فأدركت بسمة معاناتها . أردفت : عشان خاطرى ياماما ماتضايقيش نفسك دى مشكلة بسيطة وان شاء اللـه حتعدى . ثم نكست رأسها وأضافت فى محاولة للتوضيح : الغلطة اللى حصلت دى أحنا مسئولين عنها وكل اللى أنت قلتيه مظبوط كان لازم نقولك من أول يوم أنى أنا ويوسف ونورا مفهمين كل اللى حوالينا من صحابنا وزمايلنا أنك كنتى مسافرة فى الخليج . تستدير ناحيتها وأثار كلماتها تدوى داخلها ثم حركت رأسها ثانية نحو النافذة وأبتلعت دموعها: فى الخليج . أسندت رأسها بأستسلام : أنتم أدرى بحالكم !.

ـ طب عشان خاطرى ياماما تعالى نامى على سريرك وأرتاحى وماتفكريش فى أى حاجة وكله حيعدى ياجميل . أعتلت السرير فى بطء تنفيذا لنصيحة أبنتها التى أطفأت أضاءة الغرفة وتركتها مع نور الأباجورة الخافت ورددت على أسماعها قبل أن تنصرف : تصبحى على خير ياماما . فور خروجها أستغرقت هدى فى البكاء وأنكمشت على نفسها داخل السرير . مرت عشر دقائق وكانت طرقات خفيفة على باب الغرفة . يدخل يوسف .. وجدها نائمة فى النور الخافت ومنكمشة فوقف أمامها ونظرلها من أعلى وطافت نظرته بالجسم المنكمش فى أعياء ثم تشبث بالوجه الناطق بالسأم الشاكى كما لوكانت قسمات معذبة .. تنهد وهو يستعرض ما بدر منه من غضب وأنفعال فأحس أنه مذنب رغم أنفه . لقد أثرت فى نفسه دموع أمه ومنظرها البائس فنطق وجهه بالجملة قبل أن يلفظها لسانه : مسكينة ياماما . قالها وهو يدنو وجهه من وجهها الذى تصرخ فيه التعاسة . تحركت جفناها ببطء . فتحتهما قليلا ، لتنفلت منهما دموعا كانت محتجزة . قال والتأثر يخنق صوته : ماتزعليش منى ياماما واللـه ماكان قصدى أضايقك . ثم جلس على طرف السرير ملتصقا يمسك بها من كتفها : ماتناميش وأنتى زعلانة منى . تنظر لأبنها كأنها تلوذ به من اليأس ثم بادرت تخفف عنه أن أتهمت نفسها بالتسرع وتطلب منه الصفح فتلقاها بين ذراعيه رافضا أن تلوم نفسها ، فأخذت رأسه ودفنت وجهه فى صدرها ، غسلت دموعها شعر رأسه . ثم قام بعد أن ودعها بقبلة على جبينها وأنصرف بينما هى أكتفت بعزلتها . كان صعب عليها رغم رصانتها أن تتخلص بسرعة من آثار ماحدث ، غير أنها ودون مقدمات ينتابها الحنين إلى القضبان ، ورائحة العنبر والمجارى ، تترامى رائحتها عبر الوحدة ، ويستحيل الألم لذة على نحوما .. أنزاحت ولصقت ظهرها بظهر السرير وثنت

ذراعيها تحت رأسها .. ثم لم تصبر على هذا الوضع فتمددت حيث هى .. تأملت جسدها الذى يغط فى سبات بينما كان الجميع يغط فى نوم سحيق ، أما هى فقد شردت تفكر فى أشياء متفرقة حين حملها ريح الأرق إلى عالمه وتملكتها اليقظة الملعونة ، فأسترجعت كلام " زيزيت " حين زارتها أول أمس فى الأتيليه قبل رحلتها الصباحية للسوق حين كررت عليها بالحاح نفس العرض بالعمل معها .. لازال العرض يتوغل فى رأسها ويخبط فى جنباتها وظلت مفتحة العينين تدرس العرض بتأنى .. ثم مالبثت أن نامت بعد أن قررت أبلاغ زيزيت بقبولها الغير مشروط .

فى الصبــاح ..

أستقبلتها زيزيت كالعادة فى مكتبها الصغير الذى لايتعدى مساحته المترين فى مثلهما والمطل على قاعة أستقبال الزبائن والتى أسهمت هى بنفسها فى وضع تصميمه بحيث جعلت جدرانه من الألوميتال الأسود بأرتفاع متر عن سطح الأرض على أن يكمل الزجاج الأبيض " الثلجى " صعوده لأعلى الى ماقبل السقف بنصف متر فأتاح لها فرصة الرصد والمراقبة لكل مايدور فى القاعة وتعمدت أن تكون النافذة المطلة على البحر فى داخل حدوده فبدت خلفيته كرؤية رسام مجنون حين يظهر البحر من خلفها وهى تجلس على مكتبها الصغير وكأنه أعلى من رأسها . تشرب هدى قهوتها بنهم ولهفة سعيا وراء أستفاقة سريعة بعد ليلة عصيبة كان النوم فيها ضيفا خفيفا .. بينما زيزيت أمامها ترشف قهوتها ببطء وتتلذذ وكأنها تعاشر الفنجان بشفتيها تمتص حافته التى طالها الروج فى حين يقذف هو بقطراته المحوجة من بن "سفيانوبولو" إلى داخل الفم المفتوح تاركا بصمته عند زاويتى شفتيها .. أطالت النظر الى وجهها متفحصة علامات السهر حول العينين . فبادرت : يعنى أنتى عايزة تفهمينى ياهدى أنك عشان تقررى تيجى معايا هنا فى الأتيليه فضلتى طول الليل سهرانه من غير نوم ويبقى وشك عدمان بالمنظر ده . مع رشفة أخيرة من فنجان القهوة همست بأبتسامة مبتورة : الحكاية مش كده خالص . زمت شفتيها وحبست الكلام حين رن موبايل زيزيت التى ألقت نظرة على شاشته ثم تجاهلت الرد قبل أن تعاود معاينة ملامح صديقتها بعد ماأخرست رنينه وحولته صامتا : أحكيلى اللى حصل ؟ سكتت للحظات تابعت منظر البحر عبر النافذة المشرعة خلف ظهر زيزيت : أمبارح كان يوم صعب أوى ! ثم أعتصرت قصة الأمس فى قالب درامى مرتب بدأته بمشهد نورا وهى بتوزع العطايا والهبات وماسببته من ضرر نفسى مرورا باللحظة الدرامية المتصاعدة بحضور هدير وحديثها التلقائى معها الذى سبب أزمة وأرتباكا وأفضى إلى نهاية حزينة وكاشفة لمدى حجم الأزمة التى يعيشها الجميع فأستفاضت فى الوصف بينما زيزيت شغوفة لسردها وهى

تتابع كلماتها المحملة بالمخاوف والشكوك ، إلا أن نهاية قصتها جاءت سريعة على خلاف مابدأته من سرد تفصيلى حين وقعت عينيها على نورا الواقفة فى آخر القاعة تتصدر باب الخروج مبتسمة فى وداع زبونة من العيار الثقيل تملك سلسلة محلات شهيرة لملابس المحجبات ، تحدثت معها للحظات قبل أن تتخذ طريقها ناحيتهما .. نقرت الباب الزجاجى بأصبعيها ولم تدخل مكتفية بمداعبتهما بأبتسامة وكأنها تداعب سمكتان فى حوض زجاجى .. جاوبتها أمها بأبتسامة مع أشارة لطيفة بيدها ثم أنصرفت لحجرة التفصيل بالداخل .

وضعت هدى يدها على خدها وبدت مضطربة رغم محاولة زيزيت أضفاء بسمة على وجهها : أنا عايزاكى تنسى اللى حصل أمبارح كله وأنسى كل اللى فات وفكرى أزاى ترجعى هدى بتاعة زمان الجامدة الجريئة الواثقة من نفسها ولازم ترجعى تفرضى وجودك فى بيتك وماتكونيش كمالة عدد وعايشة على الهامش . أنهت نصيحتها بضحكة تحمل أستغرابا وتعجب . أضافت : ياسلام على الدنيا ياهدى وكأن الزمن يعيد نفسة .. نفس شكوتك ووجعك حتى أحساسك بالوحدة .. كل ده أنا عشته ودوقت مرارته .. ياما نصحتينى ياهدى وشجعتينى أطلع من أزمتى ويشهد علينا المكان ده من أتناشر سنة لما كانت لسه شقة وأنا عايشة فيها لوحدى مع الجدران وماكانش فى مخلوق بيزورنى ولا بيسأل عنى ولا فيه حد بيطمن أن كنت عايشة ولا ميتة . أبتسمت عينيها حين أكملت : لغاية ماربنا بعتك لى ووقفتى جنبى ورجعتينى تانى للدنيا وساعتها حسيت أنى مش لوحدى وفى حد فى ضهرى عشان كده عمرى ماحأنسى وقفتك معايا . أرخت جفنيها فى خجل وأرادت أن تقاطعها لتبعد عن نفسها حرجا سكن وجهها ، إلا أن زيزيت تابعت فى أصرار : أنا عارفة أن ظروفك غير ظروفى وأن الزمن أتغير لكن لو دققتى كويس مش حتلاقى فيه فرق كبير هى نفس الوحدة والغربة اللى لازمونى سنين .. أنا أكتر واحدة حاسة بيكى وشايفه فى عينيكى الخوف والتردد من أى خطوة لحسن تسببلك مشاكل .. فهماكى ومقدرة خوفك. فاجأها نضجها وتحليلها المنطقى : كلامك مظبوط أنا فعلا خايفة من خطوة الشغل دى وقلقانة أوى لحسن الأمور تتعقد أكتر مع ولادى . لم تستطع زيزيت صرف تواريخ تطفو على ذاكرتها حين أستقبلت كلماتها المتراجعة : أنا كنت زيك كده مترددة وخايفة لكن لمالقيتك واقفة معايا بجد وبتاخدى بأيدى ساعتها بس أخدت قرارى وكان كل اللى يعرفنى وقتها كان متأكد أنى حأفشل زى مافشلت فى حياتى كلها .. عشان كده أنا مش عايزاكى تقلقى من أى حاجة وخدى قرارك وماتخافيش . بينما تنصت هدى لها بتركيز شديد لعلها تنجح فى أبعاد سيناريوهات متباينة تحوم فى رأسها . بدت كرؤى فى يقظتها ، ترى فى أحداها رفض قاطع من نورا وسعى حثيث للصدام معها بخلاف ضغط متصاعد تمارسه بقوة على زيزيت للتراجع عن دعمها أو تشكيل جبهة مناهضة لها فى البيت . فى

حين واصلت زيزيت : عشان كده ياحبيبتى أنا مش حأقدر أتفرج عليكى كتير وأسيبك فى الوضع ده .. لا ياهدى مستحيل.. فيه دين فى رقبتى ليكى ولازم أوفيه.. برضاكى أو غصب عنك دى مش مشكلتى المهم أنى حأفضل جنبك لغاية ماترجعى زى الأول وأحسن . ثم قربت وجهها منها وأرتفعت فيها نبرة الحماسة وهتفت : حأغيرلك حياتك كلها وحترجعى للدنيا بشكل جديد والكل حيعرف قيمتك وأولهم ولادك . ثم مالبثت أن أنهت كلامها حتى وقفت لتعادل رأسها بمساحة البحر التى تتلاعب مياهه الزرقاء خلف ظهرها وقد تأهبت ملامحها لتلاوة قرارها بصوت زادت فيه مساحة التحدى : أنا قررت أنك من بكرة حتكونى معايا هنا . تلقت الأمر وكأنها تنتظره : بجد يازيزيت .. أهتزت خصلة شعرها الصفراء المنفلتة على جبينها مع هزة رأسها بالايجاب : أيوه ياهدى . بينما تراجع لحم خديها معلنة عن مخاوف لاحيلة لها فى صرفها : بس أنا قلقانة أوى من نورا ورد فعلها .

ـ أنسى نورا خالص وسيبهالى .. أنا فهماها كويس وعارفة مفاتيحها كلها . سحبت نفسا وأطلقته حائرة : خايفة ترفض وتعملى مشاكل فى البيت وكمان مش عايزة أسببلك مشاكل معاها وأنا عارفة كويس أنها أيدك اليمين فى الشغل . سكتت للحظات تراجع مخاوف هدى المنطقية ، ثم أنحنت بجذعها وأستندت بكلتا يديها على المكتب وأدلت رأسها وكأنها تجرى حوارا مع المكتب أنهته سريعا . ثم رفعت عينيها وبدت عليها ملامح من قال " وجدتها " .. سحبت نفسها من خلف المكتب متجهة للكرسى المقابل لهدى وجلست أمامها لا تفصلهما سوى منضدة صغيرة عليها زهرية بها زهرة عباد شمس صناعة الصين وأستبدلت لهجتها الحماسية بأخرى متعقلة : نورا معايا هنا من أربع سنين ومن عشرتى معاها تقريبا عرفت كل مزاياها وعيوبها .. بنتك عاقلة أوى فى تصرفاتها وفاهمة يعنى أيه مسئولية ولما بتحط حاجة فى دماغها لازم تعملها وعمرى ما حأنسى أبدا أول يوم جت فيه هنا وقالتلى أنا نفسى أبقى زيك أمسك حتة القماش وأنفذها وأفصلها على مزاجى أنا مش على مزاج الزبونة .. ثقتها بنفسها كانت زيادة عن اللزوم و دايما كانت تقولى مش طموحى أكون خياطة أنا عايزة أبقى مصممة أزياء أتحكم فى القماش وأبتكر فيها موديلات وأنسق ألوان وهو ده فعلا ياهدى اللى بنتك وصلتله والزبونة اللى كانت معاها من شوية بتاخد معظم انتاجها اللى هى صممته ونفذته من دماغها لا نقلته من كتالوج ولا شافته على موديل .. هى دى نورا الشاطرة الواعية اللى بتعشق التحدى والنجاح. خفت بريق الأعجاب فى عينيها حين سكتت قبل أن تعيد بلكنة تحذيرية : وكمان فيه نورا بشخصية تانية . تنصت هدى بتطلع : شخصية تانية أزاى؟ .

ـ نورا فيها عيب خطير ، بنتك بتحب التملك والسيطرة وقراراها دايما من دماغها وده واضح جدا فى معاملتها مع أخواتها وعمتها وان كنت أنا شخصيا بأعذرها فى العيب ده بالذات عشان هى بجد أتحملت مسئوليتهم من الألف للياء لدرجة أنى كنت بأحس أنها فعلا أمهم .. مشكلتها الوحيدة أنها بتتعامل معاهم على أنهم ملكية خاصة لها وده اللى خلاها جافة وشديدة وعنيدة ومابتحبش تظهر ضعفها قدام أى حد حتى لو كان أقرب الناس لها . أنهت جملتها الأخيرة وأرتدت للوراء تحمل ملامح الخوف قبل أن تضيف : عشان كده أنا قلقانة جدا على وضعك فى البيت .

ـ قصدك أيه يعنى . قالتها بصوت مرتعش .

ـ قصدى أن نورا مش حتسمح لأى حد مهما أن كان يكون له سلطة جوه البيت غيرها وبس . أنصتت بغضب وتسارع أضطرابها وأزدادت وتيرته : أفهم من كده أيه يازيزيت ؟! .

ـ لازم ناخد الأمور بواقعية من غير مانعمل مشاكل ولاصدام لغاية الأمور ماتهدى والأوضاع ترجع زى زمان .. عشان كده حنبدأ بحكاية الشغل الأول من غير ماهيه تاخد بالها . ضاقت عينى هدى . فتابعت زيزيت : يعنى كل يوم الصبح حتيجى تقعدى معايا ساعة ولا أتنين لمدة كام يوم لغاية مانورا تتعود على وجودك وبعد كده أقوم أنا مدخلاكى واحدة واحدة على شغل الأتيليه بحجة أنك زهقانة وبتسلى وقتك . قلبت هدى الأمر فى رأسها ثم أبدت موافقة مضطربة قبل أن تستأذن فى الأنصراف حاملة فى رأسها حيرة تتخبطها بين أصرار زيزيت على مساعدتها وبين قلق وتخوف مشروع من رد فعل لا يعلم مداه إلا اللــه . وضعت زيزيت يدها على كتفها وتمشيا سويا للباب قبل أن تلتفت اليها : أنا من أول يوم وقفت مع بنتك من ساعة مادخلتى السجن وكان قرارى ده عشان أردلك ولو حاجة بسيطة من جمايلك ودلوقتى ومن باب أولى أقف جنب صاحبة الجميل نفسها اللى أفضالها على وماتشغليش بالك بأى حاجة طول ما أنا جنبك لغاية ماتثبتى وجودك وترجعى أحسن من الأول .. أتفقنا . تبدلت ملامحها حين سمعت الجملة الأخيرة وأضاءت وجهها بأبتسامة : أتفقنــا .

00000000000000000000

فى تلك الأثناء دخلت بسمة من بوابة الجامعة محشورة وسط أجساد تجرفها فى كل الأتجاهات وكأنها وقعت فى دوامة من اللحم البشرى .. صارعت وقاومت دون جدوى حتى أستسلم جسدها لنظرية الدفع من الخلف حتى اجتازت البوابة سيرا على الهواء قبل أن تسقط فى بؤرة زحام جديدة أمام المدخل ، إلا أنها

تماسكت وشقت طريقها وسط كرنفال ألوان يصيب العين بتلوث بصرى . أخيرا خرجت كالجنين من الرحم ثم توقفت لثوان أصلحت مأأصابها من " نعكشة " بعد معركة العبور المريرة . وسعت من خطوتها بعدماأستعادت لياقتها متجهة ناحية الكافتيريا ، فإذا كنت من السائرين خلفها فحتما ستسحب مؤخرتها نظرك كتحفة منحوتة داخل بنطلون " جبردين " وحتما ستبقى فى ذاكرتك حتى يحين موعد حلمك ، وإن كان طريقك فى عكس الأتجاه فسترى مايسرك من طيب الفاكهة .. حبتان كراز على شكل شفتين أسفلهما ثمرتان من الرمان معلقتان على صدر منشرح تحته خصر نحيل لين فى حركته نزولا إلى مالا يحمد عقباه كامنا وسط فخذين يتراقصان بلا أيقاع . أستقبلت بسمة وقفة أمجد الذى بدا وسيما فى قميصه " البيج " نظرا لوجود بديله " الرمادى " على حبل الغسيل ! رفعت يدها ملوحة له بينما رفع رأسه مبتسما يبادلها نفس الأشارة وكأن الذى بينهما لغة الأشارة . بادر بالتحرك إليها يراوغ بأداء رشيق مجموعات الطلبة التى طالت وقفتهم المرتخية أمام الكافيتريا أنتظارا لخلو مائدة أو حتى كرسى فى حين أصبحت قاعات المحاضرات رجس من عمل الشيطان ، فأختصر الطلاب حياتهم الجامعية يسعون فى طرقاتها وخارج أسوارها .. تائهون بلا هدف .. أفكار مشوشة وقضايا كبيرة تطرح بلا سند فتتوه وسط الجدل والصراخ كما تثور بينهم الخلافات العاطفية التى تبدأ وتشتعل ثم تنتهى فى غضون ساعات ولا مانع من خصم بضع دقائق لمناقشة الأوضاع السياسية التى تدور دائما فى أطار متحضر تحترم دائما فيه وجهات النظر المتباينة ، لذلك تفضى تلك المناقشات عن نتائج باهرة دائما ماتظهر فى شكل كدمات وسحجات تتوزع بالتساوى على وجوه المختلفين مصحوبة بسيمفونية سب ولعن تطال شجرة العائلات من جذورها العميقة حتى آخر ثمرة وليدة ، هنا يؤكد المراقبون والمتابعون للحركة الطلابية أن مصر ينتظرها مستقبل مضيىء !!. تصافحا بعد عناء وجهد ثم وقفا مع الواقفين فى مواجهة الكافيتريا قبل أن يشب أمجد على أطرافه ماسحا الكافيتريا بنظرة سريعة عاد بعدها راسما حسرة مصطنعة : ياخسارة مافيش ولاترابيزة فاضية . جذبها من رسغها : تعالى نقعد فى الجنينة بتاعة كلية الأداب أكيد حنلاقى فيها كراسى فاضية . مشت معه وعيناها معلقة على مدخل الكافيتريا .. سارا بتمهل وإن كان يسبقها بخطوة .. فى الطريق حاول أمجد أظهار رجولة لا محل لها من الأعراب : البنطلون ده ضيق أوى عليكى .

ـ متهيألك ده هو موضته كده . أجابة مختصرة تلقاها حين وصلا إلى حدود كلية الأداب قبل أن يتجها يسارا بمحاذاة قسم اللغات الشرقية وصولا إلى حديقة الكلية العتيقة ، أدار كل منهما رأسه فى أتجاه معاكس بحثا عن متر واحد من الخضرة يحتوى جلستهما المتعثرة ، لكن يبدو أنهما قد وصلا أرضا فى غير موسم زراعتها . فأنفجرت بتلقائية : أنت مش السنة اللى فاتت عزمتنى على حاجة ساقعة عند

بسطرودس.. أنا دلوقتى بقى مصرة أردهالك . أنتفض فجأة وجذبها بقوة من يدها قبل أن يفكر فى العرض: أتنين قاموا من الكرسى اللى هناك .. تعالى نقعد عليه بسرعة . جلسا صامتين لخمس دقائق لألتقاط الأنفاس .. أستعاد أمجد وعيه العاطفى حين أبتسم وهو يلتفت إليها : وحشتينى . كلمة أعادت لها ذاكرة الغرام بعد أن أراحت قدميها من رحلة السير العابرة للكليات : وأنت كمان . قالتها وهى تنظر فى عينيه إلا أنه مال للأمام يستند بمرفقيه على فخذيه ثم أنسحب بعينيه ناظرا للأرض بينما تأملت بسمة سكوته ونظراته المهمومة للأرض قبل أن تنقر بأصبعها على ظهره : يعنى أحنا بقالنا نص ساعة بنلف لغاية مالقينا كرسى فاضى عشان نعرف نقول كلمتين مش عشان سيادتك تسرح وتتأمل فى الأرض . رفع ظهره وأستقام فى جلسته : مش عارف يابسمة .. حاسس كده أنى مش مبسوط قلقان .. زهقان متضايق .. أى حاجة مش عارف .

ـ طب لما أنت شايل جواك كل الأحاسيس الجميلة دى كان لزمته أيه بقى أصرارك أننا نقعد مع بعض . سكت ولم يبرر بينما هى لم تحتج . كان لهما مزاج حذر هذا اليوم .. فقدت الكلمات تلك العذوبة التى كانت لأحاديثهما فى الأيام الماضية بينما واصل أمجد رحلته التأملية فى أكتشاف الطبيعة حيث بدا بمراقبة متأنية لزرقة السماء ثم أنتقالة سريعة لتفحص التربة الأرضية قبل أن يعود سالما ملتفتا ناحية بسمة التى أستسلمت لصمته وتأملاته وشغلت نفسها بالعبث بمشبك حقيبة يدها قبل أن تلتقط أذنيها بداية كلماته : مالك ساكته ليه .

ـ عايزنى أقول إيه يعنى وأنا شايفة جنبى واحد قلقان وأرفان وزهقان .

ـ أنا قلت قلقان بس مش أرفان .

ـ ماتفرقش كتير . أستدار بجسده كله متأهبا لتوضيح حالته : مش تسألينى قلقان ومتضايق ليه . عقدت ذراعيها على صدرها وأنتظرت . تابع : فاضل أسبوعين على أمتحانات آخرالسنة يعنى بالكتير شهرين والعبد للـه إلى قاعد جنبك حيتخرج .. يعنى مرحلة جديدة خالص .

ـ ودى حاجة تقلق و تضايق . قالتها ساخرة بينما أستعاد فجأة روح الثورى المتمرد : طبعا يابسمة تقلق وتخوف كمان لما أبقى متأكد إنى حأتخرج من هنا وحأبقى زميل أبويا بعد كده فى قهوة علولة اللى عندنا فى باكوس يعنى لاشغلة ولا مشغلة ومش عايزانى أبقى تعبان ومخنوق. لمست أصابعها فخذه الملتصق بها : قبل ماتفكر فى اللى جاى وتعقد نفسك ركز الأول فى الأمتحان اللى فاضل عليه أسبوعين .

ـ سيبك من حكاية الأمتحانات دى .. المهم أنا عايز أخد رأيك فى فكرة كده ضربت فى دماغى أمبارح بالليل . واجهته بصدرها قبل أن تستند بكوعها على سور الكرسى : قول ياسيدى .

ـ فكرة مش عارف حتتحمسى لها زيى ولا لأ ..بدا مرتبكا ملخوما والخجل يتعثر بلسانه . فعالجته بنبرة مخنوقة : ماتجيب من الأخر وقول فكرة أيه ؟ .

ـ أنتى عارفة أن الدفعة بتاعتنا حتعمل حفلة يوم السبت فى مسرح الليسيه حتنظمها أسرة المستقبل .

ـ سمعت عنها . أقترب بأصابعه يتحسس يدها ثم ضغط عليها : وطبعا أنتى جاية .

ـ دى مش عايزة كلام . سحبت كفها من يده المعروقة : لم نفسك أحنا فى حرم الجامعة .

ـ حلوة وملعوبة وبمناسبة أننا فى الحرم بأقول لحضرتك ياريت يوم السبت وأنتى جاية الحفلة تجيبى مامتك معاكى. تهدجت أنفاسها كمن سمعت خبرا مشؤوما : أجيب ماما معايا .. ليه ياأمجد ؟ فأجاه الرد : عشان أتعرف عليها .. أنتى مش مفهمة مامتك عن اللى بينى وبينك . قالها وبحث بعينيه عن أجابة فى وجهها فتابع بعد هزة من رأسها : الحفلة دى حتبقى فرصة أشوفها وتشوفنى وأكلمها وتكلمنى وعشان كمان تطمن أن اللى بينا جد مش هزار وأنى بحبك وعايز أرتبط بيكى وكمان ناوى أعرض عليها الفكرة اللى خيشت فى دماغى .

ـ فكرة أيه يابنى ؟.. سكت يستجمع نفسه بينما تتابعه بترقب : أنا بأقول يعنى لو ممكن مامتك تساعدنا وتقف جنبنا. قاطعته بفزع : أمى أنا .

ـ أيوه يابسمة .. مامتك تقدر تشوفلى عقد فى الخليج بعد ماأتخرج .. متهيألى ده طلب بسيط ومش حتغلب فيه .. مامتك قضت عشر سنين فى الخليج وأكيد لها هناك حبايب بالهبل وأنتى عارفانى كويس أقدر أسد فى أى شغلانة وكفاية على سنتين تلاتة أحوش فيهم تمن شقة وأظبط نفسى وساعتها نقدر نتجوز ونعيش حياتنا . كلماته كانت كطلقات الرصاص تلقتها بصوت مترنح : مش عارفة أقولك أيه أنت فاجأتنى بالكلام ده . بينما يرى أمجد ماأرتسم على وجهها .. يتأملها ويستطيع أن يقرأ خطوطا متداخلة من الأندهاش والتعجب بينما أختبرته بعفوية : هو أنت بتتكلم جد ياأمجد ؟ ! . لم يكن يريد لها أن تضطرب أو تجتاحها الهواجس : هى الأمور دى فيها هزار .. طبعا بأتكلم جد وأنا من يوم ماعرفتك لغاية دلوقتى وأنا صريح معاكى من غير تجميل وأنتى فاهمة ظروفى كويس وعشان بحبك بجد مش بهزار عايز أشتغل وأنجح

وأثبت نفسى عشان كده أول حاجة حأعملها بعد التخرج حأخطبك على طول ولما أشوف مامتك يوم السبت حأفاتحها فى موضوعنا وحأطلب مساعدتها وحأقولها بكل صراحة أنا عايز أسافر عشان أحسن ظروفى وأكافح زى ماأنتى كافحتى لغاية ماأقف على رجليه وأليق ببنتك . تكدس أنفعال الخوف فى وجهها حتى أحتقنت بشرتها وأنفجر الكلام على شفتيها فى محاولة منها لوأد فكرته بالضربة القاضية : أنا مش موافقة على كل اللى انت قلته ده خالص ولا حتى على فكرة الأرتباط دلوقتى ولا عايزاك أصلا تفاتح ماما فى أى حاجة وكمان هى مش حتحضر حفلات من أصله . تدلى فكه وهو ينصت لأنفعالها .. كان فى واحدة من تلك الحالات المترددة مابين أدنى الشكوك وأقصى الغباء وأعمق التشتت ولاح فى وجهه سؤال لم تعبر عنه شفتاه : هو أيه اللى أنا قلته غلط وخلاها تتكهرب كده .. هى مش عايزانى ليه أتعرف على أمها ؟!. أستعاد نفسه من بعد أن جمح بها : متهيألى أنا ماغلطش يابسمة ولا طلبت شيىء مستحيل عشان النرفذة دى كلها . قالها وهز رأسه مستاءا وبادلها غضبا وتابع بأنفعال : أوعى عقلك يكون رايح لسكة أنى طماع ولا أنتهازى .. لأ .. أنا كل اللى طلبته مساعدة مش حتكلف مامتك أى حاجة أنا ماطلبتش حسنة ولا سلفة . أبتلعت ريقها بصعوبة قبل أن تقرب عينيها تحتويه : أسفة ياأمجد ماكانش قصدى .. مش عارفة أنا أتنرفذت ليه . لازالت عينيه تحمل الدهشة : ياريت تفهمينى أيه اللى أنا قلته غلط وماخدتش بالى . أختنق صوتها وهى تتلفت بعينيها وكأنها تستجير بالمرتخين المزروعين فى الحديقة الصلعاء : أنت ماقلتش حاجة غلط أنا اللى وضعى غلط . قالت جملتها الأخيرة بتلقائية ودون وعى ثم وقفت فجأة ونظرت له وهو جالس مدهوشا : ياله بينا نمشى أنا عايزة أروح . قام ببطء ومشيا سويا فى ظل صمت مريب وأصبحت نظراتهما لاتفارق الأرض وكأنهما يسيران فى جنازة . لكن بلا ميت !. خرجا من البوابة بملامح مأزومة . جمل قصيرة قبل الفراق على أن يكون للحوار بقية كما نوهت بسمة : حأكلمك بالليل . هز رأسه دون أن ينطق بكلمة وأنتهى اللقاء وأصبحت لبسمة عينان قلقتان .. وأصبح لأمجد وجه مذعور وعلامات أستفهام.

00000000000000000000

كان أجتماعا مغلقا محاطا بالسرية فى ركن الذكريات والتأملات أمام المدفأة فى شقة خيرى الذى جمع نفسه داخل " ترينيج" أبيض يلفه خط أسود عريض من عند الصدر ويطوى قدميه فى شبشب أسود بأصبع بينما جلس أمام صديقه " برسوم " الذى أخفى هيكله العظمى المتهالك خلف قميص أحكم طرفيه حول عنقه الهزيل .. بدا الجو العام المصاحب للأجتماع يثير القلق والفضول بينما لعبت الأضاءة الخافتة

المنبعثة من شمعدان نحاسى على رف المدفأة الرخامى دورا مهما فى أستنفار حواس برسوم الذى تفصله عن صديقه منضدة صغيرة عليها فنجانين قهوة تم الأنتهاء منهما فى بداية الجلسة وعلى يسارهما مطفأة سجاير أجتهد خيرى أن يجعلها مقبرة لعشر سجاير فى نصف ساعة وبمجهود فردى وهو يعيد شرح حالته النفسية المتأزمة للمرة الثالثة أو الرابعة بصياغات مختلفة وكلها تدور حول أصابة مباشرة تلقاها قلبه نتيجة أزمة عاطفية حادة نالت منه ومن كيانه وجعلته يشعر لأول مرة بأنه لا يعرف ماينبغى فعله ، فأستعان بصديقه رافضا الأفصاح له فى المكالمة التى دارت بينهما عصرا وأصر على حضوره . ربما يرد على لسانه حلا أو علاجا شافيا ، إلا أنه وحتى اللحظة لازال برسوم يفتح عينيه ويغمضهما فى صمت مكتفيا بالأنصات غير قادر على المقاطعة أو الأستفسار حتى أمتلات رأسه عن أخرها بكل التفاصيل وفاضت على ملامحه التى تهدمت وزادت ترهلا قبل أن يستقر على لسانه سؤال مباغت : كل اللى سمعته منك ياخيرى عن جارتك هدى من ساعة ماشفتها لغاية النهاردة أنا ممكن أفهمه وأقبله على أنه أعجاب بشخصيتها أو بجمالها أو حتى ممكن نسميها نزوة مع واحد محروم زى حالاتك ممكن تبقى مقبولة .. لكن حب كده خبط لزق و بالسرعة دى ومن غير سبب مقنع ومع واحد زيك بتفكيرك وبمنطقك العقلانى .. يبقى أكيد فيه حاجة غلط أو فيه حاجه تانية أنا مش فاهمها وأنت مخبيها عنى . نكس رأسه للحظات قبل أن ينهى تنهيدة طارئة ثم قال : ولا فى حاجة غلط ولا مخبى حاجة عنك .. أنا نفسى لغاية دلوقتى مش قادر أفهم ولا أحلل أيه اللى حصلى وأيه اللى خلانى مدهول كده .. تعبت من التفكير ومش عارف أعمل أيه ولا أتصرف أزاى .. حاسس كأنى مش أنا ولا عارف راسى من رجليه وده اللى خلانى أفتح معاك الموضوع ده . على مدار ربع قرن من الزمالة والصداقة التقليدية التى جمعتهما دون المساس بطرازها الكلاسيكى القديم حين تفرز التركيبة الشخصية والطباع الشكل التنظيمى لتلك الصداقة فأحتفظ " برسوم " لنفسه بدور " السنيد " المرتبط دائما بمشاكل البطل يطرح عليه الرؤى والأفكار قانعا بموقعه خارج دائرة الضوء بينما البطل الوسيم الرصين دائما مايتحمل تبعات النجاح والفشل . أبتسم قبل أن يمارس دوره التاريخى : يعنى المطلوب منى أيه بالظبط ؟ بعصبية خفيفة : دبرنى ياأخى وقولى أعمل أيه .

ـ نفس الروشتة القديمة اللى قلتهالك ياخيرى فى أول مرة شفت فيها المرحومة سميحة هنا فى العمارة لما كنت ماسك لجنة الحصر .. أبعد عن السلبية وخليك أيجابى وسيبك من رومانسية عبد الحليم وصحصح شويه .. عصر النظرات والجوابات وسماع أم كلثوم طول الليل .. الزمن ده ولى وراحت أيامه وبقت فى رحمة ربنا والبقية فى حياتك . أستوقفت العبارة الأخيرة شريف وهو خارج من غرفته بفانلته الداخلية متجها للحمام فألقى نظرة على الأجتماع السرى يتبين المعنى : خير يابابا مين اللى مات ؟.. ركز برسوم

حدقتيه فى وجه خيرى : الزمن الجميل يابنى . أقترب منهما يوزع نظراته متقمصا دور الخواجة " كولومبو" قبل أن يضغط جبينه يقلب الجملة فى رأسه ويكررها بعمق مضيفا إليها أستنتاجا مستعيرا أداء الفنان" عبد السلام النابلسى " : الزمن الجميل يابنى وكمان أجتماع شكله كده مايطمنش بين الأستاذ برسوم والأستاذ خيرى تحت نور الشمعدان وقدامهم طفاية سجاير مليانه على آخرها وكمان نحط فى الحسبان أن الجوز دول أصلا منضمين لحركة سياسية ضد الأخوان اللى همه دلوقتى ماسكين الحكم . قالها وقرب نظراته إليهما بالتتابع قبل أن يصفق بكفيه : آه يبقى الأجتماع ده عشان قلب نظام الحكم ياأشقيا والبقية فى حياتك دى كلمة السر .. تبقى الليلة كده رايحة على عمل مسلح . لم يتلق أجابة أو تعليق سوى نظرة متأففةمن والده : روح أتكل على اللـه شوف وراك أيه .

ـ ماشى ياعم خيرى . قالها باسما وواصل سيره إلى الحمام بعد أن فشل فى نيل أية معلومة وهو يردد على اسماعهما : ثوار أحرار حنكمل المشوار .. بينما توجه خيرى متلهفا : وبعدين كمل يابرسوم.

ـ أول حاجة لازم نعملها نجهز خطة سريعة و أول بند فيها الجرأة والقلب الجامد وده دورك ياوحش . خفض من صوته حين ألتفت فى أتجاه الحمام : وحش مين يابرسوم ياخويا ده أنا أول مابشوفها وأقرب منها وأبقى عايز أفتح معاها أى مواضيع ماتفهمش يا أخى أيه اللى بيحصلى .. خرس تقول .. لخمة ودهولة ماتفهم . تريث للحظة كمفكر محنك قبل أن يدلى بمعلومة : هو ده الحب الحقيقى ياخيرى .. الربكة والتوهان والكلام اللى بيهرب منك وتحس أنك قدامها زى لوح التلج .. كل دى أعراضه . مسح خيرى شعر رأسه بكفيه من المقدمة إلى المؤخرة كمن يتوضأ على مذهب أبن حنبل : صح يابرسوم قالها وشرد بفكره فأعاده الأخير.. ركز معايا وأسمع تفاصيل الخطة. إلا أنه سكت حين وطأت قدمى شريف أرض الصالة راجعا من الحمام وقد حجب أفاه وعنقه بفوطة ووقف أمامهما يمارس دور " الغتاتة" بعد أن مر بطرف الفوطة على وجهه : خير ياشباب وصلتوا لأيه ؟! .

ـ أنت مش عندك وردية يابنى الساعة سبعة ماتخلص بقى وأدخل غير هدومك وماتنساش تجيب معاك أي لقمة وأنت راجع بالليل . جملة أفضت إلى التخلص منه غير أنه قال قبل أن ينصرف : ماشى يابابا بس لما أرجع حتفهمنى أيه العبارة .

ـ هو أنت يابنى شغال فى مول ولا على ميكروباص . كان توصيفا من برسوم . قابلها شريف بأبتسامة مجاملة وأتجه لغرفته بينما أقترب برسوم بوجهه الناشف الذى دبت فيه الحماسة وهو يتلو بنود الخطة متبنيا حالة صديقه على أنها قضية مصيرية تخص جيل كامل من دفعة مافوق الخمسين وخاصة الحاصلين

منهم على لقب أرمل . فتابع يشرح : أولا الظروف كلها معانا مش ضدنا . لم يستوضح وأنتظر : اللى أنا فهمته منك أن هدى تقريبا كل يوم الصبح بتبقى موجودة عند صاحبتها زيزيت فى الأتيليه واللى نورا بنتها شغالة فيه واللى حتكون عن قريب حرم أبنك وهمه التلاته بيقدروك وبيحترموك وده يطمنا أن لك شعبية فى المكان يعنى مش حتبقى قلقان من أى حاجة ومن هنا حتبقى البداية . زفرة ملل قبل أن يسحب سيجارة من علبته : وبعدين .

ـ سعادتك حتستناها على السلم وحتظبط نفسك الصبح على وقت دخولها الأتيليه وبرضه نفس الحكاية ساعة الضهر وهى خارجة وكلامك معاها كله يبقى بعينيك .. خليها تفهم معنى نظراتك وتفهم اللى تقصده من غير ماتنطق بحرف واحد وتفضل على الحال ده يومين تلاته وبعدها تدخل على المرحلة التانية والكلام ساعتها حيبقى مباشر وجها لوجه ووقتها حيبقى لنا تكتيك تانى حسب تطور الوضع . سحب نفسا وأنكمش صوته : قلقان منها لحسن تحرجنى بكلمة ولا بحركة . قاطعه : مستحيل يحصل منها أى حاجة .. مش عشان هيه واقعة فى دباديبك ولا دايبة فى حبك .. الحكاية أكبر منك ومنها . رفع حاجبا : نورنى .

ـ أولا هى عارفة أنك حتبقى حما بنتها فى المستقبل القريب وثانيا هى شايله جميلك فوق راسها لما وقفت جنب ولادها وثالثا وده مهم جدا بالنسبة لها وهى أنها فاهمة وضعها كويس أوى فى نظر الناس ..أنها لمؤاخذة يعنى خريجة سجون وده معناه أنها ماتقدرش تعمل مشكلة معاك ولا مع غيرك عشان أى تصرف مش حيبقى فى مصلحتها ولا فى حد أصلا حيصدقها عشان كده بأقولك دوس وماتقلقش من أى حاجة . ألتقط خيرى تبريرات صديقه بأبتسامة تعنى الأرتياح فى حين راقب برسوم فرحة صديقه الطفولية التى دفعته لهرش مؤخرة صلعته بحثا عن صياغة هادئة وواقعية لحقيقة تعمد خيرى نسيانها أو غض الطرف عنها . فقال ببطء : والمسيح الحى ياخيرى أنت من ساعة مافاتحتنى فى حكاية هدى دى ويعلم ربنا أنا أد أيه فرحان ومبسوط ويمكن أكتر منك وأنا شايف الفرحة فى عينيك . سكت بعدها ولم يكمل وأدلى برأسه للأرض فى حين تسلل قلق مباغت ينخر رأس خيرى وظل يرمقه بترقب حين أكمل برسوم : سبحان اللـه أنا شايف أدامى نفس الفرحة اللى كانت بتتنطط فى وشك زمان هيه نفسها بالكربون لما أتقابلنا فى المكتب من أكتر من خمسة وعشرين سنة مش حنسى اليوم ده أبدا كنا أول الشهر ولسه قابضين المرتب وكان فوق منه منحة عيد العمال وكنت يومها أنت لسه راجع من عند المرحومة سميحة و مبهور بيها زى ما أنت مبهور دلوقتى بهدى .. نفس الحالة وكأن ما فيش فرق بين زمن سميحة وزمن هدى . أبتسم أبتسامة غير مفهومة : أنت شايف كده .

ـ ده رأيى وأن كان الفرق بينهم فى حاجتين بس .. أولهم أن المرحومة سميحة كانت من عيلة كبيرة ولها أصل وفصل وأقل واحد فى عيلتها كان بيه أما هدى وأنا متأكد أنها أنسانة محترمة ومالهاش ذنب فى المأساة اللى عاشتها لكن الناس بياخدوا بالظاهر وأكيد حيتعاملوا معاها على أنها ربة سجون . مط شفتيه وأرخى جفنيه ثم تابع : السؤال هنا بقى ياصاحبى واللى بيفرض نفسه . ضغط خيرى على فكيه وتوترت ملامحه أنتظارا للسؤال الصعب الذى بادر به برسوم : حيبقى أيه وضعك وسط الناس لو الأمور أتطورت أكتر بينك وبينها.. الماضى عمره مابيستخبى ياخيرى وساعتها خسارتك حتبقى كبيرة ودايما حتفضل قلقان وخايف . تبادلا نظرات صامتة إلاأن خيرى أشاح برأسه رافعا عينيه لأعلى ناحية صورة المرحومة المعلقة فوق المدفأة ، فغاص فيها بنظراته وكأنه يرى أبتسامتها تضيق وخيوط من الدموع تنسال من عينيها فعاد حزينا على صوت صديقه : أنا طبعا متضامن معاك فى حكايتك مع هدى وزى مأأنت شايف أهوه أنا واقف جنبك و بنتشاور سوا وكمان بنخطط .. بس ده مش معناه أنى حأكون موافق ولا مبسوط لو تطورت علاقتك بيها لأكتر من أعجاب ولاحتى حب . لم ينطق خيرى فأضاف برسوم قبل أن يربت على كتفه : مش عايزك تزعل منى لكن ده حق الصداقة والعشرة ولازم أفكرك باللى أنت عايز تنساه . تنهد وهز رأسه قبل أن يقتل سيجارته فى المطفأة : مش زعلان يابرسوم وكلامك مهم لكن سابق لأوانه . أنهى تعقيبه وعبث بعقب السيجارة الذى أصبح فى عداد " السبارس" ثم تابع ببلادة : أنت قلتلى فى فرق بينهم فى حاجتين بين زمن سميحة وزمن هدى سديت نفسى بواحدة فيهم والتانية أيه بقى ؟ أرتد برسوم للوراء وبدت عليه علامات الأسترخاء : الحاجة التانية ياسيدى دى كانت مهمة أوى بالنسبة لى .. أيام سميحة كان شعرى مغطى راسى كلها أما أيام هدى بقت راسى ولامؤاخذة شبه " تـ ....) قطب خيرى جبينه يستوعب الفارق الذى ذكره ثم أبتسم قبل أن ينفجر ضاحكـا .

الفصل الثامن

مضت بضع ساعات من ذلك النهار حتى قارب على الزوال . تقدم منصور بوجه حليق ورأس غارق فى " الجيل " يتبعه حليفه " سليم " الذى بدا فى هيئة تلاجة أيديال قميص أبيض على بنطلون أبيض وبلغة بيضاء يسمع صوت زحفها على مسافة عشرة أمتار . أقتحما مدخل البيت بحارة " أبن شكر " مدفوعان بخوف كأنما يخشيان أن يكشفهما أحد حتى تواريا فى السلم الضيق . ضغط منصور جرس الباب ، فأنفتح له على ضجيج التليفزيون مصدره قناة " المولد" حيث يرطن " سعد الصغير " بأنشودة " الحنطور " . ضرب صرير باب الشقة وهو يدفعه متقدما إلى الصالة فى رعاية أبتسامة عريضة من

" أم ماهر " الجارة الصدوقة لـ " بدرية " أمرأة فى نهاية الثلاثينيات لديها ولد وحيد وزوج جديد بعد رحيل " أبو ماهر " المفاجىء الى مقابر " المنارة " ويقال على ألسنة المغرضين فى الحارة أنها تزوجت قبل ان تجف مياه غسله . صافحها ودخل ثم ألقى بتحية المناسبة الى بدرية التى تواجه الداخل . مبروك ياست بدرية .

ـ أهلا ياعريس أتفضل . قالتها وأهتزت رأسها التى تعلوها طرحة قصدت أن تكون حجابا ، فاذا بها عمامة مزركشة تتناغم ألوانها مع ظلال العين مع لون الشفاه ، مع الوردة الكبيرة التى تعلو قمة الصدر الضخم .. جلس على يمين مدخل الباب يمسح فخذيه بكفيه سعيا وراء حماسة مطلوبة فى ذلك الموقف العظيم بينما ظل سليم واقفا يؤدى دورا محوريا فى تأمين المكان ، بدا متحركا لا يستقر فى بقعة لأكثر من دقيقة ، يسحب نفسه متجها ناحية شباك متاخم لرأس بدرية ماسحا الحارة بنظرة فوقية يتفقد فيها الداخل والخارج تحسبا لوجود مندس أو متابع يرصد تحركاتهما . سحب نفسا مفعما بالثقة حين تأكد من خلو الحارة من أى متلصص .

الأتفاق على التفاصيل ، كان صعبا ، لأنه كان أجابات عن أسئلة مصيرية . أراد منصور وبمباركة بدرية أن تجرى الأمور فى سرية تامة بعيدا عن العيون المترصدة التى تتابع وتراقب وتبلغ !.. الترتيبات كان الخوض فيها يقود الى خلافات وأشتراطات ، بدرية تريد حضور المأذون الى شقتها كى يعلم جيرانها المقربين بأمر الزواج تفاديا لأثارة الشبهات فى حال دخول وخروج منصور المتكرر ، إلا أنه أقنعها بحيثياته ، " حارة أبن شكر " لاشيىء يخفى فيها ، كل تصرف يخرج عن المألوف فى المساء ، يصبح سيرة سيارة تعم الحارة فى الصباح . فى تلك اللحظة أستعدت نوسه للظهور .. توقفت بجوار باب غرفتها.. عدلت من هيئتها وسارت خطوتين حتى ظهر لها منصور يهمس فى أذن سليم ، ترمقه لثوان قبل أن تقطع الطرقة إلى الصالة ثم خرجت عليه بوجه جديد شحيح المكياج وشعر بدلت لونه إلى الأصفر الكنارى وملابس فضفاضة تحجب التفاصيل على غير العادة فتوارى الصدر والخصر خلف بلوزة بيضاء واسعة عليها دوائر صغيرة حمراء بينما أختفت الأرداف والفخذين والساقين حتى مشط القدم بفعل " جيبة" جينز زرقاء تحف فى شوز من نفس الخامة . تراقصت فى خطوتها وهى تقترب على أنغام " سعد" المتصاعدة التى تلهب حماس أى " وسط " . أستقبلها واقفا بأبتسامة ملات وجهه قبل أن يتفحصها : مبروك يانوسة ـ مبروك عليك انت ياحبيبى . أكمل فحصه مستغربا : أيه الطقم الململوم ده يابت .. هو أحنا رايحين عند المأذون ولا طالعين عمرة .

ـ هو المأذون بتاعك ده فى جامع ولا قاعد على البحر .. قوم تعالى معايا ياخفيف . جرجرته خلفها كذئب فى موسم التزاوج ناحية كرسى يفصل حدود الصالة عن الطرقة . أجلسته وواجهته بجسدها وألتصقت به حتى لامس خصرها وجهه ، إلا أن عينيها كانت تحمل لوما : أيه المسطول اللى أنت جايبه معاك ده . صعد بعينيه : سليم جدع يابت ووجوده النهارده ضرورى عشان تأمين المكان .. سليم اللى مش عاجبك ده أحسن ناضورجى فى كرموز كلها يعنى لو فى خطر ولا حد متابعنا سليم يشم ريحته من على بعد كيلو .. ده شمام كبير . التفتت إلى موقعه بجوار مدخل الباب ورمته بنظرة مشمئزة : هو من ناحية شمام باين عليه من غير ماتقول .

ـ ماتشغليش بالك كلها ساعة زمن وكل واحد يروح لحاله . قال عبارته ثم حرك أصابعه يتلمس فخذها : أخبار اللحمة أيه ؟ ضمت رجليها وأبعدت أصابعه : سيبك من اللحمة دلوقتى وقولى حنخرج أزاى من هنا .

ـ أنا وسليم الأول وبعدها بخمس دقايق تسحبى أمك فى أيد وأم ماهر فى الأيد التانية وحتلاقونى واقف مستنى جنب مدخل عمود السوارى ومن هناك نخطف تاكسى ع السريع لغاية جامع سيدى جابر . ثم أردف قبل أن تنمو أبتسامة شيطانية وهو يلعق شفتيه بطرف لسانه : ونقول هناك كلمتين صغيرين يادوب زى شكة الأبرة .. قبلتك زوجة وقبلتينى الدكر بتاعك . ثم أشار بأصبعه طوليا من رأسها حتى قدميها : ونطلع من عنده والحاجة دى كلها ملك أيدى وبعدها نبقى نظبط المسائل أنا وأنت ياجميل زى ماتكتكنا . أدارت له ظهرها متجهة ناحية أمها تراقب وتتابع وقد أثنت عليها بنظرة متفق عليها ثم أرتدت إليه ثانية : هو أحنا قدامنا قد أيه يامنصور .

ـ لسه بدرى يانوسة فاضل ساعة وشوية على صلاة العشا . هزت رأسها وسحبت كرسيا من جوار سليم وجرته وجلست فى مواجهة منصور . لم تنطق بكلمة واحدة وبادلها الصمت ، فأتاح لهما السكوت تأمل المشهد بهدوء وتريث وبدت ملامحها كمن تلبى دعوة لم يفصح عنها فى حين بدا منصور كما لو كان مدعوا إلى لقاء مربك .. يعلم جيدا إنه يخطو اليوم خطوة جريئة ، حتما ستكون فارقة فى مستقبله كله . اليوم سيعقد قرانه على نوسة ، كما أتفق مسبقا .. اليوم يحلم أن يكسر الشرنقة ويغزل ثوب الحياة على هواه وكما أرتضى .. وعندما يجتمع أثنين على حلم واحد فليس مسموحا لهما أن يحلما فى وضح النهار.. ثم مالبثت أن قامت نوسة تنفض عن نفسها لحظة القلق وعالجت أضطرابها بالتنقل على أكثر من كرسى بينما زاغت نظرات منصور وراء تحركاتها فى حين أستغل سليم خلو مقعدها وأسرع يشغله ملتصقا بصديقه وأنتحيا جانبا يتبادلان بقية تفاصيل الترتيبات . أستقرت نوسة على الكنبة تتوسط أمها وأم ماهر

قبل ان تشير عليها بدرية : قومى يابت شوفى منصور بيرغى مع الوله المسطول ده فى أيه ؟ نفذت الأمر وأنضمت إليهما تحاول أن تضفى بتوترها وهما يوحى بحيويتها وحضورها . لم تقنع منصور بالوهم . لمس خيوط التوتر والقلق وهى تنسج نفسها حولها . جلست إلى جواره .. ألتصقت به فوضع ذراعه حول كتفها وظلل بيده على فتحة البلوزة ، لم تشعر بحرج بينما أراد سليم صنع نجومية وسط الترقب والصمت فأبدى صخبا مفاجئا وعلا صوته دون مبرر : أن شاء اللـه يبقى يوم مبروك عليكم وربنا يتمه علينا بالستر.

00000000000000000

ألحقى يامعلمة قدامهم أقل من ساعة وحيكونوا عند مأذون جامع "سيدى جابر " . كانت تلك المعلومة الوحيدة المتوفرة لدى " النونو " قال جملته فى سرعة وهو يلهث كعادته فى تلاوة الأخبار السيئة . لم يكد ينتهى إلى سمعها تلك الأخبار الصادمة التى تجرى على لسانه حتى خبطت فايزة كفها على صدرها .. كان يعرف ثورتها التى تنفجر قبل أن تفهم التفاصيل .

ـ أيه اللى بتقوله ده ياوله .

ـ هو ده أخر كلام وصلنى على لسان أشرف سويلم . وهى تلملم شتاتها : أشرف سويلم مين ؟.

ـ ده يبقى حبيب عبد العاطى جوز أم ماهر الوليه اللى ساكنة فى الشقة اللى تحت بدرية كومبارس قاله بعضمة لسانه أنه مش حيقدر ييجى النهاردة القهوة عشان رايح مسجد سيدى جابر يشهد على كتب كتاب منصور أبن عبده الجن على نوسة بنت بدرية .

قامت ببطء من كنبتها ثم بسطت كفيها على كتفيه وهزتهما : يعنى أنت عايز تقولى أن النهاردة منصور أبنى حيتجوز فى السر من ورايا من بنت المرى المفضوحة دى .

ـ أيوه يامعلمة . تقلبت حدقتيها وأنشال قلبها وأنحط فى ضلوعها وأرتجف لحمها كالمصعوقة وبدت وكأنها خارج غلاف الدنيا ، فأعادها وهو يرى فى عينيها شررا أصابه بالهلع : عايزك تهدى شوية يامعلمة وماتنسيش أن منصور يبقى أبنك الوحيد . يطرأ الغضب فى ذهنها وأتجهت إلى غرفتها فى خفة عصفورة ودفعت الباب بقوة حصان ، فتلهف طرحتها والعباية السوداء قبل أن تدس رجلها فى الشبشب وتدخل رأسها فى طوق العباية تلبسها حتى أنسابت على جسدها فزادتها سمكا بينما لفت شعرها بالطرحة ، ثم

خرجت من غرفتها تحمل وجوما ووجها مخيفا بدا كقنبلة معدة للأنفجار بينما نقاط من العرق ظهرت فجأة فى جبينها وأسفل أنفها كشظايا صغيرة يصعب لمسها .. كل تلك الأعراض حدثت فى فترة وجيزة لاتتجاوز العشر دقائق من لحظة سماعها الخبر حتى خروجها من الغرفة الى الصالة حين واجهت النونو بلهجة عصبية : أتصل دلوقتى بالوله خضر وقوله يلم شوية المقاطيع ويحصلنا على حارة أبن شكر . أعطته ظهرها وأتجهت لباب الشقة بجسد يهتز كأنها زلزال يتحرك ومن خلفها صبيها يتبعها ويراقب توابعه بينما صوت الرقع القاسى من شبشبها يدق درجات السلم قبل أن تصرخ فيه دون أن تلتفت إليه : كلم عبده خرة أس المصايب وقوله أنا حاعدى عليه دلوقتى فى القهوة .

ــ ليه يامعلمة .

ــ وأنت مال أمك .. أسمع اللى بأقولك عليه وأنت ساكت . كانت جملة فى شكل صرخة نتج عنها أضاءة فورية من لمبة نور السلم المعلقة أعلى باب شقة " أم أبراهيم " التى أستطلعت من فرجة صغيرة فى الباب لمحت منها نزول فايزة العنيف ، فلحقتها عند أخر درجة سلم تطل على بسطتها: خير ياأم منصور فى حاجة ياختى . لم ترد وواصلت النزول .

فى تلك اللحظة كان " عبده الجن " فى أقصى درجات التركيز وهو يخوض صراع محتدم مع دفتر الحسابات المفتوح بين يديه تحاوره الأرقام وتعانده التواريخ .. ترفض فى أكبار وتحد أن تخشع لتوليفة من بنات أفكاره يسعى من خلالها لتوفيق أوضاعه المتأزمة ما بين دخل المقهى ومصروفاته . مرت ساعة ولازال يحاول بينما " جمعه " يرمقه من بعيد بعين ثابتة وشفاه تتحرك فى حديث مضطرب يدور مع الموبايل الذى يركب اذنه . أنتهت المكالمة سريعا ثم سحب نفسه من خلف " النصبة" وكان عبده هو الهدف ، توجه اليه وظل فوق رأسه يرقبه قبل أن ينطق فى أقتضاب : أنت قافل موبايلك ليه يامعلمى ؟ رفع عينيه ثم قذفه بنظرة حادة : يعنى مش شايفنى بقالى ساعة متهبب مع الدفتر المنيل ده .. مش راضية تيجى معايا لاشمال ولا يمين والحسبة كلها متأندلة . تنهد ثم أردف : وبتسأل على الموبايل ليه يافقرى ؟ ألقى أستفساره الأخير دون أكتراث قبل أن يرجع بعينيه يقلب صفحة فى الدفتر ، إلا أن جمعة أبى وأستكبر أن يتحرك من مكانه قبل أن يحقن أذنى معلمه بجرعة قاتلة فى صورة بلاغ : الأسطى نونو لسه مكلمنى دلوقتى ع الموباين بتاعى وبيسألنى الموباين بتاع معلمك مقفول ليه . تجمدت ملامحه : والمؤرف ده بيسأل ليه ؟ .

ـ بيقولك حيعدى عليك دلوقتى هو والمعلمة فايزة . كمن أصابته حالة تسمم من جرعة الكلام : حيعدوا على هنا فى القهوة .

تداخلت ملامح جمعة : أيوه يامعلمى . قام منتفضا يبحث عن أعصابه الهاربة :ليه ياوله .. أيه اللى حصل؟

ـ الوله النونو كان متشنك أوى وهو بيكلمنى و سامع صوت المعلمة فايزة وهى بتسب وبتلعن فى منصور ولامؤاخذة فيك كمان يامعلمى . توقفت الجملة الأخيرة فى أذنه ثم أستفسر : هو الوله منصور مشى أمتى من القهوة ؟ .

ـ هو جه خمس دقايق بص على الشغل وبص فى وشى وكان شكله مبسوط وعطانى سيجارة مالبورو وقالى لو أبويا سأل عنى قوله لسه ماشى وبعدها خلع مع الوله سليم .

ـ ماتعرفش راح فين .

ـ الصراحة لأ .. بس هو كان آخر شياكة حتى الوله سليم المعفن كان ضارب طقم أبيض شبه التمرجى . توتر عبده ونفخ فى وجه جمعه : ده باين عليه كده وراه حكاية سودة . طوى الدفتر وشرد يبحث عن أجابة لسؤال يدق رأسه : طب هى الوليه حتعدى على فى القهوة ليه ؟.. أبنها منصور وشكله كده عامل نصيبة طب أنا ذنبى أيه . تنهد ثم مسح وجهه بكف يده كى يستعيد توازنه ووجه كلامه لجمعه فى سرعة وأرتباك: روح يابنى شغل قناة القرأن وطوق القهوة بكنسة على السريع . أصدر تعليماته وأنصرف قاطعا المقهى بأتجاه المدخل وسط عدد قليل من الزبائن مابين ساهم وتائه وهامس يحادث موبايل ملتصق بأذنه . أستند بجوار حائط المدخل وأخذ نفسا عميقا ثم لفظه مع جملة ممتدة : أستر ياستار .

ـ مالك واقف كده ليه ياعبده . كان سؤالا فضوليا جرى على لسان " عم أمين " حبيس كرسى على يمين مدخل المقهى من بعد صلاة العصر . أجابه بصوت أصابه التنميل : مستنى القدر ياعم أمين .

ـ طب ماتسحب كرسى وتعالى جنبى نستناه سوا . قالها ثم صدرت عنه ضحكة أصابته بالسعال خرجت من فمه الخالى من الأسنان . لم يصبر عبده على وضعيته وتنحى عن مكانه راجعا إلى موقعه فى الداخل تاركا الظنون تسرح فى رأسه .

لم تمر خمس دقائق إلا وكانت فايزة على أعتاب المقهى وسط زفة تحاصرها ، جمال النونو على يمينها وخلفهما خضر يتقدم كتيبة قوامها ثمانى بلطجية .. بينما هم عم أمين نصف همة ، يعكس وجهه الناشف دهشته : خير يامعلمة فايزة فى أيه ؟.

نظرتها غير مستقرة وعلى فمها غضبة معلقة تشى بالخبل الذى ركبها : هو فين الراجل الناقص . تولى خضر الأجابة : آهو قاعد جوه يامعلمة . دخلت تتأمل المقهى بتأفف وسط أستغراب القاعدين ومرت عيناها بينهم كأنها لاترى شيئا بينما أعاد مشهد دخولها للأذهان أيام ولت حين كان " أحمد بك الدكرورى " ضابط مباحث كرموز يحل ضيفا على المقهى فى ساعة متأخرة هو ورجاله يتفقد الحالة الأمنية قبل أن يخرج منها غانما مجموعة أسرى . أنفتح أمامها الطريق للوصول إلى عبده الذى تأهب واقفا لأستقبالها يشد بدنه ويضغط على أضراسه حين بلغته : خير يافايزة فى أيه ؟ ألقت عليه نظرة نارية وهى تتحسس المكان حوله بعينيها : هو أنت بيجى من وراك خير أبدا . بصوت محتضر : أحنا فى القهوة يافايزة وطى صوتك شوية . علا صوتها صوت عبد الباسط المجلجل فى قناة المجد : عايزنى أوطى صوتى .. حاضر حأوطيه . بحث بعينيه فى وجهى النونو وخضر : هو فى أيه ياجدعان حد يفهمنى !. علقت عيناها فى وجهه : قاعد بتهبب إيه عندك وأبنك الموكوس راح يتجوز فى السر . تنهشه الدهشة وفارقت الدماء وجهه وأنسحبت الى قمة رأسه مرددا بشفة مهزوزة : أيه اللى بتقوليه ده ياولية .. منصور أبنى حيتجوز فى السر . باغتته بقسوة لسانها : أيوه ياسيد المعلمين أصله أبن حلال مصفى وارث عنك جوازات السر . حاصرته بنظرات متوحشة ولسان متوعد وواصلت : هى دى الأمانة اللى وصيتك عليها ياعديم الأمانة .. أسيبلك حتة العيل اللى حيلتى أربع سنين أطلع ألاقيه حشاش وصايع وحتة بت ملزقة تشتغله وعايزة تلهفه منى هيه وأمها عشان تشفط اللى وراه . تململ عبده فى وقفته مثل قدر يغلى والعرق يطفح من وجهه يستقبل رذاذ نيرانها فى صمت ثم جذبته من يده : تعالى معايا ياسيد الرجالة . بات كالمخبول فى يدها : آجى معاكى على فين يافايزة .

ـ على حارة أبن شكر عند المرى اللى أسمها بدرية عشان أوريك بعينك ياعبده ياجن اللى يتحدانى وعايز يستكردنى أعمل فى أيه . لم يفرج فمه عن أى كلمة وأختار السكوت حلا ومشى خلفها ولم تفلح محاولاته فى أظهار التماسك فى تفريق النظرات المتفرجة على كيانه المهزوم ورحل فى ذيلها منكس الرأس وفى ظله يتبعه النونو وخضر ومن والاهم .. قضى الأمر ! .

فى الطريق أعدت فايزة عدتها من النعوت والأوصاف المحتمل أستعمالها .. مشت كبرميل بارود متحرك وسط أحتشاد النظرات المتابعة للركب من النوافذ والشرفات وأمام مداخل البيوت بينما كوكبة من عيال الحوارى أنضموا إلى الركب دون وعى ، تخطت فايزة وزفتها حارة عويضة وحارة البهاليل قبل أن تطأ قدميها حارة أبن شكر . خطوتين وغاصت رجليها فى بركة مجارى طافحة ومن خلفها خاضت أقدام الرجال فى البركة تيمنابها .. تم أقتحام مدخل البيت الذى ضاق بهم .

لحظات وضربت فايزة باب الشقة الذى أنفتح على يد " أم ماهر " التى تلقت صفعة تعارف على وجهها . بينما أنتفض منصور من المفاجأة حين مد نظره ناحية أمه التى تسد فراغ الباب ، أصابه الدوار كمن يقفز فى الهواء وأدرك أن كلام الواشين لم يذهب هباء . جف ريقه وجنت عيناه بالمشهد المفاجىء وشعر بالحصار وهو يردد كالمجذوب : ياليلة سودة .. ياليلة سودة .. حأفهمك ياما .

ـ أنت لسه حتفهمنى يأبن الوسخة . قالتها ووثبت إلى وسط الصالة فى خفة عجيبة ومن خلفها موكب مهيب يتصدره النونو وخضر وكتيبة البلطجية وحولهم يلتف بعض من جيران بدرية صعدوا خلفهم يشدهم الفضول والأستطلاع .

طالت فايزة أبنها وجذبته من أفاه حتى أستجاب فأعطاها وجهه فنال بصقة ثم صفعة : ضحكوا عليك يانمرة يأبو ريالة . أحاط وجهه بيديه تجنبا للكمة مباغتة : ماحدش ضحك على ياما . قالها بنبرة أستغاثة كمن وقع فى حفرة قبل أن تدفعه بكلتا يديها لينهار على الكنبة صامتا ذاهلا ، وبنفس الليونة والحيوية أنحنت فايزة على الأرض عارضة على العيون أردافها الهائلة وما أنكشف من بطنى ساقيها ، فأختطفت فردة شبشبها وأشهرته ثم أنقضت على موقع (بدرية كومبارس) بجوار منصور المنهار وعلى رؤوس الأشهاد أخذت بدرية تحمى وجهها بذراعيها وهى تتلوى تحت ضربات الشبشب المنهالة على رأسها وصدغيها وأنفها الكبير بينما فايزة زاعقة وسط الزحمة التى حفت بالمشهد وهى منكوشة الشعر حافية القدمين مترجرجة فى أنفعالها مثل جبل من " الجيلى " يحتدم فى جوفها بركان : ورحمة أبويا ماحتفلتى من أيدى يامرى ياناقصة ياللى ماشية على حل شعرك . أنسحبت بدرية بوجهها السابح فى الألوان بأتجاه الداخل ، سحبتها أرجلها كرد فعل فطرى هاربا من الوحش المندفع خلفها مستهدفة باب غرفتها وتبعتها فايزة بلا عقل ومدت ذراعيها المشرعة وأحتضنتها من الخلف ثم ثبتتها للحائط وأخذت رأسها بين كفيها تدقها فى الحائط فأرتدت عمامة رأسها للوراء ، حاولت بدرية صلب طولها وخافت أن تغيب عن وعيها ، وراحت عيناها تتحركان يمينا وشمالا تصرخ مستنجدة بشهامة الجيران ، لكن فايزة عاجلتها بضربة خبيرة من

قدمها فى بطنها أسقطتها جاثية عند قدميها وبات كل جزء فى جسدها تحت سيطرة فايزة مدعوما بسباب يقف له شعر الرأس بينما أنضمت نوسة لأمها تحت ألحاح صلة الرحم بعد ماتوقف عقلها عن الأستيعاب للحظات.. وما أن أفلتت بدرية مشعثة الشعر حتى جرت نفسها تحبو على ركبتيها إلى حجرتها وهى تردد بصوت متهدج : هو أنتى فاكرة شغل السجون بتاعك ده حيخوفنا . زادت كلماتها من غضب فايزة فأقتحمت عليها الحجرة وأنهالت عليها لطما وأمسكتها من شعرها وهى تقسم أن تجردها من ملابسها وتكون فضيحتها كفضيحة لحمة العيد وراحت تدفعها من خلفيتها لتخرجها من الغرفة إلا أن بدرية تشبثت بالباب كأنها جزء من خشبه وعلا صوتها بالعويل كصراخ أمرأة فى حالة ولادة : ألحقونى ياناس حأموت فى أيديها . بينما فايزة تهدد وتتوعد كل من يقترب : أياك أى عرث يقرب منى .. لازم تاخد نصيبها بالتمام والكمال . وكأنها أشارة متفق عليها فتصدى الثمانية عجول بأجسادهم يمنعون تنامى مشاعر شهامة بدت تظهر فى الوجوه.أفاق منصور من صدمته وتدخل يمنع أمه بينما أستماتت نوسة على يديها كى تخلصها ، لكنها كانت متشنجة ومتصلبة على شعرها الذى تمزق بين أصابعها مرددة : وعزة جلال اللـه لتكونى أنتى وبنتك بايتين الليلة فى مستشفى الميرى . أخيرا تحرك عبده تحت حرج الموقف وتدخل بملامح فأر مذعور ، حاول أبعادها وتهدأتها ، لكنه نال دفعة فخمة من السباب جعلته محايدا وعاد لصفوف المتفرجين بينما لازالت نوسة تدفعها من كتفيها وهى تصرخ فيها : حرام عليكى أمى حتموت فى أيدك يامفترية . فأخرستها بلكمة موفقة أودعتها أسفل عينها اليمنى فترنحت وسقطت بجوار أمها .. لحظتها تدخل الجيران بالصراخ ، فعاد لها عقلها وأستسلمت لنداءات التهدأة وتقبلت حصار جمال النونو وخضر لها كى لا ينتهى الأمر بجريمة قتل ، فتوقفت بعد أن حصلت على نتائج مرضية رأتها فى وجه بدرية وأبنتها ، كما تقبلت من الأيدى الكثيرة التى أمتدت لها " طبطبة " والمعاونة فى لبس الشبشب والطرحة ثم نفضت نفسها وبصوت متقطع ألقت بيان النصر : قسما باللـه يابدرية لو مالمتيش نفسك أنتى وبنتك وبعدتو عن الوله أبنى لتكونو المرة الجاية مكانكم فى الترب . ثم أدارت لها ظهرها بينما بدرية لم يكن سليما فى وجهها إلا عين واحدة ورقدت مكانها ككومة بالية مغمضة العين وبدت ملامحها قريبة لكائن بشرى وكأن أسدا أفترسها . فى حين أستعادت نوسة وعيها وساعدت أمها على الوقوف بناء على توصية رددتها بصوت خافت : دخلينى أوضتى عايزة أموت على سريرى . تحركت ببطء تجر باقى لحمها خلفها تترحم على جسد صار تحت طائلة العرج والكساح .. فى تلك اللحظة وقف منصور فى الصالة مدهوشا صامتا سقطت عنه كل ثقته المعهودة بنفسه وأحتبس على لسانه الكلام فى مصير فاجع .. وها هو ذا يسلم أمره للـه ويعيد حساباته ويرى أنه أمام قوة لا يمكن أن تعاند أو تقهر . تلفت حوله يبحث عن سند أو معين ، فوجد نفسه وحيدا حتى صديقه

سليم أختفى وكأنه تبخر . فى حين تسللت إليه الأهانات كأنات مكتومة تطارد أذنيه وكان مصدرها حجرة بدرية ، شعر بنفسه كمخنث فاقد للرجولة فسحب نفسه منكسرا وفتح باب الشقة يترنح على درجات السلم يحمل وجهه علامات المحنة حتى وصل إلى المدخل الذى وجد أمامه تظاهرة وليس من مجال أكثر من هذا لكى يتجمع البشر من حارة أبن شكر الذين تفحصوه وهو يمر بينهم ومطوا شفاهم عجبا .. ولا هم بفاهمين !.. حاول أبعادهم : أيه يابشر كل واحد يروح لحال سبيله . ورغم ذلك النداء لا يتحركون إلا بطاء ولايمشون الا مترددين .. يريدون مزيدا من " الفرجة " . فى تلك الأثناء تباعدت فايزة وفرقتها بخطوات واسعة بينما منصور فى الخلفية لايكاد يلحق بهم حتى أنعطفت فى أول حـــارة جانبية . توقف فجأة ودون مبرر ، راقب المشهد كله من بعد بملامح ومشاعر غير محددة .. هل هى سخرية ، مرارة ، أستسلام ؟ لايستطيع أن يحدد .. الذى يدركه تماما ويحرك دهشته أنه لم يدافع باستماتة عن نوسة وأمها أو حتى عن نفسه ! .

00000000000000

أتخذت الخطة المعدة سلفا من زيزيت وهدى ستة أيام حتى تقبلت نورا الأمور بثبات . كان ذلك حين ألقت الأخيرة نظرة خاطفة على أمها وهى تتلقى تدريبا عمليا على ماكينة " السرفلة " على يد زيزيت ، فأقتربت منها بحذر : أيه اللى بتعمليه ده ياماما . نبت الأرتباك فى ملامح الأخيرة ولم تتفوه بكلمة بينما أصابعها تزداد تشنجا وهى تسحب طرف عباية مطرزة من أنتاج أبنتها من بين براثن سن الأبرة الصاعد الهابط . فتولت زيزيت الرد : أيه رأيك بقى فى شغل ماما ؟!. قطبت جبينها تعيد تجميع الحروف على لسانها ثم لفظتها بدهشة : شغل !. أبتسمت وضغطت زر أسفل رأس الماكينة التى أصدرت صوتا متحشرجا كالذى تخرج روحه أختناقا : تمام كده ياهدى .. أيوه يانورا ماما حتشتغل معانا أنا أقنعتها وقلتلها بدل ماتيجى كل يوم الصبح تقعدى معايا ضيفة ونفضل نرغى أنا قلت أخليها تستفاد بوقتها وآهو تغيير وأرحم من حبسة البيت اللى هى فيها ومنها تتسلى وكمان تقبض قرشين . ثم قربت وجهها من نورا . أردفت : وبينى وبينك أنا عايزاها جنبى عشان نقضى اليوم كله رغى . أنهت كلامها بتمكن وبأداء السهل الممتنع ، فأجهضت ثورة كانت متوقعة وقضت على غضب تهيأت نورا لأظهاره حتى ضعف وخفت ولم يصدر عنها سوى أضطراب ضاعف من أرتباكها : بس ماما البيت محتاجها برضه .

ـ ماتقلقيش من الناحية دى خالص حيبقى عندها فترة راحة من الساعة تلاتة لستة ده غير أنها الوحيدة هنا اللى مسموح لها تمشى فى أى وقت يعجبها وتيجى فى الميعاد اللى يريحها . ألتقطت هدى خيط الكلام

بعدما تحررت رأسها من وضعيتها ورفعتها بأتجاه أبنتها تستطلع نظراتها الغامضة . ثم توجهت إلى زيزيت بأبتسامة : ربنا يخليكى ومايحرمنيش منك . قابلت الأخيرة كلمات المديح بجملة توضيحية قصدت منها أفشال أى هجوم معاكسى من جانب نورا ومحاصرتها فى دائرة الحرج : واللـه أنتى ربنا بيحبك ياهدى وراضى عنك كفاية أنك حتبقى موجودة فى نفس المكان اللى فيه بنتك حبيبتك وكمان جارتك وصاحبتك واللى أفضالك عليها ماتتعدش . أبتلعت الأحتجاج الذى ظهر فى عينيها وهزت رأسها مغلوبة على أمرها . فقالت مضطرة : مادام ماما عايزة كده وأنتى موافقة يبقى أنا ماعنديش مشكلة . قالتها وأنسحبت ثم أضافت وهى تمشى بنبرة مخنوقة : أنا حأدخل جوه أجهز الشغل اللى حيتسلم النهاردة . وقبل أن يختفى ظلها من أرضية الممر المؤدى للداخل حتى أنحنت زيزيت تحتوى هدى فى صدرها وقد أنساب بينهما فرح طفولى حين زالت عقبة الأعتراض والتداعيات المتوقعة من نورا .

قضت هدى أسبوعها الأول كنسمة ترطب ساعات العمل ولاتتدخل فى شئون الأخرين ، هادئة ساكنة كعادتها لاتثير مشاكل من أى نوع . أنسابت داخل الأتيليه بسهولة وتوغلت فى تفاصيله وأكتشفت سريعا أن الأتيليه كيان كبير ويعمل وفق منظومة متكاملة على رأسها أدارة قوية محترفة بقيادة زيزيت وموهبة فذة تعشق الخصوصية والأبتكار متمثلة فى نورا ومن خلفهما أصطف يدعم بأخلاص مثل " رضا" فتاة سمراء لاتملك من مقومات الأنوثة سوى صوت ناعم ، تعمل لدى زيزيت منذ عامين بعدما فشلت فى الحصول على الأعدادية لثلاث سنوات متتالية وحملت وزارة التربية والتعليم مسئولية أخفاقها ، تعتبر " جوكر" المكان تؤدى أكثر من دور بداية من الكى والتكييس وأنتهاءا برفع المقاسات من على الأبدان ، تزاملها فى نفس الوظيفة " فضيلة " أمرأة أربعينية تحمل لحما كثيفا خشنة الصوت مطلقة دون أولاد بعد رحلة زواج فاشلة عمرها عشر سنوات من رجل لايملك شيئا ، فأختارت أن تكون سندا لـه فحفظت لـه كرامته وحين تأخرت فى الأنجاب دار معها على أطباء النساء حتى سمع كلمتهم الأخيرة " فرصة الحمل ضعيفة يافضيلة " . فكرت بدلا منه أن يكون له طموح ومصدر رزق محترم فأستعانت بتحويشة العمر التى جمعتها على مدار عشرين عاما من الصراع فى محلات بيع الملابس الجاهزة بوسط البلد ، أستأجرت له محل بمنطقة " الحضرة " لبيع الملابس المستعملة .. ثابرت معه حتى تمكن من تطوير أداؤه قبل أن ينتهى به المطاف لبيع الملابس التركى المستوردة وفتح اللـه عليه بمحل أخر كما فتح عليها جام غضبه وعايرها فى الليل والنهار بعيبها قبل أن يحجز لها تذكرة فى قطار المطلقات ويحجز لنفسه مكانا فى حضن ريفية بيضاء يكبرها بربع قرن .

أنصتت هدى جيدا لدروس زيزيت التى كان لها الفضل فى حشو رأسها بالمعلومات عن كل كبيرة وصغيرة بداية من الماكينات المستخدمة والخامات والأكسسوارات المستعملة حتى أسرار التصميمات الخاصة بها أطلعتها عليها فى حين أكتشفت هدى نوعيات من النساء من طبقة كانت تعتقد أنها قد أنتهت ، معظمهم عضوات بـ "روتارى " الأسكندرية وفى أندية سموحة وسبورتنج ، دفعتها زيزيت لتبدأ السلم من أول درجاته فأثبتت نجاحا وكانت لها القدرة على مخاطبة أى زبونة تلتقى بها وكأنها صديقة قديمة ، كانت ترفض فى البداية أن تأخذ أى أكرامية وهى تقدم الفستان للزبونة ، كانت تنتفض من داخلها حين تسمع لهجة أستعلاء من بعض السيدات فتزداد متاعبها النفسية ، فالأكراميات ليست كلها نابعة من الكرم .. قدر كبير منها لزوم " الألاطة والفشخرة " إلا أن زيزيت ألمحت لها أن تساير أمورها ، فأعتادت مع الوقت ولم يعد شيىء من هذا يثير دموعها كما كانت فى البداية . غدت هدى وبفترة قياسية تعرف كل مجريات الأمور فى الأتيليه الذى أصبح بالنسبة لها جسر بين عوالم لاتصالح بينها ، ويكاد يكون مرادفا للحياة عندها . كانت تريد أن تثبت لنفسها قبل الأخرين أنها جادة وطموحة ودون قصد منها أعادت لذاكرة زيزيت عهدها الأول بالعمل ، فقد عرفت هذه اللهفة على النجاح وتذكرت صدى كلماتها وسط أحلامها القديمة فى المركز المرموق والحب والزواج .. أحست رأسها تعيش لحظات سقطت من الزمن ، ولعلها تذكرت مواقف كثيرة أندفعت جميعها الى حافة ذاكرتها عندما طالعها وجه هدى كل صباح . تسع سنوات قد مرت على أختفاءها فى السجن .. وها هى الأن تعثر عليها .

مع بداية الأسبوع الثانى أصبحت هدى لها حضور قوى فى الأتيليه ، جميع المتعاملين من أصحاب المحلات الكبرى عرفوها بالأسم ، كانت دائمة الخروج مع زيزيت إلى مصانع الملابس والأقمشة وحضور الأتفاقات بل أنها شاركت فى طرح أفكار جديدة لتصميمات واعدة ، فتحولت سريعا للعب دور السكرتيرة الخاصة لزيزيت التى أكتشفت فيها أمكانية ترشحها لأن تأخذ مكانة متميزة فأطلعتها على ميزانية الأتيليه بينما شعرت هدى أنها تلعب نفس الدور التى أجادته مع زوجها " نديم " حين كانت تمسك بكل ميزانيته وتشاركه كل الأفكار قبل أن يسلم نفسه طواعية لـ " نسيم الشرقاوى " . هذا الدور أتاح لها أن تستعيد بعضا من نفسها . أجتهدت وبداخلها نكران لكل مرارة الماضى .. تحسب الزمن بالدقائق لتعويض مافات وبدت كممثلة مغمورة أتاح لها القدر فرصة النجومية فأمسكت بتلابيبها وبدأت رحلتها الصاروخية . لكن هناك من يرصد ويتابع .. أشياء كثيرة ومشاهد عدة وانفعالات متباينة وأفكار تروح وتجىء بلا تتابع داخل رأس نورا تكاد تورثها جنونا فوق جنون الخوف المرضى الذى ينتابها كلما وجدت تقدما ملحوظا لأمها ، فزاد قلقها من تعاظم دورها وتأثيرها المباشر على زيزيت فشعرت بتخوف شديد على عرشها الذى بنته

وأحست أن أمها تسرق أنتصارها وتزحزح نجوميتها فى الأتيليه ، فحاولت تلمس الألفاظ التى تنطق بها حين أثنيت زيزيت على هدى التى أقترحت مجموعة أفكار من شأنها أن تسهل على بعض المتعاملين سداد متأخراتهم تزامنا مع تمويلهم بموديلات الشتاء الجديدة حينها تلقت اشادة لاتقبل التأويل من المتعاملين المتعثرين فى حضور نورا وفضيلة ورضا ، فأحست هدى أن كلماتهم تجاوزت الأطراء العادى مما أوقعها داخل دوائر الخجل. فبادرت متحمسة : أن شاء اللـه بعد كده حأحصر كل التجار اللى عليهم مديونيات وأنا حأتصرف معاهم بنفسى وفضيلة حتساعدنى فى الشغلانة دى عشان هيه عارفاهم من زمان . حاولت نورا أن تكون عادية : واحدة واحدة ياماما أنتى يادوب ماكملتيش أسبوعين . قالتها بعصبية خفيفة بينما أستشعرت زيزيت بوجود غضب وغيرة يتناميان داخل نفس نورا التى أستولى عليها أنفعال أرادت أن تتخلص منه ، فلم تجد فى الموجودين من يصلح سوى فضيلة : أنتى واقفة ليه كده ماتدخلى جوه جهزى القماش اللى حأشتغل عليه . تلقت الأمر بأنكماشة وأحتقن وجهها حرجا وهزت رأسها بالأيجاب مغلوبة على أمرها ومرت من بين الواقفين تمد خطوتها متجنبة لقاء الأعين التى ظهر فيها الأستياء واضحا . لم ترد زيزيت أن تعقب فأدارت كلاما هادئا : أدخلى معاها جوه ياهدى شوفيها محتاجة مساعدة . كانت نظرتها كافية لتدرك هدى ماتقصده .. أرادت منها أن تطيب خاطرها . أصبحت نورا دائمة العصبية منذ اليوم الأول لوجود أمها فى الأتيليه . من يراها يحسب على الفور أنها شديدة التوتر على الرغم من البسمة الموجودة والتى تحتل أكبر مساحة من وجهها . على أن هذه السماحة وهذا الوجه المستبشر له جانب آخر ، فاذا أقتضى الأمر أن يتحول إلى النقيض مادام هناك دوافع وضرورات تقتضى تحولها إلى أنسان أخر .

فى الداخل لم يكن الوضع سهلا على هدى وهى ترى علامات أستفهام تتخطف ملامح فضيلة : أنا مش فاهمة هيه أتعصبت عليه ليه .. ده أنا مافتحتش بؤى بكلمة . صمتت هدى للحظات فى محاولة للعثور على رد مناسب : ماتزعليش منها يافضيلة واللـه ماكانت تقصد .. نورا قلبها أبيض وتلاقيها بس متضايقة من أى حاجة . لم تمهلها المتابعة : متضايقة من أيه ياست هدى دى كانت بتضحك ومبسوطة وهى بتتفق ع الشغل الجديد وفجأة أتقلبت مرة واحدة .

عشر دقائق مرت حاولت فيها هدى تهدأتها بعد ماشعرت بفداحة شكواها حتى نجحت فى جعل المشكلة كلها فى ترتيب متأخر جدول أوجاعها حين طفت على ملامحها ضربات الزمن الموجعة فغاصت الكلمات فى حلقها وهى تتذكر هزائمها على مدار عمرها كله .. تجارب مريرة عاشتها خرجت منها بحكمة رددتها فى

يأس على أسماع هدى : فى نسوان ياست هدى ربنا خلقهم فى الدنيا دى زى الكبارى وظيفتهم بس أن الناس تدوس عليهم بالجزم عشان يعدوا البر التانى ومش مسموح لهم يتوجعوا ولايتألموا يتحملوا بس وهمه ساكتين لغاية مااللى بيدوسوا عليهم يعدوا فى سلام وأمان . نظرت هدى لها طويلا .. كانت تطعن حدقتيها وكأنها أمام شاشة عرض ترى فيها شريط حياتها .. تقيس حكمة فضيلة على حالها .. أغمضت عينيها للحظات ثم فتحتهما دامعتين وأبتسمت ثم مالبثت أن ضحكت ضحكا لا يشبه الضحك ، لكنه سرعان مارحل عنها أمام دهشة فضيلة وأستغرابها وهى تسأل نفسها : هو أيه اللى أنا قلته وخلاها ماتت على روحها من الضحك . عادت هدى فى تلك اللحظة إلى واقعها تنشغل بأسئلة لم تصل بعد لأجابات عنها .. تعجبت من تغير الأحوال وأختلاف المصائر ثم كسا وجهها الحزن فجأة وسمعتها فضيلة كمن تحادث نفسها : ياه هيه دى حتبقى أخرتها .. نص عمرى ضاع والنص التانى حيضيع والأخر حأخد لقب كوبرى . أحست أن حالة فضيلة ربما تكون أمتدادا لما ينتظرها من وحدة قاتلة وحياة بائسة .. تتوقف طويلا عند كلمات لامعنى لها ، تترجمها الى أنفعالات وشجن . وفجأة ودون مقدمات تساءلت فضيلة وكأنها قرأت ماتخفيه هدى : ماتزعليش منى ياست هدى فى الكلمة اللى حأقولهالك .. أنا شايفه كده أن الأنسة نورا جافة معاكى شويتين وفين وفين لماتتكلم معاكى !. تنتبه قليلا على قشعريرة جسدها . تسحب نفسا بطيئا : أصل أنا وهيه بنتكلم كتير أوى فى البيت !!.

0000000000000000

ـ لم يكن هذا فى خاطرها أبدا .. حقالم تكن غافلة تماما .. كانت تفطن بغريزتها كأنثى لنظرات خيرى الجريئة التى تطاردها بأصرار كلما ألتقى بها عند باب المصعد أو فى مدخل العمارة . حسبتها مجرد نظرات معجبة .. لم يطف بخاطرها أى تفسير لنظراته أكثر من هذا .. تكرر اللقاء ، مرة فى الصباح وهى تغدو الى الأتيليه ومرة عند العصر وهى تئوب إلى شقتها حسب خطة برسوم . كثرة المصادفات أكدت مدى غباء أدراكها . كان مترددا يخاف المغامرة ، أراد خيرى أن يستوثق من كل حركة .. بل من كل رغبة قبل أن يقدم عليها ، كان يخشى أن ترده . لكن ، تحركت فى أعماقه شهوة جارفة للحياة .. للأمساك بها فى أية صورة من الصور ربما هذا ما حذا به اليوم إلى الوقوف أمام مدخل الأتيليه . ربما أراد أن يجرب اللعبة ويمشى مع الخطر الى أقصى حد . ليتعرف على حقيقة علاقته بهذا الكون .

طال وقوفه وهى تراقبه من قاعة الأتيليه تستعد للخروج بعد أنتهاء فترتها الأولى .. رسم أبتسامة وأرسلها من خلف زجاج الباب فتلقتها وهى واقفة فى منتصف القاعة وقد بدت ملامحه فى عينيها كملامح فارس

من فرسان الحواديت . بل أنها فى الأغلب ترى فيه ملامح الهيبة والزعامة .. تغزوها نظراته .. سقط قلبها فى قدميها وظلت ساكنة تنصت لدقاته .. كانت مستسلمة بينما هو يستعيد وجوده فى نظرته إليها ، وفى وقفته خلف الباب لازمه خيال لم ينفصل عنه فراح يشيد قصورا ويهدمها ، فكان كلما صنع لنفسه فنجان من القهوة ، تخيل أنها هى التى تصبه له ، جلس الى مائدة الطعام وتخيلها أمامه بمفردها تشاركه لقمته ، سار فى الشارع وحلم بها تتأبط ذراعه ، قرأ كتابا وناقشه فى وحدته معها . لم يدرك أنه أستعاد مافقده إلا عندما ينظر إليها وكأن هناك قوة داخله تدفعه ناحيتها . كان يرى فيها صورة جديدة لـ " سميحة " أو صورة مكررة منها ، أو أنها هى وقد بعثت من جديد فى لحظة لايتذكر تفاصيلها .. فى قلبه تنمو أمنية أن تبادله نفس المشاعر .. أراد أزاحة هذه الأمنية إلى درج الكم الهائل من الأمنيات التى يعرف أنها باطلة ولن تتحقق ، ولكنها النفس تشتهى !.. بانت الدهشة فى عينيها وهى خارجة من باب الأتيليه .. نظرت إليه فى ذهول عندما أقترب منها وكانت الأبتسامة مشنوقة فوق ثغرها ، يتبادلان نظرات خفية يزور فيها كل منهما الأخر متخفيا تحت كلمات الترحيب : ازيك يامدام هدى . نظرت إليه بمشاعر مدهوشة : الحمد لله كويسة ياأستاذ خيرى . لم تفارق عينه وجهها . يحاول التودد إليها بنظراته المحيرة : أنا حبيت أطمن عليكى وعلى الوظيفة الجديدة . أتسعت أبتسامتها على شفتيها وأصطبغتا بلون الخجل : أنا الحمد لله تمام والوظيفة كمان كويسة .

ـ ياريت تسمحيلى أبقى أجى وأطمن عليكى كل يومين تلاتة !. كان رقيقا وجريئا فى آن واحد .. سرعان ماتلاشت بسمتها خلف مسحة من قلق تماوج على البشرة الملتهبة بحمرة أنفعال تحاول مداراته . لم ترد . أتجهت ناحية درجات السلم صعودا دون أن تلتفت إليه .

دخلت شقتها الغارقة فى السكون . يوسف وبسمة يؤديان أمتحان أخر السنة ونورا مازالت فى الأتيليه بينما أيات فى غرفتها بصحبة نعمة يتهامسان ويستحضرن حكايات الماضى كالعادة .

من جديد تستعيد كلمات خيرى القليلة وتطلق العنان لخواطرها التى تتصارع فى أعماقها مؤنبة ومبررة !.. إنها لاتستطيع أن تقول فى حقه مايعيبه ، هو طيب يتطوع بخدماته لكل من يحتاج ويكفى موقفه النبيل مع أولادها . أتجهت ناحية غرفتها . أغلقت بابها وراءها كمن تريد أن تتوحد بالرغبة ، أنفلتت تغالب شعورا عارما زايلها منذ هجرت تلك الليالى الدافئة فى تلك الحجرة مع الراحل " نديم " . ألقت نظرة فاحصة على نفسها فى المرأة .. جسد مشدود فى تناسق بلا نتوء ، صدر ربما يشرع قلاعه اليوم أكثر .. تراجعت للخلف خطوتين لتتسع رؤيتها ، أصطدمت بحافة السرير الممدد فى المرأة يحكى عن ليال تقلبت فيها على أتساعه

تحت وطأة رغبة قاهرة متجددة ، لاتنضب ، ثم ها هى الأن وحيدة . أرتمت فى وسط السرير .. تقلبت على أكثر من جانب قبل أن تسند وسادتها إلى ظهر السرير ثم تمددت بأسترخاء وسط الهدوء والسبات فى لحظات مابعد العصر فى حين تجهل على وجه التحديد كيف ستقضى الساعتين القادمتين .. المهم عندها هو الفرار من شبح الوحدة التى قد تباغتها فى أية لحظة . تحدق فى سقف الغرفة وتغوص فى كتلة الزمن الكبيس قبل أن تعتدل جالسة حيث شجعها المكان المستكين على خلع الحذائين وتجميع القدمين ثم تقلبت على جانبها الأيمن وأنكمشت فى بعضها ومكثت محشورة فى ملابسها مشرعة العينين نائمة صاحية كأرنب حذر . نبهتها موسيقى هادئة تتسلل من غرفة أيات .. تنهدت ثم جربت تحريك القدمين وكأن بهما خدر من فرط الأنكماش . أرخت جفناها .. نامت . أستطاعت الغفوة السريعة أن ترحل بها إلى مستنقع به أحاديث كثيرة ومتشابكة ومتشعبة تؤذى مشاعرها تتقلب فى طينه عيون ترصدها وتحوم فوق وحشته طيور جارحة . كان يتجسد أمامها رجلا له شراع وقدرة .. أغراها بالأقتراب والتدقيق .. كان كيانا مغريا يدعوها إليه . رجل وسيم . أبتسامته الصعبة التفسير يحرك فى النفس فضول التأكد أكثر مما يتطلب الأبتعاد والهرب . وظل هذا الرجل ، الذى بدا أنه يقترب أكثر فأكثر ، يبتسم ، إلا أنها وبتركيز شديد تفتش عنه فى ذاكرتها . ربما قابلته ، غير أنها لم تستطع أن تهتدى الى ذلك حتى أقتربت أنفاسه من أنفاسها، فتقذف بجسمها فيه وتشعر به يرجها من كل جانب كأنه كفان يدلكانها يضرب فيه بذراعيه ، فاذا به قويا يطوف بها فى الفراغ وخبأها فى صدره فأرخت جفنيها وحجبت عينيها فى صدره وركبت معه فى حلمها حصان يقود لجامه الفارس " خيرى" وطار بها .. على نور النهار الشاحب الذى يصلها منهكا من نافذة الغرفة عاونها على العودة للأستيقاظ .. لاتزال تضع يدها على وجهها فى محاولة لفهم الحلم . تساءلت بينها وبين نفسها عن معنى هذا الحلم الخاطف الذى جهلت من بدايته كم سيكون موجزا وجميلا . لكن حلمها الذى هزها بعنف وأدهشها أيضا أن هناك رأى عام داخلها يوافق على وجود خيرى فى أحلامها !.. أثار الحلم بادية على ملامح وجهها وكأنه ينام تحت موجة تغمره ثم تنحسر فتغسله .. بدا كما لو أن هذا الحلم أمنية طردتها من ذهنها على صوت أيات الذى أنبعث من ركن من الأركان مخترقا الصالة متلكئا إلى غرفتها : أصحى ياهدى .. أنتى ماعندكيش شغل تانى فى الأتيليه ولا أيه ؟.. قامت ببطء وشعرت برغبة جامحة لمصالحة أخر النهار بقبلة ! .

0000000000000000

فى أعقاب هزيمتها النكراء وأفشال مخططها على يد فايزة ، بقيت بعدها بدرية طريحة الفراش عدة أيام تتمدد جثة لاتقوى على الحركة فوق سرير ضاعف من أوجاعها وعلى حشية تقلق مطباتها نومها ، فكان أول مابدر منها دلالة الحياة أن تململ وضع ركبتيها فى حين أنطبقت شفتاها على أسنانها قبل أن تتقلب فى الأنين كما لو كانت اليقظة عذابا يفوق قدرتها . جاهدت بكل قوة أن تتماسك أمام موجات الزائرين من أهل الحارة بحجة الأطمئنان عن صحتها وأن كان القصد معاينة أثار " العلقة " البادية فى قسمات وجهها ورقبتها ، وكانت اخر الواصلين " سهير " زوجة " عوض اللـه " فراش بمدرسة " الأجيال الأبتدائية " وقد أتخذت مظهر الأسى فى جلستها بجوار سرير بدرية وكأنها فى جلسة عزاء بين سواد العباية وسواد الطرحة ودهشة الصوت حين قالت : اللى يشوف وشك يابدرية ياختى يقول أن ترومای عدى عليه رايح جاى . بينما ترفع بدرية يدها ببطء كمريض يتلو وصية : ربنا يشل أيدك يافايزة ويشل رجليكى ياقادر ياكريم . أنحنت سهير تدنو وجهها فى الوجه المنتفخ : لكن ماتأخذنيش يابدرية ياختى أيه اللى يخليكى توافقى على جوازة بنتك الوحيدة فى السر كده زى اللى .. ولامالوش لازمة . قالتها بنبرة شماتة بينما مثل هذه الأسئلة ترددت فى سمعها أكثر من مرة على ألسنة الزوار .. توجهت بنظرتها لـ " سهير " المحنية وصبت فى أذنها كلمات مرتبكة : الحكاية مش سر ولاحاجة ياسهير أحنا قلنا نعمل كتب كتاب لغاية الولية أمه ماتهمد وتهدى شوية وبعد كده كنا حنعمل فرح كبير فى الحارة وكان سى عوض اللـه وأنتى أول المدعوين .. بس حنقول أيه فى بختنا . قامت سهير " ملوية" الملامح وقد بدا لها هذا العذر على هذا النحو واهيا ومريبا .. مصمصت شفتيها : معلش يابدرية .. شدى حيلك ياختى وكل علقة وأنت طيبة . أنتفض صدرها من كلماتها : وأنتى طيبة ياختى . وعندما أستوحدت فى غرفتها بعد أن أنحسرت عنها عيون الشامتين أمعنت النظر إلى السقف الذى تساقطت منه قطع متنوعة الحجم والمساحة كأنما هو مصاب بداء يأكل اللحم ويكشف العظم .. تاهت بنظراتها وشردت وسرحت بعيدا ثم عادت فى ظل أبنتها الساهرة على حطامها .. نظرت إليها تعاين الفشل والعجز وقلة الحيلة المنحوت فى وجه نوسة قبل أن تلمح ببصرها الزائغ بقعة مخضرة ضاربة إلى الزرقة تسكن كتفها الأيمن ، ماتكاد العين تلمح وجودها حتى تتبين بدرية أنها ليست الوحيدة من نوعها فى الجسم الأبيض فتحسستها : ده أنتى كمان يابنتى نابك من الحب جانب . أبتسامة باهتة : أنا وانتى على الحلوة والمرة ياما . قالتها وشعرت فجأة بأنها لاترتبط بالحياة إلا بروابط غامضة وغير مفهومة وتردد فى أعماقها السؤال مهزوما : كل اللى كنت بأحلم بيه راح ياما . تقولها ولاتنتظر ردا من أم باتت فى عداد العاجزين جسما وتفكيرا بل راحت تدفن فى راحتيها عويلا كأرتطام الموج . وساد صمت قصير ثقيل قبل أن تستجمع بدرية أحبالها الصوتية : منصور ماأتصلش بيكى يابت ؟ .

ـ أبدا ياما .. ده حتى موبايله مقفول على طول من يومها .

ـ اللـه يكسفك ياأبن فايزة بقى دى برضه رجولة تسيبنا كده من غير كلمة ولاحتى سؤال .. أخييه .. واذا بالسؤال يبزغ من أعماقها دون قصد ولانية : يعنى لحد كده وخلاص ياما .. أشيل منصور من دماغى . سحبت نفسا طويلا نتج عنه وجعا فى قفصها الصدرى فأعتصرت عينيها ألما : ماحدش قال كده يابت .. أصبرى شوية لما الأمور تهدى وبعد كده نشوف أيه اللى يتعمل .

ـ تانى ياما . قالتها بيأس .

ـ تانى وتالت بس المرة الجاية حنعمل حسابنا كويس فى كل خطوة وأدينا أتعلمنا من اللى حصل وعرفنا وبصمنا بالعشرة أن المرى فايزة دى قادرة وفاجرة وقوية القلب وعلاجها الوحيد أنك تحافظى على منصور زى عينيكى ويفضل عجينه طرية فى أيدك وخليكى وراه وحاصريه وماتحسسهوش بخيبته ولاضعفه ومن تحت لتحت سخنيه وخليه يسترجل عشان يتصدر لأمه ويوقفها عند حدها .. فهمانى يابت.

ـ طب لو أمه ركبت دماغها وعاندت حنعمل أيه ساعتها . أشاحت بوجهها : واللـه ما أنا عارفة يابنتى .. بس ساعتها حنكون عملنا اللى علينا وادى اللـه وادى حكمته ويبقى نصيبك مش معاه يانوسه . زلزل كلام أمها قناعتها بأنها ستحصل على منصور وأحست أن الحجرة تضيق أمام عينيها .. كانت تتوالد بداخلها رغبات متشابكة .. تضاعفت فقاقيع الخوف وأمتزجت بالكلمات القديمة : هى شكلها باين من الأول اللى زيى ياما مكتوب عليها عيشة الفقر بقية عمرها ؟!. قالتها وألتفتت لأمها الحزينة وضمت يداها كتفيها وأراحت حزنها فى حزن أمها ولمعت عيناها لمعانا خافتا وسط ضعفها وهى تربت برفق على صدر أمها المترهل بلا محبس : المهم دلوقتى أرتاحى ياما وإن شاء اللـه لما تشدى حيلك نبقى نشوف حنعمل أيه . أبتسمت الأخيرة فى عينيها وهاجت فى نفسها لوحة قديمة كما تفور من باطن النفس فجأة رواسب منسية قبل أن تستدعى مشهدا مشابها : عارفة يانوسة الحالة اللى أنا فيها دى من عضم متكسر وجسم متفكك بتفكرنى بأول طريقى مع الفن .. كان يومها " محمد صبحى " بيعرض مسرحيته على مسرح سيد درويش ويومها المتعهد طلبنى وقال حتشتغلى فى المسرحية بعشرين جنيه فى الليلة ولما رحت المسرح لقيت شلة كبيرة من الكومبارس جايين مع صبحى من القاهرة وساعتها خدنى مسئول الأنتاج على جنب وقالى متشكرين مش عاوزين كومبارس من أسكندرية .. بعيد عنك يابت الكلمة دى وجعتنى وماسكتش وقلت بعلو صوتى ياأشتغل ياتدونى العشرين جنيه وفرجت عليهم الدنيا وأتفتحت ماتقفلتش غير بعلقة أخت دى بالظبط !! .

ـ بجد ياما .

ـ أى واللـه يانوسة ولو واحدة غيرى حصلها اللى حصل ده كان زمنها كرهت الفن واللى فيه لكن أمك بعون اللـه أصرت وكملت طريقى لغاية الأخر عشان الفن ده رسالة . كررت نوسة خلفها نفس الكلمات الأخيرة بنبرة قلق وتخوف : كملتى طريقك والفن رسالة ياما .. باين عليها الولية المفترية فايزة كانت أيدها تقيلة على دماغها ولا أيه ؟! .

000000000000000

يبدو المقهى خاليا فى تلك الساعة بين العصر والمغرب ، فى الخارج مائدتين مضمومتان الى بعضهما يجلس عليهما صنايعية معمار بدت أياديهم ناعمة من قلة الشغل بينما جلس عبده صامتا يدخن شيشته بجوار أبنه الذى أغمض عينيه وشبك أصابعه تحت رأسه المسنودة على حافة الكرسى فاردا رجليه أمامه سابحا فى كتلة من الهم واليأس بينما عبده أخفى قلقه وصنع لنفسه وهما من الأسترخاء قبل أن تتدافع فجأة الكلمات على لسانه : ماتزعلش يامنصور وسلمها للـه وكل شيىء حيتصلح ويبقى تمام بس أنت ماتشلش فى نفسك لحسن يمسك فيك المرض . قال ذلك وقد شعر فى قرارته بأن هذه الأزمة تقرب بينهما بطريقة ما .. فى حين تنهد منصور وأرتد إلى حزنه وإلى عوالمه المعقدة ، الصاعدة ، بكآبة لاسبيل لصرفها . وأمام مثل هذا الحجم من الكآبة لاينفع تشجيع ولايفيد أستفزاز . سكنته قلة الحيلة وأستغرقته ، حتى أنه لم يسأل نفسه ذلك السؤال البسيط الذى يرد فى مثل هذه الحالة : الجوازة أتفركشت وشكلى بقى قدام نوسة عامل زى اللى ماشربش بريل .. يعنى البت راحت منى وأمى خلاص حطتنى فى دماغها وبقت الخسارة من الناحيتين .. أعمل أيه ياربى ؟!.. فى حين كان عبده صامتا يتابع أبنه الذى بدا تائها فى ملكوته ، فأزاح طاقيته وهرش رأسه .. يستعيد أحساس الماضى أيام الجبروت والفتونة وشعر كمن يخرج من حال لحال .. يغادر مهانته . كان مؤرقا بكيفية التخلص من تسلط فايزة وحصارها له والتى تنضج داخله فى صمت .. شعر فى وجودها بأنه تضاءل مثل فأر وتحول وجودها إلى مارد فى حين تكبر الضغينة وتلتف بقلبه مثل أفعى . سحب نفسا شديدا من الشيشة كى لاينام الحجر الجديد فى بدايته قبل أن يرفع رأسه وهو يطلق الدخان فى وجه منصور : أنت حتفضل سحنة أمك مقلوبة كده على طول ولا أيه ؟. مد رجليه مستسلما : وحأعمل أيه بس يابا .. أمى دمرتنى وحرمتنى من نوسة وسودت الدنيا كلها فى عينيه . أزاح المبسم : ماتبقاش طرى كده وخفيف كل مشكلة ولها حل . بدا منصور وكأنه يعانى أعراض مرض غامض: طب ماتقولى على الحل يابا . نكس رأسه . وحين ينخفض بصره فأن دماغه يزداد

نشاطاوأسترجع عبده قصة حياته مع فايزة التى مرت أبرز محطاتها امام عينيه .. وفى ضوء تلك اللحظة ، أبصر خلال الأعوام الطويلة تكرارا لعينا لموقف واحد تعس ؟، موقف رجل لايكاد يمسك بشيىء حتى يفلت منه، خرج يفكر هذه المرة فى شيىء يمكن أن يبقى طويلا فى يده .. هو على يقين بأن فايزة قريبا ستكتشف الاعيبه فى حسابات المقهى وحتما ستجرده من كل شيىء بدءا من وجوده فى المقهى وهو مايعنى سحب لقب " المعلم " منه وإنتهاءابتحديد إقامته والتى سيترتب عليها خللا فى قواه العقلية ومن بعدها يتحول إلى مجذوب فى حارة المنجى .

تابعه منصور فى ملل : هو أنا يابا كل ماأقولك شوفلى حل تتوه منى وتسرح فى دنيا تانيه ! .

ـ أنا مش سرحان ولاتايه منظرك هو اللى قلب على المواجع .. أنا بقالى خمسة وعشرين سنة عايش مع أمك ماشفتش يوم واحد عدل ولاحسيت أنى عايش فى أمان زى بقية الخلق وأوعى تبقى غشيم زى الناس وتقولى أنها عملتك بنى أدم وخلتك صاحب قهوة .. لا يابنى أوعى تصدق الحكاية كلها كانت ماشية مع مزاجها وعلى كيفها وهيه اللى سعت من البداية عشان ترسمنى الرسمة دى كانت عايزانى منظر عشان يليق ببنت المعلم وأنا الوحيد اللى كنت على أد أيديهم .. أبوها كان عيان والقهوة كانت محتاجة لواحد زيى يعرف يسد مع الأوباش اللى هنا .. ضحكة مكتومة ثم تابع بمرارة : عارف لو كان الورث ده دكانة ولا مصنع ولاحتة أرض كانت أمك قلبتنى من زمان وطلعتنى معاش من بدرى . نفخ من جوفه كبتا : الخلاصة يابنى اللى أنت شفته من أمك فى بيت بدرية دى عينه شر محندقة .. أمك جواها مخزن غباوه وجبروت ولو طلعت اللى جواه عليك ساعتها لاحتعرف صلة رحم ولاحيشفعلك أنك الحيلة عشان كده أسترجل وأنشف بدل الخيبة اللى أنت فيها دى لابتاكل ولابتشرب ولازق فى القهوة ليل ونهار .

ـ ماليش عين يابا أورى وشى للناس وكفاية المهزأة اللى خرمت ودانى فى الرايحة والجاية .. تلفت متساءلا وعينيه لم تستقر بعد : هو الوله جمال النونو ماظهرش .

ـ ماشفتش خلقته النهارده . أجابة منصور أشعرته بالأمان فقرب كرسيه وهمس : بذمتك يامنصور لما أمك كانت فى السجن مش كانت أمورنا أنا وأنت ماشية تمام وأيامنا كلها كانت بتضحك وكنا عايشين أخر مزاج وفرفشة . مستغربا : قصدك أيه يابا ؟!. يضغط على الكلمات : جاوبنى بس .

ـ أيوه صح .

ـ يعنى كنا أحنا الجوز أخر أنبساط ومصروفك كنت بتاخده بالزيادة و اللى نفسك فيه بتعمله .. صح الكلام ؟

ـ تمام بس مش لوحدى أنت كمان كنت واخد راحتك ع الأخر وكل يوم والتانى دايس فى جوازة عرفى وماحدش بيقولك تلت التلاتة كام . يسحب أنفاس قصيرة لاهثة : مش حأنكر وأقولك لأ .. ثم صمت وبدا عليه أن فكرة قد أشرقت فى ذهنه وخرجت منه نبرة كنبرة الخلاص : الولية دى لازم تختفى من حياتنا عشان نعرف نعيش تانى زى الأول بدل عيشة المطاريد دى . وكأنما ومضت الفكرة برأسه وهتف دون وعى : هو ده الحل الوحيد اللى يريحنا ويريحها . توقظ كلماته صدى داخله وزاد أنتباهه فجأة : أيه اللى بتقوله ده يابا ؟! .

ـ ماتخليش دماغك تروح لبعيد أنا مش قصدى شر الحكاية ومافيها أن فى صنف من البشر لما يتمكن ويحس أن الدنيا بقت فى أيده وأدتله من وسع مايحمدش ربنا ويزيد أفترى ويتعب اللى حواليه وفى صنف تانى لما تلجمه وتحبسه يهمد ويرتاح ويريح اللى حواليه وأمك بقى من الصنف ده وعلى يدك وقدام عينك لما كانت فى السجن كانت بالصلا ع النبى زى الوردة المفتحة وصحتها زى الفل وشرها كان ملموم !!. ثم مال برأسه يدس بوز الشيشة فى بوزه قبل أن يقلب عينيه فى وجه منصور مستطلعا سريان الكلام فى ملامحه . بينما أبنه هرش بأصبعه ذقنه : معنى كلامك أن أمى لازم ترجع السجن تانى عشان أحنا نرتاح . خفض من صوته وظلت دعوات الشر ، تنطلق من أعماق أعماقه ، تغسل دعوات الصبر ، التى كانت ، بالأمس القريب . همس فى ضيق : مأأنا قلتلك ياغبى ياأبن الكلب أمك مصلحتها وراحتها لما تكون أسيرة فى السجن وأنا وأنت مصلحتنا وراحتنا لما تكون هى بعيد عننا . حاول أبعاد عينه عن عينى أبوه طمعا فى لحظة تركيز وتخفيفا لوطأة الكلام على دماغه فرجع بظهره إلى ظهر الكرسى يتأمل العابرين أمام مدخل المقهى فى حين شعر عبده أن أبنه لازال فى حاجة لجرعة أخرى : وعهد على لو ده حصل أول حاجة حأعملها أروح معاك بنفسى عند بدرية كومبارس وأجوزك البت نوسة . أستراح منصور للجملة الأخيرة .

مرت ساعة حتى أفرغ عبده مايبطن ، ويصب فى دماغ أبنه المذهول كلاما يعجز عنه أى شيطان أوداهية .. شعر بكلمات أبوه تحتمل تفسيرات متعددة ، أكتسبت أجنحة شيطانية تحلق به فى سمائه الغائمة . إلا أنه تمتم بأرتباك : طب ماتشوف حل تانى يكون مبلوع ومن غير أذية .. دى برضه أمى . عاجله قبل أن يشرع فى تخيل جديد : ياوله أحنا مش حنأذيها أحنا زى ماتقول كده حنحافظ عليها ونحميها من نفسها وتبقى قدام عنينا فى مكان أمين .. ثم علا صوته نسبيا كى لايشرد منه : وإياك تقولى أننا ممكن نعيش براحتنا وهيه موجودة فى وسطينا .. ده أنت لمؤاخذة تبقى أفا ياأفا ، أمك دى عاملة زى بتوع أمن الدولة عارفة كل حاجة عننا يعنى ياحلو مش حينفع معاها لا لف ولا دوران ولا تلعب بديلك عشان كله مرصود وتحت

عينيها . ظلت كلماته تحفر لنفسها بئرا فى النفس يزداد عمقا ، حتى أستوطنت وأستقرت ، تقطع صوته بالخوف وهو جالس فى حيرته كالمطارد : والكلام ده أزاى يحصل يابا . بدأت الأحتمالات الشريرة والسيناريوهات الخبيثة تسبح فى ذهنه كالذباب على القمامة فأختصرها فى جملة عائمة : أتقل لغاية مالفكرة تتخمر فى دماغى . نظر فى وجه أبوه ثم نظر أمامه ساهما .. أدخلته الفكرة الى عالم اللا معقول .. كان ذلك يفوق أستيعابه .

بينما على الجانب الأخر لم تتأخر خطط فايزة كثيرا . سارت بخطوات ثابتة بصحبة أفكار طموحة .. نموذج لحالة بشرية تحمل كل المتناقضات فكانت زيارتها الخاطفة والمهمة لمكتب " محمود المحامى " بداية عهد جديد تستعد له .. أستقبلها من وراء مكتبه بهيأة عصر الستينات نضارة بأطار أسود عريض وجسد ملفوف ببدلة " فيرانى " قماشها متصلب تعوق حركته ، يحاول أن يظهر الأبتسامة من بين ثنايا ملامحه الجامدة ، أشار لها بيده : أستريحى ياست فايزة . وضعت ساقا فوق ساق تتفحص المكان طويلا ثم نظرت إليه بأقتضاب : مكتبك زى ماهوه مافيش حاجة أتغيرت فيه من أربع سنين . سحب سيجارة من علبته حتى منتصفها وقدمها لفايزة التى سلتتها ثم دار بعينيه معها فى المكان : واللـه مافيش وقت ياست فايزة بس أنا ناوى قريب أعمل عمرة كبيرة . قالها ومد يده داخل درج مكتبه وأخرج ملفا وراح يحدثها وهو يعبث بأوراق مطوية داخله : أدى حجة البيت بتاعة حارة أبن شكر ودول عقود الأيجار بتوع الأربع شقق وآدى العقدين بتوع المحلين .. تناولتهم من يده ثم ألقت عليهم نظرة فى حين سحب شهيقا عميقا دليل الحيرة الشديدة قبل أن تعيد له الأوراق : هى دى كل الأوراق اللى تخص بيت أبن شكر .. فهمنى بقى أيه الحكاية وبتفكرى فى أيه ؟ . نظرت له طويلا وكأنها تستعد لأظهار مفاجأة : أنا نويت أهد البيت وأجيب عاليه واطيه . خفت صوته وأستغرق نظره كل ملامحها . كرر : تهدى البيت !.. طب أزاى ؟. تهز رجلها المعلقة : بأى طريقة يامتر ..أمال أنا جايالك ليه مش عشان تفكر معايا وتشور علي . يرفع حاجبيه وأضاءت السيجارة المعلقة على شفتيه فى أعقاب نفس طويل سحبه بعمق يحاول لملمة أجابته : المفروض أول حاجة نعملها نقعد مع السكان الأول نجس النبض وبعد كده نشوف طلباتهم أيه ونتفاوض معاهم وربنا يقدم اللى فيه الخير . بدا واضحا العناء فى ملامحها : خلاص أبدأ على طول ياأستاذ محمود وشوف ميتهم أيه .. بالذوق بالتراضى ماشى بقلة الأدب والعافية برضه ماشى . مبتسما : الصراحة ياست فايزة فكرتك دى صح أوى وجديدة عليكى وأنا شايف أنها حتبقى فتحة خير ورزقها حيبقى واسع خصوصا وأن مساحة البيت كويسه وممكن تطلع عمارة محترمة .

ـ أنت مش غريب ياأستاذ محمود أنا فكرت فى الموضوع ده من مدة بس كنت تقلانة شوية لما أشوف أولى من أخرى وآهو كل شيىء بأوان وأنا شايفة أن اليومين دول همه عز الأوان وقلت ألحق والدنيا لسه كده فكة وسايبة ماحدش عارف بعد كده اللى جاى .. وأدينى أتكلت على اللـه وبدأت من أمبارح و أتفقت مع مقاول من حبايبنا وخليت مهندس من الحى يطل ع البيت فى الكتمان . تصدى لها بضحكة ذات صدى : طب مش الأول يامعلمه نتفق مع السكان ونراضيهم عشان ماحدش فيهم يعاكسنا . بادلته ضحكة منغمة لها طعم السخرية : أيه الحكاية يامتر أنت مش واخد بالك ولا أيه .. أنا المعلمة فايزة عبد المقصود . يتفحص عينيها ثم ينكس رأسه وملامح الأبتسام ترتسم داخل عينيه : عندك حق فاتتنى دى وع العموم ماتشغليش بالك من بكره حأبدأ أتكلم مع السكان وحأتصرف معاهم .

ـ أتصرف زى مأنت عايز .. لكن لغاية الولية اللى أسمها بدرية وبنتها مالكش دعوة بيهم بلغهم بس أن الكلام حيبقى معايا أنا . أمتزجت كلماته بضحكاته : كرموز كلها بتتكلم على العلقة اللى أخدتها بدرية كومبارس . قامت من مكانها تضبط طرحتها : وحياتك عندى ده لسه دورها معايا ماخلصش .. بسلامتها فاكرة انها تقدر هى والسنكوحة بنتها تكعبل الوله منصور وتدبسه فى جوازة .. شوف ونبى المرى الهبلة . أنهت جملتها بضحكة ثم مدت يدها تصافحه بينما أبدى هو ملاحظة واجبة : واحدة واحدة ياست فايزة منصور كبر وبقى راجل أمشى معاه بالنصيحة والأقناع عشان مايركبش دماغه حاولى تكسبيه بدل ماتخسريه . أنسحبت ناحية الباب قبل أن تناوله نظرة ركنية : المهم أبدأ أنت بس وركز معايا وعايزة أسمع أخبار كويسة عشان أنا كمان حأديك حاجات كويسة . أبتسم وسبقها يفتح الباب : ربنا يعمل اللى فيه الخير .. مع ألف سلامة ياست فايزة . بينما كان جمال النونو يقف فى وسط حجرة الأستقبال فأردا أبتسامة ويفرك كفيه وهو يتسلم فايزة عند عتبة الباب : أتفقتى على كل حاجة يامعلمة .

ـ أصبر يامنيل ماتبقاش لحوح كده . ثم سحبته وخرجت .

0000000000000

خيرى .. لازالت أرادته ماثلة كلها فى رغبته فى ترويض الواقع وتشكيله ، لا فى الأنكماش أمام صدمة الواقع والقبول به .. بدا له فى السنوات الماضية التى قضاها مع زوجته ، أنه سبق له أن عاش حياته كلها وأنه عرف كل شيىء .. التعاسة ، والمهانة ، والكرامة والحب واللذة .. وأنه أعتزل العالم كناسك أرمل وأنه لم يعد ينتظر أى شيىء ، كان يعتقد أن عاطفته ماتت تجاه النساء . وهاهى ذى الحياة الدنيا تبدو له

فجأة من جديد فى عينى هدى . ولم يكن سوى عزم أنتهت إليه حيرته وأوحى إلى نفسه أن تستريح إليه ، أن يتعرض لهدى أن أتاحت له المصادفة لقاء معها ويكلمها كى يظهر له الخيط الأبيض من الخيط الأسود .. مر أسبوع وقد لمحها فيه ثلاث مرات فى ظروف لم تكن تسمح للكلام بينهما ، وأن كاد يتكلم فى مرة لكن نفسه لم تطاوعه . عند باب الأتيليه كان ينتظر خروجها . قرر أن يحادثها .. جهز نفسه لبضع كلمات يقولها ويفجرها أمامها ، كان كل مايسعى أليه هو تحديد موعد يجمعهما .. وبدا له وهو واقف على عتبة الأتيليه أنه أشبه بمن يقف على قمة جبل .. الصعود مستحيل وتحت قدميه هاوية ليس لها قرار . حاول الأحتفاظ بأكبر قدر من الجرأة ، ذلك القدر سيمكنه من خوض مواجهة غير محسوبة العواقب . وقف منزويا حتى لمحها تفتح الباب وتخرج . أندفع نحوها .. تسمرت فى مكانها .. مد يده لها مصافحا .. قبض على أصابع ساحرته المرتعدة التى بدت كتمثال ، لم يكن هناك مجال لحديث طويل أو تمهيد وقال لها بأعذب صوت سمعته : محتاج أشوفك ضرورى !!. جف ريقها وهى تنظر إليه والدهشة تقتلها : خير .. ليه؟ .

ـ فى موضوع ضرورى لازم أخد رأيك فيه . لم تحدد موقفا ، بدا ذلك من أضطرابها ، لم تبد رغبة ولافضول . فكان سؤالها محايدا وضعها فى منتصف المسافة بين الرفض والقبول :ماينفعش يعنى تقولى اللى أنت عايزه هنا ؟.. التقط ترددها : ماينفعش . حاولت أن تصل إلى سبب أو تفسير : موضوع مهم أوى؟ .

ـ جـدا .

ـ طب قولى بخصوص أيه ؟. قصرت الكلمات وطالت بينهما النظرات وأستشف منها الرضا فى ومضة العين وأندفع يؤكد ألا تضن عليه بالموعد ، فما تقع المعجزات كل يوم ! . قالت وعينيها فى عينيه : ربنا يسهل . هدى لها قدرة على كبت عواطفها وتلك البسمة المعلقة على شفتيها ، فى الرفض ، وفى الرضا !

ـ حأستناكى يوم الخميس فى نفس الوقت ده فى كافتيريا سان أستفانو اللى قدام محطة الترام . لم ترد وظلت تصعد درجات السلم وهو بجوارها . وما أن وصلا إلى " بسطة " طابقهما أتجهت بعينيها نحوه .. هزت رأسها بالموافقة ثم أندفعت إلى شقتها كالطائر الرشيق ، فتلقت ببدنها المنتفض كله وقع نظرته الظافرة الفاهمة التى رأى فيها أنثى يرتاح الرجل لعشرتها ، فهى للحق مخدة من ريش يغطس فيها ، ينام عليها ويحس النعومة من تحته وفوقه . نكست رأسها ودخلت . أما هو فما من عبد فى تاريخ الأنسانية كلها كان أسعد منه بعبوديته . إذ هو واقف وقفة البطولة أمام باب شقته غير مصدق جرأته . أنه فى تلك اللحظة أعتقد أن الأقدار لم تضع تلك المرأة البيضاء الوردية فى طريقه عبثا . ثمة ما هو مقدر ومرسوم

ومدبر ولا حيلة لنا به . بينما هى لم تكن تعلم أنه تغلغل فى كيانها إلى هذه الدرجة رغم فرارها كل صباح من تلك الأحلام التى يظهر فيها خيرى ، كانت تراها من جديد تتجسد فى خيالها فى ساعات الراحة بين العصر والمغرب تسحبها من عالمها وتدخلها الى أحاسيس ومشاعر متناقضة وكأنه فى المنام قدرها الذى يلزم أن تتحاشاه .

فى المساء كانت قد أنهت هدى أخر جولاتها الأستكشافية داخل الأتيليه تلقت خلالها تشجيعا منقطع النظير من زيزيت ، كما تلقت تأنيبا مقتضبا على لسان نورا التى أستوقفتها بجوار حجرة البروفات عاقدة يديها على صدرها وتهتز فى وقفتها بعصبية : مش كفاية لحد كده ياماما أنتى أتأخرتى أوى على يوسف وبسمة. ترددت للحظات قبل أن تستسلم لرأيها : عندك حق يانورا أنا نسيت نفسى وكمان أنا جايبة شوية حاجات من السوق حتعجبك أوى . نطقت جملتها بسعادة وتوجهت لمكتب زيزيت الخالى حيث خرجت من ساعة لحضور حفلة زواج تلبية لدعوة أحد المتعاملين الكبارمع الأتيليه ، أضطرت للذهاب منفردة بعد رفض نورا القاطع السماح لأمها بمرافقتها بحجة ضرورة تواجدها مع يوسف وبسمة أثناء المذاكرة . سحبت حقيبتها من على المكتب ومرت تحت رعاية نظرات نورا التى تتبعتها بينما نظرت هدى فى عينيها مبتسمة : تحبى أعملك حاجة حلوة جنب العشا ولا تسيبينى أنا أعمل حاجة على مزاجى . قالتها وأقتربت منها تكتم فرحة تلاعبت فى عينيها : أمك أتحينت أمبارح ورحت السوق لميت شوية حاجات حتعجبك . ألف جنيه كانت كافية لصنع كيان منافس وان كان لايزال وليدا . أرادت زيزيت أن تشعل حماستها وتشعرها بقيمتها فمدت لها عشر ورقات مطوية من فئة المائة جنيه : خدى دول ياهدى أصرفى منهم وجيبى كل اللى نفسك فيه وأول الشهر فى كمان زيهم . فور سماعها الخبر أنتاب نورا قلق أحاط رأسها كعمامة تخفى تحتها حيرة وتضع أمامها علامات أستفهام عند نهايات أسئلة بدت شاذة فى محتواها ، إلا أنها أخفتها وراء أنفراجة مصطنعة رسمتها على شفتيها : أى حاجة تعمليها .. مافيش مشكلة .

ـ خلاص ياحبيبتى زى ماتحبى . رددتها وهى تمشى ناحية الباب التى دفعته وأنسلتت منه للخارج وأعتلت أول درجة سلم بينما توقفت نظرات نورا عن اللحاق بها حين أختفت مع دوران السلم قبل أن تعود أدراجها للداخل متجهة لحجرتها محميتها الخاصة وحاضنة أفكارها .. فور دخولها أزاحت جو الطموح الساكن فى فراغ الحجرة بتنهيدة ممتدة يتقافز منها شيطان أمرد صغير يدعوها لفرض حصار الغرض منه تحجيم طموح أمها المتصاعد قبل أن تتجسد أمامها ، أمرأة قوية تثبت وجودها فى الأتيليه وتصعد درجات السلم التى سبقتها فيها وهو ما يعنى قوة لوجودها فى الأتيليه والبيت .

لم تجلس خلف الماكينة كعادتها بل أحتمت بكرسى صغير أنحشرت فيه كما أنحشرت أفكارها داخل رأسها تتصارع فيما بينها لفترة ليست بالقصيرة تفتش عن أجابة لسؤال ينهشها : أيه اللى جرالك يانورا وخلاكى قلقانة كده ومتوترة ؟.. لازم تعرفى أن وضعك مافيهوش فصال ومستحيل لأى حد مهما كان يقدر يتخطى دورك ويقلل من وضعك .. لم تكن أجابة بل أستنتاجا .. أضافت تدلل لنفسها : أنتى نورا اللى نص شغل الأتيليه بيطلع من تحت أيدها ولا نسيتى .. أنتى نورا صاحبة البيت اللى ماحدش يقدر يتحرك خطوة اللى بموافقتى . أدلت رأسها وضمت ساقيها وهزت ركبتيها : طب يبقى خايفة من أيه ؟!.. إلا أنها لم تدرك ماينبغى عليها فعله ، لازالت الصورة غائمة .. تطاردها أفكار مجنونة تدور فى عقلها عن خسارة فادحة تنتظرها ، لم يكن من السهل عليها معرفة حجم الخسارة المنتظرة وأن كانت على يقين تام بأنها ستكون على يد أمها . أغمضت عينيها وكأن شيىء خفى داخلها يقاوم مخاوفها . تذكرت مواقف وأفعال وأشياء وباتت تباعد شبح الأم عن دماغها ، الذى ألتهب باسترجاعات الماضى منذ لحظة تصديها لمسئولية البيت وأخوتها وعمتها . إلا أنها فتحتهما بسرعة بعدما حسمت الأختيار .. فقدأن الذاكرة أفضل !! .

فى تلك اللحظات .. فقدت بسمة روح الدعابة مؤقتا ولبست قناع الجدية حين أحتل وجهها وجوما لم تفلح فى أخفاءه عن عينى أخوها يوسف الذى تراكم إلى جوارها على كنبة الأنتريه يتابعها بملامح من أصيب بنوع نادر من الأضطراب حين طرحت عليه سؤالا بدت أجابته بالنسبة له محل شكوك وغموض : يعنى أنت عايز تفهمنى أن من يوم ماهدير جت هنا البيت لغاية دلوقتى ماعلقتش على أى حاجة ولا لمحتلك بأى كلمة عن اللى ماما قالته . كرر على أسماعها محاولاته الفاشلة فأستنطاقها وسحبها لموضع تظهر فيه ماتبطن ، إلا أنها لم تبد مرونة وتعللت بضغط الأمتحانات قبل أن تقلل من مخاوفه بكلمات بدت طبيعية : أنت اللى فى أيه يايوسف .. كل يوم والتانى تسألنى مالك مالك .. أنا زى ما أنا كويسة أنت اللى مش طبيعى وأسئلتك بقت غريبة أوى ومش مفهومة وياريت تبطل ألغازك اليومين دول لغاية ما نخلص أمتحانات وبعد كده نسأل بعض زى ماأنت عايز . بدت غريبة وهى تتقمص دور الحكمة فقالت بسمة رأيها ببطء : متهيألى يبقى مافيش داعى للقلق يايوسف .. لو هدير كانت خدت بالها من أى حاجة أو حتى شكت فى كلام ماما أكيد كانت حتسألك ومش حتعديها .

ـ هو ده اللى محيرنى أنها لا سألتنى ولا حاولت تفهم منى أى حاجة وكأنها ماجتش عندنا البيت أصلا . رفعت رجليها المدلاة على الكنبة وطوتهما تحتها : مع أنى شايفه أن الأمر ده غريب ومايدخلش الدماغ بس ممكن يعدى خصوصا أن هدير من النوع اللى ماياخدش باله من الأمور دى . هز رأسه متفهما وجهة

نظرها كأنه يبعد عن رأسه آفة الشك . فتابعت: يبقى خلاص كبر دماغك وماتشغلش نفسك وكفايه عليك أنها بتعبدك عبادة وبتموت فيك ده غير أنها أنسانة سهلة ومش معقدة ومافيش حاجة بتفرق معاها يعنى بالبلدى أنت واقع واقف وحاطط بنت الحاج أحمد الشهاوى فى جيبك الصغير مش زى ناس واقعين فى ورطة سوده ومش عارفين يطلعوا منها . أنكمشت عينيه مبديا الدهشة : ورطة أيه يابسمة . خبطت فخذيها بكفيها تتمايل فى جلستها كالمعددة : أختك اللى قاعدة جنبك خيبتها كبيرة أوى يايوسف . بحث فى عينيها يترقب : أيه اللى حصل ؟ .

ـ أمجد راكب دماغه وعايز يتقدملى وناوى يقابل ماما أول مايتخرج .

ـ أنتى يابنتى مش قلتى أن ظروفه متنيلة وأحواله صعبة . دارت ضحكتها خلف أصابعها : ماهو عايز يطلب من ماما تشوفله عقد عمل فى الخليج !. تحسس كلماتها ثم تداولا فيما بينهما نظرات ساهمة حتى بادر بأبتسامة باهتةأتبعها بضحكة مذعورة : وكمان عايز ماما اللى تسفره . رمقته وأكتفت بجملة ساخرة : شفت بقى الوكسة اللى أختك فيها .

ـ لاوكسة ولاحاجة الحل كله فى أيدك .

ـ أيدى على كتفك .

ـ أبعدى عنه وأنسيه والخسارة القريبة أحسن ..! . شاع التوتر فى ملامحها وأمتصت شحنات القلق المنبعثة من عينيه لتمتزج بقلقها وتوترها ليصنعا سويا كيانا متجانسا بينما هى صارت تتوزع بين النوازع والنواهى .. حاولت لملمة صدمة كلماته : بس .. سكتت . تربص بنظراته . فتابعت : أبعد عنه أزاى يايوسف والمشكلة أصلا مش فى أمجد .. هوه كان صريح معايا من البداية وماخباش عنى أى حاجة وشرحلى ظروفه التعبانة من غير تجميل .. المشكلة فى أختك أنا اللى ماقدرتش أصارحه ولاحتى ألمحله عن أى حاجة.. كنت خايفه وجبانة وبدل ماأراجع نفسى لقيتنى كل يوم والتانى بأغرز فى الكدبة أكتر وعمالة أخترع فى حكايات عن ماما وياما حكيتله على مدارس الأمارات اللى بتتخانق عليها عشان يتعاقدوا معاها .. ومطت شفتيها . أردفت : بلاش نضحك على بعض يايوسف أحنا اللى قررنا بالأجماع أننا نكدب على الناس ونخدعهم وبقينا عاملين زى البضاعة المضروبة اللى صاحبها مش عارف يصرفها . أبتلعت ريقها بصعوبة وكأنها لم تدرك السؤال ولا أجابته فتحركت الكلمات على لسانها ببطء : أنت عارف أنى بحب أمجد وحتى لوسمعت كلامك وقررت أنى أبعد عنه وقلت زى مابتقول كده الخسارة القريبة

أحسن .. تقدر تقولى أحنا حنعمل أيه بعد كده فى مستقبلنا ؟ حنفضل لغاية أمتى خايفين ومتهددين وعايشين بوشين مع الناس ؟! .. طالته المخاوف وأصفر لونه وتهدلت شفته وأصبح المجهول يتداعى متزاحما يفرض سياجا حولهما لا فكاك منه .. باتا يدركان أن مصيبتهما بالحياة تجاوزت الحد المسموح به للبشر . ماكان يخطر لهما ببال أنها عميقة هذا العمق كله فى حين لم يطرح أحد منهما السؤال البديهى عن حقهما فى مستقبل آمن خالى من تهديدات الماضى ، ومايزال نفس السؤال معلقا فوق رأسيهما لايدخل العقل ولايخرج من اللسان . توقفا يائسين عن الكلام حين علقت عيناهما بالباب على صوت مفتاح يدور فى الكالون .. ثوان وتصدرت هدى المشهد .. دخلت منحنية الرأس حتى أستشعرت وجودهما فأرسلت لهما نظرة تتبعها أبتسامة : أيه ده حبايبى قاعدين كده ليه . رسما أبتسامة خاوية حين أقتربت منهما ووجهت كلامها ليوسف : الأمتحانات أخبارها أيه ياباشمهندس ؟ سألت وأنتظرت منه نبرة فرح ، إلا أنه مسح وجهه بكفه : هانت ياماما . لم تفهم أجابته فتحولت لبسمة : وأنتى ياحبيبتى الأخبار أيه طمنينى ؟ .

ـ الحمد لله الأمتحانات حلوة السنة دى . أرخت رموشها وأطلقت نفسا مستريحا : الحمد لله ريحتينى .. أنا حاغير هدومى بسرعة وحادخل المطبخ بس أدونى نص ساعة بالظبط وحتلاقو حتة عشوة ماحصلتش على ماتكون نورا رجعت كل حاجة حتبقى جاهزة . أنهت كلامها وهى تتحرك ناحية غرفتها . لم ينعما بلحظة صمت حين خرجت أيات من زنزانتها تتسكع فى الصالة وكأنه غير مسموح لها بالخروج إلا فى مواعيد الطعام . أقتربت منهما تتفحصهما ثم شدت حزام الروب فأحكمت طرفيه حول وسطها وجلست صامتة حتى أستقبلت جملة بسمة : كفارة ياعمتى ! مسحت الروب بأصابعها من ناحية الصدر عادة تلازمها منذ زمن وردت بصوت خالى من أى تعبير : يعنى لما أطلع للصالة يبقى كده أفراج .. ماشى يابسمة ع العموم كله محصل بعضه جوه زى بره .

ظلوا صامتين وكأنهم فى جلسة " يوجا " حتى أحتضنت عينى بسمة وجه نورا المرهق بكل أنواع المتاعب لحظة دخولها . طافت بعينيها فى الصالة كأمين مخزن يتمم على عهدته قبل أن تبدى أستغرابا حين أكتشفت موقعهم فى الأنتريه . لفت أنتباهها وضعية أختها المنكمشة فى ركن الكنبة يجاورها يوسف محنطا فى مكانه وكأنهما فى نهاية مشهد مسرحى ينتظران تحية الجمهور . أظهرت قلقا وهى تتجه ناحيتهما : مالكو قاعدين كده ليه زى اللى عاملين عاملة ؟!.

ـ مستنين ماما بتجهز العشاء . أجابة مختصرة من بسمة لم تهضمها نورا . فتشت فيهما بنظراتها : جديدة دى !! .

ـ آهو بقى . رددها يوسف بتراخى مما أستلزم منها نظرة طويلة فى وجهه أكتفت بعدها بهزة من رأسها وكررت خلفه بأستنكار : آهو بقى .. مالهم دول ياعمتى .

ـ أنا خرجت من أوضتى لقيتهم عاملين كده زى زرعة الصبار .

ـ ده يبقى الموضوع كبير أوى .. ماشى أنا حأدخل أوضتى أغير هدومى وآخد حمام سخن ع السريع وآجى أشوف أيه حكايتكم . أدلت بسمة برأسها متحاشية النظر فى عينى أختها قبل أن تسحب الأخيرة نفسها من الصالة قاصدة غرفتها بينما تنبهت أيات لملاحظات نورا التى أستشفتها . على غير العادة . أظهرت أهتماما : فى حاجة ياولاد .. شكلكم كده مش مظبوط . رمقها يوسف بأستخفاف : ماتشغليش بالك ياعمتى كلها حاجات تافهة . بذلت جهدا ضعيفا حين سمعت جملته فى محاولة للفهم لكنها لم تحصل سوى على عبارات مبهمة لاتجدى نفعا .

لم تستطع نورا الغياب لأكثر من عشر دقائق قضتها مابين تغيير ملابسها والوقوف تحت دش ساخن أشتهته من بداية اليوم . ظهرت لهم داخل برنس أبيض وخصلات شعر ملتصقة بالخدين وتحمل بين كفيها عتادها المعتاد بعد كل حمام .. مشط وفرشاة ومجموعة زيوت وكريم بشرة وطلاء أظافر ، أفرغت حمولتها بحذر على منضدة الأنتريه كبائع متجول يعرض بضاعته ثم تممت بعينيها على بضاعتها وعلى الموجودين وشرعت فى إدارة حديث بنكهة وكيل نيابة : أيه بقى الحكاية بالظبط أنا عايزة أفهم ؟!. لم تحصل على أجابات واضحة إلا بعد أن ألحت بعصبية فأضطرت بسمة لسرد مشكلتها بإيجاز ووضعتها على الطاولة لتكون محل بحث وتداول فى حين أنصتت لها نورا بأضطراب خفيف ظهرت أعراضه فى حركة أناملها المتشنجة التى تحجز بها نصف شعرها بعدما فرقته لنصفين وعالجته بـ " فركة " زيت من يديها حتى خضع للفرشاة دون عناد وأنسدل أمام وجهها كستارة تخفى دوران حدقتيها فى محجريهما بعصبية : أنت اللى غلطانة من الأول يابسمة .. كبرتى الموضوع من غير لزمة وخليتى واحد زى أمجد ده يحلم ويرسم ويخطط وفاكر أنه لما يفاتح ماما تبقى دى بطولة منه وجراءة .

ـ يعنى أنا اللى قلتله يفكر فى الكلام ده .

ـ كان لازم من البداية تفهميه أنك مش بتفكرى فى المواضيع دى و تعرفيه أنك لسه صغيرة وأهم حاجة عندك مستقبلك .. مش مشكلة عويصة يعنى كان قدامك مليون حاجة تقدرى تقوليها ده أن كان لسيادتك مزاج لحل المشكلة دى . سحبت نفسا ومشت بيدها المعروقة بالزيت ماسحة مقدمة رأسها حتى أطراف

شعرها قبل أن تقبض عليه بعنف ثم لفته حول رأسها كرباط ضاغط حول موضع ألم . فأردفت : وبعدين أيه أمجد ده أصلا اللى أنتى عامله له ألف حساب وقلقانة منه .. حتة عيل لاراح ولاجه وفاكر نفسه بقى الواد المخلص الأنتهازى اللى واقع على مزة هبلة طمعان فيها وفى أهلها .. أصحى بقى من العبط اللى أنتى فيه ده . أفرجت أيات عن أول جملة حين سمعت كلام نورا : كلام أختك صح يابسمة أزاى سمحتى لنفسك تخلى واحد زى ده لا له أصل ولافصل يربكك بالشكل ده ويخليكى مرعوبة أمال لو كان أبن ناس ولا من عيلة كبيرة كان حصلك أيه . شعرت بسمة أنها قدمت حبيبها فريسة سهلة دون قصد بين مخالب العمة وأنياب الأخت فتقبلت الهجوم الكاسح وأرتضت به قبل أن تستأصل منه الجزء الذى يظهر فيه أمجد كطماع أنتهازى . تحفظت : أنا معاكى يانورا أنه فقير وواقع ويادوب بيأكل عيش حاف هو و أهله وزى ماأنتى عايزة قولى فى الحتة دى لكن واللـه ورحمة بابا لا هو طماع ولا أنتهازى . كان رأيا قاطعا أستندت فيه ، لمواقف ووقائع عديدة . لم يعجب قولها أيات فتحرك شيىء داخلها غير مأمون العواقب حين أنفعلت تجتر صفحة من مذكراتها وكأنها تقرأ منها سطورا أليمة شرحت بعصبية وأستفاضة سمات الزوج الغادر حين تعرفت عليه فى البداية عندما كان ميزان الخجل والشهامة والرجولة مساويا لـ " شاكر " قبل أن تنحسر داخله وتزول بعد ماسيطر وتمكن فأستبدلها بطباع رديئة من الأنتهازية والندالة والأنانية نالت منها أيات الجزء الأكبر . ترمقها بسمة بنظرة باهتة لا تخلو من مقارنة سريعة تدور فى رأسها عن أوجه الشبه والأختلاف بين ماضى عمتها وحاضرها مصحوبا بخوف شديد يزداد يوميا مع تهديدات أمجد التى يطلقها كقذائف تضرب كيانها كله بعشوائية حين تتملكه سخونة الموقف العاطفى ويتحول " لثورجى " الغرام . يهتف : أنا بقى حأتصرف بنفسى يابسمة حأروح لمامتك البيت من غير أذن ولا أستأذان وحأفاتحها فى موضوعنا بكل صراحة وحأفهمها ظروفى كلها بالتفصيل وأنا متأكد مليون فى الميه أنها حتسمعنى كويس وحتحترم صراحتى وأكيد حتقف معايا لما تتأكد أنى بحبك فعلا وبأخاف عليكى و أنا مش قلقان من المقابلة دى خالص عشان ببساطة كده مامتك ست مدرسة وفاهمة أزاى تتعامل مع الناس . كان رده جاهزا حين قاطعته بذعر : ماما طباعها صعبة ياأمجد أزاى ممكن تقابلها من غير تمهيد ولا أذن !! .

ـ ماعنديش حلول تانية أنت رافضة تعرفينى عليها ولاحتى عايزانى أتكلم معاها فى التليفون .. قوليلى بقى أعمل أيه ؟!. كلماته جعلتها ولأول مرة تحجز لنفسها مكانا بين القلقين والمضطربين وسكنتها التهيؤات والهواجس وخيل إليها فى كل لحظة عن اصابة بالغة بقطع فى الأحبال الصوتية يؤدى بهاإلى الخرس حين تفاجىء بوجود أمجد إلى جوارها على كنبة الصالون يربكها ويربك الجميع أو محشورا منكمشا على نفسه أمام نورا تسوطه بكلماتها القاسية بالتبادل مع عمتها التى تذكره بجذوره الغير نقية .. أوحتى لاذاك ولا

تلك حين تصله المعلومة القاتلة عن الأم المكافحة فى بلاد الخليج فيكتشف لحظتها أن كفاحها لم يكن على أرض خليجية .. أنما على أرض القناطر ! أوشكت تلك التكهنات والتهيؤات أن تقتلع قلبها من مكانه .. أندفعت دماء صاخبة إلى وجهها وأذنيها كأمواج البحر . ملامح الفزع المرسوم على وجه بسمة أمتلات به عينى نورا فأشفقت عليها : مش عايزاكى تقلقى خالص يابسمة .. توقف الكلام على لسانها حين حضرت هدى من المطبخ ملطخة بالمياه والصلصة على الصدروالخصر بينما تنوء يديها بكيس خضار ولفة لحمة زنة أتنين كيلو ترافقها فرحة تشيع فى عينيها و أبتسامة وهى تتقدم ناحيتهم وقد بدت أمامهم كقطة تتمسح فى أقدامهم : الحاجات دى كلها جبتها أمبارح .. أصبروا على شوية كمان وحأظبط لكم عشوة تحلفوا بيها . لم تتلق أى رد فحاولت مع نورا : أنا حاعملك بامية باللحمة الضانى اللى أنتى بتحبيها وحأعمل ليوسف بسلة عشان هو مابيحبش البامية . ثم أفرغت حمولتها أمامهم تعرض بضاعتها . لم يصلها مديحا ولاثناءا بل تلقت نظرة واجمة من عين نورا التى أنفعلت أصابعها وهى تسوى ظفرها بالمبرد . لم تستطع كتم مايفور داخلها فنفثت أبخرة غضب : لزمتها أيه الحاجات اللى أنت جايباها دى .. طلبات البيت أنا بأجيبها أول بأول . مسحت يديها فى جلبابها : عادى يانورا مافيش فرق ياحبيبتى بينى وبينك وبعدين أنا حأعمل أيه بالفلوس اللى معايا دى .

ـ ماعرفش أعملى بيها اللى تعمليه . شعرت بكلماتها تعتقل فرحتها فأنقبض قلبها ولملمت بضاعتها وفقدت الرغبة فى التودد إليهم وأولتهم ظهرها وهى تردد كتحصيل حاصل : أنا حادخل بسرعة أجهز الأكل. سحبت نفسا أخيرا وأنصرفت بينما واصلت نورا ماقطعته من كلام بوتيرة منخفضة : أنا لازم أشوف حل فى كل اللى بيحصل ده .. مش حتنفع عيشة القلق والتوتر دى . تطوعت أيات بالرد مبدية قدر من الدهشة : الأمور دى مافيهاش حلول اللى حصل لأمكم خلاص ده بقى تاريخ مكتوب يعنى لاينفع يتمسح ولايتغير ولاحتى الناس حتنساه . تأثرت نورا بالجملة الأخيرة ولم يتبق سوى صراع يدور فى رأسها حول تعريف مفهوم الخطر الذى يحوم حولهم قبل أن تستدعيها بسمة بموضوعية طارئة : ماحدش قال ياعمتى أننا عايزين نشطب التاريخ ولاحتى نغيره .. أحنا بس مش عايزين فضايح ولا عايزين حد يعايرنا . أدهشها ماقالته فتجاوبت نورا : الناس لما بتسمع عن فلان سرق جنيه واحد بتسميه حرامى وتفضل دى صفته فى نظر الناس طول عمره لغاية مايموت وعمرهم ماحيغيروا رأيهم فيه أبدا ولا حتى حيكلفوا نفسهم يعرفوا هو سرق الجنيه ده ليه ونفس الناس برضه لما حيعرفوا أن أمنا دخلت السجن عشان جريمة قتل مش حيلاقو أسم تانى يقولوه غير أنها قاتلة !. صمتت ودارت بعينيها فى وجوههم . ثم تابعت : ولاتفتكروا أنكم حتلاقو حد يتعاطف معاها ويقول أنها كانت مظلومة أو ماتقصدش أو كانت بتجيب حق ضايع . تساءلت

بأبتسامة بائسة . وتولت الأجابة : أشك .. فى بلدنا هنا الراجل لما يقتل عشان شرفه وعرضه بيلاقى اللى يقف جنبه ويسانده ويدافع عنه كمان .. لكن برضه بيسموه قاتل . أردفت وهى تحنو بنظرتها المبتسمة على حيرة أختها : مش عايزاكم تقلقوا ولا تخافوا أبدا أنا جنبكم وزى ماعدينا سوا من كل اللى فات ومافيش حدفينا أنكسر ولاوقع برضه حنعدى المرة دى كمان . هزت بسمة رأسها تبدى موافقة ضمنية إلا أن عينيها تحمل عبارات قاسية وكاشفة مفادها : ان الماضى قد يغيب فترة أو فترات لكنه أبدا لايضيع وتظل أنيابه مغروسة فى لحم الحاضر الحى !!.. قام يوسف من جلسته مهموما وهو ينفخ : ربنا يستر بقى . أستوقفته نورا قبل أن يدخل مكتئبا : أنت بالذات مافيش قلق بالنسبة لك خالص ولو كان فى أى حاجة كانت ظهرت . ثم قامت تواجهه كأنها تردع مخاوفه : عشان خاطرى ياحبيبى مش عايزاك تشغل بالك بأى حاجة دلوقتى خلص نفسك اليومين دول وركز فى أمتحاناتك .. مستقبلك أهم عندى من أى مشكلة لأنى ساعتها حاتأكد أن تعبى مارحش فى الهوا وأفتكر كمان أنى وعدتك بعربية أول ماتتخرج .. هيه حتبقى مستعملة وبالتقسيط بس آهى أسمها عربية ولا أيه رأيك ياباشمهندس . أستجاب ببطء: حاضر يانورا ماتقلقيش الأمتحانات ماشية معايا كويس . فردت أبتسامتها ووزعتها عليهم غير أنها لم تملك القدرة على تفكيك ملامحهم المضطربة أو نيل نظرة هادئة خالية من الفزع .

0000000000000

الخميس .. الثالثة والنصف عصرا ..

سحبت هدى نفسها من داخل التاكسى وتدفقت إلى الشارع بمنطقة " سان أستفانو" وقبل موقع اللقاء بمائتى متر . كانت الشمس وقحة تسوط الشوارع بلهيبها .. مسحت الطريق بعينيها خلفها وحواليها ، تمشى بخطوات مترنحة وملتوية كمن تتجنب فخاخا منصوبة فى الأرض . صعدت بنظراتها إلى الشرفات المطلة على الكورنيش وأمعنت فى وجوه المارين بجوارها غير أنها ظلت تدهس فى نهم ظل سور الكورنيش ولعلها وهى تمشى تأخذ وراءها الى هوة اللقاء المجهول - الجرىء فوق العادة - كل من يعترض طريق أنوثتها الفائضة عن طاقة أمراة واحدة وان حاولت لجمها داخل ثوب فضفاض بسيط فى تصميمه بالغ الأناقة من مقتنيات زيزيت التى أعلنت حالة الطوارىء القصوى بدعم من " فضيلة " لتجهيزها فى

وقت قياسى لتلحق بالموعد المشهود وأستغلالا لفرصة غياب نورا فى حجرة التفصيل بصحبة " رضا " ، فأختارت لها الفستان المناسب وأرغمتها على تحرير خصلتين كثيفتين من شعرها تنسدلان حول خديها مثل ستارتين تحضنان برقة وجهها وردت بقيته وربطته كذيل مهرة فبدت أكثر سحرا ، كما حرضتها زيزيت على أستعادة جرأتها المفقودة ثم توجت كلامها بنصيحة أخيرة عند عتبة باب الأتيليه قبل خروجها: عايزاكى تبقى هادية خالص وماتبقيش متوترة وبلاش ردود جافة وخليكى طبيعية . هزت رأسها وأبتسمت فأطمأنت زيزيت وأعطتها تأشيرة خروج .

كلما أقتربت خطواتها من كافيتريا " سان أستفانو" شعرت بنفسها وكأنها تؤدى دورالبطولة فى حلم من سلسلة أحلام مابعد العصر التى تلازمها منذ فترة إلا إنه قفز محموما من دفء العقل الباطن إلى الطريق وها هو يصاحبها حتى مدخل الكافتيريا .

فى تلك الأثناء وتحت السماء المفتوحة داخل الكافتيريا حيث الجزء المطل على كورنيش البحر أختار خيرى كعادته ركنا قصيا . أستنشق الهواء وملأ الرئتين وأستزاد . تحديده للموعد ولمكان اللقاء ، كانت تلك فكرة ، لايدرى حتى اللحظة كيف صدرت عنه .

ـ هل ستحضر هدى أم لا ؟ خطر على باله هذا السؤال ، وسرعان ماتطوع عقله لوضع كافة الأحتمالات وأن أنتابه أحساس قوى بأنها لن تحضر ، إذ لم يكن هناك تخطيط أو أستدراج كافى يقنعها . غير أنه أعد نفسه لكل مكروه محتمل الوقوع ، كأن لاتأتى ، وماذا سيحدث بعدها ؟ عدم حضورها هو أعنف ما قد يصدر عنها .. وقتها سينسحب إلى الأبد .. أما أن تقبلت جرأته وحضرت وهو ماله فيه بصيص من أمل ، فسيكون له معها شأن أخر . توتر فجأة وأغلق حواره الداخلى اذ لمح هدى وهى تتهادى إليه عن بعد وكأنها هناك على البعد لاتزال حقيقة غير مؤكدة . تأملت المكان من حولها قبل أن تحدد موقعه بينما تأهب هو واقفا حين أقتربت منه .. تزدحم صورتها فى عينيه . تحرك خطوتين وبادر بأبتسامة ومد يده مصافحا فمدت هى يدها فى شيىء من الأرتباك وشيىء من وهلة الفزع .. شعر برعشة أناملها ، هل كان ذلك رعشة اللقاء، أم رجفة خوف ، لم يتبينه . تبادلا نظرات خفية تزور فيها كل منهما الأخر .. أفسح لها مكانا وأزاح الكرسى .. وقفت أمامه تهم بالجلوس .. تأملها ، نظر فى عينيها ثم أنزوت أبتسامة على زاوية فمها فأحدثت أنفراجة مائلة " خبلته " . جلس متفحصا ساحرته التى وضعت يدها على المائدة فأزاح الصمت قبل أن يعثر على بداية تليق بالحدث الجلل : كتر خيرك أنك جيتى . تسارعت أنفاسها حين أستقرت عينه فى عينيها : لا .. أبدا . بدت وكأنها تصارع لحظة الصمت بينما عيناه تدوران فى المكان تبحثان عن

الجرسون الذى ظهر فجأة : أوامرك ياباشا ؟ سأله ولم ينتظر أجابة . صحب السؤال بأشارة لمساعده أقل فى الحجم وفى الرتبة الذى أنقض عليهم بنشاط غير عادى : تأمر بأيه حضرتك ؟ تردد : أنا حآخد قهوة مضبوطة .

ـ وأنا كمان . قالتها وأبتعدت هربا من عينيه . رحلا الجرسون ومساعده بعد أن أربكا المشهد . أستعاد تركيز اللحظة : الحقيقة مش عارف أوصفلك أد أيه سعادتى لدرجة أنى مش مصدق لغاية دلوقتى أنك قاعدة قدامى . قال كلامه وتملى بوضوح من الوجه والقوام . أستسلمت لنظراته لكن قرأ فى عينيها نداء رجاء لم يفهمه . أنقضت لحظات قبل أن تستوعب وجودها منفردة أمام رجل فى كافتيريا ، حالة تذكرها بلقاءات قديمة رحلت كما رحل صاحبها . أسدلت جفنيها وتوقفت نظراته حين وصل الرجل الآلى ومساعده يتبعه يحمل صينية فضية ، تعلقت عيناه بالجرسون وهو يصب القهوة بينما تسربت منها نظرة عاينت بها وسامته وحمرة وجهه وقميصه السمنى . أن صرفا .. خرجت منه كلمات وقورة وهويسأل : يضايقك لو دخنت سيجارة . هزت رأسها نافية بأداء شيك . أشعل سيجارته وأطلق دخانا مرتعش تبخر مع الهواء القادم من البحر . هيئتهما وحركة العينين وشكل الجلسة وصياغة الكلمات كانت كلها تشير الى أنهما فى لقاء خارج الزمن ، الداخل فى تلك اللحظة للكافتيريا يتبادر لذهنه أنه أمام لقاء يجمع بين " شكرى سرحان ومريم فخر الدين " فى فيلم " رد قلبى " بدا وكأن المكان غريبا عنهما حين أكتشفا أنهما سقطا داخل حوش جامعة ، ثنائيات شبابية على كل مائدة من جيل اللامعقول ووكلاء البنطلونات الساقطة والتيشرتات الحمراء . خلع عن ذهنه خلفية المكان وتنصل من الوجوه المكشوفة والحركات التافهة وأستجمع ماتدرب عليه فى اليومين الماضيين : من يوم ماطلبت مقابلتك وأنا عمال أرتب الكلام اللى حأقوله لكن دلوقتى بس حأتكلم معاكى من غير قلق ولا تحفظ عشان أحنا أصلا مش غرب عن بعض .. دى جيرة طويلة عمرها سنين .

بعفوية وتماسك : مش جيرة وبس أنت كمان صاحب فضل على ولادى طول فترة غيابى .

ـ تصدقينى لو قلتلك أنك أنتى صاحبة أكبر فضل على أنا . أبتسمت وتناولت الفنجان بربكة فتاة صغيرة بينما سحب هو رشفة طويلة كمن يبحث عن لحظة شجاعة : بجد أنتى صاحبة فضل على وعشان أكون صريح معاكى أنا قبل زيارتى لكى فى البيت أنا وشريف كنت تقريبا زى المحبوس .. محبوس بمعنى الكلمة مابين الشغل والبيت والقراية بالليل قبل النوم .. بعد المرحومة سميحة ماعرفش أيه اللى حصلى .. فجأة لقيت حياتى بقت واقفة والأيام ماعدش لها طعم وبقيت عايش زى اللى بيأدى واجب ومافيش غير

التليفزيون اللى ربطنى بالدنيا من القناة دى للقناة دى وتقريبا مابتكلمش تلات أربع كلمات على بعض طول اليوم .. الوحدة صعبة جدا نادر فى أمريكا زى ما أنتى عارفة وشريف معظم اليوم بره البيت وأنا قاعد زى اللى بيقضى حكم محبوس بين أربع حيطان . أكتسى وجهها بحرج يتبعه أسى : بتقول محبوس .. أمال اللى كانوا محبوسين بجد يقولوا أيه ؟! .

أخيرا نجح فى فتح ثغرة فى جدار خجلها حين أنحصرت أعراض البداية وأنتهت مرحلة جس النبض . فبادر بنشاط : يقولوا الحمد لله وان اللى جاى حيبقى أحسن بشرط أننا نحط الماضى ورا ضهرنا ونبص على المستقبل حتى ولو كان فاضل فى العمر أيام وعن نفسى أنا قررت من يوم ماشفتك أنى مش حأفكر فى اللى فات أبدا وحيبقى كل تفكيرى فى اللى جاى .. لأنى بصراحة شايف قدامى خير كتيروحاجات أجمل مستنيانى . قال جملته الأخيرة وهو ينظر فى عينيها طويلا بينما لاذت هى بالصمت وقد أدركت أنها المعنية قبل أن تنفرج شفتاها بأبتسامة صبر وجملة رضا : أن شاء الله ربنا حيعوضك بخير كتير . أراد ترجمة كلامه بتوضيح أكثر : ممكن تسمحيلى أتكلم بصراحة أكتر . ردت بحرج لايخلو من حذر : أتفضل .

ـ أنا قلتلك من يوم ماسميحة أتوفت وحياتى كلها بقت فاضية وماسخة وده قدرى وأنا راضى بيه وماكنش عندى أمل أن ممكن تحصلى معجزة تغير الجدول الممل اللى أنا ماشى عليه .. لغاية ماشفتك . سكت لحظة ثم تابع وما أن بدأ كلماته حتى تأهبت حواسها لسماع أعترافاته .

ـ حسيت بحاجة غريبة محتار فيها لغاية دلوقتى ومش عارف ألاقى لها أسم ولا وصف لكن اللى متأكد منه أن ربنا سبحانه وتعالى رجعنى تانى للدنيا فى الوقت المناسب و كأنه بيفكرنى أنى لسه عايش وموجود زى البنى أدمين . أقترب بصدره من المنضدة يبحث فى خريطة وجهها عن أثر لكلماته . ضغطت شفتيها ثم عادت تتكسر الحروف على طرف لسانها : مش عارفة أرد أقول أيه . تلفتت بتوتر : بصراحة أنا خايفة وقلقانة و .. كان حاسما: من أيه ياهدى ؟ أحنا مش بنعمل حاجة غلط لاسمح الله وكمان أحنا مش صغيرين يعنىماينفعش أننا نخاف من أى حد وعن نفسى أنا فاهم كويس بأقول أيه وعارف أنا موجود هنا ليه ؟!.. كانت مشدودة ، ربما ، لأن كمية الزفير التى حملتها كلماته فضحت أنفعاله . عادت الأبتسامة إلى وجهها ، لكن كان لها رسم المرارة : أنت عارف كويس أنا أد أيه بأحترمك وبأقدرك وده السبب اللى خلانى آجى النهاردة . مبتسما : جيتى عشان بتحترمينى بس ؟! وقفا عند هذه العبارة الأخيرة دون أن يهربا من عناق العيون . هى تعلم فى داخلها ، أنها طيلة تسع سنوات منعزلة وبعيدة عن الحياة لايبلغها منها إلبانعكاساتها .. تجهل حتى عواطفها الحقيقية .

تغيرت نبرتها وسألت نفسها قبل أن تسأله : أنا مش قادرة أصدق اللى أنا بأعمله دلوقتى ؟ .

ـ وأيه اللى أنتى بتعمليه دلوقتى .

ـ قاعدة معاك ومش عارفة ليه ؟ .

ـ مستحيل تكونى مش عارفة . قبل أن تستوضح مايقصده ، كان خيرى يشرح لها : أنا فاهم ظروفك كويس جدا وعارف وضعك فى البيت وعارف أمورك ماشية ازاى مع ولادك .. أنا مقدر الحالة دى كويس بعد تجربتك الصعبة اللى عشتيها فى السجن . غطى وجهها حزن مفاجىء : فى حاجات كتيرة ياأستاذ خيرى أنت ماتعرفهاش .. أنا لغاية دلوقتى لسه حاسة بوحدة وبغربة فى بيتى تايهة ومش قادرة ألاقى نفسى مع ولادى .. كل دقيقة بتعدى بأحاول فيها أتقرب منهم وأعوض اللى فات بحاول أتكلم معاهم كتير وأبقى موجودة فى وسطيهم عشان يحسوا بوجودى ويعرفوا أن أمهم رجعت .. لأنى حاسة أنهم فقدوا الذاكرة ونسيونى .. وآهو الحمد للـه الأمور بدأت تتحسن ونجحت كتير مع يوسف وبسمة وبقت علاقتنا معقولة .. لكن . أنزلقت عيناها لأسفل تبحث عن صياغة تصلح لما ستقوله: مشكلتى الكبيرة اللى أنا واقعة فيها تصرفات نورا الجافة معايا بتعاملنى دايما على أنى واحدة غريبة أو متطفلة بتفرض نفسها عليهم أو ضيفة تقيلة حتأخد وقتها وتمشى .. مابقتش فاهمة هيه ليه بتعمل كده ولا عارفة حتى أيه اللى مطلوب منى عشان ترضى عنى .. تعبت أوى معاها ياأستاذ خيرى .. أحساس صعب لما تكون جوه بيتك وشايف أقرب الناس لك مش طايق وجودك .. واللـه السجن وأيامه السودة أهون ألف مرة من الأحساس ده . ظل جسدها يهتز مع دموعها الحبيسة وملامحها تئن مع كل كلمة كأنها تنزع أشياء أستقرت زمنا فى أحشاءها . لم ينس ماقرأه فى تلك النظرة الخاطفة ، لكنه لم يدعها تحول بينه وبين أستمرار التجاوب المتفاءل . فأجأها بأبتسامة قبل أن يتلو عليها تبريرا : كل اللى قلتيه عن تصرفات نورا معاكى هو تقريبا بالظبط نفس تصرفاتها مع شريف بس الدوافع مختلفة .. نورا بنتك كبرت أدام عينى يوم بيوم وسنة بسنة وعمرى ماحسيت أبدا أنها طفلة صغيرة أو مراهقة أولها تصرفات تافهة زى بنات كتير فى سنها كنت دايما بأشوفها عاقلة زيادة عن اللزوم وأكبر من سنها . دون قصد منها قاطعته بعفوية : وده سببه أيه ؟

ـ الظروف اللى بنتك عاشتها خلتها نضجت بسرعة .. حطى نفسك مكانها بنت صغيرة فجأة مالقيتش حواليها عيلة تحميها ولا فى حد واقف جنبها حتى عمتها اللى كان المفروض تتحمل المسئولية وتبقى كبيرة البيت .. للآسف أتخلت عنهم وغرقت فى عزلتها وعاشت فى مشاكلها وكل اللى قدرت عليه أنها رمت لهم كل أول شهر قرشين عشان تخلى مسئوليتها وتشترى دماغها . أنصتت له بشغف وهو يكشف

لها عن كواليس نشأة زعامة صنعتها الظروف وشكلتها وكان لأختفاءها القصرى دورا حاسما فى تكوين سلطة جديدة بأنياب صغيرة . تابعته بخوف أن يتحول عليها ويحملها المسئولية . فأختبرته : يعنى أنت عايز تقول أن أيات هى المسئولة عن التغيير اللى حصل لنورا . فهم السؤال بطريقته وأجابها كمحاضر بارع : لما بنتك لقت نفسها مسئولة عن البيت كله باللى فيه وخصوصا لما أخوتها أتلموا حواليها وحسوا بالأمان فى حضنها ساعتها بس حست بحجم المسئولية وقررت أنها تشيل الليلة لوحدها وده اللى حصل بالفعل لغاية ما بقت كيان كبير جوه البيت وقاست نجاحها بنجاح أخواتها فى الدراسة وكانت مستمتعة جدا بأنها بتدير البيت لوحدها وده اللى خلاها تحس بقيمتها خصوصا لما شافت نظرات الأعجاب من كل اللى حواليها وأنا كنت واحد منهم .. مشكلة نورا بأختصار أنها مش قادرة تفصل بين دور فرضته عليها الظروف وبين تمسكها الشديد بنفس الدور مع أن الظروف أتغيرت لدرجه أنها مش عايزة تتنازل عنه حتى لصاحبة الحق الأصيل اللى هو أنتى ياهدى وأعتبرت وجودك حيلغى دورها وحتحصدى كل اللى هيه زرعته . سكت ليلتقط أنفاسه ونظر إليها نظرة سريعة كانت كافية ليرى الأنفعال فى عينيها ، كانت مرتبكة أرتباكا أخذ فى التراجع كلما تغلغلت كلماته فى خلاياها ، أحست أنه يكبرها بعشرات السنوات نضجا وتمكنا. تأملها صامتا حين أستند بمرفقيه على مسندى كرسيه ورجع بظهره للوراء وكأنه أراد أن يأخذ لها لقطة بعيدة نسبيا لعله يقرأ فيها كل الأنطباعات من كل المسافات . فرض سطوته الكلامية ومنطقه الهادىء على كيانها كله فصار كل جزء فيها أذان تسمع قبل أن ينتقل بها بنعومة إالى عالمه الشخصى فحكى لها عن تفاصيل حياته المملة النمطية وعن عمله وأنتماءه السياسى وأجتماعه الأسبوعى بمقر جريدة أسكندرية قبل أن يستغرق فى أحوال أبنه شريف من خلال وجهة نظر عامة عن جيل الشباب . ربع ساعة كاملة من الكلام المتواصل سمحت له بألقاء الضوء على معظم جوانب حياته اليومية مختتما جولته بتصريح أخير : تقريبا هو ده يومى من ساعة ماأصحى لغاية ماأنام .. الجديد بقى هو أنتى ياهدى . كانت جملة صاحبة أيادى بيضاء على وجهها . لم تخف نظراتها وكأنها تطلب المزيد . فلبى متابعا : أنتى ظهرتى فى وقت غريب أوى كنت تقريبا حددت بقية أيامى حأقضيها أزاى وحتنتهى على أيه .. لكن سبحان مغير الأحوال دخلتى حياتى فجأة بكل بساطة وغيرتيها كلها .

ـ غيرتها لأيه ؟ كانت تتكلم وكأن صوتها تفتحت فى نبراته طاقات خفية .. غيرتيها من أيام مملة وبطيئة ومالهاش طعم لأيام حأفضل أشكر ربنا عليها طول ماأنا عايش مش حأقدر أوصفلك طعمها ولالونها ولا حأقدر أقولك هى أد أيه فرقت معايا . دون أن تدرى أختصرت أجابتها فى قسوة عاقلة ووضعته فى الحال أمام واقع لايفهم مشاعره : ياأستاذ خيرى أنا ظروفى حساسة وصعبة ان كان فى البيت ولا برة البيت

متهيألى أنت فاهم الكلام ده كويس وماتنساش أنى أم ولى ظروف مكعبلة وأنت كمان مش لازم تنسى أنك أب ووضعك زى وضعى برضه مكعبل . خرجت منه النظرة الواجمة : مكعبل ازاى يعنى .

ـ يعنى أنت تبقى أبو شريف وأنا أبقى أم نورا وأنت عارف أن الأتنين بيحبوا بعض والخوف أن الصورة توصلهم غلط وساعتها حيكون رد الفعل عليهم وعلينا مش كويس . قالت كلمتها الأخيرة وبدت مرتجفة ومنفعلة وساد صمت اللحظات العميقة التى تعقب كل أنفعال صادق .. كانت مرتبكة وكان توترها قويا بألحاح عينين عميقتين تتعرفان فى صراحة إليها . شعر بسخونة كلماتها . هز رأسه يوافقها على هواجسها : كلامك لحد كبير حقيقى ومنطقى بس مش لدرجة التشاؤم دى .. ياريت تشوفى الأمور بنظرة تانية .. نظرة متفاءلة وساعتها كل اللى قلتيه وخايفة منه حتلاقى قصاده ألف سبب يطمنك بس بشرط أن يبقى عندك قناعة أنك مابتعمليش حاجة غلط . تعامل كما ينبغى لرجل ناضج أن يتعامل فى ظل ظروف صعبة ومعقدة . كانت لنبرته الواثقة مساحة فى رأسها تحتفظ فيها بمشاهد قديمة لزمن زيارات خيرى وزوجته سميحة حين أستقبلتهما هى ونديم بعد زواجها بشهر .. رددت فى نفسها "سبحان اللـه فى حكمته " رحلا أثنان وبقيا مثلهما وكأنها أمامه فى مشهد قدرى يصعب تصديقه . لم يمهلها الوقت الكافى للأسترجاع والأندهاش حين أمتدت يده وأمسك بيدها وأطبق عليها دون مقدمات ولا تمهيد .. لم تسحب يدها تركتها نائمة فى يده ونظراتها الحائرة تتساءل عن تفسير لما يحدث داخلها . سرت بينهما تلك الرعشة غير المنظورة والتى تفتح الطريق إلى الرغبة ، هكذا يدرك تماما .. تهدج الأنفاس تشى بمثل هذه الأمور .. أضطراب الصدر بومضات متحشرجة تشى هى ـ أيضا ـ بمثل هذه الأمور .. الخدر الذى يصيب البدن بالوهن هو ـ أيضا ـ يشى بمثل هذه الأمور .. دعوة المرأة التى تنطق بها سكناتها ولفتاتها .. هى محرك كل تلك الأمور حينها توقف عن كل مايدركه فيها وتساءل : هل يجوز أن ينشطر الأنسان إلى نصفين ، نصف يرغب ونصف يتحفظ ؟ فاذا كلمة بين العينين ، ناطقة واضحة لا لبس فيها ولا مجال لظن وتأويل !.. انها ، هى الأخرى ، يجتاحها نفس الأحساس .

وسع الحوار البسيط الدافىء فأثرى المشهد ومنحه ألفة عبرت بهما الحواجز وألغت المسافات . بدا حالما وهو يجتر ذكريات الزمن الجميل ، أستوحاها كلها من أفلام الأبيض والأسود وهو يقيس ذلك الزمان بمدى نعومته وصدقه ، ولما لا وهو زمن الوضوح مابين الأبيض والأسود . فنادى فيها متحمسا : أنا لما بأشوف كل حاجة قديمة تخص زمن الخمسينات والستينات بأدعى ربنا أن يطلع علينا حد بأختراع يخلى الأنسان

ممكن يرجع ولو يوم واحد يعيش فى وسط الناس دى ويمشى فى شوارعهم ويأكل من أكلهم ويتكلم زيهم .. حتستغربى لوقلتلك أيه اللى بيعجبنى فى الزمن ده . أبتسمت : أيه ؟ .

ـ بحب أوى أتفرج على الرجالة والستات بتوع زمان .. تحسى كده أن الست كانت مليانة أنوثة فى لبسها وفى كلامها وفى حركتها .. كانوا أد أيه متحضرين ومحترمين حتى وهمه قاعدين فى حفلة بيسمعوا أغنية لأم كلثوم .. حتى الرجولة كان لها ميزان تانى فى الزمن الجميل أما دلوقتى فأحنا بعد السنين دى كلها وبعد التطور والتكنولوجيا بقينا متخلفين عنهم فى كل حاجة .. فى كلامنا وفى حركاتنا وفى عيشتنا وفى لبسنا لدرجة أنك ماتقدريش تفرقى فى الشكل بين شاب وبنت لو أنت ماشية وراهم كلها بقت بنطلونات وكله بيلبس من بعضه وبقت حاجة تأرف . غسلت وجهها بضحكة : واللـه أنازيك تمام دايما بأحلم بزمن سهل وبسيط مش معقد وتكون كل مشكلة ولها حل . تنهدت وأبتسمت : ومش معنى كلامى ده أنى رافضة الموجود دلوقتى ولا محنوقة منه بالعكس أنا شايفة حاجات حلوة لسه فيها ريحة الأيام الجميلة .

ـ زى أيه ؟ سكتت وكأنها تخجل من الأجابة ، إلا أنها نطقت حين أستحثتها نظراته المترقبة .

ـ زى صوت اليمام اللى بيغنى أول النهار مايطلع على الشجرة الكبيرة اللى قدام البيت .. هو نفس صوته بتاع زمان وكأنه بيتحدى الفوضى والمأسى ومافكرش يهرب وفضل ثابت فى مكانه وحافظ على أغنيته وما أتغيرش .. بيفكرنى بأيات ونعمة والخواجة كرم وعم نوح .. دول كمان مأأتغيروش فضلوا زى ماهمه وكأنهم صحاب الزمن الجميل ورث وبيحافظو عليه . تفحصها دون أن ينطق ، لمحت فيه دهشة وأستغراب وأشياء كثيرة لم تفهمها . فعاجلته بعد أن شعرت بأنها كشفت عن حالة شعورية تلازمها طويلا ولم تفصح عنها إلا فى تلك اللحظة : طبعا أنت أكيد بتقول على عبيطة ؟!.

ـ اللى عندها أحساس عالى كده لدرجة أن صوت اليمام بيرجعها للزمن الجميل مستحيل يتقال عليها أى حاجة لامدح ولا ذم .. كفاية بس أن الواحد يفضل يتأملها وهو ساكت ويدعى ربنا فى سره أنها تشوف فيه حاجة من الزمن الجميل عشان ترضى عنه !! .

ـ كتير أوى كده . قالتها وهى تدارى فرحتها .

ـ أكيد أنتى رومانسية .

ـ أنا .. نطقتها ساخرة . ثم قالت : الرومانسية ممكن تركب على أى حد اللى على اللى قاعدة قدامك دى .

ـ أشمعنى ؟ .

ـ عمرك سمعت عن واحدة عاشت مأساة لمدة تلاتشر سنة منهم تسع سنين فى السجن وخرجت رومانسية أو حتى طبيعية مش محطمة . أنصت لها وهو يسأل نفسه : أزاى محطمة وصوت يمامة بيأثر فيها . أستشفت حيرته : يا أستاذ خيرى أنا لسه عايشة فى حالة تقدر تسميها كده مرحلة النقاهة .

ـ طب خدى بالك المرحلة دى بالذات محتاجة حد جنبك تكونى مرتاحة له . كانت أبتسامة رائعة جعلته ينطق بعفوية : أنتى ما حصلتيش . تفتحت شفتيها عن ضحكة راضية بدلال يفصح عن أنوثتها . سكتا فجأة .. ربما يدور فى ذهنها مايدور فى ذهنه .. يقال أن هناك صلة خفية وخطوط أتصال غير مرئية تصل مابين وجدان الناس ..نظرت فى ساعتها ثم أرتبكت وهى تعلنه : أنا لازم أمشى عشان ألحق أرجع الأتيليه . أحترم رغبتها ثم نظرت أليه طويلا وهو يضع نقودا على المائدة ، راقبت حركته المتأنية وهاتف يدعوها أن تشده إليها من جديد ، لم تجبه وهو يسأل : حتمشى لوحدك ؟ قامت من مكانها وكمن تعلن أن هذا الذى يختلط سواد شعره بالبياض ، هو فتاها ، بدا لها أكثر الحاضرين شبابا وتألقا .

أفصحت له عن معلومة واجبة : مش حينفع نمشى مع بعض .. أنا حامشى الأول . فى مكانه لبث واقفا لتمر من أمامه قبل أن يهمس لها : بكرة الصبح حاستناكى عند باب الأتيليه عشان فى حاجة مهمة لازم تاخديها. رمشت بعينيها : حاحة أيه ؟ .

ـ بكرة تعرفى . أدلت رأسها بأبتسامة وأنصرفت . لم يتبعها .. تركها تغيب حتى تاهت فى الزحام .. جلس إلى كرسيه ويده المرتعدة تبحث فى جيوبه عن علبة السجاير التى فى يده الأخرى !!.

الفصل التاسع

فى طريق عودتها أستقلت تاكسيا كئيبا تحت قيادة سائق يحمل وجهه كل أعراض الشر : اللـه يخربيت أم دى عيشة سودة كل طلب أخده أتذل فيه ساعتين بسبب أم الزحمة دى .. حاجة تأرف .

جلست فى الخلف هادئة تحاشت التجاوب معه ، لازالت محاطة بأجواء اللقاء الذى يسرى أيقاعه فى رأسها بطيئا تسترجع كل مقاطعه بالصوت والصورة .. تبعثرت أبتسامتها فى وجهها حين مر بها مقطع خيرى وهو يدلى بأعترافه : أنتى الحاجة الجديدة اللى فى حياتى . لجمت أبتسامتها سريعا كى لايتهمها السائق

الذى يتابعها من المرأة بالجنون . مرت ساعة قضتها بين التقييم المنطقى وحالة التوهان التى تتخطفها بين كلماته ووسامته حتى تلقت خبر وصولها بنبرة غليظة على لسان السائق : حتنزلى أول شارع شامبليون ولا أخره . أفزعتها كلماته وتابعت الشارع عبر النافذة : حأنزل هنا .

تسلمتها زيزيت قبل أن تلتقط أنفاسها وهى على نفس الحال من الصمت والتوهان . لم يردها الى هذا الواقع سوى كلمات زيزيت الملهوفة التى قطعت عليها الطريق وقادتها للداخل : تعالى أحكيلى بالتفصيل أيه اللى حصل ؟ مشت معها حتى عتبة مكتبها كأنها تحت تأثير تنويم مغناطيسى : كان بيكلمنى عن نفسه وعن مشاكل الولاد . ثم سحبت نفسا بطيئا بينما زيزيت تقرأ أفكارها دوما حسب الصورة التى تراها .

ــ دى مش ملامح واحدة كانت بتتكلم عن مشاكل ولاد أبدا!! .

ــ مش فاهمة تقصدى أيه ؟ .

ــ أقصد أنى شايفة قدامى واحدة طايرة من على الأرض وغرقانة لشوشتها . جاهدت أن تحبس أبتسامتها : طب أدينى فرصة أطلع البيت أرتاح شوية وبعد كده حأقولك على كل حاجة .

ــ ماشى ياهدى . قالتها وهى تضحك . ثم مرت الأخيرة أمام عينيها بخفة راقصة باليه حتى بلغت الباب قبل أن تتوقف فجأة حين أستعادت وعيها وتلفتت : نورا سألت عنى ؟ .

ــ سألت . فزعت : وقلتى لها أيه ؟ .

ــ ماتقلقيش قلتلها أنكى رحتى للحاج سلامة تديله دفعة من حساب القماش . تحررت مخاوفها ثم عادت إلى عالمها .

دخلت شقتها .. ساعدها جو الهدوء أن تحتفظ بحالتها .. أحتضنت مشاعرها حتى باب غرفتها وأوصدته خلفها . عتمة الستارة تنشر صمتا فى الغرفة . أضاءت النور فظهر السكون من حولها فأحالها معبدا ترتاح فيه روحها . خلعت حذائها وألقت بحقيبتها فوق كرسى التسريحة ، جلست على حافة السرير مفسحة ساقيها قبل أن تدلى رأسها تسترجع كل مادار فى لقائها .. شعرت أنه أستولى على وعيها كاملا ، تنتابها حالة شجن تتكثف فى كل كلمة قالها . بينما عقلها يطوف داخله سؤال كبير : كيف سلبها الحماس للمقاومة ؟!.. خضعت بسهولة .. نفذ اليها وتسلل الى عالمها . مسحت الغرفة بعينيها قبل أن ترتد نظرتها حين قلبت كفيها .. تذكرت رغم عنها لمسة يده القوية ، تتبعت بخيالها رحلة أصابعها بين أصابعه التى

لاتزال تحمل بصماته كأنه وشم منحوت على جلدها . شعرت بوقع كلماته على بدنها المستسلم وتسربت إليها فتكشف أن قلبها المعلق فى صدرها يتلوى ويتشكل من جديد.

فى اليوم التالى . أنتهى خيرى من شرب الشاى واقفا .. يزرر قميصه ثم أطفأ سيجارته وفتح باب الشقة . هبط للسلالم مترددا .. كان مقلقلا فى مكانه أمام باب الأتيليه ، يتحين الفرصة لظهور هدى والأنفراد بها . عليه أن ينتظر . لم يفكر فى أمر هذا الأنتظار لكنه لابد أن ينتظر ، فان حبيبته التى عشقها ولمس دفء أصابعها بالأمس تستحق الأنتظار .

تدلت من يده علبة مستطيلة مرسوم عليها جهاز محمول عليه شعار " سامسونج " . عشر دقائق نخر فيها الأنتظار قد ميه راقب خلالها بحذر تحركات " رضا وفضيلة " ذهابا وأيابا فى القاعة كأنهما فى دورية حراسة إلى أن ظهرت زيزيت بحيويتها التى تسبقها ، تتبعها هدى بجمالها الآسر ومن وراءهما نورا تحتضن مجموعة أقمشة وهى تعلن : أنا عايزة توب من كل لون يامدام . ألتفتت إليها الأخيرة قبل أن تدخل مكتبها مبدية موافقة إلا أنها لمحت هذا الكيان المبتسم الواقف أمام المدخل ، أنحرفت ناحية هدى التى أنتبهت على أثر لكزة فى جنبها : شوفى مين اللى واقف عند الباب . ينظر إليها من خلف الزجاج ، أحمرت وجنتاها .. توترت وخفضت رأسها قليلا بينما هو لايكف عن التطلع إليها .. أبتسمت له دون أن تتحرك فأظهرت لها زيزيت نظرة تشجيع للخروج إليه . أقتربت نورا منهما تراقب المشهد قبل أن تستعيد هدى تماسكها على صوت أبنتها المتابعة للحظات البوح الصامت : هو عمو خيرى واقف ليه كده . لم تنتظر توضيحا وتحركت ناحية الباب تفتحه فتقدم منها خطوتين : صباح الخير ياعمو خيرى .

ـ صباح الخير يانورا .. أخبارك أيه .

ـ الحمد للـه . ثم رفع يده ملوحا لهدى من فوق رأس نورا التى تراجعت للوراء ناحية أمها تواجهها : عمو خيرى بيشاورلك ياماما .. عايزك . أضطربت وهمست كأنها تتوجس منها : أروح أشوف يمكن عايز يسألنى عن حاجة . إلا أنها ظلت متجمدة فى مكانها .. ثوان وتحركت رغم أهتزازها الواضح .. أجتازت مدخل الأتيليه فتقدم منها خطوة .. رمقته بأرتباك فنظر إليها طويلا .. يحاورها بعينيه . أكتسى وجهها بتعبير مرتبك .. بادر بنبرته الجذابة : أزيك ياهدى

ـ الحمد للـه كويسه . قالتها وهى تتلفت فى حرج ناحية زيزيت ونورا .

ـ أنا جايبلك حاجة معايا . نظرت للعلبة .. أتسعت حدقتا عينيها : حاجة أيه ؟.

ـ ده موبايل ومعاه خط تشغيله النهاردة عشان حأكلمك أول ماتخلصى شغل . أحست برجفة وبدا صوتها متقطعا : مش حأقدر .. قاطعها قبل أن تكمل أعتراضها : أرجوكى ياهدى أنا محتاج أتكلم معاكى كتير . صمتت مترددة ثم تناولت هديته بأصابع باردة وكل منهما يخطف من وجه الأخر نظرة مستشفة بينما الجو بينهما مشحون بكهرباء خفية .

حولت نورا بصرها نحوهما فاذا بها تواجه مشهدا حيا يعجز العقل عن التسليم بواقعيته . جاهدت تحبس دهشة كاد يفلتها لسانها ، التفتت لزيزيت : أيه اللى أخدته ماما من عمو خيرى ؟ ! تجاوزت سؤالها : مش حتدخلى تجهزى شغل النهاردة ؟ حيرة نورا أخذت قوة صوتها : أنا بأسأل عن اللى ماما أخدته ؟! بدا وكأنها تسمع أجابة زيزيت بلا أمل كبير حين ردت بملل وبصوت رخو وهى تدقق فيها بنظرة قصدت منها أن توحى لها بأنها فارغة المعانى : مش فاهمة أيه يانورا .. تلاقيه بيديها أى حاجة .

ـ أى حاجة يعنى أيه ؟ ! ضاقت بها : أيه حكايتك يانورا ده أنا بأقول عليكى لماحة !! رمت بكلماتها كى تفهم . ظلت نورا تتأملها مليأ ! .. خيل إليها وهى تتأملها أن فى نظرتها لوما على غباء لم يخطر لها .

كانت درجات السلم خلف خيرى بخطوة أو خطوتين فصعدهما متراجعا بينما ينظر بطرف عينه اليسرى إلى هدى وهى تدخل الأتيليه .

فور دخولها ، أقتحمتها نورا متساءلة : أيه اللى أنت أخدتيه من عمو خيرى ده ؟ همهمت وحولت نظراتها للآرض : ده موبايل ! قالتها وهى تحتفظ بعينيها منخفضتين . ولم ترد على ماقالته . فهى تدرك أن الأنطباع الأول تتوقف عليه بقية الأستجواب . راحت تفتش عن تبريرات بينما تابعت نورا : وعمو خيرى يجيبلك موبايل ليه ؟ حاولت هدى أن تتجاوز لغة العيون إلى الكلام . لكنها كانت تتراجع أمام صفع نظرات أبنتها المحملة بالشكوك فأضطرت لخلق موقف : الأستاذ خيرى قابلنى من كام يوم على السلم وعجبنى الموبايل بتاعه .. قبل أن تتابع روايتها قرأت فى عينى أبنتها أتهامات قاسية أدناها " طب ليه تقبلى منه الموبايل " .. تابعت : ولما سألته أنى محتاجة أشترى موبايل فعرض أنه حيجيبلى واحد وبعد كده حأحاسبه ! .

ـ برضه مش قادرة أفهم .. لما أنتى محتاجة موبايل ياماما كنتى قلتيلى . كانت نبرتها تأنيبية. أرادت أن تسمع أجابة شافية من أمها حتى لايصيبها خبل من كثرة الأسئلة التى تحتوى دهشة وحيرة ، بينما لم تفصح هدى عن نفسها إذ لم تكن لها القدرة على الظهور والسيطرة وأخذ زمام الموقف فى حين تولت

زيزيت مهمة الدفاع وصارت تحدث نفسها وتحدثها وهى تسحبها ناحية مكتبها بعيدا عن الأم الخائفة : أيه الأسئلة الخايبة دى يانورا ؟! .

ـ تقصدى أيه يعنى يامدام زيزيت .

ـ أنا ماقصدش حاجة يانورا بس عايزاكى تهدى شوية على مامتك !. أنصتت لمناشدتها وخطر لها هاجس سكنها لا تعلم له سببا محددا يتردد بقوة داخلها : أكيد فى حاجة غريبة أنا مش فهماها بين ماما وعمو خيرى !!.. تداعت مخيلتها تستعيد قراءات سابقة ذات صلة : عشان كده بأشوف عمو خيرى كتير عند باب الأتيليه .. آه . كانت كعادتها تختزن المشهد فتفرد له تفاصيل فى ذهنها ثم أتجهت ناحية حجرة التفصيل بحماسة ، تتوق إلى الأنفراد بنفسها لتدرس وتحلل مارأت ومافهمت . فتتعادل أمامها فرص الوصول مع أمها الى حل أو أزمة ، فهى لا تتبين أيا منهما حتى تحزم أمرها على الأختيار .

فى تلك اللحظة أقتربت زيزيت من صديقتها المرتبكة وأنتزعتها من هذا الأرتباك ورافقتها حتى المكتب تهدىء مخاوفها تجاه أى رد فعل محتمل من نورا التى ظلت طيلة النهار تفكر فى المشهد ومعانيه كأنما فتحت بابا فى رأسها للهواجس .

0000000000

بعد ماهدأت الحياة ظاهريا فى منزل "بدرية" وأستقرار حالتها الصحية بعد أن خفت أوجاعها ورحل الورم من تحت عينها مخلفا هالة زرقاء باهتة بفعل دهانات ومسكنات بترشيح من طبيب الطوارىء بـ " مستوصف المبرة " والذى تابع حالتها لمدة أسبوع حتى شارفت مرحلة الترميم على الأنتهاء فى حضور شبه يومى من " منصور" الذى تكفل بكل المصاريف تقربا منه لنيل مغفرة وعفو عن موقفه الباهت وقت " العلقة " فأظهر تعاطفا شديدا وخجلا مضاعفا خصوصا أمام " نوسة " التى واجهته فى البداية بمشاعر غضب مستعرة أزكاها أبتعاده عنها أسبوعا كاملا منزويا خلف خجله . غير أنه تمكن وبفهلوة بلدى بأحتواء هجومها المتصاعد شارحا موقفه بصراحة وباللغة التى تفهمها مبديا تحفظا على مقولتها : أنا مش شايفة قدامى غير واحد بيتلبش من أمه وبيترعب من خيالها وأنا يأبن الناس يلزمنى راجل يحمينى مش خـ .. !! تصدى لرأيها بما يحفظ له رجولته : أنتى شايفة الحكاية كلها من زاوية الجدعنه والرجولة أنا بقى شايفها من ناحية تانية . وصلت جملته منقوصة إلى حجر بدرية فترنحت فى جلستها على الكنبة : حتة أيه اللى أنت شايفها يامنصور وسايب أمك عمالة تجرى ورانا زى الرهوان

وكلها كام يوم ياأبن فايزة وحنبقى أنا والبت دى مرميين فى الشارع من غير متوى . قصدت من وراء كلامها زيارة أمه للحارة منذ يومين حين لمحتها من وراء الشيش تداهم الحارة كريح عاتية وسط كوكبة من البلطجية تتقدمهم كالغزاة تعاين واجهة البيت وهى تصعد بعينيها لأعلاه فظهرت ملامحها مخيفة لعينى بدرية المتابعة من فتحات الشيش ، فأرتعدت وأصاب قدميها تنميل وكأنها تتعرض لصدمة عصبية بعد أن سيطرت عليها " فوبيا فايزة " . لم تنتظم أنفاسها ولم تهدأ ضربات قلبها إلا بعد أن راقبتها وهى تنسحب من الحارة خافضة الرأس كثور هائج تنطح مايعترض طريقها . رحلت وبصحبتها الحاج " محمد " مقاول هدد الذى عاين الموقع فى أنتظار أشارة البدء التى أقتربت لحظتها بعد أن أوشك الأستاذ محمود المحامى على صياغة أتفاق مع سكان البيت وأصحاب المحلات بعد عدة جلسات منفردة عبروا فيها عن توجسهم حين أستهل محمود المحامى لقاءاته معهم بجمل الترغيب وعرض مبالغ الترضية قبل أن يذكرهم فى نهاية كل جلسة بعبارة تهديد ووعيد أستوحى مفرداتها من حديث موكلته : اللى عايز يتراضى ويتكل على اللـه بالذوق والأدب أنا تحت أمره أما اللى عايز يركب دماغه ويسوق فيها ويحط العقدة فى المنشار أحنا حنتكفل بيه وحنعمل معاه الصح ومايجيش بعد كده يعيط . أطلق وعيده وترك لهم أسبوعا لمراجعة المواقف على أن يكون اللقاء القادم فى مكتبه هو الأخير لأنهاء كافة الأجراءات . فى نفس اللحظة بدت بدرية عاجزة عن أستيعاب مايحدث حين شعرت بوجود مؤامرة تستهدفها بعد أن تم أقصاءها من أى مفاوضات ولم تتلق أى دعوة كباقى السكان مما دفع نوسة لاجراء أتصال سريع بـ "منصور " لتفهم منه مايدبر .. أثقل كلام بدرية كاهله حين زارهما لتهدأة مخاوفهما موضحا وجهة نظره : ده أنا بقول عليكى ياست بدرية دماغك كبيرة وخبرة .. فكرى معايا واحدة واحدة ، قالها وألتفت لنوسة التى أحكمت أناملها حول ذقنها : أحضرينا يانوسة .

ـ أدينى قاعدة متلقحة وسامعة .

ـ أمى عايزة تراضى السكان وتطلعهم من البيت عشان تهده وتجيب عاليه واطيه وده حقها وهى حرة فيه وناويه تطلع ببرج خمستاشر ستاشر دور وبرضه ده كلام حلو ومعقول وكمان مصلحة للكل .

أنتفضت بدرية وألتحقت حيرتها بكلماتها : مصلحة لمين يامنصور و المصلحة كلها حتبقى فى كرش أمك اللى مسلطة البلطجية على السكان ليل ونهار عشان يقبلو غصب عنهم بقرشين مايجيبوش أوضة فى حارة سد وهى تلهف البيت خالص مخلص زى التفاحة المقشرة . تأمل وجهيهما : كلامك كله صح من أوله لأخره وحأزود كمان فوقيهم كلمتين : البيت حيتهد والسكان حيمشوا بس أمى مش حتحط جنيه واحد

فى كرشها .. الخير كله اللى عندها وكمان اللى حييجى بعد كده حيتحط كله فى كرشى أنا وأبويا لوحدينا . تراكمت الدهشة فى عينى نوسة وأمها التى أنشقت شفتيها عن رغبة محمومه : يعنى أيه الكلام ده ؟ .

ـ يعنى الفلوس والقهوة والمخزن والبيتين كل دى أملاك أمى وبأسمها وهى حرة تتصرف فيها زى ماهى عايزة .. الكلام ده ممكن يحصل فى حالة وجودها ! قالها وخفض رأسه قليلا رافعا عينيه لأعلى فى لقطة شريرة وتابع بنبرة تصلح لكل الأحتمالات : أما لوماكنتش موجودة .. يعنى سافرت مثلا أو حتى رجعت السجن تانى حتبقى الغنيمة دى كلها بتاعتى أنا وأبويا حنقسمها سوا وكل واحد يأخد نصيبه . تصلبت ملامح بدرية قبل أن تهاجمها خيالات سوداء مصحوبة بذكرى ماحدث لها على يد فايزة : تانى يامنصور تخطيطات وحركات حلق حوش بتاعتك وتعملى فيها فريد شوقى وبعد كده تطلع حنجرة بس وأخرتها ألاقى نفسى أنا والبت اليتيمة دى اللى بنتاخد فى الرجلين .. لا ياعم كفاية اللى حصلنا وكتر خيرك لحد كده وروح أتصرف مع أمك بعيد عننا .

ـ هو أنا طلبت منك حاجة ياست بدرية ولا قلتلك ساعدينى .. المرة دى أنتى ونوسة بعاد خالص والموال كله من أوله لأخره أنا اللى مسئول عنه والعبد للـه اللى قدامك هو اللى حيشيل الليله كلها .

بينما لاح فى عينى نوسة أضطراب وفزع سقطا مدويان على لسانها : أسمعنى كويس يامنصور وحط الكلمتين دول حلقة فى ودانك أنا بحبك وشارياك وعندى أستعداد أتحمل معاك أد اللى أحنا فيه ده عشر مرات .. لكن كله إلا الدم ؟! تفقد منصور وجهها بنظرة ذاهلة : أيه الجنان اللى بتقوليه ده يابت دم أيه وزفت أيه على دماغك أنتى تفكيرك راح لفين .. ماتنسيش يانوسة أنى اللى بأكلمك عنها دى تبقى أمى عارفة يعنى أيه أمى .. يعنى الأم بتاعة الدين اللى هى أمك ثم أمك ثم أمك . بدل حدته بأخرى هادئة : اللى بأقصده وبأخطط له أن أمى تأخد لها كام سنة هدنة ترتاح شوية وتبعد عننا كأنها فى أعارة ولا فى أجازة مفتوحة لغاية مانشم نفسنا ونقف على رجلينا وتكون المسائل أتظبطت . رنة فرح بانت فى صوت بدرية : وإن شاء اللـه حتودى أمك أعارة فين .

ـ فى أي حتة تريحها وتريحنا . جملته الأخيرة كانت تحوم فى عقله بقوة حين تملكته الفكرة القاسية التى صبغت تفكيره حتى تجسدت داخله عملا قابلا للتنفيذ بعد أن شفيت أوجاع الضمير وصار السؤال داخله مهزوما : أزاى حتعمل كده يامنصور مع أمك ؟ أزاى قلبك حيطاوعك لما تأذيها .. ده أنت لو أبن حرام مش حتعمل كده . وقبل أن يخلف السؤال صداه باغتته ملامح أمه بصوتها الذى يجلجل فى أذنيه يحمل كالعادة فى طياته تلونا واستهجانا وتهديدا : أبقى بلغ حبيبة القلب لما تشوفها أنى حأهد البيت على دماغها ودماغ

العالمة أمها .. ورحمة أبويا يامنصور لأخليهم عشا لكلاب السكك وبكره تقول أمى قالت . صوتها يحمل له تشاؤما وينصب له فخا وأيقن أن مابداخلها بركانا من الغضب ولن تهدأ ثورته إلا بردم فوهته . حين أدرك منصور أن لا تراجع ولاتردد من تدخل جراحى .. أنها لحظة القرار الصعب حيث لا شاهد ولا مشهود فأندفع بأعصاب ثائرة وأطلق مقولة غضب فى لحظة يأس فى وجه أبوه : أنت خلاص يابا راحت عليك .. أنت لسه ماشى على أديمه وكل حاجه عندك براحة وبالبطيىء ونظام أصبر وأتقل شوية ماعدش يأكل فى الزمن ده. تمتم بقلة حيلة : السربعة اللى أنت فيها دى مش حتنفع يامنصور .. ماتودناش فى داهية أعمل معروف . دبدب بقدميه : هو فيه أكتر من كده داهية بقولك أمى خلاص شرخت وفتحت ع الرابع وأنا وأنت قاعدين زى جوز الطرابيش مش فاهمين حاجة فى أى حاجة وهيه حطت رجليها فى شغل المقاولات حتهد وتبنى وحتبقى من صحاب العمارات يعنى كلها سنة ولا أتنين وحتلعب بالملايين وحتبقى شوكتها أقوى من دلوقتى عشر مرات وبعدها حتتسلى علينا وحتفوقلنا وحتخلعنا أحنا الجوز من غير ما تسمى علينا .. أنا حترمينى فى الشارع من غير لا أبيض ولاأسود وحتقولى ساعتها بالهنا والشفا عليك نوسة وأمها وأنت بقى حتعملك لعبتها يابا وحتحطك فى البيت زى المقام لا تروح ولا تيجى وأن كان عاجبك . أحمرت عينه وواصل أنفعاله : وأياك تقولى ده كلام فارغ ولا مش حيحصل وأنا فاهم وأنت فاهم أن أمى ماعندهاش غالى . قالها وأقتحمه بنظراته متساءلا : تقدر تقولى أمى زارت المخزن كام مرة الشهر ده . أخفى قلقه وتمتم بصوت خفيض : بتاع ثلاث أربع مرات .

ـ هى دى البداية ودى الرسمة اللى هى بتكتك لها وأفتكر كويس كلامها اللى بتقوله كل يوم والتانى عن القهوة اللى مابتجيبش مصاريفها ومش شايفة من وراها حاجة . قبض على يد أبوه ينقل إليه توتره . متابعا : أمى بتحط السم فى وسط الكلام ولازم تفهم أنها مش حتستنى علينا كتير هى خلاص رسمت طريقها ومشت فيه وأحنا بالنسبة لها لاحول لنا ولاقوة وماعندهاش أى قلق من ناحيتنا أحنا فى نظرها زى خيبتها بالظبط . قابل كلمات أبنه بنظرات مهزومة وأعتراه ضعف سرح فى هيئته ، ولم ينتشله سوى مناشدة منصور : عشان خاطرى يابا أركن شويه أنت على جنب وسيبنى أنا أتصرف بدماغى .

ـ تتصرف أزاى يعنى .

ـ ماتقلقش حتبقى كل حاجة تحت عينك ماهو أنت برضه اللى نورتلى الطريق وكلامك هو اللى صحانى من غفلتى .. خلاص يابا أنا قررت ماتبقاش نهايتى زى نهايتك كده متلقح ليل ونهار على كرسى فى قهوة

عشان أخر الليل ألاقى تلاتين أربعين جنيه مايكملوش معايا يوم . أطلق عبده نفسا أهتز له شاربه وأزدحمت فى رأسه علامات الأستفهام وبات طموحه يتخطى حدود الممكن ويشرد فى متاهات المستحيل !.

فى اليوم التالى دخل منصور القهوة بخطوات حثيثة تركبه ملامح نشطة بالرغم من حالة الأرهاق البادية تحت العينين من طول السهر بعدما أحتشد بالفكرة ولم يعد ينام من ألحاحها وتأجج ذهنه كخلية نحل .. مر بين أناس على مقاعدهم مجمدين فى أستسلام تام ، يبدون كأنهم هنا منذ بدء الخليقة . سحب كرسيا وجلس صامتا يتشمم عاصفة الدخان المتصاعدة من فم أبوه الذى واجهه بعينين ضاقتا أستغرابا ! .

ـ أيه اللى جابك بدرى .. أمك عطتك الجرعة .بأقتضاب : خرجت من بدرى .. جه الوله النونو خدها ومشى ولا حتى قالت رايحة فين .

ـ حقها ياسيدى مش بقت سيدة أعمال .. مرى مالهاش كبير . قال وأعتدل ثم كرر تساؤله : برضه أيه اللى جابك بدرى ..

ـ عندى ميعاد .

ـ حتى أنت كمان بقيت مهم . تجاهله ومسح القهوة بنظرة قبل أن يهمس : مش قلتلك أمبارح أركن على جنب وسيبنى أنا أتصرف عشان ماعدش فى وقت . لعب بللاى الشيشة بين أنامله كأنه يغازل لمجهول : ماتنورنى يامنصور ناوى على أيه ؟ .

ـ أنا مواعد الوله سليم دلوقتى حأشوره فى الموال بتاعنا . أحتج بعفوية : سليم الشمام . قالها وأغلق عينيه وهز رأسه غير مصدق : أنت جرى فى دماغك حاجة ياوله .. أنت عايز تودينا فى داهية . لملم منصور أفكاره وعرض حيثياته : الشمام ده يابا لما بيشغل دماغه بيجيب نتيجة صح دى أول حاجة والتانية سليم صاحبى وبيحب لى المصلحة عشان هو هارش أنه حينوبه من الحب جانب واللى يهمنا أنا وأنت أزاى نخلص من الليلة دى وبسرعة والوله سليم شهادة حق تتقال هو دايس فى مشوار الصياعة من زمان وعارف أزاى يخلصنا من الليلة دى من غير مايبقى لنا يد فى أى حاجة ده غير أن مصاريفه على أد أيدينا يعنى مش حتجرحنا ولا حتكلفنا وكمان سليم مافيش من وراه أى قلق وحيبقى تحت عنينا . أنهى كلامه وتوقع رفضا قاطعا وتأنيبا عنيفا . لكنه وجد مرونة وشعر به يقلب ماسمعه حتى أستقرت ملامحه على سخرية ظاهرة قبل أن يعاود منصور: قولى أيه رأيك فى كلامى ؟ يبدو كقلعة على وشك التسليم إلا أنه رأى فى أبنه عملا ناقصا يحتاج أتماما : مش عارف أقولك أيه .. بس لو أنت مالى أيدك من الوله ده يبقى

خلاص ع البركة المهم جس نبضه الأول قبل ماتكشف ورقك وأتقل وماتجيبش اللى فى بطنك إلا لما تعرف هو حيعمل أيه وحيتصرف أزاى وخلى بالك يابنى ليشترى منك ببلاش ويروح من وراك يبيعك بفلوس .

ـ ماتقلقش أنا عارف حأجيبه سكة أزاى . رأى فى كلامه تطورا لأفكاره القديمة وأستشعر فيه جرأة وأصرار فأبدى موافقة بهزة رأس صامتة .

ظهر " سليم " متخطيا عتبة المقهى بمشية مترنحة وملامح عكرة .. أخترق الممر الأمن بين الموائد باحثا بنظراته الضائعة عن مكان منصور الذى لمحه فقام من كرسيه : الوله سليم وصل .. حأقوم أشوف الدنيا حتمشى أزاى . نبرة حذرة تحرسها نصيحة أخيرة على لسان عبده : خد بالك يامنصور الوله ده خفيف خلى كلامك معاه بحساب .

ـ ماتقلقش أنا عامل حسابى . قالها وأهداه نظرة ثقة ثم أنصرف وتركه يصارع ذلك الكم الهائل من المخاوف والقلق ثم قام من مكانه وأحتل كرسيا بموقع متقدم يصلح للمراقبة .

وسع منصور خطوته وقابل سليم قرب النصبة وأستوقفه : تعالى نقعد جنب الشباك . تبعه فى صمت بشخصه الصعلوك المختال . جلسا صامتين وأخرج سليم علبه سجاير " كليوباترا" بدت فى يده مهدمة إلا من سيجارتين كأنه أنتشلها من تحت الأنقاض . علق واحدة على شفتيه وناول الأخرى لمنصور الذى تسلمها ساهما يتملى فى ذلك الوجه الهزيل الذى تغشاه صفرة فأستجمع نفسه حين هبط عليه إلهام البداية: تشرب أيه ياسليم ، تلفت ناحية جمعة المرابض خلف النصبة قبل أن يعود بعينيه : الصحيان بدرى يلزمه واحد قهوة دبل .

ـ بدرى أيه اللــه يخر بيت أمك ده أحنا داخلين ع العصر .

ـ الخلاصة مصلحة أيه اللى أنت عايزنى فيها . وسع عينيه وأستدعى جدية مطلوبة : أعدلى وشك عندى وفوق لى كده وسلك ودانك . أستجاب ببطء : باين عليها مصلحة كبيرة أوى . بدأ منصور كلامه حذرا ومغلفا : لو فى حد ياسليم مضايقنى وواقف فى طريقى وقاطع عنى نعمة ربنا وقافل فى وشى كل الببان وأنا من جوايه مش طايقه وعايز أخفيه من قدامى .. نورنى بقى ياأبو المفهومية أعمل أيه ؟! مر بأصابعه تحت أنفه كعادته قبل أن تظهر أسنانه الصفراء بفعل ضحكة سمجة : ماتعملش حاجة .. تقوله بخ !! مشى منصور بكفه ماسحا شعره من المقدمة حتى المؤخرة يحبس غيظه : حلوة ولطيفة . ثم أشار بيده لجمعه :

هات يابنى واحد قهوة دبل عشان الخفيف يتقل .. أعدلى دماغك ياسليم أنا اللى عايزه منك تشيل من سكتى اللى واقف قدامى ومانع عنى رحمة ربنا .

ـ سهلة ياصاحبى .

ـ عارف أنك جدع وأدها المهم أبقى أنا بعيد وبره الصورة وماليش دعوة بأى حاجة .

ـ ولا تشغل بالك . قالها واثقا بدا وأن نفحة من طيب ثورة يناير قد بلغته فتمتع بكل الجرأة التى لاحدود ولاسقف لها . أردف : مش عايزك تقلق خالص ولاتعمل حساب لأى حاجة وأنت أدرى منى وشايف بعينيك كله بقى سهل والدنيا بقت سايبة ومافيش حد بيحاسب حد وكل واحد بشوقه يعمل اللى على مزاجه . كلماته حركت فى نفس منصور نوازع كامنة : واللـه كلامك أخر صح . هذه المرة فهم المعنى وأطمأن ثم سحبه من يده المرتخية على الطاولة فمال معه سليم بصدره : قربلى وأسمعنى . أودع منصور فى أذنه همسات لم تلبث أن تكشف عن أضطراب ملامحه : مش فاهم يامنصور . كرر الأخير وهو يجاهد غضبته . أن تتوضح فى وجهه وفى صوته : كلامى واضح ياحمار وع المكشوف عايزك تشوفلى تصريفه مع أمى وماتشغلش بالك بأى مصاريف . كان يطعنه بعينيه ، يحك ذقنه بطرف أبهامه ونظرة كافية ليدرك منصور فداحة طلبه . رجع بظهره للوراء مشبكا يديه مبديا دهشة بدت صريحة على عينه اليمنى التى تحمل تحتها ورما من طول السهر . بينما فى تلك اللحظة كان عبده كامنا فى مكانه ، عقله قد توقف عن التفكيرمنذ لحظة أنفراد أبنه بسليم بينما عينيه تعملان بأجتهاد حين صرف عبده عفريت القلق وحل مكانه مارد التوتر وهو يتابع جلستهما ، كأن يراقب انعكاسات الحوار على ملامح أبنه فى حين وجد صعوبة فى قراءة أى عنوان على وجه سليم الذى لا يملك أصلا سوى ملامح مشتتة بفعل المكيفات .. رفع سليم جفنيه بصعوبة : مش واخد بالى .. قول كمان !.. أعاد منصور ماسبق : بأقولك اللى عايز أزيحها من سكتى هى أمى . لم يستوعب الكلمة الأخيرة لكنه أفاق من ذهوله وأسترد لسانه قدرته على النطق عندما أستقرت ثلاث ورقات من فئة المائة جنيه فى راحة يمناه وهو يتلقى تنويها : دول حاجة ع الخفيف كده عشان تركز معايا وبعدها حتأخد منى بالعبيط بس قرينى الأول حتبدأ أزاى وحتعمل أيه عشان أنا عايز أخلص بسرعة . كان ذلك أخر مايتوقعه سليم .. ظل يرمقه بعينيه الغائمتين قبل أن يجيب برأسه : ماشى يأبو حجاج .

ـ طب ماتنورنى حتدير الأمر أزاى . هرش جبينه التى تقطعها ضربة سنجة قبل أن يتوه بعينيه فى وجوه الجالسين محاولا أيجاد أجابة ترضى منصور : أنت عايز أمك تختفى خالص وانهيلك الليلة بشادر وعزا ولاعايزها معززة مكرمة على سريرها مشلولة ولاضريرة .

أستنكر كلماته ورد بنرفذة : عزا أيه ومشلولة أيه دى أمى ياأبن الحرام أنا اللى عايزه حاجة كده على الأد .. رحلة صغيرة مسافة كام سنة بس .

ـ آه أنت عايزها ترجع زنزانتها .. وماله يامنصور زى ماأنت عايز ولاتزعل نفسك أطلب لى شيشه بقى .

لم ينتشل عبده من متابعة نهاية المشهد إلا عندما أنقطع حبله البصرى الموصول حتى طاولة أبنه حين حضر " تشكك " وصنع حاجزا بجسده أمام عبده : مساء الفل يامعلم عبده .. مالك قاعد سرحان ليه ؟! مال برأسه متجنبا وقفته : مش سرحان ولاحاجة .. تعالى أقعد هنا جنبى بدل مأنت واقف فى خلقتى كده . مر أمامه ببطء وجر كرسيا قبل أن يشير لجمعة : واحد شاى هنا يابنى عند المعلم عبده . رماه الأخير بنظرة تأفف سريعة ولم يعقب سوى بنفخة قابلها تشكك بأبتسامة باردة : يدوم يامعلم عبده. ثم مارس هوايته وأستعرض نشرة أخباره التى لا يعلم أحد مصدرها : بيقولك القمح اللى موجود فى الصوامع يادوب يكفى شهرين وبعدها مش حنلاقى اللقمة الحاف ده غير كمان الرز والزيت بيقولك أخرهم شهر . . يعنى بالصلا عالنبى كده الأيام اللى جاية حتبقى كلها سواد فى سواد . بدت كلماته كألة تعذيب تسوط رأس عبده وتشوش تركيزه فتلوى فى جلسته : ياعم أسكت شوية أعمل معروف .

ـ يعنى أنا غلطان اللى بأفهمك الدنيا رايحة على فين .. الكلام اللى أنا بأقوله ده زى الدهب بيتوزن بالجرام . كان ذلك كافيا لأستنفاذ صبر عبده : ياعم أنا مش عايز أفهم دماغى مصدعة وخربانة . صمت بعدها تشكك حتى تسلم من جمعة كوب الشاى فأنشغل به فى حين لازال عبده منشغلا بمتابعة عمود الدخان المنبعث من فتحتى أنف سليم الذى كان يحاول جاهدا العثور على أجابة شافية ترضى طموح منصور الذى تبادل معه حديثا هامسا كتبادل المنشورات فى زمن الأحتلال بينما تمر الكلمات بينهما فى توتر فأستدعت الحالة من سليم تعديل وضعية الفحم قبل أن يسحب نفسا طويلا ممتدا و أطلقه فى وجه منصور كقنبلة غاز : سيبنى تلات أربع أيام وأنا حأخلصك من المشوار ده كله من طقطق لسلامو عليكو بس أنت تقل جيبك عشان الحكاية دى مصاريفها كتير وكل مايتصرف عليها صح حتخلص صح .

أستغرقت جلستهما قرابة تسع سجاير أحتل دخانها رئتى منصور ونفوق حجرين معسل فى صدر سليم الذى رمش بعينيه داخل ساعته قبل أن يعلن عن رحيله تاركا جملته الأخيرة تدور فى رأس منصور : ماتشغلش بالك ياصحبى بعون اللـه ومن غير مقاطعة أمك حتعتكف فى السجن أقله خمس سنين وبعدها تخرج منه ماتسمعلهاش صوت ده غير مكافأة السجن اللى حتاخدها وهى طالعة شوية سكر على ضغط

على ألتهاب مفاصل وبسلامتك تروح تستلمها متسندة ويكون فى أيدك بالصلا ع النبى حمادة الصغير اللى حيقولها كفارة يانانا !! .

0000000000000

حين مشت " هدى " مع التيار الهادر الذى يقوده خيرى ، أذهلتها كلماته وسلبت ماتبقى لها من مقاومة ، لقد غير خيرى من أعماقها الكثير ، بدد خوفها وحررها من صمتها . لم تكن مغامرة لكنها الرغبة الأكيدة فى تغيير واقع تعيشه فى جفاء ، كى تدخل عالما جديدا لتغير من شروط الحياة .. لم تمر أيام على لقائهما الأول حتى تحول أقترابهما إلى لزمة من لزوم وجودهما معا ، . حكت له الكثير عن همومها . كان يجد لذة فى المشاركة ، لم تنقطع أتصالاتهما فى ساعات النهار ولافى سكون الليل . أصبح أكثر أهتماما بتفاصيل حياتها وخصوصا علاقتها المتوترة بنورا . أحست بكل هذا الحب تجاه خيرى وأنها تورطت ، فلم تعد تجدى صورة " نديم " وهو يسقط تحت ضربات المرض ولا طيف ذكريات حبها القديم . ليس هناك من يوقف زحف روحها اليه فأستقبلت كلماته مطروحة على ظهرها تنصت له وهى تفتش عن سبب واحد جعلها جزءا من عالمه وهو يحكى لها عن صعود نجمه داخل الحركة السياسية فى حين كانت نورا حاضرة يوميا وبوفرة فى مكالمتهما كما حكت له بشغف عن نجاحاتها المتوالية فى الأتيليه ودورها المتنامى فى تسيير إدارته بايعاز من زيزيت التى تحفظ لها الفضل فى تلك النقلة المفصلية وهى تنوه بسخط مجترة عذابات تحفظها فى الذاكرة عن سنوات صعبة وظلم فادح ، أنصت لها وشاركها مرارة الذكرى إلا أنه بدا واثقا فى علاج أثار الماضى مستخدما كعادته أسلوبه السهل الحالم فجعلها تعيش الصورة قبل الصوت .. هكذا تبدأ مكالمتهما أشبه بمذكرات يومية لابد من تدوينها هاتفيا قبل أن ينهيها هو دائما بجملة رومانسية صريحةلامكان فيها للكلمات الغامضة أو العبارات المبهمه متعمدا أن يرفعها من قاموس حواره .. لم يعد الأمر بينهما مخفيا وراء مصطلحات غائمة ، فراح يطرح أفكارا غير مكتملة تاركا لها الحرية فى وضع نهايتها حسب مايتوافق مع مشاعرها . فصارت مكالمتهما الليلية - دون قصد منه - كجرعة دواء تبقيه حيا ليوم قادم . نجح بجدارة فى خطف ثلاث مواعيد فى غضون أسبوع واحد كانت كافية لتطهيرنفسيتها من الأرتباك والخجل وتحررت نسبيا من ماضيها العصيب وصارت هى شغله الشاغل .

بالأمس كان لقاءهما الرابع بعد ألحاح شديد أثار دهشتها فقبلت رغم تخوفاتها من نورا أن تلحظ شيئا . أستقل خيرى سيارته الـ " هيونداى " الزرقاء موديل 2010 . كان قد عقد العزم على مصارحتها بضرورة أرتباطهما بعدما منع نفسه من عرض الأمر عليها هاتفيا كى يضيق عليها حصاره ويضعف حجتها وينتزع

منها موافقة . لم يكن متسرعا فقد أدار الأمر فى رأسه عدة مرات ومن كل الوجوه قبل أن يطوقه أحساس من يدرك أنه على وشك ضياع مرحلة أخيرة من حياته ، فتصاعد داخله صوت محرض لازمه بعد كل مكالمة : مش فاضل فى العمر كتير ومافيش معنى للتردد .. أنا بحبها ومش قادر أعيش من غيرها . حشد للفكرة . ردد بتعقل : الخطوة دى محتاجه جرأة وشجاعة . أحتار فى الطريقة التى يفاتحها ليعرض ماعزم عليه ، حاول أن يتخيل موقفها وسط لحظات قلقه المتواترة : هل تقبل مايعرض عليها أم ستفضل الرفض أو التأجيل ؟ كان يرى توزعها بين رغبتها نحوه وخوفها من أولادها وخاصة نورا . إلا أن مابينهما كان غامضا ومثيرا فكلما حاول فك رموز نفسه أمامها كانت ظروفها تمنع ذلك مما يطيل لحظات الأنتظار والترقب فى حين كان لهدى من النباهة مايعينها على حسن التقدير ، فشاءت حكمتها أن تؤجل تسمية علاقتها به مالم يتدخل عنصر رغم أرادتها . فظل خيرى يتحين الفرصة محبوسا فى فكرته حتى قرر أعلانها اليوم . لم يعد الأنتظار حلا ، فأستنفر شجاعته وقرر القيام بخطوة أستباقية حين ضغط السؤال المشرع فوق رقبته مثل نصل حاد : كيف سيتدبر أمره مع أبنه ويفاتحه ؟! . لم يأخذ وقتا طويلا للتفكير . راح يجمع شتات كلماته حين أستوقف أبنه قبل خروجه : لو مش مستعجل ياشريف أنا عايز أتكلم معاك شويه . وضع يده على كتفه وتمشيا سويا حتى المدفأة قبل أن يبادره أبنه بضحكة وتعليق : أنت ناوى تجندنى فى الحركة بتاعة عم برسوم . تلقى تعليقه بأبتسامة مصطنعة قبل أن يجلس : تعالى أقعد قدامى وبطل تريقة . جلسا متقابلين ولم تفارق عيناه وجه أبنه الذى أستغرب نظراته : أيه الحكاية .. خير يابابا . تردد ثم هم بالكلام : بقالنا كتير ماقعدناش مع بعض .

ـ أنت الصبح بتبقى فى الشغل وأنا نايم ولما حضرتك بترجع يادوب بناكل لقمة ع الواقف وبأروح شغلى ولما بأرجع بالليل بألاقيك فى سابع نومه . ألتقط خيرى الخيط ووجد فى كلامه بداية تصلح : واللـه عندك حق يابنى .. عشان كده أنا زهقت ومليت من قعدتى لوحدى طول اليوم من ساعة مابرجع من الشغل لغاية تانى يوم الصبح . بحث فى عينى أبوه فوجد نظرة حذرة : الكلام ده معناه أيه يابابا ؟! نقلته تلك الجملة فى عمق الأرتباك : معناه .. سكت . كان يبحث عن كلمات ذات وقع وتأثير إلا أنه أصدر نبرة مخنوقة : معناه أنى عايش فى زهق وملل ووحدة والليل بقى شبه النهار وكله محصل بعضه . ظهرت أبتسامة فى عينى شريف وفراسة فى غير موضعها : فهمتك يابابا شكلك كده عايز تسافر أمريكا عند نادر وقلقان تسيبنى لوحدى . أغمض عينيه مبتسما : أمريكة أيه يابنى .. أنت دماغك راحت بعيد أوى . مال برأسه للأمام وقرب عينيه يتأمله : طب فهمنى ؟ .

ـ أنا محتاج يابنى حد يقعد معايا .. حد يكلمنى وأكلمه .. حد يشاركنى فى لقمتى و لو تعبت ألاقيه جنبى ، أنا دلوقتى بكبر مش بصغر .

ـ هى أيه الحكاية بالظبط ؟ سأل شريف نفسه وهو ينظر للأمام متخطيا موقع أبوه الذى تابع : أنا بأفكر أتجوز ياشريف . بهت الأخيروكأن الدماء أنسحبت كلها فجأه من جسمه فأرتخت ملامحه .. صاحبته تلك الحالة لدقيقة كاملة قبل أن يطرح سؤالا سيبنى عليه رأيا فيما بعد : يعنى حضرتك بتفكر ولا خلاص قررت . تبخر الحذر والأرتباك : قررت ياشريف . قالها وأختلس نظرة فى وجهه عاين بها أثر جملته، فوجده مغيبا شاردا . ساد بينهما صمت .. أدلى شريف برأسه للآرض كردة فعل عفوية بينما تفهم خيرى وجومه وملامح الصدمة التى غزت وجهه .. أنتظر خيرى منه تصريحا أو تعقيبا ، بينما حبس شريف أندهاشه وأشاح بوجهه ناحية صورة أمه فى إطارها العتيق و صوت والده يتعقبه: أنا مقدر شعورك وعارف أن كلامى ده مش سهل عليك . لم يعقب أو ربما لم يسمع فهو الآن يعيد أحداثا أختزنها بكل تفاصيلها ، فأخذته طائفة من المشاهد القديمة فى سرعة البرق ، حاول أن يستوقف بعضها . فها هى أمه تتمدد على فراش مرضها فى أيامها الأخيرة فاردة ساقيها تتململ : أنا خلاص ياولاد اللى فاضلى مش كتير .. بس واللـه أنا حابقى ماشية مرتاحة ومطمنة عليكوعشان معاكم أب عمركم ماحتلاقوا زيه فى أخلاصه وخوفه عليكم وأنا متأكدة أنه حيكمل معاكم الرسالة لغاية الأخر .

أنتظر لحظات قبل أن يصرح : حضرتك فكرت كويس فى الموضوع ده . أنشقت شفتيه عن أبتسامة : فكرت كتير وأقتنعت ولما حتعرف مين هيه الخنقة اللى أنا شايفها فى وشك دى حتروح فورا . أنتابه فضول لمعرفة ماتحمله الجملة القادمة لكنه أيقن أن بالأمر مفاجأة . حبس أنفاسه . فأسرع خيرى لأختصار الموقف : هدى .. اللى عن قريب حتبقى حماتك !! فلما سمع الأسم يجرى على لسان أبوه أصابته هزة تسللت إلى كيانه ، وليس يدرى آهو حلم أو حقيقة أم هما معا يصاحبانه وهو يتابع كلمات أبوه : عارف أنها مفاجأة كبيرة بالنسبة لك .. بس مش بأيدى ده قدر مكتوب وماليش يد فيه . شاع فى وجهه كومة من الذهول دفعته إلى أستغراب يحرك تساؤلا حول العلاقة بين أبوه وهدى : أزاى وفين وأمتى حصل كل ده يابابا . أبتسم خجلا ؟ هل تلخص هذه البشاشة الظاهرة مايريد أن يفهمه شريف ؟! .

ـ يعنى .. وده سؤال برضه يتسأل حصل زى ماحصل . ردد عبارته الأخيرة تتخللها ضحكة متصلة . فى حين أحتقن وجه أبنه وسكنه التوتر وتولته الدهشة وأيقن الأن أن أبوه مقبل على حياة أخرى وباغته شعور مفاجيء لم يعرف مصدره : هل هو من قلبه أم عقله حين شعر فى تلك اللحظة باليتم !! .

كان ينتظرها بسيارته بجوار سور مكتبة الأسكندرية قبل أن يضطر للأنتقال إلى الرصيف المقابل حين أشار له أمن المكتبة بالأنصراف لدواعى أمنية . مكث متربصا بالطريق لعشر دقائق داخل سيارته برفقة صوت " فيروز" إلى أن لاحت له بخطوتها المرتبكة تحاذى سور المكتبة . . أستعمل موبايله لتوجيهها فتلقت رنته بفزع : أنا راكن على الرصيف التانى . رفعت وجهها كأنها تتشمم موقعه كأنثى غزال فى موسم التزاوج .. ضاقت عينيها حتى تبينته . أخرج لها يده ملوحا .. تأهبت لعبور الشارع وتصدت بطراوة جسدها لغارة هوائية أتية من البحر كشفت عن مقاييس نموذجية تجعلها بأمتياز فى صدارة أحلام أى رجل ، مشيتها اللينة تشى بمفاتن تعمل جاهدة على أحتوائها .. أسرعت بخطوتها تقتحم طابور سيارات يمر ببطء وسط نظرات تطاردها من داخل السيارات ، تتحرك عيون الشهوة صعودا و نزولا مع أنتفاضة صدرها المنتظمة ، شعرت بأنها هدفا لكل العيون قبل أن تفلت بجسدها وتجتاز الحارة الأولى تاركة مؤخرتها المرتجة داخل الجيب الأسود نهبا لنظرات ثاقبة من الخلف : ربنا يباركلك فيهم . وسعت خطوتها حين أقتربت من باب السيارة تلوذ بها كمن يهرب من ملاحقة . تنفست الصعداء فور دخولها : يعنى مالقتش غير الحتة دى تستنانى فيها . قطع خيرى أضطرابها وأنتشلها من توترها : أنتى بتاكلى أيه بالظبط كل يوم بتزيدى جمال عن اللى قبله . أشاحت بوجهها مبتسمة قبل أن ترد خصلة شعر ألتصقت بحاجبها : بطل وطلعنا من هنا . نظرة غير بريئه طالتها من عينيه قبل أن يحرر " الفتيس" : حنروح نادى التطبقيين اللى ع البحر مكان هادى حيعجبك . خافضة الرأس : ماشى . أنتبه للطريق وأنطلق بينما تعمدت هى الأنكماش فى جلستها تجنبا لحصول مصادقة صاعقة تكون مصدرا لمشكلة عويصة . خفض صوت " فيروز" التى ترثى "شادى" : قلتى لنورا أنت رايحة فين ؟ .

ـ زى كل مرة زيزيت عملت الواجب . أبتسم للطريق : بصراحة زيزيت دى ست مالهاش حل .

ـ ربنا عوضنى بيها لو تعرف أد أيه هى فرقت معايا .. ده لولاها كان زمان الأيام كلها كئيبة . رمقها بنظرة سريعة عاين بها جلستها المنكمشة : مالك قاعدة محشورة كده ليه ؟ .

ـ بصراحة أنا خايفة .. يوسف وبسمة مش فى البيت يعنى ممكن أوى حد فيهم يشوفنى وساعتها حيبقى شكلى أيه ؟! .

ـ ماتقلقيش ياهدى وتوترى نفسك وبعدين يوسف وبسمة مافيش من ناحيتهم قلق خالص أنتى مشكلتك كلها مع نورا . فتح تابلوه السيارة وسحب علبة سجائره تناول منها واحدة وأشعلها . راقبته : عندك حق

مشكلتى كلها مع نورا . قالتها بمرارة ، فالعلاقة بينهما على كف عفريت .. معلقة ومتوقفة تقريبا لكنها تمضى فى سكون وبلا مشاكل ولاتزال هدى غير مدركة حتى الآن لسر تغيرها .

أنتظرت لثوان قبل أن تضيف خبرا صادما : الحاجة الغريبة اليومين دول أنها مش عاجبها لبسى ولا شكلى . أستقبل جملتها بتجهم : شكلك ولبسك .. أزاى يعنى ؟ أنحرف يسارا قبل أن يختم أستفساره مهدئا سرعته مفسحا الطريق لميكروباص قادما خلفه كالصاروخ : بتقولى مافيش حد دلوقتى معرى شعره ولابيلبس فساتين أو جيبات كله بقى محجب ماعدا المسيحيين والممثلات . رفع حاجبيه حين توصل لرد : يعنى عايزاكى تتحجبى . هزت رأسها بالأيجاب .. لم يلمحها فتابع : دى حرية شخصية .. وأنتى حرة فى اللى تلبسيه ومن باب أولى كانت بدأت بنفسها .

ـ بصراحة أنا مش عارفة هى عايزة أيه بالظبط . لمحت فى جانب وجهه أصرارا حين قاطعها : أنا عارف هى عايزة أيه .. بنتك عايزةتحجمك و تلغى شخصيتك ويبقى لا عندك كلمة ولا رأى ، نورا بتعاقبك عشان أشتغلتى فى الأتيليه وبدأتى تثبتى وجودك وطبعا هيه مش عارفة تطفشك منه قالت فيه نفسها مابدهاش حأشتغلها فى الأزرق وأنتى قلتيلى بعضمة لسانك أزاى بتعاملك من يوم ماشفتنى وأنا بأديك الموبايل . تأخرت فى التعقيب حين شعرت بنفسها محاصرة وسط صفين من السيارات عند أشارة الأبراهيمية فأدلت برأسها فى محاولة للتمويه فبدا صوتها مكتوما : من يوم حكاية الموبايل دى وأنا حاسة أنها مش طايقانى وعصبيتها زادت أوى مع أنها مافتحتش معايا الموضوع ده تانى . أستفزته نبرة الأستسلام فقاطعها وخرج عن هدوءه : عايزة الصراحة أنتى المسئولة عن اللى نورا وصلتله ده أنتى اللى أدتيها الفرصة تفرد عضلاتها عليكى وتعاملك بالشكل المهين ده . تداخلت رأسها بين كتفيها وأنكمشت : أنا ؟! .

ـ أيوه أنتى .. طول ماهيه شايفاكى بالضعف ده والغلب ده ومابتاخديش منها موقف حتزيد كل يوم فى هجومها عليكى لغاية ماتخليكى تستسلمى وتوصلك لحالة عمتها أيات يعنى لاتهش ولاتنش . أبتسمت بأستخفاف دون أن تنظر إليه : والمطلوب منى طبعا أنى أوقفها عند حدها وأشدها من ودانها وأقولها عيب اللى بتعمليه ده أنا مامتك مش بنت صغيرة بتلعب معاكى . تابعها مدهوشا حين أضافت : هو ده اللى أنت عايزه .

ـ هو ده اللى المفروض تعمليه وتجبريها على أحترام خصوصياتك وتعرفيها أن دورها فى البيت هى أنها بنتك وبس مش الأمر الناهى فى البيت . قصدت الصمت وفضلت الوجوم بينما تابع خيرى يساره بنظرة يائسة حين أصطفت السيارات وتكدست أمامه وخلفه فأعتصر عجلة القيادة بكفيه : الدنيا شكلها كده أخر

كعبلة . جالت بنظراتها خارج النافذة : طب وبعدين حنعمل أيه أنا لازم أرجع الأتيليه ع الساعة خمسة . كانت نظرة طويلة فى أنتظارها حين ألتفتت ناحيته : خلاص مش لازم نادى التطبقيين كفاية على أنك قاعدة جنبى . تجنبت نظرته ولم تجد ردا مناسبا على تلك الجملة وكأنها مربوطة معه بعلاقة ليس لها هوية أوشكل واضح . ربع ساعة مرت ولم تتزحزح سيارة خيرى قيد أنملة عن مكانها التى أنحشرت فى داخل بركة راكدة من السيارات. بدا وكأنهما بمنفى أختيارى أصطحبا فيه " فيروز " كرهينة يساومان بصوتها الوقت فأضفت عليهما ماتضفيه نار مدفأه فى ليلة شتاء باردة . بشاير حركة تنبض فى الحديد الممدد على الطريق فأنفرجت ملامحه حين بدأ طابور السيارات يحبو ببطء كسلحفاة عجوز فأستدعت منه اللحظة أن يتلو دعاء الطريق : يامسهل يارب .. أمتار قليلة وألتصقت العجلات بالأسفلت وصار كل شيىء محنطا مرة أخرى . نفذ صبره وهو ينظر لساعته : مابدهاش بقى . ألتفت اليها متأملا ثم مال بجانبه الأيمن كأنه يهم بأحتضانها . غادر صمته بعدما لملم شعورا فر منه فى الزحام : ماسألتنيش يعنى أنا ليه طلبت أقابلك النهاردة . أشارة نفى من رأسها مشفوعة بأبتسامة كانت هى الأروع وسط هذا الحصار : مش عارفة ! فرد ذراعه وأحتضن مسند كرسيها : أنا بحبك و.. ثبتت عينيها بنظرة جانبية فطالت عينيه ومضة بريق : وأيه ياخيرى ؟ .

ــ وعايز أتجوزك . مرت لحظة تجمدت فيها هدى جمود صنم، وجمد الزمن نفسه خلالها كأنه يستجمع قواه كلها كى يعتدل حول محوره قبل أن ينفضها زلزال الدهشة ، لم تستطع أخفاء صدمة العرض : أيه اللى بتقوله ده ياخيرى .

ــ اللى سمعتيه ياهدى .. أنا فكرت كتير قبل ماأقولك كلامى ده .. مش شايف أى سبب يمنعنى أنا وأنتى من الأرتباط بالعكس كل الظروف اللى حوالينا بتقول أن هو ده الحل الوحيد .. تقريبا أنا عايش لوحدى وأنتى كمان زى حالاتى حتى لو كان ولادك حواليكى .. أنامحتاجلك جنبى ومن غير ماتكابرى أنتى كمان محتاجانى .. مالوش لزمة ياهدى نضيع وقت أكتر من كده .. العمر ماعدش باقى فيه كتير . أنحنى بجبهته حتى ضاقت المسافة بينهما وأحتقن وجهه وتابع متحمسا : تعالى نلحق اللى فاضلنا . أنهى جملته ثم راح يقرأ فى هاتين العينين الأنتظار . فلما بلغت نظرتها عينيه حاولت الصمود أمامهما ، شعرت بعمق كلماته التى أصابتها بدوار . تمتمت وسط شرودها : مش عارفة !! .

أستجوبها : مش عارفة أيه ياهدى .. أنا بحبك وعايز أعرف دلوقتى أنتى عايزانى ولا لأ ؟! سؤاله سقط على رأسها كجبل !. كانا فى داخل السيارة فى عالم منفصل ومختلف تماما عما يدور فى الخارج من سباب

ولعنات وغبار وأبخرة عوادم . بينما فى تلك اللحظة المصيرية أصبح وجهها عنوانا لنظرته بينما فى نظرتها أستغاثة وأستفسار وفى بسمتها تودد وانكسار ، وفى حركات يديها بطء وتعب : أنا .. بدت الكلمات على لسانها كولادة متعسرة . نظر فى أعماق عينيها فرأى الأعتراف ناضجا ينتظر القطاف . أنقذتها عدالة السماء حين نزلت على طريق الكورنيش وتحركت السيارات تباعا فألتفت إليها معاتبا : يعنى مش عايزة تجاوبينى . ضغطت على لسانها العنيد أن يلين وينطق ، إلا إنها تداركت لحظة الضعف وترجته : معلش ياخيرى لماننتكلم بالليل حأقولك . أعقبت أقتراحها بأبتسامة ضعيفة . أردفت وهى تتابع الشارع : ياريت نرجع عشان مانتأخرش .

ـ حاضر ياهدى زى ماأنتى عايزة . قالها ثم أنطلق فى الأتجاه الذى جاء منه . أستعان بسيجارة ثانية تعينه على لجم مشاعره .. نصف ساعة كانت هى تكلفة العودة ، مضت هادئة بسيطة تشاركهما فيروز الطريق كرفيق ثالث . نظرة أخيرة فى وجهه مصحوبة بأبتسامة حين توقف بسيارته عند نفس نقطة اللقاء أمام المكتبة . لم يتمالك نفسه ولم يجد لرصانته أثر أمام تلك العيون وعند ذلك الوجه الذى ينزف حمرة : حتوحشينى لغاية ما أسمع صوتك بالليل . جملة كانت خارج النص وغير متداولة بينهما فقابلتها بصمت زاد من جمالها قبل أن تسلت نفسها من داخل السيارة ومشت أمامه لبضعة أمتار بينما ظل واقفا بسيارته فألتفتت تستطلع فوجدته ساهما يتفحص خلفيتها ، شعرت بنظراته تجردها من ملابسها فزاد أرتباكها وتلعثمت فى مشيتها فأشفق عليها قبل أن تنفرج شفتيه عن أبتسامة وتحرك بسيارته ومر بحذاها فلمحته بنظرة ركنية حتى تخطاها ، فهدأ الجسد المنتفض وأسترخت خطوتها وسرحت مع خيالها .. ظلت أفكار تنسج أمامها موقفا . رأت فيه تحول مفاجىء فى علاقتها بخيرى ، فهى اليوم أشد عجزا من أن تفهم هذا التطور فى سلوكه .. " بحبك وعايز أتجوزك" جملة صارت تلازمها كأنفاسها طول الطريق . أنتابها شعور بالخوف طردته بسرعة ، فهى لاتريد أن يتملكها مثل هذا الشعور يوما ، تريد أن تنبذ الخوف من حياتها . لكنها رغم عنف الدعوة المتسلطة لم تجرؤ أن تستجيب ولازال عقلها حتى اللحظة يبدى مقاومة .

تلقت هدى مفاجأة أذهلتها حين أجتازت عتبة الأتيليه بحثا عن زيزيت قبل أن تعثر عليها داخل مكتبها الزجاجى فأسرعت إليها متسللة وبادرتها بسؤالها المعتاد قبل أن تلتقط أنفاسها: نورا سألت عنى ؟ .

ـ يوسف أتصل بيها من شوية وطلعت بسرعة ع الشقة من غير ماتفهمنى حاجة . أجابة غير متوقعة ظهر

تأثيرها فوريا على ملامح هدى التى تقطعت كلماتها : ليه .. فى أيه ؟ .

ـ الحقيقة مش عارفة ده أنا حتى أتصلت بيها من عشر دقايق عشان أطمن لقيت موبايلها مقفول . سمعت تلك العبارة فأنسحبت مرتعشة ناحية الباب وهى تردد : أنا حاطلع أشوف أيه الحكاية .. أستر يارب .

خطفت السلالم خطفا حتى بلغت باب شقتها . أنتظرت لثوان تنصت قبل أن تفتحه ببطء .. أطلت برأسها فواجهت ضجة بدأت بهمهمة قبل أن ترتفع صخبا ، كان مصدرها كل من فى البيت الذين تحلقوا حول يوسف بمافيهم نعمة يتلقى التبريكات على دفعات وبعشوائية .. تخطت الباب ساهمة حين أحتل المشهد كل ملامحها .. أقتربت بتمهل تدس نظرتها فى الدائرة المنصوبة حول أبنها ، فأنطلقت منها نبرة متفاءلة : فى أيه ياولاد ؟ قالتها وهى تبحث عن أجابة فى عيونهم قبل أن تصلها على لسان يوسف الذى أنفلت من حصار الدائرة المنسوجة حوله وقابلها مندفعا عند منتصف الصالة بفرحته وضحك ضحكته الواسعة التى مايزال محتفظا بها منذ طفولته . فصرخ : نجحت ياماما .. خلاص أتخرجت . صرخت معه وقفزت وصفقت : بقيت مهندس يايوسف .. ألف حمد وشكر لك يارب . أحاطته بذراعيها وأحتضنته وهى تردد تملأ فراغ الصالة : خلاص بقيت مهندس ياحبيبى .. بقيت مهندس يايوسف . وكأنها تتأكد من صحة الخبر ولم تجد أفضل من رد فعل أتت به نعمة على هيئة زغرودة أطلقتها فأبهرت الجميع . ولم تكن هدى لتعبر عن الفرح الهابط عليها مثل ليلة القدر المنتظرة إلا دمع ينحدر على خدها فلا تستطيع أن تمسكه . تهدج صوتها : ياسبحان اللـه دى أول فرحة تدخل قلبى من سنين . أنزاحت ببطء تسحب نفسها حتى لامست بأناملها سور الكنبة تجاهد نوبة بكاء تلح عليها فشلت فى حبسها ورافقتها حتى جلست تتخطفها رعشة فرح ، فأحاطت وجهها بين كفيها ليمتزج فى راحتيها بكاء ضاحك ، فتحرك لها وتأمل الرأس المدفونة بين الكفين فنزل على ركبتيه حتى صار فى مستوى رأسها : النهاردة بالذات ياماما مش محتاجين دموع .. النهاردة لازم تفرحى وكلنا نفرح . أنشق كفيها عن وجه غارق فى الدموع : عندك حق ياحبيبى . أنحنى بجبهته يقبل يدها المبتلة .. لحظات من الرضا العزيز عن النفس وعن العالم حين يمضى كل شيىء فى طريقه سهلا دون عقبات .. بدا عليه الأرتياح وكأنه أدى واجبا ثقيلا كان يجب أن يتمه .. أقتربت منه أيات تختال فى مشيتها ورأسها المرفوع يحمل بصمات أعجاب وتقدير .. وضعت يدها على كتفه فألتفت إليها قبل أن ينتصب واقفا مبديا أبتسامة حين أنصت لعبارات عمته الأتية من قلب الماضى ترددها بأيقاعها البطيىء . تسجل موقفا : مبروك يايوسف ياحبيبى خلاص بقيت دلوقتى الباشمهندس يوسف نديم خليل السبروتى . كانت تنطق الأسم واللقب وجسدها يهتز منتشيا تذكره نظراتها المتطلعة لوجهه بأنه الذكر الوحيد الباقى من عائلة منقرضة لم يعد لها وجود سوى فى لقب يتعلق فى ذيل تسلسل الأسماء وفى بعض المصطلحات التى تجرى على لسان أيات وبعض من النواهى والمحاذير والأوامر التى تصبغ دائما

كلماتها : خد بالك يايوسف لازم تعرف أنك الوحيد اللى حيحافظ على أسم عيلة السبروتى .. أنا عايزة أسمك كده يجلجل فى كل الدنيا وتبقى مهندس مشهور ومعروف لأن ساعتها الناس كلها حتعرف أصلك وفصلك وحتشاور عليك وتقول ده حفيد البهوات والباشوات .. سامعنى يايوسف . كانت عنيدة على غير العادة صارمة فى نطقها وكأنها تنتزعه من فرحته لتحمله ماهو أكثر من الفرح نفسه . أستسلم لحماسها الجارف مبديا موافقة صامتة عبرت عنها أبتسامته ، لم تمهله نورا فرصة التعقيب حين تسلمته قبل أن تعتلى يدها كتفه فتوجه إليها بفرحته وعانقها فضغطت بيديها حول ظهره بعدما تنحت أيات جانبا حين تلاشت فرصتها فى الحديث عن الزمن الذى لم يعد زمنا . أبتعدت عنه نورا قليلا دون أن تفارق يديها كتفيه .. تتأمله صامتة ، ينتابها يقين لايقبل المجادلة بأنها فقط الوحيدة صاحبة الحق الحصرى فى نجاحه .. لامشاركة .. لا تلميح ولا تعقيب . تملكتها رعشة كان لها صدى فى جسده فأصابه ماأصابها فأرتج فى وقفته يتابع كلماتها وقد قاربت عينيها أن تلفظ دموعا : الحمد للـه وألف شكر لك يارب النهاردة بس شفت نتيجة تعبى . سكتت لثوان ترصد فى ملامحه أنتصارا كان صنيعتها . أستخرجت من أعماقها نفسا طويلا تمهيدا للحظة أسترخاء حين أراحت رأسها على صدره تتحسس بنظراتها من خلف كتفيه طول الصالة وعمقها التى تجرها لسنوات خلت ، لعلها خمس سنوات ، تذكرت عينيه وهى تعلنان عن شاب له أصرار وطموح يطل من السنين القادمة . أستعادت مقولته المنتفضة بأداء المظفر : نتيجة التنسيق طلعت وقبلت فى كلية الهندسة يانورا . وحين بادرت بضمه لصدرها تشاركه فرحته سارع يكمل جملته بعد أن هدأت عاصفة الفرح التى أجتاحتة : بس كلية الهندسة حتحتاج مصاريف كتيرة أوى يانورا . لم تثنها كلماته أو تربك حساباتها فسحبته إلى صدرها فى عنف وأصرار : ماتشغلش بالك بأى حاجة أنت مسئوليتى ولوحناكل طقة واحدة فى اليوم لو حأشتغل ليل ونهار .. كله يهون لغاية ماتتخرج وتبقى مهندس يايوسف. أعادها للحظة النجاح يربت على ظهرها : أنتى صاحبة الفضل على بعد ربنا وحأفضل طول عمرى مديون لكى وإن شاء اللـه لما أشتغل حتعرفى أن كل اللى عملتيه دين فى رقبتى وربنا يقدرنى على رد جميلك . فرحت بكلماته وشعرت بالمباهاة : لاياحبيبى أنا مش عايزة أى حاجة كل اللى عايزاه أنك تحط رجلك على أول الطريق و تثبت وجودك عشان اللى جاى صعب وزى ماأتحملت مسئوليتك طول السنين اللى فاتت وكنت لوحدى حأفضل برضه فى ضهرك لغاية ماتبقى أحسن مهندس فى أسكندرية . أبدى موافقة غيرمشروطة حين عانقها ودار بها دورة كاملة بينما راقبت بسمة بفضول نظرات أمها المنكسرة وهى تتابع مشهد البطولة المطلقة التى تلعبه نورا . فهرب لونها حين أستشعرت بأنها المعنية وراء كل كلمة رددتها أبنتها التى أعتادت على تلك التلميحات التى تقفز منها فجأة كأتهامات تغذيها نظرات جانبية كانت

تخفى فى طيأتها لوما ومعايرة . نظرات أفلحت لجعلها تقلب فى رأسها صفحات قاتمة تحمل تواريخ صماء تدون على الجدران حين كان كل شيىء محبوسا ، الصراخ بلا صوت والبكاء بلا دمع ولحظات الفرح تعيشها خيالا لاواقعا .فأهتزت شفتيها حين عدلت من وضعيتها المنكمشة فأشهرت كلماتها على رؤوس الأشهاد : أنا يمكن يايوسف ماعملتش اللى عملته معاك نورا ولا حتى عشت معاكم يوم بيوم ولا شفت بعينى فرحكم وحزنكم لكن يعلم ربنا أنى عشتها كلها لحظة بلحظة كأنى شايفاكم قدام عينى .. أيام أمتحانات الثانوية كنت شايفاك وأنت قاعد فى اللجنة بتمتحن وكنت شايفاك وحاسة بيك وأنت بتتنطط من الفرحة لما النتيجة طلعت وكنت شايفة كل واحد فيكم لدرجة أنى كنت بأتخيل كمان شكل الهدوم اللى أنتو لابسنها وشكل الضحكة وطريقة الكلام وبالليل وأنا نايمه كنت بأحس بأنفاسكم وأنتو نايمين .. الفرق اللى كان بينى وبينكم . سكتت لتوزع عليهم نظرة شملتهم جميعا . ثم عادت بصوت مخنوق : الفرحة كنتو بتوزعوها على بعض وحزنكم كنتو بتشيلوه سوا أما أنا فكان فرحى زى فرح المجانين أضحك لوحدى وأتنطط لوحدى وأكلم صوركم لوحدى ولما كان الصبر يفارقنى و السجن يضيق على لما أقعد أحسبها وألاقى أن لسه قدامى فى الحبس سنين كتيرة أكتر من اللى عدت كانت تجيلى حالة هيجان أفضل أخبط بأيديه على الجدران لغاية مايغمى على ويفوقونى وكنت أول مأفتح عينى أدور فى الوشوش اللى حواليه ما ألاقيش حد فيكو وساعتها بعرف أنى لسه موجودة فى السجن .. لو أنتو تعبتم قيراط أنا أتعذبت سنين . أنهت كلماتها بسيل من الدموع كان لها تأثير بالغ أصابهم بالجمود وقلب المشهد رأسا على عقب ، أما نورا فلم يزعجها سوى أعراض التأثر التى أنتشرت فى وجه يوسف فأرادت أن تدخل فى صراع كلمات مع أمها وأن تبحث فى قاموسها عن مصطلحات تكون أشد وقعا وتأثيرا إلا أنها أمتنعت حين أتجه يوسف ناحية أمه يمسح دموعها مبديا لها بعض الثقة : واللـه ياماما فرحتنا من غيرك كانت دايما ناقصة ومالهاش طعم وكنا بنعد الساعات عشان نستنى يوم الزيارة ومافيش يوم كان بيعدى إلا وأنتى حاضرة معانا . أمنت نعمة على كلامه حين حضرت تحجل على قدمها : ده أنتى الخير والبركة ياست هدى والنهاردة يوم فرح مش يوم دموع . بينما أستنفرت بسمة بقايا صخبها الذى بدأته منذ نصف ساعة وهرولت إليها : لاياست ماما أنت بتعملى الحبتين دول عشان تهربى من الحاجة الحلوة .

ـ لاياحبيبتى شوفوا أنتو عايزين أيه وأنا أعمله . أندفعت تجثم على صدر يوسف : قول ياعريس نفسك فى أيه ؟ تعلقت فى رقبة أخيها الذى دفعها بأبتسامة ثقة : ماتلزقيش فى كده أنا دلوقتى بقيت الباشمهندس يوسف وخدى بالك مش أى مهندس أنا تلميذ مكتب المهندس ناجى يعنى راس براس مع أى مهندس شغال بقاله عشر سنين . لفتت جملته أنتباه نورا : يعنى ممكن يايوسف تشتغل عنده فى المكتب . تصنع مشية

الواثق قبل أن يجلس بجوار أمه على كنبة الأنتريه فاردا ذراعيه يتمايل برأسه . لحد دلوقتى لسه مش عارف مستنى هدير لما ترجع من السفر ونشوف حنعمل أيه ؟! أجابته كانت سببا لقيام ثورة تفاؤل عبرت عنها بسمة : يعنى فى كل الأحوال شغلك مضمون . بحكم الغريزة قاطعتها هدى : سيبى كل حاجة على ربنا وبطلى زن ! .

ـ لأ ماتقلقيش من الناحية دى ياماما يوسف وراه البرنسيسة هدير .. يعنى الخير كله ! .

طعم النجاح اليوم له حلاوة لاينقصها هذه المرة سوى وجود هدير بجواره ، كان سفرها لتركيا مفاجئا بالنسبة له .. أتصل بها فور أعلان النتيجة أبلغها بنجاحه غير أنه أعتقد داخله بأن فرحتها لم تكن كاملة كما عهدها وان أجتهد لفهم ذلك إلا أنه رجح أن يكون عدم وجودها إلى جواره هو السبب الأصيل وراء أحساسه .

فاجأتهم هدى تسحب نفسها ببطء وجفونها تقاوم الأنكسار قبل أن تعلق حقيبة يدها على كتفها : أنا حاروح أجيب جاتوه وحاجة ساقعة عشان نفرح كلنا مع بعض . قفز يوسف من مكانه معترضا طريقها : لا ياماما خليكى أنتى أنا حأروح بسرعة أجيب اللى أنتى عايزاه . راوغته ومرت بجواره : أنت النهاردة العريس خليك مستريح والواجب ده عندى . قبل أن تبلغ باب الشقة صرخت فيها بسمة : ونبى ياماما زودى الجاتوه أبو شوكلاته .

ـ ماشى يابسمة أنا عارفة طلبك . طمأنتها وأغلقت الباب خلفها . خرجت وشبحها يظلل همساتهم . فأفصحت بسمة : واللـه ماما بتصعب على أوى .

ـ ليه بقى ؟ أستفسارا جافا أبدته نورا .

ـ مش عارفة بس بأحسها كده حزينة ومكسورة كان نفسها ياعينى تبقى موجودة معانا وتشوفنا وأحنا بنكبر قدامها .

ـ يعنى هو كان بأيدينا . كان تعقيبا أخيرا من نورا تجاوزته سريعا حين طرحت سؤالها البسيط الذى فتح بعده حوارا ممتدا : لما أتصلت بهدير وبلغتها بالنتيجة قالتلك حترجع أمتى ؟ .

ـ يوم الأتنين مع باباها ومامتها . ثم أنتظر للحظات قبل أن يكسب وجهه ملامح المفكر . أردف : فيه حاجة غريبة قالتهالى فى أخر مكالمة أن باباها حيستنانى يوم التلات عندهم فى البيت . لم تخف نورا دهشتها :

أبوها عايز يقابلك ليه ؟! .. أنتعش بأمل لايعلم له سببا!.. ذهب مع منطق بدا له شاذا ، غير أنه راهن عليه حين قال فى نفسه : أحساسى بيقوللى أن الحاج أحمد حيعرض على أنى أشتغل عنده فى الشركة . هو مايزال يتذكر ذلك اليوم الذى أستقر فى ذاكرته مثل حرج حين أفضت له هدير بعبارات محددة عقب زيارته الأخيرة لها فى الفيلا : بابا عمره مارفض لى طلب أبدا هو كل اللى يهمه فى الدنيا دى أنى أبقى سعيدة ومبسوطة وهو عارف كل اللى بينى وبينك وماعندهوش أى أعتراض مادام حبيبى أبن ناس وبيحبنى وكمان مهندس زيى . قابل أعترافها بوجه ضاحك تشهد عليه حجرة التصميمات فى مكتب المهندس ناجى قبل أن تميل بصدرها على مكتبه تتحسس خده : يعنى بالبلدى كده ياسى يوسف مامتك داعيالك عروسة غنية وزى القمر وبتحبك كمان ولما حتتجوز حتعيش مع بابا فى الفيلاوكمان لازم تعرف سياتك أن مكانك محجوز فى الشركة . قربت وجهها تداعب بأبهامها أرنبة أنفه : يبقى المفروض حبيبى يسمينى أيه ؟ توارت نظرته : مش عارف ؟! .

ـ سمينى الفانوس السحرى هى دى محتاجة تفكير . أحس بالمهانة ومط شفتيه . لاحظت تغيره وأدركت مالحقته كلماتها من تأثير بدا سلبيا .. تذكرت أنه دائما وأبدا يرفض هذا المنطق فى التفكير وأن أبدى فى مرات كثيرة موافقته على العمل عند والدها . طأطأت رأسها وأمسكت بشحمة أذنه وأبتسمت خجلا : نسيت يايوسف أنك مابتحبش طريقة الكلام دى ولابترتاح حتى لتفكير بابا . كان يرى أن عمله كمهندس فى شركة والدها فكرة مشروعة حيث أنه سيحاول جاهدا أن يثبت كفاءة ويحقق نجاح مما سيسهل عليه تحقيق بقية أحلامه وأولها أرتباطه الرسمى بهدير .

عاجلته عمته التى تتبعت شروده بسؤال فضولى : وهدير مالمحتلكش بأى حاجة ؟ .

ـ واللـه أبدا ياعمتى . شاركها حالة الفضول وهو يجرجر من الذاكرة مواقف وأفعال .. كان أمرها غريبا ، لم تتطرق على الأطلاق لموضوع زيارتها المفاجئة ليوسف فى البيت حتى إذا بادرها واصفا أعجاب أمه بها وبهديتها ، كانت تبتسم دون تعليق وعندما يمازحها : حماتك بتسلم عليكى وبتقولك خلى بالك من أبنها . كانت لها أجابة مختصرة : اللـه يسلمها !!. كان غريبا أن يستعيد تلك المواقف فى تلك اللحظة حتى أنه مضى يستعيد ذلك مرات كطالب يستعد للأمتحان .

تتوالى المشاهد ذهابا وعودة ، ماذا توحى ليوسف ، وماذا يرى وأى مشاهد عليها أن تمر فوق شريط ذاكرته ، كى يدرك ، يحس القادم ، والقادم ماخاطب به نفسه : مصيبة لتكون هدير عرفت حاجة عن موضوع ماما ؟! لم يستطع أخفاء ذلك الهاجس وصرح به لنورا التى صدته : أبعد الأفكار الهبلة دى عن

دماغك يايوسف .. لو هدير كانت عرفت أى حاجة عن ماما ماكنتش سكتت كل الوقت ده والدليل على كده أنها قالتلك على ميعاد سفرها لتركيا .

ـ كلامك معقول يانورا . سكتت مخاوفه ؟، إلا أن ذاكرته لم تهدأ وأسترجع لقائه بها فى المكتب الهندسى فى اليوم التالى لزيارتها ، لم يلحظ عليها أى تغير سوى أنها ترفع حاجبيها المقوسين فيما لايعرف يوسف أن كانت قد فعلت ذلك لغضب وربما لدهشة أو أرتياح . أقحمت بسمة نفسها بهمجية معتادة : ماتكبرش المسائل بقى وتبقى قلوق .. هدير بتحبك وبتموت فيك وخد منى الكلمتين دول لوجه اللـه يابنى .. أبوها لما حيقابلك يوم التلات حيقولك روح أستلم شغلك ياباشمهندس فى الشركة !!. أكتفى يوسف بتلك الأراء ودخل غرفته تلحق به بسمة تتابع معه بشغف نتائج شلته المقربة حين علقت عيناه بشاشة الكمبيوتر يطالع صفحة التعليم العالى التى أخبرته بأن أيمن وأحمد ورضوى بات تخرجهم مؤجلا لعام أخر بينما تراقب أخته بأضطراب : أنتو السابقون ونحن اللاحقون . تابعت مايحدث كبروفة أخيرة لما سيكون عليه حالها بعد يومين عندما تظهر نتيجتها . توقف يوسف عن المتابعة حين سمع أمه تزرع ضجيجا فى الصالة كمسحراتى لحوح : الجاتوه وصل ياأهل البيت .

مر بقية اليوم أسريا هادئا بأمتياز .. بدت جلسة أستثنائية . دارت أحاديث عشوائية بلا ترتيب ، عرجت فيها أيات إلى زمن العلم الأصيل ، كما تعتقد حين أشارت بشجن لعصر كان فيه العلم منظومة مقدسة مبدية أعتراضها الشديد على مايتم تداوله حاليا تحت رقابة ورعاية مايسمى بوزارة التربية والتعليم التى تعتقد بل تجزم بأنه أسما حركيا للتمويه حيث لاصلة له بالتربية ولا التعليم ، ثم أدارت نورا الحوار فترة ليست بالقصيرة حين أسترجعت مجموعة مواقف لمشوار يوسف التعليمى ، ذكرته وذكرت المستمعين بمرحلة صباه حين كان يمتلك جسدا تكسو فيه العظام لحمه فكان أقرب لصورة الهيكل العظمى المتصدرة غلاف كتاب العلوم الأعدادية فترتفع ضحكاتهم إلى سماء الصالة تقطع صمت يوسف وتنزعة من تتبع أحلامه التى باتت قاب قوسين : هى الحفلة دى لى ولا علي .

ـ لاياحبيبى دى لك .. ده أنت النهاردة فرحتنا الكبيرة . رأى أبدته أيات بينما أنتبه الجميع لنعمة التى رددت بجدية : ماحدش ينسى النهاردة وأنتو فرحانين كده فضل الأستاذ خيرى على يوسف لما كان كل يوم ياعينى يقعد يذاكر له بالساعات . فقدت هدى ثباتها حين سمعت أسمه .. ضحك وجهها وتمنت من قرارة قلبها أن يدوم الحديث عنه إلا أن بسمة بددت أمنيتها حيث سحبتهم لأمر ثانوى : أنا حاأشغل أغانى .. عايزين نفرح . ثم وقفت فى وسطهم كمقدم الأفراح : تحبوأشغلكم أيه ؟ سبقتهم هدى بعفويه : فيروز !.

كان أختيارا مريبا أدخلهم فى حالة دهشة عبرت عنها نورا حين توقفت عن هز رجلها : فيروز .. وأنتى تعرفى فيروز منين ياماما .. أقصد من أمتى بتسمعى فيروز ؟ ! . أدركت تسرعها فى الأختيار فدارت موقفها بتقمص حالة السذاجة : مش عارفة هيه جت كده !. مالت نعمة تهمس فى أذن أيات : هى فيروز دى بتاعة أغنية معايا ريال . ضحكت أيات وردت بسمة : دى بتاعة حبيتك بالصيف يانعمة .

أنتصف الليل ورفع النوم شعاره وهتفت الحناجر بالتثاؤب فأنفرط عقدهم وتسربوا فرادى قبل أن يسجل كل منهم كلمته الأخيرة : مبروك يايوسف . فى تلك اللحظة رن موبايل هدى على أستحياء من داخل جيبها فأصابها بفزع نشطت على أثره حدقتيها حين تزاحمت عليها العيون كالجانى تحاصره الأتهامات فأضطربت كلماتها وهى تنظر فى الموبايل : دى زيزيت .. مش حارد عليها لحسن تمسك دماغى وأنا تعبانه وعايزة أنام . كان المتصل خيرى ، أحتوت أرتباكها ونجحت فى الأفلات من ردود محتملة فأختصرت الموقف : تصبحو على خير . قالتها وهى تتجه لغرفتها .. فتحت الباب بسرعة وأضاءت النور قبل أن تلصق ظهرها به وأغمضت عينيها أغماضة طويلة : الحمد اللـه عدت على خير . ثم فتحتهما على هاجس ينمو داخلها : كانت حتبقى مصيبة لو نورا قالتلى هاتى الموبايل أرد على زيزيت . هزت رأسها حمدا للـه على نجاتها وسارت بخطوات ثقيلة نحو سريرها ولازمتها مقولة: الحمد للـه .. الحمد للـه . تمددت وشردت لدقائق تستعيد أحداث يومها الحافل المثير . حاولت ترتيبها حسب أهميتها . لم تسعفها اللحظة حين أرتفع صراخ " السامسونج " الجاثم على بطنها .. أخرسته بضغطة متوترة قبل أن تتهيأ بوضعية الأستعداد ، زحزحت جسدها للوراء فى نصف جلسة وأول مانطقت به : خليك معايا دقيقة واحدة ياخيرى . قامت بهدوء وتوخت الحذر حين هبطت السرير وتسللت حتى باب الغرفة ، فتحته ببطء .. جالت بعينيها فى أتجاه الصالة والطرقة ، لم تجد أحدا فأوصدته بتأنى ووجهها يتصاعد فيه القلق .. عادت لوضعيتها مرة أخرى .. همست قبل أن يعتلى " السامسونج " أذنها : معلش ياخيرى كنت بطمن فى حد صاحى من الولاد . كتمت ضحكة كادت أن تفلت منها حين طرح سؤاله الأول : العروسة قررت أيه ؟!. بحثت عن أجابة تصلح . النهاردة بالذات العروسة ماقررتش حاجة .. يوسف نتيجته طلعت والحمد للـه نجح . أبدى فرحة :لازم ينجح ده تلميذى .. ربنا يوفقه فى اللى جاى إن شاء اللـه . عزز الخبر من قوة طرحه : متهيألى كده الأمور حتبقى أسهل كتير . أصابها الهمس بحشرجة مفاجئة حين كررت كلمة " أرجوك " فأعادت صياغتها بنبرة أوضح : عشان خاطرى ياخيرى خلى الأمور تمشى واحدة واحدة .. هو أنت مش قلتلى أنك بتفهم كويس فى السياسة يعنى أكيد عارف أن فى حاجة أسمها المرحلة الأنتقالية . أرسل لها ضحكته المثالية قابلتها

بأبتسامة وتابعت : أنا بقى لسه فى المرحلة دى ووضعى لسه مأستقرش فى البيت ده يادوب لسه بأقول ياهادى يعنى ماينفعش أخد خطوة زى دى من غير مأعرف نتيجتها حتكون أيه .

لم يجادلها كثيرا ، كان قد أتخذ قرارا مسبقا بأتباع سياسة الخطوة خطوة وأن يتسلل إليها بهدوء كى يتمكن من فك شفراتها دون أن يصطدم بظروفها الملتبسة : ع العموم أنا مش حأستعجلك ياهدى لسه قدامنا وقت لغاية مااللى أنا عايزه يحصل .

ـ وأيه اللى أنت مستنيه يحصل .

ـ اللى طلبته منك النهاردة . دقائق وبدأ مفعول كلماته يسرى فى جسدها كمخدر فأستسلمت مطروحة على ظهرها وتباطأت عيناها عن الدوران فى الغرفة تحشد نظراتها فى بياض السقف كأنه شاشة عرض ترى من خلالها صورته ، فتحاصرها عيناه الموغلتين فى العمق ونبرات صوته الرتيب تنخر فى كيانها فتصيبها بالتنميل بينما هو فى طريقه لخسارة معظم صفاته الوراثية والمكتسبة وكأن فيروسا لا فكاك منه يهاجم عواطفه المحسوبة ورصانته المعهودة وبات مقتنعا بأنه مستهدف من قوى قاهرة أجتمعت عليه فى ضحكتها وسكونها .. فى نظرتها وفى خجلها .. بات ضعيفا وأيقن أنه فى حالة متأخرة وبات عاجزا عن ترويض أندفاعاته .

فى تلك الأثناء وعلى غير العادة أنشق جفنى نورا تحت الحاح أنتفاخ المثانة التى أقلقتها من نومها وقامت مجبرة تتخبط سعيا وراء أفراغ حمولتها .. خرجت من غرفتها تهم برفع جلبابها فى طريقها للحمام مارة بباب غرفة أمها الموصود ، غير أنها توقفت فجأة حين أستقبلت قرون أستشعارها لهمسات صادرة خلف الباب ، فكانت دعوة صريحة للتصنت فأنجذبت كالمغناطيس وإلتصقت بالباب .. تجمدت فى وقفتها وبدا وجهها عاريا من الدماء حين إلتقطت صوت أمها : أنا مش عايزة مشاكل مع ولادى كفاية اللى أنا فيه . أنقطع الصوت للحظات قبل أن يعاود الأرسال بثه وسط هدوء لايعكره سوى صوت أنفاسها : والله أنا بأتكلم معاك دلوقتى وخايفة لحسن حد من ولادى يصحى ويسمعنى .. ياريت تقدر ظروفى ياخيرى . حين أخترق أسم " خيرى " أسماعها كتمت أنفاسها وفتحت فمها بدهشة أطاحت بأتزانها فأغمضت عينيها لدرجة أوهمتها بأنها قد أصيبت بـ " جلطة " . تجاهد للحفاظ على وقفتها قبل أن تدلى برأسها للأرض تبحث عن فهم ، فأستقلت أفكار تروح وتجىء وهى تتحسس وجهها فى محاولة لأستيقاف أى منها والتركيزعليها . دقائق غير معلومة ظلت واقفة غير قادرة على الأستيعاب إلا أنها نفضت رأسها وأختارت المواجهة وهمت بفتح الباب ، لكن شيئا منعها فى اللحظة الأخيرة .. تحررت أنفاسها وأولت الباب ظهرها

وعدلت من وجهتها وأتخذت طريقها للصالة وأنهارت عند أول كرسى . جلست واجمة .. بدت لها الصالة على سعتها بقعة ضيقة بينما الصداع يضغط على رأسها فأزاحت خصلات شعرها عن وجهها وضغطت بأصبعيها على جبينها ، أصبح رأسها مزدحما بتحليلات وتخيلات ، فأصداء المكالمة تحولت فى رأسها لقضية رئيسية تشاورت فيها مع نفسها عن كيفية إدارتها .. كان من أوجه الأختلاف لديها أتسام المشهد فى آن واحد بالتنافر والأنسجام عندما بدأت الرؤية تتضح وتنكشف بعدما أستشفت مايدور . أبتسمت نصف أبتسامة مائلة وهى تجز على أسنانها : هى الحكاية كدة ؟! شعرت بنفسها أمام معادلة جديدة .. بدت حائرة وغير مستقرة ، مفكرة بالطريقة التى يجب أن تخرج بها من المولد بما يكفى من حمص . صارت تلك المكالمة تحبسها فى دائرة من الترقب لخطوة قادمة .

000000000000

قرر يوسف أن يعفى نفسه من هم التخمين وقلق الأنتظار حين تهيأ للخروج من غرفته أستعدادا للذهاب إلى فيلا هدير تلبية لدعوة والدها التى وجهتها نيابة عنه فى آخر مكالمة . وطأت قدميه حدود الصالة تتصاعد منه أبخرة الـ " وان مان شو" . بدا وسيما كفارس أحلام ، ترجل مستعرضا طوله وعرضه اللذان سترهما بقميص أبيض مفتوح تقطعه خطوط زرقاء نحيفة طالقا سراحه خارج " كمر" بنطلونه الجينز الضيق الذى أضفى عليه لمسة شبابية وهو من ترشيحات بسمة الذى أستقر عليه . حين بلغ منتصف الصالة وجد موكبا ينتظره . تواترت عليه نظرات عمته أيات ونعمة وبسمة التى ترمقه فأغتبط بنظراتها وأحس بأنتفاضة سعادة حين تفحصته بعناية : مالبستش القميص الكاروهات الكحلى ليه ؟ . تحركت ناحية مرآة " الكونسول" وألتفت اليها بنفور قبل أن يهتز بقامته الطويلة يضم طرفى قميصه فى معاينة دقيقة يتداول تفاصيلها مع المرأة : الطقم كله لايق على بعضه ياجاهلة . شعر بالخجل من وقفتهم خلفه ، فأستدار لهم متصنعا هيئة الواثق : بتبحلقوا في كده ليه .. أنتو محسسنى أنى رايح أقابل أوباما . قالها وعاد للمرآة ، طبطب على شعره الأسود الناعم الذى ورثه عن أبوه .. ومن خلال المرآة كانت عمته أيات تبدو الأقرب خلفه ، شبكت يديها على بطنها وتملته .. بدت مشوشة فى وقفتها .. لمحها قبل أن تفض أشتباك يديها فأنتظرها فى المرآة حين أقتربت منه حتى أصبحت كظله .. رفعت يمناها فوق كتفه لتجعله يلتفت إليها بعدما أستقر رأيها على تلاوة بيان مقتضب . أستدار إليها مبتسما بوضعية الأستماع : عايزاك تسوق بهدوء وعقل لسه بدرى على ميعادك . كان ذلك أول بند فى برنامج التحذيرات واجهه يوسف بالحجة : عربيتك أصلا ياعمتى يادوب بتمشى لسه ماتعلمتش الجرى . لم تعلق وأنتقلت لفقرة ثانية : أى

حاجة باباها يعرضها عليك ماتقبلش بتسرع ولهفة خليك تقيل وبينله أنك متردد مرتبك كأنك بتفكر يعنى خليك رزين فى ردودك وأياك تنسى أن أبوك هو المرحوم نديم وجدك خليل السبروتى يعنى لازم همه كمان يفهموا الكلام ده كويس ويحطوه فى أعتبارهم . أبتسم ولم يعقب وأستمر فى تظبيط شعره . أحس بكلمات عمته تستقر داخله حين غاص بنظرته فى المرآة فبدت له ملامحها تناوشه ، تقترب وتبتعد وكأنها تنبع من ذاكرة مشوشة ، كان يستعيد ملامحها يوم ذهابه للمدرسة أول مرة عقب دخول أمه السجن ، كانت نفس الوقفة ونفس النبرة المتحمسة المتباهية : ماتخجلش من أى حاجة يايوسف وأياك تحس بمهانة ولاضعف خليك فاكرأنك أبن نديم وحفيد خليل السبروتى . شجعته الذكرى فألتفت اليها وأنتزع من وجهه أبتسامة وهو يتفرس ملامحها : حاضر ياعمتى .. بس المهم دلوقتى العربية بتاعتك دى حتوصلنى لغاية سموحة ولا لأ ؟! قالها وعاد للمرآة مرة أخرى باحثا عن تفصيلة تستحق التنظيم حين رجع للخلف فى مراجعة نهائية .. كاد يصطدم بأمه التى هرولت خارجة من غرفتها تجر قدميها ومن خلفها أطراف " الروب " . أقتحمته ودارت حوله تتفصحه من قدميه حتى رأسه : بسم اللـه ماشاء اللـه ياحبيبى .. زى القمر . أعتدل لها مبتسما .. لاح لها وجهه ، تأملته ورات على صفحته ماكانت تظنه مفقودا . تراقصت فى عينيها آمال جديدة طالما أنتظرتها . كانت بجانبه تطوقه بنظرة حين مدت يدها داخل جيب " الروب" وأخرجت مصحفا صغيرا حاولت أن تدسه فى جيب بنطلونه الضيق ، فشلت محاولتها فتناوله منها ووضعه فى جيب قميصه : خليه فى جيبك ماتشلهوش يايوسف حيحفظك فى كل خطوة .

ـ حاضر ياماما . تنحنحت بسمة وهى تنقربأصبعيها على كتفه : هو أنت يابنى حتروح كده أيد ورا وأيد قدام مش حتأخد معاك هدية تدخل بيها ؟ كانت ملاحظة هشة أفضت إلى سؤال لاقيمة له فأرادت أن تبدى ملاحظة أخرى فكان عقابها صرخة أطلقها يوسف فى وجهها وهو ينظر فى ساعته : كفاية بقى يابسمة أنا أتأخرت .

ـ ماشى ياعم المهندس حقك . مسح تحت عينيه غير مبالى : نفسى تطلعى منها .

ـ بقى كده يايوسف ده أحنا لسه فى أولها وبتقولى أطلعى منها .. ربنا يدينا زيك . ناولها أبتسامة مصطنعة : ماشى يابسمة لما أرجع . أستوقفته نعمة حين فكت أسر لسانها قبل أن يتخذ طريقه للباب . نطقت بجدية لاتتناسب مع وهن نظراتها وثقل لسانها : أول ماتدخل عتبتهم تقول فى سرك قل هو اللـه أحد تلات مرات . أضافت عليها أيات: وأنت داخل من باب الفيلا خليك فارد كتافك وخلى خطوتك هادية .

ـ حاضر ياعمتى . قالها وأنسحب من بينهم وقد تلاشت عنه القدرة على الأصغاء . بينما عيونهم تتابعه وتلاحقه حتى فتح باب الشقة ليصطدم صدره العريض بباقة زهور بنفسجية تصدرت مدخل الباب . مال برأسه يمينا ويسارا ثم أطل من فوقه ليجد أبتسامة عريضة تنتظره مصدرها وجه نورا التى دفعته بيدها للداخل وبصوت لاهث : تعالى أدخل . تراجع خطوتين : أيه بوكيه الورد الجامد ده .

ـ ده ياحبيبى تأخده معاك .. ده حيبقى قيمتك وأنت داخل . تسلمه منها بيدين متصلبتين وكأنه فى مراسم تكريم .

كانت مفاجأة بالنسبة له وجد فيها أضافة وحضور راقى . وضعت يدها داخل شنطتها ومازالت تحتجزه بجسدها بينما هو يرقبها وهى تطوى ورقة بمائتين جنيه وتحشرها فى جيبه : خليهم معاك ماتعرفش الظروف حتبقى أيه . كانت الجملة الواقعية الوحيدة وسط زحام الكلمات منذ خرج من غرفته . أستوقفته بعينيها : أول ماتوصل عند باب الفيلا رن على عشان أطمن أنك وصلت . تلك كانت أخر أمنية أبدتها نورا قبل أن يتخلص يوسف من كوكبة الحريم موليا ظهره لهن خارجا كمتهم أخلى سبيله بكفالة . خرج برأس تحوى كمية لا بأس بها من النصائح والمحاذير والتوجيهات تاركهم نهبا لمناخ تصاعدت فيه الأمال وصارت الأحلام مشروعة .. أيقن الجميع أنهم على أعتاب عصر جديد .

أستقل يوسف المصعد حفاظا على هيئته .. لحظات وكان متدفقا بخطواته فى وسط المدخل حين أستوقفه نوح بأبتسامة : مبروك ياباشمهندس واللـه فرحتلك فرح كبير أوى وأن شاء اللـه تبقى زى المهندزين العظام اللى بنسمع عنهم زى المهندس حسن فتحى وأمثاله . أبتسم دون تعليق تعمد الصمت لعله يحصل على ختام سريع لكلمة نوح الذى فاجأه بمواصلة الحديث مستدعيا أمورا باتت فى ذمة التاريخ : زمان كان الشاب اللى بيتخرج من الهندسة كان الزعيم عبد الناصر أبو خالد اللـه يرحمه يسحبه على طول ويعينه عندنا فى أسوان يشتغل فى السد . كان يتحدث بلا توقف بينما يوسف بات القلق والضيق شبحان يتحركان فى وجهه متململا فى وقفته وينقل بوكيه الورد من اليمنى لليسرى لعلى نوح يتوقف الذى مازال يتابع : عشان كده يابنى المهندس المصرى سمعته سابقاه فى كل مكان .. لحقه يوسف بنبرة صارمة حين تراجعت ملامحه : لاياعم نوح لغاية كده وحلو أوى أنا ورايا ميعاد مهم دلوقتى وبكرة أن شاء اللـه نتقابل عند الخواجة كرم ونشوف حكاية المهندسين دى . أنهى كلامه ولم ينتظر ردا وأنطلق من أمامه تاركه يتساءل فى دهشة : ماقالش حنتقابل بكرة الساعة كام .

فى تلك الأثناء أنفض مولد المودعين ، أنسحبت بسمة تشد نورا من يدها وصحبتها الى غرفتهما وهى تنوه : عايزاكى تساعدينى فى تظبيط طقم شيك عشان بكره عندى ميعاد مهم جدا جدا فى الكلية .. تفحصتها بتنهيدة ونظرة حادة ، فأمسكت بسمة لسانها عن مزيد من التفاصيل ودخلتا الغرفة . فى حين توجهت هدى أيضا لغرفتها تردد أثناء مشيتها : ربنا يوفقك يايوسف وترجع مجبور الخاطر . ثم أغلقت بابها فأحدث صريره المعتاد . بينما أنحرفت نعمة ناحية المطبخ لعمل فنجان قهوة كما طلبت منها أيات التى دخلت غرفتها تحمل ذكريات تنبض من جديد . بدت هذه الليلة على شاشة الذاكرة تعيدها لزمن " معهد الكونسرفتوار " زمن قديم يستقر فى قاع رأسها . مسحت وجهها بكفيها وألصقت ظهرها بظهر كرسيها الهزاز وأغمضت عينيها ببطء وقبل أن تنزلق الى هاوية الذكريات فتحتهما حين دخلت نعمة فأردفت أيات وكأنها تسجل موقفا : ياه يانعمة .. الواد يوسف النهاردة فكرنى بالذى مضى أيام ماكنت بأروح المعهد لما كان شاكر لسه مدرس بيانو على أده وكنت بأخرج من البيت على سنجة عشرة . مصمصت نعمة شفتيها وصوت هزهزة فنجان القهوة فى طبقه يتراقص بفعل يديها المرتعشة فيضفى موسيقى تصويرية لمشهد أسترجاع أيات .. هى ترى أنها نفس الحكاية لكن فى زمن مختلف .

ـ واللـه عندك حق ياست أيات .. هو كان فى حد أدك لما كنتى تلبسى التايير المشجر والحزام الأحمر أبو وردة كبيرة ماسك على وسطك اللى كان زى العجمية .

ـ آه يانعمة .. زمن ! تناولت الفنجان الذى لم يتطلب منها سوى أربع رشفات لتنهيه قبل أن تتسلمه منها نعمة كالعادة مكفيا فى طبقه لتتقمص كعادتها دور قارئة الفنجان بينما تتابعها أيات وهى تلملم نظراتها داخل الفنجان بانتظار التشكل الأخير لبقايا البن فى القاع ، راحت نعمة تدير الفنجان فى كفها مغرقة فيه نظراتها ، ولكأن وجه أيات قد صار كله حاسة واحدة كبيرة تنتظر الكلمات التى ستفرج عنها هذه الشفاه الداكنة السمرة . أختلست نعمة نظرة فى أتجاهها بطرف عينها النائمة : بعد الخسارة مكسب كبير ياست أيات !!. قالت عبارتها المبهمة ثم غاصت ثانية إلى قاعه تفك طلاسمه . ثم أردفت : اللى باين قدامى أن فى خسارة قريبة حتحصل هنا فى البيت . لكن بعد نقطتين تلاتة حيبقى فيه خير كتير .. والزعل حينزاح على جنب هوه باين ومنور فى الفنجان وكله فى علم الغيب . أستقبلت أيات كلماتها بنفخة ضيق وخيبة أمل : هو أحنا لسه فينا حيل يانعمة نتحمل خسارة ؟ .

ـ ده أحنا زى الفل ياست أيات واللى جاى بإذن اللـه حيبقى أحسن . تأملت ملامحها التى ذابت بفعل الزمن تتسرب منها نبرة ضعيفة مصحوبة بنظرة يأس : هيه لسه فيها اللى جاى .. ماخلاص يانعمة ماعدش فى

وقت ما راحت علينا وكتر خير الدنيا .. يعنى بالبلدى كده أحنا ماعدش لنا لزمة لاجوه البيت ولا براه . أرخت جفنيها على ضحكة ساخرة . أردفت : أنا وأنتى يانعمة عاملين زى اللى راكبين حنطور على طريق سريع الكل بيجرى من جنبنا بعربيات زى الصاروخ وأحنا أصلا مش عارفين إن كانت حزمة البرسيم اللى أكلها الحصان حتوصلنا لغاية فين . أطلقت ضحكة على تعبيرها الأخير لكنها ضحكة لها طعم المرارة .. رفعت نظرها للسقف تئن : آه .. بقيت كركوبة وماليش عازة . أبتسمت لها نعمة وبحثت عن رد مناسب حين أعتدلت فى ركنها : أيه اللى بتقوليه ده ياست أيات.. ده أحنا لنا لزمة ونص أحنا زى الملح فى الأكل يعنى لومالناش عازة مش حتبقى فى حاجة أبدا لها طعم !! .

شعورها كان هادرا حين تضاعف ألم الخسارة فى نفسها بينما عينيها تتخذ طريقها ناحية النافذة مستجمعة ذكريات صارت كلها فى بطن الأرض . غامت فى رأسها كل الذكريات والأمنيات والأحلام وباخت أرادة الحياة ، و أن كل ماكان يخصها ككائن حى فى تلك الدنيا كان قد أوشك على الأنتهاء .

سحبها خيالها إلى بقعة مظلمة تخترق عتمتها شعاع أبيض كثيف أرتطم بوجهها فأعتصرت عينيها تتحاشاه .. صارت فى وقفتها ككتلة صماء واجمة إلا من عينين تتحركان بصعوبة تحت ضغط الشعاع الوقح الذى تتبعت مصدره بصعوبة حتى أنتهت إلى شاشة عرض سينمائى من طراز الرعيل الأول .. بدت أبتسامتها مكسورة حين أجتاحت رأسها مشاهد تنساب فى ترتيب عجيب كفيلم تسجيلى يلخص مواقف تاريخية عن شخصية مهمة .. عبر الشاشة العتيقة وقفت مشدوهه حين بدأ العرض .. صورة غائمة تكشف عن شريط سينمائى ردىء يؤرخ لمرحلة الحرب العالمية الثانية .. صور باهتة ووجوه قديمة تطمس ملامحهم نمنمات بيضاء كبقع فطرية تطفح على الشاشة وخطوط طولية متقطعة تظهر وتختفى ، صورة أجبرتها على كرمشة عينيها وهى تجول فى الوجوه كمعاينة مبدئية حتى لاح لها وجه أمها المندس بين الوجوه وقد لصقت على جبينها لافتة صغيرة كتب عليها " العام 47 " تتحرك بثقة فى الهول الكبير تدهس بأقدامها سجادة فارسية أصيلة المنشأ وصوتها الراقى يصدح فى البيت الكبير : يانعمان الغدا حيكون أيه النهاردة ؟ .أبتسمت أيات الصغيرة وأنتفضت بشعرها المجعد فى زمن برىء من الأستشوار "والبيبى ليس" والكرياتين حين أجاب نعمان الطباخ النوبى : النهاردة ياسوت هانم الغدا شركسية وكوشك الماظية والحلو كراميل . صدى صوته يتردد فى أذنيها حتى اللحظة ، كان لسواد وجهه سكينة تنبع من أنعكاس بياض أسنانه حين يطالعهم كل صباح بأبتسامتة التى تصنع فيهم أمانا غير مفهوم .. قفزت أيات بعينيها للقطة كانت فى خلفية الصورة دون إرادتها لحظة ظهور الستارة الزيتى الضخمة التى

تحبس خلفها نافذة عملاقة ، تأملت حركتها الرتيبة وكأنه عصر ربيعى بلا رياح ولا عواصف . ألتئمت شفتيها بعدما فارقتها الأبتسامة حين أنفصلت عيناها عن خلفية الصورة إلى مركزها متتبعة ببطء جسد أمها المسجى وأبوها إلى جوارها بوضعية الأنحناء يمسح بيده الجبين الذى فقد السخونة .. أتسعت عينى أيات حين أختلطت أمامها التفاصيل بين الجسد المسجى ودموع الأب المكلوم ودهشة " نديم " الصغير حين توقفت أمه عن أحتضانه عندما قررت إلا تجيبه أبدا وهو يلح عليها : ماتسيبنيش ياماما . أصابها المنظر بتسارع النبض وذبول الملامح حين رافقت عيناها المشهد حتى لحظة التسليم والتسلم التى تمت بهدوء بين أمها وعزرائيل فى حضور مؤثر لوالدها الذى فرد ذراعيه يطوى تحتهما نديم وأيات . صوت مبهم لم تتبينه كان مصاحبا للمشاهد يعلق على الأحداث التى تمر أمامها عبر الشاشة ، إلا إنها بعد تركيز وتدقيق تمكنت من الأمساك بتلابيبه عندما كرر الصوت العريض لزمة رافقته مع بداية كل مشهد " ولما كان " صوت منغم جلى النبرات .. مالت برأسها قليلا موجهة أذنها لأعلى لتقوم بوظيفتها لتتأكد من شخصية صاحب الصوت تزامنا مع حركة شفتيها البطيئة المترددة بعدما توصلت لهوية المتحدث الذى تمثل أمامها على شكل خيال ضخم يتحرك قادما من أعلى الصورة تصحبه رهبة وخطوة مزلزلة .. ظل يتقدم حتى أمتلأت به الشاشة ، فأطبقت أيات على خديها بكفيها ككماشة كرد فعل مفاجىء حين أنسحب الخيال للوراء إلى وسط بقعة الضوء التى أظهرتة جزءا جزءا بدءا من القدمين وحتى العنق بينما أيات لازالت تحت طائلة الأنتظار والترقب منتظرة ظهور الوجه .. نشطت حدقتيها تواكب كلماتها المرتبكة : ياربى .. أم كلثوم . قالت جملتها بذهول وفتحت فرجة صغيرة فى شفتيها المطبقتين : أنتى ياست اللى بتعلقى على الفيلم بتاعنا . أجابة توضيحية بصوتها الرخيم : التاريخ مش بتاع حد ياأيات ده تاريخ يعنى يخصنا كلنا وأجدادك ماعاشوش منعزلين فى زمن لوحدهم ده كان زمن يخص بلد بحالها يعنى الكل كان مشارك فيه من أول محمد على وأحمد عرابى وسيد درويش والسعداوى وعم سليمان ومصطفى كامل والسلاطين والأمراء والملوك وعبد الناصر والسادات كل دول كانوا جوه الزمن فى ماكينة التاريخ اللى كان كل واحد منهم يادوب ترس صغير جواها . تلقت أذنيها تلك الجرعة الفلسفية بملامح مدهوشة وأستفسار برىء : قوليلى ياست مين السعداوى وعم سليمان دول . طرحت سؤالها وأقتنصت أبتسامة من وجه الست حملت كل الأجابات والمعانى : السعداوى ده راجل فلاح بسيط عنده تلات قراريط فى قريتى بيزرعهم خضار وعم سليمان ده بواب العمارة اللى أنا ساكنة فيها فى القاهرة وماتستغربيش أنى قلت أساميهم وسط مشاهير التاريخ لأنهم ببساطة كانوا برضه موجودين معاهم فى نفس مشهد الزمن وجوه التاريخ والحكاية بس شوية فروق بسيطة فى الأدوار واحد بيلعب دور السلطان والتانى بواب الكل موجود ومشارك وعشان

كده ماينفعش أقول مثلا زمن أم كلثوم لوحدها من غير ماأحط فيه شندى الجزمجى اللى كان بيلمع جزم الفرقة بتاعتى قبل ماتطلع على المسرح . حاولت أيات أسكات كل الأسئلة والأستفسارات قبل أن تختار واحدة منها : والكلام ده معناه أيه ياست ؟ .

ـ معناه أن كل واحد كان موجود فى الوقت ده هو كان مساهم فى شكل وطعم الزمن بس فيهم اللى كان واضح أوى فى الصورة وفيهم اللى كان مخفى عن العين لكن المحصلة أن كله كان موجود فى الصورة .. فهمتينى ياأيات . خلعت دهشتها : صح كلامك ياست . غادرت أم كلثوم بكيانها الفارع يتبعها ظلها حتى أختفت من المشهد تاركة صوتها يكرر : ولما كان .. أنشق قاع الشاشة معلنا عن ظهور مهيب لوالدها الذى خرج برأسه أولا ثم بقية جسده صعودا حتى أكتمل بنيانه شامخا فى وقفته . مرت عليه أيات تطوف حوله تتحسسه بأناملها كأنها تقيس طولها بطوله الذى أحتواه داخل بدلة صوف أنجليزى وصديرى لميع أشبه بواقى رصاص يتدلى من جيبه الصغير ساعة " زوديك" معلقة فى سلسلة ذهبية أضفت عليه وقارا فوق وقار رأسه التى يسندها طربوش أحمر يحفظ توازنه .. تداعت الصور بأيقاع أسرع وصارت الشاشة خالية من الغيوم وفى تحسن مستمر وهى تطوى السنوات وتأكل مراحل وحقب ، بدت أكثر حداثة حين ظهر والدها وقد طار طربوشه وراء زمنه ورحل الصوف الأنجليزى مع أصحابه إلى أن حانت لحظة التاريخ المضطربة التى وقع فيها أسيرا داخل بوتقة زمن أنقلبت فيها الثوابت وتبدلت الأوضاع حتى برزت لقطته الأخيرة فى ركن الشاشة والتى توقفت أمامها أيات طويلا حين منحها بقايا نظرة قبل أن يرخى جفنيه مستسلما لقدر حام حوله لساعة كاملة تخللتها وصيته الأخيرة : خلى بالك من نديم ومن نفسك . ثم أبتسم أبتسامة أخيرة حين صرح قبل أن تنهار وظائف جسمه : أحنا يابنتى سلالة أصيلة .. بس ياخسارة بقينا نتعد على الصوابع وياريت لما تتجوزى أنتى وأخوكى تبقوا تخلفوا عيال كتير أوى عشان . لم يكمل ولم تعرف أسبابه فتحاشت النظر اليه وهو يرحل .. " ولما كان " .. كانت مصحوبة هذه المرة بعينى أيات التى أمعنت فى وجه جديد تراه لأول مرة مع منتصف السبعينات فكان بجدارة أفرازا حقيقيا لمجتمع " معاك جنيه تساوى جنيه " كان أنعكاس لمرحلة أنزوت فيها الرومانسية وأنحسرت قيم الرجولة والشهامة ككماليات غير ضرورية فى زمن طفحت فيه الأنتهازية والوصولية كفقاقيع فى مرحلة أحلال وتبوير للشخصية المصرية وتحولت إلى سمة من سمات هذا العصر وصمت الجميع بطباعها ، فكان " شاكر" واحد من أقطابها . ظهرت مترنحة فى وقفتها تصرخ منفعلة فى وجهه .. كان مثار دهشتها أن صرختها بلا صوت ومازاد أستغرابها وتوترها حين وجدت نفسها محشورة داخل بدن " أم كلثوم " تقف وقفتها وتهتز هزتها حتى الأيشارب كان معلقا فى يدها بينما الصوت الذى أنفجر منها وخرج مشروخا كان

صوتها .. كانتت تعتلى مسرح سينما " ريفولى" رفعت رأسها لتقابل الميكروفون النازل من أعلى ، كانت تهتف" ياظالمنى " بدت كأستغاثة أطلقتها بكل ماتبقى لها من قوة .. زلزلتها المفاجأة حين هدأت صرخاتها وأنفعالاتها لتجد قاعة خاوية إلا من نفر واحد له نظرة مكسورة ووقفة خجولة .. ضاقت عينيها حتى كشفت ملامحه .. شاكر! . لم يقدم لها التحية بل أستدار هربا من نظرتها التى سبقته ولاحقته حتى رحل مذعورا .

جرت المشاهد فى تتابع بين لحظات فرح عاشتها مع نديم أيام نجاحه وزواجه ولحظات أنكسار تجرعتها فى طلاقها وماتلاها من مرحلة الحبس الأنفرادى التى أختارتها مرورا بوفاة الأخ الوحيد .. وفجأة وقبل أن تنزل كلمة " النهاية " أنطفأت شاشة العرض وأظلمت قاعة التاريخ . أتخذ الأمر من نعمة نداءين ملحين كى تعود أيات من رحلتها داخل آلة الزمن وهى تنادى فيها : أيه التوهان ده كله ياست أيات . بدت الأخيرة كمجذوبة ندهتها النداهة وهى تردد ساهمة : ولما كان .. ولما كان ! .

لازالت بسمة فى تلك اللحظة واقفة أمام دولابها واضعة يديها حول خصرها تتفحص فى حيرة ملابسها المعلقة كأضحية العيد باحثة عن طقم ترتديه لمقابلة الغد بينما نورا على سريرها ممددة بجسد مسترخى وعين تضيق وتتسع بغضب مكبوت وهى تتابع ظهر أختها الذى يميل ثم يعتدل أمام الدولاب فكان جزاء ترددها صيحة أنفعال صدرت عن أختها : بقالك ساعة واقفة قدام الدولاب محتارة عشان تختارى حتلبسى أيه .. يكونش فرحك بكره وأنا مش واخدة بالى . أنهت أنفعالها مشمولا بنظرة حادة كانت رادعة لفض الأشتباك بين أختها والدولاب قبل أن توارب ضلفتيه ثم سارت بحذر حتى أستقرت أمامها : طب قومى ساعدينى يانورا وأختاريلى طقم على مزاجك عشان رايحه بكرة مع أمجد الكلية حيسحب شهادة التخرج بتاعته . قالت عبارتها بأستحياء .. واجهتها نورا ساخرة : شهادة التخرج .. بسم اللـه ماشاء اللـه .. والأستاذ أمجد ده ماقالش لسيادتك خطوته الجايه أيه ؟ بعفويه : مش فاهمة ؟! .

ـ يعنى بيخطط لأيه ولا ناوى يهبب أيه .. فى مشروع حيعمله مثلا ولا وظيفة مستنياه ولا حيكملها صياعة وحيلف بيكى فى الشوارع . أشاحت بعينيها مبتعدة عن وجه كساه الغضب : بكرة حأعرف يانورا . أنتزعت الأخيرة ظهرها من ظهر السرير ومالت بصدرها حتى باتت فى مواجهتها : هيه لسه فيها بكرة .. ماتسيبك بقى من الهبل والعبط اللى أنت عايشه فيه ده .. أنا نفسى أعرف أنتى عاجبك أيه فى البنى أدم ده ، شاب عادى وأقل من العادى كمان لا له مستقبل ولاعنده حاجة يتسند عليها ظروفه متنيلة ماحيلتهوش أى حاجة يوحد بها ربنا يبقى أنتى متمسكة بيه ليه وعلى خيبة أيه ؟ ثم نظرت فى عينيها طويلا كأنها تنتزع منها أعترافا : ماتجاوبينى يابسمة ؟ لم تعترف .. شردت لثوان . كانت دائما ما تدخل فى صراع مع عقلها

حول تركيبة شخصيته ومفردات طباعه الذى دائما ينتهى لصالحه . كم تكره هجوم أختها المفاجىء وتدخلها السافر فى عواطفها وترفض بأصرار منطق الوصاية وفكرة كونها غبية ومغرر بها ، أنها تدرك تماما أيجابيات أمجد وسلبياته التى أصبحت محل نفور جميع من أقترب منه . كان على قناعة بأنه سيتبدل متى أستقامت أحواله ، وأن مافى أذهان الأخرين عنه بأنه أنتهازى ومنافق ليس ناشئا إلا عن لبس، وبالرغم من ذلك فان شيئا ماكان يدفعه فى عناد عن أدراك الحقيقة كاملة ، بينما هى تعلم جيدا أن له طموح عابر لأمكانياته وقدراته ، فهو لايقبل الحياة على نحو ماتعرض له .. كان ينتظر من الحياة شيئا أخر غير هذا الفقر وهذا النقص .

قاطعت نورا شرودها : سؤالى صعب للدرجة دى ولا مش لاقيه رد ! أرتعشت بنبرتها : أنا بحبه يانورا وكل اللى قلتيه عنه مايعيبهوش بالعكس أمجد طموح جدا وعنده أحلام كتيرة ومستنى الفرصة عشان يحققها كلها وآهو على الأقل أحسن من شباب كتير .. تعالى عندنا الكلية وشوفيهم عاملين أزاى ولا بيفكروا فى أى حاجة .. نصهم تافهين والنص التانى عقله ضارب ، واللـه يانورا أمجد كويس جدا وبيحبنى بجد . تعالت أنفاس الأخيرة ولم تتفوه بكلمة وأكتفت بنظرة " أرف" تجاهلتها بسمة وواصلت دفاعها : تقدرى تقوليلى أيه الفرق بين أمجد وشريف ؟! سؤال مباغت غير متوقع أرتطم برأسها مباشرة ، حاولت أستيعابه بهدوء مبالغ فيه وتحاشت الرد وأنسحبت بعينيها بعيدا عن وجه أختها المتحدى التى تولت الأجابة : الأتنين تقريبا زى بعض متخرجين من نفس الجامعة ومستقبلهم همه الأتنين فى علم الغيب والأتنين ماحيلتهومش حاجة لا ورث ولافلوس ولا أى حاجة . خرجت جملتها الأخيرة بأنفعال ثم سكتت لأتاحة الفرصة لنورا كى تعقب أو تدافع ، إلا أنها أكتفت بنظرة غاضبة كانت محرضة لبسمة لمواصلة هجومها : لو عايزة الصراحة ومن غير زعل أمجد فى نظرى أحسن من شريف بكتير على الأقل مش ساكت عايز يعمل حاجة بيفكر ويخطط عشان يثبت وجوده بعكس شريف اللى مصدق لقى شغلانة أى كلام فى مول لزق فيها وقال أحمدك يارب وراضى بيها ومبسوط مادام عمو خيرى بيصرف على البيت ومعونة أخوه نادر مظبطاه .. يبقى بذمتك ودينك مين الأحسن شريف ولا أمجد ؟! . ضغطت نورا أضراسها فأصدرت صوتا يشبه " الخربشة" كمن يمضغ رملا فتحرر لسانها المحبوس كثور هائج مطلق السراح : بالبساطة دى وبالبجاحة دى بتقارنى شريف أبن سميحة هانم والأستاذ خيرى علم الدين بحتتة عيل كله على بعضه مايساويش أتنين جنيه .. أنتى خلاص عقلك ضرب وأتهبلتى بقيتى مش عارفة أيه اللى يفيدك وأيه اللى يضرك ، الواد ده بيلعب بيكى وبيشتغلك وواخدك سلمة وأنتى زى الهبلة ماشية وراه معمية لا قادرة تشوفيه على حقيقته ولا تفهمى حتى شخصيته الطماعة .. ياخسارة . أنهت هجومها الحاد ثم نظرت لها

نفس النظرة التى كانت تحذرها بها من الأخطاء دون أن تنطق بحرف . كان عليها أن تعود لبداية الحديث حين شرعت تتهمها : أنا مش قادرة أصدق أيه التغيير الفظيع ده من أمتى يابسمة بتردى على الكلمة بكلمتها وبتجادلينى بالبجاحة دى وكمان عايزة تطلعينى غلطانة وأنتى عارفة كويس أوى أنى أنا الصح .. كل ده عشان سى أمجد .. معقولة ؟! سكتت بعد كلمتها الأخيرة ترسم ذهولا وأنسحبت للوراء وعينيها لم تفارق وجهها تدقق وتنفحص كمن يشخص مرضا قبل أن تلقى عليها أستنتاجا توصلت اليه . أردفت : أنا عارفة كويس مين اللى لعب فى دماغك كده وغيرك وخلاكى تتكلمى معايا بالطريقة دى . بدت كلماتها كلكمات قوية قضت تماما على مظاهر الأحتجاج فتراجعت بسمة وغطى وجهها خجل وأرتباك : واللـه ماكان قصدى أزعلك أنتى فهمتينى غلط ده كان يبقى أخر يوم فى عمرى لو قصدت أضايقك . ثم مالت عليها تدلك ركبتيها طمعا فى أبتسامة رضا لم يحن وقتها . فتابعت توضح سلامة موقفها : ومين فى الدنيا دى بحالها يقدر ولاحتى يفكر يلعب فى دماغى " SORRY " يانورا فى النقطة دى بالذات أستنتاجك مش أد كده ده أنتى حبيبتى وأختى وأمى وصاحبتى وكل حاجة لى فى الدنيا . سحبتها تلك الكلمات إلى منطقة هدوء وأرتياح ، فأطبقت عينيها فى أغماضة طويلة جعلتها تسكن وتطمأن لوضعيتها فى نفس أختها .. فقط مايعنيها أن تحتفظ لنفسها بالقدر الكافى الذى يضمن لها الصدارة دون أدنى مشاركة من أى طرف يهدد سلطتها أومكانتها ، دون ذلك فترى فيه تهديدا صارخا ويسحب ماتبقى لها من أسباب الحياة . أخيرا نالت بسمة نظرة رضا عبرت عنها أبتسامة واسعة من نورا قبل أن تجذبها بعفوية إلى صدرها فأستسلمت لها دون مقاومة وعادت لسيرتها الأولى فأراحت رأسها على نهدى أختها التى مرت بأصابعها على الشعر الهش تعبث فى خصلاته فأصابها خدر كاد يسلمها لغفوة إلا أنها أبت الأستسلام حين أنتفضت ترفع رأسها فجأة كمن أستعاد ذاكرة مفقودة : إلا قوليلى يانورا أنتى عايزة ماما تتحجب ليه ؟! سؤال طرحته بلا مقدمات وعلقت عينيها فى وجه أختها التى أنزاحت للوراء وطرحت رأسها على الوسادة فاردة ساقيها ونبرة مسترخية : كل الستات اللى فى سنها محجبات مش عجبة يعنى .. هيه أشتكيتلك ؟ كأنها تنفى تهمة : لا واللـه دى كانت بتسألنى عن محلات طرح كويسة عشان حأخرج معاها نشترى كام حاجة . صمتت كأنها تتدبر أمرا . أفصحت : وحتخرجوا أمتى ؟ .

ـ يعنى يومين تلاتة . بدا جوابها مهما لها وكأنها ستبنى عليه لاحقا ترتيبات هامة فى أطار خطة وضعت تكتيكاتها عقب سماعها للمكالمة الليلية التى دارت بين أمها وخيرى بعدما أختلت بنفسها فى غرفتها ودرست الحدث المفاجىء من كل جوانبه .. كانت تحتاج بشدة لخلق أزمة لتهيئة الأجواء لما ستقدم عليه ، فبدأت بتنفيذ أول بند فى خطتها حين سددت عدة نظرات لتليفونها المحمول وهى فى وضعية التأمل

والأستنفار وكأنها تستلهم منه الخطوة القادمة بعدما عبثت به للحظات قبل أن ترفعه فى مواجهة عيناها تتدبر فكرة راسمة قوسين بحاجبيها ثم أتجهت بأبهامها فى ضغطة مفاجئة أظهرت لها قائمة الأسماء فأختارت منها دون تردد أسم " شريف " . وجهت نورا نبرة تحذيرية خاطبت بها أختها : عايزاكى تبلغينى بالظبط حتخرجى أمتى مع ماما . تجاوزت علامة الأستفهام وأستفسرت بفضول : ليه يانورا ؟! .

ـ من غير ليه هو أنا مش من حقى أعرف حتخرجوا أمتى !. ردها سمح لها بأبداء دهشة: أنا مش فهماكى ماتقولى فى أيه بالظبط .

ـ بصراحة كده بفكر فى حاجة حتعرفيها بعدين بس ياريت ماتكونش ماما موجودة فى البيت فى الوقت ده !. خبطت الكلمات رأسها ورغم محاولتها الحفاظ على مساحة الأحترام إلا أنها طرحت تساؤلا : أنتى متضايقة من ماما ليه يانورا .. حاسة بيكى كده أنك مش مبسوطة من وجودها معانا وده باين أوى فى

معاملتك معاها لابتكلميها ولابتقربى منها ولاحتى بتشاركيها فى أى حاجة ودايما معاملتك معاها ناشفة . كان عليها أن تتظاهر بطبيعتها : يعنى عشان مابتكلمش كتير معاها ولاباقرب منها يبقى ده معناه أنى متضايقة من وجودها .. طبعا لأ يامتخلفة ، بس كمان هى لازم تفهم أن وضعنا وظروفنا كلها أتغيرت دلوقتى وبقى كل واحد فينا عارف دوره ومسئوليته فى البيت يعنى ماينفعش حد يظهر لنا فجأة ويبقى عايز يغير لنا النظام اللى مشينا عليه كل السنين اللى فاتت .

ـ بس ماما ماقالتش أبدا أنها عايزة تغير نظامنا ولاتقلب حياتنا دى حتى أصلا مابتتدخلش فى أمورنا خالص لامن قريب ولامن بعيد .

ـ من غير ماهى تقول ولاتحاول المفروض أنها تمشى معانا زى ماأحنا ماشيين . قالتها بأداء من يتبنى نظرية فاشية أقصائية بينما شعرت بسمة أنها فقدت القدرة على التواصل والفهم : طب هى أيه اللى عملته بالظبط خلاكى تقلقى كده .

ـ أنا فاهمة ماما كويس وعارفة أيه اللى بيدور فى دماغها .. هيه عايزة ترجع الزمن بضهره عايزة ترجعنا زى ماكنا من تسع سنين ضعاف لاحول لنا ولاقوة عشان ترجع تتحكم فينا وتخلينا محتاجين لها ويبقى مصيرنا فى أيديها تانى عشان ترجع تدمرنا زى مادمرتنا وحطمتنا قبل كده بسبب تصرفاتها المجنونة واللى كلنا بندفع فيها تمن لغاية دلوقتى من سمعتنا وكرامتنا وكفاية أنها حرمتنا من وجود الأم فى وسطينا فى وقت كنا محتاجين لوجودها . سكتت لالتقاط أنفاسها المتهدجة . ثم تابعت بنظرة ثابتة فى

عينى أختها : عشان كده مش مسموح لها أبدا ترجع تتحكم فينا تانى .. خلاص هى خدت فرصتها كاملة . لم تتفوه بسمة بكلمة واحدة تاهت فى المفردات والمعانى بينما تستعيد نورا بعصبية مابدأته : تقدرى تقوليلى هى فكرت ليه فى حكاية الشغل فى الوقت ده بالذات ؟ أبتلعت ريقها بصعوبة: يعنى تغيير بدل ماهى قاعدة لوحدها طول اليوم .

ـ لأ طبعا مش ده السبب عشان المنطق بيقول أن الأنسان اللى بيبعد عن بيته سنين طويلة لما بيرجع تانى بيبقى ماسك فيه بأيديه وسنانه ويبقى مش عايز يفارقه لحظة واحدة عشان يعوض سنين البعاد .

ـ تقصدى أيه يعنى ؟! .

ـ ماما كل اللى بتفكر فيه أزاى ترجع زى الأول وتبقى مسيطرة ع البيت وعلينا وترجع تتحكم فينا والكل يسمع كلامها من غير مناقشة وده طبعا ماينفعش يتحقق إلا لما يكون عندها شخصية قوية وعشان ده يحصل لازم يبقى معاها فلوس عشان كلمتها تتسمع . هرشت جبينها كأنها تستغيث : حأفترض معاكى أن ماما هو ده تفكيرها وهى دى خطتها .. أنا برضه شايفاه عادى جدا وطبيعى هيه حرة فى تفكيرها . قالت وجهة نظرها ثم سحبت قدميها وهبطت إلى أرضية الغرفة وقد أشتعلت ملامحها بحالة من التعمق والتأمل وهى تقيم الحجة : يانورا ياحبيبتى أحنا مش قصر عشان حد يتحكم فينا بالبساطة دى ولو فرضنا حتى أن ده حصل ماتنسيش برضه أنها أمنا ومن حقها تعمل أى حاجة هيه شايفاها.. حاجة واحدة بس اللى عايزة أفهمها .. ليه متخيلة أن ماما عايزة تتحكم فينا ؟!. أدركت نورا ماتخفيه أختها من غصة فى صدرها جراء هجومها الغير مبررعلى أمها فهزت رأسها بتفهم قبل أن تحتوى حنقها : من الأخر كده ومن غير لف ودوران ماما كل اللى بتعمله ده عشان تحقق حاجة واحدة بس .. أنها تبعدكم عنى بأى طريقة مهما أن كانت والدليل على كده أنها بتحاول تقلدنى فى كل حاجة .. بدأت بخطوة الشغل وأختارت أتيليه زيزيت بالذات ودى طبعا مش صدفة أبدا هيه قاصدة أنها تكون فى نفس المكان اللى أنا فيه عشان تثبتلى أنها ممكن تبقى زيى وتقدر تنجح وتكسب فلوس ومش كده وبس دى كمان بتخطط لحاجة تانية أكبر بكتير من حكاية الشغل والصدفة بس هى اللى كشفتها .. لكن للأسف مش حأقدر أقولك عليها دلوقتى . تهدل فك بسمة السفلى فى دهشة وغمرها شعور بأنها تسكن مكانا تنشط فيه المؤامرات وتعشش فى أركانه الدسائس فمسحت وجهها بكفيها تنفض عن نفسها حالة أكتئاب زرعتها نورا وكلماتها فى الغرفة فحاولت أن تستعيد طبيعتها : ياترى يوسف يكون وصل ولا لسه ؟ .

ـ مش عارفه بس لو الطريق سالك يبقى يادوب على وصول وبينى وبينك مش عايزة أتصل بيه دلوقتى عشان مايتلبش وهو بيسوق .

الفصل العاشر

لابد لمن يسعى من محل أقامته بمنطقة محطة الرمل إلى مقصده بمنطقة سموحة حيث موقع فيلا " أحمد الشهاوى" والد هدير أن يخلف وراء ظهره شارع بورسعيد قبل أن ينحرف إلى داخل شارع " لاجتيه" مجتازا طرفه الجنوبى قاطعا شارع أبى قير بأتجاه كوبرى الأبراهيمية قبل أن تستقبله منطقة سموحة من أول نقطة فيها حين تظهر " عزبة سعد" كومباوند للفقراء والذى مر بها يوسف كمنطقة عبور إجبارية تستوجب من كل سائق أن يظهر براعة وجسارة عند مروره بتلك المنطقة التى تنشط فيها المطبات والبرك والمستنقعات .. أجتازها يوسف مترنحا داخل سيارة عمته التى أطلقت كل الصرخات من كل أجزاءها كمريض تجرى له عملية جراحية بدون " بنج " ثم ينتهى بالساعى المسير إلى وسط سموحة منطقة " هاى كلاس" تجتمع فيها أحياء الأثرياء وتتمترس خلف محلات فخمة ومولات تغطى حاجاتهم تطل على شوارع عريضة تسكنها الأشجار ولاتفارقها الأضاءة طوال اليوم .. منطقة أستثنائية تعد موطنا لنوعية متميزة من البشر بنت نفسها على الطراز الحديث وحسب المقاييس العالمية المعمول بها من حيث الأحجام والمقاسات وسحنة الوجوه التى تطفح بالنعمة . لاحت أمام عينيه أسوار الفيلا التى أزدحمت بفوانيس مضيئة ، فتباطأ بالسيارة حتى بلغ بوابتها الكبيرة الموصدة ، توقف كمن لايملك تأشيرة دخول ، أطل برأسه من نافذة السيارة قبل أن يرفع يده ملوحا لعم " سالم " الذى أسرع مقتربا يهتز بجسده الخالى من العظم . فتح البوابة : أتفضل يابيه . عبر يوسف البوابة فى حراسة نظرات مشمئزة من عينى "سالم " الذى مط شفتيه مرددا فى أسى : دى عمرها ماحصلت عربية عدمانة زى دى تدخل الفيلا . لم يشعر يوسف بالرجفة العابرة التى أجتاحته فى الزيارة الأخيرة. هبط من السيارة ملخوما ببوكيه الورد ، تلاشى أرتباكه سريعا وأتزن فى مشيته حتى صعد السلم فكانت " نجاة " الشغالة أول مستقبليه التى تسلمت منه البوكيه بحرص زائد وأحتضنته كطفل رضيع وأشارت له بالدخول .. مشى خطوات قليلة حتى قطعت عليه هدير ممر الوصول الممتد إلى " الريسبشن " الرئيسى كقاطع طريق لم يتقن مفاجأة فريسته . بأبتسامة والدته التى حظى بها دون أخوته قابلها فى همة وحماس : حمد اللـه على السلامة .. وحشتينى أوى أوى أوى !. أراد أن يحتوى أصابعها ، سحبتها ببطء وهى مهزوزة كالحجر فى غير موضعه : اللـه يسلمك يايوسف . شيىء فيها لم يكن يألفه .. لا وهج العينين ولا أشراقة الوجه ولاتورد الحياة . شيىء ما

فيها بدا حزينا . أبتسمت أبتسامة باهتة ثم تجاوزته بنظرتها كأنها ترى فيما وراءه شيئا لايراه . لكنه كان بالقطع شيئا صادما رأه فى تحير عينيها ورعشة جفنيها .. تحرك للداخل وسارت الى جواره بقامتها المتوسطة تنظر ناحيته بنظرات مستغربة وكأنها تراه لأول مرة .

لم تعالج سفرية تركيا الجروح الدامية التى لحقت بها وأن بدت ظاهريا متماسكة ، غير أن ألمها كان ينبع من خلاياها وكلما حاولت أن تطمس ذاكرتها وتتناسى كانت تتجدد داخلها أنسجة الحزن والمرارة .

مصدر تلك الحالة المريعة القاسية كان تقريرا وافيا موضوعا على مكتب الحاج " أحمد " والدها الذى لم يعد لديه لسانا ينطق به مكتفيا بملامح مصدومة وأعضاء متصلبة حين تلقى ردود " صبرى" سكرتيره الخاص التى كانت حاسمة وقاطعة : أسمها هدى عبد الفتاح أسماعيل وبطريقتى زى ما أنت فاهم سألت حبايبنا فى الجوازات وأتأكدت أن الست دى عمرها ماخرجت بره مصر بمتر واحد . أستطال وجه الحاج أحمد وأهتزت أصابعه تنقر على المكتب فى عصبية وترقب حين سكت " صبرى " لألتقاط أنفاسه ليستعيد بعدها قوة دفع تشى بمفاجأة قادمة : رحت ولفيت نواحى البيت بتاعها فى محطة الرمل .. وسبحان اللـه ربنا رزقنى بسرعة بشاب فلاح أسمه أنور شغال حارس فى العمارة بالليل لاغيته براحة وخدته على جنب وبرزت له الخمسيينايه وسألته عن يوسف وأمه وأيه قصة الناس دى . أستند الحاج بظهره إلى الكرسى الجلدى . بنفاذ صبر : قاللك أيه أخلص ؟ .

ـ قالى الناس دى من عيلة كبيرة أوى أصلهم باشاوات زى مابيسمع عنهم وهمه ناس فى حالهم بس الست هدى أم يوسف كانت فى السجن ولسة خارجة . تجمدت حدقتيه على وجه " صبرى" كالذى يجلس فى أستوديو تصوير موديل الستينات حيث الوجه المتصلب والعيون الميتة ، بحركة بطيئةولسان مرتجف : فى السجن ياصبرى ؟! . مارس الأخير وظيفته وسرد تفاصيل غير مهمة حتى أنتهى الى الخلاصة : قتلت شريك جوزها اللى نصب عليها بعد جوزها مامات .. لم يتبق فى وجه الحاج الا صدمة تعادل صدمته عقب أعلان نتيجة أنتخابات الرئاسة !!.

أنحشرت الكلمات فى حلقه وهو يعلن زوجته بما ورده من معلومات التى أهتزت لها كجبل من "جيلى" مصحوبا بدوخة وعدم أتزان ، لم تصبر عليه وتهالكت على كرسى وهى تعيد وتكرر بنبرة من تخرج روحه من حلقه : قاتلة .. قاتلة .. يانهار أسود ومنيل .بقيت مرتبكة وغير مصدقة لمدة عشر دقائق قبل أن تعود لطبيعتها بكمية لا بأس بها من السباب واللعنات طالت يوسف بشخصه وصولا لباقى شجرة العائلة . بينما أستقبلت هدير حكاية يوسف وأمه على لسان أمها التى زاد فيها الحبكة الدرامية وعنصر المفاجأة خلاف

المط والتطويل والدعاء عليه وعلى أمه عند نهاية كل تفصيلة ، راحت تمط وتمط كمسلسل من ثلاث أجزاء فى حين أن هدير تهوى وتهوتحت ضربات عنيفة على شكل كلمات قاسية ومتصلة لم تسكت أمها عن الكلام ولو لألتقاط الأنفاس أو حتى لفقرة أعلانية طارئة ، بل كانت تستعيد وتسترجع كل عباراتها السابقة : أنا قلتلك ياهدير بدل المرة عشر مرات .. الواد ده أنا مش مطمنه له أبدا شكله مش سهل عينيه جريئة كده وبيتلون زى الحية .. واللـه كان قلبى حاسس أن الواد ده وراه مصيبة والحمد للـه ربنا كشف سترهم ولولا زيارتك لهم فى البيت هى اللى كشفتهم كان زمانك لسه مضحوك عليكى لغاية دلوقتى ومش عارفة حاجة مع أنى كنت زعلانة من حكاية الزيارة دى عشان مايصحش بنت الحاج أحمد الشهاوى تعمل حاجة زى كده وترخص نفسها لكن أرجع وأقول الحمد للـه كانت سبب عشان تكشفى أرتباكهم وتعرفى حقيقتهم وخير ماعملتى أنك بلغتى أبوكى بشكوكك ومن اللى سمعتيه منهم . لاشيى فى عينيها أو ملامحها يوحى بأنها حاضرة . توقفت الكلمات فى أذنيها .. ضمت خديها بين كفيها ، حاصرها صداع بدا كالمسامير يدق فى مؤخرة رأسها . بح صوتها وهى تصرخ بما تبقى لديها من عافية ، كفاية ياماما .. كفاية مش عايزة أسمع حاجة تانى . كان ذلك فوق طاقتها .. لم تتماسك ، حاولت أستيعاب اللكمة القاضية التى أطاحت بها فقامت تستند على مقعدها .. ترنحت ثم بركت على الأرض منهارة دون وعى ، تلك كانت البشارة بأرتفاع ضغط الدم فجأة فى رأسها .

بعد أجتماع طارىء جمع أبوها وأمها فى حضور الطبيب المتابع ، قرروا فيما بينهم بحتمية أبعادها عن الأسكندرية مكان الخديعة الكبرى التى خصمت من عمرها خمس سنوات . فكانت بلاد أتاتورك سابقا " أردوغان " حاليا هى المشفى الأختيارى لحالتها .

أستغرقت رحلة النسيان والتعافى فى تركيا أسبوعين كاملين تظاهرت بالثبات والتماسك خلالهما ، كانت تشعرهما بتحسن حالتها خاصة بعد الأسبوع الأول الذى مر قاسيا عليها كمدمن لازال فى مرحلة أنسحاب المخدر من دمه . لم تجد هدير غير تلك الخلفية فى ذهنها .. جملة رددتها أمها فى مطار أسطنبول قبل الصعود للطائرة : من الأول وأنا مش مطمنه للولد ده ، شكله كده عامل زى اللغز ولد أبن حرام عرف أزاى يلفك ويضحك عليكى . بينما كانت أجابات هدير دائما حاضرة وجاهزة ، لم تكن كلمات أنما دموع ونظرات . لم تستطع أسكات أمها التى واصلت بلا توقف : أنا حأتجنن ياناس أزاى فى بنى أدم فى الدنيا ممكن يكدب ويعيش خمس سنين من غير مايراجع نفسه ولو مرة واحدة مهما كانت الحقيقة مرة !! .

ـ أحنا قلنا أيه ياثريا مش عايزين كلام فى الموضوع ده تانى . كانت نبرة تحذيرية أصدرها الحاج أحمد أسكتت زوجته مؤقتا وأراحت هدير من لسان أمها المنفلت . تقدمت المضيفة البيضاء من هدير تحيطها بذراعيها وتحتضنها بحزام الأمان وهى تبتسم فى وجهها بينما الحزام المربوط على وسط أمها لم يمنعها من تكرار محاولة " اللت والعجن " فكان صوت قائد الطائرة هو صوت الرحمة حين هنأ الركاب : حمدالله ع السلامة .

سبقته هدير بخطوة بأتجاه الصالون بينما هو خلفها يتبعها فأنزلقت نظرته دون قصد إلى مؤخرتها فرأى فيها ضعفا وهزالا ، حاول فهم الجدية والأرتباك اللذان لحقابها : هى أيه الحكاية ياهدير هو أحنا متراقبين ولا أيه ؟! لم يفلح فى أنتزاع أى كلمة منها قبل أن يدلف إلى الصالون المهيب ، تركته وتراجعت الى الممر دون كلمة واحدة قبل أن ترميه بنظرة أستكشافية تبحث فى ملامحه عن الوصف الذى توصل إليه والدها : الصنف اللى زى ده يابنتى اللى يخدع الناس بالطريقة دى يبقى مالوش أمان وعمر عشرته ماتبقى مضمونة ده بيبقى عامل زى الجاسوس لاعنده أخلاق ولاضمير . جلس يوسف متوترا وقد غاصت قدميه بسجادة عليها عرش من الأزهار يحف بكرسيه ، لحظات ودخلت " نجاة" بالشاى وضعته أمامه وأنسحبت.

كان الصالون أقل بهجة ، تشيع به المخاوف الطارئة وبدا باردا .

دخل الحاج " احمد " يرتدى بدلة رمادية وقميص سماوى وملامح جافة يسحب خلفه زوجته التى تلتصق بظهره تترجرج داخل بلوزة سوداء وبنطلون من نفس اللون رافعة حاجبيها لأقصى أرتفاع تحمل تحتهما عين تستدعى شرا لا تخفيه ومن خلفهما هدير منكسة الرأس وكأنهم فى طابور جنائزى ، شد يوسف جسده فأردا طوله إلتزاما بنصيحة عمته ، مد يده مصافحا " الحاج " الذى بادرة بأبتسامة جليدية : أهلا يايوسف أتفضل أقعد . تجاوزته أمها دون تحية وجلست فى مواجهته كنمرة فى وضعية الترقب أستعداد للهجوم ، أستقبل يوسف عدم مصافحتها له وكان حجرا سقط على أم رأسه ، حاول أن يفهم السبب من خلال نظرة خاطفة لهدير التى توارت داخل كرسيها وغاصت معها رأسها بين كتفيها ، فنظرت له فى وهن وهى تهز رأسها فى يأس من يدرك أن النهاية تقترب . حين ساد الصمت فى الصالون الذى بدا كصمت الموتى أرسل يوسف نظراته مستطلعا الوجوه لعله يستكشف مجهولا ، أستوقفه منظر هدير حين رأى أصابعها وهى تتشابك وتنفرج ، تتلاحم فى عنف ثم تتباعد وهزهزات الساقين لاتتباطأ ، فأنتظر لحظات يفرك أصابعه بلهفة المترقب فى وجه الحاج أحمد الذى أستهل حديثه مبديا هدوءا ينم عن خبرة ماكرة

فى فنون التعامل مع كل المواقف : أخبار الست الوالدة أيه ؟!. جفت شفتيه بسرعة متصنعا ثباتا مزيفا : الحمد للـه كويسة . تابع الحاج حين أعد المقدمة المطلوبة : الصدق يابنى فضيلة ربنا بيزرعها جوه الأنسان عشان يتعامل بيها مع الناس ويبقى واضح وصريح معاهم وتخليه يكسب أحترام اللى حواليه .. كلامى ده مظبوط ولاعندك أعتراض عليه . بهت يوسف ، لم يكن ذلك الوجه الذى رآه فى الزيارة السابقة وأردف بعد أن لوى رقبته ثم رشقه بنظرة صقر : فيه علاقات يابنى بتبقى عابرة بين الناس وبعضها ودى مش مطلوب فيها أن الأنسان يكشف فيها عن أسراره أو حتى عن ظروفه الشخصية ، لكن فى علاقات بتتبنى أساسا على الحب والأرتياح والعشرة وفى الحالة دى بالذات لو مافيش فيها صدق وصراحة تبقى العلاقة مش سليمة ومزيفة مش حقيقية . بينما أمها تتمعن فى النظر إليه وهى ترصد أنطباعاته ، لم يكن غيظا ذلك الذى تكظمه ، كان شيئا أخر كهجير فرن محمى يلهب داخلها ، بدت كفوهة بركان توشك أن تلفظ حممها . واصل الحاج أحمد مابداه من تمهيد قبل أن يميل بجبهته مستندا بمرفقيه على ركبتيه رافعاعينيه ببطء فى وجه يوسف : أسمع يابنى أنا طلبت من هدير أنها تجيبك هنا عشان أقولك كلمتين فضلت أنى أنا اللى أقولهملك بنفسى .. ياريت من النهاردة تبعد عن هدير وتسيبها فى حالها وأنتبه أنت لمستقبلك عشان ده فى مصلحتك ومصلحتها وده مش قرارى لوحدى ده قرارنا كلنا . أحس يوسف بأقتراب فساد جلسته حين ألتقت عيونهم تستطلع وقع الخبر دون أن تدرى هدير ماتقدم أو تؤخر .. أختصر يوسف تخبطه وأضطرابه وأرتفاع كمية الدم المندفعة الى وجهه الذى بدا مشتعلا بحمرة قانية بسؤال : ليه ؟! . أختصر أيضا رده : ظروفك يابنى غير ظروفنا . تعمدت هدير أن لاتنظر له فى تلك اللحظة إلى وجهه . وأنتظرت صوته : مش فاهم حاجة حضرتك .

ـ أنا عايز أسألك يابنى عمرك سمعت عن منطق فى الدنيا يخلى أنسان يكدب خمس سنين على أنسانة بيقول أنه بيحبها ومافكرش ولو مرة واحدة يراجع فيها نفسه ويصارحها بحقيقته ؟ تساؤله لم يدم طويلا ، أعطى لنفسه حق الرد نيابة عنه : متهيألى البنى أدم اللى يتقن الكدب بالشكل ده ويتنفسه زى الهوا .. يبقى أكيد جزء منه وصعب أوى على أى حد أنه يثق فيه ولا يأمنله ! بينما زوجته فى تلك اللحظة تتسع حدقتيها حتى تصبحا كقرصى شمس لاهبة : اللى يضحك على بنات الناس يبقى ندل وخسيس وبنات الأصول ماينفعش معاهم الصنف ده . كانت مباغتة وصادمة . فتسلم منها زوجها الحديث كى لاتنساق لأبعد من ذلك : مافيش حاجة بتتدارى على طول يايوسف وكل كدبة ولها أخر .. لما والدتك كانت فى السجن ليه ماصارحتش هدير من البداية ؟. تمددت ملامح يوسف وتهدلت . أردف حين لم يجد مقاطعة : بلاش من البداية بعدها بسنة ولا أتنين لما أتأكدت فعلا أنك بتحبها وهى بتحبك ليه

أصريت على الكدب وأتماديت فيه مع أنك كان قدامك فرصة كبيرة تشرح لها وجهة نظرك بكل صراحة وتحكى وتفهمها ظروفك وبعد كده سيب الطرف التانى يقرر بنفسه يكمل معاك ولامايكملش .. لكن أصرارك على الخداع والكدب ده معناه أنك أنسان غير مؤتمن . الأمر بالنسبة إليه كان سهلا ، لهذا قالها بجرأة لايستطيع أن يدعى أنها ذلة لسان ، مثله لايذل لسانه أبدا هو يعرف كيف يصوغ مايريد بالقالب الذى يريد فى الوقت الذى يسمح .

أغمض يوسف عينيه محاولا طرد نوبة طرق مفاجىء زلزلت رأسه ، كان ذلك فوق طاقته ، أجتاحه التوتر . تداعت فى مخيلته الجمل المنتظرة التى تقال فى مثل هذه المناسبات والتى ألف رؤيتها وسماعها فى الدراما المصرية : أطلع برة بيتى ياكلب .. أياك تقرب من بنتى مرة تانية ياكداب ياحقير . تحسس جبهته دون وعى فى حين أكملت هدير فحصه حين نطق : فى الحقيقة أنا كنت حأشرح لهدير كل حاجة .. بس كنت مستنى الوقت المناسب عشان أفهمها الظروف كلها . أنتظرتفهمها أو أستجابة ، هرب من نظراتهم إلى الصينية ، رفع كوب الماء يتجرعه ، أهتزت أصابعه وشفتيه وتناثرت بقايا الماء حول فمه بينما أستقبلت أمها كلماته بنفخة ضيق قبل أن تصدر صوتا يعلوه تحد ولا يخلو من نزعة أستعراضية : كنت قبل ماتشرح لها وتفهمها كنت فهمت نفسك الأول هدير تبقى بنت مين وأبوها يبقى أيه عشان كل واحد يعرف حجمه ووضعه . أنهت كلامها وعيناها ثابتة فى وجهه وهو جالس بلا حيلة يبتلع فى بطء مرارة الكلمات بعد أن أصبح محاصرا بضرورة الكلام أو الفعل ، فأضطر وهو يرتعش أن يتعرى كليا من بقايا كرامته : ماكانش فى حل قدامى غير أنى أخبى عليها مع أنى واللـه حاولت أكتر من مرة أصارحها ، بس للآسف ماقدرتش كانت كل يوم الكدبة بتكبر وبتكبر .. فى البداية خفت أخسرها وتضيع منى وبعد كده حسيت أن الحقيقة حتبقى صعبة وحتحرجها وتجرحنى . أحس بنظراتهم تعريه . أردف : وع العموم أنا حأشرح لحضرتك الظروف اللى دخلت أمى السجن . أجابه بنظرة من حسم أمره : الأمور دى يابنى مش محتاجة شرح أحنا ناس لنا وضعنا وأنا راجل لى سمعتى فى أسكندرية كلها يعنى بالمختصر كده ماينفعش شرح ولاتفسير الناس لها الظاهر . شعر يوسف بالمرارة .. كانت مرارة من نوع أخر مختلف ، ربما كان الخوف من العجز عن عرض قضيته أمامهم يحاصره ، لكن كان على أستعداد للدفاع عن نفسه فأوشك على التحول من أحساسه بالدهشة والمفاجأة الى أحساسه بشيىء من الخوف السابق لحالة الأستنفار المضاد والأستماتة من أجل البقاء .

ـ اللى حضرتك لازم تعرفه أن أمى مادخلتش السجن بسبب حاجة وحشة أمى كانت بتدافع عن حقنا وعن فلوسنا من أيد نصاب عديم الضمير وماكانش قصدها أبدا أنها تأذيه والدليل على كده أنها خدت حكم مخفف وكمان خرجت فى عفو . هاهى أم هدير تستخدم الفخم والغليظ من الألفاظ : أحنا هنا مش فى محكمة بنسمع مرافعة عن قتالين القتلة والحاج قالك كلمته الأخيرة أحنا ناس لنا سمعتنا ووضعنا ولحد كده كفاية وأتكل على الله بعيد عننا . هكذا حاولت أستئصاله كأنه ورم خبيث علق بأسرتها السليمة النقية فى حين بدا يوسف فى جلسته كصنم . تساءل داخله : كيف لم يدركوا مايحس به ، أستمعوا لكلماته بلا أذان كأنه يتحدث لغة لايعرفوها ، صوته الداخلى المنفعل يضيع فى مساحات التوجس والقلق التى تملأهم فى حين بقى صوت أمها يتردد فى خلفية أهتمامه لدى متابعته نظرات هدير لعله يستوضح رد فعلها حين تكلمت وهى تشفق عليه من ذهوله : كفاية يايوسف لحد كده !. قام الحاج أحمد من مكانه معلنا أنتهاء الزيارة مبديا بعض الرحمة : من بكرة تقدر تكمل تدريباتك فى مكتب المهندس ناجى وأنا حكلمه بنفسى عشان تكمل معاه زى أى مهندس عنده وبمرتب محترم .. أنا أب يابنى وتهمنى مصلحتك . ثم مد يده يصافحه ليعجل بأنصرافه .. خرج من الصالون حين أدرك أنه لم يبق له مايفعله وأن اليقين قد فارق عالمه فى تلك اللحظة وفارقته الكلمات دون أخطار .. أحس أن جميعهم فرسان مزيفون .. أتجه ناحية الباب تتقدمه هدير بخطوات مريضة .. توقفت عند الباب المفتوح وهى تنقل إليه من خلال حدقتين غسلتهما الدموع .. توجهت إليه بوجه منفعل وصوت أكل الغضب رتابته : ليه كدبت على يايوسف ؟! حاول أن يخفى أضطرابه خلف نظراته المرتعشة ، نقل إليها شحنة من الأضطراب : ماتجاوبنى ؟! همت أن تخرج من شفتيه كلمة أو أعتذار ، لكنه حبسها وألقى عليها نظرة أخيرة قبل أن يواجهها بجسده ومد يده ، لكنه لم يجرؤ على لمسها حين شعر أن مصيره قد تقرر فترك يده تسقط بجانبه ، بملامح متراجعة وعيون حمر مر أمامها مدليا رأسه قبل أن يخرج من حيث أتى . رحل من هذا المكان ، الذى ذبح فيه من غير موضع الذبح . تعلقت بالباب ومشت به حتى أوصدته ثم ألصقت ظهرها بظهر الباب .. أدلت رأسها للارض ، أحست بنفس اللهفة والضياع اللذين أحس هو بهما . أعتصرت عينيها بقوة فى أغماضة طويلة ، أستبد بها بكاء ، كلما حاولت أن تكتمه أنفلت منها وبدا وكأنها توشك على الوقوع .. تحملت على نفسها حتى هوت على كرسى ضخم بجوار الباب .

هبط سلالم الفيلا يتخبط كسكير .. بالكاد كان يتنفس . قاوم أهتزازه فى طريقه للسيارة الذى سبقه إليها " سالم " الحارس منتظرا وصوله ليبلغه رسالة كان نصها مختصرا : الهانم بتقولك شكرا أحنا عندنا ورد كتير . ثم ناوله البوكيه ، نقل عيناه إلى الورد يرثيه بينما لم يتح له سالم فرصة الأستغراق فى

صدمة أخرى وقام بنفسه بفتح باب السيارة ورمى بالبوكيه على الكرسى الأمامى ثم توجه مسرعا ناحية البوابة .. بصعوبة بالغة دخل يوسف السيارة قبل أن يتلق أشارة من " سالم " يوجهه للخروج : تعالى .. تجاهله وتحرك ببطء ، أجتاز البوابة كمبتدىء فى مدرسة قيادة . قاد سيارته محاذيا الرصيف حتى أبتعد .. تابع الشارع بحدقتين ثابتتين .. ينظر من غير أن يرى كالذى يسير نائما حتى غشت الدموع عينيه فأضطر أن يبطء كى يستجمع شتاته .. توقف أمام شجرة عجوز تطل على شارع مظلم لايسمع فيها إلا نفير سيارات تمر بجواره . ظل ساهما متهالك الملامح كمدمن فات موعد جرعته ، أغمض عينيه فتسربت دفعة كبيرة من دموعه أصلحت أمامه الرؤية .. كانت الدموع سلاحه الوحيد الذى يملكه حين غلظت يد القهر وأستطالت وتحولت كل الأمنيات الطيبة إلى وهم .. صارت كأحلام عبثية وحب باطل ، حتى الغضب ، أنحبس وزالت عنه القدرة لأطلاق صرخة مظلوم أو حتى رسم أنفعال عشوائى يواكب لحظة المأساة . لم تعد كلمة " صدمة " كافية لشرح حالته التى تجاوزت حدود المصطلحات والتعريفات .أستمر على وضعيته واجما يتابع الشارع دون أن ينتبه لتفاصيل المكان ينجرف خلف صراع داخلى لازمه من لحظة خروجه من بوابة الفيلا : هو اللى حصل ده كان حلم ولا حقيقة ؟! نظرة واحدة لبوكيه الورد المسجى إلى جواره كانت كافية ليدرك أن قصة حيه قد فارقتها الحياة وأن حبيبته التى أعتادها خمس سنوات ولت فجأة وخرجت من عالمه الى الأبد .

فى تلك الأثناء دب قلق مفاجىء فى ملامح نورا التى خرجت من غرفتها تتبعها بسمة فى ذيلها تكرر محاولتها الخامسة بالأتصال بـ " يوسف " . أحتوتهما كنبة الأنتريه " ، فأستفهمت بسمة وهى تراقب توترها : ماردش عليكى برضه ؟ هزت رأسها بالنفى فأردفت : تلاقيه قاعد مزنوق ومش عارف يرد .

ـ أنا مش فاهمة أيه الخيابة اللى أخوكى فيها دى . شعرت هدى بوجودهما ففتحت فرجة صغيرة فى باب غرفتها " كناضورجى" يراقب الطريق ثم خرجت بتمهل تنقل نظرتها بين أبنتيها فلمحت فيهما توترا .. أقتربت : مالكو فى أيه ؟ رمقتها نورا بنظرة ركنية دون أن ترد فتطوعت بسمة : نورا أتصلت كتير بيوسف ومابيردش . جلست تشاركهما القلق : يمكن تليفونة فاصل شحن ! ضيقت نورا عينها فى نفور : بنقول تليفونه بيرن ومابيردش . تضاربت ملامحها : آه صحيح أيه اللى أنا بأقوله ده . ثم مالت على أبنتها بسمة وتداولا حديثا باهتا استهلاكا للوقت دار فى مجمله حول هدير ووضعها الأجتماعى والمادى وماسيجنيه يوسف من غنائم حال أرتباطه بها ، فى حين لازالت نورا تكرر محاولاتها اليائسة قبل أن ينفذ صبرها وترميه جانبا تزامنا مع خروج عمتها من غرفتها ساحبة نعمة من يدها كأنهما فى

نزهة ليلية بدار مسنين ، لمحت عيناها جلسة متوترة فتخلت عن يد نعمة التى تطوحت خلفها : أيه الأجتماع ده .

ـ مستنين يوسف .. ربنا يسهل آهو على وصول . كان ردا مقتضبا على لسان هدى التى أفسحت لها مكانا .

ـ أنا أتصلت بيه ياعمتى كتير ومابيردش . نشطت تخمينات مشروعة ترددت على لسان أيات : ربنا يستر لتكون البطارية عملتها معاه ولا تكون الكهربا قطعت .

ساد صمت مفاجىء حين سمعوا مفتاحا يولج فى الباب . كانت نورا أول المنتفضين من مكانها كمن أصابها مس ثم رمشت فى ذهول حين ألتقطت عيناها يوسف ومنظر بوكيه الورد المتدلى من يده كالمعدوم شنقا : أنت مارحتش عند هدير ؟!. بوجه محتقن أغلق الباب خلفه معتصما بالصمت .. مشى نحوهم مرتجفا قبل أن يتدافعوا حوله تباعا وسط تكهنات أفضت إلى أسئلة عاجلة : فى أيه يايوسف ؟ سؤال مباشر من بسمة قالته بفزع بينما حالته لاتسمح سوى بنظرة شاردة من عين ملتهبة . كانت ملامحه تحمل رموزا غير مفهومة لنظراتهم المتفحصة . أخترقهم واجما حتى سلم نفسه لكنبة الأنتريه فتعقبته أمه وأنحنت حتى مستوى رأسه تتحسس وجهه المتفجر : مالك يايوسف شكلك عامل كده ليه ؟ تحلقوا حوله حين نطق أولى كلماته : خلاص . أنتظروا توضيحا لم يأتى . فعاجلته عمته : هو أيه اللى خلاص يايوسف ؟ غرس أصابعه فى شعر رأسه يسحبه للخلف بعنف : يعنى كل حاجة خلاص ياعمتى .. عرفوا حكاية ماما كلها من أولها لأخرها . قابلت نورا كلامه بأنفعال شديد : وأنت ليه تقولهم حاجة زى دى ! مبديا دهشة : أنا ماقلتش أى حاجة همه اللى عرفوا . أجتاح هدى توتر شديد حين تدافعت عليها النظرات .. تصلب لسانها داخل فمها ورفعت الصمت شعارا وهى تتراجع ببطء للخلف كمن يتوارى بفعلته . فى حين وقعت المعلومة التى أفضى بها يوسف على رؤسهم كالصاعقة فتفرقوا منكسى الرأس كأناس فرغوا من دفن ميت وتناثروا فى الأنتريه وأستولى كل منهم على كرسى أحتوى مؤخرته وأحباطه. لحظات وجاءه صوت نورا التى بدت حيرتها مضاعفة بالرغم من محاولتها ترويض ماينتابها من مشاعر . أحكيلى اللى حصل يايوسف ؟ أستغرق الأمر منه ربع ساعة .. سرد مأساته مختزلة يتخللها رعشة من حين لأخر فى حين لم تفارق عينى هدى وجه أبنها المضطرب تصدمها كلماته المتسربة من بين شفتيه تحوم حولها كدوامة تبتلعها . أنسحبت الدماء من وجهها فور أنتهاءه .. دارت بها الدنيا ، لم تمتلك القدرة على أى تعقيب ، كان عليها السكوت بعد محاولة فاشلة

لسحب أنفعاله : ليه عملوا معاك كده .. أكيد فى سبب تانى غير اللى قالوه ده ؟! طرحت رؤيتها ونالت عليها نظرة نارية مصدرها عينى نورا بينما أكتفى يوسف برد يائس : لاسبب تانىولا تالت هو تمن ولازم كلنا ندفعه . مشت نورا بمؤخرتها على كنبه الأنتريه حتى ألتصقت به ، مدت ذراعها حول كتفه : ماتزعلش يايوسف كل حاجة حتتصلح . دفن وجهه بين كفيه . فأكملت : مش عايزاك تقلق ياحبيبى كل حاجة حترجع زى ماكانت .

ـ مافيش حاجة حترجع زى ماكانت . دارت بجسدها وسحبته إلى صدرها فيخفى وجهه فى حضنها منكسرا مستدفئا بهزيمته ولم يقو على التماسك فأنفجر باكيا على صدرها : أنا أتهانت يانورا وكرامتى راحت وخرجت زى المطرود . مسحت رأسه بأناملها ترسل من فوقه نظرة تحمل كبتا وغيظا وضعفا : معلش خليك راجل وأتحمل وأنا متأكدة أنك حتعدى من الأزمة دى وحتخرج منها أحسن من الأول . أثرت نعمة المشهد حين تعايشت فجأة مع الحدث بنظرية الدعاء على الظالم : ربنا ينتقم منهم ويكسر بخاطرهم زى ماكسروا فرحتك وبهدلوك .. أخس على ده زمن اللى يتهان فيه ولاد الأصول .

تململت هدى فى جلستها سجينة مكانها لاتعرف بأىالكلمات تواسى يوسف أو تواسى حالها بعد مأأيقنت أن شيئا ما بداخلها يحترق حين بدا طيف الماضى ينسج خيوطه على الموجودين الذين أدلوا بعبارات كثيرة قيلت له على سبيل التعزية ، لكنها لم تواسيه . فى حين بدأت الوساوس تداعب صدر أيات ، فلم تكن تنصت إلى عبارات المواساة التى تطوف حوله فأستشعرت خطرا مدركة ضرورة أن يتخذ حديثهم منحنى أخر أستهلته : أنا اللى يهمنى دلوقتى يايوسف أنك تبقى راجل وترمى كل حاجة ورا ضهرك وتكون عندك أرادة وتخرج بسرعة من الأزمة دى .. سامعنى . ثم رفعت صوتها لتشد أنتباهه: أياك تستسلم للحصل ده خلى عندك ثقة فى نفسك وبص لمستقبلك أنت دلوقتى بقيت مهندس يعنى لازم تفكر فى اللى جاى وأوعى تغلط غلطتى وتدفن نفسك جوه أحزانك .. لسه بدرى أوى ياحبيبى اللى جاى أكتر وحتقابل الأحسن والأجمل وبكرة تقول عمتى قالت . ألهبت كلماتها حماسة بسمة التى ثارت لدموع أخيها : ولايهمك يايوسف اللى يبيعك بيعه ودوس عليه وبكره اللى أسمها هدير حتعرف قيمتك كويس وحتندم هى وأهلها على أهانتهم ليك وكلها كام يوم وحترجع تجرى وراك وتقولك سامحنى تتابع هدى الأنفعال المتصاعد فى وجوههم بملامح هزيلة تسبقها تصورات عن ردود فعل محتملة ستطالها حتما وتحملها مسئولية ماحدث .. دان صمت كئيب يواكب حجم الصدمة ، حاولت لملمت مخاوفها وسط جو مشحون بفداحة المأساة حين أستعادت بعض الثبات كأجراء دفاعى عفوى لأبعاد التهمة عنها : يايوسف

أنا ماليش ذنب فى اللى حصل ده مش عايزاك يابنى تحملنى فوق طاقتى ، مش عارفة أقولك أيه بس كمان ماينفعش كل مصيبة تحصلكم تحطوها على دماغى لوحدى .. ليه مافيش حد فيكم عايز ينصفنى ويبقى صريح مع نفسه ويقول أن أختياره هو اللى غلط أو حتى على الأقل يواجه فشله . سكتت للحظات ثم واجهتهم بنظرة تحمل مرارة وزعتها على الوجوه المتأهبة ثم خصته بنبرة تحد : مش هى دى هدير اللى كنت بتحكيلى عنها فى كل زيارة وتقولى أد أيه بتحبك وهى الوحيدة اللى فى الدنيا اللى فهماك وحاسة بيك وأنكم متفقين على كل خطوة حتعملوها سوا .. فجأة كده وبالبساطة دى باعتك ونسيت كل اللى كان بينكو فى خمس سنين .. معقولة . توقفت كى تتيح له فرصة المقاطعة أو الرد ، لم يتقدم بأى طعن سوى بنظرة ذليلة منكسرة . فتابعت : حتى لو كان أهلها رافضينك ومعترضين على أن أمك دخلت السجن وماكانش فى قلوبهم رحمة وماقدروش يعذروا ولايغفروا ولا يقدروا الظروف اللى خلتنى عملت كده .. أنا عن نفسى ممكن أعذرهم فى تفكيرهم ده وأفهم وجهة نظرهم .. بس اللىمش قادرة أفهمه موقف هدير نفسها اللى هيه المفروض بتحبك ومش قادرة تعيش من غيرك .. أزاى ماوقفتش معاك وأقنعت أهلها .. ماكانتش قادرة تقولهم ماتاخدوش ذنب يوسف بذنب أمه .. ماقالتلهومش ليه أن يوسف ده أنسان كويس وماشافتش منه حاجة وحشة .. ليه ماعملتش كده يايوسف ؟! . لم يتقدم أحد للدفاع أو الهجوم فحبست دموعها . أصبحت الأن الأمور أكثر وضوحا ، هى متهمة فى قضية لاتعلم أبعادها . كانت تبحث فى عيونهم عن نظرة رحمة تخصها ، فلم تجد سوى عبارات تخرج على أستحياء أفتتحتها نعمة بنبرة قدرية : معلش ياست هدى بكره كل حاجة تتصلح .. والله دى عين وصابت البيت . بينما زفرت نورا بملل : مش وقته الكلام ده خالص أحنا اللى يهمنا دلوقتى يوسف وكلامك ياماما لاحيقدم ولا حيأخر . دعمت أيات وجهة نظرها : نورا عندها حق ياهدى مش وقته خالص مين الظالم والمظلوم .

فى تلك اللحظة حول يوسف حزنه إلى جفوة مفاجئة وقام من مكانه متحاملا على نفسه حين أنتابته رغبة جارفة فى أنهاء الكلام والأنسحاب فأستوقفته نورا وطرحت عليه سؤالها الأخير : حتدخل تنام .

ـ أيوه . قالها وأتجه لغرفته مارا بكل العيون المتفحصة بعدما ترك علامات أستفهام تأكل رأس بسمة وهى تهمس لنفسها بخوف : واضح كده أن مافيش حاجة بتستخبى فى البلد دى ؟! بينما كان منظر يوسف مدعاة لتنشيط حالة المظلومية الكامنة فى نفس أيات وتصاعدت مأساتها فجأة إلى ذاكرتها لتبلغ ملامحها قبل أن تتشكل على لسانها كلما تتعبر بها عن مدى تشابه اللحظة بين الحاضر والماضى :

نفس القصة بتتكرر بحذافيرها يانعمة نفس اللى حصل مع يوسف النهاردة هو نفسه اللى حصلى مع شاكر من تلاتين سنة . لما كان بينى وبين الحلم خطوة وكنت فاكرة أنى خلاص ملكت الدنيا بأيديه وفجأة لقيت نفسى ماسكه سراب وكل حاجة أسودت حواليه زى اللى حصل ليوسف النهاردة كان رايح ياعينى وواخد حلمه معاه وفاكر أنه محظوظ وبينه وبين المستقبل خطوة واحدة وفى لحظة كل حاجة أتهدت ولقى نفسه ضايع ومجروح .. سبحان اللـه . أراحت نعمة ذقنها على كفها لتفنيد المقارنة بين الحالتين : لاياست أيات حكايتك مع اللى مايتسمى شاكر حاجة وحكاية يوسف النهاردة حاجة تانية خالص ، الأولانى كان طماع وطلع على كتافك أما يوسف فمالوش ذنب أتاخد ياعينى بذنب أمه . أستقبلت أيات وجهة النظر بتنهيدة طويلة : فيه فرق ولا مافيش آهى النتيجة واحدة يانعمة .

دفع يوسف الباب الموارب فأستقبله الهدوء بينما الظلام سادل نقابه .. أضاء النور .. أستلقى الفراش أمامه كنعش فى مرآة مسحورة . تحرك مهزوزا حتى جلس على حافة السرير ثم أدلى برأسه للأرض قبل أن يرفعها ببطء حين دخلت أمه .. لم يكترث بدخولها ، فأقتربت منه وأصبحت فى مواجهته وبحثت عيناها فى عينيه بينما كان هو يتجنب نظرتها . نزلت على ركبتيها أمامه وكأنها فى قاع بئر عاجزة عن أنقاذه وخيل لها أنها تختنق . شعرت بمصيبته حين قرأتها فى عينيه . تمتمت قبل أن تنضج كلماتها : أنت شايفنى أزاى يايوسف ؟!.. أضافت وهى تمسك يده تسحبه كى ينتبه وينصت لها : أنت حاسس أنى ظلمتك ؟ كان قد أتحنى قليلا ولكنه حين سمع قولها الأخير أنتصب فجأة واقفا وكأنه مصنوع من فولاذ فأضطرت للوقوف معه ، لقد أصابته أمه فى الصميم ، أجل ، أنه خلال هذه الساعة كلها ، ساعة الوساوس والهواجس التى قضاها من لحظة خروجة من فيلا هدير وحتى اللحظة لم يكن يفكر إلا فى نفسه وفى أحلامه المتصدعة ، حاول أن يسحب يده من يدها الجافة الباردة ، لكنه شعر بها تضغط عليها بعزم وأحس أنه مقيد ومعتقل . لم يرد .. تركت يده : هى دى أخرتها يايوسف .. بقى هو ده أبنى الوحيد اللى المفروض حيكون سندى وعكازى فى السنين اللى جاية .. ياخسارة .

أحست أنها شهيدة .. وحيدة . بدأت تدرك أنها فقدت كل شيىء .. كل شيىء بلا ثمن .. بلا كلمة عزاء . تماسكت أمامه وعاندت دموعها ، نفضت ضعفها وسارت بحزم وعزم وكأنها أرادت له أن يشعر بها وأن يعلم أن خطوتها الواثقة تعبر عن ثباتها . خرجت من الغرفة .. مرت بالصالة وفشلت فى تجنب نظرة متجهمة سددتها نورا دون مواربة . دخلت حجرتها وأغلقت الباب خلفها ، لتصبح تلك الليلة رقما

فى موسوعة لياليها الدامية !!.. بينما يوسف أظلم غرفته ومدد جثته ومضى يرخى جفنيه ويغمض عينيه حيث تطمس له الظلمة ماحدث وماعساه يحدث .

0000000000

العاشرة صباحا ..

توسطت فايزة جلسة ذكورية بأمتياز .. أمامها منضدة صغيرة وحولها فى دائرة مفتوحة محمود المحامى وجمال النونو على يمينها والحاج محمد المقاول بجوارخضر على يسارها ومن خلفهم أنتشرت مجموعة خضر القتالية فى ضيافة مدخل بيت " حميدة القاضى" بحارة أبن شكر المواجه لبيتها الجارى أخلائه .. لحظة تاريخية تشهدها فايزة من موقعها ، لحظة ستكون فارقة فى مستقبلها المعمارى الواعد . بدت فى وجوههم جدية حين قام محمود المحامى من كرسيه ساحبا حقيبته متجها ناحية " شعبان البقال" الواقف منكسرا بجوار دكانه الخالى بعدما أخرج أحشاءه على الرصيف ، لم يتبق سوى بوابة صاج متأكلة سرح فيها الصدأ بكل درجاته تعلوها لافتة مطموسة هرب لونها منذ سنوات .كان مرتجفا مهتزا فى وقفته كمن يتلقى العزاء فى رفيق عمره . واجهه محمود المحامى متحاشيا النظر فى عينيه : دول عشرة تلاف جنيه ياعم شعبان يبقى كده وصلك المبلغ كله تمانتاشر ألف بالتمام والكمال . أستلم المبلغ صامتا حزينا فتابع المحامى : خضر حيحملك شوية الكراكيب دول على النص نقل وحيوصلك لغاية البيت . دبت فيه الروح فجأة معترضا : أنا عايز اليافطة المتعلقة فوق الدكان . قطب جبينه حين رفع عينيه مندهشا : اليافطة دى . بعناد طفولى : أيوه هى دى .. اليافطة المتعلقة دى أنا عملتها عمولة سنة ستة وستين و كانت شاهدة على دخولى وخروجى يوماتى لاكتر من خمسة وأربعين سنة .. دى عشرة عمر . أحتوى عصبيته بأبتسامة : اللى أنت عايزه ياعم شعبان ولاتزعل نفسك . قالها وأشار لخضر الذى قام من مكانه فى حراسة أتنين من صبيانه وقد تطوع أحدهما وأعتلى سلم خشبى حتى بلغها ، خلخلها من الجانبين قبل أن يحسم أمرها وينزعها من مكانها نزعا بلا رحمة فأرتدت عليه فعلته بغباروأتربة كأنما يواجه عاصفة خماسينية شديدة، وحين هم بالنزول ظهرت له عائلة كاملة من الفئران أنكشف سترها كانت تعشش خلف اللافتة فتصدى لهم الواقفون والقاعدون كل منهم بحسب لياقته على الملاحقة . تسلمها شعبان بتأثر وأسندها للجدار قبل أن تمتد إليها أنامله ينفض عنها أوساخا تراكمت عبر عقود حتى تصلبت كالحصى . لحظات ورفع صبيان خضر مخلفاته على النص نقل ثم صعد شعبان خلفها واقفا وقفته الأخيرة مستأسدا وسط كراكيبة متكئا على لافتته يتجول بعينيه مودعا البيوت والوجوه وعشرة السنين منهيا جولته المؤثرة فى عينى فايزة التى

تراقب رحيله بفارغ الصبر . أستغرق فى النظر إليها بحدة ثم خبط صدره بقبضته منوحا كشيعة العراق : حسبى اللـه ونعم الوكيل فى الظالم . قالها دامعا تعصف به الأحزان حتى فارقت الحارة عينيه . رحل عم شعبان مخلفا وراءه مشهدا جديدا فى حارة أبن شكر حين بدت واجهة الدكان لأول مرة صلعاء بلا لافتة تعلوه . مال محمود المحامى هامسا فى صدغ فايزة بأريحية : ياساتر أخيرا أتكل على اللـه كان محجرأوى . أظهرت أبتسامة مائلة : هانت يامتر كده مش فاضل غير أم ماهر ودى حتخلع بالليل وكده تبقى الأمور أخر تمام ونقول يامسهل يارب ونبدأ شغل . فلتت منه نظرة محايدة قبل أن يرفع رأسه لأعلى : لأ لسه فيه ناس فوق ماتكلمناش معاهم ولاتراضوا زى الباقيين . تابعت اتجاه عينيه : أه .. تقصد اللى ماتتسمى هى وبنتها.

ـ تمام .

ـ ماتشغلش بالك بالليلة دى .. علقة تانية تأخدها بدرية كومبارس وحتطلع من البيت بجلابية وشبشب بس أنا تقلانه عشان لى مزاج أذل فيها . مد " النونو" بوزه الناشف مقتحما الحوار : وحياتك يامعلمة أحنا بعون اللـه نطلعها من البيت ده وهى قاطعة تذكرة خروج من الدنيا . أحتد محمود المحامى : تعرف تسكت أنت .. ثم ألتفت اليها مستعملا نبرة هادئة : الكلام مايبقاش كده يامعلمة . رجعت برأسها للوراء لتتبين تفاصيل وجهه : الكلام يبقى أزاى نورنى . شعر أن اللحظة لاتكفى ليفسر لها تكتيكه فمال برأسه للآمام متحاشيا رأسها الملفوفة بطرحة زهرى موجها حديثه للحاج محمد المقاول : خلاص ياحجيج أحنا حيبقى ميعادنا بكرة فى المكتب عشان نتفق حنبدأ أمتى و بالمرة أكون جهزتلك العربون .

ـ أنا طوع الأمر وربنا يسهل الأحوال. قالها واقفا قبل أن يسحب النونو رجليه مفسحا له مكانا للمرور فتابع : حأتكل على اللـه يامعلمة وبكرة حأظبط مع الأستاذ .

ـ ماشى ياحاج .. أسحب الكرسى وتعالى هنا جنبى ياوله . أخذ النونو موقعه مختبئا خلف كتفها ثم أردفت : عايز تقول أيه يامتر ؟ سؤالا طرحته حين أعطاها الحاج محمد ظهره .

ـ مش ده الوقت اللى نعمل فيه مشاكل مع بدرية ، لازم تتراضى زى بقية السكان لا أقل ولا أزيد . هز صوتها منطقه : وأيه اللى حأكسبه وأنت عارف كويس أنى بعد أذن ربنا على أستعداد أطلعها من البيت بنظرة عين .

ـ تكسبى كتير أوى .. أولها حنشوف شغلنا من غير شوشرة ولاوجع دماغ وتانى حاجة وده اللى يهمنى أنه ماينفعش تظهرى فى سوق المقاولات من أول عملية بمشاكل وكلام كتير والعيار اللى مايصيبش يدوش وأحنا يهمنا أن الزبون اللى حييجى يكون مطمن على نفسه وعلى فلوسه مش قلقان وخايف ويقول فى نفسه ده ممكن اللى أتعمل مع بدرية يتعمل معايا .

ـ يعنى أنت عايزنى أنخ مع المرى دى . أنهت جملتها وقد زادت صرامة وجهها . طل النونو برأسه مجددا بدا وأن فكرة مفاجئة قد أشرقت فى ذهنه فخرج صوته بلهجة مظفرة : كلام الأستاذ صح ولو مشينا بالأصول مع الولية دى حتكسبى كمان بونت معتبر مع أبنك منصور والمثل بيقول اللى مايجيش بالشدة بيجى باللين . تحركت له برأسها فى أستغراب وكأنها فوجئت بوجوده : وأيه كمان ياحكيم زمانك ! تدخل المتر مصححا جملته الأخيرة بعدما أعاد صياغتها : أبنك منصور طلع ولا نزل لسه برضه صغير ولو سديتى قدامه كل البيبان يبقى ربنا وحده هو اللى أعلم حيتصرف أزاى ولا حيعمل إيه عشان ساعتها مش حتبقى فيه حاجة فارقة معاه خالص وكله محصل بعضه . راقب ملامحها قبل أن يستعمل وقاره وحسن من رتابة صوته كى يدفعها لأعادة النظر . تابع : أكسبى أبنك يامعلمة وهاتيه فى صفك ، الأسوة والعند مش حتنفع معاه ولاحتجيب نتيجة بالعكس دى حتخليه يغرز أكتر مع بنت بدرية وأنتى ست المفهومية يامعلمة وعارفة أنك كل ماتقفلى معاه سكة الكلام والتفاهم بتخليه غصب عنه يقرب من أبوه أكتر وأنتى أدرى منى بعبده الجن وهو الوحيد المستفيد من خصامك لأبنك . ضربت كلماته الجزء المسئول عن التركيز فى عقلها . دوامة الفكر تدور عاصفة تحت غطاء الرأس ، أشاحت بوجهها تبحث عن رد من وسط أفكار ملتبسة : مش عارفة أقولك أيه لكن كلامك عاقل ومظبوط . سحبت نفسا ثم أطلقته بمرارة فى وجه النونو الذى كان يتابع بدهشة لحظة ضعف نادرة طغت فجأة فى وجه فايزة حين خفتت نبرتها : ده أنا لسه أمبارح مسودة عيشته .

ـ ملحوقة يامعلمة وكله يتدبر . عبارة رددها النونو بحماسة ثم صمت كى يفسح لها الوقت لتسترجع مادار مع أبنها وبصيص من ندم يظهر خافتا فى حركة عينيها . بالأمس كان منصور حريصا على أن يفهم ويتأكد فأدار معها نقاشا ، كان يعلم مسبقا أن طريقه مسدود ، لكنه نقاش الرجاء الأخير . كلم فيها نفسه بأكثر مما تكلم معها حين دخل مناورا بكيسين موز وتفاح أحمر : خدى ياما شوية الفاكهة دول أتسلى بيهم وبالهنا والشفا . نظرة ركنية وهى ممددة على السرير عاينت بها بضاعته : ودول بمناسبة أيه ياحيلة .

ـ هو اللى يجيب فاكهة لأمه يبقى وراها مناسبة .. هو فى أغلى منك ياما . أستندت على مرفقيها تسحب جسدها لأعلى مستندة الى ظهر السرير : أنت عايز أيه ياوله بالظبط . أفرغ حمولته على طرف السرير وجلس بجوارها يتحسس ظهريديها المشبوكتين على بطنها : مش عايز حاجة منك غير رضاكى عنى وتقفى جنبى وتريحينى فى اللى أنا عايزه . حاول أحتوائها حين جفت ملامحها فأفرج عن أمنية هائمة داخله ليس لها مستقر : هو أنا مش أبنك الوحيد ياما . ناولته نظرة دون أى تعبير فأضاف : خلينى أيدك اليمين شورينى ياما ودخلينى معاكى فى زوارقك ، ياما الناس كلت وشى فى الحارة وفى القهوة وهمه شايفنى ليل ونهار متلقح فى القهوة قاعد زى خيبتها بأعد اللى داخل واللى خارج وأنتى بالصلا ع النبى بتجرى ورا مصلحة هنا وبتخلصى حكاية هناك .. يرضيكى الكلام ده . قامت برأسها تنطحه بأستعلاء وأصرار : أه يرضينى هو ده جزاء اللى يعاندنى ويخرج عن طوعى ، وبراحتك ياحبيب أبوك وأبقى خلى نوسة وأمها ينفعوك . قالتها ثم مدت يدها تخبطه بأناملها فى جانب رأسه مهددة : كلمتين تحطهم فى رأسك الوسخة دى ياأبن بطنى ياحيلة ، أبوك اللى أسمه أبوك من يوم ماشفت خلقته وأتجوزته من خمسة وعشرين سنة كان راسم ومخطط أنه يطوينى فى يومين تلاتة تحت جناحه ويلهف اللى ورايا واللى قدامى جرب كل حاجة .. لئم التعالب شوية على حبة حنان وضحك على الدقون شويتين وجرب البلطجة وقلة الأدب ماخلاش حاجة وأخرتها سلم نمر وماعرفش يكسرنى ولاقدر يطول منى مليم واحد غصب عنى .. كله بمزاجى !! أراحت رأسها للخلف تسندها ثم تابعت بنبرة أنتصار : وآهو فيك عينين تندب فيهم رصاصة شوف أمك بقت فين واللى مايتسمى أبوك بقى فين واللى أن شاء اللـه من غير مقاطعة بسلامتك حتحصله وعقلك فى راسك بقى .. أنسى البنت دى وأبعد عنها وأنا مستنياك وساعتها حأمشيك أنا على مزاجى . نظرة ضعف ونبرة مشروخة هما ماواجه بهما أمه : ليه ياما كل ده واللـه حرام عليكى ده يبقى أفترى وظلم. قالها منكمشا وأحتمال أستضافة صدغه لصفعة من كفها كان أقرب إلا أنها فاجأته على غير العادة بهدوء : كل واحد ياحبيبى ينام ع الجنب اللى يريحه . كان يحاول الفهم قبل التسليم بأن ماسيقدم عليه أصبح قدرا لامفر منه بعدما أيقن أنها مغامرة قدرية بأحتمالات مهلكة .

ـ أيه يامعلمة روحتى فين . جملة رددها النونو أعادتها مهمومة . بدت متراجعة على غير العادة مبتعدة بعينيها كى تتيح لأفكارها فرصة الهدوء والتأمل ، لم تفكر بآلية العناد كما أعتادت .. شردت للحظات وسط دخان متصاعد من حولها بنفسية سيئة : مارحتش يانونو . كلمات محمود المحامى هزت شيئا بداخلها وسحبتها إلى منطقة ضعف نائية لازالت تتحسس حدودها بحذر : ع العموم كتر خيرك يامتر نصيحتك على راسى من فوق ومهما حصل من منصور طلع ولانزل هو أبنى الوحيد وأنا عارفة كويس أن السكينة

سارقاه والزن شغال على ودانه من كل حتة ومفهمينه أن أمه بتكرهه وواقفة فى طريقه مع أنى واللـه العظيم مافيش حد فى الدنيا دى بحالها بيخاف عليه ولايحبه أدى ويعلم ربنا أن كل اللى بأعمله ده عشان فى الأخر يفضله ويكبره من بعدى .. بس ده مش معناه أنى أعوم على عومه وأمشى على هواه ، لازم يبقى كله بالأصول والعقل . أبدى تفهما : عداكى العيب يامعلمة . فى حين طرح النونو رأيا كأثبات وجود : وأنا من ناحيتى يامعلمة ممكن أتدخل وأصلح الأمور . أحتوته فايزة بنظرة كان لها مفعول السحر، جعلته صامتا وكأنه مغيب عن العالم .

ماكان عليها إلا أن تنتظر ماسوف تسفر عنه الأيام ، وبغريزة الأنثى الأسطورية حجبت مايفور فى ذهنها من تخطيط .. قررت فايزة بينها وبين نفسها المهادنة والمرونة .. هذا هو التكتيك ، خطوة تتبعها خطوة ثم خطوة أخيرة حتى بلوغ الهدف . قامت تتحامل على كتف صبيها : ياله بينا ياوله . قالتها بـ " كرشة " نفس.

ـ ماقلتيش يامعلمة حنعمل أيه مع بدرية ؟ قال سؤاله واقفا بعدما سحب حقيبته بينما لم تجد فايزة أجابة حاسمة وسط فوضى مشاعر متخبطة وظلال باهتة من التردد : حأبقى أكلمك بالليل وأقولك تعمل أيه . المعاينة المبدئية لنبرة صوتها تفسر تراجعا فى حدة الخطاب مع وجود شبهة تعاطف وتفهم . رحلت مع النونو قبل أن تلقى نظرة أخيرة على واجهة البيت الذى صار مهجورا كبيوت الأشباح إلا من عينين تتحركان فى الأعلى خلف ضلفتى شيش موارب قبل أن تضمهما بدرية وتسحب نفسها للداخل بعد ماراقبت رحيل فايزة وفرقتها .. القلق والتوتر هو شعار المرحلة التى تعيشها بدرية وأبنتها وهى تتابع بلهفة عملية التهجير اليومى للسكان بأحساس مريض أجرب محتجز فى غرفة حجر صحى . حصار وعزلة قطعا عنهما التواصل وباتت المعلومات شحيحة فبادرت بدرية تحت الحاح المعرفة بزيارة وداعية أستطلاعية لأم ماهر التى أستقبلتها مجهدة ومنشغلة تحزم أمتعتها تحت أشراف " عبد العاطى " الزوج الجديد عن طريق أشارات شفوية يلوح بها بين الحين والحين مكتفيا بما قدمه من جهد خلال مفاوضاته مع محمود المحامى التى أثمرت عن عشرين ألف جنيه قيمة الترضية المتفق عليها والتى صادرها كلها مقتطعا منها جزءا بسيطا لأستئجار شقة قانون جديد على أطراف منطقة كرموز خلف المدافن بعدما أقنع أم ماهر بأنه بصدد دراسة مشروع جديد سيتولى هو أدارته منفردا فخضعت لرؤيته وأستجابت لفكرته بعد تهديد صريح لها بأنها ستحمل لقب مطلقة فى حال رفضها . بينما يتابع ماهر تطورات الوضع وهو لايملك من أمره شيئا ، بدا مهموما ومنطويا على نفسه ينتظر عن قناعة نهاية درامية سيكون حتما هو بطلها . هبطت بدرية من

شقتها تجر لحمها خلفها قبل أن تتوقف أمام " بسطة " أم ماهر التى أزدحمت بأمتعة وصناديق كرتون وكومة كراكيب وملابس قديمة تخص الزوج الراحل ستكون من نصيب عم " رمضان " سريح روبابكيا وبجوار باب الشقة تلاجة أيديال طاعنة فى السن ضرب الصدأ أسفلها بعدما تم أجلاءها من ركنها التاريخى على يمين الصالة حتى صارت رسمتها مطبوعة فى الركن وعلى الأرضية من طول العشرة . طلت بدرية برأسها من باب الشقة ثم شمرت جلبابها حتى بلغ ركبتيها قبل أن تفتح ساقيها عن أخرهما معلنة عن وثبة عظيمة متخطية حاجز المتر متحاشية مستنقع من الحقائب الصغيرة تنوء بها أرضية الصالة .. سارت بحذر وسط أثاث مفكك ومراتب مطوية وبوتجاز وغسالة وحلل ألمونيوم وحقيبة سفر ضخمة تجاهد أم ماهر خلفها تدفعها بكل ماأوتيت من قوة تدفعها بكلتا يديها وهى تمشى على ركبتيها بينما الحقيبة مستقرة فى مكانها كصخرة تأبى الأنصياع فى حين كان عبد المعطى مستغرقا فى العبث بموبايله غاطسا فى قعر كرسى فاردا أبتسامة باردة حين تقطع أنات صوتها الموجوع أنسجامه : أنتى عجزتى ولا أيه ياولية ؟!.. ألتقطت أنفاسها اللآهثة قبل أن تزيح عن جبينها خطوط عرق متشابكة فاضت حتى تجمعت عند منبت الحاجبين : تعبت ياخويا .. من أمبارح عمالة أشيل وأحط أنا والوله ماهر لما ضهرى أتقطم . أستنفر منظرها حمية بدرية حين دخلت الطرقة المؤدية لغرفة النوم : ماتقوم ساعدها شوية ياسى عبد العاطى .

ـ أنا ماليش فى حكاية الشيل والحط ،وبعدين خلاص هانت كلها كام ساعة وتيجى العربية تلم الليلة دى كلها .

مسحت بدرية من موقعها الغرفة والطرقة والصالة بنظرة تأثر : خلاص حتمشى ياأم ماهر وتسيبينا .

ـ عقبالك يابدرية ياختى .

ـ عقبالى فين وأنا لغاية دلوقتى مش فاهمة أولى من أخرى ولافيه حد كلمنى ولاحد عبرنى . قالت جملتها ثم واجهتها تفصل بينهما الحقيبة فأردفت بجرأة : أخدتى كام من الوليه المفترية اللى أسمها فايزة .ثبتت كفيها فوق حقيبتها العنيدة : حاقولك يابدرية بس أيدك معايا نسحب الشنطة الداهية دى . همست لها بصوت خافت : هو بسلامته جوزك حالف بالطلاق مايساعدك . قالتها وأنحنت فوق الحقيبة بينما رسمت أم ماهر أبتسامة هزيلة : آهو بقى دلع رجالة يابدرية . أحتقن وجه الأخيرة وأنتفخ حين أرتكزت على قدميها وكتمت أنفاسها تدفع الحقيبة بأتجاه الباب التى لم تتزحزح إلا مليمترات قليلة عن مكانها . فرفعت رأسها تلتمس نفسا جديدا وبصوت متقطع : أنتى حاطة أيه ياولية فى الشنطة دى .. أوعى يكون جوزك عملها

وحبس الوله ماهر فى الشنطة . ضحكت ولم تعلق حين ألحت عليها بسؤالها المشروع : ماتقولى ياولية أخدتى كام من فايزة .

ـ يوه بقى عليكى ساعدينى الأول فى الحوسة اللى أنا فيها دى وبعدين حأقولك على كل حاجة . أحست فى نبرتها تلونا ومراوغة فأستندت بكفيها على الأرض وقامت منتفضة : كان على عينى ونبى من يوم عركة المفضوحة فايزة وأنا ضهرى بينأح على . أنهت كلامها وخرجت من الغرفة متجهة ناحية الباب قبل أن تلتفت إليها : مبروك عليكى اللى أنتى أخدتيه ياأم ماهر .. قصدى اللى سى عبد العاطى خده . ذيلت جملتها

صهلولة هزت جدران البيت الخاوى . صعدت شقتها خالية الوفاض لاتحمل سوى أحباطا ويأسا .. لم تجد كلاما مقنعا تصيغه لأبنتها التى سحبتها إلى الداخل يتداولا فى خوف عن مصير قادم بات وشيكا .

0000000000000

" أنتخ يامنصور .. نعيم حيخلصلك الليلة كلها من أولها لآخرها " عبارة أطلقها سليم وظل يرددها بألحاح فى أذن منصور طيلة ثلاثة أيام حتى صارت لزمة على لسانه ترافقه كلما أستفرد بصديقه . جملة كان لها عظيم الأثر فى فقدان منصور طاقته تدريجيا حين قاده سليم من حارة إلى حارة ومن زقاق إلى عطفة وكأنهما يسيران داخل نفق تتصاعد منه روائح عفنة تشبه رائحة الجثث المتحللة .. سارا بين أزقة ضيقة تلتف وتدور وتنعطف كدود الأرض ، تحاصرهما بيوت من الصفيح على أعتابها كائنات تحسبهم للوهلة الأولى بشرا ، ملتصقين فى أماكنهم لايتحركون فأطمأن الذباب للمبيت على وجوههم دون خوف ولاتوتر . أنتفخت عروق منصور وزاد أضطرابا كلما سحبه سليم إلى أدغال منطقة " الدخيلة " فيفصح وهو ينهج : كده برضه ياسليم دى منطقة تجيبنا فيها .

ـ مشى حالك ياعم أن كان لك عند الكلب حاجة .

ـ تلات تيام بتزن على دماغى لما ورمتها عشان آجى معاك أقابل اللى أسمه نعيم ده ، كنا أتنيلنا وقابلناه فى أى داهية بعيد عن الأرف ده . حاول سحب غضبه وانعاش معنوياته : هو فى أيه ياعم منصور أحنا كل اللى يهمنا مصلحتنا تخلص وعديها بقى وماتلكش كتير .. نعيم ده صاحب مبدأ لما يحب ينجز أى مصلحة لازم الأتفاق يتم عنده فى البيت .. هيه دماغه كده . كان توضيحا ضروريا قبل أن يزف اليه بشارة الوصول حين أبتسم : أدخل شمال يامنصور من اللى جاى هو ساكن فى أول بيت . زحف بعينيه مستطلعا : وساكن برضه فى صفيح .

ـ عيب ياجدع ده راجل مالى مركزه فى المنطقة بحالها وله كلمة ، نعيم ده كان قبل كعبلة يناير والثورة والحوارات دى كان شغال مرشد تحت أيد الحكومة والشغل اللى يجيبه كان يرفع بيه ظابط المنطقة رتبة وترقية .. كان بالصلا ع النبى يخلق القضية من العدم يلفقها ويظبطها ويسلمها بناسها بيضة مقشرة .. راجل بصحيح حتتكيف منه أوى يامنصور . أنخفضت معنوياته فجأة وهو ينصت لـ " السى فى " سار صامتا شاردا حتى توقف سليم أمام مدخل بيت يطل على مستنقع مياه راكدةيستضيف ثلاثة أطفال حفاة يتقافزون حوله ، فأشار له بالدخول فتعقبته الرائحة والرذاذ حين تخطى المستنقع وثبا مجتازا المدخل فأصدر صرخة أرف رددها بتململ : دى شورة أمك سودة .. اللـه يحرقك . صدمت كلماته المتوترة مؤخرة سليم الذى أعتلى قبله درجات السلم ، ثلاث طوابق على ضوء ولاعة منصور قادتهما إلى سطح صغير ، جزء منه مكشوف تشهد عليه السماء بينما تحتل غرفة خشبية مساحته الباقية ، حين داس بقدميه بلاط السطوح أرسل نظرة فضولية طاف بها فى المكان قبل أن ينحرف ببصره يمينا ناحية سطح الجيران فتتبع أمرأة تملك " كرشا" باهظا ومؤخرة جبارة تركض بهما خلف رجل بجسد متواضع شاهرة شبشب بلاستيك صناعة محلية تلاحقه بضربات تفادى معظمها قبل أن تسيطر عليه وتأسره فى ركن مظلم ثم قامت بتكريمه كما يكرم الصرصار حين يمر أمام حذائك . سبقه سليم بخطوة ناحية باب الغرفة .. طرقتين بيده الناشفة ثم أرتد للوراء منتظرا ومن خلفه منصور الذى ألتصق بظهره متابعا بقلق مشهدا لم يتوقعه . وقفا صامتين تشهد عليهما ظلال البيوت التى أزدادت طولا على أرضية السطح . شيئا مرهقا يجثم على صدره زادت وطأته حين سمع نداءا أفزعه : زق الباب يااللى بتخبط . بدا كصوت يستغيث من داخل مقبرة . دفعة واحدة للباب فأنفتح وأهتز معه سقف الغرفة . دخلا ملتحمين حين أجتازا مدخلها المصمم لعبور فرد واحد .. تحررا من بعضهما ليطالع منصور غرفة مستطيلة بها كنبة خشبية تستولى على نصف المساحة وتلعب جميع الأدوار .. نوم وصالة وسفرة مكفنة بفروة خروف غالبا ماتم خطفه وأغتياله ثم سلخه على يد نعيم !. من أى زاوية يمكنك أن تتعرف على خريطة المكان ، فى المواجهة طرقة نحيفة بحجم رجل مسلول فى نهايتها مطبخ شحيح التفاصيل كل مافيه بوتجاز " أطلس " فقدت عيونه الأبصار عدا عين واحدة لا تصلح سوى لتدفئة كنكة قهوة . أصاب منصور الأكتئاب لاينتشله سوى رائحة بول مركزة وصوت سليم : تعالى نقعد على الكنبة . جلس ومال بعينيه قبل أن تميل بهما للأمام : أنا حاسس أنى قاعد جوه عشة فراخ . ثبت سليم مؤخرته فى فروة الخروف بحثا عن توازن خشية الأنزلاق : ماتاخدش الناس بالمظاهر ياأخى .

ـ أمال أخدهم بأيه ياأبن الوسخة . قالها منصور وصمت حين خرج رجل من زاوية مهجورة بجانب المطبخ يمسك بطرفى بنطلونه المفتوح قبل أن يضمهما .. طويل عريض بذقن مدببة وعينين بارزتين عكرتين زاد جحوظهما حين أقترب منهما يزحف بشبشبه . أفزعه منظر الرجل فوقف منصور متحاملا على صديقه الذى بادر بالتحية : أيه ياعم نعيم أنت كنت نايم ولا أيه ؟ قالها ومد يده مصافحا قبل أن يمسح الأخيريده فى بنطلونه : لا واللـه كنت بأعمل زى الناس . برزت أسنانه السوداء حين أنشقت شفتيه عن أبتسامة . أردف : متهيألى ده منصور . تولى سليم الأجابة : هو منصور صاحب المصلحة . مد يده المبتلة : يامرحبا .. ماتأخذنيش ياأخ منصور المكان هنا على أده بس مكنون . كان تنويها أستباقيا قابله الأخير بجملة مقتضبة : المكان كبير بصحابه . فى نبرته رائحة ريفية لمن يدقق ، لكن مع جحود الوطن وحاجة البطن حين طال رقاده بمركز " الدلنجات " محافظة البحيرة بلا عمل فضاقت يده فخلع الطاقية والجلباب وجاء للاسكندرية غازيا منذ عشر سنوات .

ـ مش كنا أتقابلنا فى حتة تانية يانعيم بدل الكتمة دى . أمنية رددها منصور وهو يتلفت حوله ، حاول أن بفرض أحترامه على نعيم الذى تحرش به بنظرة من تحت شعر حاجبيه الكثيفان كانت كافية لينصاع لأشارته : أقعد يافندى المكان هنا ملموم وتحت السيطرة . قالها قبل أن يسقط داخل كرسى بلاستيك مشقوقا ظهره ثم دس يده فى جيب قميصه وأخرج علبة " كليوباترا" سلت منها واحدة أشهرها فى وجه منصور الذى تسلمها مكرها ثم ألقى بواحدة فى حجر سليم : عشت يانعيم . ثم مر عليهما بشعلته .

بدا أن جسده لم ينكشف على ماء منذ زمن ، بقع سوداء تسكن رقبته كهباب فرن بلدى يتعامل معها بعفوية عن طريق الهرش والفرك .

ـ أنا تحت أمرك يامنصور شوف طلبك أيه وإن شاء اللـه كله يتدبر . طارت منه الكلمات وأصبح أمامه خالى الرأس . فأختصر رده : مش أنت اللى طلبت تشوفنى .. أؤمر .

ـ لامؤاخذة فى دى الكلمة حكاية زى دى لازم أقعد مع صاحب المصلحة عشان أفهم العبارة من أولها لأخرها وهيه دى أصول الشغل . داهمته حدة غير مبررة : هو مش سليم قالك على المطلوب .

ـ من ناحية قالى هو قالى .. بس . سكت سكوت التعالب . فعاجله منصور : بس أيه .. قول ياسيدى .

ـ المواضيع دى ياأخ منصور ماتخلصش فى كلمتين فيه تفاصيل رفيعة لازم أفهمها من صاحبها عشان أعرف أظبط رسمتى وكمان الأتفاق لازم يبقى مع صاحب الشأن عشان الحكاية حيبقى فيها هات وخد يعنى

ماينفعش يتصدرفيها سليم لوحده . أنتاب الأخير أضطراب المقهورين : ليه يا عم نعيم هو أنا مش أد الأتفاق ولا أيه . تصنع بعدها غضبا وأنكفأ بوجهه للأرض .

ـ ماتتأمصش كده زى النسوان هى دى أصول الشغل ولازم أفهم الخيط أوله منين وأخره فين .. سامحنى ياصاحبى دى حاجة ماتزعلش . ثلاث سجاير مشعة بالدخان كانت كافية لطمس ملامحهم . يجثم صوته الذى يخرج كله عن طريق حبل صوتى واحد على صدر منصور الذى يطمح لأنهاء الأمر سريعا : كلامك مظبوط يانعيم وأنا سامعك وتحت أمرك . دفع بدخان سيجارته من بين شفتيه فى عزم كمن يقضى حاجته بعد نوبة مغص : اللى أنا فهمته من سليم أن فى حتة محجرة معاك وعايز تودعها فى الأمانات كام سنة عشان الدنيا تمشى والمصالح تسير وعشان ده يحصل يا أبن الناس لازم أظبط قضية صح يعنى لازم أفهم كل كبيرة وصغيرة غير اللى سليم قالهولى .

ـ وسليم قالك أيه ؟ .

ـ قال أنها مقتدرة ودايسة فى سكة التجارة وعندها ملك فى كرموز ولسه مستجدة فى شغل المقاولات والكلام ده كله ولامؤاخذة يعنى لايقدم ولا يأخر .. الحسنة الوحيدة اللى طلعت بيها من كلام سليم أن الحتة دى دخلت السجن قبل كده يعنى سوابق وده حيساعدنى فى الرسمة اللى بأخمرها فى دماغى . تابعه منصور بضيق لا يعلم له سببا .. خبط الأرض بقدميه : الخلاصة أيه يانعيم ؟ .

ـ أنا شايف أن الليلة دى تخلص بتربة حشيش .. قضية مخدرات ع السريع تريح وترتاح وقطمه أحسن من نحته . قطب جبينه وركبته رهبة حين سمع كلمته الأخيرة فيعيدها ممطوطة : حشيش .

ـ آه حشيش مع شوية سلاطات ، لفة بانجو على كام شريط برشام .

ـ مش واسعة شوية الحكاية دى .

ـ لو عايز تخلص نفسك وتنجز هى دى السكة الصح .. البضاعة والتحابيش أمرها سهل وتندس فى وسط حاجتها وبعد كده كله حيبقى فى أيدينا.. الأخبارية والتظبيط والتوقيت حتكون بأشارة من العبد لله وساعتها حتلاقى رجال المكافحة بيخلصوا الحكاية فى مينت ومبروك عليك وكل عام وأنتم بخير . ترنحت نظرات منصور أمام نظرة نعيم التى بدت وكأنها تبتلع كل ماتصادفه .

ـ حشيش وبانجو وبرشام دول يدخلوا السجن ومنه على الترب . ترافع دفاعا عن وجهة نظره مبديا ألتزاما بمبادىء يحتفظ بها : عشان أريح ضميرى قدام ربنا أنا مش ضامن هيه ممكن تاخد فيها كام .. شلن ولابريزة وممكن أوى لو وقعت تحت أيد اللى مايرحمش يطسها ربع جنيه مخروم ومطرح مايسرى يمرى . عبارته هاجمت أذنيه بضراوة أبقته ساهما قبل أن يدلو سليم بدلوه حين أستشعر ضيقا وتأثرا فى وجه منصور : أيه ياعم نعيم أنت نسيت الكلام اللى قلناه سوا ، أنا مش رسيتك على اللى فيها وفهمتك أن الحتة اللى الكلام عليها تبقى أمه يعنى ماينفعش بريزة وربع جنيه بناقصها حكاية الحشيش دى وخلينا فى حاجة كده على أد الأيد تلات أربع سنين وتبقى مرضية . حاول منصور تمرير كلماته بينهما : أنا عايز حاجة مضمونة أبقى فاهم حتبدأ أزاى وتنتهى على أيه .

ـ ع العموم يأفندى سيبنى لبكرة أخد وأدى مع نفسى وأكون دبرتلك حكاية تانية تبسطك وتكيفك وتخلى الوالدة تروح مشوارها مسافة تلات سنين وترجع .

ـ ماشى يانعيم . قام ينفض بنطلونه شاعرا بضيق فى النفس . كان رأسه مزدحما بخوف وأضطراب وبتردد مراهق حين ينقلب المزاح جد . فأشار لسليم برأسه أشارة تعنى أنتهاء الزيارة فأصطف نعيم أمامه يحاصره بجسده : ياريت بكرة وأنت جاى تبقى تجيب معاك خمس بواكى ربط كلام عشان الدنيا تمشى بسرعة .

ـ هو أنا لسه فهمت أنت ناوى على أيه .

ـ ماتشغلش بالك أنا وعدتك حأخلصك وكلمتى زى السيف . نظرة شك تلقاها الأخير من عين منصور : ربنا يسهل . قالها وفر من أمامه مجتازا رقعة السطوح الى سلم الأشباح ومنه للشارع يتبعه سليم .

مشى صامتا كمن خرج بكفالة على ذمة قضية .. نظرات ملتبسة واجه بها بيوت الصفيح مصحوبة بوجع يتصاعد من ناحية الصدر . شعر بنفسه يعد اللقاء كالذى هتك عرضه بأصبعه .. هو الجانى والمجنى عليه . قطع سكوته وخلصه من صراعه النفسى ذلك الكائن المستفز الذى يزداد أقترابا منه : شفت الراجل القفل عايز يطس أمك تأبيدة .. أما واللـه ده بغل صحيح !. أبطأ خطوته ولم يعلق وكأنه أبتلع لسانه فتابع سليم متصنعا جدية لاتتناسب مع مشيته المترنحة : حتجهز له الخمس بواكى أزاى . شعر بأنقباض قفصه الصدرى .. شهيق متقطع وزفير مبتور . تشنجت ملامحه حين ألتفت ناحيته : مش عايز رغى فى الموضوع ده . قالها بحدة ثم توقف فجأة كمن رأى لافتة " أحذر منطقة ألغام ".

ـ فى أيه وقفت ليه كده زى المتكهرب .

ـ طلعنا من مخزن الصفيح ده اللى أحنا ماشيين فيه .. وقف لنا تاكسى وغورنا من هنا . دفعة سعال نشطة سبقت تعقيبه : فى أيه ياجدع مالك متعصب ليه ومش على بعضك .. مش شغلانة يعنى أخدنا قعدتنا مع نعيم ماعجبناش كلامه أدينا قصرنا القعدة وخدنا بعضنا ومشينا .. عادى يعنى فى مية طريقة تانية .

فى نفس الوقت زاد توتر عبده وقلقه ، لم تنعم مؤخرته بطعم الراحة ولم يحتضنها قعر كرسى منذ ساعة تقريبا ، قطع القهوة طولا وعرضا مارا بين الموائد كمراقب فى لجنة أمتحانات ، يتابع النداءات ومطحنة الكلام الدائرة حوله بلا تركيز .. حوارات مكررة ومعادة ووجوه محفوظة ، بينما عبده الذى كان وعيه فى تلك الساعة مستغرقا فى تعقب تكهنات وأحتمالات ماسيسفر عنه لقاء أبنه مع نعيم ، ينتظر عودته بفارغ الصبر .. شغل نفسه بمتابعة برنامج لـ " محمود سعد " الذى يستضيف ضيفا ببدلة " بيج" يحاوره حول قضية مثارة تتناولها بالتحليل كل فئات المجتمع من نخب الفزلكة وأرزقية البرامج أنتهاءا ببائعى الفاكهة والخضار وعمال اليومية والباعة الجائلين الذى يرجع لهم عظيم الفضل والفخر الى تحويل مصر لسوق كبير مفتوح ليصبح " بائع متجول لكل مواطن " طرح الأعلامى القديرسؤاله بصعوبه بالغة بعد فك وتركيب ونسيان وأرتباك اعقبه حالة توهان كعادته فى المرحلة الأخيرة : هل محمد مرسى يحكم مصر فعليا أم مكتب الأرشاد ؟ لعبت المصادفة دورا عجيبا فى أيقاع الحلقة حين بداالضيف هو الأخر يتمتع بنفس السمات التى أصابت المذيع مؤخرا فظهر بطيئا تائها تخلت عنه مفردات الكلام ؟. فكان حوارا بائسا مروعا .. جمل غير مكتملة وأسئلة بصيغة حواديت يتصدى لها الضيف بأجابات يصعب فهمها أو ترتيبها . وصل منصور وتابعه ، وجد أبوه منتظرا بالقرب من موقع التليفزيون . لمحه عبده من زاويته فترك المذيع وضيفه ملخومين وسط تخبط ومقاطعة يبحث كل منهماعن أصل السؤال وكأنهما فقدا الذاكرة .. بينما ردد عبده وهو يمشى : الراجل ده ماكنش كده .. لاحول اللـه يارب ! فى طريقه قرأ عبارات ذعر تملأ وجه أبنه ، وسع خطوته وهو يطوى جلبابه حول وسطه مقتربا من ذلك المذعور .

ـ أيه ياوله عملت أيه ؟ تخطاهما سليم : أنا حأشرب شاى وكرسى معسل .

ـ أسبقنى وأنا جاى وراك . قالها وألتفت ناحية أبوه مضطربا فأستشف الأخير فشل المهمة بينما لخص منصور أحداث الزيارة فى كلمة واحدة : فطشة !!. أصدر بعدها عبده صوتا مكتوما ساخرا قبل أن يفصح عما توقعه : أنا قلت كده برضه .. الوله سليم ده ماتجيش من وراه مصلحة أبدا . ثم أدلى رأسه للأرض وهم يوليه ظهره .

ـ رايح فين يابا ؟ .

ـ تعبان ومصدع حاروح البيت أتخمد أحسن .

ـ ماشى وبكره لما أشوفك نبقى نتكلم. هز رأسه دون أكتراث . هرش منصور مؤخرة رأسه فى طريقه الى سليم قبل أن يرسل صوته لجمعه حين مر بالنصبة : هات لى واحد بن تقيل يابنى . لملم سليم رجليه حين وصل منصور الذى رمقه بنظرة أستخفاف قبل أن يهم بالجلوس : هو ده اللى بناخده منك شاى ومعسل . أستشعر تمردا فى نبرته : شكلك كده حاطط على . تنويه كان سببا لأنتفاضة غضب حرص منصور على أن تخرج منه خافتة لضرورات الأمان : على الحرام من دينى أنت البلبعة كلت دماغك وخلتك زى عم جزر بتاع حارة فرهود اللى سارح فى حوارى كرموز باللباس والفانلة ، جايبلى واحد لبش دماغه لسعة تقعدنى معاه وماقالش كلمة عدلة توحد ربنا تقول أنه فاهم ولا فيه قمارةتبين أنه رسيم وبيخطط كل اللى طلعت بيه من القعدة السودة دى حنجرة أمه الخربانة وهو بيقول تربة حشيش . أستياء صريح أظهره منصور جعل سليم فى موقف لايحسد عليه فابدى تحفظا : يعنى هو أنا خطفتك وإلا أخدتك غصب عنك ، من الأول وأنا مقريك قصة نعيم وأدينا لسه ع البر ياسيدى لادفعنا أبيض ولا أسود . سكتا عن السجال المتبادل حين حضر جمعه محتضنا صينية أنحنى بها أمامهما شارحا كمرشد سياحى : قهوتك يامنصور وشاى وشيشة لسليم باشا .

ـ الباشا ده تحطه فى.. أفرغ جمعه حمولته بعد ماسمع الوصفة التى تخص مؤخرته ورحل متمتما : شكرا ياأبو لسان زفر . أستند منصور بظهره وواجه الحارة بعينيه من خلال المدخل ، رجع برأسه للوراء متأملا الموقف بهدوء .. سرح لدقائق . قطب جبينه حين مرت أمام عينيه سيارة نقل كبيرة تسير بحذر خشية الأصطدام ببيت أو الأحتكاك بشرفة ، تحمل أمتعة وأثاث متواضع يتصدره أنتريه مقلم تحاصره غرفة نوم مفككة ونيش وترابيزة سفرة بدون كراسى يحدها من ناحية الشمال مرتبة عتيقة خرجت أحشاءها وأمامها " كومودينو " عليه تليفزيون صينى ماركة " شونج بونج " يسنده ماهر الذى بدا وكأن لا دور له فى الحياة سوى أنه مع العفش . كل متر يقطعه السائق تعقبه جملة ندم يلفظها حين يطل برأسه من نافذة السيارة صارخا : والله العظيم أنا اللى أستاهل ضرب الجزمة اللى حطيت نفسى فى الزنقة السوده دى .. نقلة منيلة مايعلم بها إلا ربنا . بينما فى ذيل الشاحنة " توك توك " يزحف خلفها كنملة تتبع فيل يحمل فى جوفه " أم ماهر " التى تجلس بشموخ بجوار عبد العاطى كملك وملكة فى جولة تفقدية لأحوال الرعية .

أنتاب منصور شعور بالخجل وتملكه القهر كالذى يداهم رجلا لحظة فشله بأداء مهمته فى ليلة الدخلة ، فشن هجوما حادا على رجولته الفاشلة : السكان كلهم مشيوا من البيت ومافضلش غير البت نوسة وأمها . رمقه سليم حين ألتقطت أذناه صوته المجروح : ربنا يتولاهم بقى . أنتفض أنتفاضة قزم : أزاى بس ياسليم الناس دى بقت فى رقبتى سمعوا كلامى وقاعدين مستنين منى تصريفة .. أسيبهم كده وأقعد أتفرج عليهم زى الأكتع لغاية مأمى ترميهم فى الشارع ولاتهد البيت على دماغهم . مد سليم بوزه وسحب رشفة عنيفة من كوب الشاى حتى أنكشف قاعها كشفاط البرك : ماهو أنت اللى بتدلع لاعاجبك نعيم ولا مرتاح لكلامه .. طب عايز أيه بقى ؟! جفت ملامحه وأظلمت أفكاره دفعة واحدة : أنا مابقتش عارف عايز أيه.. كنت فاكر أنى حاأقدر أنفذ اللى فى دماغى ببساطة كده ومن غير وجع قلب . نزل بوجهه بين كفيه المفتوحين وأردف : لقيت الحكاية صعبة أوى ومش حابة سكة معايا . دس الأخير نظرة من عينه الغائمة فوق رأس صاحبه المدفونة فى كفيه : مش فاهمك ياصاحبى . فتح يديه وسحب رأسه ببطء يرفعها: أنت بالذات مش حتفهم .. ياريت تقوم تتكل على اللـه وسيبنى مع نفسى شوية . قام يحجل بقدمه بعدما أزاح الشيشة مصدرا غضبة مكتومة : براحتك . رجع برأسه ثانية يتابع ظهر صديقه المقوس تتلاشى من المكان مرددا : روح ياأخى داهية تحرقك . أستشعر سخونة فى وجهه حين بدأت المشاعر المتضاربة تلاحقه ، تحولت كل ضغينة وجفوة الى شعور عارم بالخجل ، تحاصره مواقف وذكريات طفت فجأة لسطح ذاكرته فأستقبلها ساهما كالتيس تعلو شفتيه رعشة حين قال : أفرجها يارب ! .

فى طريقه للبيت سار عبده عبر حوارى معلومة كرر السير فيها كما يفعل الحمار . مشى بطاقة متدنية ، محبطا مهموما ، الأمور تزداد تعقيدا وبأسا .. أولج مفتاحه ودخل الشقة ، تلقت أذنيه قبل عينيه صوت فايزة التى أفترشت الكنبة ، لم تسعفه فراسته على تبين تفاصيل المكالمة التى تجريها . دارى صدمته حين رآها .. بأبتسامة مترددة أقترب منها يستعيذ فى سره من الشيطان الرجيم . رفعت عينيها تتجول فى وجهه بملامح تعج بالأرف . أختصرت زمن المكالمة حين جاورها على الكنبة : مش حينفع دلوقتى يامتر بكرة حأعدى عليك أنا والنونو . وضعت الموبايل فى حجرها وقطبت جبينها حين ألتفت إليه : خير ياسبع أيه اللى جابك بدرى . دعك جبهته : تعبان ومصدع ماقدرتش أكمل سيبت منصور وجيت . أستقبلت وعكته بأبتسامة : يامسهل يارب .

ـ ياوليه حرام عليكى أنتى لابترحمى ولابتسيبى رحمة ربنا . تراجع لحم خديها : بسم اللـه ماشاء اللـه ده أنت دلوقتى بتعرف ربنا ورحمته.

ـ هو أنتى ياستى شفتى منى حاجة وحشة من يوم ماطلعتى من السجن مأأنا فى حالى وسايبك براحتك ولاباقولك ولا بأسألك أنتى بتسوى أيه ولا بتعملى أيه . ترجرج جسدها على أثر ضحكة أطلقتها فوجهه : معلش سامحنى نسيت أقدملك تقرير على اللى بأعمله لكن أن شاء اللـه من بكرة حأبقى أخد الأذن منك . كانت تمضغ الكلمات قبل أن تنطقها . " مافيش فايدة " جملة كانت تتردد داخله وهى تلاحقه بنظراتها . هى بالنسبة له مثل الصقر ، مهما حلق بعيدا عن غريمه ، فهو مداهمه لامحالة وماعليها سوى أنتظاراللحظة . عثر على نبرة تليق بصداعه ، خافتة واهنة : أنا ياستى لاعايز تقارير ولاطالب منك حاجة كل غرضى يابت الناس أنى أنا والوله أبنك نكون سندك فى الدنيا أحنا ناسك وأهلك وأولى بيكى من الغريب يافايزة والصح بيقول أننا نبقى معاكى وواقفين جنبك ومصلحتك هى مصلحتنا . رفعت رجليها وتربعت على الكنبة وشبكت أصابعها حول بطنها : بأمارة أيه ياسيد المعلمين .

ـ من غير أمارات أنا جوزك وهو أبنك الوحيد ولا أنتى فاكرة محمود المحامى والنونو وخضر وشوية المقاطيع اللى حواليكى همة ناسك ورجالتك وأحنا مالناش لازمة ..ماتأخذنيش بقى فى دى حتبقى غلطانة أوى يافايزة راجعى نفسك وأحنا أولى من الغريب .

أبتسامة مائلة : جديدة الأسطوانة دى وع العموم من عينيه الأتنين حأراجع نفسى . ثم ضيقت عينيها تبحث فى وجهه عن علامات تكتيكه الجديد . تابعت : ولا على أيه من غير مراجعة ولاوجع قلب من بكرة حأعدى على محمود المحامى وأقوله ماعطلكش خلاص أنا نويت أخلى جوزى حبيبى راجلى وسندى هو اللى حيمسكلى حساباتى كلها ويدير بنفسه تجارتى وشغل المقاولات الجديد .. ياسلام هو أنا ألاقى فى الدنيا أمانة زى أمانتك ولاحد يخاف على فلوسى غير راجلى وبالمرة كمان أقول للنونو وخضر والصبيان خلاص بح يارجالة جوزى وأبنى همه اللى حيبقوا فى ضهرى ويسندونى .. ده أنت تؤمر ياسيد المعلمين وأنا على التنفيذ .

صعدت الدماء إلى رأسه التى ألتهبت ، دخل منطقتها المحرمة بعفوية حين قال بخشونة : أنتى بتتمسخرى على يافايزة لاهو أنتى فاكرة نفسك أيه بكرة تندمى وتدفعى التمن ونصيحة لوجه اللـه ألحقى نفسك وفوقى وماتتغريش الدنيا غدارة والزمن خاين والأيام دول . صرخت فيه صرخة قفزت به حتى كاد ينكفىء : أيه .. أسمع ياراجل ياناقص . تسمرت ملامحه وتسمرت معه : مش أنا اللى محتاجة أفوق أنا عارفه كويس بأعمل أيه وفاهمة بأحط رجلى فين قبل كل خطوة وفر ياخويا كلامك وبص لنفسك ياموكوس ياعرة يافصيلة التعالب أنصح نفسك بدل مأأنت عايش على أفايا وبتمص فى دمى . أنتفض واقفا يغالب ضيقا فى

التنفس : أنا مش عايش على أفا حد أنا شقيان ليل ونهار وقاعد مقطوع فى القهوة راضى بقليله حد غيرى كان سابهالك مخروبة على دماغك .. بس ده مش طبعى . أنتزعته من مكانه بأظافرها المسنونة تدفعه أمامها : حرقة لماتحرقك يابعيد قهوتى هى اللى عملتلك قيمة وسعر وسط الناس ومش فايزة عبد المقصود اللى تتهدد ياروح أمك ، لو عندك دم ورجولة روح غور فى داهية بعيد عنى يابارد وأبعد عن قهوتى اللى أنت عمال تشفط منها ياحرامى ياعديم الأمانة . تتعثر خطاه وهى تتبعه كمدرعة حربية تدفعه بيديها وهو يحاول الصمود : ياست كفاية حرام عليكى أنا تعبان سيبينى أدخل أنام . ظل يمضى بقوة الدفع ، حاول مرات أن يتوقف ناحيتها ويلتفت اليها ليعلن أعتذاره وتوبته .. خارت قواه تاركا النمرة المفترسة خلفه تشيع ماشاءت لها ثورة السباب واللعنات واطار من الضوء المنسكب الذى فتح له على مصراعيه : ياله أتكل على اللـه أطلع بره شوفلك حته تانية أتخمد فيها . لكنه ظل ـ مع هذا ـ يردد : ياوليه أنتى فهمتينى غلط مش قصدى يافايزة . تدفعه وهو يمضى كالعجل المربوط حتى شيعته بكف على ظهره . أحتوى السلم بدنه المندفع قبل أن تصم أذنيه صوت أرتطام الباب الذى أوصدته خلفه . تفور فى صدرها أنفعالات ثورة لم تهدأ بعد ، تحدث نفسها وهى تدك أرض الصالة بخطواتها وأصابع قدميها المطلة من فتحة الشبشب تشى عن عصبية لاتزال مختزنة فى أطرافها : فاكرنى كرودية جاى يسمعنى أسطوانة عشان ينيمنى ويلهف كل حاجة . حملت أنفعالاتها واتجهت بها لغرفتها . جلست على سريرها صامتة .. واجمة ومتأثرة . أدمعت عينيها فجأة بلا مقدمات على غير العادة ثم تمددت لساعة كاملة دون حراك وكأنها مجمدة ، جافاها النوم .. راقبت فراغ الغرفة بنصف عين ، تصحو فى داخلها دعوة لم تتبينها . وسرعان ماسحبها النوم إلى أعماقه التى تزاحمت بتداعيات من الماضى والحاضر ، صنع تشابكها كابوسا ظهرت علاماته على ملامحها المفزوعة وهى نائمة .

الفصل الحادى عشر

كانت تنتظره داخل الجامعة أمام مبنى الشئون الأدارية وسط مشهد مروع من الطلبة ، تراجعت بسمة للوراء تسحب نفسها من بين سياج الأجساد المحيط بها حين خرج عليهم أحد الموظفين بوجه لم يضخ فيه دم السماحة والبشاشة قطرة واحدة : ياريت تبعدوا شوية عن المكتب مافيش حد حيدخل غير لما زمايلكم اللى جوه يطلعوا .

ـ أحنا بقالنا ساعة واقفين وماحدش بيطلع من جوه . كان ذلك واحد من شباب مصر المتحمسين . شب الموظف على أطراف أصابعة يستطلع مكان الصوت : أقف ساكت يابنى .. حرام عليكو أحنا بشر ولنا طاقة

مش لازم يعنى كله يستلم شهادته النهاردة ، على خيبة أيه فاكرين الشغل فى البلد مقطع بعضه ومستنى حضراتكم ؟! كعادة كل خريج يمسك شهادته ويرى فى نفسه أملا ربما يبزغ يوما . فى تلك اللحظة خرج عليها أمجد رافعا شهادته بيمناه تفاديا لتلفها أو ينالها مكروه لاسمح اللـه من فرط الزحام القادر بسهولة على فرمها وفرمه . كان صوته معبئا ومشحونا حين قنصها بنظرته تقف خلف دائرة الزحام تترقب : بسمة .. يابسمة . كانت خطوته أسرع من صوته حين أنزرع أمامها بفرحته : خلاص يابسمة أخيرا شهادتى فى أيدى آهيه خريج جامعة أد الدنيا .

ـ مبروك ياأمجد .. ألف مبروك ، أنتو السابقون ونحن اللاحقون . أنسلتا من مولد الطلبة .. سارت إلى جواره تميل برأسها فيميل شعرها تتفحص ملامحه ، كان يبدو أنسانا جديدا ، لايكف عن الحركة والضحك .

ـ أخيرا أتخرجت ياأمجد . ألتفت إليها وقد صغرت أبتسامته : الحمد للـه من النهاردة المهنة حتتغير فى البطاقة من طالب لعاطل ، خلاص أسمى حيتحط رسمى فى كشوف العواطليه . ولأن أحساسها كان قويا بأن وراء فرحته جدارا هشا يخفى يأسا ومرارة ، فقد تعاملت معه بحذر كى لايتطرق الى أحلامه المستحيلة وتفريعاتها : الصبر ياأمجد ده أنت لسه بتقول ياهادى . قالت حكمتها وسارت صامتة ، عزفت عن الكلام عزوف فأر عن قط شرس . غلبته الفرحة ثانية وتخلص من أحباطه فجأة : أنا ناوى أفسحك النهاردة فسحة على البحر حأخليكى بعدها تروحى بيتكم مش قادرة تدوسى على الأرض .. حأمشيكى مشى . تبادلا أخبارا عادية ثم قفز بها إلى أمنياته القديمة التى يختزنها فى صدره : مش حتنوريلى بقى الأشارة الخضرا عشان أدخل ع الخطوة الجاية .

ـ يابنى أنا قلتلك خلينا عايشين سننا من غير تعقيدات ولاكلام كبير وكفاية على أنى بحبك .

ـ يابنتى يابسمة فى حكمة كان دايما جدى اللـه يرحمه يقولها .. مافيش حاجة أسمها حب البنت زى الرصاصة تخرج من بطن أمها عشان تدخل بيت جوزها . فهمت مايعنيه وماينتظره منها ، إلا أنها فى الساعات الأخيرة من ليلة أمس كانت الفكرة قد أستقرت فى رأسها حين قررت مكافحة آفة التردد والخوف وأتخذت قرارا جريئا بمصارحة أمجد بحقيقة أمها . كان قرارا مفاجئا ساهم فى الوصول إليه ماأصاب يوسف من مأساة فرفعت مجبرة شعار " بيدى لابيدى عمرو " لم تفلح مخاوفها أن تثنيها ، سحقت عناد عقلها .. لانت مكرهة على أن يكون اليوم هو نزول كلمة " النهاية " على فيلم " الكدبة الكبرى " . أختارت بعد تفكير يوم تخرجه لعلى فرحته تمتص فجاجة الحقيقة .. هى تعلم بأنها ستكون لحظة فارقة بالنسبة لها . أما بداية جديدة أو نهاية متوقعة . سارا بأتجاه بوابة الجامعة ..إلا أنها تباطأت فى خطوتها

فأستدارإليها : مالك يابسمة أنتى تعبانه ولا أيه ؟ قالها وأنتظر ليتأمل وجهها .. كرمش عينيه دهشة حين رأى جفنيها برتعشان ويرمشان كالذى ينظر لقرص الشمس فى عز الضهر .

ـ فى حاجة مهمة عايزة أقولهالك ولازم تسمعها منى .

ـ عارفها بتحبينى أوى أوى أكتر من الأول .. قديمة قولى غيرها .

ـ أمبارح طول الليل وأنا قاعدة أفكر فى اللى حأقوله النهاردة .. بصراحة كنت مترددة وخايفة لكن بعد تفكير طويل قلت لنفسى مابدهاش وقررت أنى أصارحك بكل حاجة. نمت قرون الأستشعار عنده ، وأصبح أكثر أنصاتا وتحفزا : أنا أول مرة أشوفك متوترة كده .. قولى فى أيه ؟. ناولته نظرة طويله رشقتها صريحة فى عينيه فتحيره وتقلقه: ماما ماكانتش فى الخليج وعمرها أصلا ماسافرت . تجمدت حدقتيه فى عينيه كالمتوفى . علامات أستفهام وتعجب بطعم الريبة هما أول مابدر منه : مش فاهم ؟ أدلت رأسها للأرض : من عشرسنين تقريبا كانت الظروف كلها متلخبطة وحطت ماما غصب عنها فى وضع مش عارفة لو أى حد تانى فى مكانها كان حيعمل نفس اللى هى عملته ولا لأ ؟ . تهدلت شفته السفلى بأنتظار جملة صاعقة على وشك أن تفجرها فى وجهه . تابعت : بأختصار ياأمجد أمى قضت عشر سنين من عمرها فى الـ .. سكتت . زاد وجوما : فين ؟ .

ـ فى السجن . أرتفع فيه كل شيىء وأنخفض عشرات المرات ، قلبه وصدره وأنفاسه ثم صوته : السجن .. أزاى يعنى . نطقها تائها . صارت كمتهم ضاق الخناق عليه فأنهار معترفا : شريك بابا سرق كل اللى حيلتنا وأتهرب مننا ورفض يدينا حقنا وماما حاولت معاه كتير بس للأسف كان عديم الضمير والأخلاق وفى أخر مرة لما ماما راحت له عشان تطالبه بحقنا أنفعل عليها وحاول يضربها .. دافعت عن نفسها وخبطته بفازة جت فى دماغه غصب عنها وقع ميت . بهتت عيناه كأنهما مصنوعتان من ثلج : قتلته . قالها وأظهر أبتسامة مهتزة ثم أغلق عينيه يسترجع كلماتها قبل أن يفتحهما بعدما عثر على فهم مقبول : فى حد يابسمة لما يهزر يقول عن مامته الكلام الأهبل ده .

ـ ده مش هبل ولا هزار واللـه دى الحقيقة اللى كنت مخبياهه عنك . هز رأسه وأنتكست نظراته .

لم يكن الكلام الذى يتردد داخله بقادر على أن يتخذ طريقه للسانه ، يقف عند صدره مثل كل هزائمه . أتسعت عينيه بينما شبكت مرفقيها تحت صدرها تنتظر الحكم .

ــ أديك ياسيدى عرفت السر الخطير .. أتفضل بقى قول اللى عندك . أستجمع شتاته وهو يتصدى لها فى هجمة مزعجة : عايزانى أقول أيه يعنى ؟ .

ــ أى حاجة .. زعلان مصدوم أرفان مش عايز تشوف وشى تانى .

ــ ولا حاجة من دول . قالها بملامح لم ترها فى خريطة وجهه من قبل . كان كالمخدر أو المضروب على رأسه ، ثم أدارلها ظهره يستكمل طريقه بأتجاه البوابة . هرولت خلفه وشعرها تهزه الأرض على كتفيها : أستنى ياأمجد أقف . تلهث وراءه كما لو أن سى " السيد عبد الجواد " هو الذى يمشى فتتبعه . نادته : أستنى ياأمجد . ألتفت لها رغم وهن الصوت ، فنالت منه نظرة كانت خليطا من الغضب واليأس والثورة : عايزة أيه منى ؟ قالها وأشاح بيده حتى أجتاز بوابة الخروج .. لم يتبين تفاصيل المكان وظل أسير ذاته تأكله الأسئلة .. يجرى مراجعة قاسية وكشف حساب لقصة حافلة أصبحت الأن فى مهب الريح كأحلامه . وسع من خطوته حين لمح ميكروباص يهدىء من سرعته مقتربا من كومة بشر أمام البوابة ، فغاص وسطهم بصدمته وأنحشر مع الصاعدين بينما هى لاتزال على أسفلت الطريق مع الذين فشلوا فى حسم صراع الركوب، تخشبت فى وقفتها أمام الميكروباص . بدت منكمشة وأصبحت شيئا محدودا كأنها نقطة باهتة فى ورقة بالية . أنطلق به الميكروباص أمام عينيها ولم ترمنه سوى شعارا مكتوب على خلفيته " اللى باعك بيعه ياجميل " وسارت متعمدة المشى البطيىء ، سير التفكير والتأمل كسحلفاه حكيمة .. مشت كمن يمضى إلى طريق لا يعرف الى أين ينتهى . الا أنها مالبثت تقول لنفسها بأبتسامة راضية : مافيش أحسن من الصراحة واللى يحصل يحصل . فى قلبها هدوء بصراط الحقيقة الذى تمشى عليه منجذبة إلى طريقها ومنصهرة فى عالمها ، ولتحدثها كلماتها أنها قضت لحظة صدق مع نفسها ومع أمجد كانت مخاضا لصراع دام سنتين . لحظتها هبت ريح محايدة ، لاهى باردة ولاساخنة . أحست بها تلامس وجهها ، لم تتطاير خصلات شعرها ، كانت منسدلة صامدة على جبينها وكان الصمود بات هو شعار مرحلتها القادمة . شعرت بوجع فى عضلات ساقيها فأشارت لتاكسى . وكما دخلته ساهمة خرجت منه واجمة عندما توقف بها بمحاذاة مدخل البيت .. هبطت منه .. كان العصر هو الأخر يهبط معها . دخلت الشقة منحنية بطيئة .. تفحصت المكان فى أستغراب وكأنها أخطأت الشقة .. الصالة أمامها كجثمان مسجى وسط سكون تام وكأنها قاعة للموتى ، تكاد تسمع همس أنفاسها ، تململت خطواتها وسط أجواء كئيبة وأبواب موصدة .. مأساة خلف كل باب !.. يوسف فى غرفته لايبارحها من لحظة أزمته ، هدى مع وحدتها يرافقها شعور بالغربة والمتاهة ، أيات أختارت الماضى أن يكون حاضرها ومستقبلها . مشهد حزين

بأمتياز . فتحت باب غرفتها .. أستقبلتها ظلمة باهتة ثم أوصدت الباب خلفها لينضم لمجموعة الأبواب المغلقة .. تمددت على السرير تنتظر البكاء .

000000000000

يومان وثلاث ليال مرت على يوسف وهو على نفس الحال من العزلة والوحدة والأرق ، نسى أن له أعضاء تتحرك .. لايفعل شيئا .. أى شيىء ، فقط أصبح مجرد رأس مشحون بالذكريات .. صار محدد الأقامة وهذا قرار أتخذه بمحض أرادته . صحيح أن بعض الأمور المعقدة يحلها الزمن وبعض الحقوق تسقط بمضى الوقت ، لكن هذه الأزمة ـ كما بدت له ـ من نوع خاص . لم يكن قادرا على أستيعاب ماحدث . لكن هذه ليست مشكلته وحده . المشكلة صنعتها أمه ، وطلبت منه أن يخرج منها برأى محدد .. هذا الرأى يجب أن يكون هو الرأى الأخير ولا رأى غيره حين ألحت عليه بتساؤلها العظيم .

ـ جاوبنى يايوسف وريحنى أنا ظلمتك ؟ أنا اللى ضيعت أحلامك ؟ فهمنى يابنى ؟ أنا لوحدى اللى مسئولة عن مشكلتك مع هدير .. رد على ؟ . كان كالمومياء فى تابوت .. محنط فى مكانه جاف الملامح . أستحثته: خليك صريح مع نفسك ومعايا وأعترف أنك غلط من البداية . تحركت عينيه داخل وجهه المتخشب ناحية الوجه الشاحب المتشبث بأمل النجاة : أيوه يايوسف أنت غلط غلطة كبيرة أوى يابنى ، كان لازم تصارحها بكل حاجة لما أتأكدت أنها فعلا صادقة معاك وبتحبك ، ليه ياحبيبى عايز تشيلنى الذنب الكبير ده لوحدى . مسحت عينيها ومسحت أنفها وأختارت مدخلا أخر لعلها تجد فيه حلا يعالج صمته .

ـ تحب أتصل بيها وأكلمها أو حتى أروح لها البيت وأفهمها كل حاجة وأحكيلها ظروفى بكل صراحة ويمكن كلامى معاها يقنعها ويخليها تراجع نفسها وعشان خاطرك كمان حأقولها أنى أنا اللى طلبت منك ماتصارحهاش بحكايتى وحأقنعها أن دى غلطتى وأنا متأكدة أنها حتفهم وحتقدر و.. دبت الحياة فجأة فى الجسد الميت وصرخ بصوته كالذى قام من نومه مفزوعا من كابوس يلاحقه .

ـ كفاية ياماما .. مش عايز أسمع حاجة عن الموضوع ده خالص ، أنا خلاص نسيته وشيلته من دماغى وعشان خاطرى ماتفتحيش الموضوع ده تانى .. لو سمحتى .

لم يبق له غير عيون مجهدة .. الغرفة أمامه مخنوقة . لاتنفرج أبدا وكأنها فتحة كهف منحوت فى جبل .. مجرد مكان مهجور خال من الأحياء .. أقرب شيىء الى نظره يمكن أن يراه ، وجهه الشاحب فى المرآه .

لم تنس هدى أن توقظه كما أوصاها فى الليلة الماضية بعد أن رضخ مكرها لوجهة النظر القائلة : شغلك فى مكتب المهند س ناجى مالوش دعوة بمشكلتك مع هدير .. شق طريقك وأثبت وجودك وخلى الدنيا كلها تعرف أنك جدير بوظيفتك فى المكتب .. الرجولة يايوسف أنك ماتتكسرش قدام أول صدمة خليك أد المسئولية . كانت نصيحة فى شكل بيان وقع عليها الجميع تأييدا ومناشدة .

فتح عينيه . على أنه ماكان ينهض حتى جلس ثانية خائر القوى . كأن يشعر بأنه لايتحكم فى أعضائه ، قام من جديد وشيئا فشيئا تحامل على نفسه وفرد طوله . فتح النافذة لأول مرة منذ ثلاثة أيام وهو يغمض عينيه ويفتتحهما فى ضوء النهار القوى الذى كشف عن هالات سوداء تحت عينيه . تبع هذا حالة من التأمل الصامت . لم يكن يرى شيئا فى الخارج . أقترب بحذر من المرآةثم مالبث أن أبتعد عنها سريعا . لاجدوى من الهرب ، فقد كانت صورة هدير وأمها وأبيها بداخله تنعكس مع صورته فى المرأه ، ولو أنه أستطاع أن يحطم نفسه الى ألف قطعة لأحتفظت كل قطعة منها بصورة كاملة .

لايمكن أن تمسح المحنة العقل ، فيبدو بريئا كالطفل أو أبيض كالحليب ، لايمكن !! .

بدأ يرتدى ملابسه ، بنطلون وقميص بعدما أجرى عملية مونتاج سريعة حذف ذقنه وهذب سوالفه محاولا الأيحاء بتحسن حالته . دخلت أمه غرفته تتصنع أبتسامة مشجعة : صباح الخير يايوسف .. شايف وشك بقى منور أزاى لما حلقت دقنك . تحاشى أن ينظر إليها ، ولم يرد عليها ، بدا وكأنه مستغرق فى الأستعداد للخروج ثم أدار لها ظهره خارجا من محبسه وكأنما يفر من البيت فى حين بقيت هى فى مكانها كتمثال من الخشب . بدالها وكأنه خرج إلى غير رجعة .

مرمن الصالة بسرعة .. فتح باب الشقة وهبط درجات السلم كأنسان آلى يتحسس بقدميه درجة درجة يسمع نبض عروقه النافرة التى أختلطت مع صوت طقطقة الفقرات ومفاصل الركبة . تخطى المدخل مرتجفا .. بعد خمس دقائق من وقفته المتشنجة أفرغ نظرته فى تاكسى " لادا" قادم يتهادى ، أشار له فأنصاع لأشارته . فتح الباب .. بدا ناقص الوزن وهو يطوى نفسه داخله . كان فاقدا للنطق ولم ينبس بكلمة طول الطريق . شرد فى المارة وفى أنعكاس ظلال البيوت على الأسفلت الباهت ، حاول " السائق " أستدراجه لحديث لكنه لم يجد تجاوبا . أنقضت ربع ساعة قبل أن تظهر بشاير العمارة بأدوارها العليا : لحظات ونزل ثم أتخذ طريقه الى المدخل صاعدا سبع درجات رفعته حتى باب الأسانسير ليجد عم "جودة" البواب واقفا بجوار بابه ففتحه حين أقترب يوسف : عاش من شافك ياباشمهندس .

ـ مشاغل ياعم جودة . دخل الأسانسير الذى حمله للطابق الثانى ..تباطأت خطوته ، قدم رجلا وتلكأ بالثانية وقف على مدخل المكتب كالواقف أمام ضريح ثابت فى مكانه يتلقى دفعات من الهواء البارد المنبعث من الداخل حيث التكييف يعمل بنشاط . أهتز فيه كل شيىء حين وطأت قدمه أول بلاطة داخل المكتب يغالب شعورا بالوحدة واحساسا بالضعف بأنه أصبح بلا سند ودون دعم . ألا أنه أبدى رغبة فى المقاومة فأظهر أبتسامة متماسكة رسمها حين مر بمكتب المهندسة " أيمان " : صباح الخير ياباشمهندسة .

ـ حمد للـه على السلامة نورت المكتب يايوسف .. أنت من النهاردة بقيت مهندس رسمى فى المكتب.. أستعد بقى يابطل .. شغل التدريب خلاص أنتهى وحندخل فى الجد .. أدخل مكتبك وظبط نفسك وأخر النهار حأقعد معاك عشان نحدد طريقة الشغل حتبقى أزاى . تلقى كلماتها بنفسية راضية ثم أتجه للداخل ناحية مكتبه .. فتح الباب . مفاجأة مذهلة كانت تنتظره .. هدير تجلس خلف مكتبها .. ولما رأها ، هيستريا هائلة عصفت برأسه فألهبت وجهه بحمرة . أنقطع حبله الصوتى للحظات وهربت نبراته .. دخل مهتزا ، رأى دموعا شفافة ووجه أحمر خالى من المكياج وشعر مشدود للخلف . كان باديا أن عيناها خاصمت النوم . ردد كلمات مبتسرة تكسرت مخارجها حين أقترب من مكتبه المواجــه لمكتبــها . لم يعرف ماذا يقــول سوى : صباح الخير . عيناها متحجرتان يؤلمان منظره : صباح الخير .

جاهد أن يستجمع شتات ذهنه وأرتباكه ، جلس فى هدوء على كرسيه . مرت لحظة . مر دهر . لم ترتفع يده لتمسك بالأوراق ولم تبدأ أصابعه المرتجفة فى التسلل لأدواته بينما هى تتابع حركاته . ثم لم يلبث أن دس يده فى جيب قميصه وأخرج تليفونه المحمول ، راح يقلبه بين أصابعه فترة . راحت تقلده وهى تقلب عينيها وأصابعها بمحتويات المكتب ، حتى لم تعد تحتمل . خرج صوتها من أعماق أنهيار كامل . اذا كان لأعماق الأنهيار صوت : الباشمهندسة أيمان أتفقت معاك على حاجة ؟ أستمر بالعبث فى موبايله وكأن صوتها لم يصله . كانت تعرف طباعه ، خاصة كبرياءه وعزة نفسه .. تفهمت دوافعه وقدرت حقه فى تجاهلها . حاولت ثانية : تقريبا المهندسة أيمان حتخليك تمضى على عقد التعيين وحتحدد لك مرتب وحوافز. لم يبد تجاوبا ولو بسيطا . بقيت على حالها فى مواجهة صنم أدمى تنتظر أن تدب فيه الروح . تعالت نبرتها نسبيا : بقالك تلات تيام ماجيتش المكتب .

ـ كنت مسافر . قالها بنبرة قاسية متحاشيا النظر اليها . أكاذيبه دائما تعريها عينيه .

ـ ع العموم حمد للـه على السلامة . سبقت جملتها أبتسامه ضعيفة . جلسا صامتين مثل جزيرتين منعزلتين تفصلهما سجادة " موف" بين المكتبين ، أمتد الصمت بينهما كأنه رفيق ثالث بينما ظلت هى داخل حالة التأمل الذى بدأ يتحول الى شرود وأسترجاع مع مضى الوقت .

ـ أوعى يابنتى تضعفى قدامه أو تخليه يضحك عليكى وأياك تديله فرصة يبرمجلك دماغك مرة تانية ، كلامى ده مش سببه أنه طلع كداب وغشاش ، لأ ده عشان سبب أكبر يخصك ويخص مستقبلك ومستقبل أبوكى وسمعته وأوعى حد يقنعك ويدخل فى دماغك أن الدنيا دلوقتى أتغيرت وماعدتش زى زمان ومافيش حد بياخد باله من حاجة وأننا بقينا فى زمن غير الزمن .. لأ يابنتى كل ده عبط وكدب والناس هيه الناس والزمن هو الزمن والدليل على كده أن لما حد بيشوفك فى مكان ويكون عارفك بيشاور عليكى وأول حاجة بيقولها دى بنت أكبر مقاول فى أسكندرية وهمه برضه نفس الناس اللى حيشاوروا عليكى بعد كده وحيقولوا بنت أكبر مقاول أرتبطت براجل أمه كانت فى السجن وساعتها حتبدأ الأسئلة هيه دخلت السجن ليه ؟ عشان حادثة عربية ولا مخالفة مرور .. الصدمة يابنتى حتبقى كبيرة أوى لما يعرفوا أنها كانت مجرمة وقاتلة ؟!. هذا هو أبوها .. هى تعرف تماما هذه المقدمة التى أراد أن يدخل من خلالها إلى قلبها قبل عقلها ، ولايبقى بعدها سوى أقناعها ، رسالته كانت تحملها كجنين فى أحشاءها ، كما حملت معه سؤالا كبيرا يفرض نفسه على المشهد . هل الجنين سيتغذى على عصارة الواقع وحساباته حتى يكتمل بنيانه ويصير كائن مصنوع بلا روح يكبرويكبر حتى يسد مابينها وبينه ، أم أن حبها المشروع سيكمل دورته الطبيعية المعتادة كافرا بشرعية الواقع وحساباته ؟!. أستمرت عيناها تتمليانه .. وللمفاجأة ظلت عيناه تنظر فى وجهها مباشرة . لم تخجل أو تخفض نظرها ، أحس أن نظراته قد طالت ، لكنه أصر إلا يخفض بصره إلا بعدها . لكنها لم تفعل . وطالت النظرة ، حتى أمتثل وأدار بصره عنها . تسللت يدها وقبضت على القلم وهو يتأمل ملامحها وهى ترسم خطوطا على الورق ، حاول أن يبحث فى عينيها عما تفكر فيه .. أى شيىء فى رأسها ؟. أنفها الصغير ينبض كالهمس مع حركة أنفاسها ، كانت تركز على أعصابها فى يدها . بعثت اليه فقط بنظرة وشبح أبتسامة .. هى لاتملك أكثر من هذا وهو غير قادر على أن يفهم شيئا . أضطرت هى للآنتقال الى درجة أخرى أكثر مواجهة محاولة أن تثقب جدار الصمت : أنا مش عارفة أنت ساكت ليه وشكلك مش طبيعى .. هو مين فينا اللى المفروض يبقى زعلان أنا ولا أنت .. مين السبب فى كل اللى حصل ده ومين اللى عقد الأمور وضيع كل حاجة .. أنساب الكلام منها مؤلما .. فضفضة أو عتاب أو تبرير ! .

ـ كده بالبساطة دى أنا اللى عقدت الأمور وضيعت كل حاجة ولا أنتى وأهلك اللى أصلا معقدين ومغمضين عينيكم وسدين ودانكم ومش عايزين تشوفوا ولا تسمعوا غيراللى على مزاجكم وبس وأولهم أنتى بالذات ماصدقتى ولقيتى حجة خايبة وأتعلقتى فيها وعومتى على عومهم مع أن كان فى أيدك تسألينى وتواجهينى لما حسيتى أنى مخبى عنك حاجة وكان سهل أوى تعملى كده ده طبعا لو أنتى فعلا بتحبينى وكنت ساعتها حأعذرك وحأتحملك لوزعلتى منى أو حتى بعدتى عنى أو عملتى أى حاجة كنت حأقبلها منك وكان حيبقى معاكى كل الحق بس بعدما تواجهينى وتسمعينى وتعاتبينى زى ماكنا دايما بنتعاتب ونتحاسب .. أشمعنى المرة دى .. ليه أشتكيتى لأهلك قبل ماتسألينى وتدينى فرصة أدافع عن نفسى .. ليه عملتى كده ؟ قال جملته الأخيرة ثم دق المكتب بقبضته فأنتفضت .. تابع بنبرة متحشرجة : ولما قلتلهم وأكتشفوا السر الخطير وعرفتوا حقيقة ماما ليه ماكلمتنيش فى التليفون ونهيتى كل حاجة .. جملة واحده كنتى حتقوليها ومش حتاخد من وقت حضرتك نص دقيقة أبعد عنى أنت بنى أدم كداب وغشاش .. قولى كل اللى فى نفسك وكنت ساعتها حأعذرك وحأنسحب بهدوء .. لكن دلوقتى وبعد ماقتلتى القتيل عايزه تعيشى دور المظلومة.. ماعدش ينفع ألعبى غيرها . بقيت مسمرة فى مكانها تعيش كابوس اللحظة بدت غارقة فى بحار من الهواجس وأفكارها مشتغلة بالعثور على طريقة ما لأنقاذ نفسها من هذا الشرك .

ـ قبل ماتحاسبنى وتهاجمنى ياريت تحاسب نفسك الأول أنا لغاية دلوقتى مصدومة فيك ومش مصدقة أنك كدبت على كل السنين اللى فاتت دى وماحاولتش ولو لمرة واحدة تقف مع نفسك وتقول كفايه كدب لحد كده .. ماجاش فى دماغك أبدا أن حييجى وقت والكدبه حتنكشف ، أنا مش قادرة أفهم أنت كنت بتفكر أزاى لدرجة أنى مابقتش عارفة أنت كنت عايز منى أيه بالظبط ولا كنت ناوى على أيه .. أكيد كنت عايز تكمل الكدبة لغاية الأخر .. لغاية ماتتجوزنى وتحطنى أنا وأهلى أدام الأمر الواقع .. هو ده اللى أنت كنت عايزه . طرحت تحليلها وتوقفت عن الكلام ، فلم يتبين أن كانت قد أستراحت أم أفرغت مالديها ، لكنه أحس أن قرارها نهائى وكلام والدها المقتضب الذى وجهه له فى زيارته الأخيرة لم يكن سوى القرار الحاسم . قام من كرسيه يضغط أضراسه ، غير أنه حين تأهب لها ، تقلص وجهها رهبة ، كسى الفزع ملامحها حتى سرى فى أطرافها المشدودة تحت المكتب .. أقترب منها متحاملا على نفسه ليقف أمامها كثائر يرمقها بنظرة تكاد تقتلها .

ـ من يوم ماعرفتك عمرى مافكرت لحظة أنى ممكن أجرحك أو أضايقك ولاكانت نيتى أبدا وحشة من ناحيتك ولاكنت طمعان فيكى ولاعايز منك حاجة أصلا والحمد للـه دلوقتى كل واحد فينا ظهر على حقيقته ..

أنا غشاش وكداب زى مأنتى وأهلك حكمتو على ، لكن كمان أنتى وأهلك طلعتوا ماعندكمش ضمير ولا أخلاق ولابتعرفوا تقدروا ظروف الناس ولاتعذروهم !. راقبته وكأنها تراقب وجه شخص آخر ، عينان ناريتان تطلان من وجه محتقن . قامت من مكانها .. أمسكت بذراعه وبعبارات تتوتر بالأنفعال : لازم نتكلم يايوسف .

ـ هو لسه فى كلام ماخلاص كل حاجة أتقالت وماعدش فى كلام تانى يتقال ونصيحتى لكى عيب أوى واحدة زيك وبنت مقاول كبير تعرف واحد زى حالاتى أمه سوابق ربة سجون . واجهته بعينين وكأنما هى حبلى بدموع البراكين .

ـ هو مين فينا الظالم ومين المظلوم .

أنت خلتنى فقدت الثقة فى كل حاجة حتى فى نفسى وفى اللى حواليه.

ـ أنتى اللى كسرتينى وجرحتينى ودبحتينى بسكينة باردة . أنهى جملته وخلص ذراعه من يدها التى سقطت إلى جوارها كأنما لفظت النفس الأخير فتهدل شعرها على وجهها كقناع تخفى خلفه أرتباكا وأحباطا . خرج دون أن ينظر إليها وقد قرر إلا يعود هنا مرة أخرى ، ليبدأ مرحلة جديدة فى حياته .. مرحلة الأنطواء والمتاعب النفسية . سلك طريقه خارج المكتب ولم يستطع أن يدرك ، بماذا كان يفكر أو ماهو الشعور الذى طمس عقله حين حدثها . حاول أن يستوعب ماجرى حين تلقى أستفسارا على لسان المهندسة أيمان : رايح فين ياباشمهندس . أنتزعه السؤال من دائرة السرحان ، لم يرد وتابع مسيرة الفرار منهيا رحلة عمل سريعة دامت ساعة تقريبا قبل أن يعلن داخله قرارا بالتقاعد . خرجت هدير تبحث عنه بعينيها فلم تجد له أثرا ، سحبت نفسا بطيئا ثم رجعت لمكتبها تعانى برودة فى كل جسمها وكأنها وسط عاصفة أتية من القطب الشمالى .

أعتدلت بسمه فى جلستها بركن الصالة حين فتح يوسف باب الشقة ودخل ، كان عابساوبائسا، قرأت فى وجهه صدمة جديدة فلوحت له قبل تطلق سراح تليفونها المحمول المعتقل منذ الأمس بين يديها أنتظارا لمكالمة موعودة ستحدد بشكل نهائى مسارعلاقتها المحتضرة بأمجد وإن كانت الشواهد حتى اللحظة تضع تخيلها فى خانه الأمنيات المستحيلة .

ـ خيريايوسف رجعت بدرى ليه؟ مسح وجهه حين مرامامها فى طريقه لغرفته : حسيت أنى تعبان شويه. استقبلت كلماته بتفهم متبنية نظرية " أن هناك خطأ وخطيئة وفاتورة لابد من سدادها " تتبعته بنظرة

تحمل عنوان (كلنا فى الهواسوا) حتى دخل غرفته .. ألقى نظرة مهزومة ثم رمى تليفونه وسلسلة مفاتيحه. أغمض عينيه بعدما أستلقى على السريرالذى لازال يحمل خريطة جسمه .. تمدد بملابسه دون حراك كميت حانت لحظة غسله . أختارت عينيه التى طلقهما النوم أيقاعا بطيئا فى الحركة والدوران مسترجعا مادارفى المكتب واضعا نفسه فى وضعية المتهم المدان تارة وبين الأندماج داخل حالة من المظلومية الحسينية كمجنى عليه تم اغتياله معنويا ومصادرة أحلامه بلا رحمة وفق مخطط جهنمى أداره وأشرف على تنفيذه فلول التقاليد ومنتحلى الحكمة . أغمض عينيه حتى غرق فى هواجسه تتقاذفه حقائق وأوهام ، حقيقة واحدة مسلطة عليه.. حياة قادمة بلاهديروبين وهم محنة عارضة فى طريقها للزوال . لم يدر كم مرعليه من وقت فى الدفاع عن نفسه وإظهار براءته وسط يقين مطلق أحتل عقله بأنه ذاهب حتما لتنفيذ حكمابات نافذاً دون أستئناف أوإلتماس . أستمرساكنا حتى العصريتنقل بذهنه بين مواقف وذكريات صار يحملها وتلازمه كأنفاسه . شعر بالرغبة فى التعبيروالكلام فأستقل فجأة حذائه المركون تحت السريرخارجا من غرفته إلى الصاله الخالية ومنها لباب الشقه بعدما قرران تكون وجهته هى شقه الخواجه " كرم . "

لحظات وكان متصدرا ّباب شقة الخواجه الذى أستقبله بفرحة مرتديا تيشرت أحمرفشل فى أحتواء لحمه المتهدل ، عانقه بصعوبة يفصلهما صدرمفرطح ينام على كرش مهيب تنوء أردافه بحمله والتى أنحشرت داخل بنطلون جينز سماوى يحمل عددا كبيراّمن الـ "×××× " حمرة وجهه لازالت سراً مخفيا عن كل من اقترب منه ، بدا فى هندامه قريب الشبه من الفنان " يحيى الفخرانى " صافحه وأمسك بيده حتى أدخله ثم رافقه إلى غرفة الأستقبال السابحة فى بحرمن ضوء النهارمصدره النافذة الضخمة التى نزع شيشها منذ سنوات وتركها فى حماية زجاج أبيض يفضح أكثرمما يسترقاصداً أن تعيش الغرفة فى حالة نهارية متواصلة .. أنحط صامتا على الكنبة الجلدية بعدما جال ببصره فى الغرفة ، لم يلحظ تغييراً بينما أظهرالخواجه ضعفا شديداّ فى اللياقة البدنية حين جلس إلى جواره مرتمياّ كأنه سقط من جبل .

ــ ياه يايوسف من كام سنه ماجيتش زرتنى هنا .قالها ولازالت انفاسه لاهثة.

ــ سامحنى ياخواجه أنت عارف ظروف الدراسة خدتنى وأتلهيت فى الدنيا والمشاكل . أستوقفته الجملة الأخيرة وأدار له رقبته قبل أن يتزحزح بجسده : الدنيا والمشاكل حتة واحدة كده .. لسه بدرى أوى ياحبيبى على الكلمتين دول . تدريجيا بدأت ملامحه تتجه للأنقباض : متهيألك .. أحنا دلوقتى فى عصرالسرعه مافيش لسه بدرى كله أوام أوام.

ـ آه .. أنا كده فهمت ؟! .

ـ فهمت إيه ياخواجه . توجع حين أستند بكفيه على الكنبه رافعاً كتلة اللحم تأهبا للنهوض : حأقولك بعد ما أشربك واحد كابتشينوفريش حيخليك تحلف أنك كنت قاعد مع خواجه بجد .. ماكينة أيطالى محترمة أخدتها هدية من ماريا.. دى واحدة صاحبتى أتعرفت عليها فى النادى اليونانى .

ـ ياخواجه ياشقى .أبتسامة سحبته ناحية المطبخ: ماريا دى أكبرمن نوح .

ـ طب أستنى خدنى معاك أساعدك .

ـ خليك مكانك ماتتعبش نفسك الحكايه كلها تلات دقايق .حك جبهته ساهماً قبل ان يصله صوت الخواجه من المطبخ : كام معلقة سكريايوسف.

ـ أتنين تلاته أى حاجة .لحظات صمت وتأمل فى اللاشيىء، أستحسن ضوء النهارالهارب الذى يداعب وجهه بنوره البرونزى وكأنه مرتديا ماسكا ذهبيا أفاق عندما سمع ذلك الصخب القادم من ناحية المطبخ حين دهس كرم بقدميه باركيه الغرفة التى أصدرت أنيناً خشناً ولولا أنه مصنوع فى زمن " الزان" لتحولت تحت قدميه ترابا .

ـ قولى بقى مالك شكلك مش عاجبنى يايوسف .قالها واقفاً بينما أستسلم الأخير لتنهيـده طويلة : مخنوق وزهقان وأرفان وحاسس أن الدنيا كلها واقفه ضدى وكأنى عدوبتكرهنى وتعاندنى . سكت وأحمرت عيناه حين ألتئمت شفتيه على مرارة . تأمله حتى صارت ملامح يوسف شغله الشاغل وكعادته رقيق النفس سريع التأثر جاهزالدمع ، أطال النظرفى وجهه قبل أن ينطق مبتسما أبتسامته الهادئة : حأروح المطبخ أجيب الأتنين كابوتشينو وأقعد أسمع منك حكاية الدنيا بنت الكلب دى اللى عامله فيك كده . قال عبارته وظل واقفاً . ثم أردف بعدما أنتظرلحظات : بس لى طلب صغيرعندك . أرخى جفنيه فتابع الخواجه : أنسى الزهق والأرف خمس دقايق بس وعايزك كده تركزشويه وتراجع فى دماغك شريط حياتى . أتسعت عينيه أمام الطلب الغامض : حياتك أنت ياخواجة .

ـ أيوه يا يوسف حياتى أنا .. عشان خاطرى شغل الذاكرة وأفتكركل حاجه تعرفها عنى و شفتها بنفسك أواللى سمعتها عنى .. حاسيبك تسرح شويه وبعد كده لنا كلام تانى . أبتسم يوسف فى صمت حتى رحل كرم إلى المطبخ تاركاً الأخير بصحبة سؤال كبير : أيه الطلب الغريب ده . غيرأنه لبى مطلبه بالرغم من

دهشته وهويحاول أن يستجمع مشاهد ومواقف فى شكل بانوراما مختصرة عن حياة كرم التى يعتقد من وجهة نظره وبحكم الجيرة لاتستحق التأمل أوتنشيط الذاكرة ، له حياة روتينية تخصه.. يعرف أن الخواجه يتعايش مع الوحدة منذ زمن ، راضيا أو مضطراّ لايدرى ، عالمه ضيق فى حدود مجلة أنجليزية يقرأها أسبوعياّ ومجموعه صور قديمة له ولأسرته وتليفزيون " توشيبا " نادراّ مايتابعه مع بعض الوجبات البسيطة ليس فى قائمتها طبيخ ولاظفر بخلاف فنجانين قهوه يوميا وبعض الحكايات المكررة والمعادة كمنولوجات بسيطة يتداولها مع نوح مرتين أسبوعيا وزيارة واحدة كل أسبوعين للنادى اليونانى كى يستعيد لغته الأم مع بقايا جالية كانت يوما تمثل ربع سكان الأسكندريه .. فى الفترة الأخيرة سقط بند رحلة الصيد الأسبوعية من قائمة روتين حياته بعدما أجبر على الأعتزال عقب ثورة يناير بعد أن تحولت شواطىء الأسكندرية إلى وكرللمجرمين والبلطجية.

دقائق ووصل كرم قادما من المطبخ برفقة أتنين كابوتشينو صناعة أيطالى برغوة مبالغ فيها ، وقف مهتزاّ عند عتبة الغرفة ثم نادى : يوسف .. لم ينتبه لصوته فكرر : يوسف .. أيه يابنى دى حياتى بسيطة أوى مش محتاجة أكترمن دقيقتين . سحب نفساّ ثم قام ليتسلم منه الصينية التى تحف بكرشه .

ـ بالعكس ده أنا ماخدتش بالى أن حياتك صعبة إلا دلوقتى .قالها حين وضع الصينية على المنضدة ثم جلسا سويا .تابع أكتشافه : عايش لوحدك معظم الوقت وقافل عليك باب شقتك وفى بلد مش بلدك يعنى لا أهل ولاصحاب وكمان ظروف مادية مش أد كده . هز رأسه مستعيرا بنبرة ذاهلة : ده غير سنك ياخواجه. ضيق عينيه مستفهما . فأوضح يوسف : يعنى .. سنك كبير وأكيد محتاج لرعايه وحد يبقى جنبك.. تخيل بقى ياخواجه كل الظروف دى متجمعه فى وقت واحد مع بنى أدم واحد . قابل الملحوظة بأبتسامة عريضة تورمت لها خديه .فتابع يوسف تنقيبه : أكيد فى ناس كتير ظروفها شبه ظروفك بس متهيألى مستحيل يكون لسه فيهم حد بيضحك أومتفاءل وراضى عن عيشته الغريبه دى من غيرحتى شكوى واحدة .. مستحيل ياخواجة تكون دى حياه بسيطة أبداّ . نظرة تواضع : طب أشرب يايوسف . سحب رشفة طويلة من الكابوتشينو الذى ظهرت بصماته على شفتيه التى لوثتها الرغوه : ياسلام كابوتشينو ماحصلش .. أبقى أشكرلنا ماريا كتير . أنهى كرم رشفته الأولى متجها بوجهه ليوسف : أحكيلى بقى أيه اللى مضايقك .

ـ لما تقولى أنت الأول ليه طلبت منى أفكرفى حياتك وأراجعها فى دماغى .

ـ حتعرف لماتحكيلى . حسم أمره وأستغنى عن تحفظه. همس مترددا ّحين أستهل البداية بضحكة فى عينيه مجترا ذكريات عمرها خمس سنوات ، شجعته ملامح كرم المنتبهة والمتأهبة للأصغاء . قال : أول مادخلت الكلية كنت فى حالى وأنطوائى وحذرجداّ فى تعاملاتى مش عشان ده طبعى .. كان بسبب نصيحة نورا وعمتى .. ماتحاولش تعمل صحبيه زيادة عن اللزوم ماتخليش حد يعرف عنك أى حاجه خليك حريص أوى فى كلامك . كان لابد للخواجه من مقاطعة : ليه كل ده؟ .

ـ كانوا خايفين على جداّ أنى أقرب من حد أوى وأقع بلسانى بكلمه كده ولاكده يعرف منها ظروف ماما اللى أنت فاهمها واللى ممكن تسببلى مشكله كبيرة بعد كده زى اللى حصل معايا فى أعدادى وثانوى.. وفعلا عملت بنصيحتهم وأخدت أحتياطاتى .. مافيش كلام كتيرمع حد ماليش دعوه بأى حاجه غيرمحاضراتى وبس وحتى لماعملت كده ماعرفتش برضه أكون لوحدى بالعكس لقيت نفسى معروف جدا فى الكلية بحالها بعدما جبت تقديرفى أول سنة وكمان ..صمت ثم أغمض عينيه وأكمل بحرج : كانوابيقولواعلى أنى وسيم وأنت فاهم بقى شغل بنات الكليات لغاية ماجت اللحظة وشفت هدير.. كانت طباعها غريبه زيى بالظبط .. بنت أبوها غنى جداّ وفى نفس الوقت متواضعة بنت وحيدة لكنها جد أوى ومش متدلعة ماكانتش محتاجة أبداّ أنها تتعب عشان تثبت وجودها لكن عمرها مأتأخرت عن محاضرة ولا طلعت بمادة .. وكأننا كنا أتنين تايهين جوة الكلية لغاية ما لقينا بعض و كل يوم كان بيقربنا أكتر.. ماكناش أتنين عاديين لدرجة أنى مش عارف كنا أيه .. لكن اللى تأكدت منه أن الرومانسية مش مجرد كلمة بتتقال أنا لمستها فى كلامها وشفتها فى أفعالها . كان يتكلم ويتابع من خلال النافذه ضوء النهارالهارب بينما يراقب كرم أنتفاضاته حين كست ملامحه حسرة وهو يسترجع : خلقنا عالم صغير يخصنا أحنا الأتنين رتبناه على مزاجنا .. كان يومنا جميل سهل مافيش فيه ملل ماكناش بنشغل دماغنا بأى حاجة كان عندنا زى ماتقول كده أكتفاء ذاتى علاقتنا باللى حوالينا كانت تأديه واجب .. جايزتكون الظروف هى اللى ساعدتنا مافيش أى ضغط علينا من أى نوع ماعندناش مشاكل عويصة زى اللى بتقابل كل الشباب .. هى بتحبنى وأهلها أغنيا ومستقبلى وشغلى مضمونين عند باباها بعد التخرج يعنى تقدر تقول كده حاجة خيالية زى الأحلام .. سكت حين أصابته رعشة قبل أن يتحول غاضبا ناقما عندما شرح مأساته مختزلا لحظة المواجهة الدرامية التى فقد فيها عذريته البريئة وأحلامه الرومانسية ، لم يقاطعه الخواجه إلا حين يبتلع دهشته عند كل فاصل : وبعدين !! أكمل حتى بلغ لحظة الأنفجار: أتهانت وأطردت زى اللى عامل عاملة وحسيت أنى ماليش لزمة فى الدنيا ومافيش حاجة نفعتنى لاشهادة ولاأخلاق ولاحتى شكل وأتأكدت ساعتها أن كل ده مش مهم وأن فى حسابات تانية أكبر وأهم منى بكتيروماكنتش واخد بالى منها . هدأ للحظات ألتقط فيها أنفاسه قبل

أن يردد مقتطفات أقتبسها من أقوال والدها لتى حسمت أمرعلاقته بأبنته . كان ذلك أخرسطر فى روايته الحزينة أنهاه وشيىء من الأهتزازعلق بملامحه بينما كتلة اللحم المكدسة بجواره باتت هشة كقنطارالقطن وهو يرصد دموعا فى عينى يوسف بدت كالوميض لها بريق وهو لايكاد يصدق أن هذا الجالس بجواره قد سحقته الدنيا إلى هذا الحد.. شعر بمأساة الصغير. كان عليه أن يتخذ قراراً أما التماسك أوأن يشاركه البكاء . عرض عليه بهدوء مشوب بالحذر : أناعايزك تهدى شوية وتاخد نفسك براحه وتسمعنى بعقلك قبل قلبك . منحه نظرة موافقة وأستسلم منصتاً : عايز أسألك سؤال وتردعلى بصراحه .. بعد الأمورماهديت شويه حاسس بأيه دلوقتى من ناحيه هدير؟ .

ـ لغاية دلوقتى مش مصدق أى حاجه من اللى حصلت لدرجة أنى لما بأصحى من النوم بأدعى ربنا أن اللى حصل ده كله يطلع حلم مش حقيقة . بس للأسف بالاقى نفسى عايش جوه كابوس وأن كل حاجة راحت منى وحأبقى فى الدنيا لوحدى من غيرهديرمن غيرما أكلمها ولا أشوفها ولا أحلم معاها .. أنا بأموت ياخواجه . خرجت جملته الأخيرة ببطء ثم سكت كى يتيح لنفسه فرصة الصمود والتماسك بعد أن أوشك على النحيب والأنهيار . وضع كرم يده على كتفه حتى شعر يوسف برعشة تسربت إليه من خلال كف الخواجه المرتجفة الذى رمقه بنظرة تعاطف ومواساة : حاسس بيك أوى وعارف يعنى إيه لما الأنسان يحس فجأة أن كل حاجة ضاعت منه وعايش فى الدنيا من غير هدف وماعندهوش أى حاجه يبكى عليها وحياته كلها تبقى طولها زى عرضها، كل ده يايوسف مرعلي وعايش فيه لغايه دلوقتى وزى ما أنت شايف كده راجل عجوز قدامك من غيرست ولاولاد . تنهد ثم تابع : حاجه كده مالهاش معنى .. حياة فاضية مملة مافيهاش تفاصيل ولا لها طعم وفى الغالب حتكون نهايتى تافهة وخايبة زى حياتى كلها .. تقريبا حتبقى موته بسيطة وأنا واقف فى المطبخ أونايم على السريرأوحتى واقف قدام الشباك ده بأتفرج على زرقة البحر.. موته مافيهاش أكشن وأحتمال كبير يعدى كام يوم لغاية مانوح يكتشف أنى مت ! . أنهى جملته بضحكة ثم أطال النظرفى عينى يوسف قبل أن ينتزعه الأخيرمن تخيلاته عن لحظة الموت القادمة بسؤال عارض ليس فى السياق رماه فى وجهه : أنت ما أتجوزتش ليه لغاية دلوقتى ؟ سؤاله أصابه بهزة بدت فى ملامحه .. يجاهد توتراً حين نطق بنبرة مقهورة : سؤالك ده يايوسف هواللى خلانى طلبت منك تراجع شريط حياتى كله فى دماغك كنت قاصد أوصلك معلومة مهمة. بدا متأهبا لسماعه . أردف : فى أنسان يايوسف لما يتعب و يجيله شويه صداع مثلا ولامغص ولاوجع فى ضرس بيبقى مش قادر يتحمل والدنيا بتسود فى وشه وبيفضل ع الحال ده لغاية مايقابل واحد عنده مرض خطير زى السرطان مثلا وأيامه فى الدنيا معدودة .. تقدرتقولى ساعتها حيحس بأيه؟ عض شفتيه ولم يجب . فتولى كرم : حيحس

أنه صغيرأوى و حينكسف من نفسه عشان كده لازم تفهم أن الفشل مش مشكلة كبيرة بالعكس سهل جداً ترجع تانى وتقف على رجليك وتنجح وتبقى بداية جديدة و كمان يايوسف فى فشل تانى بطعم الأعدام زى حالتى أنا لما أكتشفت من زمان أنى ما أنفعش أتجوز و لا حتى أقدر ألمس أى ست . أدلى باعترافه منكس الرأس بينما أتسعت حدقتى يوسف قبل أن يسدل عليهما جفنيه قابضاً خلفهما على صدمة باهظة أفضت إلى أزاحة أزمته من موقع الصدارة و أستبدالها بمصيبة الخواجه ، تحرك إليه بجسده ثم مال عليه يقبل جبهته : أنا مش عارف أقولك أيه ؟ أنا ماكنش قصدى أنى أجرحك . وضع أبتسامة على شفتيه و بثبات ظاهرى : الحكايه دى أنا نسيتها من زمان أنت اللى أضطرتنى أحكيها عشان أنا يهمنى تعرف أن اللى حصلك ده مش أخر العالم ودى صدمة يا يوسف ولازم تعديها أنت لسه قدامك فرص كتيرة مستنياك و مش حأناقشك فى موضوع هديرولاحأحملك مسئولية الغلط لما خبيت عليها حكاية مامتك و حرمتها من فرصة الأختيار وكمان مش حأغلطها فى معالجتها للموضوع و خلتك تيجى عندهم البيت وسمحت لباباها يتدخل وينهى الموضوع بطريقته .. مش هو ده اللى عايز أوصله .. ماعدش يفرق مين فيكم الغلطان .. سيب الأيام تعالج كل حاجة بطريقتها عيش شبابك و ركز فى مستقبلك .أنفرجت ملامح يوسف المنقبضة بعدما زال توتره فجأة وأسترخى بهدوء يتأمل مأساة أعظم من مأساته . شعر بفزع حين رن هاتفه كمن عاد لتوه من غيبوبة يتلمس بعينيه شاشة الموبايل ليتبين الرقم الظاهر . رفعه لأذنه : أيوه يا نورا . سكت يتلقى سؤالها . ثم أجاب : أنا عند الخواجه كرم .

ـ طب تعالى بسرعة عشان شريف زمانه جاى . وجم فجأة : شريف أبن عمو خيرى .

- أيوه يابنى هو فى شريف غيره .. أخلص بقى أنا مستنياك .

ـ حاضر . أزاح الموبايل عن أذنه ثم رسم أبتسامة أستغلها كرم فى طرح سؤاله : هى حاجة غريبه يعنى أن شريف يزوركم . هز رأسه نافياً و لا زال مبتسما : لأطبعا مش غريبة بس أشمعنى النهارده بالذات . قالها ووقف ممتنا : أنا قلبت دماغك و صدعتك . قام كرم هو الأخر بصعوبة و ناوله خبطة رقيقة على صدره : ياريت تبقى تيجى كل يوم تصدعنى . لم يجد أفضل من ذراعيه يفتحهما و يعانق الخواجه بشدة ثم خرج من الغرفة قاطعاً الصالة يتبعه كرم حتى أستدار يوسف حين بلغ باب الشقه : لو حسيت أنى متضايق و لا مخنوق حأبقى آجى أقعد معاك تانى . نظرة أخيره مع أبتسامة ثم أدار له ظهره محتضنا السلم .

بعد مكالمة قصيرة أجرتها نورا مع شريف ، بدت له غامضة كاللغز .

- أنت فين دلوقتى ؟ .

- فى الشغل .

- يعنى أنا معطلاك .

- مش أوى .

- عايزة أتكلم معاك .

- قولى عايزة أيه ؟ .

- مش حينفع فى التليفون .

- ياه غريبة أوى .

- أيه الغريب فيها .

- يعنى بقالنا شهرين ما بنتكلمش و فجأة تتصلى بى و عايزة تتكلمى معايا و كمان مش فى التليفون

- المهم عشان ما أعطلكش أنت فاضى أمتى ؟ .

- بكره عندى وردية حتخلص الساعة ستة .

- تمام يبقى حأقابلك بكرة الساعة سبعة عندنا فى البيت .

- و ليه مش بره .

- ماما و بسمة مش حيبقوا موجودين و فرصة نتكلم براحتنا . أنصاع ووافق على طلبها بعدما تصنع رفضا .

- خلاص مادام أنتى مصممة .. ماشى .

- سلام لبكرة . كانت دعوة غير متوقعة دارت بعدها فى رأسه عدة أحتمالات أحتار فيها كلها، فأكتفى بالأنتظار للغد قانعا فقط برؤيتها .

وصل فى موعده تماماً بكامل وسامته حين أستقبلته نعمة بموشح قصير: كده برضه يا شريف يا بنى فين و فين لما نشوفك ، ده حتى عيب أحنا اللى بينا و بينكم حيطه . أبتسم و هو لازال على العتبة : طب

دخلينى الأول يا نعمة و بعد كده نشوف الحكاية دى . أفسحت له .. أخذت عينيه تمشى ببطء فى الصالة ومن خلفه نعمة تنهج : نورت واللـه يابنى .

كان يستعيد ألفته بالمكان على مهل . ظهرت نورا قادمة من ناحية الطرقة تزفها أبتسامة تضيىء شفتيها ، عقدت شعرها فى حزمة و أطلقته ذيل حصان .. مستوية على عودها ، لكن شراسة مشيتها تحذر دائما من الأستهانة بها .

دخلت بحضورها العالى الذى أفتقده منذ شهرين ، لم يخطئها ، ما كان له أن يفعل و لو كانت قادمة من خلفه .. عطرها البسيط و سحرها و بروز شفتيها مكتنزتين دعوة صريحة لشريف الذى أستسلم لأحباطات القطيعة و تباعد فترات اللقاء . نظرتها أيقظت أحاسيس بداخله كادت تصدأ.

قالت وهى تقترب : واللـه كتر خيرك أن سيادتك أتنازلت و جيت لغاية هنا .

ـ مقبولة منك يا نورا . صافحها و كأنه أول مرة يشعر بملمسها ، تسرى اليه رسائل ملغزة عبر هذا الكف فنظر فى عينيها التى راحت ترتخى عليها الأجفان فى خضوع للموقف العاطفى . ها هما يلتقيان بعد أيام طويلة ، رأها خلالها تتغير كما رأته يتغير .

ظلت مبتسمة حتى جلست أمامه .. كانا مرتبكان كأنهما فى بداية تعارف . أنتظر كل منهما الأخر أن يبدأ بالكلام .

ـ أنتى أجازة النهاردة من الأتيليه .

ـ لا أبداّ أنا جيت من ساعه تقريبا . منذ فترة كان شريف قد سلم الراية . لم يعد ذلك الفتى الذى شاهدته شوارع الأسكندرية أيام كان ثوريا متمرداّ فى يناير ، زمان مضى و أخذ معه حومة الأنفعالات و حدة الغضب و أنصاع ذليلاّ أمام ماكينة " الكاشير " . أجابها مستظرفا حين سألته عن أوضاعه فى المول : أهى شغلانه أحسن من اللف فى الشوارع . قالها بأحساس من مل أنتظار الحل الثورى . و حين ساد الصمت فى الصالون عقب أجابته المستسلمة رأى أناملها وهى تتشابك و تنفرج ، تتلاحم فى عنف ثم تتباعد وهزهزات الساقين لا تتباطأ.. بينما بدا هو قلقا مسكونا بأفكاره و أستفساراته عن سبب منطقى وراء تلك الدعوة المباغتة ، فكان يتخير الكلمات المناسبة فيطول سكوته قبل أن ينطق . فحرضته على الكلام : مش عوايدك يعنى تبقى ساكت كده .. أتغيرت أوى يا شريف ! .نشط لسانه وكأنها فتحت له بعبارتها بابا كان يحسبه مسكوكا : أنا أتكلمت كتير قبل كده وماوصلتش لحاجة و لا فهمت أصلاّ أى

حاجة و دلوقتى سعادتك أفتكرتينى فجأة و طلبتينى عشان أجى و ده معناه أن فى حاجة مهمة عايزة تقوليها .. ياريت تجيبى من الأخر و تفهمينى أيه الحكاية ؟! طرح سؤاله و ثبت عليها نظرته .. بينما شعرت أن أمرها صار مكشوفاً .. كان محقا تماماً فى أستنتاجه . لم تعد نورا تتحمل الأوضاع الجديدة فى البيت و الأتيليه .. أجتهدت كى تتحول الأفكار و الخطط التى تهيم فى رأسها إلى خطوات متدرجة حتى تحسم معركتها . تقترح على نفسها أمورا ثم تكتشف عيوبا فتستنكر و ترفض ، يهديها العقل إلى فكرة جديدة فتفرح بها ، إلى أن وجدتها و رضيت عنها و باتت الليل تزين فيها و تعد لها.أرادت أن تلحق نفسها قبل أن يأتى يوم تجد فيه عرشها خاويا .. بدأت خطتها بدعوة شريف للبيت .

فى تلك اللحظة سمعا صوت باب الشقة ينغلق .. أبتسامة متقطعة دخل بها يوسف حتى بلغ حجرة الصالون قبل أن تستقر منفرجة على شفتيه حين رمق شريف الذى ألتفت إليه بغتة فوقف مصافحا ثم معانقا عناقا شبابيا أعقبه تبادل للقبلات على الخدين لها صوت طرقعة : واللـه أنا لما نورا قالتلى شريف جاى ما صدقتش .

- أنت عارف يا يوسف نظام الشغل و الورديات . قالها حين جلس بينما أستراح الأخيرعلى " بوف " بين الكرسيين ما مكنت له رؤية متميزة .

- مبروك يا يوسف .. هى متأخرة شوية بس أعذرنى .

- اللـه يبارك فيك هى متأخرة شويتين .

- أخبار عمو خيرى أيه ؟ كان سؤالاً تمهيديا أطلقته نورا كبالونة أختبار .

- كويس الحمد للــه .

- كويس أوى ولا نص نص . قالتها و غرست نظرتها فى عينيه . حاول أن يستشف ماوراء نظرتها : يعنى أيه مش فاهم ؟ أدركت توجسه وقالت : يعنى سعيد كده ومبسوط وحاسس أن الدنيا بقى لونها بمبى . أنفك لسانه عن كلمات تحمل نبرة تأمرية : هى أيه الحكاية بالظبط . بحذر استهلت كلامها :أصل أنا حاسه كده بحاجة بتحصل بين ماما و عمو خيرى .

- حاجة زى أيه يعنى ؟ .

- أستلطاف أعجاب و يمكن حب . تاهت عينى يوسف بينهما حين سمع الكلمة الأخيرة قبل أن يخرج عن صمته مدهوشاً : أيه اللى بتقوليه ده يا نورا .

- عادى يعنى ما قلتش حاجة غلط . دفع يوسف عنه المفاجأة و أستبدلها بحالة من الحرج : أنتى جبتى الكلام ده منين أصلاً ؟ تأملت فوضى ملامحه فأرادت أن توضح : عمو خيرى أنسان محترم و هو بالنسبة لنا ما يعتبرش راجل غريب ده كان معانا لحظة بلحظة و صاحب الفضل بعد ربنا فى نجاحنا فى الدراسة ، وكمان ماما مش صغيرة وفاهمة كويس هى بتعمل أيه . كرمش يوسف عينيه : أنا مش مصدق اللى أنتى بتقوليه ده . قالها بتحد ، فأحتوته بنظرة يعرفها جيداً أنطلقت من عينيها كأنها طلقة تحذيرية .. لم يجادل بعدها . بينما أصطنع شريف ملامح مندهشة : أنتى متأكده من اللى بتقوليه ده .

- ما كنتش قلته.. مفاجأة طبعا . أسترخى بظهره للوراء مبديا أبتسامة ثقة : لأ مش مفاجأة خالص ، بابا فاتحنى فى الموضوع ده من أسبوع . أنتابها أستغراباً شديدا قبل أن تمط شفتيها مستنكرة تعتيمه على الأمر : و ما قلتليش ليه ؟! تظاهر باللامبالاة ساخراً : ده على أساس يعنى أن أنا و أنتى بنتكلم كل يوم مع بعض ساعتين تلاتة . تخطت جملته و ركزت فى طرح سؤال جديد : و أنت رأيك أيه ؟. أغلق على أحباطاته داخل نفسه حين صدقت شكوكه حول دعوتها المغرضة ، هز رأسه مستنكراً أقصاء كل توقعاته : هو ده بقى السبب اللى كنتى عايزانى فيه ؟! . شعرت بالقلق حين لمحت تغييراً فى وجهه : مش بالظبط كده .. فى حاجات تانية كمان . ثم نظرت ليوسف و كأنها تتعلل بوجوده .

- مش باين أن فى حاجة تانية خالص. كنا أتكلمنا أحسن فى التليفون و قلتلك رأيى بدل ما كنتى عطلتى نفسك النهاردة عن الأتيليه . ظن فى البداية أنها ستتكلم معه عن توجساته التى يشقى بها ، لكنها خذلته . بينما وجد يوسف نفسه داخل مناظرة بين قوتين . لم تسعفه فراسته على أستنتاج ما حصل بينهما سابقا حتى وصلا بهما الأمر لتلك الجفوة فى الحديث ، بدا و كأنه أمام مسلسل يتابع حلقته الأخيرة . هكذا كان يشعر . أضطربت نظراته .. لم تخطىء عينيه ملامح أخته التى يعرف جيداً أين و متى تستعملها حين تحاصر فريسة قبل الأجهاز عليها . ثم قام من بينهما : عن أذنك يا شريف لحظة واحدة و جاى . شعر بنفسه داخل حالة غير طبيعية و أن هناك أموراً تدار فى رأس أخته التى رمقته بلا كلمة و هو ينسحب من الصالون بأتجاه غرفته بينما تحرر شريف عن تحفظه : يعنى أنتى أفتكرتينى بس لماحسيتى أنك محتاجة تتكلمى معايا عشان موضوع بابا و طنط هدى .. مش غريبة دى !! . أظهرت له أبتسامة كى تبرىء نفسها : أولا أنا ما نسيتكش عشان أفتكرك و ثانيا أنا كنت فعلاً نفسى

أشوفك ثالثا موضوع ماما و عمو خيرى يخصنا أحنا الأتنين مش أنا لوحدى . كان سرداً زائفا تخفى وراءه حقيقة أخرى . تفحصته حين أبدى تذمراّ . تابعت : ماتسيبك بقى من الصورة اللى أنت راسمهالى فى دماغك دى .

- صورة أيه أن شاء اللـه .

- أنى مصلحجية و جبارة و مفترية و أنت ياعينى الشاب الغلبان اللى لا حول له و لا قوة . حك جبينه مبتسما : أنا مش غلبان و لا ضعيف لكن أنتى فعلا جبارة و مفترية و مادام حطيتى حاجة فى دماغك و خططى لها يبقى خلاص نويتى على التنفيذ .

- حاجة أيه دى اللى نويت على تنفيذها .

- واللـه ما أعرفش أبقى أسألى نفسك . قالها بضيق .

- أنا حاسه بيك كده أنك متضايق عشان جيت .

- أنتى شايفة كده .

- يعنى شايفاك زعلان و مش مبسوط و كأنك مش عايز تشوفنى .

- لا ابداّ أنا متضايق من نفسى بس .

- مش فهماك .

- أنا بقى فاهمك كويس يا نورا .

- أكيد لازم تكون فاهمنى دى عشرة سنين يا أستاذ .

- بالظبط .. بس ياريت تكونى أنتى كمان فاهمة نفسك .

- يعنى أيه ؟ .

- مش كل حاجة بتفكرى فيها وتخططى لها لازم تبقى صح .. ممكن أوى بعد فوات الأوان و بعد التنفيذ الواحد يكتشف أن كل اللى عمله كان غلط فى غلط و ساعتها الخسارة حتبقى كبيرة و ماتتعوضش .

- والنبى من غير فلسفة و لا ألغازالمكسب و الخسارة دول وجهة نظريعنى جايز اللى أنت شايفه خسارة ممكن أكون أنا شايفاه مكسب .

- أكيد طبعا ! .

- هو أيه اللى أكيد طبعا .

- متهيألى الأمور بقت واضحة اللى أنتى شايفاه مكسب أنا شايفه خسارة . قاومت تلميحاته محاولة منها للسيطرة على أى رد فعل غير متوقع منه بغرض أفساد الجلسة ، فكانت حذرة كما كان هو .. و ظل الأثنان يمضغان الكلمات المترددة التائهة و يتقاعسان عن الأجابات الصريحة فباتا كورد النيل يعوق التيار أكثر مما يزين المجرى . تعمدت تلطيف الأجواء فصحبته فى جولة حكايات تخص تفاصيل عملها بالأتيليه وعلاقتها بزيزيت مقابل أقوال بائسة لخص بها تفاصيل يومه فى" المول " . ووسط زحام الكلمات وطوفان التفاصيل عادت مرة ثانية لموضوعها الرئيسى : بصراحة كده يا شريف أنت عندك أعتراض على أرتباط ماما بعمو خيرى ؟ .

- مش مسألة أعتراض و لا موافقة بابا مش صغير وعارف كويس أزاى ياخد قراراته . توجست من عبارته ، لكنها أستأنفت : قراره يخصك كمان و لازم يبقى لك رأى فيه .

- و يخصك أنتى كمان . بدت مرتبكة ، مضت تبحث عن أجابة : عشان كده أنا قلت لازم أتكلم معاك . لم يكن يدرك حساباتها حين سألها : أنا نفسى أعرف أنتى متحمسة أوى ليه للموضوع ده ولاعايزة تفهمينى يعنى .. لم يكمل الجملة و تركها معلقة .

- من غير يعنى الحكاية بسيطة ومش محتاجة تحليلات ، عمو خيرى و ماما محتاجين لبعض جداّ وتقريبا ظروفهم لايقة على بعض ..أنت خلاص كبرت وأعتمدت على نفسك يعنى مش محتاج لباباك وأنا وأخواتى متعودين على أن ماما ماتبقاش موجودة معانا وبصراحة أنا شايفة أن ده حقهم علينا وعلى الأقل نسهلهم المواضيع وما نقفش فى طريقهم وأنا عن نفسى حأفاتح ماما و حأبلغها أنى موافقة . ثم قربت وجهها من وجهه الذى لاحظت فيه جموداّ وعدم تفاعل . فقالت فى أستغراب : مش حاسة أن الموضوع يهمك وشكلك كده مكبر دماغك و لا أنت رافض الموضوع من أصله .

- و أنتى بقى موافقة ليه .. عشان خاطر سعادة مامتك . قالها و أكتفى بأبتسامة أستخفاف .

- ده سبب والسبب التانى والأهم أن الموضوع ده لو تم حيبقى فيه مصلحة لنا كلنا . سقطت جملتها الأخيرة فوق دماغ شريف فطوحته الى مواقف قديمة حين كانت تستعمل تلك الجملة فى تبرير ما تراه مناسبا لها . ظل صامتا للحظات حين شعر بها تناوره . كحة مصطنعة مصدرها حلق يوسف الواقف عند عتبة الصالون كى يشعرهما بوجوده إلا أنها لم تنتبه أو لعلها تعمدت عدم الأنتباه . ما أن دخل حتى قام شريف بهدوء .

- قمت ليه يا شريف . سألته و هى تواجهه بجسدها . أنسحبت كلماته و أختنقت ملامحه : معلش كفاية كده محتاج أنام . قالها دون أن يحرك نظرته عنها . ثم أدار وجهه ناحية يوسف الذى ردد جملة تحصيل حاصل : أنا لسه ما قعدتش معاك يابنى .

- معلش يا يوسف أعذرنى . خرج من الصالون فى حراسة نظراتها حتى بلغا سويا باب الشقة و قبل أن يجتاز عتبته ألتفت اليها .. تأملها .. طالت نظرته فأبتسمت : فى أيه يا شريف ؟ .

- أنتى لسه بتحبينى يا نورا ؟ . جالت بعينيها فى وجهه .. شاورت نفسها للحظات ، فعاد يسأل و يضغط على الحروف لأنتزاع فهم يخصه : لسه بتحبينى يا نورا ؟ .

- سؤال عبيط ماينفعش يتسأل ! .

- السؤال هو اللى عبيط ولا أنا .. !! أنتهت المقابلة .. خرج مبتسما و أنشغل للحظات يبحث عن سبب لتلك الأبتسامة : هل هى ساخرة و هو يرى فى نفسه مطيةلمخطط تديره نورا ، أم حزينة على قصة حب شاخت وهى فى مرحلة الشباب !. لازمه البحث حتى باب شقته قبل أن يدفن مفتاحه فى كالون الباب ، كان يعتريه شعور غير مريح بأن نورا طوته بسهولة و حركته فى أتجاه أرادتها غير عابئة بأرادته وبأنه فى يديها عجينة لا صخرة .

برأس محبطة دخل الشقة منوها بسلسلة مفاتيحه التى رماها على المنضدة لتصدر صيحتها المعروفة معلنة خبر وصوله .

أحتضنت مؤخرته مقعد فى أول الصالة ، تداعت أعضاءه فوق بعضها بتعب لم يتبين موقعه فى جسده . خرج خيرى من غرفته قاطعا المسافة إلى الصالة مهرولا شغوفا كى يتعرف على فحوى اللقاء الذى سبق و أن أشار له شريف شارحا تفاصيل المكالمة المفاجئة من نورا لعله يجد عنده تفسيرا أو تحليلاً .

جلس أمامه وواجهه بعينين تنتظران أخباراً هامة : خير طمنى يا شريف . مط شفتيه : القعدة كلها من أولها لأخرها كانت عليك أنت و طنط هدى . تجمد فى مكانه و كأنه فارق الحياة كما تجمدت نظرته المفزوعة فى عين أبنه : عنى أنا وهدى .. ليه ؟ مسح وجهه بكفيه : نورا مرحبة أوى بحكاية جوازك من مامتها . تتوالى علامات الدهشة والأستغراب حتى أستقرتا بكثافة فى وجهه : جوازى أنا من مامتها .. عرفت الكلام ده منين ! .

- ماعرفش .. يمكن من أمها . حرك رأسه ببطء نافيا : مستحيل .. المفروض أن نورا أصلاً ما تعرفش حاجة خالص عن الموضوع ده . فرد شريف رجليه و شبك أصابعه خلف رأسه متصنعا عدم الأكتراث : واللـه ماعرفش بقى ، المهم أنها ماعندهاش مانع و كمان بتطلب منى أنى أشجعك و تخلص الموضوع ده بسرعة . بأرتباك و أستغراب سحب سيجارة من علبته ثم أشعلها قبل ان تفلت منه أبتسامة مدهوشة : حاجة غريبة أوى و مش مفهومة . أستأنف بعد أن سحب نفسا طويلاً : ع العموم مش مشكلة عرفت أزاى بس اللى أنا مش فاهمه ولا مستوعبه حكاية أنها موافقة و مرحبة و كمان عايزاك تشجعنى عشان أخلص الموضوع بسرعه ؟! . قالها و سحب نظرته كى يتخلص من أرتباكه ، بينما لملم شريف رجليه المفرودة ملقيا جملة قصد منها زيادة أرتباك والده : نورا بتحرضنى على أقناعك و كأنك يعنى متردد أو لسه بتفكر و مستنى منى تشجيع .. ماتعرفش أنك خلاص خدت قرارك !! . قالها و طالت النظرة بينهما ، فأستشف منها خيرى تأنيبا وعتابا .

فى تلك اللحظه كانت هدى قد وصلت البيت بصحبة بسمة بعد جولة تسوق أجبارية تنفيذا لحكم أصدرته نورا يقضى بأرتدائها الحجاب . دخلتا من الباب تحتضن كل منهن كيسا كبيرا يحمل أسم " بريونى للمحجبات " .

بادرتهما نورا قبل أن تلتقطا أنفاسهما : جبتوا أيه . سحبت هدى كيس بريونى من بسمة : جبت طقم حلو أوى حيعجبك تايير و طرحة و كام بندانة على سبيل التجربة .

- فرجينى .

- حأدخل أوضتى أغير و ألبس و شوفيه على أحسن . أتجهت لغرفتها بسرعة و بدأت فى أجراءات خلع ملابسها .. تفحصت الجسد العارى أمام المرآة قبل أن تؤدى مراسم أرتداء الطقم الجديد .. تايير فضفاض يشوق النفس إلى كشف ما يخفيه متوجة رأسها بطرحة كنارى تنسدل على الكتفين بينما تجلى

وجهها فى المرآة بدون ماكياج ، فتفتحت على شفتيها أبتسامة .. راق لها الحجاب الذى ينتزعها إلى واقع جديد .

خرجت من غرفتها و قد أختفى شعرها تحت الطرحة و أختبأ جسمها داخل التايير الواسع . مرت أمام عيونهم المتفحصة بوجه يحمل جمالا من نوع خاص ، بدت أكثر تعبيرا و وضوحا و كأن حجابها أطارا نورانيا يسكن داخله وجها أتقن صانعه صنيعته . و كطباع أهل هذا البيت فى ذلك الزمان ، اذا جد جديدا أو شعروا بحركة أو سمعوا همهمة يخرجون من معاقلهم ، فظهر يوسف يستطلع و من بعده نعمة فى ذيل أيات كأنهما فى طابور كشافة . هزت هدى رأسها بأبتسامة جديدة فتحركت لها بسمة تهندم حجابها بينما ظلت نورا ترمقها بلا كلمة . فأقتربت هدى منها تتمايل : أيه رأيك كده يا نورا ؟ عاينت الهيئة الجديدة : جميل !! . مظهرها الجديد كان سببا لحالة نشاط مفاجىء دبت فى مفاصل نعمة التى سارت دون ترنح تتحسس الطرحة : بسم اللـه ماشاء اللـه وشك زى القمر يا ست هدى .

- كتر خيرك يا نعمة . أبتسامة مجاملة أبداها يوسف الذى أستند بظهره بجوار غرفته حين توجهت إليه بخطوة عارضة أزياء : أيه رأيك كده يا يوسف ؟. بدا غير مهتم رغم محاولته أظهار جدية : كده أحلى من الأول . قالها و فى قرارة نفسه لم يلحظ جديدا . فرحت بتعليقه : لو أعرف أن ده رأيك كنت عملتها من زمان . ألقت نظرة من وراء كتفه وقد أبتل جبينها عرقا تحت وطأة الحجاب الذى أحاط رأسها و صدغيها : نور الصالون منور ليه كان عندنا ضيوف ولا أيه ؟ لم يعلق و كأن السؤال لا يعنيه فتطوعت نعمة : شريف أبن الأستاذ خيرى كان هنا و لسه ماشى . رفعت حاجبيها ثم توجهت بغمزة ناحية نورا : آه .. عشان كده أنتى زى القمر النهاردة . تصنعت خجلا : ولا قمر ولا حاجة . ثم أشاحت بوجهها لنعمة : محتاجة كباية شاى ضرورى . شعرت هدى بأنها أدت المطلوب منها كما أمرت أبنتها ، فأنحرفت ناحيتها قبل أن تتوجه لغرفتها : مبسوطه كده يا نورا .

- آه كده حلو . تصريح مقتضب قابلته هدى بحالة من البحث الدائم عن سبب واحد منطقى يصلح لتبرير تلك المعاملة الجافة رغم أنصياعها التام لكل شرط أو ملاحظة أبدتها أبنتها دون جدال .. لم تجد تفسيرا ولا حتى فهما ، فكان الهم و الأحباط هما رفيقاها حتى باب غرفتها محاطة بنظراتهم و كأنهم يكتشفوها من جديد . أوصدت الباب خلفها بينما أنسحب يوسف الى غرفته يعانى من كل أنواع الفراغات ، العاطفى والنفسوالمعنوى بدا كمدمن فى بداية رحلة علاج حين يرافق الأضطراب والعصبية وقلة النوم مرحلة أنسحاب المخدر من الجسم.

تفرق الجميع كل لحال سبيله . نعمة فى مهمة رسمية لتحضير كوب شاى لنورا بينما سبقتها أيات لغرفتها فى حين أدت بسمة المطلوب منها بحياد و كأنها تؤدى دورا وظيفيا بلا أنحيازودون أبداء رأى .. فى حين جلست نورا بمفردها فى الصالة بوضعية الأسترخاء تقيم أحداث اليوم من كل جوانبه .

بينما هدى فى غرفتها تحمل رأس تسحقه أفكاروخيالات .. لم تعد قادرة على التنبؤ والأستنتاج .. تاهت التفسيرات وتداخلت الأفكار فى عقلها بعدما لاحظت اليوم تغييرا جذريا فى سلوك بسمة التى كانت ساهمة مرهقة خاصمت الفرحة ملامحها بدت كعجوز بوجه فتاة .. لم تتكلم كثيرا كعادتها ، كانت حذرة أو ربما متزنة .. أتزان غريب و غير مفهوم ، عبارات جليدية مختصرة هى اجمالى ما نطقته بسمة طوال ثلاث ساعات .. هاجمها شعور متنامى بأن أبنائها الثلاثة أصابهم مرضا نادرا أعراضه لا تقبل التأويل : أحساس بالغربة تجاهها، أصبحوا فى لحظة بعيدين عنها بالرغم من محاولاتها الحثيثة أن تلغى هذه المسافة و تقترب منهم ، لكنهم ظلوا يتعاملون معها عن بعد .. شىء ما كانت تلحظه فى أصواتهم ، و نظراتهم، شىء جديد ، كأنهم يرونها من خلال ستار يفصلها عنهم .. تذرعت بالصبر .. أحتملت كلام نورا المتعجرف ثم ثوراتها التى تهب دون مقدمات و دون سبب , أصبح الصمت ردها الوحيد عليها . أصبحت تخشاهم .. كل همها أن تحتفظ بهم .. تخشى أن تفقدهم . تحولت للمرآة تنظر فى عينيها قبل أن تعبث بطرحتها ، سحبت طرفها الملفوف خلف رأسها ثم طرفها الثانى فتحررت وتركتها مدلاة فوق نهديها ثم أعادت لفها ثانية حول رأسها لكن بصياغة قديمة حين جعلتها غير محكمة حول أستدارة وجهها ، واجهت صورتها فى المرآة .. تراجعت خطوة للوراء عندما شعرت بالخوف فنزعت طرحتها بعنف حين تجسدت أمام عينيها صورة حجابها أيام سجنها .

مر عليها وقت غير معلوم وهى ممددة .. صعدت بعينيها مرات ومرات ..إلى السقف والنجفة والنافذة قبل أن تزحف نزولا ناحية السجادة والأرضية وفردة حذاءها المقلوب فتحولت الى كتلة صماء من الملل .. تقلبت على جنبها الأيمن للمرة العاشرة قبل أن يرن هاتفها ، فأهتز جسدها وأنقضت عليه بكل مافيها من تشوق كأنقضاض موظف حكومة على راتبه أخر الشهر .. أحساس الملهوف المكروب حين يعثر على طوق نجاة .. هاهو المنقذ سمير الليل قاتل الوحدة .. نفس البداية همسات خافتة ونبرات متحشرجة : أيوه ياخيرى . حيوية طارئة حين أجابته : لأ مش نايمة .

صوته الرتيب يحمل كلمته المعتادة يوميا : وحشتينى . بأبتسامة معتادة تلخص ردها يشعر بها من خلال أنفاسها .

ـ أشتريتى أيه النهاردة . فلتت منها ضحكة : تايير أسود وطرحة كنارى وشوية بندانات .

ـ تمام .. الأسود حيبقى خطير عليكى .

ـ ده طقم كده على سبيل التجربة وبعد كده زيزيت حتظبطنى .

ـ وشكلك عامل أزاى فى الحجاب .

ـ لما تشوفنى أبقى أحكم أنت .

ـ حجاب من غير حجاب عجبانى واللـه وماتفرقش معايا وكله دلوقتى بقى لابس حجاب .

ـ هو الحجاب عيب .. عقبالك بقى ؟! ضحكت .

ـ أتحجب .

ـ لأ تربى دقنك هو مش رئيسك بدقن .

ـ رئيسى مين .

ـ الشيخ مرسى .

ـ آه .

ـ عارفة أنك مخنوق وجايب أخرك من وضع البلد ومن اللى بيحصل فيها والنهاردة بالذات أخدت بالى أوى .

ـ أشمعنى النهاردة .

ـ وأنا بلف على المحلات مع بسمة لقيت الناس أرفانة وروحهم فى مناخيرهم ومش طايقين بعض وكله بيشتكى من الحال الواقف والفوضى اللى فى كل حتة وتقريبا كلهم بيقولوا أن مرسى والأخوان حيودوا البلد فى داهية . تسلم جملتها الأخيرة وأنفتحت طاقة من الغضب : مرسى والأخوان خطفوا البلد فى غمضة عين ومستحيل الناس حتسيبهم يكملوا سنة كمان .

ـ بس الناس بتقول مادام الجماعة دول وصلوا للحكم مش حيسيبوه أبدا .

ـ متهيألك الشعب بتاعنا ده أتحمل الفقر والمرض وقلة الشغل والبهدلة سنين طويلة وعايشين ومتحملين وبيقولوا الصبر مفتاح الفرج وعندهم أمل الأحوال تتصلح ومستعدين كمان يصبروا بقيت عمرهم لكن مستحيل يصبروا أبدا على جماعة طلعتلهم من تحت الأرض عايزه تشقلب تفكيرهم وتلغى شخصيتهم ويزرعولهم عقول غير عقولهم وينصبوا عليهم بأسم الدين ويحشروا البلد كلها فى جلابية ودقن .. مستحيل . كان أداؤه عصبيا .

ـ طب خلاص ماتزعلش أنا غلطانة .. غير الموضوع .

ـ أنتى عرفتى أن شريف كان عندكم النهاردة . أحاطت جبينها بكفها : أول مادخلت نعمة قالتلى ده لسه ماشى . أستعمل نبرة الفوازير : وعرفتى نورا قالتله أيه ؟. عبثت بخصلات شعرها : بصراحة ماسألتش ماحبتش أحرجها .

ـ كلامهم كله كان علينا أحنا الأتنين . قطبت جبينها مستغربة : على مين ؟. رفع صوته : على أنا وأنتى .مشت بظهرها حتى ألصقته بظهر السرير : ليه ياخيرى ؟ .

ـ نورا بنتك متحمسة أوى وموافقة على موضوع جوازنا . همد فجأة جسدها وهمد التليفون على أذنها وبدا صوتها متوترا : وليه شريف ياخد رأيها فى حاجة زى دى وليه أنت أصلا سمحتله يفاتحها فى الموضوع ده .

ـ ياستى لا أنا ولاشريف عملنا كده بنتك هى اللى فتحت الموضوع من نفسها ومش كده وبس دى كمان شجعته أنه يقنعنى أخلص موضوع الجواز ده بسرعه وأبقى أسألى نفسك بنتك عرفت حكايتنا منين ؟! نبرة عصبية كان يستخدمها لأول مرة مع هدى . أهتزت بها الغرفة حين أنهى تصريحه .. دقيقة كاملة أنفصلت فيها عن العالم ، كانت قابعة فى ركن ما فى الكون قبل أن تعود بعقل معطل وعيون تدور فى الغرفة تتبين مكان وجودها .. شعور غريب يتملكها ، بأنها عارية مكشوفة تتطلع اليها عشرات الالاف من العيون وكأنها تنام داخل " صينية " ميدان التحرير فى " مليونيه قندهار " .

ـ هدى .. ياهدى . بدا لها نداءه كصوت ريح يتردد فى خلفية حلم تدور أحداثه حول أنسانة ضاعت فى أحراش غابة فى ليلة ظلماء . أستعجلها : ماتردى على ياهدى ! . بالكاد خرج صوتها : نورا عرفت منين ياخيرى ؟! .

ـ واللـه مأعرف لدرجة أن شريف لما سمع الكلام ده منها كانت مفاجأة بالنسبة له ده كان فاكر أنها عايزاه عشان محتاجة تتكلم معاه فى مواضيع تخصهم همه ، أنا اللى بأسألك ياهدى بنتك عرفت أزاى ؟! زادت ضربات قلبها مع سؤاله الأخير ، حاولت استرجاع وقائع أخر أسبوع لعلها تصل الى الثغرة التى نفذت منها نورا الى سرها العظيم !!. دار بعقلها عدة احتمالات : أستبعدت شريف بعد نفى خيرى القاطع لها ، أجتهاد شخصى من أبنتها فرضته واقعة خيرى والموبايل حين أهداه لها أو ربما سقط منها سهوا عبارة أو كلمة تخص خيرى أستفادت منها نورا وبنت عليها موقفها أو تكون قد تصنتت عليها أثناء مكالماتها الليلية . مسكت فى رقبة هذا الأحتمال ورجحته .

ـ مش قادرة أفهم كلام نورا ده وراه أيه ؟. أختنق صوته : وراه اللى وراه تفرق أيه يعنى .. خدى الأمور ببساطة من غير تعقيد .. ليه دايما بتنسى أن نورا بنتك وأنتى أمها وأكيد يهمها سعادتك . تعمدت عدم الرد .. أى تعقيب سيكون جارحا لها ولأبنتها ، هى لاتقدر أن تطرح أمامه ماتوصلت اليه من نتائج موثقة بالأفعال وفى مقدمتها نفسية أبنتها المتأزمة من وجودها فى البيت والاتيليه . جذبها الصمت وقلة الحيلة إلى عدم التفكير بينما تفهم هو سكوتها ولم يفهم قلقها المفرط .

ـ عارف أنك متضايقة ومرتبكة وفاهم أنك كنتى عايزة الأمور تاخد وقتها بينى وبينك ، لكن قدر اللـه ماشاء فعل .. حنعمل أيه بقى . حاول القفز بها الى مواضيع متفرقة قاصدا التقليل من قيمة الحدث الذى هز كيان معشوقته التى عاودت اللف من جديد حول نقطة البداية حين فجرت سؤالا جديدا : طب هى ليه عايزانى أتجوزوبسرعة مع أن جوازى منك ممكن يكون ضد مصلحتها؟!. ربما تعرف لكنها واجهته به.

ـ من غير شرح ولا كلام كتير ياهدى أنتى فاهمة وأنا فاهم أن نورا مش طايقة وجودك فى البيت هى شايفه أن جوازك حيبقى فيه مصلحة كبيرة بالنسبة لها . هزمتها كلماته ، كان صادما صارما . سكت للحظات ثم تابع حين سمع صوت أنفاسها المضطربة كالذى يتهيأ لطعنة سكين .

ـ أنا مش قصدى يعنى أنها بتكرهك ولامتضايقة من وجودك بالمعنى اللى أنتى فهمتيه .. الحكاية كلها أنها شايفة من وجهة نظرها أن البيت بأللى فيه ملكية خاصة لها ومش عايزة أى حد يتدخل ولا يكون له دور حتى لو كان الحد ده هو أمها .

لم يصله سوى دموعها التى شعر بها من خلال شهقاتها . فتابع متأثرا بعد ما أستعاد رصانته التى فارقته الليلة : أرجوكى ياهدى أنا مش عايزك تبقى ضعيفة ياريت تفكرى بعقلك مش بقلبك جوازنا حيبقى حل منطقى لكل المشاكل وخليكى زى نورا فكرى بواقعية زيها هى شايفة ان جوازنا حيكون حل سحرى بالنسبة لها وأنا متأكد أنك لما تبعدى شوية الكل حيرتاح أنتى وهمه .

ـ عندك حق . قالتها مقهورة ثم نوهت بأقتضاب : أنا حأنام دلوقتى ياخيرى وبكرة نكمل كلامنا .

ـ براحتك ياهدى مع أنى متأكد أن الليلة عينيكى مش حتغفل ولا حتشوف النوم بس معلش كله حيعدى.

ـ تصبح على خير .. سقط التليفون من يدها والأحتقان يملأ خريطة وجهها وبدا الليل مثل وحش لايرحم . شعرت أنها تعيش زمنا عصيبا غير مألوف لا هو بالحاضر، ولا هو بالسالف .

لم تسأل نفسها حين ضمت ركبتيها الى صدرها أن كانت تعبر كابوسا سرعان ماتصحو منه . ثم نظرت حولها كأنها تلتمس العون . سيكون الليل حتما ضيفا ثقيلا عليها .

فى اليوم التالى كانت دعوة غريبة تلقتها " بسمة " حين رن هاتفها وهى تتابع بملل على الكمبيوتر وصفات الماسكات التى تعالج البشرة على صفحة عالمة متخصصة خريجة معهد سياحة وفنادق !. أنفصلت عن قرينها الذى ألتصقت به أكثر مما يلزم فى الفترة الأخيرة .. نظرت فى شاشة الموبايل قبل أن تجيب : أيوه يانورا .. مابعملش حاجة قاعدة ع النت . ضيقت عينيها : نخرج نروح فين ؟. أخترق صوت نورا نسيج الكآبة الذى يحاصرها : أى حتة نغير جو بدل قعدتك المنيلة دى ، المهم أنا قدامى نص ساعة جهزى نفسك أنتى ويوسف وخليه ياخد مفاتيح العربية من عمتى . أنتهت المكالمة وفى أعقابها نفضت رأسها من ماسك الباذنجان بالطحينة وقامت تتبع التعليمات كما تلقتها من اختها تحملها بلا تعبير لغرفة يوسف وهى تحدث نفسها ساخرة : هو فى تغيير أكتر من اللى أحنا فيه ده !!.

نصف ساعة بالتمام وكان يوسف يقود سيارة عمته بأتجاه " كارفور" بعدما وقع عليه الأختيار كموقع مناسب ووحيد فى الوقت الحالى لتغيير حالة الرتابة والذى صار قبلة السكندريين ومتنفسهم الشرعى بعد أن تراجع الكورنيش وطريق البحر إلى مرتبة متدنية بعد مأشهرت معظم الكافتيريات المطلة على البحر أفلاسها فى ظل وضع غريب وشاذ بعدما تحول طريق الكورنيش إلى مأساة تدرب النفس على الصبر والسلوان وأختبارا قاسيا على قدرة التحمل حين تجد نفسك راكدا داخل أطول " جراج "

بالاسكندرية تحيطك الظلمة من كل جانب لايضيئه سوى كشافات السيارات المستسلمة ووميض السجائر التى تنشط على شفاه المحبوسين أنتظارا للحظة الفرج .

هبطوا من جوف السيارة بملامح جادة . كان يبدو عليهم انهم أزاء مهمة .. أقتضاب ووجوم وكأنهم مدعوون لأجتماع يناقش أزمة . أتجهوا للبوابة الرئيسية لـ " كارفور " . دخلوا مع الداخلين قبل أن ينحرفوا يسارا حيث مربع الكافيتريات وسط افواج الحجيج الذين جاءوا من كل حد وصوب احتفالا بمولد سيدى " كارفور " العاشرة .

عالم صاخب يديره الجيل الصاعد بأمال وأحلام كبيرة بحجم فتاة ضربها هرمون " الفراخ البيضا " يتعقبها من الخلف من قنع بحلم صغير فى حدود " فرك " النهدين وأعتلاء الردفين بما يمتلكه من قدرات لا تتعدى فى أحسن الأحوال تيشرت ملون بـ " زنط " ومؤخرة تتراقص فى بنطلون " جينز " ساقط يطوى داخله ثورة وتمرد تتأرجح بين الجد والهزل . أنسلتوا من بين جموع الداخلين ناحية كافيتريا " كارلوس " على يمين الممرالطويل المؤدى إلى الهيبر وسط جو عام من التفاهم والرضا جمع بين فتيات الأسكندرية بشباب المحافظة . عند مدخل " كارلوس " لم تعقب بسمة حين سألتها نورا : نقعد بره ولاجوه ؟. بالداخل كانت الأضاءة خافتة تسمح بالخصوصية وتفسح مجالا واسعا للأيادى المتوغلة كى تؤدى وظيفتها .. الجو مهيأ لكل فعل .. أنها ملحمة !! .. نظرة طويلة من يوسف قرأ خلالها الفاتحة على روح الأيام الخوالى ثم تولى الأجابة متنهدا : خلينا بره أحسن . بينما تبحث نورا بعينيها عن مكان يصلح لأدارة جلسة دون ضجيج . دقيقة واحدة كانت كافية ليستوى كل منهم على مقعده حين هداهم جرسون نشيط صاحب أبتسامة مزيفة لمنضدة فى موقع متميز تطل على الداخل والخارج .. تحلقوا حولها وفى حوزة كل منهم أوجاعا نفسية ونظرات غير مستقرة ، أستعجلت نورا الجرسون باشارة من يدها لتنهى مقدمات الجلسة الأجرائية قبل أن تشرع فى جدول الأعمال . تجول يوسف بعينيه حين رجع بظهره الى مسند كرسيه وهو يتابع فوج بنات تحت السن يتسابقن بخطوات مدروسة على أيقاع " الواحدة ونص" تذكر حين حضر العام الماضى بصحبة هدير يوم عيد الحب ، أشترى لها دبدوب أحمر مقابل زجاجة برفان فرنساوى حصل عليها مع قبلة خاطفة حين دلفا السيارة . تشكلت على شفتيه أبتسامة عندما داهمته الذكرى قبل أن ترحل على صوت أتاه من خلف رأسه : أؤمر سعادتك .

ـ أخد واحد كابوتشينو . تيمنا بجلسته الأخيرة مع الخواجة ثم تلفت لبسمة التى اختارت : أى عصير فريش .

ـ وأنا قهوة مظبوط . دون المطلوب فى نوتة ورحل .

دقائق بطيئة مرت قبل أن تفتتح نورا الجلسة : مالكو مسهمين كده ليه .. فى أيه ؟!.

كانا فاقدى النطق .. شيئا مابداخلها بدأ يفور ويطلق أبخرة غضب . أردفت : أنا نفسى أسألكوسؤال أنتو الأتنين .. هى أحلامكم كلها كانت واقفة على سى أمجد والست هدير .. هو ده المستقبل اللى كنتو راسمينه هى دى الرجولة يايوسف ووعدك لى أنك حتبقى راجل البيت وتقف جنبى ودى الثقة بالنفس اللى قلبتى بيها دماغنا ياست بسمة .. ياه واللـه العظيم أنا مامصدقة نفسى خيبتى فيكم مالهاش حدود . أدلى يوسف برأسه حين ذكر أسم هدير على لسان نورا بينما شردت بسمة للحظات.. أثار منظرهما حفيظة نورا التى زاد أنفعالها حين رأت أمامها كيانان غريبان ينخرهما اليأس بلا أدنى مقاومة .. يتابعان عصبيتها بحياد بارد . فأرتفع صوتها : ده مش وقت سرحان ولاتوهان كل واحد فيكم لازم يفوق وينتبه لمستقبله .. أيه الوكسة اللى بقيتو فيها دى .. معقولة تبقوا بالضعف ده عاملين زى حته الأزاز أى خبطة ولا صدمة تكسركم وتخليكم بالمنظر الكئيب ده وكأن خلاص القيامة قامت والدنيا أنتهت . تابعت حين أرسلت نظرة خصت بها يوسف : هو أنت ذاكرت وتعبت وأتخرجت من كلية الهندسة ليه .. عشان تقعد فى البيت وتطول دقنك وتعيش على الذكريات ، هى هدير بتاعتك حابسة نفسها زيك كده ليل ونهار فى أوضتها وموقفة حياتها كلها عشان خاطر سيادتك ، أكيد لأ وأنت شفت بعينيك لمارحت مكتب ناجى كانت هيه موجودة وبتشتغل وعايزة تثبت وجودها مع انها أصلا مش محتاجة أى حاجة .. كفاية بقى يايوسف وفوق شوية وبص لمستقبلك وألحق نفسك وأرجع لمكتب المهندس ناجى قبل ماتخسر مكانك فيه وتضيع فرصة حتندم عليها كتير . هز رأسه دون أن ينظر اليها : أنا أتصلت أمبارح بالمهندسة أيمان وقلتلها أن كان عندى ظروف عائلية وحآجى يوم السبت .

ـ طبعا قالتلك شكرا خليك مستريح فى بيتكم . جملة قالتها بسمة بأستخفاف .

ـ بالعكس كانت رقيقة جدا معايا وقالتلى مافيش مشكلة ودى حاجة غريبة أنامش فاهمها لغاية دلوقتى .

ـ ولا غريبة ولا حاجة دى تلاقيها توصية ياباشا . كان ذلك تنويها من نورا . لمعت صورة هدير فى ذهنه حين جرجرته كلماتها لبقايا أمل بتلاعب فى أعماقه . هز رأسه وجسده مسجون فى عجزه عن

مقاومة غيابها .. لحظة صمت حين باغتهم الجرسون يفرغ حمولته .. كابوتشينو امام بسمة سحبه يوسف مذكرا تلك الألة التى تقف فوق رءوسهم : ده بتاعى أنا . ثم نزل بعصير البرتقال امام نورا التى ازاحته الى منطقة بسمة مرددة : أكيد حضرتك كده فهمت أن القهوة دى بتاعتى . أبتسامة غبية : صح سيادتك .سندت نورا مرفقيها على المنضدة وبينهما فنجان القهوة وتحولت ناحية أختها التى تنتظر نصيبها من الهجوم : يعنى أنا ممكن أفهم الحالة اللى أخوكى فيها وأعذره مع أنى أرفانه من حالة البؤس اللى هو فيها لكن اللى مش فهماه وحيجننى حالتك النيلة دى .. قافلة على نفسك وعايشة دور المطلقة لابتروحى ولابتيجى عشان أيه كل ده .. عشان سى أمجد الشاب الهاى كلاس أبن الأكابر .. أنتى أكيد حصلك حاجة فى دماغك . تنصت إليها وعيناها لاتفارقان شوب العصير . فأستأنفت ساخرة : ونبى مش مكسوفة من نفسك لما يبقى واحد فى مستوى أمجد ده وحالته العدمانة دى يبعد عنك ويهرب بمجرد ماصارحتيه بحكاية ماما . جملة أطاحت بما تبقى لها من أعذار كانت تلتمسها له فسقطت نظرتها أرضا حين أجهزت عليها نورا بحقيقة دامغة حاولت مرارا أن تتحاشاها : كده الأمور بقت واضحة أوى ومش محتاجة فتاكة سى أمجد بتاعك ده لما قرر يحبك كان عارف بالظبط هو عايز منك أيه ولما أتمكن من عقلك وقلبك وعرف أنك فرصة بالنسبة له جهزخطته وكان عايز ييجى يكلم ماما ويتقدملك ولما سيادتك صارحتيه بالحقيقة وعرف أن الليلة كلها كدبة كبيرة ومافيش خليج ولاعقود ولافلوس خد بعضه وقال يافكيك عشان اللى زى أمجد ده مايهمهوش غير مصلحته وبس . عضت شفتها فى أسف : عندك حق . قالتها بضعف وخجل بينما أبدى يوسف تأييدا وهو يداعب شوب الكابتشينو : خلاص بقى يانوورااللى حصل حصل وده درس لنا أحنا الأتنين أو على الأقل لى أنا. لم تتراجع أمام كلمات الندم وظلت على حدتها : ماقلتش لنفسك الكلام ده ليه من الأول كنت مستنى لما تسمع منى كلمتين تأنيب عشان تفوق من اللى أنت فيه . ظلت ترمقهما لثوان ثم أشاحت بوجهها مستنكرة وهى تردد جملة دائما ماتقال فى مثل تلك الحالة : أيه لعب العيال ده !! .

لحظات هدوء وتأمل .. أنشغل كل منهم بمشروبه ومتابعة الوفود الداخلة وكأنهم أمام شاشة عرض سينمائى يتابعون فيلما شبابيا بأمتياز يتخلله بعض اللقطات لبعض كبار السن كضيوف شرف . أنهت نورا رشفتها الأخيرة من فنجان القهوة قبل أن تستعيد أنتباهما بكحة مصطنعة ثم مالت بصدرها وهى تضع على وجهها قناعا من الجدية : ركزوا معايا شوية وخلونا نفكر مع بعض حنعمل أيه فى اللى جاى ؟ .

ـ فى أيه يانورا ؟ سأل يوسف قبل أن يفرغ الدفعة الأخيرة من الكابتشينو فى جوفه .

ـ فى موضوع ماما . بسذاجة علقت بسمة : هى مش أتحجبت خلاص .

ـ حجاب أيه اللى بتتكلمى عنه هو كل اللى أحنا فيه ده وعيشتكم المتكعبلة دى كانت واقفة بس على حجاب ماما .. ياريت كانت تبقى بسيطة .. مش عايزين نضحك على بعض أنتو فاهمين كويس أن مشكلتنا كبيرة ومايعلم بيها إلا ربنا ظروفنا دلوقتى بقت غير الأول ، يعنى لازم نشوف حنعمل أيه وندور لنا على حل .

ـ طب أنتى شايفة أيه ؟ .

ـ أنا شايفه يايوسف أن مشكلتنا كلها بقت فى وجود ماما معانا . قالتها وكانت تنتفض وكأنها تستعيد كل المعارك التى دخلتها .. ثم تهدأ للحظات كأنها تأبى الأستسلام . تابعت فى أصرار : ماعدش ينفع طبطبة ولاكلام مزوق الناس دلوقتى مابترحمش ولاعايزين ينسوا ولايغفروا ولاحتى يسيبونا فى حالنا .. ليه أحنا أصلا ندفع تمن مالناش ذنب فيه وأنت وأختك جربتو بنفسكم وشفتو بعينيكم عند الجد كله بيهرب مافيش حد بيعذر ولا فى حد عنده أستعداد يقرب من ناس أمهم دخلت السجن عشر سنين فى جريمة قتل !.. كانت تتحدث بلسان ساخن تلسعه نار الخوف الشديد على مستقبل أصبح تحت سطوة التهديد . تريد أن تقنعهما بأنهما أمام حالة وقضية .. تتطلبان حلا ؟!.

ـ بتفكرى فى أيه يانورا ؟ سكتت للحظات قبل أن تجيب على سؤال بسمة رمقت خلالها يوسف الذى أدرك أن تلك المقدمة ماهى الا تمهيدا لقرارات صعبة قادمة .

ـ ماما حتتجوز عمو خيرى .

ـ بصراحة أنا مش داخلة دماغى الحكاية دى خالص . بدا متحفظا عند ذكر كلمة " جواز " كان يجد صعوبة فى تخيلها .

ـ لا عيب ولاحرام ده جواز على سنة اللـه ورسوله .

ـ يعنى أنتى متأكدة أن فيه أرتياح بين ماما وعمو خيرى .

ـ يابنتى عمو خيرى عرض عليها الجواز فعلا بس هى محتارة ومترددة شوية يعنى ممكن تقولى كده خايفة أو قلقانه عشان كده طلبت منه التأجيل .

ـ نفسى أعرف جبتى الكلام ده منين . قالتها بسمة بدهشة .

ـ مش ده المهم أنا اللى يهمنى أننا نأخدخطوة لقدام .

ـ قبل مانأخد خطوة يانورا أنا مش فاهم جواز ماما حيفرق معانا فى أيه ، اللى حيتغير فى حياتنا ؟!.

ـ جواز ماما هو اللى حينقذ حياتنا كلها ويأمن مستقبلكم ويكفينا ان ماما حتبقى فى رقبة حد تانى ويتحمل مسئوليتها والناس ساعتها حيبقى لها الظاهروانتو حتحسو بالفرق الكبيرة لما تكون المشكلة عايشة معاكوفى مكان واحد ونتحرق بنارها وبين لما تكون المشكلة بعيد عنكو.. ماتنسوش كمان أن عمو خيرى يعتبر فرصة كبيرة لماما ولنا بوضعه ووجاهته وبرستيجه وده طبعا حيجمل كتير من صورة ماما وصورتنا وأكيد مع الوقت الناس حتنسى وحيتعاملوا معاها ومعانا على أنها لها حياتها الخاصة وأحنا لنا حياتنا . نجحت فى سحبهما إلى منطقها . إلا أنه نظر لها فى حيرة : يعنى معنى كلامك أن ماضى ماما حيسبنا فى حالنا ومش حيجرى ورانا فى كل حتة . قالها بنبرة يعزى بها نفسه ثم تاه بنظراته شاردا فأنتظرته بعينيها حين عاد من سرحته : أنا ماقلتش كده أنا اللى قلته مع الوقت كل حاجة حتتغير .. أنا متأكده من كده . سحبت بسمة نظرتها من وجه نورا حين أنتهت مبدية وجهة نظر : وأفرضى ماما رفضت ؟! أبتسامة ثقة سبقت ردها : مش شايفة أى سبب يخليها ترفض .. أولا هى وعمو خيرى متفاهمين جدا وتقريبا شبه متفقين ومحتاجين لبعض جدا جدا فى المرحلة دى ، هى ممكن فى الأول تحس بالأحراج وتحاول تبين لنا أن الموضوع أصلا مش فى دماغها وبكتيره يومين تلاتة وحتوافق .

ـ أفرضى صممت على الرفض .. حتعملى أيه بقى ؟ .

ـ صدقنى مش حيبقى فى حل تانى قدامها غير أنها توافق .

ـ بالعافية يعنى ! .

ـ لأ طبعا ياأستاذ لكن فى خطوة أساسية لازم تتعمل الأول قبل أى كلام عن الجواز. حركات أصابعها المنفعلة أستولت على تركيزهما وتحاصرهما فى خانة الترقب أنتظارا لما ستقوله : ماما لازم تبطل شغل .. قالتها وسكتت تاركة جملتها تتجول فى راسيهما .

ـ يعنى أيه . قالها يوسف بفزع .

ـ يعنى خلاص مافيش شغل تانى .

ـ وده دخله أيه فى موافقتها على الجواز ؟ سؤال مشروع ألقت به بسمه فى وجه أختها .

ـ الأتيليه وزيزيت بالنسبة لماما همه حياتها ووجودها وأنا عارفة أنها حتبقى خطوة صعبة أوى عليها لكن مابأليد حيلة ، مرتبها من الشغل مقويها ومخليها متمسكة بالوضع اللى هى فيه ده ومش حاسة خالص بالمصايب اللى كل يوم والتانى بتقابلنا بسببها ده غير زيزيت اللى واقفة جنبها ومشجعاها ومفهماها أن الدنيا حتتظبط وكل حاجة حتبقى تمام بس هى مسألة وقت والأتنين طبعا مقضينها لت وعجن طول اليوم روسهم فى روس بعض والدنيا أخر روقان معاهم ، لكن لما يبقى مافيش أتيليه ولا فى زيزيت ساعتها بس ماما حتقف وقفة مع نفسها وحتراجع حساباتها كلها ومش حتلاقى قدامها غير عمو خيرى . تابع يوسف تحليلها بأضطراب وهو يتحاشى أطالة النظر فى عينيها شاعرا بحرج بالغ من تداول فكرة زواج أمه .. سكن منكمشا داخل كرسيه لايصدق تسارع المشهد بكامله .. أحداث سريعة تدفعهم بلا تردد للمجهول . مد نظره بعفوية لبسمة التى لازالت تتحسس طريقا لتكوين رأى قبل محاولة نورا تبديد مشاعر ملتبسة سكنت ملامحهما : أنا بأحاول أنقذ مايمكن أنقاذه !. أشاحت بسمة بوجهها عنها باحثة عن مبرر تخفف عنها شعور متنامى بالذنب .

ـ يعنى أنتى مش شايفة أننا كده بنضغط على ماما وبنخليها توافق على حاجة غصب عنها . بدلت لهجتها محاولة أكتساب تأييدهما إلا أنها بددته بأنفعالها : غصب عنها أزاى همه الأتنين بيحبوا بعض وكلام فى التليفون طول الليل ده غير مقابلات برة اللى كل يوم والتانى أنا كل اللى حأعمله أنى حأستعجل الأمور شوية عشان خلاص ماعدش حد فينا متحمل ترددها ودلعها ولا هيه فاكرة أن كل حاجة عادى وتمام والدنيا وردى وكأننا عايشين لوحدينا ومافيش ناس حوالينا ولا تكون لسة فاكرة أننا قصر ومش حنعرف ندير حياتنا . حاولت بسمة الرد حين تلقت جملة صارمة من نورا : أنا مش بأغصب حد على حاجة غلط ياست بسمة ولا بأعمل كده عشان مصلحة تخصنى أنا كل اللى يهمنى فى

الدنيا دى مصلحتكو أنتو الأتنين ومش حأسمح لحد أبدا يخليكو تتهانوا أكتر من كده ويخلى اللى يسوىواللى مايسواش يعايركم . كلمات منفعلة أصابت بسمة بالحرج بينما بات يوسف صديقا للصمت قبل أن تطالبه نورا بالتعقيب : وأنت كمان مافيش حاجة فى نفسك عايز تقولها . كبرت القضية وصارت بحجم خوفهما . ثم تردد لحظات قبل أن يسأل : والحكاية دى مش حتسببلك مشاكل مع زيزيت ؟ .

ـ ماتشغلش بالك بالحكاية دى زيزيت محتاجانى أكتر ما أنا محتاجاها .

ـ طب بالنسبة لشريف وضعه حيبقى أيه يانورا ؟ قالت بسمة بفضول بينما دار السؤال حول رأس الأخيرة قبل أن يتوقف أمامها متحديا ينتظر ردا : متهيألى مش حتفرق معاه كتير مادمت أنا موافقة أكيد مش حيبقى عنده مشكلة . قاطعت : أزاى مش حتفرق معاه ده موضوع يخصه هو وأبوه ومن حقه يبقى له رأى وأمبارح وهو قاعد معاكى كان شكله مش مرتاح للحكاية دى خالص : ماتشغلش بالك ، شريف أنا عارفه أزاى أتعامل معاه .

ـ شريف مش أهبل يانورا وأكيد فاهم كويس أنتى بتفكرى فى أيه وماتنسيش أن لو الجوازة دى تمت يبقى مستقبله راح فى الهوا .. يعنى حكاية الجواز دى حتبقى ضد مصلحته . أتسعت عينيها بقلق : أزاى يعنى ؟!.

ـ شريف دايما لما كان يتكلم معايا يقولى أنا مشكلتى بسيطة غير أى شاب .. مش ناقصنى غير شغلانة محترمة والباقى كله حيبقى سهل كان مخطط أنه حيتجوز مع عمو خيرى فى الشقة عشان كده حطى فى حسابك رد فعله . شعر بثقتها تنسحب من وجهها حين أختصرت ردها : قلتلكم أنا عارفة حأتصرف أزاى مع شريف .

ـ لو الكلام ده قلتيه من سنة كنت ممكن أصدق ، لكن اللى أنا شايفاه دلوقتى مايشجعش خالص لا هو شريف بتاع زمان اللى أحنا عارفينه ولا أنتى كمان نورا اللى كان شريف بالنسبة لها كل حاجة فى الدنيا مع أنى مش فاهمة هو أيه اللى حصل بينكم بالظبط .. فيه حاجة بقت واقفة بينكم . كان أستنتاجا لبسمة أكثر منه رأيا تلقته نورا بتردد وثقة مهزوزة بعدما أرتدت برأسها للوراء تاركة عينيها تدور فى وجهيهما : الكلام ده مش وقته أنا اللى يهمنى أكمل رسالتى معاكم وأحميكم لغاية ماكل واحد يقف على رجليه .

ـ عشان خاطرى يانورا خدى بالك من رد فعل شريف عشان ماتدفعيش التمن زينا . مدت يدها ناحيته ومشت بها تتحسس كتفه : ماتقلقش يايوسف . قالت جملتها وتركتهما مع سيناريو كئيب ينبأ عن خسارة وشبكة لعلاقة تاريخية ربطتها بشريف .

ساعة مرت والزمن يضيق بهم قبل أن تعلن نورا أنتهاء الجلسة والتى أختزلتها فى جملة واحدة : يبقى أحنا كده خلاص أتفقنا على كل حاجة . تحذير أقرب منه لتنويه رددته بصرامة فأنصاعا صامتين.. كانت تلك أشارة بعدم الرفض .

ـ يبقى من بكرة حافاتح ماما فى حكاية الشغل وحابلغ زيزيت بالكلام ده . يوسف وبسمة تبادلا نظرات مستسلمة تعادلت فيها مساحات الخطر والأمان . يوسف لا شيىء لديه ليخسره ، حتى بسمة تطاردها نفس العدوى . لم تشأ نورا أن تزيد كلمة عما قيل ثم فتحت حقيبتها ودست يدها فى جوفها وأخرجت خمسون جنيها طوتها ثم وارتها تحت الفاتورة . قاموا وعلامات الأرهاق النفسى تطل من العيون وحزمة من الأسئلة تنشط فى الرؤوس : هل ستنجح نورا باجلاء الأم من البيت دون مشاكل أو صدام ؟ أم لهدى رأى أخر سيفشل الخطة ويعقد الأمور؟ موقف شريف الغامض سيكون حاسما فى النصرأوالهزيمة عندما يعلن عن رأيه صراحة . كانت تساؤلات بلا احتمالات وفى أحسن الأحوال باجابات مؤجلة .

أنسحبوا من كافيتريا " كارلوس " بأتجاه بوابة الخروج قبل أن تنحشر نورا بينهما تسأل : عايزين تروحوا مكان تانى ولا على البيت ؟! .

ـ ع البيت طبعا . الجملة الوحيدة التى قيلت على لسانهما فى وقت واحدوبنفس الحماسة منذ لحظة خروجهم . ساقتهما خلفها إلى حيث " الباركينج " .

الفصل الثانى عشر

نعمة النظر .. هى أخر مافقدته فايزة حين أغمضت عينيها قبل أن ترحل بصحبة سلطان النوم الذى قادها الى سلطنته لتطالع حلم بدايته توحى بأنه من سلسلة أحلام " الأكشن " .. تتر سريع له خلفية سوداء يظهر فيه أسم فايزة منفردا كبطولة مطلقة تتساقط من حروفه نقاط حمراء ضخمة بلون الدم ثم أظلمت الشاشة تدريجيا للحظات ، قبل أن يبزغ فى منتصفها أسماء بقية الشخصيات حسب الظهور :

عبده الجن وبدرية ونوسة ثم منصور .. موسيقى أفريقية خجولة تتخللها دقات طبول ذات ايقاع منتظم تصاحب خطوات سريعة لاهثة لفايزة تقودها داخل حوارى متشابكة وملتفة .. تتفادى فى طريقها أجسام بشرية غريبة ذات رؤوس صلعاء ووجوه بلا ملامح سوى عين واحدة فى مقدمة الجبهة وجلود عارية لا يسترعورتها الضخمة المنتفخة سوى مايشبه الكمامة ، يتحركون ببطء حولها فى دوائر تعوق حركتها ، إلا إنها نجحت فى الأفلات منهم بأعجوبة .. سارت تائهة بلا هدف .. تزداد خطوتها أتساعا كلما شعرت بوقع أقدام تلاحقها بأصرار فأرتفع ايقاع الطبول فجأة معلنا عن نهاية المشى كمرحلة أخيرة قبل مرحلة الركض .. أندفعت تجرى كالمجنونة ثم ألتفتت مع منحنى عطفة لتتبين صاحب الخطوة .. كانت بدرية هى من يتبعها تهتز بجسدها كجبل من اللحم رافعة يمناها ملوحة بشعلة تشبه شعلة الأولمبياد تتعارك فيها النيران بعنف . أجتازت فايزة بهلع كل الطرقات الخالية ركضا والتى مهدت لدخولها عتبة بيت قديم مهجور يتبعها خيال بدرية الضخم .. وثبت للداخل ووثب خلفها الخيال .. خطفت السلالم خطفا فى قفزات متصلة حتى تعثرت أمام باب شقة مفتوح فدفعت بجسدها للداخل .. تباطأت خطوتها وسط صالة فارغة تبحث بعينيها عن ملاذ أمن وأذنين ترصدان صدى الخطوات الصاعدة خلفها .. تصلبت فى وقفتها بعدما تجمدت الدماء فى جسدها حين أبصرت نوسة فى نهاية الصالة تستند بظهرها لجدار أسود وشعرها الثائر يحيط بوجهها الذى أضاءه أنعكاس اللهب المتصاعد من شعلة تحملها هى الأخرى فكشفت عن ملامح مخيفة .. عينان مستديرتان واسعتان أحتلت نصف مساحة وجهها فبدت كعينى شبح فى وجه ساحرة شريرة .. تراجعت فايزة بقدميها للوراء مبتعدة بأتجاه الباب حتى بلغته باهتة مرتعشة ثم أستدارت وسلتت نفسها منه تعتلى درجات السلم صاعدة للدور الأعلى قبل أن تصلها شعلة بدرية التى أقتربت منها لحظة خروجها إلا أنها سبقتها بمتر واحد صعودا وهى خافضة الرأس تأكل الدرجات حتى كادت تصطدم عند نهايته بكيان مرعب يسد أمامها طريق الهرب .. رفعت رأسها ببطء تتمشى بنظراتها المنخفضة على فخذيه ثم لصدره وصولا إلى وجهه الضخم .. تفحصته بخوف ، أرتعدت وتعالت أنفاسها .. لم تفكر حين أبت نظرتها أن تفارق وجهه ؟ كان يحمل ملامح عبده الجن ، بدا وجهه كفروة رأسه مليئا بالشعر كأنما وجه غوريللا ، كلما أبتعدت برأسها أقترب منها ويده قابضة على شعلة من النار ، قربها حتى لامس لهيبها خصلات شعرها الذى أنتفض من جذوره من هول المفاجأة .. تسللت عيناها الى عينيه رغم محاولتها أغماضهما ، كان يشق جفنيه بصعوبة من بين شعر كثيف أحاطهما .. ظل يتأملها بنهم كأكلى لحوم البشر . تماسكت حين أوشكت بدرية للوصول اليها ، فلم تجد أمامها الا أن تدفعه دفعة قوية دفاعا عن حق الحياة ، فأنزاح مترنحا للخلف فأنفلتت بخفة لتكمل

رحلة الهروب لأعلى بينما هو من خلفها .. كان يتبعها كظلها يهتف ويلعن .. بدت قفزته أسرع من خطوتها الخائفة بعد أن صارت أنفاسها معلقة فوق صدرها وكأنها تتهيأ لخروج روحها . لم تسعفها قدميها فنزلت على يديها وصعدت بقية الدرجات كالقردة حتى وصلت بأعياء شديد لأخر درجة فأستقبلها باب شقة مفتوح أجتازته بصدرها كأنما تنهى سباقا قبل أن توصده خلفها وتلصق به ظهرها بكل ماتبقى لها من قوة . بدت كصخرة تسد خطرا .. نهيجها يتصاعد فى المكان كقرع الطبول .. أرتج لحم خديها مع كل نفس تسحبه وتصرفه كلما سمعت صوت أقدام تقترب من خلف الباب .. حدقتيها تدوران فى فزع وسط لحظة سكون تشبه لحظات الموت . تحسن باذنيها فألتقطت همهمات سرعان ماتحولت لصرخات تبث الرعب فيها قبل أن تتحول الى طرقات قوية ملحة أرتجفت لها شفتيها وأهتز جسدها بشدة مع كل طرقة تكاد تنزعها نزعا من مكانها بينما ظهرها الملتصق بالباب صار كدرع يتلقى الضربات .. إلا إنها لم تصمد طويلا ، خارت قواها فأرتخت ساقيها وأنزلقتا أمامها حتى أنهارت مرتطمة بمؤخرتها على الأرض وأستقرت على وضعيتها للحظات كمحاولة أخيرة لصد الباب الذى أصدر أنينا ينذر بالتسليم ، غير أنها فى خضم الخوف والأنهيار نجحت فى العثور على جملة مفيدة كونتها بدافع النجاة : أنتو عايزين منى أيه .. سيبونى فى حالى حرام عليكو . تكاثرت الطرقات فأزدادت عنفا وكانت من القوة لتصنع شروخا فى الباب وتزحزح الصخرة عن مكانها حتى أنزاحت تمشى على مؤخرتها دون أرادة منها كمن تجلس على جبل جليدى . لم تستطع التمسك بموقعها ، فأبتعدت عن الباب تحبو .. دخلوا الثلاثة بوجوه مضاءة بلهيب المشاعل حاصروها وأحاطوا بها فتكورت على نفسها مستسلمة ، طاف حولها حملة المشاعل فى اللحظة التى كانت فيها فى نهاية العد التنازلى لتقبل فكرة الموت حرقا ، لم تكن تملك أى ردة فعل الا التسليم بأن حسابها قد حانت لحظته . مر عبده من بينهما رمقها بنظرة تشفى ثم أنحنى بوجهه المشعر ناحية أذنيها : النهاردة يوم الحساب يافايزة . كانت نبرته كالزئير .. تحسس شعرها المنكوش : أول حاجة حأحرقها لسانك اللى عامل زى لسان الحية وبعد كده حأتسلى فى وشك العكر ده حأخلى النار تسيحه وتشويه وبعدها .. قاطعته بدرية حين أقتربت : كفاية عليك دول ياعبده وسيبلى الجسم المتختخ ده أنا حأخلى النار تأكل وتشبع . قالتها بملء فمها وهى تغرس أصبعها فى كتلة اللحم المتكورة تحتها . عيون أمتلأت بالشماتة أمام وجه يملأ المكان بصرخات الأستغاثة وهى عاجزة بلا حيلة لاتملك سوى بدن يهتز يدفع بعشرات الصور فى رأسها عن نهايات محتملة . قرب عبده شعلته منها فلسعتها سخونتها ، حاولت صدها بأنكماشة حتى تداخلت رأسها بين كتفيها حين تهيأ لتنفيذ المهمة ، رفع شعلته بطيئا ليتيح للعذاب فرصة الأستمتاع بخوفها بينما تتخلل صرخاتها جسده فيزداد

نشوة ، كان أحتياجها شديد لنفس أخير قبل أن تغمض عينيها تأهبا لحساب جهنم الذى يحمل فى يده جزء منها .. ظلت تتمتم بكلمات من يودع الدنيا .. أستقبلت نار عبده ولم تبذل جهدا كى تبعده عنها .. أدلت رأسها فى أستسلام لمصيرها المحتوم أنتظارا لتنفيذ حكم الأعدام حرقا . صوت أقدام فى المكان تخترق الأذان ، كان بمثابة نقطة ضوء سقطت فى نفق مظلم . وقفت الصورة وتجمد المشهد وتسمر الجميع فى أماكنهم حين دخل رجل مقنع بخوذة يرتدى زى المطافىء يجر خلفه خرطوم مياه .. سار بخطوات واثقة ثم وقف مشدودا ، بدا فى وقفته كفرسان الحواديت ، تأمل الواقفين بنظرة حادة دار بها فى السحنات المترقبة قبل أن يصوب خرطومه ناحية الماسكين بالنار ثم نزع عنه السدادة التى كانت أشارة البدء لأندفاع المياه كشلال هادرمذكرا النائم بمشهد فتح الهويس على يد الفنانة " شادية " فى فيلم " شيىء من الخوف " . تحرك ناحيتهم بخطوة واسعة يلاحقهم بخرطومه وكأنه مدفعا ، لحظات وأنطفأت النار فى المشاعل وتحولت فى لحظة ،لى أسلحة بلا ذخيرة وتسرب الدخان الأسود متصاعدا فأظلمت وجوههم .. فكوا حصارها وتراجعوا منسحبين بروؤس منكسة كأسرى حرب . راقبت فايزة رحيلهم شاردة تائهة غير مصدقة قبل أن تسحبها نظرتها ناحية الفارس القادم اليها ، أعتصرت عينيها وهى لازالت مطوية على نفسها حين أقترب منها ، مال نحوها ومد يد آمنة تزيح الخوف المطبوع فى قسماتها ثم رفعها لتقف فى أعياء .. بدت بين يديه هشة ضعيفة ، ظلت تتابعه فى ذهول وهى تنتفض حتى خلع خوذته ببطء . لحظة فارقة فى سياق الحلم . أنبعجت ملامحها حين أضاء وجهه عينيها .. تحسست خديه بيد مرتعشة . أهتز صوتها : منصور . قالتها بنبرة العائد من الموت . تفجرت منها دموعا كنافورة مياه تردد بهستيرية : ربنا يخليك لى يامنصور .. ربنا يحميك يابنى . كررتها عدة مرات بلا توقف حتى كادت تفقد الوعى قبل أن تتماسك حين تشبثت بعنقه ثم أخفت وجهها فى صدره تردد بصوت مكتوم : سامحنى يامنصور . غابت بعجزها وقلة حيلتها حتى نزول كلمة النهاية التى أفضت لتقلص عضلات وجهها وهى تقاوم أنزلاق جفنيها بعدما قررت أن تفتحهما . عادت من الحلم " الأكشن " بأعضاء مرهقة ونظرات تمشى فى جولة خاطفة فى أنحاء الغرفة للتأكد من حقيقة موقعها فى الكون .. كفان مرتجفان كانا فى أنتظار وجهها الذى دفنته فيهما حين تحاملت على نفسها ورفعت جسدها قبل أن يهدأ نبضها وتغزوها أعراض رغبة محمومة فى ترد يد جمل ايمانية : أعوذ باللـه من الشيطان الرجيم .. يارب أرفع غضبك عنا . هدأت أنفاسها وهى تتابع سكون الغرفة بينما لسانها لايزال يتلو كلمات نادرا ماأفصح عنها : ربنا يخليك لى يامنصور يابنى . تدريجيا خلعت ملامح الفزع وأستبدلتها بأنفاس هادئة .. أستغرقت تتأمل حلمها ، جالت فى تفاصيله كادت تأكلها الدهشة بعدما أيقنت

حجم العداء والكراهية اللذان يحملهما هذا الممدد إلى جوارها .. نظرت لـ " عبده " بملامح محتدمة تتابعه بأشمئزاز وهو يخوض معركة شرسة .. تشخير متقطع يتصاعد لعنان السقف ، يعتقد أنه الجيل الرابع من التشخير ينطلق مدويا من أنفه وفمه وكأنما يخرج من مارد . نظرت له طويلا قبل أن تلكزه فى صدغه المستفز الذى يهتز مع ريح أنفاسه .. لكزة لم تسفر عن نتيجة فناولته أخرى قوية على صدره أنتفض على أثرها بعدما جذبته من الفانلة " الحمالات" ألزمته بفتح عينيه على الوجه المتربص الذى يصرخ فوقه : أصحى ياراجل ياشر يأبن الحرام عايز تحرقنى وتولع فى يأبن المفضوحة . رمش بعينيه قبل أن يرفع راسه مذعورا : فى أيه ياوليه ع الصبح . أستقبلت رأسه المرفوعة بكف على جبينه فهوى ثانية على المخدة : عايز تموتنى محروقة يأبن المحروقة عايز تخلص منى ياراجل ياناقص .

ـ أيه اللى بتقوليه يافايزة عيب ياوليه ده أنا متلقح جنبك طول الليل ماأتحركتش . واجهته بثورتها وهو ممدد بلا حيلة : أتحركت ياعبده ياجن وجت لى زى الشيطان فى عز الليل أنت والمفضوحة بدرية وبنتها جيتولى زى العفاريت فى الحلم عاملين عصابة زى قطاعين الطرق عايزين تخلصوا منى ياراجل ياوسخ .

ـ حلم .. قالها بأبتسامة ساخرة كما لوكانت طعنة .أردف : ياوليه بلاش خبل وأصتبحى ع الصبح بتحاسبينى على حلم . أقتحمته : كل حلم وله أصل زى ماكل نار ولها دخان .. طول عمرك بتكرهنى ونفسك تخلص منى النهاردة قبل بكرة .. لكن ودين النبى لأعرفك مين فينا حيخلص من التانى . أستسلم تماما لهياجها قبل أن يخلص نفسه من حصارها ساحبا نفسه مهرولا من الغرفة قبل أن يلهف جلبابه المعلق خلف الباب ويطوى شبشبه تحت أبطه معلنا الفرار وهو يردد : المرى أتجننت خلاص .

تربعت فايزة وسط السرير بعد مارحل الحلم وترك الحزن يعاشر المرارة فى نفسها ليفرز قلقا ومشاعر متناقضة تستقر فوق كل عضلة فى جسدها .. خرجت من حلمها بحقيقة ناصعة كانت غافلة عنها لازالت تتفاعل داخلها .. " منصور " أصبح يفرض عليها واقعا جديدا .. بدت ملامحها متخمة بضعف نادرا مايجد له طريقا فى سحنتها حين واجهت نفسها بأفعالها الحادة تجاه أبنها الوحيد ، أدركت فجأة ودون ضغوط أن لامصلحة لها فى مواصلة العناد وأظهار الخصومة بعد ماثبت لديها خطأ رؤيتها التى أدت لنفور أبنها الذى سلم نفسه طواعية لنوسة وأمها وصار أبوه هو الأقرب له . الآن تعيش لحظة فارقة فرضت عليها مجموعة تصورات تحيط برأسها الثائر .. لم ترجح أيا منها الأصلح ، إلا أنها قررت أن تتوجه لمكتب محمود المحامى صاحب استراتيجية المهادنة ونظرية استمالة منصور بديلا عن سياسة

المواجهة ، وليرسم لها دورا جديدا فى كيفية التعامل معه فى تلك المرحلة الدرامية الحادة كبداية لثورة تصحيح .. لملمت نفسها وهبطت السرير مشحونة بعاطفة قوية وهى تردد أسم " منصور" فى جملة مفيدة تنطقها بنبرة ملهوفة : ياحبيبى يابنى . قالتها بأحساس من وجد ثروة فى ظروف غامضة وهى تضع قدميها داخل شبشبها . شيىء ما يتحرك داخلها مثل جنين يشق طريقه للحياة .. خرجت من غرفتها كمولود جديد لازال يتحسس علاقته بالكون .

ذهبت منفردة الى مكتب محمود المحامى بدت كشخصية مهمة تتحرك دون موكب . بقيت للحظات فى حجرة الأنتظار قبل أن يبلغه سكرتيره بوجودها . لم تنتظر أذنا بالدخول .. دخلت عليه بعباية سوداء وطرحة تغطى جبهتها وصدغيها وغلظة فارقت وجهها ، قابلها واقفا بوجه باهت : خير يامعلمة أيه الزيارة المفاجئة دى ؟ مرت أمامه حين أفسح لها مكانا للجلوس . لم تجب على سؤاله حتى ركنت مؤخرتها على مقعد ملاصق لمكتبه : مش جاية فى شغل أنا جاية أخد رأيك فى حاجة كده . ألتفت اليها وهو يتأهب للجلوس : خير ان شاء اللـه . أستهلت كلماتها يحاصرها بعض الأرتباك : أنا عايزة .. عايزة أبدأ صفحة جديدة مع الوله منصور . حين سمع الأسم أنفرجت أساريره : واللـه عين العقل .

ـ زى مأنت فاهم من يوم ماخرجت من السجن والوضع بينى وبينه مش تمام وقلت لنفسى كفاية لحد كده مش عايزة أخسره ولا عايزاه يضيع منى وأنت عارف يامتر ان منصور هو اللى فاضلى فى الدنيا وماليش غيره . ثم أدلت رأسها وعلامات الحيرة تجوب وجهها . تابعت : وبصراحة أنا مش عارفة أعمل أيه وأقرب منه أزاى وفى نفس الوقت خايفة منه يضيعنى ويضيع كل شقايا اللى عملته فى سنين .. الوله صغير وعقله مرجرج . لم تجتهد لتوصيل رؤيتها ، كلمات مختصرة أوجزت وجهةنظرها . فبادرها : فاهمك .

ـ طب أيه المطلوب منى أعمله ؟ . بدت وكأنها تنتزع من داخلها أخر ماتبقى لها من عناد ومكابرة .. لاتريد أن تجزىء مشاعرها ، فأختلطت عندها المعانى فلا تفرق بين السلام والأستسلام !. تلقف كلماتها فهرول يمدها بنصيحته بعدما أشعل سيجارته : المطلوب منك مش كتير يامعلمة فايزة هى شوية حاجات صغيره لازم تتعمل وبسرعة وأولها ترجعى منصور لحضنك وتكسبيه فى صفك وتصلحى غلطتك الكبيرة.

ـ غلطة أيه ان شاء اللـه . قالتها حين ضيقت عينيها بأستنكار .

ـ غلطتك كانت كبيرة أوى ياست فايزة .. أبنك منصور عاش مع أبوه ليل ونهار أربع سنين كاملين لماكنتى فى السجن أطبع بطبعه ومشى على نظامه وأنتى ست العارفين بنظام عبده الجن يعنى مصلحته فوق كل شيىء وأبنك طبعا معذور مالقاش حد يراجعه ولايحاسبه وبقى مقضيها سرمحة وصياعةوأبوه طبعا مكبر دماغه مش فاضيله وبقوا همه الأتنين فى الهوا سوا وآخر تفاهم وكل واحد بيفوت للتانى ومقضينها هلس .. واحد شغال فى العرفى والتانى سلم نفسه لنوسة وأمها وبارك اللـه فيما رزق . قالها بأبتسامة صغيرة وهو يطفىء سيجارته قبل أن يستأنف : ولما أنتى طلعتى من السجن بقيتى فى نظرهم زى البعبع وقفتلهم زى اللقمة فى الزور وطبعا المسائل نشفت فى القهوة وعبده لقى اللى واقفله فوق راسه بيحاسبه بالمليم ومنصور طبعا الدنيا أسودت فى وشه لما فاتحك فى حكاية نوسة . قالها وسكت للحظات كى يسحب نفسا طويلا ثم أردف . بهدوء ..والنتيجة طبعا أن الوله وأبوه بقوا فى جنب وأنتى فى جنب تانى خالص . أعتدلت فى جلستها حين قاطعت : يعنى لما أحافظ على فلوسى وأخاف على أبنى أبقى زى البعبع واللقمة فى الزور .

ـ مش ده قصدى ياست فايزة ، أنتى اللى عملتيه كان صح بس المشكلة كانت فى التنفيذ .

ـ يعنى أيه مش فاهمة .

ـ ده أنتى أم المفهومية المفروض كانت الأمور تتاخد واحدة واحدة وبهداوة ولما تحبى تسدى باب لازم تفتحى قصاده شباك .

ـ والشباك ده يبقى أيه . قالتها وهى تحكم طرحتها حول راسها .

ـ شغلك يامعلمة .. أسحبى منصور فى ملعبك ألهيه بالشغل حسسيه أنه بقى راجل وله أهميه .

خدى رأيه فى أى مصلحة تعمليها خليه يمسك فلوس فى أيده ودخليه معاكى واحدة واحدة .. ساعتها حيبقى مكسبك كبير أقلها أبنك جيبقى تحت عينك وطوع أمرك وحيبقى فى صفك ويبعد عن أبوه . رفعت عينيها للسقف تقلب أقتراحه : والمطلوب منى أيه دلوقتى .. رددتها ساهمة وهى تنتظر حلولا صعبة .

ـ أبدأى معاه بكام خطوة كبداية ، خليه يتابع مع النونو وخضر شغل التاكسى والنص نقل خليه هو اللى يحاسبهم ويتابعهم وسيبيه يباشر محمد المقاول لما يبدأ هدد حسسيه أن دى فلوسه وحاجته وأديله ريق

حلو وشجعيه وأنسى خالص طريقتك القديمة معاه .شعرت بأتهاماته كدائرة تضيق عليها . لم تدافع أو تتنصل كعادتها . أستسلمت : يعنى أنت شايف كده .

ـ مافيش غير كده . قالها بأصرار ثم أقترح : وعشان تبقى البداية صح فيه خطوة لازم تتعمل . تابعته بعينيها فأردف : نبعت نجيب بدرية هنا فى المكتب ونراضيها زى بقية السكان وتاخد حقها على داير مليم .. الخطوة دى حتفرق كتير مع أبنك وحيحس ساعتها أن فيه حاجة صح بتحصل ومع الوقت حتلاقى منصور واحد تانى خالص بيخاف على فلوسك وعلى حاجتك ويمكن أكتر منك كمان وحتلاقيه من نفسه ومن غير ضغط بيتغير وبينضف دماغه من الأشكال اللى هو ملموم عليها زى البت اللى ماشى معاها .. ده رأيى وأسمعى كلامى وأنتى الكسبانة .

هزت راسها : عندك حق . قالتها كأقرار بسلامة رأيه . بينما أضاف محذرا : وده مايمنعش أن عينيكى تبقى فى وسط رأسك وتفتحى كويس لعبده الجن .. ده راجل مش سهل .

ـ ماتقلقش من الناحية دى أنا أعرف أزاى أصرفه وكل جن وله بخور .. شوف الصح وأعمله . قالتها وهى تتهيأ للوقوف . لم تكن تملك خيارا أخر سوى تنفيذ ماأقترحه محمود المحامى سعيا وراء واقع جديد تكون فيه العاطفة فعلا وليست شعورا . خرجت من مكتبه وجزء من طباعها تعمدت أن تسقطه كى لاتفسد بقية أجزاء حياتها .

00000000000

عدا الرسالة المقتضبة التى وصلتها فى اليوم التالى على لسان سكرتير محمود المحامى الذى وقف متشنجا عند عتبة باب شقة بدرية يتلو نصا أستمر فى ترديده طوال الطريق حتى حفظه : المتر مستنيكى النهاردة فى مكتبه الساعة سبعة ! لم تستطع بدرية ومن خلفها أبنتها تحليل فحواها ، ساد جو من الريبة والقلق . لم تجد نوسة حلا لفك شفرة الرسالة إلا بالأتصال بمنصور الذى تلقى مكالمتها وهو يجتاز مدخل البيت متجها للقهوة . هز رأسه شاردا وهو ينصت لكلماتها للمرة الثانية بعدما أنذرها فى المرة الأولى : واحدة واحدة وأتكلمى براحة عشان أفهم . حين كررت على أسماعه بتأنى رسالة محمودالمحامى ، نفض راسه وأستفاق دون أتباع طقوس الأصتباحة . ركز فى كلماتها وأعتصر ذهنه بلا فنجان قهوة بن تقيل ولاسيجارتين متصلتين كعادته .. سار زائغ العينين وهو لازال ينصت لها

بدهشة قبل أن يتوقف بالقرب من كومة قمامة على وشك أن تصبح جبلا : طب ماتعمليش أى حاجة لغاية ماأنا أتصرف .

ـ يعنى حتتصرف تعمل أيه ؟ . كانت صرخة أقرب منها لتساؤل .. وطى صوتك وأسمعى الكلام ، ساعة زمن وحأتصل بيكى لغاية ماأفهم أيه الحكاية . غادر كومة القمامة بعدما ملأ رئتيه من رائحتها مرددا بينه وبين نفسه : أكيد محمود المحامى حيعرض عليهم مبلغ ترضية مضروب عشان يستلم الشقة والعقد . تضامنا مع حالة القلق التى ظهرت فى صوت نوسة كان هو أيضا أشد قلقا : طب أزاى وأمى راكبة دماغها ومش ناوية تديهم ولامليم وحالفة لتطلعهم من البيت مولايا كما خلقتنى . زاد توجسه ولم يكن لديه بوصلة لأستقبال مابين السطور خلف تلك الرسالة .وطئت نظرته الأرض وهو يستعيد حيوية طارئة نادرا ماتنتابه فى مثل تلك الأوقات .. أتسعت خطوته وهو يغادر حارة المناجيلى سالكا حارة " فضل " حتى نهايتها باحثا عن خطوة لابد من أتباعها قبل أن تظهر له عن بعد بوابة المقهى .

أستقبله عبده بنظرة طويلة تابع منها ملامحه حين عبر المدخل ، لمح تغيرا فى سحنته ونبرته : صباح الخير يابا .

ـ صباح الخير ياسيدى .. مالك داخل كده بصدرك .

ـ البت نوسة كلمتنى من شوية وبتقولى محمود المحامى مستنيهم النهاردة فى المكتب . " يسقط يسقط حكم المرشد .. يسقط كل كلاب المرشد " كان هتافا مدويا على سلالم نقابة الصحفيين تبثه على الهواء قناة الـ " ontv " . سحب عبده الريموت كى يكتم الحناجر الصارخة ثم ألتفت لأبنه : ليه ؟ .

ـ أكيد عشان حكاية الشقة . فرجة صغيرة فى شفتيه كى يفسح طريقا لمرور ضحكة ساخرة : خلاص الهانم أمك والمحامى بتاعها قرروا يفرجوا عن بدرية وبتها . تمعن فى وجه أبوه الساخر : مش عارف يابا .. قالها بحيرة قبل أن يتابع : أنا بأقول أتصل بمحمود المحامى وأفهم الحكاية منه . أطلق نبرة فزع لا أرادية : بلاش أنت .. سيب الأمور تمشى بدل ماتعقدها ، أمك لو خدت خبر حتبقى ليلة سودة عليك وعليهم . وجهة نظر أخذها منصور مأخذ الجد قبل أن يبدى تحفظا : يعنى أسيبهم يروحوا على غماهم وهمه ونصيبهم ياصابت لا خابت .. ماينفعش الكلام ده يابا . رجع عبده بظهره للوراء مسترخيا فى مقعده قبل أن يشير له بملل : أنت حر أعمل اللى تعمله أنا قلتلك ع اللى فيها وعقلك فى رأسك بقى !. أنهى تحذيره وألتقط الريموت ثانية فأستجاب له الصوت بعد ضغطتين على صرخة متصاعدة من أعماق

أمرأة صاحبة عينين ضاقتا كرها داخل صدغين هائلين " بره بره يأبن سنية " . أنسحب منصور الى ركن القهوة وأختلى بنفسه يبحث بتركيز شديد فى قائمة الأسماء المسجلة على هاتفه .

ـ حرف الميم .. الميم .. تمام .. محمود المحامى . تأهب فى جلسته حين أجرى الأتصال .. أنتظر مترقبا .

ـ أيوه السلامو عليكو .

ـ وعليكم السلام مين معايا .

ـ أنا منصور أبن المعلمة فايزة يامتر . ثوان وسمع ترحيبا أصابه بالذهول : أهلا أهلا يامنصور .. أزيك ياحبيبى أيه المكالمة الجميلة دى .

ـ ربنا يكرمك يامتر .. أنا بس كنت عايز أسأل عن حاجة كده .

ـ أتفضل ياحبيبى أنا تحت أمرك .

ـ بخصوص الست بدرية . قاطعه قبل أن يكمل : أنا مستنيها النهاردة فى المكتب وأطمن وطمنها يامنصور حأتكلم معاها شوية وان شاء اللـه حنريحها فى كل اللى هى عايزاه وماتقلقش خالص من أى حاجة .

ـ بجد يامتر . قالها متشككا .

ـ عيب ولو مش مصدقنى ياريت تيجى معاها وتشوف بنفسك . غزت الفرحة وجهه : واللــه أنت متر مية مية .

ـ يامنصور أنت صاحب مصلحة والمال مالك واللى أنت شايفه صح أعمله وأنا معاك ولما أشوفك النهاردة حنكمل كلامنا . كلمات أذهلته فشعر بصعوبة فى التواصل . فألح محمود المحامى : أنت سامعنى ولا رحت فين ؟! .

ـ أنا موجود . قالها ممطوطة .

ـ خلاص أتفقنا يامنصور .. ميعادنا النهاردة .

ـ أتفقنا يامتر . صعدت كل علامات الأستفهام فجأة الى رأسه حين أنهى المكالمة . حدث نفسه : هى أيه الحكاية بالظبط ؟. لم تعد للمعجزات مكانا فى رأسه ، كل شيىء وله ثمن ! كان الأحتمال المرجح فى عقله يتجه لوجود مؤامرة تحاك فى الخفاء وأن محمود المحامى ماهو إلا العقل المدبر . أعتقلته الأفكار لربع ساعة فى كرسيه يداورها ويحاورها قبل أن يمتلأ وجهه عبوسا لاينسجم مع فرحته الأولى التى أنفجرت منه لحظة حديثه مع المحامى . حاول التضييق على مخاوفه فأجرى أتصالا بنوسة يزف اليها أخباره السارة . أنتابته لحظة رجولة عابرة وبدا منتشيا وهو يخبرها بفحوى المكالمة التى أدارها بأقتدار وحكمة كما صور لها ، فأتسعت منه العبارات وتضخمت عندما وصف لها موقفه المتشدد مع محمود المحامى وكيف ضغط عليه حين أنفعل وأجبره طائعا خاضعا بالموافقة على حضوره كمراقب لما سيتم ، أراد أن يشعرها بقيمته وأنه رقم صعب فى المعادلة لايمكن تجاوزه .. أنصتت له بذهول غير مصدقة تحاول أبتلاع مايقوله .. دقائق من الفشر ولذة البطولة المصطنعة عاشها منصور قبل أن ينهى مكالمته بنبرة خشنة تنسجم تماما مع أداوه : عايزة حاجة تانية يابت .. قولى . سمع منها مايرضيه: ربنا مايحرمنى منك يادكرى !! .

تطلع منصور للشارع من مدخل العقار أسفل مكتب محمود المحامى بنظرات موزعة بين ساعته والشارع أنتظارا لوصول نوسة وأمها ، أطفأ سيجارته الثالثة بعنف سحقها تحت قدمه حين لمحهما تتهاديان ، بدرية فى الخلف تجر وراءها ردفين تتركان فى نفسك أنطباعا أن مصر تعيش حالة أكتفاء ذاتى من اللحمة ، بينما تتقدمها نوسة محشورة فى تيشرت " كمونى" وبنطلون أستريتش أسود تراقصت داخله عندما أقتربت من موقع منصورالذى عاين بضاعتها بعين ذئب تشاركه مجموعة شبابية من عابرى السبيل هالهم منظر المقدمة والمؤخرة فتطوع أحدهم معلقا : مزة عايزة شنيور !. تحرك لها منصور خطوتين مبديا خشونة لامبرر لها : الساعة سبعة وربع لازم يعنى نمشى ندلع ونتأصع . أجابته بعينيها فتولت أمها الرد حين وصلت بسلامة اللـه : هو ده وقته يامنصور ماتخلينا فى اللى أحنا فيه لما نشوف الراجل المحامى ده عايز أيه .

ـ ماتقلقيش أنا معاكم . قالها وأفسح لها طريقا للصعود بينما سحب نوسة من رسغها ثم أحاط وسطها : تعالى أطلعى . كانت بدرية أول الصاعدين للمكتب . وقفت للحظات على عتبته تستكمل نهيجها وهى تتأمل المكان قبل أن تتدحرج للداخل لتواجه السكرتير المتخشب الذى قام من كرسيه مرحبا : أتفضلى ياحاجة .. أهلا وسهلا .

ـ أهلا بيك ياخويا . ثم أنحطت على كرسى لحظة دخول منصور ونوسة فكرر السكرتير عليهما نفس التحية دون أبداع .

ـ عن أذنكم لحظة واحدة . قالها ورحل بأتجاه غرفة محمود المحامى فأنتهز منصور فرصة غيابه ليلقن بدرية النصيحة الأخيرة : لاترفضى ولاتوافقى على أى حاجة إلا بأشارة من راسى .. ماشى لكلام

ـ واللـه ما أنا عارفة قلبى مقبوض كده ومش مرتاحة .

ـ ليـه ؟ .

ـ أمك مش سهلة يامنصور واللى تلسع من الشوربة ..

ـ قدمى الخير ياما وسيبيها على اللـه . جملة مهدئة رددتها نوسة ثم مالت على منصور تهمس : هى ممكن أمك تكون مدبرة لنا حاجة . مسح وجهه بكفيه : أنتى مش لسه قايلة نقدم الخير . قال جملته بنبرة تحمل شكوكا وسط لحظة وجوم وترقب بددها صوت السكرتير الذى ظهر لهم بأبتسامة منزوعة الأحساس : أتفضلوا جوه . قاموا دفعة واحدة .. تقدمت بدرية الموكب فكانت أول الداخلين ، إلا أنها لم تستكمل طريقها .. توقفت فى مكانها فجأة وأصبح العثور على نبض فى عروقها أمرا صعبا حين وقعت عينيها على فايزة التى جلست مستأسدة على كرسى ملاصق لمكتب محمود الذى هب واقفا لتأدية مراسم الأستقبال بينما ظلت بدرية أسيرة الصدمة تحمل وجه مرتجف وعينان ترمشان قبل أن تتراجع خطوة للوراء تبحث بيدها المتسللة خلف ظهرها عن قميص منصور والتى نجحت فى الأمساك بطرفه وشده حتى أقترب منها ثم دفعت به فى المواجهة .. برأس تترنح ولسان مربوط واجه منصور أمه التى أستقبلته بحاجب مرفوع لحظة ظهوره . غير أنه أستعاد بعض التماسك حين طمأنه محمود بأبتسامة هادئة : أدخل يامنصور .. أتفضلى ياست بدرية . وكأنها اشارة أمان دفعت بمنصور لشق طريقه للداخل مارا أمام أمه متصنعا ثباتا : أزيك ياما . قالها دون أن ينظر إليها .

ـ أهلا ياحبيبى . جملة أربكته فقابلها بنظرة ركنية قبل أن يبلغ طرف المكتب محاولا أستكشاف ملامحها .. نظرتها المرتخية كانت تحبسه داخل شعور مختلف ، لم يشعر بالخوف منها ، إلا أنه أبدى توجسا مشروعا حين سمعها ترد على تحية بدرية .

ـ أزيك ياست فايزة .

ـ أهلا ياست بدرية . نظرت لأبنتها بأستغراب حين نزلت مرتطمة على مقعدها وكأنما تتأكد مما سمعته فأسدلت لها الأخيرة جفنيها قبل أن يخرج عليهم محمود المحامى بصوت ينسجم والحالة المزاجية للموجودين : واللـه أنتو منورين المكتب .

ـ منور بصحابه . ديباجة جاهزة رددتها بدرية التى لازالت تلملم دهشتها بينما ظل منصور واقفا وسط دهشته ينقل نظراتة فوق الجالسين كأنه يراهم من أعلى .

ـ أقعد يامنصور . قالها محمود وقدم له سيجارة لحظة جلوسه . كان الصمت والقلق هو شعار البداية قبل أن يبدأ محمود بأجراءات الجلسة : ماتأخذناش ياست بدرية أتأخرنا عليكى شوية فى موضوع الشقة معلش الظروف جت كده وع العموم المعلمة فايزة جهزتلك خمسة وعشرين ألف جنيه زى كل ساكن مأخذ . هزت رأسها بحذر فتابع محمود : وبكره ان شاء اللـه تيجى هنا تنورينى تستلمى فلوسك وتسلمينا العقد وربنا يوفق إن شاء اللـه . جاهدت فايزة قمع عصبيتها حين رمت بدرية بنظرة حادة : أحنا مابناكلش حق حد ربنا يكفينا شر الحرام . داعبت الفرحة وجه منصور : اللـه يفتح عليكى ياما طول عمرك تعرفى الأصول . أتجهت اليه حين سمعته وكأنها أكتشفت فى وجوده أمرا غريبا : الأستاذ محمود يبقى المحامى بتاعى واللى بيخلصلى كل شغلى ، بسلامتك بقى جاى معاهم بصفة أيه . سؤالها بدا كرصاصة أخترقت لسانه فتلعثم : بصفتى .. الأستاذ محمود هو اللى طلب منى أجى معاهم . قالها كمن يبعد عنه تهمة . رشقته نوسة بنظرة وهى تحدث نفسها : آه ياهجاص ! .

ـ مش وقته الكلام ده ياست فايزة أبنك راجل وعارف كويس هو بيعمل أيه .. خلينا دلوقتى فى المهم . أتجه بعينيه لبدرية : خلاص أتفقنا ياست بدرية ميعادنا حيبقى بكره زى دلوقتى . تململت فى جلستها حين قفزت بنظرتها فى وجه منصور الذى أشار لها بهزة من رأسه .

ـ ماشى يامتر أتفقنا .

ـ يبقى على بركة اللــه . ثم وضح بعض الأمور المتعلقة بتسليم العقد وأقرار التنازل وصولا لأخلاء الشقة ثم تسليمها .

ربع ساعة متواصلة من وضع النقاط على الحروف .. بدا كآله ذكية تصيغ الكلمات بهدوء .

ـ ألف شكر وكترخيرك ياأستاذ محمود . جملة عاطفية رددتها بدرية وقوفا بعدما ألقت:السلام عليكو. فتحت بعدها نوسة الباب تتبعها أمها ثم منصور فى أخر الطابور قبل أن تستوقفه فايزة:أستنى عايزاك . تجمد فى مكانه للحظات ثم أستدار إليها ببطء .. ينتظر محاكمة ! .

ـ أنت ماشى خلاص عملت اللى عليك ياأبو الرجالة .. أقعد هنا قدامى . تحرك مجبرا وهو لازال يتعقب بعينيه نوسة التى وقفت خارج الغرفة ترمقه فأشار اليها بعينيه أشارة تعنى الرحيل . أصطحبت أمها وتركته يواجه مصيره بمفرده .. توجهت لآبنها بعدما راقبت خروجهن من المكتب : مبسوط كده يامنصور . أرتخت عضلات وجهه : ماهو أنتى قلتى ياما أحنا مابناكلش حق حد . بأبتسامة مائلة : ماشى ياأبن بطنى . ظل الصمت مقيما بينهم للحظات قبل أن يكسره صوت محمود الرتيب : أنا زعلان منك يامنصور .

ـ ليه يامتر حصل منى إيه ؟ ناوله سيجارة ثم أشعل سيجارته .. سحب منها نفسا قصيرا وأطلقه عريضا مع أنفراجة شفتيه بأبتسامة : شايفك كده بايع الليلة ومكبر دماغك من ناحية والدتك .

ـ أنا .. أزاى يعنى ؟! .

ـ سايبها لوحدها لابتمد أيدك معاها فى شغل ولاواقف جنبها فى مصلحة ولاحتى بتسألها الدنيا ماشية معاها أزاى ولا أى حاجة خالص .. ينفع الكلام ده يامنصور ؟! . أنهى جملته مقطبا جبينه تاركا علامات الريبة تسرح فى ملامح منصور الذى تحسس ذقنه محاولا أيقاف دهشته : الكلام ده لى أنا يامتر ؟ .

ـ أيوه لك أنت . عبارة قاطعة كالسيف بترت بها فايزة أستغرابه .

ـ أزاى بس ياما وأنا كل يوم والتانى بأبوس أيدك عشان تشركينى معاكى وتدخلينى فى زوارقك . قالها وكأنه يستغيث .

ـ ع العموم مش دى قضيتنا دلوقتى أنا عايزك من بكرة تبقى بنى أدم تانى وتبدأ صفحة جديدة مع أمك فلوسها هى فلوسك واللى عندها بتاعك وأنت أولى من الغريب . أكملت الدهشة والذهول طريقهما فى وجهه قبل أن تتضاعف مساحتهما لتشمل كل خلاياه حين أنتقلت به فايزة من مرحلة النصائح الى الدخول مباشرة فى صلب الموضوع : أنت تقعد مع المتر وتركز معاه عشان يفهمك الليلة ماشية أزاى ويعرفك حتعمل أيه فى بيت أبن شكر . نقل نظراته هائما لوجه محمود المحامى الذى تسلمه كالمغشى

عليه : بعد الست بدرية ماتأخد حقها وتسلمنا العقد والمفتاح حنقعد أنا وأنت مع الحاج محمد المقاول نتفق معاه على كل التفاصيل عشان يبدأ هدد ونشوف حسابه حيمشى أزاى وأى حاجة تقف معانا أدينا مع بعض والمعلمة فايزة حتبقى فى ضهرك لغاية ماتقف على رجليك . مسح وجهه بكفيه حين تكاثرت عليه علامات الأستفهام . لاحظت أمه صدمته : مالك يامنصور مش أدها ولا أيه ؟. جاهد لحفظ ماتبقى له من أعصاب : أدها ياما . أدلت برأسها للأرض حين داهمتها لحظة ضعف قبل أن تعثر على ديباجة قديمة دائما ماتقال فى مثل تلك المواقف : يابنى أنا ماليش غيرك فى الدنيا وأملى أنك تبقى أحسن واحد وأنا عارفة أنك جدع وأد المسئولية ومش حتخذلنى ومن ناحيتى لاحابقى خايفة ولا قلقانة منك لما تحط أيدك فى الشغل .. عارف ليه يامنصور؟ تابعها بعينيه .. فواصلت : عشان دى فلوسك وحاجتك أنت ومافيش حد عاقل فى الدنيا بيضيع فلوسه ولامستقبله .. أثبت لى أنك راجل يامنصور وآهى الفرصة جتلك لغاية عندك أمسك فيها وأثبت للناس كلها أنك أدها وأدود .. خلى كرموز كلها تشاور عليك وتقول ده أبن المعلمة فايزة بجد . لم يفكر بعدما تأكد من هوية المتحدث فتحامل على نفسه ليستوعب حقيقة المشهد الملتبس الذى لم يخرج منه سوى بشعور دامغ بأن زمن الأستبعاد قد ولى من غير رجعة .. تفرس فى ملامحها : عندك حق ياما فى كل اللى قلتيه وعداكى العيب والليلة كلها دلوقتى بقت فى حجرى والأيام بينى وبينك هى اللى حتثبتلك أنك خلفتى راجل . بدا متحمسا ..ضربت الفرحة باطنه وظاهره قبل أن تهدأ نبرته مبديا ترددا : بس فى حاجة كده يعنى . تابعه محمود بعيون ضيقة : حاجة أيه يامنصور .

ــ حكاية الهدد وبيت أبن شكر وشغل المقاولات .. الحكاية دى جديدة على وما أضحكش عليك أنا مش دايس فى الليلة دى .

ــ ومين فينا فاهم يامنصور .. واحدة واحدة وكلنا حنتعلم مع بعض . تدخلت فايزة حين أطمأنت لحديثه: ماتقلقش يامنصور أمك وراك ومن بكرة أنت مسئول قدامى عن حساب التاكسى والنص نقل وأنا حأفهم النونو وخضر أنهم يعدوا عليك النهاردة في القهوة حاسبهم بقى بطريقتك وشوف الدنيا ماشية أزاى . كلماتها نزلت على رأسه فأضاءت العالم فى عينيه وكأنه من شهود ليلة القدر . أقتربت بعينيها تتفحصه: سوى أمورك معاهم زى ماأنت عايز . لم يسمح وعيه المدهوش بفهم ذلك التغير الحاد .. مد نظره فى وجه محمود المبتسم محاولا اسكات أسئلة تأكل عقله ، لم يجد سوى نظرة طمأنينة أرسلها كى تهدأه . بينما أقتحمته فايزة حين لاحظت وجومه : فى أيه تانى يامنصور ؟! .

ـ مش مصدق كل اللى أتقال ده ياما .. أنتى لسه من كام يوم مبهدلانى ومفرجة الدنيا على وشايلانى خالص من دماغك .. أيه اللى جد ماتفهمينى ؟ طرح سؤاله وشعورا قويا يتملكه بأن تلك العروض وراءها شروطا تعجيزية ستفجرها فى وجهه بين لحظة وأخرى .. أنتظر منها توضيحا لم يحصل عليه ، فتطوع محمود المحامى : الحكاية مش مستاهلة أسئلة وأستفسارات .. أم ومحتاجة أبنها يبقى جنبها عايزاه يبقى راجل ويعتمد على نفسه عشان يقدر يريحها من تعب الشغل ووجع الدماغ ، وبصراحة أنا شايف قدامى راجل جدع وملو هدومه وحيسد فى المسئولية ولازم تفهم يامنصورأن الجدعنة مش كلام ولافشخرة بؤولافرد عضلات الجدعنةالصح أزاى توسع الشغل وتكبره يعنى بدل البيت يبقى بيتين والتاكسى والنص نقل والقهوة يبقوا أتنين وتلاتة هى دى الشطارة وماتنساش أن تجارة أمك كبيرة فى البيع والشرا ده غير شغل التقسيط اللى بيأكل الشهد .. أثبت وجودك يامنصور عشان تدخل على التقيل . أنتفضت أبتساماته كثورة تحتاج وجهه : بكره حتشوفوا منصور حيعمل أيه . نظرة تفاؤل أبداها محمود المحامى حين دار بكرسيه قبل أن يقف فى مكانه : يبقى على بركة اللـه .

ـ ربنا يصلح الأحوال . قالتها فايزة ووقفت كما وقف منصور الذى مد يده مصافحا المحامى : أنا بكره حأروح من النجمة عند بيت أبن شكر وحأقابل محمد المقاول وأفهم منه كل حاجة وبعدها حأتصل بيك نشوف حنعمل أيه .

ـ ماشى كلامك . وضعت فايزة يدها على كتفه : تيجى توصلنى ياوله للبيت .

ـ طبعا ياما ومن هنا ورايح مش حأسيبك لوحدك . سبقهم محمود لباب المكتب مودعا بينما سحب منصور أمه . هبطا السلالم .. أجتازا المدخل ثم ترجلا سويا لأول مرة منذ خروجها من السجن . سار بجانبها والأرض تتراقص تحت قدميه حتى رن موبايله ، فلمح رقم نوسة على شاشته فتباطأ فى مشيته كى يتمكن من الرد : مش حأعرف أتكلم دلوقتى حأوصل أمى للبيت وحأبقى أتصل عليكى . قالها هامسا ثم وسع خطوته ليلحق بأمه التى فشلت فى أقتناص أى كلمة . أقترب وصار يحاذيها فأتاح لعينيها فرصة نظرة ركنية مصحوبة بجملة ماكرة : الأمورة بتطمن عليك .

ـ لأ ياما ده سليم .

ـ وسليم بتاعك ده ماينفعش الكلام معاه غير بالوشوشة . لم يعقب مكتفيا بضحكة سمجة . فأردفت حين أدلت رأسها للأرض : خلى بالك يامنصور أنا راهنت نفسى عليك . لم يستوعب الجملة : يعنى أيه ياما .

ـ يعنى فى حتة جوايا بتقولى أن أبنك حيبقى راجل ويرفع رأسك وحيكون سندك فى الدنيا . ثم سكتت لتطلق تنهيدة . أستأنفت وهى تتابع الشارع : وفى حتة تانية بتقوللى منصور مش حيقدر قيمة اللى عملتيه معاه وحيخذلك .

ـ واللـه ماتخافى ياما سيبى الأيام تثبتلك وحتعرفى ساعتها أنك راهنتى على راجل . هزت رأسها وأتخذا طريقهما بمحاذاة شارع الترام ومنه إلى شارع كرموز ثمإلى الداخل حيث سلسلة الحوارى المتشابكة .. حاول منصور سحبها لحديث يتيح له فهم الأسباب الحقيقية وراء " تسونامى " التغيير الذى فرض عليه وجوما لم يفلح فى صرفه .. جمل عاطفية فضفاضة دخلت قاموس فايزة حديثا هو كل ماتحصل عليه وهما يجتازا حارة بعد حارة لايقطع سيمفونية " الحنية " سوى تلويحها شمالا ويمينا ردا على تحية من صاحب محل أو من سيدة فى شرفة وكأنها فى جولة أنتخابية . عند رأس الحارة تركها بصحبة كلمات أبن بار : ربنا مايحرمنى منك ياست الكل ويقدرنى أطول رقبتك وأشرفك فى كرموز كلها . أبتسامة أخيرة ثم أولاها ظهره .. شعر الليلة بأنه حصل على أعتراف رسمى بوجوده ككائن حى ، سار كطفل يهز جسده ينصت لفرحة تتقافز داخله تاركا ظله يزحف وراءه .. جاهد أن يسابقه كأنما يتخلص من بقعة مظلمة تذكره بسنوات الضياع ولحظات القهر .. لم تسعفه خطوته الفرحة أن يتخلص من خياله وكأنه رفيق " رذل " يتمدد ويقصر فارضا وجوده بأستماتة .. نسخة مزيفة تلاحق الأصل بألحاح ، حركة بحركة ، خطوة بخطوة حتى تداخل بين قدميه ثم أنطلق من بينهما كمارد مستعرضا طوله حتى تعادلا فى الحجم بل زادت مساحته على الأرض .. نظر منصور لظله كأنما يرى شبحا ، بدا مواجها له أقرب منه مصاحبا ، تفحص وجهه المرسوم على الأسفلت ، حدق فيه بأضطراب حين لمح شفتيه تتحركان تحسس لحمهما فوجدهما ثابتتين فأحكم أغلاقهما بضغطة .. ثم وقف ولم يتحرك .. أدلى رأسه للأرض حتى صارت تحت قدميه .. صوت هامس يتصاعد منها لأعلى حتى بلغ أذنيه : شفت يامنصور أمك عملت معاك أيه .. ماهانش عليها تسيبك ضايع فى الدنيا مدت أيديها ووقفت جنبك وأديتك فرصة عمرك عشان تبقى بنى أدم جديد . تضاعف الصوت حين بدل نبرته : أخييه.. أنا وأنت بقى شكلنا وحش أوى . تمتم منصور بخوف حتى تشكلت كلمة " ليه " على لسانه .

ـ أنت نسيت لما مشينا سوا ورحنا لغاية بيت نعيم عشان تدبر لأمك مصيبة تخلصك منها .. فاكر ولانسيت .. ياه يامنصور شفت أنا وأنت كنا عايزين نعمل أيه فى أمنا وهيه كانت بتفكر لنا فى أيه ؟. شعر بسخونة الأسفلت تحت قدميه .. دعك عينيه كى يستعيد ثباته بعدما أطلق نفسا طويلا كنس به هما

كان جاثما على صدره مرددا بأرتياح : الحمد للـه أنى ماكملتش فى السكة السودة دى اللى كنت ماشى فيها .. اللـه يخربيت أمك ياسليم أنت ونعيم . قالها ودموعه تراوح مكانها فاسدل حفنيه فغادرتهما إلى خديه فمسحها بطرف ابهامه حين أستعاد خطوة نشطة بأتجاه القهوة قبل أن يتفادى بركة مياه بوثبة .. دار حول نفسه بنظراته .. أختفى ظله وظن بعدها أنه قد لقى مصرعه غرقا !!.

دخل منصور المقهى بصدر يمتلىء نشوة .. تضامنت ملامحه مع حالة معنوية مرتفعة ، يهز كتفيه مختالا يحبس أبتسامة حين لمح أبوه الذى أزاح رأس" سعيد تشكك " التى تترنح داخل جلسة حوارية ضمت الحاج " تاج " وعم " كامل " بدوا منصتين له بأستغراب شديد وهو يهتف فى أذانهم مستعينا بكل الألهة التى تصلح للقسم بأن " مبارك " الذى يحاكم حاليا داخل قفص المحكمة هو " دوبلير " .. نظر عبده فى وجه أبنه قبل أن ينفض رأسه من تشككات " تشكك " فأنسلت من الجلسة يلملم جلبابه متجها ناحيته . قابله منصور بوقفة المكلل بالنصر مفسحا ساقيه واضعا يديه فى جيب بنطلونه كأقطاعى فى زمن الملكية يعاين أطيانه . كانت دعوة صريحة لعبده أن يستقبله أستقبالا حذرا وهو يتفحص هيئته المتشنجة .. رمقه منصور بطرف عينه : فى أيه يابا بتبصلى كده ليه ؟! .

ـ أنت اللى فى أيه ياوله ؟ قالها منكمشا .. لم يتلق ردا بل سأله وهو يوزع نظراته على الموجودين : الوله نونو وخضر ماظهروش ؟ سأل بأستعلاء بينما لازال عبده منتظرا توضيحا حين طرح أستفسارا : وبتسأل عنهم ليه ؟ .

ـ عشان أحاسبهم على يومية التاكسى والنص نقل .

ـ وأنت مالك !. تخلص من القناع الخشبى الذى دخل به وألتفت لأبوه تتلبسه قوة خفية لم يعتادها الأخير: مالى أزاى يعنى .. هيه دى مش فلوسى وحاجتى . فور سماعه لتلك العبارة ، لم يكن أمامه سوى أن يقرب عينيه فى عينى منصور : ورينى عينيك ياوله ؟!

ـ أنت فاكرنى مبلبع ولا أيه .. عيب عليك يابا .. اللى قدامك ده واحد تانى خالص ، النهاردة التاريخ حيتكتب من جديد الليلة حتشوف بعينيك النونو وخضر وهمه قاعدين قدام العبد للــه زى الأرانب وأنا بأحاسبهم بالمليم والسحتوت وحتبقى ليلة أبوهم سودة لو حسيت أن فى حد فيهم بيلعب بديله . تعلق نظره بأبنه كمن يحاول قراءة طلسم : أنا مش فاهم حاجة .

ـ مش فزورة يعنى ده أنت أبو المفهومية يابا .. منصور دلوقتى زى ماتقول كده بقى معلم صغير أو راجل أعمال فى أول الطريق ، شغل أمى أنا حأمسكه كله وحأبقى مسئول عنه وبكره من بدرى حأكون مع الحاج محمد المقاول عند بيت أبن شكر عشان أباشر بنفسى الهدد لغاية مامحمود المحامى يجهز ورق الترخيص من الحى . أخترقت الكلمات جسده كحقنة مخدر .. تيبست ملامحه وتهدل لحم وجهه وسط لحظة غموض سلبته التركيز : أيه الجنان اللى بتقوله ده .

ـ ده مش جنان ده أتفاق تم بينى وبين أمى فى مكتب محمود المحامى ودى البداية وبعدها حأدخل معاها فى شغل التجارة اللى على أصوله . ألقى كلماته كقنبلة شديدة الأنفجار اصابت عبده بسكتة كلامية وحدقتان تترنحان .. طال صمته بعدها حتى قطعه منصور : أنت مش مصدقنى ولا أيه ؟ رج رأسه كأنما يقلب ماسمعه : مش عارف . قالها كالمسطول .

ـ لأ أعرف وكلها شوية وحتشوف بعينيك لما ييجى النونو وخضر . لم يجد عبده ريقا ليبتلعه فخرج منه صوتا خشنا : واللى حصل ده سببه أيه ؟ .

ـ من غير سبب ربنا عايز كده . جملة ألقاها بوجه متفاءل بينما تطلع أبوه إليه متماشيا مع خدر اللحظة : طب أنا فين من الليلة دى . قالها كمقامر لايصدق خسارته .

ـ مأأنت موجود آهوه فى القهوة وربنا يعينك بقى عشان أنا مش حأبقى فاضيلك .

ـ مش حتبقى فاضيلى .. طب تعالى نقعد وفهمنى كده براحة الدنيا ماشية أزاى .

ـ أسبقنى أنت حأعمل مكاملة ع السريع وآجى وراك . قلب منصور عينيه فى المكان والموجودين كرجل مهم وهو يجرى أتصالا خاطفا بنوسة لم يستغرق سوى دقيقتين ، لم يتطرق للتفاصيل .. عناوين مختصرة أفصح عنها بثقة متزايدة أصابت الحبيبة بثورة فرح قبل أن تحذره طيلة المكالمة : أوعى تكون بتشتغلنى ولابتهجص . كان حاسما حين شدد عليها بأنه فى الغد سيكون مقاتلا على جبهة " أبن شكر " . تخطت متشككة أخباره المفرحة وأستفسرت منه عن شكل الحياه المنتظرة بالنسبة لها ولأمها بعد تسليم الشقة .

ـ ماتقلقيش يابت الليلة حأعدى على حباجة السمسار حيشوفلكو شقة هنا نواحينا .

فى تلك اللحظة بلغ عبده ركنه فى انتظار أبنه لمعرفة الحيثيات التى أدت لتلك القرارات المفاجئة وماسيترتب عليها من نتائج حتما ستطاله ، وان كان يشعر فى قرارة نفسه بأنه أصبح خارج حركة التنقلات وباتت نهاية خدمته قرارا ينتظر توقيع فايزة . جلس مهموما تائها يبحث عن نهاية مقبولة لأحداث بدت ملفقة . دعك جبينه بعنف كالذى ينتظر أن يخرج منه عفريتا تكون أمنيته الوحيدة بعد سماعه مقدمة : شبيك لبيك عبدك بين أيديك " هى الولية فايزة بتفكر فى أيه بالظبط " .

الفصل الثالث عشر

كان يوما مشهودا أيضا يضاف إلى حصيلة الأيام التى شهدت أحداثا صغيرة تتراكم حتى يصبح لها فعلها المؤثر.. كان الوقت يقترب حثيثا من الحادية عشر ليلا حين زحفت نورا ناحية مكتب زيزيت . دخلت ولم يتبق لها سوى قدمين تحتاجان بشدة لمياه دافئة وملح وأنامل أحتقنت أطرافها بفعل مقص رافقها طيلة تسع ساعات متواصلة .

ـ آه .. صيحة ألم صاحبتها حتى سقوطها متهالكة على كرسى أمام مكتب زيزيت التى أنهمكت فى مراجعة ايصالات تسليم موديلات الصيف وسط فوضى وزحمة غير مبررة على المكتب .. منفضة متخمة بأعقاب السجاير يجاورها فنجان قهوة على حافته بصمات روج تعود لشفايف زيزيت وعلى يسارها كومة فلوس هى حصيلة ماتم جمعه كبداية مبشرة لـ " سيزون " الصيف وأمامها كشف طويل ممدد لطلبات لا تنتهى من محلات كبرى ستتم دراستها لاحقا مع نورا لتبدأ فى تنفيذها حسب أولويات الكمية . لم يكن من الصعب أدراك أن نورا أصبحت فى الفترة الأخيرة مصدرا رئيسيا لنجاح الأتيليه خاصة فى العامين الأخيرين ، بل أنها الشريان الرئيسى لتدفق الأموال لجيب زيزيت وصار شعار الأتيليه بفضل موهبتها لزمة تصاحب أفتتاح أيا من فروع محلات الملابس الكبرى مدعومة بخفوت نجم المستورد فى ظل حالة الركود القاسية ، فأصبحت نورا أسما له وزنه فى عالم الموضة بالاسكندرية بفضل تصميمات واقعية وتكلفة مناسبة قفزت بها الى صدارة المشهد .

رفعت زيزيت رأسها بتعب تعاين وجه نورا المتألم : أتقتلتى النهارده . دعكت ركبتها بعدما فردت ساقيها : المهم أننا سلمنا كل الشغل ومافيش حاجة متأخرة بينما أرسلت زيزيت نظراتها الى خارج المكتب حين سمعت صوت أقدام فضيلة التى مرت أمامهما بخطوات طافحة أستعدادا للرحيل قبل أن تشير من الخارج : أنا مروحة يامدام .. طفيت الأنوار جوه وشيلت فيش المكن .. عايزة منى حاجة .

ـ بالسلامة يافضيلة . قالتها وأنسحبت بعينيها لدفتر الأيصالات قبل أن يستوقفها منظر نورا حين لمحت فى وجهها علامات تتجاوز الأرهاق ، لمست فى ملامحها جمودا وخطوط مقتضبة بين الحاجبين . مدت رأسها : مالك يانورا فى إيه ؟. برأس متصلبة وعيون متحجرة ونظرات ثابتة للأمام دون ألتفات لمصدر الصوت : ماما !! .

ـ مالها . كلمة رددتها بفزع .

ـ كفاية عليها شغل لحدكده فى الأتيليه .كلمات كاللكمات نالت من أتزانها : ليه ؟ .

علامة التعجب التى رسمتها على وجهها كانت كافية لتخفف نورا من نبرتها : الظروف بتحكم يامدام وأنا وأخواتى قعدنا مع بعض وأتناقشنا كتير لغاية ما أتفقنا على القرار ده . أنشغلت فى قراءة ملامحها التى تحفظها عنها حين تتشدد فى موقف : والقرار ده سببه أيه ؟ . تجاهلت نورا صدمتها المطبوعة على وجهها وواصلت بنبرة واثقة : شايفين أن ده حيبقى فى مصلحتنا وأحنا أدرى بظروفنا . قالتها بضيق . بينما زيزيت قد تعودت على مزاجها الحاد فى الفترة الأخيرة وحساسيتها المفرطة تجاه وجود أمها فى الأتيليه .

ـ بس قرارك ده حيبقى غلطة كبيرة أوى .

ـ مش مهم لو حيمنع غلطة أكبر .

ـ مافيش غلطة أكبر من الحكم على أنسانة بأنها تكمل حياتها زى لوح الخشب من غير روح ولا حركة وتفضل ليل ونهار محبوسة فى مكانها وكأنها لسه ماخرجتش من السجن .

ـ فيه حاجات تانية أهم ألف مرة من الشغل وأنا ماقلتش تتحبس بالعكس هيه حرة تعيش حياتها زى ماهى عايزة و بالطريقة اللى تحبها ولا هوه يعنى لازم شغل الأتيليه بالذات . أنهت جملتها وهى لازالت على وضعيتها تنظر أمامها وكأنها تتحاشى المواجهة : وماله شغل الأتيليه يانورا .

ـ مالهوش .. بس بقى بيشغلها زيادة عن اللزوم وواخد كل وقتها لدرجة أنها بقت مش شايفة حاجة غيره وبصراحة كده الوضع ده بقى مش فى مصلحتنا ولامصلحتها . ظلت واجمة للحظات تتعقب كلماتها ، أنسحبت للوراء تبحث عن فهم قبل أن تدخل إلى نفق طويل من الأسباب الحقيقية المحتملة .

ـ مع أنى مش فهماكى لحددلوقتى تقصدى أيه من ورا كلامك ده ، لكن .. سكتت لتستعيد من ذاكرتها مواقف قديمة كانت كافية لجعل هدى حاضرة بقوة حين أعلنت موقفها : أرجوكى يانورا ماتطلبيش منى المستحيل بالبساطة دى ، لازم تفهمى كويس أن أمك هيه الوحيدة اللى وقفت معايا وساعدتنى لما الدنيا كلها اتخلت عنى ورمتنى .. أزاى بس عايزانى أقولها شكرا أنا مش محتاجاكى فى الأتيليه . ألتفتت إليها لأول مرة منذ بداية الحديث : أنا ماطلبتش منك تبلغيها بأى حاجة كل اللى أنا عايزاه أنك تكونى على الحياد وسيبينى أنا أتصرف بطريقتى . قطبت جبينها حين سمعت عبارتها : ياه .. أتغيرتى يانورا بقيتى أسية أوى .

ـ أنا .. قالتها بأستنكار .

ـ لما تطلبى منى أبقى على الحياد وأقف أتفرج على صاحبتى وصاحبة الفضل على يبقى ده أسمه أيه ، عايزة تحكمى عليها بالسجن من تانى ومش عايزانى أتدخل ولا أقف جنبها .. ليه عايزة تحرميها من أنها تعيش حياتها بالطريقة اللى هيه شايفاها .. واللـه حرام يانورا وكمان مطلوب منى أعمل نفسى مش واخدة بالى وأبقى على الحياد .. عرفتى أنك أتغيرتى وبقيتى واحدة تانية خالص . أنهت عبارتها وهى تحمل مرارة كست ملامحها .

ـ يا مدام اللى أيده فى الميه مش زى اللى ايده فى النار ومن الاخر كده ماما خلاص مش هتنفع تكمل فى الاتيليه .. حد فينا لازم يفضل يا أنا يا هيه ؟! وقعت الجملة داخل زيزيت موقع الرعب ، أصابها بهلع عندما أنتبهت إلى خطورة الأحتمال وجديته .. لم تتخيل ذلك فكادت تنفجر فى وجهها بغضب مجنون يقود إلى تعقيد الوضع أكثر مما يسهم فى حله ، لذا سارعت إلى تطويق ثورة غضب ربما تنفلت منها إنفجارات يصعب حصر خسائرها . سيطرت على لسانها ونطقت بهدوء : ياريت يا نورا تقومى تروحى دلوقتى وخدى حمام دافى ولما تهدى نبقى نكمل كلامنا بكره . قاطعتها وهى لاتزال على حدتها : الموضوع مش محتاج كلام تانى ..أنا أسفه يامدام اللى قلته هو الحل الوحيد .

ـ ليه يانورا بتحاولى تحرجينى مع مامتك وتطلعينى قدامها ماعنديش أصل وناكرة للجميل . كان صوتها المتقطع دليلا واضحا على وجود صراع نشب فجأة داخلها أربك كل حساباتها وهى تحاول البحث عن معادلة توازن بين عاطفة مستقرة فى قلبها تجاه صديقة عمرها وبين باقة من المخاوف المشروعة وكلها تدور حول خسارتها لنورا .

- الحسبة مش كده يامدام انا لا عايزة أحرجك ولا أحرج نفسى الظروف هى اللى بتتحكم فينا ومتهيألى أن ماما مش بتخبى عنك حاجة وأكيد قالتلك على اللى حصل ليوسف وبسمه فى حياتهم .. أنا مش هقدر أستنى أكترمن كده لغاية ما كلنا نضيع بسببها مش ممكن هأسكت يا مدام وأنا شايفة أخواتى اللى أنا تعبت وشقيت عشانهم بقوا ملطشة ومعايرة من اللى يسوى واللى مايسواش ..أسفه يا مدام مش هسمح بالكلام ده تانى . سحبت زيزيت سيجارة وأشعلتها ونظرت لها نظرة طويلة من خلال دخانها المتصاعد وكانها تختبىء وراءه.. شعرت بعار لحق بها حين صمتت..أفصحت عن كلمات نحيلة بالكاد تكفى موقفا ضبابيا : أنا مش عارفة أقولك أيه ولا اتصرف أزاى ؟! لم تكن زيزيت على وعى بطبيعه هذا الصراع الذى تديره نورا برغم ذكائها وقربها الشديد منها .قامت نورا وهى أكثر صرامة : أنا هأتصرف مع ماما. أشارت بكلماتها قبل ان تلمح فى وجه زيزيت ضعفا وأرتباكا أستوجب منها توضيحا :ع العموم انا حاسة بيكى ومقدرة الوضع اللى أنتى فيه .. بس مش بأيدى .. تصبحى على خير خرجت من المكتب تدهس الأرض بقدميها بأتجاه الباب الذى وصل صوت أرتطامه لأذنى زيزيت التى غاصت فى لحظه سكون قاتلة وسط ظلام يحاصرها من كل جانب لا يضيئه سوى بقعة الضوء المنبعثة من كشاف "نيون" فى سقف مكتبها.. أرخت رأسها للوراء تسندها على حافة مقعدها الجلدى تمشى بنظراتها صعودا وكأنها تنتظر حلا قد ينزل عليها من اعلى بعدما فرضت عليها نورا واقعا جديدا وتركتها وجها لوجه أمام أختيار وحيد وصعب ، فى كل الأحوال سيكون جريمة كاملةالأركان أما فى حقها أوفى حق صديقة عمرها !.. ظلت لدقائق شاخصة للسقف الذى هيأ لها بلمعانه فرصة الأسترجاع حين سحبت من ذاكرتها مشهد اول يوم لنورا فى الأتيليه حين كان الالتزام والطاعة هما الشعار الرسمى لشخصيتها .. تنهيدة طويلة بملامح ساخرة حين عقدت مقارنة بين نورا اليوم و نورا الأمس .. مطت شفتيها بهمهمة بعدما أيقنت أنها فى زمن تتبدل فيه أوراق اللعبة .. وأن للقدر عالمه الخاص ..! .

فتحت نورا باب الشقة ولازالت تحمل عنادا على مواصلة ما بدأته كما خططت . أتخذت طريقها من الصاله حتى باب غرفة أمها ..دفعت الباب وهى متيقنة أنها ستجد أمها كامنة فى ظلمة غرفتها ، واجهتها أول ما خطت الى الداخل وشبح الأم فى المواجهة.. أضاءت النور فأستقبلتها وهى ممددة على السرير بعينين ترمشان وملامح ضعف أعتادت أن تواجه بها الحياة منذ خروجها من السجن .

خرجت منها فرحة : تعالى يا حبيبتى..مش عوايدك يعنى تيجى من الأتيليه وتدخلى تشوفينى . سارت ناحية السرير بتمهل وهى تشبك اصابعها حول خصرها :عادى يعنى . زحزحت هدى جسدها حتى

لصقت ظهرها بظهرالسرير: تعالى أقعدى جنبى .أعلنت عن رغبتها التى حملتها معها إلى الغرفة: عايزةأتكلم معاكى شويه يا ماما .قالت جملتها و أقتربت منها ببطء ورمقتها من أعلاها .. خيريا نورا. طالت نظرتها فى عيني أمها التى تأهبت لها وتقلص وجهها رهبه .. زيارة غريبة فى توقيت أغرب ، لم تعتاد منها ذلك الفعل . صعدت نورا رغبتها حتى بدت على شفتيها :أنا أتفقت مع مدام زيزيت على .. صمتت.. أرخت جفنيها ثم أستأنفت بوتيرةأسرع : من بكره مفيش شغل ليكى فى الأتيليه . لفحت كلماتها وجه هدى كريح عاتية كأنها صفعات متتاليةعلى خد كائن ميت .. مالت بجسدها للأمام كى تكون على مسافه كافية منها كمحاولة لأبتلاع جملتها التى اتحشرت فى حلقها ، حاولت لفظها كى يتزن ادائها : ما فيش أتيليه.. يعنى ايه؟! .

ـ يعنى زى ما سمعتى يا ماما . قالتها ثم نظرت لها نظرة ترقب كأنها تستعد لأى رد فعل . أرتجفت على شفتيها أبتسامة تائهة بزغت بعفوية : ليه يا نورا ؟! سألتها وهى تتحامل على نفسها حتى بلغت طرف السرير: من غير ليه يا ماما .

ـ مش من حقى اسأل . قالتها واقفة .

ـ المصيبةأنك بتسألى كأنك مش فاهمة أو مش واخدة بالك ! .

ـ من أيه يانورا؟كادت أن تنفعل الأخيرة حتى لاحظت نظرة التوسل فى عينيها :بصراحة أحنا وضعنا بقى صعب جدا وأنا ويوسف وبسمة مش عارفين نلاحقها منين ولا منين .. مافيش حاجة بتستخبى ياماما وأنتى شوفتى بعينيكى اللى حصل ليوسف وأزاى مستقبله اللى كان رسمه ضاع منه حتى بسمة هى كمان ماسلمتش من البتاع ده اللى أسمه أمجد واللى أصلا مايساويش ربع جنيه سابها وخلع لما عرف حكاية السجن ..تخيلى.. طبعا هى ماقالتلكيش على الحكاية دى عشان مش عايزه تزعلك ولا تحرجك .كلمات مباشرةألجمتها وسحبتها بقسوة لدائرة صمت رهيبة بينما لم تكتف نورا وظلت تلاحقها :الأتيليه زباينه كتيرة ياماما زى ما أنتى عارفة وفيهم كتير من المنطقة هنا وعارفين القصة بتاعتك كلها من طأطأ لسلاموعليكو وللأسف مافيش حد بينسى واللى فيهم نسى لما بيشوفوكى بيفتكروا كل حاجة .. أرجوكى كفاية لحد كده وماتضيعناش .

ـ أنا يانورا . قالتها وسقطت جالسة بينما أعتدلت فى وقفتها لترسم تعبيرا صارما على وجهها : أيوه أنتى يا ماما.. ولو صحيح بتحبينا وخايفة علينا أسمعى الكلام وريحى نفسك وريحينا .

- يعنى كمان بتشككى فى خوفى عليكو..ده أنا اللى .. رفعت نورا يدها حتى ظللت بها وجه أمها التى أنكمشت فى مكانها كالمحكوم عليه بالأعدام بأشارة تعنى "كفى" مصحوبة بتحذيرقاسى : لا يا ماما مش عايزة أسمع مرافعات ولا حكايات قديمة أنا دلوقتى مش باناقشك فى اللى عملتيه أن كان صح ولاغلط أنا كل اللى بأطلبه منك تنسى حكاية شغل الأتيليه مادام حيجيب لنا مشاكل ووجع دماغ وآهو موبايلك معاكى أبقى أتكلمى براحتك مع زيزيت وحكى معاها زى ماأنتى عايزة ولما تحبى تشوفيها أبقى خليها تعدى عليكى هنا فى البيت فى أى وقت .

ـ يعنى أنتى شايفة أنى لما أتحبس هنا فى البيت بين أربع حيطان حيبقى ده حل كويس ويريحك .

ـ آه .. أمام أصرارها حاولت أن تفهم : وزيزيت رأيها كده زيك .

ـ مش مستنية رأيها أنا أدرى بمصلحتى ومصلحة أخواتى . شعرت هدى بنبرتها القاسية تفتت داخلها أشياء متماسكة .. تسحبها الى منطقة خوف لاتملك لها وصفا .. خوف كثير يهوى داخلها .. أحساس متنامى بالظلم وجبروت قوة قاهرة تدفعها الى تسليم ويأس . طفحت من عينيها مرارة أنسالت على خديها وتهيأت على شفتيها : أنا نفسى أعرف اللى بتقوليه ده من قلبك فعلا ولا أنتى عايزة تفهمينى أنك خايفة على أخواتك أكترمنى ولا دى تمثيلية وراها حاجة تانية أنا مش فهماها ولا يمكن تكونى بتكرهينى .. قولى ماتخبيش . طرحت أستفسارها بعينين أتسعتا حيرة وقلق .

ـ مافيش حد فى الدنيا بيكره أمه . قالتها بملامح لاتنسجم مع معنى الجملة : واللى بيحصل منك كل يوم من ساعة ماطلعت من السجن .. تسميه أيه ؟!. ضيقت عينيها : وهو أيه اللى حصل منى ؟ .

ـ حاجات بسيطة أوى لاتذكر أقلها أنك مانعة الكلام معايا خالص وكأن فى تار بايت بينى وبينك ، لو دخلت عليكى الأوضه ولقيتك صاحية أول ماتشوفينى تبقى عايزة تنامى لو قربت منك وأنتى قاعدة وسط أخواتك دقيقتين تلاتة بالكتير وتقومى بأى حجة حتى فى الأتيليه اللى بنقعد فيه مع بعض ساعات طويلة مافيش كلمتين بتقوليهم معايا على بعض لغاية ماكل الموجودين معانا خدوا بالهم وبدأوا يسألونى فى أيه بالظبط ولولا الحرج والكسوف كانوا سألونى هى دى بنتك ولا لأ ؟!. كانت توجه لها الكلمات وهى تطوف حولها بينما تابعتها نورا صامتة ولم تعقب حتى بلغت هدى كرسى التسريحة الصغير . جلست أمام المرآة تواجه أبنتها من خلالها : أيه اللى أنا عملته معاكى بتعاقبينى عليه .. أيه الغلطة الكبيرة اللى أنا غلطها ومخلياكى تبعدى عنى ومش طايقانى ، حأفترض أنى أذنبت .. حأفترض أنى مليانة ذنوب

وخطايا .. مين فى الدنيا خالى من الذنوب ومين اللى المفروض يقف جنبى ويسامحنى ويغفرلى غير بنتى الكبيرة اللى طول عمرى بأتعامل معاها على أنها صاحبتى وأختى وحبيبتى . رددت جملتها وهى تنتفض وصوت أنفاسها تجاوز الحد الطبيعى للدخول والخروج حين أقتربت نورا منها بخطوات بطيئة وهى تعاين وجهها قبل أن تنفض عنها لحظة أرتباك : أنتى اللى حساسة زيادة عن اللزوم ياماما .. مافيش حاجة من كل اللى قلتيه ده أنا قصدتها .. شيلى الأوهام دى من دماغك . لاذت بالصمت تخفى فيه ضعفها .. سرحت للحظات بدت فيها ملامحها تكتسى بسواد أيامها . لم تعد الا ويد نورا تستقر فوق كتفها : خلاص ياماما أتفقنا . نظرة صامتة أو ربما يائسة من عينيها أو نطق كلمة واحدة لاتؤدىإلا لمعنى واحد يؤكد على أستسلامها .. بقيت مكانها تزن كلمات أبنتها لعلى قبولها ، يسهل لها الولادة الثانية .. التخلى عن الماضى ودخول المستقبل بهوية بيضاء .

ـ لو أنتى شايفة يانورا أن طلبك ده حيخلينا نرجع زى ماكنا .. أنا موافقة . وكأنها لم تسمع ماقالته : يعنى أتفقنا ياماما . هزت راسها شاردة كأنها فى عالم أخر .. عالم متواصل من المفاجأت واللامعقول . قامت بتعب تحت عينى أبنتها التى تحرسها فى لحظات سكوتها .. أيقنت هدى أن شمس الماضى أشد فتكا بالنفس بأكثر مما توقعت .. هى تبزغ فجأة فتعرى الحقائق وتزيل عنها تلك الستائر الواهية . أسئلة راحت تتمادى داخلها تتخللها مزاوجة بين الهدوء والهياج . سارت بأتجاه الباب .. بادرتها نورا : رايحة فين ياماما ؟ .

ـ حاسة أنى مخنوقة .. حأقعد برة فى الصالة . لم تعقب وخرجتا سويا من الغرفة .. أتجهت هدى الى الصالة المظلمة بينما أنحرفت نورا ناحية غرفتها .. وقفت تفتح الباب ، لينهال شريط من الضوء حادا كالسيف يشرخ صدغها لنصفين حين ألتفتت لأمها : ماتزعليش منى ياماما .. مش بأيدى . دخلت بعدها وأغلقت الباب خلفها تاركة أمها بنفسية سيئة بعدما كومت نفسها على مقعد الصالة .. مدت نظرها من خلال الضوء الخافت المتسرب من تحت الأبواب المغلقة الى مقاعد الأنتريه التى بدت كشواهد القبور .. المقارنة بين العزلة والسجن لاتفارق عقلها وكأنها تعيد أكتشاف وجودها من جديد .

داهمها أحساس غريب بأنها فى عالم تسقط فيه كل اللغات ، حين تسقط كل العلاقات وتستحيل الرغبات البشرية الى رغبة واحدة لامثيل لشراستها .. رغبة فى البقاء ، وكأن الحياة تزداد جمالا كلما أزدادت بشاعة وقسوة . فى هذا العالم الذى وقفت هدى على حدوده طيلة تسع سنوات متفرجة ذاهلة مروعة ، كان أهون عليها من لحظة شعرت فيها بأن كل شيىء يفقد معناه .

فى تلك اللحظة كانت الظلمة قد غمرت كل شيىء فى الغرفة حين جلست نورا قرفصاء فوق سريرها بجوار أختها الممددة فى غيبوبة نوم ثقيل ، ركبتاها تلامسان صدرها ويداها معقودتان حول ساقيها ورأسها يستند الى ظهر السرير البارد خلفها .. بدت فى غاية الدهشة من جلستها هذه ، فأنها لم تتمدد فى فراشها لتنام كما تفعل كل ليلة أحست ساعتها بالكآبة وبأنها على وشك أن تبكى .. أحست شيئا ثقيلا يركب على صدرها ويكتم أنفاسها . فكرت طويلا فيما فعلته ، هل هى رغبة جارفة تجاه وجود أمها التى بدت أمامها ككائن غريب جاء يستعيد سطوة الماضى المتأكل على حياتهم القادمة . نظرية معقدة تستفحل داخلها حين رأت فى رفضها لوجود الأم بينهم رفض الحياة للموت والمستقبل للماضى والأحلام للأوهام .

لازالت هدى واجمة فى الصالة .. تقلصت فى مكانها فصارت كنقطة لامساحة لها . أستقبلت عينيها اضاءة متقطعة مصدرها غرفة أيات التى خرجت مدهونة بالروب الزهرى وخرج خلفها متسللا صوت" عبد الحليم " المسجون معها منذ ساعة يهتف بـ " رسالة تحت الماء " قبل أن تعتقله ثانية حين أغلقت الباب خلفها وتوجهت تستطلع . توقفت للحظات أمام هدى تحدق فيها ، لم تفتح معها حديثا الا حين رأت أمامها بؤسا وأحباطا يتكتلان أمام عينيها فبرزت عنها نظرة شفقة لملامح هدى التى حاولت ضبط انكسارها .. تفقدتها بقلق : مالك ياهدى . قالتها بهدوء ينسجم مع سكون الليل والأضاءة الخافتة.

ـ ماليش . كلمة متخمة بالمرارة . جلست أمامها حين لمحت سحابة من الدموع تغطى عينيها على وشك الهطول ، فتطوعت على غير العادة بفضول طارىء : مالكيش أزاى وأنتى قاعدة لوحدك فى الضلمة وعينيكى مليانة دموع . مسحت أنفها الذى أحتقن : نورا حكمت على أنى ماروحش الأتيليه تانى .

ـ أيه السبب . تنحنحت لتتخلص من حشرجة ألمت بها : هى بتقول أن ده حيبقى كويس وفى مصلحتنا كلنا . قالتها وأعتدلت ثم أردفت : أنتى أيه رأيك ياأيات ؟ أرتبكت الأخيرة ، أرادت أن تخرج نفسها من حرج الفتوى : ماهو أنا مش عارفة أيه السبب الحقيقى اللى يخلى نورا تطلب منك تسيبى الأتيليه .

ـ والله ما فى سبب مقنع قالته ولحد دلوقتى أنا مش فاهمة أيه الحكاية بالظبط . خشت أيات أن تبدى رأيا أو ملاحظة تسحبها الى تعاسة مضاعفة فأنحازت لردود عائمة : ع العموم ياهدى المكسب القريب أحسن من الخسارة البعيدة . ألحت عليها الأخيرة للتوضيح : يعنى أيه مش فاهمة. نقلت عينيها تتفحص الليل الكئيب الخالى من نسمة أمل قبل أن تستقر على وجه هدى : أسمعينى كويس أنا مش حاتقل

عليكى ولا حأقولك نصايح بس اللى حأقدر أقوله أنى سبقتك فى القعدة دى من سنين طويلة والكرسى اللى أنتى قاعدة عليه ده كان شاهد علىّ كل يوم لما كانت دموعى مابتفارقش عينى والدنيا قدامى كانت أضيق من خرم الأبرة .. عشان كده أنا عايزاكى تبصى حواليكى كويس .

ـ أبص على أيه ياأيات . قالتها بلا تركيز .

ـ بصى على جدران البيت ده وعلى سقفه وأرضياته وبيبانه وشبابيكه أكيد حتحسى باللى أنا حاسه بيه دلوقتى . أحتل الصمت كل خلاياها حين بدأت كلمات أيات تتألق من خلال الليل .. دورت أسطوانة البداية : البيت ده ياما جريت فيه ولعبت جواه لما كانت الضحكة مابتفارقش شفايفى لما أبويا وأمى وأخويا كانوا حواليه ومدفيينى .. فرحتى بالدنيا وحلاوتها كانت أد بحر أسكندرية كله وأنا لسه بنت صغيرة طالعة والعيون كلها بتعاكسنى ، وقتها ياهدى كان الزمن غير الزمن والفرحة لها طعم ولون الدنيا كانت رايقة وبتضحكلى وتزفنى كل يوم وأنا رايحة الكوتسرفتوار .. الشوارع أياميها كانت جميلة وهادية ونضيفة أوى مغسولة بالميه والصابون والوشوش بتضحك وفيها تفاؤل .. أيام حلوة وطعمها مسكر وبسذاجتى كنت فاكرة أن هو ده طعمها الحقيقى لغاية ماأمى ماتت وبعدها بابا وفجأة لقيت البيت ده قدام عينى زى المدافن ريحة الموت والفراق مالية كل ركن فيه . سكتت بأبتسامة مترددة أتبعتها بتعليق ساخر : وكأنها دورة وبتاخد وقتها .. ومن غير مقدمات أتغير لون البيت تانى فجأة من الأسود الحزاينى للوردى الفرايحى لما قابلت شاكر فى المعهد ساعتها حسيت أنى أتولدت من جديد حبيته وحبيت نفسى وحبيت الدنيا كلها وأتجوزته بسرعة ووقفت جنبه وأعتبرته قضيتى وقررت أنى أكسبها لغاية ماحط رجليه على أول السلم ونجح وأستنيت يشدنى معاه وياخدنى من أيدى لكن للأسف طلع لوحده ورمانى وسابنى قدام حل واحد مافيش غيره .. أنى أنتقم منه فى نفسى وزى ماهو طلقنى وطلعنى من دنيته أنا كمان طلقت الدنيا بالتلاتة وأتجوزت الوحدة ورجعت للبيت ده تانى وللون الأسود الحزاينى تانى . قالت جملتها الأخيرة بأستسلام ثم سكتت بعدها قبل أن تشرع فى نطق مأساة جديدة تداولت خلالها مع هدى نظرة دامعة .. أردفت : الليل والوحدة والدموع بقوا همه عيلتى الجديدة عايشة معاهم وعايشين معايا وفى نفس الوقت كانت فيه عين تانية بتشوف نفس البيت ده باللون الوردى الفرايحى وبتعيش نفس الأيام الجميلة اللى أنا عشتها فى البداية .. العين دى كانت أنتى ياهدى ، مش حأنسى أبدا فرحتك ولاضحكتك فى أول يوم دخلتى فيه البيت .. فاكرة ياهدى . تراقبها الأخيرة بعين مفتوحة وهى تضغط على ذاكرتها لتواكب معها لحظة الأسترجاع : فاكرة ياأيات .

ـ فاكرة جرأتك وثقتك بنفسك .. فاكرة نصايحك لى لما كنتى تدخلى على أوضتى وتلاقى عينيه حمرا ودموعى على خدى .. كنتى دايما تقوليلى خليكى قوية وشجاعة ولما الدنيا تبصلك وتبرقلك وتخوفك ماتنزليش عينك وخليها هى اللى تكش منك وتنزل عينيها . أنهت عبارتها بأبتسامة ثم مالت برأسها حتى أصبح وجه هدى يحتل نظرتها الطويلة حين تساءلت : تفتكرى ياهدى أياميها وأنتى فى عز فرحتك كان ممكن ييجى فى بالك ولو للحظة واحدة أن حبيبك اللى أختارتيه وحلمتى معاه وأتجوزتيه حيموت فى عز شبابه ويسيبك لوحدك مع تلات عيال ويسيب كل ثروته وراس ماله فى أيد شيخ منصر حرامى ، مستحيل كان خيالك حيوصل بيكى للدرجة دى مستحيل كان حد يصدق أن هدى الرقيقة المسالمة اللى كانت بتخاف من الضلمة لما النور يقطع تلاقى نفسها فجأة بتفقد أعصابها وبتضرب وبتموت وكمان تدخل السجن وتعيش تسع سنين من عمرها فى زنزانة . تتابعها هدى وكأنها تعيش لحظة فاصلة بين الحياة والموت .. نظرات ضيقة بحجم عينان منكمشتان هى كل ماأرسلته الى وجه أيات التى أستقرت على شفتيها أبتسامة بطيئة تتخللها حكمة توصلت اليها حديثا : هى دى الدنيا ياهدى .. تفتح دراعتها فى اللحظة اللى هى عايزاها عشان تحضنك وتحسسك بالأمان وأول ماتطمنى لها وتقربى منها تقفل دراعتها وتصدك وتخليكى تحضنى الهوا .. فركت كفيها بعدما أستندت بمرفقيها على ركبتيها وهى لازالت على حكمتها: نصيحتى لكى ياهدى خلى عقلك كبير وأتحملى نورا ووافقى على طلبها وده مش معناه ضعف منك بالعكس ده حيبقى عين العقل ومن مصلحتك يبقى قرارك بأيدك أحسن .

ـ يعنى أيه ياأيات ؟!.

ـ أحسن مايبقى غصب عنك وأنتى أدرى الناس بنورا وعارفة أنها لما تحط حاجة فى دماغها يبقى حتعملها ، خلى الأمور تعدى وأحسبيها بالعقل وفكرى كمان فى صاحبتك زيزيت اللى وقفت جنبك كتير وماتحاوليش تحرجيها أكتر من كده لأنها ببساطة مش حتقدر تخسر نورا . هزت رأسها بعد تنهيدة طويلة : عندك حق . قالتها وضمت ساقيها ورفعتهما فوق الكرسى تحتويهما فى صدرها ، أصبحت مطوية طيأ حين وضعت رأسها على ركبتيها وراحت تتأمل الليل وهى تطرف عينيها دون أن ترفع رأسها ، تقلصت على نفسها كطفلة صغيرة تخاف أن تنال عليها الصفعات .. خوف عجيب ، خواطرها التعيسة تشق لنفسها طريقا فى خلال الخوف . بينما أيات تستطيع فى تلك اللحظة أن تقرأ الخيبة فوق ملامحها حين لمحت على خديها خيطين من الدموع أنسالا بهدوء فى حماية الضوء الخافت .

ـ كفاية عليكى قعدة لوحدك .. قومى ياهدى أدخلى أوضتك وريحى جسمك وأنسى كل حاجة . قالت جملتها بنبرة تعاطف وبأداء لم تختبره من قبل . نهضت هدى ببطء فى محاولة لتهدئة نفسها ، تماسكت فى خطوتها مثل عود صبار يواجه الريح رغم الرعشة التى أحتاجتها حتى بلغت باب غرفتها .. تسمرت أمامه للحظات وهى على وشك التسليم بأن للبداية والنهاية قانونها الذى لايخطىء . دخلت وأغلقت الباب خلفها كأنما تغلق على روحها كل الشرور التى تعبث بها .

اليــوم التالــى .. ظهيرة الجمعــة

ظلت هدى طوال الليل حذرة لاتنام ولاتغفو ولاتغادرها يقظة مجنونة محمومة أستنزفت كل طاقتها وكامل قواها . لم تفطن أن الحالة أسوأ ، وان شيئا أنكسر فلا سبيل إلى ترميمه . لم تفلح الحياة الجديدة والأمان الذى سلمت به كثيرا مدة سجنها ، بل أن حالتها راحت تتدهور شيئا فشيئا حين راح الشك ينشب فيها مخالبه .. هل هى فى حلم لاتصدقه أم أنها تصحوللواقع الجديد من حلم طويل عاشت فيه يلازمها سنوات السجن .. فشلت طوال الليل وحتى طلوع النهار فى البحث لنفسها عن مسمى أو تصنيف داخل البيت قبل أن يصبح قرار حظر العمل ساريا والتى تهيأت معه لأستقبال أيام طويلة متشابهة خالية من التفاصيل .. الأنطواء واليأس ، لايغيبا عن مخيلتها . وقفت بجوار النافذة كالصنم تتابع الشارع الذى لم يعد شارعا .. تتابعه دون تمييز وبلا توقف كمن يبحث عن مخرج أو مأوى .. شردت تخفى ذنوبا سددت فاتورتها بالكامل وذاكرة تصورت أنها طوحت بها فى زنزانتها قبل لحظة الأفراج . " كفاية لحد كده ياماما .. ماتضيعناش " جملة تحذيرية أطلقتها نورا بالأمس فى وجهها .. العبارة فى ذهنها لم تبرحها ، لايمكن أن تسقط فى بؤرة النسيان .

فتحت بسمة الباب لتجد أمها متخشبة أمام النافذة .. وقفت مكانها تتأملها قبل أن تقرر الدخول . أقتربت من خلفها ثم همست : الجميل واقف بيعمل أيه فى الشباك . أضطربت وهى تلتفت أليها : أبدا بأتفرج على الدنيا من فوق . تفحصت وجهها المتهالك بعدما تساوى نومها ويقظتها .. لافارق العينين مفتوحتين فى الحالتين !. بأبتسامة مصطنعة تخفى خلفها أنزعاجا : مافيش فرق كبير ياماما بين الدنيا من فوق ولا من تحت كله محصل بعضه . أنسحبت من النافذة تتبعها أبنتها : فيه فرق طبعا ، على الأقل من فوق بتشوفى كل التفاصيل وبتعرفى أنتى واقفة فين بالظبط . أبتسمت بعينيها : ده أنا فى أملة بقى ومش واخدة بالى .. أمى فيلسوفة . حاولت أن تنتزع منها أبتسامة لكنها لم تجد وجه يصلح لهذا

الفعل . أعطتها هدى ظهرها ومشت حتى وسط الغرفة قبل أن تستدير لها وتواجهها بعيون غائرة متربصة : أمك مش فيلسوفة وبس دى كمان ظالمة ومظلومة وقوية وضعيفة .. وكمان ربة سجون ومجرمة . أربكتها التعريفات المتناقضة ، شعرت بنفسها تحت طائلة الأتهام . فتلعثمت : أيه اللى بتقوليه ده ياماما .

ـ مش هى دى الحقيقة ولاحنضحك على بعض . تراجعت بسمة للوراء حتى جلست على حافة السرير تتابع أمها التى أنكمشت داخل كرسى التسريحة وقد أرخت كفيها فى حجرها تحاول الأحتفاظ بما تبقى لها من دمع تحسبا لأيام صعبة قادمة .. دقيقة أو دقيقتين أصبح خلالها الصمت رفيق ثالث قبل أن تقطعه بسمة : عارفة أنك زعلانة من نورا ويمكن كمان منى أنا ويوسف . لم تمهلها الأستطراد : أنا مش زعلانة من حد .. أنا أرفانة من نفسى ومن حياتى ومن كل حاجة . قالتها دون أن تنظر اليها بينما وضعت بسمة يديها على ركبتيها وأدلت بينهما رأسها لتخفى تأثرا .. غريب أمرها ، أستقبلت حالة أمها بكمية لا بأس بها من التأثر وكأن القرار قد صدر فى غيبتها . رفعت رأسها ببطء قبل أن تتسلل عيناها إلى الجسد المنهك : مش يمكن قعدتك معانا فى البيت تبقى فيها مصلحة ليكى ولينا وأنتى مش واخدة بالك . عقدت يديها وزفرت ولم تعقب . فتابعت بسمة وهى أكثر ثقة بعدما قامت وأتجهت ناحيتها بتمهل : مش يمكن ياماما شغلك فى الأتيليه كان واخدك مننا ومخليكى مش واخدة بالك من حاجات أهم . قالتها ودارت حولها قبل أن تقف خلفها تتحسس كتفيها فى حين بادرتها هدى بسؤال دون أن تلتفت إليها : ده على أساس أنى مقصرة معاكم والأتيليه واخد كل وقتى وأنتو ياعينى محرومين منى ومش بتشوفونى غير أخر الليل ع النوم . سكتت للحظات قبل أن تطلق مرارتها . أردفت : أنا من ساعة ماجيت البيت ومش لاقيه حد أكلمه ولا حد أقعد معاه ولاحد بيسمعنى ولا بأسمع لحد . تساءلت بأشمئزاز وهى تلتفت إليها : تقدرى تقوليلى كام مرة أتغدينا ولا أتعشينا كلنا مع بعض .. كام مرة خرجنا سوا ولا حتى قعدنا وأتكلمنا .. كل حاجة بعملها لوحدى بأكل لوحدى وأشرب لوحدى وأتكلم مع نفسى مالقيتش حد فيكو بيسمعنى ولايسألنى ولو مرة واحدة مالك عاملة أيه فرحانة ولازعلانة عايشة ولاميتة . رمقتها بسمة بفزع وهى تتابع ثورتها التى أزدادت حدة : هو ده حالى يوماتى ودى عيشتى ومافتحتش بؤى ولا أشتكيت .. مافيش غير كلمتين همه بس اللى على لسانى .. حاضر ونعم . تابعت وهى تنهج : أخوكى يكدب على هدير خمس سنين ويحملنى أنا المسئولية ماأعترضتش ولانطقت وشيلت جوايه وسكت وقلت معلش فى الأول والأخر أنا المذنبة . وقفت مكانها متحفزة حين قربت عيناها من وجه أبنتها الذى تقلص وتراجع وكأنها تصد هجوما : زميلك اللى أسمه أمجد واللى سيادتك

مابطلتيش كلام عنه وعن حبه ليكى حتى ده كمان سابك وبعد عنك وبرضه شيلتونى أنا المسئولية وسكت وقلت مافيش مشكلة ومادافعتش عن نفسى ولاقلتلكم أن أختياراتكم أصلا من البداية غلط .. لبسك كده ماينفعش ولازم تتحجبى قلت حاضر حتى الأتيليه الحاجة الوحيدة اللى كان بيحسسنى أنى عايشة زى البنى أدمين بأشتغل وأتكلم وأتحرك بدل ماأنا مدفونة هنا بالحيا حتى ده أستكترتوه على وقررتم بكل أسوة أنى أترزع هنا فى البيت وأتحبس بين أربع حيطان . هدأت لتلتقط أنفاسها قبل أن تنفرج ملامحها وتميل شفتيها بزاوية مائلة عندما أستأنفت ساخرة : وأيه المشكلة يعنى لما أتحبس فى البيت مش حتفرق ما أنا واخدة على السجن والحبسة .. عادى بالنسبة لى . كلمات بدت كدخان يتصاعد من حرائق تشتعل فى صدرها حتى علت نبرتها بعصبية : أنا نفسى أعرف أنتو عايزين منى أيه بالظبط .. عايزين تموتونى ولاطفشونى .. عادى يعنى ده من حقكم مادمت أنا سبب كل المصايب والبلاوى اللى بتنزل على دماغكو . أنهت كلماتها وراحت تتجول بنظراتها فى فراغ الغرفة تصاحبها رعشة حتى سكنت فى مكانها ، تاركة بسمة تتخبطها مشاعر كألتى تنتاب مجرم لحظة مواجهته بأداة الجريمة . خيم عليها صمت وهى تشعر بالذنب ، رمقتها بخجل ثم أغمضت عينيها للحظات بحثا عن جملة تعزية تخفف بها وطأة المرارة المنبعثة من الوجه المتساقط للأرض .. فتحتهما قبل أن تتحسس بيدها شعر أمها التى جلست على حافة السرير : أهدى ياماما شوية واللـه كل حاجة حتتحل وحتبقى أحسن من الأول . نظرت لها بنفور : أعملى معروف مش عايزة أسمع حاجة وسبينى لوحدى شوية . أستعرضت سريعا ملامح أمها المنتفضة التى دفعتها للتخلى عن فكرة التهدئة فأثرت الرحيل بعدما تأملتها بتعاطف : أنا حاسة بيكى ومش حأضايقك أكتر من كده حاسيبك تهدى شوية وبعد كده نكمل كلامنا . أحتفظت هدى بثبات حدقتيها المركزتان للأرض حتى سمعت صوت الباب يوصد .

بقيت فى مكانها لدقائق تواجه صداعا يسرى فى رأسها بطيئا .. أستبعدت دمعتين توقفتا تحت جفنيها قبل أن تتمدد شاخصة للسقف . حاولت أغماض عينيها التى أبت حين جذبها تفكيرها الى عبارة بزغت فجأة على طرف لسانها : كده برضه يازيزيت من أمبارح لغاية دلوقتى ماتتصليش بيه ولاحتى تقوليلى كلمة واحدة . ياخسارة يازمن .رددت عبارتها الأخيرة بنفسية سيئة .

ربع ساعة مرت وهى ساكنة بلا حراك أدركت فيها عمق مأساتها حتى طمأنها قرأن الجمعة الذى أنقذهامن أفكارها البائسة وكأنه نداء أمل أتكأت عليه حتى قامت يسحبها ناحية النافذة لتقف مستسلمة ، تزحف بعينيها خلف الصوت . كانت تلمح مئذنة مسجد القائد ابراهيم من خلال البيوت .. يتعالى فى

الأفاق ويتردد الصوت الرخيم لقارىء القرأن قبل أن يختم تلاوته ويتسلم منه آخر قيادة المنبر لألقاء خطبة الجمعة .. أصغت هدى فى وقفتها الى الصوت البتار وهو يلقى فى الوجوه الحاضرة والغائبة سؤاله الرهيب .. مامدى قربنا أو بعدنا عن جوهر الدين ، وهل نحن حقا بفطرة هذا الجوهر عاملون .. لن نبرح هذا السؤال اليوم حتى نهتك ستره ، نعانق مرارته !.. شرح وأستفاض بعيدا عن جوهر السؤال وخرج من سؤاله لسؤالات قادته لأجابات لاعلاقة لها أصلا بالدين الى أن يبح صوته ويتعب من خطبة الرضى والسخط والفرح والحزن والتأييد والمعارضة قبل أن يهتف بدعائة الأخير أن تهدأ البلد التى ركبها عفريت الفوضى وأن يوفق اللـه ولاة أمورنا أو ولاة أمورهم !!.

أنتهت صلاه الجمعه كما أنتهت صلاه العصر والمغرب والعشاء وهى حبيسة غرفتها تراقب كعالم كونيات عملية التسليم والتسلم بين أخر النهار وأول الليل . ساعات قضتها بين الجلوس والرقود حتى تيبست عضلاتها قبل ان تدخل عليها نورا مساءا تستطلع نتيجة فعلتها ، أدارت معها حديثا هادئا لايخلومن تلميحات مبطنة بعد دهانها بكلمات تنادى بحريتها الشخصية وحقها الكامل فى تقرير مصيرها كيفما تشاء مصحوبة مقدما بموافقة ضمنية منها ومن أخوتها تجاه أى رغبةأو أختيار عدا الأقتراب أو التفكير من موضوع الأتيليه مرة أخرى .. تحذير رادع منعت به نورا خط الرجعةأو ما تبقى لأمها من أمل ، لتدرك بعدها هدى انها امام خيار وحيد لا يعادله خيار سوى ارجاع الزمن إلى عصر ما قبل السجن .

انقضى اليوم الأول قبل ان تستقر الأمور داخل نفسية هدى التى تقبلت العزاء ليلا على لسان خيرى من خلال مكالمة مبكرة قبل موعدها الأصلى بساعة ، لم تكن كلماته لتريحها فحسب أنما أستطاع أن يشرح ويحلل الموقف كاملا بعين مراقب وبشكل موضوعى ومباشر فكان بحق الملاذ الأخيرلها وقت الشدة وساعة اليأس.

سكت خيرى سكتة طويلة حتى ظنت هدى أن "موبينيل " قطعت عنه الخدمة فجأة بعد ما حكت له عن يومها العاصف الذى أنتهى بأحالتها للتقاعد على يد " نورا" .. كان سكوته شرودا أو تأملا قبل أن يعود بغضبة مكتومة : مش حأعيدلك نفس الكلام تانى ولا حأقولك أنك السبب فى كل اللى بيحصل كده .. ضعفك وخوفك من بنتك واللى مش قادر أفهمه ولا أستوعبه كانت نتيجته اللى أنتى فيه دلوقتى ، أديتيها الفرصة أنها تتحكم فيكى وتفرض رأيها عليكى ورهنتى حياتك كلها على كلمة منها . أستقبلت حنقه بنبرة منهكة : أعمل معروف أنا مش مستحملةأى كلمة ولا مستنية نصايح أنا اللى فيى مكفينى .

ـ يعز على اللى أنتى فيه ده بس للأسف اللى بينك وبين بنتك ما أقدرش أتدخل فيه .. المشكلة وحلها فى أيدك انتى لوحدك .. إلا إذا سيادتك أتكرمتى ونورتيلى الأشارة الخضرا وحتلاقينى فى لحظه واقف جنبك وأخلصك من كل اللى أنتى فيه ده . ضحكة متعبة على وشك الأحتضار سبقت ردها : تانى ياخيرى حتقولى نتجوز .. يعنى أنت مش شايف الظروف المكعبلة اللى أنا فيها دى .

ـ أولا أنتى مش فى ظروف مكعبلة ولاحاجة أنتى فى ظروف مفتعلة .

ـ مفتعلة .. يعنى أنا مثلا بأدور على المشاكل وبأجيبها لغاية عندى .

ـ ماتضحكيش على نفسك أنتى عارفة أكتر منى أن ولادك مش محتاجينك وحاسين أن وجودك معاهم بقى عبء عليهم وعشان أكون صريح معاكى الحل الوحيد اللى قدامك .. تهيأت بعينيها التى تتأرجح كبندول الساعة لسماع حله العبقرى الذى أقترحه بحماسة منقطعة النظير : أنسى اللى فات كله وأبداى حياة جديدة لانج مع البنى أدم اللى بيزن على دماغك ليلاتى فى التليفون واللى بينك وبينه يادوب حيطه واحدة وتكملى معاه بقية حياتك فى سلام من غير مشاكل ولا وجع دماغ ومتهيألى أن ده حيبقى حل مريح عشان تقدرى تعيشى حياتك بهدوء وده حل حيرضى كل الأطراف وكمان ولادك حيبقوا قدام عينيكى وتقريبا حتبقى معاهم لحظة بلحظة مش حتتكلفى غير مشوار صغير مش حيزيد عن مترين من باب شقتى لباب شقتكم . تخللت كلماته جسدها الذى صار كمبنى قائم على أرض لايملكها فأصبح هدفا لكل مخالفة وكل أنتقاد بالرغم من أعتراف الجميع بأنه كيان موجود ! .

ـ ده مش حل ياخيرى .. ده أسمه هروب ومش من طبعى أهرب من مسئوليتى مهما كان التمن ، دول ولادى وأنا قادرة أرجعهم لحضنى تانى .. أنا مش غبية ولا عايشة فى البيت ده مش فاهمة أيه اللى بيحصل حواليه ، .. فاهمة كويس أوى نورا عايزة أيه وليه مش قابلة وجودى وليه بتضايقنى وبتحاصرنى ..كل ده أنا فهماه كويس ومتأكدة أن ربنا حيقف معايا وحيقدرنى أحل كل المشاكل دى . كان يصله صوتها مثقلا بالحسرة قبل أن يقاطعها مستغربا : لما أنتى فاهمة كل حاجة كده ومتأكدة أن الحل فى أيدك تقدرى تفهمينى ليه حزينة كده ومقهورة ومستسلمة .

ـ أنا أنسانة وأم ياخيرى وللأسف مشكلتى مش مع حد غريب دول ولادى . تلقت منه تنهيدة ونبرة حائرة : واللـه دى حكاية معقدة ومشكلة غريبة . قالها وصمت .

ـ هى أيه اللى معقدة وغريبة ؟! .

ـ الوضع اللى أنتى فيه ياهدى .. المشاكل دايما بين الناس وبعضها أو حتى اللى بتبقى جوه العيلة الواحدة مابتخرجش أبداعن أختلاف فى الرأى أو فى وجهات النظر أو أمور مادية أو حوالين فعل ورد فعل أيا كان شكل الفعل ده خناقة ولا شتيمة ولا أى حاجة من الأمور دى ، أما اللى بيحصل بينك وبين بنتك هو ده اللى أمره غريب وعمرى ماشفته ولاسمعت عنه . بترقب : اللى هو أيه ياخيرى ؟ سألت وأنتظرت منه تشخيصا .

ـ بنت كارهة وجود أمها وبتحرض أخواتها ضدها وياريت فى سبب واحد منطقى عشان نقدر نلاقيلها عذر ونقول فعلا هى عندها حق .. لا أنتى ياهدى ست لكى تصرفات لاسمح اللـه وحشة بتسيىء لهم ولا أنتى بتعامليهم بشدة وأسوة وكنت ساعتها حأقول أن ده رد فعل طبيعى منهم ولا حتى أنتى ست مريضة لاقدر اللـه محتاجة رعاية وعايزة اللى يخدمك وهمه مش قادرين يتحملوكى وقرروا يخلصوا منك . كل ده مش موجود أصلا . أستعادت هدى حضورها على السماعة حين طرحت ملاحظة : أنت نسيت أنى كنت مسجونة ويمكن يكون هو ده السبب .

ـ قصدك يعنى بيستعروا منك .. لاياهدى مش ده السبب الحقيقى ، أنتى عارفة طبعا علاقة شريف بنورايعنى بالبلدى كده زيتنا فى دقيقنا ومش فارق معانا حكاية السجن دى أصلا عشان أحنا فاهمين أصل الحكاية يعنى السبب ده مايفرقش مع نورا أما يوسف وبسمة ومهما كان الضرر اللى حصلهم بسببك مش كارثة كبيرة أوى زى مأأنتى متصورة همه من جواهم مقتنعين أن العيب فيهم همه وفى أختياراتهم .. المشكلة كلها ياهدى مش فيهم المشكلة فى نورا اللى بتوظف كل مصيبة تحصلهم وتشيلك أنتى المسئولية وتشحنهم ضدك وتقريبا هى نجحت فى تخويفهم منك وخلتهم قلقانين ومرعوبين على مستقبلهم وحسستهم أن وجودك خطر على وجودهم ، بأختصار ياهدى الحرب اللى بنتك عملاها دى كلها هدفها حاجة واحدة .. مين فيكو يلعب دور الأم ! .

زارتها رعشة وكأنها الحقيقة القاتلة .. أصاب خيرى مكمن الداء . زحفت عصبية على شفتيها : أنا أمهم ياخيرى ونورا أختهم وبس ودورها أنتهى أول ما خرجت من السجن .. همه مسئوليتى لوحدى قدام ربنا وقدام الناس يعنى من حقى أخاف عليهم وأفرح لفرحهم وأشاركهم فى كل كبيرة وصغيرة .. دول قدرى وحياتى وماليش حد غيرهم فى الدنيا والحكاية كلها شوية وقت ونورا حتفهم أنى أمها مش ضرتها ! كادت أنفاسها تصم أذانه .. لانت نبرته فى محاولة لتهدأتها : كلامك مظبوط و ع العموم أنا جنبك بأى وضع أنتى عايزاه .

ـ كتر خيرك ياخيرى وأنا لى طلب عندك .

ـ قولى ياهدى . قالها بلهفة .

ـ ياريت تنصح شريف يقرب أكترمن نورا اليومين دول ويحاول يحتويها ويقلل الفجوة اللى بقت بينهم .. أكيد ده حيساعدها ويساعدنى .

أنتهت المكالمة وأصرارها على أستعادة كيانها كان شديدا وكأنها ترفض التخلى عن زمن تمدد فى داخلها .

فى صباح اليوم التالى تلقت النهار متسللا من فتحات الشيش ليرسم سطورا على أرضية الغرفة . دعكت جفنيها بحثا عن رؤية أفضل مولية وجهها ناحية النافذة . لم يسعفها جسدها المنهك فى النهوض السريع فقامت على مرحلتين بدأتها بالجلوس لأستعادة وعيها وهى تعبث بخصلات شعرها قبل أن تغوص فيه بأناملها حتى جذوره تدلكه بعصبية وكأنه يعانى من حالة هياج حتى وقف على أطرافه ثائرا فبدأ وجهها كأمرأة كهف فى العصر المطير .

ثم قامت تدهس خطوط النهار وهى لاتدرى لما قامت أصلا .. أضاءت نجفة غرفتها وأتجهت للمرأة بعينين ترمشان كخفاش لايرى فى الضوء . بينما الجو خارج غرفتها كان مختلفا بعدما أنهى يوسف مراسم حلاقة الذقن وأرتداء ملابسه بعد ساعة من التردد والحيرة أمام دولابه كى ينتقى طقم مناسب ، حتى أقتنع أخيرا ببنطلون كاكى وقميص أسود وشوز بيج فى محاولة منه لأظهار قدر من الوسامة نجح فى أستعادة جزء كبير منها . شعر بطاقته تتجدد حين تداعت فى رأسه التصورات وهو يتهيأ للخروج ليبدأ أول يوم عمل فى مكتب المهندس ناجى منذ خروجه الأخير غاضبا .. رحل بخياله للحظات يتوقع أو ربما يتمنى حصولها حين تراه هدير لحظة دخوله عليها المكتب فتنتفض فى مكانها واقفة تستقبله بوجه تنوء ملامحه بالضعف متخلية عن ثباتها وكبريائها خافضة الرأس تكسوها الهزيمة والأستسلام قبل أن تهرول نحوه وتنحنى أمامه تقر وتعترف بالخطأ الفادح من خلال موجة بكاء مصحوبة بكلمات أستجداء للصفح والمغفرة وعفى اللـه عما سلف .. شعر بنشوة ازاء هذا التصور فسحب نفسا قاسيا ملأ به صدره قبل أن تستوقفه نورا وهو فى طريقه من الصالة إلى الباب ، كان عليه أن يستمع لبعض النصائح قبل خروجه حين ألحت عليه أن يثبت ويتماسك ويغسل رأسه من قصة هدير وأن يتفرغ فقط لأثبات وجوده فى المكتب كمهندس ناجح وليس كحبيب يستعيد عرشه .

أصطحبته حتى باب الشقة تودعه بجملة أخيرة تحذيرية : لما ترجع عايزة أسمع أنك بقيت راجل فى شغلك وفى تصرفاتك ولازم تتحمل أى حاجة مهما كانت .. سامعنى يايوسف مهما كانت .. شغلك أولا وأخيرا .

ـ حاضر يانورا ماتقلقيش أنا خلاص أتعلمت الدرس . قالها وشعورا خفيا كان يراوده أن تلك المرة مختلفة عن سابقتها . أغلق باب الشقة وفى حوزته دعوة تلقاها من أخته : ربنا معاك ويوفقك ياحبيبى . أتجهت بعدها نورا لغرفتها تستعد هى الأخرى للخروج لتبدأ يوما جديدا فى الأتيليه ، إلا أنها توقفت لثوان تنظر للباب الموصود التنتتحصن خلفه أمها فتحركت ناحيته ببطء وأمام الباب المسكوك ترددت قبل أن تتقهقر للوراء متراجعة عن قرار الدخول تجنبا لمواجهة صباحية لاتحمد عقباها وسيكون لها أثرا سيئا على بقية يومها .

نصف ساعة فى الطريق حتى وصل يوسف الى المكتب ، ليطالع وجه المهندسة " ايمان " الخمرى الملفوف بحجاب مودرن يلف رأسها بثلاث طبقات من ألوان مختلفة " بندانة " وتيشيرت رمادى حتى الفخذين يستضيف تحته بنطلون أسود ضيق يستقر داخله جسد لم يستثمر جيدا !! سلطت عينيها بتركيز على شاشة الكمبيوتر قبل أن تفارقها حين بادر يوسف : صباح الخير ياباشمهندسة

ـ صباح الخير يايوسف .. حمد اللـه على السلامة . قالتها ونظرت له بأبتسامة بعدما سحبت ملف على يسارها .. مدته : خد الرسومات دى أتفرج عليها وخد فكرة عشان من بكره حتنزل الموقع مع زمايلك . قلبه بين يديه ثم ألقى عليه نظرة سريعة : ده كومباوند .

ـ أيوه .. أرض كبيرة فى المعمورة والتفاصيل كلها عندك .

ـ ماشى ياباشمهندسة . رسم أبتسامة مضطربة ثم أعطاها ظهره متجها للداخل . تسارع نبضه حين سار فى الممر المؤدى لمكتبه ، لم يعد لديه أعصاب حين وقف أمام الباب ، أحتار فى أختيار شكل التعبير الذى سيرسمه على وجهه لحظة دخوله على هدير .. دخل بعدما وقع أختياره على حاجب مرفوع ونظرات حادة وشفتين مطبقتين فى حزم .. لحظات قليلة وفر عنه التعبير المرسوم فنزل حاجبه وأنفرجت نظراته وفغرفاه حين صار وجهالوجه أمام مكتب هدير الخالى .. مشى بعينيه فى المكان الذى بدا باردامهجورا .. ظل على وقفته يتفحص كرسيها الفارغ .. لم يتخيل عدم وجودها . أستكان لصدمته وأتجه لمكتبه . جلس واجما وعينيه معلقتان بمكتبها .. أجتهد بتفكيره للوصول إلى سبب منطقى لعدم

وجودها ، رجح أن تكون لازالت فى الطريق أو على أقصى تقدير أن يكون اليوم غيابا عارضا . فتح الملف فى محاولة لشغل نفسه أنتظارا لحدث متوقع بين لحظة وأخرى .. بيد مهزوزة ونظرات غير مستقرة تصفح أول ورقة فى " الكومباوند " بذهن مشوش وآذان تلتقط أى همسة فى الخارج . أنتصف النهار وهو لايزال ممسكا بالملف ، لم تتغير نفسيته المحبطة كما لم تتغير الصفحة التى بين يديه . كان طيفها حاضرا بقوة ، أستعاد كل الذكريات وتقمصت ملامحه كل المواقف التى جمعتهما سويا ، تارة بملامح منكسرة وقشعريرة تسرى فوق جلده حين تمر أمام عينيه لقطات الخصام ولحظة المواجهة وساعة الفراق ، وتارة بعيون ضاحكة حين أستعادت ذاكرته مشهدا مسائيا عقب تناولهما وجبة " كنتاكى " فى ماكدونالد بفرعه الكائن بطريق الكورنيش بعدها أستقلا السيارة فى طريقهما لمحطة الرمل كفعل يومى معتاد تؤديه هدير لتوصيله حتى باب البيت ، إلا أنهما أتحشرا وسط موكب من سيارات الميكروباص تؤدى واجبا فى زفة عروسين ، لم تنجح محاولاتها فى الأفلات من الحصار المضروب حولها فصارت جزءا أصيلا من الزفة يومها داهمت يوسف نوبة ضحك شديدة دمعت لها عينيه حين شاركت هدير بحماسة فى ثورة الضحك بعدما فقدت الأمل فى النجاة من براثن الموكب فأطلقت زغرودة ذواتى كتحية مجاملة للعروسين قبل أن يتم فك أسرهما أمام مدخل مسرح " الأنفوشى". تسكع يوسف بنظراته فى المكان ينتابه الملل قبل أن يصل لمسامعه صوت أقدام حريمى تنقر على أرضية الممر بكعب " 3 سم " تقترب بألحاح من المكتب ، أرتبك وأحمر وجهه ودفع بعينيه لداخل الملف متمليا فى صفحته المفتوحة من طلعة النهار ، تقمص دور مهندس بارع حين سمع طرقتين رقيقتين على الباب الذى أنفتح على صوت المهندسة أيمان : أيه الأخبار ياباشمهندس طمنى . بصوت محبط ونظرة يائسة : تمام . أقتربت منه بحذر حتى أصبحت فى مواجهته لايفصلها عنه سوى مكتبه : مش شايفة أنه تمام خالص . نظر لها بأبتسامة : ليه ياباشمهندسة .. بالعكس ده المهندس ناجى مش سايب تفصيلة إلا وموضحها . أستندت بكفيا على سطح المكتب وقربت رأسها حتى صار وجهه فى مرمى عينيها : أنت متأكد يايوسف أنك شفت الرسومات وقريت التفاصيل . تأملها متخبطا حين أستشعر أنه فى لحظة أختبار فتراجع عن جملته : شفت ورقتين بس . تقلصت ملامحها وهى تلتفت ناحية كرسى يقع وحيدا فى الركن قبل أن تتجه إليه وتسحبه خلفها كالذبيحة .. جلست أمامه فى الجهة المقابلة من مكتبه : أسمعنى يايوسف كويس . أستعد لها بخوف متوقعا نهاية درامية على يديها . تابعت : لو أنت جديد هنا فى المكتب كنت حاقول أنك مش بتاع شغل وجاى تدلع لكن عشان أنا متأكدة أنك أنت يوسف اللى أستلمته هنا بأيدى من تلات سنين وأتدرب قدام عينى وعرفته عن قرب

وشفت مجهوده وألتزامه كان حيبقى لى تصرف تانى .. عشان كده أسمحلى أتكلم معاك بصراحة .. أنت لما جيت هنا مع هدير كنت جاى بتوصية من باباها وأنت فاهم طبعا نظام المجاملات ، لكن اللى أنت ماتعرفهوش أنى أنا أول واحدة هنا زكيتك عن المهندس ناجى بعدما أختبرتك كذا مرة وده اللى خلانى أراهن عليك وقلت بكل ثقة أنك حتبقى مهندس شاطر بس لو خدت فرصتك . طالع وجهها بنظرة مهزومة بعدما شعر بأنه قد خذلها ، غير أنها فاجأته بأبتسامة رطبت من سخونة مخاوفه حين صرحت : متهيألى أنت عارف أنى مطلقة . صدمه السؤال ثم هز رأسه بالأيجاب . فتابعته : لكن طبعا ماتعرفش التفاصيل . بنبرة خجولة : الحقيقة لأ. بملامح صارمة أفزعته : والمفروض لا أنت ولا غيرك يعرف لأنه ببساطة دى تفاصيل تخصنى أنا لوحدى وماتخصش أى حد تانى ، لكن ممكن فى ظروف معينة وفى وقت مناسب بيبقى مسموح فيها بالتدخل فى تفاصيل حياتك وكمان تسمع أراء أيا كانت بقى صح ولا غلط مش مشكلة والكلام ده يايوسف مش بيحصل إلا لما يكون اللى قدامك محطم ومش قادر يتجاوز أزمته لوحده وبقى مضر لنفسه وللحواليه وهنا بس بيحصل التدخل وغالبا بتكون نتيجته خسارة من كل النواحى وأصعبها أنك بتتعرى قدام الناس وبتكشف ضعفك وفشلك وخيبتك . سكتت وهى تتابع عينيه العميقتين ، سحبت نفسا طويلا وكأنها تبتلع ذكريات أليمة قبل أن تعود بجدية زادتها وقارا : والحمد للـه يايوسف بأشكر ربنا أنى عديت من أزمتى من غير خسايروتقريبا ماحدش حس بضعفى وصورتى مأتهزتش وأخدت عهد على نفسى أنى لازم أنجح فى شغلى عشان أثبت وجودى وأعوض فشلى . كأنما تنقب عن شيىء ما بعدما أستبدلت نبرتها وبدت أكثر أصرارا حين طرحت فكرة : أنت كمان محتاج تقلدنى يايوسف وتبدأ من جديد .. وعشان كلامى يبقى له مصداقية عندك حأقولك حكايتى . أوجزت له قصة زواجها وطلاقها فى خمس دقائق ثم أستفاضت فى التوابع وكيفية عبورها لأزمتها مرورا بمرحلة التأهيل وأستعادة الثقة حتى أصبحت رقم واحد فى مكتب المهندس ناجى .. أقتربت منه حين أستند بكيعانه على المكتب مدققا فى وجهها الخمرى وهو بالنسبة له لون جديد لم يعتاده من قبل . فبادرت حين لمحت فى عينيه استغرابا : طبعا أنت بتسأل نفسك أنا ليه حكيتلك عن أزمتى مع أنى لسة قايلة مش لازم أى حد يعرف خصوصياتى . تحصلت منه على أبتسامة مندهشة دون أن ينطق ، فأستمرت تنظر له ثم أفصحت : فيه فرق كبير أوى لما تحكى مأساتك بضعف عشان تكسب تعاطف وبين أنك عايز توصل رسالة لشخص بعينه تقوله فيها أن أى مصيبة تتعرض لها ممكن تهزمها الأرادة. صوتها به رنة شجن تثير أحزانه .. فأتخذ قرارا مفاجئا أن يتعرى أمامها : مش حأخبى عليكى .. أنا تعبان ومتلخبط ومش عارف ألاقى نفسى . فاجأته حين كشفت له عن علمها بعلاقته المنتهية بهدير .

أرتعدت ملامحه حين راودته شكوك قوية بأنها تعرف أكثر من اللازم .. هل أصبح سره متداولا بمكتب المهندس ناجى . أختبر معلوماتها : يعنى أنتى عارفة السبب ؟! .

ـ الحكاية مش محتاجة نباهة لأن عمرها ماحتخرج عن بنت غنية بتحب شاب على أده ومن غير شرح ولا تطويل هيه وراها أهل ومش أى أهل ده الحاج أحمد الشهاوى بجلالة قدره وأكيد طبعا هو حاطط مقاييس معينة وراسم صورة لعريس بنته الوحيدة وده حقه ومش عيب لكن العيب لما حضرتك تتوهم وتصدق نفسك وتفتكر أن مادام هدير بتحبك تبقى الدنيا سهلة وبمبى وكل حاجة ممكنة وأنها تقدر بكل بساطة تغير الواقع والمعادلة وخيال سيادتك الرومانسى صورلك بكل سذاجة أن هدير ممكن تقف قصاد أهلها وتقولهم بعلو صوتها عايزة من ده ياحاموت نفسى . قالت عبارتها الأخيرة بنبرة أستنكار ثم أختلست من وجهه نظرة وهى تتابع : أسمحلى يعنى لو هو ده تفكيرك يبقى عبط منك .

ـ ليه . صرخة أنحبست فى حلقه فأستبدلها : هو فعلا عبط منى . أرتاحت ملامحها لأعترافه . مالت بذرعها .. مدت يدها وضمت الملف المفتوح ورفعته لعينيه : خده معاك البيت وشوف الرسومات على مهلك ولو فى أى ملاحظة أحب أسمعها منك بكره الصبح عشان رأيك يهمنى وأنا متأكدة أنك حتهتم بكل التفاصيل خصوصا لما تعرف أن الرسومات دى كلها من تصميمى أنا .. عض شفته حين عبث الحرج بملامحه فأبتسمت بعدما أزاحت الكرسى وقامت من مكانها لتعلن : وع العموم من بكرة أنا حأبقى مسئولة عنك .. معلش بقى أستحملنى واللى أكبرمنك بيوم . قام هو الأخر يحمل ضحكة : الحكاية كلها تلات أربع سنين ، ثم بادلها نظرة طويلة وحين أنتهى من قراءة وجهها أدرك بأن وجوده فى المكتب سيكون تحت حمايتها .. أبتسامة هادئة لخصت بها موقفها قبل أن تتجه ناحية الباب .. فتعقبها بسؤال سريع باغتها به : هو أنا حأروح الموقع الجديد لوحدى . سألها وهو ينظر لمكتب هدير . تراجعت شفتيها وهى على عتبة الباب : هدير خلاص مشت من المكتب يايوسف شركة أبوها أولى بيها . غامت الدنيا من حوله ، مرت لحظات شعر فيها أن العالم ينسحب من أمامه .. تخلى عنه الأتزان لثوان فمال للأمام قليلا محاولا أحتواء المفاجأة قبل أن تبادره وهى تمسك مقبض الباب : عايز تقول حاجة يايوسف . قالت جملتها كالقاتل الذى يخفى بصماته بعد أداء مهمته . برأس مهتزوأعصاب منهارة وسط فوضى تموج داخله : لأ أبدا . بدا صوته ضعيفا كأنه أستسلم لنهايته فجأة . فتحت الباب وخرجت ، جلس مرتطما على كرسيه .. داست بكلماتها على أخر أمل كان يتمسك به .. شعر بخدر فى قدميه .. أهتز كل مافيه عدا عينيه المتحجرتان على مكتب الراحلة .

فى تلك الأثناء أستعدت أيات بصحبة الرفيقة نعمة لزيارة صباحية لغرفة هدى التى أنتفضت فى وقفتها بجانب النافذة على أثر طرقتين مصدرها أصابع أيات التى دخلت عليها ملفوفة باليونيفورم المعتاد " الروب الزهرى " ومن خلفها تتأرجح نعمة .

ـ صباح الخير ياست هدى

ـ صباح الخير عليكو . قالتها حين تركت الخدمة بجوار النافذة وكأنها مكلفة بحراستها . فتحت أيات الحديث بسؤال لهدى حين دققت فى عينيها وهى فى طريقها ناحية كرسى قابع بجوار الدولاب : مانمتيش كويس برضه .

ـ نمت الحمد للـه . بينما أستهلت نعمة كلامها بعدما تربعت على الأرض : معلش أزمة وتعدى . بدت هدى قليلة الكلام شاردة أغلب الوقت فى حين لم تكن أيات سوى قنبلة كلامية موقوتة أنفجرت فى الغرفة بمجرد جلوسها مخلفة فى المكان حكايات وقصص ترويها بشغف لايتوقف ، مواضيع متفرقة وغير منتظمة راعت فيها استدعاء القديم بنبرة " قول للزمان أرجع يازمان " حين أستدعت سجل الذكريات من رأسها على أسطوانة قديمة قدم عمرها من أيام الجد ، وقت أن كان الباشا الكبير والذى يشاع أنه كان مهيبا ، لاتزال تذكر رغم بعد السنين ومشقة التذكر ، مجالس الأسرة حول " فتة " العيد وضحيتها ، أو فى ليالى السمر حين كان العم الكبير يتصدر مائدة طويلة يجلس رجال الأسرة حولها بترتيب تنازلى حتى أصغرهم ، وكان أبن خالة لها من نفس سنها أو يزيد مقررا لها أن تكون من نصيبه ، ألا أنه فيما بعد أحب راقصة من طنطا وهرب معها الى لبنان منفيا بأمر علوى من قادة الأسرة بعيدا عن موطنه ويقال وقتها ان حبيبته أعلنت التوبة على يديه وفتحت ناديا للقمار فى بيروت !.

فى ذلك الزمان .. تجلس النسوة فى حضرة العمة الكبرى بغطاء رأسها التى أعتمرته بعد زيارة الحجاز وهى كبرى بنات " السبروتى " الكبير ، وقد ورثت امامة نساء العائلة بعد أمها التى توفيت فجأة حين كانت تدير جلسة ثرثرة حول مايدور خلف الجدران والسواتر فى زمن كانت تساق الأنثى الى نصيبها ، تقترن برجل تسمع عنه ولاتراه حتى يغلق عليها بابه وينفرد بها . ثم وثبت دون توقف الى فصل الستينات ومأدراك ما الستينات .. أستدعاء الذكريات بالنسبة لها متعة لم تحاول يوما التبرأ منها ، تغرق فى التفاصيل حتى يرضخ لها الزمن طائعا حاضرا أمام عينيها كأنها تراه يمر أمامها ، تعلو بأنفها تتشمم : هوا الستينات ياهدى كان هوا له ريحة .. لما تقربى من البحر تشمى اليود الطازة وفى وسط البلد كانت ريحة الفل والريحان طالعة من الجناين تهفهف لما كانت أسكندرية عروسة بجد ولو دخلتى

لجوه ناحية الأحياء الشعبية فى القبارى والورديان وكوم الدكة تشمى ريحة الأكل الجميلة اللى أنقرضت دلوقتى الكشك والكمونية والفولية والبصارة ، حتى الشمس كانت فى الزمن ده غير شمس دلوقتى لابتحرق ولابتلسع كانت بتدفى بس . أنهت حقبة الستينيات بقفزة الى الجديد مصحوبة بكلمات غضب وسخط ، لايمنعها من التوقف سوى بعض الملاحظات التى تبديها نعمة من حين لأخر لتصليح أسماء بعض الأشخاص أو الدخول فى جدل لاينتهى حول التواريخ والأماكن بينما سلمت هدى أمرها الى اللـه تتابعهما بمزاج شارد تستعيده كل دقيقتين على صوت أيات حين تختم تفصيلة فى ذكرى قديمة : أيام جميلة ماتتعوضش . مصائب قوم عند قوم .. وجدت أيات وتابعتها ضالتهما فى هدى التى أبتلعت وجودهما كالدواء المر وأصبح حصولها على الهدوء أمرا مستحيلا فى ظل صخب كلمات لاتتوقف . قاومت لساعة كاملة حتى غطى الصداع رأسها وفاض . لم يعد مكان أمن فى جسدها الا وضربه أعصار القصص والذكريات .

رن جرس الباب . فأشارت أيات بأستغراب لنعمة : مين حيجيلنا الوقت ده .. قومى شوفى يانعمة . قامت تحمل نفسها أو ماتبقى لها من حطام رجليها لتبدأ رحلة ثقيله بأتجاه الباب وهى تئن مع كل خطوة : آه يانى ياما . لحظات ونهضت هدى .. سارت حتى عتبة الغرفة فى محاولة للتعرف على هوية الفاعل لحظة فتح نعمة للباب .

ـ أهلا ياست سيست .

ـ صباح الخير يانعمة . قالتها بحيوية كعادتها قبل أن تدلف للداخل ، بينما أخترق صوتها النشط المجال الجوى للصالة متجها للعمق مقتحما كل خلايا هدى كجرعة منشطة . راقبتها أيات بأندهاش متأملة الوجه الذى تورد فجأة وحالة التوتر التى أجتاحتها حين مسحت وجهها بكفيها لتنشيط دورة دموية صارت بلا عمل منذ يومين ، ضبطت جلبابها وحبست شعرها فى حزمة وتهيأت للخروج عندما تسرب لها صوت زيزيت القادم من الأنتريه :هدى نايمة ولا صاحية ؟ أضاعت الأخيرة على نعمة فرصة ذهبية للرد والتطويل حين خرجت من غرفتها تحت رقابة أيات المندهشة .. تصنعت خطوة قوية حين ظهر لها وجه زيزيت السابح فى كل الألوان : صاحية من بدرى ياحبيبتى . ثم أقتحمتها فى عناق حار مشحونا بتوقعات متفاءلة ، فى حين أفرغت زيزيت شحنة عاطفية مؤثرة فى بداية الجلسة كمقدمة واجبة بدءا من : واللـه الأتيليه ضلمة من غيرك وحاسة أنى وحيدة وكأنى فيه حاجة رايحة منى . نهاية إلى : وأن شاء اللـه ربنا يصلح الأحوال . قالتها دون التطرق إلى كيفية أصلاحها . أستغرق الأمر منهما بضع

دقائق حتى انحسرت الكلمات العائمة قبل أن تختلس زيزيت نظرة من ملامح هدى : أنتى زعلانة منى. ترددت فى الأجابة : ليه بتقولى كده .

ـ أنا مش عبيطة عنك ياهدى .. شكلك باين . أدلت برأسها مكتفية بالصمت . فتابعت : أنتى عارفة معزتك عندى .. أنتى أختى وصاحبتى وجمايلك على ماتتنسيش . سكتت ثم عاودت كلامها بحرج : ونورا كمان لها مكان كبير فى قلبى دى مش مجرد واحدة شغالة معايا دى بنتى .. أنا عارفة أنها ساعات كتير بتأفش وتركب دماغها بس ده مايمنعش أنها طيبة وبتحبك . نظرت لها وكأنها تستطلع نواياها : دى بنتى يازيزيت وأنا فاهمها كويس .

ـ مش ده قصدى ياهدى أنا كل اللى عايزاه ماتبقاش فيه مشاكل بينك وبينها والأمور تمشى بينكو بهدوء وتفاهم . صاغت كلماتها بعناية وحذر ، كأنها وسيط نزيه يتطهر من أية أنحيازات .

ـ أنا ماعملتش حاجة أصلا يازيزيت وأنتى عارفة كده كويس ، مشكلة نورا كلها فى تفكيرها وأنا لغاية دلوقتى مش فاهمة هى عايزة أيه بالظبط ؟!. تمردت على خوفها حين سجلت موقفا : مش يمكن عايزة مصلحتك ولاتكون شايفة حاجة أنا وأنتى مش شايفنها .

ـ حاجة أيه أن شاء اللـه . قالتها بأستنكار .

ـ أى حاجة ياهدى .. ماتقعدوا مع بعض وأتناقشو وصفو سوء التفاهم ده وأنا عن نفسى ممكن أتدخل بينكو وأقرب المسافات . لم يعجبها ذلك الطرح : نتناقش فى أيه ونحل أيه وأنا شايفة أن مافيش مشكلة أصلا .

ـ فى مشكلة ياهدى . رددتها بملامح متخبطة بينما أستشعرت الأخيرة أشارات غامضة ورسائل ملغزة حين لخصت لها زيزيت أحداث الأمس ومادار بينها وبين نورا من حوارات فى شكل جمل ملغمة تضع علامات استفهام أقرب منها للرد : بنتك شايفة أنك مش لازم تشغلى بالك بحكاية الأتيليه ولا بمشاكل البيت .. هيه بتقول أن همه بقالهم سنين بيعتمدوا على نفسهم ومش محتاجين حد ينظم لهم حياتهم . ختمت جملتها بعبارة : ده طبعا من وجهة نظرها . قالتها وكأنها تتبرأ من المعنى . بينما غرقت هدى فى ذهولها حين تراجع لحم خديها عن أبتسامة ساخرة : والمطلوب منى أشغل بالى بأيه ، بالمكياج مثلا ولا أروح أجرى فى نادى ولا أعمل أيه بالظبط ؟ .

ـ لأ طبعا .. فيه حاجات كتيرة تستاهل ، عيشى حياتك وأتمتعى بوقتك وعوضى السنين اللى فاتت وأنا لو منك مأأضيعش فرصة خيرى من أيدى أبدا . تأملتها للحظات ثم عادت تتصنع حماسا : أتجوزيه ياهدى وريحى نفسك من الأرف اللى أنت فيه ده ، هو بيحبك وأنتى بتحبيه .

ـ بس أنا بحب ولادى وبيتى أكتر ومش حأتنازل عنهم وحأفضل أمهم مهما حصل . كانت فى أشد الأحتياج لهذا الشعور كى تتخلص من ضعفها . تلعثمت زيزيت حين طرحت سؤالها وهى تشعر بأن وضعها ملتبس يثير الجدل وتحيط به شكوك هدى : والعند ده حيوصلك لحد فين ياهدى ؟! .

ـ ده مش عند .. ده حقى ودى حياتى وأنا حرة فيها أختارها زى مأأنا عايزة بالطريقة اللى أنا شايفاها . أعلنت موقفها بتشدد أصاب صديقتها بأرتباك ملحوظ رمشت له عيناها بفزع . بدا أن هدى لاتعرف ماينتظرها ، ربما لم تكن قطعت من قبل المسافة التى تفصل بين الخضوع والتمرد .

ـ أنتى ليه عصبية كده ياهدى، اللى يسمعك وأنتى بتتكلمى يفتكر أن فيه حد بيجبرك على حاجة غصب عنك .

ـ ماحدش يقدر يغصبنى على حاجة أنا مش عايزاها . قالتها بنبرة قاتل لاينوى التوبة .

خفضت زيزيت رأسها تعبث بأظافرها ، بدت قليلة الحيلة مغلوبة على أمرها : راجعى نفسك تانى ياهدى . زحزحت الأخيرة نفسها تتقدم بصدرها للأمام ثم مطت رقبتها مقتربة من الوجه المرتبك : هى نورا قالتلك أيه بالظبط ؟ رفعت اليها عينيها دون أن ترفع رأسها : عن أيه ؟.

ـ عنى أنا . حدقت فيها للحظات بعدما قررت الأعتراف : بنتك عارفة كل حاجة بينك وبين خيرى وهى شايفة أن أنسب وضع لكى أنك تتجوزيه . لم يتبق الا الذهول فى وجهها بينما أستمرت زيزيت تفرغ مالديها كى تخلص نفسها من ذنب يلاحقها : وعشان أكون صريحة معاكى ياهدى هو ده رأيها وهى مصرة عليه . أرتدت بظهرها للوراء تضغط أضراسها : ولو رفضت أيه اللى حيحصل . هزت رأسها بالنفى : مأأعرفش .

ـ طب أنتى رأيك أيه .. موافقة على كلام نورا ده . شعرت بانها محشورة فى زاوية وكأنها كلما مددت يدها لتتعلق بحبل ألتف حول رقبتها : بصراحة أنا مش عارفة أتصرف أزاى . قالتها باحساس متزايد بالمرارة ، تلعن ضعف مقاومتها أمام ضغوط نورا .. تلعن كل الظروف التى جعلتها هى وصديقتها داخل

أزمة حلها خارج أرادتهما .. تعلمت زيزيت بالتجربة أن لاشيىء ثابتا والقوى دائما يصنع المواقف كما يراها . ثم قامت من مكانها ومساحات الخجل قد أتسعت فى وجهها ، فأرادت أن تخفى ضعف مواقفها حين فتحت حقيبتها وأخرجت مبلغا ومدته لهدى : دول بقية مرتبك ياهدى . تأملت اليد الممدودة ثم أغمضت عينيها تخفى نظرتها المصدومة خلف جفنيها : خليهم معاكى لما حأحتاجهم حأبقى أقولك . سحبت يدها ولم تلح عليها .. وقفت صامتة حين أظهرت هدى وجوما واشاحت بوجهها ضيقا وكأنها أشارة تعنى " أرحلى " أعربت بعدها زيزيت عن رغبتها فى أنهاء الزيارة : معلش ياهدى مش حأقدر أقعد معاكى أكتر من كده عندى حاجات كتيرة متأخرة فى الأتيليه . قالتها وسارعت اليها تعتصرها فى صدرها ثم سارتا سويا حتى أنفصلتا عند باب الشقة بعد وداع قصير شمل كلمات متواضعة قبل أن تصرح زيزيت وهى فى لحظة العناق الأخير : أنا متفاءلة وان شاء اللـه كل حاجة حتعدى بس أنتى أهدى كده وراجعى نفسك . أبتسامة متحفظة لم تفلح فى بسط أقتضابها . ثم رحلت بهدوء بعدما سلمت الرسالة كما تسلمتها من نورا بعد أن قبلت مجبرة اداء دور " عبد المأمور " بعدما قرر المأمور إلا يبقى الوضع على ماهو عليه .. لم تدم وقفتها طويلا عند باب الشقة ، فى طريقها من الصالة لغرفتها سار معها سؤالا كبيرا يتقافز فوق رأسها : هى الناس ممكن تتغير بسهولة كده عند أول أمتحان ؟!. لم يفارقها السؤال ، ظل يعلو ويعلو ، ويحفر فيها على طريقته .. الأجابة عنه صعبة ، وربما مستحيلة . قبل أن تصل حدود غرفتها برزت عنها أبتسامة أعتادت عليها منذ لحظة خروجها من السجن ، دائما ماتبديها برفقة جملة تلازمها كتوأم ملتصق " ياخسارة يازمن " رددتها ودخلت لتجد أيات ونعمة كما تركتهما . أنضمت اليهن لتلتئم جلسة النساء البائسات .

الفصل الرابع عشر

أستقر الأمر نسبيا لمنصور بعد مرور عشرة أيام ، أظهر نجاحات متعددة بفضل توجيهات محمود المحامى الذى أمده بالمعلومات والنصائح فأقتحم من خلاله عالم أمه الخفى ، تعرف على خريطة تجارتها وحجم التعاملات وعلى معظم التجار كما أطلع على كثير من الأتفاقات . كان شغوفا ولحوحا على فك كل الشفرات والأقتراب من كل الخطوط ، الحمراء والخضراء ، بداية من حسابها فى بنك مصر والقيمة المادية لأيصالات الأمانة المحررة لسكان كرموز والتى تقدر قيمتها بمئات الألاف من الجنيهات ، بخلاف أرض"أبن شكر" نهاية بحسابات القهوة والتاكسى والنص نقل متقمصا فى تحركاته شخصية "البسنس مان" كما خبرها على يد الفنان " نور الشريف " متأثرا بدوره فى فيلم

" زمن حاتم زهران " حركة دؤوبة بخطوة سريعة تستلزم لياقة عالية ضاعف من وتيرتها كلمات موجزة يستخدمها رافعا شعار " المختصر المفيد " تحول جذرى رهيب .. سلوك متزن كرجل أربعينى ينسجم مع مظهرا عمليا أختاره لنفسه ، قمصان ساده على بنطلونات " جبردين " أضفت عليه جدية رجل أعمال مع بعض الأكسسوارات لزوم الوجاهة كموبايل " جالاكسى " موديل السنة وسلسلة ذهبية حبلها متين طوقت بها فايزة رقبته لتحفظه آية الكرسى المتدلية منها متعمدا فتح قميصه حتى قفصه الصدرى . بدا مثار أهتمام معظم المراقبين والمتابعين من قاطنى حوارى كرموز ومرتادى المقاهى وبعض المقربون .. الكل يتساءل ويأكله الفضول عن السبب الحقيقى خلف تلك الصحوة المثيرة للريبة ، تطل من عيونهم أسئلة وتخمينات لم تفلح واحدة منها فى الوصول إلى السرالعظيم ، وإن كانت هناك بعض الأقاويل التى تنتشر بقوة فى حارتى " المنجى وأبن شكر " عن وجود شخصية مهمة ذات قدر وتأثير على فايزة دفعتها لتغيير موقفها تجاه أبنها ، بينما فى نفس الوقت أفاد مصدر مطلع قريب الصلة من " مديحة " بنت عم " كحلاوى " المنجد وهى صديقة قديمة لفايزة ، أشارت لوجود صفقة تمت سرا بين فايزة وأبنها شريطة أن يبتعد الأخير عن نوسة بنت بدرية مقابل تمكينه من بعض الأعمال والصلاحيات . أيام قليلة وهدأت ضجة الأجتهادات وأغلق الملف برمته وتعامل الجميع معه كوليا للعهد .

أدرك منصور بفطرته أهمية اللحظات ودقتها وإن مصيره يتوقف على أجتهاده ودعم أمه المتنامى التى أعادت أكتشافه ، ليغادر بأصرار مرحلة التهميش وعصر الصعلكة .. أصبح الأن صاحب قضية .. قضية المستقبل والمصير . أحساس قوى وشعور عام ، بأنه على الطريق الصحيح لأستعادة ثروته التى كانت لسبب أو لأخر قيد الحراسة أو التأميم .

دخل المقهى وقد سطر لنفسه كيانا جديدا .

ـ بقى شايف نفسه أوى وأخره كلمتين من طراطيف لسانه وعلى طول مستعجل ، شكله كده طلع ولد أرارى وأبن سوق . كانت تلك واحدة من الجمل التى يتداولها همسا مساجين القهوة لحظة دخوله ، أتجه إلى ركنه مباشرة بجانب النافذة مستدعيا جمعة بفنجان قهوة تزامنا مع نظرة خاطفة وأبتسامة ضيقة توجه بهما لأبوه ترافقهما ديباجة رجل لايملك وقتا حين أقترب منه الأخير : أزى الأحوال يابا .. الشغل تمام . قالها جالسا قبل أن يشرع فى اجراء بعض الأتصالات السريعة يتخللها تسجيل بعض الملاحظات السريعة فى " نوتة " صغيرة تلازمه كنبضه . لايقطع أنشغاله سوى صوت أبوه الذى فشل

فى أستيعاب اللحظة وتسارع الأحداث وكأنما يتابع فيلما سينمائيا قصد مخرجه أن تكون المسافة بين لحظة البداية والنهاية لاتتعدى دقائق !. لازال عبده واقفا فوق رأسه يتابعه : اللى عطاك بالجزمة يدينا .. طوى النوتة . ثم رفع له عينيه : معلش يابا شغل ولازم أقفله . وضع عبده جثته على كرسى أمامه والدهشة لم تفارقه : سبحان مغير الأحوال ، يعنى أنت من عشر تيام بس كنت متلقح هنا قدامى مافيش حد بيعبرك غير دبان القهوة ودلوقتى بالصلا ع النبى مش ملاحق ، ناس داخلة وناس خارجة وقعدات وأجتماعات فى القهوة لبعد نص الليل وبتجرى شمال ويمين زى الرهوان وعينى عليك باردة بقيت دايس فى كل حاجة . ملاحظات لم يعيرها منصور أهتماما ، تخطاها بهزة من رأسه قابلها عبده بتنهيده : واللـه براوة عليك يامنصور عملت اللى أنا ماعرفتش أعمله فى خمسة وعشرين سنة ، كلفت الولية أمك فى كام يوم وكلت دماغها وشكلك كده آزح وداخل بصدرك على الغميق وباين عليك حتبقى بطل المرحلة . قالها ضاحكا حين وضع جمعة صينية القهوة .. رشفة طويلة من فنجانه قبل أن يرسم على وجهه قناع الحكمة : عارف يابا أنت لو عشت فوق عمرك كمان عمر مش حتوصل لأى حاجة مع أمى .. عارف ليه ؟ طرح سؤاله وغرس نظرته فى عينيه مستأنفا : عشان أنت كل اللى يهمك مزاجك وبس ومش شايف غير تحت رجليك وكل تفكيرك أزاى تخطف وتجرى ، عمرك مافكرت لقدام ولا فكرت مرة واحدة فى حياتك أن فلوس أمى هى فلوسك ومصلحتها تبقى مصلحتك .. عارف أنت بتفكرنى بأيه ؟ .

ـ بأيه ياباشا . قالها ساخرا . بالظبط زى موظف الحكومة ماتفرقش معاه المصلحة اللى شغال فيها تخرب تفلس ولاتروح فى ستين داهية المهم أنه أخر الشهر يلهف مرتبه .. أنا بقى . أشار لنفسه : كنت متأكد من الأول أن كل اللى عند أمى بتاعى وملكى لوحدى ، يعنى لا قدر اللـه لو أمى أتكعبلت فى تجارتها ولا أتاكلت فى السوق كنت حابقى أول الخسرانين .. وماتاخذنيش يعنى فى الكلمة دى ، أنت وأمى مش حتعيشوا أكتر ماعشتو . سكت يداعب فنجان القهوة ، ليعود بنبرة حاسمة : اللى جاى كله بتاعى أنا والحق يتقال أمى طلعت حدأة ولحقت نفسها فى الوقت الصح ودخلتنى معاها فى زوارأها عشان هى ست أدارجيه وعارفة فين تحط رجليها . أنصت له عبده بأهتمام ثم قام مدلكا أفاه بكفه مكتفيا بماتلقاه من محاضرة تركت على وجهه أنطباعا مبهرا وطيف أبتسامة حين قال : ع العموم خدها منى نصيحة وحطها حلقة فى ودنك .. اللى يقرب من فايزة لازم يعمل حسابه كويس ويبقى عارف أنها زى ماحترفعه لسابع سما ممكن فى لحظة تخسفه لسابع أرض .. خد بالك يامنصور !. قالها ورحل زاحفا نحو ركنه كمنفى أختيارى انتظارا لقضاء اللـه وقدره .. جلس فى كرسيه صامتا مستغرقا فيما آل إليه

مصيره ، ذل من بعد عز . تأمل يديه اللتان تستريحان على فخذيه بعدما باغته شعورا بأنه ضحية لمؤامرة كونية .

فى تلك اللحظة كانت علامات الترقب منقوشة على ملامح سليم الذى أنتظر منكمشا داخل كرسيه حتى رحل عبده فأنتهز الفرصة السانحة وقام يحجل متجها ناحية صديقه الذى لم يتمكن من الأنفراد به سوى بضع دقائق خلال أسبوع كامل بعدما أصبح سليم بالنسبة له كائنا تخطاه الزمن . سار يتطوح حتى بلغ طاولته .. وقف أمامه يهز كتفيه كبلطجى يستعيد ذاكرته معلقا سيجارة " كليوباترا " بين شفتيه.. أجرى معاينة على صديقه من أعلى وكأنه سيشتريه بينما طالته نظرة منصور التى أستقرت على وجهه يقرأ ملامحه . فبادره ساخرا : أنت شغال مصوراتى اليومين دول ، حتاخدنى صورة من فوق ولا أيه ؟ . سحب كرسيا : ولاحأخدك من فوق ولامن تحت أنا كفاية على أبقى جنب منصور بيه الراجل المهم . قالها وهو يجلس .

ـ ولامهم ولاحاجة ياخويا أنا مش ماسك مصنع ولا بأدير شركة ده مالى ياجدع يعنى لو مافتحتش عينى كويس وبقيت مصحصح أبقى مش راجل ولا أدها . عمود دخان اطلقه سليم بعدما أستند بمرفقيه على الطاولة مقتربا بوجهه الأصفر : طب ياعم المهم أنا فين من الليلة دى . مضيقا عينيه بأرف : أنت فين يعنى أيه ؟ .

ـ هو أنا مش صاحبك برضه ولا أنت نسيت ، مش أنا سليم بتاع الأيام الناشفة والجيوب الفاضية وقلة الحيلة ولا هو يعنى فى الحزن مدعين وفى الفرح منسين . نافخا فى وجهه معلنا عن ضيق فى صدره : أنت عبيط يابنى ، فرح أيه وحزن أيه أنت بتتكلم على عزومة ولافرح على سطوح ده شغل وفلوس ناس . قالها بعصبية تلقاها صديقه ببرود : طب وماله شغلنى معاك هو مش أنت ماسك الليلة كلها .

ـ أنا مش فاضى للخبل بتاعك ده .

ـ خبل أيه يامنصور هو أنا طلبت أشاركك ، أنا بأقولك شغلنى معاك .

ـ تشتغل أيه يالاسع .. أنت آخرك شمة وبرشامتين وبارك اللـه فيما رزق . قالها وهب واقفا كمن يتطهر من أوساخ علقت به بينما أصطبغ وجه سليم بتركيبة مريرة ، أمتزجت فيها الغيرة بالحنق .. كانت تلك ماتحمله نفسية سليم .

ـ ماشى يامنصور براحتك ياصاحبى .

ـ طبعا براحتى .

ـ طب شوفلى خمسين جنيه معاك . قالها بصيغة أمر .

ـ فلوس مامعييش .. جدعنة منى بس طلباتك عندى . جملة رددها حين أتاه جمعه مهرولا بعد أشارة من منصور : حساب البنى أدم ده عندى .. خد بالك من القهوة ربع ساعة وجاى .

ـ ماشى يامعلم منصور . قالها بملء فمه وهو يودعه قبل أن يمر بعينيه فى أشمئزاز على سليم الذى أنكمش يأكل فى نفسه : وأنتبقى مش تتلحلح كده وتشوفلك مصلحة تعملها بدل ماأنت عايش على التبرعات . لوى رقبته يعاين المتحدث بنظرة ساخرة : حتى أنت ياجمعة .

خرج منصور من القهوة بأتجاه حارة " عويضة " قاصدا بيت " سيد الونش " الموطن الجديد لبدرية وكريمتها .. فى طريقه توقف أمام دكانة " أبو سامية " فكهانى فاخر ـ لديه أحدث موديلات الفاكهة ـ فأنحاز منصور لأتنين كيلو موز مستورد من طراز الطول المديد ، ثم اشار بيده صانعا علامة النصر فوق صندوق تفاح يعانى حمرة شديدة وتعنى أتنين كيلو قبل أن يقتحمه " أبو سامية " بأبتسامة سمجة : ماتجرب الأصفر كمان ياأبوحجاج . أدار له الأخير ظهره حين رن هاتفه فهز رأسه موافقاكى يبعده .

ـ أيوه يانوسة .. حأجيب شوية فاكهة وآجى على طول ، صاحيين ولا حتنامو .. طب مسافة السكة . أغلق تليفونه على صوت أبو سامية : أجيبلك أيه تانى يامنصور .

ـ كفاية كده . قولى حسابك كام . رحل بعدها متجهما حين أستظرف أبو سامية : ماتقولنا الوجاهة والشياكة دى جت أزاى عشان نعمل زيك . كافأه مشمئزا : أبقى أسأل سامية لما ترجع البيت !. أكمل منصور مسيرته حتى بلغ بيت " سيد الونش " .. بناء حديث أتم عامه الخامس منذ شهرين ، بوابة حديد وسلالم رخام وواجهة متعددة الألوان ، أختار كل ساكن لونه المفضل بحرية تامة وديمقراطية عدا الدور الأول سكن المدعو " فرجانى " الذى زين شرفته بعبارة " اللـه أكبر " يجاورها رسمة كبيرة للكعبة المشرفة وبينهما بصمة كف لخرق عيون الحاسدين . أستقبلته نوسة عند باب الشقة ببنطلون ضيق وتيشيرت قبل أن يرمى فى حضنها الموز والتفاح ثم دخل خلفها .. ضرب صرير باب الشقة وهو

يدفعه متقدما الى الصالة المستطيلة المضاءة بلمبة عارية فضحت بيوت العناكب التى أخذت لنفسها وضعا فى السقف تستقبل به الداخل . شقة متواضعة غرفتين وصالة بأيجار شهرى خمسمائة جنيه حسب الأتفاق المبرم بين منصور والونش لمدة عام قابلة للتجديد لحين العودة إلى حارة ابن شكر بعد أنتهاء البناء كما خطط منصور بالأشتراك مع بدرية التى سارعت بايداع مبلغ التعويض التى تحصلت عليه من فايزة فى وديعة بالبنك الأهلى . رافقته نوسة حتى ركن الصالة بأتجاه الكنبة العتيقة تزامنا مع لحظة وصول بدرية من المطبخ التى أنقضت عليه وأبتلعته فى صدرها بحفاوة بالغة مع قبلتين على خديه كأنا لهما صوتا مؤثرا : أهلا ياحبيب قلبى .. نورت بيتك .

ـ منور بصحابه ياست بدرية . جلست كما جلس هامدا بعدما أوشكت طاقته على النفاذ بعد يوم عمل شاق .

مدد رجليه مسترخيا ومستدفئا بالسخونة المنبعثة من كتلة اللحم التى تجاوره . لم يدم صمته طويلا حين علق متفاخرا على ملاحظة وردت على لسان بدرية : بسم اللـه ماشاء اللـه شكلك بقى منور عامل زى الناس المهمة اللى بيطلعوا فى المسلسلات ويبقوا مشغولين على طول .

ـ حنعمل أيه بقى ياست بدرية مسئولية وأتحطت على كتافى ولازم أبقى أدها . تقصعت نوسة فى مشيتها حتى تخطت رجليه المفرودتين ثم مدت أصابعها لكتفيه مدلكة : طبعا أدها ، ده كفاية عليك أن نوسة بجلالة قدرها واقفة جنبك . لم تلحظ أى تعبير على وجهه فلكزته فى صدره : أيه .. كلامى مش جاى سكة معاك . أبتسامة مجهدة : ياعبيطة يعنى لو أنتى مش جاية سكة كنت جيت لغاية هنا فى الوقت ده وأنا مقتول تعب . دارت حوله ثم أستقرت خلفه وعقدت ذراعيها حول رقبته ونامت بصدرها الطرى على ظهره المقوص : ماأنا عارفة يامنصور بس بطمن أوى لما بسمع منك الكلام ده .

ـ أطمنى يابت وحطى فى بطنك بطيخة صيفى ، منصور راجل وجدع وبيشيل الناس اللى بيحبوه فى قلبه وعينيه ومهما كبر مش حيكبر عليكى . كانت جملة أستباقية من بدرية وضعته أمام مسئولية أخلاقية عبر عنها حين سحب نوسة من رسغها ليجعلها أمامه : كلامك كله صح ياست بدرية نوسة دى حته منى وكل اللى بأعمله دلوقتى واللى حأعمله بعدين كله حيبقى لها .. بس واحدة واحدة أنا مش عايز قلق خالص اليومين دول أنا ماصدقت أمى رضيت عنى وأطمنتلى وأدينى حطيت رجلى على أول السلم وربنا يسهل بالباقى والصابرين بخير .

أنقباضات أعترت ملامحها عندما ولت وجهها شطر الحائط تخطو للأمام بخطوات قلقة : ياخوفى يامنصور .. توقفت نظرته فى عينيها حين أستدارت : مالك يابت .. خايفة من أيه ؟ .

ـ تنشغل عنى زيادة عن اللزوم وسكة الفلوس تأخدك لدنيا تانية وتنسى نفسك وتنسانى وتدورلك على حاجة تليق . أهتم بمخاوفها حين قرر أن يهدأها كى لاتتمادى فى جو التأنيب والعكننة : آهو ده بقى اللى بيسموه العبط والجنان الرسمى .. أنتى نسيتى يابت كلامك معايا .. نسيتى لماكنتى بتعايرنى وتقوليلى أزاى أمك راكناك ع الرف وشايلاك من دماغها وأنت أبنها الوحيد وسايباك كده من غير شغلة ولا مشغلة . قام متجها إليها . : ولما ربنا يكرمنا وأمى ترضى عنى وتمسكنى شغلها نتبطر ع النعمة ونقول الكلام الخايب ده اللى لا يجيب ولايودى . خفضت رأسها على وقع كلماته حين تحسس بكفه خدها ، فخرجت كلماتها مع أنفاسها : ياخبر بفلوس بكره .. أهتزت بدرية فى جلستها وهى تتابع بترقب الحوار الدائر وكأنها تؤدى دور حكم اللقاء لاتفوتها كبيرة ولاصغيرة . فأستشعرت بأن الأمر يحتاج منها تدخلا : ماتزودهاش بقى يابت ، منصور بيحبك وأنا مالية أيدى منه وكلها كام شهر وحيظبط نفسه وحتبقى معاه فى بيت واحد . جذبها منصور لصدره : واللـه ماتقلقى كلام أمك كله صح والصبر جميل وأنا وعدتك حأرجعك على شقة محترمة فى بيت أبن شكر ودى هديتى لكى بس أتقلى على شوية وأفرديها بقى . أبتسامة تخفى خلفها قلقا حين أراحت رأسها على صدره : واللـه بحبك أوى يامنصور .

ـ قديمة .. سيبك من الكلام ده وقوليلى ظبطى أوضتك ولا لسه .

ـ آه .. حطيت الدولاب ونصبت السرير اللى أنت جبتهولى وفرشت السجادة وبقت أوضة آخر رومانسيبة . من فوق الكنبة أرسلت بدرية غمزة لأبنتها : خديه فرجيه خليه يشوف التظبيط . تراجعت خطوة مستعرضة خريطة جسمها : تعالى أفرجك . سحبته خلفها وخطا أول خطوة إلى جوف الشقة مجتازا الطرقة الطويلة يتعقبها بيده يقيس ويوزن مبديا ملاحظة إيجابية : بالصلا ع النبى صحتك ردت أوى فى بيت الونش .

ـ لا ياخويا طول عمرى صحتى حلوة . قالتها وأزاحت يده الداخلة بلا أستئذان . لحظات ووجد نفسه داخل غرفتها وأمام سريرها ، أنقضت دقيقة وهما فى وضعية الألتحام .. أعتصرها فى صدره يعالج بدفئها رطوبة يومه قبل أن ترتج بهما الغرفة حين باغتهما صوت بدرية : فرجتيه ولا لسه يابت . حاولت الفكاك منه : خلاص ياما . قاطعها بصوت لاهث وهو يمشى بشفتيه على رقبتها : لألسه !. سلتت نفسها منه عند سماعها حركة فى الصالة مصدرها الكنبة . أزاحته بصوت خفيض : لم نفسك

أمى حتيجى علينا . وثبت الى خارج الغرفة يتبعها محبطا إلى الصالة . جلس مترددا أمام بدرية حين طرحت عليه سؤالها : حتتعشى معانا يامنصور ؟ .

ـ مش حينفع لازم ألحق أمى قبل ماتنام فى شوية حاجات فى الشغل لازم أخد فيها رأيها . قطبت نوسة جبينها : أيه رأيك بقى مش حتنزل من هنا إلا لما تأكل معانا . تذكرأنه لم يضع لقمة فى فمه منذ الصباح ، تفحص الجسم الطرى الواقف أمامه : مش حينفع يانوسة مش عايز أعمل مشاكل مع أمى . قالها وتمنى لو يفرغ طاقته المستعرة عندها فالذى يدركه الأن أن صراخ العاطفة هو أعلى من صراخ المعدة .

ـ ماشى ياخواف ياأبن أمك .

ـ مقبولة منك ياأبيض . صانعا ضحكة قبل أن ينتفض واقفا حين نظر فى ساعة يده : أتأخرت أوى .. حاأكلمك الصبح . قالها وهو يتجه ناحية الباب قبل أن يقف عند عتبته يتأملها للحظات : أبقى أتعشى تفاح ياتفاح .

ـ والموز ؟! قالتها بضحكة مكتومة أحتراما لسكون الليل .

ـ أبقى أديه لأمك . لم ينتظر نهاية ضحكتها ورحل مسرعا كالمطارد . وقفت مكانها ولم تتحرك بعدما تلاشت ضحكتها حين حام حولها ذلك الخاطر الذى لازمها فى الفترة الأخيرة .. ماذا لو نجح منصور وأثبت وجوده وتمكن من ثروة أمه وأصبح له كلمة وكيانا قويا .. هل سيقبل وقتها بالزواج من نوسة بنت بدرية كومبارس ؟!.

دون أن يلتقط أنفاسه ، دخل منصور من باب الشقة بعد أن قطع حوارى كرموز كالسهم لايميل يسارا ولايمينا حتى مدخل البيت ومنه إلى السلم صعودا يخطف كل ثلاث درجات فى قفزة ، بخطوات مسرعة اتجه الى غرفة أمه .. فتح الباب ودخل مستعيرا وجها مرهقا حين طالعته فايزة بنصف عين وهى ممددة على السرير تنصت بأسترخاء لنداء النوم ، توجه اليها بعدما أستخرج من بين شفتيه ابتسامة راعى فيها أن تبدو مجهدة : الجميل حينام ولا أيه ؟ أشاحت بوجهها : الجميل بقاله ساعتين مستنيك ياروح أمك .. كنت بتتسرمح فين . ضم شفتيه تأهبا لوضع قبلة على جبينها حين أنحنى : خلاص ياما زمن السرمحة ولى .. دلوقتى شغل وبس . أنزاحت لوسط السرير مفسحة له مكانا ليستقر بجوارها . عشر دقائق كاملة ، أستعرض فيها منصور تقريره اليومى مع شرح مفصل لخريطة يومه المنصرم منذ

خروجه فى الصباح وحتى اللحظة مع مراعاة حذف المشهد الأخير الخاص بزيارته لنوسة .. كان منظما فى سرده وأقنعها بترتيبه للاحداث .. أذهلها بحماسه وألحاحه على الفهم وسعيه خلف التفاصيل فأطمأنت لجديته قبل أن تستعيد تركيزها حين أستهل برنامجه للغد وماينوى فعله مبديا وجهة نظر : بكرة حاقابل المهندس اللى أسمه أسامة بتاع رسومات العمارة فى مكتب محمود المحامى واللى وصلنى أنه مجهز الرسم بتاعه على أربع شقق أرضى وأربع محلات وبينى وبينك ياما النظام ده مش عاجبنى .

ـ ليه يامنصور .. أنت عارف سعر المحل كام وكمان الشقق الأرضى لها زبونها عيادات ومكاتب .

ـ أنا بقى عندى تفكيرة تانية أحسن من الكلام ده بأقول يعنى لو أخدنا الدور الأرضى كله وكمان الدور الأول ونعمل عليهم مول كبير يتحط فيه كل حاجة من الأبرة للصاروخ .

ـ مول .. ده زى بتاع كارفور .

ـ مش أوى كده ياما .. حاجة شبهه بس على شعبى حبتين يمشى مع البشر اللى هنا ويناسب زبونك وكمان مساحة الأرض الكبيرة حتفرق معاكى أوى وتخليكى تتوسعى وتشكلى وتحطى كل الأصناف اللى تخطر على بالك ، أكل وشرب وأقمشة وملابس وأدوات منزلية وقطع غيار وكمان مايمنعش تطلعى جزء من بضاعتك بالتقسيط لزباينك وحبايبك وجزء تانى تطلعيه جملة ، ده غير أنه حيبقى المركز بتاعك اللى تقابلى فيه المعلمين وصحاب المصلحة . قلبت أقتراحه فى رأسها ثم غابت بعينيها ناحية السقف قبل أن تعود ساهمة مبهورة كمن تنصت لهاتف يصرخ فيها " فكرة بمليون جنيه " . عبرت عن أعجابها بنبرة ممطوطة بعدما قامت من رقدتها : واللـه براوة عليك ياوله .. أنت كده أبن فايزة بصحيح.

ـ بجد ياما يعنى مبسوطة من فكرتى .

ـ الحق يتقال دماغك نضيفه والفكرة عجبانى وعشان كده أنا حأجى معاك بكرة نقابل المهندس اللى أسمه أسامة نعرض عليه الموضوع ونشوف رأيه أيه . ترك مكانه بعد مقولة " تصبحى على خير " رافعا رأسه منتشيا يهز كتفيه يمشى ملكا بعدما أحرز هدفا ذهبيا فى رأس أمه التى فر منها النوم وراحت تسرح بخيالها خلف المول وهى تتنقل بذهنها فى أقسامه وتدور بعينيها حول رفوفه الممتلأة عن أخرها ببضائع من كل صنف ونوع يحرسها شباب بقمصان سماوى عليها " بادجات " تحمل أسم فايزة وجموع من البشر لاتعد ولاتحصى تفضح أعدادها اضاءة قوية مبهرة وسط حركة نشطة من البيع والشراء ، وركام من الفلوس كالتلال الصغيرة تنتظر أصابع فايزة الجاهزة للعد والتى تجلس خلف

مكتب فخيم تباشر منه سير العمل وتراقب كل التفاصيل من خلال وجه متوهج وجسد يتلألأ داخل عباءة سوداء مشغولة بالترتر واللولى . كان خيالا سعيدا وهى تتابع حلم المول ، شاخصة للسقف بوجه طموح قبل أن يهزمها النوم ويقهر جفنيها ويتسلمها لأول مرة مبتسمة منذ ليلة الأفراج عنها .

دخل منصور غرفته بملامح الفاتحين .. أضاء النور ليطالع " ترينج " النوم الذى مازال ملقى على السرير كما تركه فى الصباح وشبشب يرقد نصف مقلوب ، جلس على طرف السرير منحنيا بجزعه ناظرا للأرض بعدما طوح بالعلبة " المارلبورو " والمفاتيح والموبايل قبل أن يسحب نفسه متراجعا لظهر السرير تعلو وجهه أنفراجة ونظرة أنتصار تطل من عينيه رافقته للحظات حتى سحب علبة سجائره وسلت منها واحدة وأشعلها .. شبك قدميه كالمقص حين أخرج النوتة من جيب قميصه وسحب قلمه الصغير وتهيأ لكتابة أول سطر ـ عادة أستهوته فى الأيام الأخيرة ـ بدأ يرص قائمة لأفكاره وملاحظاته .

ـ أرض أبن شكر بقت جاهزة .. محمد المقاول دوره خلاص أنتهى . كتب منصور ثم ذيل جملته بعلامة صح قبل أن يضيق عينيه متحاشيا عمود الدخان المتصاعد من سيجارته المعلقة على شفتيه ، ثم رفع رأسه ماسحا الغرفة بنظرة عاد بعدها ليدون : النونو وخضر بقوا تحت السيطرة وبين أيدى ودول كمان خلاص . جملة أتبعها بعلامة صح ثم تلاها : والمهندس أسامة بقى أمره سهل .. مش فاضل غير أبويا وحساب القهوة ودى شغلانة قدامها شهر بالكتير وتبقى تحت أيدى . أنتزع سيجارته من فمه ساحبا منها نفسا أخيرا قبل أن يواريها فى مطفأة بجواره على " الكومودينو " . عاد منكفئا على النوتة .. توقف شاردا عن التدوين ، أمعن فى سكون الليل كمن ينتظر الوحى . دق بسن القلم صفحة النوتة قبل أن تتنازعه فكرة ترجمها مكتوبة بخط مرتعش : مش فاضل غير محمود المحامى ؟!. كتبها وشعر برهبة كالذى تجاوز المسموح به . إلا أن أصرارا يولد ثقة تأكل تردده الذى تساقط داخله حين رسم كلماته بهدوء : لومافيش محمود المحامى حتبقى كل حاجة تحت أيدى فلوس أمى اللى فى البنك وإيصالات الأمانة اللى بالهبل ده غير أنى حأبقى نمرة واحد عندها . بدا كمارد خرج من فانوسه توا . لايتوقف نهمه إلى كل شيىء ، سيناريوهات عدة لازالت تحبو فى رأسه حين أشتبك مع ذهنه للحظات فى البحث عن طريقة فعالة ، لم يكن هناك من مفر سوى طى النوتة ودفنها تحت المخدة مرددا : يبقى لازم محمود المحامى .. كتم بقية المعنى فى صدره وسكت حين تمدد على السرير أخذا فى الأعتبار أنه لايملك سوى مقولة تؤجل طموحه الكاسح " أتقل على الرز" . قرار النوم كان حاسما بينما لم يكن قادرا

على حسم الأجابة عندما سأل نفسه : هل هو أصبح مصدر ثقة كاملة بالنسبة لأمه ؟ أم لازال موضع ملاحظة منها ؟ . شكوك سقطت مع سقوطه صريعا أمام ألحاح النوم .

00000000

شريف .. يومه يبدأ بالصداع وهو لم يبرح بعد فراشه . قوة أقوى منه كانت تقف فوق رأسه تدعوه للتحرك بأيجابية تجاه نورا وأحتواءها أو بالأحرى أشغالها بعيدا عن أمها التى فاض بها الكيل وأشتكت لخيرى بمرارة فى مكالمتها الأخيرة تطلب دعمه ومعاونته ، فبدا متحمسا حين نقل له تلك الرسالة واقفا فوق رأسه : حاول تقعد معاها ياشريف .. أتكلموا مع بعض وشوفوا مستقبلكو أنتو الأتنين حيمشى أزاى .. أتناقش معاها يا أخى وأدخل جوه دماغها وأعرف هى عايزة أيه بالظبط ولابتفكر فى أيه ، أطلب منها بصراحة تسيب أمها فى حالها وتخليها هيه فى حياتها وفى مستقبلها .

ـ حاضر . قالها وهو لازال بعماصه .

ـ حاول تظبط لها دماغها ياشريف .

ـ حاضر .

ـ ولا أنت خلاص راحت عليك وحكاية الحب الأول ماعدش لها تأثير .

ـ حاضر . قالها هذه المرة مشحونا يزفر فى ضيق . فأكتفى خيرى بماقاله وخرج متعجلا ليلحق بأجتماع مصيرى سيعقد فى مقر جريدة " أسكندرية " برفقة صديقه " برسوم " يحضره ولأول مرة بعض النشطاء السياسيين المعروفين بالأسكندرية يصطحبون معهم واحدا من الوجوه المعروفة على نفس الشاكلة الثورية ، جاء خصيصا من القاهرة تلبية لدعوة أحد رجالات الحركة لتبادل وجهات النظر والتعرف عن قرب لأفكارهم فى التغيير .

لازال شريف ممددا فى سريره وسط لحظة ركود .. توقف طويلا أمام عبارة أبوه " الحب الأول ماعدش له تأثير " !.. " ليس هناك حب أول وحب أخير ، هناك حب تحكمه المقدرة وحب يسقط من العجز " كلمات مرت بذهنه قرأها فى أحدى صفحات " النت " رسمت على وجهه تعبيرا ساخرا لازمه حتى طرد الوخم ، ثم قام وجلس على كرسى بجوار السرير . أسند رأسه على حافته . أدرك اليوم ولأول مرة أن أبوه ينقاد خلف عاطفة قوية تجاه هدى التى باتت هى المحرك الوحيد لآفكاره ، وان ترتيبه فى قلبه

تراجع للمرتبة الثانية .. مشاعر محبطة تلك التى نقلته الى صفوف المقهورين حين أيقن أن والده يؤسس لحياة جديدة على هواه ، فتخلت عنه تلك الطمأنينة الزائفة التى كان يصنعها وجود الأب . كان متيقنا منذ البداية أن دخول هدى إلى شرنقة والده ستنسج حوله عالما من الخيوط سيفصله حتما عن محيطه وستغزل ساترا متينا يحول بينه وبين شريكه الوحيد فى البيت منذ سنوات .. أعترف أمام نفسه بأن أحلامه قد تبددت ومعها أنهارت تطلعاته ، وبالرغم من ذلك تجنب المواجهة أو حتى الدخول معه فى جدل أو نقاش . لكن الفأس لم تقع إلا على دماغه هو فقط ، شجت رأسه فأنشطرت جميع الرؤى والأحلام ، تداعت واجهة الأب الذى أعتاده ، لم يملك إلا أن يسجل أعتراضاته داخل نفسه بعيدا عن مظلة الحصانة الأبوية كى لاتأخذه القضية إلى طابور المتهمين بأنهم جيل عاق وقليل التربية ! . الفجوة الهائلة التى يعانيها بين الآمال المنهارة والواقع الجديد ، لم تغب نورا فيها عن مجال العقل والمنطق حين يرد تلك التغيرات الجذرية والأزمات التى يقاسيها الأن لشخصها - هى - لكونها رافدا أصيلا لكل التطورات وخلف كل القرارات الحادة التى أتخذتها تجاه أمها ، ولولاها ماكانت حسمت النتيجة مسبقا : التفكيربجدية فى الخلاص من جحيم أبنتها الى جنة والده على أنقاض طموحة هو!!.. انها تصيغ الأحداث بيد خفية وتتواصل معها كتواصل المعلول بالعلة والنتيجة بالأسباب ، وربما هو يحملها كل المسئولية عن كفره بما أمن به طويلا ، والأن هو يحاكمها بلغة العصر ويصنفها كعضو فعال فى خلية أرهابية تبغى تدميره .

أجرى أتصالا خاطفا بها .. تواعدا على اللقاء وتوافقا على الخامسة مساءا كموعد يناسب ظروف كل منهما ، حددلها كافيتريا مجهولة على أطراف منطقة " أستانلى " لقربها من محل عمله كى يلحق بوردية السابعة .. ماالذى يدعوها الى أن تنساق وراء دعوته ، أستعرضت جميع الأفكار والأحتمالات بعد اصراره على اللقاء موضحا ذلك فى نهاية المكالمة : لازم نتكلم مع بعض يانورا . جملة أثارت قلقها لتلجأ بعدها للتوقعات والتخمينات قبل أن تحوم حول رأسها أسئلة لم تجد لها أجابة : سبب المكالمة وتوقيتها ؟!.

ترك شريف غرفته وخرج يمضغ انفعاله وهو يحاول أن ينفلت هاربا من تلك الأفكار التى تضغط على أعصابه ويكاد يورثه جنونا .. نورا أصبحت بالنسبة له لغزا محيرا قبل أن يصبح هو ايضا لغزا أكثر حيرة حين واجه نفسه : هل أعانى ضعفا أمامها ؟ .

ـ ربما .. هل عدم القدرة على مواجهتها وتحديها ، ضعف ؟ .

ـ جايز .. حبى لها ، هل هو ضعف ؟ مؤكد .

ـ الأستسلام لها والخضوع لمخططاتها ، ضعف ؟ طبعا .

ـ اذن أنت بالقطع أنسان ضعيف !! .

وقف على الرصيف بجوار مدخل الكافيتريا ينتظر . بحث فى كل الوجوه القادمة عن وجه يشبهها . لم يعد وجه يبتسم . أنزوى للوراء قليلا يترصد الطريق يراقب مقدمها ، ترك وجهه للشمس تلونه قبل أن يظلله بكف يده حين لمحها ، فشد صدره ورفع رأسه ، تلك هى الوقفة التى يحتفظ بها لنفسه .. شعور متوثب باللذة كان يسيطر عليها وهى تراه ينتظر ، أعتلت الرصيف بخطوة متمهلة بينما بدا شريف ثابتا لدرجة الصرامة . أستقبلها متقدما للامام بخطوة أنيقة . أرادت أن تمارس معه لهوا أنثويا . فبادرته : فى حد يبقى مستنى الجو بتاعه ويقف مكشر كده . لازال صارما حين تقدمها : تعالى ندخل . تبعته والتصقت بكتفه ودخلا فيما أتفق . زورا ـ على تسميته كافيتريا التى لم تتوفر فيها سوى مجموعة طاولات رصت فى صفين حولها كراسى بلاستيك وبينهما ممر يتمشى فيه ذهابا وأيابا شاب نحيف يؤدى دور الجرسون . أطلقت نفخة تزامنت مع دخولهما : أيه المكان العجيب ده ؟! جلسا .. سأل النحيف وهو يطل من فوق رأسه : تأخدوا أيه ؟ أختار لنفسه حاجة ساقعة . كاد الجرسون أن يستريب فيها ، من كثرة ماتلفتت يمينا ويسارا .سألت فى نفور : أنتو بتعملوهنا قهوة .

ـ طبعا يافندم .

ـ يبقى فنجان مظبوط . هز رأسه مبتسما وسحب هيكله العظمى ورحل . أنهمك شريف بنظرة طويلة فى وجهها وكأنه يتقصى أحوالها بملامح تفصح نيته ، التى تنبىء بما لايسر ولايطمئن . أبدت قلقا من نظرته . فأفصحت : البيه بيشبه على ولا حاجة ؟!.

ـ فعلا بأشبه عليكى ياريت تجاوبينى وتقوليلى أنتى مين ولا أيه ولا أزاى ؟ قالها بحرقة جاهل محروم من المعرفة .

مبتسمة : أنا واحدة بتحبك من زمان لما كنت لسه بضفيرتين وسيادتك كان صوتك بيبدأ يخشن ومن وقتها وأنا زى ماأنا ماأتغيرتش وأحلامنا القديمة اللى حلمناها سوا معايا كل ليله ومابتفارقنيش . حاولت بكلماتها سد الباب الذى قد يجىء منه الريح . لم يكن ردا مقنعا بالنسبة له .

ـ أنتى كل يوم بتتغيرى عن اللى قبله وكمان للأسوأ وماعدش فيه أحلام بتجمعنا ، ده لو أنتى أصلا لسه فاكرة حاجة منها .. سيادتك مش شايفه غير حلمك أنتى وبس ومش فارق معاكى مين حيدفع التمن ولا على حساب مين .. المهم أنك توصلى للى أنتى عايزاه !! .

لماذا يكيل كل هذه الأتهامات لها ، هل هو أنسان فاشل أو مهزوم ؟ وهل هو مهزوم فعلا ؟ ربما لا . ربما يكون فى قمة انتصاره ! .

ـ أنت متأكد أنك بتكلمنى عن حلم .. ده كابوس يابنى !. كانت تتحاشى الدخول فى دروب نقاش وعــرة

ـ هو فعلا كابوس .. لكن للأسف الخيال المريض بيجمله ويسميه حلم . قالها وسكت .. أحست بخوف من هذا الصمت ومن تلك النظرات أكثر من خوفها من كلامه المجنون ومن عصبيته .

ـ أنت طلبت تقابلنى ليه ياشريف ؟ .

ـ عشان أسألك . قالها بحدة فأنزعجت من حمرة أنفعاله . أستأنف وبصحبته أحباطات سنين مضت ، حاول أن يستعيد نفسه : أنتى عايزة منى أيه بالظبط وعايزة أيه من مامتك ومن حياتك كلها ؟ سألها وتولى الرد : أقولك أنا أنتى عايزة أيه ؟ عايزة تعيشى بقية عمرك فى مرحلة التضحية والبطولة وتبقى صاحبة الأمروالنهى .. ماحدش يتنفس ولايتكلم ولايعمل أى حاجة إلا بموافقتك ورضاكى .. طبعا برضاكى ماهو أنتى صاحبة المهمة المقدسة اللى مابقتش مقدسة ولاحاجة .. ممنوع أى حد يعترض ومين المجنون اللى يقدريعترض وأنتى اللى ربيتى وكبرتى وعلمتى ودلوقتى بسم اللـه ماشاء اللـه بقيتى صاحبة مال وبتصرفى يعنى كل حاجة بقت تحت أيدك وبتتحكمى فى حياة كل اللى حواليكى زى مأنتى عايزة .. ترضى عن ده وتغضبى من ده حتى لو كان المغضوب عليه ده هو مامتك عشان تفكير حضرتك المكعبل قالك مش حينفع تكونى صاحبة الأمر والنهى فى وجودها . يلمع وجهها المراوغ وعلى زاوية فمها تعبير ثابت لاهى أبتسامة ولاهى أنحراف ، بينما حاصرها يفرغ فى دماغها لعناته : يبقى الحل الوحيد لازم الست دى تخرج بره البيت .. بس المشكلة هنا تخرج أزاى وبأى طريقة ؟ الخطة كانت جهنمية .. مامتك تتجوز من أبويا وتخلع من البيت وكده تبقى الأمور ماشية تمام التمام وآهى جت من عند ربنا .

شجبت أتهاماته التى يلقيها بلا تدبر على من لايستحق : أنت ليه عايز تحملنى المسئولية .. هو أنا اللى قلتلهم يحبوا بعض ولا خلتهم يفكروا فى حكاية الجوازدى .

ـ كلامك صح أنتى فعلا ماقلتيش لكن خططتى ودبرتى وقررتى أنك تسودى أيامها وتخلى البيت بالنسبة لها جحيم وحاصرتيها من كل حتة وضيقتى عليها .

ـ وهيه طبعا ياعينى لما زهقت من الجحيم اللى عايشة فيه قالت مابدهاش بقى أتجوز خيرى ..أيه كلام العيال اللى أنت بتقوله ده ، ماما وعمو خيرى مش قصر ولا مستنين من أى حد موافقة ولا رفض ولاحد يسود عيشة ولايبيضها دول ناس كبيرة وفاهمين أحسن منى ومنك وعارفين همه عايزين أيه بالظبط ..المشكلة مش فى أنا ولافيهم همه المشكلة عندك أنت ياشريف .

ـ عندى أنا .. بأمارة أيه ؟ .

ـ بأمارة أنك بتلف وتدور حوالين المشكلة اللى أنت عايشها وماعندكش الجرأة ولا الشجاعة أنك تواجه بيها نفسك .. أنت مش قادر تصدق ولاعايز تستوعب فكرة أن باباك حيتجوز وأن فى حد حيشاركك فيه .. أنت أنانى مابتحبش غير نفسك وأنا فهماك كويس جدا وعارفة أن جواز باباك حيبوظ الرسمة اللى أنت كنت راسمها بخصوص الشقة واللى ياما كلمتنى عنها ولا دى كمان نسيتها .. دايما كنت تقولى لما نتجوز أنا وأنتى حتبقى الشقة كلها بتاعتنا ماعدا أوضة واحدة لبابا .. مش ده كلامك معايا . تابعها غارقا فى ذهوله : برافو .. واللـه برافو عليكى ، بالبساطة دى عايزة تطلعى نفسك مظلومة وضحية وأنك مالكيش ذنب فى أى حاجة . قالها بوجه ساخر قبل أن يستعيد جديته مكملا : لأمعلش الكلام ده مايدخلش على أنا ده تضحكى بى على حد تانى عشان أنا أكتر واحد فى الدنيا دى فاهمك كويس وعارف أن متعتك الوحيدة لما تتحكمى فى مصير اللى حواليكى وترسمى لهم حياتهم زى ماأنتى عايزة .. هو ده المرض اللى عندك وبدل ماتفكرى أزاى تعالجى نفسك عايزة تقنعينى أنى انا اللى مريض ومحتاج علاج . أصبحت المعانى أكثر حدة وأكثر توصيفا . كانت تتعلق عينيها بالقائل الذى سكت .. بدا عليها الأضطراب بعدما سقط عنها قناع الثقة الذى كان يسترها .

ـ كلامك مش مظبوط ياشريف ولو أنا فعلا زى ماأنت بتقول مريضة بالسيطرة والتحكم فى اللىحواليه .. كان من باب أولى سيطرت عليك وأتحكمت فيك ومشيتك بطريقتى زى ماأنا عايزة وده طبعا ماحصلش .. أما بقى عن أخواتى فكلامك كله مايهمنيش ولايفرق معايا أنا اللى يهمنى حاجة واحدة وبس أنى لازم أقف معاهم لغاية ماأطمن عليهم وعلى مستقبلهم وأتأكد أن كل واحد فيهم حط رجله على أول السلم .. ده طبعا غير عمتى ونعمة اللى حيفضلو برضه فى رقبتى وتحت مسئوليتى طول ماهمه عايشين .. الحاجة الوحيدة اللى بقت برة مسئوليتى .. هى ماما لأنى متأكدة أنها حتبقى مسئولة من عمو خيرى .

أقرت أمامه واقعا قابله بتجاهل ، إلا أنها بدلت نبرتها وأستدعت دلالا مفقودا كاد أن يطويه النسيان حين تابعت : وعشان أطمنك وماخليش دماغك تجيب وتودى .. لم يكن فى مقدورها منفردة أن تكمل باقى خطتها بدونه ، عليها فى هذه اللحظة أن تدفع جزء من الثمن .أردفت : أنا ماعنديش أى مانع أننا نتجوز مع عمو خيرى و ماما فى الشقة ، لكن لو أنت شايف أن ده حيبقى صعب أنا عندى حل تانى وحيبقى مريح للكل . سكتت للحظات أرسلت خلالها أبتسامة لتلطف الآجواء ثم قالت : طبعا أنت عارف أن ربنا كارمنى بقرشين محترمين ودول ممكن أوى يسهلولنا حاجات كتيرة جدا زى شقة محترمة مثلا وعشان أنا بحبك ياشريف مستعدة أعمل أى حاجة .. بس الأول أطمن على أخواتى ومستقبلهم . يبدو أن المال دمغها بسلوكيات أصحابه ، لم يعد للحب نفس المعنى الذى ربطهما ، كلمة " بحبك " هنا مطاطة تتسع لكافة التأويلات والتفسيرات .. لم تعد بالنسبة له تلك الأميرة التى تجتاح الصور والأحلام .

ـ عارفة أنتى بتفكرينى بأيه .. بالأم اللى عايزة تسكت أبنها اللى عاملها وش وصداع فى دماغها تقوم تطبطب عليه وتقوله لو سكت وسمعت الكلام حأبقى أجيبلك حاجة حلوة .

أبدت تذمرا لكنها لم تفصح حين حضر أخيرا الجرسون النحيف يحمل الساقع وفنجان القهوة على صينية بلاستيك موديل الثمانينات .. وضع المطلوب وأدار لهما ظهره وأتجه إلى " خن " فى أخر الممر . توجهت إليه نورا وهى لازالت على تذمرها : حيرتنى معاك .. أنت عايز أيه بالظبط ، لو رافض جواز باباك من ماما قولى وأنا حأتصرف بنفسى حأروح لغاية عنده وحأترجاه يبعد عنها وحأقوله بصراحة أبنك رافض الفكرة تماما ومحملنى أنا المسئولية .كان تهديدا صريحا أطلقته فى وجهه ثم راقبت رد الفعل على ملامحه . أكملت : مش هو ده اللى حيريحك؟ .

ـ لو هو ده اللى حيريحنى أبقى أنا بنى أدم جاحد وناكر للجميل للراجل اللى فضل خمستاشر سنة من عمره عايش لوحده بعد ماما ماتوفت ومارضاش يتجوز عشان خاطرى أنا وأخويا نادر .. وعشان أطمنك على الأخر وماتقلقيش من ناحيتى مستحيل يكون جزاؤه منى أنى أرفض ولاحتى أجادله ولا أناقشه فى حاجة هو عايزها .

ـ يبقى خلاص وافق وماتعملش مشاكل .

ـ طبعا حاوافق ومش حأعمل مشاكل خالص لأنى مش حأبقى موجود .. حأسافر أمريكا عند نادر وأنتى عارفة كويس هو أد أيه أتحايل على فى حكاية السفر ولما كان هنا آخر مرة قالى مكانك محجوز فى المطعم . كانت تحبس الكلمات فى نفسها وهى تنصت له . واصل : فكرة السفر كانت مرفوضة عندى عشان ماكانش ينفع أسيب بابا لوحده .. بس دلوقتى الوضع أختلف و مادام مش حيبقى لوحده يبقى ماعدش لوجودى لزمة .. أشوف مستقبلى أحسن وأروح أشتغل مع أخويا .

ثقتها التى كان يحلو لها أن تظهرها أمامه فلم تكن لها أثر ولاحتى تلك النظرة الجريئة ولاغرور ملامحها، لاشيىء ، الا الأنكسار فى شخصها . قررت أن تبدو أمامه مجردة من الأقنعة ، ولتستعيد أمامه هويتها القديمة . وها هو يتنحى عن الكلام حين قاطعت : وأنا ؟!. رآها تضل أمام عينيه ، فهى تذوب شيئا فشيئا ، حتى كادت تشبه الفراغ .

ـ أنتى جدولك مليان يانورا وماعندكيش وقت تفكرى فى أى حاجة غير فى نفسك .. ياله بينا نقوم . راقبته وهو يطوى عشرون جنيها يضعها بين الحاجة الساقعة وفنجان القهوة ، نظرتها تكشف عن سؤال يتردد فى سرها : مالذى سيجنيه من وراء تلك المخاطرة ، أو المغامرة .. أيا كان مسماها ؟ هل المخاطرة محسوبة ؟ والمغامرة مع من ؟ ومن أجل من ؟! لا .. لن يستطيع أن يفعلها ، ليس بمقدوره أن يقضى على مستقبلهما .. خطوة من المستحيل أن يخطوها !!.

خرجا من الكافيتريا دون أن ينطقا بكلمة واحدة . أتخذت يسارها صامتة ، حاملة خيبة الأمل ، التى لم تعد تركب الجمل فى هذا البلد . بينما أنفصل هو عنها متخذا يمينه ليلحق وردية السابعة ورأسه قد أمتلأت بعبارة واحدة " اكرام الحب دفنه " .

0000000000

فى تلك الأثناء كان قد وصل خيرى الى موقع جريدة الأسكندرية بصحبة " برسوم " حيث الأجتماع المصيرى المرتقب الذى دعا اليه أحد رجال الحركة الكبار بعض المجموعات الثورية المعروفة بالأسكندرية للأطلاع على أفكارهم ورؤيتهم للمشهد السياسى المصرى من خلال شعار تم الأتفاق عليه تليفونيا مع أحد الشباب الثوريين " الأستراتيجية والتنسيق " .

الضجيج كان يقودهما مذهولين حين أقتربا من باب الجريدة بالطابق السابع ، علق خيرى مصدوما : أيه صوت الفرح اللى جاى من جوه ده ! أجتماع ده ولازفة عريس ! . دفعا الباب الموارب ودخلا .. وقف خيرى متجمدا داخل بدلته الرمادى وقميصه الأبيض ، بدا فى هيئة سياسى مخضرم ..عيناهما لاترى سوى رؤوس وأجساد تتلاصق .. حركة صاخبة وزحام كثيف ، كأنما الأرض تنبت بشرا . لحظات من الصدمة عاشها خيرى متابعا للحشد قبل أن ينطق ذاهلا : مين دول يابرسوم ؟ .

ـ دول نشطاء . قالها " كأفيه " فى مسرحية كوميدية .. كانت ثمة مشاعرعارمة تمور فى صدور الشباب الذين أحتشدوا فى وسط القاعة على هيئة حلقات نقاشية بينما راقب رجال الحركة باشكالهم وألقابهم العديدة . تطور الأمر الذى تحول إلى عصبية ثم إلى ذلك الهتاف بالمطلب الذى ساد وتقدم على كل المطالب " يسقط يسقط حكم المرشد " . مر خيرى بعينيه يتفقد الوجوه الصارخة قبل أن يقع فى الخطيئة الكبرى عندما ساقته خطواته للداخل ، سحبه الزحام بقوة الدفع لحظة وقوفه فى المكان الخطأ والذى أقتاده دون أدنى مقاومة الى عمق دوامة الصخب والصراخ تتقاذفه الأكتاف الشبابية وتصم أذنيه هتافات " الهتيفة " . كاد يتحلل وسط سخونة الشباب حتى عثر عليه وتم أنتشاله بمساعدة الأستاذ " دراز " رئيس الحركة الذى رحب به صارخا كى يسمعه : أهلا ياأستاذ خيرى .. أتأخرت ليه ؟ .

ـ أنا موجود من بدرى بس الزحمة بقى . أنهى جملته لحظة وصول " برسوم " الذى أستغل نحافته وأنزلق من بين الأجساد المزروعة فى القاعة حتى نجح فى الأفلات بأقل الأضرار مستعوضا اللـه فى تحفته الأثرية " البدلة الكحلى " التى أنتهكت ياقتها وأصبحت كجناحى حمامة مع بعض السحجات فى جيبها الأيمن ، إلا أنها بشكل عام لازالت متماسكة . ألتصق بخيرى بعدما فرقهما الزحام .. وقف لثوان ينظم أنفاسه ويربت على صلعته التى أحتقنت وكأنها على وشك الأنفجار بينما تفوح منه رائحة عرق نفاذة ذات نكهة غريبة نتيجة صراعه مع الأجسام المعروقة والتى تحتاج لتشخيص محايد لمعرفة نوعيتها : هل هى رائحة بول مركزة أم أبخرة مجارى طافحة ؟ سحبهما الأستاذ " دراز " إلى ركن خالي مخصصا أصلا لماكينة تصوير ومكتب صغير لم تتوفر لهما ميزانية بعد .

ـ هو المفروض أيه اللى حيحصل دلوقتى ؟ سأل خيرى . فأجاب الأستاذ : كام شاب من اللى واقفين دول حيطلعوا على المنصة وكل واحد فيهم حيقول كلمة وبعدها حتقول أنت كلمتك ياخيرى بالنيابة عننا وبعد كده أجتماع مشترك معاهم نسمع رؤيتهم .

ـ أجتماع مشترك مع كل دول . قالها برسوم ساهما .

ـ أكيد لأ .. همه تقريبا حيتفقوا مع بعض على كام واحد يمثلهم . أبدى خيرى قلقا وهو يتأملهم : أنت شايف أن دول ممكن يتفقوا على أى حاجة . مترددا أو ربما نادما قال الأستاذ " دراز " : الحقيقة مش عارف . لذلك فهو يتعجل أمره و يريد أن ينتهى من هذا الأجتماع قبل أن يقترح عليه برسوم مبادرة تنهى مشهد الفوضى بأن يخرج عليهم عبر ميكرفون المنصة طالبا منهم الهدوء والدخول فورا فى الأجتماع . قال وجهة نظره ثم أشرأب بعنقه مدققا بعينيه فى سحنة أحد الوجوه الداخلة للقاعة : تامر بتاع أئتلاف ياله بينا نغير وصل آهوه .

ـ وده أيه اللى جابه كمان . يعتقد أنه حضر بصحبة أحد النشطاء السكندريين .. " تامر " يعتبر من قادة الحركة الشبابية الأحتجاجية فى مصر . جاء تسبقه سيرة ثورية ..

الأسم : تامر الجبالى .

الجنسية : قاهرى من أصل ريفى .

العمل : ناشط احتجاجى ومناضل على النت ، يعمل الأن فيما لاتستطيع أن تحدده ، لكنه ينفق ببذخ .

من أين ؟ لا أحد يسأل . المهم أنه يسدد دائما ! .

الهواية : أقتراف التويتات ، أحلامه تنحصر فى وسيلة للظهور والشهرة ، متقلب المزاج .. حاد . قدرته تتفوق فى مكان واحد .. اللسان الطويل . أصله كان فى سالف العصر والأوان خريج معهد فنى صناعى من فئة السنتين ، إلا أنه تخرج بعد أربع بعدما تم تهديده بالفصل لتجاوزه مرات الرسوب ، فشل فى الحصول على فرصة عمل فى مصنع للسراميك ، إلتحق بعدها محبطا بكتائب المناضلين على شبكة النت رافعا سيفا خشبيا بارز به لثلاث سنوات متتالية ، يحاول أن يعقد مقارنة عقيمة بما كان يجب ومالم يحدث ومايجب حدوثه بأعتباره من الجيل الذى حمل الشعلة قبل أن تسقط من أيديهم وكادت تطفئها نعال الأخوان ! هو شاب نضج فى رحم الثورة ، يعاشر السياسة حسب فهمه ومصلحته . كون ائتلافا من مجموعة نازحين من وسط الدلتا ونصب نفسه زعيما عليهم . أنه واحد من فصيلة هؤلاء الذين يقولون : العسكر لايريدون للكلمة أن تسمع ؟! فما بالك اذا كانت هذه الكلمة نفسها ، تكتب وترص فى حروف على " الفيس بوك " . هذا الكم من الشباب الذى يقترف العمل المجرم بقوانين العيب وأمن الوطن ونزوات الشهوة ، ماذا يكون مصيرهم لو أنسحب العسكر من المشهد كما يخططون أو

يتآمرون ؟ بالقطع سيكونون لقمة طرية سهلة يمضغها أصحاب اللحى ويلتهمها مجموعات الصارخين : " تكبير .. اللـه أكبر " .

تقدم المدعو " تامر الجبالى " إلى المنصة الصغيرة ليلقى كلمة بناءا على مناشدة شبابية من داخل القاعة . قفز ذلك الكائن لموقع الصدارة .. وقف منتصبا ، يداه معقودتان أمامه ، يتجول فى الوجوه تتلبسه روح الزعيم المخلص .. فك وثاق يديه وأمسك بعدة أوراق مشبوكة بدبوس ، عليها كلام كثير ليس من بينها عبارات شكر ولا ترحيب بالموجودين ولاحتى مقدمة للموضوع . بدأ ساخنا .. تشنج مع أول جملة : الأخوان بلعو البلد كلها ومصر بقت غنيمة فى أيديهم بيفرقوا خيرها على بعض وكأن مصر مافيهاش شعب ولا فيها حد بيحاسبهم بيضحكو على الغلابة ومستغلين فقرهم ! ماله والفقر وقد أصبح الأن يمتلك سيارة أوتوماتيك فاخرة وألتصق بشقة فى مدينة نصر .

قال فى الواقفون والجالسون الذين ولوا وجوههم شطر سحنته بعدما قرر أن يخفف نبرته ، لكى يعود إلى القاهرة معاف بحنجرته : أحنا اللى المفروض نحكم البلد دى ونذير مؤسساتها بفكرنا الثورى .. لازم أنتو .. أشار بأصبعه لمجموعة شباب لايزيد سن كبيرهم عن خمسة وعشرون عاما . أردف : تبقو الطليعة لازم أفكاركم الثورية توصل لكل مؤسسات الدولة بعدما تطهروها من الفساد والمحسوبية حتى ولو وصل الأمر لنسفها وهدها وبعد كده نبنيها أحنا من جديد . أنهى المقطع حين أرتفع صخب الشباب " ثوار أحرار حنكمل المشوار " . همس الأستاذ" دراز" فى أذن برسوم الذى أوشكت عيناه أن تخرجا ذهولا : ألحق دول عايزين يهدوا البلد وينسفوها . فرفع الأخير صوته : دول ثوار ولا فرقة أزالة . بينما أغمض خيرى عينيه يكافح أحباطا أستشرى فى نفسه حين أسترسل الثائر : أحنا عايزين كل حاجة فى البلد دى تبقى ملك الشعب . ثم صرخ فجأة : قولوا ورايا " لاعسكر ولاأخوان .. أحنا شباب مصر الجدعان " . أرتجت القاعة بالهتاف . مال خيرى ناحية رأس صديقه : مش حأقدر أكمل أكتر من كده .. ده مولد ياعم . طغى صوت الخطيب على همسهما الذى أستفز برسوم : وبعدين فى الجدع ده اللى عمال ينعر . لم يعد مجديا أن يسمع شيئا وهذا الثائرموجود كالرضيع ، لايتوقف عن الصراخ .

ـ ياله بينا يابرسوم . لم يبد رأيا .. فجذبه خيرى حتى أستجاب منتهزا فرصة أستغراق الأستاذ " دراز " فى لحظة أندهاش وصدمة مما يحدث .. تسللا بأتجاه باب القاعة ومن خلفهما أنساب صوت الثائر الذى ودعه برسوم بضحكة محتشمة : ياعم روح غور فى داهية وأنت شبه بوحه الصباحى . أنفلتا خارج القاعة ومنها إلى الممر الطويل حتى باب الخروج ، أستقبلا السلم ، ودون نباطأ أنطلقا

نزولا هربا من هوجة الشباب .. ليلة عاصفة خرجا منها برأسين متورمتان بعدما تحولت إلى ليلة صراخ وعويل ..

دلفا إلى الشارع كسمكتين فى أشد الحاجة لجرعة أكسجين . سارا ببطء أسوة بمن حولهما ، السيارات بالكاد تتحرك والمارة كالسائرون نياما وكأنما المشهد كله يعاد بالبطيىء ، فتنكشف التفاصيل وتظهر العيوب .. وجوه واجمة مستسلمة تسحبها أرجل مرتخية منهكة فى شوارع أعلنت عصيانها على النظافة والأضاءة بعدما قررت وزارة الكهرباء أظلام المدينة توفيرا للطاقة ، وسار الناس على ضوء المحلات الخالية من الزبائن التى أصبحت رجس من عمل الشيطان لايقربهما إلاصاحب مال أو فضولى .

تأمل خيرى يساره حيث وجه برسوم الذى كان يحبس ضحكا وأستغرابا وربما تذمرا حين سأله : مين أبن الكلب صاحب الفكرة بتاعة النهاردة ؟ لم يجب مكتفيا بالسير صامتا مستميتا للحفاظ على وجومه قبل أن تنهار ملامحه على ضحكات متصلة حين أردف خيرى : عمرك سمعت فى الدنيا عن أئتلاف أسمه ياله بينا نغير .. واللى حازز فى نفسى ياأخى ماقالوش حنغير أيه ؟!.

ـ يمكن حيغيروا ..

ـ ده لو لابسينه أصلا . جملة أضفت على وجهه بسمة تمددت لتصبح ضحكة ، تتضخم فتولد قهقهة لها طعم السخرية المرة .

ـ همه دول شباب اليوم ودى أفكارهم . قالها برسوم مسلما بالأمر الواقع واضعا يديه فى جيب بنطلونه ناظرا للآرض .

" مازال الخطأ " يتورم مثل سرطان الثدى " .

ـ العينة اللى أحنا شفناها من شوية دى مش ممكن تكون بتمثل كل الشباب ولا جيل الثورة ولا حتى أى جيل .. دول بيمثلوا على نفسهم وعلينا ياأما مش فاهمين حاجة ودى تبقى مصيبة كبيرة .

ـ أكيد همه مش فاهمين والدليل أن مافيش حد منهم قال جملة واحدة توضح هى أيه الخطوة الجاية اللى ناوين يعملوها .

ـ الحمد للـه يابرسوم أنى ماطلعتش قلت كلمتى ماكانتش حتمشى أبدا مع الجو ده .

ـ كنت مجهز تقول أيه ياخيرى . سحب الأخير ورقة مطوية من جيب " الجاكيت " ناولها لبرسوم الذى فردها كمنشور ، إلا أنه أجل قراءتها حين عبرا الشارع للجهة المقابلة متخطين " ترام " شارع بورسعيد حيث الجانب الأخر المضيىء نظرا لوجود نقطة شرطة الأبراهيمية على مسافة مائة متر . قرا برسوم بصوت عالى : بسم اللـه الرحمن الرحيم . قاطعة خيرى : أبدأ من نص الصفحة من عند كلمة " الأخوان " . مشى بعينيه على الورقة حتى عثر عليها . ثم قرأ " الأخوان ".. هذه الفئة لاترى السلطة غيرها ، ضئيلة العدد لكنها قوية التأثير ، وهو عزف نشاذ على وتر مشدود ، فليس معقولا أبدا أن تفقد كل طبقات الشعب قدرتها وتسلم رقابها وتضع نفسها تحت وصاية تلك الفئة القليلة تشكل لها تحركاتها ، وتقودها وتسييرها .. اللحظة الأن هى تصفية حسابات قديمة ، وأستدعاء لشخوص طواها النسيان لينسب اليها كل فعل وتحرك أفضى الى ثورة يناير ، ولتسرق بأدعاء "الثورة أرادة الجماهير" وتقف ضد رغبة القاعدة العريضة . وتوجهاتها التى لايمكن أن تكون حسب التوصيف الأخوانى الا مع " الأخوان هو الحل " وهؤلاء الذين يجتمعون اليوم ، لتحريك الماء الراكد ، وأحداث فعل ما ، هم حقا فئة قليلة ، لكنها نشطة ، هم شباب ، تعيب عليهم السلطة ، أنهم يفكرون ويقرنون الفكر بالحركة . وقد عمدت تلك السلطة الأخوانية منذ جاء خليفتهم ليتربع " أن تغسل عقول المصريين " . أنهى برسوم القراءة وضحك على الجملة الأخيرة ، لم يدرك لم ؟ لكنها لم تكن سخرية .

ـ اللـه على كلامك ياخيرى .. كان عندك حق ماكانش ينفع تقول الكلمتين دول فى السيرك اللى كنا فيه . ثم رفع عينيه إلى وجه صديقه السائر متأملا : سيبك دلوقتى من المصريين اللى الأخوان عايزين يغسلولهم عقولهم وقولى عامل أيه مع اللى غسلت عقلك ولحست دماغك . شعور بالتعاسة ملأه حين هم بالكلام : واللـه يابرسوم مش عامل حاجة ، ولا أصلا فاهم حاجة ولاحتى عارف هى هدى عايزة أيه بالظبط ، كل حاجة بقت غامضة ومعقدة .. بنتها نورا بتتصرف معاها تصرفات غريبة ومش مريحة وماحدش قادر يوقفها عند حدها .

ـ طب ماتزق عليها أبنك شريف وهو يلجمها .

ـ حتى أبنى شريف كمان مابقتش فاهم هو عايز أيه . أرسل له نظرة أستغراب : يعنى كل دول أنت مش فاهمهم ولاعارف همه عايزين أيه .. مش يمكن العكس هو الصحيح وتطلع أنت اللى مش واخد بالك .

ـ أكيد لأ يابرسوم عشان أنا على الأقل واضح مع نفسى وواخد قرارى من البداية ومقتنع باللى أنا عايزه .. المشكلة مش عندى المشكلة عندهم همه .

ـ تقصد أيه ؟ .

ـ أنا متأكد أن هدى بتحبنى لكن فى نفس الوقت فكرة الجواز مش داخلة دماغها مع أن كل الظروف اللى حواليها بتقولها أتجوزى النهاردة قبل بكره .. كمان بنتها نورا بقت عاملة زى اللغز ماحدش فاهم هى بتفكر فى أيه ولا ناوية على أيه حتى شريف أبنى كمان مابقتش عارف هو عايز أيه بالظبط ، كلامه معايا بيقول أنه ماعندهوش مانع فى حكاية جوازى بهدى لكن .. سكت حائرا قبل أن يبادره برسوم : لكن أيه ؟ .

ـ تحس كده فى نبرته وفى شكله أنه مش راضى ولا موافق من أصله .

ـ وتفسيرك أيه ياخيرى ؟ .

ـ بصراحة أنا بطلت أفسر وأحلل .. تعبت وأرفت وزهقت .

ـ الصبر ياخيرى . قالها ممدودة . مشى بخطوات متثاقلة يبحث عن كلمة أو مصطلح يلخص بها أحساسه : هو عاد فى صبر للصبر .. أنا جبت أخرى وبقيت مش قادر ومحتاج هدى أوى فى حياتى . قالها بلهفة رجل نباتى أرهقه فراق اللحمة . لم يبلغا ناصية شارع شامبليون إلا مع بشاير العاشرة مساءا . لكزه برسوم فى جنبه لينتزعه من حالة السرحان : أنا حاتكل على اللـه وبكره يحلها ألف حلال . ودعه خيرى بلغة الأشارة محتفظا بشروده الذى قاده حتى مدخل البيت .

فى تلك الأثناء أحتمت نورا بغرفتها منذ ساعة ، أثار لقاءها العاصف بشريف لازال نابضا يتفاعل بشدة بالرغم من هدوئها الظاهرى البادى فى ملامحها وعلى جسدها المسجى على السرير . لم تدر أنها ظلت ساكنة فى مكانها ، شاخصة إلى السقف ، كأنه فيلم تسجيلى تتابع من خلاله مشاهد ومواقف من حياتها بترتيب ممل وكأنها تخشى أن يفلت منها مشهدا ، فتبدو غير مبررة ، لكن مقبض الباب الذى أدارته بسمة ودخولها بالصخب المعتاد أنتشلها من متابعة المشاهد التى لانهاية لها .. نواهى نورا تقضى بألاضوضاء ولاتهريج لحظات سكونها ، ومع هذا فهما الأمران الأكثر شيوعا ـ بحكم المخالفة ـ لدى بسمة .

ـ مالك يانورا .. مش عوايدك يعنى تيجى من بره وماتغيريش هدومك .

ـ مصدعة شوية . قالتها مسلوبة الوعى . همت بسمة أن تستفسر ، نهرتها : بقولك مصدعة يعنى مش قادرة أتكلم ولاعايزة اسمع حاجة . تلك العبارة ترتبط فى ذهن بسمة عن وجود أزمة أو حالة من التركيز لخطوة قادمة .

ـ طب ممكن آجى جنبك على السرير أنام ومش حتسمعيلى صوت . قالتها بمسكنة تماشيا لردة فعل غير محسوبة من أختها التى أغمضت عينيها بتعب : أطفى النور وتعالى ننام .

مع ظلام الغرفة أستعادت نورا دقائق اللقاء . أنقضت ساعة وعيناها مفتوحتان . كانت مواجع الليل من اللقاء الصعب تتزايد . كان السؤال لحوحا على رأسها : هل من المفيد تأجيل خطوتها الأخيرة من خطتها ؟ أم التعجيل بها ؟ يبدو الجزء الأخير من السؤال هو الأقرب للتنفيذ .. كان عليها أن تحسم الأمر قبل أن تنفلت الأوضاع وتتعقد . لكنها لم تسمح لهواجس النفس أن تقودها للتراجع عن خطتها . أبت أن تكون هى ـ الأن ـ المفعول بها ، بل أرادت الفعل كما أعتادت فأقنعت عقلها بأن شريف لن يجرؤ على الأقدام على خطوة السفر التى هدد بها ، هى على ثقة تامة بأن حبل الحب الذى تقيد به عنقه لازال طرفه فى يدها ، وعليه قررت انهاء الصراع مع أمها بالضربة القاضية تلبية لرغبة محمومة تحت عنوان " قضمه أحسن من نحته " . بدلت تكتيكها من وضعية التمهل وسياسة الخطوة خطوة إلى حسم الموقف بمواجهة صارمة . لم يعد الوقت فى صالحها . ثم بدأت عدا عكسيا ، لتكون ساعة الصفر .. عصر الغد . إلا أنها لم تنم ، شعرت بها بسمة .. سألتها : أنتى لسه صاحية يانورا ؟ أستدارت ناحيتها تطوقها بذراعيها ولم تجب . ثم همهمت : إن شاء اللـه بكره كل حاجة حتعدى .

ـ هو أيه ده اللى حيعدى يانورا ؟!.

ـ ماتشغليش بالك ونامى . قالتها وأرخت جفنيها على التمنى .

00000000000

فى تمام الرابعة من اليوم التالى كانت نورا قد أنهت فترتها الأول فى الأتيليه . وصلت الشقة ولاتزال أصداء العصر تتردد .. دخلت والنية معقودة وفى كامل جاهزيتها متمنية نهاية سعيدة فى وقت وجيز.

أغلقت الباب خلفها وخطت أول متر فى الصالة ثم توقفت حين لمحت أمها فى الأنتريه . تبادلا نظرات خاطفة .. بينما شعرت هدى بهاجس قلق لم تعهده من قبل . بدأ . منذ وهلته الأولى كبيرا ، يكبر ويتصاعد كلما أقتربت منها نورا التى واصلت طريقها إلى كنبة الأنتريه حيث تقطن هدى التى خرجت من محبسها منذ نصف ساعة التماسا لساعة تريض . توقفت أمامها لتفرغ مافى صدرها بعدما قررت تطبيق نظرية الهجوم الخاطف : أيه الحكاية بقى ياماما حتفضلى على الحال ده كتير ولا أيه..من أوضتك للصالة ومن الصالة للأوضة والحكاية يعنى مش مستاهلة كل الغم ده . رفعت عينيها بنظرة مبتورة لم يصل مداها للوجه المتحفز . زفرت فى عبوس : هو لاكده عاجب ولاكده عاجب .

ـ أيوه ياماما الحال ده مايعجبش حد . قالتها وجلست بجانبها بينما لم تعلق هدى واكتفت بالنظر فى أتجاه معاكس متعمدة اللامبالاة بينما تأهبت نورا لتوجيه الفكرة التى تستحوذ على شعورها إلى الوجهة الصحيحة .أردفت : ممكن ياماما نتكلم مع بعض بصراحة . أشاحت بوجهها معلنة من وجود شرخ لم يلتئم . أغمضت عينيها ظنا منها أنها أمام جملة أعتذار أو عبارة ترضية : عايزة منى أيه يانورا ؟ صمتت الأخيرة للحظات تتخير مفردات العبارة القادمة وشكل النبرة حين طرحت سؤالا مباشرا : أنتى وعمو خيرى حتتجوزوا أمتى ؟ لم تصدق نفسها حين أخترق السؤال رأسها ، أعربت ملامحها عن صدمة فاقت كل توقعاتها : أيه الكلام الفارغ اللى أنتى بتقوليه ده .

ـ اللى أنتى سمعتيه ياماما . أقتربت منها بوجه منزعج : أنتى أكيد أتجننتى ومش عارفة بتقولى أيه . أستقبلت غضب أمها بنبرة تحد أطلقتها من بين أضراسها مشحونة بأصرار اللحظة : اللى بأقوله ده مش جنان ولا كلام فارغ ومافيش حاجة بتستخبى ياماما أحنا كلنا عارفين اللى بينك وبين عمو خيرى وماتحاوليش تعيشى فى دور الصدمة وكأنى قلت حاجة غريبة أو أتهمتك بتهمة وحشة . تحولت هدى لكتلة من الفزع . بهتت حتى صار لونها رماديا مكتفية برفع كتفيها والتطلع لأبنتها بجزع : أنا مش مصدقة نفسى من اللى بأسمعه ده .. أنتى عايزة منى أيه بالظبط .. ماتسيبينى بقى فى حالى .

ـ مافيش حاجة أسمها أسيبك فى حالك وتسيبينا فى حالنا أحنا كلنا عايشين فى بيت واحد ومربوطين ببعض يعنى أى حاجة بتحصل لحد فينا بتأثر علينا كلنا . رجعت هدى للوراء بعدما شدت ظهرها فى مقعدها وبدا فى هيئتها مايوحى أنها تتمسك بالصبر ، إلا أن هذا التعبير معرض للزوال بفعل أستفزاز نورا ، فأنقطعت عنها الكلمات إلا من همهمات لامعنى لها بينما لم تفقد نورا طاقتها من الغضب : لما أنتى بتحبيه مش عايزة تتجوزيه ليه .. أدينى سبب واحد .هزها المعنى وأستكانت للذهول الذى أفقدها

التوازن فأستغلت نورا حالة التوهان : لو سمحتى ياماما أحنا مش ناقصين فضايح وياريت بقى تنجزى وتخلصى نفسك وتخلصينا .

ـ أنتى قليلة الأدب ومش محترمة ولازم تعرفى ان اللى قاعدة قدامك دى تبقى أمك مش واحدة من الشارع ولآخر مرة بأحذرك خدى بالك من كلامك وأبعدى عنى . قالتها صارخة بجسد يرتعش .

ـ أنا مش قليلة الأدب وأنتى عارفة كده كويس وأنا اللى بأقولك ياماما لأخر مرة مش حأسمح لك تحطمينا مرة تانية ومافيش حل قدامك غير أنك توافقى على الجواز من عمو خيرى وده أخر كلام عندى . قالتها وتراجعت للخلف لحظة مغادرة هدى مقعدها واقفة ، وبحركة لا أرادية تصفع خد نورا الأيمن صفعة حارة مازال لهيبها مشعا على بشرتها التى أنكمشت تزامنا مع خروج بسمة ويوسف من غرفتيهما مذعورين .. وقفا صامتين يتابعان بحياد مشهد نورا وهى تضع كفها على خدها تدارى بصمات الأصابع التى حفرت لها مكانا وقضت على أتفاقية سلام غير معلنة .

ـ آخر حاجة حأقولهلك يأما تتجوزى وتريحى نفسك وتريحينا ياتسيبينا وتبعدى عننا . بدتكمالو كانت تفرغ شحنة مكبوتة . بينما ماسمعته أمها جعلها تدرك انها بصدد مساومة أو فى وضعية سطو لفرض أتاوة .. بدت كالرهينة . لابد لها من سداد الفدية . كتمت أندهاشها وأشاحت بوجهها ناحية يوسف تتلمس فى وجهه وقع الكلمات . لم تقرأ أى تعبير فأنتقلت لبسمة التى لم ترفع عينيها . أحساس دفين يشعرها بالذنب إلا أن صوتها خرج مشفقا بهذا السؤال كأنه حصاد بين الخجل والفضول : أيه اللى وصل الأمور للدرجة دى ؟ لم تعلق .. دارت عيناها تعيدان النظر فى وجه نورا وكأنها تتثبت بأن كل مايحدث ليس لقطة فى حلم . طالت نظرتها وهى تستعيد ماسمعته .. كررته بنبرة هزيلة : يعنى يأأتجوز خيرى يأأسيبكو فى حالكو . أنهت جملتها وتبدلت ملامحها ونفضت الذهول ، فاتت على أبنتها بنظرة حادة : حاضر يانورا حأسيبكو فى حالكو .. حأسيبكو خالص . سحبت نفسها ببطء وأتجهت إلى غرفتها.

ساد صمت كئيب فى الصالة . همدت نورا على كنبة الأنتريه ولم تهمد ملامحها التى لازالت منفعلة بينما يوسف وبسمة أظهرا قلة حيلة وسط مشاعر خوف وقلق وأختبأ الجميع خلف الصمت والترقب ولم يتطوع أحدا منهم فى الرد على أيات التى خرجت بصحبة نعمة تستفسر : فى أيه ياولاد .. صوتكم عالى ليه ؟ لم تجد منصتا ولم تحصل على رد .

دخلت هدى غرفتها بنفسية محطمة وعلى وشك الأنهيار ، تداوى جراحا لا تتداوى . تراخت على السرير هشة الأعضاء . تمنت أن تصرخ .. تستغيث .. تنادى . اللسان معقود والصوت أخرس . إذا صرخت فعلى من تنادى .. لا منقذ لها ولا معين . لم تملك سوى الأحتجاج بكاءا ! .

تماسكت .. جلست نصف جلسة . لم يكن ذلك وقت التراجع . قامت إلى دولابها وهى تحمل قرارا . هى لاتريد أن تكون - من جديد - مسمارا فى مركب قد يتسرب اليه الماء فى أية لحظة . فتحت ضلفته ، مدت يدها إلى قاعه وسحبت حقيبتها السوداء .. أندلعت فى نفسها كل الهواجس والذكريات حين أخرجتها من مرقدها .. حملتها كمن يحمل أثما بين يديه ، هى رفيقة الكفاح .. جلدها الأسود العتيق يحمل تواريخا .. تاريخ دخولها السجن وتاريخ خروجها . واليوم أيضا ستسجل تاريخا ، لكنها لم تقرر بعد ماسيكتب بجواره . أرتجفت وهى تنفذ قرارها . بعصبية وتوتر مضت تلبس .. شعرت برهبة تجتاحها . نظرت فى المرأة بعد أن أتمت لبسها .. تأملت نفسها طويلا ..

فى الخارج كان الجو مكتوما .. مرت ربع ساعة بأيقاع بطيىء ، لم تقال خلالها سوى جملتين أو ثلاث على أستحياء كانت كلها من نصيب نورا على سبيل التوضيح ومن يعدها دان صمت حذر لم يقطعه سوى صوت " أيات " التى أشارت ليوسف : أدخل شوف مامتك وحاول تهدى الأمور . هز رأسه موافقا بعد ماحصل على تصريح من عينى نورا . دخل غرفتها مترددا بعد طرقتين .. كتم أنفاسه وفضحته الدهشة حين وجدها أمام الدولاب مرتدية ملابس الخروج وبجوارها ترقد الحقيبة مفتوحة على مصراعيها وقد أمتلأت حتى نصفها بملابس مرصوصة فوق بعضها .

ـ أيه اللى بتعمليه ده ياماما . قالها حين أقترب منها . تابعت سحب ملابسها من رف الدولاب وكأن السؤال لايخصها .

ـ ماتردى على ياماما . قالها متوسلا بينما أشاحت بوجهها متابعة غلق حقيبتها بصرامة . فألح : ماتفهمينى أيه اللى بتعمليه ده .. أرجوكى ردى على .

ـ أنا ماشية يايوسف وحأسيبكو فى حالكو .

ـ ماينفعش تسيبينا وتخرجى . أستردت هدوءها : ليه ؟ .

ـ عشان .. عشانماينفعش .. ده بيتك ياماما وزى مأنتى محتاجة لنا أحنا كمان محتاجينلك . قالها وهو يحتجزها بجسده .

ـ متأكد يايوسف أنكم محتاجينلى . قالتها ساخرة إلا أنهاأيضا شعرت براحة لكلماته ، وبدا لها أن ضمير البراءة يتحدث اليها . تطلعت إلى عينيه : ماتضحكش على نفسك يايوسف ، ، أنا ولا حاجة بالنسبة لكو .. أنتو محتاجين لأم بجد مش أم تقليد .. أم تكون عاشت معاكو لحظة بلحظة ويوم بيوم وشافتكو قدام عينيها وأنتو بتكبروا .. أكلت معاكو وشربت معاكو وشاركتكم فى فرحكو وحزنكو وتعبت عشانكم وأشتغلت وصرفت على تعليمكم لغاية مأنت أتخرجت وبقيت مهندس أد الدنيا وأختك قدامها سنة ولا أتنين وتحصلك . سكتت .. أخمدت أحباطها فى نظرة متأكلة ثم أردفت باكية : كل الحاجات دى أنا ماعشتهاش معاكم أتحرمت منها .. سمعت بيها لما كنتم بتيجوا تزورونى فى السجن .. أمك الحقيقية يايوسف مش موجودة هنا فى الأوضة .. أمك قاعدة برة فى الصالة ... هى الأحق منى .

ـ مافيش حد فى الدنيا يقدر يستغنى عن أمه . أدمعت عينيه وقبلها من جبينها ، غير أنه أدرك أن تعاطفه معها قد ورطه فى موقف لايحتمل غير الأنسحاب . خرج من غرفتها كما خرجت تتبعه وهى تحمل حقيبتها . سارت خلفه تضغط بحذائها على أصابع قدميها . أنحرف يوسف يسارا حيث يجلس الجميع بينما هدى قطعت الصالة بأتجاه باب الشقه تتخبط بحقيبتها تتحاشى النظر فى الوجوه التى أنتفضت وقوفا من هول المفاجأة . أندفعت بسمة خلفها حتى أصبحت تحاذيها قبل أن تسبقها وتسد الباب بجسدها : رايحة فين ياماما .

ـ سيبنى يابسمة وأبعدى عن طريقى . قالتها وهى على وشك الأنفجار .

ـ مش حأسيبك ياماما تخرجى . قررت أسكاتها بصرخة : ماحدش له دعوة بيه . لم يعد لديها القدرة على التراجع بينما تسابقت نورا نحوها وألقت عليها جملة من خلفها : يعنى أيه ماحدش له دعوة بيكى .. تجاوزت مرحلة الصبر حين أنفجرت بهيستيرية : أنا خلاص ماليش مكان هنا ، كملو حياتكو مع بعض أنا رايحة للشبهى لاللى عاشرتنى فى السجن وكانت أحن على منكو . أصيبوا بشلل مؤقت منعهم من الحركة ولم يعلق أحدا منهم بالقبول أو الرفض وكأنهم أتفقوا فيما بينهم على عزلها . أخافها الهياج فتراجعت خطوة للوراء وأنصاعت بسمة أيضا لنفس المخاوف فأفسحت لها طريقا للخروج بعدما أدركت حجم المشكلة . لم يكن للكلام قيمة أو للبكاء معنى .. مدت هدى يدها تفتح الباب بسرعة كأنها تنتزعه .

كان خروجها ضربة غير منتظرة خرست بعدها كل الأسئلة والأجوبة .. بقيت أيات فى مكانها ونعمة راقدة عند قدميها فى وضع جارية الأميرة .. تراقصت أمام أيات أطياف شخوص ، عادت تنبض للحياة من جديد آتية من زمن بدا أنه موغل فى القدم . فتذكرت أنها عاشت هذه اللحظة من قبل حين خرجت من بيت الزوجية جريحة تحمل حقيبتها وورقة طلاقها . صورة معادة تقدمت فى مخيلتها على كل المشاهد الحية ، مثل هذا تماما كان يحدث فى زمان تراه الآن بعيدا . هذه اللحظة الكئيبة لايمكن أن تمحى من لوح ذاكرتها . ألتصق الجميع فى أماكنهم ساهمين بفعل الصدمة بينما نورا هى الوحيدة التى تحمل جسدا يتحرك .. ذهابا وأيابا ، وصدى خطواتها الثقيلة يتردد فى الصالة الصامتة . كانت تشعر شعورا غريزيا أن شيئا أنزاح وأنتهى ظاهريا . إلا أنه فى حقيقة الأمر قد يبدأ من جديد .

خرجت هدى من باب الشقة تسير بخطى مترنحة مثل سفينة بلا قاع . أمام باب المصعد وقفت وسط فوضاها الأنفعالية وفى رأسها ضباب وفوران ، صور من أفكار وكلمات محشورة فوق لسان ملتصق بسقف حنكها . هى الأن بأمس الحاجة لخيرى .. كى يبدد حزنها . قررت فجأة أن تتجه لباب شقته .. أستدارت وأندفعت دون تخطيط . ظل رنين الباب يلح حتى رضخ خيرى وقام من مكانه تاركا خلفه الرئيس " مرسى" يصدح على الفضائية المصرية موجها خطابا شاملا للآمة المصرية من دون مناسبة . أتجه ناحية الباب قبل أن يضع " الروب " على بيجامته . تقليد أحتفظ به منذ اليوم الأول لزواجه من سميحة هانم . سار يردد اللعنات وهو يقترب من الباب : بقالى ساعة بأسمع مرسى مافهمتش منه حاجة وأول ما بدأت أفهم الجرس يرن ! عندما رفعت أصبعها من فوق الجرس أنفرج أمامها الباب .. أستقبلها خيرى بوجه مدهوش وفمه الفاغر محشو بالأسئلة . لم تتريث أمام الباب . لم تسأل نفسها أن كانت تمتلك حق الدخول دون استئذان . وقبل أن تستقر خطواتها المترددة بالداخل بادرها فى لهجة مندهشة وهو ينظر الى الحقيبة : فى أيه ياهدى .. أيه اللى حصل ؟ لم تجب .. سرح لحظة فى منظرها بعد أن أغلق الباب بينما كانت قدماها تسبقانه الى الداخل عبر صالة لم تكن تعرف مكوناتها . كان الضوء خافتا ورائحة الدخان تملأ المكان . نظر لها كأنه يرى وجهها لأول مرة .. أنفلتت من جواره ورميت جسدها على أول كرسى . لمح فوق وجهها علامات الأنفعال . أدرك أن الشجار المعهود قد وقع بينها وبين نورا . شغل نفسه للحظات بأنتقاء الكلمات لتوجيه أسئلته حين جلس أمامها : أحكيلى براحة أيه اللى حصل ؟ سؤال فتح عليه فوهة بركان من بكاء هيستيرى .مد صدره إليها وتزحزح لحافة كرسيه ، راح يهدىء من روعها بملامسات رقيقة : أهدى شوية وفهمينى الحكاية ؟. أختنقت لربع ساعة كاملة، وهى الفترة التى أستنفزت فيها كل طاقتها .. أفرجت عما فى

صدرها وكأنها تردم بركانا يغلى .. كبحت دموعها أكثر من مرة ، لكنها فشلت مرات .. مزق صوتها المبحوح تماسكه . عرض عليها التدخل والوصول الى حل توافقى مع نورا ،إلا أنها رفضت بشدة هذا العرض كما رفضت التراجع عن فكرة ترك المنزل بالرغم من تحفظه الشديد عن نيتها فى الذهاب لفايزة . أقترح عليها مشروبا مهدئا كى يجدد محاولاته فى أقناعها ، أبتعد للمطبخ يصنع لها الليمون بينما بقيت فى مكانها تسند ذقنها الى كفها وحقيبتها بجوار قدمها وكأنها فى محطة مصر تنتظر قطارا . لحظات وقدم لها الليمون ، رشفت رشفتين ، نزع الكوب الذى تحتضنه بأصابعها . جذبها من يدها . فوقفت . أصابتها رعشة تكاد تفضحها . حاولت أن تفلتها ، أحس نعومتها فأستنفر !. تذكر أنه لم يلمس امرأة منذ وفاة زوجته .. طاوعته ، ضمها الى صدره ، لف ذراعيه حول كتفيها ، أحتواها بحنان ثم فى عنف . أستكانت .. كان يشعر أنه يروى أرضا أنهكها الجفاف .. نقل اليها احساسا مريحا ، لعلها تستطيع أن تفض ذلك الأشتباك الذى قام بين الأيام التى مضت وحاضرها الذى ضاعت منه ملامح المستقبل . دلكت أنفها فى صدره .. ظلت صامدة .. نظر لها وكأنه ينصت لكل أحزانها . فأنساب الكلام بينهما بلا حوار . رأته .. قرأت فى عينيه نداء أو حست به يعبث بخلقتها دون أن تبدى رفضا أو قبولا ، كأنها بصمتها تدعوه ليزيد من زحفه الذى بدأه بطيئا . فواصل زحفه ولم يترك حيزا فى وجهها وهوكل ماأتاحه الحجاب دون أن يضع عليه بصمة شفتيه . وحين شعر بأصابعها تلامس شعر رأسه .. عرف أن قدميه قد وطأت أرضها وأن رايتها البيضاء قد رفعت .. نعم أعلنت أستسلامها له فى كلمات خجولة : بلاش ياخيرى بلاش . وشوشت بها فى أذنه حتى لاتخطىء طريقها الى أعماقه .. تشبثت بصدره أختلطت دموعها بقبلاته وهو يأكل بشفتيه وجها مستسلما مثل وحش أنفك قيده . أنها البداية ، قال فى نفسه ، دون أن يكون له تصور لشكل النهاية . أنهار جسدها الذى أكلته سنوات الحرمان فى أول محاولة حقيقية للأختبار . تناول خصرها بذراعه فألتصقت به أكثر . قادها نحو غرفته ودخل بها ، فأنسحبت لأول مرة روح" سميحة " الى حيث مكان عظامها .. تأمل صمتها وتحسس عذابه .. سحبها من يدها فسارت معه بلا عقل .. دقق فيها كأنه يقيس المسافة بين الرغبة وبين الرفض .. هربت إليه بينما تنطلق من جسده كل الوحوش . لم تعد النظرات وحدها هى جواز المرور إلى مملكتها .. تعددت أختياراته حين طرحها على الفراش .. جند كل أشياءه فى أتجاهها تأملت ملامحه ، تعد نفسها للحظة التسليم .

شعرت به مثل أسد جائع يبحث عن قطعة لحم لايعرف مكانها وهى لاتملك غير هذا الجسد الذى أنهكه الحرمان وهذه النفس المضطربة . أنفاسه تتلاحق فوق تفاصيل جسدها كأنه يفتش عن كل شهوة .. لم

تقاومه تركته ينزع حجابها ثم بلوزتها ثم .. ثم .. ويعبث بكل الأشياء التى ماتت بينما تتحسس ضعفها أمام نموذج رجولى رائع والتى لاتملك الا أن تفتح له صدرها وقلبها وساقيها ليحتل أى مسافة يراها مناسبة ، فأختصر المسافات حين حاصرها بين يديه ومد فيها مايحسبه قد مات ! سار فى طريقه عابرا الضفتين .. حولها فى لحظة الى كتلة لحم ملتهبة . كان أستسلاما غير مشروط .. أنفجر اليأس فى جسديهما فغاصا فى هوس لاحدود له . حصل كل ذلك فى دقائق قليلة ، وكما لو أنها فى حلم ، تجرى فيه الأحداث بلا زمان .

سحبت نفسها من نفسه ثم تسلمت جسدها .

ـ بحبك أوى ياهدى . قالها بصوت من يعترف بذنب لم يفطن له الا بعد فوات الأوان ! لم ترد . شعرت بالمكان يضيق بها كأنها فى قبر . بدا أنهيارها الى أخر أطرافها . قررت أن تبقى فى السرير للحظات حتى تزيل عنها أثار الخطيئة . أرتدت ملابسها فى صمت .. حملت بقيتها الباقية وأنسحبت من الغرفة طاوية طرحتها على صدرها ، لم يكن أمامها الا أن تحمل حقيبتها وماتبقى منها . أتجهت الى الباب وصوت خيرى يلاحقها : أستنى ياهدى حألبس وآجى معاكى أوصلك . تدافعت خطواتها فى الصالة كأنها تتدحرج من فوق جبل الى سفحه . رحلت بعدما ترك فيها مالاينسى .. شعرت بنفسها أمرأة مستباحة من يمد يده يأخذ مايشاء ! .

هى الأن الأنثى الطريدة . يطاردها الماضى بلعنة السجن ويطاردها الحاضر بلعنة الضعف والتفريط .. لم يعد من فرق بين الماضى والحاضر فكلاهما وجه اخر للعقاب .

فى نفس الوقت لم يتغير المشهد فى شقة هدى .. لازال الجميع محبوسين فى أماكنهم بالصالة ، لايدركون كم مر من الزمن عليهم وهم فى خرس قبل أن تفارقهم نورا التى دخلت الى حجرتها وأغلقت على نفسها .. هوت على السرير .. بقيت للحظات ممددة على بطنها تحاول أن تبكى ، لكنها لم تبك رغم تحفيزها للدمع .

بينما فى تلك اللحظة أجتازت هدى المدخل بحقيبتها . أستقبلت طريقها بشعور أمرأة مهدمة . قررت ألا تلتفت قبل أن تتخشب فى وقفتها على الرصيف . بعبارة تتوتر بالأنفعال قالت حين أقترب منها تاكسى : كرموز ياأسطى .

ـ حأخد عشرين جنيه . قالها مهددا . ركبت مغادرة شارع شامبليون ، خمس دقائق وبدت الناس تتضح صورهم ويبدو لهم ملامح حين أنزاحت الدموع من عينيها ، بدأت تتسمع لصوت الناس والسيارات يتصاعد حولها متأنيا حتى أصبح ضجيجا بعد مرور نصف ساعة حين أقتربت من حى العطارين ، تطور الضجيج الى طنين ، ثم الى أصوات تصرخ بملء حناجرها حين باتت على حدود كرموز .

سحبت شنطتها وهبطت من التاكسى فى شارع كرموز العمومى . الطريق الى بيت فايزة مفتوح الأحشاء عن برك مياه وبالوعات بلا أغطية ، عليها أن تستخدم طاقتها القديمة وعضلات المشى . الحوارى تلتوى وتتشابك أمامها كعلامات أستفهام . كانت تمضى والبيوت التى وصفتها فايزة بالقبح تتضح اكثر . ظهرت لها عند أول الحارة عتبات بيوت كثيرة ، عتبات عتيقة داست فوقها أقدام أجيال وأجيال ، كل عتبة تحمل أسم صاحبه ، لذلك فالوصول لفايزة سهل ، يكفى أسم من تريد حتى يضعك أول من تسأله على العتبة . أرتقت درجات السلم ترفعها الى الطابق الثالث . طرقات خافتة متوجسة على الباب ثم رنت الجرس .. قامت فايزة مفزوعة من أغماءة العصر ، خرجت من غرفتها يقودها صدر ضخم كمقدمة مركب تشق الطرقة ومنها للصالة تحجل على قدم واحدة فالأخرى عارية بلا شبشب . فتحت لتفاجأ بمن تسند رأسها على حافة الباب لاتقوى على الوقوف . طلت برأسها ثم خطت خطوة للأمام تدقق فى الواقفة أمامها .

ـ نعم .. أنتى مين ؟ عدلت من بوصلة وجهها ، وضعته أمام عينى فايزة مدعوما بنظرة فرح واهنة وأبتسامة مكسورة ، بعد عملية فحص لم تدم أكثر من نصف دقيقة رفعت فيها فايزة كل المقاسات وأمعنت فى الملامح حتى نجحت فى كشف هوية المنهارة أمامها ، هيستيريا هائلة عصفت بملامحها وألهبت وجهها بعاطفة سرت فى بدنها كله . لم تتماسك حين تخطى صوتها حدود السلم معلنا عن صيحة فرح عنيفة : هدى .. مش ممكن .

لحظة واحدة كانت كافية لتسجل فايزة رقما جديدا فى زمن الوثبة حين خطفت هدى وحقيبتها فى صدرها تعتصرها فى لهفة وتطبع على خديها قبلات يصعب حصرها أو عدها ، صارت هدى فى صدرها عجينة لينة قبل أن تسحب جثتها للداخل : واللـــه العظيم أنا ما صدقة عينيه .. هدى حبيبتى وروح قلبى عندى هنا فى البيت . قالت جملتها وأنقضت ثانية على هدى التى استسلمت وتركت لها خديها تستقبل قبلات محمومة ، ثم فكت أسرها قبل أن تعاود هزها بعنف : أشتمينى ياهدى وبهدلينى زى زمان عشان أصدق أنك واقفة قدامى . أنتزعت ضحكة من وسط ركام الأحزان : وحشتينى يافايزة ياعكننة . فتحت بجملتها

بابا لعناقا مؤثرا صاحبه نوبة بكاء أختلطت فيها نعومته بحدته .. مرارته بفرحه قبل أن يرتفع أنينه ويطول زمنه ، بينما يتابع عبده بذهول متربعا بجلبابه وطاقيته فوق كنبة الصالةقبل ان يخرج عليهما بملامح رجل معتوه غير مصدق مايحدث .. أقترب منهما ودار حولهما حتى أنتبهت هدى وتوقفت عن البكاء . سحبت نفسها من صدر فايزة : أزيك يامعلم عبده .. أخبارك أيه . قالتها وهى تمسح دموعها .

ـ ربنا يخليكى ياست . تاه فى وجهها متفحصا . أردف : متهيألى الخلقة دى مرت علي قبل كده .

ـ دى مش من الخلق الوسخة اللى أنت تعرفها . قالتها فايزة بأرف قبل أن تعود بأبتسامة : دى هدى حبيبتى وأختى وصاحبتى كانت أسيرة معايا فى السجن وطلعنا سوا عفو . ناول جبهته كفا أفزع به هدى : أيوه .. أيوه ماتأخذنيش ياست هدى أنتو فى السجن بتبقوا كلكو شبه بعض لابسين أبيض فى أبيض زى اللى واقفين على جبل عرفات .

ـ عقبال ماتقف كده زينا بس على جبل تكسر فيه حجارة وأنت لابس أزرق فى أزرق . ثم أنهت عبارتها بجملة صارمة : خلاص ياخويا روح أتكل على اللـه أعملنا أتنين قهوة .

ـ أوامرك يامعلمة .. الست طبعا طلبها مظبوط .

ـ صح يامعلم. قالتها وأستوت على كرسى فى الصالة بينما تربعت فايزة أمامها على الكنبة وقد أنحسر ثوبها عن ساقيها حين راقبتها من خلال لهفة السؤال الصامت عندما نظرت لحقيبتها السوداء . إلا أن عتابا متبادلا دار بينهما عن سبب البعاد الذى أفردت له هدى دفاعا واهيا : أتلخمت واللـه يافايزة فى مشاكل كتيرة مع ولادى وكمان أشتغلت فى أتيليه زيزيت . قاطعتها بلهفة : الخياطة صاحبتك .

ـ أيوه .. كل تركيزى كان أزاى أعوض السنين اللى فاتت وأبدأ من جديد وألم ولادى حواليه ، لكن أدى اللـه وأدى حكمته .. فشلت فى كل حاجة . تابعتها فايزة بنظرة حزينة قبل أن تبدى الأخيرة أسبابها : أنا كمان زيك أتلخمت فى حالى وأشغالى والوقت سرقنى على ماظبط أمورى وعرفت أولى من أخرى ولميت فلوسى اللى كانت متبعترة فى السوق وهديت البيت بتاع أبويا ولسه بأقول ياهادى فى شغل المقاولات وآهو منصور أبنى معايا بيساعدنى بعد مالحقته وأخدته فى حضنى بعد ما كان حيضيع منى .

ـ وده يمنع يافايزة أنك تخطفى رجلك وتيجى تزورينى .

ـ تصدقى وتؤمنى باللـه ياهدى ماكان فى يوم بيعدى إلا وفكرت أزورك .. بس

ـ بس أيه .. أهتزت فى جلستها : أنا عارفة وضعك كويس وفاهمة ظروف عيالك عشان كده كنت بأراجع نفسى وأقول بلاش يابت تسببى لها مشاكل . هزت رأسها دون تعليق وكأنها تقول " خير مافعلتى " مدت فايزة نظرها تتأملها : شكلك مش عاجبنى ياهدى ، ده أنتى كنتى فى السجن زى الوردة المفتحة . فأبتسمت قبل أن يعود الى وجهها طابع الحزن الذى جاءت به : السجن ببرده وحره وخنقته وعنبره المليان كان أرحم ألف مرة من العيشة اللى برة . سكتت لتمنع رعشة جرت خلفها دموعا .

ـ أيه اللى حصل ياهدى ؟ سألت ثم أنتظرت أنصراف عبده الذى جاءهما بقهوته مشمرا أكمامه وقدمها فى زهو مكتوم ونظرته تطرف فى أتجاه هدى : حتشربى دلوقتى واحد بن معتبر وأسمع منك بعدها تسلم أيدك ياعبده ياجن . رشفت من فنجانها قطرة : تسلم أيدك بجد . وضعت الفنجان على الصينية ثم تنحى عبده عن مكانه حين أصدرت فايزة بيانا شديد اللهجة : مش تهوينا بقى وتتكل على اللـه تروح شغلك . خرج يتنحنح بعدما تقمص شخصية " سبع الليل " :ماشى ياست الكل .. مش عايزة حاجة أجيبها وأنا راجع .

ـ ده من أمتى الكلام ده ياشهم . أختصر الموقف بأبتسامة رافقته حتى باب الشقة . مدت فايزة يدها لفنجان القهوة وبنظرات ثابتة ناولته لهدى مثل كاهن يستعد لأستقبال الأعتراف .

ـ أحكيلى ياحبيبتى مين اللى مزعلك . نظرت لها وأبتسامة ميته تنبت على شفتيها اللتين أصبح لونهما باهتا: الدنيا كلها مزعلانى .

ـ دى حكايتك باين عليها كبيرة وأكيد بنتك نورا ورا اللى أنتى فيه ده ؟! حلت قهوة عبده عقدة لسانها . سقطت الكلمات من فمها كثقل لم تحتمل حبسه : ولادى مابقوش طايقنى ولاعايزنى ، نورا حاربتنى جوه البيت وبراه حرمتنى أعيش يوم واحد مرتاحة من ساعة ماخرجت من السجن وكأن فى تار بايت بينى وبينها .. فى الأول كذبت نفسى وقلت معلش الأيام كفيلة تداوى اللى فات . سكتت .. أغتصبت ريقها قبل أن تستطرد : بس ياخسارة ما أديتنيش فرصة وأستعجلت وماأستحملتش وجودى وأخرتها ساومتنى ياأما أسمع كلامها وأتجوز ياأبعد عنهم وأسيبهم فى حالهم .

ـ ياخبر أسود ومنيل هى حصلت لحد كده . قالتها وعقدت أصبعيها تحت ذقنها بينما هدى شاعت فى فمها مرارة الكلمات قبل أن يبلغ الفنجان شفتيها : ماكانش قدامى حل تانى غير أنى أسيب لهم البيت وأمشى .

ـ طب هى عايزة أيه من ورا اللى بتعمله ده ؟ .

ـ مش عايزة يبقالى وجود فى البيت ، مصممة تبقى هيه الأخت والأم وصاحبة الأمر والنهى .

ـ ماتأخذنيش ياختى الكلام اللى بتقوليه ده ينفع بين واحدة ومرات أبوها ولا واحدة مع ضرتها بس مايجوزش ابدابين بت وأمها . قالت عبارتها ولم تجد سببا منطقيا مبررا تهدأ به أحزان هدى ، فحاولت أدراك مالايدرك ، يرفعها الى مقاربة خرجت بها عن النص : يكونش بنتك اللهم ماأحفظنا ملبوسة ولا يكون اللى عليها مشقلب دماغها من ناحيتك . دهشت من كلامها : نورا عقلها يوزن بلد وفاهمة كويس هى بتعمل أيه . سحبت على الفور نظريتها : أخس عليها أخس فى بت تعمل كده فى أمها ، طب وأخواتها مالهمش رأى فى اللى بيحصل .

ـ أخوتها وعمتهم معذورين ، بقالهم عشر سنين معتمدين عليها فى كل حاجة .. نورا هى اللى بتصرف وبتأكل وبتشرب وبتقرر وهمه مايعرفوش يعملو حاجة من غيرها عشان كده أنا عاذراهم ومش زعلانة منهم وكفاية عليهم اللى أتحملوه .. الناس مارحمتهمش يافايزة وعايروهم أن أمهم ربة سجون . أستعانت الأخيرة بسيجارة ثانية تعينها على أستيعاب فجيعة رفيقتها فى أبنتها .

ـ وعزة جلال اللـه خير ماعملتى ياهدى ومن النهاردة أنتى حتبقى نوارتى وصاحبة البيت ده أنتى نعمة من عند ربنا بعتهالى . قالتها وقامت تمد يدها لها : ياله قومى معايا عشان تغيرى هدومك وتروقى كده . أغمضت عينيها وترجتها : محتاجة أخد حمام ضرورى . تحاملت على نفسها تقودها فايزة كخادمة مطيعة لموقع الحمام . دخلت لتجد نفسها فى مكان أكثر حداثة لا ينسجم مع سلوك الشقة ، حمام مجهز بـ " قيشانى " مستورد ينام على أرضيته " بانيو " روز متوجابخلاط مياه ساخن وبارد . أنتابتها رعشة حين خلعت ملابسها . أحتلت بصمات " خيرى " كل أرضها الطرية ، جاهدت لحفظ وقفتها تحت " الدش " .. تتحسس صدرها وخصرها وفخذيها ومابينهما . أدارت وجهها للحائط أستقبلت الماء على رأسها ثم ظهرها ، خرجت دموعها مع دموع " الدش " كأنها أمام حائط المبكى حين جال فى رأسها أحداث الساعات الأخيرة .. ظل بدنها يقشعر .. رفعت رأسها وهى تدلك وجهها بكفيها قبل أن ترد بصعوبة على صوت فايزة : معاكى غيار ولا أجيبلك من عندى .

ـ معايا . مرت على جسدها بفوطة ثم سترته بـ "سونتيان " و " أندر " عليهما عباية عنابى جديدة أصرت فايزة على أن تكون هدى أول الداخلين فيها .

عند عتبة " الحمام " تلقت هدى وصلة مديح على لسان فايزة حين فتحت الباب : بسم اللـه ماشاء اللـه بدر ياأخواتى طالع من الحمام . ثم سحبتها نحو بطن البيت ، دخلت بها غرفة نومها التى أثارت أعجابها : أوضتك حلوة أوى يافايزة .

ـ دى ياحبيبتى اللى حننام فيها أنا وأنتى .

ـ أيه اللى بتقوليه ده وعبده ؟ تأففت : عبده مكانه فى أى نصيبة تشيله . جلست على حافة السرير مضاءة بالعباية العنابى تحوط رأسها بـ" فوطة " كعمامة . فتحت حقيبتها حين صرخ موبايلها .. نظرت لشاشته .. لم ترد وأعادته لمكانه ساهمة ثم أطرقت برأسها للأرض ، وموجات عصبية تسرح فى صفحة وجهها ، وفى عينيها نظرة غارقة فى دمعة متحجرة ؟، وكأنما تنبه فايزة الى أنها يجب أن تقول شيئا . لم تتطفل الأخيرة إلا عندما تفككت الدمعة وأنسابت ، فأقتربت منها مستفسرة : حد من ولادك ؟.

ـ لأ ده خيرى جارنا .

ـ ده اللى نورا بنتك عايزاكى تتجوزيه .

ـ أيوه . قالتها وتحسست صدرها الذى لازال يحمل بصمات الرضيع !. تنازعتها الأحاسيس .. شيئا ما بداخلها بدا محطما بفعل أولادها وأخر منهارا بفعلتها . أجابتها المختصرة دفعت فايزة لممارسة عشمها القديم : وخيرى ده نظامه أيه ؟ صمتت مرتجفة . ظلت فايزة ترمقها حين جلست بجوارها تقرأ مزاجها الذى حفظته . فألحت : حتخبى على أختك . همت بالتحدث عن خطيئتها مع خيرى ، لكن شيئا منعها ، فضلت الأحتفاظ بسرها . تأملت الوجه الذابل : لازم تفضفضى ياحبيبتى ماتشليش فى نفسك .. كده مش كويس . ضغطت على كرامتها العنيدة أن تلين ، فأفرجت عن كل ماتكتمه . أدلت هدى بأعترافات مختصرة التفاصيل ، تنتزع فايزة من على لسانها الكلمات .. كلمات خجولة نادمة تتوج بها هزيمة كانت صنيعتها . وقعت على أعترافها بنوبة بكاء قاسية أستغرقت منها لحظات .. لم تفلح بعدها فى تجاوز وجه فايزة بكلمة أو حتى بنظرة بينما شعرت الأخيرة بعمق مأساتها وبالغ حرجها فبادرت بأنتشالها من وضعية الندم بصياغة جملة على طريقتها : خلاص بقى ياهدى اللى حصل حصل وأنتى بأيدك أيه ..ماهومااينفعش الزيت ييجى جنب النار وماتقومش حريقة . قالت بمرارة : اللى حصل بينى وبينه مخلينى مش طايقة نفسى .. مش حأقدر أوريه وشى تانى . رددت جملتها الأخيرة متحسرة .. تحولت مأساتها إلى وجع لاتملك نسيانه ، بدت وكأنها لن يواسيها كلام أو يرضيها عزاء . رنين

موبايلها كان لحوحا ومتواصلا يذكرها دائما بأنها لم تبتعد عن مسرح الأحداث بالقدر الذى يسمح لها بالأنسحاب كليا ، أربع مكالمات فائتة من بسمة ومثلها من يوسف وضعفها من خيرى .. كان لها رغبة فى الأنفصال عن الأحداث والأبتعاد عن المأساة .

قضت هدى نهارها الأول ملتصقة برفيقتها . عثرت على روحها الهائمة فى صحبة فايزة . أزاحت مؤقتا هموم حاضرها . مر الوقت عليهما سهلا رغم ماتتجرعه من أحزان ، لم تفارقهما الضحكات حين بدأت الحكايات تتوالد والقصص تتناسل . كان تاريخهما فى عنبر النساء حاضرا بقوة حين جرفتهما الذكريات تتنازعهما المقارنات بين ماكان وماأصبح . تهبط المواقف فوقهما مثل أوراق الخريف . تذكرتا الوجوه والأسماء . تمسحا فى ذكريات السجن أستدعاءا للضحك الذى حضر بوفرة عندما طاردتها فايزة بمواقف لاتحتمل إلا التسليم بضحكات تاهت فى تضاريس وجهها الحزين ، فسكن الألم وأختبات الأوجاع بعدما حضرت كل التفاصيل التى عاشت بينهما .

الفصل الخامس عشر

دخل الليل من لحظات إلى شقة " هدى " بدا المكان ساكنا وكأن الزمن عاجز عن أن يحرك ايقاع الساعات البطيئة . لازالت نورا تعيش أجواء مكهربة ، لم تحصل بعد على الراحة المنشودة وسط أستياء صريح ونقد على أستحياء . تلك هى المشاعر التى تحصلت عليها من سكان المنزل وخاصة بسمة التى أستحوذت على النصيب الأكبر من عدم الرضا لما آلت إليه الأمور ، ترمى بجملة أو أثنتين ثم تختفى فى غرفتهابصحبة قلق وتوتر يزداد ايقاعهما حين تصرخ نورا فى الصالة عقب عودتها من الأتيليه : أنا مش فاهمة أنتى حكايتك أيه بالظبط .. مش عاجبك تصرفاتى ياست بسمة .. لو شايفة أنى مسئولة عن اللى حصل أخرجى من أوضتك وواجهينى وقوليلى فى وشى أنى ظالمة وماعنديش قلب بس لازم تعرفى ياهانم أن ماما كانت بتتلكك عشان تمشى من البيت . لم تخرج للمواجهة ولم تعلق وأكتفت بتنهيدة لم تكتمل حين رن موبايلها . تسارع نبضها عندما ظهر لها رقما غريبا .. رددت فى لهفة : ماما .. رفعته لأذنها فى ثانية واحدة : أيوه .

ـ أزيك يابسمة . تاهت فى النبرة الذكورية بينما يطاردها الصوت : عاملة نفسك مش عارفانى . تصدعت أفكارها .. بدت نبرتها الخافتة تنسج من الكلام لونا وشكلا : مين معايا . سألت ثم سكتت تتلقى الأجابة : أنا أمجد يابسمة . كتمت أنفاسها . أجتهدت للتماسك : أهلا .

ـ عارف أن شكلى وحش وعارف أنك مش طايقة تسمعى صوتى . تعمدت أن تسمعه تنهيدة من نفذ صبره : خير ياأمجد .. عايز أيه ؟.

ـ عايز حاجات كتيرة . نبرة ساخرة كانت تنتظره : أنا مش قلتلك على اللى فيها وصارحتك بالحقيقة .. ماعنديش حاجة تنفعك . لم يخدعها برأيه : من تلات شهور بالظبط ومن يوم ماصارحتينى بالحقيقة كنت حأقولك فعلا كلامك صح .. كان كل اللى يهمنى ألاقى حد يساعدنى وبأى طريقة بالفلوس ماشى بالسفر ماشى المهم أن حلمى يتحقق .. لكن بعد مأخدت وقتى وراجعت تفكيرى أكتشفت حاجات مهمة اوى ماكنتش واخد بالى منها . قاطعته بتذمر بعدما استنفرت كل حواسها : أنا بقى كنت واخدة بالى كويس وعارفة أنك بنى أدم وصولى وطماع وبتتعامل مع بنات الناس على أنهم صيدة واللى ييجى من وراهم يبقى غنيمة هو ده اللى يهمك .. نفس منطق البلطجية .

ـ مش حأدافع عن نفسى ولا حأقولك كلامك صح ولاغلط بس لازم تعرفى أنى من يوم مابعدت عنك وكل حاجة فى دماغى أتغيرت .. كل يوم بيعدى على كنت بحارب فيه ..

ـ واللـه ده خبر كويس أنت أطوعت فى الجيش . قالتها وتراجعت ببطء لظهر السرير مستفزة .

ـ لا يابسمة أنا أطوعت فى الدنيا .. من يوم ماتخرجت وأنا فعلا بحارب فى كل مكان لغاية ما خدت تأجيل من الجيش وحاربت لغاية مالقيت شغلانه فى شركة دهانات بمرتب معقول بعدما أشتغلت شوية مندوب مبيعات وشوية فى مطعم باليومية وده كله كان سهل .. الصعب يابسمة أنى حاربت نفسى ووقفت قصادها وفكرت كتير فى السؤال اللى كان محيرنى ومافارقنيش لحظة واحدة غير أمبارح بس .. هو أنا فعلا كنت بحب بسمة بجد ولاكنت بحب نفسى وشايف أنها فرصة ماتتسابش .. حلوة وغنية وبنت ناس وأمها فى الخليج زى ماكنتى بتقوليلى . كانت نبرته تدل على أنه خاض مواجهة شرسة مع أوجاعه النفسية : تفتكرى وصلت لأيه يابسمة ؟ هوى بسؤاله كالمطرقة على رأسها .. تدرك طبعه وأفكاره .. صرحت دون مواربة : اللى زيك يابنى بيحسب كل حاجة بميزان المكسب والخسارة ولماسيادتك مالقيتش تحت القبة شيخ قلت بناقصها وخيرها فى غيرها .

ـ للأسف كلامك برضه صح بس نسيتى حاجة مهمة تاهت منك زى ماكانت تايهة عنى .. عارفة هى أيه ؟ أكلت الدهشة رأسها من سرعته فى حرق مراحل المكالمة حين أقتحم كل المشاكل بوضوح وكأنه يعتمد أسلوب الصدمة ونظرية ماقل و دل . تصنعت اللامبالاة : قول .

ـ هو انا مين أساسا وأيه هو وضعى أصلا فى الدنيا اللى يدينى الحق أحكم على الناس وأقول ده ينفع ودهماينفعش .. بأمارة أيه ؟ سألها وسأل نفسه .. بدا متحمسا حين أجاب : عشان انا من عيلة كبيرة بيكملو بقية الشهر بستر ربنا ولا بأمارة البرد اللى أكل عضمنا من سكنة السطح ولا بخيبتنا وبضعفنا وأحنا بنتحايل ع الدنيا عشان ماتبهدلناش وتأسى علينا أكثر من كده .. سكت للحظات ثم أستأنف بهدوء : وبحسبة المكسب والخسارة اللى أنتى قلتيها تفتكرى يبقى مين فينا اللى كسبان ؟!. كانت فى حالة سرحان حين طرح سؤاله ، كانت صور أخر لقاء تتلاحق أمام عينيها حين أدار لها ظهره هاربا وهى تستجديه بنبرة تسول : أستنى يأامجد .. أستنى عايزة أتكلم معاك .

هى تعلم جيدا أنه مدرب على أخفاء نواياه الحقيقية فى قالب من النقد اللاذع بحيث لايعرف احد مقصده الحقيقى ، كل مايسعى إليه أن يحتفظ لقدميه بمكان على الأرض ؟ شعرت بنفسها تقاد لفخ التمهل واللين . غريزة الفضول كان تدفعها للفهم .

ـ وليه يعنى مافكرتش من بدرى وراجعت نفسك .. أشمعنى دلوقتى .

ـ كان لازم أخد وقتى عشان أعرف قيمة الحاجة اللى كانت فى أيدى وفرطت فيها . راحت تقتفى أثر كلماته : مالذى يقصده .. ماذا يريد ؟. لم تجد فى صوته رغبته القديمة أن يطفوعلى السطح والتمسح فى الكبرياء . خيل اليها أنه صادق حين تابع : لأول مرة أبقى صريح مع نفسى ومعاكى لدرجة أنى مش مكسوف ولاخجلان وكأن اللى حصل بينى وبينك كان لازم يحصل عشان يفوقنى ويخلينى أبدأ صح . حبست أنفاسها وهى تنصت . ثم مرت فترة صمت بدت طويلة الى أن عاد هو : مش عايزة تردى ولا مش مصدقانى . لم يعد لديها القدرة على التفكير لتحدد موقفا : الأتنين .

ـ لازم تعرفى أنى مش حأقدر أحقق حاجة لوحدى أنا محتاجلك معايا وعندى أمل كبير أننا ننجح سوا . بقيت صامتة . ألح : مافيش كلام عايزة تقوليه ؟ أنصتت فى حيرة . هل تتكلم ؟ وان تكلمت .. فبأى لغة ؟ لغة الماضى أم الحاضر ؟ تسأل نفسها قبل أن تتوصل لحقيقة . أنه الأن منهزم . نبرته تفضحه ، المسئولية تقتضى منها بعض الكرامة والحزم وإلا ..

ـ زى ماأنت أخدت وقتك فى التفكير أنا كمان محتاجة أخد وقتى .

ـ ع العموم مش حأضايقك أكتر من كده وحأسيبك براحتك وحأكلمك تانى يابسمة .. سلام . أنهى كلامه ، لتجد نفسها تجيبه بنبرة ناعمة : سلام .

توقفت عند زمن المكالمة التى لم تتعد الثلاث دقائق .. هل أراد أن يقى نفسه من شر أغلاق الخط فى وجهه أم أن صدق المشاعر لايحتاج وقتا كثيرا للشرح ـ أحست بأن رأسها مهددة بالأنفجار . كانت على وشك التسليم بأن وراءه شيىء غامض مرتقب يحاول بألاعيبه أن يسحبها إلى منطقة ما لاتعرف لها أبعاد ولاحدود . باتت أفكارها مشوشة حين طوقها أحساس من يدرك أنه أمام لغز محير . بالرغم من ذلك إلا أن سعادتها قد فاضت ، شعرت بانها قد أستعادت جزءا كبيرا من كرامتها المهدرة . دارت بعينيها فى الغرفة بعدما تمددت على السرير تستعيد نشوة غابت عنها منذ شهور . أغمضت عينيها بهدوء قبل أن تفتحهما سريعا حين هاجمها الخجل عندما تراجع مشهد أمها إلى خلفية الأحداث بعدما تجاوزه مشهد أمجد ومكالمته التى قلبت موازينها .

بعد مرور ثلاث ساعات من وجودها لم يتبق فى جوف هدى من مأسى الا وأقرت بها أمام فايزة التى أنتفضت بعدها من فوق الكنبة لتعلن متحمسة عن برنامجا ترفيهيا عرضته على هدى المكومة فوق مقعدها يلاحقها الهم كما يلاحق الصياد فريسته : قومى بينا نخرج نغير جو .

ـ ماليش نفس لأى حاجة . رددتها ببطء ثم أسندت خدها على كفها بينما كررت فايزة وألحت : ممكن تفكى تكشيرة وشك دى وترمى كل حاجة وراضهرك وخلينا بقى نعيش لنا يومين بدل الغم ده . هزت رأسها دون تعقيب فأستأنفت فايزة بأصرار : لازم تعرفى ياحبيبتى أنك من النهاردة بقيتى عهدتى وحتعيشى معايا هنا .. ده أنتى ربنا بعتك لى فى الوقت المظبوط واللـه كانت روحى تايهة منى وأنتى رجعتيها .

ـ هو مين فينا اللى محتاج للتانى يافايزة . أمتزجت كلماتها بأبتسامة جريحة .

ـ أحنا الأتنين محتاجين لبعض ياهدى ، أنتى عايشة غريبة وسط ولادك اللى شايفين أن ضررك أكتر من نفعك ومالكيش لزمة فى حياتهم . ثم عقدت يديها على بطنها المرتفعة لتظهر ضعفا طارئا حين صرحت : واللى واقفة قدامك دى وعمالة تهديكى من ساعة ماجيتى ماشفتش يوم حلو من ساعة ماخرجت من السجن . أنتبهت لكلماتها . أستفسرت بدهشة : أنتى يافايزة .. طب ازاى وأنتى ربنا

موسع عليكى بالمال وكل اللى حواليكى بيعملولك ألف حساب وبيترعبوا منك . سحبت نفسا أتبعته بنظرة مقهورة ثم جلست : كل اللى حواليه عاملين زى الناموس مصاصين دم بيدوروا على مصلحتهم وبس وكل اللى يهمهم حيطلعو منى بأيه . حبست دمعة كادت تنفلت منها حين أردفت : عمرى ماحسيت أنى وحيدة ومحتاجة لحاجة فى الدنيا أد ماكان فى نفسى يبقالى بنت ولاأخت تبقى قريبة منى تسمعنى وأسمعها أشكيلها وأحكيلها على وجيعتى .. تحبنى وتخاف على من غير طمع ولامصلحة . قالتها وتجلت لها بعينيها ، اللتين تحمل نظراتهما ايماء متواصل بالأستغاثة ، من وحدة وعزلة قاتلتين مدفوعة بشعور مزمن بأنها وسط جماعة تركبهم المصلحة والأنانية.. ثم رمشت قبل أن تستقر تظرتها فى وجه هدى تزامنا مع تغير نبرتها التى شاع فيها رنة تفاؤل : آهو ربنا ماخذلنيش بعتلى اللى أقرب من بنتى وأكتر من أختى .. خليكى معايا ياهدى وماتعترضيش على حكمة ربنا . قالت جملتها الأخيرة بأستجداء: أنا عمرى مأعترضت على حكمته .

ـ يبقى خلاص من دلوقتى نظبط حالنا ونعيش أيامنا وكفاية اللى راح من عمرنا وأن شاء اللـه بفلوسى نعوض كل اللى فاتنا . لم تمهلها وقتا للتفكير . تمادت فيها الحماسة لتنسج أحلاما قبل أن توثقها بخطط مستقبلية : أنتى من النهاردة بقيتى فى بيتك وأى خطوة حأمشيها حتبقى معايا فيها ..حنسكن سوا فى شقتى الجديدة فى عمارتى اللى بتتبنى وحنبقى مع بعض فى المول اللى حأفتحه .. بس انتى أسمعى كلامى وخليكى معايا . أنهت كلامها وصمتت مترقبة . بدت ملامحهما منكسرة .. امرأتان تقفان على حافة الجرح معلقتان بين انكسار الحلم ومواجهة الواقع .. عاجزتان عن اللحاق بزمن رحل بكل وعوده . ألتفتت إليها هدى . رمقتها طويلا ، بدت وكأنها فى حالة مراجعة ، تحسب حسبتها بعد خسارتها الفادحة وفقدانها الأمل فى أستعادة حياتها مع أبنائها ومحاولتها المضنية فى الهروب من خيرى الذى أصبح معادلة صعبة فى حياتها . شردت للحظات ثم عادت متحفظة : أنتى بتتكلمى يافايزة وكأننا لسه مع بعض فى السجن وعايشين بطولنا .

ـ بلاش نضحك على بعض ولادك أكيد مرتاحين من غيرك وأنا لو ماعنديش قرشين كان زمانى مرمية لكلاب السكك تنهشنى .. كبرى دماغك ياحبيبتى وفكرى فى نفسك . تحركت شفتى هدى عن أبتسامة مترنحة : باين علينا كده حنكمل بقية المدة مع بعض . لم تستطع فايزة مقاومة رغبتها المحمومة بالفرحة ، عددت لها بحماس مميزات بقاءها لجوارها بكلمات تتقافز فى رأسها تأبى الأستقرار : أحلى

فسح وأحسن أكل وبعون اللـه حنقضيها خروج وصياعة وملعون أبو الدنيا . ثم قامت وسحبتها من رسغها : قومى معايا حأعشيكى برة .

ـ طب أستنى لما أشوف حألبس أيه .

ـ أنتى لسه حتلبسى ! .

ـ حأخرج بالعباية دى . تساءلت بأستغراب .

ـ أنتى عارفة دى تمنها كام .

ـ لو نورا وبسمة عرفوا حاجة زى دى كانوا قتلونى .

ـ أنتى ياحبيبتى هنا فى كرموز مش فى محطة الرمل .

خرجت هدى بالعباية العنابى . ساقتها فايزة الى حوارى كرموز فى رحلة ليلية .. أمسكت بيدها كطفلة تتعرف على ماحولها ، تتفحص شخوص يائسة تتحرك بآلية قدرية بينما لم تتوقف فايزة عن الكلام بالرغم من أعياء هدى التى تركت لها أذنيها تحشر فيهما حكايات تتشعب وتتفرع، تتلاقى وتفترق عن حارة " المنجى " كما سمعتها عن الأولين عن أنفاق وسراديب بلا خرائط تصل الأسكندرية طولها بعرضها وعن بيوت كانت مقابر وخرابات أصبحت قصور ، مع نبذة عن كل بيت أو محل يقابلهما فى الطريق .. تستحضر فى لحظة تاريخ سكانه وأحوال أفراده كأنه تاريخ محفوظ ، لايقطع شرحها سوى تحيات متفرقة تحصل عليها عند مدخل كل حارة .

ـ ده أنتى مشهورة أوى يافايزة .

ـ طبعا ده أنا بنت المعلم عبد المقصود . قالتها مرفوعة الرأس ثم أشارت لها على بيت من دورين نخر الزمن واجهته أكل محارته وتركه مفضوحا عاريا بلا غطاء . حكت لها بأبتسامة وهى تتدحرج بخطواتها عن أخر شاب عرفه وجودها قبل أن يتسلمها " عبده " وكيف أنتهت حياته القصيرة فى زقاق " حلاوة " بساطور فى " نافوخه " من يد جزار عاشق لـ " فوزية " التى تصارعا على حبها .

نصف ساعة داخل حوارى كرموز وكانت فى حوزة هدى تاريخ معظم العائلات والذى رهنته فايزة بأنحيازاتها الشخصية قبل أن تخرجا من المنطقة بعدما أصرت الأخيرة على تتويج برنامجها بزيارة

لمطعم " أبو أشرف " للأسماك بمنطقة بحرى . لم تتشبث هدى بالرفض كانت جائعة . ألقى بهما التاكسى بالقرب من المطعم حيث أقتادهما جرسونا يقف كالقرصان قبل مدخله بعشرين مترا .. سلوكا أصبح معتادا فى كل مطاعم بحرى بسبب حالة الركود والجفاف اللتين طالتا الجميع . وسط رعاية وحفاوة مفرطة دخلتا قاعة الطعام التى أسترخت فى هدوء وقد أخلدت الموائد الخالية الى النعاس . تصدى لها جرسون أخر بهيكل صارم تلقى طلبات فايزة التى أملتها عليه بترحاب لايخلو من حذر ، هيئتها وأداءها كانتا مبعثا للريبة فى نفسه حيث أنهما لاينسجمان مع قيمة الفاتورة المرتقبة التى ربما تقترب من الخمسمائة جنيه ثم تركهما وديعة فى يد زميله الذى جاء حاملا ستة أطباق " سلطة " كبهلوان فى سيرك قبل أن يفرشهم فى لحظات على المائدة ، مفسحا مكانا للجمبرى والصبيط وعدد أتنين أرز " صيادية " وسمكة بياض شابه أقتيدت غدرا من البحر يحاصرها الليمون والكرفس وعلى رأس المائدة زجاجتين مياه معدنية .. لم تزر تلك النوعية من الطعام فم هدى منذ وفاة زوجها ، وبرغم الجوع إلا أنها تعاملت برفق مع الأكل عكس فايزة التى أظهرت عدائية غير مبررة الى كل ماطالته يدها فى حين أبدت هدى تململا فى كرسيها ، لازالت محاطة بأجواء يومها الحزين الذبدأ مع نورا وأنتهى فى أحضان خيرى .. أسترجعت معظم المقاطع بالصوت والصورة قبل أن تنقل نظرها بين الأكل ووجه فايزة التى بادرتها حين شعرت بها تتلوى بالحزن .

ـ تعدمينى ياهدى وتمشى فى جنازتى لو ماخلصتيش على الأكل اللى قدامك ده كله . ثم نظرت لها وأنتظرت منها أبتسامة لم تتأخر : بعد الشر عليكى يافايزة .

فى طريق العودة قررتا السير فى محاولة جادة منهما لهضم محصول البحر الذى مازال جاثما فوق بطونهما . حكت لها فايزة عن خططها وأحلامها المستقبلية وعن النقلة النوعية التى تنتظرها حين يرى " المول " النور . لم تخف هدى أعجابها : عارفة يافايزة أنت فيكى حاجات كتيرة بتفكرنى بزيزيت صاحبتى .

ـ سيست الخياطة .

ـ أيوه .. أنتو الأتنين عندكم طموح ودماغكو نضيفة فى الشغل . قالتها بهدوء لايتناسب وثورة هواء بحرى الذى رسم كل الأشكال على العباية العنابى ، مرة منتفخة من الخلف حين يضرب ضربته من تحتها ومرة ملتصقة من الأمام راسما تجويفا مثيرا بين الفخذين بينما عبث بعباية فايزة السوداء التى جعل منها جسدا داخل " براشوت " قبل أن تخمدها بيديها مفرغة الهواء منها تزامنا مع سؤالها :

ولادك ما اتصلوش بيكى خالص من ساعة ماجيتى عندى . تنهدت وهى تضبط طرحتها : أنا قافلة الموبايل .

ـ من رأيى تفتحيه ومش لازم تردى عشان ماتزوديش قلقهم . أنصاعت لرأيها . سحبته من حقيبة يدها وهى تردد : أزود قلق مين يافايزة دول زى مأأنتى قلتى ماصدقو خلصو منى . فتحته ثم عبرتا الشارع بأتجاه طريق موازى للكورنيش هربا من سيارة " سوزوكى " تطاردهما بها شابان أغرتهما العبايتان فأبديا أعجابا منقطع النظير ترجماه لفعل على الأرض حين توقفت السيارة بجوارهما : أموت فى الأبيض اللى متعاص صلصة . بينما مط زميله رأسه من شباك السيارة : وأنا نفسى فى المدملج اللى جوه الشوال الأسود .

ـ شوال يأبن الـ .. صادرت هدى بقية العبارة : خلاص يافايزة عيب.

ـ وكمان أسمك فايزة .. طب بالسلامة ياحاجة .

لم تمر خمس دقائق الا وأرتعشت يد هدى برنات موبايلها . لمحت الرقم .. سرحت ولم تعقب حين سألتها : حد من ولادك . هزت رأسها نافية .

ـ يبقى خيرى .

ـ أيوه . سكتت الرنات لتعاود من جديد وهى أكثر صخبا وألحاحا . فبادرت فايزة : يعنى مش ناوية تردى ع الراجل اللى متشحتف عليكى ده . لم تجيبها . رغبت فى جعل السؤال معلقا .

ـ قوليله أى حاجة .. تعبانة حأبقى أكلمك بعدين .

ـ مأأقدرش .. ماعنديش كلام أقوله .

لحظات من المشى الصامت والخطوات المتلكئة نفثت خلالها تنهيدة طويلة قبل أن يصفعها الهواء فينتعش فيها زمن قديم : مش حتصدقى يا فايزة لوقلتلك أنا محتاجة لأيه دلوقتى .

ـ أطلبى وأنا أنفذ ياحبيبتى . قالتها بلهفة .

ـ ياريت كان بأيد حد ، أنا محتاجة أوى لنديم ، محتاجة أتكلم معاه .. وحشنى أوى يافايزة . تجاهلت الأخيرة مطلبها : نديم اللـه يرحمه بين أيادى رب كريم .. خلينا فى اللى عايشين وسطينا .. خليكى فى خيرى . سحبت نفسا وأنكمشت ملامحها حين قالت بخجل : مش حأكدب عليكأنا كمان محتاجاه .

بدت وكأنها تغازل المستحيل قبل أن تفطن فايزة لكلماتها : من حقك ياحبيبتى تجمعى بين الأتنين القانون والشرع فى صفك مادام فيهم واحد ميت . نكست رأسها حين تساءلت : لما هو ميت أبقى أنا أيه ؟!.

سحبتها فايزة من معصمها : تعالى ياختى نركب تاكسى ونروح باين عليه الجمبرى والصبيط شقلبو دماغك .

نصف ساعة وكأنتا أمام باب الشقة .. دخلتا بأسترخاء . تقدمتها فايزة بروح معنوية عالية ضاعفت من حجم صوتها : أول مرة أتفسح فسحة زى دى من سنين طويلة . أفصحت عن مشاعرها ثم جلست على الكنبة بينما لحقت بها هدى وأستقرت بجوارها بنفسية هادئة . أنتابتها حالة من السلمية حين شعرت ولأول مرة بأنها تقضى يوما بلا شروط ولاتعقيدات . تقاسمتا الضحك لدقائق عندما أستعادت فايزة مشهد الشابين : شفتى العيلين اللى كانوا أطرنا بالعربية .. أبن الوسخة بيقولى سلام ياحاجة . زرعت تفاصيل المشهد الضحك فى وجهيهما كطفلين بوجود ضئيل تنازعا ضراوة ريح عاتية . تجاوزت هدى الضحك بسؤال : أنتى بتسهرى ولابتنامى بدرى .

ـ قبل النهاردة كنت بأتخمد بدرى عشان مش لاقيه حاجة أعملها ، لكن من هنا ورايح أنام وقت ماتنامى وأصحى معاكى .

ـ طب قومى أعملى لنا أتنين شاى نحبس بيهم أكله السمك .

ـ كلامك صح .. وانتى قومى غيرى هدومك وأنا حأجهز الشاى وأحصلك ونكمل سهرتنا فى الأوضة . قالتها بسعادة قد فاضت دون حساب .. بعثت هدى الحياة فى منزل فايزة برغم أحزانها وبدا وجودها فارقا بالنسبة لها .

أعدت فايزة الشاى فى عجالة وكأنها لاتقدر على فراقها ، دخلت عليها الغرفة بصينية الشاى تحمل ملامح جديدة لم تكتشفها من قبل . وضعت هدى جسدها بهدوء على السرير بعدما قدمت لها فايزة فنجانها وتربعت بجوارها .

ـ ربنا يخليكى كنت محتاجة أوى للشاى . قالتها بعد أول رشفة . أمتدت سخونة الكلام ودفء المشاعر بين الرفيقتين حتى منتصف الليل قبل أن تتوقف فايزة عن الكلام لتجرى أتصالا بأبنها منصور أوصته بتشكيلة فاكهة وعلبة جاتوه ، أطاع الأمر متمنيا عليها مهلة نصف ساعة ويكون أمرها نافذا .

أنهى منصور المكالمة وأستعاد ملامحه الصارمة فى مواجهة ذلك الكائن الجالس أمامه فى ركن المقهى ليحسم معه صراعا دام لربع ساعة كاملة حول تعريف معنى الصداقة ، مختتما الجدل بعبارة حاسمة : كل وقت وله أدان ياسليم .. كنا صحاب أه وبينا عيش وملح مابنكرش و سهرنا وهلسنا وعملنا كل حاجة ده صحيح .. لكن دلوقتى خلاص بح .. الوقت مابقاش وقتك ياسليم يعنى بالبلدى كده كان فرح وأنفض وأخلع بقى من دماغى ودورلك على دماغ تانية أشتغل عليها . قالها ونظر له بحدة .. بدا بالنسبة له كالموصوم . ملعون من يقترب منه . أردف بنبرة عصبية صدرت عنه حين قام يشير لجمعه الذى أتاه مطيعا : أبقى حاسبه على الطلبات اللى شربها ومن هنا ورايح مافيش مشاريب تنزل على النوتة . تلقى جمعه الأمر بنشوة الشماتة : سمعت ياخويا . قالها وهو ينظر لسليم الذى أرخى جفنيه كالمضروب على رأسه قبل أن يرفعهما فى وجه منصور جازا على أضراسه بعدما تقلصت قسماته غيظا : براحتك يامنصور باشا أعمل مابدالك بس ماتنساش ياصاحبى الدنيا دوارة . شكل تظرته وتكوينها تنطوى على تهديد ووعيد . لم يكترث منصور ، فأزدادت نظرته صلابة وظلت مصوبة فى وجه الأخير الذى أدار له ظهره قاطعا القهوة بخطوات سريعة حتى أجتاز مدخلها بينما قام سليم فى حراسة جمعه الذى حاصره حتى دفع الحساب ثم خرج بعدها مدليا رأسه ككلب هده الجوع .

أدار منصور المفتاح فى كالون الباب بطرف أصبعيه لأنشغال يديه التى تنوء بماتحمله من فاكهة وجاتوه . أستقبلته هدى بأبتسامة وقبلتين على خديه حين دخل عليهما الغرفة : شكلك أتغير أوى يامنصور عن أخر مرة شفتك فيها .

ـ أدعيلى ياأبن الكلب خلتك بنى أدم . قالتها فايزة بغرور .

ـ ربنا مايحرمنى منك ياما ولايحرمك منى حبايبك .. ثم غمز لها بطرف عينه مبديا رغبة فى الأنفراد بها ، فأبدت تذمرا وصدمته : قول ياوله كل حاجة هنا ، اللى قاعدة جنبى دى أغلى حاجة عندى فى الدنيا ومابخبيش عنها حاجة . أنصاع لرغبتها وسرد تقريره اليومى كالعادة مدعوما برسومات العمارة التى تم تعديلها على يد المهندس " أسامة " الذى أنهى دراسة مستفيضة عن الشكل المتوقع " للمول" على أن تبدأ أعمال البناء مع بداية الشهر . تفحصت فايزة الرسومات بعين مهندسة خبيرة : مش فاهمة حاجة ياوله من الشخبطة دى . عدل لها منصور وضعية الورقة التى كانت تنظر فيها بالمقلوب . شجعته ثم أظهرت له أبتسامة تأييد طمأنته على مستقبله .

خرج حاملا أوراقه فى زهو .. لم يتجاوز باب غرفته إلا بعدما ألقى بنظرة ركنية أطمأن بها على وجود أبوه المسجى على كنبة الطرقة بعد أن حسم خلافا نشب بينهما عندما تذمر عبده وتمسك بالأقامة مع منصور فى غرفته .

ـ يمين باللـه ماحأنام ع الكنبة دى لو أطبقت السما على الأرض .. حأنام معاك فى أوضتك .

ـ ماشى يابا براحتك بس من بكره مش حيبقى ورايا شغلانة غير مراجعة دفاتر الحسابات وأفهم أيه اللى داخل وأيه اللى طالع وماتبقاش تزعل منى بقى . كلمة السر التى حولت عبده لفأر فى مصيدة فأعتلى الكنبة خاضعا راسما أبتسامة ذليلة : تصدق أنت عندك حق ياوله النومة فى الطرقة طراوة وأحسن من الأوض المقفولة .

دخل منصور غرفته كالعادة مزودا بالنوتة والقلم ليدون أنجازات يومه ويرقم نجاحاته مع ابداء بعض الملاحظات التى تستدعى منه حذرا وتمهلا .

بينما ظلت فايزة وهدى تصارعا الليل بالحكايات وسط هدوء طارىء لسكان الحارة الذين همدوا ، فقل صراخهم وتوقف عراكهم لتتسلم الكلاب التى تحولت إلى وحوش وردية الصخب تزأر بكل متر فى الحارة دفاعا عن حرمة أراضيها . فطار النوم وحل مكانه حديث لاينقطع .. قرب الفجر تراجع الكلام وخفت صوت فايزة الذى أتاح لهدى فرصة التأمل حين تنبهت حاستها البصرية بشكل مفاجىء لتفاصيل المكان الذىوجدت نفسها دون ترتيب مسبق تعيش فيه . غرفة متواضعة فى شقة قديمة تطل نوافذها على حارة ضيقة . واقع جديد يتشكل ، فلا مفر أن تبقى مركونة فى الزاوية ، رهينة النسيان .

خاطر ضرب رأسها قبل أن تواجهه بسؤال حائر : اذن ماالمطلوب ؟ الماضى البعيد والقريب ، يتوجب الأنسلاخ منه ، بكل مافيه ، تماما مثلما يفعل الثعبان ، وهو يتخلص من جلده . أمنت من خلال تجربتها فى الشهور الماضية بأن السجينات فئة من الناس لابد أن يطولهم العذاب ! جملة ظلت تسبح فى رأسها حتى قررت أن تطفىء النور بعدما لمحت فايزة تصارع سكرات النوم لاتقطع أستسلامها سوى موبايل هدى الذى أصبح مصاب بداء الرنات ، لم ينقطع صوته طول الليل بل تمادى فى أستفزازه حتى صار رنينه عذابا أرهق أعصاب فايزة التى لم تتمالك نفسها : كان لسانى أتقطع ولاأتشليت فى صوتى لما قلتلك أفتحيه .. أقفليه ياختى ولاأقتليه . قالت جملتها وهى فى النزع الأخير قبل أن تسلم نفسها للنوم . أغلقته هدى وهى تنتفض بالضحك قبل أن تقرأ على شاشته عدد المكالمات الفائتة التى كان معظمها من نصيب خيرى . كانت تتحاشى طيفه قدر المستطاع .. معركة مؤجلة بينها وبين نفسها . لازال خيرى داخلها بلمساته وأمتداداته كالجنين يأبى أن ينفلت من دفء الرحم . الحب بالنسبة لها كما قال عنه صوفى عاشق : الحب ليس أخضر ، ليس أحمر ، ليس أصفر . الحب كالماء الزلال . اذا ماتغير لونه لايجوز للوضوء . أغمضت عينيهاولم تدر أن عليها أن تخوض معركة داخلية .. لم تكن أول مرة تواجه فيها الفشل ، غير أنه أحاط بها كما يحيطها ظلام الغرفة حين يستوى ظلام بقعة صغيرة بظلام الكون فى ليلة غائمة ، وفى الظلام يختفى المكان والزمان ، ويختفى كل شيىء ، عدا شعور الأنسان بنفسه ، أنه وحده يتضخم الى الحد الذى يصبح فيه الشخص الواحد أثنين . ضاقت بالظلام .. أضاءت " أباجورة " نحاس تسكن فوق الـ " كومودينو " نورها أصفر مرتعش ، فضاعف من حجم شعورها بأنها لازالت مقيمة فى عنبر " ج " بسجن النساء منسجمة تماما مع نغمات صادرة عن فايزة التى شوه وجهها النوم ، أنتفخ خديها مع كل زفرة يتبعها شخير . أغمضت عينيها لتنام . أنتظرت حضوره الذى لم يأت .. كانت الأفكار والهواجس هى التى أتت . الا أنها حبست أنفاسها حين طالعها شبح " عبد المقصود " والد فايزة من داخل بروازه يطل عليها مبتسما بأبتسامة أنتهت موضتها منذ عصر الفنان " بشارة واكيم " .

لم يشجعها شخير فايزة على الغوص فى كتلة الزمن الكبيس ..باتت ليلتها وبها حسرة لاتموت ، وغصة فى الحلق ، لاتخرج ولاتدخل .

00000000000000

صباح اليوم التالى خرج يوسف من غرفته مبكرا متوجها لمكتب المهندس " ناجى " تفوح منه رائحة الـ " وان مان شو " أعلن عن دهشته حين ظهرت له بسمة ملفوفة على نفسها داخل كرسى الأنتريه فى الصالة ، تضم ركبتيها لصدرها .

ـ أيه اللى مصحيكى بدرى كده ؟ .

ـ أنا مانمتش أصلا . قالتها بوهن . نقب فى وجهها حين أقترب منها : قلقانة على ماما . هزت رأسها دون أن ترفع عينيها . فأضاف : ماتقلقيش أكيد النهاردة حترد علينا ولما حأكلمها أن شاء الله حأقنعها ترجع البيت .

ـ أنا عارفة يايوسف أن الحكاية دى أخرها يومين تلاتة وتخلص . بدت نبرتها مشحونة بالقلق .

ـ طب فين المشكلة؟ .

ـ أمجد كلمنى أمبارح وحاسه من كلامه أنه أتغير وبقى بنى أدم تانى .. المشكلة أنى مش قادرة أخد قرار فى أى حاجة . نفخ فى ضيق : أمجد تانى يابسمة.. ثم نظر فى ساعته : وهو ده اللى مقعدك لغاية دلوقتى صاحية .. على العموم لما أرجع نبقى نتكلم سوا ونشوف الدنيا ماشية أزاى . أتجه ناحية الباب وخرج تاركا أخته فريسة للتفكير والحيرة . لم تكن لتستطيع تحديد موقفا ولاقياس مدى القبول أو الرفض . أى قرار ستنحاز اليه كالمضى فى طريق لاتعرف الى أين ينتهى . خيل اليها بأن رأسها يزن أكثر من جسمها ، وبأنها لن تقدر على حملها طويلا . قامت كالمساطيل تترنح حتى باب غرفتها ، دخلت بخطوات أرنب حذر كى لاتشعر بها نورا ، زحفت ببطء على السرير قبل أن يهمد وعيها وتنام .

حديث صباحى صار ألزاميا يبدأ عادة بتقرير مفصل لايترك فيه يوسف تفصيلة الا ويذكرها ولاتفوته شاردة ولاواردة إلا ويستعرضها أمام المهندسة " إيمان " آخذا فى أعتباره كل توجيهاتها وملاحظاتها مأخذ الجد كتلميذ مطيع . لايقطع أنصاتها سوى انشغالها بتجهيز الأفطار على مكتب يوسف الذى يتحول كل صباح إلى مائدة عامرة .. عادة يومية روضته إيمان عليها منذ أسبوعين تقريبا .. لفة سندوتشات تمثل فيها الجبنة الـ " ريكفورد " دور البطولة منذ أن صرح يوسف أمامها بأنها المفضلة لديه ، بجانب حضور منتظم لـ " تورمس " شاى أخضر حرصت على أن يتقبل يوسف وجوده مع تطعيمه يوميا

بفنجان صغير حتى أستسلم أخيرا لمذاقه وكأنها تهيأه لما سيكون عليه !!. كالعادة ينهى أخر رشفة واقفا قبل أن يتوجه للموقع مصحوبا بجملة معتادة : لو فيه أى حاجة يايوسف كلمنى فى التليفون . إلا أنه ودون أى حاجة تتعدد مكالماتهما طوال اليوم ، يتحجج بأتفه الأسباب لسماع صوتها قبل أن تكشف ـ هى ـ عن نواياه بضحكة : بتتصل يايوسف عشان تقولى أن الشمس حامية فى الموقع .. طب أقف يأخى فى أى حتة ضل . أجابة منطقية أجبرته على أنهاء المكالمة بأبتسامة عريضة قبل أن يحين دورها فى الأتصال : كلمت المهندس ناجى من شويه ولمحت له أنك طول النهار بتتنقل من الموقع لشركة الحديد ومخازن الأسمنت وبعد كده بترجع المكتب تانى .. سكت شوية وبعدها قالى اللى أنتى شايفاه صح أعمليه . أستقبل كلماتها المبهمة : مش فاهم حاجة .

ـ حأطلع العربية القديمة من الجراج وحتبقى معاك تحت أيدك تخلص بيها شغل المكتب ، ماينفعش يايوسف نص وقتك تضيعه فى المواصلات . شهدت نهاية المكالمة حضور لفظ " واو " على لسان يوسف مضيفا فى فرحة : مش عارف أقولك أيه على المفاجاة الجامدة دى .

ـ ماتقولش حاجة ده مش وقت كلام خالص ، المهم عندى أنك تثبت نفسك وماتخليش الفرصة تضيع من أيدك . أعتدل فى وقفته وسط سياخ الحديد وشكاير الأسمنت وتلال الرمل : تمام يافندم .

عند المغرب ينتهى يومه فى الموقع عائدا للمكتب بجبين أحمر لفحته الشمس وقميص وبنطلون صبغا بتراب الموقع . نظام يومى معتاد ، لم يقر فى اللوائح . بدعة توافقا عليها سويا ، لايعرف لها سببا ظاهريا ، فالمكتب ليس فى طريق عودته للبيت ولاحتى مجبرا على التوقيع فى كشف الأنصراف .. ربما أراد أستدعاء حالة قديمة حرم منها قصرا أو ربما لشيىء مالازال يتشكل داخله دون أن ينتبه لمسماه أو حتى يسعى لتعريفه . تلك الحالة التى تلازمه هى نتيجة مباشرة للأهتمام الشديد التى تبديه المهندسة إيمان تجاهه .. أهتمام رصين عاقل مدعوما بشخصية قوية وخبرة سابقة عن تجربة فاشلة مهدت لها الطريق لفرض نفوذها وبسط هيمنتها على تفكيره وأراءه بعدما مارست عليه ضغوطا أنثوية خلال الفترة القصيرة الماضية حين أحتوت أحباطاته بالنصيحة والتشجيع عندما لعبت أمامه كل الأدوار النسائية ، جسدت الأم بعطفها وخوفها على مستقبله ودور الصديقة الواعية حين سمعت منه وسمع منها والمديرة الخبيرة التى تقود وتوجه ، فصارت فى وقت قياسى الوكيل الحصرى والراعى الرسمى لكل تحركاته وتصرفاته مسلما لها عقله ونفسه عن طيب خاطر كجنديا مخلصا تحت قيادتها بعدما تخطى على يديها هزيمته النفسية .

جلسة هادئة بعد يوم عمل شاق ، أسترخى يوسف خلف مكتبه فاردا ساقيه مدليا رأسه على صدره بفعل الأرهاق بينما بات كل جزء فيه تحت الفحص والتمحيص من عينى ايمان التى تجلس بجواره كموقع مفضل لها ، لايفصلها عنه سوى شبر واحد وكأن الحدود والحواجز بينهما فى طريقها للزوال .

أعلنته بخبر تأجيل أستلامه للسيارة الفيات ليوم السبت القادم بعدما نبهت على " حسين " سائق المهندس ناجى بعلاج بعض الجروح والكدمات التى يعانى منها رفرف العربية الشمال مع تغيير " العفشة " بالأضافة إلى " رشة الفنش " الأخيرة ، وجارى فى تلك اللحظة تنفيذ الأمر فى ورشة " سوستة " بمنطقة العصافرة على أن يتسلمها عروسة " مزة " كما صرح عم حسين فى اخر مكالمة للمهندسة منذ ساعة .

نظرة أعجاب وتقدير أستدعت منه أن يلوى رقبته ليواجهها بأبتسامة عريضة كادت تلامس شحمتى أذنيه ، وهى كل مايملكه يوسف من أمكانيات لتقديمها لأيمان التى لم تنقطع مفاجأتها المذهلة المدروسة : المهندس أحمد والمهندس هانى حيخلصو شغلهم فى أبراج العجمى الأسبوع الجاى وبينى وبينك مارضتش أخليهم يرجعو على موقع الكومباوند وبلغتهم يروحو على أبراج سموحة يتابعو التشطيبات وفضلت أنك تبقى موجود لوحدك فى الموقع . دار بجسده مستغربا حتى لامست ركبتيه جانب فخذها : وده معناه أيه ؟ .

ـ لما تبقى لوحدك حتكون فى الصورة وده اللى أنا عايزة أوصله عنك للمهندس ناجى عشان ناوية أجيبلك زيادة محترمة على مرتبك وان شاء اللـه حتوصل لـ 100% . زال أرهاقه فجأة وتبددت أوجاع قدميه وأختلطت حمرة الفرح بحمرة الشمس التى لازالت تلهب وجهه .. يود لو أستطاع أن يحملها بين يديه ويرفعها كطفلة ويدور بها فى حجرة المكتب .. قرأت فى عينيه فرحته الطفولية فنقرت بأناملها المنبسطة على سطح المكتب نقرا ملحنا وكأن ايقاعه يقول " أنت لسه شفت حاجة " . تأهبت حواسهما فجأة حين ألتقطت أذانهما صوت أقدام تقترب فى الطرقة المؤدية إلى باب المكتب .. سحبت يدها إلى حجرها وتماسكت فى جلستها أنتظارا لظهور القادم . نقرة واحدة خافتة وأنفتح الباب وطل القادم برأسه مستطلعا . كانت هدير! .

مفاجأة مذهلة .. شعر يوسف بأرتباك يزعزع قلبه ويخلخل ركبته ويجعل الدنيا تتأرجح حين تلقى صدمة ظهورها واقفا . بدا وكأنه مصاب بداء الذعر قبل أن تصيبه المفاجأة بالخرس بينما بقيت هدير فى

مكانها للحظات وقد كسى وجهها لمعانا بدا منسجما مع مكياجها الخفيف وقصة شعرها الجديدة المقتبسة عن الفنانة " غادة عادل " تعطلت أبتسامتها على وضعية ثابته حين فاجأها مشهد الجلسة المريبة .. نقلت نظرتها بينهما تستشعر أرتباكهما . لم تستطع أخفاء دهشتها فى حين غمر المكان توتر بمجرد دخولها ، حاولت ايمان أن تبدو طبيعية فبادرتها حين قامت من مكانها : أيه المفاجأة الحلوة دى . تصنعت أبتسامة مترددة ثم بادلتها القبلات .

ـ وحشتينى أوى ياباشمهندسة . قالت هديرقبل أن تميل برأسها موجهة كلامها ليوسف : أزيك يايوسف . مط رقبته وهو يحرك حدقتيه شمالا ويمينا وكأنه يبحث عن رد : أنا .. الحمد اللـه كويس .

ـ خلصت شغلى بدرى فى الشركة وقلت أجى أشوف المهندس ناجى أسلم عليه وبالمرة أخد رأيه فى شوية حاجات . قالت بنبرة دفاعية وكأنها تبرر سبب وجودها . أنصتت لها ايمان بغير أكتراث ثم عادت لنفس جلستها ملتصقة بمكتب يوسف وكأنها تريد ايصال رسالة " المكان محجوز " بينما ظلت هدير تحاصرهما بنظرات فضولية : هو أنتو بتكملو شغل هنا .

ـ أيوه . أجابة مقتضبة رددتها ايمان وهى تعبث ببعض الأوراق المطوية على المكتب . أقتربت هدير من مكتبها القديم ، تحسست سطحه وعلامات التأثر تزحف على ملامحها ورعشة داخلية طالت جسدها التى أحتوته داخل بلوزة كنارى ، ربما تعمدت أن ترتديها حيث أن لها ذكرى سعيدة فى قلبها حين أرتدتها لأول مرة فى بداية الصيف الماضى فى لقاء رومانسى بحدائق المنتزة جمعها مع يوسف الذى أثنى عليها مبهورا : البلوزة دى مخلية جسمك زى ملكات الجمال . قالها وكان ينظر لصدرها المحبوس داخل قفص الكناريا .

ظل يوسف واقفا مكانه يراقب وقفتها قبل أن تنهى حالة التأمل وتستدير ببطء وتواجهه بنظرة طويلة لم يفلح فى الهرب منها حين قرأ فيها ندما وشوقا .نظرات متبادلة أطاحت بهما خارج حدود الزمان والمكان . تأملت ملامحه بتركيز .. نظراته سحبتها لعشق لازال مقيما فيها .. هاهما العينان العميقتان اللتان سلبتا عقلها ولم ينفع معهما توسلا ولاعنادا . لم يطرف لها رمش حتى غابت فيهما ، ثم عادت بعد لحظات تحمل صوتا متيما: عامل أيه يايوسف . أرخى جفنيه : كويس . ميز نبرتها المنكسرة حين أنصت : واضح أنك مبسوط هنا فى المكتب . لاتنتظر عن سؤالها جوابا . أستطردت وهى تعبث فى ملامحه : أنت أجازتك أمتى ؟ ظلت ايمان تتابعهما من مكانها وهى حبيسة غيرة مفاجئة حين سمعت سؤالها بينما أشاح يوسف بوجهه متجنبا لقاء الأعين : مابناخدش أجازات اليومين دول . كانت تحاول

فتح ثغرة فى قلبه الموصود . لم تكن تسمع بقدر ماكانت تبحث فى عينيه عن عرشها المفقود الذى لم تجد له أثرا .

" إيمان " بدالها المشهد غير محتمل تململت فى كرسيها قبل أن تبدى أستياءا أنعكس فى لهجتها : هو أنتو حتفضلو واقفين متخشبين كده . تلقت أذنى يوسف النبرة المستهجنة فأبتعد بعينيه مستشعرا الحرج : أكيد المهندسة هدير ماعندهاش وقت تقعد .

ـ لا أبدا بالعكس . قالتها بحماسة لم تجد لها صدى بل أنها وجدت وضعا ملتبسا حين لمحت إيمان ترمق يوسف بغيظ ، بينما لم تتراجع هدير عن هدفها الخفى التى جاءت من أجله . علقت نظرتها بوجهه : عندك وقت نخرج نتكلم سوا . ألتزم الصمت أحتراما للمهندسة التى شعرت بنفسها تجتاز أختبارا صعبا فى وجود هدير .. تملكتها مخاوف مشروعة ، حاولت أن تخفى ذلك النفور الذى أعتراها حين سمعت جملة هدير الأخيرة فبدت فى جلستها كأنها تتلوى . عضت شفتها وهى تتابع مشهد النظرات الصامت فألقت بجملة مقتضبة : جاى معايا أوصلك ولا لسه قاعد ؟! تنبه لوجودها حين قامت من مكانها تكتم أنفعالها . نظر لها بضعف .. سلم أمره لصاحب الأمر . من هو صاحب الأمر هنا ؟ لم يهتم بالجواب ، هو بكل الأحوال رهينة لايملك موقفا سوى الألتزام بحقائق الواقع ، فالتجربة خير معلم ، لابد من العودة الى حجمك وحقيقتك . قال لنفسه .. أدرك أن الموقف لايحتمل خطأ ولا ميوعة . أخلت ايمان أخر مواقعها الأنفعالية حين أقتربت من هدير : معلش مش حأقدر أقعد معاكى أكتر من كده لازم أروح . أنهت جملتها وتراجعت حتى الباب وتركت ليوسف هامشا من الوقت ليفكر ويقرر . فتحت الباب بعنف وملامح ناطقة بأقصى درجات التوتر بينما ألحت هدير بعينيها : جاى معايا . تخلى عن تردده مستعينا بنظرة كبرياء قد فارقته منذ شهور : المهندسة ايمان طريقها قريب من طريقى . جملة ساحقة كانت كافية لتدرك فداحة خسارتها . قال جملته بنبرة متحدية وبقايا جريمتها لازالت عالقة بملامحه . ثم ادار لها ظهره وأنصرف بهدوء وصفع الباب خلفه بينما ظلت تتعقبه بالنظرات وجسدها كله ينتفض وعلى وجهها علامات من يودع شيئاعزيزا على نفسه . لم تتحرك من مكانها تنتظر قرارا ، بشأن كرامة ذبحت منذ لحظات . فما كان منها إلا أن بصقت داخلها على كل شيىء ، وأى شيىء ، حيث لم تستطع أن تبصق علنا فى وجه من رفع شعارا زائفا: الأصول والعادات هى اللى بتحكمنا وأياك تنسى أنتى بنت مين . فى تلك اللحظة وصلت ايمان لاخر الطرقة المؤدية لباب الخروج قبل أن تسحب فى طريقها حقيبة يدها وهى تنصت بأرتياح لصوت أقدام يوسف التى تلاحقها .. أبتسامة النصر هى

ماقدمته ليوسف حين خرجا سويا من باب المكتب . نجحت بأمتياز فى أزاحة عقبة هدير عن قلعتها التى تحصنت بها فى قلبه بالرغم من أدراكها بأنه لازال لها وجود فى مكان أخر داخله . غير انها على يقين بأنه على وشك انتزاعها ولفظها غير مأسوفا عليها .

00000000000

اليوم الثانى .. لازمت هدى السرير حتى الظهر تجاورها فايزة جثة هامدة على غير عادتها . أرهقهما السهر والكلام ، فتحت عينيها على صوت جيران فايزة يتداولون أخبار الأمس عبر النوافذ والشرفات التى لايفصلها عن بعضها سوى ثلاثة أمتار ، سمعت وهى لازالت تستعيد وعيها حكاية الزوج الذى أتم بالأمس شهره السادس على أعتزاله مهام الزوجية بعد أن حققت " الفياجرا " فشلا ذريعا فى حالته ، كما أطلعت على سر " حنان " زوجة " عزت فيروس " صاحب أصغر عربية كبدة فى زمام كرموز كلها بناءا على تصنيف أطلقه " أشرف العسال " وهو واحد من كبار أكلى الكبدة بالمنطقة ، والتى تعيش حالة حب سرية مع " صبحى " عامل محارة حيث تم رصدها بالأمس بصحبته فى جنينة محطة مصر . أنتهت النشرة بخبر أخير يتناول بالتحليل قضية الخلاف المتصاعد على دور " جمعية " بخمسه جنيه يوميا بين فاطمة وسلفتها وجارى حتى اللحظة تقريب وجهات النظر . لا أسرار فى هذه الحارة .

أستدارت هدى على جنبها الأيمن فأصبحت وجها لوجه أمام فايزة .. تأملت ملامحها مبتسمة ، كل ملمح فيها أعادها لعنبر " ج " نفس النومة ، صوت الأنفاس ، حتى ايقاع تشخيرها لم يتغير . لكزتها فى خدها : أصحى يافايزة أحنا بقينا الضهر بنصف عين وبشفة مدلاة أنحرف منها الكلام : سبينى عشرة دقايق بس ياهدى .. المؤذى عبده قلقنى من نومى .كان عبده قد غادر فى هدوء منذ ساعة بعدما باءت محاولته لتبديل جلبابه بالفشل على أثر غضبة تلقاها من فايزة بعد ألحاحه بالطرق على الباب : ياوليه ناولينى أى جلابية من عندك عايز أروح القهوة .

ـ روح باللى عليك وأصتبح على الصبح . قالتها صارخة متوعدة .

ـ ياوليه عيب عليكى أنا واقف باللباس .

ـ ورحمة أبويا لو ماغورتش فى داهية حأطلع أفرج عليك الحارة . راجع نفسه وفضل الخروج بجلباب كان مكوما على أرضية الحمام ينتظر دوره فى الغسيل .

عند العصر كان شاى العصارى حاضرا أمامهما فى الصالة . تناولت هدى فنجانها وهى لازالت تتحفظ على الأندماج فى البيئة الجديدة بينما تلهث فايزة خلفها بالنصائح والترغيب ، تستعجل الفوز بها ، كررت عليها وجهة نظرها : والله مالناش غير بعض ياهدى ، أيدى فى أيدك يابت ونعيش حياتنا . أغمضت الأخيرة عينيها مع أول رشفة متقبلة الفكرة فالوجع واحد والشكوى عامة . أظهرت هدى أستغرابا ودهشة كما أبدت أعجابا بتفكير فايزة فى ادارتها لشئون حياتها حين طرحت عليها حلولا مستقبلية تنفعها عند أتخاذ القرار الصعب .

ـ مش حأقولك بصريح العبارة أن ولادك مش عايزينك ولاحتى بيستعروا منك .. أنسى الكلام ده كله وخلينا نحسبها بالعقل ، بس الأول لازم أسألك .. ولادك أصلا عايزين منك أيه وأنتى عايزة منهم أيه ؟ سندت خدها على كفها : معناه أيه السؤال ده .. الأم حتعوز أيه من عيالها ؟ .

ـ أى أم فى الدنيا فرحتها ماتتوصفش لما تلاقى عيالها حواليها وقدام عينيها وفرحتها تكبر وتزيد لما تطمن على مستقبلهم وتوصل كل واحد فيهم لبيته وهمه كمان مايقدروش يبعدوا عنها عشان هى بتبقى الحضن والسند ليهم بعد ربنا . ضاقت عينيها تبحث غن فهم : عايزة توصلى لأيه ؟ .

ـ غيابك تسع سنين فى السجن شقلب الحال وغير النفسية وخلى البعيد عن العين بعيد عن القلب . الجملة الأخيرة كانت كافية لأنفعال نبرتها : مهما كان الغياب أنا أمهم .

ـ أم بالأسم من غير فعل و ماتأخنيش يعنى فى دى الكلمة وجودك زى عدمه بالنسبة لهم وده مش معناته أن همه وحشين ولاقلبهم جاحد ولاأنتى لسمح اللـه غبية عليهم ومش شايفين منك ريق حلو .

ـ أمال عشان أيه ؟ قالتها وأستعجلت الرد .

ـ عشان بنتك نورا ماسابتش حاجة إلا وعملتها لهم ..عوضتهم حنية الأم كأنهم ولادها بالظبط علمت وكبرت وصرفت وأكلت .. سدت مكانك وزيادة ياهدى ، ولما أنتى طلعتى من السجن كان عيالك أستكفوا وشبعوا وماعدش ناقصهم حاجة ولافارق حتى معاهم خروجك من عدمه وأنتى ياحبة عينى معذورة مالقتيش فتفوتة تقدميها لهم عشان يحسو بوجودك ويعرفوا أن أمهم رجعتلهم . سكتت للحظات كى تتهيأ لكشف أسباب الخلل . أستطردت : أنتى ماحلتكيش حاجة زيادة عن نورا عشان تزغللى بيها عينيهم ، لا أنتى صاحبة مال ولاعارفة حاجة عن خصوصياتهم ولافاهمة مشاكلهم عشان تقربى منهم

وتدخلى فى زوارقهم وهمه كمان مش قادرين يتعاملو معاكى على انك أمهم اللى كانت عايشة معاهم من تسع سنين .

بدا الأمر مرهقا بالنسبة لها وهى تسلم برؤيتها . بصعوبة أستخرجت عذاباتها وأحباطاتها ووضعتهما أمام فايزة التى تابعتها بأسى وملامحها ترتج مع كل دمعة من عينى صديقتها .

ـ عندك حق فى كل اللى قلتيه ، وجودى معاهم كان زى عدمه والفرق الوحيد اللى كان بينى وبين نورا أنى سودت عيشتهم وضيعت أحلامهم وخلتهم تحت رحمة الناس يعايروهم بأمهم .. هو ده اللى أنا قدرت أعمله معاهم من ساعة ماخرجت من السجن .

ـ عشان كده ياهدى بأقولك أحسبيها بالعقل .

ـ يعنى أنتى شايفة أيه ؟ طرحت سؤالها بعد أن ألتحقت الصدمة بملامحها قبل أن تقضى فايزة بكلماتها على ماتبقى لها من أمل .

ـ الست مننا ياهدى لما تعجز وتكبر فى السن وصحتها تتدهور .. فى أول الأمر ولادها بيتلمو حواليها ويتخانقو مع بعض كل واحد فيهم عايز ياخدها عنده ويراعيها ، أسبوع أتنين شهر بالكتير وبعدها كل واحد يبقى عايز يرميها ع التانى ويخلص منها .. هزت رأسها بأشارة مفاجئة : فهمتك .. يعنى كفاية لحد كده وألم نفسى وأبقى خفيفة أحسن ما .. أبتلعت بقية الجملة وأحتفظت بمرارتها ، فأختصرت فايزة المعنى : بالظبط كده . تقبلت النظرية وتجاوزتها بنبرة تسليم : برنامجنا أيه النهاردة . تأملتها فايزة قبل أن تنفرج عقدة ملامحها بأبتسامة : أى حاجة تبسطك أنا معاكى فيها . قامت متكاسلة أو ربما محبطة : حأدخل أريح جسمى شوية على ماتفكرى حنعمل أيه . توجهت الى الغرفة .. بدت كصاحبة البيت !! .

0000000000

فتح يوسف باب الشقة .. الصالة خالية إلا من رائحة البخور التى هاجمت أنفه . تلفت متشمما وهو يتساءل : دول عاملين زار ولا أيه ؟!.

تخلى عن طقوسه اليومية . لم يدخل الحمام ليأخذ " دشه " المعتاد . أتجه مباشرة لغرفته بصحبة مشاعر متناقضة وفى مخيلته صورتان ، أحداهما لهدير والأخرى لأيمان . لازالت أصداء زيارة هدير لم تبرح خياله . أكتفى بخلع قميصه وبنطلونه وركن حذاءه بجوار السرير ثم جلس على حافته بصدر

عارى و " بوكسر " . بدا ساهما مشوشا قبل أن يستعيد تركيزه حين وضع رأسه بين كفيه خافضا بصره متأملا أرضية الغرفة وكأنه يتابع المشهد من نافذة . لم يكن موهوبا فى الأستنتاج أو التحليل ولكنه كان مصرا على فهم الحالة . ماحدث اليوم أعتبره زلزالا مدويا وتطورا مذهلا. قفزت أبتسامة على وجهه تقاسمتها عينيه وشفتيه .. تملكه شعور من أستعاد كرامته عندما أستحضر اللقطة الأخيرة قبل خروجه من حجرة مكتبه حين أدار ظهره لهدير تاركا لها حسرة وكرامة مشروخة . تذكر نظرة عينيها وهو يسحب نفسا منتشيا .. نظرة كانت تحمل أستغاثات مكتومة وأعتذار بلا تحفظ لاينقصه سوى الركوع عند قدميه طلبا للمغفرة . كما لم يغب عنه موقف ايمان ، صوتها المنفعل وحركاتها العصبية فى وجود هدير يدفعه الى شرود مفاجىء .. قلقها وتوترها الشديدين وهو بجوارها فى السيارة كان يثير داخله علامات التعجب .. التجهم والصمت كانا شعارها . لم تنبس بكلمة طول الطريق حتى سلمته لمدخل العمارة الذى اجتازه مع علامة أستفهام كبيرة على سؤال أكبر : هل هى تحبه ؟ ولماذا أختارته هو بالذات ؟ جر السؤال خلفه أوجاعا حين ابدى قلقا : هل يكون مصيره مع ايمان مثل مصيره مع هدير ؟ فكر طويلا فى أجابة للسؤال . لايمكن الوصول الى أجابة قاطعة . مادام داخل المشهد . إلا أنه حاكم السؤال ببرود شديد مستعينا بنظرية " لا أملك ماأخسره " . خاطرا أخر أستدعى ايمان حين قام بـ " البوكسر " وواجه جهاز الكمبيوتر تزامنا مع لحظة فتحه ؟ لم يشأ أن يتخذ موقفا مندهشا ولا حتى فضوليا ، فالحالة أكثر تعقيدا مما يبدو . زاد حضورها كلما فتش فى مواقعه وقلب صفحاته ، الجهاز لايسترجع شيئا بدون أمر! كيف ظهرت ايمان ولم يضغط على زر ؟ ربما لأنها مثله فى شرنقة المعاناة ، ربما المشهد به رائحة من مشاهد أخرى ، مايتراكم فيك لا تستطيع حصره ، يكون بعيدا وفجأة يقترب مع حدث ، مع صورة ، مع صوت ، ذكرى تنفلت من مخزون الذاكرة . اذا ماذا يفيد السؤال ؟ فالأجابة لاتجدى . فجأة غادر بعينه الشاشة وغاب ، كان يفتش عن سبب يصلح تفسيرا . لم يجد مايشبع فضوله ، فغادر الفضول إلى مايشغله دون أن يدرك بأن شيئا أستقر فى اللاوعيه وأن للحكاية مايحركها . حالته تلك لها تعريف منطقى " أن الحب عند الناس هو حيلة لأشباع رغبة ، ولكنه عند يوسف غاية يريدها . وهو هدف بعيد ".

لم تمر تلك الليلة إلا وصدر الأمر بحملة مكبرة قادتها نورا فى غرفة هدى . عملية بحث وتفتيش الغرض منه العثور على طرف خيط يساعد فى الوصول لمكان أمها بعد أن سأمت من حالة المط والتطويل واللاسلم واللاحرب . تلقت دعما ومساعدة من بسمة ويوسف ، وعلى أستحياء من أيات التى تابعت عملية البحث كمراقب محايد سعيا وراء أى دليل يفضى لمعلومة تقودهم لعنوان فايزة وسط

تشجيع ودعوات نعمة التى وقفت على عتبة الغرفة : ربنا ينور بصيرتكو وتلاقو حاجة وياريت كل واحد فيكو وهو بيدور يقول فى سره يارب رد على ضالتى وإن شاء اللـه تلاقو اللى يهدى سركو .

فى نفس الوقت لازال خيرى يعانى .. سكون الغرفة ومكان فعلته الماثل أمام عينيه سهل عليه محاكمة قاسية لنفسه . مفرش السرير لازال يحمل رائحتها التى حركت فيه أنفعالات حزينة وشعور هائل من الغضب كلما تعايش مع تفاصيل الواقعة . مازال صوتها يتسلل اليه من كل ركن يدفعه إلى الأرتباك والخجل . عبارتها الأخيرة التى سبقت لحظة تسليمها تطرق رأسه بشدة : بلاش ياخيرى .. بلاش أنا محتاجة أتكلم معاك . لم يبحث عن مبرر ولم يحاول الدفاع عن نفسه . لم يتعلل بالمفارقة العجيبة أو الحبكة الشيطانية التى سحبتهما الى لحظة ضعف دون أرادة وبلا عقل . كم يدرك ، الان ، أنه يعشق بجنون تلك التى لعق شفتيها وداعب خريطة جسدها ، عشقا مبرحا وحنينا موجعا .

أدار فى رأسه نقاشا يصل به فى كل مرة الى طريق مسدود . لو لم يحدث بينهما ماحدث لكان بمقدوره أقناعها وردها لمنزلها حتى لو أقتضى الأمر منه تدخلا شخصيا لرأب الصدع بينها وبين أبنتها . سرح الشك فى عقله كشرخ يزداد طولا وأتساعا . داهمته الظنون : هى فعلا راحت عند صاحبتها زى ماقالتلى ولا لأ ؟ ! حترجع تانى بعد مافقدت الأمل فى كل حاجة .. فى عيالها اللى مش عايزينها وفى أنا كمان اللى أستغليت ضعفها ؟ بلغ الشرخ مداه حين طرح على نفسه سؤالا محبطا : ياترى هى شايفانى أزاى دلوقتى ؟ تلك هى التساؤلات التى دارت فى رأسه وشغلته طوال يومه . لايرى أجابة شافية . إلا أن المقادير قد قررت معاقبته على فعلته . وها هى ساعة العقاب قد حلت .

توقف عن نشاطه اليومى ، الصمت والحديث يضايقانه ، صار لايحلم . حتى تلك المنطقة الهادئة التى كان يستطيع ان يصطاد منها بعض الشوارد قد نضبت وهرب روادها . أصبح فكره فيها يتردد بين عالمى الحقائق والأحلام فلا يبقى فى أيهما الفترة الكافية لأكسابه بعض المعنى . تقلصت أمنياته كلها وتضاءلت فى رغبة واحدة : هدى . لم يعد يبالى بشيىء ، لم يعد لديه مايخسره . عند هذه النقطة من القناعة قال لنفسه : لم يعد الأنتظار حلا . فأستنفر شجاعته حين قرر فجأة مداهمة شقة هدى فى زيارة جريئة بحثا عن حل .

بينما فى تلك اللحظة لازال البحث جاريا فى غرفة هدى على قدم وساق . ساعة كاملةمن البحث والتحرى وأصبح كل شيىء فيها تحت سيطرتهم . لاشيىء فى الغرفة يدل على أن الراحلة كان لها أى خصوصية أو تملك أية أسرار ، اللهم الا بعض الصور القديمة تجمعها بأمها وبعض الأوراق الخاصة

بالمرحوم " نديم "ليس لها منفعة ولاجدوى ومظروف أصفر بداخله صحيفة الحالة الجنائية ومعه كارت خاص بالأخصائية الأجتماعية كأجراء روتينى تتحصل عليه كل سجينة عند خروجها من السجن ان أحتاجت مستقبلا لدعم أو مساعدة .. نظرة أخيرة محبطة جالت بها نورا فى الغرفة قبل أن يرن جرس الباب الذى أصبح مصدر أمل . أنسحب يوسف خارجا تدب فى ملامحه علامات تفاؤل . غير أنها سرعان ماتبددت حين فتح الباب وأستبدلها بأستغراب ودهشة : أهلا عمو خيرى . قالها ببطء قبل أن يتماسك : أيه المفاجأة الجميلة دى . ثم أفسح له طريقا .

ـ أخبارك أيه يايوسف . رددها حين تخطى العتبة للصالة .

ـ الحمد لله ياعمو . نظرة تفقدية للمكان الذى لم يدخله منذ زيارته الأخيرة . تقدمه يوسف حتى الصالون بترحيب حذر . وصل صوت خيرى لأسماع نورا التى أنتابها خوف وقلق شديدين . توجست من زيارته ، ربما وراءه أمور غير طيبة أو ربما يحمل معه حلولا سحرية . خرجت له تخفى شكوك وظنون وداخلها يقين مسبق أن محاكمة غير عادلة تنتظرها فى الصالون . تابعت خطوتها حتى لاح لها وجهه المقتضب فتهيأت بأبتسامة ونثرت عليه جمل ترحيب مبالغ فيها .. تسعى لأستمالته : عمو خيرى بنفسه عندنا .. أنامش مصدقة نفسى .

ـ ازيك ياحبيبتى . جلست إلى جواره صامتة تتحسس نبرة صوته وشكل نظرته كمرحلة جس نبض قبل أن تنضم إليهم أيات وبسمة يسحبهما الفضول حول سبب الزيارة الغريبة .. بدوا جميعا على قناعة بأنه يحمل معه أخبارا مهمة .. بعد الأستفسارعن أحوال العافية رأى أمامه وجوها ذابلة ومهمومة ، فأرهقت نفسيته وزادته أرتباكا . جاء محملا بكل المتناقضات .. بذنوب الشياطين وحسنات الملائكة ، بسيف الظالم ودعاء المظلوم مدفوعا بأوجاع الجرح وآلام الجريح حين أيقن متأخرا بأنه لايملك حدودا بين طيبته وشره ، بين جنونه وتعقله .

أرتخت ملامحهم المشدودة حين بدأ حديثه : مامتكو ماأتصلتش بحد فيكم ؟ نظرات مهزومة تبادلوها فيما بينهم قبل أن تكشف نورا عن خيبة أملها : كنت فاكرة حضرتك جاى ومعاك أخبار .

ـ للأسف أتصلت بيها كتير جدا .. فى الأول كان جرس وبعد كده قفلته .

ـ أحنا كمان من أمبارح لغاية النهاردة مابطلناش أتصالات وبرضه مقفول . قال يوسف .

ـ وناويين تعملو أيه ؟ سأل خيرى ولم يحصل على رد فأستفسر كموفد عن لجنة تقصى حقائق : أنا عايز أفهم هو أيه اللى كبر الموضوع كده وخلاها تسيب البيت ؟ شعرت نورا أن الأتهام موجه لها حين لمحته يغزوها بنظراته . تعاملت مع سؤاله بخطة التعميمات : ماحدش فينا زعلها ولاحد ضايقها هى اللى بقت حساسة أوى اليومين دول .. من أقل كلمة بتتضايق وتعملها زعلة . لم يتعمد الألحاح وأنساق مع نهج التعميم : مامتكم مابقتش حساسة من فراغ متهيألى هى أتحملت كتير وشالت جواها كتير وماحدش فيكو قدر يحتويها ويعذرها . ثم نقل نظره ليوسف . أردف : وأنت ماحاولتش تمنعها يايوسف ده أنت راجل البيت . رفع الأخير عينيه ينظر لأخته التى أنابت عنه : كلنا حاولنا نمنعها عشان ماتخرجش .. هى اللى كانت مصرة مع أن الموضوع ماكانش يستاهل كل ده . سقطت من ذاكرة خيرى القاعدة المعروفة " أمام حصولك على المعلومة ينبغى ألا تثرثر كثيرا ولا أن تغضب " فبدا عصبيا : يعنى الحصار اللى أنتو عاملينه حواليها شيىء عادى وبسيط .. شغل مافيش يعنى محبوسة فى أوضتها ليل ونهار زى كأنها فى زنزانة انفرادى لاحد بيكلمها ولا حد بيخرج معاها وكمان حياتها الخاصة عايزين تتحكمو فيها وتجبروها على حاجة هى مش عايزاها ولابتفكر فيها دلوقتى .. يبقى كل ده مايستاهلش يانورا أنها تنفد بجلدها من الجحيم ده .. صمدت فى وجهه كالصخرة : حضرتك فاهم غلط ياعمو الأمور مش بالشكل ده خالص ، ماما عايشة معانا معززة مكرمة وخلافنا معاها عادى زى أى خلاف فى أى بيت .. المعلومات اللى وصلتلك مش مظبوطة ياعمو . لم تكن مقتنعة .. لم يشأ أن يجهز على ماتحاول أن تتشبث به من دفاع ، فأحجم عن هجومه مكتفيا بهزة من كتفه : المهم دلوقتى أزاى نوصل لمامتك ونرجعها تانى البيت .

بعد نصف ساعة أنتهى الجزء الأكبر من حديثه المنفعل الذى صب معظمه فى وجه نورا التى تهاوت دفاعاتها تحت وطأة الأحترام والخجل .. أجتمع عليه كل شيىء وتآمرت كل الظروف ، المكان والزمان والحب . تراجع أرتفاع الغضب فيه وعاد الى حكمته : وأحنا حنفضل قاعدين ساكتين كده مابنعملش حاجة.. لا أحنا عارفين مكانها ولاقاعدة مع مين ولابتقضى يومها أزاى . كانت تلك أسئلة مغرم عاشق . لأول مرة يتخلى عن حذر أعتاده بينما لم يعلق أحد ولم تبد عليهم اللهفة وكأن الأمر لا يعنيهم ،أو أنهم خارجه !. شرد للحظات مستغربا تبلدهم حتى علا صوت نعمة القادمة من ناحية المطبخ تحمل صينية عليها فنجان قهوة : هى أكيد عند واحدة صاحبتها أسمها فايزة .. وكانت قالتلى مرة .. سكتت لثوان . تركت ذاكرتها تنقب ثم فركت يديها بعدما تسلمت منها بسمة الصينية . قالت بلهفة : أنها ساكنة فى كرموز . معلومة ظلت حبيسة ذاكراتها ولم تفصح عنها الا فى هذه اللحظة . توقف خيرى بعينيه

للحظات ، تملى هذا الشبح الأسمر وهى تناوله فنجان القهوة قبل أن ينحرف ببصره : ماتعرفيش يانورا أى حته فى كرموز .

ـ لأ طبعا .. بس أنا لقيت كارت بتاع الأخصائية الأجتماعية الموجودة فى السجن ومتهيألى ممكن تفيدنا بعنوان اللى أسمها فايزة دى . قالت جملتها ببرود ومن باب " عملت اللى على " . أستفزته نبرتها . وبالرغم من أنه لايملك ماينـاور به سوى حرمانها من متعة أوشكت على قطافها .

ـ أنا عن نفسى مش حاسكت ولا حارتاح لغاية مأأمكم ترجع البيت تانى ومش حأكون لوحدى شريف كمان حيبقى معايا مادام أنتومش عايزين تتصرفو وقاعدين تتفرجوا . تعمد أقحام أسم أبنه فى المناورة كورقة ضغط . لكن المتربعة على عرش المنزل لم يعجبها كلام خيرى . إلا أنها لاتريد أن تذهب بعيدا فى ظنونها ولا أن تعلن غضبا أو تذمرا ، هى تعلم أن خيرى لابد أن يكون جزءا من اجراءات الحل . تصدت له بمرونة وبقايا كلامه لازالت عالقة فى ملامحها : أحنا عملنا كل اللى نقدر عليه ومش ساكتين .. أيه اللى حضرتك حتعمله زيادة أنت وشريف وأحنا ماعملنهوش . تدخلت أيات لتبسيط الأمر فأعلنت بما يليق بها : أحنا كلنا بنكمل بعض واللى يقدر على حاجة يعملها . أنصت لكلامها بأقتضاب ثم توجه إليها معاتبا : ماتزعليش منى يا أيات هانم أنا بأحملك المسئولية الأكبر فى كل اللى حصل . أختفت البشاشة من وجهها : ليه ياأستاذ خيرى هو أنا السبب فى سوء التفاهم اللى حصل بينهم ولا أنا اللى قلتلهم قعدوها من الشغل .. أنا واحدة ست فى حالى مابتدخلش فى أى حاجة . كان محددا حين قاطعها : هو ده اللى أنا بأقصده يا أيات هانم أنك ماتدخلتيش وكنت فى حالك وأتنازلتى عن دورك اللى كان المفروض تقومى بيه .. كان لازم تكونى الحكم بينهم أو حتى على الأقل تقدمى نصيحة ولاتقولى رأى .. ماتنسيش أنك عمتهم ولكى كلمتك برضه فى البيت لكن للأسف وقفتى تتفرجى ياأيات هانم . أصرت الأخيرة فى عناد يحفظ لها ماتبقى من كرامة : أسمحلى ياأستاذ خيرى أنت بتتكلم عن مشكلة بين أم وولادها مش بين جيران ولاقرايب وساعات كتيرة التدخل مابيحلش .. بيعقد الأمور أكتر . قالتها وكأنها توجه له أتهام . بينما لمحت نورا فى وجهه غضبا فبادرته بجملة أستباقية قبل أن ينفثه : لو حضرتك بتحملنا المسئولية فى كل اللى حصل فأنت كمان مسئول معانا .

ـ أنا . قالها عابسا .

ـ ياعمو مافيش حاجة بتستخبى وأحنا كلنا عارفين أن حضرتك وماما يعنى .. لم تصرح ببقية الجملة لأعتبارات الحرج . فتجاوزت المعنى الى المضمون : كان لازم من البداية تحتويها وتقنعها أن الجواز

مش عيب ولاحرام . حاول أن يتخلص من ضغطها ويستعيد المبادرة : مامتك ماكانتش محتاجة حد يقنعها ولايفهمها الحرام من الحلال .. مامتك كانت محتاجة تحس بالأمان فى بيتها وانها وسط عيالها ولها وجود ودور مش كمالة عدد ومالهاش لزمة . أنهى جملته ورفع عينيه وأستقرت على شفتيه أبتسامة ساخرة قبل أن يستأنف : أحساس صعب أوى أن الأنسان يبقى موجود فى بيته وحاسس بالغربة والوحدة

ـ وحضرتك ليه ماعوضتهاش . كانت جريئة ومباشرة ، لم يعد الأمر بينهما مخفيا وراء مصطلحات عائمة . ثم أرسلت له نظرات مشجعة بينما حركت الأجابة فى نفسه حرجا فأطرق غاضا بصره : مش وقت الكلام ده يانورا فيه حاجات أهم . الحالة لاتسمح بالفلسفة ولا البحث عن العلل والأسباب . خرجت بسمة عن صمتها : متهيألىلازم كلنا نراجع نفسنا ولما ماما ترجع حنحط النقط على الحروف عشان اللى حصل ده مايتكررش تانى .

ـ مش لما نعرف مكانها الأول . أفصح يوسف بعد فترة غياب بدا فيها كضيف شرف بينما أدرك خيرى أن الحوار فى مثل تلك المواقف ، يستدعى حكمة وربما يقتضى حدة : ده دورك يايوسف أنت راجل البيت المفروض لاتهدى ولاترتاح لغاية ماتعرف مكانها . قال نصيحته ثم هم واقفا : ع العموم ربنا يصلح الأحوال . ثم قدم أعتذارا عن زيارته المفاجئة دون سابق أنذار وعن فنجان القهوة الذى لم ينهيه . خرج من الصالون ولحقت به بسمة التى أختصرت قلقها : خليك جنبنا ياعمو لغاية ما ماما ترجع . أنحشرت نورا بينهما : عمو قال أنه مش حيسكت وأنتى مش نونو ياست بسمة . قالتها ساخرة وبصوت بدا لها غير محتمل . أبتسم خيرى وهو يكشف عن مشاعره ونواياه : ماتقلقيش ياحبيبتى أنا طول عمرى كنت جنبكم وان شاء اللـه لما هدى ترجع حأبقى جنبكم على طول ولافيه حد عنده مانع . بادلته نورا الأبتسامة وهى تصحبه للباب . تماشى كلامه مع هوى نفسها . ألتفت اليها موصيا : لو عرفتى أى حاجة أوردت عليكى بلغينى على طول حتى لو فى عز الليل . رحل تاركا لها الأجر والثواب ان فعلت . تأملته بدهشة وهو يتجه لشقته . رأت رجلا تخلى عن ثباته ورصانته .. كانت أمام عاشق يبحث عن ليلى ! .

لم تسفر زيارته عن أية نتائج .. الأسئلة والأستجوابات لم تفيده فى التوصل لمعلومة وأصبحت قضية أختفاء هدى فى طريقها للحفظ أنتظارا لأى جديد .

0000000000

رنين موبايل فايزة داهمها فى المسافة الفاصلة بين الطرقة والصالة بعد أن أنهت لتوها أرتداء ملابسها أستعدادا لخروجة ليلية بصحبة هدى التى لازالت فى الغرفة تضع اللمسات الأخيرة . نظرت فى الرقم ثم قالت فى نفسها : عايز أيه زفت الطين ده . رفعته فى ملل لآذنها : خير يانونو فى أيه ؟ بدا صوته مرتبكا حين أجابها : معايا واحد واقف جنبى وعايز ييجى يتكلم معاكى فى حاجة كده .كشرت وجهها : واحد مين ياوله اللى أكلم معاه .

ـ أنا ماعرفهوش يامعلمة بس الوله جمعه بيقولى أن بقاله ساعتين مستنينى فى القهوة عشان آخده وأخليه يقابلك. زادت دهشتها وتهكمها : يعنى أنت ماتعرفهوش وعايز تجيبه البيت عندى .. طب أسأله ياحمار هو عايز أيه ؟! .

ـ اللى سمعته منه ماقدرش أقوله ، أسمعيه أنتى بنفسك .

لم يستغرق وصول " النونو " البيت سوى عشر دقائق .. تراجعت فايزة خطوتين من أمام الباب كى تسمح بمرور النونو ومن خلفه ذلك الكائن الذى عاينته بنظرة حذرة وجملة مقتضبة : خير يانونو فى أيه ؟ .

ـ دلوقتى تسمعى بنفسك . قالها وهو يجلس على الكنبة .

ـ أقعد ياخويا واقف ليه . جملة تلقاها الضيف الذى جلس مدليا رأسه للأرض وهو يهمس بكلمات خجولة : كتر خيرك يامعلمة .. محسوبك وخدامك نعيم . رمته بنظرة ضيق : خير ياسيدى قول . قالتها بالتزامن مع وصول هدى من الداخل . أبدى النونو أعتراضا على وجود الضيفة حين مط شفتيه : الأخ عايز يكلمك فى حاجة شخصية .. طمأنته : دى زى أختى ياوله مش بأخبى عنها حاجة . بينما أستشعر نعيم فى نظرتها قلقا فمنحها مقدمة مهدئة : اللى سمعته عنك يامعلمة من جدعنه وكرم أخلاق هو اللى شجعنى آجى لغاية عندك وأعمل الأصول . أنهى المقدمة الواجبة حين تلقت أذنيه تنهيدة من نفذ صبره عندما جلست أمامه متململة : قصره أيه المطلوب . أربكته بملامحها فدخل فى صلب الموضوع : من حوالى شهرين جانى أبنك منصور ومعاه واحد أسمه سليم وطلب منى حاجة كده ولح على فيها .. أصل لمؤاخذه العبد للـه خدوم ومايحبش الرغى الكتير . بالرغم من تلك الملاحظة أسهب نعيم فى سرد روايته مضيفا لها كل عناصر التشويق والمفاجأة مع تكرار عبارات التمجيد والأشادة بنفسه مع نهاية كل جملة

متقمصا دور الناصح الأمين حين قاربت روايته على الأنتهاء بينما فايزة تنصت له بعين مفتوحة وشفة مرتعشة لازال يتابع : وكنت أخد منه الكلام يامعلمة وأسكت شوية وأقرب لمؤاخذة عينى من عينه وأقوله راجع نفسك يامنصور الحكاية مش سهلة دى برضه أمك وأتذكرت فى القرأن ، الحق يتقال يامعلمة كان يسكت ويتوه منى وكأنه لامؤاخذه بيدور على لسانه ويعدها قالى لو مالكش غرض تخدم فيه غيرك يسد . سيطر عليها الذهول وأنتابها الدوار . صفعتها روايته وتلجلج صوتها : أيه ياجدع أنت اللى بتقوله ده ؟! قالتها وبحثت بعينيها عن وجه النونو : أنت جايبلى واحد مش فى وعيه .. أيه الهجص اللى بيقوله ده . لم يعلق وكأنه يؤكد كلامه فأحتقن وجهها كموخرة قرد وأردفت بصوت يحتضر : أنت مين اللى بعتك عشان تقولى الكلمتين دول ولاحكايتك أيه بالظبط ؟! أيدتها هدى التى واجهته بنبرة عدائية : أكيد الراجل ده مزقوق عليكى ، شكله باين يافايزة ! قطب وجهه المسحوب مدافعا بحماسة : كتر خيرك ياست .. حاجتين بأكرهم فى حياتى الكدب ولامؤاخذة أتبلى على حد . لم تستطع اخفاء صدمتها . كلماته كجمر النار تأبى الدخول لعقلها وتقف عند تجويف أذنيها فبدا لها عذابا لايحتمل حتى فاض بها الكيل : يعنى أنت جاى تقولى أن أبنى الوحيد كان عايز يدبر لى مصيبة ويحطنى فيها ويدخلنى السجن عشان يخلص منى ويلهف القرشين وعايزنى أصدقك ..طب أزاى يأبو عقل ضارب ياقليل الذمة والدين . أنتفض فى مكانه واراد أن يظهر غضبا الا أنها سبقته وخرجت عن السياق وتحولت الى نمرة شرسة : لو مش حتقولى حكايتك أيه ومين اللى وراك لتكون نازل من هنا على ضهرك ورجليك عمرها ماحتلمس أسفلت الشارع تانى . أرتعشت ملامحه وطمس الخوف صوته وهو يدلى بكلمات مهزوزة : عيب يامعلمة أنا فى بيتك ولامؤاخذة يعنى أنا مش راجل مجنون عشان آجى لغاية هنا وأقول كلام ماحصلش ولا أتبلى على أبنك وع العموم اللى يفصل بينى وبينك أبنك منصور هاتيه دلوقتى قدامى وواجهينى بيه ولو طلع كلامى غلط رقبتى تحت أمرك . قالها ونكس رأسه راسما علامات التأثر ثم تابع : اللى قلته هو اللى حصل يامعلمة وأنا عاذرك وعارف أن كلامى وجعك بس هى دى الحقيقة . أرتعشت شفتها السفلى دلالة صدمتها التى غابت فيها وكأن المأساة أبتلعتها حتى أنها لم تشعر بمن حولها الا حين أحتدت هدى بصوت عصبى : من الأخر كده أنت عايز أيه من ورا الكلام ده ؟ أرتبك للحظات قبل أن يتماسك ويراوغ : أنا عن نفسى مش عايز حاجة ياست ، الحكاية كلها أنى صرفت من جيبى قرشين لما أتفقت مع منصور لكن الحمد للـه ربنا نورلى طريقى لما سألت ودعبست وعرفت أن المعلمة فايزة ست جدعة وتعرف الأصول وقلت لنفسى لو جت ع الفلوس تبقى سهلة آهى بتروح وتيجى بس المهم أن الواحد مايخسرش نفسه . أراد أستمالتها بجملته الأخيرة وهو يراقب

نظرتها المستسلمة التى تفيض مرارة حين ألتفت لـ " نونو " قالت بنفس مقطوع وملامح مرتخية : أديله اللى صرفه . قفز نعيم من مكانه خافضا رأسه مصوبا شفتيه ناحية يدها محاولا تقبيلها : ربنا مايحرمنا منك يامعلمة . سحبت يدها فى أستنكار : روح غور فى داهية بعيد عنى .

قاده النونو الذى بدا محايدا الى خارج الشقة بينما أستولى عليها شعورا جارفا بالقهر . تابعت هدى حالتها التى تسوء ، عيناها تضيق وتتسع ، شفتاها تتحركان وكأنها تتمتم مع نفسها . حاولت التواصل معها لسحبها للحظة هدوء قبل فوات الأوان . لم تعثر على كلمات تناسب فجيعتها ، فأستحلفتها أن تهدأ : عشان خاطرى يافايزة ماتكبريش الحكاية الموضوع كله مايستاهلش . ضربت الأخيرة كفيها غيظا وأحباطا : ليه كل ده .. عايزة حد يفهمنى .. عمرك سمعتى ياختى عن أبن عايز يخلص من أمه ويدخلها السجن .. جاوبينى سمعتى عن حاجة زى دى ياهدى . بقدر ماتحمله الأخيرة من هموم وأحزان إلا أنها تضاءلت أمام فجيعة فايزة وفداحة مصابها . بدت أن الرجفة داخلها على وشك أن تنتقض ثم أجتاحتها نوبة بكاء شديدة قامت على اثرها هدى تحتويها فى صدرها : أهدى باللـه ماتعمليش فى نفسك كده . تطلعت اليها بوجه غارق فى الدموع : شفتى منصور أبنى الوحيد كان عايز يدخلنى السجن .. حاولت هدى أن تنفض عن نفسها أحساسا بقلة الحيلة : ياستى لو فرضنا أن الكلام اللى قاله الراجل ده صح أكيد ابنك ساعتها كان مضايق ولاشايل منك وحب يعمل حركة تهويش خايبة مالهاش لزمة والدليل على كده أنه ماقابلش الراجل ده تانى ولا حتى عمل أى حاجة تضايقك . بدا كلامها بلا معنى ولا تأثير . أنصتت لها بملامح التماثيل دون رد أو تعقيب وكأنها فى عالم أخر . بينما أدركت هدى أن المرأة القوية التى عاشرتها سنوات أصبحت آيلة للسقوط . فأختارت نبرة خافتة مستجدية : لو بتعزينى صحيح كبرى دماغك وكأن مافيش أى حاجة حصلت . ثم أخذتها فى حضنها للحظات حتى هدأت وتماسكت ثم أنكمشت على نفسها فى كنبة الصالة ، لاشيىء يتحرك فيها سوى جفنيها وكأنها تسترد وعيها ببطء . ظلت صامتة متصلبة لدقائق قبل أن تدب فيها الحركة من جديد حين سحبت موبايلها من جوارها وضغطت بأصبعها على أخر رقم أتصل بها . من وسط الصدمة والمعاناة لمعت فكرة . تابعت هدى حركاتها بأهتمام : بتتصلى بمين ؟ لم ترد عليها ورفعت الموبايل لأذنها : أيوه يانونو .. الحكاية اللى حصلت دى مش عايزة منصور ياخد بيها خبر .

ـ من غير ماتقولى يامعلمة .

ـ هو الجدع ده لسه جنبك .

ـ أيوه .

ـ قبل ماتراضيه خليه يتصل قدامك بالوله سليم عايزاك تتأكد من كل كلمة قالها وأبقى بلغنى .

ـ حاضر . أحست هدى فى نبرتها بشيىء غريب ومريب : أنتى بتفكرى فى أيه يافايزة .

ـ لسه مافكرتش . قالتها ثم غابت مرة أخرى فى الصمت والتأمل . ظلت هدى بعدها لساعة كاملة تلهث خلف أذنيها بعبارات التهدئة والمواساة الا أنها لم تحصل على أى رد فعل ولم تلمس فيها أنفعالات ولم ترصد غضبا فزادت حيرتها وأشتد قلقها حين أجابت فايزة عن سؤال لم تطرحه عليها هدى : عايزة تعرفى أيه اللى منع منصور مايكملش خطته .

ـ أكيد راجع نفسه وعرف أن مافيش حد فى الدنيا ممكن يأذى أمه . قالتها بسذاجة .

ـ أنا ياهدى اللى منعت خطته وبوظتله الرسمة اللى كان راسمها وطبعا ده كان من غير قصد .

بدت ساهمة وكأنها ترتب الأحداث : ربنا ألهمنى بمنام شفت فيه منصور وبعدها قلت لنفسى لازم أكسبه وأرجعه لحضنى ووقفت جنبه وعملته بنى أدم ومن كرم ربنا على أنه الهمنى أعمل كده فى الوقت المناسب ، لو كنت أستنيت شوية كان زمانى لابسة تهمة ومرمية فى السجن .

تلقت أتصالا من النونو الذى أبلغها فى مكالمة مختصرة أن سليم وراء زيارة نعيم الذى أستدعاه وقام بتوجيهه لفضح منصور أمامها مستهدفا الأنتقام منه بعدما تخلى عنه الأخير وباع صداقته . هزت رأسها فى أشارة مفاجئة عندما أنتهت المكالمة : لازم أخليك تدفع التمن يامنصور. لم تتمهل حين أعلنت جملتها ولم تفصح عن قيمة الثمن الذى سيدفعه أبنها مكتفية بسحب عينيها فى هدوء بأتجاه عينى هدى التى أقتربت منها بحذر : ناوية على أيه يافايزة . لم تكشف عن نيتها فبدا الأمر مرهقا بالنسبة لهدى التى حاصرتها بكلمات المواساة قبل أن تباغتها فايزة بالنتيجة النهائية التى توصلت اليها بعد فجيعتها الهائلة : عرفتى وأتأكدتى أن اللى يشوف بلوة الناس تهون عليه بلوته . نبتت أبتسامة ساخرة على وجه هدى وكأن الحكمة تخرج من بطن المعاناة : متهيألك : أنا وأنتى بلوتنا واحدة .. كلهم عايزين يخلصوا مننا بقينا عقبة فى طريقهم وعايزين يزيحونا بأى طريقة .. أنا عن طريق جوازة وأنتى ترجعى السجن تانى .. المهم عندهم أننا نختفى من حياتهم . أحستا بأنهما منبوذتين من الحياة . أمعنتا فى تعذيب نفسيهما بالبكاء . لم يستغرق الأمر طويلا قبل أن تنفض فايزة عن نفسها لحظة الضعف

وتستبدلها بكم هائل من الكبت والغضب حين صرخت : مابقاش فايزة بنت عبد المقصود أن ماخلتكش تندم يامنصور أنت وأبوك . ألتصقت بها هدى ثم دفنت كل منهما رأسها فى صدر الأخرى .

الفصل السادس عشر

القلق لازال مقيما فى رأس نورا يخنق جنبات غرفتها تاركا هواجس ومخاوف عالقة فى وجهها .. توقعات غير مشجعة هى كل ماتوصلت اليه عن النهاية المتوقعة لقصة أمها المختفية . مرت ثلاث ساعات كاملة على انتهاء زيارة خيرى المفاجئة ..بقيت ممددة على سريرها فى النور الخافت دون حراك كمومياء محنطة . حاولت أن تبحث عن النوم ، كما يحاول جمل أن يدخل من ثقب أبرة . أحست أنها فى منزلة بين المنزلتين . زارتها كل الأحتمالات .. الا أنها لم تتشبث بأيامنها ، مايشغلها الأن هو العثور على أمها ووضع نهاية سريعة وحاسمة قبل أن تتفاعل الأزمة ويصعب أخمادها . أنتهزت فرصة أنفرادها بنفسها لتراجع أفكارها ومخططاتها حيث غابت بسمة التى تشارك يوسف فى تلك اللحظة سهرة كلامية فى غرفته تتناول معه أحداث يومه الساخن ومايتطلبه من مناقشات مفتوحة وتقييم موضوعى حول زيارة هدير للمكتب وماخلفته من توابع وفى مقدمتها ذلك الفعل العصبى التى أظهرته ايمان ولم تستطع أخفاءه .

زيارة خيرى اليوم كانت نقطة تحول هامة فى مسار مخططها برغم تحوطاتها التى بذلت فيها كل حيلة وذكاء ، لكن ماكان مخططا لايقود الى صواب ، فقررت مرغمة أن تجمد بنود خطتها لحين عودة أمها . لم يكن ثمة قرار معين قد استقر عليه رايها ويشغلها الان طريقة تنفيذه ، بل مجرد حيرة لايعرف لها حلا .. لم تر امامها من سبيل سوى التراضى معها للوصول الى حل يحفظ لها أنفرادها بزعامة البيت. أيقنت الأن بأن طريق المفاوضات هو الأسلم والأنجح .. أستراحت لفكرة المفاوضات . كان قرارا نهائيا بعدما أستعرضت بتمعن مابدر عن خيرى من غضب وأنفعال جعلها تحت ضغط متنامى وزاد من شعورها بأنها أصبحت فى مرمى الأتهام وباتت تخشى من تفكك جبهتها الداخلية وأنهيارها بعدما أستوقفتها تلك النظرات المحتقنة التى لمحتها فى عينى يوسف وبسمة . أستبد بها الخوف ولعبت برأسها شياطين القلق .. كل شيىء ، أى شيىء ، جائز وممكن حدوثه أو حتى تقبله ، الا ذلك الشيىء

الذى بنته على مدار سنوات طويلة ورسمت له حدوداوأسست أركان دولته ووضعت أول مادة فى دستوره التى تنص " يوسف وبسمة خط أحمر " ثم نصبت نفسها زعيمة عليها ، وكان شأنها ـ شأن كل ديكتاتور عادل ـ يرضى حاجة خاصة فى الوقت الذى يرضى حاجة عامة . لازال هبوط الليل يملؤها كآبة ، يشيع فى نفسها غربة ومتاهة .. حاولت الهروب من أفكارها ومضت بعينيها تبحث عن وسيلة بها تقتل ساعات الليل البطيىء الطويل الممل ، وكانت تخشى ماتخشاه أن تجد نفسها أمام نفسها زمنا لاتعرف متى ينتهى ، حيث تنبعث أمامها الرؤى والأشخاص والعالم المعقد كما تظن . أستدارت على جنبها وتكورت على نفسها كالجنين وأصبح وجهها للحائط الذى بدا فى عينيها مظلما كقاع بئر..ظلمة راكدة لايظهر فيها سوى خيال رأسها وطرفات جفنيها .. تنبهت لظلها وتأملته وكأنها تتشاغل عن هواجسها لعلها تنسى ماهى فيه من أرتباك وحيرة . أفلتت يدها التى كانت تحبسها بين فخذيها .. قربت رأسها وعيناها مركزتان إلى الحائط ، مشت بأناملها على الخيال تتحسسه ، إلا أنها رفعت يدها حين شعرت بهاتين العينين تراقبها ، تنظر اليها من زاوية واحدة وكأنها تتفحصها خلسة . أذهلها المنظر .. تشككت فى قوة بصرها ، فأعتصرت عينيها ثم فتحتهما على نفس النظرات . تماسكت ثم أشهرت أصبعها ووجهته صوب العين اليسرى فى تردد لتتأكد . أرتعشت ملامحها وشعرت بدوار حين غاص أصبعها داخل العين .. كاد أصبعها أن يشل قبل أن تسحبه فى سرعة البرق وكأنما لامس قدر يغلى . رفعت رأسها المترنحة وهى تردد بصوت مخدر : بسم اللـه الرحمن الرحيم . قالتها ولم ترحل بعينيها عن الخيال وكأن شيئا يشدها إليه بخيوط لزجة .. ظلت تتابعه وصوت أنفاسها يكلل المشهد ويسرع وتيرته .. لم تلحظ فيه مايخيف . غير أنها ثبتت حدقتيها اللتان زادتا أتساعا وهى تقارن بين الرأس المرسومة على الحائط وبين رأسها المرفوع .

ـ ياربى ده مش وشى أنا . بدا الفرق واضحا بين الأصل والخيال وهى تتابع بأنتفاضة ذلك الوجه الشاكى المعذب .. جالت فى قسماته التى تصرخ فيها كل العذابات . تدنو بوجهها للحائط حتى كادت تلامسه .. تملكتها فى أول الأمر لحظة من الشرود كأنما نسيت شيئا لا تستطيع أن تتذكره ، بدت كالمجذوبة وهى تنقل نظراتها بين الخيال وفراغ الغرفة قبل أن تمد بصرها ثانية إلى الحائط .. نطقت شفتيها قبل أن ينطق لسانها حين تعرفت على صاحب الخيال : ماما .. رددت أسمها برعشة وهى ساهمة مكتفية بمراقبة بقعتان سوداتان بزغتا فجأة أسفل العينين ، وكأن شيئا محبوسا داخلهما ثم خرج طافحا وتسرب فى خطين طويلين ينزلان ببطء وتمهل يعبران دائرة الخيال حتى تواريا داخل الفرجة الفاصلة بين السرير والحائط . أختنق صوتها وهى تنهج : أعوذ باللـه من الشيطان الرجيم . ثم حدثت

نفسها حين ألتفتت للحائط ولم تجد شيئا : أيه الحلم الغريب ده . الا أنها رفعت كفيها وضغطت على رأسها بعنف : هو أنا نمت أصلا عشان أحلم . سألت نفسها بنبرة تائهة . لم تستطع أن تحدد موقع اللحظة على خريطة الزمن . أنزاحت بجسدها مبتعدة عن الحائط كأنما تحمى نفسها من خطر قادم .. طافت برأسها كل الأسئلة بدا وجهها كعلامة أستفهام كبيرة حين طرحت على نفسها تساولا : هو الخيال اللى كان على الحيطة بتاعى أنا ولا بتاع ماما ؟ خافت من صيغة السؤال . حركت عينيها بأتجاه الباب حين شعرت بشبح أمها يطاردها فى الغرفة ويطوف حولها .. صرخت تنادى وكأنها تستغيث : بسمة .. بسمة . لحظات وهلت عليها مهرولة تقترب منها بخطوات سريعة وملامح مفزوعة : مالك يانورا فى أيه ؟ تأملتها الأخيرة لثوان . بدت وكأنها لاتملك أختيار أجابتها . تماسكت وهى لازالت على وضعيتها ممددة : ماليش .. كنت عايزة أسألك .. سكتت حاولت أخفاء أرتباكها قبل أن تستطرد : بتعملى أيه كل ده عند يوسف ! نفخت بسمة كأنما تنزح عن صدرها خوفا طارئا ثم أحتلت مكانها على حافة السرير : حرام عليكى يانورا أنا قلت فى حاجة حصلت .

ـ حاجة زى أيه يعنى ؟ سألت وأثار ذلك المشهد باديا على صوتها .

ـ زى حلم يعنى ولا كابوس ولا تكونى أفتكرتى حاجة ضايقتك . تعمدت أن تضغط على حروف الكلمة الأخيرة .

ـ ليه بتقولى كده ؟ نظرة طويلة مصحوبة بأبتسامة ذاهلة : عشان من سنين طويلة ماشفتكيش بتبكى يانورا .

ـ أنا . قالتها بتجهم وأستغراب قبل أن ترفع جسدها وتسنده إلى ظهر السرير مستهجنة ذلك التصريح . ودون أرادة منها مدت أناملها تتحسس أسفل عينيها .. دارت بحدقيتها وتساقطت شفتها رغما عنها بفعل الصدمة حين بللت الدموع أطراف أناملها ، لوت رقبتها ناحية الحائط كأنما تستجديه وتطلب شهادته .

ـ مش أنا اللى كنت بأبكى دى .. صمتت ولم تفصح بينما لمحت بسمة على شفتيها سؤالا حائرا فبادرت تستفسر : أنتى بتسألى مين يانورا ؟!. لم ترد وأستولى عليها ذهول ، لكن سرعان ما أنتظمت كلماتها : أنا بأسألك أنتى يابسمة . قالت أجابتها وأشاحت بوجهها شطر الباب تدارى تلك الهزة التى علقت

بملامحها بينما لاحظت اختها أنها بدأت تفطن إلى مأارتكبته من خطأ ؟. أستجمعت نفسها ، بدا وجهها ناطقا بالسام حين أردفت : أنتى مش حتنامى . سألتها وكأنما تلوذ بها من الخوف .

ـ قاعدة شوية مع يوسف .. نصاية بالكتير . قالتها وخرجت بينما نورا تسند ظهرها للسرير غير مصدقة ماحصل لها . ثبتت رأسها للأمام تتحاشى النظر للحائط . لم تستطع أن تقدم أى أيضاح منطقى ، إلا أنها لم تستسلم لتلك الحالة فأزاحت الخوف والدهشة ، أقنعت نفسها بمهارة بأن مارأته يتحرك على الحائط ربما تهيؤات ليلية ، فلا يعدم الليل أن يفرز لها شخصا من هذه الزاوية أو تلك . ومع ذلك فقد أضطرت أخيرا أن تنام عندما توقف تفكيرها وأدركت الحقيقة التى حاولت تأجيل أدراكها " أمها رقما صعب فى المعادلة لايمكن شطبها بالسهولة التى كانت تعتقدها حتى وان نجحت فى أزاحتها عن البيت . ربما تختفى بجسدها ، لكنها حتما ستعود فى الليل شبحا يمشى على الجدران !.

ما أن دخلت بسمة حتى أدار " يوسف " رأسه مبتعدا عن شاشة الكمبيوتر .. تأمل ملامحها التى لم تعد نفس الملامح التى خرجت بها : نورا بتنادى عليكى ليه ؟ مرت بجواره واجمة وجلست على حافة السرير . فأثار صمتها فضوله : فى أيه يابنتى . قالها وهو ينتقل بعينيه بين شاشة الكمبيوتر وبين وجهها المرفوع للسقف قبل أن تغمض عينيها : حأقولك على حاجة مش حتصدقها . سحبته الجملة فأنتبه . أردفت : لما دخلت على نورا لقيتها بتبكى وحالتها مش طبيعية خالص .

ـ ليه أيه اللى حصل ؟ قالها حين فارقه الأسترخاء .

ـ هو أنت يابنى مش عايش معانا ولا أيه .. كل اللى أحنا عايشين فيه ده عايزه يعدى كده بالساهل من غير قلق ولا وجع دماغ . شبك أصابعه خلف مؤخرة رأسه تزامنا مع تنهيدة طويلة أتاحت له الفرصة كى يبدى رأيا : واللـه نورا صعبانه على أوى وحاسس كده أن المشكلة بقت اكبرمنها بكتير.

ـ يابنى المشكلة لاكبيرة ولا صغيرة .. أصلا مافيش مشكلة .

ثم قامت متمهلة حتى وصلت لمكتبه . أستندت بمرفقيها . أستأنفت بجدية لاتنسجم مع شخصيتها : لو تابعت تسلسل الأمور بين نورا وماما حتقول فعلا المشكلة كبيرة وعويصة ومالهاش حل . قاطعها مستغربا : أنتى مش لسه قايلة مافيش مشكلة أصلا .. أيه الجنان ده .

ـ ده مش جنان ولوحضرتك عاقل وفاهم ياريت تقولى هى أيه أصل المشكلة اللى أحنا فيها . أرتبك : يعنى .. نورا خايفة علينا و .. انتصبت واقفة وهجمت عليه بعينيها : خايفة علينا من مين .. من أمنا .. طب ليه ؟ سألته ثم أجابت : عشان دخلت السجن والناس بتعايرنا بيها وبيبهربوا مننا كأننا جربة . بدا صوتها عاليا وغير محتمل بالنسبة له : أنتى نسيتى مستقبلنا اللى عمال يضيع مننا وأحلامنا كلها اللى بقت على كف عفريت .

ـ بذمتك أنت مصدق أن ماما هيه السبب ورا كل اللى بيحصلنا ده . أنهت جملتها بضحكة ساخرة مبتعدة إلى وسط الغرفة قبل أن يلاحقها بأستفساره : مش فاهم ـ ولا أنا كمان فاهمة عشان كده بأسألك وبأسأل نفسى .. هى الخناقة الحقيقية اللى بين نورا وماما على أيه بالظبط ؟ سؤال مباشر له أكثر من أجابة فى عقل يوسف . أختار أوضحها : نورا شايفة أن وضع ماما فى وسطينا حيكون ضرره كبير علينا عشان كده .. رؤية مكررة قاطعتها بأنفعال : عشان كده أيه .. نخليها تتجوز عشان تمشى من البيت .. تمشى من بيتها يايوسف عشان أحنا نرتاح ؟!. فقد النطق بعدما تسلم مهام منصبه سميعا . فرفعت عنه الحرج حين علقت ساخرة بضحكة مطولة تخللتها مرارة لم تشعر بها من قبل : الحاجة الغربية اللى حتجننى أن كل اللى نورا بتعمله ده عشان خاطرنا أحنا لانها بتخاف علينا وبتحبنا زيادة عن اللزوم والأغرب من كده أن ماما كمان دخلت السجن وقعدت فيه سنين برضه عشان بتحبنا وبتخاف علينا . أنهت جملتها مع ضحكتها وعادت تقترب ثانية من يوسف الذى تحول إلى صنم . تابعت : يبقى كده يا أستاذ الخناقة بقت معروفة .. رددت جملتها ويديها خلف ظهرها ثم ترجلت بخطوات هادئة . حدثت نفسها كما حدثت الصنم الذى دبت فيه الروح وظل يتابعها : المشكلة الكبيرة دلوقتى ان كل واحدة فيهم عايزة تملكنا .. كل واحدة عايزة تثبت أنها ضحت اكتر من التانية .. ولو عايز الحق المشكلة مش فيهم همه الأتنين المشكلة الكبيرة فينا أحنا .. فكت وثاق يديها المشبوكة وأتسعت عينيها فى عينى أخوها متساءلة : أحنا بنحب مين أكتر .. اللى شالت همنا من صغرنا وأتحملت مسئوليتنا لغاية ماوقفنا على رجلينا ولا اللى خلفتنا وضحت بأحلى سنين عمرها فى السجن عشان خاطر حقنا مايرحش . سألت السؤال الصعب الذى جر خلفه نقاشا وفتح بابا للجدل الداخل الذى يحمل معه مقارنات ومشاهدات تدور كلها حول مزايا الأم وفوائد الأخت !! .

حوارات وحكايات أكلها الليل وأنتهت على أعتاب الفجر مع جملة أخيرة حسمت بها بسمة السهرة : أنا وأنت يايوسف عاملين زى الحمار مطرح مايحطه صاحبه أدينا عايشين والمثل بيقول من خاف سلم

خلينا يابنى مداريين وجنب الحيطة . قالتها وفقدت الكثير من طاقتها .. لم يعرفا بعد طعم الحرية التى لاتحيا إلا فى الضرورة . قامت مرهقة حتى وصلت للباب : تصبح على خير يايوسف .

بالرغم من فوات موعد نومه ، إلا أن يوسف أصر على أكمال سهرته محتفلا بنشوة هذا الأنتصار الساحق الذى حققه اليوم فى مكتب المهندس " ناجى " . بدا واثقا أن التهمة التى طالما وجهها الى نفسه بأنه دائما غير قادر على الفعل ، قد أنتهت منذ ذلك اليوم .

يبدو أن الحب ليس سلعة يمكن أن تفقدها ثم تعود تستردها . أيقن الآن ودون تردد : أن من شوهت الأحقاد حبه لايمكن أبدا أن يستعيده من جديد . نجح اليوم فى أسترداد كرامته . أدرك الأن أن هدير لم تكن قد دخلت معركة اليوم لكى تهزم ، وإلا لظلت بعيدة ، كانت تريد أن تظفر هى أيضا بأنتصار جديد . غير أنه واجه نفسه متساءلا عن سر أهتمامه الشديد بالرغم من أنحسار حبها فى قلبه .. أبتسم أبتسامة من تعافى من مرض عضال حين أعتلى سريره مستدعيا تلك النظرية التى تقول : نقيض الحب هو الكره ، بل هو عدم الأكتراث . الفرق ليس كبيرا بين الحب والكره ، فالكره .. مثل الحب .. ليس سوى درجة من درجات الأهتمام بالأخر !!. وبناء عليه بات على قناعة تامة أن علاقته بأيمان قد أستوعبت علاقته بهدير ، وهذا يعنى أن حاضره الأن قد شمل ماضيه ، وهذا هو طريق الخلاص الوحيد من تجربته القاسية .

صباح اليوم التالى ..

وصلت نورا الأتيليه متأخرة عن موعدها بساعة كاملة . بخطوات مرهقة ومزاج عكر توجهت الى مكتب زيزيت التى كانت تتجرع أخر نقطة من فنجان القهوة . بوجه شوهه السهر والأرق : صباح الخير يامدام . رافقتها نظرات قلقة من عينى زيزيت حتى جلست : صباح الخير يانورا .. مالك ياحبيبتى شكلك باين عليه التعب.

ـ قلة نوم يامدام . ثم عبثت بجفنيها دعكا وفركا متجاوزة الرد على سؤال زيزيت : لو تعبانة يانورا أطلعى أرتاحى شوية . بأحساس متوتر ، مستمد من أعماق ضغط عصبى هائل . مدت يدها داخل حقيبتها وسحبت كارت لوحت به فى وجه زيزيت التى عاينته بنظرة مستفهمة : بتاع مين الكارت ده ؟
ـ ده اللى حيخلصنى من الأرف ووجع الدماغ اللى أنا فيه .. ده كارت الأخصائية بتاعة السجن لقيته فى حاجات ماما .

ـ وحتعملى بيه أيه ده . قالتها بتلقائية ساخرة فى حين أبدت نورا تفاؤلا : أكيد الأخصائية دى تحت أيديها كل عناوين اللى خرجوا من السجن يعنى أكيد حتبقى عارفه عنوان الست اللى أسمها فايزة أو على الأقل رقم تليفونها . رفعت حاجبيها مبدية دهشة : كلامك ممكن يكون صح بس .. لم تكمل جملتها وتراجعت بظهرها لظهرالكرسى ، بينما أستعلمت نورا بتجهم : بس أيه ؟

ـ متهيألى يعنى مش بالبساطة دى تديكى عنوان سجينة ولارقم تليفونها .. ده غير أنها أصلا ماتعرفكيش . هوت يدها بالكارت المرفوع على سطح المكتب وأنتكست نظرتها وصمتت محبطة بحثا عن مخرج قبل أن تنتزعها من متاهة الشرود : ع العموم جربى وأتصلى مش حتخسرى حاجة . أنصاعت لوجهة نظرها وهى تدرك مدى خسارتها كلما طالت فترة غياب أمها . مشت بعيناها على الرقم المدون أسفل الكارت واصبعها على زناد الموبايل تضغط الأرقام تباعا .. علقت أمالا على تلك المكالمة وهى تنصت لرنين الجرس . بكلمات محددة بدات كلامها حين تلقت : الو .. مين معايا ؟

ـ أنا نورا نديم السبروتى . لم تتلق أى أجابة إلا بعد ثوان .

ـ أهلا وسهلا .. أى خدمة .

ـ أنا بنت هدى عبد الفتاح أسماعيل .

ـ مش واخدة بالى واللـه .

ـ كانت سجينة عندكو وخرجت فى عفو . قالت جملتها وأتجهت ببصرها لزيزيت التى تراقب اجواء المكالمة . بدت خجولة حين استطردت بنبرة خافتة : لقيت كارت بأسم حضرتك موجود مع ماما وده اللى شجعنى وخلانى أتصل وأطلب منك خدمة . أنتظرت تعقيبا على جملتها الأخيرة والذى جاءها بعد لحظات يحمل نبرة منعشة : أهلا أهلا .. أنتى نورا بنت هدى اللى كانت محبوسة فى قضية القتل الخطأ قالت كلامها كمن أستعادت ذاكرتها .

ـ أيوه حضرتك .

ـ تحت أمرك ياحبيبتى . لم تتردد فى الطلب : بصراحة ياأستاذة فى شوية مشاكل كده حصلت مع ماما وكانت نتيجتها أنها سابت البيت ومشت وبقالها دلوقتى تلات تيام مانعرفش عنها حاجة .. لم تمهلها : ليه كده بس .. أنا قربت من مامتك فى الفترة الأخيرة ولقيتها أنسانة رقيقة جدا ومش بتاعة مشاكل .

ـ اللى حصل بقى . رددتها بملل ثم أردفت : هى حضرتك قبل ماتسيب البيت عرفنا أنها راحت عند واحدة كانت معاها فى السجن أسمها فايزة وساكنة فى كرموز لكن للأسف مش عارفين العنوان بالظبط.

أنساب اليها صوت الأخصائيةفى هدوء : فايزة دى كانت معاها فى نفس الدفعة اللى خرجت فى العفو .

ـ أيوه يافنــدم .

ـ والمطلوب ؟! .

ـ أكيد حضرتك عندك عناوين اللى خرجوا . عند تلك الكلمات همهمت الأخصائية مع نفسها بصوت مسموع ثم قالت : اللى بتكلمينى منها دى نمرتك يانورا .

ـ أيوه .

ـ طب أدينى كمان نمرة مامتك وسيبينى أنا حأتصرف وحأكلمك تانى .

ـ بس ماما قافلة موبايلها على طول .

ـ ماتشغليش بالك أنا حأتأكد بنفسى من كل حاجة والنهاردة بالكتير حأرد عليكى . عند هذا الحد أنتهت المكالمة ولم تحصل نورا على رفض أو قبول ، فركبها القلق والأحباط وسط نظرات زيزيت التى بدت على غير العادة لاتحمل رأى ولا تقدم وجهة نظر .

00000000000

بدا صباحا مختلفا بالنسبة لفايزة التى واجهت الليل بغفوات متقطعة دون أن تحسب الساعات الباقية لرحيله . حاولت أن تدفع عن احلامها كل الوجوه التى عذبتها وتأمرت عليها دون جدوى . جاءها منصور فى الحلم بصحبة أبوه عبده الجن ومن خلفهما بدرية ونوسة ، حتى السجانة والسجن . الكل زارها .. بدوا فى هيئة وحوش ، تفرست فيهم تتفحصهم بملامح شرسة . لازالت حتى اللحظة تتحسس مصيبتها .. فجيعتها فى ابنها الوحيد تفوق قدرتها على الأحتمال . بدت كمن سلبت ذاكرته وعندما أستردها فجأة أكتشفت أنه محكوم بما لايصدق ، وكانها محبوسة داخل كيان بشرى لانسان اخر ، تطل من خلال عينيه على ماحولها .

كلما رفعت رأسها من على الوسادة يسحبها الصداع والضغط المرتفع ، فيعيدها هامدة بآهات مكتومة . حركت عينيها ببطء كجمرتى نار تلسع جفنيها حين نظرت لوجه هدى الذى يشاركها نفس الوسادة بعد ان صرعها النوم مع طلوع النهار بعد معاناة طويلة ومحاولات مضنية لتهدأة فايزة .

لملمت ماتبقى لها من قدرة . حاولت سحب نفسها من على السرير .. فشلت مرتين ونجحت فى الثالثة . قامت بهدوء كى لاتشعر بها هدى . فتحت باب الغرفة وخرجت تترنح فى الطرقة كالحامل فى شهرها الأخير .. توجهت للصالة مكانها المفضل . أعتلت الكنبة بتوجع وتربعت فوقها متأملة .. ترى المشهد الأن من زاوية أوسع وكأنما تراه من فوق برج مراقبة .. أتاح لها الهدوء كشف المساحة كلها وتعرية الوجوه وقراءة كل المعطيات بتأنى .. هى الأن تسترجع وتعيد ، تفكك وتركب ، تفكرولاتفكر !!.

أنفتح باب غرفة منصور الذى ظهر بملابس الخروج . خطوتين وتفاجأ بكومة اللحم المتربعة فوق الكنبة ، فظهرت أمامه بوجه لايعرفه .. وجه بلا ملامح . تفحصها بعينيه حين أقترب . وجد فيها شيئا مخالفا للمألوف . مسح على شعره ثم على وجهه وهو يقف أمامها برأس طافحة بالشكوك والريبة . وضع أبتسامة : صباح الخير ياما .. صاحية بدرى ليه .. رفعت له رأسها ونظراتها تتفشى فى وحشية مكتومة الى وجهه . لم تبد أى أهتمام . كأنها لاتسمعه ولاتريد رؤيته . بينما لايعرف سببا لذلك النفور : هو أنا زعلتك ياما ومش واخد بالى ؟!. أرتفع صوت أنفاسها : ليه بتقول الكلام ده . قالتها بنبرة خشنة مخيفة .

ـ أمبارح خبط عليكى باب الأوضة والست هدى قالتلى انكى نايمة .. وبينى وبينك أستغربت وقلت مش عوايدك يعنى . بالأمس سمعت صوت باب الشقة وهو يغلق وصوت قدميه تتجه لغرفتها ، فأغلقت أجفانها ، وشدت على وجهها الغطاء قبل أن يصل صوتها المرتعش من تحت البطانية إلى هدى : خليه يمشى مش عايزة أشوفه ولا أسمع صوته . فتطوعت وصرفته .

فى تلك اللحظة كانت فايزة قد وصلت هى ونفسها إلى قمة المأساة . تسترت من جديد على أنفعالها : كنت مصدعة وأتخمدت . ملامحها ونبرة الصوت الجافة والمزاج الصارم البادى فى وجهها ، أعاده فجأة الى زمن الضياع والأقصاء .. شريط حياته وتجاربه التى تنتهى الى لاشيىء حضرت أمام عينيه بدعوة مجهولة . تذكره بفساد كل النهايات !. جلس إلى جوارها : ماتقوليلى ياما فى أيه ؟ طرح سؤاله وأشاح بوجهه ناحية الطرقة حين سمع خطوات هدى التى أقتربت من الصالة تزامنا مع نهاية جملته . فتأملها بينما أخفت قلقها خلف أبتسامة مترددة : مافيش حاجة يامنصور هى بس تعبانة شوية .

ـ أمى تعبانة .. أزاى يعنى ؟! قالها غير مصدق وكأنها كائن لايمرض . ثم قام متنهدا ومشى بخطوات متثاقلة حتى باب الشقة بعد أن فرغ لتوه من نظرة فاحصة فى وجهها الذى صار أكثر تعقيدا .. فتح الباب وخرج هارشا رأسه بعنف محدثا نفسه : الحكاية كده ماطمنش . تنهد ونفخ ثم أوصد الباب خلفه . ما أن خرج حتى جلست هدى الى جوارها . أرادت أن تجدد محاولات التهدأة ، غير أن لسانها كان يخذلها ويتراجع الى حلقها عندماتنظر الى عينيها اللتان تورمتا بفعل البكاء . أرغمت نفسها على الكلام : عشان خاطرى يافايزة أرحمى نفسك بقى ده أنا بأقول عليكى جدعة وأقوى منى .

ـ هى دى فيها جدعنة ياهدى ده أنا أم .. أم قلبها أنكسر وحيلها أتهد وهى شايفة قدام عينيها أبنها الوحيد بيدبر لها داهية عشان يخلص منها ويأخد فلوسها وتقوليلى أهدى . ألتهب وجهها وهى تقاوم مصيبتها بأهات مكتومة وحفنات من دموع . صمتت قبل أن تتخذ هدى هى الأخرى قرارا بالصمت لعلى قلة الكلام أو تأجيله يكون دواء للأوجاع .

طال الصمت لعشر دقائق قبل أن تجنى فايزة بعض ثماره .. بدا أنها تستعيد جزءا من هدؤها . هدوء الحكمة ، الهدوء الذى يقتضيه المأزق . أصبحت أكثر شرودا أو أكثر تأملا كأنما هى على وشك قرار خطير .. دارت بعينيها لأكثر من مرة . ثم توقفت عن الدوران كما توقفت يدها فوق موبايلها الذى سحبته من حجرها ، ، قربته لعينيها تبحث فى قائمة الأسماء ثم أجرت أتصالا .

ـ صباح الخير ياأستاذ محمود .

ـ صباح الفل .. صاحية بدرى ليه ؟ تجاوزت نبرته الباسمة إلى نبرتها الصارمة : عايزاك تسمعنى كويس وتعمل اللى حأقولك عليه .

ـ أوامرك ياست الكل .

ـ وقف الشغل كله فى أرض أبن شكر .. خلى المقاول يلم رجالته ويمشى ومن النهاردة ماتتعاملش مع منصور فى أى حاجة ولاتكلمه فى أى حاجة تخص شغلنا . تأمل نبرة الصوت العصبية محاولا أستيعاب ماسمع : ليه كل ده يامعلمة أيه اللى حصل ؟ .

ـ بعدين حأفهمك . أتاها صوته بنبرة مسترخية : طب أهدى يامعلمة وأنا مستنيكى .. ياريت تعدى على الأول نتكلم وبعد كده نبقى نشوف حنعمل أيه . تلقت أذنه صرخة : اللى بأقولك عليه أعمله .

أنسحب لسانه راجعا الى حلقه بعدما نطق بكلمة : حاضر . ثم حذرته : ولو منصور جالك المكتب وسألك عن اى حاجة قله ماعرفش . سكت للحظات وعقله يقاوم التعليمات: هو أحنا مش ربنا هدانا يامعلمة وقلنا حنبدأ صفحة جديدة وأى مشكلة مع منصور قلنا حنحلها بالعقل والتفاهم . أنهت المكالمة ولم تهتم بالنصيحة وظلت على وضعية الأنفعال للحظات قبل أن تعود لهدوءها رافعة رأسها ونظرتها فى تحد عجيب . فقد أعتادت على أن تعيش الحياة مثل الطاووس لاتعرف الهزيمة أو الأنكسار . كان عليها أن تحسم أمرها وتتخذ موقفا .

راقبت هدى نظرتها القاسية : يعنى مش ناوية تعديها يافايزة .

ـ ماعدش ينفع . جرح تحول الى وحش ثائر كما تحولت قرارتها الى رغبة فى الثأر وطالتها روح الأنتقام

0000000000

فى تلك الساعة .. ساعة القلق والأنتظار . أرتبك ذهن نورا وتوترت أعصابها عندما نزف موبايلها بشدة ، تسيل منه رنات مفرحة حين لاح رقم الأستاذة " هناء " أمام عينيها التى جاء صوتها قويا واثقا حين أجابت نورا : أيوه ياأستاذة . كان يكفى ذكر اجابة واحدة ليصبح عنوان فايزة متاحا : معاكى ورقة وقلم يانورا ؟ .

ـ طبعا حضرتك . أملتها العنوان تفصيليا كأنه خريطة لكنز ثم ترجتها : عايزاكى توعدينى لما مامتك ترجع البيت خليها تكلمنى ضرورى .

ـ من غير ماتقولى حضرتك على الأقل تشكرك .

أنتهى زمن المكالمة وسرحت نورا . لابد أن يكون التفكير بطيئا وهادئا ، هى تتحرك بحساب ، ولاتريد أن تخسر كل شيىء ، لأن الضمانات غير موجودة . قررت بعد نصف ساعة من التركيز والتفكير أن

تحشد لأمها كل ما تثق بهم كى يؤثروا عليها . غادرت حجرة التفصيل بالأتيليه بعد أن شددت على زيزيت بوجوب حضورها ضمن كوكبة ستذهب لجلب أمها من مخبأها . عقدت مجموعة لقاءات سريعة فور صعودها إلى الشقة . أجتمعت مع عمتها وبسمة وأستدعت يوسف لتنسيق المواقف ، ثم أجرت أتصالا بخيرى أخبرته بما تم وماتوصلت إليه ، موجهة له الدعوة فى نهاية المكالمة أن يكون من ضمن وفد سيتحرك فى تمام الخامسة مساء بأتجاه كرموز حيث تتحصن أمها .

صنع خيرى من الموعد أحتفالا وأرتدى بدلة المناسبات . شعر بسعادة مفرطة ، إلا أن شيخوخته الزاحفة ببطء علمته أن يحاذر فى الأفراط فى السعادة . تحرك الموكب من أمام مدخل البيت فى ثلاث سيارات دفعة واحدة وكأنهم فريق أمنى فى مهمة رسمية لضبط سجين هارب . فى المقدمة قادت زيزيت سيارتها والى جوارها نورا وفى ذيلها سيارة خيرى بصحبة أبنه شريف الذى أجبر على الحضور بأمر من والده لآيهام هدى بأن الأمور هادئة ومستقرة كما أوحت له نورا . بينما فى المؤخرة جاءت سيارة أيات التى تحبو خلفهما تحت قيادة يوسف وبتوجيهات من عمته فى حين أنشغلت بسمة المختبأة فى المقعد الخلفى تراجع فى عقلها بعض العبارات التى ستفتتح بها لقاء أمها .

تألقت شفتى خيرى على أبتسامة وهو يقود سيارته ، كانت عيناه تشقان الطريق فى حماسة ، تسبقان الزمن والمسافة . تفرقت سياراتهم على الطريق قبل أن تلتئم بعد ساعة عند أطراف كرموز . تمهلوا وأبطأوا من سرعتهم حين دخلوها فاتحين قبل أن تتحول سياراتهم الى مجموعة سلاحف تزحف ببطء حين دخل الموكب الى قلب كرموز الذى يتمسك أهله بكل الشعارات وأدعاءات الحداثة ، بينما فى نظرهم مكان شديد البؤس حيث القلب كان يعانى من أرتفاع فى منسوب مياه الصرف الصحى . تطوع أحد المواطنين الشرفاء بلعب دور الدليل .. تقدمهم بخطوات سريعة رافعا أنفه ورأسه فى زهو وشموخ تتلبسه روح الزعامة وهو يسحب خلفه الثلاث سيارات قبل أن يستدير لهم بجسمه رافعا كفيه مشيرا لهم بالتوقف . خضع الجميع لتعليمات القائد متبعين حركة أصبعه الذى أشار به لكومة " زبالة " معلنا أنها أول حدود حارة " المنجى " . خرج الجميع من سياراتهم بعد " ركنة " متعسرة وسط ذهول الأهالى وتربص الأطفال الذين داروا حول كل سيارة وكأنهم فى حفلة " زار " ألا أنهم ألتزموا الهدوء وبدت جمهرتهم سلمية حين سأل خيرى زعيمهم عن بيت " فايزة " ، تلقى المعلومة وأشار للباقيين بأن البيت المستهدف على يمينهم . مروا جميعا بأتجاه المدخل وسط عيون أحتشدت بالفضولية . أما الجغرافيا التى خطت على ترابها قدمى أيات أذهلتها بشاعتها . تتلفت حولها تلملم صور البيوت

والسحنات ، لترى وجها أخر للأسكندرية ، ربما وجها غائرا فى القدم يعود إلى العصور الوسطى . لم تتخيل مشهد الحارة الدامى .. بالوعات تنزف مجارى تتصاعد منها أبخرة " نتنة " تزكم الأنوف وبيوت متأكلة تسكنها وجوه تحمل بقايا بشر . فأبدت تذمرا وسجلت موقفا : الناس اللى موجودين هنا أحياء ولا أموات ؟!. حوطوا البيت متأملين ، ثم خطو محاذرين حتى ألتقوا أمام السلم . كان خيرى فى مقدمة الصاعدين ينقل قدميه درجة بعد درجة وقد أستبدت به نشوة حيوان أطلق سراحه ثم تبعه الباقين بملامح متناقضة بين متفاءلة ومتجهمة ومتوترة ، بينما شريف الذى تحاشى نظرات نورا التى ظلت ترمقه بدا متململا ، فالزيارة لاتعنى له شيئا . تقدم يوسف خلف خيرى ثم شريف ومن بعده نورا ثم زيزيت التى تتحسس السلم بينما أيات التى تسندها بسمة فى المرتبة الأخيرة وقد تقطعت أنفاسها وهى تحمل أقدامها تعتلى السلم وصوت بسمة يتبعها : ركزى ياعمتى لحسن تقعى ماعنديش حيل أشيل . طوتهم ظلمة السلم . لحظات وأصطفوا أمام باب الشقة فى طابور يترأسه خيرى مبتسما حين رن جرس الباب .. ضغطة واحدة وتراجع للخلف مصطدما بيوسف المتخشب خلفه . فتحت فايزة الباب .. تلقت عينيها مجموعة الوجوه المكدسة بفزع .. قوست حاجبيها وترفع أجفانها المتورمة .. أهتز جسدها بشدة حين تعرفت على نورا ويوسف الواقفين فى وسط الصف الذى ينتهى مع دوران السلم . وقفت صامتة مذهولة حتى أتاها صوت خيرى : حضرتك الست فايزة . لم تقو على الكلام . كان الأمر أشبه بزيارة عزرائيل . ترنحت رأسها وكأنها تلقت لكمة ثم تقهقرت متراجعة حين تقدموا .. وقفت فى حذا الباب المفتوح .. تخشبت يدها الممدودة لتتلقى مصافحة الداخلين تباعا كأنما تتلقى عزاءا .. تتأمل الوجوه المارة أمامها قبل أن تفيق من صدمتها وتتبعهم الى الصالة التى أحتشدوا فى وسطها . أنسابت نظراتهم لكل شبر فى المكان ثم بادرتهم بصوت ساهم : أتفضلو أستريحو. هذه هى اللحظة التى كانت تخشاها .. أنتعشت فيها كل المخاوف . تلكأ يوسف فى دخول الصالة مقتربا منها : كنت بأشوف حضرتك كتير مع ماما لما كنت بأزورها فى الـ .. خجل من الكلمة فأبتلعها قبل أن يلفظها وأبتسم . بينما أنتاب فايزة حالة من الضياع وهى فى طريقها لهدى . طائر الفراق يغرد .. فتحت باب الغرفة بملامح متوترة وأتجهت لهدى الممددة على السرير والتى لمحت فيها أضطرابا : فى حاجة يافايزة. لم تتحمل .. ضاق صدرها .. حبست دموعها . فأنتفضت هدى بجسدها وجلست وسط السرير : مالك يافايزة .. مين اللى كان ع الباب ؟ دققت فيها : جايين ياخدوكى . تصلب كل مافيها : مين دول ؟ .

ـ ولادك وعمتهم ومعاهم كام نفر . تحولت فجأة الى كيان يهتز لاتكاد تنتصب لتنحنى : عرفوا هنا أزاى ؟.

ـ ماعرفش . قالتها وهى على وشك البكاء . ثم أردفت : مش حتخرجى لهم؟ . سألتها وكأنها تختبر مشاعرها . لم تجب وضغطت على جبينها بكفها كأنما ترتب أفكارها . هبطت السرير ومشت ناحية الدولاب .. فتحته وسحبت منه نفس الملابس التى جاءت بها ، بينما أنزاحت فايزة إلى ركن الغرفة تراقب عن كثب ملامح صديقتها . لم تفلح فى الوصول لفهم أو تحليل . لم يكن صوتها طبيعيا حين سألت : حتعملى أيه معاهم ياهدى ؟ .

ـ مش عارفة . قالتها حين أنتهت من أرتداء ملابسها ثم خرجت من الغرفة بينما ظلت فايزة فى ركنها.

الأمل يلفظ أنفاسه الأخيرة ، على وشك أن تفقد هدى . شعور يحرك داخلها صوت يائس : خلاص حتسبينى لوحدى ؟!.

سمعت أصواتهم المتداخلة حين خطت أول خطوة فى الطرقة المؤدية للصالة ، فى حين يحتل القلق والترقب وجوه الجالسين التى أزدحمت بهم الصالة أنتظارا لقدومها . كان خيرى أكثرهم توترا .. هكذا هو يتقلقل فى جلسته . لهدى سطوة مختلفة المذاق ، سطوة تشبه الحبال المفتولة تجره بها حتى الى حارة " المنجى " !! .

أبتلعتها الدهشة حين لاح لها منظر الوجوه . أبطأت خطوتها حتى لاحظو قدومها . لمحها خيرى فأضطرب لثوان قبل أن تبرز أبتسامته ، فى حين هللت وجوه وأقتضبت أخرى وصخب الكلمات يتصاعد دون تنظيم حين هلت عليهم بملامح مندهشة ونظرات حائرة . كيف أستدلوا على مكانى ، من صاحب هذا الترتيب ؟ ولماذا كل هؤلاء ؟ . ضمت أسئلتها الى صدرها وفتحت عينيها تتفحص الجالسين الذين انتفضوا وقوفا . مرت عليهم بحدقتيها وكأنما تستعرض مجموعة من المشتبه بهم كى تتعرف على الجانى وتشير اليه . تهافتت عليها بسمة بأندفاعة : وحشتينى أوى ياماما .. كده برضه تسيبينا وتمشى . لم تتمكن من الأجابة بعدما أستولت بسمة على رأسها وحشرتها فى صدرها قبل أن يتقدم يوسف الذى بدا متوترالملامح وتقلص جلد وجهه متخذا شكل الحرج : لو حتروحى أخر الدنيا برضه حنجيبك .. مافيش حد يقدر يستغنى عن أمه . ثم عانقها .

ـ أزيك ياحبيبى عامل أيه .

ـ أنا كويس طول ماأنتى كويسة . تخطته لتواجهها نورا بعيون ثابتة . كشفت النظرة الباردة ، التى خلت من المشاعر و عن تصميمها على تكملة مابدأته .

ـ يعنى أنتى يرضيكى القلق اللى أنتى عيشتينا فيه ده .. كل البيوت فيها مشاكل ياماما ولو كل واحد خد على خاطره وزعل وساب بيته يبقى كل مشكلة صغيرة حتكبر وكل سوء تفاهم عمره ماحيتحل . قاطعت بسمة للحيلولة دون أحياء شبح الأزمات : خلاص يانورا الأمور عدت . عادت الأخيرة لهدوءها : ع العموم أدينا كلنا جينا لغاية عندك عشان تعرفى قيمتك عندنا وعشان تعرفى كمان أن كل مشكلة ولها حل بس ياريت تبطلى عصبية وماتاخديش كل حاجة بعناد .

ـ أنا يانورا . تراجعت الأخيرة عن تعبير " العناد " حين قطبت أمها وجهها : يعنى قصدى ياماما كل حاجة بالتفاهم تتحل . نظرت هدى لها نظرة تشاؤمية . كلماتها تعنى بقاء الحال على ماهو عليه . كلمات تعلن أنتحار المستقبل !! ثم تسلمتها أيات التى ضاع من ذاكرتها نص الكلمات : كده كتير ياهدى .. ليه بقى عشان أيه .. حد يعمل كده حد يسيب بيته من غير مايقول رايح فين .

ـ معلش ياأيات اللى حصل بقى . ثم أرسلت نظرة واهنة : ليه تعبتى نفسك يازيزيت . أبتسمت الأخيرة التى كان على وجهها قناع الترحيب والأعتذار البارد ، مدت ذراعيها تريد أن تحتويها بمشاعر محيرة : كده برضه ياهدى تمشى من غير ماتقولى ولا كلمة .. هانت عليكى العشرة . ثم ضمتها فى صدرها مع فاصل عتاب ...فض المجالس : ماجتيش عندى ليه مش بيتى هو بيتك .. ده أحنا أكتر من الأخوات . هزت رأسها وتجاوزتها .. نظرة هادئة خالية من أى توتر أستعملتها هدى حين مرت على شريف وصافحته : أنا فرحانة أوى أنى شفتك ياحبيبى .

ـ ربنا يخليكى ياطنط . قالها بنفسية مكسورة ثم أنزاح ليتقدم والده . صافحته بكرامة مهدرة وجرحا لايطيب . كان عليه أن يختار من أين يبدأ . بداية صعبة : تعبنا أوى على ماعرفنا مكانك . جرت عيناها بسرعة على عينيه . لم تستطع أن تقرأ ملامحه وسط زحام الوجوه وتدافع النظرات : ماكانش له لزمة التعب ده .

ـ اى تعب يهون قصاد انك ترجعى بيتك .

ـ أنا برضه هنا فى بيتى .

ـ بيتك مش هنا ياهدى .. بيتك وسط ولادك ووسط الناس اللى بيحبوكى .لاشيىء يخرج منها ومنه .

فى تلقائية . الكلمات محسوبة والمعانى تمر تحت رقابة مشددة . نظراته تجدد فى نفسها المواجع والعواطف . لم تصدق انها أمام الرجل الذى تقول عيناه أكثر من لسانه .

بعد أن فرغ الجميع من معاينة المكان ، وتملوا فى الوجه المضطرب الذى يلح ويسأل : عرفتوا مكانى هنا أزاى ؟ سألت بشغف كضابط يبحث عن أعتراف سريع . لم تهدأ حتى أدلت بسمة بأعتراف تفصيلى قابلته هدى بفرحة عابرة حين سمعت أسم الأخصائية يتردد على الألسنة .

لم تمر خمس دقائق قبل أن يضع خيرى بروتوكولا للجلسة موضحا بعض المحاذير : مش عايزين نتكلم فى اللى فات أحنا ولاد النهاردة .. عايزين نخرج من هنا وقلوبنا صافية .. ولادك كلهم جايين لغاية عندك .. يعنى عفا اللـه عما سلف . أنهى عبارته الأخيرة وهتف الجميع ببعض العبارات هدفها حلحلة الوضع .

ـ الجميل أصله بيدلع وعايز يعرف غلاوته عندكو . مقولة لزيزيت عقبت عليها بسمة : ده مش دلع ياطنط .. دى زى ماتقولى كده رحلة أستجمام .. يعنى تغيير ! ثم توالت جمل المجاملة والتضليل وبعض من سوء النية على لسان نورا وكأنها فقدت البصر والشعور حين قالت : واللى يحب يدلع ويستجم ييجى هنا برضه ؟!. وحدها هدى تتأمل الكلمات المصنوعة مكتفية بصمتها . بينما تزحف كلماتهم مثل جراد مسعور يلتهم أنسانيتها .. تتخبط فى فراغ الكلمات الرنانة ، عن البيت الذى لايسمى بيتا بدونها . فى حين أدارت نورا حديثا متشابكا ، تاه الجميع فى توصيفه .. لاهو هجومى حاد ولادفاعى بحت . أرتدت أمام الجميع كل الأقنعة .. تمسك بزمام المبادرة وتقود القطيع وتغزل أوهاما عن الواقع بلا أستحياء .. تبالغ فى حجم تضحياتها ومسئولياتها ، فتشيع جوا من الحماسة الزائفة والأمان اللحظى . تابعتها هدى مصدومة ومحسورة وقد تجسدت أمامها ، كدابة مغرورة ، بلا صدق ولا مشاعر .. كلام خالى المضمون وبلا أفق . صارت ترى الأمر كله كبضاعة تالفة غير صالحة تحاول نورا تسويقها بعد تحديث تاريخ الأنتاج ، مع الأحتفاظ بكل الشروط والمواقف المسبقة : لا عمل ، لاسلطة ، لا رأى ثم كلاما كثيرا يتخلله بعض الطلبات من باقى الجلادين .

كان على كل الأصوات أن تخفت ليعلو صوت هدى : خلصتى كلامك يانورا .. خلصتو كلكو كلامكم .. أنصت الجميع وأنتبهوا لنظراتها القوية حين تابعت : أنا لازم أفضل هنا كام يوم وياريت ماحدش يعترض وسيبونى على راحتى .

ـ يعنى أيه نسيبك على راحتك . كان ذلك أول رد فعل على لسان نورا أنفتحت بعده التعليقات .

ـ ماينفعش ياماما نيجى لغاية هنا ونرجع من غيرك . قال يوسف بينما خيرى : الحكاية مش مستاهلة ياهدى الأمور أبسط من كده .. أرجوكى قومى معانا عشان نمشى . بينما أيات التى جلست صامتة تعاين الساكتون والمتكلمون بنظرات حبلى بحكمة السنين قبل أن يفتح اللـه عليها بجملة مفيدة : قومى ياهدى بيتك أولى بيكى .

خارج كدر الصالة .. كانت عيون فايزة تراقب من الركن المظلم فى الطرقة ، تستمع لكل مايدور فى الصالة بعينين غائمتين وعقل ماتت فيه الأفكار .. ماعادت تتساءل عن مصير مستقبلها بدون هدى . بدا طيف الرحيل ضيفا ثقيلا على قلبها ، فبدد أحلامها وغير لون بشرتها .. طاف اللون الباهت فى ملامحها . أنسحبت لغرفتها بعدما شعرت بضياع صديقتها منها التى بات من الصعب العثور عليها وسط هذا الحشد. أصبح الطريق الأن ممهدا فى الصالة حين همد عقل هدى من الأرهاق وسط صخب الوجوه بالأصوات التى تتسابق لحثها على الرحيل .. فى حين أبت هدى الأنصياع نافية برأسها الخضوع لمطلبهم : مش حأقدر أمشى معاكم .. فيه شوية مشاكل عند فايزة ولازم أستنى جنبها كام يوم .

ـ وأنتى مالك ومال مشاكلها ماتخلينا فى حالنا ياماما . كان رأى نورا الذى أعلنته بعصبية ثم تبعها الباقيين متضامنين معها ومدهوشين من موقف هدى المتعنت والتى زاد أصرارها وجسدها مسجون فى عجزها عن مقاومة ذلك الشعور تجاه رفيقتها حين صرحت بنبرة وفاء : الست اللى أنا موجودة عندها دى وقفت جنبى وفتحتلى بيتها ولولاها كان زمانى دلوقتى مرمية فى الشارع .

ـ وتترمى فى الشارع ليه .. ماعندكيش بيت .. أنتى ليه مصرة ياماما تكبرى الحكاية .. ماتقومى معانا خلينا نمشى .

ـ مش بمزاجك يانورا تحددى أمتى أمشى وأمتى أرجع .

ـ مافيش حد أصلا قالك أمشى من البيت . تطوعت أيات وقطع صوتها الجدال : خلاص مالوش لزمة الكلام ده .. خلونا فى دلوقتى . ثم نظرت لهدى واستطردت : أنا متفقة معاكى أن اللى عملته الست فايزة حاجة عظيمة خالص ولازم كلنا نشكرها عليه لكن ده مايخلكيش تنسى أن وراك بيت وولاد .

ـ أنا عمرى مانسيت ياأيات وأنتى أكتر واحدة عارفة التمن الكبير اللى دفعته عشان خاطر ولادى وبيتى .

ـ خلاص مش وقته قصة التمن دى .. لما ترجعى البيت نبقى نحكى فى الكلام ده براحتنا . قالت نورا بملل وهى تنفخ بينما نأت هدى بنفسها من أستفزاز أبنتها وأشاحت بوجهها صامتة . فى حين أستغلوا سكوتها وبدأوا بطرح الترتيبات التى كانت تجرى أمام عينيها .. هل سيقتادونها مباشرة الى المنزل أم الى نزهة ليلية كنوع من الترضية كما أقترحت زيزيت. بينما هى قاومت أن تصرخ فيهم : ياجماعة أفهمو واللـه ماحأقدر أمشى وأسيب فايزة فى الوقت ده .. مستحيل . قالتها منفعلة فى حين لانت نورا أمام غضبتها : وان شاء اللـه مشاكل صاحبتك دى تخلص فى أد أيه ؟.

ـ ماعرفش .. تلات أربع تيام .

ـ كتير ياماما .. كفاية عليكى لغاية بكرة .

ـ مستعجلة على أيه يابسمة آهو على الأقل ترتاحو منى ومن مشاكلى .

ـ ياماما كبرى دماغك من الكلام ده .. كانت ساعة شيطان ونورا ماكانتش تقصد

ـ ولاتقصد هى ماقالتش غير الحقيقة وكفاية اللى أنا عملته فيكى أنتى وأخوكى .

ـ أيه اللى بتقوليه ده ياماما .. أنتى ماعملتيش حاجة خالص . قال يوسف .

ـ وهدير اللى ضاعت منك وأمجد اللى خد ديله فى سنانه وهرب يابسمة .. معلش ياحبايبى .. مش حأقدر أقولكم حاجة غير سامحونى . منذ أن خرجت من السجن وأصابها داء الأعتذار ، وأدمنته ، ظلت تمارسه وهى تحت ضغط الظلم الفادح .

ـ ياه ده أنتى قديمة أوى ياماما .. قالتها بجدية وشيىء من الثقة ثم تابعت : أمجد أتصل بى أكتر من مرة وأعتذرلى بدل المرة عشرين مرة .. بس أنا ياماما لسه ماخدتش قرار . ثم ألتفتت ناحية يوسف : أما الباشمهندس فخدى عندك أخر الأخبار ، الست هدير بجلالة قدرها جت لحد عنده فى المكتب راكعة وطلبت تقابله بره بس المهندس يوسف نديم خليل السبروتى رفض وقالها فى وشها ماعطلكيش . رفعت هدى حاجبيها وأبتسمت بعينيها بينما ظلت بسمة تتابع بقية النشرة : يوسف دلوقتى بقى محجوز .. عارفة مين ياماما ؟ تساءلت بملامحها : فأردفت : المهندسة ايمان مديرة مكتب المهندس ناجى على سن ورمح . توجهت اليه أمه بأبتسامة خفيفة تاهب لها منتظرا نصيبه من الكلام : والمهندسة ايمان دى حلوة ومن عيلة يايوسف .

ـ أيوه ياماما .

ـ غنيــة ؟! .

ـ يعنى .. قالها مرتبكا .

ـ وقلتلها برضه أنى كنت مسافرة فى الخليج ؟! حاول أبتلاع كلماتها دون مراوغة بالرغم من المرارة التى تطفح فى وجهه مكتفيا بعبارات دفاعية : ماقلتش حاجة خالص ياماما ؟ .

كلمــا مرت الدقائق وجــد خيرى فرصة الأنفراج تتضاءل . كان عاجزا من أن يحرك ايقاع الجلسة كما خطط ، كان يريدها سريعة حاسمة . أستسلم لرغبتها : ع العموم مافيش مشكلة يانورا لما مامتك تقعد كام يوم مش حيجرى حاجة .

ـ يعنى أنت شايف كده ياعمو . بدا الأخير وكأنما يغرد خارج السرب أما الباقون فكانوا تحت السيطرة ، تطوقهم نورا بسلسلة مشدودة حول رقابهم ، تكاد تخنقهم . قفز خيرى منفردا على جو الجلسة والنقاش الدائر واضعا حدا للجدل العقيم معتمدا على نظرية أنتهاز الفرصة عندما أعلن فى جرأة منقطعة النظير: أنا عارف طبعا أن الظرف مش مناسب ولا حتى المكان لكن أسمحولى أطلب طلب مادامت الأمور ماشية تمام وسوء التفاهم راح لحاله .. أنا بأطلب أيد هدى قدامكو كلكم ومتهيألى يعنى مافيش حد فيكو عنده مانع . لم يكن أعلانه مفاجئا حين تجول فى ملامحهم . قبلت أذانهم الفكرة وعبرت عنها أبتساماتهم . فأستأنف بحماسة أكبر وسط غياب تام لهدى التى شردت . هى لاتدرى مايدور بينهم .. هل تجاوز كل منهم لحظة الوهم وصنعوا قواعد جديدة للعبة ؟!.

ـ طبعا أنتو عارفين ظروفى كويس وجو الوحدة اللى أنا عايشه بعد المرحومة سميحة وده اللى خلانى أنتهز الفرصة وأنتو متجمعين دلوقتى وزى أنا مامحتاجها جنبى هى كمان محتاجانى وأنا بأوعدها قدامكو أنى مش حيبقى ورايا أى حاجة فى الدنيا غير أنى أسعدها وأكون عند حسن ظنها وأنا متأكد أنها حترتاح معايا و حأرتاح معاها وأنتو كمان بالتأكيد حترتاحو . قالها بثقة وسهولة من أصبح من حقه أن يقولها . تابعته حتى أنتهى ، وعيونه التى تغلى بالعاطفة ، تنتهك جسدها ووجودها ، وتمتد الى ماتحت جلدها !

ـ مش المفروض قبل ماتطلب أيدى قدامهم وتتكلم عن السعادة والراحة كنت على الأقل أخدت رأيى . أحتقن وجهه وأرتبكت ملامحه : لو أنا مش عارف رأيك ماكنتش طلبتك قدامهم . كانت كالأنثى الطريدة والرجل الصياد ولافرصة للفكاك من المطاردة !

نظر فى وجهها طويلا ليتأكد من خلو عينيها من العتاب أو اللوم .. أرخت جفنيها خجلا قبل أن يستدعيها ثانية بصوت متراجع : الموضوع ده يخصك لوحدك ياهدى وطبعا أنتى صاحبة الرأى الأول والأخيرفيه بدت ملامحها متناثرة حولها ، تجمعها بنظرة وشعور بالظلم يلفها : طبعا كلكم موافقين ومرحبين .

ـ أى حاجة تسعدك ياماما أحنا كلنا موافقين عليها .

ـ وأنتى عرفتى منين يانورا أنها حتسعدنى .

ـ مافيش حاجة بتستخبى ياماما وعمو خيرى يعنى مش غريب عننا تدخلت زيزيت بنبرة تشيع جوا من الفرح : حتبقى عروسة زى القمر ياهدى وأنتى كده أيدك فى أيد الأستاذ خيرى .. حيبقى شكلكم جنان .

ـ الجنان يازيزيت لما واحدة تتجوز وهى عندها عروستين على وش جواز وأبنها راجل ملو هدومه .

ـ دى وجهة نظر غلط . رد فعل حماسى من خيرى دافع به عن عرضه . ثم وضح شارحا : الجواز مافيهوش سن كبير وسن صغير .. الجواز مشاركة وحياة جديدة وفى حالتى أنا وأنتى تقدرى تسميه أحتياج وضرورة وحل لكل المشاكل ده غير أنه حيقربك أكتر من ولادك .. لأنك أصلا مش حتبعدى عنهم أنتى يادوب حتبقى فى الشقة اللى جنبهم . أنحشرت صورهم فى عينيها حين تجولت فى ملامحهم .

توقفت أمام وجه شريف الذى كان كالغائب الحاضر .. أبطأت فى نظرتها حين تفحصته .. حاولت كسر صمته : وأنت ياشريف مالكش رأى ولا أيه ؟ .

ـ أى حاجة تسعد بابا أنا موافق عليها .

ـ مش الأول تفكر فى سعادتك أنت وبعد كده تفكر فى سعادة باباك.

ـ سعادتى أنا .. قالها بائسا ثم سكت ولم يعقب حين أقحمت نورا نفسها : ماتخليش دماغك تروح لبعيد ياماما .. شريف خلاص أتغير ومابقاش زى الأول ؟. رددت عبارتها بأداء بارد كمجرم يعيد تمثيل جريمته . أرادت وضع المصيدة فى المكان المناسب حين تابعت : شريف سعادته مابقتش هنا .. الأستاذ قرر يبيع الدنيا واللى فيها ويسافر أمريكا . أطلقت الخبر وهى على أمل أن تخلق رأى عام معارض يكافح تلك الفكرة . تأملها شريف صامتا مستغلا أنشغال الجميع فى صدمة الخبر .. تأمل أحلامه وأيامه التى تحولت الى هزائم ثقيلة فى كفته ، وميزان العدل ثابت على خسارته كأنه هو الذباح والذى خان ! .

تسابق الجميع فى أظهار الدهشة والأستنكار . حدثوه عن المستقبل وعن أيام وردية قادمة حين تستقر أوضاع البلد ، حدثوه عن أبوه والبعد عنه فى تلك المرحلة خيانة عظمى ، وعن نورا وحبه الأسطورى الذى ورد على لسان زيزيت : مافيش حد عاقل فى الدنيا يسيب قلبه وروحه ويقول أسافر . بدا أن الكلام كله يسقط قبل أن يصل اليه .أحرجه ذلك الحصار حين سألته أيات : طول عمرك رافض فكرة السفر أشمعنى الأيام دى .. أيه اللى جد ياشريف ؟ لم يجبها مكتفيا بأرسال نظرات بائسة الى أرضية الصالة ، أحست بها هدى تلسع عينيها . هى تدرك أنها الجديد الذى جد فى حياته .. هى الزلزال الذى هد حياته . بينما نورا صامتة تراقبه وعيناها معلقة بأية أشارة منه .

ـ حتسافر ياشريف وتسيب نورا ؟ سألت هدى وعقدة الذنب تطاردها . تنهد وقال بصوت هادىء لايخلو من نبرة أحتجاج : نورا دلوقتى بقى لها حياتها وشغلها وخططها وزى ماحضرتك سمعتى بابا كمان بقى له حياته الخاصة ومن حقه يعيشها زى ماهو عايز .. متهيألى أنا كمان من حقى أدور على حياتى ومستقبلى . أنهى جملته بنبرة غريب لاينتمى للموجودين .أنهالت عليه النظرات حين أنتهى بينما أعلنت

نورا الحرب : أنت بتدور على حجج خايبة تدارى بها فشلك.عندما وجد لنفسه ثغرة قال : أنا عمرى ماكنت فاشل .. الفاشل هو اللى يخسر كل اللى حواليه عشان يكسب شوية فلوس ويضحك على نفسه ويسميها نجاح .

ــ الحمد للـه أنا ماخسرتش حد بالعكس أنا كسبت كل اللى حواليه .. كسبتهم بتعبى وشقايا مش بأحلام فاشلة وبكلام لايودى ولايجيب .

ـ فرق كبير أوى لما تكسبى اللى حواليكى وفى أيدك مصيرهم وبين أنك تكسبيهم وفى أيديهم حرية الأختيار . تصاعد الجدال .. حرب أستنزاف يحترق فيها الطرفان ، ولانصر محتمل ولاهزيمة .
أعلنت أيات فض الأشتباك قبل أن يتطور الجدال الى أزمة تضاف الى بقية الأزمات حين قامت فجأة معلنة عن نهاية الزيارة : أخر كلام عندك ياهدى .. حتقعدى كام يوم .

ـ أيوه ياأيات . ثم عانقتها الأخيرة وهمست فى أذنها : الزمن علمنى كل ماتتنازلى تقللى خسارتك . أبتسمت ولم تبدى موافقة ولارفض ، أو ربما لم يصلها المعنى . مدت بسمة رأسها بينهما : مش وقت وشوشة ياعمتى لما ماما ترجع أبقوا كملو رغى فى البيت . ثم أنزاحت ليوسف الذى وقف أمامها مضطربا : ماتزعليش ياماما واللـه أحنا كلنا بنحبك ومانقدرش نستغنى عنك .. بس هى الظروف ..
ـ مالها الظروف يايوسف ؟ .
ـ مالهاش ياماما . ثم نظر اليها نظرة يطلب بها العفو . قبلها ورحل لتتسلمها زيزيت بعناق وفرحة مفتعله : مبروك ياهدى ألف مبروك .
ـ مبروك على أيه يازيزيت . قالتهاغاضبة . فتراجعت الأخيرة : على أى حاجة . قامت نورا من مكانها ببطء مثل وحش أنهكه الصراع مع الفريسة : لغاية ماترجعى البيت أنا حأظبط الأمور مع عمو خيرى . شبكت هدى مرفقيها فوق صدرها .. أقتربت منها بعينيها وكأنها تراها لأول مرة من هذا القرب : فتحى ودانك وأسمعينى كويس .. سيبك منى أنا خالص وأنتبهى لنفسك ولمستقبلك وألحقى شريف قبل مايضيع منك . أضطربت ثم أرسلت نظرتها ناحية شريف كأنها تخاطبه : والمطلوب منى أيه ؟ قالتها بصوت خافت .

ـ المطلوب تعيشى حياتك وبس وفكرى فى مستقبلك .. شريف مايستاهلش منك أبدا المعاملة دى . تماسكت قبل أن تهتز ثقتها : لما تتجوزى أنتى وعمو خيرى كل حاجة حتتحل . ثم رحلت دون عناق . وقفت هدى مستسلمة إلى حد يصعب توصيفه ، إلا أنها لم تفقد القدرة على التعلق بنورا ، بل أن فكرة التخلى عنها لم تكن واردة رغم عطب علاقتهما . فور خروج نورا تقدم شريف بصحبة أبوه : مع السلامة ياطنط .

ـ قبل ماتمشى ياحبيبى لازم تعرف أنى عمرى ما حأعمل حاجة تضايقك ولاتأذى مشاعرك .

ـ إن شاء اللـه . قالها كتحصيل حاصل وأجتاز الباب بينما أستعمل خيرى أخر ماله من نفوذ حين ثبت نظرته العميقة ورشقها الى داخل العينين : أنا من النهاردة حأرتب أمورى عشان أول ماترجعى نتجوز على طول .

ـ ياريت الأول تقنع شريف يشيل فكرة السفر دى من دماغه .

ـ ياستى هو حر فى مستقبله وبصراحة بقى أنا ماعدش يفرق معايا أى حاجة أنا اللى يهمنى هو أنتى . ثم مد يده مصافحا وضغط بالأخرى فحبس كفها بينهما .. نظر اليها طويلا بعينين تثقب البلوزة وتعريها ، وكأنما يسترجع مشهد اللحم العارى : أنا محتاجلك أوى . حاولت أن تجيبه وهى تبحث داخلها عن بقايا طهارة قديمة : ربنا يسهل . ثم سحبت يدها بينما نظراته الطويلة لها سجنت نظرتها التى لم تكن تصل إلى وجهه ، بل تستقر عند صدره فى حين أصابعها وكفاها ، لاتعرف ماذا تفعل بهما ؟! طوى يديه الخاليتين وأستدار فى هدوء ليلحق بالركب النازل . أغلقت الباب ساهمة ولم تبرح مكانها .. ظلت واقفة أمامه وكأنها ترى من خلاله مالم تراه وهو مفتوح ! قضت لحظات وهى على نفس الوضعية ثم سحبت نفسا ممتدا قبل أن تتحرك ببطء بأتجاه الطرقة . سارت برأس منكسة حتى أصطدمت عيناها بأقدام فايزة التى ألصقت جسدها للحائط فى أنتظار روحها التى كانت على وشك أن تنتزع منها . سارتا سويا إلى الغرفة .. نظرات هدى الساهمة تصنع فيها الذهول حين راجعت بسرعة أسباب الزيارة ونتائجها . لم تكن زيارة أعتراف وصلح ولابحث فى وقائع وربطها بين جميع الأطراف . لم تكن أى شيىء سوى أدراكها الشديد بأنها قد أصبحت عبئا ثقيلا على أولادها ولابد من التخلص منه .

كما جاءوا رحلوا .. خرجت الثلاث سيارات دفعة واحدة من كرموز كما دخلت . بدا الجميع محملين بأشياء كثيرة . أيات كل ماتبقى منها فى نهاية الزيارة مجرد أنطباع . بينما زيزيت ليس فى ذهنها شيىء ، ولافى ذاكرتها إلا أثار تلك النظرة المستهجنة من عين هدى التى خاب أملها فى أنسانة كانت تظن لوقت قريب أنها أوفى الأصدقاء بينما نورا وشريف أثار مابينهما مازالت ، تتفاعل كنار فى

الحطب .. العلاقة بينهما بدت وكأنها لاتهدأ ولاتستقر .. حكم الأعدام على حبهما مازال معلقا لم يصدر بعد ! أما خيرى فلم تقنعه ملامح هدى ولاكلماتها . حين أستعاد نفسه وأفاق من أجواء الزيارة ، وجد كل شيىء مؤجلا ، حتى رغبته فى التفاؤل . بسمة هى الوحيدة التى لم تحصد مكسبا ولاخسارة .. كانت محايدة لاتميل لكفة على حساب أخرى . فى حين بدا يوسف قلقا محبطا بعدما أعادته أمه الى مربع الخوف الأول حين لامست عقدته النفسية وأثارت قضية المصارحة فى علاقته مع المهندسة ايمان . كلما أستعاد رغبته فى الحب ، تملكه الخوف واشفق على نفسه من التجربة . اعتاد الحذر .. أستعذب الألم بعد أعتياده ومعاشرته منذ فجيعته الأولى . إلا أنه كلما أقترب أكثر من أيمان كان يراوغه الحب ، لكنه لم يقدر عليه . فى طريق عودته قاد يوسف سيارة عمته واجما ساهما . يتجدد اليوم الجرح ، يستدعى كأبة قديمة تطل بثقلها عليه شيئا فشيئا . بالرغم من صخب بسمة التى تثيره فى المقعد الخلفى وكلامها الذى لاينقطع عن أمها وعن كرموز وعن حواريها ، وبالرغم من أزدحام الطريق أمام عينيه وملاحظات أيات المملة على أداؤه فى القيادة ، أنتحى بأفكاره جانبا مكتفيا بمشاهدة الطريق وهو يمر أمامه .. بعد شد وجذب وأخذ ورد بينه وبين نفسه ، عقد العزم على أن يكون البادىء بمصارحة ايمان بسره العظيم قبل أن تتحرى هى بنفسها وتفاجأه ويدفع ثمنا أخر من كرامته . توصل لهذا القرار مع وصول السيارة الى الحدود الدولية لشارع " شامبليون " . أيقن أن هذا القرار هو الأسلم ، بل هو المتاح بعدما أقنع نفسه بأن هذا الزمن أرخص الأزمنة ، وان كل شيىء فيه بلا ثمن لكن دوام الحال من المحال . قالها فى نفسه حين قرر أن تكون لكرامته ثمنا ..

فى تلك اللحظة .. لازالت هدى تحت تأثير مفعول الزيارة . نصف حاضرة ، نصف غائبة ، تساوى نصف كائن حى !! .

الضوء فى غرفة فايزة كان حادا ، لايبقى فى المكان ظلالا ولاغموضا .مددت هدى جسدها على السرير كالمومياء ، عيناها لاتطرفان ، شاردة فى أصداء الزيارة . لف الغرفة وجوم غريب . أرادت فايزة أن تبدده بعد أن أعتلت السرير عند قدميها ، فازاحتهما وأنسحبت للوراء : مالك ياهدى ؟ تنهدت وفكت لحام ظهرها الملتصق بظهر السرير : ماليش . لازمها شعور بالحرج وهى تردد بصوت مخنوق : مش عايزاكى تقلقى على ياهدى .. أنا خلاص هديت وبقيت كويسة ومن بكرة أرجعى لبيتك وولادك .ضمت الأخيرة ركبتيها لصدرها : أنتى شايفة كده يافايزة ؟ .

ـ أنا شايفة أنك مش حتقدرى تستغنى عنهم ولاهمه حيستغنو عنك .

ـ بتضحكى على ولا على نفسك .. الحكاية أكبر من كده ومعقدة أوى يافايزة . طوت الأخيرة رجليها تحتها وتربعت أمامها ، لتضمهما أصغر مساحة ممكنة فى السرير .

ـ معقدة أزاى يعنى ؟ سألت ولم تتلق أجابة سريعة إلا بعد لحظات . تكلمت ببطء : النهاردة بالذات أنا شفتهم كلهم بعقلى مش بعينيه .. شفت القلق اللى فى عينين نورا وحسيت بحيرتها وهى بتبصلى وكأنها بتسأل نفسها هى اللى عملته معايا صح ولا غلط .

ـ طبعا غلط .. هو أنتى غريبة عنهم ولاجاية من الشارع ده أنتى أمهم .

ـ لوفكرتى بهدوء ونسيتى حكاية انى افهم دى حتلاقى كل اللى نورا عملته صح . سحبت نفسا وكانما

توصلت لحقيقة ما .. أستأنفت : نورا عملت زى التاجر اللى حط كل راس ماله فى مشروع وقعد جنبه يراعيه ويكبره وأول ما بدأ يطرح ويكسب منه لقى اللى طلعله فجأة من غير مناسبة وضرب كرسى فى الكلوب ووقف كل حاجة وسود حياتهم ومش كده وبس ده كمان بيتبجح وبيقول أن فكرة المشروع أصلا بتاعتى .. مع أنه لاساهم ولا تعب ولا حتى بنى فيه طوبة .. يادوب كل اللى عمله أنه ساب حتة أرض كانت محتاجة للى يرويها ويزرعها ويعتنى بها .. نورا هى اللى عملت كل ده لوحدها ولولاها كانت الأرض بارت والزرعة ماتت واللـه أعلم كانت الأمور حتوصل لفين ؟ رمشت فايزة بعينيها حتى فهمت التشبيه : يعنى أنتى عايزة تقولى أن المشروع بتاع نورا هو يوسف وبسمة وأنتى بقى اللى طلعتلهم من تحت الأرض وقلتلهم فيها لاخفيها .

ـ صح عشان كده من حق نورا اللى شقت وتعبت على أخواتها أنها تحميهم بأيديها وسنانها .. تحميهم من أى حد حتى منى أنا .. الناس مارحمتهمش يافايزة .. أنا بقيت نقطة سودة فى حياتهم .. نقطة لزقة فى جبينهم أول الناس مابتشوفها بتبعد عنهم كأنهم مشبوهين .

ـ ماتقوليش كده ياختى صوابعك مش زى بعضها والناس معادن برضه .

ـ حتى لو كلامك صح وقابلو المعدن النضيف اللى يرحم ويعذر برضه حأفضل بالنسبة لهم نقطة الضعف اللى يتعايروا بيها وقت اللزوم .

ـ لزمته أيه الكلام ده ياهدى .. هو فى حد جرحك النهاردة بكلمة ؟ .

ـ النهاردة أنجرحت جرح كبير أوى .. جرح فوقنى من الأوهام والأنانية اللى كنت عايشة فيها .. أتجرحت لما شفت وش يوسف بيتلون أصفر وأحمر لما سألته عن المهندسة ايمان وقلتله صارحتها ولا لأ وكأنى ياعينى فكرته بيوم الحساب .. قلبى كان بيتقطع من جوه وأنا متأكدة أن ايمان حتحصل هدير وحترفضه لما تعرف الحقيقة .. كان نفسى تكونى موجودة فى القعدة يافايزة وتشوفى الفرحة اللى كانت مالية عينين بسمة وهى بتحكيلى عن أمجد لما أتصل بيها عشان يعتذر لها .. كانت بتتكلم وكأنها مش مصدقة نفسها .

أتسعت عينى فايزة تسألها وتسأل نفسها : طب ماهمه عرضوا عليكى الحل ياهدى .. ماتتجوزى خيرى وكل واحد يبقى فى حاله ويدور على مصلحته . أختبأت بوجهها بين ركبتيها وكأنها تتحاشى الأجابة إلا أنها أستجابت تحت ضغط نظرات فايزة : واللـه لو هو ده الحل كنت وافقت على طول .. بذمتك ودينك عمرك سمعتى عن بنت وأمها أتجوزوا من أبن وأبوه وفى شقة واحدة ، لو فرضنا سمعتى .. أزاى أنا حأقبل على نفسى .

ـ لا هو عيب ولاحرام .

ـ ماقلتش كده مع أنى متأكدة أن شريف أصلا مش حيقبل بالوضع ده وأكيد حيسافر .

ـ تبقى كده أتحلت .

ـ بالعكس دى تبقى أتعقدت أكتر وبقت مستحيلة .. نورا مع كل جبروتها وشخصيتها القوية لكن بتحب شريف جدا يعنى لو سابها وسافر بنتى حتتحطم وحتى لو خيرى ماأعترضش على سفر أبنه مع مرور الوقت حيندم أكبر ندم وحيتعب نفسيا ومش حيرحم نفسه أنه أتجوزنى وفرط فى أبنه .. عرفتى أن جوازى حينيل الدنيا ويعقدها أكتر ماهى متعقدة .

ـ متهيألى أنتى زودتيها أوى وسودتيها خالص .

ـ أنا لازودت ولاسودت هى دى الحقيقة .. كل مصيبة بتحصل لولادى من تحت راسى مابيقدروش ياعينى يعملو أى حاجة غير أنهم بيشيلو فى قلبهم ويسكتو .. ولحد دلوقتى همه صابرين وراضيين بنصيبهم لكن بعد كده ماتضمنيش أيه اللى حيحصل ولاحيتصرفوا أزاى .

ـ حيعملو أيه يعنى .

ـ ماعرفش .. قالتها بصيغة تتوقع من وراءها الأسوأ .

ـ تفتكرى مثلا حيأذوكى زى المحروس أبنى .

ـ كل واحد وله ظروفه .. أقل مافيها حيكرهونى ويكرهو نفسهم ويلعنو الدنيا اللى خلتنى أمهم .

صمتت هدى وخرست فايزة ، بينما تغلى العروق ويفور الدم مختلطا بالذكريات والصور ، كلها تلدغ فى جسديهما .. تتهدم الأحلام التى صنعتاها سويا فى زنزانة السجن . شعرتا بأنهما جسد بلا شكل ووجه بلا ملامح .. تسقط فيهما الأفكار كأجنة مجهضة قبل أن تمسك فايزة بواحدة حية : طب أيه رأيك ماتأخدى شقة صغيرة على أدك أنتى وخيرى وأتجوزوا فيها ويسيب شقة محطة الرمل لأبنه شريف .

ـ تفتكرى خيرى حيوافق على حل زى ده .

ـ حيوافق طبعا ده حيموت عليكى .

ـ وتفتكرى كده حيستحمل أد أيه فى شقة تانية وهو عقله وقلبه وروحه فى شقة محطة الرمل .. ده مجنون بالشقة يافايزة .. ده مهووس بالعمارة كلها . قالت جملتها الأخيرة بملأ الفم وبثقة لاتهتز ثم تابعت : أنتى بتتكلمى عن راجل عدى الخمسين يعنى له عادات وطباع مستحيل يغيرها .. خيرى مش شاب صغير عشان لسه حيبدأ حياة جديدة ويتنطط من مكان لمكان . بان الرفض فى ملامحها قبل لسانها حين أعلنت : ماقدرش أخد خطوة زى دى والاقيه بعد شهرين تلاتة مش قادر يتحمل العيشة وساعتها المشكلة حتبقى أكبر وأصعب . أصبحت الأن أمام معادلة .. بين حقها كأم ، وحق أولادها فى الحياة .. سلمتها تلك الزيارة إلى شيطان الحيرة الذى عصف برأسها وبأفكارها .. السؤال الغبى الصامت الذى ظلتا تسألاه لنفسيهما كل لحظة : هل هذه حياة ؟ أين العيلة والعزوة ؟ أين الرحمة والعاطفة ؟ أسئلة تجر خلفها عذابا نفسيا وجسديا لاتقدرا عليه . يغيب عنهما المبرر أو الدافع لأحتماله .

ـ طب والحل أيه ياهدى ؟ تململت عينيها أمام أتساع عينى فايزة : الحل أن ربنا ياخدنى عشان أستريح وأريح اللى حواليه .

ـ ولما ربنا ياخدك أعمل أنا أيه من غيرك .

ـ تعملى كتير يافايزة .. أنتى مستورة بالفلوس وصاحبة كلمة يعنى حتعرفى تعيشى برضه .

ـ عيشة أيه بس ياهدى وكل اللى حواليه طماعين وبيكرهونى وعايزين يخلصو منى وأولهم أبنى . فجأة ودون ترتيب أبتسمت هدى ثم ضحكت قبل أن تتحول ضحكتها إلى قهقهة أرتابت لها فايزة : أنا قلت أيه خلاكى مسخسخة على روحك من الضحك . توقفت عن القهقهة ثم خفتت الضحكة ومن بعدها تلاشت الأبتسامة ثم أستعادت حالة اليأس : عارفة يافايزة .. أنا وأنتى عاملين زى اللى بنطلع فى الروح ومش لاقيين حد ينجدنا .

شعرتا بأنهما مثل أكياس " الزبالة " تشوه ناصية طريق ، يحملها أى عابر سبيل ويلقيها حيث يشاء .

مسحت فايزة وجهها بكفيها وكأنما تستحضر قوة غابت عنها : طلعت روح اللى عايز يطلع روحنا .. أسمعى ياهدى أحنا مش هفية .. مش أحنا اللى الدنيا تدينا بالكف على وشنا نسكت ونديها أفانا .. لا ياهدى ورحمة أبويا من النهاردة العين بالعين والسن بالسن والبادى أظلم . قالتها بشدة كانت مفقودة وكأنما يولد داخلها شيء غريب .. مجهول الأسم والوصف ، إلا أنه يحمل فى طياته مرحلة جديدة فى طور التكوين ، وان هناك قرارات يجب أن تتخذ ، ومعانى جديدة ، تكتشف وتعاش! كل مايحدث حولهما من تغيرات كان يدفع إلى التفكير .

" أن كل مأساة تحمل معها عنصر خلاصها " حكمة لفيلسوف عبقرى .

ـ أسمعينى ياهدى كويس .. أحنا بقينا عاملين ياختى زى الرمم لا حد عايزنا ولاحد بيخاف علينا والكل مش طايقنا .. ماتخليها تيجى مننا وتعالى نهج من هنا خالص ونسيبلهم أسكندرية بحالها يشبعو بيها نريحهم ونمشى بكرامتنا بدل ما واحدة فينا تترمى فى السجن والتانية تتحط فى جوازة ضررها أكتر من نفعها .

ـ أيه اللى بتقوليه ده يافايزة ؟ كمن تزن كمية الجد فى كلامها .

ـ اللى بأقوله هو عين العقل وماتكابريش وماتضحكيش على نفسك .. مافيش حد عايزنا ولاحد حيبكى علينا . أدلت برأسها وتأملت كلماتها بينما أهتزت فايزة فى جلستها بعدما ألقت مفاجأتها .

ـ نمشى أزاى يعنى . قالتها بشرود .

ـ زى أى حد بتضيق بى الدنيا وبتظلمه الناس .. أرض اللـه واسعة .. قولى أه وأنا من بكره أبيع كل اللى حيلتى ع القرشين اللى عندى فى البنك ونأخد بعضنا ونطفش من الجحيم ده ونعيش اللى فاضلنا بقى بدل عيشة المشبوهين دى اللى أحنا عايشنها . هنا توقفت عيناها عن الحركة كما توقف لسانها عن النطق . لم تكن هدى تتوقع هذا الكلام الذى يلامس الحكمة أو الجنون . أستردتها فايزة من شرودها : أيه رأيك فى كلامى ياهدى ؟ حاولت ترويض دهشتها : أنتى بتتكلمى جد يافايزة ؟ .

ـ أنتى شايفة ده وقت هزار .

ـ مش قصدى .. بس ولادى يافايزة وأبنك منصور .. حننساهم كده ببساطة .

ـ مأأنتى لسه قايلة يابنت الناس .. ولادك لوأتحملوكى النهاردة مش حيتحملوكى بكرة .. أما منصور .. رددت أسمه بحسرة بعد ماقررت أن تثأر لنفسها ، فهى ، قد دفعت كل فواتيرها ، وسددت ديونها وأكثر للحياة والناس جميعا ، لاتخشى شيئا ، ولاتريد شيئا ، لاتحمل له فى قلبها شرا ، لكنها لاتحمل له أيضا شيئا أخر ! .

تابعت : أنا حأبيع كل حاجة وحاخلى قهوة ابويا يسترزق منها هو وأبوه زكة عنى ويعيشوا زى ماكانوا عايشين مبسوطين ومرتاحين وماعندهمش أى مشاكل . قالت العبارة بصوت مرتفع مخنوق . كلماتها المنفعلة حامت حول هدى التى أختبرتها فى رأسها . أظلم وجه فايزة أمام هدى حين أغمضت عينيها ، تتخيل شكل المستقبل من خلال ظلمة الجفون .. مشت مع خيالها وعلامات الأجهاد تطارد ملامحها حين رأت نفسها ورفيقتها التى لازالت عند قدميها ككلب وفى ينتظر أية أشارة من صاحبه .. وجدت نفسها وصاحبتها فى منفى أختيارى على هيئة شقة فى مكان ما عامرة بكل وسائل الراحة والعيشة المحترمة ، عيشة متحررة من كل ضغوط الماضى وعبء سنوات السجن التى أثقلت كاهلها واكلت من هامات اولادها بفعل نظرات مجتمع لايرحم .. ساقها خيالها إلى حياة بدت مألوفة .. الفارق ليس بالكبير .. مسجونة فى كل الأحوال ، وكأن السجن بالنسبة لها قدر محتوم .. أبتلعت شكل المجهول وأنهارت مقاومة الرفض حين عصفت بها كلمات فايزة .

تقدمت خطوة حين سألت : وأيه اللى المفروض نعمله رفعت لها فايزة حاجبيها وتزحزحت حتى لامس صدرها ركبتى هدى ثم تحدثت ببطء شديد وكأنها ترتجل أفكارا لم يسبق أن راودتها من قبل : حأروح

بكرة أنا وأنتى لمحمود المحامى أظبط معاه الأمور ونشوف أيه اللى ممكن يتباع بسرعة وأراجع حساباتى كلها معاه وبعد كده نلم نفسينا أنا وأنتى فى السر وفى الخباثة ونتكل على اللـه .

ـ ولما أبنك وولادى يدوروا علينا .. مش حيرتاحوا يافايزة ولاحيسكتو . ضغطت الأخيرة بأصبعيها على شفتها السفلى وكأنما تستخرج منها حلا : أحنا مش حنختفى فجأة ياهدى .. بالهداوة وواحدة واحدة وأول حاجة لازم تعمليها خلى ولادك يقبلوا بوجودك هنا ومايفضلوش يزنو على ودانك .. حسسيهم انك عايشة مرتاحة ومش محتاجة حاجة من حد وأنا كمان حأفضل ورا الوله منصور لغاية مايرضى بشغل القهوة ويشكر ربنا ألف مرة بدل مايطلع من المولد بلا حمص .

نهاية لم تتخيلها .. تبادلا نظرات طويلة .. نظرات مذعورة أو مترددة وكأنهما تقفان على حافة الجرح معلقتان بين أنكسار الحلم ورفض الأستسلام للواقع . حل الصمت ضيفا ثقيلا لدقائق قبل أن تستعيدهدى لسانها : أنا موافقة يافايزة .. وادينا قاعدين مع بعض لغاية ماندبرامورنا وبعد كده ربنا يحلها .. خلينا نرتاح وهمه كمان يرتاحوا .. جايز لما نبعد ربنا يكرمهم ويسهلهم الاحوال .

أدلت بتصريحها ثم داهمها ذلك الشعور المركب الذى يمتزج فيه لذة التضحية واستعذاب الصبر .. ولما كانت تدرك فى قرارتها أن تلك المشاعر يمكنها ان تشكل نوعا من حالة الرضا .

لمحت فايزة دموعا فى عين رفيقتها . أشفقت عليها : لو مش عايزة نمشى فى الموضوع ده بلاش .

ـ لا يافايزة .. حابعد معاكى عشان خاطر ولادى . قالتها وكأنما تحمل ثقلا يساوى أضعاف وزنها . كان لابد من تنحى العاطفة ، شيىء غريب يسرى بينهما .. شيىء يزحف ببطء جاعلا مايستعصى تصديقه سهل التصديق وجعل المستحيل ممكنا أفضل من أن يجعل الممكن مستحيلا !! .

الفصل السابع عشر

عشر دقائق بعد أنتصاف الليل حسب التوقيت المحلى لشقة " خيرى " التى بدت على غير عادتها . فارقها الهدوء وخيم عليها الصوت العالى وتحديدا فى منطقة الصالة عندما أعترض خيرى طريق أبنه العائد لتوه من وردية ليلية .

ـ فهمتى بقى أيه اللى أنت عملته النهاردة ده ؟ سؤال ماقبل العاصفة .

ـ عملت أيه يابابا . قالها مفزوعا حين لمح فيه تحفزا وغضبا .

ـ تخلينى قاعد قدام هدى وولادها النهاردة فى نص هدومى عامل زى الطيشة اللى مش عارف أى حاجة .

ـ أنا يابابا .. قالها مضطربا حين أقترب منه .

ـ أيوه أنت . رددها وهو يهتز بكتفيه مستعملا نبرة لم تطأ أذنى أبنه منذ وفاة أمه . تابع محافظا على نفس الوتيرة : لما تقولهم قدامى أنك قررت تسافر أمريكا عشان تشوف حياتك وتدور على مستقبلك.. يفهمو أيه من كلامك ده ومن أمتى أصلا أنت بتاخد قرارات كده مع نفسك ومن غير ماتاخد رأيى ولا أنت خلاص كبرت ورايى مابقاش يهمك .. طب ع الأقل قولى بدل ماتخلينى وسطهم عامل زى الأطرش فى الزفة . قال عبارته وأعطاه ظهره يخفى غضبا متصاعدا بينما تجرع شريف ريقه بصعوبة : أنا عايز أفهم يابابا هو حضرتك زعلان عشان همه حيفهمو كلامى أزاى ولاعشان أنا ماقلتلكش . أستدار له ثانية مبديا أمتعاضه : هى مش ناقصة فلسفة ولالف ولادوران ... أشمعنى دلوقتى بالذات حكاية السفر دى ظهرت . حدق فيه بصرامة : أردف منفعلا : بسبب نورا .. ما أنت طول عمرك فى مشاكل معاها . ثبت فيه عيناه كأنما ينتزع منه أعترافا : ولا عشان أنا حتجوز هدى ؟ طب ما أنا أخدت رأيك وأنت وافقت . شدد على كلمته الأخيرة وكأنما يبرىء ذمته . سكت بعدها وصوت أنفاسه الغاضبة تلاحق وجه أبنه حين أقترب منه : ليه أحرجتنى وأحرجت نفسك . لم تعد لديه القدرة على تحمل الأتهامات : يابابا أنا ماأحرجتكش ولاكان قصدى أضايقك .. نورا هى اللى فتحت الموضوع وقالتلهم وماتسألنيش هى ليه عملت كده .. أنا كل اللى قلته ليه حأسافر لمالقيتهم كلهم بيهاجمونى وبيغلطونى.

ـ مافيش حد يابنى هاجمك ولاغلطك دول كانوا بينصحوك . قالها متخليا عن حدته فأشاح أبنه بوجهه لينهى سيجالا عقيما ، فأضطر خيرى لأستخدام سطوة الأب عندما شعر به يتململ فى وقفته : مالك واقف مش طايق نفسك ليه .. كلامى مش عاجبك . ضم ساقيه وعدل من سحنته ثم تقدم منه خطوة شابكا يديه على بطنه : حضرتك عارف أن ده مش طبعى .. أنا بقالى تسع ساعات واقف على رجليه . تبريره كان بردا وسلاما على ملامح أبوه التى هدأت وتراجعت أنفعالاته ، ثم توجه إليه متمهلا . وضع يده على كتفه : تعالى نقعد ياشريف . رافقه حتى المدفأة .. أتخذا مكانهما فى كرسيين متقابلين . أشعل سيجارته وعاد لرشده : من يوم أخوك نادر ماسافر وأنا وأنت مالناش غير بعض وطول عمرى بأتعامل معاك على أنك راجل وتفكيرك عاقل وده اللى خلانى .. سكت مطلقا دخان سيجارته الذى طال رأس

شريف المنكسة : ده اللى خلانى لما فاتحتك فى موضوع هدى ماكنتش متردد ولاقلقان .. كنت متأكد أنك حتفهمنى وحتقدر ظروفى .. بعدها حسيت أن الموضوع ده مضايقك وتقريبا رافضه . أغمض عينيه وفتحهما حين رفع رأسه : أنا ماقلتش أنى رافض ـ من غير ماتقول كفاية أنى أشوفها فى عينيك وفى طريقة معاملتك معايا .. كل ده أنا حاسه وفاهمه بس اللى مش قادر أفهمه ومش قادر ألاقيله أجابة .. أيه هو سبب رفضك ؟ طرح سؤاله وحدق فيه . ثم عاد يستجوبه : أنت رافض فكرة الجواز أصلا ؟ ولا رافض هدى بالذات عشان ظروفها ولا هو دور عناد بينك وبين نورا وأتاخدت أنا فى الرجلين .. ولايمكن السبب الشقة ؟ ظل شريف يتابعه فى ذهول حتى أنتهى .. كان من الصعب العثور على دفاع مقبول . بدأ كلامه : أنت ليه أصلا متخيل أنى رافض . قالها بنبرة ضعيفة وخجولة فأبتسم أبوه أبتسامة الفاهم : يعنى بتهرب من الأجابة .. طب أجاوب أنا . لم يبد أعتراضا: متهيألى أنت مش رافض هدى بالذات ولافارق معاك ظروفها اللى كانت فيها والدليل أنك بتحب بنتها وأنا عارف كويس أن ده مش أسلوب تفكيرك .. يبقى نروح للسبب التانى وهو أنك رافض الموضوع غلاسة ودور عند عشان نورا موافقة .. يعنى رفض والسلام حاجة كده زى أثبات الذات يعنى خدوا بالكم منى أنا موجود . غمس سيجارته فى المطفأة متأففا وهيبته المعهودة ترافقه حتى فرك يديه كالمنتشى بأنتصار فى دور شطرنج حين أجهز على منافسه بعبارة " كش ملك " مستبدلا المقطع : مش فاضل كده غير الشقة يابطل . حين سمع تلك الجملة رفع شريف رأسه بطيئا وأخفى توتره مستعيدا بعض الثقة : حضرتك لازم تعرف أن نورا عرضت على أنها تشترى شقة ونتجوز فيها وأنا رفضت . حك جبهته بأبهامه وعلامات الحزن تسبق صوته : واضح أنك بطلت تحكيلى حاجات كتير ياشريف .

ـ ماهو .. قالها مرتبكا .

ـ ع العموم معلش دى حاجة ترجعلك .. لكن اللى عايز أقوله ماتقلقش خالص من حكاية الشقة عشان ببساطة يابنى حأبقى أنا وأنت عندنا بدل الشقة أتنين.. لما تتجوز نورا وأنا أتجوز هدى زى ماحيبقى لهم مكان فى شقتنا أحنا كمان حيبقى لنا مكان فى شقتهم .. ثم سكت مستطلعاأثار كلماته على وجه أبنه الذى ظل نافرا . فأستكمل : ولو مش عاجبك الوضع ده أقبل بعرض نورا لاهو عيب ولاحرام وأنا يابنى سبقتك لما أتجوزت مامتك فى شقتها . تأمله شريف بنظرة شفقة حين رأه يتخلى عن منطقه : ماما اللـه يرحمها كانت ظروفها مختلفة وحضرتك كمان كان لك وضعك وكيانك .. أما أنا فمشكلتى أكبر بكتير من

مسألة الشقة .. أنا لغاية دلوقتى يابابا تايه مش عارف ألاقى نفسى . كررها بحرقة حين تساءل أبوه : تايه ؟! .

ـ أيوه يابابا تايه .. أنا حاجة كده ماشية فى الدنيا مالهاش معالم ولاطعم ولا أى حاجة .. أقنعت نفسى بشغلانة على ماتفرج لا لها مستقبل ولاطموح وفى أى وقت ممكن يقولولى شكرا مع السلامة وحضرتك قلتلى الشغل مش عيب وأصبر على ماتفرج . صاحبته حشرجة لم يستسلم لها وتابع : حتى نورا اللى حضرتك بتقول عليها بتحبنى هى كمان شيلانى ع الرف برضه على ماتفرج بعد ماتخلص من أمها وتزيحها من البيت وبعد ماتطمن على أخواتها ومستقبلهم وكمان تكون زودت شوية من محصول الغلة .. إن شاء اللـه بعد ماتنتهى من كل ده حتبقى تبت فى أمرى . نفرت عروقه وأرتعش جفنه حين أنتهى من عرض مأساته .. شعر بالوحدة واليتم . توجه إليه أبوه بنظرات صامتة . لايملك اجابة محددة ملتمسا منه بعض الفهم حين مال بجذعه متخليا عن وضعية الشموخ : حاسس بيك ياشريف وعارف أن كلامك كله صح . أدلى بأعترافه ثم أنكسرت نظرته ناحية الأرض . تنهد ولم يرفع عينيه . أستطرد : كان نفسى ظروفك تبقى أحسن من كده .. ياريت كان فى أيدى حاجة وأنا كنت عملتهالك .. لكن انت فاهم وعارف الظروف كويس صمت بعد أن جمعتهما نفس النظرة ناحية الأرض قبل أن يسبقه خيرى رافعا رأسه متجولا بنظرته فى الوجه المدلى : اللى أملكه دلوقتى ياشريف وأقدر عليه هى النصيحة .. أسمعها منى ياحبيبى . تتبع الأخير نهاية جملته متخليا عن نظرته الأرضية صاعدا بها ببطء لوجه أبيه الذى قال متأثرا : عايزك تكون متفاءل وواثق من نفسك وتحمد ربنا ألف مرة أن مشاكلك كلها مادية يعنى أن ماتحلتش النهاردة واللـه حتفرج بكرة .. تخيل ياشريف لو مشكلتك زى حالاتى أنا .. مشكلة مع الزمن اللى عمال يجرى سنة ورا سنة لغاية ماعديت الخمسين وبقى وشى فى وش الوحدة .. الملل هدنى والخوف من بكرة لما الصحة تتعب والعقل يبقى على أده ولما كرامة البنى أدم تتهان بأيدين مرض وتهزمه .. أنا كبرت ياشريف .. عشان كده . أغتصب ريقه ولم يكمل . فحثه أبنه : عشان كده أيه يابابا ؟ .

ـ عشان كده لما ظهرتلى هدى حسيت أنها طوق النجاه اللى حتأخد بأيدى وحتكمل معايا اللى فاضل من عمرى .. أشاح بوجهه خجلا ثم أردف : جايز أكون من فرحتى بيها نسيتك وجايز اكون قصرت وماشرحتلكش ظروفى بشكل كويس وده من غير قصد منى .. بالعكس ياشريف انا طول عمرى بأتعامل معاك على أنك صاحبى وعقلك كبير وحتقدر ظروفى من غير شرح كتير .. أعذرنى يابنى .. الحاجة اللى

ممكن تشفع لى عندك أنك أنت اللى فاضلى فى الدنيا بحالها . خلع الأخير مأساته المطبوعة على ملامحه واضعا يده على يد أبوه المرتخية فوق ركبته : أنسى كل اللى قلناه يابابا وماتحملش نفسك ذنبى ولاتشغل بالك بأى حاجة .. حضرتك ربتنى ع الرجولة وتحمل المسئولية وأنا أدها وحضرتك حتتجوز من طنط هدى عشان فعلا أنت محتاج لها وهى كمان محتاجالك .. وأنا كمان يابابا بعد أذنك محتاج أوى ألاقى نفسى .. سيبنى على راحتى وزى ماحضرتك كبرت أنا كمان كبرت والسنين بتجرى وماعملتش حاجة لغاية دلوقتى .. عشان خاطرى سيبنى أشوف مستقبلى . قال كلامه ولم تسعفه حدقتيه من تبين ملامح أبوه بعدما أمتلأت عيناه دموعا .

ـ أنت بتبكى ياشريف .

ـ لأ يابابا . أعتصر جفنيه كى يتخلص من دموعه ثم نظر فى عينى أبوه التى فاضت هى الأخرى بجرعة من الدموع فشل فى حبسها . لحظة مزلزلة .. ترجرجا فى مكانهما وكأن مس أصابهما.. تزحزح خيرى حتى حافة كرسيه فاتحا ذراعيه مستدعيا أبنه الذى لم يتأخر وصوله . سلم نفسه لحضن أبوه يكتم فيه صوت بكاؤه بينما فشل خيرى فى لجم أنينه .. أهتز كل مافيهما تحت ضربات الأنين والبكاء .. رجلان يضيق جلدهما بروحهما المكسورة . عاجزان عن مواجهة زمن رحل بكل أحلامه ! .

000000000000

وبين ليل لاينتهى ونهار لايبزغ . لازالت تلك الليلة تتفاعل .. الثانية صباحا تدق فى شقة فايزة تزامنا مع دخول منصور من باب الشقة .. أوصده خلفه بعنف قاصدا أحداث ضجة متمنيا ظهور أمه فى أعقابها .. كان فى أشد الأحتياج لتوضيحات واجابات . لم يكن منصور يكف عن مطاردة الأفكار والظنون . أحتار فى الأمر . الساعات الأخيرة تطرح دائما سؤالها القاسى والمؤلم : أمى ليه وقفت الشغل فى أرض أبن شكر ؟ طلبت من المهندس أسامة يصرف نظر عن رسومات المول ومايكملش بقية رسومات العمارة .. وليه محمود المحامى ماعندهوش أجابة على أى سؤال ؟ أسئلة كلها تصب فى حاضر غامض بلا مستقبل .

وقف وسط الصالة " شخشخ " مفاتيحه ولامجيب . مد رأسه من وراء حدود الطرقة وعيناه مفتوحتان ناحية غرفتها ككلب حراسة . ثم تجرأ ونادى بخشونة : ياما .. ياما .. لحظات وسمع همسا خلف بابها حين أجتاز عتبة الطرقة . فقال : أنا قاعد برة مستنيكى ياما .

خرجت بعد خمس دقائق معصوبة الرأس مرغمة بعد نصيحة من هدى . أستقبلها واقفا حين تقدمت : الجميل مش عايز يشوفنى ولا أيه ولايعنى من لقى أحبابه نسى أصحابه . كلماته كالسكين البارد يعبث بالجرح النازف . على غير عادتها ، أمتلكت الأن فضيلة الصبر . ليس ذلك الصبر الطيب الذى يتحدثون عنه ، ويوصى به المؤمنون . صبر محسوب ومخطط وهادىء ! .

جلست على كنبتها دون أن تنظر اليه : عايز أيه عامل دوشة وداخل بزعابيبك .

ـ ياما أنا عايش معاكى فى بيت واحد ومش عارف أوصلك ولا أتكلم معاكى .. ياقافلة عليكى الأوضة مع زميلتك وموبايلك يا أما مقفول يامابترديش .. ماتقوليلى أيه الحكاية بالظبط .. يكونش شايفالك شوفة ياما . قالها وداعبها بعينيه ضاحكا .

ـ الشوفة دى تقولها لنفسك وللوسخ أبوك .. خلصنى قول عايز أيه دلوقتى ؟ قالتها قبل أن تأمره بالأختصار . جلس الى جوارها . تأمل سحنتها الصارمة ثم أطلق تنهيدة ساخنة أوحت بأمتلاء صاحبها بالحيرة : مالك ياما فى أيه ؟ .

ـ مافيش .

ـ مافيش أزاى وشكلك مقلوب ومش طيقانى .. ده أنتى حتى مش عايزة تبصى فى خلقتى . النظر إليه يضغط على أعصابها .. تراه فى عينيها كنبات شيطانى ظهر فجأة بلا أصل أو أمتداد .. النظر إليه يجعلها راغبة فى البحث عن مكان جديد أو ربما عن بداية جديدة.

ـ فهمينى أيه اللى بيحصل ياما .. الوله النونو وخضر مش عارف أتلم عليهم من أمبارح .. أتصل بيهم مابيردوش والليلة ظهروا فى القهوة وبسألهم عن الأيراد قالولى المعلمة هى اللى حتحاسب .. أيه اللى حصل ياما .

ـ ماحصلش حاجة .. فيه تفكيرة فى دماغى ناوية أعملها .

ـ تفكيرة تخصنى أنا يعنى .

ـ تخصنا كلنا .

ـ كلنا مين ؟ .

ـ أنا وأنت وأبوك . نبرتها الجافة المتوعدة سحبته لأستفسار : ومحمود المحامى اللى طريقته بقت متغيرة معايا والشغل اللى واقف والمهندس أسامة والحاج محمد المقاول اللى مشتوهم .. دى برضة تفكيرة جديدة ياما ؟هبت من مكانها مثل العاصفة : وأنت مال ابوك .. أنت حتحاسبنى .. اللى أنا شايفاه صح حأعمله .

فارقت عروقه الدماء حين ثبتت نظرتها النارية فى وجهه .

ـ حقك ياما .. اللى أنتى شايفاه صح أعمليه .. أنا بسأل بس .

ـ لأ ماتسألش وبطل رغى وأدخل أوضتك أتخمد .

ـ حاضر ياما حأتخمد بس عايز أقولك أنى ماعملتش حاجة تغضبك ولاتزعلك وماسك شغلك بما يرضى اللـه .. ولو حد قالك حاجة غير كده واجهينى ياما . تلقت كلامه بهدوء ، حتى أنها لم تسأل . لم تثر جدلا أو هجوما . فهمت اللحظة على نحو نادر . تحرك ناحية غرفته قبل أن يلتفت إليها وهى فى طريقها لغرفتها : تصبحى على خير ياما . لم ترد . فعزف على وتر أخر : ماشى ياأم منصور براحتك .. أنا برضه مش حأزعل منك ياجميل . قالها بصوت مرتفع كى تصل لأذانها حين أقتربت من بابها . بينما كل ماتتمناه فى تلك اللحظة أن تمتلك ذاكرة ، تعرف الصفح ، والنسيان ..ذاكرة تقبل العزاء .

قبع منصور فى غرفته .. كان مشهده لايختلف عن مشهد فأر سقط داخل الفخ . ضاقت نفسه ، بدا ضعيفا لاحول له ولاقوة ، فقد السيطرة على عقله تماما ، وخانه ذكاؤه ، بل تلاشى ذلك الذكاء الذى كان يساعده على الفهم وتحليل مايدور حوله . لم يعترف أنه سقط فى فخ محكم . لازال يفكر ويبحث ويفتش .. يتأمل دخان سيجارته وهو ممدد على السرير يتعقبه فى فراغ الغرفة مستعيدا أحداث الــ 48 ساعة الأخيرة . يفصل كل ساعة على حدا ويفتش فيها ، عله يصل الى حدث أو سقطة أو فعل ما قلب موازين أمه وشقلب حالها .طارد الساعات الماضية وقبض على دقائقها وتعقب ثوانيها . لم يصل لشيىء .

أرهقه البحث الذى جره الى الأحساس بالظلم .. يدرك أن لكل عالم حدودا ولكل كون أفقا ، لماذا عالمه هودائما ضيق ؟! .

تنبه على صوت باب الشقة الذى دوى صريره معلنا بأستحياء عن وصول عبده الجن بصحبة نوبة سعال معتادة ، تلازمه كلما دخل البيت وكان جهازه المناعى ينهار فجأة !. هرش جبهته ثم دفن سيجارته فى المطفأة قبل أن يدفن النفس الأخير فى صدره وقام ببطء .. تحرك ناحية الباب وفتحه بحذر تزامنا مع خلع عبده لجلبابه .. ألتفت اليه الأخير حين شعر به : مالك واقف ورا الباب كده ليه زى اللى عامل عاملة .

ـ مش جاى لى نوم . قالها بصوت خافت .

ـ حقك ياسيدى .. دماغك مليانة مشاغل .. راجل أعمال بقى .

ـ طب وطى صوتك وتعالى أدخل أقعد معايا شوية .

ـ يابنى الكلام معايا زى عدمه .. أنا خلاص أمك طلعتنى معاش . قالها حين تجرد من جلبابه وخلع حذائه وشرابه وجلس باللباس الطويل وفانلة نص كم بيضاء . أرسل منصورنظرة أستكشافية ناحية الطرقة ثم عاد لأبوه : أخلص يابا وتعالى أدخل . تدلل فى خطوته قبل ان يجره منصور للداخل .

جلسا متجاورين على حافة السرير .. حدق منصور للأرض بينما عبده حشد اذنيه منتظرا كلمات أبنه التى لم تأت بعد . فبادره بعد دقيقتين : هوأنت مقعدنى معاك تسمعنى سكوتك . أتجه إليه بنظرة مهزومة . ثم سحب سيجارة من علبته أشعلها ورمى بولاعته وعاد ثانية يتأمل الأرض . حيرته البادية على وجهه كعلامات أستفهام . أستدعت تدخلا :

ـ ايه ياوله هى الحكاية كبيرة اوى ؟ !.

ـ مش لما ابقى أعرف الحكاية أيه أصلا .

ـ ماتتعدل فى كلامك ونورنى .

ـ واللـه ما أنا عارف فى أيه يابا.. الدنيا كلها أتلخبطت وأتشقلبت فجأة .. فى حاجة مش مظبوطة بتحصل من وراضهرى . رددها بيقين وثقة .

ـ حاجة أيه قلقتنى . دعك منصور فخذيه بكفيه : على يدك يابا أنت شفت أمى كانت راضية عنى أزاى ومطلعانى السما والدنيا بدأت تضحكلى وحطيت رجلى فى كل زوارقها وكانت بتشورنى فى كل كبيرة

وصغيرة .. ماتفهمش أيه اللى حصل .. رفع كفيه وخبط بهما فخذيه واحتضرت بقية الجملة فى حلقه . فحثه أبوه : أيه اللى حصل ؟ .

ـ ماعرفش .. وشها أتقلب من ناحيتى ومابقتش طيقانى وبتكلمنى من تحت ضرسها وكل الشغل اللى حطيت أيدى فيه جابت ببانه ووقفته .. سألت محمود المحامى عن السبب قالى ماعرفش .

ـ وماسألتهاش هى ليه ياحمار ؟ .

ـ سألتها وماخدش منها عقاد نافع كله كلام ع العايم من نظام أصل فى دماغى تفكيرة تانية .. تحسس عبده لحم وجهه كمفكر : مش يمكن كلامها صح .

ـ لأ يابا الليلة مش كده خالص .. دى أمى وأنا فاهمها . قالها وأستسلم ليأسه . بينما مال عبده بوجهه مستنتجا : أنا بقول المرى اللى أسمها هدى هى اللى ورا القلق ده كله .

ـ أيه اللى بتقوله ده بس يابا . ردد جملته وهو ينفخ .

ـ ماهو مافيش حاجة جدت على أمك غير وجود الولية دى .

ـ الست دى مالهاش مصلحة .. أكيد فى حاجة تانية حصلت أنا مش فاهمها .

ـ طب مادعبس وراها كده يمكن توصل لحاجة . مل منصور من كلماته التى لاتقدم ولا تؤخر : باقولك ايه .. قوم أتكل على اللـه روح نام . قام من مكانه معترضا : تصدق أنت عيل أبن كلب مجنون .. من شوية تعالى عايزك أتكلم معاك ودلوقتى روح أتكل على اللـه نام.. هو أنا على مزاج أمك . ضاق منصور ذرعا : ماهو أنت كلامك كله لايجيب ولايودى .

ـ أنا برضه يامنصور .. أنا مش حذرتك من الأول وقلتلك خلى بالك .. أمك زى ماحترفعك لسابع سما ممكن نخسفك لسابع أرض وآهى عملتها فيك بنت عبد المقصود . هز رأسه ولم يعقب بينما أتجه عبده ناحية الباب رافعا كفيه بدعاء الأنتقام : ربنا يولع فيكى يافايزة وتموتى محروقة عشان نخلص منك ونرتاح . ثم فتح الباب وخرج الى ظلام الصالة .. تحسس بيده الكنبة ثم وضع جسمه عليها بتعب متجها ببصره للسقف . محدثا نفسه : باين عليك يابنى حظك من حظ أبوك ..

أنفرد منصور بنفسه .. ظل ينقب فى الأحداث ويسترجع الحوارات .. لم يجد فيها مايصلح سببا منطقيا لهذا الأنقلاب .. راجع الوجوه بوجه اجتاحه الصدأ . تتبع الشخصيات ذات العلاقة المشتركة فى المشهد المباشر بأمه .. حاول أستحضارها أمامه على هيئة صور .. فتح الألبوم فى ذهنه مستهلا أولى الصور بوجه محمود المحامى ثم خضر والنونو الذى توقف أمامهما للحظات . يدرك بأنه لايحوز قبولهما . مط شفتيه محدثا نفسه : مافيش فى ايديهم حاجة يقدروا عليها وأمى كمان مش تلميذة عشان جوز زى دول يخلوها تقلب على . عاد يفرز الصور بعد مأأستبعد تورطهما .

مرت بقية الصور كتحصيل حاصل ، محمد المقاول والمهندس أسامة حتى بدرية ونوسة . فجأة ظهرت صورة سليم بالمجموعة الخاصة بوجوه القهوة . يعلم أنه وغد يملك كل الأساليب لقتلك دون أن تنزف قطرة دم .. لم يحدث نفسه بكلمة واحدة وكأن حبل الكلام أنقطع داخله فجأة . قام من رقدته عابسا مضطربا .. أحتل السواد وجهه . سحب من ذاكرته كل الأسماء والصور .. تتزاحم صورة سليم فى رأسه .. كلمات سليم الأخيرة ترن فى رأسه : ماتتغرش ياصاحبى .. الأيام دول !!

عيونه الفاحصة المدربة ، قادرة على أكتشاف أصغر مافى واقعه من متناقضات أو ربما مؤامرات !.

تشبث ذهنه بالصورة واقنع نفسه بالتحليل .. قام واقفا يدور فى الغرفة كالمجنون بينما رعشة ذقنه زادت سرعتها حين حرك فكه قائلا : مصيبة سودة لتكون عملتها ياأبن الحرام وضربتنى فى ضهرى ؟

أنقضت الساعة الأخيرة من الليل طويلة وكئيبة . تعب من التفكير والخوض فى الأحتمالات ، والبحث عن حلول ان صح وقوع الفاحشة .. فاحشة خيانة الصديق .

عاد لسريره كعجوز أنهكه المرض .. أستسلم مرهقا حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا . أرخى جفنيه . متمنيا طلوع النهار للأمساك بسليم : لو أن ثقافته كانت تصلح لمثل هذه المناسبة لقال فيها : " الكل خانوك ياريتشارد " .

00000000000

خرج يوسف فى الثامنة صباحا قاصدا مكتب المهندس ناجى .. أستقل تاكسيا من أمام مدخل العمارة بملامح طالب وضعته الظروف أمام أمتحان المصير ، والذى يكرم فيه المرء أو يهان .

جلس بجوار السائق محافظا على تركيزه يسترجع عبارته الملغومة التى سيفجرها لاحقا فى وجه إيمان لحظة وصوله .. راجعها فى ذهنه عدة مرات بصيغ مختلفة متحاشيا تشويش الطريق الذى يأكله السائق بنهم وكأنه يسوقه لحتفه .

ـ ماما كانت فى السجن تسع سنين ظلم فى قضية قتل خطأ و .. هز رأسه معترضا ثم صاغها من جديد : ماما دفعت من عمرها تسع سنين فى السجن غصب عنها و .. تنهد ونفخ ثم قال مستغفرا : أستغفر اللـه العظيم يارب .

ـ مافيش حاجة يابنى تستاهل النفخ .. سلمها للـه وهى تفرج . عبارة دحرجها اليه السائق حين شعر به يتلوى فى جلسته . واصل تهيأة العبارة فى ذهنه ، بدل وأضاف وحذف ، وكلما أستقر على جملة كان يتراجع وتخونه شجاعته كلما داهمه مشهد خروجه المهين من فيلا هدير .. يغزوه ذلك الخاطر الذى ترتعد له أطرافه . أنتبه على صوت السائق الذى هنأه على سلامة الوصول حين توقف أمام العقار . شعر بخوف حين أجتاز المدخل ورافقه حتى المصعد الذى سلمه للدور الثانى مرتبكا .. دخل المكتب يحمل على كتفيه تاريخا مؤلما للحظة مشابهة .. بأعصاب متوترة مسح المكان حوله ، تسبقه نظراته ناحية الطرقة المؤدية لمكتبه حين لم يجد ايمان على مكتبها .. شعر بحركتها فى الداخل حين أقترب من الباب . فتحه على أبتسامتها الصباحية عندما ألتفتت اليه ، تنفض يديها من تجهيز مائدة الأفطار المعتادة على مكتبه .. اتجهت ناحية الباب تشاغبه بعينيها : عندك تأخير عشر دقايق ياباشمهندس .

ـ معلش سامحينى . قالها وهرب من عينيها . فتعقبته : مسمحاك .. تعالى أقعد عشان تفطر . كلماتها صعبت عليه الأمر . هز رأسه مطيعا ومر من جوارها ثم جلس خلف مكتبه وجلست أمامه وبينهما سندوتشات الجبنة الـ " ريكفورد " افطاره المفضل ، ولانشون الفراخ عشقها الأول ومعهما ثلاث خيارات ، بينما الشاى الأخضر فى ترمسه يعيش أزهى أيامه ! .

ـ أيه الحكاية يايوسف زهقت من الريكفورد ولا أيه ؟ . قالتها حين لم تر لهفته المعتادة على الطعام . أبتسم ولم يرد . مد يده وتناول واحدا ببطء . لفت أنتباهها مزاجه القلق . قامت من كرسيها تتوعده بمفاجأة : حأجيبلك حاجة دلوقتى حتفتح نفسك وتخليك تخلص ع الفطار ده كله لوحدك . مدت خطوتها

الى مكتب الراحلة هدير وسحبت من عليه حقيبة يدها ، فتحتها حين عادت لكرسيها بينما يتابعها بنظرات فضولية منتظرا خروج يدها من جوف الحقيبة .. لحظات وسلتت يدها القابضة على مفتاحين ، هزتهما أمام وجهه .. أضطربت أنفاسه حين قرب عينيه بينما ظلت ضحكتها تضيىء وجهها : مفاتيح عربيتك ياباشمهندس .. من النهاردة مافيش مواصلات .. يعنى لابهدلة ولا مصاريف . ثم مدت له المفتاحين المحبوسين فى ميدالية فضية تحرسهما أيه الكرسى . تسلمها بفرحة مصطنعة .. قلبها بين يديه للحظات ثم وضعها أمامه . راقبت ملامحه المتحفظة : العربية مش أد المقام ولا أيه ؟

ـ بالعكس ليه بتقولى كده .

ـ شكلك مش عاجيبنى يايوسف .. الفطار زى ماهوه ومش شايفة أى فرحة فى عينيك بالعربية . لم يكن أمامه فرصة للتراجع .

دفع بصدره للأمام ، يحيطها بنظراته الطويلة : فى حاجة مهمة عايز أقولهالك .

ـ عايز عربية فور باى فور بدل الـ 128 . قالتها حين وضعت كفها تحت ذقنها . تماسك وهو يطل عليها بنبرة جادة ونظرة مستسلمة : أنتى قبل كده قولتيلى أن البنى أدم ظروفه وتصرفاته همه اللى بتسمح للحواليه أنهم يتدخلوا فى حياته لما يحسو أنه مش قادر يعدى من أزمته لوحده . نكس عيناه متحاشيا النظر إليها حين أجابته : مظبوط . أزاح ميدالية المفاتيح بأبهامه ناحيتها .كانت واجمة ومستنفرة حين رفع عينيه نحوها وقد أستجمع كلماته كأنه يفجر عذابا جديدا : والدتى دخلت السجن تسع سنين فى قضية قتل خطأ .. يعنى من غير قصد . قال العبارة بسرعة كأنما يتخلص من ثقل يزن أضعاف وزنه . لم يكن قادرا على التنبوء برد فعلها ، إلا أن صورة هدير كانت تلح فى ذهنه . سحبت كفها من تحت ذقنها راسمة أبتسامة حين هبت عليه بوجهها : والمطلوب ؟! أربكه السؤال كما أربكته ملامحها الهادئة . حاول العثور على رد مناسب وسط فوضى الخجل والحرج : مش مطلوب حاجة خالص . أراد أن يحررها من أى ألتزامات . ثم صمت أمام صمتها وراح يقلب عينيه فى ملامحها . كان على أتم الأستعداد لتلقى ضربة أخرى .

ـ ولما هو مش مطلوب أى حاجة قلتلى ليه ؟ .

تاهت فيه الكلمات ولم يجد سوى : ماعرفش ! .

ـ أنا بقى عارفة . قالتها وثبتت نظرتها .. لم ترمش حين سألها : عارفة أيه ؟

ـ عارفة أن مامتك كانت فى السجن . سرت رعشة فى جسده .. حولته فى لحظة الى كائن مكهرب .. كان بحاجة الى من يدعمه قبل أن تنهار البقية الباقية من تماسكه .. أغمض عينيه للحظات . كان وجهها قريب منه عندما فتحهما : عايز تقول حاجة يايوسف ؟! حاول تحريك لسانه الراقد فى فمه وسط الذهول : عارفة ؟! تراجعت للوراء مبتعدة عن دهشته : أيوه يايوسف .. هدير أتصلت بى فى نفس اليوم اللى جت زارتنا هنا فى المكتب .. أنا ماعرفش هى كانت عايزة أيه بالظبط .. كانت بتلف وتدور فى الكلام عايزة تعرف أن كان فى حاجة بينى وبينك ولا لأ .. ولما سألتها بعدتى عنه ليه مادمتى لسه بتحبيه .. صارحتنى وحكتلى كل حاجة بالتفصيل . أشاح بوجهه كأنما يحاول أن ينهى مشهدا دراميا لايريد المشاركة فيه . إلا أن نظرتها التى فضحت عاطفتها شجعته على طرح السؤال الكبير : وأنتى رأيك أيه فى الكلام ده ؟ .

ـ فى أيه بالظبط ؟ .

ـ فى كل حاجة .. فى اللى أنا قلته واللى أنتى سمعتيه من هدير ؟ سحبت سندونش ومدته له : كل وأسمعنى كويس . قالتها بنبرة أم تامر أبنها الذى أنصاع وقضم أول قضمة .. أردفت وهى تصب الشاى : لو عايز تسمع نصيحة مملة حأسمعك ولو عايز تاخد منى الخلاصة فخد عندك .. وضعت أمامه كوب الشاى الأخضر .. وسحبت بشفتيها رشفة من كوبها . ثم أستأنفت : واحدة زى حالاتى مرت بتجربة جواز فاشلة وأتطلقت بعد سنة .. تفتكر يايوسف الناس ممكن حيقيموها أزاى .. أنتظرت منه أجابة لم تأت . فواصلت : أحتمال جزء منهم يغلطها وجزء تانى يبقى فى صفها .. لكن بالتأكيد كلهم حيحمولها مسئولية أختيارها الفاشل . لم يفهم القصد من وراء كلامها .

فوضحت : أما فى حالتك أنت يايوسف ماحدش يقدر يغلطك ولا كمان يبقى فى صفك .. عشان ببساطة أنت ماأختارتش الظروف اللى بسببها مامتك دخلت السجن ولاحتى كان لك يد فيها لا من قريب ولا من بعيد .. موضوع والدتك ده بقى شيىء من الماضى ماتشغلش بالك بيه .. أنساه يايوسف وبص لقدام . كانت تتكلم وعين الشفقة تسبقها .. تحدثت وكأنها أكتشفت حقائق الأشياء .. فتش فى كلماتها عن السبب الحقيقى التى لم تكشف عنه حتى الأن ..

ـ الأنسان الذكى يايوسف هو اللى يتحكم فى الظروف ويبقى عنده ثقة فى نفسه ومن جواه يبقى رافض لعب دور الضحية .. هدى صفات اللى عايز ينجح .. وأنا شايفاك بطل مش كومبارس .

ـ البطل عشان يبقى بطل لازم يكون جنبه بطلة تقف جنبه وتساعده . قالها ولازالت اللقمة تدور فى فمه ولم تصل لجوفه .

ـ لما البطل يسأل سؤال زى ده يبقى تقريبا لابيشوف ولابيحس !. لم يملك الا أن يبتسم رغم كل الحرج .

ـ مش يمكن ياايمان عايز يتأكد أكتر . رغم أندفاعها مع يوسف ورفع شعارات الأنسانية ورغم قناعتها بالنظرية القائله " يجب تقييم الأنسان بأفعاله وليس بأفعال الأخرين " إلا انها كانت تقيس كل الخطوات حتى لاتبتعد عن حساباتها التى خاطرت من أجلها .. تريد أن تؤسس لعلاقة ناجحة تعوضها عن تجربة زواج فاشلة ، وأن تترك مسافة كافية للتراجع كى لايتكرر الفشل .

ـ أصبر يايوسف لسه الأيام جاية كتير وأنا عن نفسى متفاءلة باللى جاى . سرحت فيه كما سرح فيها .. تداركت لحظة السرحان واستسلام ملامحها امام وسامته فى الوقت المناسب ، فنفضت عن نفسها الضعف وعادت مرتبكة متلعثمة وهى تنظر فى ساعتها : قوم يا أستاذ كفاية عليك كده أنت حتقضيها تسبيل ولا أيه .. خد مفاتيح عربيتك وقوم أتكل على اللـه روح موقعك . ثم وقفت كما وقف .. أقتربت منه فى المسافة الفاصلة بين المكتبين وكأنهما توأمان ينمو فى جسد واحد ، لايكتمل إلا بهما .

0000000000000

أنقضت النصف ساعة الأخيرة من الفترة الأولى فى الأتيليه ، لازالت نورا ساهمة .. كانت علامات الأجهاد والقلق تطل من وجهها منذ الصباح .. خيم عليها صمت غريب .. صمت المراجعة والتقييم .. صمت التأمل والحساب . لم يكن يومها عاديا .. تشابكت فيه كل أحداث الفترة الماضية لتنسج حولها جوا كئيبا أضفى على حجرة التفصيل التى لم تغادرها منذ الصباح شعورا بأنها غرفة فى دار مسنين .. لاصوت فيها ولا حركة .. كل ماحولها عاجز وواهن .

حاولت زيزيت أقتحام صومعتها الصامتة ثلاث مرات فى ثلاث زيارات متقطعة .. أرادت جرها فى المرة الأخيرة لحديث واقعى كى تنال منها معلومة أو لتفهم سببا بعد أن فاض بها الكيل من منظر ركام الشغل المعطل الذى لم ينال حتى اللحظة نظرة رضا من عين نورا .

ـ أيه الحكاية يانورا .. أنتى عليكى ندر ماتقوميش من مكانك النهاردة .. ده أنتى ماأتحركتيش من على كرسيكى من ساعة الصبح .. فى أيه ياحبيبتى ؟ .

ـ مافيش .. قالتها بتكاسل يليق بجو الحجرة الهادى التى لم يسمع فيها دندنة ماكينة ولارنة مقص . ساقتها ملامح نورا الى أستفسار حين جلست أمامها تعاين حالة الكمون : بصراحة أنا مش لاقية سبب للتكشيرة دى .. كل اللى كان نفسك فيه بدأ يحصل والأمور بقت ماشية تمام .

ـ أمور أيه اللى بقت تمام . قالتها بصوت محبط .

ـ هدى قدامها يوم ولا أتنين وحترجع البيت وخيرى مستنيها بفارغ الصبر عشان يتم الجوازة ومامتك تقريبا ماعندهاش أى أعتراض .. يبقى معناها أيه قعدتك الحزاينى دى ومزاجك اللى مش رايق ده . أستقبلت كلماتها بملامح تصرخ ونبرة أستغاثة : وأنا فين فى كل ده يامدام ؟ بدت نبرتها غير المألوفة تثير أندهاش زيزيت : أنتى فين يعنى أيه ؟ قامت من كرسيها فى محاولة لأنهاء الكلام . سحبت حقيبتها: أنا حأطلع أرتاح شوية وع الساعة ستة حابقى أجى أشوف الشغل المتأخر ده ، ثم أعطتها ظهرها خارجة بينما تعقبتها زيزيت بنظراتها وأطراف شعرها الأصفر يهتز على جبينها مع هزات رأسها المعترضة : هى عايزة أيه بالظبط .. كل اللى طلبته أتعمل .. ده أيه الأرف ده . قالتها بقلة حيلة وعينيها تجرى على أكوام الشغل المعطل والذى لم ترض عنه نورا حتى اللحظة ولم تمتد له يدها بضربة مقص ! .

منذ يوم الزيارة مرت ثلاثة أسابيع على وجود هدى بمنزل فايزة .. استعادت كل مخزون علاقتها الانسانية برفيقتها التى لازمتها كأنفاسها ، لم يكن بمقدورها الحصول على فرصة حقيقية للانفراد بنفسها وكلما ضاق صدرها واشتدت اوجاعها فرت اليها ، فحوطتها بالتشجيع والدعم وشغلتها عن قضاياها النفسية بمعاركها الحياتية وتدبير الخطط المستقبلية بعد هزيمتها القاسية على يد ابنها ، فهدأت هدى وغاب عقلها لساعات طويلة عن التفكير فى مأساتها قبل ان تستعيد وعى الألم مع كل مكالمة من خيرى الذى لازال رافعا مطلبه الوحيد : مش كفاية عليكى لحد كده ياهدى .. كل الحجج خلصتيها ..

وأخرتها . لم يكن لديها جوابا شافيا لاسكات ذلك المنفعل . باتت تعتمد على نظرية المماطلة : هانت ياخيرى يومين بالكتير .

ـ بقالك تلات أسابيع بتقولى يومين .. مش حينفع كده . ثم يهدأ مجبرا أحتراما لدموعها : أعمل معروف ماتضغطش على .. هكذا كانت تنتهى المكالمة .

بخلاف أولادها الذين لايكفون عن اطلاق عبارات التذمر والضيق من فرط المماطلة وخاصة نورا التى استنفذت كل جمل التشجيع التى دائما تستهل بها مكالماتها قبل أن يضيق صدرها وتتحول فى نهاية حديثها إلى الوعيد والتهديد بينما أكتفت هدى بالاصغاء متبنية وجهة نظر فايزة : أسمعى منها وماترديش عليها .. كبرى دماغك . أرتاحت لهذا الحل المؤقت رغم صعوبة الكلمات وبجاحة الالفاظ التى تصلها دون حياء وبلا رحمة .

دخلت نورا الشقة التى أستقبلتها بنسمات العصر الحزينة . فتشت بعينيها وهى لاتزال على عتبة الباب ، تمشط المكان بحثا عن أحياء .. أوصدت الباب خلفها .. وقفت فى الصالة ولم تنحرف الى غرفتها . رمت بحقيبتها على كنبة الأنتريه ثم رمت بجسدها إلى جوارها .. أنسحبت إلى ركن الكنبة وأنزوت متأملة .. كانت فى حاجة للأنفراد بنفسها كى ترمم أنقاضها .. تبحث عن روحها التائهة من خلال ساعة العصر الخرساء . شجعها خلو المكان من الحركة فى الأستغراق فى التأمل بعد أن همد صوتى أيات ونعمة اللتان سلمتا نفسيهما لغفوة أجبارية بعدما أرهقهما الكلام عن الفنان " أنوروجدى " والتغزل فى شعره الناعم وبذخه فى الصرف على افلامه مرورا بفترة زواجه من الراحلة " ليلى مراد " وأنتهاءا بوفاته التى أثارت جدلا حادا فيما بينهما حول حالته الأجتماعية لحظة أن وافته المنية .. هل ليلى كانت على ذمته أم فى ذمة غيره ؟ تناقرتا طويلا قبل أن ترتاح نعمة لتصريح أيات : ع العموم الأتنين دلوقتى فى ذمة اللـه . ثم نامتا فى مكانهما .. بينما بسمة فى تلك اللحظة تكتب تاريخا جديدا فى علاقتها مع أمجد .. تاريخ الهوية والمستقبل . هى الأن فى لقاء تعارف بجمعها بأم أمجد وأخته وفى حضوره شخصيا فى كافيتريا " تريانون " كخطوة جادة منه لأضفاء الشرعية على علاقته بها وتمهيدا لخطوة قادمة بعد أن نجح فى أستمالتها عقب معاناة أستمرت لثلاثة أيام متتالية من أخذ ورد فى التليفون ، كلفته ثلاثون مكالمة بمئات الدقائق ، كان يقرويعترف فى كل مكالمة بذنبه الفادح مبديا الندم وسط كم هائل من الأعتذارات بكل الصيغ وبشتى التوسلات مستعملا كل النبرات التى يلين لها قلب الحجر . أعطت له موافقتها المبدئية بعد الرجوع لنورا التى قبلت على مضض من باب درء المفاسد . كما أخذت

رأى يوسف الذى دعمها معتبرا أمجد مكسبا لها بعد أن أقر بخطأه فى شجاعة ونجاحه فى الحصوله على عقد عمل بالسعودية .

تأملت نورا من بعيد كل الذكريات التى سحبها اليها سكون العصر ، والسؤال الكبير الذى يشدها ويهوى بها إلى قاع الحيرة : أنتى فين من كل ده يانورا ؟ تضخم السؤال داخلها حتى أمتلأت به ، طافحا من عينيها متسللا عبر نظراتها إلى كيان الصالة الصامت .. السؤال الذى جر خلفه أسئلة تتدفق عليها من كل حد وصوب . كان عليها أن تختار أجابة واحدة .. أجابة النجاة أو الغرق ! .

أشياء كثيرة أرغمت عليها حتى تحافظ على خط سير الحياة ، وكل الأشياء التى راهنت عليها أصبحت الأن بين قوسين ، تحتمل النجاح أو الفشل !! .

الأن تبحث عن حكم البراءة فى قضية حياتها الحافلة بالأحداث والعجائب .. شريف كان وجوده طاغيا فى ملف القضية وفى كل الذكريات ، لازال هو فتاها الأول ونجمها المفضل . مازالت مواقفه البطولية ترتع فى خيالها ، بالرغم من العلاقة الباردة التى مر عليها شهور . بقايا أشياء دفنتها تستعيد الأن أشباحها .. لم تنس أنه صاحب أول نظرة علمتها لغة النظرات ، وصاحب أول قبلة أصابتها بالدوار ، هو الأول والأخير التى خلعت أمامه كل ملابسها حين كان ضيفا عليها فى كل الأحلام .

ظلت تتصفح أوراق قضيتها ببطء من خلال الأحداث والمحطات المهمة حتى هلت عليها علامات الحيرة مع نهاية أخر سطر فى أخر ورقة .. أدركت أن المتغيرات المتسارعة تمهد لنهاية لامهرب منها . علمتها التجربة أن تشم رائحة الخطر قبل وقوعه . دقت طبول الخوف فى رأسها .. طاف بها القلق فى دهاليزه الملتوية ، يسحبها الى أعماق مجهولة ، ينهشها مشهد شريف حين أعلن أمام الجميع عن نيته السفر لأمريكا . كان خوفها يتجاوز حدود كبرياءها ، متخطيا كل حساباتها . أشتبكت مع نفسها فى حوار الفرصة الأخيرة : أزاى يامجنونة تسيبى شريف يضيع من أيديكى ؟ بالبساطة دى تفرطى فيه ؟ لم تدافع عن نفسها أمام النفس اللوامة ، بل تمادت فى التعذيب : فى حد عاقل يجرح قلبه بأيده .. مش ده شريف اللى بينك وبينه حاجة أكبر من الحب .. حاجة ماحدش عرف يسميها ولاحتى فهم معانيها . مالت برأسها حتى لامست سور الكنبة وهى تنصت لحديث النفس : كلهم أحتاروا فى اللى بينى وبينه بعد ماخاب ظنهم لما قالوا ده حب مراهقة حياخد وقته ويروح لحاله واللى قال ده حب جيرة وأول ماحيخرجوا للدنيا حيقابلوا بجد الحب الحقيقى . أغمضت عينيها للحظات قبل أن تفتحهما على الصوت المتمادى دون أستحياء : وعدى سن المراهقة وخرجنا للدنيا واللى بينى وبينه ماتغيرش .. بالعكس

كانت حلاوته بتزيد وكان كل يوم له طعم أحلى من اللى قبله . رفعت رأسها وأعتدلت فى جلستها وأرخت يديها فى حجرها : أتحداكى يانورا لو تعرفى تكملى حياتك من غير شريف .. حتتباهى بنجاحك قدام مين .. الدنيا لما بتسود فى وشك حتروحى تشكى لمين .. حلمك القديم اللى نفسك تحققيه وأنتى حاطه الشال على كتافك وقاعدة أنتى وشريف قدام الدفاية فى ليلة شتا باردة وبتشربوا فنجانين قهوة وولادكو بيلعبو تحت رجليكم .. مش دى اللحظة اللى نفسك تعيشيها وده حلم عمرك اللى كنتى دايما تحلميه معاه .. حتحققى كل ده مع مين ؟! تصلبت ملامحها ، ونظرتها القاسية ثابتة تغزو عمق الصالة . أصبحت محاصرة بضرورة الدفاع عن حبها .. اذن الأن لاصوت إلا صوت المراجعة وانقاذ مايمكن انقاذه .. اسدلت جفنيها هربا من ملاحقة الأسئلة والأحتمالات .. مرت ربع ساعة وهى على نفس الحال . كانت الهواجس تشن هجومها الأخير حين خدش سكون العصر دوى باب المصعد وهو يوصد ، وصوت أقدام متجهة ناحية شقة خيرى . أنصتت لبرهة قبل أن يجتاحها طوفان الفضول الذى جرفها من على الكنبة حتى باب الشقة التى تسمرت أمامه وألصقت فيه وجهها قبل أن تضيق عينها اليمنى وتضعها على عين الباب السحرية . لمحت صدغ شريف وهو يدنو من باب شقته وصوت مفتاحه التى تحفظ رنته يدور فى كالون الباب .

ظهوره المفاجىء فى تلك اللحظة أذهلها وقلب كيانها كله .. رأت فيه بشارة من السماء .

تمنت فى تلك اللحظة حضنا دافئا تخلع عليه كل ذنوبها .. الحضن القديم الذى أحتمل خذلاتها له بصبر عجيب ! أنتزعت جسدها المتخشب من خشب الباب .. أنتزعته وخلصت نفسها من الهيبة المزيفة والكبرياء المفتعل بالزعامة المزعومة . شيىء ماجعلها تشعر بضرورة الخروج إليه .

لم تأخذ قرارا . بل أخذها القرار الى خارج الشقة دون تفكير أوحتى تمهيد . وسط سكون الطرقة الفاصلة بين الشقتين ، سارت بمحاذاة كل الأخطاء التى أرتكبتها .. لمست بأصبعها جرس الباب فى اللحظة التى سألت فيها نفسها حين واجهت اللافتة التى تحمل أسم خيرى والتى هزمها الزمن : ياه ده انا بقالى كتير أوى ماوقفتش قدام باب شريف .

أنفتح الباب .. تقلصت عضلات وجه شريف حين رأها وكأنه يأبى التصديق .

ـ ممكن أدخل ؟ عقد الذهول لسانه . أنفلتت من جواره وأتجهت للداخل غير مبالية بوقفته المتساءلة أو لنظرته المدهوشة . مشت ببطء داخل الصالة مدفوعة برغبة لاحدود لها .. أوصد الباب بينما تشده من

كل أطرافه خلفها .. تتبعها مستندا على ماتبقى له من تماسك . وقفت وسط الصالة التى شهدت المراهقة والشباب .. وتحسست المقاعد الصامدة فلمست دفء الزمن الذى كان .. بحثت بملء بصرها عن علامة تعرفها .. أبتسمت لصورته وهو طفل مع أخوه نادر وحولهما سميحة وخيرى . بينما القلق مايزال عالقا بوجهه وصوتها يرن فى الصالة :مافيش حاجة أتغيرت خالص ..كل حاجة فى مكانها . قالتها ولفت لفة كاملة كأنما تدور فى دوامة تغوص بها لأيام حفرت فيها مالاينسى أبدا .

جلس على حافة كرسى يراقب ملامحها التى لم يبق منها سوى مواقف فى طريقها للتراجع ! جلست أمامه على كرسى مقابل تبحث عن كلمات تليق بحالتها : عمو فين ؟

ـ بيجيب غدا .

ـ حتتغدوا أيه ؟.

ـ المعتاد بتاع كل يوم .. تونة وجبنة أو سمك مشوى

ـ مافيش خضار ولا كوكوولا أى حاجة دسمة .

ـ فى المناسبات بس . بين كل سؤال وأخر كانت تستعيد كل حبها وكل الذكريات التى طفت فجأة . مالت بوجهها وأعتدلت فى جلستها تحاول فك عقدة حاجبيه : ماسألتنيش يعنى عن سبب الزيارة ؟ تنهد محافظا على عبوس وجهه : أيه السبب ؟

ـ مافيش سبب .. لقيت نفسى زهقانة ومخنوقة قلت آجى أتكلم معاك شوية . كان فى أنتظارها ضحكة ساخرة قبل أن يبتعد بظهره للوراء : ده من أمتى ان شاء اللـه .

ـ من زمان أوى ياشريف بس أنت اللى مش واخد بالك . قالتها وبحثت فى عينيه عن هذا الحبل السرى الذى يمتد بينهما حتى فى أشد مواقف الخصام .. أعتاد كل منهما تبادل أدوار القوة والضعف حسب مجريات الأمور .. لم تكن لعبة الأقتراب والأبتعاد عن بعضهما هى اللعبة الوحيدة ؟! .

ـ أكيد طبعا الخنقة دى سببها أن مامتك مش موجودة فى البيت ؟! قالها وأظهر ضحكة محتشمة . تجاوزت تعليقه الساخر بملامح تتحرك تحت أنفعال جديد لم يعهده فيها وهى تحدثه بشفافية عن الضغط العصبى المتولد من هموم الشغل ومسئولية البيت التى أرهقت نفسيتها وعن هذا الكم الهائل من الملل

الذى حكت عنه بمرارة : اللى أبات فيه أصبح فيه والسبت بقى شبه الحد والصيف زى الشتا وكله بقى شبه بعضه .. زهقت وأرفت وأعصابى ماعدتش تستحمل .. تعبت أوى من المسئولية بقيت حاسة أنى مسئولة عن الكون كله .. تقدم الى حافة كرسيه ، قرب وجهه منها كأنما يقيس كلماتها .. كان يحاول أن يعرف المسافة بين ما تبقى داخلها من صدق وبين ماتجيده من مناورات : فأختبرها : الكون له صاحب وماحدش طلب منك تبقى رئيسة الكون . ترددت لحظة ثم أبتسمت : أى حد الظروف بتفرض عليه مسئولية .. ممكن فى الأول يبقى فرحان بيها ويحس أنه فوق الكل ومهم وكلمته مسموعة وكل اللى حواليه ماشين وراه .. لكن مع الوقت ومرور السنين بتبقى المسئولية دمها تقيل وحملها بيزيد وبتخليك ماشى فى الدنيا بحساب وكل خطوة ولها تمن من أعصابك ومن حياتك خصوصا لما تلاقى الكل خالع أيده ومكبر دماغه .. ومش حأخبى عليك .. سكتت وكأنها غابت عن الوعى قبل أن يعيدها شريف للحياة : سكتى ليه ماتكملى ؟ .

ـ على أد مابتفرح بنجاحك وشايف نتيجته فى عيون اللى حواليك وبتحس بقيمتك أنك عديت بيهم من مرحلة الخطر وحطتهم على أول الطريق .. كل ده بيفرح ويسعد أنك عملت حاجة كبيرة .. لكن كل ده مش ببلاش فى تمن بيدفع .. فى حاجات بتقع منك وأنت ماشى فى طريق المسئولية وللأسف ما بتاخدش بالك هى وقعت منك فين بالظبط .. عشان ببساطة مش مسموح لك تبص فى أى أتجاه غير قدامك بس . صار شريف محدد الأقامة على كرسيه وهو ينصت لها . كانت تتحاشى أثارة الجدل وعزوفها عن كل مايستفزه ، جعلتها مقبولة حين أنهت كلامها . تذكر الأن الوجه الذى يعرفه والصوت الذى غاب عندما لمعت عيناها كنجمتين وبدا وجهها شفافا بريئا حين أجابت على سؤاله: وأيه اللى وقع منك يانورا ومش لاقياه ؟! .

ـ روحى ياشريف .

ـ أى روح فيهم .

ـ البنى أدم لما يموت روح واحدة هى اللى بتطلع .

ـ ده البنى أدم الطبيعى .. لكن المغرور واللى عايز يسيطر على كل اللى حواليه وينظم حياتهم على مزاجه ويرضى عن ده ويغضب على ده .. ده يبقى زى القطط بسبع ترواح . وجعتها جملته .. رحلت

بنظراتها إلى أرضية الصالة بينما تأهبت حواسه لسماع دفاعها الذى تأخر للحظات حين زحفت بعينيها إلى وجهه .. تأملته صامتة . فأبتسم : الأنسة بتشبه على ولا أيه ؟

أعطاها ضعفها قوة : هو أنت غريب عشان أشبه عليك .. أنت منى ياشريف ..لما بأشوفك كأنى شفت نفسى . الغضب الساكن فى صدره بدأ يخلى أخر مواقعه حين سمع جملتها الأخيرة .

ـ ليه أتغيرتى .. ليه كل الحاجات الحلوة اللى كانت فيكى خبتيها .. ليه كل تضحية عملتيها عايزة تأخدى تمنها .. ليه لغيتى وجودى فى حياتك ؟ .

ـ قبل ماتسألنى ليه أتغيرت ياريت تقولى أيه اللى حواليه ماأتغيرش .. البيت ماعدش هو البيت .. أب مات وأم فى السجن وعمة فى أزمة نفسية وتلات أطفال لاحول لهم ولاقوة ، يعنى لو ماكنتش أتغيرت وكبرت قبل الأوان وحكمت عقلى قبل عواطفى تفتكر كان أيه اللى ممكن يحصل .. من غير تفكير ولا فلسفة كنا كلنا حنضيع ياشريف أنا ويوسف وبسمة وعمتى .. هو ده المصير الوحيد اللى كان مستنينا .. مع أنى مش حأنكر مساعدة عمو خيرى ومدام زيزيت والخواجة كرم وعم نوح .. بس لازم تعرف كمان أن اللى بيساعد نفسه الناس بتقف معاه وتساعده .. وأنا بدأت بأول خطوة . كانت تتكلم بحماسة وهى تنهج وعلى وشك البكاء .. شعر بروحها البريئة عندما كانت تلوذ به بضعفها . تابعت بنفس الوتيرة وبنفس الحماس كأنها تدفع أى شك قد ينتابه : أنا ماأختارتش التضحية بمزاجى ولاكنت فرحانة بدور البطولة والوفاء والأمل .. لاياشريف كل حاجة أتفرضت على .. الظروف هى اللى أختارتنى ولولا مساعدة ربنا ووقفته معايا كانت النتيجة حتبقى مأساة كبيرة و ساعتها ماكانش فى حد حيرحمنى والدنيا كلها كانت حتحملنى مسئولية أى فشل .. ماتظلمنيش ياشريف وحط نفسك مكانى ، لو أخوك نادر كان فى ورطة كنت حتفكر قبل ماتقف جنبه ولاحتجرى عليه وتنجده .

ذاكرته الأن مثل صلب مصهور ، ينسال ، فيعيده تدريجيا الى ماقبل عصر الخصام والجفاء . لم يعقب على كلماتها مكتفيا بالفرجة على وجهها الذى حرم من النظر اليه والتملى فيه عن قرب. أستطاعت ببراعة أن تسيطر على كل خلاياه وجعلت جمالها المتجدد سيفا مسلطا عليه لتضمن ولاءه .. قامت من مكانها .. تحركت اليه وصدرها يهتز مع خطوتها البطيئة .. سحبته بعينيها كالمغناطيس ، فأتجه إليها واقفا .. أقترب حين أيقن أنها تريده بشدة .. تراجعت خطوة حين تقدم .. تأملته من زاوية أكبر فى حين يعيد ـ هو ـ تقييم صدرها وخصرها والفخذين .. سرحت فى عينيه : حمد اللـه ع السلامة . أستغرب

العبارة ! تقدمت اليه ومدت يديها .. تشابكت أصابعهما : أنت رجعت ياحبيبى ومش حتسافر . قلب كلماتها فى رأسه ثم أنفرجت شفتيه عن الأبتسامة المحببة لها : أنتى شايفة كده .

ـ آه .. قالتها بعناد طفولى . مستطردة : ولاعندك أعتراض ؟ .

ـ لأ يانورا ماعنديش . ضحكت بعينيها : سؤال وعايزة عليه جواب مختصر .. تحب تتغدا مع أبوك ولا معايا ؟! .

ـ أبويا بيحب ياكل لوحده ! .

ـ يبقى خلاص حأعزمك بره على بيتزا زيادة جبنة . كانت تداعبه بصوت خشن .

ـ بس ميعاد شغلك قرب يانورا .

ـ أنا قلتلك فيه حاجات وقعت منى وأنا ماشية .. ومن دلوقتى لازم ألم كل اللى وقع منى .

قالتها وكأنها لاترى غير هدف واحد تتجه إليه .. أستعادته .

0000000000000

منذ لحظات هرب منصور من غرفته .. تنطلق فى جسده كل الشياطين .. لم يعد يحتمل الحياة مع جحيم الشكوك .

دخل المقهى يضغط على عينيه ، يتفرس فى الوجوه مثل وحش جائع ..ملامحه المحتقنة تنبض بكل الغضب .. سار وسط الموائد صامتا . أنفجر حين لمح جمعه : ياجمعه .. أتاه الأخير مذعورا ..كاد يتعثر فى " جنش " الجزمجى المكوم فوق " جزمة " عم شفيق .

ـ خير يامنصور باشا . ساله حين جلس الأخير بجوار النافذة المطلة على الحارة .

ـ ماشفتش الوله سليم ؟ قالها وأعاد مسح المكان بعينيه .

ـ بقاله كام يوم مختفى . فكر فى الجملة وهو يشعل سيجارته : يعنى ماظهرش خالص . كانت كلماته تطير مع دخان سيجارته : بأقولك ماشفتش وش أمه من كام يوم .. تلاقيه أتاخد تحرى فى حملة

ومستضيفينه فى نقطة كرموز يأما عكش قرشين من واحد نمرة ولاغشيم حيتلهى فيهم لغاية مايتصرفوا وبعدها يظهر ويرمى بلاه علينا . أنهى جمعه أستنتاجه بينما سقطت شفة منصور السفلى مثقلة بالحسرة : روح هاتلى واحد قهوة . ظل واجما يتابع الحارة من خلال الشباك .أرهقه التفكير .. غاص فى نفسه متمردا يائسا وعاد لسيرته الأولى ، كائن بلا حيلة يمشى مع الأيام بلا هدف . عاد من شروده على صوت موبايله الذى يئن فى جيب بنطلونه .. سحبه بصعوبة وملل .. أجاب بمزاج عكر حين ظهر له أسم " نوسة " على شاشته : أنتفين يابنى .. مافيش أتصال طول اليوم ولاحتى رنة . جملتها لم ترق له ، فقابلها بنبرة متشنجة : مش فايق لك يانوسة ..كفاية اللى أنا فيه .

ـ وأيه اللى فيك يأبو الرجالة .. قول ماتكسفش . ثم ذيلتها بصهلولة زادت الضغط على أعصابه التى أصبحت لاتتحمل " زنة " ناموسة : هو ده اللى أنا واخده منك تريقة وصهللة وأيدك فى ميه باردة .. يابت أنا نفسيتى زى الزفت ومش طايق نفسى . رأعت الحالة وتفاعلت معه : طب ماتضايقش نفسك يامنصور ولو فاضى دلوقتى أنا مستنياك .. تعالى ياحبيبى فضفض وكل عقدة ولها حلال .

ـ ماشى يانوسة . قالها مستسلما .

بعد ربع ساعة .. قطبت نوسة وجهها فى أستفهام حين أستقبلت منصور عند باب الشقة : مخنوق بجد ولا أشتغالة ؟ مط شفتيه ودخل : وحياة أمك الحكاية مش ناقصة .

جلس على الكنبة وعلامات الأرف تمتد من وجهه شبرين .. أنتابها القلق حين لم يلحظ " الجيبة " الجينز التى تبعد عن ركبتها عدة سنتيمترات ، كما لم تلمح فى عينيه تلك النظرة الفاحصة التى أعتاد أن يدسها فى كل جزء فيها : مالك فى أيه ؟ سحب سيجارة من علبته وسألها : أمك فين ؟

ـ جوه بتعمل شاى . جلست الى جانبه تنتظر توضيحا .أشعل سيجارته وحكى لها ماألت اليه اموره مع أمه .. وضع بين يديها تقريرا مفصلا عن الأنقلاب الدرامى التى قادته أمه وأطاح به قبل أن يفرض سلطته على مقاليد الأمور ، منهيا تقريره بذكر بعض الأسباب التى أعادته الى زمن الصعلكة وعلى رأسها " سليم " ذلك الكائن التأمرى الخائن متوعدا أياه بعذاب أليم وأنتقام شديد .. عندما يصل اليه !..
ـ أيه العبط اللى بتقوله ده يامنصور . جملة أعتراضية قادمة من الطرقة إلى الصالة على لسان بدرية التى ظهرت بصينية الشاى .. شقت طريقها تجر خلفها لحمها حتى أعتلت الكنبة ، فأنزاح لها ملتصقا بنوسة التى تسلمت منها الصينية : ماحدش بيفكر كده يابنى

ـ محروق ياست بدرية .. كل حاجة ضاعت منى بسبب واحد مالوش لزمة أصلا فى الدنيا .

ـ ماحدش ضربك على أيدك .. فى حد عاقل يدخل شمام فى زوارقه ..أنت اللى عملت كده فى نفسك .. أشرب بقى . ضغط بشفتيه على سيجارته ساحبا منها أنفاسا متلاحقة كى تشغله عن أحساس الندم الطافح فى وجهه . ناولته نوسة كوب الشاى كما ناولت أمها واحدا فى اللحظة التى قالت : سيبك من سليم بتاعك ده وشوف حتعمل أيه ؟ قالتها بتأنيب .

ـ أمى كلامها صح يامنصور شيل الوله ده من دماغك وفكر بالراحة . رددتها بحماسة أنثوية أمام فتور ذكورى : بصراحة أنا مش قادر أفكر ولا عارف حتى حأعمل أيه .. دماغى وقفت خلاص . أندهشت نوسة من ضعفه وعيونها على أمها التى رجعت برأسها للوراء موجهة كلامها الى المستسلم المحصور بينهما : أسمعنى كويس يامنصور وأفهم اللى حأقوله . أنصت بأهتمام بعد رشفة . تابعت : من يوم ماشفتك يابنى وأنت عمال تفكر وتخطط وتدبر .. مافيش مرة عملت حاجة وجابت نتيجة صح وفلحت حتى لما أمك رضت عنك وبدأت تمسكك شغلها كان قضاء وقدر مش ذكاوة منك ولاشطارة .. نفحة كده من عند ربنا . أعترض مستنكرا : عايزة تقولى أيه يعنى ؟ .

ـ أنا والبت دى مالناش حد فى الدنيا وقاعدين فى كرموز لحد دلوقتى عشان خاطرك أنت .. يعنى أحنا الجوز متعلقين فى رقبتك وبقى اللى يضرك يضرنا واللى يفرحك يفرحنا ماعدش لنا حد يامنصور غيرك بعد ربنا . نظرت اليها نوسة من فوق كتفه بأستغراب : ماتنورينى ياما .. ورا كلامك ده أيه ؟ .

ـ وراه يابت بطنى أن قطمه أحسن من نحته وياصابت ياخابت .

ـ ماتفهمينى أيه اللى فى دماغك ؟ أهتزت فى جلستها كما أهتزت الكنبة : اللى فى دماغى يانور عينى أنك خدت فرصتك كاملة والنتيجة أهيه باينة لاتسر عدو ولاحبيب ولو لسه يامنصور عايز نوسة سيبنى أنا المرة دى أتصرف .. أنتفض فى كرسيه : تصرفى حتعملى أيه يعنى ؟ .

ـ ماتسألنيش .. سيبنى أنا أمشيها بدماغى .. مش حتخسر يابنى أكتر من اللى خسرته . حشرته جملتها فى زاوية الصمت بينما شعرت نوسة بالحيرة من كلام أمها التى فوجئت به دون أدنى تنسيق مسبق . زحزحت بدرية نفسها من على الكنبة حتى وقفت أمامه : عندك أعتراض على أنا قلته ؟ نبرتها كانت أقرب للتهديد ، بينما لم يملك سوى التسليم بوجهة نظرها . ثم زحفت بشبشبها خارجة من الصالة إلى المطبخ تاركة شعور بالتوهان يموج فى فراغ الصالة قبل أن تبدده نوسه : ماتيجى جنبى هناياأبو

حجاج . قام ككهل فى أيامه الأخيرة .. مكث بجوارها دون أن ينبس بكلمة واحدة .. ارادت ان تعيد له النطق ، لفت ذراعها حول كتفه : ماتفك سحنتك دى بقى .. امى خلاص حتتصرف . تنهد : ربنا يستر

ـ حيستر . قالتها بدلع وهى تدغدغ كتفه بصدرها .. أنتظرت منه أن يعبث فيها ، إلا أنه لم يستطع تجاوز هواجسه ، فتخلى عن صدرها عندما أرخى كتفيه !!

00000000000

بعد ثلاث ساعات ..

عادت نورا الى البيت .. دخلت بوجه وردى وأبتسامة ثابتة لاتفارق شفتيها ، وفى رقبتها سلسلة فضة فى نهايتها حرفان " S.N"وعلى كتفها " دبدوب " أبيض .. أرتبكت وهى توصد الباب خلفها حين لمحت حجرة الأنتريه مضاءة ، وعلى كنبتها الكبيرة تربعت نعمة بجلبابها الأسود المعتاد كضاربى الودع وعلى يمينها أيات التى عدلت من وضعية رأسها وصوبت بوصلتها ناحية الباب تستطلع الوجه المبتسم ، بينما قامت إليها بسمة مهرولة .. حبست نورا الأبتسامة وشعور بعدم الأرتياح يلازمها من مشهد الثلاثى .. قابلتها فى منتصف الصالة تسأل : كنتى فين لحد دلوقتى يانورا وموبايلك مقفول ؟ .

ـ كنت مع شريف . قالت أسمه بحرج متصنعة السذاجة .

ـ مع شريف . كررته بأستغراب وعدم تصديق .. فى حين مالت أيات برأسها على كتف قرينتها عند سماعها الأسم ، وشيح أبتسامة مائلة بجانب الفم : واللى يخرج مع شريف مش يقول ولا يسيب الدنيا كده سايحة على بعضها . ثم رمتها بنظرة أشعرتها بالحرج قبل أن تزيدها أختها من الشعربيتا : مدام زيزيت قلبت عليكى الدنيا .. كانت أخر قلق وتوتر وفاضلها همسة وتنزل أسمك فى كشوف المفقودين . جملتها كان لها أثر أيجابى على نعمة التى أهتز هيكلها العظمى على أثر ضحكة متقطعة لاتخلو من مكر العجائز : وهو اللى يخرج مع شريف يبقى مفقود برضه .. ده يبقى مولود وأمه داعياله ..

صدقت نعمة فى مقولتها .. أستردت نورا اليوم وعيها ، كما أستعادت ذاكرة الحب بكل تفاصيلها .. نشطت على لسانها كلمات كانت تحسبها فى عداد الراحلين .. شريف هو كلمة السر .. على يديه تخلى عنها التوتر والشد العصبى .. أحتواها اليوم كما أحتوتها الثلاث ساعات التى فقدت فيهم الأحساس

بالزمن وتخلت طواعية عن كل المهام والمسئوليات رافعة شعار " طز " الذى رددته مرتين متناسية حساب الكلمات والأفعال حين نبهها شريف فى المرة الأولى : حتتأخرى على شغل الأتيليه ؟ .. طز ! .

ـ طب أفتحى موبايلك عشان ماحدش يقلق عليكى .

ـ طز ! نست معه الرصانة والتكلف كما نسى على يديها فكرة السفر لأمريكا حين أطلقت تهديدها بصوت عالى دون مراعاة لبروتوكول كافتيريا " ديليت " الهادئة بقلب " سموحة " التى أستضافت جلستهما .. وعلى مرأى ومسمع من طبقين " بيتزا " كان يفصلان بينهما . قالت بعصبية : ورحمة بابا ما أنا واكلة ولاشاربة ولاحاطة حاجة فى بؤى إلا لما تشيل حكاية السفر دى من دماغك . أحمر وجهه حين أتجهت اليه رؤوس الزبائن .. نظر إليها كما نظر الجميع وهى لازالت على أنفعالها .. وضع كفا على وجهه وأخذ نفسا عميقا وسط حالة من الترقب شارك فيها كل المتطفلين : ماشى يانورا .. مافيش سفر .

ـ أحلف .

ـ من غير مأحلف .. ده أنا لو جالى أوباما بنفسه وقالى أمريكا كلها مستنياك حأقوله لأ .. ماأقدرش أبعد عن نورا . أبتسمت كما أبتسم كل من شاركهم اللحظة .. إلتهما الـ " بيتزا " وخرجا .

أخيرا أسدل الستار عن فترة مشحونة بالتحفظ والتوتر .. دار بها فى منطقة سموحة ودار معهما الوقت .. أراد أن يلفت أنتباهها : أنتى عارفة الساعة بقت كام دلوقتى ؟.

ـ مش عايزةأعرف . قالتها وهى تتشبث فى ذراعه امام فاترينة لعب أطفال ، وعينيها مشدودة إلى " دبدوب " أبيض تعلقت به كطفلة بريئة . غادرها العقل الى فوضى مجنونة حين أصرت على الدخول .. طوق ظهرها بذراعه وقادها للداخل .. عاشت لحظة رومانسية خاصة وهى تداعب الدبدوب بينما شريف الى جوارها لايملك سوى أبتسامة مندهشة وعينين مسبلتين .. أستفز منظرهما البائعة " العانس " التى أنهت اجراءات البيع والشراء فى ثوان . خرجا كعصفورين بصحبة ثالث الذى أعتلى كتفها .. فى طريقهما لزيارة محل جيلاتى " صابر " بمنطقة الأبراهيمية تصادف وجود محل للفضيات أثار حفيظتها وسحبها لأمنية قديمة حان الأن وقت تحقيقها .. دفعته للداخل ولم تجبه : حندخل نعمل أيه جوه ؟ مكثا لربع ساعة قبل أن يخرجا منه وفى رقبتها السلسلة والحرفين ، بينما شريف أصبعه مطوق بدبلة محفورعليها أسمها .

تحاشت " نورا " نظراتهم التى تخفى وراءها سرا وأتجهت ناحية غرفتها قبل أن تستوقفها بسمة التى تسير خلفها : من نص ساعة فيه واحد جه هنا وسأل عن ماما وكان عايزها ضرورى . أستدارت نحوها تحرسها الدهشة : واحد .. واحد مين ؟! .

ـ مش عارفة .. مارضيش يقول على أسمه ولاعايزها فى أيه .. حاولت كتير معاه أنا ويوسف عشان نفهم منه أى حاجة مارضاش أبدا . تلفتت مولية وجهها شطر غرفته : يوسف فين ؟ .

ـ خد الراجل ده وراح عند ماما . قالتها ببساطة منقطعة النظير فى حين بدت نورا التى أتسعت عينيها غير مصدقة ماسمعته فأنقلب هدوءها هياجا : ليه .. راجل غريب وماحدش يعرفه .. بالسذاجة دى أخوكى يخرج معاه وكمان ياخده لغاية مكان ماما .. أيه الهبل ده . حاولت كبت ماتجمع داخل رأسها حين نادتها عمتها بصوت لايتناسب مع هيجان اللحظة : الموضوع مش كده يانورا .. مشت إليها عاقدة وجهها بعلامة استفهام : فهمينى ياعمتى .

ـ أولا اللى جه هنا شاب صغير وباين على ملامحه انه أبن ناس وطريقة كلامه بتقول أنه فى أزمة ومحتاج يتكلم مع مامتك . أنتزعت من سخطها أبتسامة : تفرق أيه يعنى صغير ولاكبير .. ماكانش ينفع يوسف يخرج معاه .. أحنا عارفين ده مين ولا وراه أيه ؟! .

ـ أحنا أتصلنا بيكى كتير يانورا عشان نسألك .. موبايلك مقفول وبعدين يوسف ماتصرفش من دماغه غير لما أتصل بهدى وخلى الشاب ده يكلمها . قاطعتها بلهفة : وهى عرفته ؟ تولت بسمة الأجابة : ماعرفتهوش بس هو ياعينى أتحايل عليها كتير وبقى يقولها أرجوكى أنا عايز أقابلك ضرورى فيه موضوع مهم جدا ويخصك . بهت اللون الوردى كأنما جفت الدماء فى بشرتها .. أنتظرت للحظات قبل أن تسأل : وماما ماجتش تقابله هنا ليه وسطينا ؟ .

ـ ده اللى كان حيحصل ووافقت وقالتله قدامى ساعة وأكون عندك . سكتت ثم عادت ترفع كتفيها بأستغراب : ماعرفش أيه اللى حصل رجعت فى كلامها .. تقريبا الست اللى أسمها فايزة أقنعتها تبقى المقابلة عندها .

ـ وأنتى عرفتى أزاى ؟ .

ـ ماما سابته على التليفون بتاع دقيقتين تلاتة .. أكيد أتشاورت معاها . أجابة مختصرة . لم تكن كافية لسد باب الأستجوابات ! تغلغل فيها الشك .. مضت ملامح السعادة التى دخلت بها إلى حال سبيلها .. سكنها القلق وشغلها التفكير .. مارست عادتها العفوية حين قطعت الصالة ذهابا وايابا عدة مرات قبل أن تتوقف أمامهم تطرح على نفسها سؤالا بصوت مسموع : مين الراجل ده .. ويعرف ماما منين أصلا وهى بقالها سنين مش موجودة ؟ .

ـ مش يمكن يكون واحد من قرايبها اللى فى طنطا . كان أحتمالا رددته نعمة بنفس مقطوع قبل أن تستبعده أيات بنبرة حاسمة : قرايبها أيه وطنطة أيه أنتى كمان .. هدى طول عمرها مقطوعة من شجرة من ساعة ماعمتها ومامتها ماتوفوا .

لم تشأ نورا أن تقحم نفسها فى جدل عقيم .. مدت يدها داخل حقيبتها وسحبت الموبايل .داهمها سيل من الرسائل بمجرد أن فتحته ... مكالمات لاحصر لها من زيزيت ومن يوسف وبسمة وأيات ، كلها أنطلقت فى وجهها .. أستندت على سور الكنبة حين أجرت أتصالا وسط رقابة مشددة من الثلاثى المتأهب لقنص أى شاردة أو واردة .. بدت متوترة وهى تنصت لرنين موبايل يوسف الذى تأخر فى الرد قبل أن تباغته بفزع : أنت فين يايوسف ؟ .

ـ أنا رايح لماما .

ـ ومين اللى معاك ده ؟ .

ـ واللـه ماعرف يانورا .

ـ طب ماتسأله ياأخى . قالتها بعصبية وأستغراب . الا أنه بدا متحفظا فى ردوده حيث المسافة بينه وبين الرجل لاتسمح بالتوضيح : ع العموم أحنا قربنا خلاص على البيت ودقايق وحنفهم كل حاجة .. هدأت نبرتها وأستسلمت : ماشى يايوسف بس خلينى معاك فى الصورة أول ماتفهم الحكاية .. سلام . شردت ببصرها .. بدت ساهمة حين مالت برأسها على رأس الـ " دبدوب " الذى لم يبرح كتفها .. تنتزعها الأسئلة من حضن اللحظة السعيدة التى نالتها اليوم على يد شريف . قامت ببطء ومرت أمامهم قبل أن تمتد لها يد نعمة التى جذبتها من طرف التيشرت : هاتى ياختى اللى أنتى شايلاه على قلبك ده . التفتت اليها بدهشة وكأنما فوجئت بوجوده على كتفها .. شعرت بالخجل ثم ناولته لنعمة التى تسلمته

منها بحرص مبالغ فيه كأنه طفل رضيع : بسم اللـه الرحمن الرحيم .. ياختى جميلة ياختى ! مشهد أستفز أيات التى رفعت حاجبيها : أنتى خيبتى يانعمه .. هى ناولتك أبنها ولا أيه؟!

ـ بدرب نفسى ياست أيات .

بوجه مكتوم كرغيف مدعم ، ورأس يكاد ينفجر ، أنضمت نورا للثلاثى منشغلة بالبحث فى قضية الضيف المجهول الذى جاء فجأة ورحل فجأة بصحبة أخوها دون أبداء أسباب .. الوساوس تكاد تذبحها.

00000000000000

فى تلك الأثناء كانت هدى تهب بصدرها من سور الشرفة المطلة على حارة " المنجى " تزاحمها فايزة برأسها ، تتابعان بلهفة وصول السيارة الـ " 128 " التى تحمل فى بطنها يوسف والضيف المجهول .. تسللت بنظراتها من خلال بيوت الحارة الضيقة التى حجبت الرؤية عن القادم من أول الناصية .. أنتفضت فى وقفتها وباعدت حبال الغسيل التى تزاولها حين لمحت جانب من السيارة التى تهادت ببطء قبل أن تقف بجوار المنزل .. هبطا الأثنان .. تعرفت على يوسف من ظهره بينما لم تتعرف على الأخر .. ترجلا حتى أجتازا المدخل .. تسربت هدى للداخل وفى ذيلها فايزة كظلها .. فتحت باب الشقة وانتظرت على رأس السلم .. بدت غير مستقرة فى وقفتها .. أجتاحها التوتر كلما أقترب صوت أقدامهما

ظهر لها رأس يوسف مع دوران السلم .. لحظات قليلة وكان يفصله عنها ست درجات .. رفع لها عينيه قبل درجتين بينما نظراتها تجاوزته الى الطالع خلفه ، ذلك الكائن الذى يعب نفسه فى جلباب أبيض من فوق سروال من نفس اللون ، يحمل سحنة تنسبه للأخوان أو ربما للسلفيين . فى مقدمة رأسه صلعة خفيفة زادت لمعانا تحت أضاءة السلم ، كما منحته لحيته الكثيفة شيئا من الجدية . وصل يوسف فأستقبلته أمه بقبلتين سريعتين وملامح ملخومة فى الذى يهتف خلفه : السلام عليكو ورحمة اللـه .

ـ وعليكو السلام . قالتها بنبرة أكلتها الحيرة عندما عاينت ملامحه . لم يصافحها ودخل كما يقول الشرع فى حين سبقه يوسف الى الصالة بصحبة فايزة . أوصدت هدى الباب خلفها تقودها نظرات

فضولية اليه .. جلس الجميع فى توقيت واحد بينما أنسحب الضيف بنظراته للارض مبتسما كأنما يعد نفسه لبداية مقبولة.. لم تصبر عليه فايزة : أهلا وسهلا.. خير يأستاذ ؟ .

ـ أهلا بيكى ياست . قالها وعينيه فى الأرض قبل أن يقرر رفعهما فى وجه هدى : حضرتك طبعا مش عارفانى ؟ ضاقت عبينيها تدقق فى وجهه وقد أبتلعتها أحاسيس طارئة من الوجوم والحيرة : مش واخدة بالى واللـه . أهتزت لحيته حين نطق : أنا شهاب .. بهتت للحظات ، فقدت خلالها بوصلة التفكير : شهاب مين ؟ مال بصدره للأمام : شهاب نسيم الشرقاوى . كانت لحظة كأنها ساعة أو يوم ، لكنها لحظة مشحونة بمئات الأنفعالات المتناقضة . أعتقل لسانها ثقل . لم تستطع النطق ، حاولت ، فشلت . أرتعدت كل خلاياها ودارت فى رأسها الظنون . كان حوارا صامتا يدور بينها وبينه . تحققت فيه بعينيها المندهشة ، كان يحمل الكثير من ملامح والده بعيونه وذقنه المدببة . أرتجت أعضاء يوسف على كرسيه حين سمع الأسم فى حين أخذت ملامح فايزة وضعية الأستعداد لصد أى هجوم محتمل .. هبطت عليها عدوانية وشراسة تنتظر ضغطة زر ! .

هدى علت الدهشة وجهها .. كانت دهشة ممزوجة بالتوجس ، تملكها شعورا بأن شيئا ما سيحدث ويستوجب الحذر . صمت شهاب يراقب الأرتباك بعد أن كشف عن هويته وكأنه يستعيد ذكرى شيىء هام . بدا قلقا كما لو كان يريد أن يفعل شيئا . لم يكن من السهل أستمرار الصمت الذى قطعته هدى بخوف : أى خدمة ؟ .

ـ لما شفت حضرتك دلوقتى بدأت الذاكرة تسعفنى .. زرتينا كذا مرة مع زوجك اللـه يرحمه .. عمو نديم .. بابا اللـه يرحمه كان بيحبه أوى . أحست من نظرته أنه يريد أن يستحضر الماضى .. حتما سيصرخ فى وجهها .. سيهاجمها ويقذف بكلمات كالحجارة .. أحست بعينيه فوهات بنادق مسددة إلى رأسها . تابع حديثه محاولا لملمة كلماته : حضرتك طبعا بتسألى نفسك أيه سبب الزيارة دى ؟ حاول يوسف أظهار خشونة لردع أى عدوان يداعب رأس الضيف : أكيد طبعا فيه سبب وسبب مهم كمان اللى يخليك تظهر فجأة وتبقى مصر على مقابلة والدتى .. يبقى أكيد فى حاجة ؟! قالها وأراد أن يصدر للمستمع أحساسا ، بأن أى فعل أحمق سيتم التصدى له بحسم .

ـ كلامك صح . ألقت عليه هدى نظرة فاحصة وسريعة.. حاولت أن تخمن مايدور فى رأسه : أسمع يابنى .. لو جاى تقلب الماضى وتنكش فيه فنصيحتى لك أنساه وشيله من دماغك عشان أحنا كلنا دفعنا فيه تمن غالى . رددتها بقوة دفاعا عن نفسها وبشحنة هائلة من مشاعر القوة والضعف وهى تنظر إليه

كأنما تدعوه لعدم الخوض فى تفاصيل الماضى الصعب . تأملها وهو لازال على طبيعته المتخشبة : بصراحة أنا جاى أتكلم فى الماضى .. سكت كى يبتلع ريقه ثم دار بنظراته فى الوجوه المتحفزة . تابع بهدوء : بس مش عشان أنكش فيه ولا أقلب المواجع .. أنا جاى عشان أدفنه خالص وأريح ضميرى ؟! حاولت أن تستشف مايقصده :وأيه المطلوب منى ؟ لم تكن عيناه منتبهتين . ظننته يفكر . كررت سؤالها : مطلوب منى أيه بالظبط ؟ طرحت السؤال وكادت تفقد أعصابها . بينما ظل هادئا . رتب بعض العبارات وتدافع صوته : مافيش حاجة مطلوبة منك .. المطلوب منى انا . بدات الوساوس تداعب صدر فايزة ، فلم تكن تنصت إلى لغته الهادئة بقدر ماكانت تفكر فى الخطوة القادمة وقت اللزوم .أستغرب يوسف كلامه : أنا لغاية دلوقتى مش فاهم أنت عايز أيه بالظبط ؟ .

ـ واللـه أنا ماعايز حاجة .. أنتو اللى عايزين ! .

ـ حنعوز منك أيه أن شاء اللـه . قالها يوسف متذمرا .. أجاب شهاب وهويخفى المرارة داخله: المرحوم نديم له حق عند بابا اللـه يرحمه وأنا عارف أن حضرتك ماخدتيش منه ولاجنيه واحد .. أمى اللـه يرحمها فهمتنى كل حاجة..وأنا النهاردة جاى عشان أبرىء ذمتى قدام ربنا وقدامكم وأرجعلكم كل فلوس المرحوم .. ماقدرش أقبل جنيه واحد حرام !! .

علامات الأندهاش والأستغراب تسرح كالعدوى فى الوجوه التى تتابع بقية كلامه بعيون مفتوحة وأفواه فاغرة ، وكأن على رأسهم الطير : ماتستغربوش .. عمر الفلوس ماريحت حد ولاسعدت حد إلا بأمر اللـه .. لا تمد فى أعمار الناس ولابتشفع لهم فى يوم لاينفع فيه مال ولا بنون .. أبويا مات وكان عنده فلوس تسد عين الشمس .. لاحمته ولادافعت عنه لما جه قضاء اللـه .. أمى كمان دخل السرطان جسمها وماطلعش منها إلا مع روحها .. الفلوس ماخففتهاش ولاحتى رحمتها من الألم اللى ماكانش بيفارقها لحظة .. الفلوس ربنا بيبعتها عشان تبقى وسيلة تقربنا للخير . أشتعلت ملامح يوسف بالفرحة حين سمع أقواله .. لم يجد أفضل من تلك الجملة : اللـه يفتح عليك ياشهاب . قالها برعشة . بينما أغمضت فايزة عينيها وجرى الكلام على لسانها : سبحان اللـه .. سبحان اللـه .. صحيح يخلق من ضهر الفاسد عالم . سمعها وأشاح بعينيه مستنكرا .. فى حين ماتت الكلمات فوق لسان هدى قبل ميلادها .. جف حلقها ثم أنسالت دموعها حتى بللت شفتيها قبل أن تزيحها بأناملها المهتزة . عاشت لحظات بين مايجرى ، حولها ، دون أن تملك ذلك الوعى لتفسير الأشياء . عاود تفجير مفاجأته حين أخرج من جيب جلبابه ورقة صغيرة .. نظر فيها ثم نظر لها : حضرتك لكى عندى تلاتة مليون

وسبعماية وتمانين ألف جنيه .. دول حقك وحق ولادك . توقفت ساهمة عند جملة " حقك وحق ولادك" شعرت وكأن ماحدث لها خطأ عابر لم يدمر شيئا فى حياتها أو فى نفسها . نطقه المتأنى لقيمة الرقم أصاب يوسف بالدوار .. ترنح فى كرسيه وطالت حاجبيه رعشة كان لها صدى على شفتيه التى خرج من بينهما الكلام متقطعا : أنت فعلا بتتكلم جد ؟! .

ـ متهيألى يعنى مافيش حد أجبرنى أجى لغاية هنا وأقول الكلام ده .. أنا مش جاى لحد هنا يأستاذ يوسف عشان أوزع صدقات .. ده حقكم ولازم تاخدوه . قالها زاهدا وأنصت لفايزة التى فجرت فيها اللحظة حماسة مفاجئة : واللـه يابنى أنت تتوزن بالدهب .. أنت الولد الصالح اللى دعاؤه مقبول عند ربنا .. ياريت كان أبنى ربعك . أخجلته الكلمات : ربنا يكرمك ياحاجة .. ثم ألتفت لهدى : تحبى تستلمى فلوس المرحوم أزاى ؟ نظرت فى عينيه طويلا قبل أن تتماسك : مش عارفة ؟

ـ يعنى حضرتك عايزانى أجيبهم هنا ولاعندك حساب فى البنك . طرح أختياراته وأنتظر ردا لم يحصل عليه لا من هدى ولا من يوسف المصدومان . فتطوعت فايزة : أنت عارف يابنى اليومين دول مافيش أمان فى البلد .. بكره من النجمة حنفتح لها حساب فى بنك أسكندرية .

ـ صح ياطنط . قالها يوسف حين أسترد وعيه وسط غياب تام لهدى التى ظلت تردد بعفوية : اللـه يرحمك ياانديم .

حاول شهاب جذبها بعيدا عن سيرة الماضى : اللـه يرحم الجميع ويسامحهم .. المهم عندى أن كل حاجة تخلص بكرة عشان أنا مسافر بعد بكرة . سرحت بفكرها بعيدا حين سألته : هوأنت دلوقتى ماسك تجارة والدك ؟ .

ـ ده مش سفر شغل .. ثم ألتفت ليوسف بوجه مبتسم : عقبالك يايوسف . ألتقطت فايزة نهاية الجملة رافعة كفيها ناحية السقف : ونبى يارب أوعدنا وأكتبهالنا .. ثم مسحت بكفيها وجهها ونزلت بهما على صدرها فى لقطة ايمانية أستحسنها الضيف الذى توجهت اليه : ياريت تبقى تدعيلنا ياشيخ وأنت بتحسس بايدك على الكعبة الشريفة . نبرة ثلجية : ياست أنا مش رايح السعودية .. أنا رايح سوريا . طبعت الصدمة بصماتها فوق وجهها : سورية أيه يابنى .. دى الحرب دايرة هناك ومقطعين بعض ؟! .

ـ عشان كده أنا رايح أنضم لاخواتى المجاهدين ضد الطاغوت والرافضة . قالها وجسده كله ينتفض .. بينما السؤال الحائر فى عينيها : هى مين يابنى اللى رافضة ؟! تدخل يوسف محاولا أنهاء الموقف : ياست فايزة الرافضة يعنى الشيعة .

ـ آه.. قلتلى .. طب ربنا معاك ياخويا ! .

لم تلحظ هدى أثرا للماضى فى حديثه بينما ـ هى ـ كان ذهنها مشدودا الى الماضى ..كان صورة مناقضة لصورة والده . منذ ثلاث سنوات بدأت الفجوات تبرز فى أنحاء نفسه ، تعلقت حياة شهاب بوجود أمه التى رحلت منذ ذلك التاريخ . شعر بكيانه يتداعى متلاشيا مع كل ماكان يربطه بالحياة ، والناس ، والأشياء .. وكلما أستعاد رغباته ليعود من جديد ، أشفق على نفسه من التجربة بعد أن أحس بأستحالة الحياة مع الأحياء . نسى طقوس أيامه ، وقررالأستكانة داخل ذاته . أستعذب الألم بعد أعتياده .ظل وحيدا لفترة لم يقدر على أحصائها . قررفجأة الركض داخل دائرة الدين من خلال زاوية صغيرة على أطراف منطقة " كوم الدكة " بعد أن فك له شيخ الزاوية الكثير من الرموز التى جعلته مغيبا عن واقعه هائما فى ملكوت التشدد تظلله فتوى الجهاد ورفع راية الأسلام التى دائما ما يتطلب رفعها رفع أسم صاحبها من سجلات الدنيا !! .

عدل شهاب من وضعية جلبابه حين وقف مشددا على هدى كأنما يخلى مسئوليته : بكرة ان شاء اللـه عند بنك أسكندرية الساعة عشرة .

ـ ان شاء اللـه ياشهاب . رددت أسمه وهى تشعر فى قرارة نفسها أنها مذنبة ، على يدها أصبح يتيم الأب منذ طفولته . مشت بجواره حتى باب الشقة ، همست بصوت خافت دون أن تنظر اليه : ماكانش قصدى يابنى أحرمك من أبوك .. سامحنى . تحركت عضلات الألم فوق وجهه حين نظر لها طويلا .. أبتسامة ساخرة لخصت مايدور فى ذهنه وكأنه يقول لها : لن يتغير الماضى لآنه أصبح ماضيا ، ومن صنعوه مات منهم من مات .. الماضى لم يعد ملكا لنا ، لقد أنتقلت تبعاته إلى آخرين يصنعون الأن ماضيا آخر .

أستعادت نفسها من خلال نظرته مع آخر كلماته : سامحى أبويا وأدعيله بالرحمة . أعطاها ظهره مجتازا العتبة قبل أن تنادى فيه : أستنى ياشهاب .. يوسف حيوصلك . لبى الأخير النداء مدفوعا بشحنة شهامة منقطعة النظير مصطحبا مفجر الفرحة الى حيث يشاء .

ما أن رحلا حتى قفزت هدى للداخل تسبقها فرحة عارمة تضاعفت وتيرتها حين شاركتها فايزة .. فرح هيستيرى شهدته الصالة .. أرهقهما البكاء والضحك ..لم يكن " شهاب نسيم الشرقاوى " بالنسبة لهدى سوى طوق النجاة من قبضة حياة خانقة بين ماضيها وحاضرها . زالت عنها كل الكوابيس والمواجع وتفجرت فى البدن كل طاقة الحياة بكل عنادها وقدرتها على الصمود .

بعد مرور ساعة .. أستوعبت هدى المفاجأة وفكرت فى الخطوة التالية .. تمهلت وهى تسير بعقلها بمحازاة كل الأخطاء التى أرتكبتها ، تبحث عن أفكار جديدة حين سألتها فايزة : بعد ماحتوزعى على ولادك نصيبهم حتعملى أيه فى نصيبك ؟ .

ـ حنفكر سوا يافايزة أيه الصح اللى ممكن نعمله .

00000000000000

فى شقة هدى بدت الأجواء ضبابية مشحونة بالوجوم والحذر .. الأنباء الأولية التى وصلتهم عن هوية الضيف ومانوى فعله ، أصاب الجميع بصدمة عنيفة أفقدتهم الهدوء .. كان ذلك فوق أحتمالهم . تسارعت نبضات الفرح حين أدلى يوسف بأقواله أمام لفيف ضم كل من نورا وبسمة وأيات فى وجود نعمة بصفة مراقب .. حدقوا فيه بذهول .. لم ينبس أى منهم بكلمة واحدة .. حاولوا أن يستوعبوا الأمر بلا نقاش مكتفيين بالأنصات ليوسف الذى أهتز مع كل قسم : والله العظيم هو ده اللى حصل بالتفصيل وأنا عن نفسى مصدق كل كلمة قالها شهاب ده .. وع العموم كلها كام ساعة والحقيقة حتبان . بعد لحظات من الشرود ومراجعة بنود الحكاية الغريبة ؟، حاولت نورا فتح تحقيقا متواضعا لفهم الدوافع والملابسات : أشمعنى يعنى ماظهرش شهاب ده غير النهاردة. يعنى مثلا ضميره صحى فجأة ؟ لم تتلق أى أجابات .كل ماتحصلت عليه نظرات زائغة . فعادت تسأل : حد يصدق أن فيه بنى أدم فى الدنيا دى يرجع فلوس لواحدة قتلت أبوه ؟! طرحت سؤالها الأخير ثم رفعت رأسها تحدق فى السقف الذى شعرت به ينخفض فوق رأسها .. تنهدت طاردة كل أنفاسها وبها رغبة واحدة تحتل عينيها : فى حد فيكو يقدر يريحنى ويجاوبنى ؟ لم تسعفهم فراستهم فى تبين موقع الخلل فى نسيج الحكاية .. أجتاحهم الوجوم ، فأكتفت بتعليق حائر : مش عارفة .. حاسة كده أن فيه حاجة غامضة فى الموضوع ده .. الحكاية كلها من أولها لأخرها ماتدخلش دماغ عيل صغير . دفعت بسمة أيضا فى نفس الأتجاه : أنا معاكى يانورا ..

مافيش حد عاقل فى الزمن ده بيرجع ملايين لحد الا اذا كان مجنون أو .. مش عارفة !! تصاعدت التنهيدات وبدت نظراتهم عشوائية .. تقمص كل منهم دور المفتش " كولومبو " فى محاولة حثيثة لفك رموز اللغز . أستهجنت نعمة الجالسة على أرض الأنتريه حالة التشكك التى ضربت فرحتهم مبدية نشاطا أستثنائيا : هو أنتو متحرم عليكو تفرحو .. حرام يعنى حقكم يرجعلكم .. ده ربنا أسمه الحق ياولاد ودى حكمته أن الجدع ده يظهر دلوقتى .. ماتعترضوش بقى وتفضلو تعيدوا وتزيدوا .. سلموها للـه وصلو ع النبى كده وكل واحد فيكو يقوم يتوضا ويصلى ركعتين شكر لله . كلماتها البسيطة أراحت النفوس الحائرة . أنفعل معها يوسف الذى حاول أبعاد جو الظنون والمؤامرات بذكر بعض المعلومات : لو شهاب ده وراه حاجة غامضة ماكانش عطانى نمرته ولاخلانى أوصله لغاية بيته فى جليم . ده أنا بعينيه دول شفت البواب وهو جاى عليه وبيقوله السلام عليكو ياشيخ شهاب . أستمعوا له دون مقاطعة فى محاولة منهم لخلق توازن بين الممكن والمستحيل ، كى يتقبلوا ذلك العرض المنافى لسلوكيات هذا الزمن !

لم تهدأ التنبؤات حين تفرقوا لغرفهم فى ساعة متأخرة.. بالرغم من الشكوك والتخمينات الا أن طائفة من الأرقام ملأت رؤوسهم ، أنفجرت فى العقول عمليات حسابية مكثفة مابين طرح وقسمة ، الكل يحسب حسبته فى حدود الأية الشريفة " وللذكر مثل حظ الأنثيين " .

الفصل الثامن عشر

صباح اليوم التالى :

عند التاسعة والنصف وعلى بعد أمتار من مدخل بنك الأسكندرية بشارع صلاح سالم كان النونو قد أنهى سيجارته الثالثة وهومحبوس داخل التاكسى المتوقف من نصف ساعة على ناصية شارع يطل على واجهة البنك .. بينما هدى وفايزة فى المقعد الخلفى تراقبان من خلال الشباك وصول شهاب .

ـ أنتى متأكدة يامعلمة أنه لابس جلابية وبدقن . قالها وعيناه معلقتان على الطريق .

ـ أنت حمار ياوله .. دى رابع مرة أقولك آه .

مرت الدقائق على هدى بطيئة وقاسية .. ألتهبت رأسها من كثرة التخمينات .. جف حلقها من تلاوة قصار السور ، فى حين لم ينقطع لسان فايزة عن ذكر دعاء عودة الغائب : ربنا يسوقك ياشهاب يأبن .. ألتفتت اليها تسأل : طبعا ماتعرفيش أسم أمه .. لم تنصت لها وأستمرت فى التمتمة والهمهمة وسط فضول لايهدأ من النونو الذى يتلصص عليهما من خلال المرأة .. يكاد ينفجر .. أستنفذ كل محاولاته لفهم مايدور حوله قبل أن تردعه فايزة مع كل محاولة .

لم يكن التوتر قاصرا على الموجودين داخل التاكسى ، بل أمتد الى يوسف المرابض داخل السيارة الـ : "128" التى شغلت موقعا متقدما أمام البنك مباشرة .. لم ينقطع الأتصال عن تليفونه منذ لحظة خروجه من البيت تاركا خلفه غرفة عمليات مشتركة تترأسها نورا التى تتابعه لحظة بلحظة .. الجميع أستيقظ مبكرا ، أو ربما لم يناموا أصلا .. الكل يحبس أنفاسه .. الجميع على أطراف أصابعه .

مرت العاشرة من حوالى عشر دقائق تزامنا مع انتفاضة هدى على رنين موبايلها : أيوه يايوسف .. قالتها بلهفة قبل أن يأكلها الأحباط حين سألها : وبعدين ياماما .. الساعة بقت عشرة وعشرة .. أنتى شايفة أية ؟ .

ـ ماعرفش .. قالتها بلا حيلة .

ـ أتصلت بيه ست مرات لغاية دلوقتى .. جرس وماحدش بيرد . لم تعلق وتنهدت ..أغلق الخط .. دعكت عينيها ثم ألتفتت بنبرة يائسة : تفتكرى حبيجى يافايزة ؟هربت من السؤال الصعب دون أن تنظر إليها : ربنا يسهل .. أدينا مستنيين .

ـ الغايب حجته معاه ..ماتقلقوش . جملة أراد بها النونو جرهما لحديث قبل أن تصرخ فيه فايزة : خليك فى حالك ياخويا .. مش ناقصاك . نفذ الأمر وأشعل السيجارة السابعة .

غرقت هدى داخل احزانها محتجة على مايحدث حولها .. شعرت بأنها أصبحت لعبة فى يد آثمة .. حرب جديدة من نوع جديد تشن عليها .. حرب تصيب ولاتقتل .. عدتها وعتادها الأمل الكاذب والفرحة المزيفة ووهم الأنتصار ! .

بعد خمس دقائق تلقى يوسف اتصالا مقتضبا من شهاب الذى ابلغه أنه على أسفلت شارع " فؤاد " متجها لشارع صلاح سالم منهيا المكالمة : أسف جدا على التأخير .. رفع بعدها يوسف رأسه لأعلى

ملتقطا أنفاسه كأنما نجا من موت محقق وظل يردد : أشهد أن لا اله الا اللـه .. قالها ثلاثا ثم أجرى مكالمتين فى غضون ثلاثين ثانية بأمه ونورا ، طمأنهما وصوته يكاد يبكى .. عادت الحياة مرة أخرى للآبدان التى كادت أن تفقد الأمل .. لازالت لعبة القدر لم تنتهى .

من موقعه ظل يوسف يراقب الطريق قبل أن تنتفض حواسه وتتهيأ نظراته لأستقبال شيىء ما ، لمح من المرأة الجانبية سيارة " شيروكى " سوداء تنحاز لليمين ، أبطأ قائدها وهو يتهادى فى حذا السيارات الواقفة .. أنفرجت أساريره حين توقفت السيارة بجواره على خط واحد .. أنفتح زجاج الشباك أتوماتيكيا ، لتظهر صلعة شهاب مشيرا ليوسف الذى أبتسم له وهز رأسه فى تحية صامتة .. تحرك بعدها ببطء يتبع سيارته ولسانه يكرر : ياماأنت كريم يارب .. توقف خلفه بعدما قطع الشارع عرضيا ثم هبطا تباعا فى اللحظة التى تعالت فيها صرخات النونو الذى يلعب دور " الناضورجى " آهوه يامعلمة .. واحد بدقن وجلابية . دارت عينيها بدعم من هدى التى لمحت شهاب يترجل بحقيبة سوداء يتبعه يوسف الذى يتلفت خلفه بحثا عن أمه التى تحرك بها النونو قاطعا المسافة فى سرعة البرق حتى بلغهما وتوقف . هبطت فايزة تلتها هدى التىأستقبلها شهاب بوجه بشوش قبل أن يدنو منها يوسف معلقا ذراعه فى ذراعها .. تحرك الرباعى يتصدرهم شهاب بحقيبته التى لاتنسجم مع جلبابه القصير الذى جرح وقار البنك حين اجتاز المدخل ومن خلفه الباقين يتأملون المكان .. أستقبلتهم البوابة الآلكترونية التى مروا منها قبل أن يستوقفه موظف الاستعلامات : سحب ولا ايداع ؟

ـ ايداع ان شاء اللـه .. أبتسم ومرر لـه ورقةصغيرةعليها رقم " 11 " وهو ترتيبه بين المودعين ، فى حين أستفسر يوسف حين انزاح شهاب : واللى عايز يفتح حساب حضرتك ؟ .

ـ تالت شباك على يمينك . عاجلته فايزة حين تشكك فيها : أنا معاهم ! .

ـ أتفضلى يافندم .

دخلوملتفين حول بعضهم .. أبتلعهم زحام البنك .. حرص يوسف على أن يكون شهاب تحت السيطرة والحصار .. لازمه كتف بكتف كأنما يخشى هروبه . الدقائق تمر والكل يبحث عن نهاية سعيدة وسريعة لمشهد انفعالى أصاب الأعصاب بالتلف منذ الأمس .

بدت هدى كالعصفورة تطير بين شبابيك البنك قبل ان تحط امام كل موظف لبضع دقائق وإلى جوارها يوسف كمتحدث رسمى نيابة عنها ومن خلفهما فايزة كعنصر تأمين تحوط شهاب الذى أنتظر أشارة من

يوسف أتته بعد عشر دقائق وتعنى " تقدم " .. أطاع الأمرودخل من بينهما حين انزاحا .. رفع الحقيبة على الـ " كونتر " ثم فتحها على مصراعيها وبدأ فى أخراج " الرزم " تباعا حتى اصطفت الملايين صفوفا صغيرة ، يشد منها موظف الايداع الواحدة تلو الاخرى ويسوقها الى ماكينة العد التى لم تألوا جهدا فى أثبات قيمة المبلغ " ثلاثة ملايين وسبعمائة وثمانون الف جنيه " .. تمام .. مظبوط . قالها الموظف وتغنت بها القلوب .. كلمتان شافيتان للصدور .

أختلف مشهد الخروج عنه فى الدخول .. وجوه لامعة بالفرحة وأبتسامات لاتنقطع ، وشعور مفعم بالنجاح ونظرة متحدية سددتها هدى للنهار الذى باغتها حين خرجت من باب البنك الكبير .. رافقها ذلك الشعور بأنها اليوم أستعادت كرامتها المهدرة .. وسام التضحية من الطبقة الاولى نالته اليوم على يد الزمن الذى لم يخذلها كعادته .. تعويض مناسب فى الوقت المناسب جادت به الأقدار .

أنحرف شهاب بعيدا عنهم بضع أمتار بعد أن كسر الحصار المضروب حوله منذ لحظة وصوله .. لمحته هدى بنظرة ركنية وهو يتجه لسيارته . نادته ثم هرولت إليه حين ألتفت .. أنتظرها وهو يطرف عينيه التى تغزوها الشمس .. تحررت من كل الضغوط والمخاوف حين وقفت أمامه : كتر خيرك ياشهاب .. اللى أنت عملته النهاردة صعب أوى حد يعمله فى الزمن ده .

ـ الحمد للـه أنا وفيت الدين اللى فى رقبتى قدام ربنا وقدامك . تأملته طويلا ولم تنطق .. شعر بالقلق من نظرتها : ناقص حاجة تانية أقدر أعملها ؟! ضاقت عينيها ثم سحبته من رسغه ومشت به خطوات حتى انتحت به خلف كشك الحراسة المجاور للبنك وسط اندهاشه واستغراب فايزة ويوسف اللذان يتابعان مايحدث عن كثب : يعلم ربنا انى من ساعة ماشفتك امبارح وقلبى أتفتحلك .. عارفة أد أيه الأنسان بيعانى فى الدنيا لما فجأة بيلاقى نفسه لوحده .. مافيش أب ولا أم ولا حتى عزوة .. أحساس فظيع أنا جربته وعشته كتير .. مش حأقدر أقولك أعتبرنى زى والدتك عشان عارفة أنها حتكون صعبة عليك .. مع أنى واللـه بأعتبرك زى يوسف وده اللى حيخلينى أتجرأ وأحشر نفسى فى ظروفك وأسألك سؤال واحد . أنصت متوجسا . فأستأنفت : تفتكر لو كان والدك ووالدتك موجودين كانوا حيسمحولك بحكاية السفر لسوريا . سألته وأنتظرت ردا : أكيد لأ . قالها بصوت خجول .

ـ مش حأقولك اللى أنت ناوى عليه ده صح ولا غلط بس اللى أقدر أقوله .. خليك راجل وماتهربش .. بلدك أولى بيك جاهد هنا .. هو مش ربنا قال الجهاد بالمال والنفس .. طب انت ربنا رزقك بالمال جاهد بيه كبره وزوده وأصرفه فى الخير .. ساعد بيه الغلابة أفتح لهم شغل وخليهم يرزقوا عشان ياكلوا

ويشربوا ويدعولك ويدعو لابوك ولامك وساعتها جهادك حيبقى له فايدة وكمان حتبقى أحسن صدقة جارية عملتها لأهلك تنفعهم فى أخرتهم .. حملت ملامحه تضاريس غريبة لم تستطع قراءتها .. بنظرات غير مستقرة صدرت عنه تنهيدة . فبادرته : خليك فى المضمون يابنى ! ثم ربتت على صدره قبل أن تجذبه من كتفه حتى طالته ثم قبلته من خديه وهو لازال على وقفته مذهولا ! .

أقتربت منها فايزة حين تركته : فى أيه تانى ياهدى ؟ .

ـ مافيش حاجة كنت بأشكره .

ـ فاتتنى دى ياماما .. قالها يوسف وهو يضغط على يدها : ياله بينا عشان أوصلك ع البيت .

ـ لأ مش حينفع دلوقتى . جملة تدخلت بها فايزة أثارت حنقه فأشاح بوجهه معترضا : خلاص ياماما كل حاجة انتهت وربنا كرمنا من وسع . جاهدت معه حتى أقتنع بوجهة نظرها : فيه كام حاجة حأخلصها مع فايزة وبالليل حأكون عندكو عشان نحط النقط على الحروف وكل واحد فيكو يعرف حقه . تعللت بتلك الحجة لكسب الوقت لمراجعة الوضع من كل الزوايا بعدما أنقلب المشهد رأسا على عقب. احترم رغبتهما ورحل ولم يشأ أفتعال أزمة . غادرهما متجها نحو سيارته يخطو بخطوات تليق بصاحب مال ، بينما أصطحبت فايزة رفيقتها ناحية التاكسى .. أستقبلهما النونوالذى أستند بمؤخرته على الرفرف الشمال : حمد للـه على السلامة .

ـ أحنا طالعين من المطار ياروح أمك . أبتسامة سمجة وزعها عليهما قبل أن يدلفوا جميعا إلى الداخل .

أنحشرت هدى فى ركن المقعد وهى تحاول مدارة الفرح الذى انفجر داخلها بأبتسامة ظلت معلقة على شفتيها ، وفى حوزتها ورقة عليها رقم حساب متخم بالملايين أنشغلت بها وظلت تقلبها بين يديها وتعيد قراءتها اكثر من مرة فى سرها بنبرات مختلفة وكأنها " عدية ياسين " .. أستهواها شكل الرقم وضخامته .. لحظة فارقة ، بل لحظة تاريخية .. هى ماتمر به الأن .. عليها أن تجتاز المسافة الشاسعة بين ماكان وماسيكون ؟! .

تحرك النونو بالتاكسى راجعا من نفس الطريق الذى سلكه فى الذهاب ، تقاطيعه الأرنبية تكاد تنفصل عن عظام وجهه حين تمددت من خلال المرأة يتابع المرأتين .. أعيته التخمينات ووصلت به إلى طريق

مسدود .. أحتار فى وجه هدى الذى يتبدل كل فترة .. تضربها الفرحة فيستقر داخله برهانا أكيدا أنها نالت من البنك مايستحق سعادتها قبل أن تخذله لاحقا بملامح تعصف بها الحيرة ، مثلما هى فيه الأن ..

بين لحظة وأخرى تنتظر هدى البت بمصير وعيها .. هل مازالت نائمة فى حلم ؟ كاد يشغلها السؤال قبل أن تحسمه بعينيها حين جرت بنظراتها لـ " أفا " النونو الذى يدندن مع المطرب" عبد الباسط حمودة " سألت فايزة حين ألتفتت اليها : أنتى مصدقة كل اللى بيحصل ده ؟ وكأنما تختبر واقعها . ظل السؤال معلقا حتى أجابت بصوت هامس على غير العادة : أشمعنى يعنى صدقتى أن أقرب الناس لكى باعوكى وعايروكى وعايزين يخلصو منك بجوازة .. ياحبيبتى صدقى أى حاجة تحصل فى الزمن ده زى ماأنا صدقت أن أبنى الوحيد كان عايز يخلص منى ويلبسنى جناية .. قالتها وهزت رأسها فى مرارة ثم مالت برأسها ناحية أذنها وأودعت فيها مالاتريد أن يسمعه النونو : ربنا أنعم عليكى بخيره وعوضك عن اللى ضاع من عمرك فى السجن . أستغرقتها الكلمات ، غير أنها لم تخرجها من قلب السؤال :أنا صاحية ولا نايمة ؟ قبل أن يستغرقها العبث ويأخذ مداه فيخلط الواقع بالسراب ، ويتداخل فى ذهنها ماكانت عليه ومـاأصبحت فيه .. جاءها الجواب برنين موبايلها اللحوح الذى لم تنقطع صرخاته ، أستهلت نورا اول المكالمات ثم بسمة وأيات وزيزيت .. كلها تنطق بديباجة واحدة تدور فى مساحة ضيقة لاتزيد عن التبريكات والتهانى وعبارات كلاسيكية قديمة من نوعية : المال الحلال عمره مايضيع أبدا .. الحمد للـه حقنا رجعلنا لغاية عندنا .. بابا دلوقتى حينام فى قبره مرتاح .. اخيرا بقيتى ياهدى صاحبة الكلمة الأولى والاخيرة فى البيت . ملاحظة ابدتها زيزيت قابلتها هدى بوجوم وبنبرة متحفظة تحمل فى طياتها خيبة أمل من أنسانة تخلت عنها فى أشد اوقاتها ضعفا .. ثم أختتمت نعمة سيل المكالمات معلنة بكل جرأة عن مطلبها الوحيد : ماتنسنيش فى عمرة ياست هدى . قبل أن تبلغها الأخيرة بموافقتها كانت أيات قد خطفت منها الموبايل وصوت خناقة حامية تدور بينهما ، طالت شظاياها آذان هدى : هو أنتى فيكى حيل تروحى لغاية المطبخ لما عايزة تطلعى عمرة . بينما صوت نعمة المتشبث بالمطلب : خلاص أطلعى معايا ياست أيات ونتعكز على بعض أنا وأنتى .. لو عندى صحة كنت طلعت من زمان . أستمر الجدال بينهما لدقائق ولم ينصتا لصوت هدى التى نادت فيهما : خلاص يانعمة .. أهدى شوية ياأيات .. عشان خاطرى ماتزعلهاش وريحيها لغاية ماأجيلها بالليل .

ـ أريحها ازاى ولما تموت هناك يبقى كويس يعنى .

ـ ده يبقى كرم من عند ربنا . كانت صرخة أستغاثة من نعمة . أبتسمت هدى وأغلقت الموبايل : الأتنين دول مالهومش حل . ثم تابعت الطريق منوهة : قربنا على كرموز يافايزة . لم تتلق ردا أو تعقيبا فرمقتها .. وجدتها ساهمة ووجهها يحمل هموما !.. كانت فى تلك اللحظة تخطو فى منطقة حائرة .. يلازمها الفكر الذى قبض على ملامحها ..أستقر بها أحباط رهيب وهى تنقب داخلها عن اجابة تصلح للسؤال الكبير : هدى حتكمل معايا وحنفضل مع بعض ولاخلاص كل حاجة أتغيرت ؟ كل الأحتمالات مفتوحة .. لاتملك شيئا سوى الأنتظار .. انتظار يضعها تحت ضغط عصبى شديد ..عادتا للمنزل بعد أن القى بهما النونو على ناصية الحارة . مرت ربع ساعة على دخولهما قبل ان يمكثا فى الصالة وأمامهما كوبان من الشاى بناء على رغبة ملحة من هدى .. رشفات سريعة بايقاع منتظم مصحوبة بنظرات متأملة ناحية الأرض وسط صمت متبادل ، لم تشأ فايزة أن تقطعه تاركة لهدى الوقت الكافى لترتيب أفكارها وتدبير أمورها .. راقبت شرودها دون ان تتدخل أو تبدى رأيا .. أول مابدر منها حين أنهت أخر قطرة فى قاع الكوب : وشك حلو أوى على يافايزة . ضحكة عفوية صدرت عنها لم تكن فى حسبانها : أول حد فى الدنيا يقولى وشك حلو.

ـ مش وشك وبس ده قلبك وروحك .. أنتى نعمة من نعم ربنا بعتها لى فى الوقت المناسب . تعثرت ملامحها وأحمر بياض عينيها : ده انتى أختى ياهدى وسندى فى الدنيا . ثم بكت قبل ان تمنعها الاخيرة : مش وقت عياط دلوقتى خالص .. خلينا نفكر حنعمل أيه ؟ رمشت بعينيها تتأكد : نعمل أيه فى أيه ؟ .

ـ أيه اللى جرالك يافايزة أنتى نسيتى اللى أحنا أتفقنا عليه . تفتحت داخلها كل طاقات الأمل : بينى وبينك أنا قلت فى نفسى أكيد الفلوس حتغير كل حاجة وحتشقلب حالك وحتنسى اللى أتفقنا عليه . هزت رأسها نافية . لم تترك لنفسها هامشا للتفكير .. أستقرت على نفس الرأى : مافيش حاجة أتغيرت كل اللى أتفقنا عليه زى ماهوه .. مش حأنكر أن الفلوس جت فى وقتها وحتسهل حاجات كتير وأكيد حتفرق معايا أوى ومع ولادى وحتخلى كل واحد فيهم يفكر فى مستقبله من غير مايحط رقبته تحت رحمة حد .. قالت جملتها بارتياح فى حين لم تفارق المرارة ملامحها حين تابعت : لكن الفلوس يافايزة عمرها ماحتغير اللى فى دماغهم ولا حتى حتغير نظرة الناس .. حأفضل برضه أمهم اللى دخلت السجن .. حأفضل طول عمرى عار لازق فيهم يمشى وراهم فى كل حتة .. لا ينفع معاه هروب ولا تجمله فلوس .

ضاق حاجبيها حين قاطعتها : ايه السواد ده ..الناس لها الظاهر ياهدى .. والفلوس حتخلى لعيالك منظر وقيمة .. ماحدش دلوقتى فاضى يدور على الماضى .. كله بيجرى ورا مصلحته .

ـ متهيألك .. ساعة الجد الكل بيحسبها من تانى وانا بصراحة ماعنديش أستعداد ولادى يتجرحوا تانى بسببى ولا أنا مستعدة أتهان مرة تانية .. أنا اللى يهمنى دلوقتى أن كل واحد فيهم ياخد حقه من غير مساومة ولا أستعطاف .. مش عايزاهم ياخدوا فلوسهم وياخدونى معاها فوق البيعة . مطت شفتيها : كلامك معقول .. بس تفتكرى ولادك مش حيعترضوا على وجودك معايا ؟ واجهتها بشدة قبل أن تكمل : ما أنا موجودة معاكى بقالى أكتر من شهر .. كانوا عملوا أيه يعنى .. صدعوا دماغى بشوية مكالمات وزيارة يتيمة وبعدها خلاص الأمور هديت . صاغت جملة تحذيرية وهى ترخى جفنيها : كل وقت وله أدان والنهاردة غير أمبارح .. نتى دلوقتى صاحبة مال وهمه كمان بقى تحت أيديهم فلوس يعنى الوضع أختلف .

ـ بالعكس .. الفلوس اللى رجعت النهاردة خلتنى أقوى من الأول مليون مرة .. الفلوس دى معناها أنى كنت صح وماأتنازلتش عن حق جوزى ... الفلوس دى معناها أنى دخلت السجن مظلومة مش ظالمة .. النهاردة لما حأقابلهم بالليل حأثبت لهم أنى ست قوية مش ضعيفة .. أنا خرجت من بيتى يافايزة متهانة ومجروحة وكلهم باعونى .. النهاردة حأرجع لهم وراسى مرفوعة ومعايا حق ابوهم . قالتها بلهجة متشددة وملامح تفيض قسوة حين علت نبرتها : مستحيل أعيش تانى فى وسطيهم وأنا شايفة الخوف فى عينيهم من الناس .. مش عايزة وجودى يقلقهم ويتعبهم أكتر من كده .. مش عايزاهم يحسو أنهم أقل من أى حد . سكتت تلتقط أنفاسها وفايزة أمامها لا تملك سوى الآنصات .. أستطردت بعد لحظة هدوء : خلاص أنا قررت أكمل معاكى .. أنا وأنتى شبه بعض يافايزة حنعرف نعيش سوا .. طريقنا واحد حنمشيه مع بعض من غير مانضايق حد ولاحد يضايقنا ومن النهاردة حأبقى ضيفة خفيفة على ولادى لايشيلوا همى ولاهم الناس أنا وأنتى اولى ببعض احنا صحاب سوابق وماحدش عايزنا . أنتفضت فايزة مستنكرة : وكمان صحاب مال وجوز نسوان زى القمر .. بس أحنا ياختى اللى مش واخدين بالنا من نفسنا . لم تنل أى تعبير على مقولتها .. بدت هدى هائمة فى عالم أخر ، عالم حدوده ضيقة إلا أنها أجابت بنظرة تعنى " الرحيل ولكن !! " ترجمت المعنى على لسانها : أيه رأيك بعدما أرجع بالليل من عند ولادى نشوفلنا أى مكان نروح فيه .. ناخد كام يوم هدنة نبعد عن وجع الدماغ ونقعد نفكر بهدوء فى اللى جاى .

ـ أنا معاكى .. شوفى عايزة تروحى فين ؟ هممت وهرشت رأسها : مش عارفة يافايزة .

ـ أيه رأيك فى مطروح ؟ .

ـ متهيألى حتبقى زحمة الوقت ده . ثم أطالت النظر فى وجه فايزة الذى شكلته روح المغامرة .. تابعت وكأنها تذكرت شيئا مهما : أنا نصيبى من الفلوس حيطلع مبلغ محترم وأنتى معلمة أد الدنيا وربنا موسعها عليكى .. أيه رأيك نطلع شرم الشيخ نعيش لنا يومين زى الهوانم اللى بنسمع عنهم يمكن ينسونا الأيام السودة اللى شفناها . لم تعتقد للحظة أنها عثرت على حل سحرى ، لكن أستقبالهما للحل أشعل فيهما الحماسة وكأنهما وجدا ضالتهما .

ـ دول بيقولوا على شرم دى أنها حتة من الجنة . قالتها هدى كمعلومة قبل أن تضيف عليها فايزة : أنتى نسيتى البت توحة مساج وحكاياتها عن شرم وجمال شرم وفلوس شرم .

ـ يخربيت سنينك يافايزة .. هى توحة برضه كانت بتروح شرم عشان تغير جو ؟ .

ـ آه صحيح .. دى كانت بتغير هدومها الوسخة .. ترنحت هدى فى مكانها بفعل ضحكة مباغتة لم تزرها منذ فترة طويلة قبل أن تبارزها فايزة بصهللة أعادت الحمرة لوجهها .. تدريجيا حشرت هدى بقية الضحك فى حلقها قبل أن تعود الى جديتها : سيبك بقى من قلة الأدب دى وركزى معايا .. ع المغربية حأروح البيت عندى عشان أحط النقط على الحروف وعشان كل واحد فيهم يعرف أوله من أخره وبالمرة أجيبلى شوية هدوم وغيارات .. ساعتين تلاتة بالكتير وحأكون عندك وبكره من النجمة نتكل على اللـه نخلع من هنا . طالعتها فايزة بنظرة تنم عن وجود اقتراح : أيه رأيك أنا أجهز الشنط على ماترجعى ونسافر النهاردة بالليل .

ـ حيبقى الوقت متأخر يافايزة .. ماتخليها بالنهار .

ـ أصل أنا هدفى أن جوز المقاطيع اللى هنا مايحسوش بحاجة .. عايزاهم يتفاجأوا أنى أنا وأنتى مش وجودين ..عشان يفضلو متلبشين وقلقانين لغاية مانرجع ونظبط الأمور . أبدت موافقة ثم لمحت : يافايزة أنا ميتة من الجوع .. فكرى لنا فى أكلة .

ـ أيه رأيك تاكلى .. قطع جرس الباب بقية الجملة . قامت من مكانها تتبادل مع هدى أشارات الأستغراب : مين اللى حييجى دلوقتى .أتجهت ناحية الباب قبل أن تصرخ غاضبة : أصبر ياللى ع الباب . قالتها بغيظ حين صدر عن الباب رنة ثانية .

فتحت متحفزة .. قطبت حاجبيها .. ماتت النظرة فى عينيها كأنما رأت شبحا . اسدلت جفنيها محاولة طرد صورة الكائن الواقف أمامها الذى بادرها : مش حتقوليلى أتفضلى ؟ لم تنطق وكأنها أبتلعت لسانها .. طالت وقفتها وهى تسد بجسدها فراغ الباب . كرر الكائن : دا أنتى صاحبة واجب ومايصحش تسيبى ضيوفك واقفين كده ع الباب . بعيون منقبضة ونبرة عدائية : أنتى عايزة أيه يامرى؟ حضرت هدى مع نهاية الجملة .. وقفت خلفها تتخطفها علامات الاستفهام : فى أيه يافايزة .. عايزة منك أيه الست دى ؟ .

ـ عازها المرض والموت .. دى بدرية كومبارس أس المصايب كلها .

ـ اللـه يسامحك يامعلمة . أنزاحت الأخيرة من صدارة الباب على أثر دفعة من كتف هدى : خير ياست ؟! .

ـ خير أن شاء اللـه ياست الستات .. أنا جاية فى كلمتين حأقولهم وأخلص بيهم ضميرى واللى ربنا يعمله هو اللى يكون .

ـ أتفضلى .

ـ تتفضل أزاى .. مش ناقص كمان غير الأشكال الوسخة دى . قالتها من خلف كتفى هدى التى رمتها بنظرة ركنية : عيب يافايزة مايصحش .ثم أفسحت لها مكانا للمرور .. مرت بحذر ثم أسرعت للصالة بعدما تلقت نظرة حادة أبقتها فى حذا هدى حتى أعتلت الكنبة التى شغلت نصف مساحتها ، بينما لازالت فايزة تزفها بكل أنواع الآوصاف قبل أن تردعها هدى : أهمدى شوية واقعدى وشوفى الست حتقول أيه . لم تحتج وجلست امامها تحاصرها بتكشيرة دبت الرعب فى قلب الضيفة وأعادتها لذكريات موجعة.. حبست انفاسها للحظات ونظرات جس النبض تدور فى الصالة قبل أن تمنحها هدى أحساس الأمان : أتفضلى ياست بدرية قولى عايزة أيه ؟ أبتل جبينها عرقا تحت وطأة الخوف وعبء الطرحة التى حاصرت رأسها وصدغيها. بحثت فى ذهنها عن بداية لا تثير حفيظة النمرة الشرسة التى تتمتم : أستغفر اللــه العظيم يارب . قالتها فى الفراغ وهى تنفخ . أستهلت البداية موجهة كلامها

لهدى : بأختصار كده انا الدنيا بهدلتنى ومرمطتنى وماشفتش فيها يوم حلو .. الحسنة الوحيدة اللى طلعت بيها بنتى نوسة .

ـ يعنى طلعتى بهند رستم ياختى .. تحولت اليها هدى بنظرة صارمة فهمتها ولزمت الصمت . تابعت بدرية : هو أنتى أسمك أيه ياختى ؟ طرحت عليها السؤال حين لمست فيها السطوة والحزم .

ـ أسمى هدى .

ـ ربنا يجعل أسمك من قسمتك .. المشكلة ياست هدى أن المعلمة فايزة حاطة فى دماغها أن بنتى نوسة بتلف وتدور على أبنها عشان يتجوزها وتلهف اللى وراه واللى قدامه وكان أبنها ده عيل صغير بيمص فى صباعه ولاشاب خايب غشيم مش فاهم حاجة فى الدنيا . ثم لفت بلحمها وواجهتها مضيفة: منصور ده ياست هدى تربية المعلمة فايزة وعبده الجن يعنى فاهم الصغيرة قبل الكبيرة ويعرف يفرق بين اللى شاريه وبين اللى بيشتغله وماتأخذنيش ياختى فى الكلمتين دول .. منصور أبنها مايحتكمش أصلا على جنيه واحد عشان حد يلهفه منه . وجهت جملتها الأخيرة لفايزة التى نظرت للسقف بوجه قابل للآشتعال فى أية لحظة . أستأنفت : ومين دى اللى أتجننت فى عقلها ولامستغنية عن عمرها عشان تشتغل ابنك ولا ترسم عليه وأمه تبقى المعلمة فايزة اللى سمعتها مغطية كرموز كلها وأجدعها شنب بيعملها ألف حساب .. ياختى اللى بيتكلم مجنون والمستمع عاقل . ثم لكزت هدى فى فخذها تأكيدا للمعنى فى حين طاردت فايزة كلماتها بملامح معطوبة : وأنتى جاية لغاية هنا تهزى شحمك عشان تسمعينا الكلمتين دول .. سددت لها نظرة نارية حين تابعت وهى تضغط على الحروف : الطماعين اللى زيك وزى بنتك بيتمسكنوا لغاية مايتمكنو .. الصنف ده أنا فهماه كويس

ـ ياستى أحيينى النهاردة وموتينى بكرة ولو الحكاية فلوس وطمع يبقى مش حنغلب أنا وبنتى .. بأشارة واحدة حاجات كتيرة تبقى تحت أيدينا بس أحنا مش كده .. أحنا عايزين الستر والأمان وقدام الست هدى أنا بقولك يامعلمة فايزة أحنا مش أدك ولاحمل بهدلة وأهانة أحنا أخرنا شوية جعجعة وحبة همبكة ولاحيلتنا أبيض ولا أسود ولاعندنا عزوة ولاتحت أيدينا رجالة بشنبات عشان يحمونا عند اللزوم . سكتت لثوان تستطلع أثر الكلام على فايزة التى تصنعت عدم المبالاة بينما أرتخت ملامح هدى التى أظهرت تفهما وتعاطفا أستثمرته بدرية التى زادت ثقتها فى الدفاع عن وجهة نظرها : ولو مصممة على أذية أبنك بسبب بنتى فأنا جاية أقولك الكلام ده مايرضنيش ومن النهاردة حأبعد نوسة عنه ولو وصل الأمر أننا نمشى من كرموز كلها . أعلنت موقفها بصوت عالى ثم مشت بمؤخرتها حتى طرف الكنبة

أستعدادا للنهوض . أرهقتها الحركة وأرتفع نهيجها حين قامت تضبط طرحتها : أرضى عن أبنك يامعلمة فايزة وأقفى جنبه وأنتى أولى بيه من أى حد .

ـ ماتقعدى واقفة ليه . قالتها هدى حين رفعت لها عينيها .

ـ معلش ياست هدى أنا قلت اللى عندى وخلصت ضميرى . أبتسمت الأخيرة : بس فايزة لسه ماقالتش اللى عندها . نوهت بجملتها حين رأت جدية وموضوعية لا تقبل التأويل والمزايدة . التفتت إلى الساكنة تترجم أنطباعها إلى اللغة التى تفهمها: الست بدرية كلامها معقول ويدخل الدماغ .. من عندك شوية يافايزة وسيبى منصور يختار اللى هو عايزه من غير تدخل ولا مشاكل .

ـ أنتى برضه بتاكلى من الكلمتين دول .. دى مرى تلعب بالبيضة والحجر .

ـ ليه شايفة حاوى قاعد قدامك . قالتها بجراة فى حماية هدى قبل أن يأتيها الرد سريعا : أكتر من الحاوى ياحبيبتى .. دى شغلتها بيع الكلام والآونطة .. دى كومبارس . ذيلت كلمتها الأخيرة بضحكة ساخرة أثارت حنق بدرية : طلعت ولانزلت آهى أسمها شغلانة ومكتوبة فى البطاقة لاهى عيب ولاحرام ولادخلتنى السجن ولاخلتنى من أرباب السوابق .. والنبى لاتعايرينى ولا أعايرك . أنصتت لها فايزة وشياطين الغضب تطوف حولها وهى لاتملك ماتهينه بها . تدخلت هدى بالرغم من جرح الكلمة التى طالتها .. وقفت بينهما : أقعدى منك لها .. لمى الدور يافايزة .. العيال بيحبو بعض والحكاية مش ناقصة . أطلقت زفرة ضيق وهى تجلس : يعنى أنتى مش شايفة كلامها اللى يحرق الدم .

ـ معلش عديها .. وقتنا ضيق أخلصى . قالتها بتململ .

ـ يعنى أنتى عايزانى أعمل أيه ياهدى . بدت عصبية ومنفعلة فى حين سحبتها الأخيرة لمنطقة هدوء : وافقى على الجوازة خلى ربنا يسهلهم عشان يسهلنا أحنا كمان . نبرتها وطريقة نطقها أدخلت فايزة فى دائرة الصمت التى جرتها لمراجعة موقفها المتشدد .. شيىء من الحكمة بدأ يدب فى رأسها . لم تنتظر هدى صمتها .. حذرتها بعينيها كى تفهم : ماتسبيش حاجة متعلقة وراكى .. خلصى نفسك . ثمة توازن يفرض ايقاعه احيانا . لانت نبرة العناد : ماشى ياهدى .. أنا موافقة . قالتها على مضض ، فى حين أستقبلت بدرية تصريحها بوجه تفشت فيه الفرحة : ربنا يجعل أيامك كلها فرح زى مابتفرحى الناس . تطلعت اليها بأسترخاء : هى كده عملت اللى عليها الباقى عليكى أنت وبنتك .. حافظوا على منصور

وحطوه جوه عينيكو . أنتفضت : من غير ماتقولى ده أحنا مالناش حد فى الدنيا .. منصور حيبقى راجلنا وسندنا وبرضه نفسك معانا يامعلمة .

ـ أنا نفسى مقطوع ياختى . قالتها بميوعة بعدما تخلى عنها الغضب فى حين واصلت هدى مهمة وسيط الخير : فايزة قلبها أبيض وحيبقى نفسها معاكو فى كل كبيرة وصغيرة .. ده أبنها الوحيد مش معقولة حتسيبه .

ـ اللى عنده يكفيه ويخليه يفتح بدل البيت بيتين . لم تفهم هدى ماتعنيه كما لم تستوعب بدرية الجملة . فأستكملت للتوضيح : ايراد القهوة على ايراد التاكسى ونص النقل يخلوه يعيش ملك.

ـ روحى ياشيخة ربنا يكرمك يامعلمة فايزة ويستر عرضك . كان دعاء يشبه الهتاف جادت به بدرية الذى أهتز لحم وجهها كما أهتز له خشب الكنبة . قامت بخفة عصفورة تحملها الفرحة التى قادتها حتى بلغت مقعد فايزة ، لتنقض عليها بكل ثقلها وتشبعها قبلات قبل أن تعتصرها فى صدرها .. كادت فايزة تلفظ أنفاسها ، وصوتها المكتوم يستغيث : خلاص ياوليه حتموتينى . أنتزعت نفسها من فوقها : بعد الشر عليكى . رددتها وهى فى منتصف الصالة بصحبة هدى متجهة ناحية الباب قبل ان تبطىء خطوتها ملتفتة بصوت هامس : المعلمة بتقول ان الأيراد اللى حيطلع لمنصور يخليه يعيش ملك .. بس هى ماقالتش ياختى الملك ده حيعيش فين وهو ماعندهوش شقة اصلا ؟! تعقبتها الأخيرة من مكانها بنظرات مدهوشة : شوفى المرى ولؤمها .

ـ كلامها صح يافايزة حيتجوز البنت فين ؟ ضغطت على اضراسها : يبقى يدور له على شقة وأنا سدادة . عند ذلك الأعلان ، أرادت بدرية أشعال ثورة فرح جديدة ، الا أن هدى تصدت لها : خلاص ياست بدرية يادوب تلحقى تفرحى بنتك وتبلغى منصور بالأخبار الحلوة دى .

ـ حاضر ياختى .. فتحت بعدها الباب ، وما أن تخطت العتبة حتى توجت زيارتها الناجحة بزغرودة أطلقتها بكل ماتملك من عزم قاصدة أن تضع كل سكان البيت داخل المشهد . ثم نزلت تدب بشبشبها على درجات السلم وسط وقفة ذاهلة من هدى التى تابعتها من على رأس السلم وهى تقف عند كل باب أنفتح أمامها لتعلن : منصور أبن المعلمة خطب بنتى نوسة . كررتها ثلاث مرات فى وجه كل من خرج مستطلعا !! .

جرى بهما الوقت سريعا .. قصفا عمره فى تداول بعض الأفكار المتعلقة بعبده الجن ومنصور . طرحت فايزة بعض الأفكار من منطلق رؤية متحفظة ثأرية عرضتها بعصبية فى وجه هدى التى تصدت لها بمنطق أطفاء الحرائق مع ألزامها ببعض التعديلات الجوهرية من باب : ريحيهم وريحى نفسك .. كبرى دماغك وأرمى ورا ضهرك . أظهرت مرونة وتفهما بعد سيجال محدود متخطية حالة التعنت الفطرى الضارب فى أعماق شخصيتها مع قفزة نوعية فى لغة الخطاب حين قالت بحسن نية : بينى وبينك الولية بدرية صعبت على أوى النهاردة .. كانت عايزة ترضينى بأى شكل .. نفسها برضه تستر بنتها وتطمن عليها . أرتاحت لكلماتها ولم تعلق . كان نداء الجوع أقوى من أى تعليق .. أنشغلتا فى التهام رغيفين " حواوشى " من أعداد وأنتاج محل " حمامة " الذى أرسلهما على وجه السرعة بناء على أتصال أجرته فايزة . " الحواوشى " هو أول ضيف يدخل معدتهما منذ الصباح .. تسابقتا فى القضم والمضغ والبلع تحت راية " الجوع كافر " . لم يفلح الشاى بالليمون فى أحباط التفجيرات التى ضربت معدة هدى التى أنتفخت وتقطعت أنفاسها : أنتى متأكدة يافايزة اللى أكلنا ده حواوشى . أجابتها وهى تنهج : هو المرة دى تقيل شوية .. يكونش المفضوح حمامة حط جواه الحمامة وهيه اللى عاملة فينا كده . أنصتت لها بأبتسامة ثم أنسحبت متكاسلة الى غرفة النوم . كانت بحاجة للأنفراد بنفسها فى محاولة لتهيأة ذهنها وحشد حواسها للزيارة المرتقبة . شحنت عقلها ودربت لسانها على خطاب جديد يلائم وقع المناسبة .. توقعات وتخمينات دارت بخلدها حول شكل الأستقبال وحالة العاطفة .. صنفت ردود الأفعال المنتظرة حسب تركيبة كل منهم وطباعه . أستغرقتها التخيلات والتمنيات قبل أن تنتزعها فايزة التى دخلت عليها بفوضويتها المعتادة : أحنا بقينا المغرب مش حتقومى تجهزى نفسك .طردت مايتفاعل فى عقلها وقامت .. أتجهت الى الدولاب مباشرة وسحبت منه طقمها اليتيم التى جاءت به وما أن بدأت فى أرتداءه حتى باغتتها حماسة مفاجئة أذهلت فايزة التى جلست تتابعها وهى تتجه للمرأة التى وقفت أمامها تعتمرطرحتها .. تفحصت وجهها عن قرب .. عاينته من كل الزوايا . أستاءت من بعض العيوب التى ظهرت تحت العينين من قلة النوم والضغط العصبى الذى تسلمها من لحظة زيارة شهاب ولم يفارقها الا من ساعات . تحسست وجهها بأسى قبل أن تدهنه بكريم بشرة من مقتنيات فايزة ،فظهرت كراماته على ملامحها التى أصبحت كالوتر المشدود مستعيدة سحرها الفريد بعدما لعب المكياج الخفيف لعبته الخطرة قاصفا من عمرها عشر سنوات على أقل تقدير . أخيرا أبتسمت لوجهها فى المرأة .. أبتسامة لم تدم سوى لحظات قبل أن تحذفها من فوق شفتيها حين أنحرفت بعينيها ناحية فايزة التى قبعت فى الركن شاردة . تأملتها ثم أعطت ظهرها للمرآة : مالك مسهمة ليه ؟ رغم محاولتها أظهار

الهدوء : قلقانة شوية . قالتها بصوت مترهل أثار حفيظة هدى : قلقانة من أيه تانى ؟ تساقطت نظراتها بفعل الأضطراب الذى أعتراها : خايفة ولادك يضغطوا عليكى ومايرضوش يرجعوكى تانى على هنا . مالت عليها ورائحة " البارفان " تفوح منها كما فاحت نبرة الأدراك والفهم : ولادى حيمنعونى ليه ان شاء اللـه . تساءلت ساخرة ثم تابعت : مش قادرين يستغنوا عنى ولا عشان مش عارفين يعيشوا من غيرى .. أنتى بتضحكى على نفسك ولا علىِ.. ده أحنا دافنينه سوا وأنتى فاهمه زى ما أنا فاهمه ان ولادى دلوقتى مايهمهمش أى حاجة غير الفلوس اللى فى البنك .. أمتى حأسحبها وكل واحد حيطلعله كام هو ده المهم عندهم .. فوقى يافايزة وماتقلبيش على المواجع وقومى جهزى الشنط لغاية ماأروح وآجى . مشت معها بنفسية هادئة حتى باب الشقة قبل أن تعلن هدى عن رفضها الشديد للعرض المقدم منها : حأوصلك لغاية أول الشارع حأركبك وأطمن عليكى .

ـ ياستى أنا خلاص حفظت الحوارى هنا وعارفة ازاى أطلع منها . حجزتها فايزة ولم تمنحها تأشيرة الخروج إلا بعد أن طرحت عليها سؤالا : أنتى ليه بقيتى زى القمر ياهدى .. فرق كبير أوى بين النهاردة وأمبارح ؟ . أسعدتها الجملة الأخيرة وتجاوزتها بضحكة : أمبارح كنت أشلانة وعلى فيض الكريم والنهاردة عندى شيىء وشويات .. يعنى لازم أبقى زى القمر . أستفزها التبرير ووضعت يديها فى وسطها : ياختى أنا بقالى سنين عندى شيىء وشويات لاحصلت قمر ولا نجوم . فتحت الباب تسبقها ضحكتها قبل أن تحسها وهى تهبط أول درجة وصوت فايزة من فوقها محذرا : أوعى تتأخرى .

ـ ماتقلقيش .. بس جهزى اللى قلتلك عليه .

أستقبلت الحارة بخطوة واثقة وملامح زادت فيها درجة الجدية كلما نجحت فى الخروج من حارة إلى حارة .. أستعادت الآن ذاكرة القوة .

الفصل التاسع عشر

قضت هدى ساعة كاملة فى التاكسى الذى تسلمها من أول الشارع متجها بها إلى خارج كرموز فى سهولة ويسر قبل أن ينزلق بها إلى وسط المدينة .. حيث جحيم الزحام وعذاب الدنيا حتى حط بها أمام البناية . تنفست الصعداء حين هبطت . ترجلت حتى المدخل الذى وقفت ببهوه تتلفت ، تبحث بعينيها عن

نوح . لم تجد له أثرا قبل أن تخرج عليها " أم نور " حين شعرت بصوت أقدام : حمد للـه ع السلامة ياست هدى .

ـ أزيك ياأم نور صحتك عاملة أيه ؟ .

ـ الحمد للـه على كل حال .

ـ عم نوح فين ؟ .

ـ فوق عند الخواجة .. عايزة حاجة أقضيهالك .

ـ كتر خيرك .. كان نفسى أشوفه بس . سجلت أمنيتها وأتجهت ناحية المصعد ، تدوس الأرض بكل عزمها قبل أن تدلف داخله راحلا بها لأعلى .. هيأت نفسها أثناء رحلة الصعود .. الكلام فى ذهنها كان معدا سلفا . إلا أنها أشتبكت مع ذاتها عندما توقف بها عند طابقها .. كل ماتطمح إليه الآن أعترافا صريحا بأنها صاحبة التضحية الأكبر .. هى من دفعت الثمن الفادح ..هى من تحملت الظلم والأهانة .. هى التى تناولتها الألسنة دون رحمة . تمتمت وهى تضغط على فكيها : أنا هدى عبد الفتاح اللى كلكم هاجمتونى وعايرتونى بالسجن ماحدش وقف جنبى ولا رحمنى . لازم كل واحد فيكم يعرف أنى كنت صح مش غلط .. من النهاردة كل واحد لازم يعرف حدوده كويس .. مش حأقبل أقل من دموع الندم على ظلمكم لى . رفعت ذقنها كى تبدو فى قمة كبريائها حين خرجت من المصعد .. بدت كما ينبغى لها أن تبدو . الخطوة القاسية تسحبها ناحية الشقة . وقفت أمام الباب للحظات . تلفتت يمينا ويسارا . إلا أنها أندهشت من وقفتها الغير مبررة . نظرت للباب نظرة ضعيفة وكأنها أمام باب حصن منيع . شيىء ماجعلها مترددة .. ماذا تفعل أمام هذا الشعور الطاغى بالتفاخر ؟ حاولت الحفاظ على قوتها . فتحت حقيبة يدها بعنف وسحبت منها المفتاح . أدلت رأسها للآرض فجأة وكأن هاتفا يهتف فيها من عند قدميها . لم تتبين كلمات الهاتف ولامصدرها وكأنما مايقصده ان يلفت انتباهها كى تخفض رأسها للأرض ! تفكرت فى الأمر .. فهمت الرسالة . أستحضرت موروثها الضارب فى عمق أعماقها . أرتدت إلى تواضع الصابرين . أبت أن تركب اللحظة .. تضاءل فيها التفاخر الذى أصبح أعجاب ثم الى أمر مفرح ردته الى تدابير الخالق ومعجزاته . هزت رأسها بقناعة سحبتها إلى أقصى تجليات الزهد . كبلت غرور النفس بالتواضع . أدارت المفتاح فى كالون الباب وهى راضية كل الرضا بعدما لجمت شهوتها قبل الدخول . أنسكب ضوء الصالة على رهبة جمالها الحزين حين فتحت الباب .. أصبحت الأن فى مرمى الرؤية .. كانت الصالة مزدحمة . ظهورها أثار فوضى مفرحة علت الوجوه التى سبقتها شهقات

عشوائية توحى بأن أصحابها قد طال أنتظارهم . وقف الجميع أجلالا لحظة دخولها وكأنما يؤدون تحية عسكرية لقائد منتصر عاد لتوهمن أرض المعركة . كانت نورا أول المندفعين نحوها تاركة خلفها يوسف وبسمة اللذان تحركا بعدها ومن خلفهما أيات ونعمة فى وضعية الأستعداد بينما لازال خيرى وشريف وزيزيت فى أماكنهم كضيوف شرف يرصدون وقائع الفرح بقشعريرة مشت على جلودهم . تنظيم محكم أعدته نورا سيتضح لاحقا القصد منه . أخيرا وصلت نورا لحضن أمها دون قيد أو شرط .. عاطفة بريئة لم تصادفها هدى منذ زمن .. أحست برعشتها القديمة وأنفاسها النقية التى تثير فيها ذكريات البراءة .. ضمتها بقوة فى اللحظة التى شعرت فيها نورا ولأول مرة أنها أخطأت الوسيلة بعد أن أخطأت التقدير .. رددت كلمات عشوائية على غير عادتها : ماتزعليش منى ياماما .. أحنا مالناش غير بعض . كانت مدهشة وقادرة على خلق منطق يصعد بها فوق المسافات المفتعلة التى صنعتها . دام العناق بينهما طويلا ، فأستعجلتهما بسمة التى تنتظر دورها الذى لم يتطلب سوى ايماءة من أمها التى انتهت من نورا لتتعلق برقبتها فى قفزة خاطفة أستسلمت لها هدى التى أصبحت كالعجينة فى يديها : وحشتينى أوى ياماما . لم تستطع الرد تحاشيا لنوبة بكاء على وشك الأنفجار مكتفية بتحسس الأجساد المتدافعة لصدرها وجو من التفاؤل يخيم على الدائرة التى صنعوها من حولها .. عبارات الترحيب والتبريكات تتسابق وتتداخل حين أنضمت أيات ونعمة لقائمة المرحبين .. فعلت الفرحة فعلها ! قالت حين خف الضجيج حولها : واللـه كلكم وحشتونى والبيت كمان وحشنى . قالتها تزامنا مع خطوتين للأمام بعدما أنزاحت بسمة من طريقها متجهة الى نعمة التى قاربت على الوصول : وحشتينى ياست ياعجوزة .

ـ ماتشوفيش وحش ياست هدى يأم قلب أبيض ياست الستات ياوش الخير . سحبتها لصدرها تكتم ضحكتها : بطلى اونطة يامكارة . ثم همست فى أذنها : أنا حأقنع أيات تطلعلك باسبور وتجيبلك تأشيرة وتاخدوا بعض أنتو الجوز وتعملوا عمرة على حسابى . أنتفضت عظامها الواهنة : ربنا يزيدك كمان وكمان ويهديلك العاصى ياقادر ياكريم . أثارت الوشوشة ريبة أيات : قلتى أيه للولية المخلولة دى خلتيها تتنطط كده .

ـ بقولها لولفوا الدنيا بحالها مش حيلاقو حد يخاف عليكى ولايحبك أكتر من أيات .

ـ قوليلها ونبى .

ـ أيه ياماما أنتى حتقضيها كلام فى الصالة .. تعالى أدخلى جوه . كانت دعوة على لسان يوسف قبلتها هدى وهى تردد فى نفسها : سبحان مغير الأحوال . شقت طريقها وسط نفس الوجوه التى خرجت

أمامهم منذ أيام شبه مطرودة . ظهر لها خيرى عند كنبة الأنترية وبجواره أبنه ومن بعدهما زيزيت . طل عليها من فوق الموكب المصاحب لها .. فاجأتها نظرته الصريحة التى جرحت طهارة المشهد بالرغم من التصويت الجماعى الذى ظهر فى العيون معلنا وبكل صراحة " عادت الملكة لعرشها " تحركوا ثلاثتهم لحدود حجرة الأنترية لاستقبالها قبل أن تنفلت زيزيت من بينهما وبادرت بعناقها ثم أحاطت رقبتها بذراعيها دون أن تنطق بكلمة واحدة ، بينما ربتت هدى على كتفها : أزيك يازيزيت .

ـ زى ماأنتى شايفة . قالتها حين أخلت سبيل رقبتها وتراجعت قبل أن تنتقل هدى لشريف الذى بدا متحمسا ونشطا : مبروك ياطنط .. أنتى ست جدعة عشان كده ربنا وقف معاكى وماخذلكيش .

ـ كلامك صح ياشريف ربنا دايما بيقف مع الجدعان مش مع اللى عايزين يهربوا ويسافروا أمريكا . أحمرت بشرته وهز رأسه مبتسما : خلاص ياطنط مافيش أمريكا .. دلوقتى حضرتك حتفهمى كل حاجة . قالها حين ألتفت لنورا التى أنزرعت بينهما وسحبته جانبا مفسحة الطريق لليد الممدودة لمصافحة خيرى الذى سنحت له فرصة التقدم حين همد الجميع على مقاعدهم .

عانت الجملة على لسانها عندما وقف امامها .. ماذا تقول لصاحب القامة العنيدة التى لاتقبل تنازلا : أزيك ياخيرى ؟

ـ مش كويس . قالها هامسا . تجاوزت عيناه بابتسامة مرتبكة : كل الموجودين حوالينه بقوا كويسين والفرحة حتنط من عينيهم .. لازم أحنا كمان نبقى زيهم عشان مايبقاش دمنا تقيل . سحبت يدها من يده كى لايطول الكلام بينهما . أتجهت الى مقعد منفرد .. أنشغلت فى تصفح الوجوه عندما جلست ، لم يكن ليستطيع أحد تحديد ماتنوى قوله ، ولا قياس مدى فرحتها ولاحقيقة أنفعالاتها . إلا أنهم توقعوا منها خطبة أنفعالية تلخص فيها رحلة الماضى الكئيب التى لم يبلغها الخيال فى الملاحم والأساطير .

بادرت أيات لحثها على الكلام : أنتى النهاردة صاحبة الفرح وكل الموجودين هنا بيباركولك قبل مايباركوا لنفسهم .. أنتى تستحقى وسام من كل واحد فينا .. ماحدش فينا يقدر ينسى التمن اللى أنتى دفعتيه ومتهيالى مافيش كلام يقدر يوفيكى حقك وع العموم قدر اللـه وماشاء فعل . تحولت إليها الرؤوس المتأهبة أنتظارا لكلمتها .. قطعا كلمة استثنائية فى ظرف أستثنائى . أحتشدت الأذان لسماعها ، بينما ـ هى ـ فى تلك اللحظة كانت تسأل نفسها : ماذا يفيد الكلام ؟ مافائدة أستدعاء القهر والمعاناة ؟ العبث داخل مخزون الذاكرة لايفيد ! .. صمتت للحظات ، طال صمتها دون أن تدرى ، منحها

الصمت سحرا عجيبا ، كان خيرى أول ضحاياه الذى لم يهدأ عقله عن ترديد السؤال : لماذا الصمت فتبدو مثل لغز غامض ؟! .

عندما عادت من صمتها . نطقت بعفوية : أنا فعلا تعبت أوى ودفعت تمن غالى زى مأأيات قالت .. لكن برضه أنتو كمان دفعتوا التمن زيى ويمكن أكتر .. أتحرمتوا من حاجات كتيرة وماعاشتوش سنكم ولا حسيتو بالامان وناس كتير مارحمتكمش .. سكتت للحظات كى تنظم أنفاسها ، لتعود بصوت قوى جلى النبرات : النهاردة حقكم رجع .. النهاردة كل واحد فينا عوض خسارته . تراجعت عن الجملة الأخيرة بعد سكتة قصيرة . موضحة : مع أن الفلوس عمرها ماحتعوض خسارة السنين ولاحترجع اللى مات .

ـ كلامك صح واللـه ياست هدى . عبارة تأييد سجلت بها نعمة موقفها قبل أن تستأنف هدى بوتيرة أبطأ : حدوتة الماضى وحق أبوكم اللى أتاخد منه خلاص خلصت وراحت لحالها .. أنسو اللى فات كله وماحدش يبص ورا ضهره .. كل واحد فيكم يفكر فى مستقبله ويشوف حيعمل أيه وحيبدأ حياته ازاى .. بس ياريت قبل ماتنسوا الماضى وتفكروا فى اللى جاى أبقو أترحموا على نديم . ثم تنهدت وراقبت أنعكاس الكلام على الوجوه التى زارها الحزن فجأة وعيناها على أيات التى أدمعت وأختنق صوتها : الفاتحة على روحه . قراءة الفاتحة التى رددتها الألسنة الخاشعة ظللت المكان برائحة الموت وصورة " نديم " حاضرة فى الأذهان .. لحظات وصارت كلمة " أمين " تقفز فوق الشفاه تباعا ونزلت معها الكفوف التى مسحت الوجوه مع دعاء المغفرة والرحمة للفقيد .

لم تقترف هدى خطيئة الكلام الكثير ومنحت نفسها فضيلة الأنصات حين سألت : قولولى بقى كل واحد فيكو حيعمل أيه بنصيبه ؟ طرحت سؤالها وهى تقصد به نورا التى كانت تنشد فرصة لترتيب أفكارها . إلا أنها أرغمت على الكلام تحت الحاح من أمها : ماتقولى يانورا فكرتى فى أيه ؟ .

ـ فكرت أشارك مدام زيزيت فى الأتيليه .. أذهلتها الجملة التى جعلت حاجبيها مشدودين لأعلى تفضحهما الدهشة : أزاى يعنى ؟! سألت وهى تنظر لزيزيت قبل أن تستعيدها نورا : حندور على محل كبير فى مكان محترم نعرض فيه شغلنا وإن شاء اللـه حيبقى مكسبنا كبير ..بنتك دلوقتى لها أسم فى السوق . قالتها منتشية حين ألتفتت لشريف الذى أظهر تفاعلا : أنا صاحب الفكرة دى ياطنط ومكانى محجوز فى المشروع . تسلم يوسف طرف الكلام : كل واحد فينا حيبقى له دور .. مدام زيزيت ونورا متخصصين فى الأنتاج والعرض وشريف متفرغ لادارة المحل بمساعدة بسمة وأنا حيكون لى الأشراف

بعدما أخلص شغل المكتب . أدهشها جو التفاهم . قالت بعد أن تحرر لسانها من وقع المفاجأة : أيه الأخبار الجميلة دى .

ـ ولسه ده فيه خبر كمان أحلى وأجمد خديه بالمرة .. ع الشهر الجاى حنحدد ميعاد الخطوبة عشان نخلص من الجوز دول . جاء الخبر على لسان خيرى ليضاف الى بقية الأخبار التى ضاعفت من حجم ذهولها ، ثم دار بينهما حوار النظرات الذى شق المسافة بين مقعده غرب الأنتريه ومقعدها فى الشرق . أرتفع المشهد الآن ، أصبح أكثر أثارة حين كشفت نورا النقاب عن تفاصيل مشروعها الكبير .. لم تستطع هدى أستيعاب أى شيىء ولا فهم مايحدث حولها .. سيل من الأسئلة يجرفها دون توقف .. أسئلة العاجز عن الفهم والجاهل ببواطن الأمور : أمتى فكروا فى المشروع ده ؟ وأمتى درسوه وأزاى كلهم أتفقوا عليه بالسرعة دى .. حاجة غريبة أوى ؟! دقت طبول الأحزان فى رأسها حين دارت عليهم بنظرة أسى لم تثر أهتمام أيا منهم .. الكل منشغل ومتحمس بشهوة الكلام ، الكل يقول ويقترح ويناقش حول تفاصيل المشروع . لم ينتبه أحد لملامحها التى ظهرت عليها علامات الأحتجاج وهى تحدث نفسها وسط صخب الأراء وضوضاء الأقتراحات : ياه ياهدى .. للدرجة دى مابقاش لكى لزمة فى حياتهم .. ده ماحدش فيهم فكر ياخد رأيك فى المشروع اللى حيعملوه ولاحتى كلفوا خاطرهم يسألونى تحبى تشاركينا ولا لأ ... ياه ع الزمن . قالت الكلمة الأخيرة وأستمر صداها يتردد داخلها للحظات . مشروع نورا المنتظر رسخ قناعتها .. لامكان لها بينهم . بنظرة جانبية تأملت خيرى الذى كان شاردا فى نجفة الأنتريه العتيقة . أستعادت مقولته الأخيرة : الشهر الجاى حيحددوا ميعاد الخطوبة . تنهدت ثم تابعت : مين اللى حدد ومين اللى أتفق .. هو أنا مش لسه أمها برضه ولاهمه نسيوا الحكاية دى . توقفت عن طرح الأسئلة حين باغتها يوسف : أيه ياماما هو ده وقت سرحان برضه .. مش تسمعينا رأيك فى مشروع نورا ؟ أكتفت بهزة رأس ونبرة واهنة : أن شاء اللـه يبقى مشروع ناجح وفتحة خير عليكو .

ـ من الناحية دى أطمنى أوى المشروع اللى يبقى موجود فيه نورا وزيزيت أحط فيه فلوسى وأنا مغمضة . كان رأيا حماسيا لأيات تفاجأت به هدى ليزيد رصيدها من الدهشات والمفاجأت التى نالتها منذ لحظة وصولها : وأنتى كمان معاهم فى المشروع ده ؟ .

ـ طبعا ياهدى .. ده أنا أصلا اللى شجعتهم . قبل أن تعود لمتاهتها لحقها خيرى بسؤال : وأنتى مشروعك حيبقى أيه ياهدى ؟ .

ـ أنا .. قالتها بأستهزاء ثم تابعت بأسترخاء : أنا طالعة رحلة شرم الشيخ مع فايزة .. تغيير جو ولما أرجع يبقى يحلها الحلال . قالتها متصنعة اللامبالاة وبأداء أستفزازى كرد فعل ثأرى على أقصائها . توقعت هجوما كاسحا ومعارضة قوية أعدت نفسها لرد قاسى ستواجههم به .. خاب ظنها ولم تتلق سوى تعليق واحد من نورا التى قطعت حوارها الجانبى مع زيزيت : حتقعدى أد أيه ياماما ؟ قالتها وعلى شفتيها أبتسامة مترددة .

ـ يعنى أسبوع عشر تيام بالكتير .

ـ لو أخرك عشر تيام يبقى مافيش مشكلة عشان أحنا وقتنا ضيق أوى ياماما .. المفروض من بكره كلنا حنبدأ ندور على محل ودى حاجة مش سهلة يعنى لولقينا محل كويس فى مكان شيك لازم تبقى فلوسنا حاضرة .. الفرصة مابتستناش . أرتخت ملامحها كمدا : ماتقلقيش يانورا .. لو ظهرت حاجة كويسة أتصلى بى على طول وأنا حآجى أسحب الفلوس . قالتها بأداء من يدرك أن الأمر قد حسم . قامت من مقعدها متثاقلة وكأنها تحمل ضعف وزنها هما : أنا حأدخل أوضتى أخد شوية حاجات عشان السفر . لم ينصت إليها أحد سوى خيرى الذى راقبها بعين فاحصة وهى تتجه لغرفتها بخطوات أمرأة حبلى فى شهرها الأخير . قطعت المسافة الى الباب بكتفين ساقطين ونظرات منكسة وكأنما تغوص بأقدامها فى رمال متحركة ، وأصواتهم المستفزة القادمة من الأنتريه تلاحقها وكأنها تذكرها بأنها أصبحت الأن على هامش حياتهم أو ربما خارج حياتهم !! وصلت الى الباب تزامنا مع مقولة زيزيت : لو عرفنا نجيب محل دورين متهيألى حيفرق معانا كتير .

ـ تقصدى يعنى كل دور يبقى له الأستايل بتاعه .

ـ صح ياشريف .. الدور الأول للمحجبات والتانى لفساتين السهرة والعرايس .

ـ ياريت بس تلاقو محل حوالينه هنا فى محطة الرمل عشان كل يوم اعدى عليكم .

ـ واللـه تنورينا ياعمتى ويمكن كمان نسميه أيات هانم للموضة . فتحت الباب وصوت ضحكاتهم يتدحرج اليها فيجرح ماتبقى لها من كرامة . أوصدته خلفها بعد أن أضاءت النور .. وقفت مكانها ولم تتحرك خطوة واحدة ، لحظات من الوقوف المتأمل لاتكاد تصدق تلك الأعراض التى أجتاحتها .. أحساس طاغى بالغربة حين جالت بعينيها فى أرجاء الغرفة التى بدت أمامها كبؤرة معتمة فى مكان بارد . بدات تشعر لأول مرة أن جسدها لايمثل أمتدادا لشخصها ، وان عقلها قد هجر رأسها وأنفصل عنها . توجهت

الى دولابها وسط سكون تام لم يقطعه سوى صوت ضلفتيه التى فتحتهما عنوة وكأنما فتحت باب ثلاجة موتى فى مشرحة .. ملابسها مسجاة كأنما تخص أنسانة رحلت عن الدنيا منذ زمن .. سحبت مايلزمها من ملابس وغيارات ثم كومتهم فى كيسين . أبت الخروج من الغرفة قبل أن تأخذ فرصتها فى محاولة أخيرة منها للم الشمل بينها وبين الغرفة . سارت بالكيسين حتى سريرها التى وقفت أمامه تتذكروتسترجع كى تستعيد أنتمائها . لم يزرها موقف ما ولاحتى طيف ذكرى .. جلست على طرفه تحاول .. قضت دقائق صامتة كالتمثال . قالت داخلها أو ربما بصوت مسموع . لم تعرف : ماتكابريش ياهدى .. مابقاش ده مكانك ولا ده زمنك .. ماعدش حد أصلا يهمه وجودك من عدمه .. قومى بقى أمشى وخلى عندك دم . قامت بعد فشل المحاولة . عند هذا الخاطر جن جنونها . نقبت فى داخلها عن معدنها الصلب ثم تحركت ناحية الباب وهى تردد : زى ماهمه بيخططوا لمستقبلهم وبيفكروا فى مصلحتهم من غيرى .. أنا كمان حأفكر فى مستقبلى من غيرهم . فى اللحظات الفارقة التى يكون فيها البقاء والرحيل على خط واحد ، يصبح كل شيىء ممكنا .

خرجت من الغرفة تحمل متاعها ، وكما لم ينتبه أحد لدخولها ، لم يشعروا بخروجها ماعدا خيرى الذى كان يحرس باب غرفتها بعينيه . تشنجت فى مشيتها عندما ألتفتوا اليها بعد أن سمعوا صوت الكيسين اللذان يحتكان فى ساقيها . توقفوا عن الكلام حول المشروع الحلم .. وقفت عند حدود حجرة الانتريه ولم تدخل : عايزين منى حاجة ياولاد . من مكانها قالت بسمة من باب المجاملة : أيوه ياعم المهم .. رايح شرم اللـه يسهلك .

ـ حنتابعك بالتليفون ياماما . قالت نورا بلهفة قبل أن يقاطع يوسف: أستنى ياماما حأجى أوصلك الوقت متأخر .

ـ لا ياحبيبى ماتشغلش بالك ركزوا بس فى الكلام اللى بتقولوه .

ـ ماتقلقيش ياهدى أحنا جروب متفاهم جدا .

ـ واضح يازيزيت ! .

ـ ونبى ماتنسينى ياست هدى فى اللى أتفقنا عليه .

ـ مش حأنسى يانعمة .. أشوف وشكم بخير ، ثم أولتهم ظهرها وأتجهت الى الصالة قبل أن يتخذ خيرى قرارا باللحاق بها حين قاربت على الوصول لباب الشقة .. لحقها عند المتر الأخير : مش عايزانى أوصلك ياهدى ؟ .

ـ كتر خيرك مالوش لزمة . تعلق بها بنظرة تطل فيها دعوة رجاء : ماتتأخريش فى شرم .. حأستناكى . هزت رأسها دون أن تقطع وعدا أو تحدد موعدا . همس لها : أنا حأعد الأيام لغاية ماترجعى . أغمضت عينيها ثم فتحتهما مبتسمة : أنت حتبقى فاضى تعد الأيام ؟! .

ـ مافيش ورايا غيرك . قالها وأستعمل نظرته العميقة .

ـ أنت مش معاهم فى المشروع اللى حيعملوه ده ؟ .

ـ أنا .. أنا عندى مشروع أكبر وأهم .. أنتى مشروعى ياهدى .. أنتى معايا بالليل والنهار .. معايا فى كل وقت . لم تكن عارية تلك التى تنام فى الذاكرة .

ـ ربنا يعمل اللى فيه الخير .

ـ الخير حييجى لما تفكرى بقلبك . تحدثت اليه فى سرها : ليه عايزنى أفكر بقلبى وكل اللى حواليه بيفكروا بعقولهم ؟ لم يتسع أفق السؤال حين حسمت أمرها : ربنا يسهل .. أشوفك على خير ياخيرى .

ـ مع السلامة ياهدى .

كما جاءت فى هدوء رحلت بهدوء . أستقلت المصعد الذى هبط بها .. خرجت منه دون أن تلتفت .كانت خطوتها سريعة . كل ماتريده فى تلك اللحظة الخروج من البناية ! .

أبطأت خطوتها ونظمت أنفاسها حين أصبح المدخل خلفها .. ألتفتت يمينا بحثا عن تاكسى قادم قبل أن يناديها رنين موبايلها من داخل الحقيبة ، فأضطرت للوقوف وطرحت الكيسين أرضا ثم فتحت الحقيبة وسحبت الموبايل الذى قربت شاشته لعينيها : أيوه يافايزة .

ـ فيه حد جنبك ؟ سألتها هامسة .

ـ أنا فى الشارع حأركب وآجى .

ـ بتتكلمى جد ياهدى .

ـ واللـه يابنتى أنا واقفة فى الشارع .

ـ واللـه أنتى جدعة .. عرفتى أزاى تفلتى منهم يابنت الذين .. طبعا كانوا عاملين عليكى حصار مايعلم بيه إلا ربنا . بدت الفرحة طاغية فى صوتها .

ـ دول كانوا حيموتوا نفسهم علي .. كانوا عايزين يحبسونى فى الأوضة عشان ماخرجش . أنهت جملتها وتحولت أبتسامتها الساخرة الى ضحكة ثم الى قهقهة عالية لم تراع فيها حرمة الطريق .. ضحك لم تفلح فى كتمه أو ترويضه .. ضحك أنفعالى لايمت للضحك بصلة ., أستعادت توازنها عندما أنتبهت لصوت فايزة الذى يناديها : فى أيه ياهدى .. أيه اللى موتك من الضحك كده .

ـ بأضحك على نفسى يافايزة .. أقفلى دلوقتى أنا جاية . أنهت المكالمة بسرعة قبل أن يغلبها البكاء .

أغلقت موبايلها وهى فى أعلى مراتب الخجل حين شعرت بأنها قد أصبحت هدفا لكل النظرات المارة بجوارها .

فى تلك اللحظات بدأت رايات الرحيل تعلن عن نفسها . المشهد فى غرفة فايزة وصل لذروته انتظارا للحظة وصول هدى لتضع نهاية لفيلم " الرحيل " حقيبتان ممددتان على أرضية الغرفة حشرت فيهما فايزة مايزيد عن حاجة أسرة مكونة من ستة أفراد ،ملابس وغيارات وكل مايلزم للاستعمال الشخصى وكأنها بصدد رحلة ذهاب بلا عودة ، لم تترك شيىء من أشيائها الا واخذت منه عينة .. تذكرت كل المنسيات ودفنتها داخل الحقيبة الكبيرة التى أنتفخ جلدها . لم تستقر فى مكان لخمس دقائق ، كلما تذكرت شيئا قامت اليه وأتت به .

الأن أصبح كل شيىء معدا وجاهزا للسفر بعد أن تممت على صدرها الذى ينام أسفل فردته الشمال" باكو " من فئة الـ "200" جنيه .. أطمأنت على وضعيته بعد أن أحكمت سيطرتها عليه بـ "سونتيانة " أصغر من مقاس صدرها بنمرتين .. ثم أنفرطت بجسدها على السرير بلا حيلة أنتظارا لعودة الغائب .

بعد ساعة من الأنتظار أستقبلتها عند رأس السلم بموشح : ده أنتى لو جاية مشى كان زمانك وصلتى من بدرى . قطع النهيج كلماتها : ماسورة مية ضربت والطريق كله واقف . سحبتها كالمخطوفة للداخل : أنا جهزت كل حاجة وقفلت الشنط . ثم أضافت حين نظرت للكيسين : الشنطة الصغيرة فيها

مكان .. ثم اتجهتا للغرفة . عاينت هدى الحقيبة الصغيرة عندما فتحتها مدهوشة : أيه الشباشب دى كلها ؟

ـ عشان نغير فيهم .

ـ نغير أيه بس يافايزة .. أنتى فاكرة نفسك رايحة الأرياف . ثم رمت بأربع أزواج خارج الحقيبة ووضعت الكيسين تزامنا مع استفسار من فايزة التى وقفت فوق رأسها : أيه حكاية الصهللة والضحك اللى كانوا راكبينك وأنا بأكلمك ؟ أكملت قبل أن تجيبها : ماتقوليش دلوقتى لما نركب أبقى أحكيلى فى الطريق . جرت فايزة الحقيبتين حتى الصالة ثم وقفت لتلتقط أنفاسها قبل أن ترفع عينيها لساعة الحائط التى أعلنت دقاتها الثانية عشرة . حثت هدى التى تترنح بالحقيبة الصغيرة قادمة من الطرقة : شدى حيلك شوية قبل ماحد يطب علينا .

الفصل الأخـير

هوت الحارة فى قبضة الظلام .. سارتا جنبا إلى جنب تزحفا بثقل الحقائب .. تمشى فايزة وسط العتمة ، تحفظ تضاريس الأرض ومطباتها ، تمشى كأنما لقدميها عيون .. بينما تسير هدى بالحقيبة الصغيرة بحذر خشية الوقوع . خرجتا من الحارة تحتضن كل منهما حقيبة .. أجتازتا حارة بعد حارة يسترهما الليل كالهاربتين من معتقل . كومت فايزة الحقيبتين فوق بعضهما ووقفت الى جوارهما عندما وصلتا للشارع العمومى بينما أنسابت نظرات هدى إلى السيارات القادمة من أول الطريق . نصف ساعة بعد منتصف الليل قبل أن يظهر تاكسي قادما من عند دوران الترام .. تهادى أمامهما حين أقترب . أشارت له : الموقف .. تفحصهما بعناية وكأنه سيشترى واحدة منهما : تعالوا .. سحبت هدى الحقيبة الصغيرة ودخلت بها إلى ركن المقعد بينما أنقضت فايزة على الأخرى ومارست معها هواية رفع الأثقال .. رفعة خطف ناجحة من الأرض الى شبكة السيارة ثم دلفت إلى داخل التاكسى بعدما أفسحت لها هدى مكانا .. حدق فيهما السائق بنظرات صريحة قبل أن يمد ذراعه الطويلة إلى الكاسيت : تحبو تسمعوا أيه ؟ قالها بنبرة حشاش أو مبرشم .

ـ كتر خيرك ياخويا .. لو عندك شريط قرأن يكون أحسن عشان أحنا عندنا حالة وفاة .

ـ وفاة .. البركة فيكى ياختى . ساءت ملامحه وقاد صامتا .

ألتصقتا ببعضهما كبقايا أمراتان . وازدحما داخلهما بالخوف ، والظلمة تحاصرهما حين غابت السيارة فى ظلمة الليل حتى أبتلعهما الطريق الذى يمتد أمامهما بلا معنى تقطعه علامات المرور الباهتة والأشارات المطفأة . مرالسائق بسحنته المريبة بكل الشوارع التى علاها االصمت بينما تتعرف هدى بنظراتها المضطربة على من بيده عجلة القيادة والمسئول عن كل الطرق التى يسلكها فى العتمة .. قرأت الصمد ثلاث وهى تتشبث بذراع فايزة بينما عيونهما ملتصقة بارض الطريق الذى يرقد ويمتد حتى انقطاعه بعد نصف ساعة أمام بوابة الموقف الذى أجتازها .. كان الليل باردا عندما هبطتا فوق أسفلت الموقف بعد أن ودعهما السائق بنظرة أرف .. تجران الحقيبتان اللتان زاد وزنهما بفعل التعب .. بدا المكان هادئا يتخلله أصوات السائقين الخشنة ومرارة وقف الحال لاتخطأها العين .. سيارات الميكروباص تقف متراصة خاوية فى مربعات عليها لافتات تشير إلى أسماء المحافظات . توجه إليهما شاب لاتختلف سحنته عن سحنة السائق : شيال يامدام .

ـ هو فين موقف السوبرجيت ؟ . أقتحم الحقيبتان دون استئذان : عنك ياست . رفعهما وهو يضغط على الكلام بفعل الثقل : رايحين الكاهرة .

ـ مسافرين شرم فى أتوبيس الساعة اتنين .

ـ تعالــواورايا . سارتا خلفه يتبعانه فى خط متعرج وهويتطوح امامهما .. سبع دقائق قضاهـــا الموكب الجنائزى حتى لاح لهم موقف الأتوبيس الذى كان ينبض بالحياة حيث بعض الزحام والجمهرة . أنزل حمولته ثم وقف يلتقط أنفاسه قبل أن يستدير : تمام كده ياست .

ـ اللـه ينورياخويا . قالتها مشفوعة بعشرة جنيهات دستها فى يده فأبتسم : طلعى التذاكر بتاعتك عشان السواق يحطلك الشنط فى مخزن الأتوبيس . سألته هدى بوجه يحمل دهشة : أحنا لسه حنجيب تذاكر . لاقاها بوجه مقتضب : هوأنتومش حاجزين .

ـ لأ .. قالت فايزة .

ـ طب بسرعة ياماعلى شباك التذاكروانتى وحظك بقى .

ـ لاونبى أعمل معروف . تسلل القلق الى هدى التنصرخت : طب والحل ايه؟ .

ـ ماتقلقيش يامدام .. تعالوامعاياوانا حاتصرف بس التسعيرة حتزيد شوية .

ـ ماتشغلش بالك ياخويا . طمانته فايزة بجملتها ونظرت لهدى : خليكى أنتى هنا جنب الشنط وأنا حأروح معاه . أنصاعت الأخيرة والتزمت بحراسة الشنط تزامنا مع تفحص الوجوه المسافرة على الرغم من قلة عددهم فى تلك الساعة .. أستغرق الأمرمنها عشردقائق قبل أن تلتقطها عينى هدى التى دققت فيها كلما أقتربت .. هدأت ملامحها حين لاحت لها يدها المطبقة على تذكرتين ، لوحت بهما حين ضاقت المسافة بينهما .

عند الثانية إلا الثلث أختلف المشهد أمام الأتوبيس .. تكدس الركاب عند باب الصعود وامام مخزن الحقائب الذى أمتلأ عن أخره .. صعدت هدى وفايزة مع الصاعدين .. أتخذتا موقعيهما فى الوسط حسب أرشادات منظم الرحلة .

انطلق الاتوبيس فى الثانية إلاربع وسط سكون تام وهدوءمريب بدا منسجما مع الليل الكئيب .. من شباك الاتوبيس ، كانت هدى تطل على الظلام ، تتأهب للمجهول كعادتها وتطمئن من خلال الضوء الخافت المنبعث من كشافات صغيرة فى السقف على ملامح فايزة التى تمدها بالثقة بينما تحول الطريق فى عينيها إلى كتلة من الظلام ، والصمت يلفهما مثل نعش يطوف بالذكريات قبل الرحيل .

تخطت هدى وفايزة الساعة الاولى داخل الاتوبيس فى هدوء تام وعبارات قصيرة لاتزيد عن : السوبر جيت ده مريح أوى .

ـ مش الاتوبيس اللى مريح دول الركاب همه اللى محترمين .. مافيش دوشة ولاصوت عالى .

ـ دوشة أيه بس ياهدى ده كل اللى فى الاتوبيس نايمين . كان ردها منطقى .. معظم الركاب نائمين والبقية شبه مخدرين . الاضاءة الخافتة وسواد الليل فى الخارج جعل الجميع يسترخى فى سكون ماعدا هدى التى كانت تصدر عنها انات مكتومة على فترات متقطعة تنبىء عن بدايات مغص لازال فى مرحلة التشكل ، حرصت على احتواءه كى لاتقلق فايزة .

مع نهايات الساعة الثانية لازالت الصحراء مشهدا ثابتا يأبى الانتهاء ..

بدأت هدى تحس بمرارة فى لسانها ، واعراض تقبؤ فى الحلق تزاولها مع النصف الاخير من الساعة الثالثة حين عبر الاتوبيس مشارف القاهرة .. لاتريد الاستسلام للمغص المتنامى ، لازالت تمتلك قدرة

المقاومة .. بزغ الفجر فجأة متفلتا من قيد الظلام فاردا نوره فى استحياء على أسفلت الطريق مع دقات الخامسة وتزامنا مع انحراف السائق ناحية اليمين ماسكا الطريق الدائرى من بدايته مستقبلا ضوء النهار بعينين متشنجتين .

أستقرت هدى برأسها على كتف فايزة تتلوى تحت وطأة الوجع والالم بينما الاخيرة بدت بلا حيلة ولاتملك من مفردات الكلام سوى سؤالين غلبا عليهما التوتر : ياجماعة مافيش حد معاه حاجة للمغص ؟ أكتفى الجميع بالصمت وبنظرات مورَوبة ، فأعادت صياغة السؤال : طب فاضل أد أيه على الاستراحة ؟ سألت بصوت منفعل ومرت على الوجوه بعيون متوعدة .. تطوع شاب فى الصف المجاور : هانت .. بعد ما حنعدى مدخل مدينة السلام حنبدأ فى طريق السويس وان شاء اللـه قبل النفق حنرتاح فى الريست .. هى المدام تعبانة أوى ؟ قالها حين أنحنى برأسه يطالع وجه هدى الملتصق بكتف فايزة .

ـ أيوه ياخويا تعبانة أوى المغص عمال ياكل فيها . هز راسه مبديا بعض التأثر قبل أن يعود لشاشة موبايله التى يعبث بها.

بلا رحمة أكمل الاتوبيس طريقه مندفعا نحو هدفه غير آبه بألام هدى التى اخترقت دفاعاتها وباتت على وشك التسليم وأقتربت بشدة من الجهر بصرخات الالم ، فى حين جمعت فايزة فزعها وتماسكت : معلش ياحبيبتى أتحملى شوية الجدع اللى جنبينا بيقول خلاص هانت .

بعد ساعة وربع أدارت هدى وجهها الشاحب للنافذة تاركة لحم فايزة .. أضطربت أنفاسها وهى تبحث بعينيها المجهدة عن أى مظهر للحياة وسط الصحراء .. سبقت نظرتها سرعة الاتوبيس بحثا عن لقطة تلهيها قبل أن تسحبها ثانية حين ذكرها المغص بوجوده .. أخذت تئن .. دفنت وجهها فى كفيها وهى تطحن الكلمات : يارب قوينى .. لم يكن صوتها من القوة ليصل الى فايزة التى أنشغلت بمتابعة تلك البقعة التى أقترب منها الاتوبيس متمهلا .. أستجاب الالم لكلمات فايزة حين بشرتها : آهو داخلين ع الريست .

تحركت العيون كما تحركت الابدان التى تيبست فى مقاعدها استعدادا للنهوض حين يكف السائق وينتهى .. لحظات ورفع السائق يديه وقدميه .. توقف الاتوبيس اخيرا وترنح الركاب فى الممر متجهين الى الباب فى طابور غير مستقر فى وقفته ..خذلتهم عضلات الظهر والساقين ! .. كتمت هدى

انفاسها وضغطت بكفها على بطنها حين جاء دورها فى النزول متعمدة تأجيل اجابتها عن سؤال حائر طرحته فايزة التى تسندها من ظهرها : مش ممكن تكون اكلة حواوشى هى اللى عملت فيكى كل ده .. ما أنا طافحة معاكى . طرحت استغرابها حين وطأت قدميهما أرض الريست الموعودة .. خطوات قليلة ثم تلقت فايزة اشارة من النادل الذى يقف عند مدخل الكافيتريا مشيرا لها لمكان التواليت حين سألته .. بينما هدى تسيربأنحناءة منوهة عن سبب محتمل لاوجاعها : تقريبا الدورة هى اللى مبهدلانى كده .. أتأخرت أسبوعين عن ميعادها . بدا سببا وجيها لفايزة التى فتحت باب التواليت : اللـه يرحم أيام السجن عمرك ماشتكيتى من الدورة دى أبدا ولافى مرة سمعتك قلتى آه ياضهرى ولا آه يابطنى وكانت تجيلك فى ميعادها زى الجزمة .

ـ السن بقى يافايزة .. باين عليها بتودعنى !! .

لعب الشاى بالنعناع دورا مؤثرا بمساعدة برشامتين فى تسكين آلامها كما اوصى بهما الجرسون ممتدحا مفعولهما السريع وقد كان .. أربعون دقيقة فى الريست تزود خلالها الركاب بالزادو والزواد بينما أكتفت فايزة بالشاى وزجاجة مياه معدنية .. صعد الجميع الاتوبيس وهم أحسن حالا .

بعد مرور ساعة تلاشى النشاط وأختبأ داخل الابدان المتكاسلة التى لاتحرك ساكنا الا من بعض الرقاب المدلاة على الصدور التى تترنح مع تعاريج الطريق قبل أن تعاود فقرات العنق شدهاماتها والعيون الناعسة تستعيد فجأة نشاطها رويدا رويدا وبدأت الالسنة تمارس وظيفتها حين أقتحم الاتوبيس الطريق الوسطانى المؤدى لنويبع.. قاومت هدى مزاجها الموجوع حين طالعت منظر الجبال المهيب وقممه اللامعة التى ظلت تتابعها وتصعد اليها بعينى مرهقة وبأفكار مشتتة تجرفها الى حجم الكون وضخامته وعن قدرات صاحب تلك العجائب ومدى سيطرته على ملكه .. ماهذه القوة القاهرة الجبارة التى تتحكم فى كل هذا ولا تأخذه سنة ولانوم ولايفوته من أمر ملكه شيىء حتى لو كان ذلك المغص الذى يتلاعب فى بطنها .. سحبت نفسا ممتدا بطول أنبهارها ثم أخرجته حين أبتعدت عن أفكارها وأسئلتها ممزوجة ببعض الكلمات : سبحان اللـه العظيم .. كررتها عدة مرات بينما تخاذل المغص وتراجع عن موقفه العنيد أمام سطوة المشاهد الجبارة ، فى حين سجلت فايزة موقفا ناقما وهى تطارد صور الطبيعة عبر النافذة ينم عن أحساسها بمدى عمق اللحظة : يخربيت أم اللى معاه فلوس ومايمتعش نفسه بالجمال ده ..

مر الأتوبيس على كمين الجيش قبل الدخول إلى منطقة (عيون موسى) وسط دعوات متفرقة : ربنا يحميهم ويثبتهم فى مكانهم .

ـ آمين يارب .. قالتها هدى بعفوية .

مضى الوقت كما مضى الطريق الذى بدا وكأنه بلا نهاية .. شعور جارف يغمرك أن مدينة شرم الشيخ تقع فى أخر العالم . أحساس يصيبك لو كانت هى الزيارة الأولى .. ترجمت فايزة تلك المشاعر حسب مقاس عقلها : دى مصر كبيرة آوى يابت ياهدى .. ده الطريق مالوش نهايه ياختى .. كان أنطباعها نابعا من طول المسافات التى تفصل بين المناطق التى بها شبه حياة مثل رأس سدر ثم حمامات فرعون التى تحيطها منحنيات شديدة وقاسية وخطرة ثم منطقة أبو زنيمة ومنها الى مفرق سانت كاترين التى يليها مدينة الطور ثم آخيرا الجائزة الكبرى .. نهاية العالم (شرم الشيخ) .

عندما تهادى الأتوبيس إلى داخل الموقف متجها إلى مثواه الأخير حيث البقعة المخصصة لـ " سوبر جيت " .. جمل التهنئة على الشفاه حين جثم الأتوبيس فى مكانه : حمد اللـه ع السلامة .. نورتو شرم . نظرات شاردة وصمت مطبق ، هما كل ما أبدته هدى بينما فايزة تراقب الركاب الذين اصطفوا أمام باب الأتوبيس منتظرين دورهم فى الخروج .. لم تبرحا مكانهما إلا مع نزول أخر راكب .. كانت هدى قد وصل بها الالم إلى ذروته .. تتأوه وهى تتشبث بذراع فايزة .. نزلت من الأتوبيس بعذاب مضاف يغذيه لحم فايزة الذى يرتج ويحرك داخلها المغص حين تسندها لتهبط الدرجتين إلى الأسفلت .. بضع خطوات ولم تستطع هدى بعدها الحركة ، تسمرت مكانها وبجانبها الحقيبتين بينما فايزة كان حزنها طاغيا إلى حد أنها لم تكن تعرف ماذا تفعل حين مر بها رجل متوتر تحيط به أمرأتان : المدام تعبانة ولاحاجة ؟ .

ـ مش عارفة أيه اللى حصلها بقالها كام ساعة بتشتكى من مغص ومش قادرة تفرد طولها . لم يكن لديه أجابة محددة حين تفحص هدى بعينيه شأنه شأن المرأتان .. لم تصبر عليهم فايزة تحت ضغط أنين رفيقتها التى تقلصت عينيها المشحونة بالوجع تراقب المشهد : لو معاك عربية ياخويا ياريت توصلنا أقرب مستشفى ولاعيادة ولا أى حاجة تغيتنا .

ـ طب أستنونى لحظة أنا راكن العربية هنا . بدا شهما حين فر من أمامهما ناحية سيارة " B.M.W " تاركا المرأتان برفقة فايزة وهدى التى تقوست على نفسها ضاغطة بيدها على بطنها عندما انحنت

تدخل السيارة حين توقف بها الرجل أمامها .. ركبت فايزة فى المقعد الخلفى قبل ان تضع الحقيبتين فى شنطة السيارة بمجهود فردى بينما تجاوز الرجل سحنتها مشيرا للمرأتان : أستنونى هنا فى عيادة قريبة فى أول الطريق . أنصاعتا ورحل الرجل بالمريضة وفايزة التى لم ينقطع لسانها عن ترديد الدعاء له والثناء على شهامته .. تأملها للحظات عبر المرأة قبل ان تنفلت منه نظرة تحمل ريبة من هيئة فايزة : ياستى خلاص .. لاشكر على واجب الحكاية مش مستاهلة . لم تستغرق الرحلة سوى سبع دقائق .. أمام بيت من دورين توقف بالسيارة واشار لهما الى تلك اللافتة المعلقة على الشرفة فى الدور الاول " دكتور يونان عبد المسيح .. أخصائى أمراض باطنة " .

ـ أى خدمة تانية ياهوانم . قالها حين هبطتا من السيارة . فبادرت فايزة : معلش كمل جميلك وساعدنى بس أنزل الشنطتين . ساعدها بضيق ثم انطلق قبل ان ينصت الى طقطوقة المديح والشكر .

تركت فايزة الحقيبتين فى حماية رجل سبعينى يقطن الدور الارضى بعد أن أخبرها بوجود الطبيب فى عيادته التى لاتبعد سوى سبع درجات اضافية صعدتها هدى بصعوبة وهى تتحامل على نفسها قبل أن تسبقها فايزة الى داخل العيادة التى لاتحمل أى دليلا عن وجود علاقة من اى نوع بمهنة الطب .. بصوت جهورى نادت : مافيش حد هنا ولا أيه ؟ لحظات وخرج رجل قصير القامة يرتدى قميص ابيض وملامح مهدمة ، يبدو مصابا بمرض السكر .. تفحصها عاقدا حاجبيه قبل أن تنفرج أساريره حين دخلت هدى بأوجاعها : أى خدمه يا مدام ؟ .

ـ حضرتك الدكتور يونان ؟ .

ـ أشارت فايزى بيدها إلى هدى دون أن تنطق .. تحرك إليها : أتفضلو جوه فى أوضة الكشف .

سحبتها فايزة ودخلت بها قبل أن توجهها ناحية " البرفان " الذى يختفى خلفه سرير جلدى .أغمضت عينيها متألمة حين صعدت عليه .. تمددت وهى تمسك بيد فايزة . شعرت بخوف شديد قبل أن يتضاعف حين دخل الطبيب .. تأمل الوجه المتألم قبل أن يسأل : خير يامدام ؟ أنابت فايزة : بقالها كام ساعة بتتلوى من المغص ورجعت مرتين .. مش بيده فوق بطنها العارية بعد ان اصدره اوامره لفايزة برفع البلوزة لأعلى .. ضغط بأصبعيه تحت الـ " صرة " وعلى الجانبين : فى وجع هنا .

ـ لأ .. سحب قفازا كان موجودا بجانب السرير .. حشر يده داخله .. سكتت فايزة فى تلك اللحظة عن سرد الاعراض التى ظهرت على صديقتها حين اصدر الطبيب فرمان أخر : نزلى الاندر لو سمحتى .

أكتفت فايزة بالتنفيذ .. سحبته من تحت الغطاء التى دثرت به هدى .. يبدو أن الطبيب يعمل منفردا بدون ممرضة .

عبث بأصبعيه داخلها ، لم يتوقف الا حين صرخت : آه .. سحبهما .. يتابع ملامحها التى تألمت : ألبسى هدومك . قالها بهدوء بينما تابعته فايزة : خير يادكتور ؟ .

ـ كل خير ان شاء اللـه . جلس على مكتبه وسط حصار من نظرات فايزة التى تنتظر فهما . رفع رأسه تزامنا مع وصول هدى الى الكرسى المواجه لمكتبه .

ـ أنتى عندك كام سنة . زاد شحوب بشرتها وهى تستطلع تقاطيع وجهه المنقبضة .. تبعثر صوتها : يعنى عديت الخمسة وأربعين . هز رأسه ثم سأل : أنتى جاية منين بالظبط ؟ .

ـ من أسكندرية .

ـ ياه .. مسافة طويلة جدا . أرتعدت من شكل الأسئلة ومن نبرة تعليقه : فى حاجة عندى يادكتور ؟ .

ـ لأ أبدا أنتى زى الفل .. بس المشكلة دايما أن الحمل فى السن الكبير بيبقى محتاج راحة وحرص زيادة عن اللزوم . توقفت الدماء عن الجريان فى الجسد المذهول الذى غاب عن الوعى كما توقفت عينى فايزة فى وجه الطبيب : أيه اللى بتقوله ده يادكتور ؟ بأعصاب باردة : اللى سمعتيه .. الست حامل .. أيه الغريب فى كده ؟! . أغمضت هدى عينيها ببطء وكأنها تحت تأثير مخدر .. طعنها الطبيب بكلماته ، فسقط فيها ماسقط .. جنحت برأسها ناحية كتفها وكأنما تهوى .. تحولت إلى كائن محنط .. لكنه يتنفس ! نظرت لها فايزة تبحث عن وجهها تحت ملامحها المصدومة .. رمشت هدى قبل أن تغلق جفنيها اللتان مرا من بينهما طابور فى أوله يوسف ونورا وبسمة وأيات ومن خلفهم بمسافة يتهادى خيرى بخطوات خجولة .. أطبقت عينيها على الطابور ، فأعتصرته دموعا وندما .. فتحت عينيها على أصابع الطبيب التى تلدغها فى خدها : أنتى رحتى لغاية فين يامدام .. الفرحة حتخليكى تتوهى ولا أيه ؟

ـ الفرحة .. ونبى أنت دكتور طيب . قالتها فايزة وهى تتابعه وهو يكتب الروشتة وسط صمت تام وكأنه يكتب شهادة وفاة .. ثم مدها لهدى التى لم تكن موجودة سوى بجسدها .. تسلمتها فايزة نيابة عنها وهى تهز رأسها بالايجاب حين تلقت منه مجموعة من التحذيرات التى يجب على المرأة الحامل أتباعها.

قامت فايزة بعد أن تركت بين يدى الطبيب ورقة بمائة جنيه ثم تبعتها هدى وقوفا بعد أن لكزتها .. جرت قدميها إلى خارج حجرة الكشف وهى تتحسس بطنها قبل أن تنزلق بعينيها تتأمل مكان الكارثة .. نظرة غريبة ذاهلة ، بل نظرة حادة تأنيبية .. تعاملت مع ذلك الجزء من جسدها على أنه وغد خائن .. لم يحفظ سرها ؟ .. تآمر عليها ولم يرحم ضعفها وأحتفظ لها بدليل أدانتها والذى سيعلن عن نفسه خلال عدة أسابيع .. ما العمل ؟ سؤال كالسيف .. أجابته متعددة ومعقدة ، إلا أنه فى كل الأحوال سيقلب حياتها رأسا على عقب .. الأن عليها الأختيار .. الأن عليها تحديد فى أى أتجاه ستسير ؟ .

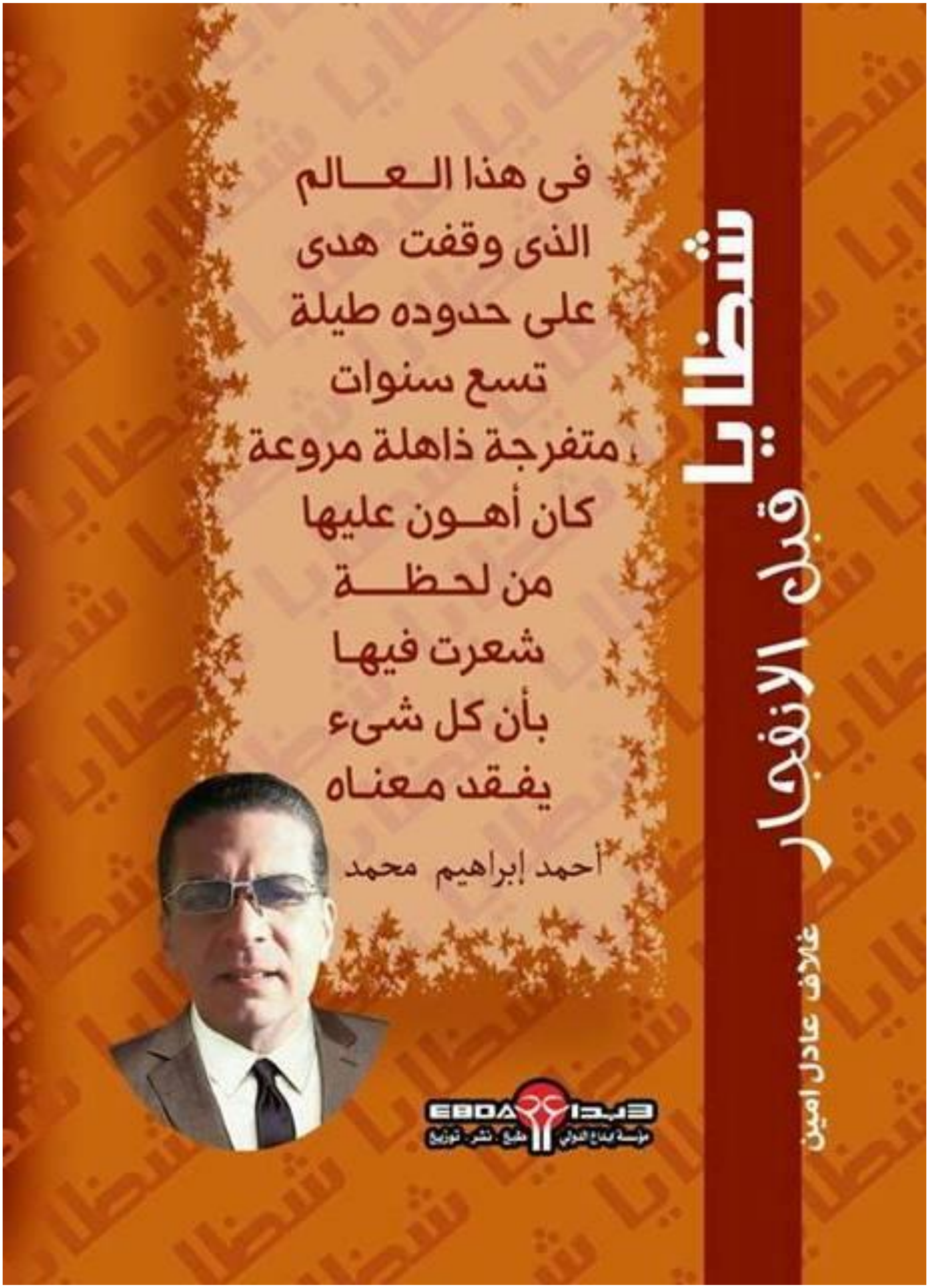
لم تشعر هدى بنفسها إلا وهى خارج المبنى وعينى فايزة تدور فى وجهها والتى تحاول لجم سؤال يتصاعد فى عقلها : حتعملى أيه ياهدى ؟ .

ـ مش عارفة ؟! قالتها بلا وعى .

إلـــى اللقاء فى الجزء الثانى

احمد ابراهيم

××××××××


شظايا
قبل الانفجار
في هذا العـــالم
الذى وقفت هدى
على حدوده طيلة
تسع سنوات
متفرجة ذاهلة مروعة
كان أهــون عليها
من لحـظـــة
شعرت فيهـا
بأن كل شىء
يفـقد مـعنـاه
أحمد إبراهيم محمد
غلاف عادل امين
EBDA إبداع
مؤسسة إبداع الدولي مطابع . نشر . توزيع